مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السّادِسُ والعِشرونَ

سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السّادِسُ والعِشرونَ

سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71

نُخبةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الرَّابِعَ عشَرَ

سُورَةُ النَّحْلِ

سُورَةُ النَّحْلِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

سورة النّحل كلّها مكيّة على الأصحّ

سورة النّحل مِنَ السّور المكيّة عند جمهور العلماء، مع وجود بعض الأبحاث حول بعض الآيات حيال كون بعضها مدنيّة[1].

وعدد آياتها: مئة وثمان وعشرون آيةً باتّفاق العادّين[2].

وترتيبها في المصحف: السّورة السّادسةَ عشرةَ، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاءت بين سورتَي الحِجر والإسراء.

وأمّا ترتيبُها النّزوليّ: فقد ذكر بعضُهم أنّها السّورةُ الثّامنةُ والسّتّون، بين سورتَي الكهف ونوح[3]، وذكر آخرون أنّها السّبعون في ترتيب النّزول[4]، وذكر ابنُ عاشور أنّها الثانيةُ والسّبعون في ترتيب النّزول، بين سورتَي الأنبياء والسّجدة[5]، والحقّ أنّ التّرتيب النّزوليّ ليس قطعيًّا في ثبوته؛ لافتقاده إلى صحّة الرّوايات، وممّا يؤكّد ذلك اختلافُهم فيه، ولكن مع هذا كلّه فهم على الأقلّ متّفقون على أنّها مِن أواخر السّور نزولًا، قبلَ الهجرة إلى المدينة المنوّرة.

الميقاتُ الزّمنيّ لنزول السّورة:

ظروفُ نزول السّورة حافلةٌ بالأحداث والتّحديّات للمسلمين في مكّة

المرحلة الزّمنيّة التي نزلت فيها هذه السّورة، هي مرحلةٌ حافلةٌ بأحداث جِسام عاشها المسلمون الأوائلُ في مكّة المكرّمة، حيث نزلت بعد مُدّة طويلةٍ من حياة المسلمين بها، وبعدَ كَبَدٍ ومعاناة

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 115، ويُنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 614.
(2) الدّانيّ، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 175.
(3) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 43.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 115.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 94.

واضطهاد، فنزلت عَقِبَ حادثةِ الإسراء والمعراج، وبعد أن تقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ مِنَ التّكذيب والتّشكيك، فجاءت السّورةُ تحمل في طيّاتها ما تثبّت به فؤادَ النّبي ﷺ، ولتعالجَ مواقفَ المشركين من قضايا العقيدةِ الرئيسة كالتّوحيد والبعث، وعرضت بعضَ جوانبِ رحلةِ الأنبياء مع أقوامهم، وخُتِمتِ السّورةُ بالتّسرية عنِ النّبيّ ﷺ، وبتوصيته بالثّبات على دعوته.

فنزلتِ السّورةُ في جوٍّ مشحونٍ يمثّل ذِروةَ الصّراعِ بينَ الحَقّ والباطلِ، في مرحلةٍ ساخنة مِن مراحل الدّعوة في مكّة.

أسماء السّورة، وسبب تسميتها:

سمّيت (سورة النّحل) في الأثر، وبه جاء المصحف، وورد ذلك في الخبر

ليس لهذه السّورة إلّا اسمٌ واحدٌ هو (النّحل)، سُمّيت به في جميع المصاحف وكُتب التّفسير والسُّنّة، وهو اسمُها الثّابتُ رِوايةً وشُهرةً[1]، وقد ذَكَر بعضُ المفسّرين تسميتَها بسورة النِّعَم، قال ابن عطيّة: "هذه السّورة كانت تُسَمّى سورةَ النّعم بسبب ما عَدّد اللّهُ فيها مِن نعمه على عباده"[2]، وتُسَمّى عند بعضهم بسورة الامتنان[3]، والأظهر أنّ مثل هذا يُعَدّ وصفًا للسّورة، وليس اسمًا لها؛ لأنّ أسماء السّورِ مبنيةٌ على التّوقيف.

وجَعْلُ سبب تسميتِها هو ورودُ لفظِ (النّحل) فيها، إنّما هو من باب التّسمية بالاسم الأغرب أو الأبرز الوارد فيها، كما كان العربُ يُسَمّون قصائدَهم الطّويلة وخُطَبَهم بمعايير، منها هذا المذكور[4]، ولَفْظُ النَّحْلِ لَم يُذْكَرْ في سورَةٍ أُخْرَى[5].

والحقّ أنّه لا بدّ مِنَ البحث عن رابطٍ أقوى بينَ اسم السّورة وبين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 93.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 377.
(3) الشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 186.
(4) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 197.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 93.

موضوعها؛ من ذلك ما أورده البقاعيّ بقوله: "فمقصودُ السّورةِ الدّلالةُ على أنّه تعالى تامُّ القدرةِ والعِلْم، فاعلٌ بالاختيار، مُنَزّهٌ عن شوائب النّقص، وأدَلُّ ما فيها على هذا المعنى أمرُ النّحل، لِما ذُكِرَ مِن شأنها مِن دِقّة الفَهْم في ترتيب بيوتها ورعيها وسائرِ أمرها؛ مِن اختلاف ألوانِ ما يخرج منها مِن أعسالها وجَعْلِه شفاءً، مع أكلها مِنَ الثّمار النّافعة والضّارّة، وغيرِ ذلك مِنَ الأمور، ووسمِها بالنِّعَم واضحٌ في ذلك"[1].

وهذا مَلْحظٌ دقيق مِن هذا العالم الفَذّ، نبَّهَ فيه على أمرٍ قد أبهر العالمَ الحديثَ، مِن دقّة نظامِ عالَم النّحل ومملكَتِه؛ لذا كانتِ التّسميّة للسّورة بهذا الاسم ليست نابعةً مِن انفراد السّورة بلفظةِ النّحل، بقدر ما هو انفرادُ عالَم النّحلِ بهذه الدِّقّة والفَهم، والتّعاونِ والاتّساق، إضافة لما يُنتِجه النّحل من غذاء وشفاء للبدن، من خلال رحلة طبيعيّة طويلة وشاقّة، ليكون عسلُه رمزًا لإنعام وإكرام الخالق لبني الإنسان، وبشرح محور السورة فيما يأتي يتّضح الرّبط بين التسمية وبين موضوع السورة.

المُحور العامّ للسّورة:

بيـانُ منهجيّة القـرآنِ في التّعامُل مع النّعم الكَونيّة، ودوامُ النِّعَم باستقامة أحوالِ المُنعَم عليه

المُحور العامّ الّذي قامت عليه السّورة - فيما يبدو - هو في بيانُ منهجيّة القرآنِ في التّعامُل مع النّعم الكَونيّة، والرّبط بين ديمومة هذه النّعم واستقامة أحوال النّاس، ثمّ بيانُ تباينِ مواقفِ النّاس إزاء هذه النِّعَم، بينَ جاحد كافر، ومُقرٍّ شاكر، ثمّ بيان أثر العلم والمعرفة وإعمال العقل في تحقيق سعادة البشريّة؛ فإنّ عالم النّحل يُعدّ الأُنموذَجَ الأمثلَ المطلوبَ في مثل هذا التّفاعل الدّقيق، والتّناسق العميق بينَ العالَمَيْن: العُلويّ والسُّفليّ، المادّيّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 101.

والمعنويّ، مِن أجل تحقيق التّوازن، واستثمارِ الطّاقة بينَ متطلّبات هذَيْن العالَمَيْن، فمَملَكَةُ النّحلِ مِنَ العوالم المُسَبّحة، الّتي انطبق عليها قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾ [النحل: 49 - 50]؛ فإنّها قد أفادت مِن هذا التّلوّن والتّسخير الكونيّ الّذي أوجده تعالى؛ ليُعِينَ على تحقيق المتاع والاستقرار في الأرض، أفادت منه في تحقيق الإنتاج المثمر لها وللإنسانيّة مِن خلال تحويل المُدخلات المختلفة التي تَرِد عليها إلى شَرابٍ شافٍ مختلفٍ ألوانُه، فكانت أُنموذجًا يُحتذَى به في الإفادة مِن سُنن النّظام الكونيّ في تحقيق إنتاجٍ يُحَقّق الشّفاءَ للإنسانيّة جمعاء، وأُنموذَجًا للعمل بَكَدٍّ واتّساق، دون اختلافٍ وانقسامٍ بينَها، مِن أجل تحقيق الغاية المرجوّةِ منها، دونَ تقاعسٍ أو خُذلان، وكلّ ذلك مبنيٌّ على عِلْمٍ دقيقٍ قد غُرِزَ في فطرتها، ممّا يُفَسّر لنا إكثارَ السّورةِ الكريمةِ مِنَ الحديث عنِ العلم والعمل معًا كما سيأتي، بخلاف حالِ الكافرين الّذين لم ينتفعوا مِن مُسَخّرات الكونِ، وآلاء اللّه فيه، في تحقيق سعادتهمُ الدّنيويّة والأُخرويّة، فلم يجعلوا تَلَوّنَ الكونِ وتنوّعَه دليلًا على وحْدَة الخالق، بل جعلوه دليلًا على تَعَدّد الشّركاءِ لفَرْط جهلِهم، وعدمِ انتفاعِهم بالعقول الّتي أودعها اللّه فيهم للمعرفة، ولم ينتفعوا بكلّ وسائل المعرفة ومصادرها الّتي جعلها لهم: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: 78]، فقال تعالى عن النّحل: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾ [النحل: 68 - 69].

فالنّحل قد امتثلت للوحي الفطريّ الّذي أودعَ اللّه فيها، ونفّذتْ أوامرَه، وعَمّرَتْ عالَمَها ومملكَتَها على أفضل ما يمكن أن ينتجَهُ عقلٌ فاعلٌ، وعِلْمٌ يُنْتَفَعُ به، فاستَحَقّت أن تُسمّى السّورةُ باسمها لِما تُمَثّله مِن رمزيّة مُرادة.

ووضّحت سورة النّحل بصورة تطبيقة المنهجية المثلى لشرح قواعد الإنعام الربّاني في التّعامل مع النّعم من خلال مقوّماتها الثّلاثة: المُنعِم، والمُنعَم عليه، والنّعم ذاتها؛

تعرض السّورة منهجيّة القرآن الكريم في التّعامل مع النّعم من خلال مقوّماتها الثّلاثة

بُغية تحقيق التّوازن بين متطلّبات الدّنيا والآخرة بما يحقّق السّعادة في الدّاريْن.

فأمّا من حيث المُنعِم فقد قرّرت السّورة بكلّ جلاء ووضوح أنّه واحدٌ أحد، فردٌ صمد، لم يلد ولم يولد[1]، فأسندت أفعال الخلق والجعل والتّسخير إليه مرارًا[2].

ثمّ بيّن المُنعم ﷻ مُراده من هذا الإنعام ومقصده فيه بقوله بعد تعداد هذه النّعم: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾ [النّحل: 14]، ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥﴾ [النّحل: 15]، ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النّحل: 44]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل: 81]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النّحل: 90]، وصرّح بذلك في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل: 114].

وبيّن ﷻ جوامع ما يأمر به العباد إزاء هذه النّعم المسخّرة لهم بقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النّحل: 90]؛ لذا فإنّ أسلوبَي الأمر والنّهي قد كثرا في هذه السّورة، حيث ازدحمت آياتها بالأوامر والنّواهي والتّوصيات والتّوجيهات لكلّ الأطراف من مؤمنين وكافرين، حتّى إنّ آياتها الأخيرة كانت مجملةً لهذه التّوصيات وجامعةً لها[3].

وبيّن ﷻ أنّ على المُنعَم عليهم أن يتفكّروا ويتدبّروا في هذه النّعم والآيات التي حولهم حتّى توصلهم إلى وحدانيّة خالقهم وتفرّده في الإنعام؛ لذلك أكثرت السّورة الكريمة من ذكر العمليّات العقليّة المختلفة مع هذه الآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ

(1) كما في الآيات، ص: 22، -51 54، 73.
(2) كما في الآيات: -10 12، -52 54، 72، 78.
(3) وذلك في الآيات: -125 128.

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ [النحل: 11، 69]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النّحل: 12]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: 13]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النحل: 65]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79].

وأمّا من حيث المُنعَم عليهم فقد بيّنت السّورة الكريمة تباين مواقفهم إزاء هذا الإنعام بين شاكر وكافر: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النّحل: 36]، وبيَّنت أيضًا بعض أسباب الكفر والجحود، قال تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [النّحل: 63]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ [النّحل: 107]، وبيّنت السّورة الكريمة بعض شبهات الشّاكّين الجاحدين فيه، من مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النّحل: 35] [1]، وصرّح بجحودهم نعم الله عليهم بقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النّحل: 83]، وضربت السّورة الكريمة الأمثال فيهم وفي جحودهم[2].

وأكثرت السّورة من وعد الشّاكرين ووعيد الجاحدين، وبيّنت في مواضع كثيرة جزاء كلّ من الفريقين[3].

وفي مقابل ذلك الجحود بالنّعم ضرب الله الأمثال بالشّاكرين من خلال أُمّتَيْن مختلفَتيْن: من خلال إبراهيم عليه السلام الّذي وُصف بأنّه أمّة، فقال عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النّحل: 120 - 122]، وضرب لنا المثل الآخر بأمّة النّحل الّتي سُمّيت السّورة باسمها؛ لأنّها الأنموذج الأمثل في الإفادة من النّعم جمعًا وإفادة وشفاء للنّاس.

وأمّا من حيث المقوّم الثّالث وهو النّعم فقد بيّنت السّورة الكريمة كثرة هذه النّعم، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: 18]، وبيّنت

(1) وأيضًا في الآيات، ص: 92، 112.

(2) كما في الآيات، ص: 22، 51- 54، 73، 75- 76.

(3) كما في الآيات: 28- 32.

أصول هذه النّعم وفروعها، فقد جعلها الأستاذ عبد الحميد طهماز في ثلاث مجموعات من النّعم، فقال: "المجموعة الأولى من النّعم: نعمه سبحانه في خلق الإنسان وإيجاده وتنظيم بيئة حياته وجعلها صالحة لمعاشه، وذكر سبحانه في المجموعة الثانية بعض النّعم الضروريّة لاستمرار الإنسان، وفي الوقت نفسه تمتاز هذه النّعم بكونها أدلّة على كمال علمه سبحانه وتمام مشيئته وعظيم قدرته، وذكر في المجموعة الثالثة النّعم التي يحتاجها الإنسان في حمايته ووقايته"[1].

وأخيرًا بيّنت السّورة الكريمة بعض سنن اللّه تعالى في هذه النّعم، مثل سنّتَي الابتلاء والاختلاف بين الخلق[2]، وبيّن ﷻ أنّ من سنّته تحقيق التّفاضل بين النّاس في الأرزاق والنّعم[3]، وبيّن أنّ من سنّته استئصال الجاحدين بالنّعم وعقوبتهم[4]، وبيّن أنّ من سنّته أيضًا ألّا يُعجّل بالعذاب، وأن يُمهل النّاس[5].

الموضوعات الرّئيسةُ للسّورة:

مَدارُ السّورةِ حولَ تقريرِ أصولِ العقيدة، بلفتِ النّظرِ إلى آلاءِ الله في الكون

أوّلًا: عنايتُها الفائقةُ بإقامة الأدلّة على وحدانيّة اللّه تعالى، وعلى صدق رسولِه محمّد ﷺ في دعوته، وعلى أنّ يوم القيامة حَقّ، وعلى أنّ القرآن مِن عند اللّه ﷻ.

ثانيًا: تفصيلها القولَ في بيان آلاءِ اللّه تعالى على خَلْقه، وقد سَبَحت السّورة في هذا الجانب سَبْحًا عظيمًا، فذَكّرتِ الإنسانَ بنعمة خَلْقِه، وبنعمة تسخيرِ الأنعام، والشّمس، والقمر، والنّجوم، والماء، والجبال، والأشجار...، كلّ ذلك وغيره؛ لمنفعته ومصلحته.

(1) طهماز، التّوحيد والشّكر في سورة النحل، ص: 25.
(2) وذلك في الآيات: 92-93.
(3) وذلك في الآية، ص: 71.
(4) وذلك في الآيات: 45-47.
(5) وذلك في الآية، ص: 61.

ثالثًا: اهتمامُها بضَرْب الأمثالِ للمُؤمن والكافر، والشّاكر والجاحد، والإلَه الحَقّ والآلِهَة الباطلة، وذلك لأنّ في ضَرْب الأمثالِ تقريبًا للبعيد، وتوضيحًا للخَفيّ، بأُسلوب مِن شأنه أن يكون أوقعَ في القلوب، وأثبتَ في النّفوس، وأدْعَى إلى التَّدبّر والتَّفكّر.

رابعًا: حرصُها على إيراد أقوالِ المشركين وشُبَهِهم، ثُمّ الرَّدِّ عليها بطريقة تقنع العقولَ، وتُرضي العواطفَ؛ بأنّ الإسلام هو الدّين الحَقّ، وبذلك يزداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم.

خامسًا: عنايتُها بتوجيه المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وأُمّهات الفضائل؛ كالعَدْل، والإحسانِ، وإيتاءِ ذي القُرْبى، والوفاءِ، والصَّبر، والشُّكر... وبنَهيهم عنِ الرَّذائل؛ كالغَدْر، والجُحودِ، ونقضِ العُهودِ، والاستكبارِ، والظُّلْم.

وأخيرًا: فإنَّ المُتأمّل في هذه السّورة أيضًا يراها حافلةً بأسلوب التّرغيب والتّرهيبِ، والتّبشيرِ والإنذار، والوَعْدِ والوعيد[1].

الخصائص الموضوعيّة:

تفرَّدتِ السّورةُ بذكر النّحل فيها، والحديث عنه كأُمّة مستجيبة ممتثلة لأمر اللّه تعالى، وهذا اللّفظ لم يتكرّر ذِكْرُه في سورة أخرى، إضافةً إلى أنّ الأصل الاشتقاقيّ لمفردة النّحل يقوم على معنى الإعطاء دونَ مقابل، وهو أخصُّ من الهِبَة؛ إذ كلُّ هِبَةٍ نِحْلَةٌ، وليس كلُّ نِحْلَةٍ هِبَةً، واشتقاقه من النَّحْل نظرًا منه إلى فعله، فكأنَّ قولَك: نَحَلْتُهُ، أي: أعطيتُه عطيّةَ النَّحْلِ، فالنّحل يقع على الأشياء كلّها فلا يَضرُّها بوجه، وينفعُ أعظمَ نفعٍ، فإنّه يعطي ما فيه الشِّفاء كما وصفه اللّه تعالى، وسُمّيَ الصَّداقُ بها مِن حيثُ إنّه لا يجب في مقابلته أكثرُ من تمتُّع دون عِوضٍ ماليٍّ[2]؛ ومن هنا كان الاسم موافقًا لمضمون السّورة.

وتميّزت سورة النّحل بذِكرها مجموعاتٍ تفصيليّة منوّعة مِنَ النِّعم، من ذلك: نِعْمَةُ خَلْقِ الإنسانِ وإيجادِه، وتنظيم بيئةِ حياته وجعلِها صالحةً لمعاشه، من دوابّ وزروع وشمس وقمر ونجوم، ونِعَمٌ ضروريةٌ لاستمرار الإنسان، مِنَ الماء، والأنعام، والأرزاق، والأزواج، والبنين، والحفدة، ونِعَمٌ يحتاجها الإنسانُ في حمايته ووقايته، مِن ظِلالٍ، وجبالٍ، وثيابٍ،

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 97.

(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (نحل).

فكانت تلكَ النّعمُ دالَّة على التّوحيد؛ لتَصُبّ في خِدمة المِحْوَر الرّئيس، بضرورة شُكرها توحيدًا والتزامًا.

وتميّزت سورة النّحل بذكرها لموضوع الرّزق في عشرة مواضعَ متنوّعة[1]، وما تلك الكثرة والتّنوّع إلّا للدّلالة على توحيد الرّازق وطاعته والتزام أمره؛ ليتحقّق الشّكرُ لتلك النّعم المبثوثة في الكون.

وتميزت سورة النّحل في علاجها وتقريرها لموضوع التّوحيد من خلال النِّعم، فقد ذُكِرَتْ لفظةُ النّعمةِ ومشتقاتُها صراحةً في تسعة مواضع[2]، فتارةً تُذْكَر السّورةُ بعض أنواع هذه النّعم، وتارة تذكرها من خلال الأمر باتّباع أمر اللّه في النّعم من تحليل وتحريم، وتارة من خلال التّذكير بالأمم السّابقة التي لم تشكر النّعمة كأصحاب السّبت، وتارة بذكر الجزاء لتثبيت من شكر، وتهديد من كفر، وغيرها من طرق شكر النعمة في تقرير التوحيد.

وتميّزت سورة النحل في تركيزها على العِلْم مِن خلال ذِكْر لفظةِ العِلْم في خمسة وعشرين موضعًا[3]، فضلًا عن ذِكْر العمليات العقليّة الأُخرى كالتّفكّر والتّذكّر والتّعقُّل والمعرفة[4]، وفي ذلك دلالةٌ على فائدة العِلْم في تحقيق شُكر اللّه بتوحيده والتزام أوامره، وفي بيان جهل الإنسان بتلك النّعم وحقيقتها في الدّلالة على توحيد اللّه، وذُيِّلَت كثيرٌ من آياتها بالحديث عنِ العمل والفعل والصّنع[5]؛ ممّا يؤكّد أنّ السّورة تريد الرّبط بينَ العِلْم السّليم، معَ العمل المُفيد.

الخصائص الأُسلوبيَّة:

هناك العديد مِنَ الأساليب والقضايا اللّغويّة التي مَيّزت هذه السّورةَ عن غيرها مِنَ السّور، وإن شاركتها بعضُ السّور في شيء من هذه الأساليب، منها:

تميّزت سورة النّحل بذِكْر لفظِ الجلالة (84) مرّة، في مقابل ذِكْر الرّبوبيّة (20)

---

(1) الآيات، ص: 56، 67، 71، 72، 73، 75، 112، 114.

(2) الآيات، ص: 18، 30، 53، 71، 72، 81، 83، 112، 114.

(3) الآيات: 8، 19، 23، 25، 27، 28، 38، 39، 41، 43، 55، 56، 70، 74، 75، 78، 91، 95، 101، 103، 125.

(4) الآيات، ص: 11، 12، 13، 17، 44، 65، 67، 69، 83، 90.

(5) الآيات، ص: 28، 32، 91، 93، 96، 97، 112.

مرّة، وهذا للدّلالة على شُكره تعالى على نِعَمه، بتوحيد ذاته وطاعته والتزام أوامره؛ لأنّ المعضلة التي يعيشها المشركون هي في جَعْل شريكٍ مع الله، فهم يعلمون رُبوبيَّته تعالى ونِعَمَه وخَلْقَه، لكنّهم يُشركون معه، فجاء لفظُ الجَلالة مُكَرّرًا لتأكيد وحدانيَّةِ الفعل والخَلْق والقُدْرة، ومِن ثمّ وحدانيّةِ العبادة.

وتميّزت سورة النّحل في ذِكْرها النِّعَم على سبيل الجمع غالبًا، فكانتِ الجموعُ متواترةً منذ البداية: (الأنعام، الجُلود، البِغال، الأبصار، الأفئدة، الأوبار، الأصواف، الأشعار، ...)؛ وهذا للتّأكيد على كثرتها، وعدمِ قُدْرةِ إحصائها، وبيانِ فضلِه تعالى على النّاس؛ لِتَصُبّ في خدمة المِحور الرّئيس مِن شُكر تلك النِّعَم بكثرتها توحيدًا وطاعةً لله.

وتميّزت سورة النحل بكثرة أسلوبِ الاستفهامِ فيها، وتنوّعِه بين (الهمزة، وماذا، وكيف، وهل، وأين)، حتّى بلغت أربعةَ عشرَ موضعًا[1]، وكان مِن أغراضها: الإنكارُ والتّوبيخ والتّعجب والتّهديد والتّحذير والتّشويق والتّسوية، وغيرُها مِنَ الأغراض البلاغيّةِ، وكان أكثرُها استعمالًا أداةَ الهمزة، وأكثرُها غرضًا أسلوبَ الإنكار، وفي ذلك دلالةٌ على استجاشة العقلِ والقلبِ؛ لتقرير توحيدِه بشُكر نِعَمِه الدّالّة عليه، وطاعتِه والتزامِ أوامرِه.

وتميّزت سورة النّحل بتتابع أسلوبِ التّأكيد بـ (إنّ، واللّام المُزَحْلَقة) في سبعة مواضع، وهي: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ﴾[2]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ﴾[3]، وفي ذلك دلالةٌ على التّأكيد والتّحقيق، فأنزل المُخاطَب منزلةَ المُنكِر؛ لعدم جَريه على مقتضى إقراره، كلُّ ذلك لتأكيد ضرورةِ شُكْر النِّعم، ودلالتِها الواضحةِ على التّوحيد.

وتميّزتِ السّورة الكريمة بأسلوب ضَربِ الأمثال، حيثُ ذَكَرت مَثَلين للتّوحيد، يتخلّلُهما استشعارُ النّعم وضرورةُ شُكرِها بتنزيه الله، وذلك مِن خلال مضمون المَثَل: (مملوكٌ ومالكٌ مَرزوق، أبكمُ لا يَقْدِر على شيء، ومتكلّمٌ أوتيَ حِكْمةً بالنّطق والكلام)[4]، فالمِثالان جاءا لِيُبَيِّنا وجودَ النّعمةِ وفقدِها؛ للتّدليل على وحدانيَّتِه سبحانَه، ثمّ جاء المَثَلُ

(1) الآيات، ص: 17، 24، 27، 30، 36، 45، 48، 52، 59، 71، 72، 75، 76، 79.

(2) الآيات، ص: 11، 13، 65، 67، 69.

(3) الآيات، ص: 12، 79.

(4) الآيتان: 75 - 76.

الثّالثُ[1] ليُبَيّنَ صراحةَ مصيرِ مَن كفر بنِعَم اللّه؛ تلك الأمثالُ جاءت لتَصُبّ مباشرةً في مِحْور السّورة.

وتميّزت سورة النّحل في عرضها لنِعَم اللّه وتعدادِها بذِكْر الرّأفَة والرَّحمة والمغفرةِ في ستة مواضع، فتارةً تَذْكُر: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وتارةً: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، وفي ذلك دلالةٌ على نِعَمِه المَصبوغة بتلك الأوصاف في دعوتها لتوحيد اللّه والتزامِ أوامرِه.

وتميّزت سورة النحل بقِلّة ذِكْرها لأسلوب القَصَص، فهي لم تذكر شيئًا مِنَ القصص إلّا على سبيل العموم: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ [النحل: 43]، أو على سبيل التّذكير ببعض الشّخصيات، كإبراهيم عليه السلام، وأصحابَ السَّبت؛ وذلك لِتُعَلِّق الاسمين بموضوع السّورة ومحورِها.

وتميّزت سورة النّحل بذِكْر ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾، ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ في سياق ذِكْر النِّعَم في ستّة مواضع[4]، وذلك لِتَرجّي حصولِ ما ينفعُهم ويهديهم إلى توحيد اللّه تعالى بتلك النِّعَم المَذكورة.

وأخيرًا حظيتِ السّورة الكريمة بألفاظ تفرّدت بها عن غيرها مِنَ السّور، وهذه الألفاظ هي: ﴿دِفْءٌ﴾ [5]، و﴿وَٱلْبِغَالَ﴾ [8]، و﴿فَرْثٍ﴾ [66]، و﴿وَحَفَدَةً﴾ [72]، و﴿جَوِّ﴾ [79]، و﴿ظَعْنِكُمْ﴾ [80]، و﴿إِقَامَتِكُمْ﴾ [80]، و﴿أَصْوَافِهَا﴾ [80]، و﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ [80]، و﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ [80]، و﴿تَوْكِيدِهَا﴾ [91]، و﴿غَزْلَهَا﴾ [92].

وإنّ الجامع لهذه الألفاظ العشرة أنّها ذاتُ اتّصالٍ مباشِر بمِحور السّورة، فقد جاءت في معرض الحديث عنِ النِّعَم الدُّنيويّة ذاتِ الحاجات المُستمرّة في كلّ زمان ومكان، فهي ما زالت ذاتَ ارتباطٍ وثيقٍ بحياة الإنسان، واستمراره ووقايتِه، وهذا بيّنٌ ظاهرٌ في الألفاظ الثّمانية الأولى، أمّا اللفظان الأخيران فجاءا في معرِض التّحذير مِن سوء استخدام تلك النِّعَم، ووجوبِ شُكرها بالتّوحيد والطّاعة للّه حتّى لا تفنى ولا تزول؛ لتلتحِمَ الألفاظُ في بوتقة واحدة، وتصبَّ في المِحْور الرّئيس للسّورة.

(1) الآية، ص: 112.
(2) الآيتان: 7، 47.
(3) الآيات، ص: 18، 110، 115، 119.
(4) الآيات: 8، 14، 15، 44، 78، 90.

❁ بيانُ المناسبةِ بينَ السّورة وسابقتها:

السّورة متّصلة تمامًا بسورة الحِجر مضمونًا وأسلوبًا

جاءت هذه السّورة في التّرتيب المُصحفيّ بعد سورة الحِجر، وقد تلمّس وجهَ اتّصالهما الإمامُ البقاعيّ بقوله: "لـمّا ختم الحِجرَ بالإشارة إلى إتيان اليقين، بقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99]، وهو صالح لموتِ الكلّ، ولكشفِ الغِطاءِ بإتيان ما يوعَدون ممّا يستعجلونَ بهِ، استهزاءً مِنَ العذاب في الآخرة بعدَ ما يَلۡقَون في الدّنيا؛ ابتدأ هذه بمثل ذلك سواءً، بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، غير أنّه ختم تلك باسم الرّبّ المُفۡهِمِ للإحسان؛ لُطۡفًا بالمخاطَب، وافتتح هذه باسمه الأعظمِ الجامع لجميع معاني الأسماء؛ لأنّ ذلك أليقُ بمقام التّهديد، ولما ستعرِفُهُ مِنَ المعاني المُتنوّعة في أثناء السّورة، وسيُكَرّر هذا الاسمُ فيها تكريرًا تعۡلَمُ منه صِحّة هذه الدّعوى"[1].

أمّا وجه ارتباطها بما قبلها عند المَراغيّ: فهو أنّه لـمّا قال في السّورة السّالفة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: 92]؛ كان ذلك تنبيهًا إلى حشرهم يومَ القيامة، وسؤالِهم عمّا فعلوه في الدّنيا، فقيل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، وأيضًا فإنّ قوله في آخرها: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99] شديدُ الالتئام بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾[2].

والحَقّ أنّ السّورتَيۡن مَكّيّتان، تناولتا الحديثَ عنِ القرآن وهَدۡيه.

وتشتركُ السّورتان في الحديث عن مواقف المشركين عبرَ التّاريخ، من فِكرة الوحي وتكذيبهم، وشُبَهِهم حولَ البعثِ والتّوحيدِ والنُّبوَّة، وعن تكذيبهم بالمعجزات والخوارق: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾ [الحجر: 14 - 15]، وتشتركان أيضًا في عرض مشاهدِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 101 - 102.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 51.

قُدْرةِ اللّه تعالى، وآياتِه في الأنفس والآفاق، وفي عرضِ مشاهد المُكذّبين عبرَ التّاريخ، وما أصابَهم نتيجةَ استعجالِهم وتكذيبِهم بالعذاب: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾ [الحجر: 4 - 5].

فسورةُ النّحل أجملَتْ ما جاء في سورة الحِجر، وفصّلت في بيان ما كان يجب على أولئك الكافرين مِنَ الإذعان لآيات اللّه في الكون المُسَخّر لهم.

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾

[النّحل: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الموتُ أوّلُ مَنازلِ الآخِرةِ، وهو قَدَرٌ لا يُستَعْجَلُ ولا يُؤجّلُ

لـمّا خُتِمَتْ سورَةُ الحِجْرِ بالإشارَةِ إلى إتيانِ اليَقينِ، وهو صالحٌ لموتِ الكُلِّ، ولِكَشْفِ الغِطاءِ بإتيانِ ما يوعَدونَ ممّا يَسْتَعجلونَ بِهِ، استهزاءً مِنَ العَذابِ في الآخِرَةِ بعدَ ما يَلْقَوْنَ في الدُّنْيا، ابْتُدِئَتْ هَذِهِ بمِثْلِ ذَلك سَواءً، غَيْرَ أَنَّهُ خَتَمَ تِلْكَ باسْمِ الرَّبِ المُفهِمِ للإحْسانِ لُطْفًا بالمُخاطَبِ، وافتَتَحَ هَذِهِ باسمِهِ الأعظَمِ الجامعِ لجميعِ مَعاني الأسْماءِ؛ لأنَّ ذَلكَ أَلْيَقُ بِمقامِ التَّهديدِ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾: مِنَ الفِعْلِ (استعجَلَ)، وهو طَلَبُ العَجَلَةِ، والعَيْنُ والجيمُ واللّامُ: أصلانِ صحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهما على الإسْراعِ، والآخرُ على بَعْضِ الحيوانِ، فالأوَّلُ وهو المقصودُ هنا: العَجَلَةُ في الأمر، يُقالُ: هو عَجِلٌ وعَجُلٌ، لغتانِ، واستَعْجلتُ فُلانًا: حَثَثْتُهُ، وعَجِلْتُهُ: سَبَقْتُهُ، قال اللّه تعالى: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 150]، والعُجالَةُ: ما تَعَجَّلَ مِنْ شَيءٍ، والأَصْلُ الآخَرُ العِجْلُ: وَلَدُ البَقَرَةِ، والأنثى عِجْلَةٌ(2)، وبمَعْنى السُّرعَةِ أتى في القرآنِ مُضارعُ هذا الفعلِ الثُّلاثيِّ، ومَصْدَرُهُ: (عَجَلٌ)، والصِّفةُ منهُ: (عَجولٌ)، وكذلك المُضَعَّفُ: (عَجَّلَ) ومضارعُهُ وأمرُهُ، و(أَعْجَلَ، وتَعجَّلَ، واستَعْجَلَ) ومضارعُهُ ومصدَرُهُ؛ كُلُّهُ مِنَ العَجَلةِ، وهي السُّرعَةُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 102.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجل).

ضِدُّ البُطْءِ[1]، وهو المعْنى المقصودُ مِنَ الآيَةِ، حيثُ طَلَبَ المشركونَ الإسراعَ في مَجيءِ العذابِ استهزاءً.

2) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾: مِنَ الفِعْلِ (سَبَّحَ)، والسّينُ والباءُ والحاءُ: أصلانِ؛ أَحَدُهما: جِنسٌ مِنَ العبادةِ، والآخرُ: جِنْسٌ مِنَ السَّعْيِ، فالأوَّلُ السُّبْحَةُ، وهي الصَّلاةُ، ويَخْتَصُّ بذلك ما كانَ نَفْلًا غيرَ فرضٍ، ومِنَ البابِ التَّسْبيحُ، وهو تنزيهُ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ مِن كُلِّ سوءٍ، والتّنزيهُ: التَّبعيدُ، والعَربُ تقولُ: سُبحانَ مِنْ كذا، أي: ما أبعدَهُ، وفي صِفاتِ اللهِ جلَّ وعزَّ: سُبّوحٌ، واشتقاقُهُ مِنَ الّذي ذكرناهُ أنَّهُ تنزَّهَ مِن كُلِّ شَيءٍ لا يَنْبَغي لَهُ، و(السُّبُحاتُ) الذي جاءَ في الحديثِ[2]: جلالُ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ وعَظَمَتُهُ، والأَصْلُ الآخرُ السَّبْحُ والسِّباحَةُ: العَوْمُ في الماءِ، والسّابِحُ مِنَ الخيلِ: الحَسَنُ مَدِّ اليَدينِ في الجَري[3]، وسائرُ ما في القُرآنِ مِنَ التّركيبِ الّذي ورَدَ فيه ﴿سَبَّحَ﴾ وتصريفُها و﴿سُبۡحَٰنَ﴾، فهو إمّا مِنَ التَّنزيهِ عَنْ أنْ يُنسَبَ إليهِ تَعالى ما لا يَليقُ، أي: الشَّريكُ أو الولَدُ، أو نحوه، و﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أن يخلقَ شَيئًا باطِلًا، أو أن يُرَى بالبصرِ في الدّنيا، أو أنْ تعلمَ ملائكتُهُ ما لم يُعلِّمهُم إيّاهُ، أو أنْ يخفى عليهِ مكرُ شَرٍّ، أو أنْ يتخلَّفَ وعْدُهُ، وإمّا مِنَ التّعظيم، وهو لازمٌ للتَّنزيهِ[4]، فيكونُ معنى ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ في هذهِ الآيةِ تنزيههُ سُبْحانَهُ عَنْ وجودِ شُركاءَ معَهُ في الخَلقِ والأمرِ.

3) ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: تَفاعَلَ مِنَ الفِعْلِ (عَلا، يَعْلو، عُلوًّا)، والعينُ واللّامُ والحرفُ المعْتَلُّ ياءً كانَ أوْ واوًا أو ألفًا: أصلٌ واحدٌ، يَدُلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ، لا يَشذُّ عنهُ شيءٌ، ومن ذلكَ: العلاءُ والعُلوُّ، ويقولونَ: تعالى النَّهارُ، أي: ارتفعَ، ويُدْعَى للعاثِرِ: لَعًا لَكَ عاليًا، أي: ارتَفِعْ في عَلاءٍ وثَباتٍ، وأَصْلُ هذا البِناءِ العُلوُّ، فأمّا العَلاءُ فالرِّفعَةُ، وأمّا العُلوُّ فالعَظَمَةُ والتَّجبُّرُ، يقولونَ: علا المَلِكُ في الأرضِ عُلوًّا كبيرًا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4]، ويقولونَ: رَجُلٌ عالي الكَعْبِ، أي: شَريفٌ، ويُقالُ لكلِّ شَيءٍ يعْلو: عَلا يَعْلو، فإنْ كانَ في الرِّفعةِ والشَّرفِ، قيلَ: عَلِيَ يَعْلَى، ومَنْ قَهَرَ أمرًا فقدِ اعتلاهُ واستَعْلَى عليه وبِهِ، كقولِكَ

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (179)، ولفظه عن أبي موسى الأشعريّ ﵁ قال، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخْفِض القِسْطَ ويرفَعُه، يُرْفَع إليه عملُ اللّيل قَبْلَ عَمَلِ النّهار، وعملُ النَّهارِ قَبْل عمل اللّيل، حِجابُه النّورُ - وفي رواية: النّارُ - لو كَشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهى إليه بصرُه مِن خلقه».

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبح).

اسْتَولى[1]، وكُلُّ اشتقاقاتِ هذا الأصْلِ ترجِعُ إلى ارتفاعِ الشَّيءِ فوقَ شَيءٍ تحتَهُ أو أدناهُ، وكلُّ استعمالاتِ التَّركيبِ ترجِعُ إلى هذا العُلوِّ عُلوًّا مادّيًّا أو معنويًّا، واللّه ﷻ هو العَلِيُّ، المُتعالي، العالي، الأعْلى، ذو العُلا والعَلاء والمعالي، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]، ارتفَعَ فتنَزَّهَ عن إفكِ المُفترينَ والمُشرِكينَ[2]، وهو المعنى المُرادُ في الآيَةِ.

4) ﴿يُشۡرِكُونَ﴾: مِنَ الفِعْلِ أشْرَكَ يُشْرِكُ إشْراكًا، والشّينُ والرّاءُ والكافُ أصْلانِ؛ أحَدُهُما: يَدُلُّ عَلَى مُقارَنَةٍ وخِلافِ انْفِرادٍ، والآخَرُ يَدُلُّ عَلَى امتِدادٍ واسْتِقامَة، والمَقْصودُ هُنا الأوَّلُ، وهو الشِّرْكَةُ، بأنْ يَكونَ الشّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، لا يَنْفَرِدُ بِهِ أحَدُهُما، وأشْرَكْتَ فُلانًا، إذا جَعَلْتَهُ شَريكًا لَكَ، قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ في قِصَّة موسى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 32]، وأمّا الأصْلُ الآخَرُ: فالشَّرَكُ: لَقَمُ الطّريقِ، وهو شِراكُهُ أيْضًا، وشِراكُ النّعْلِ مُشَبَّهٌ بِهَذا، ومِنْهُ شَرَكُ الصّائِدِ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِامتِدادِهِ[3]، والّذي جاءَ في القُرْآنِ مِنْ مُفرَداتِ التَّرْكيبِ بَعْضُهُ بِمَعْنَى اشْتِراكِ البَشَرِ أوْ غَيْرِهِم بَعْضِهِم مَعَ بَعْضٍ في حِصَصٍ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا، أوْ في غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأمورِ، غَيْرَ أنَّ أكْثَرَ وُرودِهِ بِمَعْنَى: اتّخاذِ الكُفّارِ شَريكًا أوْ شُرَكاءَ للّه، تَعالى عمّا يَصِفونَ[4]، وهو المُرادُ في هَذِهِ الآيَةِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَهديدُ الكُفّارِ بحلولِ العذابِ القَريبِ، وتنزيهُهُ سبحانه عن الشِّرك

لقد استعجَلَ المشركونَ بمَكَّةَ العذابَ وطالَبوا به غيرَ مَرَّةٍ، فأخبَرَهمُ اللّهُ ﷻ بِقُربِ قيامِ السّاعةِ وقضاءِ اللّه بعذابِهم، ثُمَّ نهاهُم عن استعجالِ العذابِ استهزاءً، بوعيدِ الرَّسولِ ﷺ لهم، ثُمَّ نزَّه اللّهُ ﷻ نفسَهُ عَنِ الشِّرْكِ والشُّركاءِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرك).
(5) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 98، ونخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 267.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَراعَةُ الاسْتِهْلالِ ودَلالَةُ الفِعْلِ الماضي ﴿أَتَىٰٓ﴾:

كلُّ ما هو آتٍ قَريبٌ، ولا ينفع حَذَرٌ مِن قَدَر

لَمّا كانَ مُعظَمُ أغْراضِ هَذِهِ السّورَةِ زَجْرَ المُشْرِكينَ عَنِ الإشْراكِ وتَوابِعِهِ، وإنْذارَهم بِسوءِ عاقِبَةِ ذَلِكَ، وكانَ قَدْ تَكَرَّرَ وعيدُهم مِن قَبْلُ في آياتٍ كَثيرَةٍ، بِيَوْمِ يَكونُ الفارِقَ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، فتَزولَ فيهِ شَوْكَتُهم، وتَذْهَبَ شِدَّتُهم، وكانوا قَدِ استبطَؤوا ذَلِكَ اليَوْمَ حَتّى اطْمَأنّوا أنَّهُ غَيْرُ واقِعٍ؛ فصاروا يَهْزَؤونَ بِالنَّبيِّ ﷺ والمُسْلِمينَ، فيَسْتَعْجِلونَ حُلولَ ذَلِكَ اليَوْمِ - صُدِّرَتِ السّورَةُ بِالوعيدِ المَصوغِ في صورَةِ الخَبَرِ، بِأنْ قَدْ حَلَّ ذَلِكَ المُتوعَّدُ بِهِ، فجيءَ بِالماضي المُرادِ بِهِ المُسْتَقْبَلُ المُحقَّقُ وُقوعُه؛ إشارَةً إلى تَحَقُّقِهِ تَحَقُّقَ ما وقَعَ ومَضى؛ وإلى أنَّ كُلَّ آتٍ ولا بُدَّ قَريبٌ[1].

دلالَةُ الإفْرادِ في لفظ ﴿أَمۡرُ﴾:

وُرودُ المَصْدَرِ بمعنى اسم المفعولِ في سياق الآية الكريمة

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ لفظُ ﴿أَمۡرُ﴾ مُفردًا؛ وذلكَ لأنَّهُ مَصْدَرٌ بِمَعْنى المَفْعولِ، كالوعْدِ بِمَعْنى المَوْعودِ، أيْ: ما أمَرَ اللهُ بِهِ، والمُرادُ مِنَ الأمرِ بِهِ تَقْديرُهُ، وإرادَةُ حُصولِهِ في الأجَلِ المُسَمّى، الَّذي تَقْتَضيهِ الحِكْمَةُ[2].

فائِدَةُ إضافَةِ ﴿أَمۡرُ﴾ إلى اسمِ الجلالَةِ:

المُضافُ إلى العَظيمِ عَظيمٌ

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ لفظُ ﴿أَمۡرُ﴾ مُضافًا إلى الاسْمِ الكَريمِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّهُ المَلِكُ الأعظَمُ الَّذي لهُ الأسماءُ الحُسْنى، والصِّفاتُ العُلى، بِما يُذِلُّ الأعداءَ، ويُعِزُّ الأولياءَ، ويَشْفي صُدورَهُم، ويُقِرُّ عيونَهُم، وكذلكَ فإنَّ في التَّعْبيرِ بِأمرِ اللهِ إبهامًا يُفيدُ تَهْويلَهُ وعَظَمَتَهُ؛ لإضافَتِهِ لِمَنْ لا يَعْظُمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وقَدْ عَبَّرَ عَنْهُ تاراتٍ بِوعْدِ اللهِ، ومَرّاتٍ بِأجَلِ اللهِ، ونَحْوِ ذَلِكَ[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 102، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 96.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 96.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 102، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

تَحْقيقُ الوُقوعِ باستعارَةِ الماضي للمُسْتَقْبَلِ

بَلاغَةُ الاستِعارَةِ:

ورَدَ في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ استِعارَةٌ تَصريحيَّةٌ تَبَعيَّةٌ، وتَقْريرُها أنْ يقالَ: شُبِّهَ الإتيانُ في المستقْبلِ بالإتيانِ في الماضي في تحقيقِ الوُقوعِ، ثُمَّ استُعيرَ لفظُ الإتيانِ في الماضي بَعْدَ التَّناسي والادِّعاءِ للإتيانِ في المسْتَقْبَلِ، ثُمَّ اشْتُقَّ منهُ ﴿أَتَىٰٓ﴾ بمعنى (يأتي)، على سَبيلِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة[1].

تَفْريعُ النَّهْيِ عنِ الاستِعْجالِ بِوقوعِ العَذابِ

نَوعُ الفاءِ في ﴿فَلَا﴾، وفائِدَتُها:

ورَدَ في قَولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ العطفُ بِفاءٍ تُسَمّى فاءَ التَّفْريع، وهيَ تُفيدُ أنَّ الكَلامَ بَعْدَها مُتَرَتِّبٌ عَلى الكَلامِ الذي قَبْلَها، فجُملَةُ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ تَفْريعٌ عَلى ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، وهيَ مِنَ المَقْصودِ بإِنْذارِ المشركينَ، الَّذينَ كانوا قَدِ اسْتَبْطَؤوا ذَلِكَ اليَوْمَ، حَتّى اطْمَأنّوا أنَّهُ غَيْرُ واقِعٍ، فصاروا يَهْزَؤونَ بِالنَّبيِّ ﷺ والمُسْلِمينَ، فيَسْتَعْجِلونَ حُلولَ ذَلِكَ اليَوْمِ[2].

ورودُ الاستعجالِ عَلى طَريقِ الاستهزاءِ تماشيًا معَ استعجالِهم الوهميّ له

بَلاغَةُ أسلوبِ النَّهْيِ:

ورَدَ في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ النَّهْيُ عنِ الاسْتِعْجالِ، والمُرادُ مِنَ النَّهْيِ هُنا دَقيقٌ، ويَجْدُرُ أنْ يكونَ لِلتَّسْوِيَةِ، كَما تَرِدُ صيغَةُ الأمرِ للتَّسْوِيَةِ، أيْ: لا جَدْوى في اسْتِعْجالِه؛ لِأَنَّهُ لا يُعَجَّلُ قَبْلَ وقْتِهِ المُؤَجَّلِ لَهُ[3]، ومِنْ بلاغَةِ النَّهيِ هُنا أيضًا: أنَّهُ لَمّا كانَ اسْتِعْجالُهم لَهُ عَلى طَريقَةِ الاسْتِهزاءِ مِن دونِ اسْتِعْجالٍ على الحَقيقَةِ، كانَ في نَهْيِهم عَنِ الاسْتِعْجالِ تَهَكُّمٌ بِهِم[4].

صيغَةُ المُضارِعِ تُفيدُ تَكَرُّرَ الحَدَثِ واسْتِطالَتَهُ

دَلالَةُ الفِعلِ المضارِعِ ﴿تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾:

ورَدَ في قَولِه تَعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ اسْتِعْمالُ الفِعْلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 102، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 102، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

(4) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 195.

﴿تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ بِصيغَةِ المُضارِعِ، الَّتي تُفيدُ تَكَرُّرَ الحَدَثِ ودَوامَه واسْتِمرارَه، وهو موافِقٌ لِسياقِ الآيَةِ، فما انْفَكَّ المشرِكون يَستبطِئُونَ العذابَ، ويكرِّرونَ استعْجالَهُ، ويَستمِرّونَ في الاسْتِهزاءِ بِالنَّبي ﷺ والمُسْلِمينَ.

دلالَةُ الخِطابِ في ﴿تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾:

عُمومُ الخِطابِ لِلمُؤمِنينَ والكافِرينَ بِالنَّهْيِ عَنِ الاسْتِعْجالِ

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ الفِعلُ ﴿تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ بِصيغَةِ الخِطابِ، واخْتَلَفَ المفسِّرونَ في المخاطَبِ بهذا الفِعلِ، فذَهَبَ بعضُهُم إلى أنَّهُ خطابٌ للكَفَرَةِ خاصَّةً، ويَدُلُّ عليهِ قِراءَةُ ابنِ جُبَيرٍ: (فلا يَستعجلوهُ) على صيغَةِ نهيِ الغائِبِ، ولأنَّ اسْتِعجالَ العذابِ مِنْ خصالِهم، قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ [الحجّ: 47]، وذهَبَ بَعضُهُم إلى العُمومِ في الخِطابِ للمُؤْمنينَ والكافِرينَ؛ لأنَّ عذابَ اللّه وإنْ كانَ الكافِرونَ يستعجلونَ به تَهَكُّمًا لظَنِّهم أنَّه غيرُ آتٍ، فإنَّ المؤمِنينَ يُضْمِرونَ في نُفوسِهم استِبْطاءَهُ، ويُحبّونَ تَعجيلَهُ للكافِرينَ، واستدَلَّ أصْحابُ هَذا القَولِ بما رويَ عن ابنِ عبّاسٍ رَضيَ اللّه تَعالى عَنهُما أنَّهُ لمّا نَزلَ قَولُه تَعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]؛ قال الكُفّارُ فيما بَينَهُم: (إنَّ هذا يَزعُم أنَّ القيامَةَ قَدْ قَرُبَتْ، فأمسِكوا عنْ بَعضِ ما تعملونَ حتّى تَنْظُروا ما هو كائنٌ)، فلَمّا تَأَخَّرتْ قالوا: (ما نَرى شيئًا)، فنَزَلَتْ: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: 1]، فأَشْفَقوا وانتَظَروا قُربَها، فلمّا امتدَّتِ الأيّامُ قالوا: (يا محمّدُ، ما نَرى شيئًا ممّا تخوِّفُنا بِهِ)، فنَزَلتْ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، فوثَبَ رَسولُ اللّه ﷺ، فرفع النّاسُ رؤوسهم، فلمّا نَزَلَ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ اطْمَأنّوا، ثُمَّ قالَ ﷺ: "بُعِثْتُ أنا والسّاعةُ كهاتينِ - وأشارَ بإصْبعَيْهِ - إنْ كادتْ لَتَسْبِقُني"(1).

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 8، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 335، وقوله ﷺ: «بُعثتُ أنا والسّاعة كهاتين» في الصّحيحين، البخاريّ، الحديث رقم: (4652)، ومسلم، الحديث رقم: (867).

بَلاغَةُ عَودِ الضَّميرِ في ﴿تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾:

تَنَوُّعُ المعاني باخْتلافِ مَرْجِعِ الضَّمائِرِ

في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، يَحْتَمِلُ في ضَميرِ ﴿تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ أنْ يكونَ عائدًا إمّا إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، أيْ: فلا تَسْتَعْجِلوا اللّه، وحُذِفَ المتَعَلِّقُ بـ: ﴿تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ لِدَلالَةِ قَوْلِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ عَلَيه، والتَّقْديرُ: فلا تستعجلوا اللّه بأمرِه، عَلى نَحْوِ قَولِهِ تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: 37]، وقيلَ: الضَميرُ عائدٌ إلى أمرِ اللّه، وعليه تَكونُ تَعْدِيةُ فِعلِ الاسْتِعجالِ إليه عَلى نَزْعِ الخافِضِ[1].

بلاغة استعمال المصدر ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

براعة الاستهلال بتنزيه الله تعالى عن الشركاء

في قوله تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ اسْتُعْمِلَ لَفْظُ (سُبْحانَ) للدّلالَةِ عَلى تسبيحِ اللّه ذي العَظمَةِ المُطْلَقَةِ، فقد تبرَّأ اللّه تعالى، وتنزَّه وتقدس عما ينسبون له من الشريك والولد وعبادتهم ما سواه من الأوثان والأنداد، وهذا إبطال لما عقدوا عليه الآمال من شفاعة الأصنام، فيكون فيه براعة استهلال تؤذن بمقصود السورة؛ لأنَّ هذا من مقاصد هذه السورة كما تقدم.

بَلاغَةُ العُدولِ مِنَ الإظْهارِ إلى الإضْمارِ:

الإضْمارُ في مَوضِعِ الإظْهارِ لِتَفادي التَّكْرارِ

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ إضافَةُ (سُبْحانَ) إلى الضَّميرِ العائِدِ إلى اللّه ﷻ، دونَ الاسْمِ الظّاهِرِ تَفاديًا لِلتَّكرارِ، فقَدْ تَقَدَّمَ ذِكرُ اسم اللّه العَلَم في قَوْلِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ في الآية نَفْسِها، وكَذَلِك فإنَّهُ لَمّا كانَ التَّسْبيحُ لا يكونُ إلّا للّه، جازَ الإضْمارُ إيجازًا للعِلْم بالمُضْمَر، والبَلاغَةُ الإيجازُ.

دَلالَةُ الفِعْلِ الماضي:

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ اسْتِعمالُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

عُلوُّ اللهِ المُطْلَقُ قَدْرًا وقَهْرًا وذاتًا

الفِعْلِ ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ في حَقِّ اللّه ﷻ، ومَعْنى ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ ارْتَفَعَ، والتَّعالي تَفاعُلٌ مِنَ العُلُوِّ، ومعناه: أنَّهُ كامِلٌ مُسْتَغْنٍ عَنْ أيِّ شَريك، وصِفَةُ العُلوِّ مِنْ صِفاتِهِ المُخْتَصَّةِ بِهِ سُبْحانَهُ، فلله العُلوُّ المُطْلَقُ بِكُلِّ اعْتِبارٍ، فلَهُ العُلوُّ المُطْلَقُ مِنْ جَميعِ الوُجوهِ: عُلوُّ القَدْرِ، وعُلوُّ القَهْرِ، وعُلوُّ الذّاتِ، فمَنْ جَحَدَ عُلوَّ الذّاتِ فقَدْ جَحَدَ لَوازِمَ اسْمِهِ العَليِّ(1)، فدلالة الماضي هنا على ثبوت هذه الصفة للّه تعالى منذ الأزل.

دلالَةُ الجمعِ بَينَ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ و﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾:

المبالَغَةُ في تنزيهِ اللّه ﷻ عَنْ أباطيلِ الكُفّارِ

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الجمعُ بَيْنَ التَّسبيحِ والعُلوِّ للّه ﷻ؛ مُبالَغَةً في تنزيهِ اللّهِ ﷻ عَنْ أباطيلِ الكُفّارِ الّذين كَذَّبوا النَّبيَّ ﷺ في تخويفِهِم بالعذاب، وزَعَموا أنّهُ وإنْ كانَ هَذا العَذابُ المزْعومُ كائِنًا حَقًّا فإنَّ الأصْنامَ تَشْفَعُ لهم في دفْعِ العِقابِ عَنْهُمْ(2)، فنَزَّهَ اللّهُ ﷻ نَفْسَهُ عَنْ أن يَشْرَكَهُ مخلوقٌ في أمرِهِ، وتَعالى عَمّا يَقولُهُ الكُفّارُ عُلوًّا كَبيرًا.

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ المُدْغَمِ ﴿عَمَّا﴾:

تَنْزيهُ اللهِ ﷻ بِبُعْدِهِ عَنِ الشُّرَكاءِ

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ حَرْفُ الجَرِّ (عَنْ) مُدْغَمًا في (ما)، وقَدْ أفادَ حَرْفُ (عن) المجاوزَةَ، وهو تَجاوُزٌ مجازيٌّ بِحَرْفِ (عن)، مُسْتَعارٌ لمِعْنى (بُعْدَ) اسْتِعارَةً تَبَعيَّةً(3)، ومَعْنى البُعْدِ مُناسِبٌ لِسياقِ الآيةِ مِنْ تَنْزيهِ اللّهِ ﷻ، وعُلوِّهِ وبُعْدِهِ عَنِ الشُّرَكاءِ.

دلالَةُ حَرفِ (ما) في ﴿عَمَّا﴾:

تَنَوُّعُ المعاني الدّلاليَّةِ بِتَعَدُّدِ التَّخْريجاتِ النَّحْويَّةِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، يَجوزُ أنْ تَكونَ (ما) مَصْدَريَّةً، والتَّقْديرُ: سبحانه وتعالى عَنْ إشْراكِهِم، ويَجوزُ

---

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/ 48.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 58.

أنْ تَكونَ بِمَعْنى الَّذي، أيْ: سبحانه وتعالى عَنْ هَذِهِ الأصْنامِ الَّتي جَعَلوها شُرَكاءَ لله؛ لِأنَّها جماداتٌ خَسيسَةٌ، فأيُّ مُناسَبَةٍ بَيْنَها وبَيْنَ أدْوَنِ المَوْجوداتِ، فضْلًا عَنْ أنْ يُحْكَمَ بِكَوْنِها شُرَكاءَ لِمُدَبِّرِ الأرْضِ والسَّماواتِ[1].

دَلالَةُ المضارِعِ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

صيغَةُ المُضارِعِ تُفيدُ تَكَرُّرَ الحَدَثِ وتَجَدُّدَه

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الفِعْلُ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ بِصيغَةِ الاسْتِقْبالِ، وذَلكَ لِلدّلالةِ على تَجدُّدِ إشْراكِهم واسْتِمرارِه[2]؛ لأنَّ اسْتِعْمالَ الفِعْلِ بِصيغَةِ المُضارِعِ يُفيدُ افْتِراضَ تَكَرُّرِ الحَدَثِ[3].

بَلاغَةُ الالتِفاتِ في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

الإعْراضُ عَنْ قَبائِحِ المُشْرِكينَ، والالتِفاتُ عَنْهُم

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الالتفاتُ إلى الغَيْبَةِ في قَوْلِه: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، والنُّكْتَةُ البَلاغيَّةُ في ذَلِكَ: الإيذانُ باقْتِضاءِ ذِكْرِ قَبائِحِهِم لِلْإعْراضِ عَنْهُم، وطَرْحِهِم عَنْ رُتْبَةِ الخِطابِ تَحْقيرًا لَهُم، وحِكايَةِ شَنائِعِهِم لِلآخرين[4].

دلالَةُ عَدَمِ ذِكْرِ مُتَعَلَّقِ الفِعْلِ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

حَذْفُ ما يُعْلَمُ جائِزٌ إذا دَلَّ عَلَيْهِ دَليلٌ

لم يَذْكُرِ السّياقُ القرآنيُّ المُتَعَلَّقَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، فلَم يَقُل: (يُشْرِكونَ بِهِ)، كَما في قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ [لقمان: 13]؛ لِأنَّ ذَلِكَ مَعْلومٌ، والغالِبُ المستفيضُ مِن استِعْمالِ لَفْظِ الإشْراكِ في القرآنِ أنَّ مَعْناهُ: الإشْراكُ باللّه، ومِنَ المُقَرَّرِ: أنَّهُ مَتى كانَ الفِعْلُ نَصًّا في مَطْلوبِه، لا يُذْكَرُ المتَعَلِّقُ بِهِ[5] إلّا لِغَرَضٍ بَلاغيٍّ آخَرَ مَقْصودٍ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 168.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 95.
(3) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 78.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 336.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 7904.

تَوجيهُ القِراءاتِ المتواتِرَة في ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

التجانس في الخطاب والتقليل من شأن المشركين

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ قِراءَتانِ مَشْهورَتانِ، فقَرَأ حَمزَةُ والكِسائيُّ: (عَمّا تُشْرِكونَ) بِالتّاءِ، وتَوْجيهُها: أنَّها خِطابٌ مُجانِسٌ لِلْخِطابِ الأوَّلِ في قَولِهِ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، وقَرَأ الجُمهورُ، وهُمُ الباقونَ: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ بِالياءِ على الِابْتِداءِ؛ لا يَرُدّونَ على أوَّلِ الكَلامِ، ولَهُم في ذلك حُجَّتانِ:

إحْداهما: أنَّ سَعيدَ بْنَ جُبَيْرٍ قَرَأ: (أتَى أمرُ اللّهِ فلا يَستعجِلوهُ) بالياءِ.

والثّانيَة: أنَّ اللّه تَعالَى أنْزَلَ القُرْآنَ على مُحَمَّدٍ ﷺ، فقالَ مُحَمَّدٌ تَنْزيهًا لله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[1]؛ على طَريقَةِ الالتِفاتِ، فعَدَلَ عَنِ الخطابِ ليخْتَصَّ التَّبَرُّؤُ مِنْ شَأْنِهم أنْ يَنْزِلوا عَنْ شَرَفِ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ[2].

تَوْجيهُ المتَشابِهِ ودلالاته:

بيان تَنْزيهِ اللهِ ﷻ نفسَهُ عن الشِّرك والنَّقائِصِ

تَجْتمِعُ كُلُّ هَذهِ الآياتِ[3] في تَنْزيهِ اللّهِ ﷻ عَمّا يَنْسِبُهُ إليهِ المشْرِكونَ، ففي آيةِ النَّحْلِ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ بُدِئَتْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، فلَمّا كانَ السّياقُ أكْثَرَ تَعَلُّقًا بالمُشْرِكينَ المُكَذِّبينَ، وكانَ اسْتِعْجالُ العَذابِ سَبَبُهُ غَلَبَةُ ظَنِّهِ أنَّه لا يَأتي لعَدَمِ قُدرتِهِ سُبحانَه عَلى ذَلكَ؛ ناسَبَهُ تنزيهُ اللّهِ عَنْ كُلِّ صِفاتِ النَّقْصِ بقَوْلِهِ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

وكَذَلكَ في قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾

(1) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 384.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 98.

(3) التّشابه بَيْنَ كلّ من قوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ المكرّر في عدد مِنَ السّور: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النّحل: 1، يونس، ص: 18، والرّوم، ص: 40، والزّمر: 67]، وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]، وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣﴾ [الإسراء: 43]، وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨﴾ [القصص: 68].

[الأنعام: 100]؛ فقد بُدِئَتْ بِقولِه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾ [الأنعام: 100]، فلَمّا تَقَدَّمَ ذِكرُ اسمِ الجلالَةِ، وأُريدَ تَنزيهُ اللّه وتَعاليهِ عَنْ ذَلكَ؛ ناسبهُ قولُه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100].

وكَذَلِكَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾ [يونس: 18]، فقد بُدِئَتِ الآيةُ بِقولِه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]؛ فلَمّا تَقَدَّمَ الشِّركُ في العِبادَةِ، ناسَبَهُ تَنْزيهُ اللّهِ عن صِفاتِ النَّقْصِ بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾ [يونس: 18].

وكَذَلِكَ في قولِه تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣﴾ [الإسراء: 43]؛ فقد بُدِئَت الآيةُ بِقولِه تَعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢﴾ [الإسراء: 43]، فلَمّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ زعْمِ المشْرِكينَ بِوُجودِ آلهةٍ مَعَ اللّه، ناسَبَهُ تنزيهُ اللّهِ مِنْ هَذا القَولِ الباطِلِ بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣﴾ [الإسراء: 43].

وكذلكَ في قولِه تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨﴾ [القصص: 68]؛ فقد بُدِئَتْ بقولِه: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: 68]، فناسَبَ السيّاقُ تنزيهَ اللّهِ عَنْ شُركاءَ يَملكونَ مَعَه شيئًا مِنَ الخلْقِ أوِ الأمرِ أوِ الاختيارِ.

وكذلكَ في قولِه تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾ [الرّوم: 40]، فقد بُدِئَتِ الآيةُ بِقَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الرّوم: 40]، فلَمّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ صِفاتِ رُبوبيَّةِ اللّهِ تَعالى مِنَ الخَلْقِ والرِّزْقِ والإحْياءِ والموْتِ؛ ناسَبَهُ تَنْزيهُ اللّهِ ﷻ عَنْ وُجودِ شُركاءَ مَعَهُ في هَذِهِ الصِّفاتِ الخاصَّةِ بالرُّبوبيَّة، فأنْكَرَ عَلى المشركينَ ذَلكَ بالسُّؤالِ الاسْتِنْكاريِّ تَقْريعًا وتَوْبيخًا.

وكَذلِكَ في قَولِه تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزّمر: 67]، فقَدْ تَقَدَّمَهُ قَولُهُ في الآيةِ ذاتِها: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزّمر: 67]، فلَمّا لَم يَقْدُروا اللّهَ حَقَّ قَدْرِه؛ ناسَبَ السّياقُ تَنْزيهَهُ سُبْحانَه بِقَولِه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزّمر: 67].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(جاءَ) و(أتى):

الفرقُ بينهما في عُمومُ المجيء وخُصوصِ الإتيانِ

يَتَجَلَّى الفَرقُ بَينَ قَولِكَ: جاءَ فُلانٌ، وأتى فُلانٌ؛ أنَّ قَولَكَ: جاءَ فُلانٌ، كَلامٌ تامٌّ لا يَحْتاجُ إلى صِلَةٍ، وقَولُكَ: أتى فُلانٌ، يَقْتَضي مجيئَهُ بشيءٍ؛ ولِهَذا يُقالُ: جاءَ فلانٌ نَفسُهُ، ولا يُقالُ: أتى فُلانٌ نَفسُهُ، ثُمَّ كَثُرَ ذَلكَ حتَّى استُعمِلَ أحدُ اللّفظَيْنِ في مَوْضِعِ الآخَرِ(1)، وممّا قيل في التّفرقة بينهما كذلك: أنّ (جاء) يُقال في الجواهر والأعيان كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: 72]، و(أتى) يقال في المعاني والأزمان، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾(2)، وقال الرّاغب: والمَجيء كالإتيان، لكنّ المَجيءَ أعَمّ؛ لأنّ الإتيان مَجيءٌ بسهولة(3).

الاستعجال والطلب:

الاستعجالُ طَلبُ الحصولِ على الشّيءِ قبلَ أوانِه

كِلاهُما يَدُلُّ على السَّعْيِ لِلْحُصولِ على شَيْءٍ مَرْغوبٍ فيهِ، ويَزيدُ الاسْتِعجالُ على الطّلب في معنى السَّعيِ على الحُصولِ على الشَّيءِ قَبْلَ أوانِهِ.

التسبيح والتنزيه:

عُمومُ التَّسبيحِ للتَّنزيهِ والتّعظيمِ

كَثيرًا ما يُسْتَعْمَلُ التَّسبيحُ بمَعْنى التَّنزيهِ؛ إذْ لا يَصِحّانِ إلّا في حَقِّ اللهِ ﷻ، ولَكِنْ عندَ التَّدقيقِ نجدُ أنَّ بينَهما فرقًا لَطيفًا، فالتّسبيحُ فيه جانبان: التَّنزيهُ والتَّعظيمُ، ويُقَدَّمُ أحدُ المعنيينِ على الآخَرِ بِحسَبِ السّياقِ، ومِنْ أدِلَّةِ كَونِ التَّسبيحِ تَعْظيمًا: تَفْسيرُهُ في مَواطِنَ بالصَّلاةِ، والصَّلاةُ فيها جانِبُ التَّعْظيم للمَعبودِ كما هو ظاهِرٌ، فمَثَلًا في قَولِ الملائكة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: 30]؛ لم يَقَعْ

---

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 152.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 365.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى، جاء).

سوءٌ يُنزَّه الله عَنْهُ، كَما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ [البقرة: 116]، والفَرقُ بينَ الموضِعَين ظاهِرٌ، فجانِبُ التَّعظيم في هذا السّياقِ أظهرُ مِن جانِبِ التَّنزيهِ، ونَظيرُهُ أيضًا في قوله تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: 1]، فأينَ جانبُ النَّقصِ ليكونَ المُرادُ بِالتَّسبيحِ هاهُنا التَّنزيهَ؛ إذًا فجانِبُ التَّسْبيحِ يَزيدُ عَلى مُجَرَّدِ التَّنزيهِ، بِأنَّهُ تَعْظيمٌ للمَولى ﷻ.

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [النّحل: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نِسبةُ الوحيِ إلى الأرواحِ، ونِسبةُ الأرواحِ إلى الأشْباحِ

لَـمّا تَقرَّرَ تنزُّهُهُ سُبحانَه عن كُلّ نقصٍ: شِركٍ وغيرِه؛ شَرَعَ ﷻ يَصفُ نفسَهُ سُبحانَه بصفاتِ الكَمال منَ الأمرِ والخَلْق، ولـمّا كانَ الأمرُ أقْدمَ وأعلى؛ بدأ به، ولـمّا كان من أمرِه إنزالُ الملائكَةِ بالعِلْم الَّذي نسبتُهُ إلى الأرواحِ نسبةُ الأرواحِ إلى الأشباحِ، وكان ذلكَ رُبَّما أثارَ لهم اعْتِراضًا يَطلبونَ به الفَرْقَ بينهم وبين الرُّسُلِ في إنْزالهم عليهم دونَهم، وكانَ ما يُشرِكون به لا تَصرُّفَ له أصْلًا بإنزالٍ ولا غَيرِه، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ الآيةَ، مُشيرًا إلى ذَلكَ، وإلى أنّ الوحْيَ يكونُ بواسطةِ الملَكِ، وأنّ النّبوَّةَ عطائيّةٌ لا كسبيّةٌ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنَزِّلُ﴾: مِنَ الفعلِ نَزَّلَ يُنزِّلُ تَنْزيلًا، والنّونُ والزّاءُ واللّامُ كلمةٌ صحيحةٌ تَدُلّ على هبوطِ شيءٍ ووقوعِه، ونَزَلَ عن دابّته نُزولًا، ونَزَلَ المَطرُ مِنَ السّماء نُزولًا، والنّازلةُ: الشّديدةُ من شدائدِ الدّهرِ تَنْزِلُ، والنِّزالُ في الحَرْبِ: أنْ يَتنازلَ الفريقانِ، ونَزالِ: كلمةٌ توضعُ موضعَ انْزِلْ، ومَكانٌ نُزُلٌ: يُنْزَلُ فيه كثيرًا، والنَّزيلُ: الضّيفُ، والتَّنزيلُ: ترتيبُ الشّيءِ ووضعُهُ منزلَهُ[2]، وإنزالُ القرآنِ، والملائكةِ، والماءِ، والرَّحمةِ، والعذابِ، وما بمعنى كلٍّ منها، وأفعالُ النّزولِ، والتّنزيلِ، والإنزالِ، وما اشْتُقَّ منها؛ واضحةٌ يتحقّقُ فيها معنى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 103.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).

الهبوطِ إلى مَقرٍّ، ومِنَ الخُلوصِ إلى الاستقرارِ بينَ البَشَرِ، وهو معنى تَنزيلِ الملائكةِ بالوحيِ إلى البشرِ هدًى لهُم[1].

2) ﴿بِٱلرُّوحِ﴾: الرّاءُ والواوُ والحاءُ أصلٌ كبيرٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ على سَعةٍ وفُسْحَةٍ واطِّرادٍ، وأصلُ ذلكَ كُلِّهِ الرّيحُ، وأصل الياء في الرّيحِ الواوُ، وإنّما قُلبتْ ياءً لكَسرةِ ما قبْلَها، والبابُ كُلُّه مُشتَقٌّ مِنَ الرّيحِ، والرَّوْحُ: نَسيمُ الرّيحِ، ويُقالُ: أراحَ الإنسانُ إذا تَنَفَّسَ، ويقالُ: أرْوَحَ الماءُ وغيرُهُ: تَغَيَّرتْ رائحَتُهُ، والرَّواحُ: العَشيُّ، وسُمّيَ بذلكَ لِرَوْحِ الرّيحِ، فإنّها في الأغلبِ تَهُبُّ بعد الزوالِ[2]، والرّوحُ، بالضّم: النَّفْسُ (بسكون الفاء)، وما به حَياةُ النّفْسِ هو الّذي يعيشُ به الإنْسانُ، أمّا حقيقَةُ الرّوحِ فقَدْ قال اللّهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: 85]، وأُطْلِقتَ على الوحْيِ، وهو تَغَلْغُلٌ لطيفٌ إلى النَّفْسِ بخبرِ السّماءِ، وعلى جبريلَ عليه السلام؛ لأنّه حاملُ وحْيِ اللهِ إلى رُسُلِه، وعلى القُرآنِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: 52]؛ لأنَّ حياةَ النُّفوسِ به، وهو مِنْ عند اللّه[3]، وهذا معنى الرّوحِ في هذه الآيةِ الكريمةِ، أي: الوحْيِ الّذي به حياةُ النُّفوسِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـدارُ دعـوةِ الـرُّسُـلِ على تبليغِ الوحْـيِ، والإنْـذارِ بما نزل به الملائكةُ الأبرار

يُنَزِّلُ اللّهُ الملائكةَ بالوحْيِ الّذي به حياةُ الأرواحِ مِنْ أمرِهِ، على مَن يشاءُ من عبادِه المرسَلينَ، ممَّنْ يَعلَمُهُ صالحًا لتحمُّلِ رسالتِهِ بأنْ: خَوِّفوا النّاسَ مِنَ الشّركِ وعاقبتِه، وأعلِموهم أنّه لا معبودَ بحقٍّ إلّا أنا، فاتَّقونِ بأداءِ فرائضي وإفْرادي بالعبادَةِ والإخْلاصِ[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (روح، ريح).
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 267.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالَةُ الفِعْلِ المضارِعِ ﴿يُنَزِّلُ﴾:

إرسالُ الرُّسُل بالوحي سنّةُ الله في عبادِهِ، منذ غابر الزّمان

ورَدَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ الفِعلُ ﴿يُنَزِّلُ﴾ بصيغَةِ المضارِعِ الدّالَّة على الاسْتِقْبالِ؛ لِلْإشْعارِ بأنَّ إنزالَ الملائكةِ بالوحيِ على عبادِهِ سُنَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لَهُ سُبْحانَهُ، فكلّما ابتعَدَ العبادُ عن طريق الحقِّ، بَعثَ اللّهُ فيهم رَسولًا يجدِّدُ لهم دينهُم[1].

تَوْجيهُ القِراءاتِ المتواتِرةِ:

تَكثيرُ المعاني الدّلاليّةِ بتنَوُّعِ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ، مِن فصيح البيان

قَرَأ الجُمهورُ ﴿يُنَزِّلُ﴾ بياءٍ تَحْتيَّةٍ مَضْمومَةٍ وفَتْحِ النّونِ وتَشْديدِ الزّاي مَكْسورَةً، وقَرَأهُ ابْنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو ورويْسٌ عَنْ يَعْقوبَ ﴿يُنزِلُ﴾ بِسُكونِ النّونِ وتَخْفيفِ الزّاي مَكْسورَةً؛ و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ مَنصوبًا، وقَرَأهُ رَوْحٌ عَنْ يَعْقوبَ ﴿تَنَزَّلُ﴾ بتاءٍ فَوْقيَّةٍ مَفْتوحَة، وفَتْحِ النّونِ، وتَشْديدِ الزّاي مَفْتوحَةً، ورَفْعِ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عَلى أنَّ أصْلَهُ تَتَنَزَّلُ[2].

وتَوْجيهُ قراءةِ من قرأهُ بالتّاءِ والتّشديدِ: أنَّ الأصل تتنزّل، فحذف إحدى التاءين وهي الثانية لاجتماعهما، وارتفاع ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بإسناد الفعل إليه، والتاء في ﴿تَنَزَّلُ﴾ لأجل تأنيث ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لكونها جماعة[3]، وتَوْجيهُ قراءةِ من قرأهُ بالياءِ مُشدَّدًا أو مُخفَّفًا: أنَّهُ جَعلَ الفِعلَ للّه ﷻ، فأضْمَرَهُ فيه لتقدُّمِ اسْمِهِ، ونَصَبَ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بِتَعدّي الفِعلِ إليهم[4].

بَلاغَةُ قراءَتي التَّشديدِ والتَّخفيفِ في ﴿يُنَزِّلُ﴾:

الإنْزالُ يكونُ جُملةً واحدةً، والتّنزيلُ يكونُ مُنجَّمًا

ورَدَ في الفعلِ ﴿يُنَزِّلُ﴾ مِنْ قَولِهِ تَعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ التَّخفيفُ والتَّشديدُ، فأخذَ المُشَدَّدُ ﴿يُنَزِّلُ﴾ مِنْ (نَزَّلَ)، والمخفَّفُ (يُنْزِلُ) مِن (أَنْزَلَ)، وقَدْ ذَهَبَ بعضُ العلماءِ إلى التَّفريقِ بينَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 95.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 02/ 302.

(3) ابن أبي مريم، الموضح، ص: 730

(4) ابن خالويه، الحجّة، ص: 209.

مَصدَرَيهما (أنزلَ إنْزالًا، ونَزّلَ تَنْزيلًا) مِنْ حيثُ المعنى، فقالوا: إنَّ الإنزالَ يكونُ جُملةً واحدةً، والتّنزيلَ يكونُ مُنجَّمًا[1].

ويَرِدُ على هذا التَّفريقِ قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]، فإنَّهُ استعمَلَ الفِعلَ ﴿نُزِّلَ﴾ [الفرقان: 32] في الإنزالِ جملةً واحدةً، وكانَ المقتَضى حَسَبَ قولِهم (أَنْزِلَ)، ولهذا فالقولُ بأنّه أمرٌ أغلبيٌّ أَسْلمُ مِنَ المعارَضَةِ.

دَلالَةُ فصلِ جملَةِ ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾:

إنـزالُ الملائكةِ بـالـوحـيِ مِـنْ صفاتِ الكَمالِ

ورَدَ قَولُهُ تَعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ مَفْصولًا عَنِ الآيةِ السّابِقَةِ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾؛ لاخْتِلافهما في المَعْنى، فبَعْدَ تهديدِ المشركينَ باقترابِ عذابِهم، وتَنَزُّهِهِ سُبحانَه عن كلِّ نقصٍ: شِركٍ وغيرِه، شَرعَ يَصفُ نفسَهُ سُبحانَهُ بِصفاتِ الكَمالِ؛ من الأمرِ والخلْقِ بإنزالِ الملائكةِ بالوحْيِ إلى النّاسِ.

دلالة (أل) على الجنس في لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾:

اشْـتِـقـاقُ المَلَـكِ مِـنْ تَـحَـمُّـلِ الرِّسالَةِ

ورَدَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ لَفظُ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ مَجموعًا مُعرَّفًا بـ (أل) الدّالَّةِ على تعريفِ الجِنْسِ.

والملائِكَةُ: واحِدُها مَلَك، وأصْلُه (مَأْلَك)، ثُمَّ خُفِّفَ بِحَذفِ الهَمزةِ، فقيل: مَلَكٌ، وأصلُه مِن المَأْلَكَةِ والمَأْلَكَةِ والمَلأكَةِ، وهي: الرِّسالَةُ، والمَلْأَكُ: المَلَكُ؛ سُمّيَ بذلك؛ لأنَّهُ يُبَلِّغُ عنِ اللهِ ﷻ ما أُرْسِلَ به إلى مَن شاءَ مِن خَلْقِه، وأصلُ (أَلَكَ): يَدُلُّ على تَحَمُّلِ الرِّسالَةِ[2].

دَلالَةُ الجمعِ في لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾:

تَسْميةُ جبريل الـواحـدِ باسم الـجـمـعِ لـكـونِهِ رئيسًا مُقَدَّمًا

ورَدَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ لَفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ مَجموعًا، وقَدْ رَوى عطاءٌ عن ابنِ عبّاسٍ قال: يُريدُ جبريلَ وحْدَهُ عليه السلام، ويجوزُ تَسْميةُ الواحدِ باسم الجمعِ إذا كان ذلك

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 311.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (لأك).

الواحدُ رئيسًا مقدَّمًا؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: 173](1)، كما يَحتَمِلُ السّياقُ أنْ يكونَ المقصودُ هو ومَنْ مَعَهُ مِن حَفَظَةِ الوَحْيِ بأمرِ اللّه تَعالى(2).

الوحيُ حياةٌ من مَوتِ الكفرِ

مَعنى لفظ ﴿بِٱلرُّوحِ﴾، ودَلالَةُ (الباء) الجارّة فيه:

ورَدَ في تفسيرِ ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ من قَولِهِ تَعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ قولان:

الأوّلُ: الوحْيُ، هو كلام اللّه، وهو قولُ ابنِ عبّاسٍ، وقال به الرَّبيع والحَسَن، وهو قولُ جُمهورِ المفسِّرينَ، قال الزَّجّاجُ: الرّوح ما كان فيه من أمرِ اللّه حياةً للنّفوس بالإرشاد إلى أمر اللّه(3)، وقولُهُ: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ [غافر: 15]، وقولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: 52]؛ هذا كُلُّه معناهُ الوحْيُ(4)، وسُمّي روحًا؛ لأنَّهُ حياةٌ من مَوتِ الكفرِ، فصارَ يحيا به النّاسُ؛ كالرّوحِ الذي يحيا به الجسَدُ(5)، والباء متعلقةٌ بالفعل، أو بما هو حالٌ من مفعوله، أي: ملتبسين بالرّوح(6).

الثّاني: جبريلُ عليه السلام، وهو قَوْلُ أبي عبيدَةَ، والباءُ في قولِهِ: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بمعنى (مع)، كقولهم: خرجَ فلانٌ بثيابِهِ، أي: مع ثيابِهِ، ورَكِبَ الأميرُ بسلاحِهِ، أي: مَعَ سلاحِهِ، فيكونُ المعنى: يُنَزِّلُ الملائكةَ مع الرّوحِ، وهو جبريل، والأوّلُ أقربُ(7).

حُلولُ الوحي في العُقولِ كَحُلولِ الرّوحِ في الجُسوم

بلاغَةُ الاستعارَةِ في إطلاقِ الرّوحِ على الوحي:

في قَولِهِ تَعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ استِعارةٌ

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 09.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 95.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 190.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (روح).
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 09.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 95.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 129.

بَديعةٌ، حيثُ أُطلِقَ على الوحْي اسمُ الرّوحِ على وجْهِ الاستعارَةِ؛ لأنَّ الوحْيَ به هَدْيُ العُقولِ إلى الحَقِّ، فشُبِّهَ الوحْيُ بالرّوحِ، كَما يُشَبَّهُ العِلمُ الحَقُّ بالحياةِ، وكَما يُشَبَّهُ الجَهْلُ بالموتِ، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122]، ووجْهُ تَشبيهِ الوَّحي بِالروحِ: أنَّ الوحْيَ إذا وعَتْهُ العُقولُ حَلَّت بها الحياةُ المعنويَّةُ، وهو العِلْمُ، كما أنَّ الرّوحَ إذا حلَّ في الجِسْمِ حَلَّت به الحياةُ الحِسّيَّةُ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: 52][1].

دَلالَةُ حَرفِ الجرِّ ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾، ومعْنى الإضافَةِ:

تــردُّدُ معنى حــرفِ الـجَـرّ (مِـنْ) بين عِدّة معانٍ، يُفيد ثراءَ السّياق وسعته

في قَولِهِ تَعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ ورَدَ حرفُ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ لبيانِ الجِنْسِ، فالأمر هنا مُرادٌ به جِنْسُ أمورِه سُبحانَه، وهي شُؤونُه ومُقدّراتُهُ الّتي استأثَرَ بها، وذلكَ وجهُ إضافَتِه إلى اللّه كما هُنا، وكما في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: 52]، وقولِه تعالى: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرّعد: 11]، وقولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]؛ لما تُفيدُهُ الإضافَةُ مِنَ التَّخْصيصِ[2]، (هو نفسه الرأي الأول الذي مضى ذكره وتحريره وهو بيان الجنس)، أو المرادُ بيانٌ، أيْ: بَيانٌ للرّوحِ الّذي أُريدَ به الوحْيُ، فإنَّه أمرٌ بالخيرِ، أو حالٌ منهُ، أيْ: حالَ كونِه ناشئًا ومُبتَدَأً منه، فتكون على هذا ابتدائيّةً؛ أو هي صِفةٌ لَهُ على رَأْيِ مَنْ جَوَّزَ حَذفَ الموصولِ مَعَ بَعْضِ صِلَتِه، أيْ: بالرّوحِ الكائِنِ مِنْ أمرِه النّاشِئِ مِنْهُ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِـ: ﴿يُنَزِّلُ﴾، وقيل: ﴿مِنۡ﴾ للسَّبَبيَّةِ كالباءِ، مثل ما في قَولِهِ تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ [نوح: 25][3]، ويحتمل أن تكون تبعيضيةً[4]، أي: يُنَزِّلُ الرّوحَ ببعض أمرِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 99.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 95.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/ 188.

مَعْنى ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾، ودَلالَةُ إفرادِهِ:

الأمرُ واحدُ الأمورِ، أوْ واحدُ الأوامِرِ، ولكلّ منهما أثرٌ في الدّلالة

في قَولِهِ تَعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾، قال بَعضُ العلماءِ: إنَّ الأمرَ هُنا واحدُ الأمورِ، لكنِ المُرادُ به الجنسُ، قال ابن عاشور: ومَعْنَى ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾: الجِنْسُ، أيْ: مِنْ أُموره، وهي شُؤونُهُ ومُقَدَّراتُهُ الّتي استَأثَرَ بها[1]، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54].

وقالَ بَعْضُهُم: إنَّ الأمرَ هُنا واحدُ الأوامِرِ، وهو بمَعْنى الإذْنِ والتَصرُّف، فيكونُ معنى ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أنَّ ذلك التَّنزيلَ والنُّزولَ لا يكونُ إلّا بأمرِ اللّه تعالى، ونظيرُهُ قولُه تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ [مريم: 64]، وقولُه: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ [الأنبياء: 27]، وقولُه: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: 28]، وقوله: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]؛ فكلُّ هَذِهِ الآياتِ دالَّةٌ على أنَّهم لا يُقْدِمونَ على عَمَلٍ مِنَ الأعمالِ إلّا بأمرِ اللّه تَعالى وإذْنِه[2].

دَلالَةُ تَكْرارِ ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ و﴿أَمۡرِهِۦ﴾:

أمْرُ الله بمعنى وعدِهِ، وأمْرُه بمعنى تقديرِهِ وإذنه

ورَدَ ذِكرُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، وتكرَّرَ ذِكْرُ الأمرِ هُنا بقولِه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾، غَيْرَ أنَّ الأمرَ الأوّلَ غيرُ الأمرِ الثّاني، فالأوَّلُ المقصودُ به: هو ما وعدَهمُ اللّهُ مِنَ المجازاةِ على كُفرهِم من أصنافِ العَذاب[3]، وأمّا الأمرُ الثّاني: فهو مِنَ التَّقديرِ أوِ الإذْنِ، فظهَرَ الفَرْقُ بينهما.

فائِدَةُ اسْتِعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

الوحْيُ يوصف بالاستعلاء، لنُزولِهِ من السَّماءِ، وهي رمز العلوّ

ورَدَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ استعْمالُ حرفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 99.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 170.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 09.

الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعْلاءِ، وهو استِعلاءٌ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ الوحْيَ يَنْزِلُ عَليهِم مِنَ السَّماءِ، فاسْتُعمِلَ لَفْظُ (على) المختَصّ بالعُلوِّ[1].

دَلالَةُ الاسْمِ الموصولِ ﴿مَن﴾:

بَلاغَةُ الموصولِ ترتبط بالإشعارِ بِعِلَّةِ الحُكمِ

ورَدَ في قولِه تَعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ استِعمالُ الاسم الموْصولِ المشتَرَك ﴿مَن﴾؛ للدّلالَة على العاقِل مُفْرَدًا كان أوْ مُثَنًّى أو مَجْموعًا، مُذَكَّرًا أوْ مُؤَنَّثًا، والنُّكْتَةُ البَلاغيَّةُ في إيثارِ وضع الاسم الموصولِ مَوضِعَ الاسْم الظّاهِرِ: أنّه يسمَحُ بوصْفِه بِجُملةِ الصِّلة، فبَيَّنَ قولُهُ: ﴿يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ أنَّ سَبَبَ اختيارِ الرُّسُلِ تابعٌ للمشيئة الإلَهيَّة، ومَشيئَةُ اللّهِ جاريَةٌ على وفْقِ حِكْمَتِه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124][2].

دَلالَةُ الفِعلِ المضارِعِ ﴿يَشَآءُ﴾:

إرسالُ الرُّسُلِ بالوحْيِ سُنَّةُ اللهِ في عِبادِهِ

ورَدَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ الفِعلُ ﴿يَشَآءُ﴾ بصيغَةِ المضارِعِ الدّالَّةِ عَلى التّجدُّد؛ لِلْإشْعارِ بأنَّ اختيارَ الأنبياءِ لإرسالِهم إلى عبادِهِ سنّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لَهُ سُبْحانَهُ، فكُلّما ابتعدَ العِبادُ عن طريقِ الحَقِّ بعثَ اللّهُ فيهِم رَسولًا يُجَدِّدُ لهم دينَهم[3].

دَلالَةُ حَرْفِ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾:

بَيانُ جِنْسِ الرُّسُلِ إلى العِباد، وأثرِهم في الرّشاد

في قَولِهِ تَعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ ورَدَ حرفُ الجَرِّ ﴿مِنۡ﴾ الدّالّ على البَيانِ، أي: بيانِ جنْسِ الرُّسُل الّذين يختصُّهُمُ اللّهُ من عبادِهِ بالرِّسالَةِ والوحْيِ، وفي هذا رَدٌّ على فُنونٍ من تكذيبِهم، فقدْ قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف: 31]، وقالوا: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزّخرف: 53]، أيْ: كانَ مَلكًا، وقالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: 7][4].

---

(1) الرّاغب، التّفسير: 2/ 289.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 99.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 95.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 10.

سِرّ جمعِ لفظ ﴿عِبَادِهِۦٓ﴾، ومعناه في السّياق:

كثرةُ الرُّسل وامتثالهم لأمرِ مُرسِلِهم سُبحانَهُ

ورَدَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ لَفْظُ ﴿عِبَادِهِۦٓ﴾ مَجموعًا؛ للدّلالَةِ على كَثْرَةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، كما أنَّ تسْميتَهم بلفظِ العبوديَّةِ دليلٌ على امتثالهم لأمرِ مُرسِلِهم ﷻ، وطاعتِهِم لهُ في تبليغ وحْيِهِ إلى عبادِهِ.

دَلالَةُ الإضافَةِ في لفظِ ﴿عِبَادِهِۦٓ﴾:

بَلاغَةُ الإضافَةِ للتَّشريفِ، في السّياقِ المنيف

ورَدَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ لَفْظُ ﴿عِبَادِهِۦٓ﴾ مُضافًا إلى الضميرِ العائدِ على اللّه ﷻ تشريفًا لأنبيائه ورسله، ولزيادةِ مَدْحِهم بصفةِ العُبوديَّة للّه، أي: عبوديَّةِ التقرُّبِ.

بَلاغَةُ الاعْتراضِ والاستِطرادِ:

في الإطناب بلاغةٌ كالإيجاز، إذا اقتضاهُ المقام

ورَدَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ اعتراضٌ واستِطرادٌ بينَ الفعلِ ﴿يُنَزِّلُ﴾ وبينَ مُفَسِّرِهِ، فالاعتراضُ والاستطراد في قولِهِ تَعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، وقولُهُ تَعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ تفسير لفعل ﴿يُنَزِّلُ﴾[1].

دلالة حرفِ ﴿أَنْ﴾ في السّياق:

أثر حُروفِ المعاني في السّياقِ القُرآنيّ، بارزٌ ومفيد

﴿أَنْ﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ إمّا مخفَّفةٌ من (أنَّ)، وضميرُ الشّأن الذي هو اسمُها محذوفٌ، أي: يُنَزِّلُهُم مُلتَبِسينَ بأنَّ الشَّأنَ أقولُ لكم أنذِروا، أو مُفسّرةٌ على أنّ تنزيلَ الملائكةِ بالوحي فيه معنى القَولِ، كأنه قيل: يَقولُ بواسطة الملائكة لِمَن يَشاء مِنْ عبادِهِ: أنذروا؛ فلا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، أو مَصدريّةٌ لجواز كونِ صلتِها إنشائيّةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس: 105]، فمحلُّها الجَرُّ على البَدليّة أيضًا[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 99.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 96.

بَلاغَةُ الأمرِ في الفعل ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾:

جملة ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ بدلٌ مِن (الرّوحِ)، أيْ: يُنَزِّلُهم مُلتَبِسين بأنْ أَنْذِروا، أيْ: بهذا القَوْلِ، والمخاطَبون به الأنبياءُ الّذين نَزَلت الملائكةُ عليهم، والآمرُ هو اللهُ سُبحانَه، والملائكةُ نَقَلَةٌ للأمرِ، كما يُشعِرُ به حرفُ الباءِ في المبدَلِ منه، ولمّا كان هذا الخبَرُ مَسوقًا للّذين اتَّخذوا مَعَ اللهِ آلهةً أُخرى، وكان ذلك ضلالًا يَستحِقّون عليه العِقابَ؛ جعَلَ إخبارَهم بضِدِّ اعتقادِهم، وتحذيرَهم ممّا هم فيه إنذارًا، وفرَّعَ عليه ﴿فَٱتَّقُونِ﴾[1]، والإنْذارُ: الإعلامُ، خلا أنّهُ مُختصٌّ بإعلامِ المَحذورِ، مِن نَذَرَ بالشّيءِ، إذا عَلِمَهُ فحَذِرَهُ، وأنذرَه بالأمرِ إنذارًا، أي: أعلَمَهُ وحَذَّرَهُ وخَوَّفَهُ في إبلاغِه[2].

بَلاغَةُ الإنْذارِ بالإخبارِ بضِدِّ الاعتقادِ

دَلالَةُ حَذْفِ المفعولِ بِهِ في ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾:

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ عَدَمُ ذِكْرِ مفعولِ الإنْذارِ؛ لإرادَةِ العُمومِ وشُمولِ النِّذارَةِ لجميعِ المُرسَلِ إليهم دونَ تَقْييدٍ، والامتِناعِ عَنْ أنْ يَقْصُرَهُ السّامِعُ عَلى ما يُذْكَرُ مَعَهُ دونَ غَيْرِه، فالغَرَضُ مِنْ ذِكْرِ الفِعْلِ مُجَرَّدًا الاقْتِصارُ عَلى إثْباتِ مَعْنى الفِعْلِ؛ لإفادَةِ الوُجودِ المُجَرَّدِ في الشّيْءِ دونَ التّعَرُّضِ للمَعْمولِ[3]، فيُجْعَلُ المُتَعَدّي كَغَيْرِ المُتَعَدّي، في أنَّكَ لا تَرى لَهُ مَفْعولًا لا لَفْظًا ولا تَقْديرًا، وإذا كانَ الكَلامُ مُنْصَبًّا إلى غَرَضٍ مِنَ الأغْراضِ، جُعِلَ سِياقُهُ لَهُ وتَوجُّهُهُ إلَيْه، كَأنَّ ما سِواهُ مَرْفوضٌ مُطَّرَحٌ[4].

شُمولُ النِّذارَةِ لجميعِ المُرسَلِ إليهم

نُكْتَةُ استعمالِ (أنَّ) في قولِهِ ﴿أَنَّهُۥ﴾:

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ حَرْفُ ﴿أَنَّهُۥ﴾ مُتَّصِلًا بضميرِ الشَّأنِ، ومَدارُ وضْعِه مَوضِعَه ادِّعاءُ شُهْرَتِه

فَخامَةُ المَضْمونِ بتَصْديرِ الجُملَةِ بضَميرِ الشَّأْنِ مع التّوكيدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 100.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 96.

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

المُغْنيَةِ عَنِ التَّصريحِ به، وفائِدَةُ تَصْديرِ الجُملَةِ بِهِ: الإيذانُ مِن أوَّلِ الأمرِ بفَخامَةِ مَضمونِها مَعَ ما فيهِ مِنْ زيادَةِ تَقْريرٍ لَهُ في الذِّهْنِ، فإنَّ الضّميرَ لا يُفهَمُ مِنْهُ ابتداءً إلّا شَأنٌ مُبهمٌ لهُ خطرٌ، فيَبْقى الذِّهنُ مُترقِّبًا لما يَعْقُبُه فيَتَمَكَّنَ لَدَيهِ عِنْدَ وُرودِه فضلُ تَمَكُّنٍ، كأنَّهُ قيلَ: أنْذِروا إنَّ الشَّأنَ الخَطيرَ هَذا، وإنباءُ مَضمونِه عنِ المَحْذورِ ليس لِذاتِهِ، بَلْ مِنْ حَيثُ اتِّصافُ المُنْذَرينَ بما يُضادُّه مِنَ الإشْراكِ، وذَلِكَ كافٍ في كَوْنِ إعلامِهِ إنذارًا[1].

دَلالَةُ حَذفِ حرفِ الجرّ في ﴿أَنَّهُۥ﴾:

اطّرادُ حذفِ حرف الجر مع أنّ

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ تَعَلُّقُ عبارَةِ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ بالفِعْلِ ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾ عَلى حَذْفِ حَرْفِ الجَرِّ حَذْفًا مُطَّرِدًا مَعَ (أنّ)، والتّقديرُ: أنْذِروا بِأنَّهُ لا إلهَ إلّا أنا[2]، ويَشْتَرِطُ النُّحاةُ في قياسِ اطِّرادِ حَذفِ حَرفِ الجرِّ مَعَ (أنَّ وأنْ) أمنُ اللَّبسِ[3]، وإلّا كانَ مَمنوعًا.

فائِدَةُ النَّفْيِ في ﴿لَآ﴾:

لا يَتَحَقَّقُ التَّوحيدُ إلّا بالنَّفْيِ والإثْباتِ

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ تَصْديرُ جُملةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ بحرفِ ﴿لَآ﴾ النّافيَةِ للجِنْسِ؛ تَنْصيصًا عَلى قَصْدِ نَفْيِ جِنْسِ الآلهَةِ، لتَدُلَّ الجُملَةُ على التَّوحيدِ، ونَفيِ الشَّريكِ بالصَّراحَةِ، ودلالَةِ المُطابقَةِ، وأنَّه لَيْسَ المُرادُ نَفْيَ الوحْدَةِ عَنْ غَيْرِ اللّه، فيوهِمُ أنَّهُ قَدْ يكونُ إلَـهانِ أوْ أكثرُ في شِقٍّ آخَرَ، وإنْ كان هَذا يَؤولُ إلى نَفْيِ الشَّريكِ لَكِنْ بدلالَةِ الالتزامِ، وخَبَرُ ﴿لَآ﴾ هذه محذوفٌ دَلَّ عليهِ ما في (لا) مِنْ مَعْنى النَّفيِ؛ لأنَّ كُلَّ سامِعٍ يَعلمُ أنَّ المُرادَ نفيُ هذهِ الحقيقَةِ، فالتَّقديرُ: لا إلهَ حَقٌّ إلّا هو، على خِلافِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 96.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 100.
(3) ابن عقيل، شرح الألفيّة: 2/ 151.

بينَ العُلَماء في تَقْديرِ المَحْذوفِ، وقَدْ نُسِبَ إلى الزَّمخْشَريّ أنَّهُ لا تقديرَ لخبرٍ هُنا، وأنَّ أصلَ (لا إلهَ إلا هو): هو إلَهٌ، فقدَّمَ ﴿إِلَٰهَ﴾، وأخَّرَ (هو) لأجْلِ الحصر بإلّا، وذَكروا أنّه ألَّفَ في ذلكَ رسالةً، وهَذا تَكلُّفٌ، فغَرَضُ التَّقْديرِ إظهارُ مَعاني الكَلامِ، وتَقْريبُ الفَهْمِ، وإلّا فإنَّ (لا) النّافيَةَ إذا نَفَتِ النَّكِرَةَ فقَدْ دَلَّت على نَفْيِ الجِنْسِ، أيْ: نَفْيِ تَحَقُّقِ الحقيقَةِ، فمَعنى (لا إلهَ): انتفاءُ الأُلوهيَّةِ، (إلّا اللّهُ)، أيْ: إثباتُ الأُلوهيَّةِ للّه وحْدَهُ(1).

سِرُّ إفْرادِ لفظِ ﴿إِلَٰهَ﴾:

نَفْيُ المُفرَدِ في الجِنْسِ أبْلغُ مِنْ نَفْيِ المجْموعِ

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ لفظُ ﴿إِلَٰهَ﴾ مُفْردًا، والنُّكْتَةُ في ذلك: أنَّ نَفْيَ المُفرَدِ في الجِنْسِ أبْلغُ مِنْ نَفْيِ المَجْموعِ، والمُفرَدُ أحْرى باسْتِغراقِ الجِنْسِ مِنَ الجَمعِ، وكذلكَ لأنَّ المُفرَدَ اسْتَرْسَلَ على الجِنْسِ لا بصيغَةٍ لفظيّةٍ، وأمّا الجمعُ فمَرَدُّهُ إلى تَخَيُّلِ الوُحدانِ، ثُمَّ الاستغراقُ بعدَهُ بِصيغَةِ الجمعِ(2).

دَلالَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿إِلَٰهَ﴾:

النّكِرَةُ في سياقِ النّفْيِ تَعُمُّ

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ لفظُ ﴿إِلَٰهَ﴾ مُنَكّرًا، والنُّكْتَةُ في مجيئِهِ نَكِرَةً: هو الدّلالَةُ عَلى عُمومِ نَفْيِ الأُلوهيَّةِ عَنْ سِوى اللّهِ ﷻ، والنّكِرَةُ في سياقِ النّفْيِ تَعُمُّ(3).

فائدةُ الاستثناءِ بـ: ﴿إِلَّآ﴾:

القَصْرُ ذو أثرٍ في الدّلالة، يَبْرُزُ به المعنى بالأصالة

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ الاسْتِثْناءُ بـ ﴿إِلَّآ﴾ دونَ غيرِها مِن أدواتِ الاسْتِثناءِ؛ لأنّها أُمُّ بابِ الاستثناءِ، والنَّفْيُ والاستِثناءُ هو رَأسُ باب القَصْرِ، وهو الطَّريقُ الأمُّ بين طُرُقِه؛ إذْ تَراهُم يَقيسونَ عليه غَيْرَهُ، فيقولونَ مَثَلًا: قولك:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 75.

(2) الجوينيّ، البرهان: 1/ 121.

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 335.

إنّما زُهيرٌ شاعرٌ، معناه: ما زُهيرٌ إلّا شاعرٌ، وقولُك: لك هذا، معناه: ما هَذا إلّا لَكَ[1].

دَلالَةُ استعمالِ ضَميرِ المتكَلِّمِ ﴿أَنَا۠﴾:

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾، استعمالُ ضميرِ المُتَكَلِّمِ ﴿أَنَا۠﴾ دونَ الاسْمِ الظّاهِرِ (اللّه)؛ لأنَّ سياقَ الآيَةِ الأمرُ بالإنذارِ، والأمرُ يقتضي الخِطابَ، فقالَ تعالى لرُسُلِهِ: أنذِروا عبادي سَطْوَتي على كُفرهم بي، وإشراكِهم في اتّخاذِهم معي الآلهةَ والأوثانَ، فإنَّهُ لا إلهَ إلّا أنا، لا تَنْبَغي الأُلوهَةُ إلّا لي، ولا يَصْلُحُ أن يُعبدَ شيءٌ سِوايَ[2]، ونقل الكلامَ من الغيبة إلى التكلُّم مبالغةً في الترهيب، وتصريحًا بالمقصود، كأنَّه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإيايَ فارهبون لا غير[3].

قوّةُ الخطابِ في سياقِ التَّوحيد، الّذي ينتظم به الاعتقاد الرّشيد

بَلاغَةُ كَلِمَةِ التَّوحيدِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾:

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ جُملَةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، الّتي تُفيدُ التّوحيدَ وإفرادَ اللّه بالأُلوهيّة، كما نَفَتْ أيضًا حقيقةَ الأُلوهيّةِ عن غَيْرِ اللّه تَعالى، وهذهِ الكَلِمةُ العظيمةُ هي أوَّلُ واجبٍ على كُلِّ شَخْصٍ، كما أنّها آخرُ واجِبٍ، فمَنْ ماتَ على هذهِ الكَلمَةِ فهو من أهْلِ الجَنَّة، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: "مَنْ ماتَ وهو يَعْلَمُ أن لا إلهَ إلّا اللّه دَخَلَ الجَنَّةَ"[4].

قـوَّةُ القـصرِ بالجـمعِ بين النفي والإثبات

ومعْنى (لا إلهَ إلا اللّه)، أي: لا معبودَ حَقٌّ إلّا اللّهُ وحْدَهُ، فهو نفيُ الإلَهيَّةِ عمّا سوى اللّه ﷻ، وإثباتُها كُلُّها للّه وحدَهُ لا شريكَ لَهُ.

وهَذِهِ الكَلمَةُ قائمَةٌ على النَّفْي والإثْباتِ، وهو حَقيقَةُ أسلوبِ القَصْرِ الَّذي هو مِنْ أقْوى طُرُقِ التَّوكيدِ، وهو الأوسَعُ دلالةً؛

(1) بسيونيّ فيود، علم المعاني، ص: 314.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 162.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد، 3/ 108.
(4) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (26).

لاشتمالِه على مَعْنَيَيْن: نَفيٍ وإثباتٍ صراحةً، كما أنّهُ أقْوى الطُرُقِ في ردِّ الإنْكارِ والتَّكذيب.

نوعُ الفاءِ في قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

تَفريعُ التّقوى عَنِ الإنْذارِ، من بليغ البيان

ورَدَ في قَوْله تعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ الفعلُ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ مُتّصِلًا بفاءٍ تُسَمّى (فاءَ التفريع): وهي تُفيدُ أنَّ الكَلامَ بَعْدَها مُتَرَتِّبٌ عَلى الكَلامِ الّذي قَبْلَها، ولمّا كانَ هَذا الخبرُ مَسوقًا للّذينَ اتَخَذوا مَعَ اللهِ آلهةً أُخرى، وكانَ ذلكَ ضَلالًا يَستحِقّونَ عليهِ العقابَ؛ جَعَلَ إخبارَهُم بضِدِّ اعتقادِهِم، وتحذيرَهُم ممّا هُم فيهِ إنذارًا، وفرَّعَ عليه ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، ووجهُ التّفريع: أنّ انفرادَهُ تَعالى بالإلهيَّةِ يَقْتضي استحقاقَهُ أنْ يُعبَدَ، وخَصَّ مِنَ العِباداتِ هُنا التَّقْوى لِأهَمّيَتِها[(1)].

بلاغَةُ أسْلوبِ الأمرِ في ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

الأمـرُ بالتّقوى شامِلٌ لكلّيّات الشّريعَة وجزئيّاتها

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ الفِعْلُ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، وهو أمرٌ بالتَّقْوى الشّامِلَةِ لجَميعِ الشَّريعَةِ، وقَدْ أحاطَتْ جملةُ ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ إلى قَولِه تَعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ بالشَّريعَةِ كُلِّها، لِأنَّ جملةَ: ﴿أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ تنبيهٌ على ما يَرْجِعُ مِنَ الشَّريعَةِ إلى إِصْلاحِ الاعْتقادِ، وهو الأمرُ بكمالِ القوَّةِ العقْليَّةِ، وجُملةَ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ تَنبيهٌ عَلى الاجْتِنابِ والامتثالِ اللَّذَيْنِ هما مُنْتَهى كمالِ القوَّةِ العَمَليَّةِ[(2)].

سِرُّ حَذْفِ مفعول ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

الحذفُ للتّخفيف والاختِصار ومُراعاةِ الفَواصِلِ

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ فِعْلُ الأمرِ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ بالكَسرَةِ على النّونِ، التي تَدُلُّ على الياءِ المفعولَةِ، أي: الواقِعَةِ إعْرابًا في محَلِّ المفْعولِ به، وقَدْ حُذِفتْ هذه الياءُ مُراعاةً للفَواصِلِ[(3)]، أوْ للتّخفيفِ والاخْتِصارِ[(4)].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 100.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 100.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 296.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 6/ 117.

بَلاغَةُ الخِطابِ بالأمر ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

خِطابُ المُستعجلينَ أمر الله، على طريقة الالتفاتِ إلى التّقوى

تتجلّى بلاغةُ الخِطابِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ في قَولِهِ سُبحانَهُ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، فهو خِطابٌ للمُستَعجلينَ على طَريقةِ الالتفاتِ، أي: إذا كانَ الأمرُ كَما ذُكِرَ مِنْ جَرَيانِ عادَتِه تَعالى بِتَنزيلِ الملائكةِ على الأنْبياءِ عليهم السلام، وأمرِهم بأنْ يُنْذِروا النّاسَ أنَّهُ لا شريكَ لَهُ في الأُلوهيَّةِ، ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ في الإخْلالِ بِمضمونِهِ ومُباشَرَةِ ما يُنافيهِ مِنَ الإشْراكِ وفُروعِهِ الَّتي مِنْ جُملتها الاسْتِعْجالُ والاسْتِهْزاءُ(1).

تَوْجيهُ المتشابِهِ اللّفْظيّ:

تتنوّع سياقاتُ الآياتِ، وتلتقي في التّوكيد على التّوحيد

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾، و﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه: 14]، و﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: 25].

أما آيةُ النَّحلِ فيَسْبقُها قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، فلمّا كان أمرُ اللّه هو عذابَهُ في الدُّنيا أو في الآخِرةِ، وكانَ الإنْذارُ للوِقايَةِ منهُ؛ ناسَبَهُ قَوْلُه: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

وأمّا آيةُ الأنْبياءِ: فقَدْ بُدِئَتْ بقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ﴾ [الأنبياء: 25]، فلَمّا كانَ السّياقُ مُتَعَلِّقًا بِمَنْ عَبَدوا غَيْرَ اللّه، ناسَبَهُ الأمرُ بِعِبادَةِ اللّه بِقَولِهِ: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: 25].

وكَذلكَ في آيةِ طَه عِنْدَما كانَ السّياقُ في قِصَّةِ موسى عليه السلام، الَّذي أرْسَلَهُ اللّه عز وجل إلى فِرْعَونَ الَّذي ادَّعى الرُّبوبيَّةَ؛ ناسَبَهُ الأمرُ بِعِبادَةِ اللّه بِقَوْلِه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه: 14].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 272.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّنزيل والإرسال:

التَّنْزيلُ لِلْكُتُبِ السَّماويَّةِ، والإرسالُ للرُّسُلِ المُكلّفين بالبلاغ

يظهر الفرقُ بينَ التَّنزيلِ والإرْسالِ: في أنَّ التَّنْزيلَ ما كانَ مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، ويُسْتَعْمَلُ في الكُتُبِ السَّماويَّةِ المُنَزَّلةِ مِنَ السَّماءِ إلى الأرْضِ، أمّا الإرْسالُ فهو مَأخوذٌ مِنَ الرِّسالَة، نَحْوُ قَوْلِك: أرْسَلْتُ زَيْدًا إلى عَمرٍو، يَقْتَضي أنَّك حَمَّلْتَهُ رِسالَةً إلَيْه أوْ خَبَرًا، وما أشْبَهَ ذَلِكَ[1].

الرّوح والوحْي:

الـوحْـيُ حَـيـاةُ الـنُّـفـوسِ، وبِـهِ نـجـاتُـهـا في الدّارين

يَتَّضِحُ الفَرْقُ بَيْنَ الرّوحِ والوحْي جَليًّا مِنْ خِلالِ التَّعريفِ اللُّغَويِّ لِكُلٍّ مِنْهُما، فالرّوحُ مِنَ الرِّيحِ، وأَصْلُ الياءِ في الرّيحِ الواوُ، وإنَّما قُلِبَت ياءً لِكَسْرَةِ ما قَبْلَها، والبابُ كُلُّه مُشتَقٌّ مِنَ الرّيحِ، والرَّوْحُ: نَسيمُ الرّيحِ، والرّوح، بالضَمِّ: النَفْسُ (بسكونِ الفاءِ)، وما بِهِ حياةُ النَّفْسِ هو الَّذي يعيشُ بِهِ الإنْسانُ[2]، أمّا الوحْيُ فأصْلُهُ إلقاءُ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِهِ إلى غَيْرِك، فالوحْيُ: الإشارَةُ، والوحْيُ: الكتابُ والرِّسالَةُ[3].

وإنّما أُطْلِقَ لفظُ الرّوحِ عَلى الوحْي مَجّازا؛ لأنَّهُ تَغَلْغُلُ لَطيفٌ إلى النَّفْسِ بِخَبَرِ السَّماءِ، وأُطلق على جبريلَ ﷺ؛ لِأنَّهُ حامِلُ وحْي اللّه إلى رُسُلِه، وعلى القُرآنِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: 52]؛ لأنَّ حَياةَ النُّفوسِ به وهو مِنْ عِندِ اللّه[4]، فالعلاقَةُ بينهما مَجازيَّةٌ.

الأمرُ والإذْن:

الأمرُ أعَمُّ دَلالةً مِـنَ الإذْنِ في استعمال أهل اللّغة

يَشْتركُ الأمرُ والإذْنُ في كَونِ كِلَيهما يَدُلّانِ على إجازَةِ الفِعْلِ، ويُمكِنُ اسْتِنْتاجُ الفَرْقِ بينهما مِنَ المعنى اللُّغَويِّ لِكُلِّ لَفظٍ، فأصْلُ الإذْنِ: العِلْمُ والإعْلامُ، تَقولُ العَرَبُ: قَدْ أذِنْتُ بهذا الأمرِ، أي:

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 41.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (روح، ريح).

عَلِمتُ، وآذنَني فُلانٌ أعْلَمَني، والمَصدَرُ: الإذْنُ والإيذانُ، وفَعَلَهُ بإذني، أيْ: بِعِلْمي، ويَجوزُ بأمري، وهو قَريبٌ مِنْ ذَلِكَ[1].

فَقَولُكَ: أذِنْتُ لَهُ في الشَّيْءِ، إذا أبَحْتَهُ لَهُ، وأطْلَقْتَ لهُ فِعْلَهُ، أمّا الأمرُ فهو طلبُ الفِعلِ مِنَ العالي أوِ المُسْتَعْلي حَسَبَ اخْتِلافِ المباني فيه، وعَلَيْهِ فكُلُّ أمرٍ يَتَضَمَّنُ الإذْنَ بالضَّرورَةِ.

فالفَرقُ بينَهما: أنَّ الأمرَ أعَمُّ دلالَةً مِنَ الإذْنِ، فالأمرُ يَدُلُّ عَلى لُزومِ الفِعْلِ أوْ رُجْحانِه، بِخلافِ الإذْنِ، فإنَّهُ يَدُلُّ على مُجَرَّدِ الرُّخصَةِ في الفِعْلِ.

الإنذارُ والتّخويفُ:

الإنْذارُ أعَمُّ مِنَ التَّخْويفِ

يَتَّضِحُ الفرقُ بينَهُما في أنَّ الإنذارَ أعَمُّ مِنَ التَّخْويفِ، فالإنْذارُ تخويفٌ مَعَ إعلامِ مَوْضِعِ المَخافَةِ، مِنْ قولِكَ: نَذَرْتُ بالشَّيْءِ، إذا عَلِمتَهُ فاستعدَدْتَ لَهُ، فإذا خَوَّفَ الإنسانُ غيرَهُ وأعْلَمَهُ حالَ ما يُخَوِّفُهُ به فقَدْ أنْذَرَهُ، وإنْ لم يُعْلِمهُ ذَلكَ، لم يُقَلْ: أنْذَرَهُ، والنَّذْرُ: ما يجعلُهُ الإنْسانُ على نَفْسِهِ إذا سَلِمَ ممّا يَخافُهُ، والإنْذارُ إحْسانٌ مِنَ المُنْذِرِ، وكُلَّما كانَتِ المخافَةُ أشَدَّ كانَتِ النِّعمَةُ بالإنْذارِ أعْظَمَ؛ ولهذا كانَ النّبيُّ صَلّى اللّه عليه وآلِهِ وسَلَّمَ أعْظَمَ النّاسِ مِنَّةً بإنذارِهِ لهُم عقابَ اللّه تَعالى[2].

التّقوى والطّاعة:

التَّقْوى لا تَكونُ إلّا للهِ جلّ في عُلاه

يَتَجَلّى الفَرْقُ بَينَ التَّقْوى والطّاعَةِ: أنَّ الطّاعَةَ الانقيادُ لمطلوبِ الشّارِعِ بما أمَرَ بِهِ، واجِبًا كانَ أم مُسْتَحَبًّا، والتّقْوى كَفُّ النَّفسِ عَمّا نَهى الشّارِعُ عنه، حَرامًا كانَ أم مَكْروهًا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 78.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 137.

كَما أَنَّ الطّاعَةَ أعمُّ دلالةً مِنَ التّقْوى، فبينهما عُمومٌ وخُصوصٌ، فالطّاعَةُ تَكونُ للّهِ، ولِرَسولِهِ، ولِوُلاةِ الأُمورِ، وتَكونُ لِلوالِدَيْنِ، ولِلزَوْجِ، إلى غَيرِ ذَلكَ.

أمّا التَّقْوى: فهيَ مِنَ العِبادَةِ، والعِبادَةُ لا تكونُ إلّا للّه، وهي امتِثالُ أوامرِ اللّه، وترَكُ نَواهيهِ سُبْحانَه، عَنْ إخْلاصٍ لَهُ، وعَنْ مَحَبَّةٍ لَهُ وعَنْ تَعْظيمٍ، وعَنْ رَغْبَةٍ ورَهْبَةٍ، فالطّاعَةُ أَعَمُّ دلالَةً ومُتَعَلَّقًا، والتَّقْوى أَخَصُّ.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾ [النّحل: 3]

الرّبط بين تنزّل الملائكة، ودَلائِلُ التَّوْحيدِ في خَلقِ السّماواتِ والأرْضِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا وحَّدَ اللّهُ نَفْسَهُ سُبْحانَهُ، دَلَّ على ذَلِكَ التَّوحيدِ بقولِهِ شارِحًا لإيجادِهِ أُصولَ العالَمِ وفروعَهُ على وجْهِ الحِكْمَةِ، فذكرَ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهُما[1].

وتفصيله: أنّه لمّا بَيَّنَ فيما سَبَقَ أنَّ مَعْرِفَةَ الحَقِّ لِذاتِه، وهيَ المُرادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، ومَعْرِفَةَ الخَيْرِ لِأجْلِ العَمَلِ بِهِ، وهيَ المُرادُ مِنْ قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، روحُ الأرْواحِ، ومَطْلَعُ السَّعاداتِ، ومَنْبَعُ الخَيْراتِ والكَراماتِ؛ أتْبَعَهُ بِذِكْرِ الدَّلائِلِ عَلَى وُجودِ الصّانِعِ الإلَهِ تعالى، وكَمالِ قُدْرَتِهِ وحِكْمَتِهِ[2]، بأسلوبٍ بديعٍ جمعَ فيه بينَ دلالة المصنوعِ على الصّانعِ، والنّعمةِ على المُنْعِمِ، ونبَّه بذلك إلى أنّ كلّ واحدٍ من هذا كافٍ في صَرْفِ المشركين عمّا هم عليه مِنَ الشّرك[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَقَ﴾: مِنَ الفِعْلِ خَلَقَ يَخْلُقُ خَلْقًا، والخاءُ واللّامُ والقافُ أصْلانِ؛ أحدُهما: تقديرُ الشّيءِ، والآخَرُ: ملاسَةُ الشّيءِ، فأمّا الأوَّلُ فقولهُم: خَلَقْتُ الأديمَ للسِّقاءِ، إذا قَدَّرْتَه، ومِنْ ذَلِكَ الخُلُقُ، وهيَ السَّجيَّةُ، لِأنَّ صاحِبَهُ قَدْ قُدِرَ عَلَيْه، وفُلانٌ خَليقٌ بكذا، وأخْلِقْ به، أي: ما أخْلَقَهُ، أي: هو ممّن يُقَدَّرُ فيه ذلك، والخَلاقُ: النّصيبُ؛ لأنَّهُ قد قُدِّرَ لِكُلِّ أحَدٍ نَصيبُهُ، والخَلْقُ: خَلْقُ الكَذِبِ، وهو اخْتِلاقُهُ واختراعُهُ، وتَقديرُهُ في النَّفسِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 105.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 171.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 55.

[العنكبوت: 17]، وأمّا الأصلُ الثّاني: فصَخْرَةٌ خلقاءُ، أي: مَلْساءُ، ومِنْ هذا الباب: أَخْلَقَ الشَّيْءُ وخَلِقَ، إذا بَلِيَ، وأَخْلَقْتُهُ أنا: أَبْلَيْتُه، وذَلكَ أنَّهُ إذا أَخْلَقَ املاسَّ[1]، والخَلْقُ المَذكورُ في الآيَةِ هو خَلقُ اللّه، أي: تَهْيِئَتُهُ سبحانَهُ مادةً ما، لتكونَ كائنًا سويًّا بشرًا أو حيوانًا أو نباتًا أو نهرًا، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: 54][2].

2) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الحاءُ والقافُ أصلٌ واحدٌ، وهو يَدُلُّ على إحْكام الشَّيءِ وصِحَّتِه، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ، ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّ فرعٍ إليه بجودَةِ الاستِخراجِ وحُسْنِ التّلفيق، ويُقالَ: حَقَّ الشّيءُ: وجَبَ، ويُقالُ: حاقَ فُلانٌ فُلانًا، إذا ادَّعى كُلُّ واحد مِنهُما، فإذا غَلَبَهُ على الحَقِّ قيل: حَقَّهُ وأحَقَّهُ، واحْتَقَّ النّاسُ مِنَ الدَّيْنِ، إذا ادَّعى كُلُّ واحِدٍ الحَقَّ[3]، واستعمالاتُ (الحقّ) غيرِ المادّيَّةِ تَدورُ على الثَّباتِ، لكنَّ التَّعبيرَ عَنْ مَعناها تختلِفُ مناسبَتُهُ لها حَسَبَ السّياقِ، فقَدْ يُفَسَّرُ: بالصِّدْقِ والعَدْلِ، والصَّحيحِ، والصَّوابِ، أي: ضدُّ الباطِلِ الزّائفِ، وهذا أَشْيَعُ استعمالاتِ الحَقِّ في القرآنِ[4]، وأمّا خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ بالحَقِّ في هذه الآيةِ فهو هنا بمعنى: الحِكْمَةِ والجِدِّ[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

السَّماواتُ والأرْضُ دَليلُ عَظَمَةِ الخالِقِ، وتأكيدُ تنزُّهِه عنِ الشّرك

مِن أدلّة قُدرتِه وتوحيدِه سبحانَه أنّه خلق العالَم العُلْوِيَّ وهو السّماوات، والعالَم السُّفْلِيَّ وهو الأرض - بما حوت - ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: على نَهْجٍ تقتضيه الحِكْمة، ولم يخلقْهُما عبثًا، مُنفردًا بخلقِهما لم يَشْرَكْه في إنشائهما وإحداثهما شَريكٌ، ولم يُعِنْهُ على ذلك مُعين، تعالى اللّهُ عن ذلك؛ إذ ليس في قُدْرة أحدٍ سواه أن يُنشِئَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلق).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 101.

السّماواتِ والأرضَ اللّتين خلقهُما بالحقِّ؛ ليَستَدِّلَ بهما العِبادُ على عَظَمَةِ خالقِهما، وأنَّهُ وحْدَهُ المُستَحِقُّ للعبادَةِ، تَنَزَّهَ سبحانه وتعاظَمَ عَنْ شِرْكِهِم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ اسْتِعمالِ الماضي ﴿خَلَقَ﴾:

خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ قديمٌ قبلَ خَلْقِ الإنسانِ

ورَدَ الفِعلُ ﴿خَلَقَ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ بِصيغَةِ الماضي؛ للإخْبارِ بأنَّ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ قَديمٌ قبلَ خَلْقِ الإنْسانِ؛ وذَلِك أنَّ الإخْبارَ عَنِ الشّيْءِ بِصيغَةِ الماضي يَقْتَضي كَوْنَ المُخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا على ذَلِكَ الإخْبارِ[2]، وخَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ أمرٌ لا يَتَجَدَّدُ، فناسَبَهُ الماضي الدّالُّ على الانْقِضاءِ.

دلالَةُ استِتارِ فاعِلِ ﴿خَلَقَ﴾:

اعْـترافُ الكُفّارِ بـأنَّ اللـه هو الخالقُ للأشْياءِ كُلِّها

في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ ورَدَ فاعلُ الفِعْلِ ﴿خَلَقَ﴾ مُسْتَتِرًا لدلالَةِ السّياقِ عَلَيه، فكُلُّ ما سَبَقَهُ مِنْ كلامٍ ابتداءً من قَوْلِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ هو عَنِ اللهِ ﷻ، وكَذَلِكَ فإنَّهُ مِنَ المُقَرَّرِ في النَّحْوِ أنَّ الفاعِلَ إذا كانَ مَعْلومًا جازَ عدمُ ذِكرِهِ، وفي البلاغة إذا كان كذلك فإنه يَحْسُن عدمُ ذِكره، بحيث يكون إضمارُه مُقَدّمًا على ذِكره، ولا يُقَدَّم الذِّكْرُ على الإضمار في هذه الحالة إلّا لتحقيق فائدة أعلى من فائدة الإضمار، وكَوْنُ الخالِقِ هو اللّهُ ﷻ أمرٌ مَعلومٌ حَتّى عِنْدَ الكُفّارِ، قالَ تَعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: 61]، فالمُشْرِكون كانوا يَعْتَرِفونَ بأنَّ اللّهَ هو الخالقُ للأشْياءِ كُلِّها، ومَعَ هذا يَعْبُدونَ مَعَهُ غَيْرَهُ.

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 56، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 98، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 267.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

تَعْرِيفُ الجِنْسِ يَقْتَضِي العُمومَ

دلالةُ (أل) في لفظي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

وردَتْ كلِمَتا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُعَرَّفَتَيْنِ بأداةِ التَّعْريفِ (أل)، الدّالَّة على تَعْريفِ الجِنْسِ، سَواءٌ أُريدَ بالسَّماءِ الجِنْسُ الصّادِقُ بجميعِ السَّماواتِ، على طَريقَةِ العموم الحقيقيِّ، أو الصّادِقُ بسَماواتٍ مشهورة، على طريقة العموم العُرفيّ، وهي السّماواتُ السّبع التي يُعَبّر أهلُ الهيئةِ عنها بالكواكب السَّيّارَة[1]، وكذلك الأرضُ فتعريفُها تعريفُ الجِنس المُقتضي للعموم.

إفرادُ الأرضِ لِثِقَلِ جَمعِها الشّاذِّ

دَلالَةُ جَمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

ورَدَ في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ذِكْرُ السَّماواتِ مَجْموعَةً، وذِكْرُ الأرضِ مُفْرَدَةً، وقَدْ ذَكَرَ العُلماءُ في نُكْتَةِ ذلكَ أقْوالًا كَثيرةً، ومِنْ أحْسَنِها: أنَّ الأرضَ حيثُ وقعتْ في القرآنِ ذُكِرَتْ مُفردةً ولم تُجمَعْ - بِخِلافِ السَّماواتِ - لِثِقَلِ جَمعِها، وهو أَرَضونَ، وهو جمعٌ شاذٌّ كما قالَ ابنُ مالكٍ: "وأَرَضونَ شَذَّ..."، ولهَذا لمّا أُريدَ ذِكْرُ جميعِ الأَرَضينَ قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 12]، وأمّا السّماءُ فذُكِرتْ تارةً بصيغَةِ الجمع، وتارَةً بصيغَةِ الإفْرادِ لنُكَتٍ تَليقُ بِكُلِّ مَحَلٍّ بِخصوصِه، والحاصِلُ: أنَّهُ حيثُ أُريدَ العَدَدُ أُتيَ بصيغَةِ الجمعِ الدّالَّة عَلى سَعَةِ العظَمَةِ والكَثْرَة، نحوُ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد: 1]، أيْ: جميعُ سُكّانِها عَلى كَثْرتِهم، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجمعة: 1]، أي: كُلُّ واحدٍ على اختِلافِ عَدَدِها، وحَيْثُ أُريدَ الجِهَةُ أُتيَ بصيغةِ الإفْرادِ، نحوُ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: 22]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: 16]، أي: مَنْ فوقَكُم[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 355.

دَلالَةُ فصلِ جُملَةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

فَصْلُ الجُمَلِ لِكَمالِ الانْقِطاعِ، مِن فصيحِ البيان

ورَدَ قَوْلُه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ مَفْصولًا عَن الآيَةِ السّابِقَةِ ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾؛ لِأَسْبابٍ مِنْها اخْتِلافُ الجُملَتَيْنِ خبرًا وإنْشاءً، فجُملَةُ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ إنْشائيَّةٌ، وجُملَةُ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ خَبَرِيَّةٌ، ومِنها أيْضًا: اخْتِلافُهُما في المَعْنى، فبَعْدَ ذِكْرِ التَّوْحيدِ في الآياتِ السّابِقَةِ، شَرَعَ في هذه الآيَةِ يَذْكُرُ دَلائلَه.

دلالة الباءِ في شبه الجملة ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

بيانُ أنّ خَلقَ السّماواتِ والأرضِ وما بينهما للعَملِ والجَزاءِ

ورَدَ في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ لَفْظُ ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ مَجرورًا بالباءِ الدّالّةِ على الملابَسَة، أي: خَلقْنا ذلك مُلابِسًا ومُقارِنًا للحَقِّ، أَوْ تَكونُ الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: بِسبَبِ الحَقِّ، أي: لإيجادِ الحَقِّ مِن خلقِهما، والحَقُّ: ما يَحِقُّ وقوعُهُ من عملٍ أو قولٍ، أي: يجِبُ ويتَعَيَّنُ لسَبَبيَّةٍ أو تفرُّعٍ أو مُجازاةٍ، فمِنَ الحقِّ الّذي خُلِقتِ السّماواتُ والأرضُ وما بينهما لأَجْلِه: مُكافَأةُ كُلِّ عاملٍ بما يناسِبُ عملَهُ ويجازيه، وأيضًا يمكِنُ أن يكونَ الحَقّ في هذه الآيةِ ضِدَّ العَبَثِ، أي: بِمعْنى الحِكْمَةِ والجِدِّ، فيكونُ نظيرَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدّخان: 38 - 39]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ [ص: 27]، والحَقُّ والصِّدْقُ يُطلقانِ وصْفَينِ لكَمالِ الشَّيءِ في نوعِهِ[1].

دَلالَةُ الماضي ﴿تَعَٰلَىٰ﴾:

بيانُ عُلوِّ اللهِ المُطْلَقِ قَدْرًا وقَهْرًا وذاتًا

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ اسْتِعمالُ الفِعْلِ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ في حَقِّ اللّه ﷻ، ومَعْنى تَعالى: ارْتَفَعَ، وهو - أي: التّعالي - تَفاعُلٌ مِنَ العُلوِّ، فمَعْنى ﴿تَعَٰلَىٰ﴾: أنَّهُ كامِلٌ مُسْتَغْنٍ عَنْ أيِّ شَريكٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 101.

وصِفَةُ العُلوِّ مِنْ صِفاتِهِ المُخْتَصَّةِ بِهِ سُبْحانَهُ، فلله العُلوُّ المُطْلَقُ بِكُلِّ اعْتِبارٍ، ولَهُ العُلوُّ المُطْلَقُ مِنْ جَميعِ الوُجوهِ: عُلوُّ القَدْرِ، وعُلوُّ القَهْرِ، وعُلوُّ الذّاتِ، فمَنْ جَحَدَ عُلوَّ الذّاتِ فقدْ جَحَدَ لَوازِمَ اسْمِهِ العَليِّ[1].

دلالَةُ اسْتِتارِ الفاعِلِ في ﴿تَعَالَىٰ﴾:

لا ينصرف إطلاقُ الفعلِ (تعالى) إلّا لله وحدَه دونَ سواه

في قَولِه تَعالى: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورَدَ فاعِلُ الفِعلِ ﴿تَعَالَىٰ﴾ مُسْتَترًا لدلالَةِ السّياقِ عليه، فالتَّعالي والعُلوُّ الحَقُّ لا يكونُ إلّا للّه، فهو من صفاتِ الرَّبِّ الخالِقِ الذي لا يَليقُ إلّا به، ولا ينصَرِفُ الذِّهنُ عند إطلاقِ هذا الفِعْلِ إلّا لذي العِزَّةِ والجلالِ والكبرياءِ، ولهذا يُقالُ إيجازًا: قالَ تعالى كذا وكذا، فصارَ في قوَّةِ العَلَمِ.

العِلَّةُ وراءَ تكرارِ ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في الآيتين:

تنزيهُ اللهِ عنِ الشُّركاءِ بالأدِلّةِ العقليّةِ القاطِعةِ

في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهنا: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ تكرّرتْ عبارةُ ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في الآيتين على سَبيلِ الاستئنافِ الابتدائيّ، فالمشركونَ لمّا سَمِعوا في الآيةِ الأولى تنزيهَ اللّهِ عنِ الشُركاءِ، ترقَّبوا دليلَ التَّنزيهِ، فابْتُدِئَ بالدّلالَةِ على اختصاصِهِ بالخَلْقِ والتَّقديرِ، وذلكَ دليلٌ على أنَّ ما يُخْلَقُ لا يوصَفُ بالإلَهيَّةِ، كما أنبأَ عنه التَّفريعُ عَقِبَ هذه الأدِلَّةِ بقولِه الآتي: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل: 17]، وأعقبَ قولَهُ سُبحانَه بقولِهِ: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تَحقيقًا لنتيجَةِ الدَّليلِ، كما يُذكَرُ المطلوبُ قَبْلَ ذِكرِ القياسِ في صناعَةِ المنطِقِ، ثُمَّ يُذكَرُ ذلك المطلوبُ عَقِبَ القياسِ في صورَةِ النّتيجةِ، تحقيقًا للوحْدانيَّةِ[2].

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ المُدْغَمِ ﴿عَمَّا﴾:

تَنْزيهُ الله ﷻ بِبُعْدِهِ عَنِ الشُّرَكاءِ

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حَرْفُ الجَرِّ (عَنْ) مُدْغَمًا في (ما)، وقَدْ أفادَ حَرْفُ (عن) المُجاوزَةَ، وهوتَجاوزٌ مجازيٌّ

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/ 48.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

بِحَرْفِ (عن) مُسْتَعارٌ لمعْنى (بَعُدَ) اسْتِعارةً تَبَعيَّةً[1]، ومَعْنى البُعْدِ مُناسِبٌ لِسياقِ الآيةِ، مِنْ تَنْزيهِ اللهِ ﷻ وعُلوِّهِ وبُعْدِهِ عَنِ الشُّرَكاءِ.

دَلالَةُ (ما) في ﴿عَمَّا﴾:

التبرُّؤ عن فعل الشرك وعن فاعله

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يَجوزُ أَنْ تَكونَ (ما) مَصْدَرِيَّةً، والتَّقْديرُ: سبحانه وتعالى عَنْ إِشْراكِهِم، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ بِمَعْنى الَّذي، أَيْ: سبحانه وتعالى عَنْ هَذِهِ الأَصْنامِ الَّتي جَعَلوها شُرَكاءَ للهِ؛ لِأَنَّها جَماداتٌ خَسيسَةٌ، فأَيُّ مُناسَبَةٍ بَيْنَها وبَيْنَ أَدْوَنِ المَوْجوداتِ، فضْلًا عَنْ أَنْ يُحْكَمَ بِكَوْنِها شُرَكاءَ لِمُدَبِّرِ الأَرْضِ والسَّماواتِ[2]، فعلى كونها مصدرية يكون التبرُّؤ في الآية من إشراكهم، وعلى كونها موصولة بمعنى الذي يكون التبرُّؤ والتنزه عن المعبودات التي يعبدونها من دون الله، فاجتمع في الآية التبرُّؤ والتنزه من الفعل والفاعل.

دلالَةُ المضارِعِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

صيغَةُ المُضارِعِ تُفيدُ تَكَرُّرَ الحَدَثِ وتجدُّدَه

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الفعلُ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بصيغةِ الاستقبالِ؛ وذلك للدّلالةِ على تَجدُّدِ إشراكِهِم واستمرارِه[3]؛ وذلك لأنَّ اسْتِعْمالَ الفعل بِصيغَةِ المُضارِعِ يُفيدُ افْتِراضَ تَكَرُّرِ الحَدَثِ[4].

دلالَةُ عَدَمِ ذِكْرِ مُتَعَلِّقِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

حذْفُ المتعلّقِ للعلم به

لم يَذْكُرِ السّياقُ القرْآني المُتعلّقَ في قوْلِهِ تعالى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾، فلم يَقُلْ: (يشركون بِهِ)، كَما في قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: 13]؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مَعْلومٌ، والغالِبُ المستفيضُ مِن استِعْمالِ لَفْظِ الإِشْراكِ في القرآنِ أَنَّ مَعْناهُ: الإِشْراكُ باللهِ، ومِنَ المقَرَّرِ أَنَّهُ مَتى كان الفِعْلُ نَصًّا في مَطْلوبِهِ لا يُذْكَرَ المُتَعَلِّقُ بِهِ[5] إلّا لِغَرَضٍ بَلاغِيٍّ آخَرَ مَقْصودٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 58.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 168.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 95.
(4) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 78.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 7904.

تَوْجيهُ القراءاتِ المتواتِرَة في ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

التّجانسُ في الخطاب والتّقليل من شأن المشركين

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ قراءتانِ مشهورَتانِ، فقرأ حَمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿عَمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ بمثَنّاةٍ فوقيةٍ، وتوجيهُها أنّها خطابٌ مجانِسٌ للخطابِ الأوّلِ في قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، وقرأ الجمهورُ وهم الباقونَ ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ بالياءِ على الابْتِداء؛ لا يَرُدّونَ على أوَّلِ الكَلامِ، ولَهُم في ذلك حُجَّتانِ:

إحْداهما: أنَّ سعيد بن جُبَيرٍ قَرَأ (أتَى أمر اللّه فلا يستعجلوه) بِالياءِ.

والثّانيَةُ: أنّ اللّه تَعالَى أنزلَ القُرْآنَ على مُحَمَّد ﷺ، فقالَ مُحَمَّدٌ تَنْزيهًا للّه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[1] على طَريقَةِ الالتِفاتِ، فعَدَلَ عَنِ الخِطابِ لِيَخْتَصَّ التَّبَرُّؤُ مِنْ شَأْنِهِم أنْ يَنْزِلوا عَنْ شَرَفِ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ[2].

وجْهُ الاختِلافِ بين جُملتَي التّسبيح والتّنزيه:

إبْطالُ شَفاعَةِ الأصْنامِ، وإثباتُ حُدوثِ المَخْلوقاتِ، تنزيهًا لله

ورَدَتِ الجُملةُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ مُسْتأنفةً استِئنافًا ابتِدائيًّا؛ لأنّها المَقْصودُ مِنَ الوعيدِ، إذِ الوعيدُ والزَّجرُ إنّما كانا لأجْلِ إبطالِ الإشراكِ، فكانَتْ جملةُ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ كالمقدِّمَة، وجملةُ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ كالمَقْصِدِ، أمّا جُملةُ ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ - في الآية هنا - فهي مُعتَرِضَةٌ، كما أنَّ الفائِدَةَ المطلوبَةَ من قوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ في أوَّلِ السّورةِ غيرُ الفائِدَةِ المطلوبَةِ من ذِكرِ ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ لأنَّ المطْلوبَ في الأولى إبْطالُ قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ الأصنامَ تَشفَعُ للكفّارِ في دفْعِ العقابِ عنهُم، وأمّا المقصودُ مِنَ الثّانيَةِ فهو إبطالُ قولِ من

---

(1) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 384.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 98.

يقولُ: الأجسامُ قديمةٌ، والسَّماواتُ والأرضُ أزليَّةٌ، فنزَّهَ اللّهُ سُبحانَهُ نفسَهُ عن أن يُشارِكَهُ غيرُهُ في الأزَليَّةِ والقِدَمِ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْقُ والبناء:

الخلقُ أعمُّ دَلالةً مِنَ البِناءِ

يَتَّضِحُ الفَرْقُ بينهما أنَّ الخَلْقَ أعمُّ دَلالةً مِنَ البِناءِ؛ وذَلِكَ لأنَّ الخَلْقَ يُطلَقُ على معنيينِ: الإيجادُ مِنْ غَيْرِ مِثالٍ سابقٍ، فالخَلْقُ بهذا المعنى مختَصٌّ باللّه وحدَهُ، قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: 11]، وقَدْ يَكونُ الخلْقُ بمعنى التَّقْديرِ، وعِنْدَئذٍ يَدخُلُ فيه البِناءُ الذي هو تَركيبُ الشّيءِ بضَمِّ بعضِهِ إلى بعضٍ وفقَ تقديرٍ مُعَيَّنٍ.

تَعالَى وتَعاظَمَ:

العَظَمَةُ والعُلوُّ صِفتانِ مختَصّتانِ بالعظيمِ سُبحانَه

يَتَّضِحُ الفَرقُ بينهما في اشْتِقاقِ كُلِّ لَفظٍ منهما، فلَفْظُ (تعالى) مُشْتَقٌّ من صِفَةِ العُلوِّ لَهُ ﷻ، و(تَعاظَمَ) مُشْتَقٌّ مِنْ صِفَةِ العَظَمةِ لَهُ سُبْحانَهُ، فعَظَمَةُ اللهِ لا تُكَيَّفُ ولا تُحَدُّ ولا تُمثَّلُ بشَيْءٍ، ويجبُ على العِبادِ أن يَعْلَموا أنَّه عَظيم كَما وصَفَ نَفْسَهُ، وفَوقَ ذَلِكَ، بِلا كَيْفيَّةٍ، ولا تَحْديد[2].

وصِفَةُ العَظَمَةِ للّه تَعالى تَعْني: العظَمَةَ في كُلِّ شيءٍ، بما يَليقُ به سُبحانَه، فهو عَظيمٌ في رُبوبيَّتِه، عظيمٌ في أُلوهيَّتِه، عظيمٌ في أفعالِه، عَظيمٌ في قُدْرتِه، ولا يوجدُ وصفٌ للعَظَمَةِ ممّا يَليقُ بجلالِهِ سبحانَهُ إلّا وهو مُتَّصِفٌ بِه، كَما لا يوجَدُ وصْفٌ مِن أوصافِ الكَمالِ الّتي تليقُ به سُبحانَهُ إلّا كانَ أولى بها.

وأمّا صِفَةُ العُلوِّ للّه سُبْحانَهُ، فلله العُلوُّ المُطْلَقُ بكُلِّ اعْتِبارٍ، فلَهُ العُلوُّ المُطْلَقُ مِنْ جَميعِ الوُجوهِ: عُلوُّ القَدْرِ، وعُلوُّ القَهْرِ، وعُلوُّ الذّاتِ[3].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 172.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 2/ 182.
(3) ابن القيّم، مدارج السالكين: 1/ 48.

الشّرك والكُفر:

الكُفْرُ أعَـمُّ مِنَ الـشِّـرْكِ دَلالَـةً، وأكْثَرُ خِصالًا

بَيْنَ لَفْظَيْ: (يُشْرِكونَ) و(يَكفُرونَ) عُمومٌ وخُصوصٌ، فيُخَصُّ الشِّرْكُ بِعَبَدَةِ الأَوْثانِ وغَيْرِها مِنَ المَخْلوقاتِ، مَعَ اعْترافِهِم باللّه تَعالى رَبًّا، كَكُفّارِ قُرَيْش، فيَكونُ الكُفْرُ أعَمَّ مِنَ الشِّرْكِ[1]، وكَذَلِكَ الكُفْرُ خِصالٌ كَثيرَةٌ، وكُلُّ خَصْلَةٍ مِنْها تُضادُّ خَصْلَةً مِنَ الإيمانِ؛ لِأَنَّ العبْدَ إذا فعَلَ خَصْلَةً مِنَ الكُفْرِ، فقَدْ ضَيَّعَ خَصْلَةً مِنَ الإيمانِ، وأمّا الشّرْكُ فهو خَصْلَةٌ واحِدَةٌ، وهو إيجادُ آلِهَةٍ مَعَ اللّه أوْ دونَ اللّه، واشْتِقاقُهُ يُنْبِئُ عَن هَذا المعْنى فلَفْظُ الشِّرْكِ مَأْخوذٌ مِنَ الشَّريكِ، فمَنْ لم يجْعَلْ لله شَريكًا فلَيْسَ مُشْرِكًا[2]. كَما يَظْهَرُ الفَرْقُ بَيْنَ الشّرْكِ والكُفْرِ في اخْتِلافِ نَقيضِهما، فنَقيضُ الشِّرْكِ في الحقيقَةِ الإخْلاصُ، ونَقيضُ الكفْرِ الإيمانُ[3].

(1) النّووي، شرح مسلم: 1/ 62.
(2) ابن حزم، الفِصل والنِّحل: 3/ 264.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 230.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾ [النّحل: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين خَلْق السّماواتِ والأرضِ، وخَلْق الإنسانِ الكَنودِ

لمّا كانَ خَلْقُ السّماواتِ والأرضِ غَيْبًا لتَقَدُّمِهِ، وكانَ خَلقُ الإنْسانِ على هَذِهِ الصِّفَةِ شَهادَةً، مَعَ كَونِهِ أدلَّ على ذلكَ مِن حيثُ إنَّهُ أشْرفُ مِنْ كُلِّ ما يَعْبُدُهُ مِنْ دونِ اللّه، ولَنْ يكونَ الرَّبُّ أدْنى مِنَ العبدِ أصْلًا، قال مُعَلِّلًا: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: أصْلُهُ (أنس)، والهمزَةُ والنّونُ والسّينُ أصلٌ واحدٌ، وهو ظُهورُ الشَّيءِ، وكُلُّ شيءٍ خالفَ طَريقَةَ التَّوحُّشِ، وقالوا: الإنْسُ خِلافُ الجِنِّ، وسُمّوا بذلك لِظُهورِهم، يُقالُ: آنسْتُ الشَّيءَ، إذا رأيتُهُ، قال اللّهُ تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ [النّساء: 6]، والأُنْسُ: أُنْسُ الإنسانِ بالشَّيءِ، إذا لم يَسْتوحِشْ مِنْهُ، والعربُ تقولُ: كيفَ ابْنُ إنْسِكَ؟ إذا سَألَهُ عن نفْسِهِ، ويُقالُ: إنْسانٌ وإنْسانانِ وأناسِيّ[2]، والإنْسانُ: قيلَ: سُمّيَ بذلكَ لأنَّهُ خُلِقَ خِلقَةً لا قِوامَ لَهُ فيها إلّا بأُنْسِ بعضِهِم ببَعْضٍ، ولهذا قيل: الإنسانُ مَدنيٌّ بالطَّبعِ، مِن حيثُ لا قَوامَ لبَعضِهِم إلّا ببَعْضٍ، ولا يُمكِنُه أنْ يقومَ بجميعِ أسبابِهِ، وقيلَ: سُمّيَ بذلكَ لأنَّهُ يأنَسُ بكُلِّ ما يَألَفُهُ؟ وقيلَ: هو إفعِلان، وأصلُهُ: إنسِيان، سُمّيَ بذلك لأنَّهُ عَهِدَ اللّهُ إلَيْهِ فنَسِيَ[3]، ولَفْظُ إنسانٍ هو فعْلانٌ مِنْ (أنس)، والألِفُ والنّونُ في آخرِهِ زائدتان، لا يجوزُ فيه غيرُ هذا البَتَّةَ؛ إذ ليسَ في كلامِهِم: أنْسَنَ، حَتّى يكونَ (إنسان) إفْعالًا مِنْهُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 106.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنس).
(3) الرّاغب، المفردات: (أنس).

ولا يجوزُ أنْ يكونَ الألفُ والنّونُ في أوّلِهِ زائدتين؛ إذ ليسَ في كلامِهِم: انْفَعَلَ، فيَتَعَيَّنُ أنّهُ فِعلان مِنَ الأُنْسِ، ولَوْ كانَ مُشْتَقًّا من نَسِيَ؛ لكانَ نِسْيانًا لا إنْسانًا[1]، والّذي جاءَ في القرآنِ من التّركيب هو (إيناسُ) النّارِ والرُّشْدِ، و(الاسْتِئْناسِ)، و(الإنْس) مُقابِلُ الجنِّ، والنِّسْبَةُ إليْهِ، و(الإنسانُ)، وجمعُهُ: (أناسِيّ)، و(النّاسُ): المعتمَدُ أنَّهُ اسمُ جَمعٍ للإنْسانِ، كقوم ورَهْطٍ[2].

2) ﴿نُّطْفَةٍ﴾: أصلُها (نطف)، والنّونُ والطّاءُ والفاءُ أصْلانِ؛ أحَدُهُما: جِنْسٌ مِنَ الحَلْيِ، والآخَرُ: نُدوَّةٌ وبَلَلٌ، ثُمَّ يُسْتَعارُ ويُتوسَّعُ فيهِ، فالأوّلُ: النَّطَفُ، يُقالُ: هو اللُّؤْلُؤُ، الواحِدَةُ نَطَفَةٌ، ويُقالُ: بَلِ النَّطَفُ: القِرَطَةُ، والأَصْلُ الآخَرُ النُّطْفَةُ: الماءُ الصّافي، ولَيْلَةٌ نَطوفٌ: مَطَرَتْ حَتّى الصَّباحِ، والنِّطافُ: العَرَقُ. ثُمَّ يُسْتَعارُ هذا فيُقالُ: النَّطَفُ: التَّلَطُّخُ، ولا يَكادُ يُقالُ إلّا في القَبيحِ والعَيْبِ، ويُقالُ: نَطِفٌ، أيْ: مَعِيبٌ، ونَطِفَ الشَّيْءُ: فسَدَ[3]، والنُّطْفَةُ والنَّطافَةُ: القليلُ مِنَ الماءِ يَبْقى في القِرْبَةِ، وبِهِ سُمّي المَنيّ نُطفةً، وفي التَّنْزيل العزيز: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: 37]، ولم تَأْتِ في القُرآنِ الكَريمِ مِنْ هذا التَّرْكيبِ إلّا كَلِمَةُ (نُطْفَةٍ) بِهذا المَعْنى، وهو المَعْنى المَقْصودُ في الآيَةِ[4].

3) ﴿خَصِيمٌ﴾: فعيلٌ مِنْ (خَصَم)، والخاءُ والصّادُ والميمُ أصْلانِ؛ أحَدُهُما: المُنازَعَةُ، والثّاني: جانِبُ وِعاءٍ، فالأوَّلُ الخَصْمُ الَّذي يُخاصِمُ، والذَّكَرُ والأُنْثى فيهِ سَواءٌ، والخِصامُ: مَصْدَرُ خاصَمْتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا، وقَدْ يُجْمَعُ الجَمْعُ عَلَى خُصوم، والأَصْلُ الثّاني: الخُصْمُ جانِبُ العِدْلِ الَّذي فيهِ العُرْوَةُ، ويُقالُ: إنَّ جانِبَ كُلِّ شَيْءٍ خُصْمٌ، وأَخْصامُ العَيْنِ: ما ضُمَّتْ عَلَيْهِ الأشْفارُ، ويُمكِنُ أنْ يُجْمَعَ بَيْنَ الأَصْلَيْنِ فيُرَدَّ إلى مَعْنى واحِدٍ؛ وذَلِكَ أنَّ جانِبَ العِدْلِ مائِلٌ إلى أحَدِ الشِّقَّيْنِ، والخَصْمُ المُنازِعُ في جانِبٍ، فالأَصْلُ واحِدٌ[5]، والتَّخاصُم لا يَكونُ إلّا مَذْمومًا، ولم يَرِدْ في القرآنِ الكريم سِوى للدّلالَة على الاخْتِلافِ المُفْضي إلى التّنازُعِ فقَطْ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ [النساء: 105]، ومِنْهُ الخَصيمُ

(1) ابن القيّم، التفسير القيّم، ص: 681.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نطف).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نطف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خصم).

في هذِهِ الآيةِ، فهو مخاصِمٌ لربِّه، مُنْكِرٌ على خالقِه، قائِلٌ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: 78]، أو هو منطيقٌ مُجادِلٌ عَنْ نَفْسِه، مُكافِحٌ للخُصومِ باللَّدَدِ والجَدَلِ والسَّفسَطَةِ، وما إلى ذَلكَ مِن ضُروبِ الوقاحَةِ والشِّرَّة(1).

4) ﴿مُّبِينٞ﴾: بانَ الحَقُّ يَبِينُ بَيانًا فهو بائِنٌ، وأبانَ يُبِينُ إبانَةً فهو مُبِينٌ، بِمَعْنَى الظُّهورِ، والباءُ والياءُ والنّونُ أصْلٌ واحِدٌ وهو بُعْدُ الشّيْءِ وانْكِشافُهُ، فالبَيْنُ: الفِراقُ، يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبَيونُ: البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ، والبَيْنُ: قِطْعَةٌ مِنَ الأرْضِ قَدْرُ مَدِّ البَصَرِ(2)، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الزّخرف: 1 - 2]، أيْ: والكِتابِ البيِّنِ، وقيلَ: مَعْنَى المُبينِ: الّذي أبانَ طُرُقَ الهُدى مِنْ طُرُقِ الضّلالَةِ، وأبانَ كُلَّ ما تَحْتاجُ إلَيْهِ الأُمَّةُ(3)، وقَدْ جاءَتْ كُلُّ مُفْرداتِ التَّركيبِ القرآنيَّةِ - عَدا الظَّرفِ (بَيْنَ) - مِنْ مَعْنَى الوُضوحِ والظُّهورِ، وبانَ الشَّيءُ: اتَّضَحَ فهو بَيِّنٌ (كسَيِّدٍ)، والبَيانُ: ما بُيِّنَ بِهِ الشَّيءُ، مِن الدّلالَةِ وغَيْرِها: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ﴾ [آل عمران: 118](4)، فيَكونُ معنى (المبينِ) صِفَةً للإنْسانِ في هَذِهِ الآيةِ بِمَعْنَى: الموضِّحِ عَمّا في نَفسِه بالجَدَلِ والحُجَجِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جُـرْأةُ الإنْـسانِ عَـلـى ربِّـهِ، بنسْيانِ أصْلِهِ، ونكرانِ إحسانه الفيّاض

خَلقَ اللّهُ الإنسانَ مِن ماءٍ مَهينٍ، فإذا بِهِ يَقْوى ويَغترُّ، فيُصْبِحُ شَديدَ الخُصومَةِ والجِدالِ لِرَبِّه في إنْكارِ البَعْثِ، وغَيْرِ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: 78]، ونَسيَ اللّهَ الّذي خَلَقَهُ مِنَ العَدَمِ(5).

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 269.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون، بين).
(5) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 267.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ فصْلِ جُملَةِ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ عمّا قبلها:

اختصاصُ الله تعالى بالخلق، والاستدلال بالمعلوم بعد الاستدلال بالمشاهد

ورَدَ قولُهُ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ مَفْصولًا عَنْ قَوْلِهِ في الآيَةِ السّابِقَة: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾؛ لأنَّهُ استئنافٌ بَيانيٌّ، ناشِئ عَنْ قَوْلِه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ لِأَنَّهُم إذا سَمِعوا ذَلِكَ تَرَقَّبوا دَليلَ تَنْزيهِ اللّه عَنْ أنْ يَكونَ لَهُ شُرَكاءُ، فابْتُدِئَ بالدّلالَةِ عَلَى اخْتِصاصِهِ بالخَلْقِ والتَّقْديرِ، وذَلِكَ دَليلٌ عَلَى أنَّ ما يُخْلَقُ لا يوصَفُ بالإلَهيَّة.

وهو استِدْلالٌ آخَرُ على انفرادِهِ تَعالى بالإلَهيَّةِ ووحْدانيَّته فيها، وذَلكَ أنَّهُ بَعْدَ أن استَدَلَّ عليهم بخَلْقِ العَوالِمِ العُليا والسُّفلى، وهي مُشاهَدَةٌ لديهم؛ انْتَقَلَ إلى الاسْتِدْلالِ عَلَيْهِم بخَلْقِ أنفُسِهِم المعلوم لهُم، وأيْضًا لـمّا استدَلَّ على وحْدانيَّته بخَلْقِ أعْظَمِ الأشياءِ المَعْلومَة لَهُم، اسْتَدَلَّ عَلَيْهِم أيْضًا بِخَلْقِ أعْجَبِ الأشْياءِ للمُتَأمِّلِ، وهو الإنْسانِ في طَرَفَيْ أطْوارِهِ مِنْ كونِهِ نُطْفَةً مَهينَةً، إلى كَوْنِهِ عاقِلًا فصيحًا مُبينًا بِمَقاصِدِهِ وعُلومِه[1].

بَلاغَةُ اسْتِعمالِ الماضي ﴿خَلَقَ﴾:

الدّلالَةُ على مَبْدَأ خَلْقِ الإنْسانِ، واسْتِمرارِ نَسْلِهِ مع الزّمان

ورَدَ الفعلُ ﴿خَلَقَ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ بِصيغَةِ الماضي للإخْبارِ بأنَّ خَلْقَ الإنْسانِ مُتقدِّمٌ بعدَ خَلْقِ السّماواتِ والأرْضِ، وذَلِكَ أنَّ الإخبارَ عَنِ الشّيْءِ بِصيغَةِ الماضي يَقْتَضي كَوْنَ المُخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا على ذَلِكَ الإخْبارِ[2]، والإخْبارُ كَذلكَ بِصيغَةِ الماضي مُضَمَّنُهُ الدَّوامُ والاسْتِمرارُ[3]، فالخالِقُ ﷻ ابتدَأَ خَلْقَ الإنْسانِ الأوَّلِ آدَمَ مِنْ طينٍ، ويخلقُ سُبْحانَهُ ما يشاءُ مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 102.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

(3) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 5/ 377.

بني آدمَ مِن ماءٍ مَهينٍ، وفي الحديثِ: "يا أبا هُرَيْرَة، إنَّ اللّهَ خلقَ السَّماواتِ والأرضَ وما بينَهُما في ستَّةِ أيّام، ثمَّ استَوى علَى العَرشِ يومَ السّابعِ، وخلقَ التُّربةَ يومَ السَّبتِ، والجِبالَ يومَ الأحَدِ، والشَّجرَ يومَ الاثنَين، والشَّرَّ يومَ الثُّلاثاءِ، والنّورَ يومَ الأربعاءِ، والدَّوابَّ يومَ الخَميسِ، وآدمَ يومَ الجمُعةِ في آخرِ ساعةٍ مِنَ النَّهارِ بعدَ العصرِ، خَلقَه مِن أديم الأرضِ بأحمرِها وأسودِها، وطيِّبِها وخبيثِها، مِن أجلِ ذلكَ جعلَ اللّهُ مِن آدمَ الطَّيِّبَ والخَبيثَ"(1).

سِرُّ استِتارِ فاعِلِ ﴿خَلَقَ﴾:

اعْتِرافُ الكُفّارِ بأنَّ اللهَ هو الخالقُ للأشْياءِ كُلِّها

في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ ورَدَ فاعلُ الفِعْلِ ﴿خَلَقَ﴾ مُستَتِرًا؛ لدلالَةِ السّياقِ عَلَيه، فكُلُّ ما سَبَقَهُ مِنْ كلامٍ ابتداءً من قَوْلِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، هو عَنِ اللّه ﷻ، وكَذَلكَ فإنَّهُ مِنَ المقَرَّرِ في النَّحْوِ، أنَّ الفاعِلَ إذا كانَ مَعْلومًا جازَ عدمُ ذِكرِه، وفي البلاغة إذا كان كذلك فإنه يَحْسُن عدمُ ذِكْره، بحيث يكون إضمارُه مقدّمًا على ذِكْره، ولا يُقَدَّم الذِّكْر على الإضمار في هذه الحالة إلّا لتحقيق فائدةٍ أعلى مِن فائدة الإضمار، وكَوْنُ الخالِقِ هو اللّه ﷻ أمرٌ مَعلومٌ حَتّى عِنْدَ الكُفّارِ، قالَ تَعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: 61]، فالمشْركونَ كانوا يَعْترفونَ بأنَّ اللّه هو الخالقُ للأشْياءِ كُلِّها، ومَعَ هذا يَعْبُدونَ مَعَهُ غَيْرَهُ.

دَلالَةُ ابتداءِ الآيَتَيْنِ بفِعل: ﴿خَلَقَ﴾:

الخَلْقُ أعظَمُ الأدِلَّةِ على الانفِرادِ بالإلهيَّةِ والوحْدانيَّة

ابْتَدَأ قَولُهُ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، وقَولُهُ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ بِفِعلِ ﴿خَلَقَ﴾؛ لأنَّ الخَلْقَ أعظَمُ الأدِلَّةِ على انفرادِ الخالقِ ﷻ بالإلَهيَّةِ ووحدانيَّتِه فيها، وقَدْ تَكَرَّرَ الاستِدْلالُ على وحدانيَّةِ اللّه ﷻ بالخَلْقِ في مَواضِعَ كثيرةٍ مِنَ القُرآنِ؛ إفْحامًا

(1) أخرجه النّسائيّ في السّنن الكبرى، برقم: (11392).

لِلمُشركينَ، وتَنْبيهًا عَلى عَظَمَتِه، وأنَّهُ لا تَنْبَغي العِبادَةُ إلّا لَهُ دونَ ما سِواهُ مِنَ الأوْثانِ، الَّتي لا تَخْلقُ شَيْئًا بَلْ هُم يُخْلَقون: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾ [لقمان: 11]، ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النّحل: 17].

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

تَعريفُ الجِنْسِ يَقتَضي العُمومَ، وهو مِن فصيح البيان

ورَدَ لَفْظُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ مُعَرَّفًا بأداةِ التَّعريفِ (أل)، الدّالَّة على تَعريفِ الجِنْسِ المقتَضي للعُموم، أيْ: خَلَقَ الجِنْسَ المعلومَ الّذي تَدْعونَهُ بالإنْسانِ.

وقَدْ ذُكِرَ للاعْتِبارِ بِخَلْقِ الإنْسانِ ثلاثةُ اعْتِباراتٍ: جِنْسُهُ المَعْلومُ بماهيَّتِهِ وخَواصِّهِ مِنَ الحيوانيَّةِ والنّاطقيَّةِ وحُسْنِ القَوامِ وبَقيَّةِ أحوالِ كونِهِ، ومَبْدَأُ خَلْقِهِ وهو النُّطفَةُ الّتي هيَ أمهَنُ شَيْءٍ نَشَأَ مِنْها أشْرَفُ نَوْعٍ، ومُنْتَهى ما شَرَّفَهُ بِهِ وهو العَقْلُ[1].

سِرّ استعمالِ حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾:

ابتداءُ خَلْقِ الإنسانِ خَلْقًا بَديعًا مِنْ نُطفَةٍ مَهينة

ورَدَ في قولِهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ لَفظُ ﴿نُّطۡفَةٖ﴾ مَجْرورًا بِحَرْفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ الدّالِّ على ابتداءِ خَلْقِ الإنسانِ خَلْقًا بَديعًا مِنْ نُطفَةٍ، فيَصيرُ إلى خَصائِصِ نَوْعِه، وأكْرِم بنوعِ الإنسانِ تَفْكيرًا ومَقْدِرةً وعَمَلًا، فاسْتَحَقّ التَّكْريمَ بقوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء: 70].

دَلالةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿نُّطۡفَةٖ﴾:

تحقيرُ أصلِ بدايةِ خلقِ الإنسان

تنكير لفظ ﴿نُّطۡفَةٍ﴾ للتّحقير كما في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾ [عبس 18 - 19][2]، وبقرينة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾، على معنى هذا الإنسان الذي خَلقه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 102.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 41.

اللّهُ مِن نطفة حقيرة، يتكبّر على ربّه، فلا يُؤمِن به، ويخاصمُه خِصامًا مُبينًا.

تَوجيهُ المَتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

أطوارُ خَلْقِ الإنْسانِ ومُناسَبَتُها للسّياقِ القُرآني

ورد الحديثُ عن خَلْق الإنسان في مواقع شتّى مِن سور القرآن، عبّرت عنه الآياتُ التّالية: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النّحل: 4]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: 26]، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرّحمن: 14]، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق: 2]. ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: 37].

أمّا آيةُ النَّحلِ فقد ورَدَتْ لإبرازِ المفارَقةِ بينَ ما يكونُ عليهِ الإنسانُ عندَ الخلقِ، وما يكونُ عليْهِ بعدَهُ خاصّةً حينَ يبلُغُ أَشُدَّهُ، فلَمّا كانَتْ حالَتُهُ عِنْدَ بُلوغِ الأشُدِّ أنّه خصيمٌ مبينٌ، أي: شديدُ الخُصومَةِ مَعَ اللّه، شديدُ البيانِ؛ لذلِكَ ناسَبَهُ بيانُ أنَّهُ حينَ خُلِقَ لا حِسَّ بِهِ ولا حركةً اختياريَّةً عِندَهُ بوجْهٍ؛ لأنّهُ خُلِقَ مِن ماءٍ صافٍ، وهو ماءُ الرَّجُلِ، أيْ: مِنْ نُطفَةٍ، فناسَبَهُ قولُهُ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾.

وأمّا آيةُ العَلَقِ: فيَسبِقُها قولُهُ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: 1]، فلَمّا كانَ الرَّسول ﷺ لا يَستطيعُ القِراءَةَ، ويَتَعَلَّقُ بِمَنْ يُعلِّمُهُ القِراءَةَ، فأرشَدَهُ ربُّهُ إلى مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ وهو اللّه؛ ناسَبَهُ أن تَكونَ مادَّةُ الخلْقِ ممّا يَشْتَدُّ تَعَلُّقُها بما تَمَسُّهُ، أي: مِنْ دَمٍ رَطْبٍ يَعْلَقُ بما يَمُرُّ عَلَيْهِ لِرُطوبَتِه، بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق: 2].

وكَذلكَ آيةُ الحِجْرِ: يَسْبِقُها قَولُهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر: 25]، فلَمّا كانَ الحَشْرُ جمعَ الخَلْقِ إلى مَكانٍ بحيثُ يَكونونَ مُهَيَّئِينَ للثَّوابِ والعِقابِ؛ ناسَبَهُ أَنْ تَكونَ مادَّةُ الخَلْقِ مُهَيَّأَةً لِعَمَلِ ما يُرادُ مِنها، أي: طينًا أَسْوَدَ مُنْتِنًا اشْتَدَّ يُبْسُهُ غَيْرَ مَطْبوخٍ، له عِنْدَ النَّقْرِ صَلْصَلَةٌ، مَصْبوبًا مُهَيَّئًا لِعَمَلِ ما يُرادُ مِنْهُ

بالدَّلْكِ والتَّحسينِ مِنَ الذَّهابِ والاضْطِرابِ، على طَبْعٍ وطَريقَةٍ مُسْتَوِيَةٍ، وكُلُّ ذلكَ على غايَةِ السُّهولَةِ والطَّواعيَةِ، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٢٦﴾ [الحجر: 26].

وأمّا آيةُ الرّحمنِ: فقَدْ ورَدَتْ في سياقِ ذِكْرِ عَظيمِ الآلاءِ الدّالّةِ على عَظيمِ قُدْرَةِ اللهِ وإحْسانِهِ للإنْسانِ، فناسَبَهُ أَنْ تكونَ مادَّةُ الخَلْقِ قَدْ بلغتْ غايَةَ التَّخليقِ، بأن صارَ الطّينُ يابسًا في غايَةِ الصَّلابةِ، فصارَ كالخَزَفِ المَصْنوعِ المَشْوِيِّ الّذي إذا نُقِرَ عليْهِ كانَ لهُ صوْتٌ، بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ١٤﴾ [الرّحمن: 14].

وأمّا قَوْلُهُ تَعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: 37] فقَدْ رويَ أنَّ مَعناهُ خُلِقَ مِنْ طينٍ[1]، والعَجَلُ بمعْنى الطّينِ قَدْ حُكيَ مِنْ كلامِ العَرَبِ، رواهُ أبو عُمَرَ عَنْ أبي العبّاس، ونُقِلَ عنِ ابْنِ الأعْرابيّ، وهو صَحيحٌ، ولَكِنَّهُ لا يَصِحُّ تَفْسيرُ هذه الآيَةِ بِهِ، ولا يَليقُ بالمَعْنى المُرادِ مِنَ الآيَةِ، وجُمهورُ العُلَماءِ على أنَّ مَعناهُ: أنَّهُ رُكِّبَ عَلى العَجَلَةِ فخُلِقَ عَجولًا، كَما قال اللهُ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الرّوم: 54]، أي: خُلِقَ الإنْسانُ ضَعيفًا[2].

دلالةُ التَّركيبِ ﴿فَإِذَا﴾ وأثرُها في السّياق:

المُفاجَأةُ والتَّفريعُ أشَدُّ ما يعبَّرُ به عَنِ السُّرعَةِ

ورَدَ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ استعِمالُ لفظِ ﴿فَإِذَا﴾ المُركَّبِ مِنَ (الفاءِ) و(إذا)، فأمّا هَذهِ الفاءُ فتُسَمّى (فاءَ التَّفْريع)، وهيَ تُفيدُ أنَّ الكَلامَ بَعْدَها مُتَرَتِّبٌ على الكَلامِ الذي قَبْلَها، فصَيْرورَةُ الإنْسانِ خَصيمًا مُبينًا مُفَرَّعٌ ومُتَرَتِّبٌ عَنْ خَلْقِهِ نُطْفَةً، وأمّا (إذا) فهيَ لِلمُفاجَأةِ، أي: الحُصولِ دونَ تَأْخيرٍ، فحَصَلَ تَأكيدُ مَعْنى التَّفْريعِ الّذي أفادَتْهُ الفاءُ، والعَطْفُ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 77.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 288.

بالفاءِ لِتحْقيقِ ذلكَ المعْنى الّذي أفادَتْهُ (إذا)؛ لِأنَّ الجمعَ بَيْنَ المفاجَأةِ والتَّفريعِ أشَدُّ ما يُعبَّرُ به عَنِ السُّرعَةِ مَعَ إيجازِ اللَّفْظِ[1].

بَلاغَةُ المَجازِ المُرسَل:

تَسْمِيَةُ الشَّيْءِ باعتِبارِ ما يَؤولُ إليهِ مَهْيَعٌ مَطْروقٌ

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ مَجازٌ مُرسَلٌ، وهو في قولِهِ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾؛ لِأنَّ الفاءَ تَدُلُّ عَلى التَّعقيبِ، وكونِهِ خَصيمًا مُبينًا لا يكونُ عَقِبَ خَلْقِهِ مِنْ نُطفةٍ، ولَكِنَّهُ إشارَةٌ إلى ما تؤولُ إليهِ حالُهُ، فهو مجازٌ مُرسَلٌ، والعلاقَةُ اعتبارُ ما سَيكونُ، كقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: 36] أيْ: عِنَبًا يَؤولُ إلى الخَمرِ[2].

دلالَةُ الجُملَةِ الاسْميَّةِ:

خُصومَةُ الإنْسانِ وجِدالُهُ طَبعٌ راسِخٌ فيه

ورَدَ في قوله تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ اسْتِعْمالُ الجُملَةِ الاسْميَّةِ ﴿هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾؛ لِدَلالَتِها عَلى الاسْتِقْرارِ والثّبوتِ، بِخِلافِ الجُملَةِ الفِعْليَّةِ، وقَدْ قَرَّرَ العُلَماءُ أنَّ مَوْضوعَ الاسْمِ عَلى أنْ يَثْبُتَ به المَعْنى لِلشَّيْءِ مِنْ غَيرِ أنْ يَقْتَضيَ تَجَدُّدَهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وأمّا الفِعْلُ فمَوْضوعُهُ على أنَّهُ يَقْتَضي تَجدُّدَ المعْنى المُثْبَتِ به شَيْئًا بَعْدَ شَيءٍ[3]، فخُصومَةُ الإنْسانِ وجِدالُهُ صِفَةٌ ثابِتَةٌ لَهُ، لا مَحيدَ لَهُ عَنْها.

بَلاغَةُ صيغَةِ المبالَغَة:

مُبالَغَةُ الإنْسانِ في الخُصومَةِ والجِدالِ، طبعٌ له في كلّ حال

ورَدَ في قولِهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ لَفظُ ﴿خَصِيمٞ﴾ على وزْنِ (فَعيل)، الّذي وهو مِنْ أوْزانِ المبالَغَةِ لاسْمِ الفاعِلِ؛ للدّلالَةِ عَلى تَكْثيرِ صُدورِ الفِعْلِ مِنْهُ، وكَوْنُ الإنْسانِ شَديدَ الخُصومَةِ فيهِ مَعْنَيانِ؛ أحَدُهما: أنّهُ خَصيمٌ لِرَبِّهِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 72.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 274.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 174.

مُنْكِرٌ على خالِقِه، قائِلٌ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: 78]، والثّاني: فإذا هو مِنْطيقٌ مُجادِلٌ عَنْ نَفْسِه، مُكافِحٌ لِلْخُصوم باللَّدَدِ والجَدَلِ والسَّفْسَطَةِ، وما إلى ذَلِكَ مِنْ ضُروبِ الوقاحَةِ والشِّرَّة[1].

نُكْتَةُ التّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿مُّبِينٞ﴾:

تَفْضيلُ الإنْسانِ بالفَصاحَةِ والبَيانِ

ورَدَ في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ وصْفُ الإنْسانِ بأنَّهُ ﴿مُّبِينٞ﴾، والمقصودُ مِنْ هَذا الوصْفِ: أنَّهُ مُتَكَلِّمٌ مُفْصِحٌ عمّا في ضَميرِهِ ومُرادِه، بالحَقِّ أوْ بالباطِلِ، والمَنْطِقِ بأنواعِ الحُجَّةِ حتّى السّفْسَطَةِ، والمقْصودُ: جدالُهُ في إثْباتِ الشُّركاءِ، وإبْطالِ الوحْدانيَّةِ، وتَكْذيبِ مَنْ يَدْعونَ إلى التَّوحيدِ[2].

تَوْجيهُ المتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

تَذْكيرُ الإنْسانِ بِمَنْشَئِهِ، وذَمُّهُ على جُرْأتِهِ عَلى رَبِّهِ

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾، وورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾ [يس: 77]، فتَشابَهَتِ الآيَتانِ في ذِكْرِ مَنْشَأ الإنْسانِ مِنْ ماءٍ ضَعيفٍ، وهيَ النُّطْفَةُ، وكَيْفَ يَصيرُ بعدَ ذَلكَ مُجادِلًا فصيحًا، غَيْرَ أنَّ سياقَ آيةِ النَّحلِ يَخْتَلِفُ عَنْ سياقِ آيةِ يس، في أنَّ آيةَ النَّحلِ سُبِقَتْ بآياتِ الاسْتِدلالِ عَلى وُجودِ الإلهِ الحكيمِ الخبيرِ، فذَكَرَ قَبْلَها خَلْقَ السّماواتِ والأرضِ بقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، ثُمَّ أتْبَعَها بِذِكْرِ الاستِدْلالِ عَلى هَذا المطْلوبِ بالإنْسانِ، أيِ: الاسْتِدْلالِ بأحوالِ نَفْسِه عَلى وُجودِ الصّانِعِ الحَكيمِ[3]، ثُمَّ خَلْقِ الأنْعامِ على سَبيلِ التَّدَنّي مِنَ الأعْلى إلى الأدْنى.

أمّا آيةُ سورةِ يس: فسياقُها العِتابُ والذَّمُّ لِلإنسانِ بِنِسْيانِ أصْلِه المَهينِ، ليَتَجَرّأ بعد ذلكَ عَلى خالِقِهِ الكَريمِ ﷻ، ودَليلُ ذَلكَ ما رويَ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 269.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 102.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 172.

في سَبَبِ نُزولها: أنَّ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ أتى النّبيَّ ﷺ بعَظْمٍ رَميم، وقالَ: يا مُحَمَّدُ! أترَى اللّهَ يُحيي هذا بعدَما قَدْ رَمَّ؟! فقالَ النّبيُّ ﷺ: "نَعَم، ويُدْخِلُكَ النّارَ"[1]، فاتَّضَحَ بهذا: الفَرْقُ بَيْنَ سياقَي الآيَتَيْنِ، والغَرَضُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُما.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

خَلَقَ وجَعَلَ:

المعنى يتنقّل بين عُمومِ الجَعْلِ، وخُصوصيَّةِ الخَلْقِ

يَظْهَرُ الفَرقُ بينَ لفظِ الخَلْقِ ولفظِ الجَعْلِ، في كَوْنِ الجَعْلِ في اللُّغَةِ: التَّهيئَةَ والصُّنْعَ، وتَصييرَ الشَّيءِ مِنْ حالةٍ إلى حالةٍ، أمّا الخَلْقُ في اللُّغَةِ: فهو تَقْديرُ الأشْياءِ وإيجادُها على مثالٍ لم يُسْبَقْ إلَيْهِ[2]، فاسْتَخْدَمَ القرآنُ الفعلَ (خَلَقَ) في الآياتِ الّتي تتحدَّثُ عَنْ بدايَةِ خَلْقِ آدمَ عليه السلام، وخَلْقِ حَوّاءَ مِنْ ضِلْعِه، فناسَبَ فيها استِخْدامُ لَفْظِ (الخَلْقِ)؛ للدَّلالَةِ على الأوَّليَّةِ المَقْصودَةِ.

وأمّا الفِعْلُ (جَعَلَ) فيرِدُ في السّياقِ القُرْآنيِّ في مَعْنًى آخَرَ غَيْرِ مَعْنى الأوَّليَّةِ والبِدايَةِ، فكَثيرًا ما يُستعمَلُ بمعنى صَيَّرَ وهَيَّأَ، ولَعَلَّ الفارقَ الدّلاليَّ في الاستِخْدامِ القُرْآنيِّ للفِعْلَيْنِ (جَعَلَ، وخَلَقَ) يَتَّضِحُ بجَلاءٍ تامٍّ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، فعَبَّرَ عن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بلفظِ ﴿خَلَقَ﴾؛ لأنّ السّماواتِ والأرضَ أجْرامٌ تحتاجُ إلى التَّقْديرِ والإيجادِ ابتداءً، وعَبَّرَ عَنِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ بلَفْظِ ﴿وَجَعَلَ﴾؛ لأنَّ الظُّلُماتِ والنّورَ مخلوقاتٌ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ، إذْ هما تَبَعٌ للسّماواتِ والأرضِ، فناسَبَ ذَلِكَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ (جَعَلَ) الدّالِّ على التَّهْيِئَةِ وإنْشاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ سابقٍ.

(1) الواحديّ، أسباب النزول، ص: 158.
(2) الرّاغب، المفردات: (خلق).

يَقولُ الزَّمخشَريُّ: "والفَرْقُ بَيْنَ الخلقِ والجعلِ: أنَّ الخَلْقَ فيهِ مَعْنى التَّقديرِ، وفي الجَعْلِ معنى التَّضمينِ، كإنشاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، أوْ نَقْلِهِ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ"[1].

وبناءً على النَّظرِ في الاستخدامِ القُرآنيِّ لِكَلِمَتَيْ (جَعَلَ، وخَلَقَ)، يَظْهَرُ اشتراكُهُما في مَعْنى إحْداثِ الشَّيءِ، غَيْرَ أنَّ المَلْمَحَ الدّلاليَّ المُمَيِّزَ لِكَلِمَةِ (خَلَقَ) هو: التَّقْديرُ والأوَّليَّةُ، في حينِ أنَّ المَلْمَحَ الدّلاليَّ المُمَيِّزَ لِكَلِمَةِ (جَعَلَ) هو: التَّضْمينُ والتَّهْيِئَةُ[2].

الإنسانُ والمَرْءُ:

المُـروءَةُ شيمَةٌ مِـن شـيَـمِ الإنْسانِ الكَريم

يَتَّضِحُ الفَرْقُ بينَ الإنسانِ والمَرءِ في أصْلِ اشتقاقِ كُلِّ لَفْظٍ مِنْهما، فلَفْظُ الإنْسانِ في أصلِ اشتقاقِهِ أقوالٌ، فقيلَ: سُمّيَ بذلِكَ؛ لأنَّهُ خُلِقَ خِلْقَةً لا قِوامَ لَهُ إلّا بأُنْسِ بَعْضِهِم بِبَعْضٍ، ولهَذا قيلَ: الإنْسانُ مَدَنيٌّ بالطَّبْعِ، مِنْ حيثُ لا قِوامَ لِبَعْضِهِم إلّا بِبَعضٍ، ولا يُمكِنُهُ أنْ يَقومَ بجميعِ أسبابِهِ. وقيلَ: سُمّيَ بذلِكَ؛ لأنَّهُ يَأْنَسُ بِكُلِّ ما يَأْلَفُهُ، وقيلَ: هو إفعِلان، وأصْلُهُ: إنْسِيان، سُمّيَ بذلِكَ؛ لأنَّهُ عَهِدَ اللّهُ إليهِ فنَسيَ[3]، ورُجِّحَ أنَّهُ فِعْلان، مِنَ الأُنْسِ، ولَوْ كان مُشْتَقًّا مِنْ نَسيَ لكانَ نِسْيانًا لا إنْسانًا[4].

أمّا المَرْءُ فهو مُشْتَقٌّ مِنْ صِفَةِ المُروءَةِ، والمُروءَةُ: كمالُ المَرْءِ، كما أنَّ الرُّجولَةَ كَمالُ الرَّجُلِ[5]، فيَكونُ بهذا بَيْنَ لَفْظِ (إنْسانٍ) ولَفْظِ (مَرْءٍ) عُمومٌ وخُصوصٌ، فلَفْظُ (إنسانٍ) أعَمُّ مُطْلَقًا مِنْ لفظِ (مَرْءٍ)؛ إذ لا يُطلَقُ عليه هذا الوصْفُ في الأصْلِ إلّا إذا تَحَلّى بالمُروءَةِ، وإنْ كانَ الاستِعْمالُ لا يَشْتَرِطُ ذلِكَ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 311.
(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 184.
(3) الرّاغب، المفردات: (أنس).
(4) ابن القيّم، التفسير القيّم، ص: 681.
(5) الرّاغب، المفردات: (مرأ).

النُّطْفَة والمَنيّ:

المَنيُّ مِنَ التَّقْدير، والنُّطْفَةُ داخِلةٌ في الخَلْقِ

يَظهَرُ الفَرقُ بينَ اللّفظَينِ في المَعْنى اللُّغَويِّ لكُلِّ لفظٍ مِنْهُما، فالنُّطفةُ في اللغَةِ: الماءُ القَليلُ الصّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ لِقلَّتِه، أمّا المَنِيُّ فهو مَأْخوذٌ مِنَ المَنَى مُخفَّفًا، ومَعْناهُ: التَّقديرُ، وسُمّي المَنيُّ بِذلِكَ؛ لأنَّهُ قُدِّرَ بِهِ الحَيواناتُ بالعِزَّةِ الإلَهيَّة. كَما يَتَّضِحُ الفرقُ بينهما: في أنَّ النُّطْفَةَ لم تَكُنْ نُطْفَةً إلّا بَعْدَ أنْ كانَتْ مَنيًّا، وأنَّ النُّطفَةَ مِنْ صِفَةِ المَنيِّ، لَكِنَّها تُسَمّى كَذَلِكَ إذا ما اسْتَقَرَّتْ في الرَّحِمِ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: 37]، ورُجوعًا إلى أصْلِ اللَّفظَتَيْنِ فإنَّ المَنيَّ يَبْقى مَناطَ التَّقْديرِ، ولَم يَبْرَحْ مَكانَهُ مِنْ حَيْثُ عَدَمُ دُخولِهِ الخَلْقَ، أمّا النُّطْفَةُ: فهي داخِلَةٌ في الخَلْقِ بعد قَرارِها في الرَّحِم، فهيَ مُهَيَّأَةٌ للتَّخْليقِ، لذا كانَ ذِكْرُ أطْوارِ خَلْقِ الإنْسانِ بِلَفْظِ (النُّطْفَة) دونَ (المَنيّ)، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1].

الخَصيم والمُجادِل:

الجدال مِنْهُ ما هو ممدوحٌ، ومِنْهُ ما هو مَذْمومٌ، أما الخصام فمذموم فقط

يَتَّضِحُ الفَرْقُ بينَ لَفْظِ (الخَصيم) ولفظ (المجادِل) في أصْلِ اشْتِقاقِ كُلِّ لفظٍ مِنْهُما، فالجِدالُ: المفاوضَةُ على سَبيلِ المنازَعَةِ والمغالَبَة، وأصْلُهُ مِنْ: جَدَلْتُ الحَبْلَ، أي: أحْكَمتُ فتْلَهُ، فكَأنَّ المُتجادِلَيْنِ يَفْتِلُ كُلُّ واحدٍ الآخَرَ عَنْ رَأْيِهِ، وقيلَ: الأصْلُ في الجِدالِ: الصِّراعُ وإسْقاطُ الإنْسانِ صاحِبَهُ على الجَدالَة، وهيَ الأرْضُ الصَّلْبَةُ[2].

أمّا الخِصامُ: فهو مَصْدَرُ خاصَمْتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا، وهو المنازَعَةُ[3].

ويَظْهَرُ الفَرْقُ بينهما أيضًا في العُمومِ والخُصوصِ: فالجِدالُ

(1) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 100.
(2) الرّاغب، المفردات: (جدل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خصم).

عامٌّ، مِنْهُ ما هو ممدوحٌ، ومِنْهُ ما هو مَذْمومٌ، فالمَدوحُ مَأْمورٌ بِهِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125] وأمّا التّخاصُمُ فلا يَكونُ إلّا مَذْمومًا، ولمْ يَرِدْ في القرْآنِ الكريمِ سِوى لِلدّلالَةِ عَلى الاخْتِلافِ المُفْضي إلى التّنازُعِ فقَطْ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النّساء: 105]، فاتَّضَحَ بهَذا الفَرْقُ بَيْنَهُما.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾

[النّحل: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ خَلْقِ الإنسانِ وجحودِه، بالامتنان عليه بِنِعْمَةِ الأنْعامِ ذاتِ المنافعِ الجمّة

لَمّا صارَ التَّوْحيدُ متقرَّرًا كالشَّمسِ بما ذكر من دليل الخلق، وكانَ كُلُّ ما في الكَوْنِ - مع أنَّهُ دالٌّ على الوحْدانيَّةِ - نِعْمَةً على الإنسانِ يجبُ عليه شُكْرُها؛ شَرَعَ يُعَدِّدُ ذَلكَ تَنْبيهًا له عَلى وُجوبِ الشُّكْرِ بالتَّبَرُّؤِ مِنَ الكفْرِ، فقالَ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ﴾ مُقَدِّمًا الحيواناتِ؛ لأنَّها أشْرَفُ مِنْ غيرِها، وقَدَّمَ منها ما يَنْفَعُ الإنسانَ؛ لأنَّهُ أجَلُّ مِن غيرِه، مُبْتَدِئًا بِما هو أوْلاها بالذِّكْرِ؛ لأنَّهُ أجَلُّها منفعَةً في ضَروراتِ المعيشَةِ، وألْزَمُها لمَنْ أُنْزِلَ الذِّكْرُ بلسانِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾: أصْلُها (نَعَمَ)، والنّونُ والعَيْنُ والميمُ فُروعُهُ كَثيرَةٌ، وهي على كَثْرَتِها راجِعَةٌ إلى أصْلٍ واحِدٍ يَدُلُّ عَلَى تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، ومِنْهُ النِّعْمَةُ: وهي ما يُنْعِمُ اللّٰهُ تَعالى بِهِ على عَبْدِهِ مِنْ مالٍ وعَيْشٍ، والنِّعْمَةُ: المِنَّةُ، وكَذا النَّعْماءُ، والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ وطيبُ العَيْشِ، قال اللّٰهُ تعالى: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧﴾ [الدّخان: 27]، والنُّعامَى: الرّيحُ اللَّيِّنَةُ، والنَّعَمُ: الإبلُ؛ لِما فيهِ مِنَ الخَيْرِ والنِّعْمَةِ، قالَ الفَرّاءُ: النَّعَمُ ذَكَرٌ لا يُؤَنَّثُ، فيَقولونَ: هَذا نَعَمٌ وارِدٌ، وتُجْمَعُ أنْعامًا، والأنْعامُ: البَهائِمُ، وهو ذَلِكَ القِياسُ، والنَّعامَةُ مَعْروفَةٌ لِنَعْمَةِ ريشِها[2]، والمعْنى المقصودُ في الآيةِ هو النَّعَمُ مُحَرَّكَةً: المالُ الرّاعي، والأنعامُ (جمعُه): الإبلُ والبَقرُ والغَنَمُ، سُمّيَتْ بذلكَ لطَراوةِ عيشِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 107.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).

صاحِبِها بها، ويُضافُ إلى ذلكَ: حِلُّ لحومِها وألبانِها، ومَنافعُ أصوافِها وأوْبارِها وجُلودِها، وكُلُّ ذلكَ مَنافِعُ طَيِّبَةٌ مُسْتَحَبَّةٌ، في مُقابِلِ حُرْمَةِ لحومِ البِغالِ والحَميرِ[1].

2) ﴿خَلَقَهَا﴾: مِنَ الفِعْلِ (خَلَقَ يَخْلُقُ خَلْقًا)، والخاءُ واللّامُ والقافُ أصْلانِ؛ أحدُهما: تقديرُ الشّيءِ، والآخَرُ: ملاسَةُ الشّيءِ، فأمّا الأوَّلُ فقولهُم: خَلقْتُ الأديمَ للسِّقاءِ، إذا قَدَّرْتُهُ، ومِنْ ذَلِكَ الخُلُقُ، وهيَ السَّجيَّةُ؛ لِأَنَّ صاحِبَهُ قَدْ قُدِرَ عَلَيْهِ، وفُلانٌ خَليقٌ بكذا، وأخْلِقْ به، أي: ما أخْلَقَهُ، أي: هو ممّن يُقَدَّرُ فيه ذلكَ، والخَلاقُ: النّصيبُ؛ لأنَّهُ قد قُدِّرَ لِكُلِّ أحَدٍ نَصيبُهُ، والخَلْقُ: خَلْقُ الكَذِبِ، وهو اخْتِلاقُهُ واختراعُهُ وتَقديرُهُ في النَّفْسِ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17]، وأمّا الأصْلُ الثّاني: فصَخْرَةٌ خَلقاءُ، أي: مَلْساءُ، ومِنْ هذا البابِ: أخْلَقَ الشَّيْءُ وخَلِقَ، إذا بَلِيَ، وأخْلَقْتُهُ أنا: أبْلَيْتُهُ؛ وذَلكَ أنَّهُ إذا أخْلَقَ املاسَّ[2]، والخَلْقُ المَذكورُ في الآيَةِ: هو خَلقُ اللّه، بمعْنى: تَهْيئَتِهِ سبحانَهُ مادةً ما لتَكونَ كائنًا سويًّا، بشرًا أو حيوانًا أو نباتًا أو نهرًا...، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54][3].

3) ﴿دِفْءٌ﴾: أصْلُهُ (دفأ)، والدّالُ والفاءُ والهَمزَةُ أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ البَرْدِ، فالدِّفْءُ: خِلافُ البَرْدِ، يُقالُ: دَفُؤَ يَوْمُنا، وهو دَفيءٌ، قالَ الكِلابيُّ: دَفِئَ، والأوَّلُ أعْرَفُ في الأوْقاتِ، فأمّا الإنْسانُ فيُقالُ: دَفِئَ فهو دَفْآنُ، وامرأةٌ دَفْأى، وثَوْبٌ ذو دِفْءٍ ودَفاءٍ، وما على فُلانٍ دِفْءٌ، أيْ: ما يُدْفِئُهُ، والإبِلُ المُدْفَأةُ: الكَثيرَةُ؛ لأنَّ بَعْضَها تُدْفِئُ بَعْضًا بِأَنْفاسِها، قالَ الأُمَويُّ: الدِّفْءُ عِنْدَ العَرَبِ: نِتاجُ الإبِلِ وألْبانُها، والانْتِفاعُ بها، وهو قَوْلُهُ جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾، ومِنَ البابِ الدَّفَأُ: الانْحِناءُ، وفي صِفَةِ الدَّجّالِ: "فيه دَفَأٌ"[4]، أي: انْحِناءٌ[5]، وأشْهَرُ مَعاني الدِّفْء هو خِلافُ البَرْدِ، وهو المَعْنى المَقْصودُ في الآيَةِ[6].

4) ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: أصْلُها (نفع)، والنّونُ والفاءُ والعَيْنُ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلافِ الضُّرِّ، ونَفَعَهُ

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نعم).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلق).

(4) أخرجه أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه: 2/ 291، برقم: (7892)، وسنده حسن.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دفأ).

(6) الرّاغب، المفردات: (دفئ).

يَنْفَعُهُ نَفْعًا ومَنْفَعَةً، وانْتَفَعَ بِكَذا[1]، والنَّفْعُ: ما يُسْتَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيْراتِ، وما يُتَوصَّلُ به إلى الخَيْرِ فهو خَيْرٌ، فالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ[2]، ومِنْ هَذا الأَصْلِ: الإفادَةُ والتَّقْوِيَةُ، جاءَ النَّفْعُ بمعْنَى ضِدِّ الضُّرِّ في القرآنِ كُلِّه، وذَلِكَ في كُلِّ شيءٍ بحسَبِه. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25]، والمعْنى في هذه الآية: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾: "الرُّكوبُ والحَملُ، وبَعْضُها الحَرْثُ والسَّقْيُ، واللَّبَنُ والزُّبْدُ والسَّمنُ، واللَّحْمُ، والجُلودُ، والعَظْمُ، وأثْمانُها تُشْتَرى بها سائِرُ مطالِبِ الحياةِ، كَما أنَّها كانَت مُهورًا ودياتٍ"[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعْمَةُ الأنْعامِ وكَثْرَةُ مَنافِعِها عطاءٌ مِنَ الله لخدمة الإنسان وراحته

مَعْنى الآيةِ أنَّ الأنْعامَ مِنَ الإبِلِ والبَقرِ والغَنَم خَلَقَها اللّهُ لكُم - أيّها النّاسُ - وجَعَلَ في أصْوافِها وأوْبارِها الدِّفْءَ، ومَنافِعَ أُخَرَ في ألْبانِها وجُلودِها ورُكوبِها، ومِنْها ما تَأْكُلونَ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نَوْعُ الواوِ في ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ ودلالَتُها:

عَطْفُ نِعْمَةِ الأنْعامِ على النِّعَمِ السّابِقَةِ

ورَدَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ اقترانُ لفظِ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ بحرفِ الواوِ الدّالَّةِ على العطفِ، ويجوز أن يُعْطَف ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ عطفَ المُفْرَدِ على المُفْرَدِ، عطفًا على الإنسان في قولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: (خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطفَةٍ والأنعامَ)، وهي أيضًا مخلوقةٌ مِن نطفةٍ، فيحصُلُ اعتبارٌ بهذا التّكوينِ العجيبِ، لِشَبهِهِ بتكوينِ الإنسانِ، وتكونُ جملة ﴿خَلَقَهَا﴾ بمتعلقاتها مستأنفةً، فيحصل بذلك الامتنانُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفع).
(2) الرّاغب، المفردات: (نفع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفع).
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 267.

ويجوزُ أن يكونَ مِن عطفِ الجُملةِ على الجملةِ، فيكونُ نَصبُ (الأنعام) بفعلٍ مُضْمَرٍ يُفَسِّره المَذكورُ بَعدَهُ على طريقة الاشتغال، والتّقدير: وخَلَقَ الأنعامَ خَلَقَها[1].

دلالة (أل) في لفظ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ وفائدتُها:

تكثيرُ الأنعامِ زيادةٌ في النِّعم على الإنسانِ

وردَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ ذكرُ لفظِ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ مَجموعًا؛ لشُمول أصنافِ الأنعامِ الأربعةِ: الإبِلِ، والبقر، والغنم، والمَعِز، وفي كثرتِها امتنانٌ على الإنسانِ بتوسيعِ مصادرِ رزقِهِ وانتفاعِهِ منها بكثيرٍ مِنَ المنافع.

وتَعريفُ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ هو تعريفُ الجنسِ المقتضي للعُموم، وهو الأنسبُ لسياقِ الامتنانِ، وإن كان أشهرُ الأنعامِ عند العرب الإبلَ، ولذلك يغلب أن يُطْلَق لفظُ الأنعام عندهم على الإبل[2].

سِرُّ تقديمِ المفعولِ به وبلاغتُه:

الاهتمامُ بما في الأنعامِ مِنَ الفوائدِ والمنافعِ المُسَخّرة للإنسان

وردَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ﴾ ذِكْرُ لفظِ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ مَنْصوبًا، ويجوزُ في تعليلِ انتصابه وجهان:

الأوّل: أن يكونُ معطوفًا على الإنسان في قولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾، أي: خَلَقَ الإنْسانَ من نطفةٍ والأنعامَ، وهيَ أيضًا مخلوقةٌ من نطفةٍ، فيحصُلُ اعتبارٌ بهذا التّكوينِ العجيبِ؛ لشبهِهِ بتكوينِ الإنسانِ، وتكونُ جملةُ ﴿خَلَقَهَاۖ﴾ بمتعلقاتها مستأنفةً، فيحصل بذلك الامتنانُ.

الثّاني: ويجوزُ أن يكونَ منصوبًا على الاشتِغالِ، فيكونَ نصبُ الأنعامِ بفعلٍ مضمَرٍ يفسِّرُهُ المذكورُ بعدَه، والتّقدير: وخَلَقَ الأنعامَ خَلَقَها، فيكونُ الكلامُ مُفيدًا للتّأكيدِ لقَصدِ تقويَةِ الحُكم؛ اهتمامًا بما في الأنعامِ مِنَ الفوائدِ، فيكونُ امتنانًا على المُخاطَبينَ، وتعريضًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 104.

بهم، فإنّهم كفروا نِعمَةَ اللّه بخَلْقها، فجَعَلوا مِن نِتاجِها لشُركائِهم، وجعلوا للّه نصيبًا، وأيُّ كُفرانٍ أعظمُ مِن أن يُتَقَرَّبَ بالمخلوقاتِ إلى غيرِ مَنْ خَلَقَها[1].

دلالَةُ الفِعلِ الماضي ﴿خَلَقَهَا﴾:

الدّلالَةُ على مَبْدأ المخلوقاتِ الّتي أوجدَها الله من عدمٍ بقيّوميّته

ورَدَ الفِعلُ ﴿خَلَقَهَا﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ﴾ بِصيغَةِ الماضي؛ للإخْبارِ بأنَّ خلقَ الأنعام متقدِّمٌ، وقد ورَدَ في الحديثِ الذي رواه مسلمٌ عن أبي هريرةَ ﵁ أنّه قالَ: أخَذَ رسولُ اللّه ﷺ بيَدي، فقال: "خلقَ اللّهُ التُّربةَ يومَ السَّبتِ، وخَلَقَ فيها الجبالَ يوم الأحَدِ، وخَلَقَ الشَّجَرَ يومَ الاثنينِ، وخَلَقَ المكروهَ يومَ الثُّلاثاءِ، وخَلَقَ النّورَ يومَ الأربعاءِ، وبَثَّ فيها الدّوابَّ يومَ الخميسِ، وخَلَقَ آدمَ بعد العَصْرِ من يومِ الجُمعة"[2]؛ وذَلِكَ أنَّ الإخبارَ عَنِ الشّيْءِ بصيغَةِ الماضي يَقْتَضي كَوْنَ المُخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا على ذَلِكَ الإِخْبارِ[3]، والإخْبارُ كذلكَ بصيغةِ الماضي مُضَمَّنُهُ الدَّوامُ والاسْتِمرارُ[4].

نوعُ اللّامِ في شبه الجملة ﴿لَكُمۡ﴾ ودَلالَتُها:

تَعْليلُ خَلْقِ الأنعامِ بكونها لمصلحةِ الإنسانِ خاصة

ورَدَ في قولِه تَعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ﴾ استعمالُ حرفِ الجرِّ اللّامِ مِنْ ﴿لَكُمۡ﴾، وهيَ محمولةٌ على التّعليلِ، أي: خَلَقَ اللّه الأنعامَ لأجْلِكُم، وهذا مُناسِبٌ لسياقِ الامتنانِ بالنِّعمِ الوارِدَةِ تَفْصيلًا في هذه الآياتِ؛ إقامَةً للحُجَّة على الإنْسانِ، هذا على تعليقِ الجار والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ بالفعل ﴿خَلَقَهَاۗ﴾.

ويجوز أن تكون جملة ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ استئنافًا، والجار والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ خبرًا للمبتدأ ﴿دِفۡءٞ﴾[5]، فتكون اللام على هذا الوجه للاختصاص.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 103.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2789).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.
(4) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 5/ 377.
(5) وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 506

تَعَدُّدُ الوقْفِ ومعانيه في قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ﴾:

خلقُ اللهِ الأنعامَ لمصالح الناس، ولهم فيها منافع

يجوزُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ وقفانِ، ولكل وقْفٍ معنى:

الأوَّل: أن يتِمَّ الكَلامُ عند قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ﴾، ثُمَّ ابتَدَأ وقال: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾.

الثّاني: أن يكونَ تمامُ الكَلام عند قولِه: ﴿لَكُمۡ﴾، ثُمَّ ابتدأ وقالَ: ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾، فيكون المعنى: خلقها لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان[1].

ورجَّحَ بعضُ العلماءِ بأنَّ أحْسَنَ الوجهينِ أنْ يكونَ الوقْفُ عند قوله: ﴿خَلَقَهَاۖ﴾، والدّليلُ عليه أنَّهُ عُطِفَ عليه قَولُهُ: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾، والتّقدير: لكم فيها دِفءٌ، ولكم فيها جَمالٌ[2].

بَلاغَةُ أُسْلوبِ الالتِفاتِ مِنَ الغَيبَةِ إلى الخطاب:

تمامُ الامتنانِ، واسْتِدْعاءُ الإصْغاءِ والاهْتِمام

في قوله سُبحانَه: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ التفاتٌ، وهو مِنْ أنْواعِ البَديعِ؛ إذْ كانَ ما قَبلَ هَذه الآيةِ بصورَةِ الغائبِ في قَولِه: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، ثُمَّ انتَقَلَ إلى ضَميرِ المخاطَبِ بقولِه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾، والخطابُ صالحٌ لشُمولِ المشْركينَ، وهم المقصودُ ابتداءً مِنَ الاسْتِدْلالِ، وأن يَشْمُلَ أيضًا جَميعَ النّاسِ، وكانَ أسلوبُ الخطابِ أبْلَغَ مِنَ الغائِبِ لما تضمَّنَهُ الكلامُ مِنَ الامتنانِ، كَما أنَّ الالتفاتَ من افتنانِ العَربِ في الكَلامِ، وحُسْنِ تصرُّفِهم فيه، ولِأنَّ الكَلامَ إذا نُقِلَ مِن أُسْلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ كان ذَلكَ أحْسنَ تَطْرِيَةً لِنشاطِ السّامِعِ، وإيقاظًا للإصْغاءِ إليهِ من إجرائِهِ على أسلوبٍ واحدٍ[3].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 594

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 13.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 14، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 245.

دَلالَةُ حرفِ الجرِّ (في):

مادّةُ النَّسْجِ مَظروفَةٌ في الأنعامِ

ورد في قَوله سُبحانَه: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ استعمالُ حَرْفِ الجرّ (في)، الدّالَّةِ على الظّرفيَّة في عبارةِ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾، والنُّكتَةُ في ذلك: أنَّ الدِّفْءَ - بكسْرِ الدّالِ - اسمٌ لما يُتدَفَّأُ به، كالمِلءِ والحِملِ، وهو الثّيابُ المنسوجَةُ مِن أوبارِ الأنعامِ وأصوافِها وأشعارِها، تُتَّخَذُ منها الخيامُ والملابِسُ، فلمّا كانت تلك مادةَ النَّسْجِ جعلَ المَنسوجَ كأنّه مَظروفٌ في الأنعامِ[1].

دلالَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور مرّتين في السّياق:

بيان اخْتِصاصِ الأنْعامِ بِتَوْفيرِ الدِّفْءِ للإنْسانِ

ورَدَ في قَوْلِهِ سُبْحانَه: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ تَقْديمُ الجارِّ والمجْرورِ مَرَّتَيْنِ، أولاهُما: تَقْديمُ ﴿لَكُمۡ﴾، والنّكْتَةُ فيه: اخْتِصاصُ النّاسِ بِاسْتِعمالِ الصّوفِ لِنَسْجِ الثّيابِ، ثُمّ اخْتِصاصُهُم بِالتّدَفُّؤِ بالأنعامِ، والثّاني: تَقْديمُ ﴿فِيهَا﴾، والنُّكْتَةُ فيه: اخْتِصاصُ الأنْعامِ مِنْ بَيْنِ سائِرِ المَخْلوقاتِ بِتَوْفيرِ الدِّفْءِ للإنْسانِ؛ لِما توَفّرُه الأنْعامُ مِنْ صوفٍ ووبَرٍ وشَعْرٍ مَنْسوجٍ في ثيابِ الإنْسانِ.

دَلالَةُ تَنْكيرِ ﴿دِفۡءٞ﴾:

بيانُ عُمومِ مَنافِعِ الأنْعامِ وكَثْرَتِها

ورَدَ في قَولِهِ سُبحانَه: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ لَفْظُ ﴿دِفۡءٞ﴾ نَكِرَةً، والنُّكْتَةُ فيه: قَصْدُ العُمومِ والشُّيوعِ والكَثْرَةِ، فما أكْثَرَ ما توفِّرُهُ الأنْعامُ مِنْ مادَّةِ ثيابِ الإنْسانِ، ويَتَنَوّعُ الدِّفْءُ بِتَنَوُّعِ المَلْبوسِ مِنْ صوفٍ أوْ وبَرٍ أوْ شَعْرٍ...إلخ، وأيضًا فقد رويَ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه أنّ معنى (دفئها) هو نَسْلُها، وبه قال الجَوهَريّ في الصّحاح: "الدِّفْءُ نِتاجُ الإبل وألبانُها وما يُنتفَعُ به منها"[2]؛ فيكونُ التّنكيرُ لتكثيرِ النَّسْلِ والنِّتاجِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 105.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (دفأ).

دلالَةُ عَطْفِ العامِّ على الخاصّ:

تخصيص الدِّفْءِ من بين سائرِ المنافِعِ

وردَ في قَوله سُبحانَه: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ عَطفُ ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ على ﴿دِفۡءٞ﴾ بالواو المقتضيةِ للجمع، وخُصَّ الدِّفءُ بالذِّكر من بين عموم المنافِع للعِناية به، وعَطْفُ ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ على ﴿دِفۡءٞ﴾ من عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأنّ أمرَ الدِّفءِ قلَّما تستحضِرُه الخواطِرُ(1).

دَلالَةُ تَنْكيرِ ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾:

تَعْديدُ منافِعِ الأنْعامِ الضّروريَّةِ

ورَدَ في قَوله سُبحانَه: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ لفظُ ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ نكرةً، فما أكثرَ ما توفِّرُهُ الأنعامُ مِن منافعَ! وتوضيحُ ذلك أنّه تعالى لمّا ذَكر أنّه خلقَ الأنعامَ للمُكلَّفين، أتبَعَهُ بتعديد تلكَ المنافِع، ومنافعُ النَّعَم منها ضَروريَّةٌ، ومنها غيرُ ضَروريَّةٍ، واللّهُ تعالى بَدَأ بذِكْرِ المنافِعِ الضّروريَّة.

فالمَنْفَعَةُ الأولى: قوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾، وقَدْ ذكرَ هذا المَعْنى في آيةٍ أُخْرى فقالَ: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ [النحل: 80].

والمَنْفَعَةُ الثّانيَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾، والمرادُ: نَسْلُها ودَرُّها ورُكوبُها وأكْلُها وبَيْعُها...إلخ، وإنّما عَبَّرَ اللّهُ تَعالى عَنْ نَسْلِها ودَرِّها بِلَفْظِ المَنْفَعَة، وهو اللّفْظُ الدّالُّ على الوصْفِ الأعَمِّ؛ لأنَّ النَّسْلَ والدَّرَّ قَدْ يُنْتَفَعُ بهِ في الأكْلِ، وقَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ في البيْعِ بالنُّقود، وقَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ بأن يُبَدَّلَ بالثّيابِ وسائِرِ الضّروريّاتِ؛ فعَبَّرَ عَنْ جُملَةِ هَذِهِ الأقْسامِ بلَفْظِ المنافعِ ليَتَناوَلَ الكلّ(2).

نَوْعُ حَرْفِ الجَرّ في شبه الجملة ﴿وَمِنۡهَا﴾ وفائِدَتُهُ:

بَيانُ جِنْسِ المأْكولِ مِنَ البَهائِمِ

ورَدَ في قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ حَرْفُ الجرِّ (مِن) الدّالِّ عَلى التّبْعيض، أيْ: تَأْكُلونَ ما يُؤْكَلُ مِنْها مِنَ اللّحومِ والشّحوم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 105.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 175.

وغَيْرِ ذَلِكَ، فالإنْسانُ يَأْكُلُ بَعْضًا مِنَ البهيمَة، ولا يَأْكُلُها كُلَّها؛ إذْ فيها ما لا يُؤْكَلُ، كالصّوفِ أو الوبَرِ والشَّعْرِ والجِلْدِ والعظام ... إلخ، ويُمكِنُ أنْ تكون (مِنْ) بيانيَّةً، أيْ: لِبَيانِ جِنْسِ المأكولِ، وهو الأنْعام؛ لأنَّ الجميعَ مِنْها يُؤْكَلُ[1].

دَلالَةُ المضارِعِ ﴿تَأۡكُلُونَ﴾:

استمرارُ نعمة الأكلِ وتجدُّدها

ورَدَ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ الفِعْلُ ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ بصيغَةِ المضارِع؛ وذَلِكَ للدّلالة عَلى تَجدُّدِ الأكْلِ مِنْها واسْتِمراره[2]؛ ولِأنَّ اسْتِعْمالَ الفِعْلِ بصيغَةِ المُضارِعِ يُفيدُ افْتِراضَ تَكَرُّرِ الحَدَث[3]، فجاءَ ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ بِصيغَةِ المضارِعِ؛ لِأنَّ ذَلِكَ مِنَ الأعْمالِ المتَكَرِّرَة.

بَلاغَةُ التّقْديمِ والتّأْخير:

تَفْضيلُ الإنسانِ اللّحومَ على غَيرِها مِنَ الطَّعامِ

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ تَقْديمُ الظّرْفِ ﴿وَمِنۡهَا﴾؛ للاهْتِمام، لِأنَّهم شَديدو الرّغْبَةِ في أكْلِ اللّحوم، وللإيذانِ بأنَّ الأكلَ مِنْها هو المعتادُ المُعْتَمَدُ في المعاش، ولِأنَّ الأكلَ ممّا عَداها مِنَ الدّجاجِ والبَطِّ وصَيْدِ البرِّ والبحْرِ مِنْ قَبيلِ التّفَكُّه، مَعَ أنَّ فيه مُراعاةً لِلفَواصِلِ، وكَذلِكَ قَدْ يكونُ التَّقديمُ هنا للاخْتِصاص، أي: اختِصاصِ الأنْعام من بين باقي البَهائِم بحِلِّيَّةِ الأكْلِ، ويَحْتَمِلُ أيضًا أنْ يَكونَ مَعْنى الأكْلِ مِنْها أكْلَ ما يَحْصُلُ بِسَبَبِها؛ فإنَّ الحُبوبَ والثّمارَ المأْكولَةَ تُكْتَسَبُ بإكْراءِ الإبِلِ وبِإثْمارِ نِتاجِها وألْبانِها وجُلودِها[4].

بَلاغَةُ الوصْلِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾:

الأكْلُ مِن جُملَةِ مَنافِعِ الإنسانِ بالأنْعامِ

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ وصْلُ جُملَةِ ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ بالجملَةِ قَبْلَها ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾؛ لاتِّحادِ الجملَتَيْنِ في الخبَريَّةِ لَفْظًا ومَعْنًى، ولِغيابِ

(1) العليميّ، فتح الرّحمن: 6/ 139.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 95.
(3) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 78.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 96.

سَبَبٍ يَقْتَضي الفصلَ بَيْنَهُما، مَع ما بَيْنَهُما مِنَ المناسَبَةِ التّامَّةِ في المعْنى، فكُلٌّ مِنْهُما مِنْ جُملَةِ مَنافِعِ الأنْعام.

تَوْجيهُ المتَشابِهِ اللّفْظيِّ:

قولُه تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [النحل: 5]، وقولُه تعالى: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩﴾ [المؤمنون: 19]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ [المؤمنون: 21]، وقولُه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾ [الزّخرف: 73].

أمّا آيَةُ النّحلِ: فخُصَّتْ بالفَصلِ وبقَوْلِه: ﴿دِفۡءٞ﴾، وآيَةُ المؤمنون: بالواوِ وبقَوْلِه ﴿كَثِيرَةٞ﴾ [المؤمنون: 21]؛ وذَلكَ لأنَّ آيَةَ النّحلِ بُدِئَتْ بِقَوْلِه: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ﴾، فلَمّا أُريدَ تَعليلُ ذَلكَ ناسَبَهُ الفَصلُ، ولمّا كانَ يَسْبِقُ هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾، وكانَ الإنْسانُ - وهو نُطْفَةٌ - أشَدَّ ما يَكونُ حاجةً إلى الدِّفْءِ؛ ناسَبَ ذِكْرُ الدِّفْءِ بِقَوْلِه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾، ولمّا كانَ السّياقُ قائمًا على تَعْدادِ المنافِعِ بالتّفْصيلِ؛ ناسَبَهُ عَدَمُ ذِكْرِ (كَثيرة)، أمّا آيَةُ المؤمنونَ فقَدْ بُدِئَتْ بقَوْلِه: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: 21]، فلَمّا كانَ المُخْبَرُ واحِدًا، وأُريدَ الجمْعُ بَيْنَ الأخْبارِ، وكانَتِ العِبَرُ تَكْثُرُ بكَثْرَةِ المنافِعِ؛ ناسَبَهُ الوصْلُ بالواوِ، وذِكْرُ صِفَةِ ﴿كَثِيرَةٞ﴾ [المؤمنون: 21] بِقَوْلِه: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ [المؤمنون: 21]، ولَمّا لَم يَذْكُرْ ما يَتَعَلَّقُ بالدِّفْءِ ناسَبَهُ عَدَمُ ذِكْرِه.

وقَوْلُه ﷻ: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩﴾ [المؤمنون: 19] بالجمعِ وبالواوِ، وفي الزّخْرُفِ ﴿فَٰكِهَةٞ﴾ [الزّخرف: 73] على التّوْحيد، و﴿مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾ [الزخرف: 73] بغَيْرِ واو، فقد راعى في السّورَتَيْنِ لَفْظَ الجَنَّةِ فكانَت هَذِه ﴿جَنَّٰتٖ﴾ [المؤمنون: 19] بالجمعِ، فقالَ: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ [المؤمنون: 19] بالجمعِ، وفي الزّخْرُفِ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾ [الزّخرف: 72] بلَفْظِ التَّوْحيد، وإنْ كانَتْ هَذِهِ جَنَّةَ الخُلْدِ، لَكِنّ راعى اللَّفْظَ فقالَ: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ [الزّخرف: 73].

وقالَ في هَذِه السّورَة: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بزيادَة الواوِ؛ لأنّ تَقْديرَ الآيَة: مِنْها تَدَّخرون، ومِنْها تَبيعونَ، ولَيْسَ كَذلك فاكِهَةُ الجنَّة؛ فإنَّها للأكْل فحَسْب، فلِذَلك قالَ في الزّخرُف: ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٣﴾ [الزّخرف: 73]، ووافَقَ هَذِه السّورَةَ ما بعْدَها أيْضًا، وهو قَوْله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٢١﴾ [المؤمنون: 21][1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأنْعامُ، والنَّعَمُ، والدّوابُّ:

الدّوابُّ عامٌّ في كُلِّ ما يَدِبُّ، والأنعامُ بهائمُ مخصوصَةٌ

بينَ هذهِ الألفاظِ عُمومٌ وخُصوصٌ، فأعَمُّها على الإطلاقِ لفظُ (الدَّوابّ)؛ إذ يُطلق على كُلِّ ما يَدِبُّ على الأرض لُغَةً، فيَدخُلُ في هذا المعنى الأنْعامُ، وحتّى الإنسانُ، وأمّا الأنْعامُ: فهي البهائِمُ، وهي مخصوصَةٌ بالأصنافِ الثّمانيَةِ التي ذكرها القرآنُ بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍ﴾ [الزّمر: 6]، وذكر منها: الإبل والبقر والمَعِز والضّأن، ذَكَرَها وأُنثاها، وأمّا لفظ (النَّعَمُ): فهو المفردُ منها، وتُجْمَعُ أنْعامًا[2].

(خَلَقَها) و(جعلها):

عُمومُ الجَعل وخُصوصيَّةُ الخَلْقِ

يَظْهَرُ الفرقُ بينَ لفظِ (خَلَقَها) ولفظ (جَعَلَها)، في كَوْنِ الجعْلِ في اللُّغَة: التَّهيئَةَ والصُّنْعَ، وتَصييرَ الشَّيءِ مِنْ حالةٍ إلى حالة، أمّا الخَلْقُ في اللُّغَة فهو: تَقْديرُ الأشْياءِ وإيجادُها على مثالٍ لم يُسْبَقْ إلَيْه[3]، فاسْتَخْدَمَ القرآنُ الفعلَ (خَلَقَ) في الآياتِ الّتي تتحَدَّثُ عَنْ بدايَة خَلْقِ آدمَ عليه السلام، وخَلْقِ حَوّاءَ مِنْ ضِلْعِه، فناسَبَ فيها استِخْدامُ لَفْظِ (الخَلْقِ) للدّلالَة على الأوَّليَّة المَقْصودَة.

وأمّا الفِعْلُ (جَعَلَ) فيَرِدُ في السّياقِ القُرْآنيِّ في مَعْنى آخَرَ غَيْرِ

(1) الكرمانيّ، البرهان، ص: 183.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).

مَعْنى الأوَّليَّةِ والبِدايَةِ، فكَثيرًا ما يُستعمَلُ بمعنى صَيَّرَ وهَيَّأ، ولَعَلَّ الفارقَ الدّلاليَّ في الاستِخْدام القُرْآنيِّ للفِعْلَيْن (جَعلَ، وخَلقَ) يَتَّضِحُ بِجَلاءٍ تامٍّ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، فعَبَّرَ عن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1] بلفظِ ﴿خَلَقَ﴾ [الأنعام: 1]؛ لأنّ السّماواتِ والأرضَ أجْرامٌ تحتاجُ إلى التَّقْديرِ والإيجادِ ابتداءً، وعَبَّرَ عَنِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] بِلَفْظ ﴿وَجَعَلَ﴾ [الأنعام: 1]؛ لأنَّ الظُّلُماتِ والنّورَ مخلوقاتٌ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ؛ إذْ هما تَبَعٌ للسّماواتِ والأرضِ، فناسَبَ ذَلِكَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ (جعَلَ) الدّالِّ على التَّهْيِئَةِ وإنْشاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ سابقٍ. يَقولُ الزَّمخشَريُّ: "والفَرْقُ بَيْنَ الخَلْقِ والجَعْلِ أنَّ الخَلْقَ فيهِ مَعْنى التَّقدير، وفي الجَعْلِ معنى التَّضْمين، كإنشاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، أوْ نَقْلِهِ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ"[1].

وبناءً عَلى النَّظرِ في الاستخدام القُرآنيِّ لِكَلِمَتَيْ (جَعلَ، وخَلَقَ) يَظْهَرُ اشتراكُهُما في مَعْنى إحْداثِ الشَّيءِ، غَيْرَ أنَّ المَلْمَحَ الدّلاليَّ المُمَيِّزَ لِكَلِمَةِ (خَلَقَ) هو: التَّقْديرُ والأوَّليَّةُ، في حينِ أنَّ الملْمَحَ الدّلاليَّ المُمَيِّزَ لِكلِمَةِ (جَعَلَ) هو التَّضْمينُ والتَّهْيِئَةُ[2].

(تَأْكُلونَ) و(تَطْعَمونَ):

الأكْلُ إنقاصُ الشّيءِ، والطَّعامُ ما يدخُلُ الفَمَ

يَظْهَرُ الفَرْقُ بين لفظِ (تَأْكُلونَ) ولفظِ (تَطْعَمونَ)، أنّ لفظَ (الطّعام) عامٌّ في كلّ ما يَدْخُل الفَمَ فتَطْعَمَهُ، وهو شامِلٌ لكلِّ ما يُؤكَل ولا يُؤكَل، مِن ماءٍ أو شرابٍ أو غيرِه، فالضّابِط فيه هو دخولُ الفَم.

أمّا الأكلُ فهو إنقاص الشّيء عمومًا، وأشهرُ معانيه: إنقاصُ الطَّعام، كما يُطلَقُ على أكلِ مالِ اليتيمِ؛ لأنّه إنقاصٌ منه، ومثلُه أكلُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 311.

(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 184.

أموالِ النّاس بالباطل ... إلخ، فاتَّضَحَ الفرقُ بينهما: في أنّ الفعلَ (تَطْعَمونَ) خاصٌّ بما يدخلُ جَوْفَ الإنسانِ، وأنّ الفعل (تَأْكُلونَ) خاصٌّ بالإنقاصِ عمومًا، ويشتركان في أكل الإنسان للطّعام فهو يُدْخِلُهُ جَوْفَه، ويُنْقِصُ منه في الوقت ذاته.

الدِّفءُ والحَرارَةُ:

الــــدِّفءُ أمــرٌ داخليّ، والحرارَةُ أمرٌ مادّيٌّ

يظهَرُ الفَرْقُ بين لفظَي (دِفء) و(حرارة) في أنّ الدِّفءَ أمرٌ داخليٌّ يُحِسُّ به الإنسانُ، في حينِ أنّ الحرارَةَ أمرٌ مادّيٌّ يُمكِنُ قياسُهُ والتَّحَكُّمُ فيه، ولا يلزَمُ مِنَ الحرارَةِ وُجودُ الدِّفْءِ، كما أنّ كلمة الدِّفءِ تَرِدُ كثيرًا في السّياقات المَحمودة، كسياقِ هذه الآيةِ، وبَعْضِ السّياقات المَجازيَّةِ كالدِّفءِ الأُسَريِّ ... إلخ، في حين أنّ الحَرارَةَ تَرِدُ كثيرًا في سياقِ الضُّرِّ والعَذابِ، وأنَّها مِن فيْحِ جَهَنَّمَ، نسألُ اللّهَ العافيةَ مِن حرارتها.

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النّحل: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد ذِكْرِ خَلْقِ المُسَخّراتِ للإنسانِ، أبانَ عن إتْمامِ الإنْعامِ بجمالِ الأنْعامِ

لمّا ذَكَرَ في الآيةِ السّابقةِ المنافِعَ الضّروريَّةَ الحاصِلةَ مِنَ الأنْعامِ، أَتْبَعَها بالمنافِعِ الّتي هيَ لَيْسَتْ بِضروريَّةٍ، فذَكَرَ التّجَمُّلَ؛ لِأنَّهُ النّهايةُ لِكَوْنِهِ للرِّجالِ(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَمَالٌ﴾: الجيمُ والميمُ واللّامُ أصْلانِ؛ أَحَدُهُما: تَجَمُّعُ وعِظَمُ الخَلْقِ، والآخَرُ: حُسْنٌ، فالأوَّلُ قَوْلُكَ: أَجْمَلْتُ الشّيْءَ، وهَذِهِ جُمْلَةُ الشّيْءِ، وأجْمَلْتُهُ: حَصَّلْتُهُ، وقال تَعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]، ويَجوزُ أنْ يَكونَ الجَمَلُ مِنْ هَذا لِعِظَمِ خَلْقِهِ، والجُمَّلُ: حَبْلٌ غَليظٌ، وهو مِنْ هَذا أيْضًا، والأصْلُ الآخَرُ: الجَمالُ، وهو ضِدُّ القُبْحِ، ورَجُلٌ جَميلٌ وجُمالٌ، قال ابْنُ قُتَيْبَةَ: أصْلُهُ مِنَ الجميلِ، وهو وَدَكُ الشّحْمِ المُذابِ. يُرادُ أنَّ ماءَ السِّمَنِ يَجْري في وجْهِهِ(2)، والجَمالُ: الحُسْنُ الكثيرُ، وذَلِكَ ضَرْبانِ؛ أَحَدُهُما: جَمالٌ يَخُصُّ الإنْسانَ في نَفْسِهِ أوْ بَدَنِهِ أوْ فِعْلِهِ، والثّاني: ما يوصِلُ مِنْهُ إلى غَيْرِهِ، وعلى هذا الوَجْهِ ما رويَ عَنْهُ ﷺ: "إنَّ اللّهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجمالَ"(3)؛ تَنْبيهًا أنَّهُ مِنْهُ تَفيضُ الخيْراتُ الكثيرَةُ، فيُحِبُّ مَنْ يختَصّ بذَلِكَ(4)، ومِنْهُ الجَمالُ المَذْكورُ في هَذِهِ الآيَةِ، وهو ما يَحْصُلُ للرّاعي مِنَ بَهْجَةٍ بِرُؤْيَةِ أنْعامِهِ في السّرْحِ والإراحَةِ.

2) ﴿تُرِيحُونَ﴾: أراحَ يُريحُ إراحةً، إذا دَخلوا في الرّواحِ، والرّاءُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 175، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 108.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمل).
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (91).
(4) الرّاغب، المفردات: (جمل).

والواوُ والحاءُ أصْلٌ كَبيرٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عَلى سَعَةٍ وفُسْحَة واطِّرادٍ، وأصْلُ ذَلِكَ كُلِّه الرّيحُ، وأصْلُ الياءِ في الرّيح الواوُ، وإنّما قُلِبَتْ ياء لِكَسْرَة ما قَبْلَها، والبابُ كُلُّه مُشْتَقٌّ مِنَ الرِّيح، والرَّوحُ: نَسيم الرّيح، ويُقالُ: أراحَ الإنْسانُ إذا تَنَفَسَ، ويُقالُ: أرْوح الماءُ وغَيْرُهُ: تَغَيَّرَتْ رائِحَتُهُ، والرَّواحُ: العَشِيّ، وسُميَّ بِذَلِكَ لِرَوْحِ الرّيح، فإنَّها في الأغْلَبِ تَهُبُّ بَعْدَ الزّوالِ، قالَ أبو زَيْدٍ: راحَتِ الإبِلُ تَراحُ، وأرَحْتُها أنا، مِنْ قَوْلِه ﷻ: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾[1]، واسْتُعيرَ الرّواحُ لِلوقْتِ الذي يُراحُ الإنْسانُ فيهِ مِنْ نِصْفِ النّهارِ، ومِنْهُ قيلَ: أرَحْنا إبلَنا، وأرَحْتُ إلَيْهِ حَقَّهُ، مُسْتَعار مِنْ: أرَحْتُ الإبِلَ، والمَراحُ: حيثُ تُراحُ الإبِلُ[2]، ومِنْهُ الإراحَةُ المَذْكورَةُ في الآية بِمَعْنى رَدِّ الإبِلِ بالعَشِيِّ إلى مَراحِها، حَيْثُ تَأْوي إلَيْه لَيْلًا[3].

3) ﴿تَسْرَحُونَ﴾: (سرح) أصْلٌ مُطَّرِدٌ واحِدٌ، وهو يَدُلُّ عَلى الانْطِلاقِ، يُقالُ: مِنْهُ أمرٌ سَريحٌ، إذا لَم يَكُنْ فيهِ تَعْويقٌ ولا مَطْل، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلى هَذا السَّراحُ، وهو الطّلاقُ، يُقالُ: سَرَّحْتُ المَرْأة، وفي كِتاب اللّه تَعالى: ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: 231]، والسُّرُحُ: النّاقَةُ السّريعَةُ، والسَّرْحُ: المالُ السّائِمُ، والسّارِحُ: الرّاعي، ويُقالُ: السّارِحُ: الرّجُلُ الّذي لَهُ السَّرْحُ، وأمّا الشّجَرَةُ العظيمَةُ فهيَ السَّرْحَةُ[4]، وسَرَّحْتُ الإبلَ، أصْلُهُ: أنْ تُرعيَهُ السَّرْحَ، ثُمَّ جُعِلَ لِكُلِّ إرْسالٍ في الرَّعْي، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[5]، فيَكونُ المَعْنى المرادُ في الآيَةِ: هو إخْراجَ الإبِلِ بالغَداةِ إلى المَرْعى.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

عَظيمُ نِعَمِ اللهِ في الأنْعامِ المُسَخّرة للإنسان؛ لينتفعَ بها حِسًّا ومَعنًى

مِنْ نِعَمِ اللّه أيْضًا على النّاسِ أنْ جَعَلَ لهُم في الأنعام زينَةً

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(2) الرّاغب، المفردات: (روح).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 175.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرح).
(5) الرّاغب، المفردات: (سرح).

تُدْخِلُ السّرورَ عَلَيْهم عِنْدَما يرُدّونها إلى مَنازِلها في المساءِ، وعِنْدَما يُخْرِجونها للمَرْعى في الصّباح.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ الوصْلِ بِالواوِ:

وصْلُ الجُمَلِ للمُناسَبَةِ التّامَّةِ في المَعْنى

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ وصْلُ جُملَة ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ بِالجُملَة التي قَبْلَها ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ لاتّحادِ الجُملَتَيْنِ في الخبَريّةِ لَفْظًا ومَعْنًى، ولِغيابِ سَبَبٍ يَقْتَضي الفصْلَ بَيْنَهُما، مَعَ ما بَيْنَهُما مِنَ المناسَبَةِ التّامَّةِ في المَعْنى، فكُلّ مِنْهُما مِنْ جُملَة مَنافِعِ الأَنْعامِ.

نَوْعُ الواوِ في ﴿وَلَكُمۡ﴾ وفائِدَتُها:

تَنَوُّعُ المنافِعِ في الأنْعامِ، مِن تمامِ ما أفاضَ اللهُ مِن إنعامٍ

جاء قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ مُقْتَرِنًا بِحَرْفِ الواوِ الدّالِّ على العطْفِ، فبَعْدَ أنْ ذَكَرَ في الآياتِ السّابِقَةِ المنافِعَ الضّروريَّةَ الحاصِلَةَ مِنَ الأنْعامِ وهيَ: (الدِّفْءُ، المنافِعُ، الأكْلُ)؛ عَطَفَ عَلَيْها المنافِعَ التي لَيْسَتْ بِضَروريَّةٍ كالجَمالِ عِنْدَ الإراحَةِ والتّسْريحِ[1].

نَوْعُ اللّامِ في ﴿وَلَكُمۡ﴾ ودلالَتُها:

خَلَقَ اللهُ مَنافِعَ الأنْعامِ، لمصلَحَةِ الإنْسانِ

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ اسْتِعْمالُ حَرْفِ الجرِّ اللّامِ مِن (لَكُم)، وهيَ مَحْمولَةٌ عَلى التّعْليلِ، أيْ: خَلَقَ اللّهُ مَنافِعَ الأنْعامِ لِأَجْلِكُم، ومِنْها جمالها في الإراحَةِ والتّسْريحِ، وهَذا مُناسِبٌ لِسياقِ الامتِنانِ بالنِّعَمِ الوارِدَةِ تَفْصيلًا في هَذِهِ الآياتِ، إقامَةً للحُجَّةِ عَلى الإنْسانِ.

دلالَةُ حَرْفُ الجرِّ ﴿فِيهَا﴾:

الجمالُ مَظْروفٌ في الأنْعامِ

ورَدَ في قَوله سُبحانَه: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 176.

﴿تَسۡرَحُونَ﴾ استِعمالُ حَرْفِ الجرِّ (في) الدّالِّ عَلى الظّرْفيَّةِ في عِبارَةِ ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾، والنُّكْتَةُ في ذَلِكَ: أَنَّهُ جَعَلَ الجَمالَ مَظْروفًا في الأَنْعامِ لِما يَجِدُ الرّاعي - إذا رَوَّحَها بِالعشيِّ وسَرَّحَها بالغداةِ - مِنْ زينَةٍ لِلأَفْنيَةِ عِنْدَ تِلْكَ الإراحَةِ والتّسْريح، وتَجاوُبٍ لِلثُّغاءِ والرُّغاءِ، وفَرْحَةِ أَرْبابِها، وعِظَمِ وقْعِهِم عِنْدَ النّاسِ بِسَبَبِ كَوْنِهِم مالِكينَ لها[1].

بَلاغَةُ التّقْديمِ والتّأْخيرِ في السّياق:

حِكمةُ تسخيرِ اللهِ الأنعامَ للإنسانِ دونَ غَيْرِه

ورَدَ في قوله سُبحانَه: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ تقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿وَلَكُمۡ﴾، والنّكْتَةُ فيه: اخْتِصاصُ النّاسِ بِالتّمَتُّعِ بِجَمالِ الأنْعامِ وقْتَ الإراحَةِ والتّسْريح، وفي هَذا مَزيدُ امتِنانٍ عَلَيْهِم بِأن سَخَّرَ الأَنْعامَ لَهُم دونَ غَيْرِهِم مِنَ المَخْلوقاتِ.

دَلالَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿جَمَالٌ﴾:

الجَمالُ العَظيمُ في نِعمَةِ الأنعامِ، مِن عطاءِ اللهِ ذي الإنعامِ

ورَدَ في قَوْلِهِ سُبحانَه: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ لَفْظُ ﴿جَمَالٌ﴾ نَكِرَةً، والنُّكْتَةُ فيه: قَصْدُ الإبْهامِ والتّعْظيمِ، فهو جَمالٌ تَذْهَبُ فيهِ العقولُ كُلَّ مَذْهَبٍ؛ لِأَنَّ الرُّعاةَ إذا رَدّوا الأَنْعامَ بِالعَشيِّ إلى مَراحِها، أَيْ: مَأْواها بِاللّيْلِ، أَوْ سَرَّحوها عِنْدَ الغَداةِ إلى المَراعي المُعْشَوْشِبَةِ، وعَرَّجوا عَلى الأَفْنيَةِ والبُيوتِ؛ رَغَتِ الإبِلُ، وخارَتِ البَقَرُ، وثَغَتِ الشّاءُ، فتَجاوَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ مَعَ صِياحِ الصِّبْيانِ وحَديثِ العَقائِلِ والأَوانِسِ، فشَمِلَ الفَرَحُ الجميعَ، ورَقَصَتِ النِّعْمَةُ، ورَفْرَفَتِ السَّعادَةُ[2].

بَلاغَةُ الظّرْفِ ﴿حِينَ﴾:

اسْتِشْعارُ الجمالِ في وقْتِ الإراحَةِ وفي وقْتِ التّسْريح

ورد في قَوله سُبحانَه: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ لَفْظُ ﴿حِينَ﴾ الدّالُّ عَلى الظّرْفيَّةِ الزّمانيَّة، فخُصَّ اسْتِشْعارُ الجَمالِ في وقْتِ الإراحَةِ وفي وقْتِ التّسْريح خُصوصًا،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 176.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 274.

وتَعْيين الوقْتَيْن بتكْرارِ الظَّرْفِ ﴿حِينَ﴾؛ لِأنَّ ما يَدورُ عَلَيْهِ أمرُ الجَمال مِنْ تَزَيُّنِ الأَفْنيَةِ والأَكْنافِ بها، وبتَجاوُبِ ثُغائها ورُغائها، إنَّما هو عِنْدَ وُرودِها وصُدورِها في ذَيْنِكَ الوقْتَيْن، وأمّا عِنْدَ كَوْنِها في المَراعي فتَنْقَطِعُ إضافَتُها الحسيَّةُ إلى أرْبابِها، وعِنْدَ كَوْنِها في الحظائِرِ لا يَراها راءٍ، ولا يَنْظُرُ إلَيْها ناظِرٌ.

دلالة المضارع ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾:

الإراحَةُ والتّسْريحُ مِنَ الأعْمالِ المُتَكَرِّرَةِ، لِأَرْبابِ الأنْعامِ النّضرة

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ الفعلان ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾ بصيغَةِ المضارِع، وذَلِكَ للدّلالةِ على تَجدُّدِ الإراحَةِ والتّسْريحِ كُلَّ يَوْمٍ، وهُما مِنَ الأعْمالِ المُتَكَرِّرَةِ لِأَرْبابِ الأنْعامِ، فاسْتِعْمال الفِعْلِ بِصيغَةِ المُضارِعِ يُفيدُ افْتِراضَ تَكَرُّرِ الحَدَثِ[1].

بَلاغَةُ الطِّباقِ بين ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾:

لَفْتُ الانتباهِ بجَمْعِ اللّفظِ وضِدِّهِ

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ طِباقٌ بَديعٌ بَيْنَ الفعلين ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾، فالإراحَةُ: رَدُّ الإبِلِ بالعَشِيِّ إلى مَراحِها حَيْثُ تَأْوي إلَيْهِ لَيْلًا، والسَّرْحُ: إذا أخْرَجوها بالغَداةِ إلى المَرْعى، والطِّباقُ مُحَسِّنٌ مَعْنَويٌّ، فبَيْنَ تَقابُلِ الإراحَةِ والسَّرْحِ تَضادٌّ يُثيرُ الذِّهْنَ، ويَجْذِبُ الانْتِباهَ[2]، ويَزيدُ الكلامَ حُسْنًا وطَرافَةً[3]، ويُقَوّي المَعْنى؛ إذْ بِضِدِّها تَتمايَزُ الأشْياءُ.

السِّرُّ في تَقْديمِ ﴿تُرِيحُونَ﴾ على ﴿تَسْرَحُونَ﴾:

الجَمالُ في الإراحَةِ أكْثَرُ مِنْهُ في التّسْريحِ

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تقديمُ الإراحةِ على السَّرْحِ؛ لأنَّ الجَمالَ في الإراحَةِ أكْثَرُ، فالأنْعامُ تُقْبِلُ مَلْأى البطونِ، حافِلَةَ الضُّروعِ، ثُمَّ تَجْتَمِعُ في الحظائِرِ

---

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 78.

(2) السّبكيّ، عروس الأفراح، ص: 303.

(3) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 303.

حاضرَةً لِأَهْلِها، بِخِلافِ التّسْريح؛ فإنَّها عِنْدَ خُروجِها إلى المَرْعى تَخْرُجُ جائِعَةً عادِمَةَ اللّبَنِ، ثمَّ تَأْخُذُ في التّفرُّقِ والانْتِشارِ، فظَهَرَ أنَّ الجَمالَ في الإراحَةِ أكْثَرُ مِنْهُ في التّسْريحِ، وأتَمُّ في اسْتِجْلابِ الأُنْسِ والبهْجَةِ؛ إذْ فيها حُضورٌ بَعْدَ غَيْبَةٍ، وإقْبالٌ بَعْدَ إدْبارٍ، على أحْسَنِ ما يَكونُ مِنْ حُسْنِ المَنْظَرِ وأبْهَجِهِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجَمالُ والزّينةُ:

الجَمالُ نِعْمَةٌ مِنَ الوهّاب، والزّينَةُ تَكَلُّفٌ واكْتِساب

الجمالُ أمرٌ فِطْريٌّ وانطباعٌ مَعنويٌّ، يحسُّ بِهِ الإنسانُ تجاهَ أمورٍ مادّيّةٍ ومَعنويّةٍ، ويَنْقَسِمُ إلى قِسمينِ: ظاهِرٍ وباطِنٍ.

فالجَمالُ الباطِنُ: هو المَحبوبُ لذاتِهِ، وهو جمالُ العِلْمِ والعَقْلِ والجودِ والعِفَّةِ والشَّجاعَةِ.

وأمّا الجمالُ الظاهِرُ: فحُسْنٌ خَصَّ اللّهُ به بَعْضَ الصّورِ عن بَعْضٍ، وهيَ مِنْ زيادَةِ الخَلْقِ التي قال اللّه تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: 1]، قالوا: هو الصّوتُ الحَسَنُ، والصّورَةُ الحَسَنَةُ[2].

وأمّا الزّينَةُ: فتُطلَقُ على ما كانَ فيه طَلَبٌ لجَمالٍ وتَكَلُّفٌ لاكتسابِه، وهي تحسينُ الذّاتِ أو المكانِ بما يجعلُ وقعَهُ عِنْدَ ناظِرِه مُسِرًّا لَهُ، وفي طِباعِ النّاسِ الرَّغبةُ في أنْ تكونَ مَناظِرُهم حَسَنَةً في عينِ ناظريهم، وذلك في طباعِ النِّساءِ أشَدُّ[3]، وجاءتِ الزّينَةُ في القُرآنِ على وجهينِ:

الأوّلُ: ما يُتَزَيَّنُ بِهِ، ويشمَلُ الملابِسَ والحُليَّ وغَيْرَها: ومنه قولُه تعالى: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 31].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 176، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 97.

(2) ابن القيّم، روضة المحبّين، ص: 222.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 402.

والثّاني: التَّحسينُ والتَّجميلُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5].

تُريحونَ وترجعون:

الرُّجوع عامٌّ، والإراحَةُ خاصَّةٌ

بَيْنَ لَفْظَيْ (تُريحونَ) و(ترجِعون) عُمومٌ وخُصوصٌ، فالرُّجوعُ عامٌّ مُطلقٌ لكلِّ عَودَةٍ، أمّا الإراحَةُ فهي خاصّةٌ بإرجاعِ الإبلِ بالعَشِيِّ إلى مَراحِها، حيثُ تأوي إليه لَيلًا.

تَسْرَحونَ وتغدون:

الغُدوُّ عامٌّ والسَّرح خاصٌّ

بَيْنَ لَفْظَيْ (تَسْرَحونَ) و(تَغدون) عُمومٌ وخُصوصٌ، فالغُدوُّ عامٌّ مُطلقٌ لكلِّ خُروجٍ بالغَداةِ، أمّا السَّرْحُ فهو خاصٌّ، وهو إخراجُ الإبلِ بالغداةِ إلى المَرْعى.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ [النّحل: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مواصلة تَعْديد نِعَمِ الله في خَلْقِ الأنعام، وتسخيرها للأنام

بعد أن ذكرَ اللّهُ تعالى من جُملةِ نِعَمِه على عباده أنَّه خلق لهم ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ [النحل: 5] منطويةً على جُملةٍ من النِّعم، كلّها مهمَّة على تفاوتٍ بينها في الأهمّيّة، فـ ﴿فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾ [النحل: 5]، وأيضًا هي لكم زينةٌ في غُدوِّها ورَواحِها ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النحل: 6] ذكر سبحانه بعد ذلك تعدادَ منافعِها، فقال: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَثۡقَالَكُمۡ﴾: أصلُ الثِّقْل يُطلق على ضدِّ الخفَّة، فالثِّقْل والخفَّة متقابلان، فكلُّ ما يترجَّح على ما يوزن به أو يُقدَّر به يُقال: هو ثَقيل، وأصلُه في الأجسام ثمَّ يُقال في المعاني، نحو: أَثْقَلَه الغَرْم والوِزْر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾ [الطّور: 40][1] والثَّقَلُ: متاعُ المسافر وحَشَمُه، وجمعُه: أثقالٌ، والأثقالُ: الآثام[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13]؛ أيْ: آثامهم وأوزارهم، والمُرادُ في الآية: متاعُ المسافر[3] وأغراضُه.

2) ﴿بَلَدٖ﴾: أصلُ البلد الصَّدْرُ. يُقالُ وضَعَتِ النّاقَةُ بَلْدَتَها بِالأَرْضِ، إذا بَرَكَتْ، قالَ ذو الرُّمَّةِ[4]:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ثقل).
(2) الخليل، العين: (ثقل).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 176.
(4) الباهليُّ، ديوان ذي الرُّمَّة: 2/ 1004.

أُنِيخَتْ فألْقَتْ بَلْدَةً فوْقَ بَلْدَةٍ *** قَلِيلٍ بِها الأصْواتُ إلّا بُغامُها

وَيُقالُ: تَبَلَّدَ الرَّجُلُ، إذا وضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ عِنْدَ تَحَيُّرِهِ في الأمر(1)، والبَلَدُ: كلُّ موضعٍ مُسْتَحيز من الأرض، عامرٍ أو غيرِ عامرٍ، خالٍ أو مَسكونٍ(2)، وخصَّها الرّاغبُ بالمسكونة فقال: البلدُ: المكانُ المُحيط المحدود المُتأثِّر باجتماع قُطّانه وإقامتهم فيه، وجمعُه: بِلاد وبُلْدان(3)، والبلد في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: 1] هي مكَّة على الأرجح، وتأثَّر بعضُهم فذكر أنَّ البلد في هذه الآية أيضًا: هي مكَّة(4)، لكنَّ المُرادَ في الآية على الصَّحيح: جنس البلد الَّذي يرتحلون إليه، فهو عامٌّ لكل بلد بعيد(5)؛ أيْ: أيُّ بلدٍ يقصدونه، وليس مكَّة فقط ولا غيرها ممّا نصَّ عليه بعضهم.

3) ﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾: أصل (شقَّ) يَدُلُّ عَلَى انْصِداعٍ في الشَّيْءِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْه ويُشْتَقُّ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى الِاسْتِعارَة، تَقولُ شَقَقْتُ الشَّيْءَ أشُقُّهُ شَقًّا، إذا صَدَعْتَهُ، وبِيَدِهِ شُقوقٌ، وبِالدّابَّةِ شُقاقٌ ... ويُقالُ: أصابَ فُلانًا شِقٌّ ومَشَقَّةٌ، وذَلِكَ الأمرُ الشَّديدُ كَأنَّهُ مِنْ شِدَّته يَشُقُّ الإنْسانَ شَقًّا(6)، والشِّقُّ بالكَسْرِ نِصْفُ الشَّيْءِ، والشِّقُّ المَشَقَّةُ، والشِّقُّ الجانِبُ، والشِّقُّ الشَّقِيقُ، وجَمعُ الشَّقِيقِ: أشِقّاءُ، مِثْلُ شَحِيحٍ وأشِحّاءَ، والشَّقُّ بِالفَتْحِ: انْفِراجٌ في الشَّيْءِ وهوَ مَصْدَرٌ في الأصْلِ، والجَمعُ: شُقوقٌ؛ مِثْلُ فلْسٍ وفُلوسٍ(7)، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦﴾ [عبس: 26]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق: 1] والشِّقُّ: المَشَقَّةُ والانكسار الَّذي يلحق النَّفس والبَدن، والشُّقَّةُ: النّاحية الَّتي تلحقُك المشقَّةُ في الوصول إليها، قال تعالى: ﴿بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ [التَّوبة: 42](8) وهو المعنى المُرادُ في الآية؛ أيْ: لو لم تُخلقِ الإبل لم تكونوا بالِغيه إلّا بجهدٍ ومشقَّة(9).

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلد).
(2) الخليل، العين: (بلد).
(3) الرّاغب، المُفردات: (بلد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 170، وقد نقله عن عكرمة.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 170، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 97، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 106.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شق).
(7) الفيّوميُّ، المصباح المنير: (شقق).
(8) الرّاغب، المُفردات: (شق).
(9) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 204، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 72، والسَّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 194.

4) ﴿لَرَءُوفٌ﴾: أصل (رأف) يَدُلُّ على رِقَّةٍ ورَحْمَةٍ؛ وهِيَ الرَّأْفَةُ[1]، والرّأفة: الرَّحمة[2]، وقيل: الرَّأْفَةُ: أشدُّ الرَّحمة[3]، والرَّؤوف اسم من أسماء اللّه ﷻ، وهو من جنس الرَّحمة، ولذلك يُذكر عادةً في الكتاب العزيز متبوعًا بها، سواء فيما يتعلّق باللّه ﷻ كما هنا ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ أو كان متعلِّقًا بالرَّسول ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التَّوبة: 128].

5) ﴿رَّحِيمٌ﴾: الرَّحيم اسم للّه تعالى مُشتقٌّ من الرَّحمة، ومِثْلُه في الاشتقاق من الرَّحمة اسمُ اللّه (الرَّحمن)[4]، ومن الفروق بينهما أنَّه لا يُطلَق (الرَّحْمَنُ) إلّا على اللّه تعالى من حيث إنَّ معناه لا يصحُّ إلّا له؛ إذ هو الَّذي وسِعَ كلَّ شيءٍ رَحْمَةً، و(الرَّحِيمُ) يُستعمل في غيره وهو الَّذي كثُرت رحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ [البقرة: 182]، وقال في صفة النَّبيِّ ﷺ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التَّوبة: 128][5]، وبناء ﴿رَّحِيمٌ﴾ على المبالغة من الرَّحمة كسائر أسماء اللّه وصفاته المُتعدِّي أثرُها إلى الخَلق، فإنَّ بناءها على المبالغة، فهي إمّا على فعيل كـ (رحيم)، و(حليم)، أو فعول كـ (غفور)، و(شكور)، أو فعّال كـ (غفّار)، و(توّاب)، ومعنى ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾؛ أيْ: يبلِّغكم السَّلامة من المَشقّات بالرَّأفة، وترَقِية المنعِمات بالرَّحمة[6].

المَعْنى الإجماليُّ:

بيان أنَّ خلق الأنعام كان رأفةً ورحمةً بالعباد لدفع المشقَّة والمعاناة عنهم

ومن المنافع الّتي خلق اللّه لكم الأنعام لأجلها، ومن نِعَمِه عليكم

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رأف).
(2) الرّاغب، المُفردات: (رأف).
(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 1/ 177.
(4) الخليل، العين: (رحم).
(5) الرّاغب، المُفردات: (رحم).
(6) الشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويِّ: 9/ 5616.

أنَّها تحمِلكم وتحمِل أمتعَتكم وحاجاتِكم إلى أماكنَ بعيدةٍ، ما كنتم لتصلوا إليها إلّا بِعَنَتٍ شديد ومشقَّةٍ مُجْهِدَةٍ، تكاد أن تذهبَ بنصف قوَّتكم، لولا أنَّ اللّه تعالى رفع عنكم هذه المشقَّةَ، فسخَّر لكم هذه الإبلَ من الأنعام لتقوم بذلك، وما ذلك إلّا لأنَّ اللّه تعالى رؤوفٌ بكم يرفع عنكم بخَلْق الأنعام وتَذْليلها المشقّات، رحيمٌ بكم كذلك يشملُكم بِنِعَمه ويُرقّيكم في المَكرُمات.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾:

الوصل في الآية الكريمة للجُمل يكمِل ملامح المعنى ويُجلّيه

الواو عاطفة، عطفت هذه الجملةَ ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ على ما قبلَها، وهي جملة: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النحل: 6][1]، وكِلاهما مشتَرَك في حكم أنَّهما من نِعم اللّه ﷻ في خَلْقِ الأنعام لعباده.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿وَتَحۡمِلُ﴾:

التَّعبير بالفعل المضارع، يدلُّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ

عبَّر بالفعل المضارع للدَّلالة على استمرار قيامها بهذا وتكرُّره، وتجدُّده كلَّما احتيج إليها في حمل أثقالِ النّاس وأمتعتِهم، ولا يزال النّاس حتَّى يومنا هذا الَّذي وُجدت فيه البدائلُ من الطّائرات والسَّيارات والسُّفن العملاقة، لا يزالون يستخدمون الإبل للحَملِ في الأماكن الَّتي لا تستطيع السَّياراتُ دخولَها، وهذا واقعٌ مُشاهَد.

عود الضَّمائر في ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾:

الإبل تتفرَّد بين الأنعام لكونها المُهيَّئة لحمل الأثقال

أمّا ضميرُ الفاعل في قوله: ﴿وَتَحۡمِلُ﴾؛ فيعود إلى أشْهَر الأنعام المُعدَّة للحُمولة عندهم وهي الإبلُ، بطريق القرينةِ[2]، والقرينةُ هي قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ﴾؛ لأنَّ الَّذي يحمل الثِّقال من الأنعام هي الإبل.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 105، والخرّاط، المُجْتَبى من مُشكِل إعراب القرآن: 2/ 570.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 106.

وأمّا الكاف في ﴿أَثۡقَالَكُمۡ﴾؛ فإنَّها تعود إلى كلِّ مَن يصلح للخطاب، سواءٌ الَّذين كانوا موجودين وقت صدورِه أم مَن وُجدوا بعدَه، بل ومَن سيوجَدون كذلك.

بلاغة الكناية عن بلوغ البلد بحمل الأثقال:

طَيُّ ما يُمكِن الاستغناء عنه في الكلام تحقيقًا للإيجاز

وعلى طريقة القرآن في الإيجاز وطيِّ ما يُمكِن الاستغناء عن التَّصريح به، مع توفُّر ما يدلُّ عليه، نجد الآيةَ الكريمة تكتفي بذِكر الحَملِ دون ذِكر بلوغِ المقصَد، وهو البلد الَّذي يودُّ المحمول أن يصل إليه هو وأمتعتُه، وهي كنايةٌ قريبة من التَّصريح، ولذلك عقَّب بقوله تعالى: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾[(1)].

نكتة تنكير لفظ ﴿بَلَدٖ﴾:

كلُّ بلد يصلح لهذا الموصوف لا على التَّعيين

تنكير ﴿بَلَدٖ﴾ له دلالتان: الأولى: شيوع المقصود بالبلد، وعدمُ حصرها في بلد مُعيَّن، خِلافًا لَمن قال: إنَّها مكَّة أو الشّام، وهو ما ينبغي أن يُحمل من قائِليه على مُراد التَّمثيل[(2)]، لا على التَّعيين.

الثّانية: أن يكون التَّنكير للتَّفخيم والتَّهويل[(3)]؛ أيِّ: تفخيمُ هذا البلد وتهويله؛ للدَّلالة على معنى البُعدِ الشَّديد فيه، ويُؤيِّده قوله تعالى بعدها: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾.

دلالة موقع ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾:

نَأْيُ البلد فيه مشقَّة ورَهَق

وقوله: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾، صفة لـ ﴿بَلَدٖ﴾[(4)]، وهي مفيدةٌ معنى البُعْدِ، لأنَّ بلوغ المسافر إلى بلدٍ بمشقَّة، هو من شأن البلدِ البعيد[(5)].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 106.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 508.
(3) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاويِّ: 4/ 248.
(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 7/ 194.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 106.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَكُونُواْ﴾:

النَّفي بالمضارع يدلُّ على استمرار النَّفي

وعبَّر بالمضارع في جملة النَّفي، للدَّلالة على استمرار نفي أن يبلغَ المخاطبون، ومَن في حُكْمِهم ما يقصِدون من البلاد البعيدة إلّا بشقِّ الأنفس؛ لولا أن سخَّر اللّه لهم الأنعامَ، لتقوم بنقلِهم إليها، فهي حالةٌ مُتكرِّرة مُشاهَدة.

بلاغة القصر في ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾:

نعمةُ خلق الأنعام عظيمة، لأنَّها تحمل عنهم الأثقال

وقوله تعالى: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ فيه أنَّ القصْر المُستفاد هنا من النَّفي والاستثناء قَصْرٌ إضافيٌّ، وهو قَصْر موصوفٍ على صفة، والمقصودُ به مَن يَعْنيهم الخطابُ، سواءٌ الّذين عاصروا التَّنزيل، أو مَن في حكمهم حتَّى يومنا هذا، فبلوغهم البلادَ البعيدةَ لا يكون إلا مُلتبِسًا بشقِّ الأنفس، لولا أن خلق اللّه تعالى لهم الأنعامَ ليركبوا عليها، وهدفُ القصر التَّأكيد على هذا المعنى، لِلَفْتِ نَظَرِ المخاطَبين إلى أمرٍ قد يغفُلون عن إدراك قيمتِه الكاملةِ لكثرة المُلازَمة، وهو نعمةُ الحَمل والتَّنقُّل، والمُلازمة والاعتياد من دواعي الغفلةِ عند الإنسان.

معنى الباء في قوله ﴿بِشِقِّ﴾:

لزومُ المشقَّة في أسفار الناس لولا نعمةُ الأنعام

والمعنى: لم تكونوا بالغيه إلّا مُلتبسين بمشقَّةٍ شديدة، بدون استخدام الأنعام الّتي سخَّرها اللّه لكم، لتُخفِّف عنكم، فهي من جُملة نِعَمِه عليكم، قال الإمام البغوي: "أيْ: بالمَشَقَّةِ والجُهْدِ، والشِّقُّ: النِّصفُ أيضًا أيْ: لَم تَكونوا بالِغيْه إلّا بِنُقْصانِ قوَّةِ النَّفْسِ وذَهابِ نِصفِها"(1).

فائدة القَيْد ﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾:

لولا نعمة الله على النّاس في خلق الأنعام، لبلغت بهم المشقَّةُ مَبلغًا لا يُطاق

وفائدة القَيْد ﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ التَّذكيرُ والتَّنصيص على قيمة نعمةِ اللّه ﷻ في تسخيرِ الأنعامِ لهذه المهمَّة العظيمة، وتلك النِّعمةِ

---

(1) البغويّ، معالم التنزيل: 3/ 72.

الجليلة، وهي نعمة حَمل النّاس وأمتعتِهم إلى الأماكن البعيدة، الَّتي يشقُّ الوصول إليها من دونها.

لكن هل يعني ذلك أنَّهم كانوا في زمنٍ سابقٍ يسافرون ويحملون أثقالَهم، ثمَّ بعد ذلك حملتها الإبل؟ أم إنَّ هذا ليس مقصودًا؟ وهذا سؤال وجَّهه صاحب الكشّاف وأجاب عنه فقال: فإن قلتَ: ما معنى قوله: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ كأنَّهم كانوا زمانًا يتحمَّلون المشاقَّ في بلوغه حتَّى حملت الإبل أثقالَهم؟ قلتُ: معناه: وتحمل أثقالَكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالِغيه في التَّقدير لو لم تُخلق الإبلُ إلا بجهد أنفسكم، لا أنَّهم لم يكونوا بالغيه في الحقيقة[1].

بلاغة المجاز في: ﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾:

الكناية والمجاز العقليّ وجهان بلاغيّان، لَهُما وجاهتُهما

في هذا التَّعبير أكثر من وجه بلاغيٍّ منه: **الكنايةُ**: وذلك لأنَّ الشِّقَّ: أحد نصفيِ الشَّيء، وعلى هذا فكأنَّ التَّعبير به، كناية عن ذهاب نصفِ القوَّة لِما يلحَق من الجَهد[2].

ومنه **المجازُ** العقليُّ: وذلك في إسناد الشّقِّ - بمعنى المَشَقَّة - إلى الأنفس، مع كون الَّذي يشعر بالمَشَقَّة هو الجسد، فإنَّ آثاره تقع عليه، إلّا إذا حُملت الأنفسُ على الذَّوات.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَنفُسِۚ﴾:

مشقَّةُ السفر على كل الأنفس

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡأَنفُسِۚ﴾، هي الجنسيَّة الاستغراقيَّة الّتي تشمل كلَّ الأنفس، والمُراد بذلك أنَّه لا تخلو نفسٌ من معاناة المشقَّة، في بلوغ هذا البلد، ممّا يُدلِّل على فضل نعمة اللّه تعالى علينا بهذه الأنعام الّتي تحمل هذه الأثقال.

بلاغة توجيه القراءات في ﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾:

القراءات في كلمة (بِشِقِّ) وتوجيهها

قراءة العامَّة على كسرِ الشِّين ﴿بِشِقِّ﴾، وقرأ أبو جعفر، ورويَت

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/ 595، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 106.

(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 109.

عن نافع وأبي عمرو بفتحها (بِشَقٍّ)، وفي توجيههما: قيل: هما مصدران بمعنًى واحدٍ؛ أي: المَشَقَّة، فمِنَ الكسر قولُه:

وذي إبلٍ يسعى، ويَحْسِبُها له *** أخي نَصَبٍ مِنْ شِقِّها ودَؤوبِ

أيْ: مِنْ مَشَقَّتها، وقيل: المفتوحُ المصدرُ، والمكسورُ الاسمُ، وقيل: بالكسرِ نصفُ الشَّيء، وقيل: هما لغتان مثل: رِقٍّ وَرَقٍّ وَجِصٍّ وَجَصٍّ[1].

بلاغة الاحتباك في الآية الكريمة:

السِّياق يُظهر جمالَ الحذف ودوره في سياق الآية الكريمة

قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾، في الآية نوعٌ من الاحتباك: حيث حُذف المقابل من كلِّ جملة لدلالة ما في الجملةِ الأخرى عليه؛ فقد ذكر حَملَ الأثقال أوّلًا، دليلًا على حَمل الأنْفس ثانيًا، وذكر مشقَّة البلوغ ثانيًا، دليلًا على مشقَّة الحَمل أولًا[2].

نكتة فصل جملة ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ﴾:

كون الجملة علّةً لما قبلها، يشير إلى دقّة المباني في التّعبير عن المعاني

نكتة فصل قوله ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لأنَّ هذه الجملة علَّة لِما قبلها، فالفصل لكمال اتِّصالها بها؛ أيْ: أنعم اللّه عليكم بكذا وكذا؛ لرأفته الكاملة، ورحمته الشّاملة.

ويُمكن أن يكون سبب الفصل شبه كمال الاتِّصال جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لِمَ يفعل هذا كلَّه؟ فكان هذا الجواب.

دلالة توالي المُؤكِّدات في فاصلة الآية:

كثرة توالي المُؤكِّدات دليلٌ على كبير أهميّة المُؤكَّد

اشتملت خاتمةُ الآية على عددٍ من المُؤكِّدات، الغرضُ منها تأكيد أنَّه سبحانه إنَّما أنعم على عباده بهذه النِّعم لجميل صفاته وعظيم امتنانه، وليس لأنَّ الإنسان الخصيمَ المبين يستحقُّ جميلَ صُنْعِ اللّه به وله.

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 72، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 7/ 195.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 109.

وهذه المُؤكِّداتُ هي: التَّعبيرُ بـ ﴿إِنَّ﴾ التّوكيديَّة، وهي مُزيلَة لأيِّ شكٍّ في أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي أنعم بهذه النِّعم، وأنَّه ما أنعم بها إلا رأفةً منه ورحمة، وكأنَّه وُجِد من المخاطَبين مَن يشكُّ في هذا، أو أنَّه أنزلهم مَنْزِل الشّاكِّين، ليؤكّد الغرض.

والجملةُ الاسميَّة الدّالَّة على الثَّبات، والتَّعبيرُ بالرَّبِّ مضافًا إلى ضمير المخاطَبين، واسم الرَّبِّ إنَّما يُعبَّر به في مقام الامتنان والإنعام، ودخولُ اللّام على الخبر ﴿لَرَءُوفٌ﴾، وهي اللّام الَّتي يُقال لها: المُزَحْلَقَة، وتأتي للتَّوكيد، واستخدام صيغتيِ المبالغة في اسمي (الرَّؤوف)، و(الرَّحيم).

سرُّ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة ﴿رَبَّكُمْ﴾:

اقتضاء المقام التَّعبير بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة لمناسبتها للمعنى المُراد

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أوثر التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة، للإشارة إلى أنَّ ذلك التَّمكين من مُقتضيات الرُّبوبيَّة والقيام على شئونكم[1] أيُّها المخاطَبون.

وفي إضافته إلى ضمير المُخاطَبين استمالةٌ لغير المؤمنين وتلطُّفٌ معهم في الخطاب.

نكتة التّذييل بـ ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

تلك النِّعَمُ كلُّها من رأفة الله ورحمته بعباده

كلُّ فاصلة آيةٍ في القرآن الكريم مُمَكَّنةٌ في مكانها، قارَّةٌ فيه، وفي ختم هذه الآية بهذيْن الاسميْن الجليليْن النّازعيْن إلى رحمة اللّهِ ﷻ بعباده، وتيسيره عليهم، بخلْقِ ما ينفعُهم ويساعدهم على بلوغ مقاصدِهم، وقضاءِ حوائجهم، فيه ما لا يخفى من التَّناسب المُتَّحَف بالإنْعام والامتنانِ على العباد فضلًا من اللّه ونعمةً ورحمةً، والعادة أن يُذكر اسمُ اللّهِ (الرَّؤوف)، وهو من الرَّأفة بمعنى الرَّحمة، أن يُذكر سابقًا الرَّحيم، فعلى هذا يكون جَمَعَ بين اللَّفظيْن في قوله:

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4134.

﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تأكيدًا، وحَسَّن ذلك اختلافُ اللَّفظيْن، وقيل: الرَّأفة أرقُّ من الرَّحمة، فهي أخصُّ، وعلى هذا فلا تكرار ولا تأكيد[1].

نكتة الترتيب في: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

اجتماع جمال النَّظم وكمال المعنى في التَّرتيب بين (لَرَءوفٌ رَحِيمٌ)

وفي سرِّ تقديم صفةِ الرَّأفة على صفة الرَّحمةِ، قيل: لأنَّ (الرَّؤوف) أبلغُ من (الرَّحيم)، كما أنَّ من دواعي التَّقديم مراعاة الفاصلة[2]، فيكون الخَتْمُ بالصِّفتيْن الجليلتيْن وبهذا التَّرتيب، اجتمع فيه جمالُ النَّظم مع كمال المعنى، والحقيقة أنَّ الرَّأفة تقتضي الرَّحمةَ، ولذا فإنَّ تقديمَها عليها هو من تقديم السَّببِ على المُسَبَّب.

غرض تنكير الاسميْن الجليليْن:

التَّنكيرُ لتحقيق غرض التَّفخيم والتَّعظيم

ونُكِّر الاسمان الجليلان، تفخيمًا وتعظيمًا، وما ينتج عنهما عظيمٌ كذلك، فهو سبحانه لكونه مُتَّصفًا بهاتيْن الصِّفتيْن الجليلتيْن: يدفع عنكم ما يضرُّكم، ويُبلِّغكم السَّلامة من المشقّات، ويُرقِّيكم في النِّعم والمنافعِ، برأفته ورحمتِه[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البلدُ والقريةُ والمدينةُ والمِصرُ:

المُفردات الأربعُ مواطن الاتِّفاق والافتراق والأسرار الدَّلاليَّة

الاشتراك بين جميعها في معنى الاجتماعِ والإقامة، وافتراق البلدِ عن ثلاثتها بمعنًى زائدٍ هو المكانُ الخالي المزروع، والمدينةُ والقرية في الاستعمال القرآنيِّ يتعاقبان، ويُغلِّب استعمالَ أحدهِما على الآخر أحيانًا طبيعةُ السُّكان، والبلد: كلُّ موضع من الأرض متُحيِّزٍ محدود سواءٌ أكان عامرًا أم غيرَ عامرٍ[4].

(1) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (رأف).
(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 311.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/ 128، والشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويِّ: 9/ 5616.
(4) الفيّوميُّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (بلد).

وخصَّه بعضهم بأنَّه المُتأثِّر باجتماع قطّانه وإقامتهم فيه[1]، وفي القرآن الكريم يُطلق البلد على كلِّ موضعٍ مُتحيَّز من الأرض عامرٍ أو غامرٍ، ومن إطلاقه على البلد العامرة بالسُّكان في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: 1] وقوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التّين: 3]، فهي مكّة في كليهما، وقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾: قُطْر أو مدينة، ومن إطلاقه على غير العامر بالسُّكان قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: 57][2].

وقيل: سُمّيتِ المفازةُ بلدًا؛ لكونها موضعَ الوحشيّات، والمَقْبَرَةُ بلدًا؛ لكونها موطنَ الأموات[3].

ومعنى هذا أنَّ لفظ البلد يُطلق على كلِّ بقعةٍ من الأرض متحيِّزةٍ محدودة، مهما كانت عامرةً بالسّكّان، أو غيرَ عامرة بهم لكنَّها مزروعةٌ بسُقْيا الماء النّازل من السَّماء، بعد أن كانت مَواتا.

القرْيَة: أصل (قرى) يَدُلُّ عَلَى جُمَعٍ واجْتِماعٍ، وسُمِّيَت القريةُ بهذا الاسم لِاجْتِماعِ النّاسِ فِيها[4] من قَوْلِهم: قَرَيْتُ الماءَ فِي الحَوْض إذا جمعتَه فيه، وهي عبارة عن الأَبْنِيَة الَّتِي تجمع النّاس[5].

المدينة: المَدِينة اسمٌ لكلِّ حِصْنٍ يُبنى في أُصْطُمَّة - الوسط ومعظم الشّيء - من الأرض، والجمع: مدائن ومُدُن ومُدْن، مأخوذ من: مَدَن بالمكان؛ أيْ: أقام به[6].

المِصْر: اسمٌ لكلِّ بلد مَمصور؛ أيْ: محدود[7]، والحاجز والحدُّ بين الأرضِيْن، تقول: اشتريت الدّارَ بمُصورها؛ أيْ: بحُدودها، والمِصْر واحدُ الأمصار (بلدٌ أو مساحة تُحَيَّزُ وتُحَدَّد حدودُها - لا كالصَّحراء بغير حدود)، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61][8].

(1) الرّاغب، المُفردات: (بلد)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2، 272.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلد).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 273.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قرى).
(5) الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 735.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (مدن)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/ 494.
(7) الرّاغب، المُفردات: (مصر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مصر).

ومن خلال هذا العرض يظهر لنا أنَّ جميعَها تشترك في المكان المُعيَّن المحدود العامر بإقامة النّاس فيه وتجمُّعهم، غير أنَّ البلد تزيدُ على ثلاثتِها بأنَّها قد تُطلق على المكان غيرِ العامر بالسُّكان أيضًا، لكنَّه غامرٌ بالماء والزِّراعة.

ويتبيَّن لنا كذلك أنَّ كلَّ لفظ منها يُمكن أن يُطلق على معنى الآخر باعتبار الاجتماع فيه.

وأمّا القرية والمدينة في استعمال القرآنِ الكريم، فيظهر أنَّهما قد يتعاقبان، وأنَّ كلًّا منهما يُطلق على الآخر، كما قال ابنُ كثيرٍ في معنى قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: 77]: قال: فِي هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى إِطْلاقِ القَرْيَةِ عَلَى المَدِينَةِ؛ لِأَنَّهُ قالَ أَوَّلًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكَهْف: 77]، وقالَ هاهُنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: 82][1].

غيرَ أنَّ الغالب في اسم القرية أن يُطلق على المكان حالَ ذمِّه، واسم المدينة يُطلق عليه حالَ مدحه.

وهو الفارقُ الَّذي يظهر في عددٍ من الآيات الكريمةِ، ويُبْرِزُه في وضوح ما جاء في سورة الكهفِ المذكورةِ قريبًا في قصَّة موسى عليه السلام والخَضِر، حيث قال سبحانه: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: 77]، فذكرها باسم القرية حالَ ذمِّ أهلها بالبخل.

ثم قال عنها بعد ذلك: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾ [الكهف: 82]، فذكرها باسم المدينة، حالَ ذِكْر الغلامَيْن اليتيمَيْن ابنيِ الرَّجل الصّالح.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 185.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النّحل: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكملةُ ذِكْر نعمة الأنعام بترتيب الدَّوابِّ في الذِّكر تبعًا لكثرة المنفعة وداعِية الحاجة

وبعد أن انتهت الآياتُ من بيان نعمةِ اللّه تعالى في خلق الأنعام حيثُ بدأ بها، لكونها أهمَّ من حيث إنَّ منافعها أكثرُ[1] والحاجةَ إليها أدعى، لأنَّ منافعها ضروريَّةٌ، وحاجاتها أصليَّة[2]، ثنَّى بعد ذلك بما هو مهمٌّ، وهو في ترتيبه تالٍ للأنعام في الأهمِّيّة، لكون منافعِها ليست ضروريَّة أصليَّة كالأنعام، وتالٍ لها أيضًا في مقام الإنعام والامتنان، وهو ذِكْرُ ما يُركب من الدّوابِّ، لتحملَ الناس وأغراضَهم أيضًا كما تفعل الأنعام، وساقها كذلك مرتَّبةً من الأعلى إلى الأدنى، ومقدِّما أيضًا ما هو أهمُّ من منافعها وهو الرُّكوب، على ما هو ثانويٌّ وهو التَّزيُّن بركوبها فقال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْخَيْلَ﴾: أصل (خيل) يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ فِي تَلَوُّنٍ، فمِنْ ذَلِكَ: الخَيالُ، وهو الشَّخْصُ، وأصْلُهُ ما يَتَخَيَّلُهُ الإنْسانُ في مَنامِهِ؛ لأنَّهُ يَتَشَبَّهُ ويَتَلَوَّنُ[3]، والخَيال: أصله الصّورة المُجرَّدة كالصّورة المُتصوَّرة في المنام، وفي المِرْآةِ وفي القلب بُعَيد غيبوبة المرئيِّ، ثمَّ تُستعمل في صورة كلِّ أمر مُتصوَّر، والخُيَلاء: التَّكبُّر عن تخيُّل فضيلةٍ تراءت للإنسان من نفسه، ومنها يتأوَّل لفظُ الخيل لما قيل:

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 110.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 177.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خيل).

إنَّه لا يركب أحدٌ فرسًا إلّا وجد في نفسه نخوة[1]، وعَنِ الأَصْمَعِيِّ قالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَمرِو بْنِ العَلاءِ، وعِنْدَهُ غُلامٌ أَعْرابِيٌّ فسُئِلَ أبو عمرٍو: لِمَ سُمِّيَتِ الخَيْلُ خَيْلًا؟ فقالَ: لا أَدْرِي، فقالَ الأَعْرابِيُّ: لِاخْتِيالِها، فقالَ أبو عمرٍو: اكْتُبوا، وهَذا صَحِيحٌ؛ لِأَنَّ المُخْتالَ في مِشْيَتِهِ يَتَلَوَّنُ في حَرَكَتِهِ أَلْوانًا[2]، والخَيْلُ في الأصل اسم للأفراس والفرسان جميعًا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]، ويُستعمل في كلِّ واحد منهما مُنفردًا، والمُراد به هنا: الأفراسُ.

2) ﴿وَٱلْبِغَالَ﴾: أصل (بغل) يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ في الجِسْمِ، مِنْ ذَلِكَ البَغْلُ، قالَ قَوْمٌ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِقوَّةِ خَلْقِهِ، وقيل: سُمِّيَ بَغْلًا مِنَ التَّبْغِيلِ، وهوضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ[3]، البِغال: جمع بَغْل، والبَغْل واحد البِغال المعروفة الَّتى تُركب، والأنثى: بَغْلة[4]، وهو مُركَّبٌ من الفرس والحمار، ولذلك صار له صلابةُ الحمار وعِظمُ آلات الخيل، وكذلك شحيجُه؛ أيْ: صوته مولَّد من صهيل الفرس ونهيق الحمار، وهو عقيمٌ لا يولد له[5].

3) ﴿وَزِينَةً﴾: أصل (زين) يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيْءِ وتَحْسِينِهِ، فالزَّيْنُ نَقِيضُ الشَّيْنِ. يُقالُ: زَيَّنْتُ الشَّيْءَ تَزْيِينًا، وأَزْيَنَتِ الأَرْضُ، وازَّيَّنَتْ، وازْدانَتْ إذا حَسَّنَها عُشْبُها[6]، والزِّينَةُ ثلاث: زينةٌ نفسيَّة كالعِلم والاعتقادات الحَسَنة، وزينةٌ بدنيَّة كالقوَّة وطول القامة، وزينةٌ خارجيَّة كالمال، فقوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7]، فهو من الزِّينة النَّفسيّة، وقوله ﷻ: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 32]، فقد حُمل على الزِّينة الخارجيَّة، والزِّينَةُ الحقيقيَّة: ما لا يَشين الإنسانَ في شيءٍ من أحواله لا في الدُّنيا، ولا في الآخرة، فأمّا ما يزينه في حالةٍ دونَ حالة؛ فهو من وجه شَيْنٍ[7]، والمُراد بالزِّينة في الآية: الزِّينة الدُّنيويَّة؛ أيْ: تركبونها للتَّزيُّن.

(1) الرّاغب، المُفردات: (خيل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خيل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغل).
(4) الجوهريُّ، الصّحاح: (بغل).
(5) الدَّميريُّ، حياة الحيوان: 1/ 200.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زين).
(7) الرّاغب، المُفردات: (زين).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعَمُ الله تعالى في خلق وسائل الانتقال مُتجدِّدة باستمرار وفي كلِّ حال

وكما امتنَّ اللّه عليكم بخَلْقِ الأنعامِ لتنتفعوا بها خَلَقَ لكم كذلك الخيلَ والبغال والحمير، لتستخدموها في انتقالكم من مكانٍ إلى مكان بركوبِكم على ظهرِها، أو بِجَرِّها للعربات المهيَّأة للرُّكوب، كما أنَّ هذه الأصناف جعلها اللّه تعالى زينةً لكم بركوبها، وزينةً أيضًا للنّاظرين إليها، وللأرض؛ لِما فيها من بديع صُنْعِ اللّه تعالى، ولا يتوقَّف خلق اللّه ﷻ لوسائل الانتقال عند حدِّ هذه الأصناف، بل إنَّه سبحانه يخلق منها ما لا تعلمون مِمّا يكشف عنه الزَّمان مع مرور الأيّام، وما صناعة السَّيارات والطّائرات وغيرها إلا بتيسيره سبحانه، وبما أودعه في الطَّبيعة من موادَّ وطاقة وقوانينَ كانت هذه المصنوعات من آثار اكتشافِها واستغلالِها.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾:

بلاغة الوصل في الآية الكريمة

الواو في جملة ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾ عاطفةٌ، حيث عطفت هذه الجملةَ على جملة: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ﴾ [النحل: 5]؛ أيْ: وكما خلق لكم الأنعامَ لِما ذُكِر، خلق كذلك لكم ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾.

معنى (أل) في ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾:

بيان النّعمة بالحيوان لتحقيق رفاه الإنسان

(أَلْ) في كلٍّ من: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾، هي الجنسيَّة المُسْتَغْرِقة لكلِّ أفراد الجنس، فالتَّعريف بالجنس يستغرق سائرَ أصنافها، مِمّا يُدلِّل على عظمة هذه النِّعم، وأنَّ الخير والتَّسخير مركوزٌ فيها، وأنَّها ما خُلقت إلّا لخدمة هذا الإنسان وإسعاده على القيام بمُهمَّة الاستخلاف في الأرض.

نكتة الاقتصار على هذه الأصناف الثَّلاثة:

وتبدو نكتةُ الاقتصار على هذه الأصناف الثَّلاثة ﴿وَٱلۡخَيۡلَ

﴿وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾؛ لكونها المُحقِّقةَ للغاية المذكورة؛ وهي قوله: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾، فهذه الأصناف مُهيَّأةٌ عن طريق خَلْقِها، لِأنْ تجمع بين الرُّكوب والتَّزيُّن، وفيه نكير على مَن يخالفون سُنَّةَ الله في بعض الأنعام، فقد يركبون أحيانًا البقرَ والجاموس، وهي غيرُ مُعَدَّة لذلك، ففوائدُها تعود إلى أكل لحومها والانتفاع بألبانها، أمّا ركوبُها فخلاف فطرتِها، ولذلك لا يتحصَّل بركوبها لا على الوصول السَّريع إلى المكان المطلوب لكونها بطيئةً في مِشيتها، ولا على التَّزيُّن بركوبها، فما أبشع ذلك المنظرَ.

النَّصُّ على وظيفة (الخَيْلَ والبِغالَ والحَمِيرَ) في الرُّكوب

سرُّ التَّرتيب في: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾:

والتّرتيب في الذِّكر بين الأجناس الثَّلاثة ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾، مُراعًى فيه الشَّرف، فقدَّم الأشرفَ - وهي ﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾ الصّاهلة - ثمَّ ثنَّى بما يليها وهي ﴿وَٱلۡبِغَالَ﴾ المتولِّدة بينها وبين الحُمُرِ، فهي هجينٌ منها، ثمَّ ثلَّث بذِكر ﴿وَٱلۡحَمِيرَ﴾ النّاهقة[1].

ترتيب ثلاثتها بمراعاة مراتبها في الشَّرف وأهمِّيَّتها الوظيفيَّة

ويجمع بين ثلاثتِها أهميَّتها في الرُّكوب، والتَّزيُّن والتَّرتيب في الغايتيْن سواء، بمعنى أنَّ الأهمَّ والأشرف في الرُّكوب هو أيضًا الأعلى في التَّزيُّن، والأدنى في الرُّكوب هو أدناها في التَّزيُّن به.

معنى اللّام في: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ هي لام التَّعليل، حيث عُلِّل بها خلقُ الأجناس الثَّلاثة، قال الشّيخ أبو السّعود: "تَعْلِيلٌ بِمُعْظَم مَنافِعِها، وإلّا فالِانْتِفاعُ بها بِالحَمِلِ أيْضًا مِمّا لا رَيْبَ في تَحَقُّقِهِ"[2].

الرُّكوب أوَّلُ وأهمُّ وظيفة، لكلِّ مركوب

نكتة الحذف في: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾:

وعلى طريقة القرآن في الإيجاز الَّذي من وسائله حذفُ ما يُمكن

حذف العامل للدَّلالة عليه تحقيقًا للإيجاز

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 110.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 98.

حذفُه لُمبِّرٍ، فقد حذف العاملَ هنا؛ إذِ الأصلُ: (وخلق لكم الخيل ...)، وذلك للدَّلالة عليه في قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ﴾.

"والفعل (خَلَقَ) المحذوف يتعلَّق به ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾؛ أيّ: خلقها اللّهُ لتكون مراكبَ للبشر، ولولا ذلك لم تكن في وجودها فائدةٌ لعُمران العالم"[1].

نكتة العدول عن حَملها للأثقال إلى ركوبها واتِّخاذها زينةً:

منفعةُ حَمل الأصناف المذكورة، هي منفعةٌ ثالثةٌ تَلي في الأهمّيّة المنفعتيْن المنصوص عليهما

مِمّا يُلحظ أنَّ الآية تنصُّ في خلق ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾، على غايتي الرُّكوب والزِّينة، دون النصِّ على غاية حَملِها للأثقال، كما نُصَّ عليها في خلق الأنعامِ، رغم أنَّها تقوم بذلك أيضًا، فبحكم الواقع هي تقوم بالحَمل إمّا مباشرةً فوق ظهرها كما في الحمير، أو عن طريق جرِّ العَرَبات، وهو ما تقوم به الخيلُ والبغال.

والَّذي يظهر كتعليلٍ لهذا هو أنَّ منفعة حَمل الثَّلاثةِ لِلأثقال، هي منفعةٌ ثالثة تَلي في الأهمِّيَّة المنفعتيْن المنصوص عليهما؛ لكونها ليست مخصوصةً بها وحدها، وأنَّ الإبل مُقدَّمة عليها فيها لكونها المهمَّةَ الأصليَّة لها، وخصوصا في الصَّحراء، ويجوز أن يكون مُعتَمد عدم النَّص على منفعة حَمل الأثقال مع ثلاثتها، سبْقَ النَّصِّ عليها في خلق الأنعام، فأغْنى ذلك عن إعادةِ ذكرها.

وقيل: "لأنَّهم لم تكن عادتُهم الحملَ على الخيل والبغال والحمير، فإنَّ الخيل كانت تُركب للغَزْو وللصَّيد، والبغال تُركب للمشي والغزو، والحمير تُركب للتَّنقُّل في القرى وشَبَهِها"[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 107.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 108، وتعليل ابن عاشور هذا مرجعه إلى أنّه يرى أنَّ ما في الآية واقع موقع الامتنان، فكان مقتصرًا على ما ينتفع به المخاطَبون الأولون في عادتهم، وفي كلامه تضييق لمضمون الامتنان ومشمولاته، فلماذا في معرض الامتنان يخصّ فقط المخاطَبين الأوّلين، أيْ: والكائنين وقت التَّنزيل؟.

نكتة العدول عن لام التَّعليل: ﴿وَزِينَةً﴾:

قال تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةً﴾، ولم يَقُلْ: (لتركبوها ولتتزيَّنوا بها) لاختلاف الفاعل في الرُّكوب واتِّحادِه في التَّزيين، ومُسَوِّغ الاختلاف بين التَّعبيرَيْن:

الرُّكوب هو العلَّة الأصليَّة في خلقها، والتَّزيُّن بها علَّةٌ تابعة

أوَّلًا: وجود عِلَّة نحويَّة تمنع اقترانَه باللّام، وهي تَوَفُّرُ شرط انتصابه على المفعوليَّة لأجله؛ لأنَّ فاعلَه وفاعلَ عامله واحدٌ؛ وهو اللّه تعالى، فإنَّه سبحانه هو مَنْ خلقها، وهو مَنْ جعلها زينةً، بخلاف قوله: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ فإنَّ الفاعل مختلف، فالخالقُ هو اللّهُ، والرّاكب المخاطَبون، فلأجل هذا لَحِقَتها اللّام[1].

وثانيًا: الدَّلالة على أنَّ العِلَّة الأصليَّة لخلقها هي منفعة الرُّكوب، وهو المقصود الأصليُّ[2]، وأمّا التَّزيُّن فهو تابع للعلَّة الأصليَّة، وكونها زينةً؛ أيْ: لراكبها، فأشْبَهَ قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: 26]، حيث نصَّ أوَّلًا على العلَّة الأصليَّة لخلق اللِّباس وهي سترُ العورات، ثمَّ عطف عليها العلَّةَ التّابعة، وهو كونه زينةً: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾.

أو أنَّها زينة للأرض[3]، وعليه فهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ [الكهف: 7]، وذلك أنَّ ما في الأرض من زينةٍ، يقابل ما في السَّماء من زينةِ الكواكبِ والنُّجوم، الَّتي قال اللّه تعالى عنها: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦﴾ [الصّافات: 6] وقال: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5].

وثالثًا: أنَّه لو قال (وليجعلها زينة لكم)، لصار المعنى أنَّ التَّزيُّن بها أحد الأمور المُعْتَبَرة في المقصود، وذلك غيرُ جائزٍ، لأنَّ التَّزيُّن

(1) السّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 1/ 195، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 107.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 344.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 107، واكتفى ابن عاشور بالنَّص عليه.

بالشَّيءِ يورث العُجْبَ والتِّيه والتَّكبُّر، وهذه أخلاقٌ مذمومةٌ نهى اللّه تعالى عنها وزَجَرَ، فكيف يقول: إنِّي خلقتُ هذه الحيواناتِ، لتحصيل هذه المعاني، بل قال: خَلَقَها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسِكم بواسطتها ضررَ الإعياءِ والمشقَّة، وأمّا التَّزيُّن بها؛ فهو حاصلٌ في نفس الأمر، ولكنَّه غيرُ مقصود بالذّات، فهذه هي الفائدة في اختيار هذه العبارة ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾[1].

نكتة الموقع الإعرابيّ لـ ﴿وَزِينَةٗۚ﴾:

الوجوه المحتَمَلة في إعراب (وزينة)، توازنٌ بين المعاني المُمكنة

الأوّل: هو كونه مفعولًا لأجله، وهو ما مضى ذِكْرُه، ولعلَّه أظهرُها، و**الثّاني**: أنَّها منصوبةٌ على الحال؛ أيْ: وخَلَقَها لتركبوها، وهي زينةٌ وجمال، أو خلقها زينةً وجمالًا لتركبوها، و**الثّالث**: أنْ ينتصِبَ بإضمارِ فِعْلٍ؛ أيْ: (وخَلَقها زينة)، أو: (وجَعَلها زينةً)، و**الرّابع**: أنَّه مصدرٌ لفعلٍ محذوف؛ أيْ: (وَيَتَزَيَّنُوْن بها زينةً)[2].

نكتة تنكير ﴿وَزِينَةٗۚ﴾:

التَّنكير للتَّفخيم من فصيح البيان الحكيم

ونكتة تنكير ﴿وَزِينَةٗۚ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ تفخيمٌ لأمرِها؛ لأنَّها من فعل المُنْعِم العظيم جلّ شأنه وتعالى اسمه، فهو الذي أحسن كل شيء خلقه.

نكتةُ إضمارِ متعلّق ﴿وَزِينَةٗۚ﴾:

اكتفى بقوله: ﴿وَزِينَةٗۚ﴾، فلم يقلْ مثلًا: (زينة لكم أو للنّاظر)؛ حتَّى لا تكون مخصوصةً بهذا، فالأصل أنَّها زينة مطلقًا، سواء للرّاكب أم للنّاظر أم للأرض نفسِها، كما تزيَّنت السَّماء بالنُّجوم والكواكب.

معنى الواو في ﴿وَيَخۡلُقُ﴾:

علم البشر بالنِّسبة لعلم الله، كقطرةٍ من بحر

الواو في قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، يجوز أن تكون العاطفة؛ أيْ: على جملة خَلْقِ الخيل، أو هي الاستئنافيَّة، وقد سيقت لبيان

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 178.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 506، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 7/ 196.

إحاطتِه تعالى وقدرته، وأنَّ ما تناهى إليهم علمُه، يُعدُّ ضئيلًا جدًّا بالنِّسبة إلى علمه الواسع(1).

فائدة التَّعبير بالمضارع: ﴿وَيَخۡلُقُ﴾:

الخلق مستمرٌّ ومُتجدِّد، إلى أن يرث الله الأرضَ ومَن عليها

عُبِّر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ﴾ للدِّلالة على الاستمرار والتَّكرار والتَّجدُّدِ، أو: لاستحضار الصّورة(2)، يقول الإمام البقاعي: "أيِّ: عَلى سَبِيلِ التَّجدِيدِ والِاسْتِمرارِ؛ في الدُّنْيا والآخِرَةِ"(3).

نكتة إضمار الفاعل في ﴿وَيَخۡلُقُ﴾:

لا مُنازِع للخالق، في قضيَّة الخَلْقِ على الإطلاق

لمّا سبق قولُه تعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: 2]، في بداية السّورة، أضمر بعدَه فاعلَ ﴿خَلَقَ﴾ [النحل: 3] و﴿خَلَقَهَاۚ﴾ [النحل: 5] و﴿وَيَخۡلُقُ﴾ لكونه معلومًا ولا يحتاج لعدم المُنازِع إلى إعادة ذِكْرٍ أو تصريح؛ إذ الخالقُ معروف ولا يُنازِعُه في ذلك مُنازِع.

فائدة الخبر في خلقه ما لا يعلمون:

محدوديَّة علم الإنسان، والدَّلالة على إعجاز القرآن

وقوله سبحانه: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بعد التَّنصيص على بعض ما خلقه اللّه كالأنعام والخيل، ليُعلِم المُخاطَبين أنَّ عملية الخَلْق مستمرَّةٌ حالًا واستقبالًا، مِمّا يدخل تحت العموم والإبهام المُستفاد من ﴿مَا﴾ بحيث يدخل فيه ما لا يعلمه المخاطَبون من وسائلَ معروفةٍ عند غيرهم وقتَ الخطاب(4).

كما يدخل فيه كلُّ ما توصَّلت إليه البشريَّة حتَّى الآن من وسائل النَّقلِ الحديثة كالسَّيارات والطّائرات، وما ستتوصَّل إليه كذلك؛ لأنَّ

(1) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 123، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 273، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 285.
(2) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 123، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 273، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 285.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 110.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 111.

ذلك كلّه استثمار لِما أَوْدَعَه اللّه في طبيعة الكون من قوانينَ ومُوادَّ كان لها أكبرُ الأثرِ في حياة الإنسانِ عند اكتشافها.

وعلى هذا تُعتبر الآية بمثابة إخبارٍ بالغيب الَّذي هو وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن[1]، ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النّحل: 77]، وكما يدخل فيه كذلك الحيوانات الّتي لا ينتفع الإنسان بها في الغالب، فذكرها هنا على سبيل الإجمال فقال: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وذلك بعد أن ذَكَر أوّلًا أحوال الحيوانات الّتي ينتفع الإنسان بها انتفاعًا ضروريًّا، ثُمّ ذَكَرَ ثانيا أحوال الحيوانات الّتي ينتفع الإنسان بها انتفاعًا غيرَ ضروريٍّ[2]، ثُمّ ذَكَر ثالثًا هذا القسم الباقي.

معنى (ما) في ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

عطاء الله في الخلق لا تنتهي عجائبُه إلى يوم القيامة

قوله ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: ﴿مَا﴾ هنا هي الموصولة، وإيثارُها على (الَّذي) لِما فيها من إبهام وشمول يجعل معناها واسِعًا، قابلًا لاستيعاب كلِّ جديد يتوصَّل إليه الإنسانُ من أسرار الكونِ، وقوانينه المودَعَة فيه من خالقه.

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

المُخاطَب يعلم شيئًا، ولكن تغيب عنه أشياء وأشياء

وعبَّر بالموصول في قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، إضافةً إلى غرض العموم، لتفخيم شأنِ ما لا يُعلَم مِمّا يخلق اللّهُ، كما تدلُّ على ذلك جملة الصِّلة، وفيه لَفْتٌ لابن آدمَ الَّذي يصيبه أحيانًا غرورُ العلم، بأنَّه مهما علم، فإنَّ ما لا يعلمه أكثرُ وأكثرُ.

نكتة حذف مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

حذف المفعول قصدًا إلى العموم من بيان السِّياق المعلوم

وحُذف مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ دلالةً على طلاقتِه وتعميمه وأنَّه غيرُ محدود، وأنَّه قد يتجاوز حدودَ الدُّنيا كلِّها إلى ما يخْلُقه اللّه في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 111، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4135.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 178.

الآخرة مِمّا لم يبلغه وهْمُ أحدٍ، ولا خَطرَ على قلبه، لنزداد دلالةً على قدرته بالإخبار، وإن طوى عنّا عِلْمَه حكمةً له في طيِّه[1].

أو أن يكون قد حَذَفَه اختصارًا للعِلم به، والمعنى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ موجِدًا غيرَه ولا مدبِّرًا سواه[2].

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

عِلْمُ الله مددٌ لا ينتهي وإعجازٌ لا ينقضي

دلَّ التَّعبير بالمضارع على استمرار عدم الإحاطة، بكلِّ ما يخلقه اللّه في الكون، مِمّا هو مُعَدٌّ للرُّكوب والانتقال، لكونه مُتجدِّدًا ولا يلحق به علمُ الإنسان، فإنَّه "لمّا دلَّ على قدرته بما ذَكَر في سياق الامتنان، دلَّ على أنَّها لا تَتَناهى في ذلك السِّياق، فنَبَّه على أنَّه خَلَقَ لهم أمورًا لو عدَّها لهم، لم يفهموا المُرادَ على سبيل التَّجديد، والاستمرار في الدُّنيا"[3].

بلاغة المناسَبة بين ﴿وَزِينَةً﴾ و﴿جَمَالٌ﴾:

الـدَّوابُّ جمال يـتـمـتَّـع بـه الرّاكب، ويتسلّى به النّاظر

وهذا التَّناسب ظاهر جدًّا بين قوله تعالى: ﴿وَزِينَةً﴾، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: 6] فكوْن الأنعام في غُدوِّها ورَواحِها لهيْئتها وكثرتها جمالًا، وراحةً نفسيّةً لصاحبها، يُناسب كونَ ركوب هذه الدَّوابِّ ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ زينةً لراكبها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُسن والجمال:

الـجـمـال في الأخـلاق والـفِـعـال، والـحُـسـن في الـصّـورة ويَـحِـلُّ كلٌّ منهما محلَّ الآخر

قال الرّاغب: الجمال هو الحُسْن الكثير، وهو على ضربيْن: جمال مختصٌّ بالإنسان فى ذاته أو شخصه أو فِعله، والثّاني: ما يصل منه إلى غيره[4]، وهو ما دعا العسكريَّ أن يُفرِّق بينهما بهذا المعيار،

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/ 596، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 509.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 110.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 110.
(4) الرّاغب، المفردات: (جمل).

فذكر أنَّ الجمال هوَ ما يشْتَهر ويرتفع بِهِ الإنْسانُ من الأفعال والأخلاق، ومن كَثْرَة المال والجسم، ولَيْسَ هوَ من الحُسن في شَيْءٍ؛ لأنَّ الحُسن في الأَصْل هو للصّورَة، ثمَّ أضاف العسكريُّ أنَّ الحُسن؛ وإن كان في الأصل للصّورة، لكنَّه اسْتُعْمل بعد ذلك في الأفْعال، وكذلك الجمالُ أيْضًا، فإنَّه يُسْتَعْمل في مَوضِع الحُسن فيُقال: وجهٌ جميل، كَما يُقال: وجهٌ حسن[1]، فنَفْهَمُ من هذا أنَّ بين الجمال والحُسن تقاربًا دلاليًّا، واشتراكًا في المعنى العامِّ الحسِّيِّ والمعنويِّ مع تفوُّقٍ للحُسن في الحسِّيِّ (أي: حُسن الوجه والصّورة)، وللجمال في المعنويِّ (أيْ: جمال الفِعال والأخلاق)، وأنَّ كلًّا منهما قد يُستعمل في محلِّ الآخر.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 262.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النّحل: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المُناسَبَةُ بين الإنعام بجمال الحيوان، والدَّلالة إلى طريق الحق بالحُجَّة والبرهان

لمّا شَرَحَ اللّه تعالى فيما مضى من آيات السّورةِ دلائلَ توحيدِه، وبعضَ مظاهرِ إنعامِه على خلقه، ورَسَمَ لهم طريقَ فلاحهم ونجاحهم، وأيضًا لمّا كانوا في أسفارهم واضطرابِهم في المنافع بهذه الحيواناتِ وغيرِها يقصدون أسهلَ الطُّرق وأقومَها وأوصلَها إلى الغرض، ومَن عَدَلَ عن ذلك كان عندهم ضالًّا سخيفَ العقل، غيرَ مُستحقٍّ للعدِّ في عداد النُّبلاء، نَبَّهَهُم بعد ذلك على أنَّ ما تقدَّم في هذه السّورة قد بيَّن الطّريق الأقومَ الموصِلِ إليه سبحانه، وأنَّ ما سواه طريق مُعوجٌّ، فوَجَبَ عليهم أن يَخُصّوه وحدَه بالعبادة، وأخبرهم سبحانه أنَّه أَوْجَبَ هذا البيان على نفسه فضلًا منه، وإزاحةً للعُذر وإزالةً للعلَّة، ليَهْلِك مَن هلك عن بيِّنة[1]، فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: أصلُ (قصد) يدُلُّ على إتيانِ شَيءٍ وأمِّه، تقول: قَصَدْتُهُ قَصْدًا ومَقْصَدًا، وأَقْصَدَهُ السَّهْمُ، إذا أصابَهُ فقُتِلَ مَكانَهُ، وكَأَنَّهُ قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَم يَحِدْ عَنْهُ[2]، القصدُ: إتيان الشّيء، تقول: قَصَدْتُهُ، وقَصَدْتُ له، وقَصَدْتُ إليه بمعنًى[3]، والطَّريقُ القاصدُ هو الواضح المُستقيمُ بالدَّلائل والبراهين[4]؛ أيْ: لا اعوِجاجَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 178، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 111.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قصد).
(3) الجوهريُّ، الصّحاح: (قصد).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (قصد).

فيه ولا انحراف، والقَصْدُ: أن تَنْحو نحوَ الشَّيء، يُقال: قَصَدْتُ قَصْدَهُ؛ أيْ: نَحَوْتُ نحوَه، ومنه: الاقْتِصادُ، والاقْتِصادُ على ضربيْن: أحدهُما محمودٌ على الإطلاق، وذلك فيما له طرفان: إفراطٌ وتفريطٌ كالجود، فإنَّه بين الإسرافِ والبخلِ، وكالشَّجاعة فإنَّها بين التَّهوُّر والجُبْن، ونحو ذلك، وعلى هذا قولُه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان: 19]، وإلى هذا النّحوِ من الاقتصاد أشار تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: 67]، والثّاني يُكنَّى به عمّا يتردَّد بين المحمودِ والمذموم، وهو فيما يقع بين محمودٍ ومذموم، كالواقع بين العدلِ والجَوْر، والقريبِ والبعيد، وعلى ذلك قولُه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: 32][1]، و﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: هي الطّريقُ الموصِل إلى الحقِّ، وهي سبيلُ الإيمان والشَّرعِ[2].

2) ﴿جَآئِرٌ﴾: أصلُ (جور) يدلُّ على المَيلِ عن الطَّريق[3]، والجَوْر: المَيْلُ عن القصد. يُقال: جارَ عن الطَّريق، وجارَ عليه في الحكم[4]، وأصلُه يُقال في الحِسِّيّ مثل: جار عن الطَّريق، ثم جعل ذلك أصلًا في العدول عن كلِّ حقٍّ، فبني منه الجَوْر، والجائر من النّاس: هو الَّذي يمنع من التزام ما يأمرُ به الشَّرع[5]، ومعنى قولِه: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾: حائِدٌ ومائِل عن القَصْدِ، أو عن اللّه[6].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

بيان الطريق المستقيم والهداية إليه بيد الله وحده

على اللّه تعالى وحدَه بيانُ الطَّريق المستقيم، والتَّوفيق للهداية إليه، وإذ قد أبانَه سبحانه فقد أظْهَرَ الطَّريق المعوجَّ، فبِضِدِّها

(1) الرّاغب، المُفردات: (قصد).
(2) ابن عطيَّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 581، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 221.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جور).
(4) الجوهريُّ، الصّحاح: (جور).
(5) الرّاغب، المُفردات: (جور).
(6) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 221.

تتميَّز الأشياءُ، فتنكشِف بإبانَة الحقِّ السُّبلُ الجائرةُ المائلةُ عن الحقِّ القويم، وبهذه الإبانةِ للطَّريقيْن يكون اللّهُ تعالى قد دَلَّ جميع النّاس على طريق الحقِّ والخير، وحذَّرهم من طريق الجَوْر والشَّرِّ، وهي هداية الدَّلالة، ولو شاء سبحانه أن يهدي جميعَ النّاس هدايةً مُنْجِيَةً قسرًا وجبرًا؛ لفعل لكنَّه خلافُ الحكمة الإلهيّة الَّتي اقتضت أن تكون الهدايةُ بالحجَّةِ والبرهان، لا بالقَسْر والإذْعان.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَعَلَى﴾:

الواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملة بعدَها مستأنَفَةٌ[1]، أو هي جملةٌ مُعْتَرِضَة اقتضت اعتراضَها مناسبةُ الامتنان بنعمة تيسيرِ الأسفار بالرَّواحل والخيل والبِغال والحَمير[2].

نكتة إظهار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

إظهاره لتقوية الحصر وتأكيده

وأُظْهِرَ الاسمُ الجليل بعد إضماره في قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فلم يَقُلْ (وعليه)؛ بل قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ لتكون دلالةُ الحصرِ أقوى وأظهرَ في التَّأكيد على أنَّ عليه سبحانه وحدَه ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ وإبانة الطَّريق.

نكتة العدول إلى الاسم الأعظم:

من مقتضيات الألوهيَّة (قَصْدُ السَّبِيلِ)

وقد عُدل عن لفظ الرُّبوبيَّة إلى الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو مِنْهاج اللّه وشرعُه، وفيه دعوةٌ إلى الإخلاص له سبحانه في العبادةِ، وهذا كلُّه من مُقتضيات الألوهيَّة، ثمَّ إنَّ التَّعبير بلفظ الألوهيَّة فيه تربيةٌ للمَهابة.

فائدة تقديم شِبْهِ الجملة على المُسنَد إليه:

بيان الطريق المستقيم لا يكون إلا على الله

قُدِّم المُسنَدُ - ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وهو شِبْهُ الجملة - على المُسنَد إليه ﴿قَصۡدُ

(1) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 123.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 112.

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ لإفادةِ الحصرِ والاختصاص؛ لأنَّ الطَّريق المستقيم لا يكون بيانُه إلّا على اللّه تعالى، وقد أبانَهُ بكتابه وبِبِعْثَةِ رسوله ﷺ، وبشَرْعِه الَّذي شرعه لنا لِئلّا نَزيغ عن طريق الحقِّ، والصِّراطِ المستقيم.

بلاغة التَّعبير بحرف الاستعلاء ﴿وَعَلَى﴾:

إنــزال الفضل منـزلةَ الـواجب تكرُّمًا وإنعامًا

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بحرف الاستعلاء ﴿وَعَلَى﴾، وهو يُفيد الإيجابَ والالتزام والتَّعهُّد، كما إذا قلتُ لِمَن أملِكُ أن آمُرَهُ: عليك أن تفعل كذا؛ أيْ: يجبُ عليك أن تفعله، أو كما إذا ما ألزمتُ نفسي بفعل شيءٍ وتعهّدتُ به كالنَّذر مثلًا، بأن أقول: للّه عليَّ نذرٌ أن أذبح شاةً للفقراء، ونحو هذا مِمّا تُلزِم فيه (على) القائل بفعله، لكنَّه هنا ليس كذلك؛ لأنَّه لا يجب على اللّه شيءٌ، وإنَّما هو دالٌّ على التَّفضُّل والإكرام الإلهيِّ بهذا البيان، بإنزاله منزلةَ الشَّيءِ الواجب المُتعهَّد.

بلاغة الاستعارة في ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾:

شـريـعـةُ الـلـه سـبـيـلٌ قـويـم، يُفْضي إلى المنهج المستقيم

لفظ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ هنا مجازٌ عن المنهج المستقيم والشَّرع المُنْجي من عذاب اللّه يومَ القيامة، والموصِل إلى دار الثَّواب، وهي استعارةٌ تصريحيَّة، حيث شبَّه شريعة اللّه بالسَّبيل، بجامع أنَّ كلًّا منهما يوصل إلى غايته، وكلٌّ منهما واضح وظاهرٌ للعَيان، والتَّفصيل في هذا: أنَّه شَبَّه التزامَ هذا البيانِ والتَّعهُّد به، بالحقِّ الواجب على المحقوق به[1]، وصرَّح بالمُشبَّهِ به بعدَ حذف المُشبَّه.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

سـبـيـل الـلـه طـريـقٌ قاصد، موصِلٌ للنَّجاة

(أل) في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ هي الجنسيَّة ولذلك أضاف إليه ﴿قَصۡدُ﴾[2]، وقيل: إنَّها العهديَّة[3]؛ لأنَّ المقصودَ به خصوصُ السَّبيل المَعْني

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 112.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 221.
(3) السّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 7/ 196.

في السِّياق، المنصوص عليه في الآية، الَّذي هو طريقُ اللّٰه الأبلَجُ وشرعه، فهو المعهودُ.

فائدة الإضافة في ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾:

إضافة الصِّفة إلى الموصوف، أو الخاصِّ إلى العامِّ

الإضافة في ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ هي من إضافة الصِّفة إلى الموصوف، على معنى السَّبيلِ القاصد؛ أيِ: المستقيم الَّذي لا عِوَجَ فيه، وعلى القول بأنَّ (أل) في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ جنسيَّة، تكون الصِّفة هنا صفةً مُخصِّصة، ويتعيَّن تقديرُ مضافٍ؛ لأنَّ الَّذي تعهَّد اللّٰهُ به هو بيان السَّبيل لا ذاتُ السَّبيل[1]، أوْ من إضافة الخاصِّ إلى العامِّ[2]، وهذا السَّبيل هو الدِّين الحقُّ والشَّرع الحنيفُ، الَّذي أقام اللّٰهُ تعالى له الحُجَجَ، ونصب له الأدلَّةَ، وأرسل الرَّسلَ، وأنزل الكتبَ لدعوة النّاسِ إليه[3]، كما عبَّر عنه القرآنُ في مواضعَ أخرى بالصِّراط المستقيم، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: 161]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشّورى: 52 - 53].

دلالة الواو في: ﴿وَمِنۡهَا﴾:

أهمّيَّة عطف الخاصِّ على العامِّ في السِّياق

الواو في قوله: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ هي الواو العاطفةُ، حيث عطفت هذه الجملةَ على الجملة السّابقةِ، ويكون العطفُ من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، للإشارة إلى هذا الصِّنف منها، وقيل: هي الواو الاعتراضيَّة، والجملة معترِضَة[4]، والاعتراض نوعٌ من الإطناب، وفائدةُ الاعتراض هنا الإفادةُ بأنَّ بعضها جائرٌ، فليست كلُّها في الطَّواعية سواءً، وهذا من نعم اللّٰه ﷻ بأنَّ بعضَها هذا شأنُه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 112، والطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 9/ 87.
(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 313.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 98.
(4) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 124، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 278.

والباقي على الصِّراط المستقيم، وسواء أكانت استئنافيَّةً أم معترِضةً، فالجملة لا محلَّ لها من الإعراب.

معنى (من):

(من) في قوله: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ هي التَّبعيضيَّة؛ أيِ: وبعضها جائر، فليست كلُّها متَّصفةً بهذه الصِّفة، وقيل إنَّهم اليهود والنَّصارى، وقيل: هم وغيرُهم مِمَّن خرج عن سواء السَّبيل.

من حكمة السِّياق أن يُحدِّد الوصفَ ولا يُظلم مَن لم يوصف به

مرجع الضَّمير في ﴿وَمِنۡهَا﴾:

والضَّمير المؤنثُ في قوله عزَّ من قائل: ﴿وَمِنۡهَا﴾ يعود على السَّبيل؛ لأنَّها تُؤنَّثُ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: 108]، أو لأنَّها في معنى سُبُل، فأنَّث على معنى الجمع[1].

التَّأنيث لِما يحتمل التَّذكيرَ والتَّأنيث مفيدٌ في البيان عن المُراد

سرُّ العدول في: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾:

لم يأت النَّظم القرآني بصيغة: (وعليه جائرها)؛ أي: بيانُه، كما في الأولى، إذْ في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ ما يُشْبِهُ الالتزامَ ببيان السَّبيل بالحُجَّة والبرهان لهداية النّاس إليه، لكنَّه غايرَ هنا في الأسلوب؛ وفي ذلك أقوال؛ منها: أنَّ طريقَ الحقِّ واحد منضبط، وطرقَ الضّلال متعددةٌ غيرُ منضبطة، فاكتفى بوجوب بيان الطَّريق المستقيم دونَ ضدِّه[2].

المغايَرة في الأسلوب، بغاية بيان سبيل الهداية، موضِحةٌ للدَّلالة

وأنَّه ليس بحقٍّ على الله أن يُبيِّن طريقَ الضَّلالة؛ أيِ: لأنَّه أبان طريق الحقِّ، وليس بعد الحقِّ إلا الضَّلال، كما قال سبحانه: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: 32].

وأنَّ المقصودَ بيانُ سبيله أيضًا، وتقسيمُ السَّبيل إلى القصد

(1) السّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 7/ 196.

(2) القونويُّ، حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 11/ 226.

والجائر إنَّما جاء بالعرَض[1]، وليعلم ما يجوز إضافتُه إليه من السَّبيلَيْن وما لا يجوز[2].

وتصلح جميعُها مجتمعةً أن تكون أسبابًا مُعلِّلة هذا العدول.

سرُّ العدول عن قوله: (وجائرها):

ملمح التَّأدُّب مع الله تعالى، كي لا يُفهم خلاف المعنى المقصود

وقدَّم الجارَّ والمجرور ﴿وَمِنۡهَا﴾ على المُسنَد إليه ﴿جَآئِرٞۚ﴾ لمنع اللَّبس، كي لا يُفهم خلاف المعنى المقصود؛ لأنَّه لو قال: (وجائر منها)؛ كان معناه: وعلى الله بيانُ جائرٍ منها، كما كان عليه قصدُ السَّبيل، وقطعًا هذا غير مُراد.

نكتة تنكير ﴿جَآئِرٞۚ﴾، وتذكيرها:

غرض التَّنكير الإهانةُ والسَّبيل يُذكَّر ويؤنَّث

والتَّنكير في قوله: ﴿جَآئِرٞۚ﴾ للإهانة والذَّمِّ؛ لأنَّ هؤلاء الخارجين عن الصِّراط المستقيم الَّذي خطَّه الله تعالى لعباده يستحقّون هذا الذَّمَّ والتَّقريع، و﴿جَآئِرٞۚ﴾ هنا وصف لـ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ باعتبار استعماله مُذكَّرًا[3]؛ لأنَّ لفظ السَّبيل يُذكَّر ويُؤنَّث.

بلاغة المجاز في الوصف بـ﴿جَآئِرٞۚ﴾:

بلاغة المجاز الإسناديِّ (العقليّ)

في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ نجد إسناد الجوْر إلى السَّبيل، وهو مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الَّذي يجور ليس هو السَّبيل على الحقيقة؛ بل مَن يسلكه، فأسند الجوْرَ إلى مَن لم يقعْ منه تجوُّزًا عقليًّا حُكْميًّا، فأطلق المحلَّ وأراد السّالك فيه.

بلاغة الكناية في قوله ﴿جَآئِرٞۚ﴾:

بيان أنَّ طريق الضَّلال يوصف بأنَّه (جائر)

ورود الوصفِ ﴿جَآئِرٞۚ﴾ بمعنى الطَّريق المُعوجِّ، في مقابل ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الطَّريق المستقيم الخالي من الاعوجاج، ولفظ ﴿جَآئِرٞۚ﴾ هنا كُنِّيَ به عن سبل المعاصي والضَّلال والكفر، في

(1) القونويُّ، حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 11/ 226.
(2) القونويُّ، حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 11/ 226.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 112.

مقابل طريقِ الهداية والاستقامةِ المفهومِ كذلك من مقابلِه وهو ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

فائدة عدم إضافةِ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ إلى ﴿جَآئِرٞ﴾:

أكثرُ مواردِ كلمة سبيل في القرآن الكريم هي في الخير والنَّفع

وعدم إضافة ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ إلى ﴿جَآئِرٞ﴾ أُسوة بإضافته إلى ﴿قَصۡدُ﴾ يَرْجِعُ إلى منهج القرآنِ الكريم في استعمال كلمةِ (سبيل)؛ فإنَّه يغلِبُ عليه استعمالُها في الخير، لا في الشَّرِّ، وذلك لِما في الخير من سهولة، والسُّهولة هي مَفْرِق ما بين السَّبيل والطَّريق[1]، حتَّى لكأنَّ مسالكَ الشَّرِّ ليست جديرةً بأن يُطلق عليها لفظُ (سبيل)، الَّذي تشرَّف في أكثر مواردِه في الكتاب العزيز، بإضافته إلى لفظ الجلالةِ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 154]، ولم يَرِد مضافًا إلى ما هو شرٌّ إلا مرّاتٍ معدودةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146].

بلاغة الاحتباك ودَلالته في السِّياق:

الحذف المتقابِل بالتَّبادل مبيِّنٌ عن الدَّلالة بما ينْقدِح عنه العقلُ

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ من بلاغة الحذفِ نوعُ الاحتباك، وذلك أنَّه حَذَفَ من كلِّ جملةٍ من الجملتيْن ما دلَّ عليه مقابلُه في الجملة الأخرى، فذكر في الجملة الأولى أنَّ عليه بيانَ القصدِ؛ فدلَّ على حذف أنَّ عليه بيان الجائر في الجملة الثّانية، وذَكَرَ في الثّانية أنَّ من الطُّرق الجائر؛ فدلّ على حذف أنَّ منها المستقيم في الجملة الأولى[2].

معنى الواو في: ﴿وَلَوۡ شَآءَ﴾:

للجملة دورٌ في فهم السِّياق العامِّ

الواو عاطفة، عطفت جملةَ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ﴾ على جملةِ الاستئناف في أوَّل الآيةِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ ومن ثَمَّ فلا محلَّ لها من الإعراب[3].

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 281.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 112.
(3) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 125.

معنى ﴿وَلَوۡ﴾ وفائدة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ﴾: ﴿وَلَوۡ﴾ حرفُ شرط غيرُ جازم، ويُعرف بأنَّه حرف امتناع لامتناع؛ أي: امتناعُ وقوع الجزاءِ، لامتناع وقوعِ الشَّرط، وفائدةُ جملة الشَّرط هنا بيانُ أنَّ هداية الدَّلالة لا تستلزم هدايةَ التَّوفيق، فاللّٰه تعالى هدى النّاس جميعًا هدايةَ دلالةٍ، لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: 8 - 10]؛ فمنهم مَن اختارها فوفَّقه اللّٰه للهداية، ومنهم مَن لم يخترْها فكان نصيبَه الخِذلانُ.

هداية الدَّلالة، لا تستلزم هدايةَ التَّوفيق

غرض الإضمارِ في ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ﴾:

وأُضمر لفظُ الجلالة، فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ﴾، ولم يَقُلْ: (وَلَوْ شاءَ اللّٰهُ لَهَداكُم)، لكونه مذكورًا في قوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، فالأصلُ إضمارُه وعدم إظهارِه، ولا يوجد غرضٌ زائد يُخالَف معه مقتضى الظّاهرِ.

الإضمار على الأصل وانتفاء ما يدعو إلى مخالفة الظّاهر

نكتة حذف مفعول ﴿شَآءَ﴾:

مفعول ﴿شَآءَ﴾ محذوف، ويكثُر حذفُ جواب (لو)، في حيِّز الشَّرط، تقديره: (ولو شاء اللّٰه هدايتَكم) وحُذف لأجل العلم به "من مضمون الجواب"(1) وهو قوله: ﴿لَهَدَىٰكُمۡ﴾.

حذف المفعول للعلم به، من بلاغة السِّياق

معنى اللّام في: ﴿لَهَدَىٰكُمۡ﴾:

اللّام الواقعة في جواب ﴿وَلَوۡ﴾ لامُ شَّرطية، وقد أفادت معنى التَّوكيد، وفي التَّوكيد هنا طَمأنَةٌ للمؤمنين ووعيدٌ للمشركين.

هداية البشر، مرتبطةٌ بالمشيئة

فائدة التَّوكيد بقوله ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

قوله: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ توكيدٌ معنويٌّ لضمير الخطاب في ﴿لَهَدَىٰكُمۡ﴾، وهي من صيغ العموم، وهي هنا مسلَّطةٌ على المنفيِّ وليس على

تسلُّط التَّوكيد يكون على المنفيِّ وليس على النَّفي

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 314.

النَّفي، أيْ "لسلبِ العموم، لا لعموم السَّلب"[1]؛ لأنّه يوجد مَن هداه اللّه هدايةَ توفيق، فلم يسلبْها عن جميع النّاس، كما أنَّه لم يُثبتها لجميعهم، والأمرُ كلّه راجع إلى حكمته سبحانه في المشيئة.

نكتة حذف مُتعلِّق الهداية:

وحذف مُتعلِّق الهداية فلم يَقُلْ: (لهداكم إلى كذا)؛ لأنَّه فضلًا عن تحقّقِ الدَّلالة عليه في عموم القرآن وعموم الشَّرع، فإنَّ ما في بداية الآية يدلُّ عليه وهو قوله: ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أيْ: لهداكم أجمعين إلى السَّبيل القاصد والطَّريق المستقيم هداية توفيقٍ إليه، لكنَّه سبحانه لم يشأ ذلك؛ "لأنَّ مشيئتَه تابعةٌ للحكمة الدّاعية إليها، ولا حكمةَ في تلك المشيئة، لما أنَّ الَّذي عليه يدور فلكُ التَّكليف، وإليه ينسحِب الثَّوابُ والعقاب، إنَّما هو الاختيار الَّذي عليه تترتّب الأعمال الَّتي بها نيطَ الجزاءُ"[2].

حذف المتعلِّق اختصارًا للدَّلالة عليه من بليغ البيان

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَوْر، والحَيْف، والظُّلْم:

معنى الجَوْر: تدلُّ (جور) على أصْلٍ واحِدٍ، وهوَ المَيْلُ عَنِ الطَّرِيقِ[3]، وعرَّفه الكفويُّ بقوله: الجور خلاف الاسْتقامَة في الحُكم[4].

ومعنى الحَيْف: الميل في الحُكم والجُنوح إلى أحد الجانبيْن، قال اللّه تعالى: ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾ [النّور: 50]؛ أي: يخافون أن يجور في حكمه[5].

وهذا يعني أنَّ العلاقة وثيقة للغاية بين مَعنَيي (الجَوْر، والحَيْف).

ومعنى الظُّلم: وضعُ الشَّيءِ في غير موضعِه، وفي الشَّريعة:

الظُّلم أعمُّ من الجَوْر والحَيْف، وكلُّها مُستنكرَة مـنـبـوذَة في الـشَّـرائـع والأعراف

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 314، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 347.
(2) القاسميُّ، محاسن التّأويل: 6/ 355.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جور).
(4) الكفويُّ، الكُلّيّات، ص: 354.
(5) الرّاغب، المُفردات: (حيف).

عبارةٌ عن التَّعدّي عن الحقِّ إلى الباطل، وهو الجَوْر[1]، وبذلك يظهرُ مدى التَّقاربِ الدَّلاليِّ بين ثلاثتِها، وأنَّه وثيق جدًّا؛ لأنَّها جميعًا تعني المَيْلَ عن وجه الصَّواب مع فروقٍ دقيقة أهمُّها أنَّ الظُّلم أعمُّ من كلٍّ من الجَوْر والحَيْف، وأبلغُ منهما فيما نحن بصدَدِه من الميل؛ لأنَّه إذا ما كانت هنالك خصوصيَّةٌ في معنى المَيْل في كلٍّ من الجَوْر والحَيْف؛ لأنَّه يعني فيها المَيْل عن طريق الاستقامة في الحُكم أو الميل عن الحكم بالحقِّ من قِبَلِ ذي السُّلطان؛ فإنَّ ميل الظُّلم وضرره أوسعُ وأعمُّ؛ لأنَّه يشمل ما يكون من السُّلطان أو غيره حتَّى لو كان بخيانة الدّانق والدِّرهم فإنَّه يُقال له: ظلم، ولا يُقال له: جَوْر ولا حَيْف، فإنَّ أَخْذَ ذَلِك على وجه القَهْر، أو الميل سُمِّي جورًا، وهذا واضح، وأصل الظُّلم نُقْصان الحقِّ، والجور: العُدول عَن الحقِّ[2].

(1) الجُرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 144.

(2) المُفردات، الفروق اللُّغويَّة، ص: 231.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النّحل: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ارتباطُ مشيئةِ اللهِ تعالى القاهرة بالامتنان بنعمةِ الماء، الّذي به قوامُ حياة كلِّ حيٍّ

لمّا ذكر اللّهُ تعالى فيما مضى الأدلَّة الكافيةَ الدّالَّة على أنَّه الواحد المختار، وأنَّه وحدَه المستحِقُّ للعبادة، وأن لا وجودَ للشُّركاء معه، وشَرَعَ يوضِّح ذلك بتفصيل الآيات إيضاحًا، يَدَعُه في أتمِّ انكشاف في سياقٍ مُعدِّدٍ للنِّعم، مُذكِّرٍ بها، داعٍ إلى شُكرها، وكان ترتيبُ الكائنات الحيَّةِ في الشَّرف مبتدَأً بالإنسان، ثمَّ الحيوان، ثم النَّبات، فإنَّه بعد ذلك دلَّل على وحدانيَّته عن طريق خلق الإنسان، ثمَّ ما يليه في الشَّرف وهو الحيوان، بقي أن يدلِّل على وحدانيَّته وإنعامه عن طريق ما يليهما في الشَّرف، وهو النَّبات الَّذي هو قوامُ حياة الإنسان، وما به قوامُ حياته من الحيوان، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَرَابٌ﴾: الشَّراب ما يُشْرب من ماء وغيره، والشُّرْبُ معروف؛ وهو تناول كلِّ مائع، ماءً كان أو غيره، وسواءٌ أكان تناوله في الدنيا أم في الآخرة، والشِّرْبُ: النَّصيب من الماء، قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٥٥﴾ [الشُّعراء: 155].

والمُراد هنا: شارب الماء خاصّةً، وليس أيَّ مائع آخر، لقوله في الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ﴾.

2) ﴿تُسِيمُونَ﴾: (السَّوْمُ) أَصْلٌ يَدُلُّ على الذَّهاب في ابتغاء الشَّيء، فهو لفظٌ لمعنًى مُركَّبٍ من الذَّهاب والابتغاء، وأُجري مُجْرى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 179، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 116.

الذَّهاب في قولهم: سامَتِ الإبل، فهي سائِمَةٌ، ومُجْرى الابتغاء في قولهم: سُمتُ كذا؛ ويُقالُ: سُمتُ الشَّيْءَ، أسومُهُ سَوْمًا، والسَّوامُ والسّائمَةُ: الإبل الرّاعِيَةُ، وأسامَها هوَ: أرعاها، وسَوَّمَها، وأسَمتُها أنا: أخرجتها إلى الرَّعْيِ، وليس من هذا الباب: السّومَةُ، وهِيَ العَلامَةُ تُجْعَلُ في الشَّيْءِ، هكذا قال ابن فارس، لكنَّ الزَّمخشريَّ له رأيٌ آخر؛ إذ يرى أنَّها من الباب نفسه، وأن ﴿تُسِيمُونَ﴾ هو من السَّومة وهي العلامة، لأنَّها تؤثِّر بالرَّعي علاماتٍ في الأرض[1]، وقوله تعالى: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾؛ أيْ: تَرْعَونَ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الدَّمج بين غرض التَّدليل على القدرة، وإبراز الامتنان بالماء الَّذي هو عنصر الحياة

تتواصل الآياتُ في سياق المزْج بين أدلَّة القدرة وإبرازِ امتنان اللّه على عباده، لتحقيق المقصدِ الأسمى، وهو هدايةُ المخاطَبين إلى التَّوحيد، لتصِلَ إلى دليل إنزالِ اللّه تعالى الماءَ من السَّماء الَّذي ليس لأحدٍ فيه أيُّ مدخل، فإنَّ اللّه تعالى وحدَه هو الَّذي أنزله ليكون منه شرابُ النّاس، وشرابُ ما يحتاجه النّاسُ من الحيوان، وكذا ما يحتاجه النَّباتُ الَّذي ترعاه أنعامُهم؛ لتَدُرَّ عليهم بعد الشِّبع ألبانَها، وتجودَ عليهم بلحومها، فهذا كلُّه من إنعام اللّه وفضله.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

الفصل للاستئناف مفيدٌ في الإبانة عن المُراد

نكتة الفصل في الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ هي كونُها استئنافًا جديدًا، لِذكْر دليلٍ آخرَ قائم بذاته على وحدانيَّته وقدرته وإنعامه، من مظاهر بديعِ خَلقِ اللّه تعالى[3]، ينضمُّ إلى جملة ما مضى ذِكرُه من أدلَّة.

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/ 597.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المُفردات: (سوم).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 113.

بلاغة الإدماج في الآية الكريمة:

الماء نعمة كبرى تطوي داخلَها نعمًا شتَّى

وفي الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ من البلاغة ما يُعرف بالإدماج، وهو أن يدمج النظم الكريم عددًا من الأغراض بعضِها في بعض، فالماءُ النّازل من السَّماء نعمة تستَبْطِن نعمًا، فالنّاس يشربونه، وكذا الحيوان والنَّبات يحيا به ليأكلَه النّاسُ والأنعام كذلك ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ [عبس: 32]، وبالنَّبات والحيوان قوامُ حياة الإنسان.

وفي هذه الآية قد أُدْمِجَت هذه النِّعم بعضُها مع بعض، تحت مظلَّة الماءِ النّازل من السَّماء فضلًا من اللّه ونعمة، مِمّا به قوام حياة النّاس وللنّاس أنفسهم(1).

نكتة القصر بتعريف طرفي الإسناد:

قصر الإفراد تخريجًا للكلام، على خلاف مقتضى الظّاهر

قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾، فيه قَصْرُ الإنزال على اللّه دونَ غيره، فهو من قَصْرِ الصِّفة على الموصوف، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، وهذا القَصْر مُستَفادٌ من صيغة تعريف المُسنَد إليه ﴿هُوَ﴾ والمُسنَد ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾؛ أيّ: هو لا غيرُه، وهذا قصْرٌ على خلاف مُقتضى الظّاهر؛ لأنَّ المُخاطَبين لا ينكرون ذلك ولا يدعون له شريكًا في ذلك، ولكنَّهم لمّا عبدوا أصنامًا لم تنْعِم عليهم بذلك، كان حالهُم كحال مَن يدَّعي أنَّ الأصنام أنعمت عليهم بهذه النِّعم، فنُزِّلوا منزلةَ مَن يدَّعي الشِّركةَ للّه في الخلق، فكان القصرُ قصرَ إفرادٍ تخريجًا للكلام على خلاف مقتضى الظّاهر(2).

فائدة التَّعريف بالاسم الموصول وصلته:

تعظيم المُعرَّف سبحانه، من أدب الكلام عن الحضرة الإلهيّة

أفاد التَّعريفُ باسم الموصول في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾، تعظيمَ المُعرَّفِ سبحانه، ومدْحَه بما تضمَّنته جملة الصِّلة من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 113.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 113.

الإنعام على الخلق بنعمة الماء النّازل من السَّماء؛ لتحيا به الأرضُ والنّاس والأنعام.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿أَنزَلَ﴾ ماضيًا:

نِعَمُ اللهِ على خلقه مستمرَّةٌ منذ خلقهم

وفي التَّعبير بـ ﴿أَنزَلَ﴾ بصيغة الفعلِ الماضي، تغليبٌ للموجود على المعدوم، أو تنزيلُ منتَظَرِ الوقوع منزلةَ الواقع[1]، وفيه إشارةٌ إلى نعم اللّه على خلقه، وإرادتِه جَلْبَ النَّفع لعباده ودفع الضُّرِّ عنهم، وأنَّه ما خلقهم ليُشقيَهم، بل هيَّأ لهم كلَّ أسباب الرّاحة والاستقرار منذُ أن خلقهم.

معنى ﴿مِنَ﴾:

في الكلام استعارةٌ تبعيَّة حرفيَّة لها أثرٌ جميل في المعنى

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداء الغاية؛ فبداية إنزال الماء من السَّحاب الَّذي في السَّماء، وفي لفظ ﴿مِنَ﴾ استعارةٌ تبعيَّة حرفيَّة؛ لأنَّ مبادي الماء لمّا كانت من السَّماء جُعل الماءُ نفسُه من السَّماء[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

السَّماء هي المعهودة المرئيَّة، مِمّا يُكوِّن القبَّة الفلكيَّة

جاءت (أل) في لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ للعهد، في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ﴾، والمُراد بالسَّماء هنا معناها العُرفيُّ[3]؛ أي الَّذي كان يعرفه العربُ، وهو القبَّة الزَّرقاء المحيطة بالأرض.

نكتة المجازِ المُرسل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إيثار للتَّعبيرِ بالسماء دون التَّعبير بالسَّحاب، مع أنَّ الماء يتكوَّن فيه؛ لكون السَّحاب موجودًا في السَّماء فهو جزء منها، باعتبار أنَّ السَّماء كلُّ ما علا وارتفع، فهو مجازٌ مُرسل علاقتُه الكلّيّة، أو الحاليّة.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 231.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 231.
(3) القونويُّ، حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 10/ 486.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

التَّقديم للاهتمام والتَّشويق ذو أثرٍ في السِّياق بليغ

قدَّم الجارَّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول ﴿مَآءٗ﴾، فلم يَقلْ: (ماءً من السَّماء) للاهتمام، فتأخير المفعول الصَّريح عنه ليظمأ الذِّهنُ إليه فيتمكَّن أتمَّ تمكُّنٍ عند وروده عليه[1]، فالماءُ الكائن في الأرض إنَّما مصدرُه السَّماءُ، وما تمرُّ به دورةُ تكوين المياه معلومٌ حيث تتبخَّر مياه الأنهار والبحار بفعل حرارة الشَّمس، لتَتَكثَّف في السَّماء بما يُعرف بالسَّحاب، ثمَّ تنزلَ على الأرض مرةً ثانيةً بقَدَرِ اللّه تعالى، وهكذا دواليْك في دورة مُتكرِّرةٍ.

نكتة تنكير: ﴿مَآءٗ﴾:

التَّنكير للتَّفخيم والتَّعظيم مُعينٌ على فهم المُراد وتصوُّره

نُكِّر لفظُ ﴿مَآءٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم وللدَّلالةِ على كثرته ووفرته، وإغنائه لكلِّ كائنٍ يحتاجه، وكلُّ الكائنات كذلك ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾ [الأنبياء: 30].

معنى اللّام في شبه الجملة ﴿لَّكُم﴾:

اللّام في قوله: ﴿لَّكُم﴾ هي لام الاختصاص، وهي اللّام التي تقع بين ذاتيْن وتدخل على مَن لا يُتصوَّر منه الملك، وعبَّر بها مع كون الماءِ شرابًا ليس مخصوصًا بالإنسان؛ لأنَّه هو المقصودُ هنا بخطاب الإنعام.

نكتة تقديم ﴿لَّكُم﴾:

اللّه لطيف بعباده، يمدُّهم بما يحْييهم ويسعدُهم

شِبه الجملة: ﴿لَّكُم﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿شَرَابٞ﴾ وقُدِّم عليه للاهتمام، وللاختصاص أيضًا[2]، وفي هذا التَّقديم مزيدٌ من العناية بعباده، وأنَّه فعَلَ ما فعل لأجْلِهم ولأجل إسعادِهم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 348.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 113.

نكتة فصل ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾:

نكتة فصل جملة ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾ عن سابقتها، لِما بينهما من كمال الاتِّصال، فجملة ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾ صفةٌ لـ ﴿مَآءٗۖ﴾[1].

دلالة (من):

الماء متعدِّد الاستعمالات، فمنه الشَّراب وغيره

(من) في قوله تعالى: ﴿مِّنۡهُ﴾ للتَّبعيض؛ إذ المشروبُ بعضُ الماء المنزَّل[2]، لأنَّ بعضَ هذا الماءِ يُختزن في الأرض لينتفعوا به بعد ذلك، وبعضَه يذهب للزَّرع، وبعضَه للدَّوابِّ، وبعضَه لتخفيف مُلوحَةِ البحار.

نكتة تقديم شِبْهِ الجملة ﴿مِّنۡهُ﴾:

الاهتمامُ وحصرُ أصل المياه كلها في الماء النازل من السماء

قدَّم النَّظْمُ الكريمُ شِبْهَ الجملة - الخبر - ﴿مِّنۡهُ﴾ وهو المُسنَد، على المبتدأ: ﴿شَرَابٞ﴾ وهو المُسنَد إليه ليفيد الاهتمامَ، وقد يُفيد الحصرَ أيضًا، بالنَّظر إلى أنَّ أصل مياه العيون والآبار هو الماء النّازل من السَّماء[3].

وقيل: إنَّ توهُّم حَمل التَّقديم على الحصر غيرُ واردٍ، فلا حاجة "إلى الاعتذار بأنَّه لا بأس به؛ لأنَّ مياهَ العيون والأبيارِ منه"[4].

غرض تنكير: ﴿شَرَابٞ﴾:

تفخيم أهميَّة الماء، وأنَّ السُّقيا هي المقصودُ الأوَّل من وجوده

تنكير ﴿شَرَابٞ﴾ للتَّفخيم؛ بيانًا لدوره المهمِّ في حياة الكائنات، فيكون المعنى: ومنه شرابٌ، وأيُّ شراب، وذلك لأنَّ الشَّراب والسُّقيا هو المقصود الأوَّل بالنِّسبة لهم.

دلالة الواو في: ﴿وَمِنۡهُ﴾:

نِعَمُ الله على العباد تَترى، وتَتجدَّد ولا تَتبدَّد

الواو في قوله سبحانه: ﴿وَمِنۡهُ﴾ للاستئناف أو للعطف، فعلى الاستئناف يكون المرادُ إضافةَ نعمةٍ جديدة على النِّعم السّابقة،

(1) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 126.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 229.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 229.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 100.

وعلى العطف يكون المُرادُ إشراكَها في التَّوزيع السّابق لأصناف هذا الماء.

دلالة جملة ﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ﴾ بين الفصل والوصل:

تخريج الدّلالة البلاغيّة على أكثر من قولٍ من بليغ البيان

لا يكون فصلٌ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ﴾ إلّا بحَمل الواو على الاستئناف، وحَمل (من) على الابتداء أو السَّببيَّة، ومُسوِّغ الفصل - على هذا - بين هذه الجملةِ وجملة ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾، هو أنَّه لا يحسُنُ عطفُها عليها لاختلاف المعنى[1]، وأمّا على القول بأنَّ (من) للتَّبعيض، وهو وجهٌ جائز[2]، فالواو للعطف، ومن ثمَّ فلا فصلَ، وستكون الجملةُ معطوفةً على سابقتها، وهي جملة: ﴿مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾[3].

دلالة قوله: ﴿شَجَرٞ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الشّجر يُطلق على ما له ساق، وإطلاقه على غيره مجازٌ أو تغليب

تُحمَل كلمة ﴿شَجَرٞ﴾ على ما له ساقٌ من أنواع النَّبات، وما ليس له ساقٌ يُقال له: النَّجم، وقد جُمع بينهما بغرض التَّفريق في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾ [الرَّحمن: 6]؛ وعلى هذا، فحَملُ لفظِ الشَّجر على ما لا ساقَ له كالكلأ الَّذي ترعاه الأنعامُ والدَّوابُّ من باب المجاز[4]، وقيل: إنَّ لفظ الشَّجرِ على حقيقة معناه؛ لأنَّ الإبل مثلًا - وهي من الأنعام - تقدِر على رعي ورقِ الأشجار الكِبار[5].

والأَوْلى حَملُ الشَّجر على مُطلَق ما نَبَتَ من الأرض كما قال الزَّجّاج[6]، فإنَّه كما يُطلق على النَّبات ذي السّاق الصُّلبة يُطلق على مُطلَق العُشبِ والكَلَأ تغليبًا[7]، ويساعده أنَّ معنى شَجَر لغةً: ما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 114.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 100.
(3) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 126.
(4) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 113.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 180.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 511.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 114.

تداخل بعضُه في بعض لكثافتِه[1]، وهو وصفٌ يشمل ما له ساقٌ وما ليس له ساقٌ.

غرضُ تنكير ﴿شَجَرٌ﴾ في السِّياق الكريم:

تكثيرُ الشجر وتفخيم أمره

نُكِّر ﴿شَجَرٌ﴾ للتَّفخيم والتَّكثير، كما نُكِّر من قبله ﴿شَرَابٌ﴾، وهذا يدلُّ على تكثير وتفخيم شأنَ هذا الشَّجرِ الَّذي به تقوم حياتُهم، لِما فيه من منافعَ لا تُعدُّ ولا تُحصى.

نكتة فصل ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾:

إذا كانت الجملةُ موصوفةً وبعدها جملةُ صفة فلا عطفَ بينهما

نكتة الفصل بين جملة ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، وجملة ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾، هي كونُها صفةً لها[2]، فترِكَ العطفُ لكمال الاتِّصال بين الجُملتيْن، إذْ لا عطفَ بين الصِّفة والموصوف؛ لأنَّها من التَّوابع.

دلالة (في) في جملة ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾:

الإسامَةُ الأكلُ مِمّا تحت الشَّجر من العشب

أصلُ (في) كما هو معلومٌ من معناها: الدَّلالة على الظَّرفيّة، وقد أفادت الظَّرفيَّة في قوله عزَّ من قائل: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أنَّ الإسامَةَ فيه تكون بالأكلِ منه، والأكلُ مِمّا تحته من العُشب[3].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿تُسِيمُونَ﴾:

الإسامةُ هي السعي وبذل الجهد للحصول على الشيء

تدلُّ مادَّة (سوم) كما مضى في شرح المُفردات، على الذَّهاب في ابتغاء الشَّيءِ[4]؛ أي: السَّعيِ والتّكلُّفِ لطلبه وبذلِ الجُهد في سبيل الحصولِ عليه، وهي حالة أهل الصَّحراء الَّذين كانوا يرتحلون دومًا طلبًا للماء والكلأ، وهو ما تدلُّ عليه صيغةُ المضارع ﴿تُسِيمُونَ﴾ المفيدةُ للاستمرار والتَّجدُّد في طلب المَرْعى.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾:

التَّقديم للاهتمام من رائع الكلام

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على الفعل ﴿تُسِيمُونَ﴾، فلم يأت

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شجر).
(2) الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 4/ 103.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 114.
(4) الرّاغب، المُفردات: (سوم).

البيان القرآنيّ المُحكم: (تسيمون فيه) للدَّلالة على الاهتمام بأمر هذه النِّعمةِ العظيمة؛ وهي نعمةُ الشَّجرِ الَّذي ترعاه الأنعامُ، الَّتي هي من قَوام حياةِ النّاس، بأكلِ لحومها وشُربِ ألبانها.

دلالة موقع قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، جاءت جملة ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ صفةً لـ ﴿شَجَرٞ﴾، وقيل: صفةٌ ثانية لـ ﴿مَآءٗۖ﴾[1]، ولذلك تُرِك العطفُ بينهما.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزَّرع، والشَّجر، والنَّبات:

الزَّرْعُ أعمُّ ويشمل بمعناه المصدريِّ كلَّ مراحل الإنبات والنُّمو حتَّى النُّضج

الزَّرْعُ: الإنبات، وحقيقة ذلك تكونُ بالأمور الإلهيَّة دون البشريَّة، قال سبحانه: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤﴾ [الواقعة: 64]، وهو في الأصل مصدرٌ، ويُعبَّر به عن المَزْروعِ نحو قوله تعالى: ﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا﴾ [السَّجدة: 27]، وقال تعالى: ﴿وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦﴾ [الدُّخان: 26].

والنَّباتُ: اسمٌ لِما يخرج من الأرض من النّاميات، سواءٌ أكان له ساقٌ كالشَّجر، أم لم يكن له ساقٌ كالنَّجْم، لكن اختصَّ في التَّعارُف بما لا ساقَ له، بل قد اختصَّ عند العامَّة بما يأكله الحيوانُ، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥﴾ [النّبأ: 15][2]، وهو الزَّرع في أوَّل مراحله بعد أن تُشقَّ عنه الأرضُ ويبدأ ظهورُه، كما قال الجُرجانيُّ: "النَّبات: كمالُ أوَّل الجسم بشكلٍ طبيعيٍّ آليٍّ من جهة ما يتولَّد ويزيد ويغْتَذي"[3].

أمّا الشَّجر فكلُّ ما كان على ساقٍ من نَبات الأَرْض، فهوَ شجرٌ[4].

(1) الخطيب وآخران: التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 126.
(2) الرّاغب، المُفردات: (نبت).
(3) الجُرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 239.
(4) الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 523.

وبعد هذا العرضِ يظْهر لنا الآتي:

أوّلًا: أنَّ كلَّ ما يخرج من الأرض يُنْسَبُ إلى اللّه تعالى على سبيل الحقيقةِ فهو الزّارع سبحانه وهو المُنْبِت، قال تعالى في الزّرع: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝﴾ [الواقعة: 63 - 64]، فقد نسب الحرثَ إلى المخاطبَين باعتبار مباشرتِهم له، بينما جعل الزَّرعَ له سبحانه وحدَه دون غيره، وكذا في الإنبات قال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ﴾، والشَّجر تابع للمُنبَت والمزروع.

ثانيًا: أنَّ الإنبات يُطلق على بداية مرحلةِ الخروجِ من الأرض مُتدرِّجًا في مراحل النُّمو، في حين أنَّ الزَّرع أشملُ وأعمُّ من ذلك كلِّه، فهو يشملُ كلَّ المراحل من الإنبات إلى النُّضح، فمجموع ذلك يُسمَّى: زرعًا؛ باعتبار المعنى المصدريِّ لكلمة (الزَّرع).

ثالثًا: أنَّ الشَّجر يُطلق على ما لَهُ ساقٌ من الخارج من الأرض، وكلمةُ النَّبات تُطلق على ما لَه ساقٌ وما ليس له ساقٌ، وهو المعروف بـ (النَّجم)، وقد يتخصَّص أكثرَ، فيكون مُنصرفًا إلى ما يأكلُه الحيوانُ كالكلأ ونحوِه، وعلى هذا جرى عمل المُفسِّرين في التَّفريق بين الحبِّ والنَّبات في قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝﴾ [النَّبأ: 15]، قال الزَّمخشريُّ: ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا ۝﴾ [النَّبأ: 15] يريد ما يُتقوَّت من الحِنْطَة والشَّعير، وما يُعْتَلَف من التِّبن والحشيش[1].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 68.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ [النّحل: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بالماء تحيا الأرضُ بعد مَوات، ويُدرَك خيرُها بعد فوات

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة - من جملة النِّعم - أمرَ إنزالِه الماء من السَّماء، ثم بَيَّن أنّه تعالى جعل هذا الماء شرابًا للنّاس ولكلِّ الكائنات، وأنَّه الأساس في إنبات الشَّجر والكلأ، عندما يخالط الأرضَ فتحيا به بعد مَوات، ويُدرَك خيرُها بعد فوات، ثمَّ لمّا كان الشَّجرُ الخارج من الأرض أنواعًا وأصنافًا، فصَّل منه سبحانه في هذه الآية بعض الأنواع بالذِّكر، لتكون عنوانَ الدَّليل على الخير الجزيلِ الّذي أفاض اللّهُ به على عباده في إخراج النَّبات، كما فصَّل من قبلُ نِعَمَه عليهم في إمدادِهم بأنواع الحيوانات، وأيضًا كما رتَّبها هناك على حسب الأهمِّيّة، رتَّب ما هنا كذلك على حسب رُتَبِ الأهمِّيّة، ولمّا أجمل هنالِك بعد تفصيلٍ فقال: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أجمل هنا كذلك بعد تفصيلٍ فقال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ ليكون المذكورُ تفصيلًا هنا وهناك ما هو إلا عنوانًا لدليل، وأمثلةً لتفصيل، لا يتحمَّل المقام إحصاءَها، وما ذكر منها يغْني العاقلَ، ويوقِظ الغافل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنۢبِتُ﴾: أصلُ (نبت) يَدُلُّ عَلَى نَماءٍ في مَزْروعٍ، ثُمَّ يُسْتَعارُ، فالنَّبْتُ مَعْروفٌ، يُقالُ: نَبَتَ، وأَنْبَتَتِ الأرْضُ، ونَبَّتُّ الشَّجَرَ: غَرَسْتُهُ[1]، والنَّباتُ: ما يخرج من الأرض من النّاميات، سواءٌ أكان له ساق كالشَّجر، أو لم يكن له ساق كالنَّجْم، لكن اختَصَّ في التَّعارُف بما

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نبت).

لا ساقَ له، بل قد اختصَّ عند العامَّة بما يأكله الحيوانُ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥﴾ [النّبأ: 15]، ومتى اعتُبِرت الحقائقُ فإنَّه يُستعمل في كلِّ نامٍ، نباتًا كان أو حيوانًا، أو إنسانًا، والإنْباتُ يُستعمل في كلِّ ذلك[1]، والمُراد به في قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ﴾ خصوصُ إنْماءِ المزروع في الأرض.

2) ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾: أصلُ (زرع) يَدُلُّ عَلَى تَنْمِيَةِ الشَّيْءِ[2]، يُقال: زَرَعَ اللهُ الحَرْثَ أَنْبَتَهُ وأنْماهُ، وزرَعَ الحَرّاثُ الأرْضَ زَرْعًا: حَرَثَها لِلزِّراعَة، والزَّرْعُ: طَرْحُ البَذْرِ في الأرْضِ، والزَّرْعُ ما استُنْبِتَ بِالبَذْرِ تَسْمِيَةً بِالمَصْدَرِ، ومِنْهُ يُقالُ: حَصَدْتُ الزَّرْعَ؛ أيِ: النَّباتَ، وقالَ بَعْضُهُم ولا يُسَمَّى زَرْعًا إلّا وهوَ غَضٌّ طَرِيٌّ[3]، وحقيقة الزَّرع تكون بالأمور الإلهيَّة دون البشريَّة، فلذلك أثبت للبشر الحرثَ، ونفى عنهم الزِّراعةَ، فإذا نَسَبَ إلى العبيد؛ فإنَّما ذلك من باب الإسناد إلى السَّبب، نحو: أَنْبَتَ زيد زرعَه؛ أيْ: كان سببًا في إنباته[4].

3) ﴿ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾: أصل (ثمر) شَيْءٌ يَتَوَلَّدُ عَنْ شَيْءٍ مُتَجَمِّعًا، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ اسْتِعارَةً[5]، والثَّمَرات جمعُ ثمرةٍ واحدةُ الثَّمَرِ، وجمع الثَّمَرِ: ثِمارٌ، مثل: جبَل وجبال، قال الفرّاء: وجمع الثِّمارِ: ثُمُرٌ، مثل: كتاب وكتب، وجمع الثُّمُرِ: أَثْمارٌ، مثل: عُنق وأعناق، ويقال: أَثْمَرَ الشَّجَرُ؛ أيْ: طلع ثَمَرُهُ، وشجر ثامِرٌ، إذا أدرك ثَمَرُه، وشجرة ثَمراءُ؛ أيْ: ذات ثمر، وأثمر الرَّجلُ، إذا كثُرَ مالُه، وثَمَّرَ اللّه مالَه؛ أيْ: كثَّرهُ[6].

والثَّمَرُ اسمٌ لكلِّ ما يُتطعَّم من أحمال الشَّجر وهو المُرادُ هنا، ويُقال لكلِّ نفعٍ يصدر عن شيءٍ: ثَمَرَة كقولك: ثمرةُ العلم العملُ الصّالح، وثمرةُ العمل الصّالح الجنَّة[7]، والمُراد في الآية ثمراتُ الأرض على اختلاف أصنافها وأنواعها.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نبت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زرع).
(3) الفيوميُّ، المصباح المنير: (زرع).
(4) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (زرع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثمر).
(6) الجوهريُّ، الصِّحاح: (ثمر).
(7) الرّاغب، المُفردات: (ثمر).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

من عجائب القدرة نزول الماء من السّماء، ثمَّ إنبات الزَّرع والثَّمرات

ينْبِت لكم ربُّكم بهذا الماء الَّذي أنزله من السَّماء جميع الزَّرع الَّذي يشقُّ الأرض شقًّا مِمّا تراه أعينُكم، وينْبِت لكم به على وجْهِ الخصوص أهمَّ الثَّمرات الَّتي تعتمدون عليها في حياتكم؛ من الزَّيتون والنَّخيل والأعناب وغيرها، ومن كل الثَّمرات مِمّا لم يُذكر، ولم تعرفوه أيُّها المخاطَبون، ومع هذا فإنَّ كلَّ الثَّمرات لم تظهر لكم في الدُّنيا، وإنَّما أظْهَر اللّٰه لكم بعضَها على كثرة ما يُرى منها الآن، وأما كلُّها فلا يكون إلّا في الجنَّة الَّتي تنتظركم أيُّها المؤمنون المُتفكِّرون.

إنَّ في ذلك لحُجَّةً ظاهرة ودلالةً واضحة على وحدانيَّة اللّٰه وقدرته لقوم سجيَّتُهم التَّفكُّر في ظواهر الكون وعجائبِ القدرة، ومنها تفكُّرهم في عجيبة نزول الماء من السَّماء، وقبل ذلك كيف يتكوَّن فيها بعوامل التَّبخيرِ، ثمَّ التَّكثيف، ثمَّ النُّزول على الأرض، في دورات متكرِّرة وفْقَ نظامٍ دقيق قد خطَّه ونظَّمه ربُّ العالمين.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل جملة ﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾:

أسباب وقوع الفصل في هذه الجملة، وأثره في المعنى

لاختيار الفصل في جملة ﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾ عن الجملة السّابقة أسباب:

الأوّلُ: حَملُها على الاستئناف البيانيِّ، جوابًا عن سؤال ناشئ من السِّياق بعد انتهاء الجملة السّابقة، تقديره: هل من منفعةٍ غيرُ ذلك[1] لإنزال الماء من السَّماء؟ أو أنَّ منفعتَه محصورةٌ فيما ذكر؟ فكان الجوابُ: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾، وبذا يتحقَّق (شِبْهُ كمال الاتِّصال).

الثّاني: أن يكون قولُه: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾ صفةً أخرى لـ ﴿مَآءٗ﴾، فيتحقَّق (كمال الاتِّصال).

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 314، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 210.

الثّالث: أنَّ جملة ﴿يُنۢبِتُ﴾ حالٌ من ضمير ﴿أَنزَلَ﴾؛ أيْ: يُنبت اللّه لكم.

ومن مُسوِّغات فصل هذه الجملة الحاليَّة أنَّ فعلها مضارعٌ مُثْبَت، وكونُها كذلك من الحالات الّتي تُفْصَلُ فيها الجملةُ الحاليَّة[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ [يوسف: 16] فقوله: ﴿يَبۡكُونَ ١٦﴾ [يوسف: 16] جملة حاليَّة فعلُها مضارع مثبَت، ولذا تمَّ فصلُها.

الرّابعُ: ويُضاف إلى ما سلف ذِكرُه من أسبابٍ، وجودُ عائقٍ من جهة المعنى، يمنع عطفَها على جملة ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾؛ لأنّ الإنبات ليس مِمّا يحصل بنزول الماء وحدَه، بل لا بدَّ معه من زرعٍ وغرسٍ[2].

بلاغة توجيه القراءات في ﴿يُنۢبِتُ﴾:

الالتفاتُ إلى المتكلّم للفت النظر إلى المنعِم

في قوله ﴿يُنۢبِتُ﴾ قراءتان: فقد قَرَأ أبو بكر عن عاصم ﴿نُنۢبِتُ﴾ بالنُّون الدّالَّة على التَّعظيم، وقرأ العامَّة بالياء ﴿يُنۢبِتُ﴾ على معنى: ينبت اللّه لكم[3]، أخبر به عن اللّه ﷻ لتقدُّم اسمه في أول الكلام[4] وإجراء للكلام على طريقة واحدةٍ، فكلُّ ما سبق من الآيات كان على صيغة الغيبة (ينزل، خلق، يخلق، أنزل).

وعلى قراءة ﴿نُنۢبِتُ﴾ ففي الكلام التفاتٌ من الغيْبة إلى التَّكلّم، وفضلًا عمّا يُحدِثُه الالتفات من تَطْرِيَةٍ للكلام، فإنَّه هنا يلْفِتُ النَّظر إلى عظمة المُنعِم، الَّذي جاد بكلِّ هذه النِّعم على مَن شكرها ومَن لم يشكرْها أيضًا، فمَن أوْلى بالإيمان به وعبادته من هذا الإلهِ المُنعم؟

دلالة التَّعبير بـ﴿يُنۢبِتُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مضى أنَّ مادَّة الإنبات تدلُّ على نماء المزروع، فاللّه ﷻ هو الَّذي

---

(1) الجُرجانيُّ، دلائل الإعجاز، ص: 204، والهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 188.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 114.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 83.
(4) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص 209.

يُنمِّيه، والتَّعبير بالمضارع دالٌّ على الاستمرار والتَّجدُّد، فاللّٰه تعالى - فضلًا منه - لا يتوقَّف عن إنبات الزُّروع؛ لأنَّها حاجةٌ لمواصلة الحياة، أو أنَّه صِيغ مضارعًا؛ لأنَّه مستقْبَلٌ بالنِّسبة لـ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[1].

معنى اللّام في: ﴿لَكُم﴾:

التَّنبيهُ والتَّحذير إلى تخصيص النِّعمة بهم وكأنَّها لهم وحدَهم

الجارُّ والمجرور مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُنۢبِتُ﴾، واللّام في قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾ هي لامُ الاختصاص، وغَرَضُ التَّعبير به تذكيرُهم بنعمة اللّٰه عليهم، حتّى لكأنَّهم وحدَهم مخصوصون بها.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿لَكُم﴾:

التَّقديم للاهتمام والاختصاص، ذو أهمّيَّة في السِّياق

وفي تقديم شِبْهِ الجملة ﴿لَكُم﴾ على المفعول وما عُطف عليه ﴿ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ﴾ دلالةٌ على الاهتمام والاختصاص، وفائدتُه لَفْتُ نظرهم إلى هذه النِّعمِ العظيمة والآلاء الجسيمة التي أنعم اللّٰه عليهم بها.

معنى الباء في شبه الجملة: ﴿بِهِ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾ نجد أنَّ الباء للسَّببية، وهي الباء الداخلة على سبب الفعل وعلَّته التي من أجلها حصل؛ أيْ: بسببه، مع ملازمة الإلصاق والملابَسة للباء.

عود الضَّمير في ﴿بِهِ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ نجد أنَّ الضَّمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى الماء، في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

التَّنبيه على أهمّيَّة الماء في الإنبات والزُّروع

الجارُّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ مُتعلِّق بـ ﴿يُنۢبِتُ﴾، وفي تقديمه على المفعول

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 231.

ومعطوفاتِه، التَّذكيرُ بهذه النِّعمة ولَفْتُ الأنظارِ إليها إن غَفلَت عنها حينًا، وهي نعمةُ إنزالِ الماء، ذي المنافعِ الكثيرة، ومن بينها كونُه سببًا في إنبات الزُّروع، وإخراج الثِّمار.

معنى (أل) في كلِّ لفظ مبدوء به في الآية:

كلُّ نوعٍ من المذكورات جنسٌ قائم بذاته من الثِّمار والنَّباتات

في قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ نجد أن (أل) في كلٍّ من: ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾ و﴿وَٱلزَّيۡتُونَ﴾ و﴿وَٱلنَّخِيلَ﴾ و﴿وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾ و﴿ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ هي للجنس في كلِّ مفردَةٍ منها؛ أيِّ تستغرق كلَّ أفراد هذه الأنواع.

نكتة العطف على ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾:

عطف الخاصّ على العامِّ، لبيان أهمّيّة الخاصّ

عطف ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾ على ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾، هو من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، لبيان أهمِّيّة الخاصِّ، فكلُّ نوعٍ ممّا ذُكر لا تخفى فوائدُه ومنافعه كثيرةٌ، وحاجة النّاس إليه ماسَّة.

فائدة التَّرتيب بين ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾ وما عُطف عليه:

مدار التَّرتيب بين الأصناف المذكورة على الأهمِّيّة

التَّرتيب بين كلٍّ من: ﴿ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾، مَدارُه على الأهمِّيّة، وهو نَهْجُ السّورة، كما مضى في ترتيب الحيوانات الَّتي ذُكرت مفصَّلةً، وقد قدَّم الزَّرع لدعوى الضَّرورة العامَّة إليه، وعموم الحاجة إليه من الإنسان والحيوان، وقدَّم الزَّيتون على التَّمر؛ لأنَّه يوقَد به فهو تكميلٌ للقوت، والتَّمر مما يُتَفَكَّهُ به فهو ترتيبيٌّ، فكان أدْوَنَ لأنَّه زائد على القوت، وقدَّم التَّمر على العنب؛ لأنَّ الخطاب لأهلِ الحجازِ وليس بأرضهم إلا التَّمر، فهو عندهم أشرفُ من العنب[1].

ويُمكن أن يُقال كذلك: إنَّ الغذاء النَّباتيَّ قسمان: حبوبٌ، وفواكه، أمّا الحبوب فإليها الإشارةُ بلفظ الزَّرع، وأمّا الفواكهُ فأشرفُها

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 9.

الزَّيتون، والنَّخيل، والأعناب، وبدأ بذِكْر الزَّيتون؛ لكونه فاكهةً من وجْهٍ وإدامًا من وجهٍ آخرَ، لكثرةِ ما فيه من الدُّهن ومنافعُ الأدْهان كثيرة، ثم ذكر النَّخيل وبعدها الأعناب أيضًا لكثرة فوائدهما، وكون النّاس يعتمدون عليهما اعتمادًا ملحوظًا أكثرَ من غيرهما[1].

دلالة عطف الثَّمرات على ما تقدَّمها في الآية:

عطف العامِّ على الخاصِّ، لإدخال ما لم ينصَّ عليه

قوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ فيه عطفُ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ على ما تقدَّم ذِكْرُه مُفصَّلًا، وهو من عطف العامِّ على الخاصِّ[2]؛ للدَّلالة على ما لم يُنصَّ عليه منها تفصيلًا، وإدخالِه في جملة النِّعَم المذكورة، فإنَّ ما لم يُذكر من الثَّمرات أضعافٌ مضاعفة، ومع ذلك قيَّدها بـ (من) التَّبعيضيَّة، لِما سيأتي.

معنى (من):

الجنَّة كمالٌ يستوعب الثِّمار على الكمال

وحرف الجرّ (من) في قوله عزَّ من قائل: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ ابتدائيَّة، ويُمكن أن تكون تبعيضيَّة، وفائدةُ التَّقييد بها، أنَّ كلَّ الثَّمرات لا تكون إلّا في الجنَّة، وأمّا في الدُّنيا، فبعضُها فحسب[3].

نكتة فصل الجملة في آخر الآية:

سرُّ الفصل هو كون الجملة مؤكِّدةً لمعنى ما قبلها

سرُّ الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، هو كون هذا التَّذييل مؤكِّدًا لِما مضى تفصيلُ أماراته، وهو كونُه سبحانه واهبَ النِّعم المستحقَّ للشُّكر والعبادة دون سواه، فيكون الفصلُ لكمال الاتِّصالِ بين هذه الجملة وما سبقها، ويُمكن أن يكون سببُ الفصل هو الاستئنافُ البيانيُّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لماذا أنعم عليهم بهذه النِّعم؟

سرُّ توالي المؤكّدات في الآية الكريمة:

كثرة المُؤكِّدات لأهمِّيّة الموكَّد عليه وإيقاظ القلوب الغافلة

اشتمل هذا التَّذييل على عدد من المُؤكِّدات هدفُها قرعُ الآذان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 181.

(2) الصّاويُّ، حاشية الصّاويِّ على الجلالَيْن: 2/ 284.

(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 118، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 232.

لإيقاظ القلوب والعقول، ولإفاقَتِها من داء الغفلة عن ربِّهم تعالت أسماؤه، الَّذي أغرقهم في النِّعم، ثمَّ هم يكفرونها ويكفرون بالله، وهذه المُؤكِّدات هي: إنَّ التوكيديَّة، والجملة الاسميَّة، والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدّالَّة على علوِّ المُشار إليه بها، وتقديم شِبْه الجملة ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾، ودخول اللّام على المبتدأ ﴿لَأٓيَةً﴾، والتَّعبير بالمضارع ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ للحثِّ على مواصلة التَّفكير وتكرُّره ليحصُل التَّذكّرُ والاعتبار.

نكتة تقديم شِبْه الجملة ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾:

الإشارة مفيدة للاهتمام والقصر

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ قُدِّم شِبْه الجملة ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ للاهتمام وإفادةِ القصر؛ أي: في هذه الآياتِ دون غيرها ما يدفعهم للتَّفكُّر في بديع خلق الله الّذي أحسن كلَّ شيء خلقه.

معنى اللّام في ﴿لَأٓيَةً﴾:

توكيد اللَّفظ إيحاء بأهمِّيّته

بعدما ذكَرَ الله تعالى الثَّمَراتِ المُنْتَفَع بها أعقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ وقد جاءت اللّام في قوله: ﴿لَأٓيَةً﴾ لام ابتداء، وهي اللّام الَّتي تدخل على المبتدأ وتُفيد التَّوكيد، وفي ذلك إيحاء بأهمية الآية.

دلالة إفراد ﴿لَأٓيَةً﴾:

بيان الدَّلالة على وحدة المدلول

أُفرد لفظ ﴿لَأٓيَةً﴾، ولم يأتِ مجموعًا (لآياتٍ) للدَّلالة على وحدة المَدْلول وهو الله تعالى[1]، وقيل: لِوحدة المُحَدَّث عنه، وهو الماء كما قال تعالى في آية ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾ [الرَّعد: 4][2].

نكتة تنكير لفظ ﴿لَأٓيَةً﴾:

في آية الله تعظيم وتوحيد لجلاله

نُكِّر لفظ ﴿لَأٓيَةً﴾ تفخيمًا وتعظيمًا، وذلك لأهمِّيَّة ما تدلُّ عليه، وهو الدَّلالة على توحيد واهب النِّعم ﷻ، الذي خلق كلَّ شيء وقدَّره تقديرًا.

---

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 210.

(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 119.

تعليل ما ذُكر في السّياق من أنَّ وجود الآية لِمَن لهم فكر

معنى اللّام في شبه الجملة ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

اللّام الدّاخلة على لفظ (قوم) في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هي لام التَّعليل، أيّ: لأجل (قوم يتفكَّرون)، قال الإيجي: "أيّ: على وجوده وكمال قدرته ووحدته"[1].

فائدة تنكير لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

وفي تنكير لفظ (قوم) في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مدحٌ وإطراء لهؤلاء المُتفكِّرين وتفخيمٌ لشأنهم، لكونهم يتفكَّرون دومًا، فبالتفكير والإدراك يتميز الإنسان.

بيــان أنَّ الوصف سجيَّة فيـهم، وأنَّه مـن مُكمّلات قوميَّتهم

فائدة مجيء لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

إقحام لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ قبل الوصف ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ بجعله صفةً له، فيه إيماءٌ إلى "أنَّ ذلك الوصف سجيَّةٌ فيهم، وأنَّه من مُكمِّلات قوميَّتهم، فإنَّ للقبائل والأمَم خصائصَ تُميِّزها وتُشتَهر بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦﴾ [التّوبة: 56]، فالمعنى أنَّ في ذلك ﴿لَأٓيَةٗ﴾ للّذين سجيَّتُهم التَّفكُّر"[2]، والنَّظر في المآلات، طلبًا لإدراك الغايات.

إدراك مراحل الإنبات سبيله التّفكُّر في عظمة الاستنبات

سرُّ تذييل الآية بالتَّفكُّر:

في جعل الفاصلة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ ربطٌ بين ما ابتدأتْ به الآية ﴿يُنۢبِتُ﴾ والتّفكُّرِ؛ لأنَّ إدراك المراحلِ الّتي تمرُّ بها الحبَّة حتّى تنبت، أمرٌ لا يُدرك إلا بالتَّفكُّر، وليس كلُّ إنسانٍ يرى الإنبات بقادر على التَّفكُّر فيه، فإنَّ الإنبات لمّا كان أمرًا مُتكرِّرًا وعادةً مألوفة، لم يكن ليتأمَّله للوقوف على مراحله وأسرارِه وإدراكِ تجليّات القدرة فيه، سوى المُتفكِّرين المُتدبِّرين، وأمّا أصحابُ البصر دون النَّظر، فلا يشغلُهم أمرٌ كهذا.

(1) الإيجي، جامع البيان: 2/ 330.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 89.

نكتة التَّعبير بالمضارع في ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

فائدة التَّعبير بالمضارع في ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ إفادة التَّجدُّد والاستمرار في ممارسة نعمة التَّفكير، ولِحَثِّ الَّذين يتفكَّرون على بذل الوسعِ في مداومة التَّفكُّر وتكراره؛ لأنَّ تكرار التَّفكّر وخصوصًا مع مَن هو كَلِفٌ به يساعد على الوصول إلى فرائد المعاني، فالخير كلُّ الخير في المداومة عليه، كما أنَّ فيه حضًّا لمَن أهملوا نعمةَ التَّفكُّر أن يتداركوا ما فاتهم من إهماله، كيِّ يتعقَّلوا الأمور، ويُحصِّلوا غاياتِها وفوائدها، وفيه كذلك "تعريضٌ بالمُشركين الَّذين لم يهتدوا، بِما في ذلك من دلالةٍ على تفرُّد الله بالإلهيَّة؛ بأنَّهم قوم لا يتفكَّرون"(1).

استمرار التَّفكُّر وتجدُّده، يؤدّي إلى إدراك فرائد المعاني

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّخل والنَّخيل:

النَّخْلُ معروف، وقد يُستعمَل في الواحد والجمع، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: 20]، وقال: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾ [الحاقَّة: 7]، وقال: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠﴾ [ق: 10]، والنَّخيل هو الجمع(2)، ومنه قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ﴾، وقوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ [النَّحل: 67].

النَّخلُ يُستعمل مُفردًا وجمعًا، والنَّخيل هو الجمع فحسب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 115.
(2) الرّاغب، المُفردات: (نخل).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط أدلَّة التَّوحيد بلفت النَّظر إلى خلق الوجود والزَّمن آيات لِمَن يعقل

لمّا ذكر اللّهُ تعالى فيما مضى أمرَ توحيده، واستحقاقَ كونه إلهًا واحدًا لا شريك له، وساق الأدلَّة الدّالَّة على ذلك، مُستخدمًا في ذلك بيانَ كونه المُنعمَ وحدَه على خلقه بشتَّى أنواع الإنعام، وكان ما ساقه من ذلك مُتعلِّقًا بالعالم الأرضيِّ، ساق بعد ذلك أيضًا أدلَّة توحيده المتعلِّقة بالعالم العُلويِّ، من كونه خالقَ الشَّمسِ والقمر والنُّجوم، وما هو مرتبطٌ بهذا العالمِ العُلويِّ في تقلُّباته وتغيُّر أحواله كاللَّيل والنَّهار، ومستخدمًا إيّاها جميعًا أدلَّةً لتوحيده، من جهة كونِها كذلك من تجلِّيات إنعامِه على خَلْقِه، داعيًا من خلال ذلك إلى الإيمان به وحدَه، ومعاتبًا في الأمر نفسِه المعرضين الَّذين لم ينتفعوا بهذه الدَّلائلِ الماثلة أمامَهم في كلِّ أوقاتهم، فتراهم - مع وضوحها - يمرّون عليها، وتمرُّ عليهم، وهم عنها معرضون، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَخَّرَ﴾: أصل (سخر) يَدُلُّ عَلَى احْتِقارٍ واسْتِذْلالٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنا: سَخَّرَ اللّه ﷻ الشَّيْءَ، وذَلِكَ إذا ذَلَّلَهُ لِأمرِهِ وإرادَتِهِ، قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: 13][(1)]، والتَّسْخِيرُ: سِياقَةٌ إلى الغرض المُختصِّ قهرًا، قال تعالى:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سخر).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ [إبراهيم: 33]؛ فالمُسَخَّرُ هو المُقَيَّض للفعل[1]، وسَخَّرَهُ تسخيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بلا أُجْرَة[2]، والمعنى المحوريُّ انقيادٌ بيسرٍ مع عدم مقاومةٍ، ويلزم ذلك الخفَّة، كما تجري السَّفينة وتتحرَّك بيُسرٍ، لقوَّتها وضعف مقاومة الماء، في الظَّرف الموصوف[3]، ومعنى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾: هيَّأها لمنافعكم[4].

2) ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾: أصل (نجم) يَدُلُّ عَلَى طُلوعٍ وظُهورٍ[5]، يُقال: نجم الشّيْء ينجُم بالضَّم نُجومًا: ظهر وطلع، يُقال: نَجَمَ السِّنُّ، والقَرْنُ، والنَّبْتُ، ونَجمَ الخارجيُّ، ونَجَمَتْ ناجِمَةٌ بموضع كذا؛ أي: نَبَغَتْ - ظهرت - ، وفلانٌ مَنْجَمُ الباطلِ والضَّلالةِ بالفتح؛ أيْ: معدِنُه، والنَّجْمُ: الوقت المضروب، ومنه سُمِّي المُنَجِّمُ[6].

وكانت العرب تؤقّت بطلوع النّجوم لأنّهم ما كانوا يعرفون الحساب وإنّما يحفظون أوقات السّنة بالأنواء وكانوا يسمّون الوقت الّذي يحلّ فيه الأداء نجمًا تجوّزًا، لأنّ الأداء - أي أداء الدّين ونحوه - لا يعرف إلّا بالنّجم ثمّ توسّعوا حتّى سمّوا الوظيفة نجمًا لوقوعها في الأصل في الوقت الّذي يطلع فيه النّجم[7].

والنَّجْمُ من النَّبات: ما لم يكن على ساقٍ، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾ [الرَّحمن: 6] ونَجَّمتُ المالَ عليه: إذا وزَّعْتَه، كأنَّك فرضت أن يدفع عند طلوع كلِّ نَجْمٍ نصيبًا، ثم صار مُتعارفًا في تقدير دَفْعِه بأيِّ شيءٍ قَدَّرْتَ ذلك[8]، ومن ذلك: تنجيم القرآن؛ أي: نزولُه مُنَجَّمًا مُفرَّقًا في أوقات، لا في وقتٍ واحد، والمُرادُ بالنُّجوم هنا: نجوم السَّماء وهي معروفة.

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (سخر).
(2) الجوهريُّ، الصّحاح: (سخر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سخر).
(4) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 221.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نجم).
(6) الجوهريُّ، الصّحاح: (نجم).
(7) الفيّوميُّ، المصباح المنير: (نجم).
(8) الرّاغب، المُفردات: (نجم).

3) ﴿يَعۡقِلُونَ﴾: أصل (عقل) يَدُلُّ عُظْمُهُ عَلَى حُبْسَةٍ فِي الشَّيْءِ أَوْ ما يُقارِبُ الحُبْسَةَ[1]، فالعقل: الحَبْس، يُقال: عقَلْتُ البعيرَ أعقِله عقلًا: قيَّدته بما يحبِسه عن الانبعاث، وسُمِّي عقلُ الإنسان بذلك؛ لأنَّه يمنعه ويحبِسه عن محذوراتٍ[2]، والعَقْل: نقيض الجَهْل، يُقال: عَقَل يَعْقِل عَقْلًا فهو عاقل[3]، والعقل: الدّيَة، والعِقال: ما يعقل به البعير، وسمّيت بذلك؛ لأنّ الإبل كانت تعقل بفناء ولي المقتول، ثمّ كثر استعمالهم هذا الحرف، حتّى قالوا: عقلت المقتول، إذا أعطيت ديته دراهم أو دنانير، وعقلت عنه غرمت عنه ما لزمه من دية وجناية، وهذا هو الفرق بين عقلته وعقلت عنه، ومن الفرق بينهما أيضًا عقلت له دم فلان إذا تركت القود للدّية، وعن الأصمعيّ كلّمت القاضي أبا يوسف بحضرة الرّشيد في ذلك فلم يفرّق بين عقلته وعقلت عنه حتّى فهّمته[4]، ومعنى ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ أيّ: مَن لهم عقول يستعملونها في التَّدبُّر والتَّفكُّر فيما هي مُهيَّأة له، مُستعدَّة لتعقل ما تراه وتسمعه[5].

المَعنى الإجماليُّ:

تسخير الموجودات الكونيَّة للإنسان، ودور العقل في تبصُّر النِّعم السَّماويَّة

كما سخَّر اللّه لكم ما مضى ذِكْرُه من نِعَمٍ أرضيَّة تشاهدونها وتنتفعون بها، كذلك سخَّر لكم ما تشاهدونه من أفلاكِ السَّماء كالشَّمس الَّتي يقع بسببها اللَّيل الَّذي تسكنون فيه، والنَّهار الَّذي تسعَوْن فيه على معيشتكم وأرزاقِكم ومصالحِكم، كما أنَّها تُكسِب النَّبات ما يحتاجه من غذاءٍ عن طريق التَّمثيل الضَّوئيِّ.

وكذلك سخَّر لكم القمرَ نورًا في اللَّيل، ولتعلموا به وبالشَّمس

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (عقل).
(3) الخليل، العين: (عقل).
(4) الجوهريُّ، الصّحاح، والفيّوميُّ، المصباح المنير: (عقل).
(5) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 447.

عددَ السِّنين والحساب، فضلًا عن معاونتِهما لكم في القيام بعبادة ربِّكم فيما هو مرتبطٌ بكلٍّ منهما من العبادات كالصَّلاة والصِّيام والحجِّ، وكذلك الزَّكاة أيضًا فإنَّها مرتبطة بمرور الحوْل.

ومِمّا هو مُسخَّر لكم كذلك النُّجومُ الهاديات لكم في سيركم باللَّيل برًّا وبحرًا، إنَّ في هذا كلِّه لدلائلَ واضحاتٍ وحُجج باهرات لقوم سجيَّتهم التَّعقُّل والتَّأمُّل والتَّدبُّر، وهؤلاء هم الفائزون، الَّذين يستخدمون نعمةَ العقل فيما خُلق لأجله، فكان لهم نورًا هاديًا إلى تبصُّر الغايات والمقاصد.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة عطف الآية على ما تقدَّمها:

تـوالي التَّذكير بـالـنِّـعـم والاستدلال على وحـدانـيـة الله تعالى

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾، جملةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، معطوفةٌ على قوله سبحانه: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ﴾، فكلاهُما (الإنبات والتّسخير) من جملة نعم اللّه على عباده، كما أنَّهما من جملة الأدلَّة على التَّوحيد واستحقاق العبادة والشُّكر.

بلاغة المجاز في لفظ ﴿وَسَخَّرَ﴾:

لفظ التَّسخير مجازٌ عن النِّظام الكونيِّ

التّسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاقٍّ أو شاغل بقهر وتخويف أو بتعليم وسياسة بدون عوض[1]، وإطلاق لفظ التَّسخير في الآية على سير هذه الآيات الكونيَّة ضِمنَ النِّظام الَّذي خطَّه اللّه لها بحيث لا تتخطّاه، هو من باب المجاز؛ وفائدته وسرُّه بيان "أنَّ شَأْنَ عِظَمِها، ألّا يَسْتَطِيعَ - أحد - غَيْرُهُ تَعالَى وضْعَها عَلَى نِظامٍ مَحْدودٍ مُنْضَبِطٍ"[2].

نكتة التعبير بالماضي ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾

تـسـخـيرُ الـلـه لهذه الآياتِ كان لأجـل اسـتـقـرار الإنسان

تسخير اللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر قد حصل بأمر اللّه يوم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/ 168.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/ 169.

خلق السَّماوات والأرض، واختارت كلٌّ منهما الانقيادَ لأمر اللّه مُطلقًا، وعدمَ الخروج على ما خطَّه لها من قانون التَّسيير، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فُصِّلت: 11].

دلالةُ اللّام في شبه الجملة ﴿لَكُمُ﴾:

تسخيرُ ظواهر الكون لصالح الإنسان

في قوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾: اللّام في قوله: ﴿لَكُمُ﴾ هي لام الاختصاص، وغرض التَّعبير بها هو لفتُ أنظارهم إلى ما اختَصَّهُمُ اللّهُ بِهِ من النِّعم التي تجلُّ عن الحصر والإحصاء.

نكتة تقديم شبه الجملة في ﴿لَكُمُ﴾:

التَّقديم في السِّياق لإفادة الاهتمام والقصر

في قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ تقديم لشِبه الجملة ﴿لَكُمُ﴾، وهو ما يُفيد الاهتمامَ والقصر الادِّعائيَّ؛ أيّ: لكم أنتم وليس لغيركم، وفي هذا ما فيه من تحقيق رعاية اللّه تعالى بعباده من تسخيرِ هذه الآلاءِ لهم.

معنى (أل) في الألفاظ المُصدَّرة بـ (ال):

الدَّلالة على العهديَّة تُفيد النَّظر إلى المعهود المُعيَّن

(أل) في كلٍّ من ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ﴾ هي العهديَّة؛ لأنَّ المقصود بها المُعين المعهود في كلٍّ واحدٍ منها بالنّظر إلى كونه المُسخَّر لنا، حتَّى لفظ النّجوم المقصودُ به أيضًا المعهود منها؛ أيّ: النّجوم الهادية، كما قال سبحانه في السّورة نفسِها بعد ذلك: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النّحل: 16].

بلاغة التَّرتيب بين النِّعم في الآية:

ترتيب النِّعم مبنيٌّ على مدى ظهور الأهمِّيّة

وعلى دأب السّورة فيما مضى في ذِكر النِّعم، فإنَّها ذكرتها مُرتَّبةً على حسَب ترتيبها في الأهمِّيّة بالنَّسبة للمخاطَبين؛ فكذلك ما هنا أيضًا فقد رتَّبها بهذا الاعتبار، وبشيءٍ آخر هو اعتبار حالِها من الظُّهور والخفاء في رتبة الإنعام؛ فقدَّم ما هو أمَسُّ قربًا بالإنسان وأكثر ظهورًا في مراتب الإنعام وهو اللَّيل ثمَّ النَّهار، ثمَّ ذَكَر بعد ذلك

الشَّمسَ والقمر، ثمَّ ختم بالنُّجوم وهي أخفاها في رتب الإنعام، وأدناها أهميةً بالنِّسبة للإنسان. "فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ للسُّكنى ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ للابتغاء؛ ثمَّ ذكر آيةَ النَّهار فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ﴾؛ أيْ: لمنافع اختصَّها بها، ثمَّ ذكر آيةَ اللَّيل فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾، وذلك لأمور علَّقها به، ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾؛ أيْ: لآيات نصبَها لها"[1].

بلاغة توجيه القراءات في الآية الكريمة:

تسخير النّجوم مرادٌ للمتأمّلين

قرأ ابن عامر: (والشّمسُ والقمرُ والنجومُ) كلُّها بالرَّفع على الابتداء، والخبر هو قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾، وقرأ الجمهور جميعَ هذه الأسماء منصوبةً على المفعوليَّة لفعل (سخر).

وقرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ بالرَّفع على أن يكون قولُه: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ ابتداءً، و﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ خبره، ونكتة الاختلاف بين الإعرابيْن وبين الأسلوبيْن، هي بيان الفرقِ بين التَّسخيريْن من حيث إنَّ الأوَّل واضح، والآخر خَفِيٌّ لقلَّة مَن يرقُب حركاتِ النُّجوم[2].

دلالة الواو في: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ على قراءة الرَّفع، هي واو الاستئناف، والجملة مفصولة عمّا قبلها[3]، وأمّا على قراءة النَّصب، فهي الواو العاطفة للجُملة على ما سبقها من المنصوبات.

معنى (الباء) في قوله ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾:

كلُّ فعل في الكون هو بسبب أمر الله وقدَرِه

في قوله ﷻ: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾؛ الباء للسَّببيّة، فالنُّجوم مُسخَّرة بسبب أمره سبحانه لها، بأن تكون كذلك لتؤدّي وظيفتها المنوطة بها في الحياة، مثلها مثل غيرها من المخلوقات التي يزخر بها الكون.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 121.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 186، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 116.
(3) الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 4/ 104.

الأمر هنا هو الأمر الكونيّ لا الأمر القوليّ

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾:

المُرادُ بالأمر هنا هو الأمر الكونيُّ والتَّسخيريُّ الَّذي قضى اللّه به نظام الكون، وبذلك فإنَّ لَفْظ الأمرِ في قَوْلِهِ: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ مُسْتَعْمَلٌ مَجازًا في التَّصْرِيفِ، بِحَسْبِ القُدْرَةِ الجارِيَةِ على وفْقِ الإرادَةِ، فالأمرُ هُنا مِنْ ذَلِكَ، وهوَ تَصْرِيفُ نِظامِ المَوْجوداتِ كُلِّها"[1]، ففي قوله: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ إشعارٌ أنَّ كلَّ ذلك قد تمَّ ضِمن مشيئةِ اللّه وإرادته في تهيئة أسباب الرّاحة للإنسان على هذه الأرض ليقوم بمهمَّته.

بيان التَّأكيد على أهمّيّة المُؤكّد عليه وإيقاظ القلوب الغافلة

غرض تتابع المُؤكِّدات في فاصلة الآية:

اشتمل هذا التَّذييلُ على عددٍ من المُؤكِّدات، هدفُها قَرْعُ الآذان لإيقاظ القلوبِ والعقول ولإفاقتِها من داء الغفلة عن ربِّها تعالت أسماؤه الَّذي أسبغ عليهم بالنِّعم، ثمَّ هم يكفرونها ويكفرون به، وهذه المُؤكِّدات هي: إنَّ التّوكيديَّة، والجملة الاسميَّة، والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدّالَّة على عُلوِّ المُشار إليه بها، وتقديم شِبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، ودخول اللّام على اسم ﴿إِنَّ﴾، وهو قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، والتَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ للحثِّ على مواصلة إشغالِ العقل بالتَّدبُّر والتَّأمُّل وتكرُّره ليحصل التَّذكُّر والاعتبار.

في هذه الآيات المذكورة الكفاية لمن يعقل

نكتةُ تقديم شِبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ قدَّم السياق القرآنيُّ الحكيم شبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ للاهتمام، ولإفادةِ القصر على معنى: في هذه الآيات، على وجه الخصوص دون غيرها.

كلُّ آيات الله دالَّة على عظمته

معنى اللّام في ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ اللّام في قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، هي لام الابتداء الّتي تدخل على المبتدأ وتُفيد التَّوكيد.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ 160.

نكتة تنكير لفظ ﴿لَّأٓيَٰتٖ﴾ في السّياق المحكم:

التّنكير وارد هنا للتّفخيم والتّعظيم

ونُكِّر لفظ ﴿لَّأٓيَٰتٖ﴾ تفخيمًا وتعظيمًا، وذلك لأهمِّيّة ما تدلُّ عليه وهو الدَّلالة على توحيد واهب النِّعم سبحانه.

نكتةُ جمع (لآيات) في ﴿لَّأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾:

جمع (الآيات) باعتبار مجموع الأدلَّة المذكورة ومراعاة لجمع (مُسخَّرات)

أمّا عن إفراد ﴿لَأٓيَةٗ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فقد مضى ذِكْرُ سرِّه، وهو وحْدَةُ المدلول أو وحدة السَّبب، وأمّا الجمع هنا، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، فسببُه راجعٌ إلى ما يلي:

أوّلًا: مناسبتُه للجمع في ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾[1].

ثانيًا: إذا كان الإفرادُ في ﴿لَأٓيَةٗ﴾ باعتبار المدلول، فالجمعُ في ﴿لَّأٓيَٰتٖ﴾، باعتبار الدَّليل، فإنَّ الله تعالى له في كلِّ شيءٍ آيةٌ، تدلُّ على أنَّه الواحد[2]، فالدَّليل هنا راجع إلى اختلاف أحوال الشَّمس والقمر والكواكب، وفي كلِّ واحدٍ منها نظامٌ يخُصُّه ودلائلُ تُخالف دلائلَ غيرِه، فكان ما ذُكِر في ذلك مجموع آيات[3].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

القوم الَّذين يعقلون يجدون في الآيات مُعتبَرًا

اللام في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ لام التَّعليل، ويُطلَق عليها أحيانًا: لامَ الأجْل[4]؛ أيَ: فعَلَ ذلك كلَّه لأجل قومٍ يعقلون الأمور ويزنونها بميزان العقل والحكمة.

فائدة تنكير ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ في السِّياق:

التَّفكير فريضة إسلاميَّة يُمدح بها كلُّ من وُصف بها

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ جاءت كلمة (قوم) هنا منكَّرةً، وفي ذلك التّنكير مدحٌ لهم وتفخيمٌ لشأنهم،

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 210.
(2) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/ 285.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 117.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/ 144.

لكونهم يتفكَّرون دومًا، وفي هذا دعوةٌ لهم لإعمال عقولهم والتَّفكُّر في هذه الآلاء التي حباهم الله ﷻ بها.

فائدة مجيء لفظ ﴿لِّقَوۡمٍ﴾:

الإيماءُ إلى كون الوصف سجيَّةً فيهم وأنَّه من مُكمِّلات قوميَّتِهم

آثر النّظم التّعبير بقوله: ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ دون أن يقول (للَّذين يعقلون، أو للعاقلين) لأنَّ إجراء الوصف على لفظ قوم يومِئُ إلى أنَّ ذلك الوصف سجيَّة فيهم، وأنَّه من مُكمِّلات قوميَّتِهم، فإنَّ للقبائل والأمم خصائصَ تُميِّزها وتشتهر بها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦﴾ [التَّوبة: 56]، وقد تكرَّر هذا في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن ومن كلام العرب، فالمعنى أنَّ في ذلك آياتٍ للَّذين سجيَّتُهم العقل، وهو تعريضٌ بأنَّ الَّذين لم ينتفعوا بآيات ذلك ليست عقولُهم براسخةٍ ولا هي مَلَكاتٌ لهم[1].

سرُّ التَّرتيب: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ بعد ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

العالمُ العلويُّ مغيَّبٌ فيحتاج مزيدَ تعقُّل

أمّا عن التَّعبير بالعقل في هذه الآية، فإشارةٌ إلى أنَّ العالم العُلويَّ ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ﴾، مُغَيَّب عن الأبصار، فيحتاج المُتأمِّل فيه لمزيد العقل، بخلاف العالم السُّفليِّ فهو مُشاهَدٌ، فيكفي فيه أدنى تأمُّلٍ وتعقُّلٍ، ولذا اكتُفي فيه بـ التَّعبير بـ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أو يُقال: إنَّ التَّغاير في هذا وما قبله وما بعده تفنُّنٌ في التَّعبير، دفعًا للثِّقل، وإشارة إلى أنَّ مَن اتَّصف بواحدٍ منها، فقد اتَّصف بجميعها[2].

نكتة التَّعبير بـ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ مضارعًا:

مداومةُ التعقُّل توصلُ إلى فرائد المعاني

فائدة التَّعبير بالمضارع في ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ إفادة التَّجدُّد والاستمرار في الإفادة من نعمة العقل، في التَّفكُّر والتَّدبُّر والتَّأمُّل والعمل على إدراك الغايات، ولحثِّ هؤلاء على بذل الوسع في المداومة على هذه النِّعمة العظمى؛ وفي تكرار التَّأمُّل مرّاتٍ ومرّاتٍ، لأنَّ تكراره

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 89.

(2) الصّاويُّ، حاشية الصّاويّ على الجلالَيْن: 2/ 285.

وخصوصًا مع مَن هو كَلِفٌ به يُساعد على الوصول إلى فرائِد المعاني، فالخير كلُّ الخير في المداومة عليه، كما أنَّ فيه حضًّا لَمن أهملوا نعمةَ العقل أن يتداركوا ما فاتهم من إهماله، كي يتعقَّلوا الأمور، ويُحصِّلوا غاياتِها وفوائدها.

وفيه كذلك تعريضٌ بالمشركين الَّذين لم يهتدوا بما في هذه الآيات من دلائلَ واضحاتٍ على تفرُّد اللّه بالألوهيَّة؛ بأنَّهم قوم لا يعقلون؛ لأنَّهم لم يستخدموا عقلَهم فيما خَلَقَه اللّه لأجله.

بلاغة المُتشابِه اللَّفظيّ:

توجيه اختلاف القراءات يُبرزُ بلاغةَ التَّشابه اللَّفظيِّ في الموضعيْن

آيةُ الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 54].

والتَّشابه اللّفظيُّ بينهما ينحصر في ذِكْر الشَّمس والمعطوفات بعدَها ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هكذا برفْعِ ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ في النَّحل على قراءة حفصٍ عن عاصم، أمّا الجمهور فيقرؤونها بالنَّصب نسقًا مع ما قبلَها هكذا: (والنُّجومَ).

وفي سورة الأعراف اتَّسقت الآية فيها على نمط آية النَّحل على قراءة الجمهور، هكذا: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 54]، ما عدا ابنَ عامرٍ الَّذي قرأ: (والشّمسُ والقمرُ والنّجومُ) كلُّها بالرَّفع على الابتداء، والخبرُ هو قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾، وقرأ الجمهورُ جميعَ هذه الأسماء منصوبةً على المفعوليَّة لفعل ﴿وَسَخَّرَ﴾: (والشَّمسَ والقمرَ والنجومَ)، وقرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ بالرَّفع على أن يكون قوله: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ ابتداءً و﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ خبره.

ونكتةُ الاختلاف بين الإعرابَيْن وبين الأسلوبَيْن، هو بيانُ الفرقِ

بين التَّسخيرين من حيث إنَّ الأوَّل واضح، والآخرَ خفيٌّ لقلَّة مَن يرقُب حركاتِ النُّجوم[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّسخير، والجعْل، والتَّهيئة:

التَّعبير بالتّسخير هنا أدلُّ من غيره على خصوصيّة الغرض المقصود

التَّسخير: هوَ تذليل الشَّيْء وجعلَك إيّاهُ مُنقادًا[2] ومَسوقًا إلى الغرض المُختصّ قهرًا[3]، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 13]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: 33]، قال ابن عاشور: "والتَّسْخِيرُ حَقِيقَتُهُ تَذْلِيلُ ذِي عَمَلٍ شاقٍّ أو شاغِلٍ بقَهْرٍ وتَخْوِيفٍ، أو بتَعْلِيمٍ وسياسةٍ بدون عِوَضٍ"[4].

والتَّهيئةُ: الاستعداد، أو اتِّخاذ وضعٍ مُناسِبٍ لأمرٍ ما، وفيه معنى الانتظار والقَبول أيضًا[5].

والجَعْلُ: لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من فعَلَ وصَنَعَ وسائر أخواتها، في إيجاد شيءٍ من شيءٍ وتكوينه منه، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النَّحل: 72]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النَّحل: 81]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزُّخرف: 10][6].

وبذلك يظهر أنَّ لفظ التَّسخير أبلغ من لفظي التَّهيئةِ والجَعْل؛ لِما في لفظ ﴿وَسَخَّرَ﴾ من العزم والقوَّة في الدَّلالة على خصوصيَّة الغرض الَّذي سيقت له الآيةُ الكريمة، وهو الدَّلالة على التَّوحيد وطلاقة القدرة، وأيضًا الدَّلالة على الامتنان والإنعام بذلك التَّسخير، وهو ما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/ 271، 20/ 186، والسّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 5/ 343، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 116.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 255.
(3) الرّاغب، المُفردات: (سخر).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8ب/ 168.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هيأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (جعل)، والكفويُّ، الكليّات، ص: 347.

لا يُحقِّقه لفظُ التَّهيئة الَّذي يخلو من قوَّةِ العزم في الفعل؛ فهو يدلُّ على الاستعداد وربَّما التَّمهيد لشيءٍ آخرَ، والتَّقديم له، كما لا يُناسبه لفظُ الجَعْل، لِما فيه من عمومٍ قد لا يتماهى معه الغرضُ المُراد.

الأمر، والمشيئة، والإرادة:

الدّلالة على سبق القضاء والتّقدير هو الجامع بين المُفردات الثَّلاث

من شدَّة التَّقارب الدَّلالي بين الإرادة والمشيئة، ألفيْنا المُعجميِّين يُعرِّفون كلًّا منهما بما يُعرَّف به الآخرُ، فمثلًا يقول ابن منظور: المَشِيئَةُ، مَهْموزَةً: الإرادةُ[1].

وفرَّق العسكريُّ بينهما بأنَّ الإرادَة تكون لِما يتراخى وقتُه ولِما لا يتراخى، والمشيئةُ لِما لم يتراخ، قال: والشّاهِد أنَّك تَقول: فعلتُ كَذا شاءَ أو أبى، فيقابل بها إباءه، وذَلِكَ يكون عِنْد محاولة الفِعْل[2].

ونزيد: إنَّ لفظ الإرادة يُطلق على نزوع النَّفس إلى الشَّيء مع الحكم فيه بأنَّه ينبغي أن يُفْعَل، أو لا يُفْعَل، ثمَّ إنَّه يُستعمل مرَّةً في المبدأ، وهو: نزوع النَّفس إلى الشَّيء، وتارةً في المنتهى، وهو الحكمُ فيه بأنَّه ينبغي أن يُفعَل أو لا يُفعَل، فإذا استُعمل في حقِّ اللّه فإنَّه يُراد به المنتهى دون المَبدأ، فإنَّه سبحانه يتعالى عن معنى النُّزوع، فمتى قيل: أرادَ اللّه كذا، فمعناه: حَكَمَ فيه أنَّه كذا وليس بكذا، نحو: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ [الأحزاب: 17][3]، وأمّا مع البشر، فإنَّه يُستعمل في أحد المَعنيَيْن المبدأ أو المُنتَهى، أو في كليْهما معًا.

والمَشِيئَةُ عند أكثر المُتكلِّمين كالإرادة سواءٌ، وعند بعضهم: المشيئةُ في الأصل: إيجاد الشَّيءِ وإصابته، وإن كان قد يُستعمل في التَّعارف موضع الإرادة، فالمشيئةُ من اللّه تعالى هي الإيجاد، ومن النّاس هي الإصابة[4].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ريد).
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص 124.
(3) الرّاغب، المُفردات: (رود)، والكفويُّ، الكليّات، ص 74.
(4) الرّاغب، المُفردات: (شيأ).

وأمّا الأمرُ الكونيُّ؛ فيعني القَضاءَ والتَّقْدِير[1]، ويُقال له أيضًا: الأمر التَّسخيريُّ[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: 117]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: 3]؛ أيْ إنَّه لا يحدث في العالم العلويِّ، ولا في العالم السُّفليِّ أمرٌ من الأمور، ولا حادثٌ من الحوادث، إلّا بتقديره وتدبيره وقضائه وحُكمه، فيصيرُ ذلك دليلًا على نهاية القدرة[3].

ونخلص ممّا تقدّم: إلى وثاقة العلاقةِ بين المُفردات الثَّلاث (الأمر، والمشيئة، والإرادة)، من حيث دلالةُ ثلاثتِها على سبْق القضاء والتَّقدير، وعلى إيجاد الأشياء وفْق إرادة اللّه ومشيئَته، وأمرِه الكونيِّ التَّقديريِّ.

(1) الكفويُّ، الكلِّيّات، ص: 180.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/ 169.

(3) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 17/ 192.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾ [النّحل: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

علاقة تسخير الكون للإنسان باختلاف ألوان النّبات مع وحدة الأرض والماء

لمّا نبَّه سبحانه على معالم السَّماوات، نبَّه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبةِ والأشياءِ المختلفة، من الحيواناتِ والمعادن والنَّباتاتِ والجماداتِ على اختلاف ألوانِها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواصِّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَرَأَ﴾: للفعل (ذرأ) أصلان: أَحَدُهُما لَوْنٌ إلى البَياضِ، والآخَرُ كالشَّيْءِ يُبْذَرُ ويُزْرَعُ، فالأوَّلُ الذُّرْأَةُ، وهوَ البَياضُ مِنْ شَيْبٍ وغَيْرِهِ، والأَصْلُ الآخَرُ: قَوْلُهُم ذَرَأْنا الأَرْضَ؛ أَيْ: بَذَرْناها، وزَرْعٌ ذَرِيءٌ، ومِنْ هذا البابِ: ذَرَأَ اللهُ الخَلْقَ يَذْرَؤُهُم، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 11][2]، والذَّرْءُ: إظهارُ اللّٰه تعالى ما أبداه، يُقال: ذَرَأَ اللّٰه الخَلْقَ؛ أيْ: أوجد أشخاصَهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأعراف: 179][3]، والذَّرْء في الآية معناه: الخَلْقُ بالتّناسل والتّولُّد بالحمل والتّفريخ[4].

2) ﴿أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾: أصل (لون) سَحْنَةُ الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ: اللَّوْنُ لَوْنُ الشَّيْءِ، كالحُمْرَةِ والسَّوادِ، ويُقالُ: تَلَوَّنَ فُلانٌ: اخْتَلَفَتْ أَخْلاقُهُ، واللَّوْنُ: جِنْسٌ مِنَ التَّمرِ، واللِّينَةُ: النَّخْلَةُ، مِنْهُ، وأَصْلُ الياءِ فِيها واوٌ،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 561، 562.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذرأ).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ذرأ).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 117.

قالَ اللّه تَعالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ [الحشر: 5][1]، ووَرَدَ في القرآن الكريم في مواضعَ كان الكلام فيها عن اختلافِ ألوانٍ بعض ما خلق اللّه في الطَّبيعة، كالجبال في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: 27]، والنَّبات في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزُّمر: 21]، والإنسان في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الرّوم: 22]، وهو إشارة إلى أنواع الألوان واختلاف الصّور الَّتي يختصُّ كلُّ واحد بهيئةٍ غيرِ هيئةِ صاحبه، وسَحْناءَ غير سحنائِه مع كثرة عدَدِهم، ويُعبّر بالألْوانِ عن الأجناس والأنواع، يُقال: فلان أتى بالألوانِ من الأحاديث، وتناول كذا ألوانًا من الطَّعام[2]، ومعنى ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾؛ أيْ: أصنافه، فإنَّها تَتَخالف باللَّون غالبًا[3].

3) ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: أصل (ذكر) خِلافُ (نسي)، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، يُقال: ذَكَرْتُهُ بِلِساني وبِقَلْبِي ذِكْرَى بِالتَّأْنِيثِ وكَسْرِ الذّالِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ؛ أيْ: لا تَنْسَهُ[4]، و(الذِّكر) بِالكَسْرِ لَهُ مَعْنيانِ: أحدهُما: التَّلَفُّظ بالشَّيْء، والثّاني: إحْضاره في الذِّهْن بِحَيْثُ لا يغيب عَنهُ، وهوَ ضد النِّسْيان، و(الذُّكر)، بِالضَّمِّ: للمعنى الثّاني لا غير[5]، والذِّكر الشَّرف والعلاء، كما خاطب اللّه نبيَّه ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزُّخرف: 44]؛ والمُرادُ: القرآن الكريم؛ أيْ: شرفُك وشرفُهم، وذلك أنَّه نزل بلغتهم، وتشريفُه لك أكبرُ من حيث نزل عليك خصوصًا، وأهلُ الذِّكر في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: 7]؛ أيْ: أهلُ العلم من كلِّ أمَّةٍ[6]، وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أيْ: يتَّعظون ويعتبرون[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

من عجائب قدرته سبحانه ما ترَوْنَه من اختلاف الألوان فيما أخرجه اللّهُ لكم من الأرض وذَرأه فيها من النَّبات الباسق والزَّرع النَّضير؛ حتَّى إنَّك لترى في أوراق الزُّهور

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لون).
(2) الرّاغب، المُفردات: (لون).
(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 222.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيّوميُّ، المصباح المنير: (ذكر).
(5) الكفويُّ، الكليّات، ص: 456.
(6) السّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (ذكر).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 513، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 206.

من دلائل التّذكير بقدرة القدير اختلاف الألوان في الزّروع والجبال وغيرها

والورود عددًا من الألوان المُتعدِّدة المتناسقة في الورقة الواحدة، وهذا الاختلافُ في الألوان لسْتَ واجدَه فقط في النَّبات، فيمِّم وجهَك إن شئتَ نحوَ الجبالِ؛ لترى منها الجُددَ البيضَ والحُمر والغرابيبَ السّود، ثم انظر إلى ما ذَرَأَه اللّه في الأرض من المعادن المختلفة الألوان في تناسقٍ بديع لكلِّ معدنٍ منها مع لونه، ثم ارجع البصرِ كرَّتيْن في الشِّعاب المُرجانيَّة وأسماكِ البحار والأنهارِ، وهي أيضًا من جُملة ما ذرأه اللّه للناس في الأرض، لتُبْهِرَك ألوانُها، وكلُّها ناطقة بأنَّه لا إله إلّا اللّه الحكيمُ القدير البديع.

إنَّ في ذلك لحجةً ودَلالة على طَلاقة القدرةِ وعجائبها لقوم سجيَّتهم التَّذكُّر بعد التَّفكُّر، وطبعُهم مراجعةُ النَّفس لو اعتَرَتْها غفلةٌ أو سَهوة، فمِن فضلِ اللّهِ عليهم في هذه الحالة أنَّهم يذَّكَّرون، وذلك فضلُ اللّه يُؤتيه مَن يشاء.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة عطف الآية على ما تقدَّمها:

ما ذرأه اللّه داخلٌ في جملة التسخير

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، في موضع نصبٍ عطفًا على ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ على معنى: وسخر لكم ما ذرأ لكم؛ أيْ: ما خلق لأجلِكم فيها من الحيوان والنَّبات وغيرِ ذلك، وهذا الوجه جيِّد[1]؛ وهو الأظهرُ في توجيه العطف.

معنى (ما) في قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

إيثارُ اللّفظ الّذي يُغني وجودُه عن تعداد المَذْروء

جاءت (ما) موصولة في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والتَّعبير بها أجْمَعُ وأخصر، إذ هي من ألفاظ العموم، فتعمُّ كلَّ ما خلقه اللّه تعالى، فأغنى ذِكرُها عن تعداد المذروء.

(1) الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 4/ 105، واكتفى به الزّمخشريُّ في الكشّاف: 2/ 598، وابن عاشور في التَّحرير والتَّنوير: 14/ 117.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ذَرَأَ﴾ مادَّة وصيغة:

الـذَّرء أبلغُ في البيان وأدلُّ على المُراد

عبَّر البيان القرآنيّ بـ ﴿ذَرَأَ﴾، لِما في الذَّرء من معنى الظُّهور والانتشار، كما مرَّ بيانُه في المُفردات، وأمّا عن سرِّ اختياره ماضيًا؛ فلمُناسبته لـ ﴿وَسَخَّرَ﴾، وهو عاملُ النَّصب في الموصول (ما).

معنى اللّام في شبه الجُملة ﴿لَكُمۡ﴾:

التَّنبيه إلى نعمة الإبـهـاج فيما ذرأه لأجلهم من نـبـات مختلف الألوان

اللّام في ﴿لَكُمۡ﴾ هي لام الاختصاص، وكأنَّه يلفِتُهم بها إلى نعمةِ الإبهاج، فيما ذرأه لأجلهم، وهي نعمةٌ أخرى زائدةٌ على نعمة الخلق للمنفعة، ودليلٌ آخرُ من دلائل القدرة، كما قال سبحانه فيما مضى عن نعمة خَلْقِ المركوب من الدَّوابِّ: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾.

تقديرُ الناصبِ في قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ﴾:

اســتــقــلال نعمة النَّبات عـن سابقتها مـن الـكـواكـب والمسخَّرات

قدَّر بعضُهم فعلًا محذوفًا ناصبًا للجملة بدلًا من عطفها على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾؛ أيْ: وخلق (ما ذرأ لكم)[1]، وفي تقدير الفعلِ المحذوف، مزيدُ بلاغةٍ في استقلال هذه النِّعمة عن سابقتها، وقد يدفعُه كون ﴿ذَرَأَ﴾ معناه (خلق) فيحصُل ما يُشْبِه أن يكون تكرارًا، فيحتاج إلى تعليلٍ كالتَّأكيد[2]، وقد مضى أنَّ الجملة معطوفةٌ على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، وأنَّ ناصبَ الموصول هو الفعل ﴿وَسَخَّرَ﴾.

نكتةُ حذف مفعول ﴿ذَرَأَ﴾:

حـذفُ المفعول لـلـعـمـوم والاخـتـصـار في السِّياق المُحكم

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾ تتجلَّى نكتةُ حذف مفعول ﴿ذَرَأَ﴾ في إفادة العموم والاختصار، دلالةً على كثرته، بحيث لا يلائم المقام حصره ولا إحصاؤه.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تدلُّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على الظَّرفيّة، وهي

(1) السَّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 7/ 199.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 237.

تدلُّ على أنَّ المقصود بقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما هو أعمُّ من النَّبات، لكونه ظاهرًا، بل يشمل أيضًا الجبالَ المغروسة في الأرض كالأوتاد، والمعادنَ المُتنوِّعة الَّتي تُستخرج من باطن الأرض، وما لا نعرفه مِمّا تكتنزه الأرضُ في داخلها، ولم يصل إليه النّاس بعد، فهذا المذكورُ كلُّه مختلفُ الألوان، مُتنوِّع الأصناف والخصائص.

الدّلالة على ما هو أعمُّ من النَّبات ككنوز الأرض المُخبَّآت

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الأرضُ معهودةٌ معروفة

جاءت (أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ عهديَّةً دالَّةً على الأرض المعروفةِ كلِّها، وما عليها من مخلوقات ظاهرة وباطنة، وما في داخلها من مخبوء لا يعلمه إلا اللّه.

الموقع النَّحويُّ لجملة ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾:

اختلاف النَّبات والثِّمار في الألوان أعجوبةُ الخلق في كلِّ مكان

نُصب ﴿مُخْتَلِفًا﴾ على الحال، إمّا من (ما)، أو من مفعول ﴿ذَرَأَ﴾، أو من المَنْوِيِّ في الظَّرف إنْ جعلته حالًا، و﴿أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾: مرتفع بقوله: ﴿مُخْتَلِفًا﴾ على الفاعليَّة؛ أيْ: مختلفًا هَيآتُه، أو أصنافه[1].

نكتة الفصل في سياق الآية الكريمة:

تأكيد ما سبق يضمن ترابط السِّياق وتلاحم المعاني

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، جاءت هذه الجملة مؤكِّدةٌ لمعاني ما سبقها في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، وهو سرُّ الفصل فيها.

غرض تتابعِ المُؤكِّدات في فاصلة الآية:

تتابع المُؤكِّدات دليلٌ على أهمِّيّة المُؤكَّد عليه ودوره في إيقاظ القلوبِ

اشتمل هذا التَّذييل على عددٍ من المؤكدات، هدفُها قَرْعُ الآذان لإيقاظ القلوبِ والعقول، ولإفاقتِها من داء الغفْلةِ عن ربِّهم تعالت أسماؤه الَّذي أغرقهم في النِّعم، ثمَّ هم يكفرونها ويكفرون به.

(1) الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 4/ 105.

وهذه المُؤكِّدات هي: إنَّ التَّوكيديَّة، والجملةُ الاسميَّة، والإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدّالَّة على علوِّ المُشار إليه بها، وتقديم شِبْه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، ودخولُ اللّام على اسم ﴿إِنَّ﴾ وهو قوله ﷻ: ﴿لَأٓيَةٗ﴾، والتَّعبيرُ بالمضارع ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ للحثِّ على مواصلة إشغال النَّفس بالتَّذكُّر، لِما قد عَرَضَ له النِّسيان من مواطن العِبَرِ، وموقِظات القلبِ، مع تكرّرُه لتحصيل النَّتائج وتحقيقِ المقاصد.

نكتةُ تقديم شِبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

فيما ذكـرَ من نِـعَمٍ كفاية لمن يتذكر

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ قُدِّم شِبهُ الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ للاهتمام وإفادةِ القصرِ على معنى: في هذه الآيات، على وجهِ الخصوص دون غيرِها من الآيات.

معنى اللّام في: ﴿لَأٓيَةٗ﴾:

إفـادة تـوكيـد الذّكرى من الآية

اللّام في قوله ﷻ: ﴿لَأٓيَةٗ﴾ في نهاية الآية الكريمة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾، هي لام الابتداء الّتي تدخل على المبتدأ، وتُفيد التَّوكيد.

نكتة تنكير لفظ ﴿لَأٓيَةٗ﴾ في السِّياق:

كلُّ آيةٍ منظورة هـي حـكـمـةٌ في الكون مأثورة

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ نُكِّر لفظ ﴿لَأٓيَةٗ﴾ تفخيمًا وتعظيمًا، وذلك لأهمِّيّة ما تدلُّ عليه، وهو الدَّلالة على توحيد واهبِ النِّعم ﷻ.

نكتةُ الإفراد في: ﴿لَأٓيَةٗ﴾:

اختلاف الألـوان آيــةٌ مستقلّة دالّـة على قـدرة الدّيّان

وإنَّما عاد هنا إلى إفراد ﴿لَأٓيَةٗ﴾، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾، للدَّلالة على كون اختلافِ الألوان هو آية مستقلَّة عن أصل الخَلق، فلِاختلافِ الألوان، مع اتِّحاد أصل الذَّرء أُفردت الآية[1].

وقيل: إنَّ التَّغاير في هذا وما قبلَه وما بعدَه، تفنُّنٌ في التَّعبير،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 117.

وذلك دفعًا للثِّقل، وإشارةً إلى أنَّ مَن اتَّصف بواحدٍ منها، فقد اتَّصف بجميعها[1].

معنى اللّام في شِبه الجملة ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

تصدير الجملة بلام التَّعليل موفٍ بالمعنى النَّبيل

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ اللّام في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ هي لامُ التَّعليل، ويُطلق عليها أحيانًا: لامَ الأجْل[2]؛ أيْ: لأجْل هؤلاء القومِ الَّذين يتذكَّرون.

فائدة تنكير ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

لا يتذكَّر الأوامر السَّنيَّة إلّا أصحابُ القلوب الحيَّة

وفي تنكير لفظ (قوم) في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ في الآية الكريمة مدحٌ لهم، وتفخيمٌ لشأنهم؛ لكونهم يذَّكَّرون دومًا ما اعتراه النِّسيانُ من عظائم الأمور بحكم تعاقب الأيام وتناوب الليل والنهار.

فائدة مجيءِ لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

التَّعبير بلفظ (قوم) يدلُّ على أنَّ الوصف سجيَّة فيهم

وذَكَرَ لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ دون أن يُقال للَّذين يذَّكَّرون أو للمُذَّكِّرين؛ لأنَّ إجراء الوصف على لفظ قوم يومِئُ إلى أنَّ ذلك الوصفَ سجيَّة فيهم، وأنَّه من مُكمِّلات قوميَّتِهم[3].

نكتة ختم الآية بقوله: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾:

التَّعبير بالتَّذَكُّر يشير إلى وجود علمٍ سابق بموضوع التَّذَكُّر

ختم المولى ﷻ الآية الكريمة بقوله: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾، ومعناه الاعتبار والاتِّعاظ؛ للدَّلالة على وجود علمٍ بذلك سابق طَرَأ عليه النِّسيانُ، فقيل: يذَّكَّرون أي: يتذكَّرون ما نسوا من تَسْخير هذه المكوناتِ في الأرض[4]، وقيل في سرِّ ختمِها هذه الآية بالتَّذكُّر، هو أنَّها سيقت كالفَذْلَكَةِ - النَّتيجة - لِما قبلها[5].

---

(1) الصّاويُّ، حاشية الصّاويّ على الجلالَيْن: 2/ 285.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/ 144.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 89.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 513.
(5) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 316.

إفادة تجدُّد التَّذَكُّر واستمراره، إحرازًا لفوائده

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾:

وفائدة التَّعبير بالمضارع في ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ إفادةُ التَّجدُّد والاستمرار في الإفادة من نعمة العقلِ في التَّذكُّر والتَّدبُّر والتَّأمُّل والعمل على إدراك الغايات، ولِحَثِّ هؤلاء على بذل الوسعِ في المداومة على هذه النِّعمة العظمى؛ وفي تكرار التَّأمُّل مراتٍ ومرات لأنَّ تكرارَه وخصوصًا مع مَن هو كَلِف به يساعدُ على الوصول إلى فرائدِ المعاني، فالخيرُ كلُّ الخير في المداومة عليه.

كما أنَّ فيه حضًّا لِمَن أهملوا نعمةَ التَّذكُّر والمراجعة للنَّفس، أن يتداركوا ما فاتَهم من إهمالها، ليُحَصِّلوا غاياتِها وفوائدها.

وفيه كذلك تعريضٌ بالمشركين الَّذين لم يهتدوا بما في هذه الآيات من دلائلَ واضحاتٍ على تَفَرُّد الله بالإلهيَّة؛ بأنَّهم قوم لا يذَّكَّرون ولا يراجعون أنفسَهم ليتداركوا أخطاءَهم.

تمام المُناسَبَة بين كلِّ فاصلة من المذكور وآيتها

علَّة تباينِ الفواصل الثّلاث المتعاقبة:

رغم أنَّ ما ذُكر في طَيِّ الآيات السّابقة هي دلائلُ قدرةٍ، يندمج فيها الامتنانُ والإنعام، لكنَّ اللافت أنَّ كلَّ آيةٍ منها اختصَّت بفاصلة غيرِ الأخرى، وهذا في الفواصل القرآنيَّة شأنٌ معهود، ففواصلُ الآيات القرآنيَّة هي نتائجُ لآياتها، بحيث ترى كلَّ فاصلة منها هي المُهَيَّأة المُمَكَّنَة في مكانها، القارَّة في قرارها، فلا تغني عنها غيرُها وإن قاربتْها في الدَّلالة، أو اشتركت معها في عموم المعنى.

وهذه هي الآياتُ الثَّلاث معروضةٌ للنَّظر في اختلاف فواصلها:

قال تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ
وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ
وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وتفصيل ذلك أنَّه في آية ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، وهي تتحدَّث عن دلائلَ أرضيَّةٍ جعل الفاصلةَ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ ما على الأرض مُشاهَدٌ مرئيٌّ، وأماراتُه ظاهرة، فيكفي فيه التَّفكُّرُ لأجل شكرِ اللّه على نعمائه.

فلما انتقل إلى الدَّلائل السَّماويَّة جعل الفاصلة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ ما في السَّماء لِبُعْدِه وخفائِه، فإنَّه يحتاج إلى ما هو أعلى من التّفكُّر، وهو إعمالُ العقل اللَّبيب، لإدراك حكمةِ اللّه في نعمائه.

وأمّا فاصلة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾، فقد جاءت بعد التَّفكُّر والتَّعقُّل لِمَن نسي نتائجَهما الّتي توصَّل إليهما من قبلُ، قال ابنُ عرفةَ: ذهب بعض الحكماءِ إلى أنَّ العلوم كلَّها تذكُّريَّة، وأنَّ النُّفوس كانت عالمةً بكلِّ علم، فلما خالطتِ الأبدانَ ذهب عنها ذلك، فكلُّ ما تعَلَمُه إنَّما هو تذكُّرُ كلِّ ما كان وذهب، ومذهبُ الجمهور أنَّ أكثرَها تفكُّرٌ وبعضَها تذكُّر؛ فالتَّفكُّر لِما لم يعلمه، والتَّذكُّر لِما علمه ونسِيَه، فلذلك جعله ثالثًا[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ذرأ، وخلق، وأنشأ، وجعل:

التَّعبير بالذَّرْء في الآيـة هـو الأنسب والأدلُّ على غرضها

الخلقُ في اللُّغَة: التَّقْدِيرُ، يُقال: خلقتُ الأدِيم إذا قدَّرتَه[2]، ويُستعمل في إبداع الشَّيءِ من غير أصلٍ ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]؛ أيِّ: أبدعهما، بدلالة قولِه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، ويُستعمل في إيجاد الشَّيءِ من الشَّيءِ، نحو قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: 1]، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [النّحل: 4]، وليس الخَلْقُ الَّذي هو الإبداع إلّا للّه تعالى، ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النّحل: 17]، وأصلُ الذَّرء: الإظْهارُ،

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 2/ 344، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 10.

(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 136.

ومعنى ذَرَأ اللّه الخلقَ: أظْهَرَهم بالإيجاد بعد العَدَم، ومِنْه قيل للبياض: الذَّرأة لظُهوره وشُهرته، ومِلحٌ ذُرْآنيّ لبياضه(1).

والإنْشاءُ: إيجادُ الشَّيءِ وتربيتُهُ، وأكثرُ ما يُقال ذلك في الحَيَوانِ، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [المُلك: 23]، وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النَّجم: 32]، وقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون: 31](2).

والجَعْل: لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائر أخواتِها، في إيجاد شيءٍ من شيءٍ وتكوينِه منه، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النَّحل: 72]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النَّحل: 81] وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزُّخرف: 10](3).

وبعد هذا العرضِ تظهرُ لنا الفروقُ الدَّقيقة بين هذه المُفرداتِ الأربع، فالخَلْقُ إنَّما هو الإيجادُ والإبداع على غير مثالٍ سابق، ولذلك لا يخلقُ إلّا اللّهُ، أمّا الذَّرء فهو إظهارُ ما خَلَقَ اللّه، وذلك بإيجادِه وإبراز كونِه من خَلْقِ اللّه وإبداعه، وأمّا الإنشاءُ فيكاد يكون خاصًّا بالكائن الحيِّ كما وردت الآياتُ بالحديث عنه في خَلْقِ الإنسان، أمّا الجَعْل فهو تعبيرٌ عامٌّ يُمكن إيقاعُه على كلِّ الأفعال، فلا تبقى له خصوصيَّةٌ.

ومن هنا نعلم أنَّ التَّعبير بالذَّرْء في الآية هو الأنْسبُ، لأنَّ الحديث عن إظهار وإبراز قدرةِ اللّه ﷻ بتعدُّد الألوان فيما خَلَقَه من نباتٍ وغيره، مِمّا يخرج من الأرض، وهذا معنًى لا يؤدّيه بتمامِه إلا الفعل ﴿ذَرَأَ﴾.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 138.

(2) الرّاغب، المُفردات: (أنشأ).

(3) الرّاغب، المُفردات: (جعل)، والكفويُّ، الكليّات، ص: 347.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾ [النحل: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من عجائب القدرة وجليل الامتنان، تسخيرُ البحرِ وما فيه للإنسان

بعد أن ذكر اللّهُ تعالى - فيما مضى - دلائلَ قدرته المكتنِفة نِعَمِه المخلوقةِ لعباده والمسخَّرةِ لهم، وكان قد احْتَجَّ على إثبات الإله في المرتبةِ الأولى بأجْرام السَّماوات، وفي المرتبةِ الثّانية ببَدَنِ الإنسان ونَفْسِه، وفي المرتبة الثّالثة بعجائب خِلْقَةِ الحيوانات، وفي المرتبة الرّابعة بعجائب طبائع النَّبات، ذكر في المرتبة الخامسة الاستدلالَ على وجود الصّانعِ بعجائب أحوالِ العناصر، فبَدَأ منها بالاستدلال بِعُنْصُرِ الماء[1].

ولأجْلِ هذا نصَّ في هذه الآية على ما هو من خصائصِ البحرِ من وجوهِ الانتفاع الَّتي لا توجد في غيره؛ مثل: (الدُّرِّ واللُّؤلؤِ والمَرجانِ والزَّبرْجدِ والياقوتِ)[2]، وفيها الأسماكُ الَّتي تُؤْكل "والحيواناتُ الَّتي لها من المقاديرِ والكيْفيّات، والأشكال والألوان البديعة التَّخطيط، الغريبةِ الصِّباغ ما هو أدلُّ"[3] على المطلوب فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَرِيّٗا﴾: أصل (طري) يَدُلُّ عَلَى غَضاضَةٍ وجِدَّة، فالطَّرِيُّ: الشَّيْءُ الغَضُّ، ومَصْدَرُهُ الطَّراوَةُ والطَّراءَةُ، ومِنْهُ أطْرَيْتُ فُلانًا، وذَلِكَ إذا مَدَحْتَهُ بِأحْسَنِ ما فِيهِ[4]، ومعنى ﴿لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾؛ أيَ: غضًّا جديدًا[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 187.
(2) الواحديُّ، التّفسير البسيط: 13/ 31.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 124.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طري).
(5) الرّاغب، المُفردات: (طري).

2) ﴿حِلۡيَةٗ﴾: يدلُّ (حلو) على أكثر من أصل؛ الأوَّلُ: طِيبُ الشَّيْءِ في مَيْلٍ مِنَ النَّفْسِ إِلَيْهِ، ومنه لفظ: الحُلْوُ، وهوَ خِلافُ المُرِّ. يُقالُ اسْتَحْلَيْتُ الشَّيْءَ، وقَدْ حَلا في فمِي يَحْلو، والثّاني: تَحْسِينُ الشَّيْءِ، ومنه لفظ: الحُلِيِّ، أي: حُلِيُّ المَرْأَةِ، وهوَ جَمعُ حَلْيٍ، كَما يُقالُ: ثَدْيٌ وثُدِيٌّ، وظَبْيٌ وظُبِيٌّ، وحَلَّيْتُ المَرْأَةَ، وهَذِهِ حِلْيَةُ الشَّيْءِ؛ أيْ: صِفَتُهُ[1]، والمُراد بالحِلْيَةِ في الآية: كلُّ ما يُتحلَّى به من الذَّهب والفضَّة وغيرها[2].

3) ﴿تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾: أصل (لبس) يَدُلُّ عَلَى مُخالَطَةٍ ومُداخَلَةٍ، فهذا هو الأَصْلُ، ومِنْهُ تَتَفَرَّعُ الفُروعُ، ومنه قولك: لَبِسْتُ الثَّوْبَ أَلْبَسُهُ، ولَبِسَ الثَّوب: اسْتَتَر به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾ [الكهف: 31]، واللِّباسُ واللَّبوسُ واللِّبْسُ ما يُلبس، وجُعل اللِّباس لكلِّ ما يغطِّي من الإنسان عن قبيح، فجعل الزَّوجَ لزوجه لباسًا من حيث إنَّه يمنعها ويصدُّها عن تعاطي القبيح، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187] واللَّبْسُ: اخْتِلاطُ الأمرِ؛ يُقالُ لَبَسْتُ عَلَيْهِ الأمرَ أَلْبِسُهُ بِكَسْرِها، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: 9][3]، والمُراد بقوله: ﴿حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾؛ أيْ: تَتَزيَّنون بها، كلِبْسِ التّاج، ولبس الخاتم[4] وحَلْيِ النِّساء.

4) ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾: أصل (فلك) يَدُلُّ عَلَى اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ، ومِنْ ذَلِكَ فَلْكَةُ المِغْزَلِ بِفَتْحِ الفاءِ، سُمِّيَتْ بذلك لِاسْتِدارَتِها، وأمّا السَّفِينَةُ فتُسَمَّى فُلْكًا، ولَعَلَّها تُسَمَّى فُلْكًا لِأنَّها تُدارُ في الماءِ، ويُقالُ: إنَّ الواحِدَ والجَمعَ في هَذا الِاسْمِ سَواءٌ[5] فيكون جمعًا ويكون واحدًا؛ فمن الأوَّل قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: 22] فأعاد ضميرَ الجمع على لفظٍ، ومن الثّاني قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩﴾ [الشّعراء: 119] فوصفه بالمُفرد، وهذا ممّا خرج عن القاعدة، فكان لفْظُ مفردِه كلفْظِ جمعِه، وهو جمع تكسيرٍ[6]، والفَلَكُ: مجرى الكواكب، وتسْميتُه بذلك لكونه كالفلك، قال تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلو).
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/ 302.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (لبس).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 119.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فلك).
(6) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (فلك).

﴿فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: 40][1]، والمراد بالفُلْك في الآية السُّفن الَّتي تجري في البحر للرُّكوب ولشحْن البضائع.

5) ﴿مَوَاخِرَ﴾: أصلُ (مخر) يدُلُّ على شَقٍّ وفَتح. يُقالُ: مَخَرَتِ السَّفينَةُ الماءَ مَخْرًا: شَقَّتْه، ويُقالُ: مَخَرْتُ الأرْضَ؛ أيْ: أرْسَلْتُ فيها الماءَ، ويُقالُ اسْتَمخَرْتُ الرِّيحَ؛ أي: اسْتَقْبَلْتُها بِأنْفِي[2]، ويُقال: سفينةٌ ماخِرة، والجمع: مَواخِر[3]، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾، ومعنى ﴿مَوَاخِرَ﴾: جواريَ في البحر تَشُقُّ الماءَ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللّه سبحانه وحده الَّذي ذلَّل لكم البحر، فمكَّنكم من ركوبه واستخراج ما فيه؛ لتأكلوا مما تصطادون من سمكه لحمًا غَضًّا لينًا، وتستخرجوا منه زينة مثل اللؤلؤ والمرجان؛ تلبسونها أنتم أيَّها الرِّجال كلبس الخاتم والتّاج للملوك والسَّلاطين، وتلبسها أيضًا نساؤكم لتتزيَّن لكم بها.

من نِعَمِ الله تسخيرُ البحر بالسُّفن والخيراتِ

كما أنَّ من هذه الدَّلائل أنَّك ترى السُّفن تشقُّ عُباب البحرِ لتركبوا عليها أنتم وأثقالُكم، دون أن يُغرقَها الماء، وما أمسكَها عن الغرق إلّا اللّهُ، كذلك سخَّره اللّه لكم لتنتفعوا بما فيه، وتطلبوا من فضل اللّه الرِّزق عن طريق التِّجارة وغيرها، ورجاءَ أن تشكروا اللّهَ على ما أنعم به عليكم، وتفرِدوه بالعبادة[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطف الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾:

بيانُ إظهار المنَّة، بما أفاء الله من نعمة

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾،

(1) الرّاغب، المُفردات: (فلك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مخر).
(3) الرّاغب، المُفردات: (مخر).
(4) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 268، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 386.

معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[1]، عطفَ جملةٍ على جملة، بجامع إظهارِ المِنَّة مع القدرة في الآيتَيْن.

بلاغة الإدماج في الامتنان:

دمجُ الأغراض بعضُها ببعض مُنبئٌ عن المعنى المُستفاد

في الآية بلاغةُ الإدماج حيث أَدْمَجَ النِّعمَ الكثيرة تحت غطاءِ تسخيرِ البحر، كما أنَّ هناك غرضًا أعظمَ يلْتَحِفُ هذا كلَّه، وهو الدَّلالة على التَّوحيد وطلاقةِ القُدْرة.

بلاغة القصر في تعريف طَرَفي الإسناد:

لا يقْدِرُ على تسخير البحر إلّا الله

وفي تعريف طرفي الإسناد؛ أي: المُسنَد إليه والمُسنَد، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ﴾، دلالةٌ على القصر، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ، والغرضُ من هذا القصرِ التَّأكيدُ على أنَّ المُسخِّر للبحر هو اللّهُ وحدَه لا غيره.

غرَضُ التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِه:

اختصاصُه تعالى بتسخير المخلوقات، لأنَّه وحدَه القادر على ذلك

وفي التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ مع صلته دلالة على اختصاصه سبحانه بنعمة التَّسخير للمخلوقات ومنها البحرُ، فهو وحدَه صاحبُ السُّلطانِ على هذا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه سبحانه هو الَّذي ذلَّل البحرَ لمنافعهم، وليس صيدُهم هو الَّذي مكَّنهم، بل تسخيرُ اللّه البحرَ لهم كان نعمةً لهم وتمكينًا من نفعِهم[2].

سرُّ التَّعبير بالماضي في ﴿سَخَّرَ﴾:

التَّعبير عمّا قضى الله في الماضي بصيغة الفعل الماضي أولى وأنسب

جاء التَّعبير بـ﴿سَخَّرَ﴾ بصيغة الماضي، وليس المضارع، مع أنَّ البحر لا يزالُ مُسخَّرًا؛ وذلك لأنَّ التَّسخيرَ سُنَّةٌ قد قضاها اللّه، فهي ماضيةٌ ثابتة لا تَتَجدَّد، كما هو الحال في تسخير الشَّمس والقمر واللَّيل والنَّهار، فكان التَّعبيرُ بالماضي هو الأنْسبُ والألْيَقُ.

---

(1) الخرّاط، المُجتَبى من مُشكِل إعراب القرآن: 2/ 572.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4143.

بلاغة المجاز في: ﴿سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾:

وإسناد التَّسخيرِ إلى البحر على سبيل المجازِ، حيثُ استعار التَّسخير للتَّكوين، واشتقَّ منه (سخَّر) على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة[1]؛ "لأنَّ الجماد ليس له تسخيرٌ حقيقةً؛ لكنَّ التَّسخير من لوازمه[2]، ومعنى تسخيره: جَعْلُهُ بحيث يُتمكَّنُ من الانتفاع به بالرُّكوب عليه، والغَوْصِ فيه، والصَّيدِ منه[3].

تسخيرُ البحر آيةٌ كريمة من مظاهر قدرة الله العظيمة

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ جاءت (أل) في ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ جنسيَّة، إذِ المُرادُ جنْس البحر، بما يشمل العذْبَ والملح[4].

المراد جنس البحر ليشمل العذب والمالح

معنى اللّام في الجملة ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ نجد أنَّ اللّام هنا هي لامُ التَّعليل الَّتي يُقال لها: لام (كي)؛ أيّ: لأجل أن تأكلوا ﴿لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ سخَّر لكم البحر الّذي يزخر بأنواع المخلوقات البحرية.

الأكل علَّة من عِلَلٍ شتَّى، لتسخير البحر الزَّخّار

معنى (من) في شِبه الجملة ﴿مِنۡهُ﴾:

(من) في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾: ابتدائيَّة، والمعنى: أيّ: لتأكلوا لحمًا طريًّا صادرًا من البحر[5]؛ فما يُستخرج من البحر حيًّا كان أو مَيِّتًا حلالٌ أكلُه باتِّفاق الفقهاء.

ما يُستخرج من البحر حيًّا أو مَيْتًا حلالٌ أكلُه باتِّفاق الفقهاء

نكتة تقديم شِبْه الجملة ﴿مِنۡهُ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ قُدِّم شبه الجملة ﴿مِنۡهُ﴾ على قوله تعالى: ﴿لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾، وذلك لإفادةِ الاختصاصِ والحصر، فالسَّمك لا يُؤكل إلّا من البحر.

تقديم شِبْه الجملة مفيدٌ للاختصاص والحصْر

---

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 5/ 255.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 138.
(3) الجمل، حاشية الجمل على الجلالَيْن: 4/ 211.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 354، والصّاويُّ، حاشية الصّاويِّ على الجلالَيْن: 2/ 285.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 119.

سرُّ إطلاق لفظ ﴿لَحۡمٗا﴾ على السّمك:

السّمكُ يُنتفع بلحمه فقط

آثر الذِّكر الحكيم التعبير باللّحم في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ عن السّمك مع كونه حيوانًا، للتّلويح بانحصار الانتفاعِ به في الأكل[1]، قال الإمام القرطبيّ: "سَمّاهُ هنا لحمًا، واللُّحومُ عند مالِكٍ ثلاثةُ أجناسٍ: فلحمُ ذَواتِ الأربعِ جِنسٌ، ولحمُ ذواتِ الرِّيشِ جنسٌ، ولحمُ ذواتِ الماءِ جنسٌ"[2].

نكتة التّنكير في: ﴿لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾:

تفخيم شأن لحم السّمك لما له من فائدة صحّيّة وغذائيّة

نَكَّر ﷻ لفظَ اللَّحم في قوله: ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾؛ فقال: ﴿لَحۡمٗا﴾ تفخيمًا ومدحًا، يقول البقاعي: "لا تَجِدُ أَنْعَمَ مِنهُ؛ ولا أَلْيَنَ؛ وهو أَرْطَبُ اللُّحوم؛ فيُسْرِعُ إِلَيْهِ الفَسادُ؛ فيُبادَرُ إلى أكْلِهِ عَذْبًا لَذيذًا؛ مَعَ نَشْبِهِ في مِلْحٍ زُعاقٍ"[3].

فائدة وصف اللّحم بالوصف ﴿طَرِيّٗا﴾:

ووصفُه بالطَّراوة للإشعار بلطافته، والتَّنبيهِ على وجوب المسارعةِ إلى أكْلِه؛ كَيْلا يتسارعَ إليه الفسادُ، كما يُنبئُ عنه جعلُ البحرِ مُبتدأَ أكْلِه، وللإيذان بكمال قدرته تعالى في خَلْقِه عذبًا طريًّا في ماء زعاق[4].

دلالة التّعبير بـ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ﴾ مادّةً وصياغةً:

استعمال المضارع يتناسب مع التّجدُّد باطّراد

في قوله تعالى: ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾، الاستخراجُ: كثرة الإخراج، وعبَّر به السياق الحكيم مضارعًا، لكونه حاصلًا باستمرار، ومُتكرِّرًا ومُتجدِّدًا، وهو ما يُناسب ديمومة الأمر.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 103.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 85.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 124.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 103.

نكتة مجيء السِّين والتّاء في ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ﴾:

آثر السّياق الكريم عدم التّعبير بقوله: (وتُخرجوا)، فزاد السِّين والتّاء: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ﴾ للدلالة على كَثْرَة الإِخْراجِ، فالسين والتاء للتأكيد؛ مثل: استجاب لمعنى أجاب[1]، ومعلوم أنّه في زيادة المبنى زيادة المعنى كما قال البلاغيّون.

الحِلْيَة الَّتي تُستخرج من البحر، هي اللُّؤلؤ والمرجان

نكتة حذف اللّام في ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ معطوفٌ على جملة ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾، وهي مشتركةٌ معها في الحُكْم، ولذا لم يُعِدْ معها حرف التَّعليل على نحو (ولتستخرجوا) لاستغناء المقام عن ذلك[2].

الاستغناء عند عدم اللُّزوم من فصيح البيان

معنى (من) وعلّة تقديمها في: ﴿مِنۡهُ﴾:

(من) هنا ابتدائيَّةٌ كسابقتِها، بالنَّظر إلى جنس البحرِ، وتكون تبعيضيَّةً حالَ اسْتَثْنَيْنا (العذْب)؛ لأنَّ الجواهر إنَّما تُستخرج من (المِلح) فقط[3]، وقدَّم شِبْه الجملة ﴿مِنۡهُ﴾، لإفادة الاهتمام بِما يُستخرج من الحُلِيِّ من البحر.

بيان أنّ الجواهرَ تُستخرج من البحر المالح لا من العَذْب

نكتة تنكير ﴿حِلۡيَةٗ﴾ ووصفها:

نكَّر ﷻ ﴿حِلۡيَةٗ﴾ تفخيمًا لشأنها؛ لأنَّ هذه الحِلْية ما زالت أعلى مراتبِ ما يرْغَبُه البشرُ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، والموقعُ الإعرابيُّ لقوله تعالى: ﴿تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ جملة فعليَّة، وهي صفةٌ لِلَفظ ﴿حِلۡيَةٗ﴾.

الحِليَةُ أغلى ما يرغبه البشرُ ويحوزونه في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

نكتةُ إسناد ﴿تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

يجوز أن يكون قد أُسند لُبس الحُلِيِّ إلى جمع الرِّجال تغليبًا، فإنَّ أصل الحِلية تلبسُها النِّساء عدا الخواتيمِ وحِلْية السِّيوف[4]

بيانُ مفاد الجملة على الحقيقة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 119.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 513.

(3) السّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 10/ 164، وابن جُزيٍّ، التَّسهيل: 2/ 173، والسّيوطيّ والمحليّ، تفسير الجلالَيْن، ص: 710.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 119.

وتاج الملك، ونحو ذلك مِمّا يتحلّى به الرِّجال، وحينئذٍ يكون التَّعبيرُ حقيقيًّا، وأنَّ التَّذكير للتَّغليب، ولا يكون ثمَّة مجازٌ.

احتمال المجاز العقليّ

حيث أسند ﷺ الفعلَ ﴿تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ إلى غير ما هو له وهو جمعُ المُذكَّر، مع قرينةٍ مانعةٍ من حقيقة هذا الإسنادِ لكون لُبسِ الحُلِيِّ إنَّما هو من خصائص النِّساء؛ أي إنَّ المعنى: تلبسُها نساؤكم.

ونكتة العدول هي أنَّ اللائق بالنِّساء إخفاءُ الزِّينة عن غير المحارمِ، فأخفى التَّصريح به، وأسند إلَى غير ما هوَ له تنبيهًا على ذلك، وعلى أنَّ لِبَسَهنَّ مثلُ لباسهم في عدم ترتُّب المفسدةِ[1].

احتمال الاستعارة التّبعيّة

وذلك بأن يكون الفعلُ (تلبَسون) استعارةً تبعيَّة للفعل (تتمتّعون) أو (تستلذّون)، إمّا بالحُليِّ نفسِها عن طريق اقتنائِها، أو بإلباس النِّساء فتحصل المتعةُ برؤيتها عليهِنَّ، والجامع مُطَلَقُ التَّمتُّع[2].

احتمال المجاز المُرسَل

بأن يكون أطلق اللُّبسَ وأراد التَّمتُّعَ بعلاقة اللُّزوم؛ لأنَّ التَّمتُّع لازم للّبس[3].

معنى الواو في ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ﴾:

الجملة الاعتراضيّة لها دور في الإبانة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ﴾ هي الواو الاعتراضيَّة، وليست العاطفة[4]، والواو الاعتراضية هي التي تأتي في أوّل الجملة المعترضة التّي لا محلّ لها من الإعراب، وقد أتت الجملة بعد قوله تعالى: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾.

دلالة جملة ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ﴾:

إبراز ما دلّت عليه الجملةُ من قدرة الله على جعل الفُلْك تَمخُر البحار

سبق القولُ: إنَّ الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ﴾ اعتراضيَّةٌ وليست عاطفة، والجملة على هذا معترِضةٌ[5] لا محلَّ لها من

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 240.
(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 317، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 240.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 240.
(4) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 131.
(5) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 7/ 131.

الإعراب، ويُرجِّحُ كونَها معترِضةً، وليست معطوفةً أنَّها خطابٌ لمفرد ﴿وَتَرَى﴾ وقع بين خطابيْن لجمعٍ، وهُما قوله: ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ وما عُطف عليه، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾[1]، أو بين قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ﴾ وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾[2]، والغرضُ من هذا الاعتراض، هو الإبرازُ والاهتمام لِما دلَّت عليه الجملةُ المعترِضة من عظيم قدرة اللّهِ ونعمتِه في جَعْلِ الفلْك تمخُر في البحر؛ لتؤدِّي منافعَ عظيمةً للمُنْعَم عليهم، وأيضًا "لتمهيد مبادئ الابتغاءِ، ودفعِ توهُّم كونِه باستخراج الحِلية"[3]؛ وعلى هذا فهي مفصولةٌ عمّا قبلَها.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾:

المُشار إليه دلالة سائر أنواع الفلك

في قوله ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ نجد أنَّ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ هي اللّام الجنسيّة، لتشملَ سائرَ أصنافِ جنس الاسم المُعرَّف وهو (الفلك).

الموقع النَّحويُّ، لقوله: ﴿مَوَاخِرَ﴾:

قولُه سبحانه: ﴿مَوَاخِرَ﴾ منصوبٌ على الحال من ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ لا أنَّه مفعول ثانٍ لـ ﴿وَتَرَى﴾ كما زعم بعضُهم؛ لأنَّ ﴿وَتَرَى﴾ هنا من رؤْية العين، لا من رؤْية القلب[4] الَّتي تكون بمعنى (عَلِمَ) فتنصب مفعوليْن.

نكتةُ الجمع لِلَفْظ ﴿مَوَاخِرَ﴾:

الفُلْكُ يُطلَق على المُفرد والجمع

والسِّرُّ في جمع ﴿مَوَاخِرَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ هو الدَّلالة على أنَّ المُراد بـ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ الجمع لا المُفرد؛ لأنَّ لفظَ الفُلْك يُطلَق على المُفرد والجمع كما مضى ذِكْرُه في المُفردات.

دلالة (في) في قوله ﴿فِيهِ﴾:

بلاغة الاستعارة التَّبعيَّة في الحرف

الحرفُ (في) يدلُّ على الظَّرفيَّة المجازيَّة، فقد استُعيرت (في)

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 5/ 256.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 513.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 103.
(4) الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 4/ 106.

لـ (على)، والأصلُ أن يقول: (مواخرَ عليه)، وغرضُ الاستعارة التَّبعيَّة، هو الدَّلالةُ على استقرار الفُلْك في البحر، وتمكُّنِها تمكُّنَ كلٍّ من المظروف والظَّرف من الآخر، أو يُقال: إنَّ كلمة ﴿مَوَاخِرَ﴾ متضمَّنة معنى الاستقرار والتَّمكُّن.

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾:

ابتغاء الرِّزق من النِّعم الَّتي نشأتْ عن حكمة الله في تسخير البحر

الواو عاطفة، والمعطوف عليه إمّا قوله: ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾[1]، أو قوله: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ﴾، وغرضُ عطف ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ على ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ﴾ ليكونَ من جملة النِّعم الَّتي نشأتْ عن حكمة تسخيرِ البحر[2].

نكتةُ إعادة اللّام في ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾:

إعادةُ الحرف للبُعدِ بسبب الجملة المعترضة

أُعيد حرفُ التَّعليل (اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، وعُدِل فيه عن حذف لام التّعليل، فلم يأت الذِّكر الحكيم على نحو (وتبتغوا من فضله)، لأجل البُعْدِ بسبب الجملةِ المعترِضة[3].

نكتة حذف متعلّق ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾:

الحذف لأحد عناصر الجملة يفيد الاختصارَ والعموم

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾ ينبو المقامُ عن تفصيلِ المنافِع المُبْتغاة، من تسخير البحرِ؛ لأنَّها كثيرةٌ جدًّا، فلا يناسب أنْ تعدِّد، وأن تُفصَّل هذا السِّياق.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾:

فضل العظيم عظيمٌ ولا يمكن الإحاطةُ به

(مِن) في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ تبعيضيَّة؛ لأنَّ ما يبتغيه العبدُ ويتحصَّل عليه في حياته هو بعضُ فضلِ اللّه لا كلُّه، فخيرات اللّه تعالى أكثر من أنْ يتحصّل عليها عبد من عباد اللّه مهما بلغت مكانته.

---

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 5/ 256.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 513، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 103، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 120.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 120.

معنى الواو في ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

الواو عاطفةٌ؛ عطفت جملةَ: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، على بقيَّة العللِ الَّتي في الجمل السّابقة، وعطفَ الذِّكر الحكيم الشُّكرَ على العلل السّابقة ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾، ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ﴾، ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾؛ لأنَّه من الحِكَم الّتي سخَّر اللّه بها البحرَ للنّاس؛ حَملًا لهم على الاعتراف للّه بالعبوديَّة، ونبذهم إشراكَ غيرِه معه فيها، كما أنَّ فيه تعريضًا بالَّذين أشركوا[1]؛ بأنَّهم لا يشكرون.

عطفُ العلَّةِ على العلَّة، يكمل ملامح المعنى

نكتة التَّعبير بحرف الرَّجاء (لَعَلَّ):

معروف أنَّ (لَعَلَّ) معناها الرَّجاء، وهذا من النّاس معروفٌ، لكنَّ السُّؤال: كيف يُنسب الرَّجاءُ إلى اللّه تعالى، والشَّأنُ فيه أن يكون من الأدْنى للأعلى؟ ولأهل العلمِ في هذا أجوبةٌ منها:

معنى التَّرجِّي منسوبًا إلى الله تعالى وتوجيهه

الأوَّل: أنَّ (لَعَلَّ) على بابها من التَّرجِّي، ولكنْ بالنِّسبةِ إلى المخاطَبين، ومَن في حيِّزهم؛ أيْ: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ على رجائِكم وطمعِكم، يعني أنَّها للإخبار بأنَّ المخاطَبَ يكون مرجوًّا.

الثّاني: أنَّها للتَّعليل، والمعنى: لكي تشكروا.

الثّالث: أنَّها للإطماع، كما تقول للقاصد: لعلَّك تنال بُغْيتَك[2] تُطمِّعه في ذلك وتستحثُّه على بذل الجُهد في الطَّلب.

نكتة اختصاص الآية، بالفاصلة ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

وفي تخصيص هذه الآية بفاصلةِ الشُّكر، دلالةٌ بأنَّ ما تضمَّنته من نِعَم مسخَّرةٍ أقوى في باب الإنعام؛ إذ إنَّ ركوب البحر مظنَّةُ الهلاك؛ لأنَّهم كما قال عمرو ﷺ: "دودٌ على عودٍ"، وهو من كمال النِّعمة لقطع المسافةِ البعيدة في زمن يسيرٍ قريب، مع عدم الاحتياج إلى الحِلِّ والتِّرحال كما في البرِّ، ولا إلى الاستراحة والسُّكون، وللّه دَرُّ القائل:

النِّعم في هذه الآية أقوى في باب الإنعام من غيرها، ولذا اختُصّت بفاصلة الشُّكر

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 120.

(2) السّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 1/ 189، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 329.

وَإِنّا لَفِي الدُّنْيا كَرَكْبِ سَفِينَةٍ *** نُظَنُّ وُقوفًا والزَّمانُ بِنا يَسْرِي[1]

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

مدح مَن يشكرون والتَّعريض بمَن لا يشكرون

في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ آثر النّظم الحكيم التَّعبير بالمضارع، للحثّ على استمرار الشُّكر وتجدُّده، والحرصِ على المداومة عليه، كما أنَّ فيه مدحًا لِمَن يشكرون، وتعريضًا بمَن لا يشكرون.

بلاغة المتشابِه اللَّفظيّ:

الاتفاق والافتراق بين آيَتَي النَّحل وفاطر

يظهرُ التَّشابه بصورة ملحوظةٍ بين آيَتَي النَّحل وفاطر في هذيْن الموضعيْن: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [فاطر: 12]، حيث صُدِّر الموضعان بنفس جُملةِ الخطاب: ﴿وَتَرَى﴾ بتوحيدِ الخطابِ فيهما محصورًا بين جمعيْن[2] اعتراضًا؛ لكون هذا الاعتراضِ جاريًا مجْرى المثل، ثمَّ انتهَيَتا بجملة الغايةِ نفسِها: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [فاطر: 12] مع فرق زيادةِ واو العطف في آية النَّحل ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

وفَرْقٌ آخرُ في جملة الوسطِ حيث جاءت ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ في آية النَّحل، و﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: 12] في آية فاطر.

فأمّا قولُه في النَّحل: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ فقد جاءَ على القياس؛ فإن ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ المَفْعولُ الأوَّل لـ ﴿وَتَرَى﴾ و﴿مَوَاخِرَ﴾ المَفْعولُ الثّاني، و﴿فِيهِ﴾ ظرفٌ وحقُّه التَّأخُّر.

ومن دلالات مجيئه على الأصل هنا بيانُ قوَّةِ حكم الفعل الَّذي

---

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 318.

(2) آية النَّحل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النّحل: 14] فسُبقت فيها الجملةُ المعترضة ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ بجمع هو ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾ و﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ﴾، وأُتبعت بجمع هو ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾، وكذلك آية فاطر: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [فاطر: 12] فقد سُبقت الجملة المعترضة ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ بجمع هو ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾ و﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ﴾، وأُتبعت بجمع هو ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾.

اعتدَّ اللّه تعالى بذِكْره على عباده في هذه الآية؛ لأنّها مُصدَّرة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾[1].

كما يوجد وجهُ آخرُ من التّناسب في آية النَّحل يقتضي البناءَ على الأصل، وعدمَ المخالفة بالتّقديم والتّأخير، وهو أنَّ هذه الآية بُنيت على تأخير المجرورات عمّا تعلّقت به، وجرى الكلام جريًا واحدًا للتّناسب والتّشاكل، فقيل: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ﴾، ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ﴾، و﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ ولو خالف التّرتيب فقال كما في فاطر: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: 12] لَما ناسبَ ما تقدَّم مِمّا بُنيت الآية عليه[2]، وأمّا قولُه سبحانه في فاطر: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: 12]؛ فقدَّم الجارَّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾ [فاطر: 12] موافقةً لِما قبله، وهوَ قَوْله تعالى في الآية نفسها: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [فاطر: 12]، فوافَقَ تَقْديم الجارِّ والمَجْرور على الفِعْل والفاعِل.

وأمّا زيادةُ الواو في آية النَّحل ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دون فاطر: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: 12]؛ فلأنَّ ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ معطوفةٌ على لام العلَّة في قَوْله ﷻ قبله: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، وفي فاطر، لم يَزِد الواوَ على ﴿لِتَبْتَغُواْ﴾ [فاطر: 12]؛ لِأنَّ اللّام فِيها هي لام العلَّة، ولَيْسَ بعطفٍ على شَيْءٍ قبله[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الفُلْك والسَّفينة:

التَّعبير بالفُلْك أدلُّ على القدرة وعلى تحقيق الاستقرار في البحر من التَّعبير بالسَّفينة

الفلْك: لفظٌ يدلُّ على المُفرد وعلى الجمع، وهو يُطلق على السُّفن الّتي تمخُرُ عَباب البحر في استدارة[4] واستقرارٍ وثبات تمامًا كما

(1) الإسكافيُّ، درَّة التَّنزيل، ص: 833.
(2) الغرناطيُّ، مِلاك التَّأويل: 2/ 296.
(3) الكرمانيُّ، البرهان، ص: 158، والغرناطيُّ، مِلاك التَّأويل: 2/ 296.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فلك).

تمشي الدَّوابُّ في البرِّ والنُّجوم في السِّماء بِما هيَّأَهُ الله تعالى لكلٍّ منها من عوامل الاستقرارِ والاتِّزان في محلِّه الَّذي يسير فيه.

ويبدو أنَّ القرآن الكريم يربِط في التَّعبير بين الفُلْك وجريانِها في البحر واستقرارِها عليه، فنجدُ هذا التَّلازم واضحًا في عدد من الآيات، فمن الرَّبط بينهما بالجري وكونِ ذلك بأمر الله قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: 22] وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ﴾ [لقمان: 31] وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحجّ: 65].

ومن الرَّبط بينهما بالاستقرار والأمان، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: 28]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [يونس: 73]، فالآيةُ تدلُّ على أنَّ الفُلْك كوسيلةِ إنْجاءٍ هي مَحَلُّ أمانٍ نفسيٍّ وجسديٍّ لمَن يركبها وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، فلا شكَّ أنَّ ركوبَ البحر للانتفاع والترزُّق لا يكون إلّا مصحوبًا بالاستقرار والأمان، لأجل تحقيقِ الغرضِ، وهو ما يعبَّر عنه في هذه الآية تسخيرُ البحرِ ثمَّ ارتقاء الفُلْك.

وأمّا التَّعبير بالسَّفينة، فلم يَرِدِ التَّعبير بها في القرآن الكريم سوى ثلاثِ مرّات: منها مرَّتان في سورة الكهف، هما قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ﴾ [الكهف: 71]، وقوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79]، ومرّةً في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 14 - 15]، والسَّفينة مأخوذةٌ من السَّفَن، وهو تَنْحِيَةُ الشَّيءِ عن وجه الشَّيءِ كأنَّها تقشِّره، وكأنَّه سُمِّيت بذلك لأنَّها تسفُن الماءَ كأنَّها تقشُرُه[1].

فيبدو من خلال هذا العرضِ أنَّ القرآنَ الكريم، يُعبِّر بالفُلْك وهو أكثرُ التَّعبيريْن فيه؛ للدَّلالة على القدرة في تسخير البحرِ وتسخيرِ الفُلْك، وأيضًا للدَّلالة على كونِها مستقرًّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سفن).

للرُّكوب ولحَمل الأغراضِ للمنفعة وللتِّجارة بيانًا لوجه الإنعامِ فيها، ليكونَ ذلك طريقًا إلى الهداية إلى التَّوحيد ونبذِ الشِّرك.

وأمّا التَّعبير بالسَّفينة فلم تُلحَظ فيه هذه الأغراضُ بهذه القوَّة والاكتمال، ففي آيتَيِ الكهف كان الإخبارُ فقط عن ركوب السَّفينةِ ثمَّ عن كونها لمساكينَ، بما يوحي أنَّها لم تكنْ ضخمةً ولا فخمة، وفي آية العنكبوت لم يكنِ الغرضُ التَّدليل على التَّوحيد ولا طلاقةِ القدرة؛ بل كان مجرَّدَ إخبارٍ عن إنْجاءِ نوحٍ عليه السلام ومَن آمن معه.

وهذا يعني أنَّ التَّعبير بالفُلْك أقوى في الدَّلالة على طلاقة القدرةِ، وعلى إبراز الإنعامِ والفضلِ والتَّسخير، والتَّعبير بالسَّفينة أنْسبُ حين يخلو السِّياق من هذه الأغراضِ.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: 15 - 16]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

تمامُ النِّعَمِ في كمالِها واستقرارِها، ومعرفة حقّ الله فيها

لَمّا ذكر في الآياتِ السّابِقَةِ الامتِنانَ بِتَسْخيرِ الزَّمانِ بما خَلَقَ مِنْ حَرَكَةِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وما سَخَّرَهُ مِنَ النِّعَم في الأَرْضِ والبَحْرِ وما فيهما مِنْ عَطايا ومَنافِعَ، ناسَبَ أَنْ يَذْكُرَ بعد ذلك الامتنان بِالنِّعَم الظّاهِرَةِ على الأَرْضِ ومَدَى عَظَمَتِها وآثارِها في نَفْعِهِم ووِقايَتِهِم، وهي نِعْمَةُ الجِبالِ الرَّواسي، فلَوْلا هذه النِّعمة لَما ثَبَتَتْ نِعَمُ الأَرْضِ والبَحْرِ، ولما اسْتَقَرَّ حالُ البشر، فالمُناسَبَةُ هي الانْتِقالُ مِنْ ذِكْرِ النِّعَمِ المُتَنَوِّعَةِ، إلى ذِكْرِ تَثْبيتِ تِلْكَ النِّعَم، وهذا مِنْ تَتْميمِ الكَلامِ، وتَقْريرِ الحَقائِقِ، وتَحْقيقِ المعاني.

ويوجَدُ مُناسَبَةٌ أُخْرَى، وهو أنَّه لَمّا ذَكَرَ النِّعَمَ الزَّمانيَّةَ والأَرْضيَّةَ والبَحْريَّةَ، ناسَبَ أَنْ يَذْكُرَ في هذه الآياتِ السُّبُلَ والعَلاماتِ والنُّجومَ لِلاهْتِداءِ بها في الحَياةِ الدُّنْيا، وهو كذلك تَتْميمٌ بِذِكْرِ نِعَمٍ إِرْشاديَّةٍ، لِلْإِشارَةِ إلى غاياتِ تلك النِّعم، وهو الاهْتِداءُ إلى الدّينِ الحَقِّ، فمَنْ عَرَفَ نِعَمَ اللّهِ عليه؛ عَرَفَ حَقَّ اللّهِ عليه، فهذه النِّعَمُ أَدَقُّ وأَخْفَى ظُهورًا لَدَى عامَّةِ النّاسِ، بِخِلافِ النِّعَمِ السّابِقَةِ فهي أَظْهَرُ، ولذا تَرَقَّى الخطابُ في ذِكْرِ النِّعَمِ، وتَدَرَّجَ، فبَدَأَ بما يعرفُه عُمومُ النّاسِ، وانْتَهَى بما يَنْتَبِهُ لَهُ خُصوصُ النّاسِ، وهَذا مِنْ بَديعِ المُناسَباتِ في القُرْآنِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَميدَ﴾: المَيْد: هو تَحَرُّكُ الشَّيْءِ العَظيم واضْطِرابُهُ، ومادَ الشَّيْءُ: إذا تَحَرَّكَ مِنْ جانِبَيْهِ ومالَ يمينًا وشمالًا، ويُقالُ: المَيْدُ في

التَّحَرُّكِ الواسع، ولذا يَتَعَلَّقُ بالجسم المُترامي العظيم، والمُرادُ في الآيةِ: كَراهةُ أنْ تَضْطَرِبَ بِكُم وتميل[1].

2) ﴿وَسُبُلًا﴾: السُّبُلُ: جَمعُ السَّبيلِ، وهو الطَّريقُ الَّذي فيه سهولة، أيْ: خالٍ مِنَ الوُعورَةِ ومَشَقَّةِ السّيْر، وأصلُ (سُبُلٍ) يَدُلُّ على امتدادٍ في شَيْءٍ، ذلك أنَّ الامتِدادَ في الشَّيْءِ سُهولَةٌ فيه، والمُرادُ: وجَعَلَ فيها سُبُلًا أوْ شَقَّ فيها سُبُلًا[2].

3) ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾: جَمعُ عَلامَةٍ، وهي المَيْزَةُ المَنْصوبَةُ في الطَّريق، يَهْتَدي بها السّائِرُ في تَصْحيحِ سَيْرِهِ، وأصْلُها (عَلَمٌ) وهو يدلُّ على الأَثَرِ الظّاهِرِ بِالشَّيْءِ الَّذي يَتَمَيَّزُ به عن غَيْرِهِ، وسُمّيَتْ علامة؛ لأَنّ الاهْتِداءَ بها يوجب العِلْمَ بِالسَّبيلِ فلا يَضِلُّ مُجْتازُهُ وعابِرُهُ فيه، والمرادُ: العلاماتُ في الطُّرُقِ كالجِبالِ والأَعْمِدَةِ وغيرِها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعَمُ اللهِ معونةٌ علــى المـعـاش والمعاد

تُبَيِّنُ الآيةُ نعمةَ إلقاءِ الرَّواسي الشّامِخاتِ في الأرْضِ، وهي الجبالُ العَظيمَةُ؛ لِتَثْبيتِها وإرسائها حَتَّى لا تَميلَ فتَضْطَّرِبَ، ونِعْمَةُ شَقِّ الأَنْهارِ؛ لِيَشْرَبَ منها الخلقُ، ويَزْرَعونَ ويَسْقونَ، وجَعَلَ فيها طُرُقًا سَهْلَةً مُذَلَّلَةً؛ للهدايةِ إلى المَنافعِ والمَقاصِدِ المَعاشيَّة، والاسْتِدْلالِ بها على مَعْرِفَةِ الخالِقِ، وجَعَلَ في الأرْضِ مَعالِمَ يُهْتَدى بها في السَّيْرِ نَهارًا، وجَعَلَ النُّجومَ في السَّماءِ يُهْتَدى بها في اللَّيْلِ في البَرِّ وفي البَحْرِ، وهي نِعَمٌ تَحْتاجُ إلى نوعِ تَفَكُّرٍ وتَأَمُّلٍ، لَيْسَتْ كالنِّعَمِ السّابقة، فهي أَكْثَرُ ظُهورًا لعامَّة النّاسِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ميد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (علم).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في قوله ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

نِعَمُ اللهِ سابغةٌ على العبادِ ظاهرًا وباطِنًا

جُملةُ ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مَعْطوفَةٌ على جُملَةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾، فالواوُ لِلْعَطْفِ، ووَصَلَ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ بالعاطف، للانتقال مِنْ سياقِ الامتِنانِ بما في الماءِ والبَحْرِ مِنَ النِّعَمِ المُسَخَّرَةِ إلى سياقِ الامتِنانِ بما على اليابسةِ والأرْضِ مِنَ النِّعَمِ والعَطايا، وبَيْنَ الجُملَتَيْنِ مُقابَلَةٌ مَعْنَويَّةٌ على اعتبارِ أنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ حَديثٌ عَنِ الأغْوارِ الهابِطَةِ المُتوارِيَةِ، وقَوْلُهُ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ حَديثٌ عَنِ المُسَطَّحاتِ المَكْشوفَةِ المَرْئِيَّةِ[1].

سِرُّ إيثارِ مفردة الإلقاء على الخَلْق:

الإلقاءُ يوحي بأنَّ الجبال من خارج الأرض

آثَرَ النَّظْمُ ذِكْرَ إلْقاءِ الجِبالِ لا خَلْقَها في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾، وذَلِكَ أنَّ الخَلْقَ كان ابتداءً، وذِكْرُ الإلقاء يَتَضَمَّنُ الخَلْقَ والإيجادَ، ويَتَضَمَّنُ أنَّ الجِبالَ مِنْ خارِجِ الأرْضِ ليس مِنْها[2]، بِخِلافِ ما فيها مِنْ أنْهارٍ وسُبُلٍ، فإنْ قُلْنا: عَبَّرَ عَنِ الخَلْقِ بالإلْقاءِ، فمَحْمولٌ على المجاز، وإن قلنا اسْتَعْمَلَ الإلْقاءَ وأرادَهُ؛ لِيَتَضَمَّنَ الخَلْقَ مِنْ بابِ التَّنْبيهِ على البداية بالغاية، فمَحْمولٌ على الحقيقة، والحَملُ عَلَى الحقيقة مُقَدَّمٌ؛ لِأنَّهُ الأصْلُ، وهو هنا أبلغ؛ لِتَضَمُّنِهِ دِلالَةً أوْسَعَ.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

الاختصاصُ والقصرُ وتشويق المخاطَب

قَدَّمَ النَّظْمُ الكَريمُ الجارَّ والمَجْرورَ على المَفْعولِ في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾، وذلك للاختصاص والقصرِ، أي: ألقى في الأرض لا في غيرها، وهو الأوْجَهُ لاتِّفاقِ تَقَدُّمِ الجارِّ والمجرور في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 126، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 120، ومحمود صافي، الجدول: 14/ 293.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 384.

القرآن كلِّه على الرّواسي، كما أنَّه يُفيدُ التَّشويقَ، فإنَّ المخاطَبَ إذا سَمِعَ بأنَّه أُلقي في الأرضِ شيءٌ يتشوّقُ لمعرفة ماهيَّتِه.

بلاغةُ اسْتِعْمالِ حرف ﴿فِي﴾ دون (على):

العبرةُ بالحقيقةِ الواقعيّة لا بالمشاهدة البصريّة

جاء التّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة دون الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ فلم يَقُلْ: (على الأرض) والجبالُ الرّواسي مرئيّةٌ على الأرض لا في داخِل الأرض؛ وذلك للدّلالة على أنّ استعلاءها على سطح الأرض هو نتيجةٌ عن تواري امتدادها وأصولِها في باطن الأرضَ، فإلقاءُ الجبال - على الحقيقة - بدايتُه في الأرض، ونهايتُه على الأرض، فآخِرُ ما يَظهر من الجبال هو نهاياتُها الّتي تعلو الأرض، ولا يخفى ما في التّعبير بحرف الوعاء (الجرّ) ﴿فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ من الدّلالة على استحكام الجبال وغَوْصِها في أغوار الأرض، فكتلتُها الظّاهرةُ العظيمة ممسوكةٌ بكتلةٍ باطنة غائصة، ولذا كانت رواسيَ وأوتادًا تُعشَّقُ في داخل الأرض كما يُعشَّقُ الوتَدُ في داخل الشّيء الذي يُمسِكُه، فحرفُ الظَّرفيّة، جاء استعمالُه حقيقيًّا، فالجبال في الأرض لا عليها، والعبرة في الحقيقة الواقِعيَّةِ لا في المشاهدة البصريّة.

معنى التَّعريفِ في كلمةِ الأرض:

الجبالُ في مجموعِ الأرض لا في جميعِها

(ال) في الأرض لتعريف الجنس، والمراد هنا تعريف حقيقة الجنس، فالمرادُ حقيقة الأرضِ المعروفة في الأذهان، وليس المرادُ استغراقَ الأرض كلّها في إلقاء الرّواسي عليها[1]، وهو ما يُؤيِّده النَّظر في كامل الأرض، فإنَّ الجبالَ لا تستغرقُها، وإنَّما هي في مواضع دون أخرى، فالعبرة بكاملِها الكلّيِّ، لا بكاملِها المستغرق لِكُلِّ جُزْئي.

نكتةُ التَّعبير بالرَّواسي دون مرادفاتها:

كلمة ﴿رَوَٰسِيَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ صفةٌ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 116.

لموصوفٍ مَحْذوفٍ، أيْ: جبالًا رواسي، فحذف الموصوف إيجازًا لوضوحه بقرينة السّياق، واصطفى لفظ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ خاصّةً لوصف الجبال بها، للدِّلالةِ على ثبوت أصلها في قعر الأرض وتغلغُلها في باطنها[1]، فذكر الصّفة دون الموصوف ودون سائر الصفات؛ لبيان وظيفتها الجيولوجيّة، فبها يظهر الامتنانُ، ويرسّخ الإنعام.

التّنبيهُ على الوظيفة الجيولوجيّة لا السِّمَةِ الجمالية

بلاغةُ صيغة الجمع في السياق:

رسوُّ الجبال صفةُ ثَباتٍ وقرارٍ

آثرَ النَّظْمُ الإتْيانَ بصيغة جمع (فواعل) في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾، ولم يَقُلْ: (وألقى في الأرض راسيات) بجمع المؤنث السالم؛ بل آثَر التعبيرَ بصيغة جمع التكسير ﴿رَوَٰسِيَ﴾، للدّلالة على معنى الاسميّة الدّالّ على ثبوت الصّفة للموصوف، فصفةُ الرّسوّ ملازمةٌ للجبال غير منفكّةٍ عنها، ولذا حَسُنَ هنا حذف الموصوف (الجبال) لاستقلال الوصف ﴿رَوَٰسِيَ﴾ في الدّلالة عليها، إذ الوصف هنا مَكينٌ في الموصوف مُسَمًّى به، فلا يَلتبسُ حذفُه، وأمّا جَمعُ السّلامة (راسيات)، فهو يُقرِّبُ الصّفة إلى الحدث (الفعليّة) ويبعده عن الاسميّة، وحيث لم يُرِد دلالةَ الفِعل هنا لم يُعبّر بالجمع السّالم[2].

غرضُ تنكيرِ الرّواسي:

تثبيت الأرضِ العظيمة لا يكون إلّا بالرَّواسي العظيمة

جاء لفظ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ مُنَكَّرًا، لإفادة التَّعظيمَ والتَّفْخيمَ في الصّفة، وإفادة الإبهام والتَّفْخيم في موصوفها المحذوف أي: ألقى جبالًا رواسيَ عظيمة لا يُقْدَر قَدْرُها ولا يُحاط بعظيم كُنْهِها وخَلْقِها، ولا يخفى ما في تعظيمها من إعظام خالقها وجلالِه في قدرتِه، فالغايةُ إعظام الخالق وإجلاله[3].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رسو).

(2) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 128.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 241.

بلاغةُ الإيجاز في أسلوبِ التّعليل:

غايةُ إلقاء الرَّواسي نفيُ الميَد لا إثباتُه

جملة التّعليل في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ﴾ تَحْتَمِلُ وقوع الميَد ونفيه، والسّياق هو الّذي يثبت أحدَ الاحتمالين، ولمّا كان المقام مقامَ امتنانٍ، كان مضمونُ جملةِ التّعليل، انتفاءَ الميْد لا وقوعه، ولو ذَكَرَ اللّامَ، فقال: (لأن تميدَ بكم) للزِم ذكرُ أداة نفي، بأن يقال: (لئلّا تميد)، فجاء الأسلوب موجزًا خاليًا من اللّام، وحرف (في) يُعِينُ على بيان المقصود، وأبلغ الكلام ما جاء موجزًا متناغمًا مع السّياق في معناه ودلالته، والكلام جارٍ على حذف مضاف، أو على حذف حرف النّفي، والتّقدير: كراهةَ أن تميد بكم، أو لئلا تميد بكم[1].

دلالةُ استعمال مفردة الميَد:

الميَدُ هو مَيلٌ يقع في الجانبين

في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ عبّر بالميَد دون مرادفاته من الاضطراب أو التحرّك أو الميَل، وذلك للدّلالةِ على نوعٍ مُحدّدٍ ومخصوص في الحركة والاضطراب والميْل، وهي الاضطراب الذي يؤثّر في هيئة الواقع عليه بالدّوار والدَّوَخات، والحركة التي تسري في الشّيء العظيم المنبسط الممتدّ، والميْل الّذي يقع من جهتي الشّيء يمينًا وشمالا، فميّزَه عن اضطراب الزلزلة، وعن الحركةِ الصّادمة، أو الميَل العنيف، وميّزه عن الحركة المحدودة لمحدوديّة الجسم السّارية فيه، وميّزه عن الميل الّذي يقع من جهة واحدة[2].

دلالةُ التّعبير بصيغة المضارع:

منعتِ الرَّواسي الاضطراب المُستمِرّ وحجبت الدّمار المستتر

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يدلّ على نفي الميَدِ نفيًا مستمرًّا، ففيه دَعْوَةٌ إلى الشّكر المتجدِّد، فكما أنَّ النِّعَمَ متجدّدة، فشكرُها كذلك يكون، وتُشير صيغة المضارع إلى أنَّ أسباب الميد متجدِّدة، فألقى ﷻ الرَّواسي؛ لمنعِ ما يستجدّ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 241، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 179، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 275.

(2) الراغب، المفردات: (ميد)، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 126، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ميد).

من أسبابٍ يكون من ورائها ميدٌ للأرض، فكشفت صيغة المضارع عن خفاءِ الأسباب المستمرة في الأرض، ومن يتفكّر في الزّلازل والهزّات، يُدرك أنَّ الأرض مضطربة أصالةً، لولا الرّواسي التي منعت الاضطراب المستمرّ، وأوقفت الدَّمار المستتر.

معنى الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ إمّا أن تكون للتَّعْدِيَة، كما يقال: ماد الشّيء بالشّيء، إذا تحرّك به فأوقع الفعل عليكم، أو للمصاحبة، كما يُقال: ماد الشّيء بالشّيء، إذا تحرّك به، وهو معه(1).

فائدةُ تقييد جملة التَّعليل:

تعديدُ نِعَمِ الله تعالى وفضله على الناس

قُيِّدت جملة التّعليل في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ بالجارِّ والمجرور - وهو ما يقتضيه السّياق والظّاهر - جريًا على المتقدّم من تعديدِ مظاهر الخلْق العظيمة وإسنادِ منافعها إلى ضمير الإنسان؛ للنصّ على الامتنان في كل جملةٍ استقلالًا لا تبعًا، وضمير ﴿تَمِيدَ﴾ عائدٌ إلى الأرض بقرينةِ تعليقه بقوله: ﴿بِكُمۡ﴾؛ لأنّ (الميَدَ) إذا عُدّيَ بالباءِ عُلِمَ أنّ المجرورَ بالباءِ، هو الشّيء المظروف المستقرّ (الإنسان) في الظّرف المائِد (الأرض)؛ ولذا عدّاه، لأنّ الاضطرابَ بالمَيْد يعطّل مصالحَ الناس ويُلحِقُ بهم آلامًا ومُعاناة(2).

نكتةُ حذف الفعل العامل:

ذكر العوامل مُرْتَهَنٌ بقصدية السّياق وعَدَمِ الالتباس

ذُكر الفعل العامل في الرَّواسي، وهو ﴿وَأَلۡقَىٰ﴾، وحذف الفعل العامل في الأنهار والسُّبُل؟! وتقديره: إمّا من السّياق الخاصّ، وهو الإلقاء، وإمّا من السّياق القرآنيّ العامّ، من مثل: (أجرى الأنهار) (وسلك السّبُل)، كقوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [طه: 53]، وكالتّصريح بالعامل في الأنهار في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 249.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 121.

﴿تَحۡتِهِمۡ﴾ [الأنعام: 6]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢﴾ [إبراهيم: 32]، وقوله: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ [الكهف: 33]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ [النمل: 61]، وقوله: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: 12].

فإن قلنا بالأوّل، فالأمر واضح، لكن يُشْكِلُ عليه عدمُ مناسبته دلالة، إذِ الأنهار والسُّبُل لم تُلْقَ كالرّواسي، وإن قلنا بالثاني - وهو الأنسب - فحينئذٍ نحمل الكلام على تقدير المحذوف المفهوم من سياق الآيات الشّبيهة بتلك الآية، وهو الأوْلَى؛ بل هي طريقة القرآن في المخاطبات، حيث تُحذف ألفاظٌ يعرفها المخاطبون؛ لأنَّها المستقرّة والأسرع إلى البديهة عند السّماع، أو قياسًا على المذكور في نصوصٍ أخرى، فتحصّل من ذلك تقدير النّظم الكريم على معنى: (وألقى في الأرض رواسي، وشقّ فيها أنهارًا وسَلَك سُبُلا، أو جعل أنهارًا وسُبُلا)(1)، ونكتةُ الحذف كون الفعل العامل معلومًا للمخاطَب، وكون ذكره غير مرادٍ تعيينًا كما الأمر في الرّواسي.

غرض تنكير الأنهار والسبل:

الامتنانُ قائمٌ بالمعلومِ من الخلْق والمطْويِّ عِلْمُه

المراد بالتّنكير في قوله تعالى: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾ العموم؛ ليشمل جميع الأنهارِ والسُّبُل التي يعرفها المخاطَبون والّتي لا يعرفونها، وكذلك ما ذُكِرَ قبلها من تنكير الرّواسي؛ فيشمل جميعَ الرَّواسي والأنهار والسُّبُل الّتي هي معروفة وقت النزول، وغيرها مما عرِف بعدها، وما ظهر على سطح الأرض وما خفي في باطنها.

دلالة التَّعبير بالسُبُل دون الطُّرُق:

السَّبيلُ طريقٌ مَسلوكٌ خَلقًا والطُّرق بصنع الإنسان

عبّر بالسُّبُل في قوله تعالى: ﴿وَسُبُلٗا﴾ دون الطُّرُق، للدِّلالة على سهولتها وسعتها، فهي مسلوكةٌ بفعل الخلقِ الرَّباني، ولو عبّر بالطّريق؛ لأشْعرَ بنوعٍ من المشقَّة في السّير فيها؛ لأنَّها تكون حينئذٍ

(1) السّمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 202، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 12/ 33.

طُرُقًا، قَد سُلِكَت الطّرُقُ بالأقدام؛ ففيها إشعارٌ بالسعي والعمل والمجهود، ولو قيل: إنّ ذلك قد يقع على وجْه السُّهولة، فيقال: إنّ ذلك يُستفاد من لفظ (سبيل)، لا لفظ (طريق)[1].

بلاغةُ جملةِ الرَّجاءِ:

مظاهرُ الخَلْقِ دالّةٌ على سُبُل الاهتداءِ

عبّر النَّظم الكريم بأداةِ الرَّجاء في بيان الغاية من خلق الجبال والأنهار والسُّبُل في الأرض، في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾، ولم يَقُلۡ: (لتهتدوا)، بدون حرف الرَّجاء،؛ لتضمين الغاية المذكورة من معنى التعطّف في سياق الامتنان بتلك المخلوقات، وفائدة التعطّف إظهار معنى الاختصاص في تبليغهم غاية الاهتداء، فهو مبالغةٌ في إظهار الغاية من قوله: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾، وتأكيدٌ عليها باصطحاب ما يفيد الإشفاق والتّنصّح باعتبار حال المُخاطَبين، وهو لفظ ﴿لَّعَلَّكُمۡ﴾[2].

توجيه الاهتداءِ بين الحسيِّ والمعنويِّ:

عطايا الدُّنيا هاديات لعطاء الآخرة الباقيات

الهداية المذكورة في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾، هي الهداية القلبيّة إلى دلائل التّوحيد والإيمان بالخالق العظيم، والهداية النفعيّة الحسّيّة بتحقيق المقاصد والأغراض الدنيويّة من تلك المُسَخَّرات، ولم يقل: (لتهتدوا)، بحذف (لعلكم) كما في اللَّحاق: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ لعدم التّكرير؛ لأنّ غرض المعنى المفهوم من لفظ (لعلكم) متحقّقٌ كذلك في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، فلم يَقَعِ التّكرار لثلاثة أسباب:

الأوّل: لكون قوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ متضمّنًا لمعنَيَي الهداية (الإيمانيّة والدنيويّة)، والجمع بين الهدايتين قد يتخلّف، ولذا عبّر بجملة الرَّجاء والتّوقّع بحسب حال المخلوقين في ذلك.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل)، والراغب، المفردات: (سبل).

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 384.

الثّاني: أنّ قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ فرعٌ عن قوله: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾؛ لأنّ العلامات كائنة في الجبال والأنهار والسُّبُل، والنّجم كاشفٌ للمواقيت والاتجاهات في تلك المذكورات، فكأنّه ذكر أصل المنّة، ثمّ أتبعه بأدوات الانتفاع بها، فناسب في الأولى رجاء الاهتداء، وناسب في الثّانية الجزم بالاهتداء، لكمال تحقّقه وعدم تخلّفه بالعلامات وبالنّجم، ولذا أتى بضمير الفصل لتأكيد الانتفاع ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾.

الثالث: أنّ الاهتداء في قوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ هو الاهتداء النفعيّ الدنيويّ، وليس المراد منه الجمع بين الهدايتين كما في الآية قبله، ولذا جزم به هنا لعدم تخلّفه[1].

توجيهُ حذف متعلق فِعْل ﴿تَهۡتَدُونَ﴾:

عمومُ الهدايةِ الدُّنيويّة والأخرويّة

حُذفَ متعلّق فِعْل ﴿تَهۡتَدُونَ﴾، فلم يُعيّن؛ وذلك للإيجاز وقصد التَّعْميمِ، بإرادة جميع مسالك الهداية الّتي يصلح تَعَلُّقُها بالسّياق المذكور، فيتناول الجمع بين هداية الدُّنيا وهداية الدّين، أي: لعلكم تهتدون إلى مقاصدكم، ومرادكم، ومنافعكم، وتحقيق مصالحكم، والدِّين الحقِّ، ومعرفة الحقّ من الباطل، وتمييز الصّدق من الكذب، فتقدير المنافع الدُّنْيَويَّةُ بالعبارة، والمنافع الأُخْرَويَّةُ بالإشارة، وذلك أنَّ من أوجد سُبل الهداية الدُّنْيَويَّةِ، حقيقٌ به أن يدلَّ العبادَ على سبل الهداية الأُخْرَويَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

استمرارُ الهداية باستمرار أسبابها

التّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ يفيد استمرار إمكانيّة حصول الهداية في الحال والاستقبال؛ لأنّ الهداية مستمرّة باستمرار أسبابها، والمعجزات الكونيّة المذكورة مستمرّةٌ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 243.

في وجودها وفي عوائد نفْعها، فلا جَرَمَ أن يستمرّ حصول أثرها من الهداية لمن باشَر النّظر فيها واجتهد في الاستفادة منها.

موقع ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ وأثره في تنوّع المعاني:

كلُّ المخلوقاتِ علاماتٌ دالَّةٌ على الخالق

قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ منصوب بفعل مضمر، أي: ووضع علامات، أو معطوف على رواسي بتضمين ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ معنى الجعل، أي: ألقى في الأرض رواسي وأنهارًا وسبلًا وعلامات، وعلى هذين الوجهين يكون في الكلام تقديم وتأخير، أي: ألقى في الأرض رواسي، ووضع فيها علامات؛ لتهتدوا بها إلى مقاصدكم.

ويصحّ أن تكون جملة: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ في موقع الحال من ﴿رَوَٰسِيَ﴾ وما عطف عليه، يعني: خلق لكم هذه الأشياء حال كونها علامات تهتدون بها، ويجوز أن تكون مفعولًا لأجله، يعني خلقها لنا؛ لأجل أن تكون علامات نهتدي بها[1].

فائدةُ الفصل بين المعطوفات:

العلاماتُ للاهتداء الحسي، وما قبلها للحسي والمعنوي

العلامات هي طريق الاهتداء الحسي الذي يضعه الناس، أما السّبل، فهي ما خلقه اللّه سبحانه في الأرض الدّال على حكمته وربوبيَّته، فكان الفصل بين ﴿وَسُبُلًا﴾ ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ بقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ إيماءً إلى أن العلامات هي للاهتداء الحسي؛ لأن ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ تَحْتَمِلُ الحِسيَّ والمَعْنَويَّ[2].

علاماتُ النَّهار مقدَّمةٌ على علامات اللَّيل

كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ مَعْطوفٌ عَلَى جُملَةِ ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾؛ لاتّحادهما في الغاية المرادة منهما، وهي الاهتداء والإرشاد إلى المنافع والمصالح في المعاش، وكأنّ المعنى: ألقى في الأرض رواسي لعلكم تهتدون، وبالنَّجم يهديكم كذلك؛ لِأَنَّها في مَعْنَى: وهَداكُم بِالنَّجْمِ فأَنْتُم تَهْتَدونَ بِهِ[3]، وجاءت بعد قوله:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 384.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 191.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 122.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ لِحسنِ المناسبة بينهما، فالعلامات تهدي السّائرين في البرّ بالنهار، ومواقع النَّجم تَدُلُّ السّائرين في الليل لا سيّما البحّارة في الماء، فذكر أدوات الاهتداء في الليل والنهّار والبَرّ والبحر[1].

معنى تعريف النَّجم:

تعريف (النَّجْم) في قوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ للجنس، فيشمل كلّ النُّجوم التي يستعين بها الناس لمعرفة الأماكن والأوقات[2].

بلاغةُ تقديم شبه الجملة:

تـقـديـمُ محل النِّعمة، ومراعاة الفواصل

قدّم الجارَّ والمَجرورَ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ على جملة الإسناد؛ لأنّه محلّ المنّة وموضع الإنعام، والنّفسُ توّاقةٌ إلى تذكيرها بالنّعمة؛ لِتَخْرجَ من غفلتِها وسَهوِها، ولِتتفاءل وتستبشِر أنّها محلّ عنايةِ اللّه بالإنعام عليها، ولم يَقُلْ: (وهم يهتدون بالنَّجم)، لمراعاة الفواصل، وهو غرضٌ لفظيٌّ صوتيّ؛ لأنّ الختْم في الفاصلة بـ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ أمكَنُ لفظًا وأنسبُ صوتًا؛ ولأنّ سياق الامتنان يقتضي تقديمَ النعمةِ في الذِّكْر على المُخاطَب؛ لتعلّق القصد بها تعلُّقًا أوّليًّا، وكذا هي مُقدَّمَةٌ بداهةً على الغايةِ منها وهي الاهتداء، إذ لا يَبِينُ الأثَرُ إلا بالإفصاح عن السَّبب المؤثِّر أوّلًا.

نكتةُ تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

علـوُّ النـجـم في دلالته وهدايته على غيره

قدّم المسند إليه، وهو ضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾ على المسند الفعليّ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، وقدّم متعلّق ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ وهو الجارّ والمجرور؛ لإفادة الاختصاص في الجارِّ والمجرور (المتعلَّق)، والاختصاص في المسند إليه، كأنه قيل: وبالنَّجم خصوصًا هؤلاء يهتدونَ، وفي إفادة الاختصاص بتقديم (النّجم) تنبيهٌ على أنّ النّجم في دلالتِه وهدايتِه يعلو غيرَه في الرّتبة والمقام،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 191، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 122.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 243، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 122.

فدلالةُ غيره نازِلةٌ عن دلالتِه، وفيه دلالةٌ على أنّ الاهتداء بالنَّجمِ من أجلِّ النِّعم؛ لأنّهم يكونون مهتدين به في مظانِّ الهلاك حيث البحر والليل؛ ولذا قدّمه(1).

براعةُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغيبة:

تتباينُ التوجيهات في المحلّ الواحد بتبايُن الاستنباطات منه

التفت الخطاب في قوله تعالى: ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ إلى الغيبة، بعد أن كان خطابًا في قوله تعالى قبلها: ﴿تَمِيدَ بِكُمۡ﴾، وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾، ولو اطّرد النَّظم؛ لقيل: (وبالنَّجم أنتم تهتدون)، وغرض الالتفات يحتمل أمرين:

الأول: العموم؛ لأنّه "لمّا كانت الدِّلالة بالنَّجم أنفع الدلالات وأعمّها؛ وأوضحها برًّا؛ وبحرًا؛ ليلًا ونهارا؛ نبّه على عِظَمها بالالتفات إلى مقام الغيبة؛ لإفهام العموم؛ لئلا يُظَنّ أنّ المخاطب مخصوصٌ؛ وأنّ الأمر لا يتعدّاه؛ فقال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ﴾؛ أي: أهل الأرض كلّهم؛ وأولى النّاس بذلك أوّل المخاطَبين؛ وهم قريش؛ ثمّ العرب كلّها؛ لفرط معرفتهم بالنّجوم"(2).

الآخر: الخصوص، وهم السّيّارة والملّاحون المُباشِرون؛ لمُطالعة النّجوم حال سَيْرِهم ورحلَتِهم، بخلاف الاهتداء المذكور في أسلوب الخطاب ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾؛ فإنّه عامٌّ في معناه، فيشمل المعاش والمعاد، وعامٌّ في أفراده، فيشمل السّائرين وغير السّائرين، فحصول المقاصد وتحقّق المنافع حاصلٌ للإنسان من الجبال الرّواسي، والأنهار والسُّبُل وإنْ لم يَمَرّ عليها أو يعبّر بها؛ لأنّ منافعها تتعلّق بوجود الإنسان نفسِه لا بهيئةٍ خاصّةٍ فيه أو في مكانه وزمانه، بخلاف النَّجم، فإنّما يَهتدي

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 599، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 128، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 244، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 122.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 128.

به السّائر المارّ كالعلاماتِ التي لا يُنتفَع بها إلا بملابسة السّير والسّعي في الأرض؛ فإفادة العموم وإفادة الخصوص على اعتبارين متباينينِ لا يُشْكِلُ تواردهما على نفسِ المحلّ[1].

نكتةُ استعمالِ صيغة المضارع:

الاهتداءُ بالنَّجم باقٍ وإن فتر فسيقوى بعد فترة

التّعبير عن اهتدائهم بالنّجْم بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ لإفادة أَنّ استدلالهم بالنّجوم مستمرٌّ مع الزّمن، فلا ينقطع انتفاعهم بالنُّجوم في أمور معاشهم وسلامة أحوالهم، وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ الاهتداء بالنُّجوم سيبقى قائمًا، وأنَّ ما وصل إليه الإنسان المعاصر من تطور علميٍّ، لا يُلغي الاهتداء بالنَّجم، فإنَّه أصلٌ قائم؛ إن فتر الاهتداء به فترةً، فسيعود بعد فتور، كما أنَّ فيه إشارةً إلى الهداية المعنويّة، فمن ينظر في النُّجومِ يعلم ما فيها من الأدلّة على الخالق المتفرِّد سبحانه.

نكتةُ حذف متعلّق فعل الاهتداء:

اتّساع النِّعم في آمادها وعمومها في مآلها

حُذف متعلّق فعل الاهتداء في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ فلم يقل: (هم يهتدون بالنَّجم إلى مساكنهم أو تجارتهم أو مطالبهم)؛ لأنَّ المقصود العموم، وهو أرسخ في سياق الامتنان.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَيَل والمَيَد:

الميل نزوحٌ والميْد تردّدٌ

المَيَلُ: هو انحرافٌ في الشّيء إلى جانب منه، فيُقالُ في العدول عن الوسَطِ إلى أحد الجانبين، ويُسْتَعْمَلُ في المعاني والأجسام، وهو بخلاف المَيَد الذي يستعمل في الأعيان والأجسام، وهو حركةٌ واسعة، تتردّد في جانبي الشّيء يمينا وشمالا، وليس في جنبٍ واحدٍ منه، ويمكن القول: إنّ المَيَل نزوحٌ بالقصد والحركة يستقرّ في أحد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 122.

الجانبين دون الآخر، فالمُعتبَر فيه طَرَفٌ واحد وإهمال الطّرَف الآخر سواء كان عينًا أم معنى، وأمّا الميْد، فهو تردّدٌ في جانبين، وليس نزوحًا إلى أحد الجانبين، ويكون في الجسم العظيم المتّسِع، بخلاف الميل، فتعلّقه عامٌّ في العظيم وغيره[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ميد - ميل).

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾

[النحل: 17 - 21]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانـتـقـال من تقرير المشاهدات الـكـونـيّـة إلى المـشـاهـدات العقليّة

لمّا اسْتَدَلّ في الآياتِ السّابقة بالبراهين المرئيّة التي لا ينكرها أحد، والّتي تدلّ على طلاقة قدرته سبحانه في الكون إيجادًا وتجديدًا بقدرتِه على حفظِ ما خلَقَ بعد خلْقِه وإدامته، شَرَعَ هنا في مناظرة الجاحدين واستنطاق المؤمنين وغير المؤمنين على تقرير وحدانيّتِه وخُلوصِ استحقاق العبوديّة له، لخُلوص مبدأ الخلق ومنتهاه إليه، فأبطلَ عبادةَ المشركين لغيره، وقرّر ذلك بالبرهان الواقعيّ العقليّ العجيب، الذي لا يُستَرابُ فيه، ولا يُختَلَفُ عليه، فالمناسبة بين هذه الآيات والسّابقة، هو الانتقال من تقرير المشاهدات الكونيَّة التي لا يُختلف فيها، إلى المشاهدات العقليّة التي قد اختُلف فيها، وهو انتقال بديعٌ في تقرير الحقائق، وتحقيق العقائد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيَّانَ﴾: عبارةٌ عن وقت الشيء، وتُقارب معنى (متى)، فهي ظرف زمانٍ، ومعنى (كيف)، ومعنى (أين)، وتكون شرطًا مرّة واسم استفهامٍ مرّةً أخرى، ولم ترِد في القرآن إلّا استفهامًا، ويُستَفهَمُ بها عن المستقبل، وتقترن بالشّيء العظيم، والمراد هنا: لا يعلمون وقتَ بعثِهم[1].

(1) الراغب، المفردات: (أيّان)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أيي).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إتْباعُ البرهان المحسوس بالبرهان المعقول

شرعتِ الآيات في توجيه أسئلةٍ للمنكرين: أتُسَوّون بين من يقدر على الخلْق وبين العاجز الّذي لا يقدر على الخلْقِ في استحقاق العبادة، كما فعلتم في عبادتكم الآلهةَ المزعومة التي لا تخلق شيئًا؟ أفلا تتذكّرون عظمة اللّه؟ فتُفْرِدوهُ بالعبادة، ومع ذلك فما خلقَه اللّهُ وأنعم به عليكم لا يمكنُ إحصاؤه واستيفاء عدده، فلا يمكنكم استيفاء شُكْرِه، ومع ذلك لا يؤاخذكم بتقصيركم في شُكْرِ نِعَمِه؛ لأنّه غفورٌ لكم رحيمٌ بكم، فأوّل أمره معكم إنعام وآخره غفران، وأنتم بين هذا وذاك قاصرون في القيام بحقّه، واللّه سبحانه يعلم كلّ أحوالكم وجميع أعمالكم الظّاهر منها والباطن، وسيجازيكم عليها، والأصنام وغيرها من المعبودات الباطلة الّتي يعبدها المشركون لا تخلق شيئًا وإن صَغُر، فهي مخلوقات صنعها الكفّار نحتًا وتصويرًا بأيديهم، فكيف يعبدونها؟! وهذه المعبودات الباطلة هي جمادات لا حياة فيها، ولا تشعر بالوقت الّذي يبعث اللّه فيه عابديها، وهي معهم؛ ليُلقَى بهم جميعًا في النّار يوم القيامة(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهام ودلالتُه:

إنكارُ المشابهة بين من يخلق ومن لا يخلق

غرضُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ تبكيتيٌّ توبيخيٌّ للكفرةِ في اعتقادهم الباطلَ وتنكّبهم الحقّ، وقد جرى هذا التبكيتُ بإنكار وقوع المُشابهةِ والتّسوية بين مَنْ يَخلُق ومَنْ لا يخلُق على طريق التّقرير والاستنطاق للمُخالِف بأسلوب الاستفهامِ عمّا هو بَدَهيٌّ ومُسَلَّم(2).

---

(1) مجموعة من الباحثين، التفسير الميسر: 1/ 269.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 359.

تعيين المعطوف عليه بالفاء:

الخلقُ برهانُ القدرة وكمالُ الحكمةِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ حرف عطفٍ للتّعقيب والتّفريع، واختُلف في تقدير المعطوف عليه، أيكون قبل الهمزة أم بعدها، رأيان مشهوران في المسألة، فمن جعل المعطوف عليه بعد الهمزة قدَّره: أمَنْ يقدِرُ فيخلُق، ومن جعل المعطوف عليه قبل الفاء ومدخولها معطوفًا على مضمون ما قبله من المخلوقات المذكورة؛ قدَّره: فأمَنْ يَخلُق ذلك كمن لا يَخلُق؟ وقدِّمَتْ همزة الاستفهام للصّدارة، فصار الكلام: أفمَن يخلُق[1].

بلاغةُ استعمال (من):

اجتماعُ النِّكات البيانيَّة أدنى قبولًا من التَّرجيح بينها

آثرَ النَّظم الكريم استعمال (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، وهي تختصُّ بأولي العِلم؛ فتقع على ذوات العقلاء سواء أكانت موصولةً، أم استفهامية، أم شرطيّة، أم غير ذلك، وإنّما عبّر بها هنا في جانب الأصنام الّتي كانوا يعبدونها، رغم أنّها جماد لا يعقِل؛ فلم يقل: (كما لا يخلق)، للتّغليب أو المُشاكلةِ أو المبالغة.

فأمّا الأوّل (التّغليب): فقد نزّل معبوداتهم من الأصنام منزلةَ العاقل العالم؛ لأنّهم عبدوها وسمّوها آلهةً، ومن حقِّ الإله أن يكون عالِمًا عاقلًا، أو لتغليب المعبودات العاقلة كالملائكة وعيسى وعزير على المعبودات غير العاقلة؛ كالأصنام والجمادات لأنّ الموصول بعدم الخلْق في ﴿لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، عامٌّ يدخل فيه العاقل وغير العاقل، وإذا اجتمع العاقل مع غير العاقل في عمومٍ، غُلِّب العاقل، إذْ من حقّه التّغليب على مَنْ دونه في الرُّتْبة.

وأمّا الثّاني (المشاكلة): فلأنّه لمّا ذكَرَ ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ أوردَ (مَنْ) في ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ مُشاكلةً ومماثلةً به؛ لوقوعه في صُحبتِه، وهو لونٌ من ألوان البديع.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 245، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 7/ 136.

وأمّا الثّالث (المبالغة): كأنّه استدلّ بالأعلى على الأدنى بطريق قياسِ الأَوْلَى للمبالغة في الإنكار والنّعي على عقولهم، كأنّه قيل: إذا كان من يخلقُ لا يتساوى مع من لا يخلُق ولو كانوا من أولي العِلم العاقلين، فكيف يُعبَدُ ما لا يَخْلُق من الجمادات المُصمَتَة التي لا عِلم لها ولا عقل[1].

بلاغةُ التَّشبيه:

تنزُّلُ القرآنِ في خطابِ المشركين دليلُ ضعفِ عقولِهم وسماجةِ أفهامِهم

مقتضى الظّاهر تشبيه من لا يَخلُق بمن يَخلق، لكن لمّا انعكس حال المشركين، فجعلوا أصنامهم أصلًا من حيث الواقع، خاطبهم الله تعالى بقولِه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ بحسب اعتقادِهم المنتكس على رأسه، فالتّشبيه بحسب مقتضى الحال تشبيه على أصلِه، وبحسب الظّاهر تشبيهٌ مقلوبٌ، إذ الأصل تشبيه من لا يخلق بمن يخلق، والآية جاءت وفق عامود البلاغة بحسب اعتبارِ المخاطَب[2].

فنُّ الطباق:

التنافي بين الخالق والذي لا يخلق

بين قوله: ﴿يَخۡلُقُ﴾ وقوله: ﴿لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ طِباقٌ بالسّلْب بأداة النفي، فأحد اللّفظين مُثبَتٌ ﴿يَخۡلُقُ﴾، والآخر منفيٌّ ﴿لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، وغرض الطّباق: إظهارُ كمال التّنافي بين المعبود بحقّ والمعبود بباطل، بثبوتِ مُقْتَضَى استحقاق الألوهيّة - وهي صفة الخلْق - للّه العظيم، ونفي تلك الصّفة عمّا سواه؛ لنفْي لازِمِه من بُطلانِ دعوى عبوديّته وتأليهِه.

غرضُ الاستفهام:

إنكارُ التسويةِ بين الخالق القادرِ والعاجز بعد قيام الحجج

الاستفهام في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لإنكار جهل المخاطَبين، وعدم تذكّرهم، وجملة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تفريعٌ مُسَبَّب عن إنكار التّسوية بين القادر والعاجز في جملة ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، وجملة ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ تفريع مُسبَّبٌ عن تقرير انفراد الله

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 193، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 516.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 129.

بالقدرة والإعجاز في الخلْق في الآيات قبله، فكأنه قيل: بسببِ أنّ اللّه خلق الأرض والجبال والأنهار والسُّبل والعلامات والنّجوم، أنكِرُ عليكم التّسوية بين من يخلق ومن لا يخلق، وبسبب إنكار التّسويةِ ووضوحها أنكِر عليكم عدم تذكّركم وعدم استحضاركم لِما لا مجال للخلاف فيه، وهو أنّ من يخلق لا يُناظَر بمن لا يخلُق، كما لا يتساوى الشّيء بضدّه وما يُناقِضه[1].

تعيينُ المعطوفِ عليه بالفاء:

الغفلةُ حجاب التَّذكُّرِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ لِعطفِ مدخولِها على جملة الاستفهام قبله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾، أو لعطف مدخولها على محذوفٍ مُقدّر تقديره: (أجَهِلتُّم هذا فلا تذكّرون)[2]، أو أغفلتم عن خالقكم الحقيقيّ سبحانه فلا تذكَّرون؟ كما سبق بيانه في توجيه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾.

بلاغةُ استعمال مفردة التَّذكُّر:

وضوحُ المباينة بين الخالق القادرِ والعاجزِ بأدنى تنبيهٍ وتذكيرٍ

آثَرَ النَّظمُ التعبير بمادّة التذكّر في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دون غيرها، للدّلالة على استحضارِ ما هم بصدَدِه بأدنى مُلابسةٍ للعِلم والتّنبيه، فبمجرّد أنْ يتحقّق لهم أدنى رتبةٍ في العِلم بتلك المخلوقات العظيمة، ويتحقّقَ لهم أدنى تنبيهٍ على أنّه لا يستوي من قدَرَ ويخلُق مع مَنْ عجزَ فلا يخلُق، فلا بدّ أنْ يحصل الاستحضار والانتباه منهم، فما هم بصدده من الإنكار عليهم لجحودهم لا يحتاج إلى إمعان الفِكْر في شيءٍ خفيٍّ متعسِّر؛ بل هم بصدد شيءٍ شديد الوضوح يَحصلُ بأدنى مُلابسَةٍ من الاستطلاع والاستعلام، فلا يُضِلُّهُ إلّا عنيدٌ محروم[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 130، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 123.
(2) محمود صافي، الجدول: 14/ 295.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 192.

بلاغةُ استعمال صيغة المضارع:

دعوةُ الغافلين للتذكُّر واستمرار أسبابه

استعمل النَّظم صيغةَ المضارع في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ لإتاحةِ الفرصةِ للمخاطَبين أنْ يتذكّروا إذا لم يكن تذكّرٌ منهم قبل ذلك، وفيه إشعارٌ بأنّ السبب الّذي يدعو للتذكّر ما يزالُ قائمًا، وسيظلّ كذلك ما داموا أحياء، وما دامت السّماوات والأرض، فلا جرمَ أنْ يستمرّ المُسبَّبُ، وهو تذكّرهم؛ لاستمرار سببِه الدّاعي إلى حصوله، وفيه تحفيزٌ للهمم أن يتذكّروا في قابلِ الأيام إن غفلوا في سابقِها، كما أنَّ فيه عنايةً بالفاصلة، فالختْم على هيئة المضارعة أوفق وأمكن في موقع الفاصلة صوتًا ولفظًا ومعنًى.

لطيفةٌ في تخفيف التّاء:

ما أيسر التّذكِرة وأنفعها لمن أقبلَ واهتدى

حذفُ التّاء في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دلَّ على أنَّ التَّذكُّر يحصل بأدنى مجهودٍ، فلم يَقُلْ: (أفلا تتذكّرون)، إذ زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، وهنا لمّا حذف التاء؛ أَوْمَأ إلى أنَّ المطلوب لا يحتاج إلى كبير جهدٍ، فهو يحصل بقليل تذكّر، إذ التوحيد هو مطلوب الفطرة، والشِّرْكُ عسيرٌ في العقول والقلوب قبوله[1].

نُكتةُ حذفِ المفعولِ:

عمومُ التذكُّرِ لما سبق من الحجج والآيات

حُذِفَ مفعولُ التذكُّر في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ للاختصار والتَّعْميم، ليتناول مضمونَ جميعِ ما سبق، أي: أفلا تذكّرون ثبوتَ هذا الخلقِ العظيم، وتذكرون انتفاعَكم به، وتذكرون ضياعكم إنْ حُرمتُم منه، وتذكرون أنّ من يَخْلُق ذلك، ويقدِر عليه، لا يتساوى مع من ليس كذلك، وتذكرون أنّ القدير الخالق قادرٌ على إذهابكم وإهلاكم - إنْ لم تتذكّروا -؛ فأنتم أهون عليه، فلكثرةِ المُقَدَّراتِ واتّساعها حذف المفعول؛ لأنّ في ذِكْره تضييقٌ للمعنى، فكان حذفُه أبلغ وأوفى[2].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 192.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 516.

ويحتمل أن يكون الحذف لإقامة المتعدّي مقام اللّازم، أي: أفلا تذكرون، فيصبح التّذكُّر ديدنَكم وسلوكَكم وعبادتكم، فتُصبحوا في جميع ميادينكم متذكّرين أوّابين راجعين مستغفرين، ولا ما نع من إرادة الأمرين، بحيث يجتمع في الشّخص التّذكر الذّاتي، مع تنوّع ما يتذكّره، وهو الأَوْلَى بالقبول، والأدنى لرواء البلاغة.

نوعُ الواو ومعناها:

النّعمُ المذكورة يسيرة والمطوي أعظم وأرسخ

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ وهي كالتّذييل والتّكملةِ والنّتيجة له؛ لأنّ قوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ من غير تعيين مفعول يدلّ على إطلاق القدرة بالخلْق، وهو يفيد الاتّساع والفُسْحةَ اللامحدودة في المخلوقات التي يتضمّنُ إيجادها كثيرًا من الإنعام على بني آدم، فإذا كان سببُ الإنعام - وهو الخلْق - غير محدود، فكذلك النِّعَم النّاتجة عنها تكون غيرَ محدودة وغير معدودة.

وَيَحۡتَمِلُ أنْ تكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ استئنافيّة، لإجمالِ النِّعم والإخبار باتّساعها وعدم تناهيها، بعد تفصيل بعضها في الآيات السّابقة؛ ليندفِع بذلك الإيهامُ بأنّ تلك النِّعم المنصوص عليها سابقا هي كلّ النِّعم، فجيء بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾؛ ليدلّ على شأنِ الإنعام العظيم الّذي يتجاوز حدود المذكوراتِ من قبل، وأنّ التفصيل السّابق ما هو إلا مِثالٌ فقط على عمومٍ لا ينحصِر في أفراد أنعُمِ اللّهِ الخالق القدير(1).

فوائد استعمال ﴿وَإِن﴾:

ما أكثر الغافلين، وأقلّ الشّاكرين

صُدِّرت الجملة الشرطيّة في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ بأداةِ (إنْ) المفيدة لعدم قطعيَّة التّحقّق؛ لفوائد عديدة، منها:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 123، ومحمود صافي، الجدول: 14/ 297.

التنبيهُ على أنْ ليس كلُّ الناسِ يُبادِر إلى تعديدِ نِعَم اللّهِ عليه، والتَّعريض بالغافلين عن مُلاحظة النِّعم والانتباه إلى تفاصيلها وأفرادها، والتَّحضيضِ للمؤمنين؛ فإنَّ المؤمن عندما يعلم أنَّ عمومَ الخلق لا يبادرون إلى تعدادِ نعمِ اللّه تعالى عليهم، فإنَّه يُسابق إلى ذلك، قصدًا إلى الشكر.

بلاغةُ استعمال مفردة العدِّ والإحصاء في سياقٍ واحد:

إن تحقَّق عدُّ النِّعم فلن يتحقّق إحصاؤها

العدُّ توطئةُ الإحصاء وبدايةُ الشّروع فيه، فلا يتمّ الإحصاء إلّا به، والإحصاءُ هو إتمام العدّ؛ لأنّه تحصيلٌ لعددِ الشّيء، والعدُّ هو ضمّ الأعداد بعضها إلى بعضٍ؛ بغرض توفيةِ عددها وتحصيلها، ولذا بدأ بفعلِ العدّ، وانتهى بفعل الإحصاء؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾؛ ليدلّ بذلك على الوسيلةِ والغايةِ معًا[1].

سرُّ إفرادِ النِّعمة مع ذكر العدِّ ولا يُعدُّ إلّا الجمع:

أوجهُ النِّعمةِ الواحدةِ لا تُحصى فكيف بالنِّعم الكثيرة

أفردَ ذكرُ النِّعمة في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ النّعمة هاهنا اسمٌ أُقيم مقام المصدر، فيقال: أنعمَ اللّهُ عليه إنعامًا ونِعْمَةً، أقيم الاسم مقام الإنعام؛ كقولك: أنفقت عليه إنفاقًا ونفقةً، بمعنًى واحد؛ ولذلك أفرد ولم يُجمَع لأنّ من حقّ المصدر الإفراد، ومن حيث دلالتُه على المعنى المجرد (الإنعام) يتناول القليلَ والكثير بحسب متعلَّقاتِه من الأعيان قِلّةً وكثرة، والنِّعمةُ الواحدة لها أوجهٌ كثيرة، فكلُّ وجهٍ منها إن أُريد عدُّه فلا يُحصى، فكيف بكلّ نعمةٍ؟ ويدلّ هنا على الكثرة بقرينة قوله: ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾، أو المراد بالنّعمة اسم الجنس، أي: جنس الشّيء المُنعَم به وحقيقته، والمراد به الجمع لا الواحد، والاستغراق والعموم، بدليل تعريفه بإضافته إلى اسم الجلالة، والتّعريف بالإضافة هنا تعريف الجنس المفيد للاستغراق، إذِ المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة، ونُكتةُ مجيئه على صيغة

---

(1) الراغب، المفردات: (حصا - عد).

الإفراد؛ لتناسُبِه مع التّحدّي بعدم عدّه، فكأنّه لمّا كانت النِّعَمُ غيرَ متناهيةٍ في إحصائها واستيفاء تعديدها؛ جاء بها على لفظِ الإفراد الذي لا يدخل فيه الإحصاء[1]، وهذا في غايةِ نفي ما قد يُظنُّ أنَّه يتحقَّقُ، وهو من بديع إثبات النِّعم الكثيرة، والآلاء العديدة.

بلاغةُ إضافةِ النِّعمة للفظِ الجلالةِ دون الرَّبّ:

المنعمُ هو المستحقُّ للعبادة وحده

أُضيفَتِ النّعمة لاسم الذّات ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، فلم يَقُلْ: (نعمة ربّكم) إذِ النِّعمةُ إحسانٌ يُناسبُ وصفَ الرُّبوبيّة فيما يظهر؛ وذلك أنّ السياق في مقام الاستدلال بالنِّعَم العظيمة والآلاء الجسيمة على ألوهيّة الخالق سبحانه، فهو مقامٌ يجمع بين الامتنان والاستهجان؛ الامتنان عليهم بالنّعم، والاستهجانُ مِنْ كفرانِهم تلك النِّعم بعبوديّة غيره، فاستلزم هنا إضافة النِّعمة إلى اسم الذات ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لتقرير انفراده بإيجادها لهم وإيصالها إليهم وحده لا شريك له؛ لإبطال استحقاق غيره للعبادة معه، لانعدام سببِ العبادة في غيره، وهي الهيمنةُ بالألوهيّة بالقُدرةِ على الخلَق والإنعام، ومضمون هذا التقرير يقتضي الإسنادَ إلى ما يتضمّن معنى الألوهية الكاملة التي تشمل جميع صفات العظمة والكمال، والتي وصفُ الربوبيّة من آحادها وأفرادها، ولذا أضاف النعمةَ إلى الاسم الجليل.

اختيار لفظ الجلالةِ بما يتناسب مع سياق الامتنان

كما أنَّه لا يخفى أنّه لو أضاف النِّعمةَ إلى لفظ الربوبيّة في هذا الموضع، فإنَّه لا يُناسب توبيخَهم وتبكيتهم السّابق على عدم التَّذكّر، والنّعي على عقولهم في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنّ إضافة النّعمة إلى الرُّبوبيَّة يلزم عنه إضافته سبحانه إلى ضميرهم (وإن تعدّوا نعمة ربّكم)، ولو كان ذلك كذلك، لكان

---

(1) الواحدي، البسيط: 12/ 482، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 385، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 99، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 200، وابن حيان، البحر المحيط: 5/ 428، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 195.

فيه إشعار بالقرب والخصوصيّة المنافية للتبكيت والتعريض بهم، ولا يخفى كذلك ما في الاسم الجليل من معاني المهابة والتّعظيم الّتي تردع المحرومَ عن شكْر نعمة اللهِ بتمحيض العبوديّة له وحده.

مهما استمرَّ عدُّ النِّعَمِ؛ فلن يحصيها

براعةُ استعمال المضارع:

التّعبير بصيغة المضارع في الفعلين: ﴿تَعُدُّواْ﴾، و﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾ في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العدَّ وإنِ استمرَّ باستمرار الحياة فلن يُحصَى بتوفيتِه وإتمام مُنتهاه، ففي المضارعة تقريرٌ لمعنى التحدّي بالنِّعَم بأنّها عَصيَّةٌ على العدّ، مَنيعةٌ على الإحصاء، مُتعسِّرةٌ على الإحاطةِ بها تفصيلًا وتحليلًا.

سعةُ رحمةِ الله لخلقه مع تقصيرهم في شكره

علَّةُ الفصلِ ودلالته:

جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ استئنافيّة لما قبلها، وهي في معنى التّعليل لقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾؛ لأنّ انتفاء إحصاء النِّعَم يقتضي انتفاء القيام بحقّ شكرها كما ينبغي على جهة المطابقة، وانتفاءُ القيام بحقّ شكرها تقصيرٌ يقتضي العقوبة عليه، ولكن بسببِ أنّ الله غفور رحيم تجاوز ولم يُؤاخِذ، فجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تعليلٌ لما يقتضيه الحكم بعدم الإحصاء، أي: عِلّةُ أنّكم غيرُ مؤاخَذين على عدم إحصائكم للنّعم المُقتضي لتقصيركم في الشّكر؛ هو أنّ الله غفور رحيم، ولذلك فُصِلت الجملة.

ويصحّ إجراء قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ على الاستئناف البيانيّ ممّا قبله، كأنّه بعد قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ سأل سائلٌ: فماذا فِعلُ الله بنا بعد انتفاء تحقيقنا لِنِعَمِه إحصاءً وشُكْرًا؟! فأُجيبَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وجملة الاستئناف البيانيّ لا توصل بما قبلها ولذلك فُصِلَتْ[1].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 517، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 360.

غرضُ التَّوكيدِ ودلالاته:

فسحةُ الرّحمةِ بابُ المغفرة، وهو بابٌ مشرَّعٌ لكلِّ أحد

أُكِّدَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بثلاثة مؤكِّدات: ﴿إِنَّ﴾، و(اللّام)، و(اسميّة الجملة)، فأفادت ﴿إِنَّ﴾ مع التّوكيد ربطَ الجملة بما قبلها بما يُغني عن العاطف، وأفادت التّعليل مع ما قبلها بما سبق توضيحه، وأكَّدتِ اللّام مضمونَ الجملة وثبوتَ النّسبة بين المسند والمسند إليه، وأفادت اسميّة الجملة ثبوت الوصف ودوامه واستمرار تحقّقه بالمغفرة والرّحمة الدّائمتين، اللّتين لا يعتريهما الأغيار، ولا تتأثّران بحدود الزّمان وقيوده.

واجتماع هذه المؤكّدات في محلٍّ واحد، هو لمُبالغةِ المُخاطَبين في تقرير مضمون الجملة، وتنزيلهم منزلةَ المتشكِّك أو غير المطمئنّ لموعود الخبر، أو تنزيلهم منزلة المتردّد غير الجازم بحصول الموعود من المغفرة والرّحمة، وعِلّة هذا الاعتبار: أنّ المخاطَب بعد قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾، قد يتشاءم بالتّرهيب والإيعاد المُتضمَّن في انتفاء الإحصاء المذكور، فيتوقّع السّوء، لا سيّما وأنّ المُخاطَبَ بذلك كلا الفريقين من المؤمنين والكافرين، فحتّى لا يجزع المؤمن ولا يقنط الكافر، ذيّل الآية بما يُخْلِف تلك التوقّعات المحتمَلة، فبالَغَ في توكيدِ ما قد يُظَنّ خِلافُه من المُخاطب؛ لكون المخاطَب حينئذٍ في حكم المتردِّد أو غير المتوقِّع، فنزّله منزِلَتَه[1].

توجيهُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

رعايةُ التَّقابُل بين الترهيب والترغيب

آثرَ النَّظم الكريم إظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فلم يَقُلْ: (وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إنّه لغفور رحيم) بإضمار الاسم الجليل اعتمادًا على إظهاره السّابق، وذلك ليوازِنَ جناحَ التّرهيب بجناح التَّرغيب، فكما أظهر في مقام التَّرهيب من كفران النِّعَم بالإيماء إلى استباقِ وتكثير شكرِها بما

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 323.

فُهِم من قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾؛ كذلك أتى بالاسم الجليل ظاهرًا في مقام التّرغيب والإعذار بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، ولو أضمَر لم يكن بين المقامين تساوٍ في التناظُر والموازنَة المُتقابلة بينهما، إذِ التّصريح بالاسم الجليل أقوى من إضماره؛ لأنّ معه استحضارًا للذّاتِ العليّة ذِكْرًا وفِكْرًا، بما يُثبِّتُ النّفوس ويبُثّ فيها السّكينة بمعاينة اسم الذّات الجليل بإزاء صفتيه العُلْيَيَيْن من المغفرة والرّحمة، فالنّطق باسم الذّات في هذا المقام يُربّي المهابة في النّفْس ويَدفعها لِلْبِدارِ إلى العبوديّة الخالصة بالشّكر قولًا وعملًا واعتقادًا، فإنّه كذلك يُشعِر بعلّيّة إتّباع التّقصير بالمغفرة والرّحمة، ذلك أنّه اللّه! أي: الكامل العظيم الّذي استوفى صفاتِ الجمال والجلال والكمال؛ ولذا سبقتْ رحمتُه غضبه لكمال ذاته وعلوّ شأنه[1].

نوعُ الواو ودلالتها:

بعد بيان العجز عن الإحصاء ناسب ذكر علم العلانية والإسرار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ إما أن تكون استئنافيّة؛ لتقرير عِلم اللّه بأعمال الخلْق من جميع الوجوه، وفي جميع أحوالهم الظّاهرة والباطنة، بعد تقرير أنّ إنعام اللّه عليهم أوفى من أعمالهم، وأنّهم لن يَقْدُروا نعمة اللّهِ عليهم حقّ قدرِها في الإحصاء حتّى يقدروها قدرها في الشّكر والعمل، فالجملة تقريرٌ لقدرتِه تعالى على حِسابهم بناءً على صفة العِلم العليّة، بعد تقرير عجْزِهم عن حِسابِ نِعَمِه لقصور عِلمِهم عن إحصائها.

وإمّا أن تكون الواو عاطفةً، وفي العطف وجهان:

الأول أن تكون قد عطفت مدخولها على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، كأنّه قيل: إنّ اللّه لغفورٌ في تقصيركم عن شُكرِ ما لا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 130.

تُحصونه من نِعَم اللّه، وإنّ اللّه يعلم سِرّكم وعلانيتكم، فلكونه سبحانه كذلك أغناكم عن التزامكم بشكر كلّ نِعمة تخفيفًا عليكم.

الوجه الآخر: أنْ تكون معطوفة على قوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ لاستتمام إثبات صفة العلم للّه بعد ثبوت صفة الخلْق؛ ليدلّ على أنّ الخلْق بأدلّته التّفصيلية المذكورة في الآيات سابقًا حاصِلٌ بالقُدرة وحاصِل بالعِلم، فالقُدرةُ في أصل الإيجاد وهي مفهومةٌ وظاهرةٌ بمجرّد تعديد المخلوقات العظيمةِ المذكورة، والعِلم في كيفيّة الإيجاد على هذا النحو البديع المتفرِّد في كلّ جنْسٍ ونوع[1].

توجيه إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

إجراءُ الصفات على الذات الجليلة ترغيبًا وزجرًا

أُظهر الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾، ولم يُضمِره لتقدُّم ذكره؛ وذلك لِقصدِ إجراءِ كلّ صفةٍ من الصّفات العليّة على الذّات الجليلة، فالنّظْم الكريم قاصِدٌ إلى بيان أنّ المُتَّصِفَ بالرّحمة وبالمغفرة وبإحاطة العِلم في السّرّ والعلانية هو الذّات الجليلة المستحقّة للكمال والجلال (اللّه)؛ ليستحضر المُخاطَبُ ذاتَ الإله الكامل مع كلّ وصفٍ من تلك الأوصاف، فيزداد المؤمن إيمانًا وخشيةً وعِرفانًا ومحبّةً للّه العظيم الموصوف بتلك النّعوت السّامية، ويُقرِّعُ بذلك سمعُ المُخاطَبِ المُنْكِر زجرًا له وإرعادًا من معنى اسم الذّات الجليل؛ ليَفيءَ ويرعوي ويَؤوبَ إلى الهدى والرّشاد[2]، ولتجري هذه الجملة الجليلة مجرى الأمثال السّائرة، وتكون عنوان القلوب الحائرة.

فائدةُ تقديمِ المسند إليه على المسند الفعليّ:

عِلْمُ إسرار الإنسانِ وإعلانه خصيصةٌ لا يعلمها أحدٌ من البريّة

قُدِّم المسندُ إليه لفظ الجلالة (اللّه) على المسند الفعليّ ﴿يَعۡلَمُ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾، دون العكس، فيُقال: (ويعلم اللّه)؛ للدّلالة

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 385، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 124، ومحمود صافي، الجدول: 14/ 298.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 131.

على الاختصاص والحصر، فاللّه وحده، لا غيره مختصٌّ بِعلمِ السرّ والعلانية، وفيه من الجمع بين الرّهبةِ منه سبحانه والرّغبة فيه ما لا يخفى[1]، وعلمُ اللّه تعالى لما يُسرّه الناسُ وما يعلنونه متقرِّرٌ تقرُّرًا ذاتيًّا، فالتّقديم في الحقيقةِ هو لتقويةِ الحكم الإسناديّ، وأمّا الاختصاص فمنتزعٌ من السّياق.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع لفعل العلم:

علمُ اللّه محيط بــكــل شيء إجمالًا وتفصيلًا

التّعبير بالمضارع يُفيد في غالب استعمالاته التَّجدُّد، لكنَّه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ أفاد أنّ أفعالهم في موضع الترصّد المستمرّ، فكلّ إسرارٍ وإعلان فاللّه يعلمه على الدّوام، فالأفعال معلومةٌ بتفصيلاتها وجزئيّاتها وآحادها، فالتّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ إشارة إلى تمام علم اللّه بالجزئيات كما يعلم الكليّات، فهو دليلٌ على استمرار عِلم اللّهِ بأفعالهم، وأنّه سبحانه ما يزالُ يَشملُهم بعلمه، فلا يفوتُ عِلمُه شيئًا من أحوالهم، وجاء التّعبير بالعِلم بصيغة الفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ لِمناسبة اقترانه بأعمالهم ﴿تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ والأعمال زمانيّةٌ حادِثة، فقال: ﴿يَعۡلَمُ﴾ دون (عليم) كأن يكون النَّظم: (واللّه عليم بما يسرون)؛ ليدلَّ على أنَّ كلَّ عملٍ يُحدِثونه يَصحبه عِلمٌ خاصٌّ به في زمَنِه، فالتّعبير بالفعل المضارع يُشْعِر بأنّه ما من عملٍ يعملونه إلّا وله نَسَقٌ من عِلم اللّهِ يقترن به.

كما أنَّ التَّعبير بالمضارع يُراعي حال المُخاطَبين، فلو قال: (واللّه عليم)؛ لظنَّ هؤلاء الجَهلة أنَّ علم اللّه تعالى متعلّق بما كان لا بما هو كائن، فخاطبَهم بما يفقهون؛ ليدفع عنهم غائلة الأفهام السَّقيمة، وهو ما يُرَشِّحُ أنَّ علمه تعالى ترصدٌّ ورقابة.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 248.

بلاغةُ الكناية:

علمُ اللهِ بأفعال العباد يلزم عنه العقاب أو الثّواب

عبّر النَّظم بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾؛ لأنَّ إسنادَ العِلم إلى الله تعالى كنايةٌ عن المجازاة والمُحاسبة؛ لأنّ الغرض من الإخبار أنّهم واقعون تحت عِلمه في كلّ أحوالهم، وهم مجزيّون مُحاسبون بذلك، فلمّا كان الغرض من ذلك اعتبارَ الجزاء الذي ينتظرهم بسبب إحاطة عِلم الله بهم؛ عبّر بصيغة المضارعة في العلم؛ لأنّ المُجازاة استقباليّةٌ حادثة، فكأنّه قيل: كلّما أحدثوا عملًا في الظّاهر أو في الباطن أحدثْنا لهم جزاءً عليه بما لنا من عِلْمٍ ما يزالُ كشْفُه وإحاطتُه[1].

احتمالات ﴿مَا﴾ ونكتةُ استعمالها:

استيفاء جميع المعاني مقصودُ النَّظم في سياق الشّمول

آثرَ النَّظم التّعبيرَ بأداة ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾، وذلك لاحتمال النَّظم معنيين:

الأول: أن تكون بمعنى الاسم الموصول، ونكتةُ التَّعبير بها دون الموصول الظّاهر، فلم يَقُلْ: (الّذي يُسرّون)، وهي مستعملة في صفات العقلاء؛ لإفادةِ الإبهام والعموم، فتقع على كلّ شيء يَدخل تحت لواءِ لفظيِّ السّرّ والعلانية.

الآخر: أن تكون مصدريّة، بحيث تؤَوّل مع الفعل بعدها بمصدر، فيكون المعنى: يعلم إسراركم وإعلانكم، ونكتةُ المصدريّة: الجمع بين معنى المصدر ومعنى الفِعل في مَوْرِدٍ واحد[2]، والاحتمالان مرادان، فالله يعلم كلَّ ما يُسرّه النّاسُ ويُعلنونه، مهما دقَّ أو جلَّ، في قديمٍ أو جديد، وهذا لا يكون بهذه الدّقة لو أتى النَّظم بتعبيرٍ آخر.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 248.

(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 309، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 6/ 289، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 131.

نكتةُ التَّعبير بالمضارعِ لفعل الإسرار والإعلان:

عِلْمُ الله شاملٌ للمستجدّات كما هو للسّابقات

عبَّر النَّظم بالمضارعِ في قولِه تعالى: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ علم اللّه تعالى شاملٌ لما يستجدّ من إسرارٍ وإعلان، وأنَّه لا تفوته الصَّغائر الخفيَّة الحادثة ولا الواضحة الجليّة القادمة، وللإيماء إلى أنَّ علمه تعالى الّذي هو كناية عن رقابته على عبادِه، سيكون للمستجدّات كما هو للسّابقات، وهو أرسخ دلالة من أن يُقال: (ما أسررتم وما أعلنتم)، ودقائق النَّظم توحي بأنَّ الإنسان يجهل صفات اللّه تعالى، وأنَّه عليم بما كان وما سيكون وما هو كائن، وإن عَلِم ذلك معرفةً مجرَّدة، فقد يتهاون في معرفته معرفة سلوكيَّة مقوِّمة.

غرضُ حذف المفعولِ:

أفعال الإنسان ما بين إسرارٍ وإعلان والله بهما قد أحاط

حُذفَ متعلّق الإسرار والإعلان في قوله تعالى: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ فلم يعيّن مفعول الإسرار والإعلان، وذلك لغرضين:

الأول: عدمُ إمكانِ تعيُّن المفعول أصلًا؛ لأنّ المقصود هو العموم المُطلق الدّال على إحاطة العِلم التامّة بكل ما يُسَرّ وكلّ ما يُعلَن، في الجزئيّات والكّليّات وما دون ذلك وفوقه.

الثاني: تنزيلُ الفعل المتعدّي منزلةَ الفعل اللّازم، وهذا حال الإنسان، فأفعاله ما بين إسرارٍ وإعلان، فاتِّصاف أفعال النّاس بالإسرارِ والإعلان، هو اتِّصافٌ شاملٌ لكلِّ أفعالهم، فلا تخرج عن هذين الوصفين، فالحذف جاء لهذين الغرضين، وبه تتحقَّق جزالةُ النظم الكريم، وما يتعلق بالغرض الصَّوتي من مراعاة الجرس في الآية وفاصلتها فهو تابع للدّلالي.

براعةُ تقديم الإسرار على الإعلان:

تساوي علم الله بالسر والعلانية

قدَّم النَّظم الإسرارَ على الإعلان في قوله تعالى: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وذلك للآتي:

الأول: دَفْعُ تَوَهُّمِ المخاطَبين، فالإنسان يَتَوَهَّمُ أنَّ إسرارَه يخفى، فآثرَ النَّظم بما هو في اعتقاد المخاطَب أخفى؛ لدفعِ هذا الظَّنِّ.

الثّاني: معرفةُ الإسرار أصعب من معرفة الإعلان في علم الإنسان، لكنَّهما يتساويان في علم الدَّيّان، فآثرَ البدءَ بالأصعب فيما يظنُّه العاجز؛ لدفع مظنَّة صعوبته لدى اللّه القاهر سبحانه، ولو عكس لوقع اعتقادُ المخاطَب في شَرَك إبليس.

الثّالث: مراعاة واقع الأفعال، فالأفعال تبدأ سرًّا، ثمّ يُصبح بعضُها علنًا، فآثرَ النَّظم البدء بالإسرارِ؛ لدفعها لدى العاقل إن كانت في دائرة أفعال الأشرار.

بديعُ فنِّ الطِّباق:

الأضــدادُ قرائن الإحاطةِ ودلالاتُ الشُّمول

بين قوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ﴾، و﴿تُعۡلِنُونَ﴾ فنُّ الطِباق بالإيجاب، صُرِّح فيه بالضِدّين؛ الإسرار والإعلان، وغرض المطابقة الدّلالة على استغراقِ علم اللّه ﷻ لأحوال المخلوق جميعًا الظّاهر منها والباطن، وفيه إيعادٌ لمن يستخفي من اللّه، ويستبطن السّوءَ والكيدَ، أنّ عِلمَ اللّهِ مُدرِكُه وكاشِفُه مهما تستّر أوِ استخفى، وفيه تعريضٌ بالمنافقين أنّ عقائدهم الفاسدة وأضغانهم الباطلة مرصودةٌ مرقوبةٌ وإنْ كتموها فلم يُفصِحوا عنها؛ فإنَّ اللّه يعلمها.

فوائدُ الإخبار بعلم الله تعالى:

تنوُّعُ فوائد الخبرِ دلـيـلُ تـمكّـن النَّظم من سردِ الحقائق وعرض الدّقائق

للخبرِ القرآنيِّ أغراضٌ بديعة سوى مجرَّد الإخبار، فإنَّ للخبرِ فائدةً ظاهرة، وفوائد أخرى باطنة، كما أنَّ له لازم الفائدة، ومن فوائد إخبار اللّه تعالى للمخاطَبين بأنَّه يعلم إسرارَهم وإعلانهم:

أولًا: التّعريض بفريق المشركين وإبطال عقيدتهم في معبوداتهم الباطلة، كأنّه قيل: (أفمن يعلم سِرّكم وعلانيتكم كمن لا يعلم ذلك)، بعد أن قال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، فتحدّاهم بالعِلم بعد أنْ

تحدّاهم بالخلق، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ إمعانٌ في التّحدّي والتّبكيت، وهو للمؤمنين زيادةٌ في الهُدى والتّثبيت.

ثانيًا: العِتاب في التّقصير بعد التّخفيف والتّيسير، فبعد أنْ أخبرهم أنّه لم يُكلفْهم حقّ الشّكر على نعمِه؛ لعدم إمكان إحصائها، فرضيَ منهم اليسير من الشّكر، أخبرهم في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ إلى أنّهم رغم ذلك قصّروا في الميسور المُمكِن، فعاتبهم وحذّرهم بأنّه يعلم سِرّهم وعلانيتهم، فيجازيهم على إحسانهم وعلى تقصيرهم في الأمرين معًا.

ثالثًا: الغرض من الخبر إفادةُ تمكّنِ عِلمِه ﷻ من جميع المعلومات، ففيه إشارةٌ إلى سَبْقِ تعلّقِ عِلمِه بالخفيّ قبل الظاهر، ففي تقديم السرّ على العلانية إشارة إلى كمالِ الصّفة في الكشْفِ والإدراك والدّراية.

رابعًا: المساواة بين عِلْمَيْه المُتعلّقين بالسرّ والعلانية على أكمل وجه وأتمّ غاية، وفيه دلالة عظيمة، وهو أنّ اللّه يعلم السِرّ المضمر في الصدور قبل إيجاده في الخارج، ويعلمه بعد إعلانه وإنفاذه، فهو عليمٌ بالكيفيّتين، وفي ذلك من الوعيدِ بهم والإيذانِ بمحاسبتهم على مثقال الذرّ، والتشهير بعجزِ من أشركوه مع اللّه في عبادتهم في الخلْق والعِلم[1].

بلاغةُ العطفِ بين المتقابلات:

العبوديّةُ حقٌّ للّه تعالى المتصف بالخلق والعلم والقدرة

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، وعلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ لإتمام المقابلة بين اللّه ﷻ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 105، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 361، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 125.

المُستحقّ للعبوديّة الخالصة بما اتّصف به من كمال القُدْرَةِ وتمام العلم وانفراده بالخلْق، وما يدعونهم أربابًا من دونه المسلوبين من تلك الصّفات التي تَقضي بعدم استحقاقهم ونزول رُتْبَتِهم[1].

نكتةُ استعمالِ الاسمِ الموصول:

عقلُ الكافر محجوبٌ عن استبانة الحكمة ورؤية الحقِّ

صُدِّرت الجملة ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالاسم الموصول الظّاهر؛ لتمييزِ المُخبَرِ عنه أكملَ تمييزٍ، فهم يعرفونه حقّ المعرفة ومُتَعَيِّنٌ لهم في خصائصه وأوصافه، ومع ذلك يعبدونه ويُشركونه مع الخالق العظيم، ففي الموصوليّة نعيٌ على عقولهم وتعريضٌ بهم وذَمٌّ لهم، والمقصود بالموصول معبوداتهم من الأصنام، وعبّر عنها بالّذين، وهو للعاقل؛ لكونها عُبِدَتْ واعتُقِدَ فيها الألوهيَّةِ، فنُزِّلتْ منزلة من يعقِل، تمامًا كما حصل في (مَنْ) في قوله: ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، والضّمير في الآية للمشركين الّذين هم بعض المُخاطَبين بالضّمائر في الآيات السابقة[2].

بلاغةُ حذفِ الموصوف:

ينغمِرُ الكافرُ في بئرِ الغيّ حتّى يعبد من هو أعجز منه

حُذف الموصوف في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وأُقيمت الصِّفة وهي الاسم الموصول مكانه، والتَّقدير: والأوثان الّذين تدعونها من دون الله، أو الأوثان الّذين يدعونها من دون الله، على القراءتين، غَيْبَةً وخطابًا ﴿يَدۡعُونَ﴾ و﴿تَدۡعُونَ﴾[3]، فحذفُ الموصوف، وهو الأوثان، والمفعول العائد عليها، وهذا الحذف جزل جدًّا، مناسبٌ لحال المخاطبين، إذ يُضمِرون عدمَ قدرة الأوثان على شيء، فجيءَ بالاسم الموصول بدلًا من الموصوف؛ لثلاثةِ أمور:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 125، ومحمود صافي، الجدول: 14/ 298.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 157، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 125.

(3) عاصِم ويَعْقوب: (والَّذين يدعونَ) بالياءِ، والباقونَ بالتّاءِ. يُنظر: ابن الجزري، تحبير التيسير، ص: 430.

أولًا: الإشارةُ إلى المعبودات، إذ يكفيهم ذلك، وحذف الضّمير تابعٌ لحذف الموصوف.

ثانيًا: الاكتفاءُ بالاسم الموصول لعدم مقابلة اسمهم الصَّريح مع اسم اللّه تعالى.

ثالثًا: تنوُّعُ المعبودات وتعدُّدها، فكان ذكرُ الاسم الموصول شاملًا لعمومِ المعبودات، وهو أولى من النَّصِّ في التَّعيين.

فائدة تقديمِ المسندِ إليه على المسند الفعليّ المنفيّ:

سفيهٌ من يعتقد في سافِلِ الرّتبةِ شأنًا

قُدّم ذكرُ المسند إليه (الموصول) على المسند الفعليّ المنفيّ الواقع خبرًا، وهو قوله: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾؛ للاهتمام وتقوية الحكم، على معنى: تلك الأصنام لا تخلقُ شيئًا، كيف وهي جامدةٌ صمّاء؟! أو للاختصاص، فيكون بقصد المبالغةِ المجازيَّة بغرض التنبيه على حقارة الرّتبة ونزول المقام، وهو مؤذِنٌ بِتَسْفيهِ عقل من يعتقِدُ في سافِلِ المكانةِ شأنًا.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في فعل الدُّعاء:

عبادةُ المشركِ ليست مجرَّد فعلٍ طائش؛ بل هي منهجٌ فاشٍ

صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تُصوّر مدى سماجَةِ وحماقةِ الدّاعين غير اللّه تعالى، وهم يُزاوِلون دعاءهم وتعبّدهم لما لا ينفع ولا يضرّ ولا يعلمُ ولا يَخلُق؛ فهيئَتُهم المَقيتَة، وهم مُتلبِّسون بالفِعل، تَحكي إصرارَهم واستمرارَهم على مُزاولة الشِّرك وتكريرِ أعمالِه وتجديدِ أحوالِه، وهي كذلك تُبيِّن أنَّ دعاءهم ليس مجرَّد فعلٍ طائشٍ؛ بل هو منهجٌ فاشٍ، فهم يدعون دعاء المقبل على طلب حاجاته ومنافعه ومصالحه، وهو ﷺ الحريّ بذلك.

براعة اختيار لفظ ﴿دُونِ﴾ لا (غير):

لا تستوي فوقيّة الحقيقة مع دونيّة الزّيف

آثرَ النَّظم ذكر الدّونيَّة دون الغَيْريَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فلم يَقُلْ: (يدعون من غير اللّه)؛ وذلك للدّلالة

على دنوّ المكانة، وتفاوت الحال، لِمَنْ يدعونهم من دون اللّه، وهو يُشعِرُ بنفي التّساوي بين معبوداتهم الباطلة وبين المعبود الحقِّ ﷻ.

ولفظ ﴿دُونِ﴾ اسمٌ بمعنى (غير)، يدلّ على أدنى مكانٍ من الشّيء، فأُتيَ به للدّلالة على نزولِ ما عَبَدوه في الرُّتبةِ والمقام عن مقام العليّ الكبير، وأمّا لفظ (غير)، فهي غير مناسبةٍ لهذا السّياق كمناسبة ﴿دُونِ﴾؛ لإبهام مفهومها المراد منها، فهي لا تتعرّف بالإضافة، والمفهوم المراد هنا متعيِّنٌ غير مبهم، وهو الأصنام، بخلاف قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، وقوله تعالى: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ [الأنعام: 14]، ولم يَقُلْ: (أدون)؛ لأنّ المراد بحكم الغَيْرِيَّة هنا مطلقُ ما سوى اللّه تعالى، فهو غير مُتَعَيِّنٌ، فيشملُ أيَّ وليٍّ مهما كان، وأيّ خالقٍ سواه سبحانه على جهة الافتراضِ والتحدّي[1].

بلاغةُ التَّعبير بالحال والاستقبال:

الادّعاء يَثْبُتُ بتحقيق أمارَتِه في الحال والاستقبال

عبّر النَّظم في قوله تعالى: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ بنفي الحال والاستقبال بدلًا من الماضي، فلم يقل: (لم يَخْلُقوا)؛ لقطع تجديد الادّعاء من أيّ ضالٍّ بأنّ معبوداتهم يستطيعون ذلك، واستغراق التّحدّي بعجزهم وعجز آلهتهم المزعومة للحال والاستقبال، وهذا أكمل في التحدّي، مراعاةً لزمن الخطابِ به، إذْ هو منوطٌ بالحاضر والمستقبل، والاقتصار على نفي الماضي يفتح بابَ الإيراد من المُدّعي أنّ عجْزَه كان عارِضًا غير مستمِرّ، فكلّما أحدثَ إيرادًا وادّعاءً واجَهَهُ التّحدّي بعجزه في كلّ وقتٍ يُحدِثُ فيه ذلك.

غرض تنكير ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

المبالغةُ في العموم والتنويعُ والتحقيرُ

نُكِّر لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ إمّا بغرض المبالغة في تقرير العموم، فأصنامهم لم يحصل منها خلْقٌ لأيِّ شيءٍ من الأشياء، لا حقيقةً ولا مجازًا، لا واقعًا ولا ادِّعاءً، لا صدقًا ولا كذبًا.

(1) الراغب، المفردات: (دون)، وابن عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 205.

وإمّا بغرضِ التَّنكير للتَّنويع، أي: لم يحصل منها خلْقٌ لأيّ شيءٍ من الأشياء أيًّا كان نوعه، صغيرًا أو كبيرًا، حقيرًا أو عظيمًا.

وإمّا بغرضِ التّنكير للتَّحقير والتّقليل، أي: شيئًا ولو ضئيلًا، فكيف بما هو أعظم منه[1]؟! وهذه الأغراض مرادةٌ، فالنِّكات لا تتزاحم إن نُضِّدت في سلك البلاغة، ويُرشّح إرادة عموم هذه الأغراض، اختيار لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾.

بلاغةُ الطباقِ بين النَّفي والإثبات:

لكلّ ساقطةٍ في الضّلال لاقِطة

في قوله تعالى: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ طِباقٌ بالسّلْبِ بأداة النفي بين قوله: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ وقوله: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾، فأحَدُ التّركيبين مُثبَتٌ والآخر منفيّ، وغرض الطّباق: تقرير أنّهم جَمَعوا إلى عدمِ خالِقيّتهم لشيءٍ اتّصافَهم بثبوتِ المخلوقيّة لهم، فهم مخلوقون غير خالقين، وهو تَرَقٍّ في الاستدلال، بعد نفي خالقيّتهم فقط في قوله: ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، وفائدة هذا الاستطراد في الاستدلال: قطعُ الاحتمالِ بأنْ يَدّعي أحدٌ من ضالّي العقول أنّ تلك المعبودات المزعومة لم تَخْلُقْ ولم تُخلَق، فيُثبِتُ لها القِدَمَ، فاستوفى بالنّفي والإثبات بطريق الطّباق موارد الاستدلال عليهم من جميع الوجوه[2].

فائدةُ تقديمِ المسند إليه على المسند الفعليّ:

من أعجب الحماقة أن يعبدَ الصّانع مصنوعَه

قُدِّم المسند إليه على المسند الفعليّ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾؛ للتّعيين والاختصاص، أي: هم خصوصًا يُخْلَقونَ، وفائدة الاختصاص: الإشارة إلى أنّ تلك الأصنام يتوارد عليها الخلْقُ مرّتين، الأولى: خَلْقُها بإيجاد مادّتها الأصليّة على غير مثالٍ سابق على جهة الحقيقة، والثّانية: خَلْقُها بالصّناعة بطريق النَّحْتِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 105.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 131، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 105.

والتَّصْويرِ من عابديها، وهو خلْقٌ مجازيّ، من باب المشاكلة للخَلْق الأصليّ الحقيقيّ، فهي غارقةٌ عريقةٌ في توالي صنوفِ هيئاتِ الخَلْقِ عليها بخلاف غيرها[1]؛ ففيه رمي العابدين بسفاهةِ العقول وطياشة الفكر، وغباوة الاختيار وتفاهة التَّطَلُّعاتِ.

بلاغةُ الخبر:

عبادة المشركين مُـنْـكَـرٌ يعلوه عجبٌ

وقعت جملة ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ استئنافًا إخباريًّا لمبتدأ محذوف، أي: هم أموات، أو تَتِمّةُ الخبَر لما قبله، فقد أخبر عن الّذين يدعونهم من دون الله بخبرين، الأوّل: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾، والخبر الثّاني: ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾[2]، وعلى الإعرابين، فإنَّ الخبريَّة فيهما تَحْمِلُ عُنْصُرَ الإنكار والمفاجأة، أي: أنهم لم يعبدوا مخلوقين فحسب؛ بل عبدوا أمواتًا غير أحياء! وهذا في غاية العجب، وعجيب الإنكار.

بلاغةُ الاحتراس:

مـوتُ الأوثـانِ جُـمـودٌ لا يقبل الحياةَ

وُصف الأموات في قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ بنفي الحياة، والموت لفظٌ يتضمَّن عدمَ الحياةِ، فكان ذلك كالتَّكرار، ونُكْتَتُهُ التَّأكيدُ والمبالغةُ في اتِّصافهم بالموت احترازًا عن مظنَّة الموت المجازيِّ كما هو في وصف الكافرين، واحترازًا من الأموات المتّصفين بالموت بعد سابقِ حياة، أو الأحياء بعد عَدَم، فاحترز بهذا القيد؛ ليدلّ على أنّها جمادات لا تقبل الحياة لا سابقا ولا لاحقًا، ولا يعتريها الشّعور والإحساس[3].

بلاغةُ الاستعارة:

الضّالُّ ميِّتٌ لا حياةَ فيه وجامدٌ لا روح تَسْتَعْليهِ

إذا جعلنا المقصود بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ العابدين من المشركين، فيكون قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ خبرًا

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 249.

(2) الخطيب، التفصيل في الإعراب: 7/ 139.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106.

عنهم، وفي وصفِهم بالموتِ استعارةٌ تصريحيّة، حيث شبّه المشركين في ضلالهم - وهم فارغون من الهدى - بالأموات في فراغِهم من الحياة[1]، ويكون وصفهم بغير أحياء من باب الوصف الدّال على الاستمراريَّة، ويكون نظير قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [البقرة: 6]، فالوصف للتَّخويف والتَّحذير من الاتِّصاف بصفاتِهم.

بلاغةُ التَّهكُّم:

البيّنات الواضحات إنقاذٌ إلهيٌّ من الضّلالات الحائرات

يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾، مقصودًا به الأوثان، على معنى أنها جمادات إذا طُلِبَتْ للتّحريك، وأثيرتْ للبعثِ بعد فناء مادّتها، لم تشعر بذلك؛ لأنّها في غاية الجمود، أو المشركون على معنى أنَّهم لا يعلمون زمان بعثهم، ويكون الضّمير في ﴿أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ إمّا للأصنام أو للمشركين، وعلى كلا التّقديرين فيه تهكّمٌ بالمشركين، وتهوينٌ بِعُقولِهم،؛ لأنّه إذا كانت الأصنام التي عبدوها لا تشعر بوقتِ بعثِها وهي آلهةٌ! فأوْلى بها ألا تعلم بوقتِ بعثِ مَنْ عبدوها، فأين إذن جزاء عبادتهم لها؟ وإذا كان الضّمير في ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ للمشركين، فهو تأكيدٌ بانقطاع الصِّلة التّام بين المعبود ومنْ عبَدَه، بحيثُ لا يعلمون عنهم شيئًا ولا يشعرون بهم في أحرج أوقاتهم، وهو زمن البعث، فعبادتهم لها عبَثٌ وإهدارٌ وتضييع[2].

بديعُ فنِّ الإدماج:

إدماج الحديث عن البعث في سياق إثبات التّوحيد

قرَّر السّياق في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ البعث مع تقرير الوحدانيّة للّه تعالى في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾، وقوله: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ وهذا التّقرير من بديع الإدماج؛ لأنّ هذين هما أصلُ إبطالِ عقيدة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 386، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 517.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 517.

المشركين، وتمهيدٌ لثبوتِ التّلازم بين إنكار البعث وإنكار التّوحيد في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾، ولذلك فالظّاهر أنّ ضميري ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ و﴿يُبۡعَثُونَ﴾ عائدان إلى الكفّار على طريق الالتفات في قراءة الجمهور، وعلى تناسق الضّمائر في قراءة عاصم ويعقوب[1].

بلاغةُ الالتفات الناشئة عن تنوّع القراءات:

ليس بحيٍّ من لا يشعُر وليس بشاعرٍ من لا يؤمن

إذا جُعلت الضّمائر في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ راجعةً إلى المشركين، فيكون النّظم قد جرى على أسلوب الالتفات من الخطاب للغَيْبَةِ في قراءة الجمهور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ثمّ التفتَ للغيبة، فقال: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾، وأمّا في قراءة عاصم ويعقوب، فالضّمائر جميعها للغَيْبَةِ اطّرادًا للنّظيرِ مع نظيره ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ثمّ اطّرد على ضمير الغَيْبَةِ جريًا على نفْسِ النّسَق، فقال: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾[2].

نكتةُ التَّعبير بمفردة الشُّعور:

عدم استشعار الخطَر دليلُ العجْز والقصور

عبّر النَّظمُ بلفظ الشّعور دون مرادفاته في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾؛ لِنُكتةٍ، وهي الدَّلالة على انتفاءِ أدنى قَدْرٍ لهم من العِلم، وهو العِلمُ الحاصل بالحواسّ، إذْ هو عِلْمٌ ضروريّ يقع بأدنى مُلابسة؛ لأنّه حِسّيٌّ لا يحتاج إلى نظرٍ واستدلال، فإذا انتفى هذا القدرُ من العِلم عنهم، فانتفاء ما زاد عليه في حقّهم أولى وأظهر، سواء كان ضمير ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ إلى المعبودين أو العابدين، ومعنى رجوعه للمعبودين: هو ثبوت عجزهم عن أدنى قدرٍ من العلم، فكيف يستأهلون العبادةَ إذن؟! ومعنى رجوعه للمشركين: انتفاء

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 99، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 126.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 126.

عِلمِهم بوقتِ بعثِهم من جميع الوجوه، ولو بأوضح وأظهر طُرقِ العلم وهو الشّعور، لاقتحامه بغتةً عليهم، فلا فُرصةَ عندهم لاستشعار قدومِ البعثِ وحصوله، وفيه من الوعيد والتّهديد لهم ما فيه[1].

وفي تسوية المعبودين والعابدين في احتماليّة نفي الشُّعور إهانةٌ ضمنيَّةٌ للمشركين، فهُم وإن أظهروا أنَّهم يعبدون الأصنام ويقدِّسونها، لكنَّهم في أغوار صدورِهم يعلمون حالَها، فتسويتهم بالأصنام تنزيلٌ لهم منزلة الحجارة، فهم إن شعروا بالإهانةِ صمتوا لعدمِ قدرتِهم على ردِّها، وإن لم يشعروا فهم والحجارة سواء في كونهم وقود النّار.

سرُّ استعمال ﴿أَيَّانَ﴾ دون (متى):

اختصَّت (أيّان) في سياق السُّؤال عن يوم القيامة

﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام عن الزّمن المُستَقْبَلِ، ولا تُستعمل إلّا في سياق التّفخيم، فيُستَفْهَمُ بها عن الشّيء العظيم، بخلاف (متى) فإنّها عامّة في الاستفهام عن الزّمان، ولا تختصّ بموقفٍ دون آخر، ولذا آثرَ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ التّعبير بأداةِ ﴿أَيَّانَ﴾ لِخَطَرِ أمرِ البعثِ، وتفخيمًا لشأنه وإعظامًا له ولكونه أرهبَ شيءٍ يُنتظَرُ للكافرين، وأرغبَ شيءٍ يُرتجَى للمتّقين[2]، وقد أتت في القرآن ستَّ مرّات كُلّها في سياق البعث.

نكتةُ بناء الفعل للمفعولِ:

الإطناب على التّحقيق إيجازٌ لاكتنازه اللّطائف والفوائد

بُني الفعل للمفعول في قوله تعالى: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ إيجازًا في النَّظْمِ؛ لوضوح الفاعل في اختصاصه بالفعل وقَصْره عليه، فلا يَقْدِرُ على البعث إلّا اللّه، ولو جاء الفعل على تسمية الفاعل، فقيل: (وما يشعرون أيّان يبعثهم اللّه)، لكان فيه إطنابٌ فيما هو واضحٌ لا يحتاج إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر)، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 517، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 126.

(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/ 669.

تنبيه، والإطناب في القرآن على التَّحقيق إيجازٌ لما فيه من الفوائد العظيمة، واللّطائف الجليلة، كما أنَّ فيه محافظةً على الفاصلة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإسرار والإخفاء:

الإخــفــاء في الأعيان والمعاني، ويَغْلُبُ الإسرارُ في المعاني

الإسرار: هو إنزال الشّيء منزلةَ السِّرّ، والسّرّ: هو إخفاء الشّيءِ في النّفْس، ويُقال: في هذا الكلام سِرّ؛ تشبيهًا له بما يُستودَع النّفْس؛ ولذا غلبَ استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فلا يُقال: أسررتُ تحتَ الثّيابِ قطعةَ خُبْزٍ؛ بل يُقال: أخفيت، والإخفاء: هو سَتْرُ الشّيء عن الحواسّ، فلا يُرى ولا يُسمَع، وكما يُسْتَعْمَلُ في الأعيان يُسْتَعْمَلُ في المعاني؛ ولذا أُسْنِدَ إلى الصّدورِ ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]، واستُعمِل في عموم كلِّ مَخْفيّ ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ [الممتحنة: 1]، فالإخفاء أعمّ من الإسرار(1).

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 447، ص: 533، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي - سر)، والراغب، المفردات: (خفى - سرر).

﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾ [النحل: 22 - 23]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

التَّوطئة بالتَّخلية قبل التّحلية

لمّا استدلّ في الآيات السّابقة على بطلان الشّرك وعدم استحقاق أحدٍ للعبوديّة سواه، وقرّر عجز آلهتهم عن الإيجاد بالخلْق والإعادة بالبعث، أتْبَعَ ذلك التّفصيل بتقريرٍ مُجْمَلٍ ونتيجة عامّة تُلخِّص إلى إثبات الوحدانيّة الإلهيّة ونفي التّعدّد وما ينبني على مخالفة ذلك وجحوده، فكانت الآيات السّابقة كالتّوطئة لما قرَّرته هاتان الآيتان.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّنكِرَةٞ﴾: اسم فاعل من الإنكار، وهو ضدّ العرفان والإقرار، وأصل (نكر) خلاف المعرفةِ التي يَسْكُن إليها القلب، لورود شيءٍ عليه لا يتصوّره، فهو ضربٌ من الجهل، والمراد هنا: أنّ قلوبهم تنكر الأمر الواقع وتجحده، وهو الوحدانيّة[1].

المَعنى الإجماليُّ:

الاستكبار يُعمي القلبَ فيُنْكِر الحقّ والعِلم

بعد إقرار الأدلّة التّفصيليّة في شأنِ المعبودات، شرعتِ الآيةُ في بيانِ أنَّ الإله المستحِقّ للعبادة، هو اللّه الواحد الأحد الفرد الصمد، وحالُ الذين لا يؤمنون بالآخرة الإنكار والجحود لِوَحْدانيَّتِه سبحانه؛ لعدم خوفهم من عقابه، فهم مُتَكَبِّرونَ عن قَبول الحَقِّ، واللّه يعلم ما يخفونه من عقائد باطلة وأقوال زائفة وأفعال منكرة، وما يظهرون، وسيجازيهم على ذلك، إنّه ﷻ لا يحبّ المستكبرين عن عبادته والانقياد له.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نكر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 128.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصلِ الجملة:

تقريرُ النَّتائجِ بـرويَّـة يأتي بعد المقدِّمات الضَّروريَّة

جملة ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ استئنافيّةٌ ممّا قبلها؛ لتقرير النتيجةِ بعد المُقدِّمات الاستدلاليّة السّابقة في حِجاج المشركين، فأتى بالغرض المقصود من الاستدلال، وهو تقرير أنّ الألوهيّة مُستَحَقّةٌ لإلهٍ واحدٍ لا شريك له، لا يُنازِعه فيها أحد، وهذا ثابتٌ بالبرهانِ القطعيّ المتقدِّم الذي لا يُنازِع في بداهتِه وأحقّيَّتِه أحدٌ سليم العقل[1].

فائدةُ إضافة لفظ (إله) إلى ضمير المخاطبين:

الله إله العبادِ قهرًا واختيارًا تكليفًا وتشريفًا

أُضيف لفظ (إله) إلى ضمير المُخاطَبينَ في قولِه تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾؛ للدّلالة على أنّهم مكلّفون ومسؤولون ومجزيّون على اعتقادِ الوحدانيّة، أقاموا به واعتنقوه أم خالفوه وجحدوه؟! فهم مناطُ هذا التّقرير تكليفًا وإلزامًا، ونكتةُ مجيء الضّمير بصيغة الخطاب دون غيره، فلم يَقُلْ: (إلههم إلهٌ واحد)؛ لأنّ الأصل في التّكليف أن يكون خطابًا، فيقع بصيغته، للدلالة على معنى الاستحضار والمواجهة والتّعيين لذات المُخاطَبِ، وأنّه هو المعنيّ المُراد، فيدخل فيه كلّ سامعٍ وكلّ تالٍ وكلّ مُبلَّغٍ بتلك الآية على وجه التّعيين لذاته بضمير الخطاب في كلّ وقت؛ ليستشعر كلّ أحدٍ أنّ الخطاب في الآية متّجهٌ له بخصوصه، فالخطاب جاء على أصله.

كما أنَّ في الإضافة فوائد منها: اختصاص اللّه بالمُخاطَبينَ قهرًا وعلوًّا وقدرةً ومُلْكًا وخَلْقًا، وتشريف المُخاطَبينَ وإعزازٌ لشأنهم لو أذعنوا له، وتقرير الحقيقة بقطعِ النَّظر عن اعترافهم بذلك من عدمه، فهو إلههم رضَوا بذلك أم لم يَرضَوا[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 133، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 128.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 362.

سرُّ التَّعبير بالإله دون ذكر لفظ الجلالة (الله):

التنصيصُ على ما ينكرونه من استحقاقه تعالى بالألوهية

آثَرَ النَّظم اختيارَ لفظ (إله) دون الإتيان بلفظِ الجلالةِ (اللّه)، فلم يقل: (اللّه إلهكم)؛ وذلك؛ لأنَّ الغرضَ، هو النّص على وصف الألوهيّة الصّريح بلفظ (إله)؛ لإجراء وصف الوَحْدانيَّةِ عليه ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾، فهُم يَعْلَمونَ (اللّهَ) ولا ينكرونه، فإنكارهم متعلّقٌ باستحقاقه الألوهيّة عليهم واستحقاقه الألوهيّة من غير شريك، فأتى بما له دخلٌ بمحلّ النّزاع دون ما لا دخْل له فيه، واقتصر على محلّ إنكارهم دون ما وضح لهم ولا يلتبِس عليهم؛ إيجازًا وتقصيرًا في الكلام، إذِ الحُجَج تُصاغ صياغة القوانين المُحْكَمَةِ الخالية من تكرار الواضحات، ولم يَقُلْ: (إلهكم اللّه واحد)؛ لاحتمال أنْ يكون مفهومه: أنّ الإله المُسمَّى بالاسم الجليل (اللّه) هو واحد، وأنّ هناك إله آخر يُسمّى بغير ذلك، فلمّا قال: (إلهكم إلهٌ واحد) أثبت وصف الأُلوهيَّةِ لمُسمًّى واحد فقط.

بلاغةُ إقامةِ الموصوف خبرًا دون صفته:

نفيُ التعددية والاحتمال الباطل

آثَرَ النَّظم الإخبار بالموصوفِ ﴿إِلَٰهٞ﴾ دون إجراء الصّفة ﴿وَٰحِدٞۚ﴾ مُجرى الموصوف؛ فيكون هو الخبر، أي: لم يَقُلْ: (إلهكم واحد) مع تحقّق مضمون الخبر في المبتدأ؛ وذلك لفائدتين وهما:

أولًا: تمام نفي التّعدديّة، والنصّ على الوحدانيّة، فلو قال: إلهكم واحد، فربّما توهّم متوهّمٌ أنّه واحدٌ في نوع الألوهيّة دون عدد أفراده، كما تقول: عندي نوعٌ من كلّ طَيْر؛ غُرابٌ واحد، وصقرٌ واحد، وعصفورٌ واحد، وهو يقصد وحدة النّوع لا وحدة العدد، فكذلك هنا: قال: إلهكم إلهٌ واحد، أي: معبودٌ واحدٌ لا يتعدّد، فهو واحدٌ في ذاته، وواحدٌ في صفاته، وواحدٌ في أفعاله.

ثانيًا: نفي احتمالٍ باطلٍ، فلو قال: (إلهكم واحد)؛ لاحتملَ إقرارَهم على أن يتّخِذَ كلُّ عابدٍ إلهًا واحدًا، فلا يعبد سواه، ولو

كان غيرَ الإله الذي يعبدُه غيرُه، فيفيد إجازة توزيعِ الآلهةِ واحدًا منها لكلّ فريق، لا سيّما وأنّ بعض المُخاطَبينَ في ﴿إِلَٰهُكُمۡ﴾ قومٌ مشركون، وكان لكلّ قبيلةٍ منهم صنَمٌ يعبدونه، ويجتمعون عليه، بخلاف ما عند القبيلة الأخرى، فكان كلّ صنَم باعتبار كلّ قبيلةٍ، هو إلهُها الأوحد، فلمّا قال: إلهكم إلهٌ واحد، كان كأنّه قال: إلهكم المستحقّ للعبادة وبتسميةِ الألوهيّة، هو إلهٌ في ذاته حقيقةً، وهو واحدٌ لا يتعدّد[1].

نوعُ الفاء ودلالتها:

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إمّا أن تكون تفريعيَّةً؛ لبيانِ موقفِ المشركين من قضية الإيمان المقرّرة في قوله: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾، وفيها معنى السّببيّة، أي: تسبّبَ عن تقرير عقيدة الوَحْدانيَّةِ بالدَّلائل القطعيّة أنّهم أصرّوا على الكفر والعناد، فعدم إيمانهم في موقع النّتيجة لجملة ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾.

التّفريعيّةُ والفصيحة تلتقيان في بناء الجملة اللّاحقة على السّابقة

وإمّا أن تكون فصيحة، حيث أفصحَتْ عن محذوفٍ تقديرُه: (فإذا كان ذلك كذلك فالّذين لا يؤمنون بالآخرة كذا وكذا)[2]، والتَّفريعيَّة والفصيحةُ تلتقيانِ في معنًى واحد، وهو بيان التَّرابط بين الجملتين، وأنَّ السّابقة مهادٌ للاحقة.

بلاغةُ الإطناب:

أصلُ كلِّ كُفْرٍ الغفلةُ عن أصل الإيمان والاستهانة بالآخرة

آثرَ النَّظم الإطناب على الإيجاز، فجاء التّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بدلًا من (الكافرون)؛ وذلك للآتي:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 133، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 362.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 133، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 362، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 128، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4155.

أوّلًا: تعيينهم وتمييزهم أكمل تمييز؛ لأنّ المشركين قد عُرِفوا وتميّزوا بمضمون ما في حيّز الصّلة، وهو عدم الإيمان بالآخرة.

ثانيًا: الإخبار عنهم بالموصول تقبيحٌ لهم واستهجانٌ لذواتهم وأفعالهم.

ثالثًا: الإشعار بعلّيّة استمرارهم على الكفر وإصرارهم على العناد؛ فكأنّه قيل: أَعْرَضوا عن الإله الواحد الّذي لا شريك له؛ لأنّهمُ الّذين لا يؤمنون بالآخرة[1] "فإنّ الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء على الطّاعة بالثّواب وعلى المعصية بالعقاب يؤدّي إلى قِصَرِ النّظر على العاجل، وعدمِ الالتفات إلى الدلائل والاستكبار عن اتّباع الرسول"[2].

دلالةُ التَّعبير بالنَّفي دون الإثبات:

نفيُ الإيمان أوسعُ من إثباتِ الكفرِ وأرسخُ في الإنكارِ

آثرَ النَّظم الكريم الإتيان بأسلوب النَّفي في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ دون أن يقول: (فالّذين يكفرون بالآخرة) بالإثبات؛ للدّلالة على أنّ الإيمانَ لم يكن من طِباعِهم، فهم لم يَتَأَتّ منهم إيمان، ولا يصدر عنهم ما يقتضي النّظر والتأمّل فيما يستدعي الإيمانَ من الدّلائل، فنفي الإيمان يفيد تمام الإعراض، ويُعرِّض بهم بأنّهم ليسوا من الإيمان في شيءٍ، لا بالنّظر في الأدلّة ومراجعتها، ولا بالاعتقاد والتّسليم، إذن فهم ليسوا أهلًا له أصلًا، ولو قال: (يكفرون) بالإثبات لأشْعَرَ بأنّهم نظروا في الدلائل وعقَلوها؛ لأنّ الكافر يسترُ ما قد أبصره أوّلًا، ثمّ يغطّيه بالجحود والإنكار، فلمّا قال: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ عرّفنا أنّهم لم يَكترِثوا أصلًا بالدّلائل والبراهين، ولم تكن محلّ نظرٍ وعنايةٍ لهم قبل كفرهم[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 363.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 363، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 128.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 134.

دلالة استعمال زمن الحال والاستقبال:

آثرَ النَّظم الإتيان بما يُفيد نفيَ الإيمان في الحال والاستقبال، فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (فالذين لم يؤمنوا بالآخرة)، للإشارة إلى أمرين: **الأوّل**: أنّ الدّلائل والبراهين المُستلزِمة للإيمان ما تزال قائمةً تواجههم في كلّ وقتٍ ما بقيَتْ لهم حياة.

الثاني: أنّه مع استمرار حصول تلك الدّلائل يستمرّ إعراضهم وعنادهم، فهُم يزدادون كفرًا يومًا بعد يوم؛ لتجدّد الكفر منهم وإصرارهم عليه.

الكفرُ يزدادُ بالإصرار على أعماله والاستمرار في خِصالِه

معنى الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للتَّعْدِيَة، وقد دلَّت على أنّ الإيمان، هو بمعنى الاعتقاد والتّصديق بالشّيء الّذي يتبعه إن تحقَّق قولٌ وعمل، أو الباء للإلصاق المجازيّ؛ لأنّ المؤمِن يلتصقُ قلبُه بما يعتقده ويؤمن به بحيث لا يفارقه طرفة عيْن.

الإيمانُ حياةُ القلوب وأُنس النُّفوس

سرُّ إيثار لفظ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون مرادفاته:

لفظ الآخرة في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ باقٍ على الوصفيّة، فهو اسم جنسٍ مقرونٍ بأل المُعرِّفة، وإنْ جُعل علمًا على الأوقات أو على المرحلة الباقية بعد فناء الدّنيا، فأل فيه لِلَمح الأصل، ولذا ففي التّعبير به إغناءٌ عن التّعبير باليوم الآخر، لعدم التباس أنّ المقصود بالآخرة، هو ذلك اليوم المعهود، ولم يعبّر بمرادفات ذلك اليوم كالقيامة وغيرها؛ لإظهار معنى ضِدّها، وهو (الأولى)؛ للإشعار بالمنتهى والعاقبة، وأنّ لهم آخِريّةً يؤولون إليها بعد نفاد الحياة الأوّليّة وهي الدُّنيا، وفي إيثار لفظ الآخرة دون غيره، إشهادٌ عليهم بإعراضهم عمّا يقتضي الإيمان به وإقبالهم على ما يقتضي عدم الاستمساك به؛ لأنّ الشّيء إذا كان آخِرًا كان هو الباقي بعد ما تقدّم عليه، فالنّظر إليه أوْلى والاكتراث به أجدر لضمانته، وإذا كان

التمسّك بالآخِرِ المُزيل أحقّ من التمسّك بالأوّل المنصِرم المُزال

الشّيء أوّلًا، ثمّ يَعقُبُه ما يزيله، كما تزيل الآخرة الدُّنيا، كان التّمسّك بالآخِرِ المُزيل أحقّ من التمسّك بالأوّل المنصرِم المُزال.

دلالةُ حذفِ متعلّق اسم الفاعل:

معرفةُ المحذوفِ مع طلبِ عمومِه من أعمِّ أغراض حذف المتعلّقات

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ اسمِ الفاعل في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾، فلم يُعيِّن ما تُنكره؟! لدلالة المقام عليه، أي: مُنكِرةٌ وحدانيّةَ اللّهِ العظيم في ألوهيّته وجلالِه، أو لتعميم مناطاتِ إنكارهم، فقلوبهم مُنْكِرةٌ لجميع ما يوصِلُ لغاية الإيمان التّسْليمِ للّه، فحذف المتعلّق للإيجاز والتّعْميم.

كما حُذِفَ متعلّق اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾؛ لتوسيع حال استكبارهم ومَجالِه، فهم مستكبرون على كلّ ما يُقرِّبهم من الحقّ، ومستكبرون بالباطل ظنًّا منهم أنّه لا عِزّة لهم إلا بالتشبّث به.

بلاغةُ المقابلة في تخصيص الإنكار بالقلوبِ وتعميم الاستكبار:

عِلّة الكفر ترجع إلى فساد الوجدان لا إلى خلَلٍ في البرهان

خصّص النَّظمُ إنكارَ القلوب بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾؛ لكون القلب هو آلة القبول والإنكار، فهو مستودع الإيمان والكفر، وفيه إشارة إلى أنّ عِلّة كفرهم راجعةٌ إلى فساد قلوبهم لا إلى خلَلٍ في الاستدلال والبرهان، فجحودهم بسبب أنفسهم لا بسببٍ خارجٍ عنهم.

وفي المقابل قد عمَّم النَّظم الاستكبارَ فيهم في قوله تعالى: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ دون أن يخصِّصه بالأفئدة أو الصدور أو النُّفوس كما خصَّص الإنكار بالقلوب، فلم يَقُلْ: (وأفئدتهم أو صدروهم أو نفوسهم مستكبرة)؛ للدِّلالة على تمكُّنِ الاستكبارِ فيهم، فهم مستكبرون استكبارًا أصيلًا.

نكتةُ الإسناد إلى الجميعِ لا الأكثر:

إذا فسد المجتمع كلُّه لَحِقته اللّعنة وأحاطت به النّقمة

أسند النَّظم الإنكار إلى قلوب المُتَحَدَّثِ عنهم وكذلك الاستكبار إلى جميع المتحدَّث عنهم في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم

﴿مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾، دون أن يأتي بكلمة (أكثر) كما هي طريقة القرآنِ في كثيرٍ من الآيات، فلم يَقُلْ: (وأكثرهم مستكبرون)؛ وذلك لبيان انتشار الإنكار والاستكبار وفُشوّهما في جميع المنكرين، فالإنكار والاستكبار عن الحقّ آفةٌ ليس فيهم أحدٌ إلا وهو متّصفٌ بهما.

نوع الواو ودلالتها:

الاستكبار بريد الإنكار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ إمّا أن تكون عاطفة، عطفت الجملةَ على جملة ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾؛ وذلك للإشارة إلى أنّ حالَهم من الاستكبار هو عِلّة حالهم من الإنكار؛ فالإنكار والاستكبار متلازمان، أي: صِفتُهم الاستكبار عن كلّ ما لا يوافق أهواءهم، ولذلك تنكِرُ قلوبُهم.

وإمّا أن تكون الواو حاليّة، أي: قلوبُهم منكرةٌ في حال كونهم مستكبرين، فالإنكار لا يكون إلّا في حال الاستكبار(1).

فائدةُ تقديم المسند إليه على المسند المشتقِّ:

تخصيص القلوب الذوات بالوصف

قدَّم النَّظم المسندَ إليه على المسند في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾، فلم يَقُلْ: (منكِرةٌ قلوبهم، ومستكبرون)، فقدّم المسند إليه على المسند المشتقّ (اسم الفاعل في لفظي: مُنكِرةٌ، ومستكبرون)، تقديمًا للموصوفِ على الصِّفة، وتخصيصًا لقلوبهم وذواتهم المعبّر عنها بالضّمير المنفصل، فقلوبهم مختصّةٌ بالإنكار، وأعيانهم مختصّةٌ بالاستكبار، فذلك ظاهرٌ غيرُ خاف، وللدّلالة على أنّ اتّصافهم بالتكبّر غير عارضٍ؛ بل ذاتيٌّ طبْعيّ كأنّه غريزةٌ معتادة.

فائدةُ التَّعبير بالاسميَّة:

الإنكار والاستكبار علامتا أهل النّار

عبَّر النَّظم الكريم بالجملتين الاسميّتين في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 134، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 7/ 141.

﴿مُّنكِرَةٞ﴾، وقوله: ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾، دون أن يأتي بهما فعليَّتين؛ للدِّلالة على استحكام الإنكار فيهم، وتمكّن الاستكبار منهم، فهم معتادون الإنكار والاستكبار مستمرّون ثابتون، لا يُرجَى منهم خير ولا أوْب، إذْ صار اتّصافهم بهاتين الصّفتين كالسّجيّة والطّبْع المتأصِّل فيهم[1].

بلاغةُ الاستئناف:

التهديدُ والوعيد علـى إنكـارهـم واستكبارهم

سيقت جملة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ مساق التّهديد والوعيد على مضمون قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾، فهي من باب إتباع العمل بالجزاء عليه، وذلك في حَملِ الجملة على الاستئناف.

كما يصحّ أن تُحْمَلَ الجملة على الاستئناف البيانيِّ، كأنّه لمّا قال: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾، سأل سائلٌ عن فِعلِ اللّهِ بهم: (فماذا يصنع اللّهُ معهم؟)، فأُجيبَ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ أي: يعلم دقيق أحوالهم؛ ليجازيهم عليها.

براعةُ تركيبِ ﴿لَا جَرَمَ﴾ في سياقِه:

اجتماعُ معاني القطع بالحقِّ وثبوته

اسْتُعْمِلَ تركيب ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ لتقرير معنى الثبوت واللزوم، وأنّ ذلك أمرٌ مقطوعٌ به محسومٌ لا مريةَ فيه، حتّى لا يتشكّك أحدٌ في إحاطة اللّه بالمجرمين، ذلك أنّ (لا جَرَمَ) معناه لا انفصال ولا فكاك، فهو أسلوبٌ عربيّ، ينفي المفارقةَ والانقطاع، فأصل (جرمَ): القطع، فإذا قيل: (لا جرمَ)، فهو نفيُ القطع والانقطاع وإثبات الشّيء بتمامه وكلّيَّتِه، ولذا فسّر تركيب ﴿لَا جَرَمَ﴾ بـ (لا محالة ولا بدّ ولا مفرّ) وغيرها من التّفسيرات التي تفيد الثّبوت واللّزوم، ومن قال: إنّ معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا، فتفسير الشّيء المنفيّ بنظير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 128.

معناه الموجب، فإنّ نفي الانقطاع والمفارقة عن الشّيء يقتضي وقوعه حقًّا ثابتًا، فقولنا: (لامحالةَ من وقوع كذا) يساوي: (ثبوتَ وقوعِه وتحقيقِه)، وهذا معنى (حقًّا)، أي: حقّ أو ثبت حقًّا على أنّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ حينئذ مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوف، والمصدر المؤوّل من جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ فاعلٌ للمصدر المفهوم من معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: (حقًّا)، وعلى معنى (لا محالة) فـ﴿لَا﴾ نافية للجنس، و﴿جَرَمَ﴾ اسمها، والمصدر المؤوّل ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ خبرها، أي: لا محالةَ كونُ اللّهِ عالِمًا بسرّهم وعلانيتهم[1]، وعلى جميعِ هذه التّفسيرات لهذا التّركيب، فإنّها متقررة في الآيةِ على أتمِّ وجهٍ، وهي مرادةٌ بجميع دقائقها اللّغويّة، فإنّ القطع حاصل، كما أنّ الحقّ واقع، مع ما فيها من التّخلية قبل التّحلية بأداة النّفي، وهذا من بديع الاستعمال، ورقيق الاستدلال.

غرضُ الكنايةِ:

عِلْمُ اللهِ بدقائق الأحوال يستلزم المُجازاة عليها

جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ كنايةٌ عن الوعيد بالمؤاخذة والمُجازاة بما يُسرّون وما يُعلِنونَ من الإنكار والاستكبار وغيرهما مجازاة عقابٍ وانتقام[2].

بلاغةُ الفصل بالتَّعليل:

نفي المحبّة مؤذنٌ بالانتقام

جملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ تفريعٌ تعليليّ لجملة ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ الّتي هي كناية عن المجازاة بالوعيد والانتقام، فأخبر بعدها بسببِ تلك المجازاة، وهو عدم محبّته للمستكبرين؛ لأنّ الّذي لا يحبّ أحدًا يفعل السّوء يُجازيه عليه ويُعاقبه لا سيّما مع تمام وكمال قدرته على ذلك، ولكونها في موقع التّذييل التّعليليّ فُصِلتْ[3].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جرم)، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 6/ 38.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 129.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 129.

العنايةُ بتقرير مضمون الجملةِ

غرضُ التَّوكيدِ:

الافتتاح بأداةِ (إنّ) المؤكِّدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾، لِمَحْضِ الاهتمام والعنايةِ بتقريرِ مضمونِ الجملة، وكأنَّ الغرض بالافتتاح المؤكِّد إجراء التّركيب مجرى القانون المحدّد والمَثَل السّائر المحكَم، وقرينة خلوّ المُخاطَبينَ عن التَّردُّدِ في هذا الخبر، تجعله مسوقًا؛ لأجل تأكيد انتفاعهم به، لا لإثبات أصله، فيكون خبرًا بمعنى الإنشاء، أي: أكِّدوا انتفاعكم بمقتضى ذلك بدوامكم على التواضع للهِ وأحكامه وعدم التّجاوز بالرّدّ والعناد، أو لأجل أن يَسوقوه إلى غيرهم بهذا المساق المؤكَّد للتّرهيب والتّرغيب، فإنّ المؤمن مُبَلِّغٌ عن ربّه[1].

التَّـنبيه على حبِّ المتواضعين بـنـفـيه عـن المستكبرين

نكتةُ التَّعبير بالنَّفي لا الإثبات:

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بنفي الحبِّ لا بإثباتِ الكراهية للمستكبرين في قولِه تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾؛ لثبوت مدخول حرف النّفي، مع ثبوت لازمه، وهو الكره، ولو أثبت الضد فقال: (إنَّه يكره المستكبرين)، لما لزم عنه ثبوتُ الضدّ الموجَب، وهو الحبّ، فالنّفي يثبِت موجَبَ الفعلِ، ويثبِت ضدّه؛ فالتَّعبير بعدم محبته للمستكبرين، جرى على طريقة إثبات الشّيء بإبطال ضدّه، قصدًا للتّنبيه على الأمرين معًا، وإيجازًا في الكلام، أي: إذا كان لا يحبّ المستكبرين، فهو يحبّ أضدادهم من المُستسلمين المُنقادين له سبحانه، ونفي الشّيء إثباتٌ لضدّه[2].

نفي الحبِّ عن كلِّ مستكبرٍ

معنى التَّعريف الجمعي:

التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ للاستغراق؛ أي: لا يحبّ كلّ مستكبرٍ؛ لأنّ التّركيب ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ تذييلٌ جرى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 172.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 172.

مجرى الحكم العامّ والقانون الشّامل، ويدخلُ فيه المُخاطَبونَ من المشركين المُخبَرِ عنهم في هذا السّياق دخولًا أوّليًّا، فيكون الوعيد ثابتًا لهم بإثبات دليله، وهو أنّ لا يحبّ المستكبرين عموما؛ فيُستدلّ بذلك على أنّه لا يحبّ تلك الفئة المستكبِرة من المُخاطَبينَ، كذلك لاندراجهم تحت هذا الدّليل العامّ المُقَرَّر(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعلان والجهر:

الجهر يختصُّ بالصَّوتِ، والإعلان يعمُّ الصَّوتَ وغيرَه

الإعلان: هو مُطلَقُ إظهار الشَّيء سواء بإبرازه وكشْفِه، أو بالإشارةِ إليه ليُلْمَح، أو بالدّلالةِ عليه بالصّوتِ والحاسّة، ويُغلُب استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فالمعنى إذا ظهر للنّفسِ، واستظهرتْه، فقد عَلَن.

وأمّا الجهر فهو إظهارُ الشّيء بِإفراطِ حاسّة السّمع أو البصر، ومعنى إفراط الحاسّة: انفعالها بإفراطٍ للمحسوس، صوتًا كان أو صورة، وأكثر ما يستعمل في الصّوت، وقد ورد كلاهما في القرآن، فأما الجهرُ للسّمع ففي قوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الحجرات: 2]، وأمّا الجهر للبصر ففي قوله: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النساء: 153] أي: عَيانًا؛ رؤيةً مُفرطَةً بالبصر(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 129.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جهر، علن).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [النحل: 24 - 25]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

تقرير وحدانيّة الله يستلزم تقرير الرِّسالة

لمّا احتجّ عليهم في الآيات السّابقة بدليل الوحدانيَّة ودليل البعث، ذكر هنا دليل النّبوة، وهو نزول الوحي بكلام الله، وبيّن موقفهم من هذا الأصل، بعد بيان موقفهم تجاه الأصلَيْن السّابقين، فالمناسبة بين الآيات هو الانتقال من أدلَّة إثبات المرسِل ﷻ، إلى أدلّة إثبات الرِّسالة والرَّسول.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾: الأوزار جمع الوِزْر - بكسر الواو - وهو الثِّقَلُ والحِمل الماديّ، ومن ذلك الوَزَر: وهو الملجأ في الجبل، وسُمّي الذّنبُ وِزْرًا والذّنوب أوزارًا: تشبيهًا بالجبَل في ثِقَلِه؛ لأنّ الذَّنب يُثْقِل صاحبَه[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

موقف المشركين من النّبوّة والتّنزيل

تُبيِّن الآيات موقف المشركين إذا سُئِلوا عَمّا أنزل الله سبحانه، وهو الكذب والبهتان والزّور، باتّهام القرآن العظيم بأنّه أساطير الأوّلين، أي: قصص السّابقين الّتي هي عبارة عن أحاديث للتّسلية، وهي في مضمونها كذب واختلاق، وهم يريدون بذلك صدَّ النّاس عن دين الله تعالى، وبسبب هذا الّذي صدر عنهم في إضلال النّاس، سيحملون آثامهم وذنوبهم يوم القيامة؛ لتكون لهم عذابًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وزر).

وعقوبةً وويلًا في جهنّم، ومن آثام الّذين يُضلونهم بغير علم، وهذا الوِزْرُ الّذي يُحيط بهم، هو وزرٌ عظيمٌ شديد، ألا ساء الوِزْرُ وِزْرُهُم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواوِ ودلالتها:

إنكارُ القلوبِ واستكبارُها أصلٌ في قلبِ الحقائقِ بالباطل

يَحْتَمِلُ حرفُ الواو في جملة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أنْ يكون استئنافيًّا؛ لتقرير إضلالهم لغيرهم بعد بيان ضلالهم في أنفسهم؛ لأنّ سؤالهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ وجوابهم عليه بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، هو إضلالٌ يتعدّى للغير، وقوله قبله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ هو ضلالهم الذّاتيّ، ويَكَأَنَّ قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، هو ترجمةٌ لضلالهم الذّاتيّ وانحرافهم الباطنيّ في قوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ وأثَرٌ له.

و يَحْتَمِلُ أن يكون الواو لعطفِ مَدخوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على قوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾، كأنّه عطفَ إنكارهم للنبوّة على إنكارهم للألوهيّة(1).

نكتةُ استعمالِ ﴿وَإِذَا﴾:

مناظرةُ الحقِّ والباطلِ باقيةٌ ثابتة

استعمالُ ﴿وَإِذَا﴾ في جملة الشّرط ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ مؤذِنٌ بتحقُّقِ ما في حيّزِ القولين (قول السّائل وقول المسؤول)، وأنَّ سؤالَهم بهذا السُّؤال وجوابهم عليه قد حصل بالفعل، وما يزال يحصل(2).

نكتةُ بناء الفعل للمفعول:

عنادُ المشركين وإن تنوَّعَ السائلون

بُني فِعلُ ﴿قِيلَ﴾ للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾؛ لإبهام الفاعل؛ لِغرضِ تعميمه، أي: وإذا قيل لهم من أيّ قائلٍ كان، في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 363، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 129، ودرويش، إعراب القرآن: 5/ 287.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 130.

أيّ وقتٍ كان، فالعبرةُ بأن يُسألوا هذا السُّؤال، وبناء الفعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول يدلّ على عنادِهم وإنْ تنوّع السّائلون وتعدّدوا، فموقفهم في الكفر واضح، لا يتأثّر بتعدّد السّائلين وتباينهم(1).

دلالةُ العدولِ عن السُّؤالِ إلى القول:

السؤالُ هنا ليس ناشئًا عن جهل الجواب

آثرَ النَّظم التَّعبير بِمُفْرَدَةِ القول في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ دون السُّؤال، فلم يَقُلْ: (وإذا سُئِلوا)، ومضمون الموجَّه للمشركين سؤال لا قول؟! والجواب أنَّ السُّؤال لم يكن مقصودًا ابتداءً؛ بل هو ضِمن أقوالٍ؛ أحدها سؤال، كما أنَّ السّائِلَ لا يجهل الجواب، فهو لا يَسْتَفْهِمُ عن شيءٍ يجهله، ولذا كان سؤاله قولًا من الأقوال، فالقائل إذا كان مؤمنًا، فهو يسألهم سؤال تقريرٍ أو سؤال امتحانٍ لاستجلاء موقفهم، وإذا كان كافرا، فيكون صادرا من بعضهم لبعض، أي: من مُنْكِرٍ لِمُنْكِرٍ، فهو سؤال تَنَدُّرٍ واستخفافٍ وعدم اكتراث، كسؤالهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾ [البقرة: 26]، وسؤال الكافر في قوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٨﴾ [يس: 78]، أو سؤال امتحانٍ؛ ليَتَواصَوا على الكفر، لِئَلّا يَحيدَ أحدٌ منهم عن مبدأ الجُحودِ الذي أجمعوا عليه، كمن يسأل غيره، وهو ينتظر منه الجواب الذي تعاهدوه واستقرّوا عليه، واعتبار أنّ السُّؤال ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ والجواب عليه ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، هو من مُنْكِرٍ لِمُنْكِرٍ، هذا الوجه يَظْهَرُ فيه عِلّة التّعبير بلفظ ﴿قِيلَ﴾ لا بلفظ (السُّؤال)، وهو عدم الاعتداد بسؤالهم أصلا، وتَنْزيلِهِ مَنْزِلَةَ القَوْلِ المُهْمَلِ الذي لا يستحقّ أن يرقى إلى مرتبة السُّؤال، ولذا لم يَقُلْ (وإذا سُئِلوا)، فهو من آحاد الأقوال لا من عزائم السُّؤال؛ لأنّه ممن يُجْحَدُ، ولأنّ مضمون السُّؤال ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قضيّةٌ واضحة صريحة، فلا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 135.

تحتاج أنْ يُسأل عنها إلّا إذا كان السّائل غافلًا أو مُعرِضًا؛ لأنّ الّذي يُضيف التّنزيل إلى ربّ العالمين في سؤاله ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ لا بدّ أن يكونَ مؤمنًا، فيعرف أنّ الرّبّ لا يُنزِل إلّا الحقّ، أو أن يكون كافرًا يَجْحَدُ الرّبّ، فيقول ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على سبيل الاستخفاف والاستهزاء، ويُظْهِرُ هذا الوجه أيضًا نُكتةَ التّعبير بلفظ الفعل مبنيًّا للمفعول؛ لأنّ السّؤال إذا كان من منكرٍ لا يَكترث، فأوْلى به الإبهام وعدم الإظهار عن حكاية قوله تحقيرًا له ولمقصوده(1).

دلالة السّؤال بماذا:

الحقائق لا تُؤخذُ إلّا عن الثّقات الأثبات

آثرَ النَّظم استعمال أداة السّؤال ﴿مَّاذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾، وهي للاستفهام عن بيان الجنس وحقيقته، والمراد بالسُّؤالِ السُّؤالُ عن حقيقة المُنَزَّل من عند الله، أيّ شيءٍ هو؟ أي: بيانُ حقيقتِه، والاستفهام بها محمولٌ على الحقيقة باعتبار أنّ الوفود والقبائل خارج مكّة كانت تسمع بالرّسول ﷺ وبالقرآن، فإذا توافدوا إلى مكّة في موسم الحجّ سألوا المشركين: ماذا أنزل ربكم؟ وهو مجازيٌّ إذا كان الاستفهام متداوَلًا بين المشركين بعضِهم لبعض على جهة التّندّر والاستخفاف، أو من المؤمنين لهم على جهة تقريرهم وإقامة الحجّة عليهم(2).

نكتةُ التّعبير بصيغة ﴿أَنزَلَ﴾ دون (نزّلَ):

اخْتيرَتْ صيغة ﴿أَنزَلَ﴾ دون (نزَّل) في قولِه تعالى: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ لأنّ غرض السّائل هو السّؤال عن أصل النّزول وحقيقته، لا السّؤال عن مراحله وهيئة تنزيله، فهذا مما لا يعتني به السّائلون، فجاء الاختيار لما يُناسب المَقامَ.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 159.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 261، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 131.

مُقْتَضى الرّبوبيّة العنايةُ بالخلق إرشادًا ودلالةً

دلالةُ إضافة لفظ الرّبّ لضمير المُخاطَبينَ:

أُضيف لفظُ الرَّبِّ لضمير المُخاطَبينَ في قولِه تعالى: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾؛ لإفادةِ التّهكُّم بإسنادِ الإنزالِ إلى لفظِ الرّبوبيَّة المضاف لضميرِهم، إذا اعتُبِر أنّ الكلام صادرٌ من بعضهم لبعض، فهو جارٍ على معنى، كأنّهم يتهكّمون على أن يكون التّنزيل محلًّا للعطاء والامتنان بالهداية الّذي هو من لوازم الرّبوبيّة، أو تكون الإضافة لإجراء كلامهم على أصل العادة الجارية من أنْ يُساق لفظ الرّبوبيّة في محلّ النّعمة والمنحة ولو كان على غير اعتقاد المتكلّم[1]، وعلى الاحتمالين فإنَّ إضافة الرّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَبين تَستَدعي اعترافَ المتكلّم بأنَّ اللّه ﷻ يُنْزِلُ وحيًا.

ذكرُ الواضحات غير متَّجهٍ إلّا لنكتةٍ

نكتةُ حذف متعلق الإنزال:

لم يُقيَّد فعلُ الإنزالِ في قولِه تعالى: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ بقيدٍ ما؛ بل جاء مُطْلَقًا، فلم يَقُلْ: (ماذا أنزل ربّكم على رسولكم)، وذلك لثبوت أنّ الوحي لا ينزِل إلى النّاس إلّا من طريق وسائط بينهم وبينه، وهي وسائط النّبوّة والرّسالة التي تُناطُ بأشخاص الأنبياء والمرسلين بها، وهذا نظَرٌ متواترٌ لا يخفى على أحد، ومن جهة الوقوع، فإنّ بلاغَ القرآن قد وصلهم بواسطة الرّسول ﷺ وإنْ رأوْا أنّه مدَّعٍ أو مُنتحِل، إلّا أنّهم عاينوا الواسِطةَ التي تربطهم بالتّنزيل، وهو شخص الرّسول ﷺ، فلِشدَّةِ وضوحِ أنّ التّنزيل مُتَّجِهٌ إلى الرّسول، وهو مبعوثٌ به، لم يحتج إلى النّصّ على جهته إيجازًا وإعراضًا عن إيضاح ما هو واضح.

توخّي دقَّةِ النَّظم كاشفٌ عن دقائق المعنى

نكتةُ رفع لفظ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾:

جاء لفظ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ مرفوعًا في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديره: هو أساطير الأوّلين، أي:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 107.

المسؤول عنه، ولو نصب لأثبت إنزالَ أساطير الأوّلين؛ لأنّ الأساطير لا تُنَزل ولا تكون من جهة اللّه أبدًا، فدلّ رفع لفظ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ على بُهتانهم للرّسول ﷺ بأنّه افترى القرآن من تلقاء نفسه، واقتبسه هو من أساطير الأولين[1].

نكتةُ اختيار لفظ الأوَّلين دون السّابقين:

السّابقون أممٌ مُنْدَرِسَةٌ والأوّلون آثارهم باقيةٌ

آثرَ النَّظم الكريم اختيار لفظ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دون (السّابقين) في قوله تعالى: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ ليدلَّ على القِدَم في السَّبَق، وأنَّها أساطيرٌ قديمة، فلفظ السّابقين يُشعر بالسَّبق المَحوق، فإنَّ قولنا: الأمم السّابقة، أي: المُنْدَرِسَةُ الذّاهِبَةُ، أمّا قولنا: الأوّلونَ، فهو يدلُّ على بقاءِ آثار الأوَّلين في المُعاصِرينَ، وسياق الآية حديثٌ عن تلك الأساطير المرتبطة بالأوّلين الّذين بَقيَ لهم آثار فيمن بعدهم، لا في السّابقين الّذين اندرسوا وذهبت آثارهم، والأوّلون شاملٌ للقريبين والبعيدين، بخلاف السّابقين، فهو يُسْتَعْمَلُ في البعيدين، وهذا هو الغالب في الاستعمال القرآنيِّ.

معنى اللّامِ ودلالتُها:

تنزيل الجزاء منزلةَ المأمور به لتأكيد تحقيقه وإيجاب وقوعه

تعلَّقتِ اللّام في جملة: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ بجملة: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ولها ثلاثة احتمالات:

الأول: العاقبة، وتدخل على المآل الّذي لم يكن للفاعل غرضٌ فيه، فهي بمعنى الغاية لا التّعليل؛ لأنّهم لم يقولوا هذا القول لأجل أن يحملوا أوزارهم؛ بل تلك غايةُ قولهم ذلك.

الثّاني: الأمر، كالّتي في قوله: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾ [الطلاق: 7]، كأنّهم أُمِروا أن يَحْمِلوا أوزارهم مبالغة في إيجاب ذلك وحتميّةِ وقوعه بالنّسبة لهم وفيه مزيد إذلالٍ ووعيدٍ، وبهذا المعنى تكون جملة ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ﴾ استئنافيّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 131.

الثّالث: لام التّعليل تعليلًا حقيقيًّا، وذلك على إضمار فِعْلِ التَّقْدير، أي: قدّر ذلك؛ ليَحْمِلوا أوزارهم، والإضمار مرجوح[1].

سرُّ جمعِ الأوزار:

الأوزارُ باعتبارِ أثرِها لا باعتبارِ عددِها

جُمِعَ الوِزرُ في قولِه تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ والوزر المذكور في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وِزرٌ واحدٌ، وسرُّ ذلك الدّلالة على أنّ هذا الوزر أصلُ كلِّ الخطايا، فمن أنكر الوحي واتَّهمه بأساطير الأولين، فإنَّه يَحْمِلُ أوزاره التي ارتكبها، فهو بابُها وأصلها، أو لِتَنْزيلِه منزلةَ جميع الأوزار تعظيمًا له كشرطٍ من شروطِ قَبول الأعمال وتكفير السّيئات؛ لأنّه أصل الإيمان والكفر به خرقٌ لجميع أعمال التكليف.

بلاغة الاستعارة التَّمثيليّة في حملِ الأوزار:

تشبيه الذُّنوب بالأوزار تقريبٌ لمعنى إهلاكِها في الآخرة

الأوزار هي الأثقال، واسْتُعيرَتْ في قوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ لذنوبهم وخطاياهم، والاستعارة تمثيليّة، حيث شبّه حالهم في وقوعهم في شَرَكِ وورَطات ما اجترحوه من السّوءِ؛ بحالِ من يعاني من حِملٍ ثقيل لا يستطيع الانفكاك عنه، أو الخُلوصَ منه[2]، وفيه من البيانِ ما يدعو المرء ليتعجّب من دقّته، فتشبيه المُذْنِبِ بحامل الأثقال لا يكاد يخطر على قلب بشر، فهو مشهدٌ غيبيٌّ فريد، يأتي المُذْنِبُ يوم القيامةِ حاملًا أوزاره؛ لِتُهْلِكَهُ في نار جهنَّم.

بلاغةُ المجازِ المرسل في حملِ الأوزار:

كلّ امرئٍ بما كسب رهين

وَيَصِحُّ أن يكون حمل الأوزار في قوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ – ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ [الأنعام: 31] – مجازًا مرسلًا بذكر السَّبب وإرادة المسبَّب عنه، وهو العقاب عليها، وعبّر عن الجزاء بحمل الأوزار للإشارة إلى المساواة بين العقاب والعمل، حتّى كان الّذي يحمِل الوِزْرَ يحمِل جزاءه؛ لأنّهما متلازمان ومتساويان[3].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 520.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 132.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4159.

بلاغةُ التَّقييد بالحال:

وعيدُ الغافلين باستيفاءِ الذُّنوبِ بالنَّصِّ والتَّعيين

في جمعِ الأوزارِ وإضافتها إلى ضمير الغَيْبَةِ استغراقٌ لها، فيُسأل عن نكتة التّقييد بالحال ﴿كَامِلَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةً﴾ دون الاستغناء عنها؟ ونكتة ذلك الدّلالة على أنّه لا يفوتُ شيءٌ من أوزارهم لم يُسَجّل عليهم، فقد يَتَوَهَّمونَ أنّ الخفايا قد تفوت، أو الهَيّن من السّوءِ قد يفوت، أو يُتوهّم أنّ في ذنوبهم ما يُكَفّر كما في ذنوب المؤمنين، فأتى بقيد ﴿كَامِلَةً﴾ حالًا؛ ليدلّ على عُسْرِ حسابهم وهوْل مؤاخذتهم[1].

نكتةُ ذكر يوم القيامةِ مع تقدُّم ذكر الآخرة:

اقترن مصطلح اليوم الآخر باعتقاد المجازاة، ويوم القيامة بوقوعها

جاءَ التَّعبيرُ بيوم القيامة في قوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، دون أن يقول: (في الآخرة) مع موافقته للمتقدِّم في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ فيُسأل عن ذلك؟ ويَظْهَرُ الفرق بين استعمال يوم القيامة والآخرة في الآتي:

تَقْتَرِنُ الآخرة بسياق الاعتقاد والإيمان، وبسياق المقابلة بينها وبين الدّنيا للمفاضلة والموعظة، كما أنَّ ذكرَها يتعلّق بعمل المكلّف واعتقاده فيها بالإيمان أو بالكفر، وما يَسْتَتْبِعُ ذلك من تَرْجيَتِهِ في خيرها وترهيبه من شرّها.

يرتبط يوم القيامة في القرآن الكريم بالحساب الفعليّ، والحكم والقضاء ووصفِ مقادير الجزاء الواقع بعد محاسبة النّاس، ويتعلّق بتحقّقِ ذلك من وقوع المجازاة بالفعل على ما قدّمه الإنسان، فيوم القيامة يرتبط بتحقيق نتيجةِ العمل، ولذا تقترن بما يكون للهِ من قضاء وحسابٍ وحكم بوقوع الجزاء وتحقيقه.

لِذا نجد أنَّه في سياق الإيمان والاعتقاد عبّر بالآخرة في قوله:

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 107، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 137، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 132.

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فلمّا انتقل إلى سياق الحساب على ذلك وتحقّق نتيجةِ عدم إيمانهم عبّر بيوم القيامة فقال: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

معنى الواو ودلالتها:

المُتسبِّب في الآثام كالمباشِر لها

الواو في جملة: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ لعطفِ مدخولِها على جملة: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾، أي: ليَحْمِلوا أوزار أنفسِهم ويَحْمِلوا أوزار غيرهم ممّن ضلّوا بسببهم، وفائدة العطف: الجمع بين العمل الذّاتيّ وما يستتْبعه من أثَرٍ يتعدّاه إلى غيره، للدّلالة على أنَّ الإنسانَ مؤاخَذٌ بعملِه وأعمال من قلّدوه في الخير أو الشرّ[1].

معنى ﴿وَمِنۡ﴾ ودلالتها:

سيظفر المُضِلُّ بأوزارِ من أضلَّهم

تَحْتَمِلُ ﴿وَمِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ أن تكون آتيةً للتّأكيد والمبالغة، وقد تفيد الاستغراق، أي: يَحْمِلون أوزارهم وكلَّ أوزار الّذين يُضِلّونَهُم.

وتَحْتَمِلُ أن تكون لبيان الجنس، أي: ليَحْمِلوا أوزارهم وأوزارًا جنسُها وحقيقتُها هي أوزار الّذين يُضِلّونَهُم.

وتَحْتَمِلُ أن تكون للتّبعيض، أي: يَحْمِلونَ بعض أوزار الّذين يُضِلّونَهُم؛ لأنّ أوزار الّذين يُضِلّونَهُم ليس جميعها بسببِ إضْلالِهم لهم[2].

سرُّ إضافةِ أوزار إلى الاسم الموصول:

المُضِلّون أعلامُ الضّلالة في الدُّنيا أعلام العذاب في الآخرة

آثَرَ النَّظم الكريم الإتيان بالاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾، دون الاكتفاء بذكر الأتباع بأن يقول: (ومن أوزار أتباعهم)، أو (ومن أوزار المُضَلّين)، فترك الإيجاز اللّفظي، وذلك لغرضين:

(1) درويش، إعراب القرآن: 5/ 287.

(2) السّمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 208.

الأوّل: إجراء وصف الضّلالِ على ذواتهم بالاسم الموصول، مع إسناد الضّلال إلى مصدرِه وهو ضمير المُضِلّين المرفوع في قوله: ﴿يُضِلُّونَهُم﴾، وإسناده إلى مفعوله وهو الضّمير المنصوب في: ﴿يُضِلُّونَهُم﴾، ولو قال: (أوزار التّابعين) لم يكن فيه نصٌّ على صفةِ التّبعيّة، وهو أنّه اتّباعٌ على ضلال، ولو قال: (أوزار المُضَلّين) لاحتمل أن يكون ضلالهم ليس من جهةِ إضلالِ رؤسائهم لهم، ففيه إبهام الجِهة، فلمّا قال: ﴿يُضِلُّونَهُم﴾ فقد أثبتَ ضلال الأتباع وضلال المتبوعين وإضلالهم وذَمَّهما على ذلك.

الآخر: التّعبير بالاسم الموصول الخاصّ فيه مزيد نعيٍ وتوبيخٍ لهؤلاء الأتباع الضالّين؛ لأنّ الموصوليّة تؤذِن بعرفانهم والتّشهير بهم، وأنّهم ظاهرون بسيماهم، وليسوا مجهولين أو في محلّ الخفاء، فميّزهم بالموصول أكمل تمييز، فالموصوليّة أفادت ذمَّهم، والإشعار بِأنّ ما في حيّز الموصوليّة من مضمون الصّلة هو عِلّة المجازاة المذكورة وسببها بحمل أوزارهم وأوزار أتباعهم.

نكتةُ التَّعبير بصيغة ﴿يُضِلُّونَهُم﴾:

الأوزار متكاثرةٌ بكثرة أتباع الضّالين في كلِّ زمانٍ

آثرَ النَّظم ذكرَ إضلال الآخرين بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾، دون الماضي، فالمقامُ مقامُ جزاء عملٍ قد تحقّق، فلم يَقُلْ: (ومن أوزار الّذين أضَلّوهم)، ونكتةُ ذلك استحضارُ الصّورة الماضية لإضلالهم واستحضار ذواتهم وهم يزاولون هذا الفعل ويكرّرونه؛ لإنفاذ الإضلال، بما يدلّ على حرصِهم الشّديد وتصميمهم الأكيد من غير توانٍ ولا مللٍ، بالإضافة إلى أنَّ المضارع يدلُّ على استمراريّة الإضلالِ فيمن أُضلَّ مباشرةً، ومن أُضلَّ بطريق التّبع في الأجيال اللّاحقة، وهذا من عظيم الوعيد، فالأوزار متكاثرة في حقِّ المضلّين، كما أنَّ الأجور مضاعفةٌ في حقِّ الهادين.

فائدةُ تقييدِ الإضلال ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾:

هوى الأنفس أصلُ الضّلال ومنبعُ الإضلال

قيّد النَّظم الكريم إضلالَ المتبوعين وضلال التّابعين بأنّه بغير علم، فقال: ﴿يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾، ولم يعبّر بالضدّ المُثبَت (يُضِلّونَهم بجهلٍ)؛ وذلك لفائدتين:

الأولى: أنَّ الجهلَ قد يكون عن خلوِّ ذِهنٍ وغير قصد، فليس كلّه مذمومًا، فمنه قَدْرٌ يُعذَرُ معه فاعله، كما أنّ ثبوتَ الجهل لا يقتضي نفْي العِلم بالكلّيّة إذ قد يجهل الإنسانُ بأمرٍ، وهو يعلمُ منه جانبًا أو شيئًا، فلمّا قال: ﴿يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ أفاد أنّ إضلال المتبوعين وضلال الأتباع قد حصل بوجهٍ لا يُعذَرون به، وبوجّهٍ يتقصّدون فيه الإضلال والضّلال، ويتعمّدونه، وبوجّهٍ ينفي عنهم العِلم بالكليّة فيما هم بصدده، فارتكبوا الضّلال، وما يصحبهم شيء من العِلم.

الأخرى: الإشارةُ إلى نفيِ لازم معنى العلم، وهو اليقين والتحقّق، وإثبات الظنّ والتّهمة واتّباع الهوى، أي: يُضِلّونَهم حال كون إضلال المتبوعين لهم ليس على وِفْق اليقين؛ بل على وِفْقِ الظنّ واستسهال مسالك الهوى، وحال كون ضلال الأتباع في تقليدهم ليس على وِفْقِ التّحرّي والاستيقان؛ بل كيفا اتّفق لهم بما تستلذّه طبائعهم من غير بيّنةٍ وبرهان؛ فقيّدَ بنفي العِلم للدِّلالة على أنّه لم يكن لهم حجّةٌ معتبرةٌ يُعذَرون بها في إضلالهم وضلالهم[1].

غرضُ استعمالِ ﴿أَلَا﴾ التَّنبيهيّة:

قرعُ الأسماع بالتّنبيه تحريكٌ لذهنِ النَّبيه

صُدِّرت جملة الفاصلة ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بألا التّنبيهيّة للاهتمام بمضمون الجملة، وتأكيد هذا المضمون وتحقيقه بغرض التّحذير من سببه بعدم اقترافه، أو الإقلاع عنه بعد التّورّط فيه، "فأدخَل همزة الإنكارِ على حرف النّفي؛ فصار إثباتًا على أبلغ وجه"[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جهل - علم).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 138، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 133.

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

التّعبير بالاسم الموصول بأداة ﴿مَا﴾ دون (الّذي) في قوله تعالى: ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ لإفادة العموم، والتّعبير بالمضارع دون الماضي؛ لإفادة استمرارهم في ذلك، وهو الذي استحقوا به الدعاء عليهم، ولو قال: (ساء وزرهم)؛ لما أدَّى هذا الغرض.

لا يَهلكُ على الله إلّا هالك

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الأسطورة والقصّة:

أصل الأسطورة من (سطر)، وهو يدلّ على اصطفاف الشّيء، كالصّفّ من الشّجر والنّخل وغيره، ومنه سطْر الكتابة؛ لأنّ السّطْر المكتوب يكون صَفًّا من الكلمات المتجاورة على امتدادٍ واحد، ومنه الأسطورة، أي: الكتابة القديمة المسطورة، وجمعها الأساطير، ثمّ لمّا كانت أخبارًا مكتوبة عن الأقدمين، غابت شواهدُها الواقعة، فخفيَتْ حقائقُها على الحاضرين، تَشكّكوا فيها؛ فلَصِق بمعنى اللّفظ معنى الارتيابُ، وقالوا: (الأساطير هي الأباطيل).

الأساطيرُ مُدوّنةٌ في سطور، والقصَصُ أعمّ من ذلك

وأمّا القصّة فأصلها من (قصص) وهو تتبّع أثر الشّيء، وكذا القِصّة، وهي الخبر المتتابِعُ في أجزائه وسَردِه.

ويظهر الفرق بينهما من وجهين:

الأوّل: غلَبةُ الاستعمال، فالأسطورة غلب استعمالها في الكتابات الباطلة والحكايات الزّائفة، بخلاف (القصّة) فعند إطلاقها لا تدلّ على ذلك.

الثّاني: أنّ أصل الأسطورة يدلّ على أنها مخطوطةٌ مكتوبة في سطور، بخلاف القصّة فإنّها لا تدلّ على الكتابة والخطّ؛ بل تدلّ على العموم سواء كانت شفهيّةً محكيّةً بالتناقُل - وإنْ لم يكن لها أصلٌ مكتوب - ، أم كانت مكتوبةً مُدوَّنة.

وربّما تشابهت القصّة مع الأسطورة في كون كليهما من أجزاء يُسَلِمُ بعضها إلى بعض، وذلك بدلالة الأسطورة على اصطفاف أفراد الشّيء الواحد، فهذا بجوار هذا، ودلالة القِصّة على التّتابع في السّرد بتتبّع أجزائها[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سطر - قصص).

﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [النحل: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من الوعيد فيما هو آتٍ إلى التَّذكير بما سبق

لمّا ذكر عاقبة إضلال سادة المشركين النّاسَ وصدّهم عن القرآن والنبوّة في الآخرة، ناسب أن يذكر ما أصاب من سبقهم من الأقوام الضّالة في الدُّنيا، مثلُ ما أصاب من قبلهم من العذاب والإهلاك عقابًا عاجلًا على مكرهم وخُبْثِ فِعالِهم، فالمناسبة بين الآيات هو الانتقال من الوعيد فيما هو آتٍ، إلى التَّذْكيرِ بالعقوبة فيما سبق.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَخَرَّ﴾: أصل (خرّ) يدلّ على اضطرابٍ وسقوطٍ مع صوت، ومنه الخُرور: السّقوط من علوّ مكانٍ يكون معه صوتٌ غالبًا، ومنه الخرير: وهو صوت الماء والرّيح وغير ذلك ممّا يسقط من علوّ، والمراد هنا: سقط السّقف عليهم، وانهدم على رؤوسهم[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا أمان لِمَنْ لا إيمان له

تُبيِّن الآيةُ مكرَ الكفّار السّابقين، وكيف قد مكروا المَكايِدَ لِرُسلِ اللّهِ وأتباعهم من المؤمنين، فعاقبهم اللّه تعالى بأن دمَّر بنيانهم من أصوله وقواعده، فلم يبق لهم أصلٌ ولا فرع، ثمّ خرَّ على رؤوسهم السَّقف، وأتاهم عذاب اللّه تعالى من حيث لا يشعرون، فالآية تُبيِّن الغفلة التي يعيشها أولئك الماكرون، الّذين يظنّون أنّهم على شيءٍ من الثَّبات والقوّة، فيُمهل اللّه لهم ثمّ يأتيهم بأصناف العذاب على حين غِرَّةٍ، فيقع العذاب عليهم من حيث لا يحتسبون.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خر)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خرر).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الجملة:

سنَّةُ الماكرين ماضيةٌ وسنَّةُ الله فيهم باقية

جملة ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ استئنافيّة، أفادت تهديدَ المُخاطَبينَ بالاعتبارِ بمن سبقوهم في المكرِ والحيلة، فلم يُسْلِموا أو ينتصروا، إذ مكر اللّه بهم فأتاهم من حيث لم يحتسبوا جزاءً وِفاقًا، فالغرض هو تحذيرُهم من عاقبة أفعالهم حتى لا يجري عليهم ما جرى على أسلافهم من الإهلاك والتّدمير، وفي استئناف الجملة تقريرُ سنّةِ اللّهِ للمؤمنين حتّى لا يحزنوا ولا يهونوا بمكر الكافرين، فأعْلَمَهُم - بِفعلِه بهم - أنّ سُنّتَه في إهلاك الماكرين حتميّةٌ لا تنخرِم، فليصبروا، ويثبُتوا[1].

غرض التَّوكيد بأداة ﴿قَدۡ﴾:

أصحابُ المكرِ يكيدون الرّذائل في كلِّ وكر

استهلَّت الآية بأداة ﴿قَدۡ﴾ التّحقيقيّة في قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ لتحقيق مضمون الجملة وتوكيده، والإخبار بأنّ مَكْرَ أسلافهم كان مَكْرًا مُدبَّرًا صادرًا منهم عن خُطّةٍ وحيلة، فأداة ﴿قَدۡ﴾ تحقّقُ معنى القصديّة، فنيّةُ المكْر وتدابير السوء مُتَجَذِّرةٌ في نفوسهم ابتداءً، فهم قومٌ ماكِرون خُبَثاء، ومكرُهم مكْرٌ متكامِلُ الأركانِ عظيم.

بلاغةُ التَّعبير بلفظ المكر:

الماكِرُ بالسّوء فاقدٌ للعقدِ تاركٌ للعهد

عبّر النَّظم الكريم بلفظ المكْر في قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ دون غيره من الألفاظ؛ لأنَّهم قصدوا إلى المكْر بمعناه الحقيقيّ، وشرعوا في مزاولة أسبابه من التّدابير الفاسدة والحيَل الخبيثة؛ ليصرفوا الناس عن الحقّ، ويضُرّوا بالمؤمنين في تخَفٍّ واستتار[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 133، ومحمود صافي، الجدول: 14/ 304.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 256.

اللفظُ القرآنيُّ ذو احتمالاتٍ متنوِّعة ومعانٍ متعدِّدة

احتمالُ اللَّفظِ الواحدِ للحقيقةِ والمجاز:

التّعبير بالفعل الماضي بلفظ المكر المفيد تحقّق المكر ووقوعه في قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ إمّا أن يُحمل على المجاز أو على الحقيقة.

فإذا جعلنا المكر هو الأخذ بأسبابه والشّروع في مقدّماته من غير إنفاذه ووقوعه؛ إذ الواقع هو مقدّماته المؤدّية إليه، ولقوّة أسباب المكر وترتيبهم لها على وجْهٍ لا يتخلّف معه المكرُ حقيقةً في زعمهم؛ مع التَّعبير عن ترتيبهم لأسباب المكْر بالمكر، وقرينة المجاز هو دفْع مكرِهم بقوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ فهو مجازٌ مرسلٌ علاقته المسببيّة، حيث أطلق المسبَّب وهو النّتيجة، وأراد السَّبب.

وإذا نظرنا في قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ على معنى رفع المكر بعد وقوعه، لا دفْعِه قبل حصوله، وأنّه لا انفكاك بين مزاولةِ أسباب المكر ووقوع المكر؛ لأنّ وقوع الأسباب مُلتحِقٌ بنتيجته، وتهيّؤ الأسباب وإمضاؤها هو من المكْر الذي يضرّ من حيكَتْ عليه، وأنّ وقوع المكْر لا بدّ منه في سنّة الابتلاء من أنّ الله يبتلي النّاس بالنّاس، ويدفع بعضَهم ببعض، وأنّ وقوع المكر حقيقةً، ثمّ رَفْعُهُ أبلغ في الامتنان على المؤمنين؛ لأنّه إنقاذٌ من البلاء بعد التلبّس به، فهو أحقّ بالشّكر والامتنان، إذا اعتُبِر ذلك كلّه لا سيّما مع ﴿قَدۡ﴾ التّحقيقيّة في صدر الجملة فالكلام جارٍ على الحقيقة.

إلّا أنّه سَيَرِدُ بِمُسوِّغٍ آخر للمجاز باعتبار آخر، وهو أنّ المجاز قد يتعلّق بالمكْر من جهة كونه مكْرًا غير تامّ، فهو في وقوعه ناقصٌ مُسْتَدْرَكٌ بِغَلَبَةِ الله وتدبيره، ولذا فالمجاز غير مُنْتَفٍ أو مردود[1].

آثار الماكرين شاهدةٌ ورسومهم في الدّيار راكدة

نكتةُ التّعبير بالاسم الموصول دون (السّابقون):

آثرَ النَّظم الكريم استعمال الاسم الموصول في قوله تعالى:

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 256.

﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ دون أن يوجز ذلك فيقول: (قد مكر السّابقون من قبلهم)، ونكتةُ ذلك الدّلالة على أنّ تاريخهم معروفٌ غيرُ منكور، وأنّ الماكرين حاضرون بِسيَرِهم وعِبَرِهم؛ فأحوالهم مفهومة وأعيانهم معلومة لا تخفى، والتّعريف بالموصول يُفيد دخول عموم السّابقين، أي: كلّ جيلٍ ماكرٍ، فلم يَفْلِتْ منهم أحدٌ، أو يَفُتْ منهم ماكِر[1].

معنى ﴿مِن﴾ الابتدائيّة ودلالتها الإشارية:

وعيدُ الإنسان بالمعلوم أوقعُ أثرًا من وعيدِه بالمجهول

تعلَّق الجارّ والمجرور ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ بمحذوف هو صلة الموصول، أي: الّذين كانوا من قبلهم، و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ابتدائيّة، أي: المكر الذي كان ابتداءً من جهةِ الّذين من قبلهم، والقَبْلِيَّةُ المذكورة ليست مطلقة؛ بل هي القَبْلِيَّةُ الّتي يُدرك المخاطَبون ابتداءها، ولهذا المعنى حسُن الوعيد بما يعرفون، ولو كانت مطلقة لكان مجرَّد ذِكْرٍ، فإنَّ الإنسان يَقَعُ الوعيد في قلبه موقعًا حسنًا فيما يعلم، لا فيما يجهل، وفيه تَلْويحٌ بما يعرفون ممّا وقع للسّابقين، وقد ناسب هذا المعنى قولهم: (أساطير الأوّلين)، فهم يتّهمون القرآن بأنَّه أساطير، وهو يُهدِّدهم، ويتوعدهم بمضمون هذه الأساطير.

معنى الفاءِ ودلالتها:

العقابُ الإلهيُّ جــزاءُ العمل الماكر

عطفتِ الفاء قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ على الجملة السّابقة الاستئنافيّة ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للإيذان بأنّ قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ جزاءٌ على مكرهم ونتيجةٌ له[2].

بلاغة المجاز بالحذف:

تعظيم العذابِ تابعٌ لتعظيم المكر بالعباد

في قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ مجازٌ بالحذف، والتَّقدير: أتى أمرُ اللّه بنيانهم، وقرينة الحذف: أنّ حقيقة الإتيان؛ الانتقال

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 388، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 133.
(2) محمود صافي، الجدول: 14/ 304.

من حيّزٍ إلى حيّز، وهو ما يتنزّه عنه الخالق سبحانه، وغرض الحذف: المبالغة في استيلاء العذاب عليهم، وكأنّ اللّهَ قد حضرهم بذاته العليّة فأنّى لهم الفِكاك! وأيضًا: جريًا على العادة في التّعبير عن أدوات المَلِك في البطش والانتقام بذكر ذاته تعظيمًا للعقوبة، كمن ينذر عدوًّا فيقول: سيأتيكم الرّئيسُ أو الحاكم بما لا قِبَل لكم به، والمراد مجيء جنوده وقوّاته لا مجيء ذاته، ولله المَثلُ الأعلى[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة:

مآل بنيانِ المكْر سقوطٌ ليس من بعده قيام

في تركيب ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ استعارةٌ تمثيليّة حيث شبّه حال الماكرين بالرّسُل والمؤمنين في إحكامهم الحيَل والمكائد الّتي انقلبتْ عليهم وارتدّتْ في نحورهم، بحال قوم شيّدوا بنيانًا وأحكَموا أساسه فانهار من قواعده، فانهال عليهم سقفُه وتهدّم، والجامع بين الحالين هو أنّ ما جعلوه سببًا لبقائهم ونجاتهم، كان هو سبب إهلاكهم[2].

سرُّ بناء الفعل للفاعل وهو لفظ الجلالة:

ذكــرُ الاســم الجليل كفايةٌ لكلِّ أمرٍ جليل

الغرضُ من التّصريح بلفظ الجلالة في قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾، وبناء فعل الإتيان للفاعل دون المفعول كأن يُقال: (فأُتيَ بنيانهم)؛ لتربية المهابة في النّفوس، وللإيذان بأنّ مكرهم بالرّسل وبالمؤمنين هو في حقيقة الأمر خصومة مع اللّهِ العظيم الّذي يتولّى الانتقام بنفسه، فلا وسيط يمنعهم منه سبحانه، وكأنّ الغرض من التّصريح بالاسم الجليل هو إظهارُ عظمةِ اللّه في هذا الانتقام، فكأنَّه قيل: فأتى اللّهُ بما له من مجامع العظمةِ وطلاقةِ القُدرةِ وجبروتِ الهيمنةِ والانتقام.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 97، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/ 343.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 108، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 257، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.

قوّةُ سقوطِ البُنْيانِ كقوّة شموخه وارتفاعه

نكتةُ اختيار صيغة (بُنْيان) دون مرادفاتها:

عبّرتِ الآية بِالبُنْيانِ دون البناء أو المساكن في قولِه تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾ للدّلالة على أنّها أبنيةٌ مُشيّدة ومعالمُ شامخة، وليستْ كأيّ بناء، وهي إمّا أن تكون محمولة على الاستعارة أو الحقيقة، أمّا حملها على الاستعارةِ، فهي استعارةٌ تصريحيّة حيث شبّه شدّة إحكام تدابيرهم وعلوّ قدرها في أسباب الدُّنيا ومَنَعتِها وقوّتها بالبنيان العظيم الذي لا تُنافِسُه سائر الأبنية في هندستِه ومِعمارِه، والبُنْيانُ مصدر كغفران وكفران، وهوهنا بمعنى المفعول، أي: المبنيّ، أو اسم جنس جمعيّ واحِده بُنْيانَة[1]، وأما حملها على الحقيقةِ، فهو على جعل البنيان من الأبنية الشَّديدة العالية المتماسكة، وهذا شأن الطُّغاة أن يعتنوا بأبنيتهم، فيرفعوها بمبالغةٍ وعتوٍّ؛ ليكون وقوعُها مدوّيًا كارتفاعِها جزاءً وفاقًا.

معنى ﴿مِّنَ﴾ الابتدائيَّة:

حرف ﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ لابتداء الغاية، أي: تهدّم بنيانُهم ابتداءً من جهة القواعد، فالتهدّم نشأ في البُنْيانِ من تلك الجهة[2] للدلالة على الاستئصال[3].

انتقامُ الله إذا نزل جعلَ من أولي البطشِ عِبْرة

توجيه الحقيقة والاستعارة في لفظ ﴿ٱلْقَوَاعِدِ﴾:

القواعد هي الأسس التي يقوم عليها البُنْيانُ، وكما سبق في جواز حمل الآية على الحقيقة والمجاز، فإن جعلناها من باب المجاز فالقواعد هنا مُستعارةٌ للمقدّمات والأسباب التي بَنَوا عليها مكْرهم وكيْدهم، بجامع الإحكام والإتقانِ في كُلٍّ[4]، وإن جعلناها على الحقيقة، فهي بيانٌ لقوّة الهدم والتَّدمير، وأنَّه سيبدأ من القواعد والأصول.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.
(2) السّمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 257.

نوعُ الفاء ومعناها:

إرادةُ الله إذا صدرت فلا رادَّ لقضائه

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾ إمّا أن تكون عاطفةً الجملة على جملة ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ وهي تفريعيّة؛ لبيان كيفية العقاب بعد تقرير إتيانه وحصوله.

وإمّا أن تكون فصيحة على معنى: فأتى اللّهُ بُنْيانَهُم من القواعد؛ فإذا كان ذلك فخرَّ عليهم السَّقْفُ من فوقهم[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالخرور دون السُّقوط:

الخريرُ سقوطٌ له صوت

عبَّرت الآية بالخرور دون السُّقوط في قوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾، باعتبارِ اختصاص لفظ الخرير بأنَّه سقوط يصحبه صوتٌ، فكان التَّعبير بقوله: ﴿فَخَرَّ﴾ للدلالة على أمرين: **الأوّل:** مطلقُ السّقوط، **الثّاني**: الإشعار بصوت أجزاء السّقف، وهو يتهاوى، ويتهدّم، وهو أبلغ من السُّقوط في اصطحابِ هيئة التّهاوي والانهدام في منظرِها والسّماع بها[2].

وأمرٌ لطيف ثالث، وهو أنَّ الخرور يُشعر بأنَّ السَّقف سقط عليهم كالماءِ، ففيه تصوير البناء وقد فُتِّتت أجزاؤه كلُّها، فخرَّت، وسقطت كالرمال، فيكون الإتيان من القواعد، ثمّ تهديم السَّقف عليهم من فوقهم خرورًا مقصودًا في كليهما، أي: أنَّ الإتيان كان للقواعد ابتداءً، فأعقب ذلك إتيان السَّقف.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور على الفاعل:

الماكِرون مقصودون بالعذابِ مخصوصون بالعقاب

قُدّم الجارُّ والمجرور على الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾ دون أن يقول: (فخرّ السَّقْفُ عليهم)؛ لتسريع الدّلالة على ذواتِهم المُعذَّبة؛ لأنّها المقصودة من الوعيد، ولاختصاصهم بوقوع العذاب، أي: كان خُرورُ السّقف عليهم خصوصًا، ويصحّ إفادة

---

(1) محمود صافي، الجدول: 14/ 304.

(2) الراغب، المفردات: (خر).

القصر التّعيينيّ، أي: عُذِّبوا بذلك وحدهم دون غيرهم، ولم يُصَبْ بِتَناثُراتِه المتهدّمة أحدٌ سواهم.

بلاغةُ الإسناد المجازيّ:

حتّى الجماد ينفعِل طوعًا لحكْمِ الله، فما بال بني آدم!

إسناد الخرِّ إلى السَّقْفِ في قولِه تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾ مجازٌ عقليّ؛ لأنّ ﴿ٱلسَّقۡفُ﴾ ليس مُريدًا حتى يفعل، والفاعل الحقيقيُّ هو اللّه ﷻ على معنى: أَخَرَّه عليهم، وغرض الإسناد إلى ﴿ٱلسَّقۡفُ﴾ بيان شدّة طواعية المخلوقات لأمر اللّه حتّى الجمادات منها، فلمّا انفعلتْ لمراد اللّه بالتّهدّم، صارتْ كأنّها هي الّتي تهدّمتْ بإرادتها؛ لشدّة المُلابسةِ والتأثّر، وفيه إشعارٌ بالمقابلةِ، بأنَّ هذه الجمادات غير العاقلة مطيعة للّه تعالى ولو تهدَّمت، في مقابل أولئك الماكرين، فهم عصاةٌ مجرمون.

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلسَّقۡفُ﴾:

(ال) التّعريفية في ﴿ٱلسَّقۡفُ﴾، إمّا للعهد؛ لأنّ القوم الماكرين معهودون لهم بآثارهم المشهودة لهم، أي: السّقف الذي كان يقيم تحته أولئك، أو لبيان الحقيقة والماهيّة أي: جنس ﴿ٱلسَّقۡفُ﴾، والمعنى: أيُّ سقفٍ لأيّ ماكرٍ كان ممّن تقدّمكم.

فائدةُ التَّقييدِ باللّازمِ المعلوم:

مكْرُ اللهِ بالمجرمين أخذُهم مِنْ مأمنِهم

قُيِّد السَّقف بالحال المؤكّدة: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾، مع أنّ السَّقْفَ لا يكون إلا من فوقهم، لتأكيد معنى العذاب وتحقيقه، وللدّلالة على أنّهم كانوا تحت السَّقْفِ وهو ينهار؛ ولبيان تحقُّقِ العذابِ عليهم، وفي التّقييد بالفوقيّة "احتراس من احتمال أنّ السَّقْفَ قد يكون أرضًا بالنسبة لغيرهم، فإنّ كثيرًا من السّقوف يكون أرضًا لقوم وسقفًا لقوم آخرين، فرفع اللّه تعالى هذا الاحتمال بعبارتين، وهما قوله: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾"[1]،

(1) محمود صافي، الجدول: 5/ 292.

وقوله: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾، ويصحّ تعلّق الجارِّ والمجرور ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ بقوله: ﴿فَخَرَّ﴾، فتكون ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، ولا يكون في الكلام تأكيد[1].

براعةُ التَّعبير بذكرِ الفوقيَّة والقواعد:

إطباقُ العذاب من آمن الجهات يُناسب المكر من كلِّ الجهات

جمع النَّظم بين ذكرِ قيد: ﴿مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ وقيد: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾، وهو جمعٌ بين جهةِ السّفول وجهة العلوّ؛ للدّلالة على إطباق العذاب وإحاطته بهم، وهو يدلّ بلازِمه على أنّ هذا البُنْيانَ لم يَتبقّ فيه جزءٌ صالِحٌ؛ لأنّ البناء إذا تهدّم من قواعده، وتهدّم من سقفه؛ لم يَعُدْ صالحًا ألبتة، ولم يكن قابلًا للترميم والإصلاح، وفي هذا إيماءٌ إلى أنّ مكرهم فاسد غير فاعلٍ ولا نافِذ، فلا يحقّق شيئًا من أغراضهم الفاسدة؛ بل هو منقلِبٌ عليهم ومرتدٌّ إليهم.

بلاغةُ التَّذييل:

المباغتةُ بالسّوء هي الفأل المُنكَر

جملة ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ تذييلٌ يقرّر كيفيّة أحوالِهم الّتي أتاهم العذابُ وهم عليها، بعد أنْ قرّر كيفيّة العذاب ذاته في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾، والواو للعطف على ما تقدّم، تهويلًا لأمر إهلاكهم؛ لأنّ المُباغتةَ في حدّ ذاتها عذابٌ فوق العذاب[2].

معنى التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

(ال) في ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ للعهد، أي: العذاب المعهود في مضمون قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾، وهو العذاب العاجل في الدُّنيا، بقرينة قوله بعده: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ [النحل: 27][3].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 388، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 7/ 147.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 367، ومحمود صافي، الجدول: 5/ 292.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 367.

نوعُ ﴿مِنْ﴾ ومعناها:

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ابتدائية تفيد شدّة القُرب، وقوّة المُلاصقة.

بلاغةُ التّعبير بالشّعور:

تسويةُ الماكرين بالأوثان الجامدة تهكُّمٌ وتوبيخ

وصْفُ الماكرين بعدم الشُّعور في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بعد وصفِ الأوثان بها، بأنّ العذاب يغشاهم فجأةً وهم في غفوةٍ من الشّعور وذهولٍ عن الانتباه واليقظة، فيه إشارةٌ إلى عِقابِهم بجنس أعمالهم، فإنّه وصف أصنامهم - على أحد الاحتمالين - بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ فكما عبدوا أصنامًا لا تَشْعر، ولم ينتبهوا إلى عجْزها وعدم استحقاقها، ولم يشعروا - وهم يعبدوها - بعدم جدواها وتمام نقصِها، فالجزاء من جنس العمل، فيعاقبهم اللّه بعذابٍ من حيث لا يشعرون كذلك، وفيه تسويتهم بالأوثان بانتفاء الشُّعور.

وإنما قيّد وقوع العذاب بحال غفلتهم وعدم شعورهم؛ لأنّ الأخذ فجأةً أشدّ نِكايةً وفاجِعة، لِما يقترِن به من الرّعب والفزع الشّديد، بخلاف ما يقع تدريجيًّا، فإنّ النّفس تتلّقاه بصبر[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخرور والسّقوط:

الخرور أخصّ؛ لاقترانه بالصّوت، والسّقوط أعمّ

الخُرورُ هو سقوطٌ من علوٍّ يَصْحَبُهُ صوتٌ، كصوتِ الماء حين يَخِرّ من الشّلّال، وصوتِ السَّقْفِ حين يتتابعُ سقوطُ أجزائه، وأمّا السُّقوط فهو الوقوع أو الطّرح، فوقوع الشيء من علوٍّ إلى دنوٍّ، كسقوط الإنسان من على السَّطْحِ، أو طرح الشّيء بإلقائه أو إخراجه من حيّزه الذي يُمسِكُه، لرداءتِه وقلّة الاعتداد به، كسقوط الحِملِ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.

لأنّه مطروحٌ لا يعتدّ به لعدم تمامه، ولأنّه وقع من حيّزه الّذي كان فيه، وهو بطن أمّه، ويظهر الفرق بينهما من وجهين: **الأوّل**: السّقوط يكون في الأعيان والمعاني، والخرور في الأعيان، **والثاني**: السّقوط قد يصحبه صوتٌ وقد لا يصحبه، وأمّا الخرور فمعه صوت[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خرر، سقط).

﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النّحل: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عذاب الدّنيا شديد، ولكنّ عذاب الآخرة أشدّ وأنكى؛ لجمعه بين الإيلام والخزي

لما كانت الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [النحل: 26] قد ذكر اللّه تعالى فيها عاقبة الذين مكروا، وكان هذا العقاب متعلِّقًا بالدنيا، جاءت بعد ذلك هذه الآية محل التفسير: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾؛ لتبيِّن أن عقابهم هذا في الدُّنيا ليس يغني عن عقابهم في الآخرة من شيء[1]، بل إن عقاب الآخرة أشد وأنكى، لأنّه يجمع بين الإيلام والخزي والفضيحة العامة أمام كلّ الخلائق، وذلك حين يسألهم ربُّهم، وهو أعلم بحالهم، وبأنّه لا جواب لهم: ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾؟ فيردّ عنهم الذين أوتوا العلم والإيمان، ما حكته الآية ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾: أَصْلُ الخِزْيِ: ذلٌّ يُسْتَحى مِنْهُ؛ ولذلكَ يُسْتَعْمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلّ والاسْتِحْياء[2]، وقيل أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أَخْزاهُ اللّه؛ أيْ: أَبْعَدَهُ ومَقَتَهُ[3]، والخِزْيُ: الفَضِيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزَى

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 7/ 233.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).

خِزْيًا إذا افْتَضح وتَحيَّر فضِيحَةً، وخَزِيَ الرّجلُ خِزْيًا مِنَ الهَوان، وخَزِيَ يَخْزَى خَزايةً مِنَ الاسْتِحْيَاءِ[1]، والخِزْيُ أيضًا: السّوء[2]، والمقصود بالخزي في الآية: الذُّلُّ والإهانةُ أو العذاب بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ [آل عمران: 192][3].

2) ﴿شُرَكَآءِيَ﴾: أصل (شرك): الشّين والرّاء والكاف أصلانِ، أحدُهما يدلُّ على مقارنَة وخِلافِ انفراد، والآخر يدلُّ على امتدادٍ واستقامة، فالأول الشِّرْكة، وهو أن يكونَ الشَّيءُ بين اثْنَيْنِ لا يَنفرِدُ به أحدُهُما. يُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا في الشَّيءِ، إذا صِرْتَ شَرِيكَهُ، وأشْرَكْتُ فُلانًا، إذا جَعَلْتَهُ شَرِيكًا لَكَ[4]، والشِّرْكُ: يأْتي بمعنى المُشارَكَة، وهي الانْضِمامُ والمُخالَطَةُ بين الشَّرِيكَيْنِ، يُقالُ: شَرِكْتُهُ في الأمرِ وشارَكْتُهُ: إذا انْضَمَمتُ إلَيْهِ وخالَطْتُهُ، وصِرْتُ شَرِيكًا لَهُ[5]، والمقصود بالشُّركاء في الآية: النُّظراء والأنداد[6].

3) ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾: (شقّ): أصْلٌ واحِدٌ صحيحٌ يَدُلُّ على انصِداع في الشَّيءِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ ويُشتَقُّ منه على معنى الاستِعارَة. تَقولُ شَقَقْتُ الشَّيْءَ أَشُقُّهُ شَقًّا، إذا صَدَعْتَهُ، وبيَدِهِ شُقوقٌ، وبالدّابَّةِ شُقاقٌ، والأصلُ واحدٌ، والشِّقَّةُ: شَظِيَّةٌ تُشَظَّى مِنْ لَوْحٍ أوْ خَشَبَةٍ[7]، والشِّقاقُ: الخِلافُ والعَداوةُ، يُقالُ: شاقَّه، مُشاقَّةً وشِقاقًا: إذا خالَفَهُ[8]، ويُطلَقُ الشِّقاقُ على العدواة بينَ فريقين؛ لأنَّ كلَّ فريقٍ مِن فرقتي العداوة قصد شقًّا، أي: ناحية غير شقِّ صاحبه، كأنَّ كلَّ فريقٍ يحرصُ على ما يشقُّ على الآخر[9]، والمقصودُ بالمُشاقَّةِ في الآيةِ: المُشادَّةُ في الخُصومَةِ، كأنّها خُصومَةٌ لا سَبيلَ معها إلى الوِفاقِ، والمرادُ: تُعاندونَ من يَدعوكُم إلى التَّوحيد[10].

4) ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾: أصلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[11]، والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ:

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خزي).
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 168.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرك).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقّ).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (شقّ).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (شقق).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 136.
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سوأ).

عَمِلَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[1]، والسّوءُ أيضًا: الحُزْنُ والغَمُّ، ويأْتي بِمعنى الضَّرَرِ والأذَى، كقولِهم: بَلَغَهُ السّوءُ، أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكْرَهُ فهو سوءٌ[2]، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، ومِن مَعانِيه أيضًا: المُنْكَرُ، والفُجورُ، والبَلاءُ، والعَذابُ، والشَتْمُ، والشِدَّةُ، والقَتْلُ[3]، والمرادُ بالسّوءِ في الآية: الضُّرُّ والعَذابُ.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يوم القيامة يكون الخزي والعذاب على مَن كفر وشاقّ الله ورسوله

بعد أنَّ بيَّن اللّه تعالى ما حلَّ بأصحابِ المكر في الدُّنيا من العذاب والهلاك، بيَّن حالهم في الآخرة فقال: ثُمَّ يومَ القيامةِ يُذِلُّ اللّهُ الكافرينَ ويُهينُهم بالعذابِ، ويقولُ لهُم حينَ ورودهم عليه على سَبيل الاستهزاء والسُّخرية: أينَ الَّذين كُنتُم تَعبُدونَهم في الدُّنيا، وتَزعُمونَ أنَّهم شُركائي، وتتَّخِذونَهم أولياءَ مِن دوني، وتُعادونَ اللّهَ وحِزبَه بسَبَبِهم؟! فلْيَدفَعوا عنكم هذا العَذابَ، قال الذينَ آتاهم اللّهُ العِلمَ: إنَّ الذِّلَّةَ والهَوانَ يومَ القيامةِ والعذابَ كائِنٌ على الكافِرينَ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية الكريمة:

العطف على وعيد المشركين المتوعَّدين بسوء العذاب يوم الدّين

جملة: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ معطوفة على قوله تعالى فيما سبق: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النحل: 25]؛ على أنّها مِن جملة وعيد المشركين المتوعَّدين المُخبَر عنهم، وأنّه تكملة له[5].

دلالة ﴿ثُمَّ﴾ العاطفة على التّرتيب:

﴿ثُمَّ﴾ حرفُ عطفٍ يدلُّ على التَّرتيب والتَّراخي الزَّمني، وهذا

(1) الزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (سوأ).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 208، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 98، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 567، والمراغي، تفسير المراغي: 14/ 71.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.

أصل معناه، وقد يُستعان به للدَّلالة على التَّرتيب والتَّراخي في الرُّتبة، وهو هنا مُحتملٌ لكليهما، أي: للتَّرتيب الرُّتبي، على معنى: إنَّ خزي الآخرة أعظم من استئصال نعيم الدُّنيا[1]، كما يدل له قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ [الرعد: 34] وقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ [الزمر: 26].

(ثـم) للتراخي الرتبي مع احتمالها للزّمني أيضًا

ويمكن حملها على الترتيب الزَّمني، وهو أصل معناها، على معنى: أنَّه سبحانه قد يمهلهم لكنَّه قطعًا لن يُهملهم، أي: هي دالَّة على الإمهال مِن غير إهمال[2]، كما يدلّ له قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: 42].

إيثار التركيب ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دون مرادفاتها:

سرُّ إيثار التَّعبير بـ (يوم القيامة) كونه منصوصًا عليه قبلًا

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دون غيره كـ (الآخرة) مثلًا، لقرب ذكره بنفس الاسم دون غيره في قوله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النحل: 25]، وفيه مِنَ الدَّلالة أنَّ هذا اليوم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هو نفسه المقصود هنا؛ لأنَّ المعرفة عندما تتكرّر يكون الثّاني عين الأوّل.

سرّ تقديم الظرف ﴿يَوۡمَ﴾:

تقديم الظرف للاهتمام بيوم القيامة والتَّنبيه على أهواله

تقديم الظّرف ﴿يَوۡمَ﴾ هو الاهتمام بيوم القيامة؛ والتّنبيه إلى ما فيه مِن أهوال ليُحذَر؛ لأنَّه يوم الأحوال الأبديَّة فما فيه من العذاب مهول للسّامعين[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4161.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾:

التّعبير بفعل الخزي يدلّ على عموم ما يُكرَه

عبَّر النَّظم الكريم بالفعل ﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾؛ لما فيه مِن دلالة على عموم جميع المكاره الّتي تحلّ بهم حال العقاب، ولما فيه مِن جمعٍ بين الإهانة بالفعل، والإهانة بالقول؛ بالتّقريع والتّوبيخ[1].

سرُّ صوغ ﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾ مضارعًا:

تجدّدٌ وتكرار، يستلزمه حالهم في دار القرار

في التَّعبير عن خزيهم بصيغة المضارع - فضلًا عن معناه المستقبليّ - دلالة على تجدده وتكرّره في مواقف القيامة المتعدّدة، وزمانها الممتدِّ.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾:

الجمع بين الفعل والقول مزيد إذلال

الواو عاطفة؛ عطفت فعل القول على فعل الخِزي، وجمعت بين وسمهم بالخِزي وبين تقريعهم وتوبيخهم بالقول المعبَّر عنه بالاستفهام، وفي ذلك مزيد إذلال في لحظة الحساب، وانتظار العقاب.

التَّعبير عن فعل القول مضارعًا:

دلالة مضارع القول على تكرره

وفي التَّعبير عن القول بصيغة المضارع - فضلًا عن معناه المستقبليّ - دلالةٌ على تجدّده، وأنّه لا يقال لهم مرَّة واحدة، بل إنَّه يتكرَّر في كلّ موقف يستدعيه، ومواقف القيامة متعدّدة كثيرة، وأمدها مستطيل.

وجه إضمار الفاعل في ﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾، و﴿وَيَقُولُ﴾:

إضمار الفاعل في الفعلين يُراد به الله تعالى لتهويل أمرهما

في إسناد الخزي والقول إلى ضمير الذّات العليَّة في قوله: ﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾ و﴿وَيَقُولُ﴾ ما يفيد تعظيم كلٍّ منهما وتهويله؛ ففي قوله: ﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾ أسند النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ الفعل إلى ضمير الذّات العليَّة؛ لتهويل كلٍّ منهما وإفادة شدَّته، وعظمة ما يتعلق به مِنَ الأفعال، وما تسبَّب به أيضًا، وفي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 521.

هذا دلالة على كونه يدلّ على فضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وقد كانوا في الدُّنيا يستنكفون عن أن يظهروا بمظهرٍ يحطُّ مِن قدرهم ومكانتهم، أو ينال مِن كبريائهم.

وكذلك دلالته على عذاب الآخرة المخزي، وليس فقط المؤلم، وهي صفة أخرى مِن صفات العذاب تدلّ على أنَّ العذاب خزي في ذاته، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ [آل عمران: 192]، وقد كان مِن إخزاء اللّه لهم أن كشف حالهم مع الأوثان التي أشركوها في العبادة مع اللّه تعالى، وأنَّها لا شيء وأنها تهرب منهم، ولا تجد لها مهربًا؛ ولذا قال لهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾[1].

وكذلك من دلائل تعظيمه إسناد القول إلى ضمير الذات العليَّة، فإنّه يُفيد تعظيم المقول وتهويله.

دلالة الاستفهام بـ﴿أَيۡنَ﴾، في سياق الآية:

بيان أنّ الاستفهام في الجملة للتهكّم

﴿أَيۡنَ﴾ اسم استفهام يُسأل به عنِ المكان، والمراد بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ استحضارها للشّفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء، والتّبكيتِ[2]؛ لأنّ الاستفهام بـ ﴿أَيۡنَ﴾ يقتضي العلم بوجود مَن يحلّ في المكان، لكن لمّا كان المَقامُ هنا مقامَ تهكّم كان الاستفهام عن المكان مستعملًا في التّهكم؛ ليظهر لهم كالطَّماعية للبحث عن آلهتهم، وهم علموا أن لا وجود لهم، ولا مكان لحلولهم[3].

نكتة جمع الشّركاء في السّياق المحكم:

لم يشركوا مع الله إلهًا واحدًا، بل آلهةً متعدّدةً

نكتة جمع الشّركاء في قوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ تعود إلى كونهم لم يتّخذوا لهم مِن دون اللّه إلهًا واحدًا، بل آلهةً متعدّدة؛ فحق عليهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4161.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.

قول اللّه: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: 39 - 40].

نسبة الشّركاء إلى ضمير التّكلّم العائد على الذّات العليّة:

اعتقدوا كون الآلهة شركاء لله، فوبّخهم، وتهكّم بهم

في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضاف النّظمُ الكريمُ الشُّركاء الّذين يزعم أهل الشِّرك شراكتهم للّه إلى الذّات العليّة، وهو اعتقاد فاسد للمخاطبين مِنَ المشركين؛ فهم كانوا يتَّخذون هذه الآلهة شركاء للّه، ويعبدونها لتشفع لهم عنده، كما قالوا ما حكاه القرآن عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3].

وعلى هذا فالإضافة في ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ حكاية لقولهم؛ لأنّهم كانوا يقولون عن آلهتهم: هم شركاء اللّه "فكانت الإضافة أخذًا بهذا الزَّعم تبكيتًا لهم، إذ كيف يكون المخلوق شريكًا للخالق، وكيف تكون الحجارة الّتي لا تنفع ولا تضر شريكةً للنّافع الضّار"(1).

كما أنَّ فيها استهزاءً بهم، و"زيادةً في التّوبيخ؛ لأن مظهر عظمة اللّه تعالى يومئذ - أيْ: يوم القيامة - للعيان يُنافي أن يكون له شريك، فالمخاطبون عالِمون حينئذ بتعذّر المشاركة"(2) فكان مفهومُ الإضافة التَّهكم والتوبيخ الشَّديديْن.

بلاغة الاستعارة التهكّميّة في لفظ الشّركاء:

السّياق مقصود به التّهكّم بهم، والسُّخرية منهم

التَّعبير بـ ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ مضافًا إلى ضمير التّكلم مبني عَلَى زعم المخاطب، كما مضى ذكره، فتكون الإضافة لأدنى ملابسة(3)، أو أنّها حكاية لقول المشركين: إن آلهتهم شركاء للّه، وفيه استعارة تهكميّة

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4162، والطّيّبي، فتوح الغيب: 9/ 109.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 522.

مبنيّة على "تشبيه غير الشّركاء، بالشّركاء المفروضين، بواسطة السّخرية، أي: ما لهم لا يحضرونكم - لو كانوا شركاء لله حقًّا - ليدفعوا عنكم العذاب؟ أي: العذاب الذي بُيِّن استحقاقكم له، أو العذاب - الواقع عليكم - بالفعل؛ لأنّهم كانوا يقولون إن صحّ ما تقول مِنَ الحشر والعذاب فالأصنام ستشفع لنا"[1].

بلاغة الالتفات مِنَ الغيبة إلى الخطاب:

الزّيادة في توبيخهم وتقريعهم على شركهم

في الآية التفات مِنَ الغيبة في قوله: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ﴾، وتحويل الكلام هنا هدفه زيادة توبيخهم وتقريعهم على ما كان منهم مِن اعتقاد الشّركاء لله، على معنى: عقابكم اليوم مُخزٍ، فهاتوا ﴿شُرَكَآءِيَ﴾ الذين زعمتموهم لينقذوكم بقوتهم، أو ليشفعوا لكم عندي.

دلالة التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

استحقاقهم الذَّمَّ والتّحقير بسبب شركهم الخطير

إيثار التَّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ للتنبيه على ضلالهم وخطئهم في ادّعاء المشاركة[2]، وتحسيرهم على ما كان منهم، مِن مشاقَّة الأنبياء لأجلهم.

سرّ التَّعبير بفعل الكون ماضيًا مجموعًا:

الخطاب عن وقائع الآخرة في الدّنيا، باعتباره تحقّق وقوعه

عبَّر بفعل الكون ماضيًا فقال: ﴿كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ باعتبار الواقع؛ لأنّ هذا التّعنيف حاصل لهم يوم القيامة، على ما كان منهم مِن شرك في الدنيا، وأما الجمع فيه، فباعتبار مجموع المخاطبين، وهم جملة المشركين الذين يشملهم الخطاب.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾:

التَّعبير بالمضارع لاستحضار الحالة الماضية

بعد التَّعبير بفعل الكون ماضيًا، استحضر هذا الماضي بصيغة المضارع فقال: ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾؛ ليجعل ذنبهم أمامهم حاضرًا، ليزدادوا

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 258.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 14/ 136.

حسرة على أنَّهم شاقّوا وعادَوا لأجل مَن تخلّى عنهم وقت الحاجة، وقد كانوا فيهم يطمعون ومنهم يرجون، ومعنى: ﴿تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾، أي: تُعادون المؤمنين مُعاداةً شديدةً، وتُخاصمونهم كألدِّ ما يكون الخصام، والمُشاقَّةُ عبارة عن كون أحد الخصمين في شِقٍّ، وكون الآخر في الشِّقِّ الآخر، بحيث لا يمكن أنْ يَلتقيا، فضلًا عن أن يكون بينهما وفاق[1].

دلالةُ صيغة المفاعلة ﴿تُشَـٰٓقُّونَ﴾:

صيغة المفاعلة إما للمُبالَغَة أو للمغالبة

كلمة الشّقاق تدلّ على الخلاف الشّديد كما مضى بيانه، والتَّعبير بـ (شاقّ ويشاقّ) يدلّ على المبالغة، وكذلك كلّ ما كان سياقُه مشاقةً للّه ورسوله[2] والمؤمنين أيضًا، كما في هذه الآية: ﴿كُنتُمۡ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ فإن المعنى: كنتم تشاقّون المؤمنين، أي: تُعادونهم وتُقاتلونهم لأجلهم، "وصيغة المفاعلة إما للمُبالَغَة، أو للمُغالبة"[3].

سرُّ توجيه قراءة نافع ﴿تُشَـٰٓقُّونِ﴾ بكسر النّون:

مشاقّة المؤمنين، كأنّها مشاقّة الله

قرأ نافع وحده: ﴿تُشَـٰٓقُّونِ فِيهِمۡ﴾ بكسر النون وتخفيفها، وقرأ الباقون: ﴿تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ بفتح النون[4]، وتوجيه قراءة نافع أنّها على معنى (تشاقّونني)؛ لأنّ مشاقّة المؤمنين، كأنّها مُشاقّة اللّه[5]، وتفصيل ما حصل هو أنَّه عدَّى الفعل إلى المُضمرِ المنصوب؛ لأنّ المعنى عليه، ومتوجّه إليه، فأثبت ما أخذ به غيره منَ الكسرة التي تدلّ على الياء المفعولة، وحذف النون الثانية - تخفيفًا - ولم يحذف الأولى التي هي علامة الرفع[6]، وأمّا على قراءة الجماعة ﴿تُشَـٰٓقُّونَ﴾ بفتح النون، فعلى إرادة الجمع[7].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 199، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شقو).

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 259.

(4) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 371.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 602، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4162.

(6) الفارسيّ، الحجة: 5/ 45، وذلك عند كلامه عن القراءات في قوله تعالى: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: 54] حيث أحال عليها في موضع: (النّحل)، يُنظر: الفارسي، الحجة: 5/ 59.

(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 199.

علة حذف مفعول ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾:

حذف المفعول في جملة ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ للعلم به[1]، والتقدير: ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ الأنبياءَ والمؤمنين في شأنهم بأنهم شركاءُ حقًّا حين بينوا لكم بطلانها[2].

حذف العنصر للعلم به، مِن فصيح البيان

دلالة شبه الجملة ﴿فِيهِمۡۚ﴾:

الحرف (في) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾، معناه الظّرفية المجازيّة[3]، فكلمة (في) هنا معناها المحل، أي: محل المشاقّة فيهم، أي: في عبادتهم وإلهيتهم فتتنازعون؛ إذ لا مكان للمنازعة؛ لأنها منازعة بين الخالق، وما هو أدنى المخلوقات؛ لأنّها حجارةٌ لا تنفع ولا تضر[4].

الظرفية المجازيّة، ملمح في البيان مفيد

بلاغة الإيجاز بالحذف في السّياق:

في قوله: ﴿كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ مضافٌ محذوفٌ، والتَّقدير: (تشاقّون في إلهيتهم، أو في عبادتهم، أو في شأنهم) [5]؛ ويُستنبط المعنى من كون المُشاقّة لا تكون في الذّوات بل في المعاني[6].

المُشاقّة لا تكون في الذّوات بل في المعاني

دلالة الفصل بالفعل ﴿قَالَ﴾ الماضي:

يبدو سرّ الفصل في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ وما قبلها، في كونها جوابًا عنِ السؤال السّابق في الآية: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾؟ قد ابتدره الذين أوتوا العلم لّما وجَمَ المشركون فلم يحيروا جوابًا، فأجاب الذين أوتوا العلم جوابًا جامعًا، لنفي أن يكون الشركاء المزعومون مغنين عنِ الذين أشركوا شيئًا، وأنّ الخزي والسّوء أحاطا بالكافرين[7].

سرُّ الفصل، كون الجملة جوابًا عنِ السّؤال السّابق (أين شركائي)؟

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4162.
(5) الشهاب، عنايه القاضي وكفاية الراضي: 5/ 325.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 137.

وأمّا سرّ التّعبير بالماضي ﴿قَالَ﴾ فلِتَحقُّق وقوع القول حسبما هو المعتادُ في إخباره ﷻ، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 44] وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ [الأعراف: 48][1].

سرّ التّعبير عن (العلماء) بالموصول دون الصّفة:

العالمُ الحقّ هو الّذي ينتفع بما أوتي من علم

عبّر عنهم بالموصول بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ ولم يقل (قال العلماء أو العالِمون)؛ لمدحهم بالعلم الذي أوتوه، فانتفعوا به؛ بأن أضاء لهم طريق الحق، وكشف لهم طريق الغيّ، فلعل التّعبير بهذه الكلمة الطيبة ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ وعدم التّعبير بلفظ: (العالمون) للتّنبيه على ذلك[2].

إيثار الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ دون غيره:

تحصيل العلم منّة مِنَ الله، وهبة منه وتوفيق

في التّعبير بلفظ ﴿أُوتُواْ﴾ دلالة على منَّة اللّه عليهم؛ لأنّ تحمّلهم للعلم النّافع، ثم انتفاعهم به إنّما كان بتوفيقه جلّ في علاه، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة: 105].

دلالة تعريف ﴿ٱلۡعِلۡمَ﴾:

العـلمُ ومَن ينتفع به محلّ مدح، في كلّ مكان وزمان

التّعريف في كلمة ﴿ٱلۡعِلۡمَ﴾ بـ (أل) لإرادة الجنس، أي: جنس العلم؛ وذلك أنّ القرآن الكريم يُجلّ العلم من حيث هو، ويجل العلماء كذلك، ويمدح الذين ينتفعون بعلمهم، كما مدحهم هنا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾.

سرُّ العدول عن التّصريح بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

عدم تعيين المراد بالذين أوتوا العلم أفاد العموم

عُدِل عن التّصريح بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ لإفادة العموم؛ إذ اختلفوا في تفصيلهم، فقيل: هم الأنبياء، وقيل: هم العلماء، وقيل: هم الملائكة[3].

وفي إطلاق التّعبير وعدم تقييده بطائفة معينة ما يعزّز أنّ المراد

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 109.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 259.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 190.

عموم ذلك كله "فيمن أوتي العلم من الأنبياء، وعلماء أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم، ويُنكرون عليهم، وقيل: هم الملائكة"[1].

دلالة قول الذين أوتوا العلم الوارد في السّياق:

في التَّعبير به تلطّف بالسّامعين، وإهانة للكافرين المخزيين

الفائدة في قول الذين أوتوا العلم: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هي أنَّ الكفار كانوا يُنكرون على المؤمنين في الدنيا، فإذا ذكر المؤمن هذا الكلام يوم القيامة في معرض إهانة الكافر، كان وقْع هذا الكلام على الكافر وتأثيره في إيذائه أكمل، وحصول الشماتة به أقوى[2]، فضلًا عن كون حكايته تكون لطفًا لمن سمعه[3].

سرُّ التّوكيد بجملة من المؤكّدات في الجملة:

ما أُعدّ لهم يثير التعجّب من هوله ومساءته

أكّدتِ الجملةُ بعدد من المؤكّدات هي: الجملة الاسميّة المصدرة بـ ﴿إِنَّ﴾ التّأكيديّة، والتّعريف بـ (أل) المفيد للقصر في ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾ و﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾، والتَّعبير بحرف الاستعلاء (على) الدّالّ على تمكنِ الخزي والسّوء منهم، واجتماع هذه المؤكِّدات في الجملة يُفيد معنى التّعجب مِن هول ما أعدّ لهم[4].

دلالة تعريف ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾، و﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾:

إفادة القصر الادعائيّ، وأثره في المعنى

تعريف كلّ مِنَ ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾، و﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ لإفادة القصر، أي: قصر الصّفة على الموصوف، وهو قصر ادّعائي "لبلوغ المعرَّف بلام الجنس حدّ النّهاية في جنسه، حتى كأنّ غيره مِن جنسه ليس من ذلك الجنس"[5] أي: بجعل ما لعصاة المؤمنين لعدم بقائه، ليس مِن جنسه[6]، والغرض مِنَ القصر الادّعائي إفادة المبالغة.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 522.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 199.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 227.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 137.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 137.
(6) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 326.

نكتة توسيط لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في السّياق:

إغاظتهم على ما كانوا فيه من قبل من عزّة زائفة

المقصود بهذا الظرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: هذا اليوم الحاضر الذي هو يوم القيامة؛ وسبب النصّ عليه وتوسيطه بين العقابين المتعاطفين، "الإشعارُ بأنهم كانوا قَبْلَ ذَلِكَ في عزّة وشِقاق"[1] زائفَيْن، فمتاع الدّنيا وزهوها قليل جدًّا، وفيه تحسيرٌ لهم، وتعريضٌ بحالهم.

دلالة عطف ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ على ﴿ٱلۡخِزۡىَ﴾:

الجمع بين أليم العذاب ومخزيه، من أشدّ العذاب

دلّ عطف ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ على ﴿ٱلۡخِزۡىَ﴾ على الجمع بين هذين النّوعين من العقاب في آن، فهم يجمعون بين العذاب المؤلم، والهوان المخزي.

دلالة الجارّ ﴿عَلَى﴾ في السّياق:

الإبانة عن تمكّن الخزي منهم، واستعلائه عليهم

حرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ دالٌّ على أصل معناه وهو الاستعلاء، وغرض التّعبير به الدلالة "على تمكّن الخزي والسوء منهم"[2] وذلك للردّ على استعلائهم واستكبارهم على المؤمنين الّذي كان منهم في الدنيا، عندما كانوا يدعونهم إلى التّوحيد، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥﴾ [الصافات: 35]، فجعل اللّه خزيهم وهوانهم جزاءً لاعتزازهم في الدّنيا بشركهم، واستكبارهم على المؤمنين وتعاليهم عليهم واستهزائهم بهم، فعايَنوا في هذا اليوم ما يستحقون منَ العذاب والهوان ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٣﴾ [الجاثية: 33].

وجه التّعبير عن ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ باسم الفاعل جمعًا:

بيان عراقتهم ورسوخهم المهين، في الكفر المشين

آثر التّعبير عن كفرهم باسم الفاعل المجموع ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، دون التّعبير بالفعل (الذين كفروا) للدّلالة على عراقتهم في الكفر،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 109، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 369.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 137.

وأصالتهم فيه؛ لكونهم "تكبّروا في غير موضع التّكبّر"[1] فكان الخزي والسّوء عليهم في هذا اليوم، وليس على المؤمنين الّذين كانوا يستهزئون بهم في الدّنيا ويسخرون منهم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشريك والمثيل والنّدّ والشّبيه والنّظير:

نفي الشّريك، يقتضي نفي كلّ ما عداه من المفردات المقاربة، من باب أوْلى

المُماثلَة تثبت بالاشتراك في جَميع الأوْصاف، لكنَّ المثيل أخصُّها؛ لِأن المُماثلَة تَسْتَلْزِم المشابهة وزِيادَة، والشبيه أعم مِنَ المثيل وأخصّ مِنَ النظير، والنظير أعم مِنَ الشبيه؛ إذِ المشابهة لا تَسْتَلْزِم المماثلة، فقد يكون شبه الشَّيْء غير مماثل لَهُ، والنظير قد لا يكون مشابهًا، والحاصِل أن المُماثلَة تَقْتَضِي المُساواة مِن كلِّ وجهٍ، والمشابهةُ تَقْتَضِي ذَلِك فِي الأَكْثَر، والمناظرة تَكْفِي فِي وجه[2].

وأمّا النّدُّ فهوَ المثل المنادّ، من قَوْلك نادَّ فلان فلانًا: إذا عاداهُ وباعده ولهذا سُمِّي الضِّدّ ندًّا[3]، وقال ابن عاشور: والنِّد بكسر النون: المساوي والمماثل في أمر مِن مجد أو حرب، وزاد بعض أهل اللغة أن يكون مُناوئًا، أي: مُعاديًا، وكأنهم نظروا إلى اشتقاقه مِن ندَّ إذا نفر وعاند، وليس بمتعين لجواز كونه اسمًا جامدًا[4].

والشريك من الشِّرْكَةِ، وهي أن يوجد شيء لاثنين فصاعدًا، عينًا كان ذلك الشيء، أو معنى[5]، وعرفها ابن فارس بقوله: الشِّرْكَةُ، وهوَ أَنْ يَكونَ الشَّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ لا يَنْفَرِدُ بِهِ أَحَدُهُما، ويُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا فِي الشَّيْءِ، إذا صِرْتَ شَرِيكَهُ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 143، والشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 227.
(2) ابن حجر الهيتميّ، الفتاوى الحديثية، ص: 136.
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 154.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 334.
(5) الرّاغب، المفردات: (شرك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).

والقرآن الكريم يُؤثر عادةً كلمة الشّركاء في محاورته مع المشركين ونعيه عليهم عدم الإيمان به، فينفي الشّركاء بطرق وأساليب متعدّدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ [الرّعد: 33]، وأحيانًا يستخدم مفردها وهو الشّريك، فينفي المفرد، كما في قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ [الإسراء: 111]، وفي إيثار القرآن الكريم هذا اللفظ، وتغليبه على غيره، نظرٌ إلى ما فيه مِن عمق الدّلالة على نفي ما هو أعلى منه، فإنّه إذا ما نفى الشّريك فقد نفى (الشّبيه والنّظير والنِّدّ) من باب أوْلى.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾ [النحل: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنكار الكفّار لا يفيدهم، لأنّ الله يعلم سرّهم ونجواهم، وسوف يحاسبهم

بعد أن أبرزت الآية السّابقة جزاء المشركين يوم القيامة، وبيّنت أنه جزاءٌ يجمع بين العذاب الحسّي والنفسي؛ أما الحسِّي فهو عذاب جهنم المؤلم، وأما النَّفسي فهو الخزي والعار والذّلّ والهوان، بعد ذلك أبرزت هذه الآية موقفهم عندما تأتيهم الملائكة لتقبض أرواحهم، بعد استيفائهم أجلهم الذي قدّره الله لهم في الدنيا، فيقولون ردًّا على تقريع الملائكة لهم على ما فاتهم من عدم الإيمان والعمل الصالح في الدنيا مع عدم التّوبة؛ إذ يقولون كما بيَّن الله تعالى في قوله: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ إنكارًا وانصرافًا عنِ الاعتراف بأخطائهم، ظنًّا منهم أنَّ الأمر متوقف على اعترافهم، وأنَّ إنكارهم سيفيدهم شيئًا، لكن الله عليم بما كانوا يعملون، ومجازيهم بما يستحقون، فلينكروا كيفما يشاؤون.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾: أصلُ (وفى): كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى إِكْمالٍ وإتْمام، ومنه الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْط، ووَفَى: أوْفَى، فهو وفيٌّ، ويَقولونَ: أوفَيتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافِيًا، وتقول: تَوَفَّيتُ الشَّيءَ واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخَذْتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَترُك منه شيئًا[1]، والوفاة: المَنيّة، وتوفي فلان، وتوفّاه الله، إذا قَبض نَفْسه[2]، وتَوَفِّي الميتِ اسْتِيفاء

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (وفى).

مُدَّتِه الَّتي وُفيتْ لَهُ وعَدَد أيامِه وشُهوره وأعْوامه في الدُّنيا[1]، والمقصود بالتَّوفِّي في الآيةِ: الإماتَةُ؛ وسُمِّيَتْ تَوفِّيًا لأنَّها تُنهي حياة المَرْءِ أو تَستوفيها.

2) ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾: أصل (ظلم): وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِه، كَقَوْلِهم: ظَلَمَ الأرْضَ: إذا حَفَرَها في غَيْرِ مَوْضِعِ حَفْرِها[2]، والظُّلْمُ: المَيْل عَنِ القَصد، والعَرَب تَقولُ: الزَم هذا الصَّوْبَ ولا تَظْلِم مِنْهُ شَيْئًا، أي: لا تَجُرْ عَنهُ[3]، وضِدُّه: العَدْلُ، والظُّلامةُ: مَظْلَمَتُكَ تطلُبُها عند الظّالم، وظَلَّمتُه تظليمًا إذا أنْبَأْتُه أنّه ظالم، وظُلِمَ فلانٌ فاظَّلَمَ، أي احتَمَلَ الظُّلْم بطِيب نفسه[4]، والمقصود بالظُّلم في الآية: الاعتِداءُ على حَقِّ صاحِبِ حَقٍّ، والمراد بظُلْم النَّفْسِ في الآية: الشِّركُ؛ إشراكُ غيرِ اللّه مع اللّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13][5].

3) ﴿ٱلسَّلَمَ﴾: أصلُ السَّلَم: الانقيادُ والاستِسلامُ، والسَّلَمُ أيضًا: الأَسْر، يُقالُ: سَلَمه سَلَمًا: إذا أسره، والسَّلَمُ كذلك: الأسِيرُ؛ لأنَّه استَسْلَم وانْقادَ، وأخذَه سَلَمًا، أي: من غيرِ حَرْبٍ[6]، والمقصود بالسَّلَم في الآية: الاستسلام والانقياد.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكُفّارُ يكتُمونَ عند الموت ما كانوا عليه مِنَ الكُفرِ، والله يعلم ما يسترون

إنَّ الخِزيَ والسّوءَ على الكافِرينَ الذين تَقبِضُ الملائكةُ أرواحَهم، والحالُ أنّهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، فأورَدوها بذلك مواردَ الهَلاكِ، فاستسلَمَ أولئك الظّالمونَ عندَ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وفى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(4) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (ظلم).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 139.
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سلم).

المَوتِ للّه، وانقادوا لطاعةِ رَبِّهم حين عايَنوا المَوتَ، وقالوا للمَلائِكةِ الذين يَقبِضونَ أرواحَهم، مُنكِرينَ كُفرَهم ومَعاصِيَهم: ما كُنّا نَكفُرُ باللّهِ، ولا نُشرِكُ به ولا نَعصِيه، فيُقالُ لهم: ليس الأمرُ كما تَزعُمونَ، بل كُنتُم تَعمَلونَ السّوءَ، إنَّ اللّهَ عَليمٌ بالذي كُنتُم تعمَلونَه مِنَ الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، فلا ينفَعُكم إنكارُكم، وسيُجازيكم على أعمالِكم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيه الآية بين الوصل والفصل:

كمال الاتّصال في الآية المفصولة، مفيد في البيان

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، الظّاهر أنّ الموصول تابع للفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الآية السّابقة، على أنّه صفة[2] له أو بدل منه أو عطف بيان[3]، فيكون بين الجملة وما قبلها (كمال الاتّصال).

وجوَّز بعض العلماء أن تكون الجملة - إعرابًا - مقطوعة عمّا قبلها، إمّا للذم، أو لكونها مبتدأ، والخبر قوله: ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ ولم يخل من اعتراض[4].

ويؤيد كون الجملة تابعة لما قبلها بالوصف أو البدل أو البيان - كما يرى ابن عاشور - وصفهم في آخر الآية بالمتكبِّرين في قوله تعالى: ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، فهم الذين وصفوا فيما قبل بقوله تعالى: ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢﴾ [النحل: 22]، وما بينهما اعتراض، وإن أبيتَ ذلك لبُعد ما بين المتبوع والتابع، فاجعل الذين تتوفّاهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 209، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 99، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 567، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 439، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 368.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 522.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4163.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 522، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 369.

الملائكة خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وحذف المسند إليه جار على الاستعمال في أمثاله من كلّ مسند إليه جرى فيما سلف من الكلام، أخبر عنه وحدث عن شأنه، وهو ما يعرف عند السكاكي بالحذف المتبع فيه الاستعمال، ويقابل هذا قوله تعالى فيما يأتي: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ فإنّه صفة ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ فهذا نظيره[1].

بلاغة التَّعبير عنِ الكافرين بالاسم الموصول:

تصوير حالهم وقت الوفاة ليكتمل الحديث عن كلّ مراحلهم

عبَّر عنهم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الدّال على العموم؛ إبرازًا لحالهم وقت الوفاة وتصويرًا لها، بما جاء في الصلة من وصفٍ لتلك الحالة، لتكتمل مشاهدهم، وتُستقصى كل مراحلهم "فبعد أن ذكر حال حلول العذاب بمَن حلّ بهم الاستئصال، وما يحلّ بهم يوم القيامة، ذكرت - هذه الآية - حالة وفاتهم التي هي بين حالي الدنيا والآخرة، وهي حالٌ تَعرض لجميعهم سواء منهم مَن أدركه الاستئصال، ومَن هلك قبل ذلك"[2].

سرّ التَّعبير بصيغة التّفعّل ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾:

بيان معاناة المستكبرين حال الوفاة، بالإقبال على ربّ العالمين

صيغة التفعُّل هنا القصد منها تصوير حال المتوفَّيْن منَ المعاناة عند نزع روحهم، وما يصحبه من لوْم الملائكة لهم وتقريعهم، لما فرَطَ منهم مِن سوء الاعتقاد وسوء العمل.

سرُّ العدول بإسناد الوفاة إلى الملائكة:

إسناد التّوفي إلى الملائكة، بيان لشناعة فتنة الكفّار عند الموت

يلحظ في التّركيب أنّه عدل عن إسناد الوفاة إليهم، فلم يقل: (يموتون أو يتوفون) إلى ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وذلك لكون الإسناد إلى الملائكة وسيلة لبيان شناعة فتنتهم عند الموت[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 138.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 138.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 173.

وجه صوغ فعل ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ مضارعًا:

استحضار صورة توفّي الملائكة إيّاهم، بما فيها من الهول والفزع

التّعبير بالمضارع في ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، مرادٌ به استحضار صورة توفي الملائكة إياهم لما فيها من الهول[1] الشّديد والمصارعة عند نزع الرّوح والتّقريع الصّادر مِنَ الملائكة لهم، كما يُنبئَ عنه قوله في تتمّة الآية ثمّ الآية الّتي بعدها: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾.

توجيه قراءتي: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾، و(يَتَوَفّاهُمُ):

علّة التّذكير تقدّم الفعل، وعلّة التّأنيث الإسناد إلى الجماعة

قَرَأ حَمزَة وحده (يَتَوَفّاهُمُ المَلائِكَةُ)، بالياء، وقَرَأ الباقونَ بالتاء ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾[2]، وتوجيه قراءة حمزة: (يَتَوَفّاهُمُ) بالياء مذكّرًا؛ لأنّ الفعل متقدّم فذُكِّر، وأمّا قراءة ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ بتاء التّأنيث؛ فلأنّ الفعل مسندٌ إلى جماعة، والجماعة مؤنّث، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران: 42][3]، أو لأنّ التّأنيث في الفاعل مجازيّ، فجاز تذكير الفعل وتأنيثه.

نكتة تقديم المفعول (هم)، على الفاعل ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

تقديم المعنيّ بالكلام من دواعي ما يقتضيه مِنَ الاهتمام

تقديم المفعول (هم) على الفاعل ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، في قوله ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ لأنّ الكلام عن المتوفَّيْن فهم المعنيّون، وليس عنِ المتوفِّين، لتصوير حالهم عند الوفاة، وما تحمله تلك الحالة من ذمٍّ وتقريعٍ.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وسرّ جمعه:

احتمال (أل) للعهد وللجنس، مهمّ في إفادة المعنى وبيانه

(أل) في ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ للعهد على أن المراد ملك الموت، والجمع فيه للدّلالة على تفخيم أمره وتهويله، أو أن يكون الجمع على حقيقته، بالنّظر إلى احتمال أن يكون لملك الموت أعوان وهو رئيسهم.

وقد تكون (أل) للجنس، وإذا ما أُريد بلفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الجنس،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 109.

(2) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 372.

(3) الفارسيّ، الحجة للقراء السبعة: 5/ 62.

فإنّه يستوي "في إفادة معنى الجنس جمعه، كما هنا، ومفرده كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السّجدة: 11]، فيجوز أن يكون ملك الموت الذي يقبض أرواح الناس واحدًا، بقوة منه تصل إلى كلِّ هالكٍ، ويجوز أن يكون لكلِّ هالكٍ ملك يقبض روحه، وهذا أوضح[(1)].

بلاغة المجاز المرسل في سياق الآية:

تسميّة الخاصّ باسم العامّ، من بليغ الكلام

في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مجاز مرسل علاقته العموم؛ إذ أطلق العام وأراد به خاصًّا؛ لأنّ ملك الموت واحد، والسّر في ذكره بصيغة الجمع تفخيمه، وتعظيم شأنه[(2)]، ويجوز أن يكون الجمع على بابه، فلا يكون ثمّة مجاز على احتمال أن يكون لملك الموت أعوان مِنَ الملائكة لكنه رئيسهم[(3)]، وقد مضى في الفقرة السّابقة نقل مثله عنِ ابن عاشور.

وجه التّعبير باسم الفاعل ﴿ظَالِمِيٓ﴾:

بيان عراقتهم في الظُّلم، مُسفر عن المراد في السّياق

عبَّر عن ظلمهم باسم الفاعل للدّلالة على عراقتهم في الظّلم، حتّى لكأنّه قد صار فيهم سجيّةً، وطبعًا لا يفارقهم.

دلالة تخصيص الظّلم بالنّفس:

ضرر الظّلم يقع على النّفس قبل الآخرين

إنّما أضاف الظّلم إلى النّفس، وهي إضافة غير محضة[(4)]، للدّلالة على أنّ مَن يمارس الظّلم بأنواعه كافّة، سواء في حقوق اللّه، أو في حقوق الناس، إنما هو في الواقع يظلم نفسه؛ لأنّه قد حرمها الخير ومنعها نعيمَ الطاعة وجزاءها، وأغرقها في بحار متلاطمة أمواجها بالشّر والمعصية، ولهذا التّعبير نظائر في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: 11]، إذ سلّط اللّمز على النفس مع أنّه في حقيقته واقع على غيرها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 173.
(2) محمّد عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/ 185.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 457.
(4) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 2/ 74.

دلالة (الفاء) في سياق الآية الكريمة:

بيان أنّهم ألقوا السّلم، بعد أن توفّتهم الملائكة

الفاء في قوله: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ على أصل معناها للترتيب والتعقيب، أي: أنّهم بعد أن توفّتهم الملائكة فورًا ألقوا السّلم والخضوع، وانتقلوا مِن كبرياء ظالمة إلى ضعة صاغرة مستكينة[1].

سرُّ التَّعبير عن فعل الإلقاء ماضيًا:

الـدّلالـة على تحقّق الوقـوع، مـسـتـفـادة من صيغة الفعل

عبَّر بالماضي في قوله ﴿فَأَلْقَوُاْ﴾ بدل (يلقون)؛ لكونه حاصلًا يوم القيامة لا في الدّنيا؛ للدَّلالة على تحقُّق الوقوع[2]، وفي التَّعبير بالإلقاء إشعارٌ بأنّهم كأنّما انحطّوا كما تنحطّ الأجسام مِن أعلى إلى أسفل، ونسوا ما كانوا يعملون، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾[3].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلسَّلَمَ﴾، في الآية:

إنّما الحيلة في ترك الحيل، ولا تـنـفـع مـع الله حيلة

(أل) في لفظ ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ للعهد، مرادًا به (الاستسلام)، كما نقل عن قطرب[4]، بمعنى القول الدّال على الاستسلام، وقد فسَّر هذا القول وأظهره قولُه بعده: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾، فهذا هو قولهم الّذي استسلموا به ولم يكابروا، وإنّما حاولوا الاعتذار بأنّهم لم يعملوا سوءًا ولم يقصدوا إليه، ظنًّا منهم أنّ هذه حيلة ستنفعهم للتّهرّب مِن مغبّة كفرهم وجحودهم، ومثله اعتذارهم في موطن آخر بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23].

إيثار لفظ ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ دون (الاستسلام):

السّلم هنا هو الـقـول الـدّالّ على الاستسلام لحكم الله

عبَّر بالسّلَم مرادًا به القول الدّال على الاستسلام لحكم اللّه، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4163، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 523.
وجوَّز ابن عطيّة في الفاء هنا ما لا يجيز إطلاقه بلا قيد إلا الأخفش، وهو أن تكون داخلةً على الخبر، وهو بحسب رأيه قوله ﴿فَأَلۡقَوُاْ﴾ فهو عنده يجوز كونه خبرًا للمبتدأ وهو الموصول ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ على القول: إنه منقطع عما قبله. ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 389، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 326.

(2) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 5/ 266، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 364.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4163.

(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 191.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ ٨٦ [النّحل: 86 - 87]، وقولهم الدّال على الاستسلام في الآية هو عبارة: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾، وهذا القول هو الدَّليل على أنّه ليس المراد الاستسلام الّذي هو الإذعان لحكم اللّه، والانقياد لشرعه، وهو ما يحقّقه الإسلام كشرع ودين، وإنّما هو مجرّد إعلانٍ بالقول يفيد الاستسلام عند معاينة الموت، أو يوم القيامة، بعد أن كانوا مستكبرين في الدّنيا(1).

ولأجل هذا عبَّر بالسلّم مُرادًا به القَوْل الدّالّ عَلَى الاستسلام، ولم يُعبّر بلفظ الاستسلام، حتّى لا يلتبس المراد به بالإسلام؛ إذ هو استسلام وإذعان، والتزام بشرع اللّه وحكمه.

بلاغة الاستعارة التّبعيّة، في جملة ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾:

استُعمل الإلقاء في الانقياد، إشعارًا بالخضوع وتسليم القياد

قوله ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾، عبّر فيه بـ ﴿فَأَلْقَوُاْ﴾ ماضيًا مستعارًا لـ (يلقون)؛ لأنّ ذلك كائن يوم القيامة، وهو استعارة تبعيّة في الفعل، باعتبار صيغته، أي: بالتَّعبير بصيغة الماضي عن صيغة المستقبل، والإلقاء: طرح الشّيء وجعله بحَيْثُ يُلقى ويُصادف، فهو مختصّ بالأجسام، فاستعمل في الانقياد إشعارًا لغاية خُضوعهم، وجعل ذلك كالملقى بين يدي الملك الجبّار عَلَى الاسْتعارَة التّبعيّة(2)، وهذا توجيه آخر للاستعارة التّبعيّة.

بلاغة الاستعارة المكنية، في جملة ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾:

استُعمل الإلقاء للإظهار المصاحب للمذلّة، على سبيل الاستعارة المكنيّة

ويمكن حمله على الاستعارة المكنية، بأن يكون الإلقاء مستعارًا للإظهار المقترن بمذلة، حيث شُبِّه بإلقاء السلاح على الأرض من قبل المستسلم وقت الهزيمة، وحذف المشبه به ودلل عليه بشيء من لوازمه وهو الإلقاء.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 261.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 260.

ودلالة الاستعارة هنا وسرّها بيان أنّهم تركوا استكبارهم وإنكارهم، وأسرعوا إلى الاعتراف والخضوع، والذّلّ والاستكانة، لما ذاقوا عذاب انتزاع أرواحهم[1] تمامًا كمن يُلقي سلاحه مستسلمًا عند تيقن الهزيمة مع عدم استطاعة الفرار.

وجه حذف (قالوا) في السّياق الكريم:

إذا دلّ الظّاهر على المحذوف، استغني بالظّاهر عنه

قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾، هو على تقدير: وقالوا ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ فحذف قالوا لدلالة الظّاهر عليه[2]، وهذا الظّاهر هو قوله: ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾؛ لأنّ إلقاء السَّلَم أوّل مظاهره القول الدّالّ على الخضوع، فهم حال التوفّي يقولون ذلك للملائكة الذين ينتزعون أرواحهم ليكفّوا عنهم تعذيب الانتزاع - توهّمًا منهم - أنّ الملائكة إنما يجربونهم بالعذاب ليطّلعوا على دخيلة أمرهم، فيحسبون أنّهم إن كذَبوهم راجَ كذبهم على الملائكة فكفّوا عنهم العذاب، لذلك جحدوا أن يكونوا يعملون سوءًا مِن قبل[3] فقالوا ما قالوا.

سؤال عن بيان مواطن الاختلاف بين ما يحتمل التّعارض في الآيات:

تعدّد المواقف مظنّة تعدّد الأقوال

قد أُثير حول هذا القول سؤال: كيف التّوفيق بين قولهم في هذه الآية: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾، ويؤازره قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23]، وبين ما جاء في قوله سبحانه: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ [الأنعام: 130]، وأيضًا ما جاء في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النّساء: 42]؟

الوجه الأول: أنّها مواطن متعدّدة؛ فمرّةً يُقرّون على أنفسهم، كما قال ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ [الأنعام: 130]، ومرّةً يجحدون كهذه الآية: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 139، والشّريف الرّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/ 191.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 389، وشيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 5/ 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 139، 140.

والوجه الثاني: أنّهم كذبوا، وقصدوا الكذب اعتصامًا منهم به، على نحو قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23]، أو أنّهم أخبروا عن أنفسهم بذلك، على ظنّهم أنّهم لم يكونوا يعملون سوءًا، فأخبروا عن ظنِّهم بأنفسهم، وهو كذب في نفسه[1]، أي: إنّ المشركين لم يقصدوا كتمان الشِّرك بهذا القول، وإنَّما أخبروا على حسب ما توهموا، فهم كانوا معتقدين أنَّهم مؤمنون، فمعنى الكلام: والله ما كنّا مشركين عند أنفسنا، بل مصيبين في ظنوننا حتَّى تحققنا الآن[2].

والوجه الثّالث: قال الإمام أحمد: أمّا قوله ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23] فذلك أن هؤلاء المشركين إذا رأوا ما يتجاوز الله عن أهل التوحيد يقول بعضهم لبعض: إذا سُئلنا نقول: لم نكن مشركين، فلما جمعهم الله، وجمع أصنامهم وقال: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾ [القصص: 62] قال الله: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23] فلما كتموا الشِّرك، ختم الله على أفواههم، وأنطق الجوارح، فنطقت بذلك، فذلك قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: 65] فآية النساء إخبار مِنَ الله عن الجوارح حين شهدت[3].

دلالة النّفي بـ﴿مَا﴾، في السّياق الكريم:

النّفي بـ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ يدلّ على العموم والمبالغة[4]، فالنفي بها أعمّ وأبلغ من غيرها، فنفوا عن أنفسهم أدنى سوء.

النّفي بالأداة (ما)، مفيدٌ العموم والمبالغة، وهي المراد في الجملة

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 389.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/ 85.
(3) الإمام أحمد، الرّدّ على الزنادقة، ص: 12.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 424.

دلالة فعل الكينونة ماضيًا:

كان كذبهم سجيّةً وطبعًا، والطّبع يغلب التّطبّع

جاء فعل الكينونة ماضيًا، في قوله: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ﴾؛ لأنّ مرادهم بهذا القول التّعبير عن حالهم التي كانوا عليها في الدّنيا، فهم بزعمهم لم يعملوا سوءًا في الدنيا.

وفيه أيضًا دلالة على أنّ أعمالهم القبيحة، ومنها كذبهم الصّراح فيما ادّعوه، كان منهم "جبلّةً وطبعًا"(1) وسجيّةً وعادةً، ولا يقال: إنّهم نفوا ذلك عن أنفسهم، فكيف يتمّ تفسيره بالسّجية والعادة؟

والجواب: إنّ ذلك كان منهم على غير سبيل الحقيقة، فقد كانوا كاذبين في دعواهم أنّهم ما عملوا مِن سوء، ولذا أكذبهم اللّه وتوعَّدهم على كذبهم هذا في قوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

إيثار فعل العمل مضارعًا ﴿نَعۡمَلُ﴾:

إفادة تكرّر الفعل، واستحضار الصّورة الماضية

والتَّعبير بالمضارع في ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ له فائدتان:

الأولى: الدّلالة على تكرّر عملهم السوء.

والثّانية: استحضار أعمالهم التي مضت في الدّنيا، وكأنهم حين قالوا ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ﴾ قد استحضروها وراجعوها وقت سؤالهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ فلم يجدوا فيها سوءًا، أي: على سبيل الادّعاء والكذب.

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُوٓءٍۭۚ﴾:

بيان أنّهم نفوا عن أنفسهم فعل أيّ سوء

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُوٓءٍۭۚ﴾، زائدة لاستغراق النفي، أي ما كنا نعمل أيّ سوء، ونسوا أنفسهم ونسوا أعمالهم السيِّئة التي كانت منهم في الدّنيا، فحسبوا أنّهم لم يفعلوا سوءًا(2).

سرّ تنكير لفظ ﴿سُوٓءٍۭۚ﴾ في السّياق:

النّكرة في سياق النّفي تعمّ

السّر في تنكير لفظ السّوء في قوله: ﴿مِن سُوٓءٍۭۚ﴾ هو الدَّلالة على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 145.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4163.

العموم، أي: ما عملنا أي سوء، فلفظ ﴿سُوٓءِۭ﴾ نكرة وقعت في سياق النفي فأفادت العموم.

إيثار شبه الجملة ﴿مِن سُوٓءِۭ﴾:

تجاهلوا فعلهم وكأنّهم لم يفعلوا شيئا

قوله: ﴿مِن سُوٓءِۭ﴾ مفعول ﴿نَعۡمَلُ﴾ زيدت فيه ﴿مِن﴾[1]، وإنّما أوثرت زيادتها فقيل: ﴿مِن سُوٓءِۭ﴾ على الاكتفاء بذكر المفعول منكَّرًا (سوءًا) بأن يقولوا: (ما عملنا سوءًا)، وذلك لتأكيد إفادة عموم ما سلط عليه النّفي، فضلًا عن إفادة النّكرة للعموم، إذ كانت في محل النفي، فإنَّ سبقها بـ ﴿مِن﴾ التي أفادت استغراق النّفي دالٌّ على تأكيد ما أرادوه من نفي عملهم، أي: سوء، سواء كانوا يعنون هذا التَّعبير بجهل ما فعلوه، أو أنّهم يتجاهلون ما فعلوه، وكأنّهم لم يفعلوا شيئًا.

توجيه التَّعبير بـ﴿بَلَىٰٓ﴾، في السّياق:

اللّه تعالى عالمٌ بفعلهم في الدّنيا ومجازيهم عليه

﴿بَلَىٰٓ﴾ حرف جَواب تختص بِالنَّفْي وتفيد إبْطاله[2] وقد جاءت هنا لإبطال قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ والإضراب عنه، على اختلافٍ في تحديد القائل: فيمكن أن يكون من قوله سبحانه، أو من قول الملائكة، أو من قول الذين أوتوا العلم[3]، والمعنى: قولوا ما شئتم فقولكم باطل؛ لأنّ اللّه تعالى عليم بما كان منكم في الدّنيا، ومجازيكم عليه بما تستحقون.

بلاغة حشد المؤكّدات:

كثرة المؤكّدات تدلّ على حالة الشّكّ والإنكار لدى المخاطب

في الآية الكريمة جملة مِنَ المؤكدات التي تأتي لتؤكِّد للمُنكِر وللشّاكِّ المعنى الذي يقع في دائرة إنكاره أو شكّه، كما أنَّ كثرة

---

(1) شيخ زاده، حاشية زاده: 5/ 266.

(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 153، وتتمة كلام ابن هشام عن: (بلى) قوله: (بلى) حرف جَواب، وتختص بِالنَّفْيَ، وتفيد إبْطاله سَواء كانَ مُجَردًا نَحْو: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ [التغابن: 7] أم مَقْرونًا بالاستفهام، حَقِيقِيًّا كانَ، نَحْو: ألَيْسَ زيد بقائم؟ فتَقول: بلَى، أو توبيخيًا، نَحْو: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ﴾ [الزخرف: 80].

(3) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 5/ 266، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: / 4163.

المؤكدات تدل على أهمية المؤكَّد، وهو هنا تكذيبهم فيما قالوه وادّعوه من عدم وقوع السوء منهم أبدًا في الدّنيا، فجاء الردّ عليهم في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ مؤكّدًا هذا الردّ بـ: ﴿إِنَّ﴾ التّوكيدية، وباسميّة الجملة[1] المصدرة بلفظ الجلالة وهو الاسم العَلَم على الذّات، الدّال على العظمة، ثم بمجيء صفة ﴿عَلِيمُۢ﴾ وهي صفة مشبهة بوزن (فعيل)، وقد أوثرت على صيغة فاعل فلم يقل (عالم) مثلًا، وذلك لثبات علمه سبحانه بكلّ أعمالهم الظّاهرة والباطنة؛ مهما دقَّت أو صغرت، ومهما اجتهدوا في سبيل إخفائها.

سرّ إظهار اسمه الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾:

ورود الاسم الجليل لتربية المهابة والرّهبة في قلوب المكذّبين

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ﴾، أُظهِر الاسم الجليل، واختير دون غيره مِنَ الأسماء العليّة؛ لما يقتضيه المقام مِنَ الرّهبة والهيبة، إذِ السّياق فيهما، لكونهم لا يزالون يكذبون على اللّه، وفي وقت لا مجال فيه لشيء غير الصّدق.

دلالة صيغة فعيل ﴿عَلِيمُۢ﴾:

صيغة فعيل هنا صفة مشبهة للدّلالة على ثبات الصّفة

قوله: ﴿عَلِيمُۢ﴾ بوزن فعيل صفة مشبهة، وتدلُّ الصّفة المشبّهة على ثبات علمه سبحانه بأفعالهم مهما أنكروها أو بالغوا في أمر كتمانها.

نكتة إسناد العلم إلى الله تعالى:

التّخويفُ والتّرهيبُ، وإظهارُ أدب الخطاب من الملائكة

على القول: إنّ العبارة من قول اللّه تعالى ردًا عليهم، فإسناد العلم إلى اسمه الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ فيه ما فيه؛ مِن إظهار المهابة، وبثّ الخوف في قلوبهم ليرتدعوا.

وأما على القول: إنَّها مِن كلام الملائكة لهم وقت النزع؛ فإنَّ في إسنادهم العلم إلى اللّه دون أن يقولوا: (إنا نعلم ما كنتم تعملون)، أدبًا مع اللّه، وإشعارًا بأنّهم ما علموا ذلك إلا بتعليم مِنَ اللّه تعالى[2].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4163.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 140.

دلالة الباء في قوله ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

علم الخالق تعالى محيط بدقيق عملهم

الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي باء الملابسة والمصاحبة، فعلم الله تعالى محيط بما عملوه مصاحب له، إذ لا يغيب عن علمه سبحانه شيء مما يقع في الكون، فضلًا عن أعمال هؤلاء وكفرهم.

إيثار الموصول (ما) دون غيره:

التَّعبير بـ (ما) الموصولة أجمع وأخصر

أوثر التَّعبير بالموصول (ما) دون غيره؛ لأن التَّعبير بـ (ما) أجمع وأخصر، والمراد هنا جنس ما عملوا وليس تعيينه، ولذا لم يقل (بالذي تعملون)، ومن دلالات التَّعبير بالموصول في الجملة "استحضار هذا العمل - حتى - كأنه حاضر مهيأ يُرى[1].

سرّ توسيط (كان) مضافًا إلى ضميرهم:

بيان أنّ أعمالهم السّيئة قد كانت طبعًا فيهم وسجيّة

مِن أسرار التَّعبير بـ ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بإيثاره على: (بما تعملون) ونحوه، هو الدّلالة على كون أعمالهم السيئة قد كانت طبعًا فيهم وسجيةً، لكونهم مستمرين عليها لم يفارقوها[2].

دلالة جمع ﴿تَعْمَلُونَ﴾، ومضارعيّته:

التَّعبيرُ على إجماع المشركين على الشرك وتكرّره

وفي التَّعبير بالمضارع مسندًا إلى ضمير الجمع في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دلالة على اجتماع أهل الشرك على نفس الأعمال والسجايا، وعلى أنّها كانت تتكرّر منهم وتتجدّد.

وفي التَّعبير بالمضارع كذلك دلالة على أنّ الله تعالى يستحضرها لهم يوم القيامة؛ كما يدّل له قوله سبحانه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ١٤﴾ [التكوير: 14]، وذلك ليعرضها عليهم، فيروا سوء ما كانوا يعملون، فيعلموا أنهم لم يظلموا، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ [لقمان: 23] وقال أيضًا:

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4163.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4163.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾

[الإسراء: 13 - 14].

الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

التوفّي والموت:

لفظا التّوفي والموت، إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا

لفظ الموت يَدُلُّ لغة عَلَى ذَهابِ القوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ[1]، ولفظ التوفّي من التوفية، والوافي: الذي بلغ التّمام، يقال: درهم وافٍ، وكيل وافٍ[2]، ومنه قيل للموت: وفاة؛ لأنَّه استيفاء للأرواح، بمعنى استعادة اللّه تعالى إياها[3].

ويكاد العرف العام والعرف الخاص - من لدن الفقهاء وغيرهم - يطبقان على استخدام كلّ من اللفظين في معنى مفارقة الحياة، بما يدل على التّقارب الدّلالي الكبير بين اللّفظين في الاستعمال اللّغوي، وحتّى في الاستعمال القرآني، فمن استعمال التّوفي بمعنى الموت في القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ [البقرة: 234]، ومع هذا، فإنَّ تتبّع المواضع القرآنية في ذكر كلّ مِنَ الموت والوفاة يُتيح لنا الخروج ببعض الفروق بينهما في الاستعمال القرآني.

وأبرز ما يدلّ على وجود فروق بينهما قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [الزمر: 42] فإنّ التّوفي وإن أطلق هنا على نوعين مِنَ الوفاة هما؛ النّوم، ويقال له: التّوفّي الأصغر، والموت، ويقال له: التّوفّي الأكبر، فإنّ قوله ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ [الزمر: 42] يدلّ على أنّ الموت الذي هو مفارقة الرّوح للبدن، أمر

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) الرّاغب، المفردات: (وفى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وفى).

زائد على المعنى المجرد للتّوفّي اقتضى أن يُخَصَّ بهذا القيد المذكور وهو الإمساك، فضلًا عنِ النّصّ على كلمة الموت.

ويدلّ على وجود فرق بينهما أيضًا حديث جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه، قالَ: قالَ رَسولُ اللَّه ﷺ: "أيُّها النّاسُ اتَّقوا اللَّه وأجْمِلوا في الطَّلَبِ، فإنَّ نَفْسًا لَنْ تَموتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَها..."(1)، ونخلص من خلال تأمل الاستعمال القرآني للفظين إلى أنّ لفظ الموت لم يُسند في القرآن إلا إلى اللّه تعالى، كما يدل له قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: 259] وقوله: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، أما لفظ التوفي فإنّه يُسند إلى اللّه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42]، وقد يُسند إلى ملك الموت وإلى الملائكة، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقوله: ﴿۞قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: 11] وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61].

ومن الفروق أيضًا أنّ الموت لا يُطلق إلّا على مفارقة الحياة، أمّا التّوفّي فيُطلق على النَّوم كما في آية ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42]، ويُطلق على استكمال الأجل والرّزق، كما مرَّ في حديث جابر بن عبد اللّه السّابق، وعلى قطع التّصرّف بالحركات الاختياريّة، وفي قبض الرّوح، واستيفاء النّفس، أي: رفعها إلى اللّه تعالى، ومن هنا يمكننا القول: إنّ انفراد ذكر كلٍّ مِنَ اللفظين في تركيب خاصّ وسياق مستقلّ، يغني عن ذكر الآخر لدلالته عليه، وأمّا عند الاجتماع أي حال ذكر كل منهما (التوفي والموت) في نفس السّياق، فلا بدّ مِن تَلَمُّسِ الفرق بينهما، بأن يُحمل التّوفّي على استيفاء كل ما يتعلق بالإنسان ممّا قدّر له في الحياة على الأرض؛ مِنَ الرّزق ونحوه، ولذا قال المسيح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ [المائدة: 117]، وقال له ربُّه: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: 55]، أي: موفيك رزقك وما كُتب لك في الأرض قبل الرّفع إلى السّماء، ويُحمَل الموت على نزع الرّوح ومفارقة الحياة، فتكون العلاقة بينهما كالعلاقة بين لفظي: الفقير والمسكين، ولفظي: الإيمان والكفر، أي: إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

(1) ابن ماجه، السنن، كتاب: التّجارات، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة: 2/ 725.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾ [النّحل: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا تبيّن كذبهم، جوزوا بما يستحقّون من العذاب

بعد أن أظهرتِ الآية السابقة كذبهم المصحوب بالغرور والتكبُّر؛ لكونهم لم يعترفوا بأنّ ما فعلوه مِن كفر باللّه وجحود لألوهيته هو مِن أخطائهم، بل تمادوا في غيِّهم حتى قالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾، فكشف اللّه أمرهم، وفضح سترهم؛ لأنه العليم بكلّ شيء، ومجازٍ بما يعلم كلًّا بما يستحق، فلذلك رتَّب على هذا العلم ما يناسب حالهم مِن جزاء، فإذا كانت حالهم ما قد عُلِم مِنَ الكفر والكبر، فليكن جزاؤهم جزاء الكافرين بربّهم، المتكبرين على الانصياع للإيمان به وطاعته، فقال سبحانه مبينًا هذا الجزاء: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَهَنَّمَ﴾: اسمٌ للنّارِ الَّتي يُعذِّبُ اللّهُ بها في الآخِرَة، وهي لفظَةٌ أعجَمِيَّةٌ لا تَنصَرِف لِلعُجْمَةِ والتَّعريف؛ ولذلكَ لا حاجةَ إلى البَحثِ عَنِ اشتِقاقِه، وقيل: جَهَنَّمُ اسمٌ عَربيّ، سُمِّيَت به نارُ الآخِرَة؛ لبُعْدِ قَعْرِها، ومَن جَعلَ جَهَنَّم عَرَبيًّا احتجّ بقَوْلِهم: بِئْرٌ جِهِنّام، ويكون امتِناعُ الصَّرْفِ للتَّأنيثِ والتَّعْريف[1]، والمرادُ بجهنَّم في الآية: عَلَمٌ على دارِ العقابِ الموقَدَةِ نارًا.

2) ﴿مَثۡوَى﴾: أصلُ (ثوي): كلِمَةٌ واحِدَةٌ صحِيحَةٌ تَدُلُّ على

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغّة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جهنم).

الإقامَةِ، يُقالُ ثَوى يَثْوِي فهو ثاوٍ[1]، فالثَّواءُ: طولُ المُقام، ويُقالُ للمَقتول: قد ثَوَى، ويقال للغريب المقيم ببلدة: هو ثاويها، والمَثْوَى: اسمُ مَكانِ الثّواءِ، وهو القَرارُ، فالمثوى المَقَرُّ، والمَثْوَى أيضًا: المَرْجِعُ، مِنْ ثَوَى إذا رَجَعَ، والثَّوِيُّ: بيتٌ في جَوْفِ بيتٍ، وقيل: هو البيتُ المُهَيَّأ للضَّيْف، والثَّوِيُّ: الضَّيْفُ نَفْسُه[2]، والقياسُ كُلُّهُ واحدٌ، والمقصود بالمثوى في الآية: مَحلُّ الثَّواءِ وهو الإقامةُ.

3) ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾: أصل الكبر: الامتناع وعدم الانقياد، يقال: تكبّر البعير: إذا امتنع ولم ينقد[3]، والكبر: التّعاظم والاتّصاف بالعظمة، يقال: كبر، يكبر، كبرًا، أي: عظم، ويقال له أيضًا: التّكبّر والاستكبار، وضدّه: التّواضع والتّصاغر[4]، والمتكبّر: المتعالي والمتعاظم، والكبر أيضًا: معظم الشّيء، ويأتي الكبر بمعنى التّعالي والتّرفّع، فيقال: كبر وتكبّر عن الشّيء: إذا ترفّع وتنزّه عنه[5]، والمقصود بالمتكبّرين في الآية: ذوي الكبر المبالغ فيه؛ ولذلك استعيرت صيغة التّكلّف.

المَعْنى الإجْماليُّ:

لـكـلِّ طـائـفـةٍ مــن الـضّـالـين المتـكـبّرين بـابٌ يلجون منه إلى مثواهم من نار الجحيم

يُقالُ للّذين كذّبوا وتكبّروا: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ، فكُلٌّ منكم يُعذَّبُ في طبقةٍ مِن طَبقاتِها بحسَبِ عمَلِه، ماكثِينَ في جهنَّمَ أبدًا، فلَبِئسَ المقيل والمقام دار الذّل والهوان لمن كان مُتكبِّرًا عن اتِّباع الرُّسل والاهتداء بالآيات الَّتي أُنزلت عليهم، وما أفظعها من دارٍ، وصفها ربُّنا تعالى بقوله: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: 36][6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوي).
(2) الخليل، العين: (ثوي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كبر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(6) المراغي، تفسير المراغي: 14/ 72.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف بالفاء في السّياق:

سوء أعمالهم مدعاةٌ لسرعة العقاب

في التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ﴾ احتمالان: **الأول**: يمكن أن تكون العاطفةَ المقتضيةَ للترتيب والتعقيب، والعطف على ما تقدم ذكره، وفائدة التَّعبير بها الدّلالة على سرعة معاقبتهم بدخول النار، باعتبارها مثواهم الذي أُعد لهم، بسبب[1] ما قدَّموه مِن أعمال السّوء، وأعظمها الكفر مع الكبر.

والآخر: يُحتمل أن تكون الفاء الفصيحة المنبئة عن شرط مقدَّر، قد عطفت عليه الجملة المذكورة بعد الفاء، أي: إذا كان الأمر على ما تقدَّم، ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ﴾[2].

وكون هذا الجزاء: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ مفرَّعًا "على إبطال نفيهم عمل السوء ظاهر؛ لأن إثبات كونهم كانوا يعملون السوء يقتضي استحقاقهم العذاب"[3].

دلالة الأمر (ادخلوا):

توجيه الأمر إليهم بالدّخول، يدلّ على معرفتهم طريق جهنَّم

فعل الأمر (ادخلوا) أمرُ وجوب وإلزام لا تخيير فيه، وإنّما وجِّه إليهم الأمر بالدُّخول ولم يوجّه إلى الملائكة ليُدْخلوهم، فلم يقل: (فأدخلوهم) أو (فأُدخِلوا) لبيان أنّهم بعد أن كشف الله لهم سوء أعمالهم قد عرفوا طريقهم وأنَّهم متّجهون إلى جهنّم، بحيث لا يحتاجون إلى سائق يسوقهم إليها، أو أنّه ساق الأمر كذلك تهكمًا بهم، وكأنَّهم هم من اختاروا طريق جهنّم[4].

نكتة جمع الأبواب (جمع قلّة):

عدد أبواب جهنَّم، سبعة أبواب كما في الخبر

سرُّ جمع الأبواب جمع قلة هو كون عدد أبواب جهنم قليلة، فهي

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4164.
(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 7/ 153.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 140.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4164.

سبعة أبواب، كما أخبر عنها القرآن بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾ [الحجر: 43 - 44]، ومعنى هذا أنَّ كلَّ باب من أبوابها مخصص لبعض أهل المعاصي، والظّاهر أنَّ تقسيمهم كائن بحسب نوع المعصية؛ كأن يكون بابٌ خاصٌّ بالمتكبرين، وآخر للظالمين، وثالث للجبّارين، وهكذا، "ليدخل كلّ صنف إلى الطّبقة التي هو موعود بها، وإنّما قيل لهم ذلك؛ لأنّه أعظم في الخزي والغمّ، وفيه دليل على أنَّ الكفّار بعضهم أشدّ عذابًا مِن بعض"(1).

سرّ الأمر بدخول الأبواب، دون جهنّم مباشرة:

اقتضاء ترهيبهم وتخويفهم ممّا بعد الأبواب

لعلّ السّر في الأمر بدخول الأبواب؛ ترهيبهم وتخويفهم، فكأنَّ الأبواب نفسها عليها أمارات العذاب وعلاماته، أو أنَّها تكشف عمّا في داخلها، فكيف بما في داخلها؟

وأبوابُ جَهَنَّمَ كما قيل: مُفضية إلى طبقاتها التي هي بعض على بعض، و(الأبواب) كذلك باب على باب(2).

بلاغة الكناية في لفظ الأبواب:

التَّعبير بالأبواب كناية عن سعة جهنّم

في التَّعبير بـ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كناية عن سعتها، وسهولة الوصول إليها؛ لمَن كُتبت عليهم وأوردوها بأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾ [الحجر: 44](3).

إيثار لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون (النّار):

عذاب بالتّجهّم، أكبر مِنَ العذاب بالتّألّم

إنّ اسم جهنَّم - في رأي - معرَّب وأصله فارسي(4)، وعلى القول بأنَّه عربي وهو الأرجح، فهو مُشتق مِنَ الجهم أو الجهومة وهو الشيء

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 7/ 234.

(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/ 389.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4164.

(4) الراغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح: (جهنّم).

المخوف العابس الكريه[1]، وعندئذ يكون ما يحمله لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مِن معنى الكراهية والبغض والخوف هو مسوغ اختياره هنا؛ فلكونهم تكبَّروا على ربِّهم وتنكَّروا له، فإنَّه سبحانه يُعاقبهم في جهنّم التي يحمل اسمها الأوصاف المذكورة جزاءً وفاقًا.

نكتة التّصريح بلفظ الخلود:

غرض التّصريح بذكر الخلود، تعظيم غمّهم وحزنهم

صرّح تعالى بذكر الخلود - وهو المُكث الطويل الذي لا يُعرف له أمدٌ، وفي حق الكفار مفيدٌ الأبدية - رغم أنَّهم يعلمون ذلك لتكرّر الوعيد في القرآن بذكره؛ "ليكون الغمّ والحزن أعظم"[2].

سرّ صوغ لفظ الخلود، باسم الفاعل جمعًا:

الدّلالة على الثّبوت والتّجدّد في آن واحد

إيثار التَّعبير عنهم باسم الفاعل دون التَّعبير بالفعل، للدلالة على كونهم جديرين بما يحمله اسم الفاعل مِن وصف الخلود، كما أنَّه يدل على الثبوت والدوام، فطبيعة اسم الفاعل مزدوجة تحمل من سمات الاسم الثبوت، ومن سمات الفعل التجدد[3]، وممّا يدلّ على تجدّد عذاب أهل النار قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: 56].

فائدة شبه الجملة ﴿فِيهَاۖ﴾:

التّعبير على انغماسهم في نار جهنّم

دلّ التَّعبير بشبه الجملة ﴿فِيهَاۖ﴾ المكوَّن من (في) الظرفية ومجرورها وهو الضمير على انغماسهم في نار جهنَّم بحيث لا يجدون منها مفرًّا ولا مهربًا، كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾ [الكهف: 53].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 272، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/ 326، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 7/ 4138.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 200.

(3) عبد الحميد هنداوي، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ص: 221.

دلالة الفاء، في السّياق المصطفى:

بيّنت الفاء سوء عاقبتهم لكونهم متكبرين

الفاء في قوله: ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ للاستئناف[1] والجملة بعدها مستأنفة مؤكدة ومبينة[2] سوء عاقبتهم ومقرِّهم لكونهم متكبرين على عبادة ربهم، وعلى الاعتراف بأنهم في دنياهم قد أخطؤوا في الانصراف عن الإيمان الحق.

وقيل: الفاء هنا هي الفاء الفصيحة، التي تُفصح عن شرط مقدّر، أي: إذا كانوا سيدخلون جهنم خالدين، فلبئس مثواهم[3].

دلالة اللّام في سياق الآية الكريم:

تأكيد الذّم واضح في دلالة الجملة

(اللّام) لتأكيد الذّم، أي: فلبئس مثواهم[4] وفائدة التأكيد باللّام هو الاعتناء بالذَّم؛ لأنَّ القوم ضالون مضلون، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [النّحل: 25][5].

ولا يُقال: كيف دخلت لام التّأكيد على الفعل الماضي؟ لأنّها لا تدخل على الماضي المنصرف - غير المسبوق بقد - وإنما تدخل على الجامد كـ (بئس) لبعده عن الأفعال وقربه منَ الأسماء[6]، ويصحّ أن تكون اللّام هنا لام القسم[7]، أي: واقعة في جواب قسم محذوف، تقديره: واللّه ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾.

إيثار فعل الذمّ (بئس)، ودلالة جملة الذّم:

من العذاب تخويفهم وتحسيرهم

أوثر التّعبير بـ (بئس)؛ لكونه فعلًا مختصًّا بالدَّلالة على الذَّم، لما فيه من دلالة على البؤس، ويقابله (نِعْمَ) الدّالّ على المدح،

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 7/ 154.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 145.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4164.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 389، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4164.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 371.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 523.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 140.

وجملة الذَّم تذييلٌ قُصد به ترهيبهم وتخويفهم مِن مثواهم الذي هو مصيرهم أبدًا، وهو جهنّم ولبئس مثواهم هي، وقُصد به أيضًا تحسيرهم على ما أفرطوا فيه مِن أعمالٍ ألجأتهم إليه، وما فرَّطوا فيه مِن أعمال كانت ستغير مثواهم مِن دار الجحيم، إلى الخلود في دار النعيم.

نكتة حذف المذموم (المخصوص بالذّمّ):

حذف المخصوص بالذّمّ للدّلالة عليه

المخصوص بالذّم محذوف وتقديره: فلبئس مثوى المتكبّرين هي، أي: جهنم أو أبوابها[1]، أو بئس المثوى مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ[2] وقد حُذف للدّلالة عليه في قوله: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾.

وجه تنكير ﴿مَثۡوَى﴾:

مقام المتكبّرين، مهول العذاب

نكَّر ﴿مَثۡوَى﴾ في قوله: ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ لإرادة تفخيمه وتهويله، فالفعل المُشين يستدعي سوء العقاب، وشنيع العذاب في أردى مكانٍ، وأسوأ مُقام.

نكتة الإظهار في موضع الإضمار:

أوردهم المهالك كِبْرهم وعدم الاستماع إلى الحقّ

أظهر في موضع الإضمار، فقال: ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ ولم يقل (بئس مثواهم) للدّلالة على أنّ الكبر عن الحق، وعدم الاستماع إليه، والإصغاء لأهله، هو الذي أرداهم وأودى بهم[3]، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60].

دلالة تعريف ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾:

جزاء كلّ متكبّر جهنّم

(أل) في المتكبِّرين دالَّة على استغراق الجنس، فجميع المتكبِّرين بئس جهنم مثواهم، وفي ذكرهم بعنوان التّكبر إشارة إلى أنَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 371.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 524، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/ 390.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4164.

استحقاقهم النّار كان للتّكبر عن طاعة اللّه ورسوله، وأنَّه العلة لثوائهم فيها[1].

دلالة الوصف باسم الفاعل ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾:

التّعبير عن أصالتهم في وصف التّكبر

إيثار التَّعبير عنهم باسم الفاعل دون التَّعبير بالفعل، للدّلالة على كونهم جديرين بوصف التّكبر، كما أنّهم جديرون بجزاء المتكبرين الذي ذكرته الآية الكريمة.

والمراد بتكبُّرهم التكبُّر عن طاعة اللّه وعبادته كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥﴾ [الصافات: 35]، وفيه تعريضٌ بأنّهم جديرون - لغاية ما لهم منَ البلادة - أن يستحسنوا النّار، كما كذّبوا، مع العلم التّام بأنّه لا يروج في ذلك اليوم كذب[2].

نكتة تضعيف الفعل (تكبّر):

تضعيف التكبُّر مفيد للتكلُّف

التّكبُّر من الفعل تكبَّر، وهي صيغة (التفعُّل) تدلّ على التّكلُّف نحو التّشجُّع والتّحلُّم والتّصبُّر، كما تدلّ الصّيغة على العمل المتكرّر في مهلة نحو: تفهّم، وعلى معنى استفعل مثل: تكبَّر وتعظَّم[3]، وهذه المعاني ملحوظة في التّكبُّر، فالمتكبِّر يتكلَّف الكبر ويكرره إلى أن يعتقد أن نفسه بالفعل كبيرة، ثم يصير الكبر فيه سجيَّةً وطبعًا، فيكون جديرًا بوصف المتكبِّر.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المثوى والمأوى والدّار والمنزل:

المأوى دالّ على التّجمّع، والمثوى على عدمه، والمنزل والدّار دالان على الاستقرار

المأوى: هو كل مكان يأوي إليه شيء ليلًا أو نهارًا، ومنه قوله تعالى: (قال سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُني من الماء) ومن أصوله الدّالّ عليها التَّجَمُّعُ، كما هو ملحوظ في قوله تَعالَى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 327، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 365.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 146.
(3) ابن الحاجب، الشافية، ص: 63.

﴿ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، وقالَ: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٍ﴾ [المؤمنون: 50]، وهو ضَمٌّ مع ضعفٍ ما - كما في الإيواء للنّصرة والحياطة، وكما في تأوِّي الجُرَح، فإنّ تقاربه للبرء يتمثّل في تضامّه، وكما في الأويّ إلى المنزل، وكذا إيواء الرَّجل، وكذا المأوى المنزل، فكل ذلك لا يستعمل فيه (أوَى) إلا لضعفٍ ما؛ كالحاجة إلى الحماية مِن عدوّ أو مخوف أو جوٍّ يضر التعرض له، وكالحاجة إلى الرّاحة[1]، وقَدْ أُطْلِقَ المَأْوَى في التَّنْزِيلِ عَلَى الجَنَّةِ وهوَ عَلَى الأَصْلِ في اسْتِعْمالِهِ، وعَلَى نارِ الجَحِيم، وهوَ مِنْ بابِ التَّهَكُّم، ونُكْتَتُهُ بَيانُ أَنَّ مَنْ كانَتِ النّارُ مَأْواهُ لا يَكونُ لَهُ مَلْجَأٌ يَنْضَوِي إلَيْهِ، ولا مَأْمَنٌ يَعْتَصِمُ بِهِ[2].

المثوى: الثَّواء: الإقامة مع الاستقرار، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزمر: 60] وقال: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ [فصلت: 24]، وقال: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ [الزمر: 72]، وقال: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128][3]، فهو من ثوى بالمكان إذا أقام به إقامة سكنى، أو إطالة مكث، وقد بين الثّواء بالخلود بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾[4]، ونلحظ أن القرآن قد خصّه بأهل النار، ولم يُذكر مع أهل الجنة، فسائر ما في القرآن مِنَ التركيب هو (مثوى) بمعنى مكان الثواء والإقامة (جهنم) للكفار حسب السياق[5].

المنزل: المنزِل - بكسر الزاي -: الدّار موضعُ النزول[6]، والنُّزُل - بضمتين -: ما يُعَد للنزيل والضيف مِنَ القرى، وإطلاق اسم النُّزُل على العذاب استعارة علاقتها التّهكم، كقول عمرو بن كلثوم:

قَرَيْناكُم فعَجَّلْنا قِراكُم *** قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْداةً طَحونا[7]

الدّار: المنزل اعتبارًا بدورانها الذي لها بالحائط، ويُقال لكلٍّ مِنَ الدّنيا والآخرة.:

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أوى).
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/ 93.
(3) الرّاغب، المفردات: (ثوى).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 8/ 70.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ثوى).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نزل).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 45، وديوان عمرو بن كلثوم، ص: 73.

دار[1]، وأطلق على النّار بإضافتها إلى صفتها في قوله سبحانه: ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨﴾ [إبراهيم: 28] أما الجنة فقد أطلق عليها ﴿ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: 24] مطلقًا دون الحاجة إلى وصف، في قوله سبحانه: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: 24]، وأحيانًا مع وصف بحسب السّياق، كما في قوله تعالى: ﴿۞لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 127].

وبعد هذا العرض نرصد الفروق بين أربعتها، مع التّأكيد على التَّقارب الدَّلالي بينها؛ لكونها جميعًا دالَّة على الإقامة بالمكان مع طول مكث:

أمّا لفظ المأوى فملحوظ في دلالته معنى التَّجمّع، وهو ما يميزه مِن بقيتها، سواء كان هذا التّجمّع في الدّنيا كتجمع أهل الكهف، وكما يطلق الآن على التجمع السكاني لمن فقدوا ديارهم: (منازل الإيواء)، أو كان هذا التجمع في الآخرة، كتجمع أهل الجنة فيها للأنس ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [السجدة: 19] أو تجمع أهل النار ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: 72].

وأما لفظ المثوى فملحوظ فيه أن القرآن لم يستعمله إلا في حق أهل النّار، ولم يُعبِّر به عن أهل الجنة، وقد ألمح ابن عاشور إلى دلالة التَّعبير به وهو أن أهل النار "متراصون في النار وهم في مثوى، أي: محل ثَواء واستقرار ومكوث" ففيه معنى التحقير لهم[2]، وهو علّة اختياره في هذه الآية في سياق الحديث عن مآل المتكبّرين بوصف جهنّم مستقرًّا لهم، محقّرين، مهانين.

أمّا المنزل، فهو الدار، والدار هي محل الاطمئنان والاستقرار، ولذا فإن التَّعبير به لا يخرج عن هذا المعنى، إلا مقصودًا به غرض آخر كالتهكم ونحوه، ومثل المنزل التَّعبير بالدار، فالدار محل الاستقرار والاطمئنان، ومن ثم أطلق على الجنة لفظ (الدّار) بخلاف جهنم فما أطلق عليها لفظ الدار إلا موصوفة بما يدل على سوء ما فيها، كدار البوار.

(1) الرّاغب، المفردات: (دار).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 140.

﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾ [النحل: 30]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكـر مـآل السّعداء إثر ذكر مآل الأشقياء

لما سبق بيان أحوال الأقوام المستكبرين الذين إذا قيل لهم ماذا أنزل ربّكم؟ قالوا: أساطير الأولين، كما صرَّحت به آية سابقة هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل: 24] ثم ذُكر أنّهم يحملون أوزارهم ومِن أوزار أتباعهم، وذُكر أنّ الملائكة تتوفاهم ظالمي أنفسهم، وذُكر أنّهم في الآخرة يلقون السلم، وذُكر أنه تعالى يقول لهم ادخلوا أبواب جهنم، أُتْبِعَ بذكر وصف المؤمنين الذين إذا قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾؟ ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ وذِكْرِ ما أُعِدَّ لهم في الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات، ليكون وعد هؤلاء مذكورًا مع وعيد أولئك[1].

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿خَيۡرٗاۗ﴾: أصلُ (خير): العَطْفُ والمَيْلُ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه[2] غيره من المعاني، والخير: اسمُ تفضيلٍ، أصلُهُ: أخير، وحُذِفَتْ همزتُهُ على خِلاف القياس؛ لكَثرة استعماله، أو مصدر من خارَ، يَخيرُ، أو صِفة مُشبَّهة، تخفيف خيِّر، فالخَيْرُ: خلافُ الشَّرِّ؛ لأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَميلُ إليهِ ويَعْطِفُ على صاحِبِه، ومنه تقولُ: خِرْتَ يا رَجُلُ، فأنتَ خائِرٌ، وخارَ اللّٰهُ لَكَ[3]، أي: أعطاكَ ما هو خير لكَ، ويُطلَقُ على معانٍ كثيرة،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 201.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خير).

منها: المالُ، يُقالُ: فُلانٌ ذو خيرٍ وبخيرٍ، أي: ذو مالٍ، وجمعُهُ: خُيورٌ[1]، والمرادُ بـ ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ في الآية: لفظٌ شاملٌ لكلِّ خيرٍ في الدُّنيا وكلّ خيرٍ في الآخِرَة[2].

2) ﴿أَحۡسَنُواْ﴾: الإحْسانُ: الإتْيانُ بما هو حَسَنٌ، يُقال: أَحْسَنَ فُلانٌ، يُحْسِنُ، إحسانًا، أي: أتَى بِشَيْءٍ حَسَنٍ، والحَسَنُ: الجَيِّدُ، وضِدُّهُ: القَبيحُ والسَّيِّء، ويأتي الإحسانُ بمعنى الإتْقانِ والإجادَةِ، والمُحْسِنُ: المُتْقِنُ المُجيدُ لِعَمَلِه، ومِن مَعانيه أيضًا: الإخْلاصُ، والإحْكامُ[3]، والمقصود بالإحسان في الآية: العَمَلُ الصّالِحُ، والمراد بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾: المُتَّقونَ[4].

3) ﴿وَلَدَارُ﴾: أصل الدّور: الإحداق والإحاطة بالشَّيء، والدّار هي المَنْزِلُ، وسُمِّيت دارًا لدَوران أهلها بها، أو لدَورانها هي على أهلها وإحاطتها بهم، وتُطلَق ويُراد بها البلَد والضِّيَع والدُّنيا كلها[5].

4) ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: أصْلُ (وقى): كلمةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ على دَفْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ بِغَيْرِه، يُقالُ: وقَى نَفْسَهُ مِن العَدوِّ بِسِلاحِه، أي: دَفَعَهُ بِه، والوِقايَةُ: ما يَقِي الشَّيءَ، واتَّقِ اللّه: تَوَقَّهُ، أي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ، والمتَّقي: المفرط في الصِّيانة[6]، والتَّقْوَى: اتِّخاذُ الوِقايَةِ والحِمايَةِ مِن الشَّيْءِ، والتَّوَقِّي: الحَذَرُ، وتأْتي الوِقايَةُ بِمعنى الحِفْظِ مِن الأَذى والضَّرَرِ[7]، والمقصود بالمتَّقين في الآية: الَّذين يتحرّزون من المهالك في الدُّنيا، والمراد بدار المتقين هنا: الدّار الآخرة، وهي الجنَّة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى: وقيلَ للمُتَّقين: ماذا أنزَلَ ربُّكم مِن الوَحي على نَبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ؟ قالوا: أنزَلَ اللّهُ خيرًا عَظيمًا في الدُّنيا والآخِرةِ - وهو القُرآنُ - رَحمةً وهُدًى وبَرَكةً لِمَن آمنَ به واتَّبَعَه، وللمُؤمِنينَ الذين أحسَنوا في عِبادةِ اللّهِ، وأحسَنوا إلى عِبادِ اللّهِ، ثوابٌ حَسَنٌ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزبيدي، تاج العروس: (خير).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 141.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والفيروزابادي، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (حسن).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 142.
(5) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دور).
(6) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقى).
(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقى)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 340.

عاجلٌ في الدُّنيا؛ ممثَّلٌ في الحياةِ الطَّيِّبةِ والرِّزقِ الحسَنِ، وحُصولِ السُّرورِ، وتحَقُّقِ السَّعادةِ، ولَجزاءُ المُؤمِنينَ في الدّارِ الآخرةِ في الجنَّةِ خَيرٌ لهم مِن الجزاءِ المُعَجَّلِ لهم في دارِ الدُّنيا، ولَنِعْمَ دارُ المُتَّقينَ - الذين يَمتَثِلونَ أوامِرَ اللّهِ، ويَجتَنِبونَ نواهيَه - الجنةُ في الآخرةِ(1).

الَّذين اتقوا ربَّهم، عرفوا طريقهم إلى الله، واهتدوا إلى مواقع الهدى

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطف بالواو في السّياق:

الواو هنا للعطف بين المتقابلين وهما: حالُ الكافرين المسكتبرين وجزاؤهم، ثم حالُ المتقّين الطائعين وجزاؤهم، فالعطف على الجمل السابقة عليها(2).

بديع تنظير حال سيئات الكافرين، بحال حسنات المؤمنين:

شتّان بين المنكر المتكبّر، والمؤمن الموقن

جاء التّنظير بين الحالين في نسق بديع عن طريق المقابلة بين جوابين مختلفين عن سؤال واحد هو: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ فأجاب المستكبرون بقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل: 24] وأجاب المتقون بقولهم: ﴿خَيۡرٗاۗ﴾، أي: أنزل خيرًا، ثمَّ المقابلة بينهما حاصلة فيما هو أعمّ مِن هذا وأشمل، فقابل بين حالين وسلوكين وجزاءين كلّ منهما يُناقض الآخر ويُعاكسه، وذاكم هو شأن المستكبرين ولبئس ما هم، في مقابلة المتقين ولنعم ما هم(3).

دلالة العدول عن اقتران الآية بأداة الشّرط:

لم تقترن الآية بالشّرط؛ للمفارقة بين حالي المستكبرين والمتّقين

بالموازنة بين هذه الآية: ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾، ومقابلتها السّابقة في نفس السّورة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل: 24] يُلحَظ الفرق

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 210، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 568، والسعدي، ص: 439، والشّنقيطي، أضواء البيان: 2/ 371.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 141.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 141.

بينهما من حيث إنّها سيقت مساق الإخبار ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ ولم تقترن بالشَّرط في مستهلّها، كما اقترنت به الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ [النحل: 24] وذلك "لأنَّ قولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل: 24] لما كان كذبًا اختلقوه؛ كان مظنّة أن يُقلع عنه قائله، وأن يرعَوِي إلى الحق، وأن لا يُجمِع عليه القائلون، قرن بأداة الشرط المقتضية تكرّر ذلك للدّلالة على إصرارهم على الكفر، بخلاف ما هنا فإنّ الصدق مظنّة استمرار قائله عليه، فليس بحاجة إلى التَّنبيه على تكرره منه"[1]، ويجوز أن يعود السّبب إلى قصدية السؤال وعدم قصديته، فلما كان السّؤال منويًّا مع المتّقين ومقصودًا لم يتقدمه الشرط، ولما كان السّؤال للمشركين عرضيًّا استهل بالشرط المسلط تحقيقه بـ ﴿وَإِذَا﴾ على الجواب، وهو قولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل: 24] لا على القول[2].

سرّ بناء فعل القول للمفعول:

العناية منصبّة على القول لا القائل

في بناء الفعل ﴿وَقِيلَ﴾ للمفعول، وليس الفاعل دلالة على أنّ الأهميّةَ منصرفةٌ إلى ما قيل، وليس إلى مَن قال، لينتقل الاهتمام بعد ذلك إلى الجواب، إثر ترقبه بالسّؤال.

دلالة اللّام في سياق الآية الكريمة:

لازموا التقوى حتى اختصّوا بها

اللّام في قوله ﴿لِلَّذِينَ﴾ هي لام الاختصاص، وتسمّى لام الاستحقاق؛ فالقول موجّه للمختصّين بالتّقوى المستحقّين له.

علّة التَّعبير بالموصول دون الصّفة (المتّقين):

استحقّوا المدح وحسن الجزاء، لحميد خصالهم

عبّر عنهم بالاسم الموصول مدحًا لهم، ولفتًا إلى ما تضمَّنته الصّلة مِن صفات كانت المسوِّغ لمدحهم ولفوزهم بحسنة الدّنيا وخير الآخرة، والموصول (الذين) للعهد والمراد به، المؤمنون المعهودون في مكة[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 141.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 189.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 141.

دلالة جمع المتّقين على صيغة التّفعّل:

تأصّل التّقوى فيهم، هو سرّ حسن سيرتهم

في التَّعبير بـ ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ دلالة على تكرر التقوى منهم، وتأصلها فيهم، وأنهم يحافظون عليها في كلّ موقف يستدعيها، لما تفيده صيغة التفعُّل مِنَ التَكرار والارتقاء في نفس الصِّفة، على ما مرَّ ذكره في التَّكبُّر.

إيثار الفعل ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ على الفعل (آمنوا):

التقوى تستلزم حصول الإيمان وليس العكس

أوثر التَّعبير بالفعل ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ على الفعل: (آمنوا)، لأنّ التّقوى تستلزم الإيمان في أعلى مراتبه وأسمى درجاته، وليس العكس[1]، فالإيمان لا يستلزم التحقّق بكامل التقوى.

سرّ حذف مفعول ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾:

المتّقى الله تعالى في الصّغائر والكبائر

حذف مفعول ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ اختصارًا للعلم به، والمعنى اتّقوا ربّهم، فضلًا عمّا يتضمّنه الحذف مِنَ الاتّساع في صور تقوى ربّهم ودلالاتها في الصّغائر والكبائر.

بلاغة الاستفهام بـ ﴿مَاذَآ﴾:

المُنزَلُ مَظِنّة التّشريف والتّفخيم

في الاستفهام بـ ﴿مَاذَآ﴾ تفخيم للمستفهَم عنه؛ لأنّ الاستفهام بها أقوى مِنَ الاستفهام بـ (ما) لكونها نصًّا في الدّلالة على الاستفهام[2]، بخلاف (ما) فإنها تتردّد بين معان مختلفة كالموصول والمصدريّة، فضلًا عن الاستفهام، أي: أنّها غير ممحّضة للاستفهام كـ ﴿مَاذَآ﴾.

إيثار الفعل ﴿أَنزَلَ﴾ دون (نزّل):

السّؤال عن ماهيّة المُنزّل لا كيفيّة نزوله

أوثر التَّعبير بـ ﴿أَنزَلَ﴾ دون (نزّل)؛ لأن المراد: جملةُ المنزّل بكلّيّته المفهوم من ﴿أَنزَلَ﴾، وليس كيفية التّنزيل وكثرته وتدرّج نزوله الّذي يدلّ عليه (نزَّل)، فالسؤال عن ماهيّة المُنزّل لا كيفيّة نزوله.

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 189.
(2) السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 464.

إيثار لفظ ﴿رَبُّكُمۡۚ﴾ ونسبته إلى المتّقين:

المقام مقام تربيَة وإنعام وتشريف

أوثر التّعبير باسم الرّبّ في قوله ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ ولم يقل (أنزل الله) لما أنّ المقام مقام إنعام على المؤمنين وتربية لهم وإكرام، كما أشار سبحانه إلى كون القرآن كذلك، في قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت: 44]، وفي إضافة اسم الرّبّ إلى ضمير المتّقين تشريف لهم، وتنبيه إلى كونهم معترفين بنعمة الله عليهم في إنزال القرآن.

بلاغة الفصل بفعل القول مجموعًا:

اجتماعهم على الإجابة، دليل وحدة أفعالهم، وانقيادهم لله تعالى

علّة الفصل في قوله: ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ هو وقوعه جوابًا عن سؤال مقدر، فكأنّه قيل: فماذا قالوا بعد أن سُئلوا: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾؟ فكان الجواب: ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾.

وفي التّعبير بقوله: ﴿قَالُواْ﴾ أي: جميعًا دلالة على عدم تردّدهم في الجواب؛ إذ أطبقوا جميعًا عليه لم يتخلّف منهم واحد في الرَّدِّ به وعلى وجه السُّرعة؛ لأنّه بالنّسبة لهم جواب واحد لا تردّد فيه، وهو ممّا لا يحتاج إلى تفكير؛ لأنّ فعلهم واحد، أجمعَهُم عليه صدقُهم، ونقاؤهم، وصفاء سرائرهم، وانقيادهم للباري سبحانه رَغَبًا، ورَهَبًا، وطاعَةً.

بديع التّعبير عن خيريّتهم بمصدر منكّر:

إفادة تعظيم المُنزَّل، وإفادة عمومه

في تنكير لفظ ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ لإفادة تعظيم المُنَزَّل، وإفادة عمومه، ليشمل السّنّة كذلك، فكلّ ما جاء به النّبي ﷺ من أحكام وشرع، فيه خير البشريّة وصلاحها، وليشمل كلّ خير أنزله الله في الدّنيا والآخرة[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4166، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 141.

الكافر المُتكبّر جاحد، والمتّقي على يقين

علّة نصب ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ هنا، ورفع ﴿أَسَٰطِيرُ﴾:

ممّا يلفت الانتباه المفارقة بين هذه الآية ومقابلتها من سورة النّحل إذ قال فيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل: 24] برفع مقول القول ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ [النحل: 24]، في حين نصب ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ هنا بقوله: ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾، فما علة رفع الأول ونصب هذا؟

والجواب لصاحب الكشاف في قوله: "فإن قلت: لم نصب هذا ورفع الأول؟ قلت: فصلًا بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعنى أن هؤلاء - المتقين - لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيِّنا مكشوفًا مفعولًا للإنزال، فقالوا ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ أي: أنزل خيرًا، وأولئك عدَلوا بالجواب عنِ السُّؤال فقالوا: هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل: 24]، وليس مِنَ الإنزال في شيء"[1].

أي: أنّه لو جاء منصوبًا هكذا (أساطيرَ) لكان منصوبًا على تقدير: (أنزل أساطيرَ) وهم لا يريدون أن يجعلوا بينه وبين الإنزال صلةً ما، ولو كان المنزَّل منعوتًا بـ (أساطير الأولين)، فكان جواب المستكبر ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ مخالفًا للسؤال ومطابقًا لما يقتضيه حاله، ولو أنَّه أجاب بالنَّصب لكان موافقًا للسائل في الاعتراف بكون أصل النزول مسلَّمًا عنده، ولكان مناقضًا لنفسه في توصيف ما اعترف بكونه منزَّلًا من ربِّه بأنَّه أساطير[2].

ومن الفروق بين التَّعبيرين في الآيتين، أنّ النّصب في قوله ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ مبني على كونه معمولًا لفعل محذوف تقديره: أنزل، وهذا هو اللائق بالحال أن يحمل السّؤال على الجملة الفعليّة، وأن يكون الجواب ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ بالنّصب "فلو أجاب بالرّفع وقال: (المنزل خير) لكان موافقًا للسائل في الاعتراف بأصل النّزول، إلا أنّه يكون متلعثمًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 603.

(2) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 5/ 267.

في الجواب بتغييره أسلوب السّائل، فإنَّه سأل بالجملة الفعليَّة طالبًا لتعيين المفعول، وهو قد أجاب بتحقيق كون المنزل خيرًا[1]، وهذا بخلاف جواب المستكبرين: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل: 24] بالرّفع بملحظ اسميّة الجملة أي: هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل: 24] "فإنّه على زعمهم الفاسد أمر متقدّم ثابت، فلذا غاير بينهما"[2].

بلاغة الإيجاز بالحذف:

لفظ ﴿خَيْرًاۗ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ خَيْرًاۗ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: أنزل، وحُذف إيجازًا للعلم به، لدلالة قوله: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ﴾ عليه.

بلاغة الفصل في جملة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾:

جزاءُ الإحسانِ الإحسانُ

ورد قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ على وجه الجواب لسؤال مَن كأنّه قال: ما لهم على ذلك؟ فقيل مُظهِرًا موضع الإضمار مدحًا لهم وتعميمًا لمن اتّصف بوصفهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ فبيّن أن اعترافهم بذلك إحسان؛ ثم أخبر عنه بقوله: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ﴾ أي: جزاء لهم على إحسانهم ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ٦٠﴾ [الرّحمن: 60][3]، ويجوز أن تكون الجملة مفسّرة لقوله ﴿خَيْرًاۗ﴾[4] وحينئذٍ يكون بينها وبين سابقتها (كمال الاتصال).

دلالة اللّام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ للاختصاص، والاستحقاق، فالإحسان صنيعهم، دأبوا عليه، واختصّوا به، حتى عُرفوا به، واشتهروا.

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 5/ 267.
(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 327.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 147، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 353.
(4) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 327، والدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 294.

وجه التَّعبير بالموصول (الَّذِينَ):

عبَّر بالموصول مدحًا وبيانًا لعلّة الحكم

الموصول وصلته ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ مراد به المتّقون، فهو من الإظهار في مقام الإضمار - فلم يقل (لهم) وعدل إلى الإظهار فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ توصّلًا بالإتيان بالموصول إلى الإيماء إلى وجه بناء الخبر، أي: جزاؤهم حسنة لأنّهم أحسنوا[1]، وذلك أنّ الموصول وصِلته أظهرا أنّ المتقين قد نالوا ما وعدهم اللّه به من حسنة الدّنيا ثمَّ خير الآخرة؛ لكونهم كانوا محسنين، وليس جزاء الإحسان إلا الإحسان، ومَن أحسنُ مِنَ اللّه جزاءً للمحسنين؟

سرُّ التَّعبيرِ عن الإحسان بالماضي:

الإحسان سجيةٌ فيهم، وأظهروه عملًا

عبّر في صِلة الموصول ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ بالفعل الماضي، للدّلالة على تحقّق فعل الإحسان فيهم سجيّةً، وعملًا، وتكرّر هذا الإحسان منهم حتّى صار أصيلًا فيهم.

نكتة تعدية الإحسان بالهمزة:

الإحسان ما يتعدّى أثره إلى الآخرين

الفعل (حسُن) لازمًا هو الأصل، فلما أريد به تعدّي أثره إلى الغير؛ دخلته همزة التّعدية (أحسَنَ)، ومصدره (إحسانًا)، ويُطلق الإحسان على كلّ ما بلغ الغاية في الحُسن مِن أعمال القلوب والجوارح في المعاملة مع اللّه، ومعاملة النّاس لأجل اللّه؛ حتّى ورد تعريفه في السُّنَّة المشرَّفة تعريفًا خاصًّا في حديث جبريل عليه السلام، بقول الرسول ﷺ: قالَ: ما الإحْسانُ؟ قالَ: "أنْ تَعْبُدَ اللّه كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَم تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ"[2].

دلالة الحرف ﴿فِي﴾ في سياق الآية الكريمة:

يوم القيامة ميعاد الجزاء الأوفى

جاء حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ دالًّا على الظّرفيّة؛ لأنَّ الدّنيا هي دار العمل، فينبغي على

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 142.

(2) صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النّبي ﷺ: 1/ 19.

العبد أن يجعلها دار إحسان، ليكافَأ بالإحسان يوم القيامة ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: 60].

دلالة اسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾:

عبّر عن قرب منزلة الدّنيا وقرب زوالها، وعرّض بالمُغرقين في حبّها

الإشارة باسم الإشارة المسبوق بحرف التنبيه ﴿هَٰذِهِ﴾ الدّالّ على القرب إلى ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ للتعبير عن قرب منزلتها ودنوّها، وأيضًا قرب زوالها وانتهائها، فطوبى لِمَن فهم حقيقتها وجعلها قنطرة ومعبرًا للدّار الآخرة، ويُلمحُ في الإشارة أيضًا تحقير الدّنيا في عين كلّ مَن يراها أساسًا لتعامله وكأنّها دار قرار، فلا يُراقب اللّه في أعماله فيها، ولا يتَّخذ منها دار بناء وإحسان يحصد آثاره في الدّار الآخرة، فكانت الإشارة إليها بـ ﴿هَٰذِهِ﴾ التي يُشار بها إلى القريب؛ لاستحضارها بغرض تهوينها وتحقيرها في عين معظِّميها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ [العنكبوت: 64] فلعلّ في تهوينها ما يبعث على الوقوف على حقيقة أمرها، فيرعَوي المغرق في تعظيمها ويثوب إلى رشاده.

وفي هذه الإشارة كذلك تعريض بالمستكبرين الّذين لم يستغلوا قصر أجَلِ الدّنيا في الأعمال الّتي تضمن لهم السّعادة الأبديّة، وتنبيه لهم وإرشاد إلى الاقتداء بالمتّقين الّذين أحسنوا في هذه الدّنيا الفانية، طمعًا في نعيم الباقية.

نكتة توسيط ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

تكثير المعاني الّتي يسمح بها النّظم، مع وجازته

توسيط قوله: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بين قوله: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ وقوله: ﴿حَسَنَةٞۚ﴾ نظم اختصّ به القرآن في مواقع الكلم، لإكثار المعاني التي يسمح بها النظم، وهذا من طرق إعجاز القرآن، فيجوز أن يكون قوله: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ حالًا من ﴿حَسَنَةٞۚ﴾ قُدِّم على صاحب الحال للتّنبيه مِن أوّل الكلام على أنّها جزاؤهم في الدّنيا، لقلّة خطور ذلك

في بالهم،؛ إذ ضمن اللّه تعالى لهم تعجيل الجزاء الحسن في الدّنيا قبل ثواب الآخرة على نحو ما أثنى على مَن يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة: 201][1].

وجه التَّعبير بالحسنة وإفرادها:

المُـرادُ الحسنةُ المضاعفة الّتي في الدّنيا

الحسنةُ المذكورة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ هي جزاؤهم في الدّنيا؛ لأنّ جزاء الآخرة قد ذُكر بعدها في قوله سبحانه: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ فكان لا مفرّ مِن قصر الحسنة المذكورة على كونها في الدّنيا.

وفي التَّعبير بها مفردة على إرادة الجنس، فتصدقُ بـ (الثواب العظيم) متعدّد المظاهر والوجوه، أو أن يكون المراد بها الحسنة المضاعفة التي "يُضاعف ثوابها بعشر مرات وبسبعمائة وإلى ما لا نهاية له"[2].

بلاغة الجناس الاشتقاقيّ بين ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ و﴿حَسَنَةٞۚ﴾:

أحدثَ الجناسُ مـيـلًا نـحـو الإصـغـاء، وحسَّنَ التّعبير

بين قوله: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ وقوله ﴿حَسَنَةٞۚ﴾ جناس الاشتقاق، أو ما يُعرف بجناس الاقتضاب أو المقتضب[3]، وذلك أنَّ اللَّفظتين ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ و﴿حَسَنَةٞۚ﴾ تعودان إلى أصل واحد، وإن تغاير معناهما، فكلمة ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ أي بأفعالهم الحسنة، وكلمة ﴿حَسَنَةٞۚ﴾ هي جزاؤهم على إحسانهم، وقد أَحْدَثَ هذا الجناسُ ميلًا للنَّفس نحو التشوّقِ والإصغاء، وأكسبَ التّعْبير جمالًا وحسنًا، بحلو النغمة، واتّحاد الجَرْسِ، وتناسُقِ الإيقاع.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 354.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 201.
(3) تجنيس الاشتقاق هو أن يجتمع اللفظان في أصل الاشتقاق مع تغاير المعنى ويسمى أيضًا "المقتضب" كقوله تعالى: ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ [الواقعة: 89] وقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ [الأنعام: 79]. يُنظر: أحمد الخطيب، مفاتيح التفسير: 1/ 427.

بلاغة الطّباق بين ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الجمع بين أجري الدّنيا والآخرة مِن تمام الإيفاء بالأجر

ومِن البديع اللّفظي المقابلة بالتّضادّ بين لفظي ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾، ولما كان الغرض مِنَ الآية الجمع بين أجري الدنيا والآخرة دلالة على توفية الجزاء وتمامه؛كان التّعبير عن ذلك - على طريق الطباق بالالتئام بين الضدّين - أوقع في النّفس لقرب تخاطرهما إلى الأذهان واستدعائهما في الأفكار.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾:

استأنفَ بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدّر

الواو في قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ استئنافية[1]، والجملة بعدها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، لكونها جوابًا عن سؤال مقدر، تقديره: وهل لهم من جزاء آخر في الآخرة بعد حسنة الدّنيا؟ فكان الجواب: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ أي: ولثواب (دار الآخرة خير) فالكلام على حذف مضاف[2].

دلالة التّوكيد باللّام، في ثنايا الكلام:

جزاء الآخرة خير من جزاء الدّنيا، وما فيها من غالٍ ونفيس

اللّام في قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ قيل: هي الموطئة للقسم، وقيل: هي لام الابتداء[3]، وعلى كلا التّوجيهين، فهي مؤكّدة لمضمون ما بعدها، وهو أنّ دار الآخرة وما فيها مِن نعيم موصول غير مقطوع، هو خير مِنَ الدّنيا وما فيها.

إيثار تركيب ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون القيامة، أو غيره:

مِن معهود القرآن، التَّعبيرُ عن القيامة بالآخرة

في إيثار التَّعبير بـ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون (يوم القيامة) فيما يبدو أربعة أسباب هي مِن المعهود الغالب في القرآن:

(1) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 576، والخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 7/ 156.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 372.

(3) الصّاويّ، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/ 288.

الأوّل: هو مناسبته لقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ فالملاءمة مع هذا التركيب تقتضي التَّعبير بـ ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون (يوم القيامة)؛ لكونه أنسب للتقابل بين لفظي ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فيظهر بينهما الطباق، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [البقرة: 86]، وقوله: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾ [البقرة: 114] فكثيرا ما ذكرت (الدنيا) مقرونة بـ (الآخرة).

الثّاني: أنّ عادة القرآن فيما تمّ رصده من آيات، هو أنّه في الحديث عن المكافأة أو المجازاة يؤثر - غالبًا - التَّعبير بالآخرة؛ فمِن المكافأة قوله تعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾ [يوسف: 57] وقوله: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: 17]، ومِنَ المجازاة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: 56] وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ [هود: 16]، ويظهران معًا في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾ [البقرة: 200 - 202]، وعند قصد الكلام عنِ البعث والحساب يؤثر - غالبًا - التَّعبير بالقيامة مضافة إلى موصوفها (يوم القيامة)، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ [النساء: 87].

الثّالث: عند إرادة الحديث عن الاستقرار فإنّه يعبر بالآخرة مضافة إلى موصوفها وهو الدار، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ [يوسف: 109، النحل: 30]، أو غير مضافة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ [الأعراف: 169].

الرّابع: عند الحديث عن الإيمان أو عدمه؛ فإنّه يؤثر التَّعبير بالآخرة وليس بالقيامة، ومنه في الإيمان بها قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة: 4]، وفي عدم الإيمان بها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٠﴾ [الإسراء: 10] وقوله: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: 19، يوسف: 37، فصلت: 7].

نكتة إضافة الخير إلى ذات الدّار:

أسند الخير إلى ذات الدّار في قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ والأصل فيه أنه على تقدير

عموم الخير في الدّار الآخرة، هو سرّ إضافة الخير إليها

مضاف محذوف، أي: (ثواب دار الآخرة)؛ لأنّها كلّها خير للطيبين الموعودين فلا ينالون فيها إلّا طيّبًا[1].

وجه تسمية جهنّم مثوى، والجنّة دارًا:

استعمال المثوى مع جهنّم، تحقيرٌ لأهله

يُلحظ في استعمال الكتاب العزيز أنّ كلمة ﴿مَثْوَى﴾ لجهنم، بخلاف الجنّة فإنّه يعبّر عنها بالدّار كما هو في قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وذلك "تحقيرًا لهم، وأنّهم ليسوا في جهنّم بمنزلة أهل الدار؛ بل هم متراصون في النّار وهم في مثوى، أي محل ثواء"[2] وقد يُطلق لفظ الدّار على جهنّم لكن مضافًا إلى صفة (البوار) أي: الهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم: 28].

بيان المتشابه في ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾:

تناسب السّياق، هو سرّ التّفريق في التّعبير بين الآيات

قوله هنا في النّحل: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌۚ﴾ تقدّمه قوله ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ﴾، فناسب أنْ يقابلَ حسنة الدّنيا بثواب الآخرة؛ ليفضله عليه، فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌۚ﴾ ثم أكّده بقوله ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله في آية الأنعام: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ [الأنعام: 32] تقدمه قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٢٩﴾ [الأنعام: 29]، فطابق هذا قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: 32][3].

وقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ٤﴾ [الضّحى: 4] قد ورد في سياق يقتضيه، وذلك أنّه لما قال تعالى في سورة الشمس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ٨﴾ [الشمس: 8]، ثم أتبعه في سورة الليل بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ١٤﴾

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4166.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 140.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 158.

[اللّيل: 12 - 14] لزم الخوف، واشتد الفزع، وتعيَّن على الموحِّد الإذعان بالتسليم والتضرّع في التخلص، والتجاؤه إلى السّميع العليم، - فلما كان ذلك - آنس اللّه تعالى أحبّ عباده إليه وأعظم منزلة لديه، وهو سيّدنا رسول اللّه ﷺ، فذكر له ما منحه من تقريبه واجتبائه، وجمع له خير الدّارين فقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضّحى: 1 - 5](1).

وجه تعريف لفظ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في السّياق:

الآخـرة محلّ الجزاء الأوفى، عند عالم السّرّ وأخفى

التّعريف بـ (أل) في الآخرة للعهد، فهي الآخرة المعهودة، التي يُحشر الخلق إليها، وتوفّى فيها الأجور، فيجازى المُؤمن ويُثاب بما وعِدَ من نعيم، ويحاسب الكافر بما وعد من عذابٍ أليم.

تكرار لفظ الخيريّة منكّرًا:

تكرار النكرة يعني المغايرة بين معنى اللّفظين

ذكر لفظ (خير) مرتين في الآية منكَّرًا، وتنكيره يدل على المغايرة، فـ ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ في قوله ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ غير ﴿خَيۡرٞۚ﴾ في قوله ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ فالنّكرة إذا كُرّرت فالثاني غير الأول، فالأول فيما أنزله اللّه من خير الدنيا، والثّاني هو خير الآخرة ومقصود به التفضيل على حسنة الدّنيا، وهي الجزء الأول مِنَ الوعد الجميل الذي وعده اللّه تعالى للمتقين المحسنين.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَنِعۡمَ﴾:

جمع بين الإخبار بخيريّة الدّار الآخرة، ومدحها دارا للمتّقين

الواو في قوله: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، هي واو العطف، والجملة بعدها معطوفة على ما قبلها، فلها حكمها(2)، وجمع بها بين الإخبار بخيريّة الدّار الآخرة، وبين مدحها بوصفها دارًا للمتّقين، وبهم تحقّقت الخيريّة؛ وذلكم مبلغ التّشريف لكليهما.

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 365.
(2) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التنزيل: 7/ 156.

براعة المقابلة بين فعلي الذمّ، والمدح في الآيتين:

تأكيد المدح هنا، مقابل لتأكيد الذم فيما مضى

جملة المدح هنا ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مقابِلةٌ لجملة الذَّمّ، في قوله تعالى: ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النّحل: 29] وفي المقابلة بفعلي: المدح: (نعم)، والذَّمّ: (بئس) مزيد بيان لجزاء الصنفين مِنَ النّاس في الآخرة، وفيه تشريفٌ للمتّقي المُنعَمِ عليه، وذمٌّ، وتخويفٌ، وتهويلٌ لجزاء المتكبّر.

توجيه التّوكيد بلام الابتداء، وبفعل المدح (نعم):

تأكيد المدح هنا مقابل لتأكيد الذّمّ فيما مضى

فائدة التأكيد باللّام في الجملة هو الاعتناء بالمدح؛ كما اعتنى مِن قبلُ بالذّمّ بدخولها أيضًا هناك في قوله: ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، لما أنّ القوم هناك ضالون مضلّون مُستحقون للذمّ، وكذلك هنا في تأكيد المدح فالقوم مصلحون متّقون محسنون مستحقّون لتأكيد مدحهم ومدح دار جزائهم.

نكتة حذف المخصوص بالمدح:

وحذف المخصوص بالمدح، للدّلالة عليه، فإنّه مذكور قبلًا، والتقدير: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة[1].

سرّ تكرار لفظ الدّار في السّياق:

الدّار هنا هي الدّار السّابقة لتكرار ذكره معرفةً

تكرار لفظ الدّار معرِفةً - بالإضافة - للدّلالة على أنّها هي نفسها الدّار الّتي وعدها الذين اتّقوا وأحسنوا، فهي الدّار نفسها الموصوفة قبلًا بالخيريّة.

العدول من التَّعبير عن المتقين بالموصول إلى الوصف:

التَّعبير بوصف المتّقين، دلالة على رسوخهم في صفة التّقوى

عدل عن التَّعبير عن المتقين بالموصوليّة في قوله: ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ إلى الوصف في قوله: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لأنّه في الأولى كان القصد الإخبار عن تقواهم للّه في الدّنيا، وأنّهم كانوا في سائر أعمالهم

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 110، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 143.

فيها يتّقون اللّه، وأن هذه التقوى كانت طريقهم إلى الفوز بحسنة الدنيا وخير الآخرة، وأمّا في الثّاني وهو وصفهم بـ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فللدلالة على أنهم جديرون بهذا الوصف حقيقون به حتّى استأهلوا به أن تضاف إليهم الجنة وهي دار الآخرة بتعبير ﴿دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بعد أن صاروا فيها باعتبارهم أهلها وأصحابها، وكأنهم مالكوها.

نكتة ذكر المتّقين بالإظهار دون الإضمار:

إظهار لفظ المتّقين للإشارة إلى كون صفة التقوى سبب فوزهم

أظهرَ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، ولم يقل: (ولنعم دارهم)؛ للإشارة إلى أنّ التّقوى هي السّبب في هذا الجزاء، وللدّلالة على أنّ ثواب الآخرة خير للمتّقين، وخاصٌّ بهم دون غيرهم[1] مِنَ المستكبرين وغيرهم من أصحاب الصّفات الذّميمة، فإن قيل: لماذا خُصَّ بها المتّقون في الآية، مع أنّها تكون لغيرهم أيضًا كالأطفال والمجانين؟ فالجواب: إنّما خصّهم بالذّكر؛ لأنّهم الأصل فيها من حيث إنّ درجتهم أعلى، وغيرهم تبعٌ لهم[2].

بلاغة ردّ العجز على الصّدر في لفظ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

قيمة التّقوى، كونها ميزان التّفاضل

في الآية بلاغة ردّ العجز على الصدر؛ لأنّ صدر الآية ذُكر فيه الذين اتقوا في قوله: ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، وكذلك عجزها ذكر فيه المتقون في قوله: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، فردّ ما في آخرها على ما في أوّلها، لبيان قيمة التّقوى فعلًا وجزاء، فهي ميزان التفاضل بين الناس.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 14/ 4167.

(2) الرازي، أنموذج جليل، ص: 123.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾ [النحل: 31]

بيان أنّ دار المتّقين الّتي وُعِدوها، هي (جنّات عدن) يخلدون فيها متنعّمين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

بعد أن ذكر الله تعالى في الآية السّابقة أمر المتّقين الذين أحسنوا، وذكر سبحانه أيضًا مكافأته لهم في الدّنيا بحسنتها، التي منها راحة البال والاطمئنان والرّضا بالطاعة وغير ذلك مما يدخل تحت معنى الحسنة الدّنيوية، وذكر كذلك مكافأته لهم في الدّار الآخرة، وما أعده لهم من ثواب في دارهم دار المتقين، بيَّن بعد ذلك أنّ هذه الدّار هي: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿عَدۡنٖ﴾: أصلُ (عدن): أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على الإقامَةِ[1]، قالَ الخليلُ: العَدْنُ: إقامَةُ الإبلِ في الحَمضِ خاصَّةً، تقولُ: عَدَنَت الإبلُ تَعْدِنُ عَدْنًا[2]، وعَدَنَ الرجلُ بِالمَكانِ يَعدِن ويعدُن عَدْنًا وعُدونًا فهوَ عادن، إذا أقامَ بِهِ، ومِنْه اشتقاق المَعْدِن، وهوَ المَكان الَّذِي يثبت فِيهِ النّاس ولا يتحوّلون عَنهُ شتاءً ولا صيفًا[3]، وعَدَن أَبْيَنَ نُسب الى أَبْيَنَ، وهوَ رجل من حِمير؛ لِأَنَّهُ عَدَنَ بها، أي: أقامَ بها، وجنة عَدْنٍ، أي دار مُقام[4]، والأَصْلُ الَّذي ذَكَرَهُ الخليلُ هو أصلُ البابِ، ثُمَّ قِيسَ به كُلُّ مُقام[5]، والمقصودُ بالعَدْنِ في الآيةِ: الإقامةُ، أيِ: الخُلودُ.

2) ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: أصلُ الوقاية: هو دفعُ شيءٍ عن شيءٍ بغيره،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدن).
(2) الخليل، العين: (عدن).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عدن).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عدن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدن).

يُقال: وقى نفسهُ من العدوّ بسلاحه، أي: دفعهُ به، والوقايةُ: ما يقي الشّيء، واتّق اللّه: توقّهُ، أي: اجعل بينك وبينهُ كالوقاية[1]، والتّقوى: اتّخاذُ الوقايةُ والحماية من الشّيء، والتّوقّي: الحذرُ، وتأتي الوقايةُ بمعنى الحفظ من الأذى والضّرر[2]، والمقصودُ بالمتّقين في الآية: من اتّصف بالاتّقاء، وهو الحذرُ المُتطلّبُ للنّجاة من شيء مكروه مُضرّ، والمُرادُ هنا المُتّقين اللّه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعَمُ الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، حَسُنت مُستقرًّا ومقامًا

يقول الحقُّ ﷻ: بَساتينُ إقامةٍ يَدخُلُها المُتَّقونَ، ولا يَرحَلونَ عنها، تَجري مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ، ولهم كُلُّ ما تَشتَهيه أنفُسُهم وما يُريدونَه، ومِثلُ هذا الجَزاءِ الحسَنِ يَجزي اللّهُ كُلَّ مَن آمنَ به واتَّقاه، وأحسَنَ عَمَلَه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرّ فصْل قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾:

بين الجملتين كمال اتّصال، مُفْض إلى المعنى المقصود بدقّة

في إعراب قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أوجه: الأول: وهو الأظهر أنه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي، أي: دار المتَّقين ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ وعلى هذا الوجه، فالجملة بيان لـ ﴿دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وهذا سرّ فصلها عما قبلها، فيكون بينهما (كمال اتّصال)، الثاني: أنه المخصوص بالمدح السّابق، على نسق: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ﴾، الثالث: أنه مبتدأ والخبر ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾، وقيل غير ذلك[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وقى).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقى)، والمناويّ، التّوقيف على مهمات التّعاريف، ص: 340.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 212، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 101، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 439.

(4) الخطيب وآخران: التّفصيل في إعراب التّنزيل: 7/ 157.

وجه جمع الجنّات:

دار المتّقين جنّات، لا جنّة واحدة

جمع جنّات مع أنّها بيان لدار المتّقين وهي مفرد؛ لأنّ دار المتّقين تشتمل على جنّات وليست جنّة واحدة، ويُصدِّقه حديث أنَس ﵁ عند النسائي "أنَّ أُمَّ حارِثَةَ أتَتْ رَسولَ اللهِ ﷺ، وقَدْ هَلَكَ حارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وأصابَهُ سَهْمُ غَرْبٍ قالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، قَدْ عَلِمتَ مَوْقِعَ حارِثَةَ مِنْ قَلْبي، فإنْ كانَ في الجَنَّةِ لَم أبْكِ عَلَيْهِ، وإلّا فسَوْفَ تَرَى ما أصْنَعُ فقالَ لَها: هُبِلْتِ أوَ جَنَّةٌ واحِدَةٌ هِيَ؟ إنَّها لَجِنانٌ كَثِيرَةٌ، وإنَّهُ لَفي الفِرْدَوْسِ الأعْلَى"[1].

سرّ تعريف الجنات بالإضافة، ووصفها:

إضافة الموصوف إلى الصّفة، لتفخيم قدر الجنّات

الإضافة في ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾ هي من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: جنات الخلد والبقاء والدائم، وفي ذلك تفخيم لقدر الجنات بهذا الوصف؛ إذ إنه على كثرة ما فيها من النعيم وتنوعه، فإنه دائم غير منقطع.

فائدة تقديم الجنّات على فعل الدّخول:

تقديم ذكر الجنّات، لأنه الأهم، وفيه التّعجيل بالمسرّة

قدم ذكر الجنّات على فعل الدّخول؛ لأنّ الأهمّ هو ذكرها بوصفها، لينشرح بها صدر المتّقين تعجيلًا لمسرَّتهم، وأمّا دخولها فهو حاصل ولا يحتاج إلى أهميّة تقديمه؛ إذ إنّ ذلك كلّه قد جاء بعد أن وعد اللّه المتقين بحسنة الدّنيا، وبأنّ ما أعدّه اللّه لهم من ثواب دار الآخرة هو خير ممّا ينالونه في الدّنيا، وليس من معنى للتنصيص على الدار، أهم من التبشير بدخولها، فالدار لا تكون دارًا إلا بسكّانها، وسكّانها هم المتقون؛ إذ أكّدها لهم بقوله: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، إذن مسألة دخولها أمر لا يشغل بال المتقين؛ فهو حاصل لهم بالوعد الكريم من ربِّهم، وإنّما الأهم هو وصف هذه الجنّات التي سيدخلونها طمأنة لهم وتشويقًا إليها وتبكيرًا بمسرَّتهم، فلذا قدَّمه.

(1) أخرجه النّسائيّ في سننه، كتاب: المناقب، باب مناقب حارثة بن النّعمان: 7/ 341.

توجيه الحاليّة في جملة ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾:

استحضار حالة دخولهم الجنّة بوصفها حالة بديعة

جملة ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ حال من ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، والمقصود من ذكره استحضار تلك الحالة البديعة، حالة دخولهم لدار الخير والحسنى والجنّات[1]، ولا شك في أنّها حالة عامرة بالفرحة والمسرّة، بما تفضَّل به ربّهم عليهم في دخولها.

وجه التَّعبير عن الجريان بصيغة المضارع:

مياه الجنّة تجري بلا ركود

في قوله تعالى في وصف الجنّات: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ بالتَّعبير بالمضارع ما يدلّ على مواصلة جريان مياه الأنهار وتجدّدها وعدم ركودها، وفي هذا مِنَ المتعة لأنظار المتقين ما لا يخفى.

إيثار فعل الجريان، في السّياق:

التَّعبير بجري الأنهار للدّلالة على سرعة مرور الماء بلا عوائق

آثر التَّعبير بالفعل (جرى) لدلالته على سرعة المرور[2]، أي: مرور الماء وانسيابه، وفي ذلك متعة أيما متعة للناظرين، فضلًا عن صفائه بتجدّده.

بلاغة المجاز العقلي في (جريان الأنهار):

تصوير الأرض التي يكون عليها الماء كأنّها تجري مع الماء

قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾، تعبيرٌ متكرّر في وصف الجنّات، وذلك بإسناد الجري إلى الأنهار، مع أنّ الذي يجري هو الماء الذي فوق الأنهار، فالنّهر هو المكان الذي يجري فيه الماء، أي مجرى الماء[3]، وذلك على سبيل (المجاز العقلي) وعلاقته هي المكانية، وفيه دلالة على سرعة الجريان وانسيابه، حتى لكأن الأرض التي يكون عليها الماء تجري مع الماء.

دلالة ﴿مِن﴾ في سياق الآية الكريمة:

بداية جريان الأنهار من الجنّة ولا تجري إليها من مكان آخر

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ على بابها بمعنى ابتداء الغاية،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 143.
(2) الرّاغب، المفردات: (جرى).
(3) الرّاغب، المفردات: (نهر).

أو هي: زائدةٌ للتأكيد، أو: بمعنى (في)[1]، أي: مفيدة للظرفية باعتبار المكان الذي يجري فيه الماء، أو ينبع منه، أي: أنّ ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر، وأنّ بدايته منها، والذي يترجّح أنّها زائدة للتأكيد، إذ ليس لحرف (من) معنى مع أسماء الظروف إلا التأكيد[2].

وجه تعريف الأنهار بـ (أل)، وجمعه:

الأنهار هي المعهود ذكرها، بصفاتها المتعدّدة للدّلالة على أنّها نعمة مستقلّة

تعريف الأنهار بـ (أل) إما لإرادة الجنس، وإما أن يراد من التعريف العهد، إلا أنه عهد تقديري؛ لأنّ الجنّات لما ذكرت استحضر لذهن السامع لوازمها ومقارِناتها، فساغ للمتكلم أن يشير إلى ذلك المعهود فجيء باللام العهدية لأجل ذلك، والعهد متجه إلى الأنهار المعهودة في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: 15][3]، وإنما عرفها بـ (أل) ولم يعرفها بالإضافة إلى الجنّات، تنبيهًا على أنّ الأنهار نعمة مستقلة جديرة بأن لا يكون التنعّم بها تبعًا للتّنعم بالجنّات[4].

وأمّا سرّ جمعها، فللدّلالة على تعدّدها، وأنّ أهل الجنّة لا يعكفون على نهر واحد، فيصيبهم الملل بتكرار وروده، ولكنّها أنهار تسعد العين والقلب وتكسر أي ملل.

سرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿مِن تَحْتِهَا﴾:

لا يحصل المرء على كلِّ ما يريده إلّا في الجنَّة

السِّرُّ في تقديم الظَّرف ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هو بيان منتهى حسن الجنة وما فيها، فإنَّ الناظرَ إلى الماء وهو يجري منسابًا في الأرض يرى الماء، ولا يرى النهر، فكأنَّ النهرَ اختفى في الماء، ولا يرى غير الماء.

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 1/ 214.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 19.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 60.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 355، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 107.

دلالة شبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ و﴿فِيهَا﴾:

دلالة تقديم شبه الجملة في الموضعين، لإفادة الاختصاص والحصر

مقصود قوله: ﴿لَهُمۡ﴾، وسر تقديمه هو الدّلالة على الاختصاص، فهذه الجنات مخصوصة للمتقين، لا لغيرهم مِنَ المستكبرين، وأما قوله: ﴿فِيهَا﴾ وسرّ تقديمه أيضًا، فلإفادة الحصر[1]، على معنى أنّ هذا النّعيم الّذي يطلبونه لا يكون إلّا في هذه الجنّات.

والمعنى بناء على هذا التّوجيه: ﴿لَهُمۡ فِيهَا﴾ أي لهم خاصةً، في الجنّات لا في شيء سواها، فلا يجلب إليهم شيء من غيرها[2]، وذلك حتّى لا تطمح النّفس في الدّنيا إلى ما لا يطلب على وجه الكمال، وضمانة التّحقق إلّا في الجنّة.

إيثار الموصول ﴿مَا﴾ في السّياق:

في التّعبير بـ ﴿مَا﴾ الموصولة دون غيرها لإفادتها العموم، فالتّعبير بها عادة يكون عندما يراد العموم والشمول، فهي أجمع وأخصر من غيرها.

إيثار لفظ المشيئة، في السّياق المحكم:

التّعبير بالمشيئة يدلّ على الحصول على المطلوب في الحال

أوثر التّعبير بالمشيئة، دون الإرادة مثلًا، للدّلالة على ما يكون مطلبًا لهم في حينه ووقته، فإنّهم يحصلون عليه كذلك في وقته وحينه بلا تراخٍ.

وهذا هو الفرق بين التّعبير بالمشيئة، والتّعبير بالإرادة فإنّ "الإرادة تكون لما يتراخى وقته، ولما لا يتراخى، والمشيئة لما لم يتراخَ"[3].

التّعبيرُ عن فعل المشيئةِ مضارعًا:

ليس لأهل الجنة سقف لمشيئتهم، بل لهم أن يطلبوا دون حدّ

في التّعبير عن مشيئتهم بصيغة المضارع ما يدلّ على أنّ لهم أن يكرّروا مشيئتهم، وأن يجددوها في كل وقت يريدونه، فإنّ كلّ مطلب لهم مُحقّق إبّان طلبه وفي وقت الرّغبة فيه، بلا تراخ أو تأخر.

---

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 228.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 148.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص 124.

نكتة الموازنة بين آية النّحل (31)، وآية الزّخرف (71):

آية النّحل (31) أبلغ وأشمل، لدلالتها على حصول كلّ الخيرات

في الموازنة بين التَّعبيرين، يرى الرّازي أن قوله تعالى هنا: ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ أبلغ لأنّه يدل على حصول كلّ الخيرات والسّعادات، فهو أبلغ وأشمل مِن قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ [الزّخرف: 71]، لأنّ هذين القسمين داخلان في قوله: لهم فيها ما يشاؤون مع أقسام أخرى[1].

توجيه الحال في جملة ﴿لَهُمۡ فِيهَا﴾ في السّياق:

حال أهل الجنّة التّنعم بما يشاؤون من نعيم

قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾، جملة حالية من ضمير الرّفع في ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾، ومضمونها مكمّل لما في جملة ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾، مِن استحضار الحالة البديعة[2]، مِن حيث إنّ حالهم التّنعم بما يشاؤون مِن نعم.

بلاغة التّشبيه في السّياق المحكم:

صوَرُ مكافأة الله تعالى لعباده

الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ للتّشبيه، أي: مثل هذا الجزاء العظيم ﴿يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[3] وهو تشبيه تمثيليّ مركّب، قصد به تصوير معنى المكافأة الّتي يكافئُ اللّه تعالى بها عباده، فهو تصوير للمعنى الكلي في جزاء اللّه للمتّقين بهذه الحال التي ينالها المتّقون[4].

توجيه الاستئناف في جملة ﴿يَجۡزِي﴾:

جزاء المتّقين أكمل الجزاء، وأوفاه عند الله

جملة: ﴿يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مستأنفة[5]، قصد بها تشبيه جزاء المتّقين بنفس الجزاء وهو جزاء المتقين؛ لأنه أكمل جزاء، إذ لا جزاء أكمل منه فيمكن أن يشبّه به.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 143.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 148.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4167.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 143.

فائدة اسم الإشارة (ذلك):

بُعْدُ منزلة جزاء المتّقين وعلوّ شأنهم عند المُجازي سبحانه

سرُّ الإتيان باسم الإشارة (ذلك)، وهو اسم إشارة دالّ على البعد في المنزلة، تمييزًا لهذا الجزاء وتنويهًا بشأنه وعلوّ منزلته(1).

إيثار فعل الجزاء دون الثّواب:

في التّعبير بالجزاء مدح لهم، لأنّ الجزاء ما يكون به الكفاية على وجه المقابلة

أوثر فعل الجزاء فقال: ﴿يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، ولم يقل (نثيبُ المُتَّقين)؛ لأنّ الجزاء هو ما يكون به الكفاية على وجه المقابلة(2)، وفي التّعبير به دون الثّواب مدح لهم، وكأنه ما منحهم الذي منحهم إياه إلا مكافأة لما قدموه منَ التقوى والإحسان؛ ولأنّه قال عنهم سلفًا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ فكأنه إحسان بإحسان، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: 60]، وقوله: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ [الأحزاب: 24]، وفي ذلك إغراء لغيرهم أن يعملوا كعملهم، وأن يحسنوا كإحسانهم، وفيه أيضًا تعريض بالمستكبرين الذين اشتروا الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى، فآل أمرهم إلى كونهم اشتروا مثوى المتكبرين بجزاء المتقين.

سرّ التّعبير عن الجزاء مضارعًا، مجموعًا:

تنوّع أصناف الجزاء، لحصول كمال النّعيم

وفي التّعبير بقوله: ﴿يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ دلالة على تنوع أصناف الجزاء، وتجدّدها بقدر ما تطلب النّفس وتشتهي؛ لأنّ النّفس تملّ التّكرار وعدم التّجدد، ولو كان المكرَّر أعظم ما يكون في بابه، ولذا قال قبله ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ وكما قال في موضع آخر: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤﴾ [الزمر: 34] وقال: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ [فصلت: 31].

نكتة إظهار لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

جزاء العظيم عظيم

أظهر اسم الجلالة بإسناد فعل الجزاء إليه ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 143.
(2) الراغب، المفردات: (جزا).

﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ للدَّلالة على بلوغ جزاء المتقين مرتبة الكمال؛ فإذا كان الذي يجزيهم هذا الجزاء هو ﴿ٱللَّهُ﴾ تعالى الذي له الكمال المطلق، فلا غرو في أن يكون جزاؤهم في غاية الكمال كذلك.

ومن فوائد إظهار الاسم الجليل في التذييل على وجه العموم، الدَّلالة على كونه كلامًا مستقلًا "لأن شأن التذييل أن يكون كالمثل"[1].

سرّ تكرار لفظ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في فاصلتي الآيتين:

بيان زيادة المدح لهم وإسعادهم بذاك الوصف الجميل

خُتمت الآيتان بلفظ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وهو دالّ على بلوغ الموصوفين به رتبة فيها جعلتهم مِنَ الرّاسخين في الاتّصاف بها، فالمتَّقون هم الرّاسخون في التَّقوى الجديرون بهذا الوصف، وفي النَّص على وصف التَّقوى في الفاصلتين، وقبل ذلك في قوله: ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ مدح للمتقين وإسعاد لهم وثناء عليهم بما هم أهله؛ لأنّهم لم يفارقوا تقواهم للّه في كل أحوالهم، وفيه أيضًا تنبيه على أهميّة التّقوى وجدارتها بالكدّ والاجتهاد لأجل بلوغها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 266.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان حال المؤمنين الصّادقين الطّيبين عند الوفاة، بعد بيان حال المستكبرين

بعد أن ذُكِر فيما مضى في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ حالُ المستكبرين عند الموت، عندما تتوفاهم الملائكة المكلَّفة بنزع الأرواح، وما يُصاحب نزعَ الرّوح من توبيخ وتقريع لهم، مِن قبل هؤلاء الملائكة؛ لأنَّهم ظلموا أنفسهم، وسوَّدوا صحيفة أعمالهم بكلِّ قبائح الأعمال، ابتداءً بأعظمها وهو الشّرك باللّه، فكانت جهنَّم مثواهم بسبب استكبارهم على الإيمان بربهم والإذعان له؛ جاءت هذه الآية لتبيِّن حال المؤمنين الصادقين الطيبين عند الوفاة؛ حيث تتوفّاهم الملائكة وهي تلقي عليهم السلام من ربّهم، وتُبشرهم بما ينتظرهم من نعيم مقيم في الجنة التي أعدها اللّه لهم، بسبب ما قدّموا مِن الإيمان باللّه، ومِن صالح الأعمال، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَيِّبِينَ﴾:أصلُ (طيب): أَصْلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ الخَبِيثِ، يُقالُ: سَبْيٌ طيبَةٌ، أي: طَيِّبٌ[1]، والاِسْتِطابَةُ: الاِسْتِنْجاءُ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يُطَيِّبُ نَفْسَهُ مِمّا عليهِ مِنَ الخُبْثِ بِالاِسْتِنجاءِ، والطَّيِّبُ مِنَ النّاسِ مَن تعرَّى مِن نَجاسَةِ الجهلِ والفِسْقِ وقَبائحِ الخِصالِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طيب).

وتحلَّى بالعِلْم والإيمان ومحاسن الأعمال[1]، فقولُه تعالى هنا ﴿طَيِّبِينَ﴾ يجمعُ كُلَّ هذهِ المَعانِي.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الملائكة تتوفّى النُّفوس الطّيبة المطمئنَّة، لتدخل الجنّة بعملها الصّالح

أخبر اللّه تعالى عن حال المتَّقين عند الاحتضار في موازاة أو مقابلة حال المشركين، فقال: يَجزي اللّهُ بذلك المتَّقينَ الذين تَقبِضُ ملائكةُ المَوتِ أرواحَهم، والحالُ أنَّهم طَيِّبون بطَهارتِهم مِنَ الشِّرك والمعاصي، ومِن كُلِّ ما يُخِلُّ بإيمانِهم، وتقولُ ملائِكةُ الموتِ لهم عند قَبضِ أرواحِهم: سَلامٌ عليكم، وتحيَّةٌ كامِلةٌ لكم، وسَلامةٌ لكم مِن كُلِّ مَكروهٍ وآفةٍ، ويقولون أيضًا: ادخُلوا الجنَّةَ بسبَبِ ما كُنتُم تَعمَلونَه في حياتِكم الدُّنيا مِن الأعمالِ الصّالحةِ؛ طلبًا لِمَرضاةِ اللّهِ تعالى[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

كمال الاتّصال في الجملة المفصولة، وأثره في المعنى

الجملة المفصولة هي صفة أو بدل من ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في الآية السابقة وهذا سرُّ فصلها، فالمتَّقون هم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ ففي الجملة على هذا (كمال اتصال).

التّوجيه البلاغيّ لتكرار: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾:

يكشف تعالى للمتّقين مقعدهم من الجنّة، وللمستكبرين مقعدهم من النّار

بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ مقابلة، وذلك أنّه لما ذكر في الآية الأولى أمر المستكبرين عندما تتوفّاهم الملائكة، فذكر حالهم بوصف أنَّهم ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ قابلهم هنا في آية المتقين بوصف ﴿طَيِّبِينَ﴾، ولما تهدد المستكبرين هناك بقوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ

(1) الرّاغب، المفردات: (طيب)، والمراغيّ، تفسير المراغي: 14/ 75.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 214، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 439. قال القرطبي: قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يحتَمِل وجهين: أحدهما: أن يكونَ معناه: أبشِروا بدخولِ الجنَّة، الثاني: أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة. يُنظر: القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 102.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ بشر المتَّقين هنا بقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ والقول في الأمر بالدخول للجنة حين التوفّي، كالقول في ضده - في حق المستكبرين - وهو هنا نعيم المكاشفة[1] أي حين يكشف للمتقين مقعدهم من الجنة، كما يكشف للمستكبرين مقعدهم من النار.

دلالة قوله ﴿طَيِّبِينَ﴾ في السّياق المبين:

كلمة (طَيِّبِينَ) جامعة للمعاني الطّيّبة، الظّاهرة منها والباطنة

قوله ﴿طَيِّبِينَ﴾ في هذه الآية، هو مقابل لقوله: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، في آية المستكبرين، وفي ضوئها تفهم دلالتها، فإن كان (الظّلم) كلمة جامعة لكلِّ ألوان الانحراف والسوء والبعد عن اللّه وصولًا إلى أعلى مستوى، وهو الشّرك به سبحانه، كما قال عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، فإنَّ كلمة "طيبين كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة - الطيبة الظاهرة والباطنة - وذلك لأنَّه يدخل فيه إتيانهم بكلِّ ما أمروا به، واجتنابهم عن كلِّ ما نهوا عنه، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة مبرئين عن الأخلاق المذمومة، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة، ويدخل فيه أنَّه طاب لهم قبض الأرواح، وأنّها لم تقبض إلّا مع البشارة بالجنَّة حتى صاروا كأنَّهم مشاهدون لها، ومَن هذا حاله لا يتألم بالموت"[2].

توجيه إعراب ﴿طَيِّبِينَ﴾ حالًا:

مـــلاكُ أمـر التّقوى الطهارة عــن الـشـرك والاستكبار

قوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال من مفعول ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾، والمعنى: طاهرين مِنَ الشّرك بالكلمة الطيبة، وقيل: طيبين سهلةً وفاتُهم لا صعوبة فيها ولا ألم، بخلاف ما يقبض روح الكافر والمخلط، وقيل: طيبةً نفوسُهم بالرجوع إلى اللّه تعالى[3]، وهو شامل لهذا كلّه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 144.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 203، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 144، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4168.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 526.

وزيادة؛ لأنَّ كلمة ﴿طَيِّبِينَ﴾ كما مضى ذكره كلمة جامعة تشمل كلّ حسن من الأعمال الظاهرة والباطنة، ولذا فإنّه يمكن تفسيرها بما ذكر، وبغيره أيضًا مما هو داخل تحت جنس الطِّيبِ، وفائدة التَّعبير به: الإيذانُ بأن مِلاكَ الأمر في التقوى هو الطهارةُ عما ذكر - أي: الشّرك والاستكبار عن طاعة الله - إلى وقت توفيهم؛ ففيه حثٌّ للمؤمنين على الاستمرار على ذلك، ولغيرهم على تحصيله(1).

بيان التّقابل بين التّوفّي ظالمين، والتّوفّي طيّبين:

فرق واضح في معاملة المتّقين، ومعاملة المستكبرين حال الوفاة

ولما كان قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ وصفًا للمتّقين، فقد دلّ على أنَّ هؤلاء المتَّقين لا يجدون مِن ملائكة الموت حال الوفاة إلّا كلّ ما يريح قلوبهم، مِنَ السّلام عليهم وتبشيرهم بمقعدهم مِنَ الجنَّة، بخلاف المستكبرين الذين ظلموا أنفسهم؛ فإنَّ الملائكة تقسوا عليهم بتقريعهم والتّنديد بهم، وتنذرهم بمقعد المستكبرين في جهنّم مثوى لهم لا يفارقونه.

وليس أبلغ في عرض هذه الموازنة من بيان صوغ القرآن الكريم لهما، الذي يظهر في الفرق بين حديثه عن المستكبرين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٨ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وحديثه عن المتقين بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 111.

دلالة إظهار قولهم، بالفعل ﴿يَقُولُونَ﴾:

إظهار فعل القول، يدلّ على الاهتمام بالقائل

يدلّ إظهار فعل القول على الاهتمام بالقائل، كما أنّ حذف فعل القول يسلّط الاهتمام على المقول[1]، والقائلون هنا هم الملائكة، وفائدة تسليط الاهتمام عليهم هو إبراز الفرق بين موقفهم مِنَ المستكبرين المحكي سابقًا، وموقفهم مِنَ المتّقين، الذي يترتّب عليه إبراز الفرق بين خطابهم لكلا الفريقين؛ إذ كان خطابُهم مع المستكبرين خطابَ تقريعٍ وتهديد وإنذار، في حين كان خطابُهم مع المتّقين خطابَ أنسٍ ومحبّة وسلام وتبشير.

ومِن دلالات إظهاره أيضًا: النصُّ على كون القول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ إنّما هو قول حقيقي، حتى لا يُفسر بالاستسلام، كما في قوله في حق المستكبرين: ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾.

التّعبير عن فعل القول مضارعًا مجموعًا:

دلّ الفعل (يقولون) على كثرة إلقاء الملائكة السّلام على المتّقين

يدلّ التّعبير عن فعل القول مضارعًا مجموعًا على أنّ الملائكة كانوا يكثرون من إلقاء السّلام عليهم ويكرّرونه؛ لبثّ الطّمأنينة والسّكينة في قلوبهم، "لِما جُبلوا عليه من تعظيم جلال اللّه بالتّقوى"[2].

وجه تنوين السّلام وتنكيره:

سلامُ الملائكة مُفخَّمٌ محفوفٌ بالمحبّة

التّنكير مع التّنوين في قوله ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾، دالٌّ على تفخيم هذا السّلام وتعظيمه، وأنّه سلام محفوفٌ بالمحبّة وكامل التّرحابِ.

بيان العلّية في ﴿عَلَيۡكُمُ﴾:

يتنزّل السّلام على المتّقين حتى دخول الجنّة

حرف (على) يفيد الاستعلاء، والجار والمجرور متعلقان بـ ﴿سَلَٰمٌ﴾، والمعنى: أمان[3] لكم، وسلامٌ يعلوكم، ويشملكم متنزّلًا عليكم حتّى بلوغكم المراد، وهو: دخول الجنَّة.

(1) الأنباريّ، الإنصاف في مسائل الخلاف: 1/ 94، والزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/ 196.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 11/ 148.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 101.

براعة التَّعبير عن سلامهم، بالجملة الاسميّة:

في التَّعبير عن سلامهم بالجملة الاسمية ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ والتَّعبير بالاسم يفيد الثُّبوت، وذلك للدَّلالة على تحقق سلامهم وأمانهم بالفوز بدخول الجنة.

توجيه الحالية في جملة ﴿يَقُولُونَ﴾:

جملة: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ حال مِنَ الملائكة، وهي حال مقارنة لـ ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾، أي: يتوفونهم مُسَلِّمِينَ عليهم، وهو سلامُ تأنيس وإكرام حين مجيئهم ليتوفوهم[1].

دلالة الأمر في ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾:

يُراد بالأمر (ادْخُلوا)، إمّا البشارة، وإمّا الدّخول الحقيقيّ

الأمر في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ لا يدلّ على الدخول الفوري للجنَّة؛ لأنَّ هذا الكلام يُقال حال التَّوفّي، وبين التَّوفِّي ودخول الجنَّة تكون الحياة البرزخيَّة وهي حياة القبر، فتعيَّن أن يكون المراد بالأمر هنا التّبشير بدخول الجنَّة، أي "دخولُهم لها في وقته فإنَّ ذلك بشارةٌ عظيمة وإن تراخى المبشَّرُ به"[2]، لكن مَن يجعل التَّوفّي هنا وفاة الحشر، فالأمر على معناه الحقيقي، أي دخول الجنَّة[3]، وليس فقط التَّبشير بها.

دلالة واو الجماعة (الفاعل):

دخول المتّقين إلى الجنّة جماعيٌّ، يؤنس بعضهم بعضًا

دلالة واو الجماعة المفيدة للجمع في قوله ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾؛ مقابلة الجمع بالجمع، أي: مقابلة ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ لـ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ وفيه الدَّلالة على الدُّخول الجماعي للمتَّقين، الذي يتحقَّق به الأنس، والأنس نعيم آخر مستقلّ.

نكتة تعريف الجنّة:

(أل) في ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ للعهد[4]، والمعهود هي جنات عدن المذكورة في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 144.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 111.

(3) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 225، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 111.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 111.

قوله: ﴿جَنَّتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾، وفي إظهارها مزيد ترغيب، وتعبير عن تمام توفية الأجر.

دلالة الباء في سياق الآية الكريمة:

لا يدخل الجنة أحدٌ إلّا برحمته

الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ سببيّة، أي: بسبب أعمالكم، وهي الإيمان والعمل الصالح[1]، ورجَّح صاحب مغني اللّبيب أنَّ الباء للْمُقابلَة، وهِي الدّاخِلَة على الأعواض نَحْو قولك: اشْتَرَيْته بِألف، وكافأت إحسانه بِضعْف، وأنّها ليست باء السَّبَبِيَّة، معلّلًا اختياره بأن المُعْطِي بعوضٍ قد يُعْطي مجّانًا، وأمّا المُسَبّب فلا يوجد بِدونِ السَّبَب[2].

والّذي جعل صاحب المغني ينفي أن تكون للسببية أيضًا، برغم أن جماهير المفسرين واللّغويين يجعلونها كذلك، هو ما ورد في الحديث "لا يُدْخِلُ أحَدًا الجَنَّةَ عَمَلُهُ، قالوا: ولا أنْتَ يا رَسولَ اللَّه؟ قالَ: ولا أنا، إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللَّه بِمَغْفِرَةٍ ورَحْمَةٍ"[3]، وقد أجيب عن هذا: بأنّ الهداية لصالح العمل، والتّوفيق له، هو برحمة اللّه أيضًا، فالعمل الصّالح رحمة مِن رحمات اللّه، فما دخل أحد الجنّة إلّا برحمته، فرجعت الآية إلى الحديث[4].

إيثار الاسم الموصول (ما) في السّياق:

قوله ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وفيه عبَّر بالاسم الموصول (ما)؛ لدلالته على العموم والشّمول مع الاختصار، فهو تعبيرٌ جامع لكلّ ما أريد التَّعبير عنه من الأعمال.

توظيف فعل الكينونة الماضي المجموع:

أعمال المتّقين الصّالحة، كانت منهم سجيّة وعادة

عبَّرَ بفعل الكينونة الماضي المجموع في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنّ المراد بهذا القول التَّعبير عن حالهم التي كانوا عليها في الدّنيا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 134.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 141، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 328.
(3) صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل: 8/ 98.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 123.

وتحققوا بها، مِنَ العمل الصالح الذي استحقوا به أن يكافئهم اللّه في دار الجزاء بما هم أهله ويزيدهم من فضله، وفيه أيضًا دلالة على أنَّ أعمالهم الصالحة كانت منهم سجية وعادة.

سرُّ إتيانِ لفظ العمل مضارعًا، مجموعًا:

من وجوه تقواهم، دوامهم على العمل الصّالح

دلّ التَّعبير بقوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، على أنّ عملهم الصّالح الّذي كوفئوا عليه كان منهم في الدنيا متكررًا ومتجددًا، غير منقطع إلى أن لقوا ربهم، وذلك مظنّة حسن الثّواب، ومضاعفة الأجر، ورسوخ صفة التقوى فيهم، وأوثر لفظ (العمل)؛ لأنَّه ما يكون عن قصد وإدراك، فيستحق الأجر والثواب عليه.

سرّ الجمع بين الماضي والمستقبل في ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾:

دوام عملهم الصالح علّة حسن جزائهم

هذا الجمع بين (كان) وهي للماضي كما هو معروف، والفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ الدّالّ على الاستقبال متكرر في الكتاب العزيز، وهو في الواقع جمعٌ بين الإخبار عن تحقّق وقوع الفعل كما هي دلالة الفعل الماضي، ثم تكرره وتجدده والاستمرار عليه وهي دلالة الفعل المضارع، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النّحل: 32] "فقد جمع بين الماضي في (كان) والمستقبل في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، فكان دالًّا على استمرار عملهم، وكان صالحًا، واللّه تعالى يجزيهم أحسن الجزاء"[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4169.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النحل: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ما ينتظر المعاندين من أهل الكفر، هو الموت أو هلاك الاستئصال

لمّا مضت سورة النّحل في طرح الدَّليل تلو الدَّليل على صدق الألوهية ونفي الشِّرك، وصدق الرَّسول ﷺ والقرآن، ثم أظهرت موقف الكفّار مِن هذه الدَّلائل الواضحة، وأنّه لم يكن إلّا كموقف مَن يُنكر الشّمس في ضحاها، فبالغوا في شِركهم وتكذيبهم، وأنكروا النّبوةَ، ووصفوا القرآنَ بأنّه أساطير الأوّلين، ولم يعترفوا بأيِّ تقصيرٍ لهم حتّى عندما عاينوا الوفاة، بل ظنّوا أنّ أسلوب المراوغة والإنكار الّذي دَأبوا عليه في الدّنيا يمكن أن يُستدعَى وأن يُجديَ نفعًا مع ملائكة المَوت حال نزع أرواحهم، عندما عنَّفتْهم الملائكة على سوء أعمالهم، فأنكروا أنَّهم فعلوا أي سوء في حياتهم؛ فما كان بعد ذلك إلا أنْ "ذكر اللّه تعالى أنواع التّهديد والوعيد لهم، ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيرًا وصدقًا وصوابًا، ثمّ عاد إلى بيان أنَّ أولئك الكفّار لا ينزجرون عن الكفر بسبب البيِّنات التي ذكرت، بل كانوا لا ينزجرون عن تلك الأقوال الباطلة إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتّهديد وأتاهم أمر ربك وهو عذاب الاستئصال"[1]؛ لأنَّ دأبَهم في هذا دأبُ المكذّبين مِن قبلهم، وكأنَّ السّجيَّة التي كانت في أسلافهم من المكذّبين قد ورثوها عنهم وزادوا عليها، وفي بيان هذا كلِّه وبيان جزائهم جاءت هذه الآيةُ الكريمة: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 203.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنظُرُونَ﴾: أصلُ الإنْظارِ: تَأمُّل الشَّيْءِ ومُعايَنَتُه، ثُمَّ يُسْتَعارُ ويُتَّسَعُ فِيه، فيُقالُ: نَظَرْتُ إلى الشَّيءِ أَنْظُرُ إليه، إذا عايَنْتَهُ، ويَقولونَ: نَظَرْتُهُ، أي انْتَظَرْتُهُ، وسُمِّيَ الإمهالُ إنْظارًا؛ لأنَّهُ يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الَّذي يَأْتِي فِيه[1]، وضِدُّهُ: التَّعْجِيلُ، ويأتي الإنْظارُ بِمَعْنَى: التَّأْخِيرِ والتَّأْجِيلِ[2]، والاسْتِنْظارُ: طَلبُ الإنْظارِ، واسْتَنْظَرَ المُشْتَرِي فُلانًا: سَألَهُ الإنْظارَ، والتَّنَظُّرُ: تَوَقُّعُ الشَّيْءِ[3]، والمقصود بالإنظار في الآية: الانتِظارُ، وهو النَّظِرَة، والمرادُ مِنْهُ: الإعراضُ والإبطاءُ[4].

2) ﴿أَمْرُ رَبِّكَۚ﴾: أصْلُ: (أمر): ضِدُّ النَّهي، ومنه قولُكَ: افْعَلْ كذا. يُقالُ: لي عليكَ أمرَةٌ مُطاعةٌ، أي: لي عليكَ أنْ آمُرَكَ مَرَّةً واحِدَةً فتُطِيعَني، قالَ الكِسائِيُّ: إنَّهُ لأمورٌ بالمعروفِ ونَهِيٌّ عَنِ المُنكَرِ، مِنْ قَوْمٍ أُمُرٍ، والأمر: المجازاةُ والعِقابُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، قالَ الزَّجّاج: أمرُ اللهِ ما وعَدَهم بِهِ من المُجازاةِ على كُفْرِهم من أصنافِ العَذابِ[5]، ومِنْ هذا الباب الإمرَةُ والإمارَةُ، وصاحِبُها أميرٌ ومُؤَمَّرٌ[6]، والمقصود بـ ﴿أَمْرُ رَبِّكَۚ﴾ في الآية: الهلاك وعذاب الاستئصال.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

امتِناعُ المشركين عن الإيمانِ أوجبَ عليهم العذابَ

يقول اللهُ تعالى: هل يَنتَظِرُ هؤلاء المُشركونَ - المُتقاعِسونَ عن الإيمانِ بالرُّسُلِ فيما أنزلَ إليهم ربُّهم - إلّا أن تأتيَهم الملائكة لِقَبضِ أرواحِهم وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم، أو يأتي أمرُ اللهِ بحَشرِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 19.
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نظر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 146.
(5) الزّجاج، معاني القرآن: 3/ 189، والزّبيديّ، تاج العروس: (أمر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).

يومَ القيامةِ، كما يفعَلُ هؤلاءِ المُشركونَ فعَل أسلافُهم الكفرةُ ذلك أيضًا، فأصرّوا على كفرهم، وتَمادَوا في شركِهم إلى أن هلكوا، وما ظلَمَ اللهُ الكافرينَ بعدَ أن أقامَ عليهم الحُجَّةَ بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزالِ الكتُبِ، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي، ومُخالَفةِ الرُّسُلِ، فاستحَقّوا عذابَ اللهِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

بلاغة الجملة المفصولة؛ لكونها جوابًا عن سؤال مقدّر

قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جملة ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النحل: 26]؛ لأنّها تُثير سؤالَ مَن يسأل عن إبّان حلول العذاب على هؤلاء، كما حلّ بالذين من قبلهم، فقيل: ما ينظرون إلا أحد أمرين هما: مجيء الملائكة لقبض أرواحهم فيحق عليهم الوعيد المتقدم، أو أن يأتي أمر الله، أي: هلاك الاستئصال المعرَّض بالتهديد به في قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ [النحل: 26][2].

بلاغة الاستفهام بالحرف ﴿هَلۡ﴾:

إعراضهم وتأخّر توبتهم، فعلٌ منكرٌ مستهجن

اختلف في الاستفهام هنا فقيل: معناه الإنكار أو النَّفي[3] وتوجيه المعنى: أينتظرون؟ على الإنكار، أو: ما ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على النفي، وجزم ابن عاشور بأنَّه: إنكاري في معنى النفي، ولذلك جاء بعده الاستثناء[4].

سرّ العدول عن التَّعبير بالانتظار إلى التَّعبير بالإنظار:

ما وعد الله آتٍ متيقَّن الحصول، لا ريب فيه

معنى ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون؛ لأن (نظر) متى كانت من رؤية

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 214، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 102، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 569.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 145.

(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 190.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 145.

العين؛ فإنما تعديها العرب بـ (إلى)، ومتى لم تتعد بها فهو بمعنى انتظر، كما قال امرؤ القيس:

فإنَّكما إنْ تَنظُراني ساعةً *** من الدَّهر تنفعني لدى أمّ جندبِ

ومنه قوله تعالى حكايةً: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: 13][1] أي: انتظرونا.

وعُدل عنِ التَّعبير بالانتظار إلى التَّعبير بـ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ لأنّه لبيان أن ما هُدِّدوا به آتٍ لا محالة، فكأنهم ينظرون إليه نظر العين[2]، وذلك لتيقنهم حصوله ووقوعه.

بلاغة الاستعارة التهكّمية في ﴿يَنظُرُونَ﴾:

شبّه بقاءهم حتّى يحلّ بهم ما وعدوا به، بنظر من حُبِس لهلاكه

في قوله ﴿يَنظُرُونَ﴾ استعارة تهكميّة؛ لأنهّم لا ينظرون فعلًا، فالمراد به تهديدهم ووعيدهم، فشُبِّه بقاؤهم حتّى يحلّ بهم ما هدّدهم الله به لا محالة، بنظر مَن حُبِس لحتفه وهلاكه[3]، بجامع تحقّق وقوع الهلاك في كلٍّ.

براعة توكيد الشّيء، بما يشبه ضدّه:

يترقّب المستكبرون أمرين، كلاهما عظيم مخوف

من أنواع التّأكيد ما يعرف بتأكيد الشّيء بما يشبه ضدّه، ومنه تأكيد الذّم بما يشبه المدح والعكس، وقد يكون قريبًا مِن ذلك ما جاء في هذه الآية في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ لأنّ الشّيء المنتظر هو ما يترقبه المرء من خير قادم لكنه هنا واحد من أمرين كلاهما عظيم مخوف، قال ابن عاشور معلّقًا على ما في هذه الآية: "وهذا قريب من تأكيد الشيء بما يشبه ضده وما هو بذلك"[4].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 191.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 190.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 190.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 145.

بلاغة الكناية في جملة الاستثناء بـ﴿إِلَّآ﴾:

وفي قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾، كنايتان: الأولى: في قوله ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وفيه كناية عن قبض أرواحهم؛ لأنّ الملائكة إنما تنزل لأجل ذلك، والثّانية: في قوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ فهو كناية عن هلاك الاستئصال[1]، أو عن قيام السّاعة[2] التي فيها حسابهم.

كنّيَ عن قبض أرواحهم، وهلاك استئصالهم، ويوم حسابهم

سرّ التَّعبير بالمصدر المؤوّل، دون الصّريح:

قوله تعالى: ﴿أَن﴾ هنا هي المصدريّة، وأوثر التَّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَن تَأۡتِيَهُمُ﴾ دون الصريح؛ للدّلالة على تجدّد ترقّب الإتيان مِن قِبَلِهم وتكرّره، وكأنّ هذا الترقُّب أمر حاضر معهم لا يفارقهم، وفيه أنّ التّعبير بالمصدر المنسبك ﴿أَن تَأۡتِيَهُمُ﴾ دليل العناية بفعل مجيء الملائكة أو أمر ربّهم دون الالتفات إلى كيفيّة هذا المجيء وهيآته.

ترقّب الإتيان، مُتجدّد عندهم، دون النّظر إلى كيفيّاته

إيثار فعل الإتيان:

أوثر التَّعبير بالإتيان دون المجيء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ لما يدل عليه لفظ الإتيان مِن معنى المجيء بسهولة، أما لفظ المجيء فإنّ التَّعبير به ليس خاصًّا بهذه الدلالة الخاصة بلفظ الإتيان، فهو أعم[3]، ولأنه ليس بمستعظم على اللّه تعالى أن يعجّل لهم أحدهما أو كليهما، كان التَّعبير الأثير هو التَّعبير بالإتيان، فكلٌّ على اللّه تعالى هيِّن.

الإتيان هو المجيء بسهولة، وكلّ شيء على الله تعالى هيّن

توجيه قراءتي: ﴿تَأۡتِيَهُمُ﴾، و(يأتيهم):

قرأ الجمهور ﴿تَأۡتِيَهُمُ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ حمزة والكسائي (يأتيهم) بالياء، وهي قراءة خلف ويحيى بن وثاب وطلحة والأعمش،

التأنيث في لفظ (الملائكة) مجازي، فيجوز تأنيث الفعل وتذكيره

(1) المطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 190.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 391، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 102.

(3) الرّاغب، المفردات: (أتى - جاء).

ومعنى الكلام أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ظالمي أنفسهم[1] وليس من فرقٍ كبيرٍ بين قراءتي ﴿تَأۡتِيَهُمُ﴾ و(يأتيهم)؛ لأن التأنيث في لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهو الفاعل هو تأنيث مجازي، فيجوز تأنيث الفعل وتذكيره.

سرُّ إسناد الإتيان للملائكة مجموعين:

ملك الموت معظّم الشأن

أسند الإتيان للملائكة مجموعين؛ لأنّ المراد بهم ملائكة التّوفّي الذين مضى ذكرهم، والسّر في ذكره بصيغة الجمع - مع أنّ ملك الموت الذي يتوفّى الأنفس بإذن اللّه تعالى واحد - تفخيمُه، وتعظيمُ شأنه[2]، لعظيم شأن الموت.

وجه تعريف الملائكة:

المقصود بالملائكة ملك الموت

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ للعهد، والمعهود هم ملائكة التّوفّي المذكورون في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهو ملك الموت المُعبّر عنه بالجمع لتعظيم شأنه بحسب ما مرّ ذكره.

دلالة حرف التّخيير ﴿أَوۡ﴾:

حرف التّخيير (أو) دالٌّ على امتناع الخلوّ من كلا الأمرين

يدل حرف التخيير ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ على امتناع الخلو من كلا الأمرين، أي: بأن يقع أحدهما، ولا يخلو الأمر منهما، وفي منعها للجمع بينهما خلاف[3].

نكتة تعريف الأمر بالإضافة إلى لفظ الربّ:

الإضافة لتخصيص ما يحلّ بهم من أمر جلل

عرَّف الأمر بالإضافة إلى اسم (الرّب) فقال: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ للتخصيص، فليس المراد أن يحل بهم أي أمر، وإنما أمر جلل يعينه ويخصّصه الإضافة إلى اسم (الرّب) كأن يكون هلاك استئصال، أو قيام السّاعة.

---

(1) ابن الجزريّ، النشر في القراءات العشر: 2/ 303، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/ 391.
(2) محمّد عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/ 185.
(3) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 5/ 328، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 267.

إيثار لفظ (الربّ):

إهلاك الله الظّالمين، نعمة على عباده الصّالحين

إيثار اسم الربّ ومقام ذكره هو مقام الإنعام؛ لأن إهلاك الله الظالمين بالاستئصال نعمة على عباد الله تستحق الشكر، كما قال سبحانه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: 45].

عود ضمير الخطاب في لفظ ﴿رَبِّكَ﴾:

ضمير الخطاب مراد به النّبي ﷺ تلطُّفًا به

ضمير الخطاب مراد به النَّبي ﷺ وفي "التعرُّض لوصفِ الرَّبوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره ﷺ، إشعارٌ بأن إتيانَه لطفٌ به ﷺ، وإن كان عذابًا عليهم"[1].

سر الفصل في جملة ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ﴾:

سرّ السّؤال شناعة الفعل وهول العقاب

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾، لما كان هذا الّذي ذكرته الآية وما يترتب عليه من عقاب أمرًا مفزعًا، كان موجبًا لمن له فهم أن يقول: هل فعل هذا أحد غير هؤلاء؟ فقيل: نعم! ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ أي مثل هذا الفعل البعيد لبشاعته عن مناهج العقلاء، مكرًا في تدبير الأذى، فعل الّذين من قبلهم[2].

بلاغة التّشبيه في السّياق الحكيم:

التّشبيه بالبعيد، للتّهديد والوعيد

في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، أي: مثل فعلهم من الكفر والتكذيب ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ فكذَّبوا الرسل، وأشركوا بالله، وجملة التشبيه هذه مسوقة لتعليل التّهديد والوعيد الذي سبقها في الآية[3].

فائدة التَّعبير باسم الإشارة (ذلك):

بينهم وبين الحقّ بونٌ شاسعٌ

عبَّر باسم الإشارة (ذلك) المختصّ بالإشارة للبعد في قوله:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 111.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 150.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 190.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، للدَّلالة على أن بينهم وبين الحق بونًا واسعًا جدًا.

وجه التَّعبير عن فعلهم بالماضي:

فعل التكذيب متحقّقٌ عند من سبق

في إيثار التَّعبير بالفعل الماضي ﴿فَعَلَ﴾ دلالة على تحقق وقوع التكذيب ممَّن سبقهم مِنَ المكذبين كما وقع منهم، فضلًا عن كون الحديث عن ماضي الزمن.

إيثار لفظ ﴿فَعَلَ﴾ دون (عمل):

عبّر بالفعل؛ لتنزيلهم منزلة من لا يعي ما يفعل

أوثر التَّعبير بـ ﴿فَعَلَ﴾ دون (عمل) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ لأن العمل هو ما يكون عن قصد وإدراك، بخلاف الفعل، فقد يكون بغير قصد، ولذلك فإن ما ينسب إلى الحيوانات هو فعل وليس عملًا[1]، ولعله هنا قد أراد بالتَّعبير بالفعل، تنزيلهم منزلة من لا يعي، ولا يعقل ما يفعل، فكان كالحيوان الذي يأتي الأفعال وهو لا يعيها، أو يعقلها؛ لأنهم لو كانوا يعون ما يفعلون ما أشركوا ولا كذَّبوا المرسلين، فلما فعلوا كانوا كأنهم لا عقول لهم ولا قلوب حيث لم ينتفعوا بها، فحق عليهم قول ربنا ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179].

بلاغة الكناية في ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

احتمال وجود الكناية في الجملة عن الاغترار

قوله تعالى: ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، وفيه أنّ القول بدلالة الجملة على الاغترار بطريق الكناية، هو وجه فيها ذكره أبو حيان بقوله: وقيل: ﴿فَعَلَ﴾ هنا كناية عن اغترارهم، كأنه قيل: مثل اغترارهم باستبطاء العذاب، اغتر الذين مَن قبلهم[2].

(1) الراغب، المفردات: (عمل - فعل).

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 527.

نكتة التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

آثر التَّعبير بالاسم الموصول استحضارًا لهم وللتسجيل عليهم بما تضمَّنته جملة التشبيه قبله مِنَ النصّ على فعلهم الذَّميم، الذي يشتركون فيه مع المخاطبين ويتشابهون معهم فيه، وهو الشرك والتكذيب، وما يحتفُّ بهما من أعمال المكذبين الجاحدين.

عبّر بالموصول استحضارًا لحالهم، وتسجيلًا لقبيح أفعالهم

إيثار شبه الجملة ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ دون (قبلهم):

﴿مِن﴾ في الأصل للابتداء، فهي تشير إلى أول الموصوفين بالقبْلية، فذكرها استرواح لأصل معناها مع معنى التأكيد الغالب عليها إذا وقعت مع قبل وبعد[1]، فذِكْر ﴿مِن﴾ يفيد الابتداء والاستيعاب مع التأكيد، فهو يفيد الابتداء من قبل زمن المضاف إليه مباشرة من غير فاصل، مستغرقا جميع الوقت الذي قبل، وتستوعب بذكر طرفيه ابتداء وانتهاء، فتفيد أن ما قبلها عريق في القدم، وتفيد التّأكيد، أي: تأكيد أنّ الّذين كانوا من قبلهم، فعلوا مثل فعلهم، فهم على دربهم ماضون، والمراد مَن شابهوهم منهم، وليس جميع من كانوا قبلهم؛ لأنه يوجد ممن كانوا قبلهم مؤمنون.

من يفعل فعل السّابقين يكن مثلهم

دلالة الواو في سياق الآية الكريمة:

الواو في ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عاطفة، عطفت جملة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ على جملة محذوفة دلّ عليها السّياق، والتّقدير: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ فأصابهم الهلاك المعجل ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ﴾ بذلك، فإنَّه أنزل بهم ما استحقّوه بكفرهم، فقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دال على الجملة المحذوفة المتضمّنة لإهلاكهم[2].

الواو عاطفة على جملة محذوفة، ولذلك أثره في المعنى

بلاغة النّفي بـ (ما) في السّياق:

استعملت جملة النّفي هنا أداة النفي (ما)، وهي مِن آكد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 327.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 203، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 191.

وأوسع وأبلغ أدوات النَّفي؛ إذ تنفي الحال والاستقبال؛ لكنَّها هنا للنَّفي المطلق بدلالة دخولها على الماضي على ما سيأتي في الفقرة الآتية، فهي دالَّة هنا على نفي وقوع الظلم للناس لا في الحال ولا في الاستقبال، وقبل ذلك في الماضي؛ لأنَّ مَن يظلم هو مَن يحتاج إلى الظّلم لينفعه، وهذا على اللّه تعالى محال.

مَن يظلم هو مَن يحتاج إلى الظّلم، والله غنيّ عنه

سرُّ التَّعبير عن فعل الظّلم المنفيّ بالماضي:

دلّ التَّعبير بالماضي في نفي الظّلم عنهم في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ على تحقّق نفي وقوعه أبدًا، فاللّه تعالى العدل، وأنه ليس فقط هو لا يظلم، بل إنه لا يريده أصلًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: 108].

الله هو العدل، والعدل لا يظلم، ولا يرضى بالظّلم أصلًا

نكتة إظهار لفظ الجلالة:

عبَّر بالاسم الجليل الذي تهتز القلوب لذكر لذكره؛ للدّلالة على أنه سبحانه لا يحتاج إلى الظّلم ليظلم، فهو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي دانت له السّماوات والأرض وما فيهما، أفيحتاج لأن يظلم الناس، ولماذا؟

إظهار الاسم الجليل يزرع المهابة في القلوب

دلالة الواو في السّياق الحكيم:

الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ للعطف، عطفت جملة ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ﴾ على جملة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، ليجمع بين جملة النّفي المبيّنة لعدل اللّه، وسبب هلاكهم بظلمهم أنفسهم.

مَنْ يهلك فبظلمٍ مِنْ نفسه، لا من الله العدل

توجيه الاستدراك بـ ﴿وَلَٰكِن﴾:

أكد اللّه تعالى عليهم أنّهم هم الظّالمون لأنفسهم، وذلك بالاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾؛ إذ معنى الاستدراك عن نفي ظلم اللّه تعالى لهم؛ بيان أنَّ ظلمهم لأنفسهم كان منهم لا مِن اللّه ﷻ[2].

تأكيد نفي ظلم الله لهم، وإثبات ظلمهم لأنفسهم

(1) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 577.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/ 240.

سرّ التَّعبير بفعل الكون الماضي المجموع:

سرّ التَّعبير بفعل الكون الماضي المجموع ﴿كَانُوٓاْ﴾، تأكيد كونهم هم مَن ظلموا أنفسهم، وبيان أنّهم مستمرّون على ذلك، في ماضيهم وحاضرهم، حتّى صار ذلك فيهم جبلة وطبعًا[1].

دأبوا على ظلمهم لأنفسهم، حتّى صار فيهم طبعا وعادة

علّة تقديم المفعول ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾:

في تقديم قوله: ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ على الفعل ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ دلالة على القصر والاختصاص، فهم وحدهم من ظلموا أنفسهم، والله تعالى لم يظلمهم شيئًا، كما يدل على أنهم بهذا الجحود يظلمون أنفسهم غاية الظلم، ولا يتجاوزهم ذلك إلى غيرهم، وأي ظلم للنفس أبلغ من الكفر، وحرمانها من نعمة الإيمان، كما أن فيه من الدلالات إضافة إلى ما ذُكِر (رعاية الفواصل)[2].

لا ظلم للنّفس أعظم من الكفر، وحرمانها الإيمان

سرُّ التَّعبير عن ظلمهم بالمضارع المجموع:

في التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، بيان لكونهم لم يظلموا أنفسهم مرة ولا مرات قليلة، بل كانوا مداومين على ظلمها مكررين له، حتى باغتهم عقاب الله وهم في ظلمهم غارقون؛ حتّى لكأنهم كانوا - بسبب إمهال الله لهم - في مأمن من وقوع أي عقاب عليهم.

اغترّوا بإمهال الله تعالى لهم، فأداموا ظلمهم

فنّ ردّ العجز على الصّدر:

في جملة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ نوعٌ مِن أنواع البديع ألا وهو فنّ ردّ العجز على الصّدر، ويسمّى بفن (التّصدير)؛ إذ وافقت كلمة ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ وهي آخر كلمة في الجملة كلمة ﴿ظَلَمَهُمُ﴾ المنفية في صدرها، وهو في نظم الآية ركيزة من ركائز بناء المعنى: نفيًا، وإثباتًا، قطعًا، وديمومة، ليرسّخ قطعية نفي الظلم عن الله تعالى، وإثبات ديمومتها بفعلهم أنفسهم.

رسّخ التّصديرُ قطعية نفي الظّلم عن الله تعالى، وإثبات ديمومتها بفعلهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/ 240، 8/ 4170، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 150.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4170، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 191.

الذكر الحكيم نسج محكم، يأتلف أوّله مع آخره، ويفقهه من يتدبّره

بديع فنّ الإرصاد، في ثنايا الآية الكريمة:

قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، وفيه من ألوان البديع فنّ الإرصاد، ويقال له: التسهيم[1]، وذلك لأنّه وجد قبل عجز الآية ما يدل عليه وهو قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فإن القارئ إذا ما بلغ بعده ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ علم أنَّ الفاصلة ﴿يَظۡلِمُونَ﴾، وهذه درجة في التّمكين والائتلاف في الفواصل، لا تُرى بهذه الدّقة إلّا في الكتاب العزيز، كما في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14] فإنّ قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ [المؤمنون: 14] يدلّ على ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14] ولذا نطق به عمر رضي الله عنه قبل أن يعرف أنّه الخاتمة المنزّلة[2]، ليُسهم هذا الفنّ في بيان فاعليّة القارئ المُتدبّر، في استنباط المعنى القرآنيّ المُصاغ وفق نسج محكم يأتلف أوّله مع آخره.

في تغيير الأسلوب، تشويق إلى الخبر، وتهويل له، وترقّب

بلاغة الاعتراض في جملة الفاصلة:

جملة الفاصلة: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ اعتراضية لا محلّ لها من الإعراب وتفصيل ذلك أنّ هذه الجملة معترضة بين جملة: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ وجملة: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ في مستهلّ الآية القادمة "ووجه هذا الاعتراض أنّ التّعرّض إلى ما فعله الذين مِن قبلهم يشير إلى ما كان مِن عاقبتهم وهو استئصالهم، فعقّب بقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، أي: فيما أصابهم، ولما كان هذا الاعتراض مشتملًا على أنهم ظلموا أنفسهم صار تفريع ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾

(1) هو أن يكون في الآية قبل عجزها ما يدل عليه إذا عرف الرّوِيّ - وهو الحرف الأخير من الآية - ومن علماء البلاغة من يسميه: (التسهيم) وهو مأخوذ من الثوب المسهم الذي يدل أحد سهامه على الآخر الذي قبله، لكون لونه يقتضي أن يليه لون مخصوص به لمجاورة اللون الذي قبله. يُنظر: الخطيب، مفاتيح التفسير: 1/ 102.

(2) الخطيب، مفاتيح التّفسير: 1/ 19.

عليه أو على ما قبله، وهو أسلوب من نظم الكلام عزيز، وتقدير أصله: (كذلك فعل الذين من قبلهم وظلموا أنفسهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله)، ففي تغيير الأسلوب المتعارف تشويق إلى الخبر، وتهويل له بأنَّه ظلمُ أنفسهم، وأنَّ الله لم يظلمهم، فيترقب السّامع خبرًا مفظعًا وهو ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(فعل) و(عمل) و(صنع):

الفعل أعمّ من كلّ من العمل والصّنع، والصّنع أخصّ منهما

العمل: هو ما يكون عن قصد وإدراك، بخلاف الفعل، فقد يكون بغير قصد، ولذلك فإنّ ما يُنسب إلى الحيوانات هو فعل وليس عملًا[2]، والفعل: يُطلق على ما يمرُّ سريعًا وينقضي ولا يكون له أثر، أما العمل فيقال لما يكون له أثر[3] ومن العَمَل الفعلُ باليد من زراعة وتلقيح وسقي[4]؛ لأن ما يعمله الإنسان بكدّ يده له أثناء عمله على العامل، ويبقى أثره، وقد لوحظ في استعمال القرآن الكريم أنّه إذا كان المقام مقام تعبير عن ممارسة دنيء الأخلاق فإنّه يُؤثر التَّعبير بلفظ الفعل، كما هو الشّأن في آية هود ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: 87] والفعلة المرادة هي بخس الناس أشياءهم والنقص في الكيل والميزان، وهي مِن أحطّ الخصال، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ [الأعراف: 28]، وبهذا المعيار، فإنّنا إذا نظرنا إلى التّطفيف في الكيل والميزان وما يشابهه مِنَ التّعامل بالرّبا، فإنّه لا كدّ فيه ولا تعب، بل ينقضي بلا أثر مِن تعب ونحوه، وكذلك النّظر إلى مَن يفعلون الفاحشة فإنّها تنقضي سريعًا؛ كنشوة عابرة دون أن يُكَدّ لها بتحمّل مسؤولية ولا غيرها؛ وأما الصُّنْعُ: فهو إجادةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 146.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل - فعل).
(3) أبو حيّان التوحيدي، المقايسات، ص 280، والرّاغب، المفردات: (عمل)
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عمل)

الفعل، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلّ فعل صُنْعًا، والصّنع كما هو أخص مِنَ الفعل هو كذلك أخص من العمل[1]، ولا يُنسب إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسب إليها الفعل، فهو يُنسب إلى الله تعالى كما في قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: 88] وإلى البشر كما في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 38][2]، ويفترق الصنع عنِ الفعل في كونه مقيدًا بالقصد كالعمل، إلّا أنَّه أخصّ منه - أي مِنَ العمل - مِن جهة كونه مقيّدًا بالعمل أو الفعل المتقن، وبذلك يظهر أن الفعل هو أعم منهما، وأراد بالتَّعبير بالفعل في الآية دون الفعلين الآخرين، تنزيلهم منزلة من لا يعي، ولا يعقل ما يفعل، فكان كالحيوان الذي يأتي الأفعال وهو يعيها، أو يعقلها.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل).

(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٣٤﴾ [النحل: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ما وقع هلاك عظيم إلا لذنب عظيم

لمّا أخبرتِ الآية السّابقة عن ظلم المستكبرين لأنفسهم الّذي جلب عليهم غضب ربهم، فأوقع بهم ما العادة أن يقع بأمثالهم مِن هلاك الاستئصال، كالذي وقع بأسلافهم الذين مضوا، وقد فعلوا نفس ما فعلوا مِنَ الكفر باللّه وتكذيب المرسلين، بعد أن بيَّن اللّه لهم الآيات والدّلائل التي تخشع لها الجبال الرواسي، وتلين لها الحجارة القاسية، فلم تخشع لها قلوبهم، ولم تلن لها رؤوسهم، فحقّ عليهم ذاك الغضب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ثمّ جاءت هذه الآية مترتّبة على الآية السّابقة، ومؤكدة لمضمونها، فبيَّنت أنَّ ما أصابهم قد كان بسبب ما اكتسبوه مِن كفر باللّه واستهزاء برسله وآياته.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾: أصلُ الإصابة في الرَّمية ثمَّ اختصَّت بالنّائبة الفادحة، وتُستعمل في الخير والشَّر، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: 50]، وقال بعضهم: الإصابة في الخير اعتبارًا بالصَّوْب وهو المطر، وفي الشَّر اعتبارًا بإصابة السَّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصلٍ واحدٍ[1]، والمقصود بالإصابةِ في الآية: اتِّصالُ شَيءٍ بِآخَرَ ووُرودُهُ عليه، والمراد بإصابةِ السَّيِّئاتِ: إمّا بِتَقْدِير مُضافٍ، أي: أصابَهُم جَزاؤُها، أو جُعِلَتْ أَعْمالُهُمُ السَّيِّئَةُ كأنَّها هي الَّتِي أصابَتْهُم[2].

(1) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 407، وابن جرير، جامع البيان: 16/ 458، والراغب، المفردات: (صوب)، والرازي، مفاتيح الغيب: 19/ 43.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 146.

2) ﴿وَحَاقَ﴾: أصلُ (حيق): كلمةٌ واحدةٌ، وهو نُزولُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، يُقالُ: حاقَ بهم الشَّرُّ يَحيقُ حَيقًا وحيقانًا وحيوقًا[1] إذا نزَلَ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، وحاقَ: أحاطَ، والحَيْقُ: الإحاطَة؛ ثُمَّ خصَّ الاستِعمالُ الحَيْق بإحاطَةِ الشَّرِّ[2]، وهو المرادُ هنا في الآية.

3) ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: أصلُ (هزأ) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تدلُّ على السُّخرية. يُقالُ: هَزِئَ واسْتَهْزَأ، إذا سَخِرَ. هَزِئَ به يَهْزَأُ، وهَزَأ، واسْتَهْزَأ، وتَهَزَّأ به[3]، ورجل هُزَأَةٌ: يَهْزَأ بالنّاسِ، وهُزْأة: يُهْزَأُ مِنْهُ[4]، والهُزْءُ: مزحٌ في خِفْيَةٍ، وقد يُقالُ لما هو كالمزح، فممّا قصد به المزح قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ﴾ [المائدة: 58]، والاسْتِهْزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤ وإن كان قد يُعبَّر به عن تعاطي الهزؤ، كالاستجابة في كونها ارتيادًا للإجابة، وإن كان قد يجري مجرى الإجابة، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التّوبة: 65]، والاستِهْزاءُ من اللّه في الحقيقة لا يَصِحُّ، تعالى اللّه عنه، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة: 15] أي: يجازيهم جزاء الهزؤ[5]، والمرادُ بالهُزْءِ في الآية: المُبالغَةُ في السُّخريةِ والاستخفافِ بالغَير.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ظُلم النَّفْس بعمل السّيئات، والإصرار عليها، سببٌ في وقوع العذاب

يقول اللّه تعالى: فأصابَ أولئك الكافرينَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ - الذين فعَلوا فِعلَ مُشرِكي قُرَيشٍ - عُقوباتُ كُفرِهم، وأعمالِهم السَّيِّئَةِ التي اكتَسَبوها، ونزَل بالكافرينَ وأحاطَ بهم عذابُ اللّهِ

(1) ابن دريد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حوق).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (حوق)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 146.
(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (هزأ).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (هزأ).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هزأ).

الذي كانوا يَسخَرونَ منه، ومِن الرُّسُلِ إذا توعَّدوهم به[1]، وهذا بيان كاشف لما حلّ بهؤلاء الظّالمين من بلاءٍ، وأنَّ هذا الَّذي نزل بهم هو من آثار ما عملوا من سوءٍ، ومِن معقبات مكرهم بآيات اللّه، واستهزائهم برسله؛ وفي هذا تهديدٌ للمُشركين الَّذين يحادّون رسول اللّه، ويهزؤون بآيات اللّه[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف بالفاء في ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾:

عقوبتهم مُترتّبةٌ على أفعالهم الّتي اكتسبوها

الفاء في قوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ بيّنت أنّ ما أصابهم مِن هلاك عاجل سريع بعد تأكّد إصرارهم على كفرهم وتكذيبهم، إنَّما هو عقاب مستحقٌّ ومترتب على ما قدّموه.

إيثار لفظ الإصابة مجموعًا:

هلاك الاستئصال، لا يستثني أحدًا

أوثر الجمع في الفعل ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ لكون هلاك الاستئصال لا يستثني أحدًا، فإنه لا يبقي ولا يذر، كالذي حصل مع أهل القرون السابقة من المكذِّبين والجبّارين الذين ذكرهم اللّه تعالى في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: 40].

بلاغة تقدير المضاف بين الحذف والمجاز:

الجزاء مُكافئٌ للسّيئات بلا زيادة، وهو مُسبّبٌ عنها

في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ بلاغيًّا أكثر مِن وجه:

الأوّل: أنّه على تقدير مضاف محذوف، والتّقدير: ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ جزاء ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ وعلى هذا فالسّرّ في حذف المضاف مع بقاء المضاف إليه؛ هو الإشارة إلى أنّ الجزاء كالسّيئات تمامًا،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 215، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 103.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 294.

مكافئ لها بلا زيادة، وفي ذلك إشارة إلى تمام المعادلة بين العمل وجزائه حتّى جعل الجزاء نفس العمل، حتّى كأنّه هو، على حدّ قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التّوبة: 35][1] فاللّه تعالى (العدل) الّذي لا يظلم أحدا شيئًا، بل إنّه يتفضّل بمضاعفة الحسنات، أما السيئات فلا مضاعفة فيها، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام: 160].

الثّاني: جواز حمل قوله: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ على المجاز العقليّ، ويكون بالنّظر إلى إسناد الإصابة إلى السّيئات، بجعل أعمالهم السّيئة كأنّها هي التي أصابتهم؛ لأنّها سبب ما أصابهم[2].

الثّالث: جواز حمله على المجاز المرسل، وذلك بالنظر إلى لفظ ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ باعتباره سببًا للجزاء، فيكون مِن باب إطلاق السبب وهو السّيئات، وإرادة المُسبَّب وهو الجزاء، وفيه دلالةٌ على فظاعة الجزاء، وحصرٌ لكونه مسبّبًا عنِ السّيئات التي فعلوها لا غير، ورجَّحه أبو السّعود على وجه تقدير المضاف وعلّل رجحانه بأنه - أي وجه تقدير المضاف - يوهِم أن لهم أعمالًا غيرَ سيئاتهم[3]، ولا يمنع أن يكون لهم بعض الأعمال غير السيئة من صلة رحم ونحوه، لكنّه لضآلته ولعدم الاعتداد به كأنه لا عملَ حسنًا لهم أبدًا.

الرابع: حمل اللفظ على المشاكلة[4] وهذا على جعل ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ هو الفاعل بدون تقدير مضاف، ويكون إطلاق السيئة على جزائها مِن باب المشاكلة، كالتي في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40].

نكتة جمع السّيئات:

السّرّ في جمع السيئات هو بيان أن اللّه تعالى لا يعاجل الناس بالعقوبة لمجرد فعل سيئة، وإنما يمهلهم ويمنحهم الفرص ليعودوا إليه، ويقلعوا عمّا هم فيه، فإذا تمادوا في غيّهم ولم يكن ثمت ما يردعهم عن هذا التمادي؛ فإنّهم حينئذ يكونون أهلًا لذاك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 374، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4171.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 146.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 111، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 374.
(4) الطّيّبي، فتوح الغيب: 9/ 114، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 374.

العقاب، ولذلك فإنّ نبي الله نوحًا عليه السلام بعد أن أمضى تسعمائة وخمسين سنة يدعو فيها قومه إلى التّوحيد، فلم يزدادوا منه إلا بعدًا ونفورًا وغرورًا، وكان قد أعلمه ربُّه بعدم إيمانهم، كما أخبر تعالى عن هذا بقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: 36] فتيقن عليه السلام عدم إيمانهم، وانقطعت كل الآمال في سبيل هدايتهم، هنا دعا عليهم بهلاك الاستئصال، الذي بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: 26].

لا يعاجل الله تعالى بالعقوبة، حتّى يرى الإصرار والتمادي

وجه تعريف السّيئات بالإضافة إلى الموصول:

عرّف السّيئات بالإضافة إلى اسم الموصول، للتّعيين والتّخصيص، أي: لحصر سبب ما وقع لهم من هلاك فيما قدّمته أيديهم مِن أعمالهم القبيحة الشنيعة التي دلّت عليها جملة الموصول.

علّة هلاكهم ما قدّمته أيديهم

إيثار الموصول ﴿مَا﴾ في سياق الآية:

أوثِرَ اسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾؛ لكونه أخصر وأجمع، فهو يشمل كلّ ما يصلح للدّخول تحته مِن أعمالهم التي كانت سببًا لهلاكهم؛ بما تحتمله (ما) من دلالة التنوّع، والكثرة، والعموم.

تعدّدت سيّئاتهم، وتنوّعت، فكانت وبالا عليهم

علّة العدول من (فعلوا) إلى ﴿عَمِلُوا۟﴾:

آثرَ الفعل ﴿عَمِلُوا۟﴾؛ لأن المقام هنا مقام جزاء وحساب، والله تعالى لا يحاسب إلا على ما كان مقصودًا، أما ما يقع مِنَ العبد على غير قصد فمعفوٌّ عنه، لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: 5]، ولما كان لفظ العمل أدل على القصد مِن لفظ الفعل، كان حريًّا أن يكون التَّعبير بـ ﴿عَمِلُوا۟﴾ لا بما (فعلوا) فالفعل أعم من العمل؛ لأنه يشمل ما

كفرهم وتكذيبهم كان فيهم سجيّة وطبعًا

كان مقصودا وما كان غير مقصود، بخلاف العمل الذي ينحصر معناه فيما كان مقصودًا وكان له أثر[1]، وأي أثر أعظم مِن كفرهم وتكذيبهم الذي كان فيهم سجيَّة وطبعًا؟

التَّعبير عن عملهم بالماضي المجموع:

التَّعبير بالماضي عن عملهم يدلّ على تحقق تلبسهم بما كان سببا لهلاكهم

أسند العمل إلى الجماعة، وبصيغة الماضي ﴿عَمِلُواْ﴾؛ للدلالة على تحقّق تلبسهم بما كان سببًا لهلاكهم، ووقوعه منهم وقوعًا مؤكدًا، سواء مِن جميعهم أو مِن أكثرهم؛ لأن هلاك الاستئصال عقابٌ جماعيٌّ، يُهلك به اللّه من يشاء من عباده عندما يطبقون على الكفر والظلم، ويبالغون في التنكُّر لما أمر اللّه مع عدم الاعتبار بأمره سبحانه ونهيه، وعندما لا يتمعَّر وجه الصّالحين منهم غضبة للّه وإنكارًا عليهم، وقد قال سبحانه في هذا: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: 25] ولحديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: يا رَسولَ اللّه أنَهْلِكُ وفِينا الصّالِحونَ؟ قالَ: "نَعَم إذا كَثُرَ الخَبَثُ"[2].

دلالة العطف بالواو، في سياق الآية الكريمة:

أشدّ العذاب أن يرتدّ عليك عملك في الدنيا عقابًا في الآخرة

الواو عطفت جملة ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ على جملة ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾، ليجمع لهم بين إصابة السّيئات، وإحاطة الاستهزاء بهم مِن جميع جوانبهم هلاكًا يُفني، وحتفًا يردي، دلالةً على شدّة عقابهم، وأليم عذابهم مُمثّلين باستهزائهم بالشريعة، والنّبي ﷺ وبالعذاب الموعود، وذلكم أشدّ العقاب، وأخزاه.

إيثار لفظ ﴿وَحَاقَ﴾ ماضيًا:

نزل الهلاك بهم على وجه أحاط بجوانبهم

معنى (حاق) أحاط، ثم خصّ استعماله بإحاطة الشّر، لا الخير، وأصله: حَقَّ، بمعنى وجب، فأبدل أحد حرفي التّضعيف حرف علّة

(1) الراغب، المفردات: (عمل).

(2) أخرجه البخاريّ، كتاب: المناقب، باب: علامات النّبوّة: 4/ 198.

تخفيفًا[1] وفي إيثار التَّعبير به ما يُفيد أنّ الهلاك قد نزل بهم على وجه أحاط بجوانبهم، بحيث لا يستطيعون الإفلات منه[2]، ومِن ثمّ كان التَّعبير به أبلغ مِنَ التَّعبير بالإصابة - ونحوها - وأفظع[3]، وفي سرّ اختيار صيغة الماضي ما أفاد تحقق وقوع الجزاء بهم بسبب استهزائهم بوعيد المرسلين لهم وتحذيرهم مِن مغبة الكفر والاستكبار مُلَوِّحين لهم بعذاب الاستئصال، على نحو ما قال كفار مكة فيما حكاه القرآن عنهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: 32].

دلالة شبه الجملة ﴿بِهِم﴾:

الـدّلالـة على اختـصـاصـهـم بالعذاب

دلَّ شبه الجملة ﴿بِهِم﴾ على اختصاصهم بالعذاب المنزَّل، بحيث لا يتعداهم إلى غيرهم؛ كما قال تعالى عن قوم لوط ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: 82 - 83] أي: هذه الحجارة معلَّمة بحيث تعرف مَن تُصيب.

سرُّ إيثار الموصول ﴿مَا﴾:

تـدلّ (مـا) على عموم ما عملوه

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، إمّا موصولة، وهي عبارة عن الأعمال كما قال سيئات أعمالهم، وإمّا مصدرية، والمعنى: كسبهم، واستهزاؤهم[4]، وإيثار الموصول ﴿مَا﴾ دون غيره، لما يدلّ عليه مِن شمول وعموم مع الإيجاز والاختصار، فكانوا يستهزئون بكثرة، وبكلّ آيةٍ.

وجه التَّعبير بفعل الكينونة ماضيًا مجموعًا:

حالة الاستهزاء هــذه، كـانت فــي طبـعـهـم ومستمرّة معهم

أمّا عنِ التَّعبير بفعل الكينونة الماضي المجموع في قوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لأن المراد بهذا القول التَّعبير عن حالهم التي كانوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 148، 14/ 146.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 203، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 148.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 111.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 544.

عليها في الدّنيا وتحققوا بها، مِن الاستهزاء باللّه ورسله، وأن حالة الاستهزاء هذه كانت حالة مستمرة معهم حتّى إنه يمكن وصفها بالسجية والطبع والعادة.

نكتة حذف المضاف:

وجه الحذف المساواة بين الجزاء والفعل

حذف المضاف - على القول به - للإشارة إلى المساواة بين الجزاء والفعل، كأنّه هو[1]، أو أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة ورجّحه القونويّ[2]، بناءً على عدم الحاجة إلى تقدير مضاف محذوف بناءً عليه.

سرّ تقديم شبه الجملة (به):

التقديم للنّصّ على السّببية، ولرعاية الفواصل

قدَّم شبه الجملة (به) على العامل ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ للنصّ على السّببية بوصف مادّة استهزائهم وكيفيّتها هي علّة هلاكهم؛ فضلًا عن رعاية الفواصل[3].

إيثار فعل الاستهزاء دون الإنكار:

الاستهزاء أشد وأفظع من الإنكار

قال: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دون (ينكرون)؛ لأنّ الاستهزاء أشد وأفظع من الإنكار، فهو يتضمنه ويزيد عليه سفاهة وغرورًا واستكبارًا، وكل واحدة مِن هذه كبيرة مستقلة، وقد قال اللّه تعالى في أمثالهم من أهل الاستهزاء على وجه التهديد والوعيد: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التوبة: 65].

ثمّ إنّ المنكر الكافر الّذي لا يتعدّى أمره إلى الاستهزاء قد يؤجِّل اللّه عقابه إلى يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117] والمراد بقوله: ﴿بِظُلۡمٖ﴾ [هود: 117] أي بشرك[4]، بخلاف المستهزئ فإنه حري بأن يعجَّل عقابه في الدنيا كما دل عليه النص الكريم.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4171.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 267.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 147.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 530.

نكتة التَّعبير عن فعل الاستهزاء مضارعًا مجموعًا:

تمـادوا بالاستهزاء، وجدّدوا العهد به

في التَّعبير عن استهزائهم بصيغة المضارع وإسناده إلى جميعهم، ما يدلّ على أنّهم كانوا مُطبقين عليه، ومستمرين في نفس الوقت بحيث يجددون العهد به دائمًا، ويصطنعون له الفرص التي تدعوهم إلى تكراره.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(حاق) و(نزل) و(حاط):

(نـزل) أعمّ الثّلاثة، و(حاق) أخصّها و(أحاط) وسط بينهما

في الفرق بين (حاق) و(نزل) ذكر العسكري: أن النُّزول عام فِي كل شَيْء يُقال: نزل بِالمَكانِ، ونزل بِهِ الضَّيْف، ونزل بِهِ المكروه، وَلا يُقال: حاق إِلّا فِي نزول المَكْروه فقَط. تَقول: حاق بِهِ المَكْروه، يَحِيق حيقًا وحيوقًا، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يعني العَذاب؛ لأنهم كانوا إذا ذكر لَهُم العَذاب استهزأوا بِهِ، وأرادَ جَزاء استهزائهم[1]، فمعنى (حاق): أحاط، ثم خصَّ استعماله بإحاطة الشر، لا الخير.

وأمّا (أحاط)؛ فأصله الطواف حول الشيء، والمُحِيط بالشيء هو المطيف به من حوله بما هوَ كالسور الدائر عَلَيْهِ، يمنَع أن يخرج عنه ما هوَ مِنْهُ، ويدخل فِيهِ ما لَيْسَ فِيهِ[2]، ولا فرق في معنى الإحاطة بين أن تكون في خير أو شر.

وفي إيثار التَّعبير به هنا في الآية ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ما يفيد أن الهلاك قد نزل بهم على وجه قد أحاط بجوانبهم، بحيث لا يستطيعون الإفلات منه[3]، وعلى هذا، فـ (نزل) أعم من (أحاط) و(حاق)، و(حاق) أخص منهما؛ لأنه يطلق فقط على الإحاطة في الشر.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 304.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 94.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 203، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النّحل: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان هلاك مَن حاق بهم سوءُ استهزائهم، وهم يحتجّون على الرُّسُلِ بالقَدَرِ

لمّا ذكَرَ تَعالى ما هوَ عَجبٌ مِنْ مَقالِ الكُفّارِ ومآلِهم في سوءِ أحوالِهم، وخَتَمَ بتَهديدِهم؛ عَطفَ على قَولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ [النّحل: 24]، موجبًا آخرَ للتَّهديدِ، مُعَجِّبًا مِنْ حالِهم فيه، وهو الاعتِراضُ على مَنْ يَدْعوهُم إلى التَّوْحيدِ مِنْ نَبيٍّ وغَيرِه، مُحتجِّينَ بالقَدَرِ عِنادًا منهم بقولِهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ [النّحل: 35][1]. "هذا وكلُّ أحد يعلم بالحسِّ، قدرة الإنسان على كلِّ فعل يريده من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب اللّه، وتكذيب رسله، وتكذيب الأمور العقليَّة والحسيَّة"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرَّمۡنَا﴾: مِنَ الفِعْلِ حَرَّمَ يُحَرِّم تَحْريمًا، والحاءُ والرّاءُ والميمُ أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ المَنْعُ والتَّشْديدُ.

فالحَرامُ: ضِدُّ الحلالِ، والحَريمُ: حَريمُ البِئْرِ، وهوَ ما حَوْلَها، يُحَرَّمُ عَلَى غَيْرِ صاحِبِها أنْ يَحْفِرَ فيه، والحَرَمانِ: مَكَّةُ والمدينَةُ، سُمِّيا بِذَلِكَ لِحُرْمَتِهِما، وأنَّهُ حُرِّمَ أنْ يُحْدَثَ أوْ يُؤْوَى فيهِما مُحْدِثٌ، وأحْرَمَ الرَّجُلُ بالحجِّ؛ لِأنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ ما كانَ حَلالًا لَهُ مِنَ الصَّيْدِ والنِّساءِ وغَيْرِها[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 154.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 440.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم).

وقَوْله في الحديث القدسيِّ: "إنِّي حرَّمتُ الظُّلم على نَفسِي"[1]، من مجاز الكَلام، أي: تقدَّستُ وتعالَيْتُ عَنهُ، فإنَّهُ لا يَليق بي كالشَّيءِ المحرَّم المَمنوع على النّاس[2]، وتَجْتمِعُ كُلُّ اشْتِقاقاتِهِ في المَنْع[3]، فالتَّحْريمُ المرادُ في هَذِهِ الآيَة: أنَّهُم مَنَعوا عَلى أنفُسِهم ما لَم يَمنَعِ اللّهُ مِنْهُ مِنَ البَحيرَةِ والسّائِبَةِ ونَحوِها مِنَ الأنْعامِ والحرْثِ.

2) ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: بَلغَ الشَّيءُ يَبْلُغُ بُلوغًا وبَلاغًا؛ إذا وصَلَ وانْتَهَى، والباءُ واللّامُ والغَيْنُ أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الوصولُ إلى الشَّيْءِ، تَقولُ: بَلَغْتُ المَكانَ؛ إذا وصَلتَ إلَيْه، والبُلْغَةُ ما يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنْ عَيْشٍ، وكَذَلِكَ البَلاغَةُ الَّتي يُمدَحُ بِها الفَصيحُ اللِّسانِ؛ لِأنَّهُ يَبْلُغُ بِها ما يُريدُهُ، ولي في هَذا بَلاغٌ، أيْ: كِفايَةٌ[4]، فتَجْتَمِعُ هَذِهِ الأمثِلَةُ في وُصولِ الشَّيْءِ إلى غايَةٍ لَهُ: مكانٍ أو شيءٍ أو مَدًى مقصودٍ[5]، والبلاغ: الإبلاغ، وفي التَّنزيل: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجنّ: 23]، أي: لا أجد منجى إلّا أن أبلِّغ عن اللّه ما أرسلت به، والإبلاغ: الإيصال، وكذلك التَّبليغ، والاسم منه: البلاغ[6]، والبَلاغُ المرادُ في هذه الآيَة: إيصالُ دِينِ اللهِ ﷻ إلى العِبادِ عَلى يَدِ رُسُلِهِ، وقَدْ ورَدَ بِهَذا المَعْنى كَثيرًا في القُرْآنِ الكريم.

3) ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: بانَ الحَقُّ يَبِينُ بَيانًا، فهوَ بائِنٌ، وأبانَ يُبِينُ إبانَةً، فهوَ مُبِينٌ، بِمَعْنَى الظُّهورِ، والباءُ والياءُ والنّونُ أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ، فالبَيْنُ الفِراقُ، يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبُيونُ: البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ، والبَيْنُ: قِطْعَةٌ مِنَ الأرْضِ قَدْرُ مَدِّ البَصَرِ[7]، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزّخرف: 1 - 2]، أيْ: والكِتابِ البيِّنِ، وقيلَ: مَعْنَى المبينِ الَّذي أبانَ طُرُقَ الهدى مِنْ طُرُقِ الضَّلالَةِ، وأبانَ كُلَّ ما تَحْتاجُ إلَيْهِ الأُمَّةُ[8]، فيَكونُ البَلاغُ المبينُ في هَذِهِ الآيةِ بِمَعْنَى الواضِحِ في نَفْسِهِ، المَوَضِّحِ لِلعِبادِ سُبُلَ الهُدى والرَّشادِ.

---

(1) أخرجه مسلم، الصحيح، حديث رقم: (2577).
(2) عِياض، مشارق الأنوار: (حرم).
(3) الرّاغب، المفردات: (حرم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلغ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلغ).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (بلغ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (بين).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الاحْـتِـجـاجُ الباطِلُ بالمشيئة الإلـهـيـة، في القَضاءِ المقرَّر بالكُفْرِ والضَّلال

احْتَجَّ المشرِكونَ بقولِهم: لَو شاءَ اللّهُ أن نَعبدَه وحْدَهُ ما عبَدْنا أحدًا غيرَه، لا نحنُ ولا آباؤُنا مِن قَبْلِنا، ولا حَرَّمْنا شيئًا لم يحرِّمْهُ، بمثل هذا الاحْتجاجِ الباطِلِ احتَجَّ الكُفّارُ السّابقونَ، وهُم كاذبونَ، فإنَّ اللّه أمرَهم ونَهاهم ومَكَّنهم من القيامِ بما كلَّفهم به، وجعَلَ لهم قوَّةً ومَشيئةً تَصْدُرُ عنها أفْعالُهم، فاحْتِجاجهم بالقَضاءِ والقَدَرِ مِن أبْطَلِ الباطِلِ مِنْ بَعدِ إنذارِ الرُّسُلِ لهم، فليسَ على الرُّسُلِ المنذِرينَ لهم إلّا التَّبليغُ الواضحُ لما كُلِّفوا به[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾:

حِجاجُ الكفارِ لِرُسُلِهِم في القَصَصِ القُرآنيِّ، من البلاغِ المفصِحِ عن المراد

في قَولِه تَعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، عَطْفُ قِصَّةٍ عَلى قِصَّةٍ لحِكايةِ حالٍ مِنْ أحْوالِ الكفّارِ وشُبُهاتِهم ومُكابَرَتِهم، وبابٍ مِنْ أبْوابِ تَكْذيبِهم، وذَلِكَ أنَّهُم كانوا يُحاوِلونَ إفْحامَ الرَّسولِ ﷺ بأنَّهُ يَقول: إنَّ اللّه يَعْلَمُ ما يُسِرّونَ وما يُعْلِنونَ، وإنَّه القادِرُ عَلَيْهِم وعَلى آلهَتِهِم، وإنَّهُ لا يَرْضى بأن يُعْبَدَ ما سِواهُ، وإنّهُ يَنْهاهُم عَنِ البَحيرَةِ والسّائِبَةِ ونحْوِهِما، فحَسِبوا أنَّهُم خَصَموا النَّبيَّ ﷺ، وحاجّوه، فقالوا لَهُ: لَوْ شاءَ اللّه أن لا نَعْبُدَ أصْنامًا؛ لما أقْدَرَنا عَلى عِبادَتِها، ولَوْ شاءَ أن لا نُحَرِّمَ ما حَرَّمْنا مِنْ نَحْوِ البَحيرَةِ والسّائبَةِ؛ لما أقَرَّنا عَلى تَحْريمِ ذَلِكَ، وذَلِكَ لقَصْدِ إفْحامِه وتَكْذيبِه[2].

دلالة التعبير بالماضي (قالَ):

إضْرارُ المشْرِكينَ على التَّكْذيبِ، واسْتِمرارُهُم في الاحْتِجاجِ الباطِلِ

وَرَدَ الفِعلُ (قالَ) في قَولِه تَعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾، بِصيغَةِ الماضي، للإخْبارِ بأنَّ مقولَتَهم هَذِهِ قَديمَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ؛ وذَلِكَ أنَّ الإخبارَ

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 271.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 147.

عَنِ الشَّيْءِ بِصيغَةِ الماضي، يَقْتَضي كَوْنَ المُخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا على ذَلِكَ الإِخْبارِ[1]، والإِخْبارُ كَذلكَ بالماضي مُضَمَّنُهُ الدَّوامُ والاسْتِمرارُ[2]، فالمشْرِكونَ مُسْتَمِرّونَ في تَكْذيبِهم، ويَتَحَجَّجونَ بالحُجَّةِ الباطِلَةِ تِلوَ الأُخْرى، لتحقيق مآربهم، والسَّعي الحثيث لتقويض صِدقيَّة القرآن ومصداقيَّته، والتَّهوين من إعجازه وإنجازه، حتّى تنصرف عنه القلوب ولا تولع به، فخاب سعيهم، وباؤوا بالخسران المبين.

دَلالَةُ العُدولِ في قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾:

الشِّرْكُ سَبَبُ جِدالِ الرُّسُلِ وعَدَمِ تَصْديقِهِم فيما بلغوا عن الله

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ العُدولُ عنِ الإِضْمارِ إلى المَوْصولِ، حيثُ لَم يَقُلْ: (وَقالوا) لِتَقْريعِهِم بِما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وذَمِّهِم بِذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ الأمرِ[3]، فوَضْعُ المَوْصولِ مَوْضِعَ الاسْمِ يَسْمَحُ بِوَصْفِهِ بِجُملةِ الصِّلةِ؛ وذَلِكَ للإِشْعارِ بِعِلَّةِ الحكْمِ.

دَلالَةُ عَدَمِ ذِكْرِ المَفْعولِ بِهِ في الآيةِ:

حَذْفُ ما يُعْلَمُ جائِزٌ؛ إذا دَلَّ عَلَيْهِ دَليلٌ في سياق الكلام

لم يَذْكُرِ السِّياقُ القُرآنيُّ المَفْعولَ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾، فلم يَقُلْ: أَشْرَكوا بِاللّه، كَما في قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ [لقمان: 13]؛ لِأَنَّ ذلكَ مَعْلومٌ، والغالِبُ المستفيضُ من استِعْمالِ لَفْظِ الإِشْراكِ في القرآنِ، أَنَّ مَعْناهُ الإِشْراكُ باللّه، ومِنَ المقَرَّرِ أَنَّه مَتى كان الفِعْلُ نَصًّا في مَطْلوبِهِ؛ لا يُذْكَرُ المتَعَلِّقُ بِهِ[4] إلّا لِغَرَضٍ بَلاغِيٍّ آخَرَ مَقْصودٍ، كما أن ورود قرينة ظاهرة أو مُلمِّحة في السّياق تُنبِئُ عن المحذوف مما يجيز الحذف مُراعاةً للاختصار، وتوخّيًا للإيجاز.

دَلالَةُ ﴿لَوۡ﴾ الشَّرْطِيَّةِ في الآيةِ الكريمةِ:

شُبْهَةُ الكُفّار بالاحْتِجاجِ بالمشيئَةِ الإِلهِيَّةِ، على كُفْرِهِم بكمال الوحدانيَّة

وَرَدَتْ كَلِمَةُ ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 377.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 112.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 7904.

﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾؛ لِلدَّلالَةِ عَلى امتِناعِ الشَّيْءِ لامتِناعِ غَيْرِه، فإذا دَخَلَتْ عَلى النَّفْيِ؛ يَصيرُ بِمَعْنى الإثْباتِ، ولَوْ دَخَلَت عَلى الإثْباتِ؛ صارَ بمَعْنى النَّفْي[1]. فاحْتَجَّ الكُفّارُ بِقَوْلِهم: إنَّ ما شاءَ اللّه تَعالى؛ يجبُ، وما لم يَشَأْ؛ يمتَنِع، فلَوْ أنَّهُ شاء أن نوَحِّدَهُ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، ولا نُحرِّمَ ممّا حَرَّمنا شَيْئًا -كَما يَقولُ الرُّسُلُ ويَنْقُلونَه مِنْ جِهَةِ اللّهِ ﷻ - لَكانَ الأمرُ كَما شاءَ مِنَ التَّوْحيدِ ونَفْيِ الإشْراكِ وما يَتْبَعُهُما، وحَيْثُ لم يَكُنْ كَذَلِكَ؛ ثَبَتَ أنَّهُ لم يَشَأْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وإنَّما يَقولُه الرُّسُلُ مِن تِلقاءِ أَنْفُسِهم[2]. فأَبْطَلَ اللّه حُجَّتَهُم هَذِهِ، بِأنَّ وظيفَةَ الرُّسُلِ تَبْليغُ الرِّسالَةِ فقَط، دونَ التَّوْفيقِ لِلهِدايَةِ.

غرضُ حَذْفِ المفْعولِ في قوله: ﴿لَوْ شَآءَ﴾:

بَلاغَةُ الحذْفِ والإضْمارِ مُقَدَّمَةٌ عَلى الإظْهارِ

يُحذَفُ المفعولُ بِهِ بَعْدَ فِعْلِ المشيئَةِ في سِياقِ الشَّرْطِ اسْتِغْناءً بِدَلالَتِهِ في الجوابِ عَلَيْهِ؛ لما فيهِ مِنْ دَقيقِ الصَّنْعَةِ ومِنْ جَليلِ الفائِدَةِ، فهو إضمارٌ عَلى شَريطَةِ التَّفْسيرِ، فيُعْطي هَذا الحذْفُ النَّظْمَ حُسْنًا وغَرابَةً؛ وذَلِكَ أنَّ في البَيانِ إذا ورَدَ بَعْدَ الإبهامِ، وبَعْدَ التَّحْريكِ لَهُ لُطْفًا ونُبْلًا، لا يَكونُ إذا لم يَتَقَدَّم ما يُحرِّكُ، فمَتى عَلَّقَ المتَكَلِّمُ أمرًا بِمَشيئَةٍ؛ عَلِمَ السّامِعُ أنَّهُ يُعَلِّقُ هَذِهِ المشيئَةَ في المعْنى بِشَيءٍ، فهوَ يَضَعُ في نَفْسِهِ أنَّ هَهُنا شَيْئًا تَقْتَضي مَشيئَتُه لَهُ أنْ يَكونَ، أوْ أنْ لا يَكونَ، غَيْرَ أنَّهُ لا يَظْهَرُ؛ لأنَّ الواجِبَ في حُكْمِ البلاغَةِ، أنْ لا يُنْطَقَ بالمفْعولِ بِهِ المحْذوفِ، وأنْ لا يَظْهَرَ في السِّياقِ، ومَتى ظَهَرَ؛ صارَ الكَلامُ غَثًّا، يَمُجُّهُ السَّمعُ، وتَعافُهُ النَّفْسُ[3].

دَلالَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

التَّحْريمُ والتَّحْليلُ مِنْ خَصائِصِ الألُوهيَّةِ

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ﴾ اسْمُ الجَلالَةِ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/ 61.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 112.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 163.

دونَ لَفْظِ الرُّبوبِيَّةِ، كَما في قوله: ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصّلت: 14]، أوِ الرَّحْمانيَّة، كَما في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾؛ لأنَّهُ الأنْسَبُ للسّياقِ الَّذي هوَ احْتِجاجُهُم بالمشيئَةِ عَلى عِبادَةِ الأصْنام، وتَحْريمِ ما أحَلَّهُ اللّه، فإنَّ التَّحْريمَ والتَّحْليلَ عِبادَةٌ، وهِيَ مِنْ حُقوقِ تَوْحيدِ الألوهيَّة، فجاءَ النَّظْمُ باسم الجلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للدَّلالَةِ عَلى أنَّهُ الإلَهُ الحقُّ، وأنَّهُ لا شَرِكَةَ لِغَيْرِه في الإلهيَّةِ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ(1).

سرُّ حكاية احتجاجهم في قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

الاحْتِجاجُ بِالقَضاءِ والقدَرِ على الضَّلال من أبْطَلِ الباطِل

في قوله تعالى: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ احْتَجَّ الكُفّارُ عَلى النَّبيِّ ﷺ بأنَّ ما هُم عَلَيْه لَوْ لم يَكُنْ بِرضى اللّه تعالى لَصَرَفَهُم عَنْهُ، فحَسِبوا أنَّهُ حينَ لم يمسك عِنانَ أفْعالِهم، كانَ قَدْ رَضِيَ بما فعَلوهُ، وأنَّهُ لَوْ كانَ لا يَرْضى بِهِ؛ لما عَجَزَ عَنْ سَلبِ تَمَكُّنِهِم، وبِهَذا ظَهَرَ تَخْليطُ أهْلِ الضَّلالَةِ بَيْنَ مَشيئَةِ العِبادِ ومَشيئَةِ اللّه، وجَعَلوا ما هوَ مَشيئَةٌ لَهم مَشيئَةً للّه تَعالى، وهَذِهِ المشيئَةُ الَّتي اعْتَلّوا بِها مَشيئَةٌ خَفِيَّةٌ، لا تَتَوَصَّلُ إلى الاطِّلاعِ عَلى كُنْهِها عُقولُ البَشَرِ(2)، وبِمِثْلِ هَذا الاحْتِجاجِ الباطِلِ احْتَجَّ الكفّارُ السّابِقونَ، وهُم كاذِبونَ؛ فإنَّ اللّه أمَرَهُم، ونَهاهُم، ومَكَّنَهُم من القِيامِ بما كَلَّفَهُم بِهِ، وجَعَلَ لَهُم قوَّةً ومَشيئَةً تَصْدُرُ عَنْها أفْعالُهُم، فاحْتِجاجُهُم بِالقضاءِ والقدَرِ مِن أبْطَلِ الباطِل، مِن بَعْدِ إنْذارِ الرُّسُل لهُم، فلَيْس عَلَى الرُّسُلِ إلّا البَلاغُ(3)، وهم منفِّذون للمشيئة، مبلِّغون رسالات اللّه لا يعصونه في التَّلقّي، ولا يتقاعسون في البلاغ، وتحجَّج هؤلاء الكفرة بأنَّ ما يلاحظ عنهم من كفر مقيت، وتآمر مهلك مميت، ليس بإرادتهم، بل هو مفروض عليهم؛ لأنَّ اللّه لو أراد لهم الهداية؛ لكانوا مهتدين،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 437.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 147.
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 271.

وهذا يُعدُّ مغالطة ماكرة، يريدون بها التَّنصُّل من مسؤوليّاتهم في توخّي الشِّرك، واعتناق الكفر، والإيغال فيه، وذلك دأبهم في كلِّ مواجهة مع الرُّسل الَّذين يحذِّرونهم من مغبَّة ذلك؛ لأنَّه سيحرمهم من لذَّة العبادة، ويمنعهم من شرف الانضواء تحت راية الإسلام، المبنيَّة على العبوديَّة الحقَّة للمعبود، والخشية الرّاسية في القلوب، لعظمة موجد الوجود.

بَلاغَةُ الإطْنابِ في الآية الكريمة:

خُطورَةُ الوُقوعِ في الشِّركِ بِتَحْريمِ ما لَم يَأْتِ الشَّرْعُ بِتحْريمِه

وَرَدَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾، إطْنابٌ بِتكرار شبه الجملة ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ بعد ﴿مَا عَبَدۡنَا﴾ و﴿وَلَا حَرَّمۡنَا﴾، وهَذا الإطْنابُ مُناسِبٌ لِمُقْتَضى الحالِ؛ لأنَّ سورَةَ النَّحْلِ بَسَطَتْ نِعَمَ اللّه ودَلائِلَ وحْدانِيَّتِه، وأكْثَرَتْ في تَذْكيرِ الكُفّارِ ووَعْظِهِم، فناسَبَ الإطنابُ ذَلِكَ الإسْهابَ الوارِدَ فيها[1].

مَعْنى لَفْظِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ودلالته:

مُشابَهةُ أقْوالِ قُرَيْشٍ لأقْوالِ الأمَمِ المُكَذِّبَةِ قَبْلَها، لالتقائهما في المعتقد

جاءَ في قولِهِ تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، التَّعْبيرُ القرْآنيُّ في الآيةِ بِلَفْظِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وهوَ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ محذوفٍ، تَقْديرُهُ: (فَعَلوا فِعْلًا كَذَلِكَ فعَلَهُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهم)، والفِعْلُ هُنا أُطْلِقَ عَلى القوْلِ، وهوَ التَّكْذيبُ، أيْ: قالوا قَوْلًا مِثْلَ قَوْلِهِم جاريًا عَلى ذَلِكَ المِنْهاجِ الصّادِرِ عَنْ مجَرَّدِ الهوى، والنُّكْتَةُ البلاغيَّةُ فيه أنَّ لَفْظَ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ اطَّرَدَ في تَأْكيدِ الأمرِ وتَحْقيقِه، حَتّى كَأنَّهُ سُلِبَ عَنْهُ مَعْنى التَّشْبيهِ، فقوله: ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ يدلُّ على تماثُلِ الفعلين وتَوافُقِهِما في الصِّفاتِ والغاياتِ وما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِما مِنَ الذَّمِّ[2].

---

(1) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 172.

(2) الشّهاب، عناية القاضي: 2/ 224.

بَلاغَةُ المشابَهَة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ﴾:

الكُفْرُ مِلَّةٌ واحِدَةٌ، والتَّحْذيرُ مِنْ عاقِبَةٍ مُماثِلَة

في قَولِهِ تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، تَظْهَرُ بَلاغَةُ تَشْبيهِ قُرَيْشٍ بالأُمَمِ السّابِقَةِ في التَّكْذيبِ والإشْراكِ، وتَحْريمِ أشْياءَ مِنْ تلقاءِ أنْفُسِهِم، فهوَ تَشْبيهٌ لِلقَولِ بِالقَولِ في المؤَدّى والمحْصول، وكذلكَ في الصّدورِ عَنْ مجرَّدِ التَّشَهّي والهوى والعَصَبيَّة[1]، وكَذَلِكَ فيه تَشْبيهٌ لِعاقِبَتِهِم إنِ اسْتَمَرّوا في تَكْذيبِ النَّبيِّ ﷺ بِعاقِبَةِ مَنْ سَبَقَهُم في الهلاكِ والدَّمارِ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ باللَّفظ ﴿فَعَلَ﴾:

عُمومُ لفظ الفعل شامل لِكُلِّ أصناف التَّكذيب

أشارَ سُبحانَهُ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، إلى أنَّ قُرَيْشًا اسْتَنَّتْ بِسُنَّةِ الأُمَمِ المشْرِكَةِ مِنْ قَبْلِها، فقالوا مِثْلَ قَوْلِهِم، وسَلَكوا سَبيلَهُم في تَكْذيبِ رُسُلِ اللّه، واتِّباعِ أفْعالِ آبائِهِم في الضَّلالِ، وعَبَّرَ عن القولِ هُنا بالفعْلِ؛ لأنَّهُ يتضمَّنُه، فلَفْظُ ﴿فَعَلَ﴾ أحَدُ الكلِماتِ المشْتَرَكاتِ الَّتي هُنَّ أُمَّهاتُ الأحْداث، مِثْل: عَمِل وجعَل وطَفِق وأنْشَأ وأقْبَلَ، إلّا أنَّ بَعْضَها أعَمُّ من بعض، وأكْثَرُها عُمومًا ﴿فَعَلَ﴾؛ لأنَّهُ يَقَعُ عَلى كُلِّ حَرَكَةٍ من الإنْسانِ قَولًا أوْ عَمَلًا أوْ هَمًّا يَهمُّ بِهِ، فناسَبَ التَّعْبيرُ بِهِ في هَذِهِ الآيَة، لِيَشْمُلَ كُلَّ أصْنافِ تَكْذيبِهِم[2].

دلالَةُ الإمهالِ بالاستدلال بأفعال السابقين:

تَهْديدُ قُريشٍ بأنَّ الله يمهل ولا يهمل

وَرَدَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ تَنْظيرُ تَكْذيبِ قُريشٍ بِتَكْذيبِ الأُمَمِ السّابِقَةِ لِرُسُلِها، وفي هَذا تَهْديدٌ لِقُريشٍ أنّهم فعَلوا كَفِعْلِهِم، وقَدْ كانَتْ عاقِبَةُ السّابِقينَ الهلاكَ، فلَوْ كان فِعْلُهُم مُرْضِيًا للّه لما أهْلَكَهُم، فهَلّا اسْتَدَلّوا بِهَلاكِهِم عَلى أنَّ اللّهَ غَيْرُ راضٍ بِفِعْلِهِم، فإنَّ دَلالَةَ الانْتِقامِ أظْهَرُ مِنْ دَلالَةِ الإملاءِ؛ لِأنَّ دَلالَةَ

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 2/ 224.

(2) الواحديّ، البسيط: 7/ 550.

الانْتِقام وُجودِيَّةٌ، ودَلالَةَ الإمهالِ عَدَمِيَّةٌ[1]، واللّه عادلٌ في العقوبة، كما هو عادلٌ في المكافأة، وهو لا يهمل من استحقَّ العقاب، ولا يغفل عمّن ترتَّب عليه العذاب، إلّا ما يدخل في وعده بغفران ذنوب من تاب؛ لأنَّ للإهمال سياقًا دلاليًّا، مخالفًا لدلالة الإمهال.

نُكْتَةُ الاسْمِ المَوْصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عُمومُ العَذابِ القريب لِكُلِّ مَنْ جابه رُسُلَ الله بالتَّكذيب

ورَدَ التَّعْبير في قَولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، بالاسْم المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الدّالِّ عَلى العُموم، لِيَشْمُلَ كُلَّ الأمَم السّابِقَة الَّتي فعَلَتْ مِثْلَ فِعْلِ قُرَيْشٍ: مِنْ كُفْرٍ، ومُعانَدَةٍ للرُّسُلِ، ومُخالَفَةِ أوامِرِ الواحِدِ القهّارِ، فأهْلَكَهُم اللهُ الجبّارُ[2]، وفي هَذا تهْديدٌ لِقُرَيشٍ بمصيرٍ يُشْبِهُ مَصيرَ مَنْ سَبَقَها من الأمَمِ المكذِّبَة.

دَلالَةُ الضَّميرِ ﴿نَّحۡنُ﴾ في السّياق:

بيان تأكيد الضَّميرِ المتَّصِلِ بالضَّمير المنْفَصِلِ في الآيةِ الكريمة

وَرَدَ في قَولِه تَعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الضَّميرُ المنْفَصِلُ ﴿نَّحۡنُ﴾، والغَرَضُ مِنْهُ: تَأْكِيدُ الضَّميرِ المتَّصِلِ في الفِعْلِ ﴿عَبَدۡنَا﴾، وكَذَلك حَصلَ بِهِ تَصْحيحُ العطْفِ عَلى ضَميرِ الرَّفْعِ المتَّصِلِ[3]، ونَفى بَعْضُهُم وُجوبَ إعادَةِ الضَّميرِ هُنا لِتَصْحيحِ العَطْفِ[4]، بِحُجَّةِ وُجودِ الفواصِلِ مِنَ الجارِّ والمجرورِ في ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾، فتَكونُ إعادَتُهُ لِتَحْسينِ العَطْفِ لا لِتَصْحيحِه.

دَلالَةُ إعادَةِ ضَميرِ النَّفْي (لا) في الآية:

تَأْكِيدُ النَّفْي السّابِقِ، بِنَفْيٍ جَديدٍ، لِتَقْوِيَةِ المعْنى

وَرَدَ في قَولِه تَعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ إعادَةُ حَرْفِ النَّفي (لا) في عِبارَة: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، بَعْد ﴿مَا﴾ النّافِيَةِ في قَوْلِه: ﴿مَا عَبَدۡنَا﴾، والنُّكْتَة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 148.
(2) محمّد علي الدّرّة، إعراب القرآن: 5/ 181.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 148.
(4) صديق حسن خان، فتح البيان: 7/ 239.

البَلاغيَّةُ فيهِ هي تَأْكيدُ النَّفي السّابِقِ المسْتَفادِ مِنْ لَفظِ النَّفْي (ما) عَلى طَريقةِ العَرَبِ في المعْطوفِ عَلى ما في حَيِّزِ النَّفْي، وهو اسْتِعْمالٌ قُرْآنيٌّ بَديعٌ في عَطْفِ المنْفيّاتِ مِنَ المفْرَداتِ والجُمَلِ[1].

بلاغةُ الجارِّ والمجْرورِ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

كلُّ ما عُبِدَ من غيرِ الله فهو مهين

في قَولِه تَعالى: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾، أَدْخَلَ المشْرِكونَ الجارَّ والمجْرورَ: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، اعْترافًا مِنْهُم أَنَّ كُلَّ ما كانوا يَعْبُدونَهُ مِنَ الأَصْنام مُتَقاصِرٌ عَنْ رُتْبَةِ اللّه ﷻ في العبادَةِ، وتَقريرًا مِنْهُم أَنَّ الأَصْنامَ في أَدْنى رُتْبَةٍ[2]، وأَنَّ في عبادة ما هو دونٌ تعريضًا منهم بالعقول السَّفيهة الَّتي لا تُميِّز بين خالق ومخلوق، ولا تعرف للّه وقاره، فعبدوا من هو مَهين؛ إشعارًا لهم بالدّونيَّة والحقارة، حيث إنَّهم أقرّوا بأنَّ توجُّههم بالعبادة إلى الحقير الدّون، وتركهم عبادة العزيز الَّذي كلُّ الوجود بأمره مرهون؛ مستنكرٌ ضمنًا، ومفهومٌ بالتَّلميح، ناهيك عن التَّصريح في مواطن من القرآن أثيرة، ومواقع مبثوثة كثيرة.

دَلالَةُ حَرْفِ الجرِّ في ﴿مِن شَيۡءٖ﴾:

احْتِجاجُ الكُفّارِ بالمشيئةِ على كُلِّ أنْواعِ شِرْكِهِم

وَرَدَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ إِدْخالُ ﴿مِن﴾ الاسْتِغْراقيَّةِ عَلى لَفْظِ ﴿شَيۡءٖ﴾ مُبالَغَةً في النَّفْي؛ لأَنَّ حَرفَ الجرِّ (مِن) مِنْ مَعانيها الاسْتِغْراقُ، فتَدْخُلُ لابْتِداءِ الجِنْسِ إِلى انْتِهائِه، واكْتَفى بِذِكْرِ (مِن) عَنْ ذِكْرِ (إِلى) لِدَلالةِ إِحْدى الغايَتَيْنِ عَلى الأُخْرى[3]، وتَتَجَلّى دَلالَةُ زِيادَةِ ﴿مِن﴾ في مفعولَي الفِعْلَيْنِ ﴿عَبَدۡنَا﴾، و﴿حَرَّمۡنَا﴾ المنْفيَّيْنِ في المُبالَغَة في اسْتِغْراقِ نَفْي كُلِّ أَنْواعِ شِرْكِهِم الَّذي رَبَطوهُ بمشيئَةِ اللّه احْتِجاجًا عَلى اللّه بُهْتانًا وزورًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 294.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 154.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/ 444.

دُخولُ (ما) عَلى الماضي القَريب مِنَ الحال، لِنَفْي الماضي والحال

دَلالَةُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا عَبَدْنَا﴾:

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ الفِعْلُ الماضي ﴿عَبَدْنَا﴾ مَنْفِيًّا بِأداةِ النَّفي ﴿مَا﴾؛ لأنَّهُ وقَعَ جَوابًا لِحَرْفِ ﴿لَوْ﴾ الشَّرْطِيّةِ، والمقَرَّرُ في النَّحوِ أنَّ جَوابَ (لَوْ) إمّا أنْ يَكونَ فِعْلًا ماضِيًا مُثْبَتًا أوْ مَنْفِيًّا بـ (ما)، والغالِبُ عَلى المثْبَتِ دُخولُ اللّامِ عَلَيْهِ، كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: 65]، ومِنْ تَجَرُّدِهِ مِنْها قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: 70]، والغالِبُ عَلى المنْفِيِّ تَجَرُّدُهُ مِنْها، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: 112]، أوْ مُضارِعًا مَنْفِيًّا بـ (لَم)، كقَوْلِ عُمَرَ: (لَوْ لم يَخَفِ اللّهَ لم يَعْصِهِ)[1]، وكَذلكَ لا تَدْخُل (ما) عَلى ماضٍ إلّا وهوَ قَريبٌ مِنَ الحالِ[2]، فمَعْنى النَّفْيِ بِها في هَذِهِ الآيَةِ: أنَّهُم يَحْتَجّونَ بِأنَّهُ لَوْلا مَشيئَةُ اللّهِ النّافِذَةُ؛ لانْتَفى عَنْهُم عِبادَةُ غَيْرِهِ في الماضي وفي الحالِ.

بَيانُ شُيوعِ الشِّرْكِ في عَرَبِ الجاهِلِيَّةِ

دَلالَةُ إسناد الفعل في ﴿عَبَدْنَا﴾:

اتَّصَلَ الفِعْلُ في قوله: ﴿مَا عَبَدْنَا﴾ بِضَميرِ الرَّفْعِ (نا) الخاصِّ بالمتَكَلِّمِ المشارِكِ غَيْرَهُ للدَّلالَةِ عَلى أنَّ فِعْلَ الشِّرْكِ صادِرٌ مِنْ جماعاتٍ، والعرَبُ في الجاهِلِيَّةِ أشْرَكوا مَعَ عِبادَةِ اللّهِ عِبادَةَ غَيْرِهِ، وهَذا حالُ مُعْظَمِ العرَبِ ممَّنْ عَبَدَ الأصْنامَ، أوْ عَبَدَ الكَواكِبَ، فقَدْ عَبَدَتْ ضَبَّةُ وتَيْمٌ وعُكَلُ الشَّمسَ، وعَبَدَتْ كِنانَةُ القمَرَ، وعَبَدَتْ لَخْمٌ وخُزاعَةُ وبَعْضُ قُرَيْشٍ الشِّعْرى، وعَبَدَتْ تميمٌ الدَّبَرانَ، وعَبَدَتْ طَيِّئٌ الثُّرَيّا، وهؤُلاءِ كُلُّهُم جَعَلوا الآلهَةَ بِزَعْمِهِم وسيلَةً يَتَقَرَّبونَ بِها إلى اللّهِ تَعالى[3].

يجبُ إفْرادُ الله ﷻ بالتَّحليل والتَّحْريم كما يُفْرَدُ بالعبادَةِ

دَلالَةُ ذِكْرِ الخاصِّ بَعْدَ العامِّ في الآيَة:

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ

---

(1) محمود صافي، الجدول: 11/ 94.

(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/ 311.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 185.

﴿نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ ذِكْرُ خاصٍّ بَعْدَ عامٍّ، فالعبادَةُ لَفْظٌ عامٌّ لِكُلِّ ما يُتَقَرَّبُ بِهِ إلى اللَّه ﷻ، ثُمَّ خَصَّصَ مِنْ هَذا العُمومِ التَّحْريمَ، وهوَ مِنْ أفْرادِ العبادَةِ، فإنَّ التَّحْليلَ والتَّحْريمَ مِنَ التَّشْريعِ الَّذي يَجِبُ عَلى العبادِ إفْرادُ اللَّهِ ﷻ بِهِ كَإفْرادِهِ بِالعبادَةِ، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ [يونس: 59]،

وتَتَجَلّى دَلالَةُ ذِكْرِ الخاصِّ بَعْدَ العامِّ في الاهْتِمامِ بِذَلِكَ الخاصِّ والتَّنْويهِ بِشَأْنِهِ[1]، فالمشْرِكونَ مَعَ عِبادَتِهِم لِغَيْرِ اللَّهِ حَرَّموا عَلى أَنْفُسِهِم أُمورًا أخرى، كَبَعْضِ الأَنْعامِ مِنَ البحيرَةِ والسّائِبَةِ، وأَنْواعٍ مِنَ الحرْثِ، فازْدادوا بِذَلِكَ شِرْكًا عَلى شِرْكٍ.

دلالة الفاء الفصيحة في قوله: ﴿فَهَلۡ﴾:

وُجود شَرْطٍ مُقَدَّرٍ للإبانة عن المعنى المستفاد من السّياق

وَرَدَ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، الاسْتِفْهامُ مَقْرونًا بِفاءٍ تُسَمّى الفاءَ الفصيحَةَ؛ لِأَنَّها أَفْصَحَتْ عَنْ جوابِ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ، تَقْديرُهُ: إذا عَرَفْتَ فِعْلَ هَؤُلاءِ، وفِعْلَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِم، وأَرَدْتَ بَيانَ ما عَلى الرُّسُلِ؛ فأقولُ لَكَ: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[2]، وذلك منهج اللّه في بعث الرُّسل، وتحديد مهمَّة البلاغ الَّتي تناط بالحامل للرِّسالة، لكي ينهض لها بعزمه وقوته وهمَّته، ولا يتقاعس في أدائها، أو يعلِّل النَّفس بالأماني البعيدة، ويترخَّص في التَّثاقل والتَّهاون، توقّيًا من البلاء المحتوم، والأذى الموقن الَّذي يصيب من يدعو إلى غير اللّه، ويحمل النّاس على غير ما يألفون، وذلك أمر واقع، ما له من دافع، وهو مبسوط في قصص الأنبياء قاطبة.

دَلالَةُ أداة الاستفهام في ﴿فَهَلۡ﴾:

وَرَدَ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الاسْتِفْهامُ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/ 204.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 224.

الإنكار على المشركين شناعة أقوالهم وأفعالهم

بحَرْفِ (هَل)، والأصْلُ فيهِ أنَّهُ حَرْفُ اسْتِفْهامٍ يَرِدُ لِأَجْلِ الاسْتِخْبارِ عَنِ الشَّيْءِ، غَيْرَ أنَّهُ قَدْ يَخْرُجُ الاسْتِفْهامُ بِهِ لِأَجْلِ النَّفْيِ، فيَكونُ مَعْناهُ مِثْلَ مَعْنى (ما) النّافِيَةِ[1]، والدّليلُ عَلى كَوْنِهِ بمَعْنى النَّفْيِ وُقوعُ الاسْتِثْناءِ المفرَّغِ بَعْدَهُ[2] كَما في هَذِهِ الآيَةِ، ونَظيرُهُ بالنَّفْيِ قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: 54، والعنكبوت: 18]، ويُسَمّى اسْتِفْهامًا إنْكاريًّا.

والغرَضُ البلاغيُّ مِن الاستفهامِ هنا هوَ حَملُ المخاطَبِ عَلى الإنْكارِ بأمرٍ عُلِمَ عِنْدَهُ نَفيُهُ[3]، كَأنَّ السّائِلَ يَسْألُ المسؤولَ لِيُقِرَّ بِنَفْيِ المسؤولِ عَنْهُ، والمعْنى: إذا بَلَّغَتْهُمُ الرُّسُلُ أمرَ رَبِّهِم ونَهْيَهُ، واحْتَجّوا عَلَيْهِم بالقدَرِ، فلَيْسَ للرُّسُلِ مِنَ الأمرِ شَيْءٌ، وإنَّما حسابُهُم عَلى اللّه ﷻ، فلَم يَبْقَ لِأحَدٍ عَلى اللّه حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، ولا مفرَّ لأحد ممّا يشاء اللّه ويختار؛ لأنَّه تعالى بيده المقادير، والرُّسل ينتهي دورهم عند البلاغ، وأداء الأمانة بحكمة ورزانة وصدق، وبعدها سوف يرجع الأمر والقرار، إلى اللّه الواحد القهّار.

بَلاغَةُ أُسْلوبِ القَصْرِ في الآيَةِ الكريمة:

تأكيد قصر وظيفةِ الرُّسُلِ عَلى البَلاغِ دونَ الهِدايَةِ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، قَصْرٌ مُسْتَفادٌ مِنْ جَمعِ الاسْتِفْهامِ القائِمِ مَقامَ النَّفْيِ والاسْتِثْناءِ، وهوَ قَصْرُ مَوْصوفٍ عَلى صِفَةٍ[4]؛ إذْ يَقْتَضي انْحِصارَ أوْصافِ الرُّسُلِ عليهم السلام في التَّبْليغِ، وذَلِكَ قَصْرٌ إضافيٌّ لِقَلبِ اعْتِقادِ المشْرِكينَ بِأنَّ الهِدايَةَ بِأيْديهِم.

دَلالَةُ حرف الجرِّ في قوله: ﴿عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾:

وجوبُ البَلاغِ عَلى الرُّسُلِ امتِثالًا لأمرِ المرسِلِ ﷻ

وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، النَّصُّ عَلى وُجوبِ التَّبْليغِ في حَقِّ الرَّسُلِ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ، بِإيرادِ

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 342.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 99.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 3/ 253.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 09/ 195.

حَرْفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾، وهوَ مِنَ الأساليبِ الخبَرِيَّةِ الدّالَّةِ عَلى الوُجوبِ: كالأمرِ، والتَّصْريحِ بالإيجابِ، والفَرْضِ، والكَتْبِ، ولَفْظَةِ (حَقٌّ على العبادِ وعلى المُؤمنينَ)[1]. بَل هوَ مِنْ أوْكَدِ ألفاظِ الوجوبِ عِنْدَ العرَبِ، فإذا قالَ العَرَبيُّ: لِفُلانٍ عَليَّ كَذا؛ فقَدْ وكَّدَهُ وأوْجَبَهُ، ولِهَذا ذَكَرَ اللّه سُبْحانَهُ الحجَّ بِأبْلَغِ ألفاظِ الوجوبِ؛ تَأْكيدًا لِحَقِّهِ، وتعْظيمًا لحُرْمَتِه، وتَقْوِيَةً لِفَرْضِه، بِقَوْلِه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97][2].

سرُّ التقييد بِلَفْظِ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾:

بَـلاغُ الـرُّسُـلِ قـاطِـعٌ لـلـعُـذْرِ، وموجِبٌ لِلجَزاء

جاءَ التَّعْبيرُ بِلَفْظِ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾؛ وصْفًا لِلْبَلاغِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، والنُّكْتَةُ فيه: أنَّهُ عَلى وزْنِ مُفْعِلٍ بمعْنى فَعيلٍ، أيْ: بَلاغًا بَيِّنًا في نَفْسِه، موَضِحًا لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهُ ما يُرادُ مِنْهُ، مُؤَيَّدًا بالأدِلَّةِ القَطْعِيَّةِ مِنَ الحُجَجِ القَوْلِيَّةِ والفِعْلِيَّةِ بِالمعْجِزاتِ وغَيْرِها[3]، فهَذا البَلاغُ يوَضِّحُ عُذْرَ الرُّسُلِ عليهم السلام، بِأنَّهُم أتَمّوا ما أُمِروا بِه عَلى الوجْهِ الأكْمَلِ، قَطْعًا لِلعُذْرِ عَنْ عَدَمِ امتثالِ ما جاؤوا بِهِ مِنْ أوامِرَ ونَواهٍ[4]، ولا يتصوَّرُ أحدٌ أن يكون من الرَّسول - مهما امتدَّ زمانه، أو تقدَّم أو تأخَّر أوانه - تعمُّد التَّخلّي عن مهمَّة التَّبليغ الَّتي هي من قبيل التَّكليف، مع كونها أيضًا موسومة بالفخار والتَّشريف.

بَلاغَةُ التَّذْييلِ في الآية:

تَسْلِيَةُ النَّبيِّ ﷺ، بِذِكْرِ وظيفَةِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ

خُتِمَتْ هَذِهِ الآيةُ بِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ تَذْييلًا لما سَبَقَ مِنْ مَقالَةِ الكُفّارِ، فأثْبَتَ الحكْمَ لِعُمومِ الرُّسُلِ عليهم السلام - وإنْ كانَ المَرْدودُ عَلَيْهِم لم يخْطُرْ ببالِهم أمرُ الرُّسُلِ الأوَّلِينَ - لِتَكونَ الجملَةُ تَذْييلًا لِلمُحاجَّةِ، فتُفيدَ ما هوَ أعَمُّ مِنَ

---

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/ 1307.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 1/ 374.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 107.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 281.

المرْدود، وفائدَةُ التَّذْييلِ غالبًا تَوْكيدُ المذَيَّلِ، وإبْرازُ حُكْمِهِ في صورَةٍ كُلِّيَّةٍ[1]، والكلامُ موَجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ تَعْليمًا وتَسْلِيَةً، ويَتَضمَّنُ تَعْريضًا بإبْلاغِ المشْرِكينَ[2].

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ وأزْمِنَةِ الأفْعالِ بدقَّة وبلاغة

دَلالَةُ التَّشابُهِ اللَّفْظِيِّ في الآيَة:

قالَ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، وقالَ سُبْحانَهُ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: 148]، ووَجْهُ المغايَرَةِ بَيْنَهُما مِنْ جِهَةِ السِّياقِ أنَّ آيَةَ الأنْعامِ يَسْبِقُها قَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام: 146]، فلَمّا كانَ السِّياقُ مُتَعَلِّقًا بما يَدُلُّ عَلى صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ، بما سَيَحْدُثُ مِنْ أقْوالِهم وأفْعالِهم قَبْلَ أنْ يَقَعَ؛ ناسَبَهُ ذِكْرُ: ﴿سَيَقُولُ﴾ [الأنعام: 148]، ولمّا كانَ مِنْ أبْرَزِ مَظاهِرِ بَغْيِهم إشْراكُهُم باللّه؛ ناسَبَهُ ذِكْرُ الشِّرْكِ، ولمّا تقَدَّمَ بَيانُ كَذِبِهم؛ ناسَبَهُ أنَّهُم لَيْسوا بِدْعًا في ذلك، بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ [الأنعام: 148].

أمّا آيَةُ النَّحْلِ فيَسْبِقُها قَوْلُهُ: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾ [النحل: 34]، فلَمّا كانَ ذاكَ جَزاءً لما مَضى مِنْ أعْمالِهم؛ ناسَبَهُ ذِكْرُ ﴿وَقَالَ﴾، ولَمّا كانَ العمَلُ لما يُعْبَدُ عِبادَةً تَشْمُلُ الشِّرْكَ وغَيْرَهُ؛ ناسَبَهُ ذِكْرُ ﴿عَبَدۡنَا﴾، ولمّا كانَتْ عِبادَةُ غَيْرِ اللّه وتَحْريمُ ما لم يُحرِّمِ أفْعالًا قَدْ فعَلَها مَنْ قَبْلَهُم؛ ناسَبَهُ قَوْلُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرى، فإنَّهُ في آيَةِ الأنْعامِ لم يُؤَكِّدِ الضَّميرَ، وفي آيَةِ النَّحْلِ أكَّدَ، فقالَ تعالى: ﴿مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، وقالَ في النَّحْلِ أيْضًا ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مَرَّتَيْنِ، وفي

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 148.

الأنْعام قالَها مَرَّةً واحِدَةً؛ لِأَنَّ لَفظَ العِبادَةِ يَصِحُّ أَنْ يُنْسَبَ إلى إفْرادِ اللّه بها، وهَذا لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ، بَل المُسْتَنْكَرُ عِبادَةُ غَيْرِ اللّه، أَوْ شَيْءٍ مَعَ اللّه، فناسَبَ هُنا ذِكْرُ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مَعَ العِبادَةِ، وأمّا لَفْظُ ﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: 148]؛ فالإشْراكُ يَدُلُّ عَلى إثْباتِ شَريكٍ، فلا يَتَرَكَّبُ مَعَ هَذا الفِعْلِ لَفْظُ (مِنْ دونِه)، فلَوْ كانَ التَّرْكيبُ في غَيْرِ القُرآنِ (ما أشْرَكْنا مِنْ دونِهِ)؛ لم يَصِحَّ المَعْنى، وأمّا (مِنْ دونِه) الثّانِيَةُ؛ فالإشْراكُ يَدُلُّ عَلى تَحْريم أشْياءَ، وتَحْليلِ أشْياءَ، فلَم يَحْتَجْ إلى لَفْظِ (مِنْ دونِه)، وأمّا لَفْظُ العِبادَةِ؛ فلا يَدُلُّ عَلى تَحْريم شَيْءٍ كَما يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ (أشْرَكَ)، فقُيِّدَ بِقَوْلِه: (مِنْ دونِه)، ولَمّا حَذَفَ (مِنْ دونِه) هُنا؛ ناسَبَ أَنْ يحْذِفَ (نَحْنُ)، لِيَطَّرِدَ التَّرْكيبُ في التَّخْفيفِ(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(حَرَّمَهُ) و(نَهى عَنْهُ):

صيغَةُ النَّهْيِ تُفيدُ التَّحْريمَ، إلّا إذا وُجِدَتْ قَرينَةٌ صارِفَةٌ

بَيْنَ لَفْظَيْ (حَرَّمَهُ) و(نَهى عَنْهُ) عُمومٌ وخُصوصٌ، فالنَّهي يَعُمُّ التَّحْريمَ وغَيْرَهُ، والأَصْلُ في صيغَةِ النَّهي أَنَّها تُفيدُ التَّحْريمَ إلّا إذا وُجِدَتْ قَرينَةٌ تَصْرِفُهُ عَنِ التَّحْريمِ إلى غَيْرِهِ(2).

وَقَدْ يَخْرُجُ النَّهْيُ لِأَغْراضٍ أُخْرى غَيْرِ التَّحْريم، حَسَبَ القَرائِنِ، فقَدْ يخْرُجُ النَّهْيُ لِلكَراهَةِ، كَقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 267]، وكَقَوْلِهِ ﷺ: "إيّاكُم والجُلوسَ عَلَى الطُّرُقاتِ"(3)، وقَدْ يَكونُ النَّهْيُ لِلدُّعاءِ؛ إذا كانَ مِنَ الأَدْنى إلى الأَعْلى، كَقَوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8]، وقَدْ يَكونُ النَّهْيُ للإِرْشادِ والأَدَبِ، كَقَوْلِهِ ﷺ: "وَلا يَتَنَفَّسْ في الإناءِ"(4)، في حين

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/ 210.

(2) ابن قدامة، روضة النّاظر، ص: 202.

(3) متّفق عليه: رواه البخاريّ: (2465)، ومسلم: (2121).

(4) متّفق عليه: رواه البخاريّ: (154)، ومسلم: (267).

أنَّ التَّحريمَ لا يَكونُ إلّا لِوُجوبِ التَّرْك، فاتَّضحتْ بِهذا عَلاقَةُ العُمومِ والخُصوصِ بَيْنَ لَفْظَيْ (حَرَّمَهُ) و(نَهى عَنْهُ).

البلاغ والتَّبْليغ:

التَّبْليغُ أكْثَرُ مُبالَغَةً في الإيصالِ مِنَ البَلاغِ

يَتَّضِحُ الفَرْقُ بَيْنَ لفظَي (البلاغ) و(التَّبليغ) في الصّيغَةِ الصَّرْفيَّةِ لكلٍّ مِنْهُما، فالتَّبْليغُ مَصْدَرُ الفِعْلِ (بلَّغ) بتَشْديدِ اللّام، يُقال: بَلَّغَ الأمرَ تَبْليغًا، وأمّا (البلاغُ)؛ فهوَ اسْمٌ للفِعْلِ (بَلَغَ وأبْلَغَ)، يُقالُ: أبْلَغَ الأمرَ إبْلاغًا، والاسْمُ مِنْهُ يُسَمَّى: بَلاغًا[1]، ويَكونُ بِذَلِكَ التَّبْليغُ مِنَ الفِعْلِ (بَلَّغَ) أكْثَرَ إفادَةً لِتَكْثيرِ الفِعْلِ والمبالَغَةِ فيهِ، عَلى حَدِّ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ [يوسف: 23]؛ لأنَّ زِيادَةَ المبْنَى تَسْتَلزِمُ زِيادَةَ المعْنَى غالِبًا، ويَتَّفِقُ لَفْظا (البَلاغ)، و(التَّبْليغ) في دَلالَتِهِما عَلى الوصولِ.

المُبِين والمسْتَبِين:

المـبـينُ وصـفٌ للقُرْآنِ الكَريم، والمسْتَبِينُ وصفٌ للتَّوراةِ

يَتَّضِحُ الفَرْقُ بَيْنَ لفظَيِ (المُبِين)، و(المسْتَبِين) في الموْصوفِ بكلٍّ مِنْهُما، فقَدْ ورَدَ لَفْظُ (المسْتَبِين) في القرآنِ مَرَّةً واحِدَةً وصْفًا للتَّوْراة، وذلكَ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧﴾ [الصّافات: 117]، ووَصَفَهُ بأنَّهُ مُسْتَبِينٌ؛ لأنَّ فيهِ تِبْيانَ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتاجُ إلَيْهِ بَنو إسْرائيلَ[2]، والمسْتَبِينُ القَوِيُّ الوُضوحِ، فالسّينُ والتّاءُ لِلمُبالَغَةِ، يُقالُ: اسْتَبانَ الشَّيْءُ؛ إذا ظَهَرَ ظُهورًا شَديدًا[3].

وَأمّا لَفْظُ (المُبِين)؛ فقَدْ ورَدَ تِسْعَ عَشرَةَ مَرَّةً ومئةً، جاءَ مِنْها وصْفُ الكتابِ في تسعةِ مَواضِعَ، والكتابُ المبينُ هوَ القُرْآنُ الكريمُ، وإنَّما وُصِفَ القُرآنُ بِكَوْنِه مُبِينًا لِوُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ القُرآنَ مُعْجِزَةٌ قاهِرَةٌ وآيَةٌ بَيِّنَةٌ لمُحمّدٍ ﷺ، **والثّاني**: أنَّهُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (بلغ).
(2) ابن عثيمين، التّفسير، ص: 263.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 164.

بَيَّنَ فيه الهدى والرُّشْدَ، والحلالَ والحرامَ، ولمّا بُيِّنَتْ هَذِهِ الأشْياءُ فيه؛ كانَ الكِتابُ مُبينًا، **والثّالِثُ**: أنَّهُ بُيِّنَتْ فيهِ قَصَصُ الأوَّلينِ، وشُرِحَتْ فيهِ أحْوالُ المتَقَدِّمينَ[1].

وَيَظْهَرُ الفَرْقُ بَيْنَهُما أيْضًا مِنَ الصّيغَةِ الصَّرْفيَّةِ، فالمبينُ أعَمُّ مِنَ المسْتَبينِ؛ لأنَّ المُبينَ بَيِّنٌ في نَفْسِهِ، موَضِّحٌ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهُ ما يُرادُ مِنْهُ، فهوَ مُتَعَدٍّ لِغَيْرِه[2]، بَيْنَما المسْتَبينُ قاصِرٌ عَلى نَفْسِهِ، يُقالُ: اسْتَبانَ كَذا، أيْ: صارَ بَيِّنًا، واسْتَبانَهُ فُلان، أي: تَبَيَّنَ الشَّيْءَ بِنَفْسِهِ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/ 416.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 295.
(3) القرطبيّ، الجامع: 15/ 114.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

[النّحل: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين قِيامِ الحُجَّةِ بِبَعْثِ الرُّسُلِ، وبيانِ وظيفتهم، وعاقبةِ مُكَذِّبيهم

لمّا ذكَرَ سُبحانَهُ مَقالَةَ الكُفّارِ في الاعْتِراضِ عَلى رَبِّهم في إرْسالِ الرُّسُلِ، وأبْطَلَها بِذِكْرِ الحِكْمةِ مِنْ بَعْثِهِم بِقَوْلِه: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ كانَ جَمعُ الرُّسُلِ مُفْهِمًا لِتَوْزيعِهم عَلى الأُمَمِ، فجاءَ التَّصْريحُ بِذلكَ في هَذه الآيَة مُبَيِّنًا وظيفَةَ الرُّسُلِ، وانْقِسامَ النّاسِ في الإيمانِ بِهم، وللحَثِّ عَلَى الاعْتِبارِ بآثارِ أُمَمِهِم المكذِّبة بِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[1]، "ففريقٌ استمع إلى الرَّسول واهتدى، وفريق أعرضَ عن سماع الحقِّ، فحقَّ عليه العذاب، وإذا كنتم في شكٍّ - أيُّها المشركون - فسيروا في الأرض قريبًا منكم، فانظروا ما حلَّ بالمكذِّبين، من عاد وثمود وقوم لوط، وكيف كانت عاقبة أمرهم، لعلَّكم تعتبرون بما حلَّ بهم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعَثْنَا﴾: مِنَ الفِعْلِ بَعَثَ يَبْعَثُ بَعْثًا، والباءُ والعَيْنُ والثّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهوَ الإثارَةُ[3]، ومنهُ: بَعَثَهُ من نومه فانْبَعَثَ: أيْقظَهُ وأهَبَّه، وانْبَعث في السَّيْرِ: أسرَعَ، فالمَعْنى العامُّ هو: إثارَةُ (الحَيِّ) مِنْ مكانٍ يلزَمُهُ بقوَّةٍ، فيندفعُ ناهضًا أو مُبتعِدًا، كَبَعْث النّائم والبَعير، ومِنْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 156.
(2) إبراهيم القطان، تيسير التفسير: 2/ 315.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).

ذَلك بَعْثُ الموتى مِنَ القُبورِ، وهوَ في كُلِّ القرآنِ بهَذا المعْنى، مثل قَولِه: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]، وقَدْ يخرجُ عنهُ لمعانٍ أُخْرى فرعيَّةٍ، مِنْها: الإثارَةُ والدَّفْعُ نحوَ عملِ شيءٍ ما، وكَذلكَ إنهاضُ رَسولٍ أو نبيٍّ، أو مَلِكٍ، أو حَكَمٍ، أو نَقيبٍ[1]، ويَرِدُ البعثُ عُمومًا في القُرْآن عَلَى سِتَّة أوْجه، هِيَ: الإلهامُ، والإحياءُ، والإيقاظُ، والتَّسْليطُ، والإرسالُ، والنَّصْبُ[2]، والبَعْثُ في هذه الآيةِ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾، يُرادُ بِهِ إرسالُ الرُّسُلِ إلى الأمَمِ المكَذِّبَةِ.

2) ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ﴾: أَصْلُهُ (جنب)، والجيمُ والنّونُ والباءُ، أَصْلانِ مُتَقاربانِ أحدُهما: النّاحِيةُ، والآخرُ البُعدُ[3]، ومِنْهُ الجَنْبُ، والجانِبُ، والجَنَبَةُ: شِقُّ الإنسانِ وغيرِه، ومِنْ كَوْن الجَنْب ناحيةً خارجيةً جاءَ معْنى البُعدِ والإبعادِ[4]، فالجارُ الجُنُبُ، أي: البعيدُ[5]، فالاجْتنابُ المرادُ في هَذِه الآيَةِ ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ أَنْ يَكونَ العَبْدُ في ناحيةٍ بَعيدًا عَنِ الطّاغوتِ.

3) ﴿ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾: الطَّغْوَى، والطّاغيةُ: الجبّارُ العنيدُ[6]، والطّاءُ والغَيْنُ والحرفُ المعتلُّ، أَصْلٌ صحيحٌ مُنْقاسٌ، وهو مجاوَزةُ الحَدِّ[7]، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقّة: 11]، وكُلُّ شيءٍ جاوَزَ حَدَّه حَتّى غَطّى ما حَوْلَهُ فقد طغى: كَأعْلى الجبلِ المستَصْعِب ونحوِه، وكَماءِ البحرِ بما ذُكِرَ مِنْ وصْفه، وكالدَّم ببُروز حُمرتِهِ مِنَ الجلدِ[8].

والطّاغوتُ: الكاهِنُ والشَّيطانُ، وكُلُّ رأسٍ في الضَّلالَةِ[9]، فيُحملُ الطّاغوتُ المأمورُ باجتنابِهِ في هَذِه الآية عَلَى كُلِّ معبودٍ، مِنْ حَجَرٍ أو صورةٍ أو شَيطانٍ[10]، وقد قيل: "والطّاغوت: كلُّ ما عُبِدَ من دون الله، والمراد: اجتنبوا ما يدعو إليه، ممّا نهى عنه الشَّرع، ويشمل الطّاغوتُ الشَّيطانَ والكاهن والصَّنم، وكلَّ من دعا إلى ضلال".

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بعث).
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر: 204 - 205.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جنب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جنب).
(6) الخليل، العين: (طغو - طغي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغي).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طغو - طغي).
(9) الجوهري، الصّحاح: (طغو - طغي).
(10) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 128.

4) ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ﴾: مِنَ الفِعْلِ (حقَّ)، والحاءُ والقافُ أصلٌ واحدٌ، وهوَ يَدلُّ عَلى إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه، فالحَقُّ نقيضُ الباطِلِ، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيءُ: وجَبَ[1]، وفي الحديث: "أَعْطوا الطَّريقَ حَقَّهُ"[2]، أيْ: واجِبَهُ، من غضِّ البَصرِ، وردِّ السَّلام وغيرِه[3]، ومِنْهُ الحِقَّةُ منَ الإبلِ الَّتي قَدِ استكْمَلَتْ ثلاثَ سنينَ، سُمِّيَتْ حِقَّةً؛ لأنَّها قَدِ استُحِقَّ الرُّكوبُ عَلَيْها والحَملُ[4]، ويُقال: لِلموجَدِ بِحَسَبِ مُقتضَى الحِكمَةِ حَقٌّ، ولهَذا يُقالُ: فِعلُ اللّه تَعالى كُلُّه حَقٌّ[5]، ومنهُ ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ في هَذِه الآيَةِ مَعْناها: وجَبَتْ عَلَيْه الضَّلالَةُ، فلَم يوفِّقْهُ اللّه ﷻ[6].

5) ﴿ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: منَ الفِعْلِ (ضلّ)، والضّادُ واللّامُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنى واحِدٍ، وهوَ ضَياعُ الشَّيْءِ وذَهابُهُ في غَيْرِ حَقِّه[7]، فضَلَّ الشَّيءُ: خَفِيَ وغابَ، ومنهُ ضَلَّ الماءُ في اللَّبَنِ: غابَ، وأضْلَلْتُ الميِّتَ: دَفَنْتُه، والشَّيْءَ: غَيَّبْتُهُ، والضَّلَلُ: الماءُ الَّذِي يجْري تحتَ الصَّخْرةِ، أو الَّذِي لا تُصيبُهُ الشَّمسُ، ويَجْمَعُ هذه المعاني: غِيابُ الشَّيْءِ في أثناءِ شيءٍ حتَّى لا تُمَيِّزَ هَذا مِنْ ذاكَ[8]، والضَّلالُ والضَّلالَةُ هَوَ ضِدُّ الهُدَى والرَّشادِ، وتَقولُ: ضَلَلْتَ تَضِلُّ، هَذِهِ اللُّغَةُ الفَصيحَةُ، وضَلِلتَ تَضَلُّ ضَلالًا وضَلالةً[9]، ويَأْتي الضَّلالُ في القرآنِ الكَريم عَلى عَشَرةِ وجوهٍ: الاستِدْلالُ في الحُكْمِ، والغوايَةُ، والخسْرانُ، والشَّقاءُ، والبُطلانُ، والخَطَأُ، والهَلاكُ، والنِّسْيانُ، والجَهْلُ، والعاشِرُ: الضَّلالُ الَّذي هو ضِدُّ الهُدَى[10]، وهَذا الأخيرُ هو المرادُ من الآيةِ، بدليلِ مُقابَلَته بالهُدى في قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾.

6) ﴿فَسِيرُواْ﴾: هوَ أمرٌ منَ الفِعلِ (سار)، والمصدر السَّيرُ، والسّينُ والياءُ والرّاءُ، أصلٌ يدلُّ عَلى مُضِيٍّ وجَرَيانٍ، يُقالُ: سارَ يسيرُ سيرًا، وذَلكَ يَكونُ لَيْلًا ونهارًا[11]، والسيّارَةُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقّق).
(2) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (2465).
(3) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (حقق).
(4) ابن الجوزي، غريب الحديث: 1/ 227.
(5) الراغب، المفردات: (حقق).
(6) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 271.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، (ضلل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل، (ضلل).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (ضلل).
(10) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر: 407 - 408.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سير).

القافِلَةُ السّائِرَةُ، والسّيرَةُ أصلُها هيئة السَّيرِ أو الامتدادُ والتَّكوينُ، ثُمَّ استُعملَت في هيئة الحياةِ، ولَيسَ في القرآنِ من التَّركيبِ إلّا ما هوَ بأحدِ هَذِه المعاني الثَّلاثَةِ[1]. "وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾ [سبأ: 18]، أي: جعله بمقدار يسيرون، ويبيتون في قرًى غير متباعدة، ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ [سبأ: 18]، أي: آمنين من الخوف والظَّمأ والجوع"[2]، واخْتَلَفوا في مَعْنى السَّيْر في الأرض، فقيلَ: حَثٌّ على السِّياحةِ في الأرضِ بالجِسْم، وقيلَ: حَثٌّ عَلَى إجالَةِ الفِكْرِ، ومُراعاة أحْوالِهِ[3]، فيُحْمَلُ السَّيْرُ في قولِه تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ على كِلا المعنيين: بِسَفَرِ الأبْدانِ وتَدَبُّرِ الجَنانِ في آثارِ الأمَمِ المكَذِّبةِ لِرُسُلِها.

المَعْنى الإجْماليُّ:

دَعْوَةُ الرُّسُلِ جَميعًا إلى التَّوحيد، وبيان أنَّ النّاسَ ينقسمون إلى شَقِيٍّ وسَعيدٍ

يخبِرُ سُبْحانهُ أنَّ حُجَّته قَدْ قامَتْ على جَميعِ الأُمَم، وأنَّهُ ما مِن أُمَّةٍ مُتقدِّمَةٍ أوْ مُتَأخِّرَة إلّا وبَعَث اللّهُ فيها رَسولًا، وكُلُّهم مُتَّفقونَ عَلى دَعْوةٍ واحِدةٍ ودينٍ واحِدٍ، وهوَ عِبادةُ اللّهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وتَرْكِ عبادَةِ غيرِهِ منَ الشَّياطينِ والأوثانِ، وغيرِ ذلكَ ممّا يُتَّخذُ مِنْ دونِ اللّهِ وليًّا، فانْقَسَمَتِ الأُمَمُ بحسَبِ اسْتِجابَتِها لدَعوَةِ الرُّسُلِ وعَدَمِها قِسْمَينِ، فكانَ منهُم مَن هَدَى اللّهُ فاتَّبَعَ المرسَلينَ، ومنهمُ المعانِدُ الَّذي اتَّبَعَ سَبيلَ الغَيِّ فوَجَبَتْ عليه الضَّلالَةُ، ثُمَّ أمَرَ سُبْحانَهُ بالسَّيْرِ في الأرْضِ، بالأبْدانِ والقُلوبِ، للنَّظَرِ في مَآلِ هَؤُلاءِ المكَذِّبينَ، وما حَلَّ بِهِم مِنْ دَمارٍ وهَلاكٍ، بِغَرَضِ الادِّكارِ والعِظَةِ[4].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سير).

(2) نشوان الحميري، شمس العلوم: (سار).

(3) الراغب، المفردات: (سير).

(4) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 440، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 271.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العَطْفِ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا﴾:

إبْطالُ شُبْهَةِ الكُفّارِ، بِزِيادةِ تَقْرِيرِ حِكْمَةِ بَعْثِ الرُّسُلِ

عُطِفَ قَولُه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾، عَلى قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ بالواوِ الّتي تُفيدُ مُطْلَقَ الجَمعِ؛ تَكْمِلةً لإبطالِ شُبْهةِ المشْركينَ في الآيةِ السّابقةِ، وهيَ قَولُهُم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وهوَ إبْطالٌ بِطَريقَةِ التَّفْصِيلِ بَعْدَ الإجْمالِ، لِزيادَةِ تَقْريرِ الحُجَّةِ، فقَولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾، بيانٌ لمضْمونِ جُملَةِ ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[1].

دَلالَةُ تَضافُرِ (لامِ) القَسَمِ و(قَدْ):

بيان التَّأكيدِ على إرْسالِ الرُّسُلِ، وإقامَةِ الحُجَّةِ عَلى جَميعِ الأُمَمِ

وَرَدَ الفِعْلُ ﴿بَعَثۡنَا﴾ في قَولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾، مُؤَكَّدًا بِاللّامِ المُوَطِّئَةِ لِلقَسَمِ، وحَرْفِ التَّحْقيقِ، ولَوْلا هَذِهِ اللّامُ لم يُعْلَم أنَّ في الكَلامِ قَسَمًا مُقَدَّرًا، فقَدْ مَهَّدَتْ لَهُ الجَوابَ، ولِذا تُسَمّى مُمَهِّدةً ومُؤْذِنةً[2]، وقَدْ دَخَلَتْ عَلى (قَدْ) مُبالَغَةً في التَّأكيدِ، وكَثُرَ في الكَلامِ اقْتِرانُ جُملَةِ جَوابِ القَسَمِ بـ (قَدْ)؛ لِأنَّ القَسَمَ يُهَيِّئُ نَفْسَ السّامِعِ لِتَوَقُّعِ خَبَرٍ مُهِمٍّ، فيُؤْتى بـ (قَدْ)؛ لِأنَّها تَدُلُّ عَلى تَحْقيقِ أمرٍ مُتَوَقَّعٍ، والغَرَضُ مِنْ تَأْكيدِ هَذا الخَبَرِ هوَ حِجاجُ الكُفّارِ وإبْطالُ شُبْهَتِهِم بِالتَّعَلُّلِ بالقَدَرِ عَلى الضَّلالِ، والاعْتِراضِ عَلى رَبِّهِم في إرْسالِ الرُّسُلِ، وكَذَلكَ تَنْظيرُ أحْوالِ الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ رُسُلَها، بِحالِ مُشْرِكي العَرَبِ في تَكْذيبِهِم رِسالَةَ محمَّدٍ ﷺ[3].

دلالة التعبير بالماضي ﴿بَعَثۡنَا﴾:

وردَ الفعلُ ﴿بَعَثۡنَا﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 149.

(2) الشّهاب، عناية القاضي: 2/ 173.

(3) الزّمخسريُّ الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 158، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 137.

تأكيد أنَّ سُنَّةَ الله ماضِيَةٌ في بَعْثِ الرُّسُلِ إلى الأمَمِ المتَقَدِّمَةِ والمتَأخِّرَةِ

رَّسُولًا﴾، بِصيغَةِ الماضي المَصْحوبِ بـ (قد) الدّالَّةِ عَلى التَّحْقِيقِ؛ مُبالَغَةً في الإِخْبارِ بِتحَقُّقِ وُقوعِ بَعْثِ الرُّسُلِ، كَما أَنَّ الإخْبارَ عَنِ الشَّيْءِ بِصيغَةِ الماضي يَقْتَضي كَوْنَ المُخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا عَلى ذَلِكَ الإِخْبارِ[1]، فقَدْ سَبَقَ أنْ أرسَلَ اللّه في كُلِّ أمّةٍ سَلَفَتْ رَسولًا، فقامَتْ حُجَّتُهُ عَلى جَميعِ الأُمَمِ، والإِخْبارُ كَذلكَ بصيغَةِ الماضي مُضَمَّنُهُ الدَّوامُ والاستمرارُ، وأنَّهُ ما مِنْ أُمَّةٍ مُتَقَدِّمةٍ أو مُتَأَخِّرَةٍ إلّا وقَدْ بعثَ اللّه فيها رَسولًا[2]، وإرسال الرُّسل التزامٌ من اللّه تعالى لعباده ببيان المنهج، وإيضاح السَّبيل الحقِّ لكي لا يكون للنّاس على اللّه حجَّة، بعد أن أرسل إليهم مَن اصطفى من عباده، فحملوا إليهم مراده في العقيدة والعبادة والتَّشريع بوضوح وإعجاز.

دَلالَةُ الإِسْنادِ في: ﴿بَعَثۡنَا﴾:

التَّكْذِيبُ بِرُسُلِ الله العَظِيمِ أمرٌ عَظِيمٌ

أَسْنِدَ الفِعلُ ﴿بَعَثۡنَا﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾، إلى ضَميرِ العَظَمَة، للدَّلالَةِ على أنَّ ما أُسْنِدَ إليهِ أمرٌ عَظيمٌ، وصُدورُ عِظامِ الأُمورِ يَدُلُّ عَلى كَمالِ القُدرَةِ والحِكْمَة، وأنَّ حُكْمَه مُطاعٌ لا يَتَخَلَّفُ شَيءٌ عَنْ إرادَتِه، فإنَّ مِثْلَ هَذا التَّعْبيرِ يُعَبِّرُ به الملوكُ والعُظَماءُ النّافذُ أمرُهم ونَهْيُهم، وفيهِ أيْضًا التَّنْويهُ بِشأْنِ الرُّسُلِ، وتَفْخيمُ قَدرِهم وإدْخالُ المهابَةِ في قُلوبِ أُممِهم، فهُم مُرْسَلونَ مِنْ عِنْدِ عَظيمٍ مُطاعٍ، وكُلُّ ما يَصْدُرُ عَنِ العظيم عظيمٌ، فوَجَبَ على الأُمَمِ تعظيمُ قَدرِهم، والحَذَرُ من تَكذيبِهم؛ إذِ التَّكْذيبُ بِالعظيم أَيْضًا عظيمٌ[3].

بَلاغَةُ أُسْلوبِ الالتِفاتِ في الآيَة:

اسْتِدْعاءُ الإِصْغاءِ والاهْتِمام بنقْلِ الكَلامِ مِن مَقامٍ إلى مَقامٍ

في قَوله سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ التفاتٌ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.
(2) الثَّعالبيُّ، الجواهر الحسان: 5/ 377.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

وهوَ مِنْ أنْواعِ البَديع؛ إذْ كانَ ما قَبلَ هَذه الآيةِ قَد أخْبَرَ عن اللّه بصورَةِ الغائبِ، في قَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، ثُمَّ انتقَلَ إلى ضَميرِ المتكَلِّم، بقولِه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾، فأتَى بـ (نا) الّتي تَدُلُّ عَلى التَّعظيم، وعُلوِّ القَدْر، وتَنزيلِه منزلةَ الجمعِ، لِتَعَدُّدِ صِفاته الحَميدَة، ومَواهبِه الجَزيلةِ، وحِكْمَةُ هَذا الالتِفاتِ وكَونِه بنونِ المعظِّم نفسَهُ: أنَّهُ هوَ مَن أرسَلَ الرُّسُلَ مِن عندِه، فوَجَبَ عَلى أممِهمُ الامتِثالُ، فناسَبَ أن يَكونَ السِّياقُ في غايةٍ منَ التَّعظيم؛ لأنَّهُ مَتى كان كَذلكَ؛ كانَ أدْعى لامتِثالِ المأمورِ، فإسنادُهُ إلى المتَكَلِّمِ العَظيم، أبْلَغُ من إسنادِهِ إلى ضَميرِ الغائِبِ، كَما أنَّ الالتفاتَ من افتنانِ العَربِ في الكَلامِ، وحُسْنِ تصرُّفِهم فيه، ولِأنَّ الكَلامَ إذا نُقِلَ مِن أُسْلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ كان ذَلكَ أحْسنَ تَطْرِيَةً لِنشاطِ السّامعِ، وإيقاظًا للإصْغاءِ إليهِ من إجرائِه على أسلوبٍ واحدٍ[1].

دَلالَةُ الظَّرْفيّةِ في قَولِهِ: ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾:

اشْتِمالُ كُلِّ زَمانٍ عَلى رَسولٍ يُقيمُ الحُجَّةَ ويَقْطَعُ العُذْرَ

في قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾، يُفيدُ حَرفُ ﴿فِى﴾ مَعْنى الظَّرفِيَّة، وهيَ ظَرفيَّةُ احْتواءٍ، فاشْتَمَلَتْ كُلُّ أمّةٍ عَلى رَسولٍ يَدْعوها إلى الهُدى، ويُفْهَمُ مِنَ الظَّرْفِيَّةِ مَعْنى التَّمَكُّنِ والمُلازَمَةِ، أيْ: رَسولًا لا يُفارِقُهُم، فلَيْسَ مارًّا بِهِم كَما يَمُرُّ المُرْسَلُ بِمَقالَةٍ، أوْ رسالةٍ يُبَلِّغُها إلى القَوْمِ ويُغادِرُهُم. كَما يُسْتَفادُ من الظَّرفِيَّةِ أيْضًا الإحاطَةُ الزَّمانيَّةُ، ويَتَرَتَّبُ عَليها بُطْلانُ ما يُقالُ مِنْ أنَّ أهلَ الفَتْرَةِ جَهِلوا جَهْلًا أسْقَطَ عنهُمُ اللَّوْمَ، فما تركتِ الظَّرْفيَّةُ في هَذه الآيَةِ أحَدًا حَتّى شَمِلَتْهُ، وحَكَمَتْ عَلَيْهِ بالجَنَّةِ أوِ النّارِ[2].

وأوثِرَ حَرْفُ (في) عَلى اللّامِ، في قَولِه سبحانه: ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 14، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 245.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 332، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 207.

﴿رَّسُولًا﴾؛ لِأنَّ حَرْفَ (اللّامِ) يَدُلُّ عَلى التَّعْلِيلِ، وأنَّ بَعْثَ الرَّسولِ كان لِأجْلِ الأمَّةِ المَبْعوثِ لَها، وهَذا المَعْنى وإنْ كانَ صَحيحًا في نَفْسِهِ إلّا أنَّ سِياقَ الآيَةِ هوَ في شُمولِ الدَّعْوَةِ لِكُلِّ الأُمَمِ.

الغرض من تَقْديم ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾:

الاهْتِمامُ بِبُلوغِ الدَّعْوَةِ الرَّبّانِيَّةِ إلى كُلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ

في قَولِه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ عَلى المَفْعولِ بِهِ ﴿رَّسُولًا﴾؛ لما في تَقْديمِه مِنْ مَزيدِ الاعْتِناءِ والاهتِمامِ، فالمَقْصَدُ مِنَ الآيَةِ كَما سَبَقَ هو الرَّدُّ عَلى الكُفّارِ، بِأنَّ حُجَّةَ اللّه قَدْ قامَتْ عَلى جَميعِ الأُمَمِ، وأنَّه ما مِنْ أمَّةٍ مُتقَدِّمةٍ أو مُتأخِّرةٍ، إلّا وبَعَثَ اللّه فيها رَسولًا[1]. فالاهْتِمامُ مُنْصَبٌّ عَلى بُلوغِ الدَّعْوَةِ الرَّبّانِيَّةِ إلى كُلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ دونَ استِثْناءٍ، ولَوْ قَدَّمَ المفعولَ بِهِ ﴿رَّسُولًا﴾؛ لكان القصد بيان عَدَدِ الرُّسُلِ في كُلِّ أُمَّةٍ، وهوَ خِلافُ المقصودِ، واللّه أعْلَمُ.

احْتِمالات (أنْ) في قوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ﴾:

تَـنَـوُّعُ المعاني القُرْآنِيَّةِ بِتَنَوُّعِ التَّـخْـريـجاتِ النَّحْوِيَّةِ

يَجوزُ في قَولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾، أنْ تَكونَ (أنْ) مَصْدرِيَّةً، فيَكونُ المَصْدَرُ المؤوَّلُ مِنها ومِنْ فِعْلِها في محَلِّ جَرٍّ بِحَرْفِ جَرٍّ مَحْذوفٍ، والتَّقْديرُ: بِأنِ اعْبُدوا، أي: (بِعِبادَةِ)، فيَكونُ مَنْصوبًا بِنَزْعِ الخافِضِ (الباءِ)، ويَكونُ الجارُّ مُتعَلِّقًا بالفِعْلِ ﴿بَعَثۡنَا﴾[2].

وَيَجوزُ أيْضًا وجْهٌ آخَرُ، وهوَ أنْ تَكونَ (أنْ) مُفَسِّرةً؛ لأنَّ البعثَ فيه مَعْنى القَوْلِ[3]، والتَّقديرُ: (وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولًا قائِلًا لَهُم: أن اعْبُدوا اللّه)، فحَذَفَ عَلى سَبيلِ الاخْتِصارِ، ولِكَونِ المَعْنى مَفْهومًا بِدونِه، وحَذْفُ ما يُعْلَمُ جائِزٌ.

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 440.
(2) محمود الصّافي، الجدول: 14/ 316.
(3) درويش، إعراب القرآن: 5/ 297.

اتّفاق دعوات الرُّسلِ كافّة في التّوحيدِ، مع اختلاف الشّرائع

الغرض من الأمر في ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾:

أفادَ فعلُ الأمرِ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ في قَولِه سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ الأمرَ بِعِبادَتِهِ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وإفرادِهِ بالطّاعَة، وإخْلاصِ العِبادَةِ لَهُ[1]؛ وذلك لأنَّ دَعْوَةَ كُلِّ الرُّسُلِ مُتَّفِقةٌ في التَّوْحيدِ كَما ثَبَتَ في صَحيحِ البُخاريِّ، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قالَ: "نَحنُ معاشِرَ الأنْبياءِ إخْوَةٌ لِعَلّاتٍ، دينُنا واحِدٌ"[2]. يَعْني بِذلكَ التَّوحيدَ، وزادَ دَلالةَ الأمرِ عَلى التَّوحيدِ؛ قَولُه: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾؛ أي: اتْرُكوا كُلَّ مَعْبودٍ دونَ اللهِ، كالشيطان والكاهن والصنم وكلَّ مَن دعا إلى الضلال[3].

بيان أنَّ المُنْفَرِدَ بالأُلوهيَّةِ، هوَ المُستَحِقُّ وحْدَهُ لِلعُبوديَّة

غرض وضْعِ الظّاهِرِ مَوضِعَ المضْمَر:

في قولِه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، الأصْلُ في الكَلامِ أنْ يَكونَ عَلى مُقْتَضى الظّاهِرِ، ولَكِنَّهُ قدْ يخرجُ عَلى خِلافِهِ لِنُكْتَةٍ بَلاغيَّة، ومُقْتَضى الظّاهِرِ في قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أنْ يُؤْتى بِعِبارَةِ (أنِ اعْبُدونا) مُجاراةً لِصيغَةِ ﴿بَعَثۡنَا﴾، لَكِنَّ النَّظمَ القُرآنيَّ جَرَى هُنا عَلَى وضْعِ الظّاهِرِ مَوْضِعَ المضْمَرِ، أو إظْهارِ ما حَقُّهُ الإضْمارُ، لِنُكْتَةٍ جَليلَةٍ، وهِيَ تَعْظيمُ قَدْرِهِ ﷻ، فهوَ اللهُ العَظيمُ المسْتَحِقُّ لِلعِبادَةِ وحْدَهُ دونَ سِواهُ، وفيهِ أيْضًا نُكْتَةُ التَّنْبيهِ عَلى سَبَبِ اسْتِحْقاقِ العِبادَةِ: وهوَ انْفِرادُهُ بِصِفَةِ الأُلوهِيَّةِ[4]، إضافَةً لما في طَريقَةِ الالتِفاتِ مِنْ مَزِيَّةِ تَنْشيطِ السّامِعِ، وتَلوينِ الخِطابِ، ناهيك عن كون العبادة ملمحًا إبلاغيًّا ارتكازيًّا تقوم عليه مضامين الدَّعوة، وهو قاسمٌ مشتركٌ بين كلِّ الدّيانات، فما من رسول إلّا وحمل شعار الدَّعوة للعبادة، وما يلخِّص هذه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 201.
(2) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (3443).
(3) القرطبي، الجامع: 10/ 103.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 576.

الدعوة قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيّنة: 5].

نُكْتَةُ عَطفِ الجُملتينِ المُتقابِلتين بالواو:

تَوْضيحُ المعاني بالضِّدِّ، يجسِّد قـــول المـثـل (بِضِدِّها تَتَمايَزُ الأشْياءُ)

وَرَدَ في قولِه تَعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ عَطْفُ جُملتينِ مُتَقابِلَتَينِ، فالأولى قَوْلُه سُبْحانَه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، والثّانيَةُ قَوْلُه سُبحانَه: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾، وجازَ العطفُ بينهما بالواوِ؛ لِأَنَّ شَرْطَ العَطْفِ بِالواوِ أَنْ يَكونَ بَينَ الجُملتينِ (جامعٌ)؛ سَواءٌ موافقَةٌ أَوْ مُضادَّةٌ، وإنَّما كانتِ المضادَّةُ في حُكمِ الموافَقَةِ؛ لأَنَّ الذِّهْنَ يَتَصَوَّرُ أَحَدَ الضِدَّيْنِ عِندَ تَصَوُّرِ الآخرِ[1]، وهَذِهِ المضادَّةُ واقِعَةٌ بَينَ الجُملتينِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فإحْداهُما لإفادَةِ الحَثِّ على فِعْلِ العبادَةِ، والثّانيَةُ لإفادَةِ اجتِنابِ عِبادةِ غَيرِهِ سُبْحانَه، فجُمِعَ بَينهما بالواوِ لِلدَّلالَةِ عَلى تَكامُلِهما، فلا تَنْفَعُ عِبادَةُ اللهِ إلّا بِشَرطِ اجْتنابِ عِبادَةِ ما سِواهُ[2]، وهَذا هوَ التَّوْحيدُ الَّذي أَمَرَ اللهُ بِهِ، وبوجود عنصري العطف المتكاملين - وهما متضادّان في دلالة كلٍّ منهما - يُفهَم المعنى الشُّموليُّ للعبادة، قال الشَّعراويُّ: "فهنا أمر بالعبادة، ونَهْي عن الطّاغوت، وهذا يُسمّونه تَحلِيةً وتَخْلِيةً: التَّحلية في أَنْ تعبدَ اللّه، والتَّخلية في أَنْ تبتعدَ عن الشَّيطان، وعلى هذين العنصرين تُبْنَى قضيَّة الإيمان، حيث نَفْيٌ في: (أشهد أن لا إله)، وإثباتٌ في (إلّا الله)، وكأَنَّ النّاطق بالشَّهادة ينفي التَّعدُّد، ويُثبت الواحدانيَّة للّه تعالى، وبهذا تكون قد خلَّيْتَ نفسك عن الشِّرك، وحَلَّيْتَ نفسك بالوحدانيَّة"[3].

(1) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 180.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 374.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 7917.

تحقيقُ التَّوحيد يكون بالبُعدِ عَنْ أماكِنِ الشِّرْك والمشْرِكين

سِرُّ اسْتِعْمالِ الفعْلِ ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ﴾:

جاءَ النَّظْمُ القُرآنيُّ في قَولِهِ سُبْحانَه: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ بالفعل ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ﴾؛ عِوضًا عَنِ الفِعْلِ (اتْرُكوا)، أوْ ما شابَهَهُ؛ لأنَّ الاجْتِناب يَزيدُ عَلى مُجَرَّدِ التَّرْك بِمَعْنى المباعَدَة، وهَذا المعْنى مَفهومٌ مِنِ اشْتِقاقِ الاجْتِنابِ مِنَ الجانِبِ[1]، فيَكونُ اجْتِنابُ الطاغوت بِأنْ يَكونَ هوَ في جانِبٍ، والعَبْدُ في جانِبٍ بَعيدًا عَنْهُ.

بَعْثُ الرُّسُلِ قَسَّمَ النّاسَ إلى مُهتَدٍ سَعيد، وشَقِيٍّ عنيد

دَلالةُ (الفاءِ) عَلى التَّفْريعِ في قَوْلِه: ﴿فَمِنۡهُم﴾:

لمّا أقامَ اللّه حُجَّتَهُ على جميعِ الأمَمِ بِبِعثةِ الرُّسُلِ، وأنَّهُ ما مِنْ أمَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ أو مُتَأخِّرَةٍ إلّا وبَعَثَ اللّه فيها رَسولًا؛ انْقَسَمَتِ الأمَمُ بِحَسَبِ اسْتِجابَتِها لِدَعْوَةِ الرُّسُلِ وعَدَمِها قِسْمَين، فجاءَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ في الآيَةِ بِفاءِ التَّفْريعِ الَّتي تُفيدُ أنَّ الكَلامَ بَعْدَها مُتَرَتِّبٌ عَلى الكَلامِ الَّذي قَبْلَها[2]، ففَرَّعَ مِنَ الأُمَمِ المرْسَلِ إليها أنْ كان مِنْهم مَنْ هَدى اللّه، فاتَّبع المرْسَلينَ، ومِنْهُم المعانِدُ الَّذي اتَّبعَ سَبيلَ الغَيِّ، فوَجَبَتْ عليهِ الضَّلالَةُ.

بَلاغَةُ التَّعْبيراتِ القُرآنِيَّةِ، في تَعْلِيمِ العِبادِ الأدَبَ مَعَ الذّاتِ الإلهيَّةِ

سرُّ إسْنادِ الهِدايةِ إلى الله دونَ الضَّلالةِ:

أَسْنَدَ اللّه سُبحانَه الهِدايَةَ إليهِ في قَوْلِه: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، ولم يُسْنِدِ الإضْلالَ إلى ذاتِه المقَدَّسَةِ، وإنْ كانَ هوَ الفاعِلَ لَهُ تَحْسِينًا لِلَّفْظ، وتَعليمًا لِعبادِهِ الأدَبَ، ونظيره: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ [النّحل: 9][3]، وكَذلكَ لأنَّ النّاسَ لمّا أُمِروا بِأنْ يَعبُدوا اللّه مخلِصينَ؛ افْترقوا فريقَين: فريقًا هَداهُ اللّه إلى التَّوحيدِ، وفريقًا لازَمَ الشِّرك والضَّلالَةَ، فلَم يَطْرَأْ عَليهم حالٌ جَديدٌ، فحَسُنَ موقعُ لَفْظ: ﴿حَقَّتۡ﴾ هُنا دونَ أنْ يُقالَ: (أضلَّهُ اللّهُ)؛ لأنَّ ضلالهم قَديمٌ مستمِرٌّ اختاروهُ لأنْفُسِهم[4].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جنب).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 137.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/ 301.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 90.

الغرض من الاسْمِ الموصولِ ﴿مَّنْ﴾:

بَلاغةُ الموصول بِالإشعارِ بِعِلَّةِ الحُكمِ

في قَولِه تَعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، ورَدَ الاسمُ الموصولُ المشتَرَكُ ﴿مَّنْ﴾ للدَّلالَةِ على المهتدينَ والضّالّينَ كِلَيْهما، فهوَ يُفيدُ العمومَ؛ لأنَّه مُتَناوِلٌ في نَفْسِه للعاقِل مُفْرَدًا كان أوْ مُثنًّى أو مَجْموعًا، مُذَكَّرًا أوْ مُؤَنَّثًا، وكَذلكَ لأنَّ وضْعَ الموصولِ مَوضِعَ الاسْمِ يسمَحُ بِوَصْفِهِ بِجُملةِ الصِّلةِ، فبَيَّنَ قولُهُ: ﴿مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أنَّ سَبَبَ اهتداءِ المهتدينَ هُوَ بِفَضْلِ اللّه، وبَيَّنَ قولُهُ: ﴿مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ أنَّ سَبَبَ ضَلالِ الضّالينَ هو بِما سَبَقَ في عِلمِ اللّهِ مِنْ أنَّهُم يَصيرونَ إلى الشَّقاوَةِ، فالتَّعبيرُ بالمَوْصولِ غَرَضُهُ الإشْعارُ بِعِلَّةِ الحُكْمِ[1].

سِرُّ وُجوبِ الضَّلالَةِ بلفظ: ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ﴾:

الهِدايةُ والإضْلالُ مِنَ اللهِ ﷻ، ولكنَّهما للعَبْدِ اخْتِيارٌ يُحاسَبُ عَلَيْهِ

جاءَ التَّعبيرُ في جانِبِ الضَّلالَةِ بِلَفْظِ ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ﴾، دونَ إسْنادِ الإضْلالِ إلى اللّه، لما ذَكر اللّه في سورَةِ الأعرافِ أنَّ الضَّلالَةَ حَقَّتْ عَلَيهِم لاتِّخاذِهِمُ الشَّياطينَ أَوْلياءَ مِنْ دونِ اللّه، وكَذَلكَ إشارة إلى أنَّ اللّه لمّا نَهاهُم عن الضَّلالَةِ، فقَدْ كان تَصْميمُهُم عليها إبْقاءً لِضَلالَتِهِمُ السّابقةِ، فحَقَّتْ عليهِم الضَّلالَةُ، أيْ: ثَبَتَتْ ولَم تَرْتَفِعْ، وفي ذلك أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ بَقاءَ الضَّلالَةِ، مِنِ اخْتِيارِ أَنْفُسِهِم[2]، وإنْ قَدَّرَها اللّه في الأزَلِ، فمَنْ هَداهُ إلى الإيمانِ؛ فبِفَضْلِه، ولَهُ الحَمدُ، ومَنْ أضَلَّهُ؛ فبِعَدْلِه، ولَهُ الحَمدُ[3].

سِرُّ اختيارِ لفظِ ﴿ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾:

وَزْنُ المصْدَرِ ووَزْنُ المرَّةِ، وأثَرُهُما في القِلَّةِ والكَثْرَةِ

في قَولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، ورَدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ بِلَفْظِ: ﴿ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، دونَ لَفْظِ (الضَّلال)، فذَهَبَ بَعْضُ العُلَماءِ إلى التَّفْريقِ بَيْنَهُما، وقالوا: لَفْظُ الضَّلالَة أبْلَغُ مِنْ لَفظِ الضَّلالِ[4]،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 113.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 150.
(3) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاوية، ص: 107.
(4) ابن الأثير، المثل السّائر: 2/ 168.

فالضَّلالَةُ تكونُ مَصدَرًا، وتَكونُ عِبارَةً عَنِ المرَّةِ الواحِدَةِ، وتَوجيهُ الآيةِ على هَذا أنَّ الضَّلالَةَ كُتِبَتْ عَلَيهِم، ففَقَدوا الهُدى دَفْعَةً واحِدةً، وذَهَبَ فريقٌ آخرُ مِنَ العُلماءِ إلى أنَّهُ لا فرْقَ بَينَ الضَّلالَةِ والضَّلالِ، فكِلاهُما مَصدَرُ قَوْلِنا: ضَلَّ يَضِلُّ ضَلالًا وضَلالَةً، كما يُقالُ: لَذَّ يَلَذُّ لَذاذًا ولَذاذَةً، فتَأْنيثُه لَفْظِيٌّ مَحْضٌ، والعَرَبُ يَسْتَشْعِرونَ التَّأْنيثَ غالِبًا في أَسْماءِ أجْناسِ المَعاني، مِثْلَ الغَوايَةِ والسَّفاهَةِ، فالتّاءُ لِمُجَرَّدِ تَأْنيثِ اللَّفْظِ، ولَيْسَ في هَذِهِ التّاءِ مَعْنى الوَحْدَةِ؛ لِأَنَّ أسْماءَ أجْناسِ المَعاني لا تُراعى فِيها المُشَخِّصاتُ[1].

الغرض من الإظْهارِ في قَولِه: ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾:

تَكْذيبُ الرُّسُلِ موجِبٌ للعَذابِ والخُسْرانِ

في قَولِه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، إظهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، فلَم يَقُلْ: (فانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَتُهُم)، بَل أظهَرَ الضَّميرَ بقولِه: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، والسِّرُّ في ذَلكَ دَلالَةُ التَّنبيهِ على سَبَبِ تَعْذيبِهم وموجِبِه، وهوَ تَكْذيبُ الرُّسُلِ[2]، وفي ذَلكَ تَهْديدٌ وتَخْويفٌ وتَقْريعٌ لهم عَلَيْه.

الغرض من التعبير بالأمرِ ﴿فَسِيرُواْ﴾:

تَهْديدُ قُرَيْشٍ بِمَصيرِ الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ قَبْلَها من بليغ البيان

وَرَدَ فِعلُ الأمرِ في الآيةِ الكَريمَةِ: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ مُسْنَدًا إلى ضَميرِ الجَمعِ؛ لِأَنَّ الخِطابَ لِمَعْشَرِ قُرَيْشٍ بأَنْ يَسيروا في أكْنافِ الأرْضِ لِيَنْظُروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، مِنْ عادٍ وثَمودَ، ومَنْ سارَ سيرَتَهُم مِمَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ، لَعَلَّهُم يَعْتَبِرونَ حينَ يُشاهِدونَ في مَنازِلِهم ودِيارِهم آثارَ الهَلاكِ والعَذابِ[3]، وهم يستحقّون تلكم العقوبات السّاحقة، والتّأنيبات الماحقة؛ لأنَّهم مكذِّبون بالحقِّ لما جاءهم، فهم يعمدون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 92.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 351.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 113.

في تكذيبهم إلى الإنكار والمناكفة والكيد، وذلك ديدن المشركين في كلِّ العصور، ولا ريب أنَّ النَّظر في عواقب من كفر، من شأنه أن يكون المزدجر، ممّا يمنعهم من الفساد والضَّلال بكلِّ الصّور.

بَلاغَةُ الالتفاتِ في ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تَـنْـويـعُ المقـام لجَلبِ الانتِباهِ، واستدْعاءِ الإجابَةِ

في قَولِه تَعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾، التِفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ ﴿وَمِنۡهُم﴾ إلى الخِطابِ ﴿فَسِيرُواْ﴾، ونُكْتَتُهُ البَلاغيَّةُ بِأنَّهُ لمّا ذكَرَ الأُمَمَ السّابِقَةَ وحالها مَعَ الرُّسُلِ؛ التفَتَ إلى كُفّارِ قُريشٍ تَوْبيخًا لهُم عَلى تَكْذيبِهِم، وتَحْذيرًا لهُم مِنْ مَصيرٍ كَمَصيرِهِم[1]، ومِنْها أنَّ الكَلامَ إذا نُقِلَ مِنْ أسلوبٍ إلى أسْلوبٍ؛ كانَ ذَلكَ أحْسَنَ تَطْرِيَةً لِنَشاطِ السّامِعِ، وإيقاظًا لِلإصْغاءِ إلَيه، مِنْ إجْرائِهِ عَلى أُسْلوبٍ واحِدٍ، فالالتِفاتُ يَشُدُّ السّامِعَ ويَهُزُّهُ، لِيَكونَ الكَلامُ أوْقَعَ في نَفْسِهِ، وأدْعى لاسْتِجابَتِهِ.

نُكْتَةُ وُرودِ ﴿كَانَ﴾ من غير تاء التَّأنيث:

عاقِبَةُ المُكَذِّبينَ يومَ القِيامَةِ هو العَذابُ المقيمُ لا محالة

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، جُرِّدَتْ ﴿كَانَ﴾ مِنْ تاءِ التَّأْنيثِ مَعَ إسْنادِها إلى لَفْظٍ مُؤَنَّثٍ، بِناءً عَلى ما تَقَرَّرَ في النَّحْوِ مِنْ جَوازِ تَجْريدِ الفِعْلِ مِن عَلامَةِ التَّأْنيثِ إذا كانَ مَرْفوعُهُ غَيْرَ حَقيقِيِّ التَّأْنيثِ، ومِنْه قولُه تَعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 67]، وقولُه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ [النّمل: 51]، و﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النّمل: 14]، ونَحْوُ هذا مِمّا أُسْنِدَ فيه الفِعْلُ دونَ عَلامةٍ إلى المؤَنَّثِ[2]، وكَذَلكَ جاءَ بالتَّذْكيرِ نَظَرًا إلى المعْنى، فمعنى العاقِبَةِ هوَ الجَزاءُ[3]، وهوَ لَفْظٌ مُذَكَّرٌ، فذَكَّرَ لَفْظَ ﴿كَانَ﴾ مُراعاةً لَه في المعْنى دونَ اللَّفْظِ، وهذه الألوان من الاستعمالات المتنوّعة

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 744.

(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/ 72، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 171، ودرويش، إعراب القرآن: 3/ 72.

(3) ابن سلّام، التفسير: 2/ 647.

تزيد المعنى دقَّة، وتكسب العبارة جمالًا، وتعطي صورة عن سعة اللُّغة العربيَّة، وقدرة أهلها على التَّصرُّف ببراعة ووعي في صيغها وعباراتها، بما هو مفيد وإيجابيٌّ، ومُثْرٍ للمضمون.

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في تَذْكيرِ الألفاظِ وتَأْنيثِها حَسَبَ المعاني

تَوْجيهُ التَّشابُهِ اللَّفْظِيِّ في الآيَة:

قالَ اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ﴾، وقالَ سُبْحانَهُ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ﴾ [الأعراف: 30]، ووَجْهُ المغايَرَةِ بَيْنَهُما مِنْ جِهَةِ السِّياقِ: أنَّ آيةَ الأعْرافِ يَسْبِقُها قَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: 29]، فلَمّا كانَ النّاسُ يَتَفرَّقونَ مِنْ حَيْثُ الاسْتِجابَةُ لِما أمَرَ اللّه؛ ناسَبَهُ تَقْسيمُ النّاسِ إلى فريقَيْنِ، ولَمّا تَقدَّمَ ذِكْرُ اسْمِ الجَلالَةِ وما يَنْفي الشِّرْكَ؛ ناسَبَهُ أنْ يَكونَ الفاعِلُ ضَميرًا مُسْتَترًا، ولَمّا ذَكَرَ الفِعْلَ ﴿هَدَىٰ﴾ [الأعراف: 30]؛ ناسَبَهُ تَذْكيرُ الفِعْلِ ﴿حَقَّ﴾ [الأعراف: 30]، وكَذَلكَ ظاهِرُ السِّياقِ أنْ يُقالَ: (وَفَريقًا حَقَّ عَلَيْهِ)، لَكِنْ لَمّا كانَ التَفَرُّقُ دالًّا عَلى التَّعَدُّدِ، وأُريدَ أنْ يَشْمَلَ الحُكْمُ كُلَّ فردٍ مِنْ أفْرادِ الفَريقِ؛ ناسَبَهُ ذِكْرُ ﴿عَلَيْهِمُ﴾ [الأعراف: 30]، أمّا آيَةُ النَّحْلِ؛ فقدْ بَدَأتْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾، فلَمّا ذَكَرَ الكُلَّ؛ ناسَبَهُ ذِكْرُ الجُزْءِ: ﴿فَمِنْهُم﴾، ولَمّا كانَ الأمرُ باجْتِنابِ الطّاغوتِ سَبَبُهُ الشِّرْكُ؛ ناسَبَهُ تَأْكيدُ الأُلوهيَّةِ، بِجَعْلِ الفاعِلِ اسْمًا ظاهِرًا، ولَمّا كانَتِ الضَّلالَةُ عِبادَةَ الطّاغوتِ، وهِيَ مؤنَّثٌ؛ ناسَبَهُ ذِكْرُ تَأْنيثِ الفِعْلِ ﴿حَقَّتْ﴾، ولَمّا لم يَذْكُرْ تَفَرُّقَهُم؛ ناسَبَهُ ذِكْرُ ﴿عَلَيْهِ﴾.

هَذا مِنْ جِهَةِ السِّياقِ، ويُمكِنُ تَوْجيهُ سَبَبِ تَذْكيرِ الفِعْلِ وتَأْنيثِهِ في الآيَتَيْنِ من جهةٍ أُخْرى، وهِيَ النَّظَرُ إلى جانِبِ اللَّفْظِ وجانِبِ المَعْنى، فأمّا جانِبُ اللَّفْظِ؛ فيُلاحَظُ أنَّ الحُروفَ الحَواجِزَ بَيْنَ الفِعْلِ

والفاعِلِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [الأعراف: 30]، أكْثَرُ مِنْها في قَوْلِه: ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، ومَعْلومٌ أنَّ الحَواجِزَ بَيْنَ الفِعْلِ والفاعِلِ، كُلَّما كَثُرَتْ؛ كانَ حَذْفُ (التّاء) أحْسَنَ.

وَأمّا جانِبُ المَعْنى؛ فإنَّ (مَنْ) في سورَةِ النَّحْلِ واقِعَةٌ عَلى الأُمَّةِ، وهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لَفْظًا، فيَقولُ سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، أيْ: مِنَ الأُمَمِ أُمَمٌ ضَلَّتْ، أو حَقَّتْ عَلَيْها الضَّلالَةُ، ولَوْ قالَ بَدَلَ ذَلِكَ: (ضَلَّتْ)؛ لَتَعَيَّنَتِ التّاءُ، ومَعنى الكَلامَيْنِ واحِدٌ، وإذا كانَ مَعْنى الكَلامَيْنِ واحِدًا؛ كانَ إثْباتُ التّاءِ أحْسَنَ مِنْ تَرْكِها؛ لأنَّها ثابِتَةٌ فيما هوَ في مَعْناهُ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(بَعَثَ) و(أرْسَلَ):

البَعْثُ أعَمُّ مِنَ الإرْسالِ مُتَعَلَّقًا، وأقْوى دَلالَةً في استِعمالِه في هذا السّياق

البَعْثُ في اللُّغَةِ: الإثارَةُ والتَّوجيهُ والتَّنْبيهُ[2]، ثُمَّ يَخْتَلِفُ البَعْثُ باخْتِلافِ ما عُلِّقَ بِهِ، فتارَةً يَكونُ عامًّا في مَعْنى التَّوْجيهِ والإثارَةِ، فيُقال: بَعَثْتُ البَعيرَ، أيْ: سَيَّرْتُه، وبَعَثْتُ رَسولًا، أيْ: وجَّهْتُه، والبَعْثُ إيقاظٌ مِنَ النَّوم، وتَنْبيهٌ مِنَ الغَفْلَةِ والضَّلالَةِ، وإحْياءُ اللّهِ للمَوْتى بَعْثٌ لَهُم[3]، وتَجْتَمِعُ هَذِهِ المَعاني في التَّوْجيهِ والتَّنْبيهِ.

والإرْسالُ في اللُّغَةِ: تَوْجيهُ الشَّيْءِ بِرِفْقٍ وتُؤَدَةٍ ورَحْمَةٍ، ومِنْهُ التَّرَسُّل في الكَلامِ والمَشْيِ؛ أيِ: الهُدوءُ والتَّأنِّي، وعَدَمُ العَجَلَةِ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: عَلى رِسْلِك، أيْ: تَرَفَّقْ، وتَأنَّ في القَوْلِ أوِ الفِعْلِ، والاسْتِرْسالِ: الطُّمَأْنينَةُ والسُّكونُ.

وَبِهَذا يَتَّضِحُ أنَّ البَعْثَ والإرْسالَ يَشْتَرِكانِ في مَعْنًى لُغَوِيٍّ عامٍّ هوَ التَّوْجيهُ.

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 132.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(3) الرّاغب، المفردات: (بعث).

وَيَخْتَلِفان في أنَّ الإرْسالَ: يَتَمَيَّزُ بالتُّؤَدَة والرِّفْق والهدوء، والبَعْثَ: يَتَمَيَّزُ بِمَلْمَحِ التَّنْبيه والإيقاظِ[1]، فهوَ أعَمُّ مِنَ الإرسالِ مِنْ جِهَةِ أنَّ فيه إثارَةً وتهييجًا، كَبَعْثِ النّائم، وبَعْثِ المَوْتى مِنَ القُبورِ[2]، ولا يُمكِنُ اسْتِعمالُ الإرْسالِ فيهما.

(اجْتَنِبوا) و(لا تقربوا):

يَفْتَرِقُ لفظُ (اجْتَنِبوا) عَنْ لفظِ (لا تَقْرَبوا)، في كَوْنِ (الاجْتِنابِ) دالًّا على البُعدِ، فالاجْتِنابُ يُراد منه أنْ يَكونَ العَبْدُ في ناحيةٍ وجانبٍ بَعيدٍ[3]؛ لأنَّه مُشْتَقٌّ مِنَ الجَنْبِ والجانِبِ، ومِنْ كَوْنِ الجَنْبِ ناحيةً خارجيةً، جاءَ معْنى البُعدِ والإبعادِ[4]، وهوَ بذلكَ أبلغُ مِنْ لَفظِ (لا تَقْرَبوا)، لِما فيهِ مِنْ مَعانٍ مَجازِيَّةٍ تَزيدُ عَنِ المعنى الحقيقِيِّ، لمجرَّدِ عَدَمِ القُرْبِ.

تَـرْكُ الأوامـرِ أعْظَمُ عند الله مِـن ارتـكـابِ المناهي

وَيَظْهرُ أيْضًا الفَرْقُ بَيْنَهُما في الصّيغَة، فلَفْظ: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟﴾ أمرٌ بالاجْتِنابِ، ولفظُ ﴿لَا تَقْرَبُوا۟﴾ [النساء: 43] نهيٌ عَنِ القُربِ، وتَركُ الأوامرِ أعْظَمُ عند الله من ارتكابِ المناهي، وذَلِكَ مِنْ وجوهٍ عديدةٍ، منها أنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نُهِيَ عنْ أكلِ الشَّجَرَة، فأكَلَ منْها، فتابَ عَليه، وإبْليسُ أُمِرَ أن يَسجُدَ لآدمَ، فلَم يسجُدْ، فلَم يَتُبْ عَليه، ومِنها أنَّ ذَنْبَ ارتكابِ النَّهْيِ مَصْدرُهُ في الغالِبِ الشَّهوةُ والحاجَةُ، وذَنْبَ تَرْكِ الأمرِ مَصْدرُهُ في الغالِبِ الكِبْرُ والعِزَّةُ، ولا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، ويَدْخُلُها مَنْ ماتَ عَلى التَّوحيدِ وإنْ زَنى، وسَرَقَ[5].

وَيَشْتَرِكُ لفظُ ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟﴾ مَعَ لَفْظِ ﴿لَا تَقْرَبُوا۟﴾ [النساء: 43] في كَوْنِهما أبلغَ في النَّهْيِ والتَّحْريمِ، مِنْ لَفْظِ (حَرَّمَ)؛ لأنَّ معناهُما

(1) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 136.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بعث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جنب).
(5) ابن القيّم، الفوائد: 1/ 171.

البُعدُ عن الشَّيءِ بالكُلِّيَة، ولأنَّ القُربَ مِنْه إذا كانَ حَرامًا، فيَكونُ الفعلُ مُحَرَّمًا مِنْ بابٍ أَوْلى[1]، وكُلَّما كانَتِ الحرمَةُ شَديدَةً؛ جاءَ التَّعبيرُ بأحَدِهما.

الطّاغوت والشَّيطان:

لَفظُ (الطّاغوتِ) أَعَمُّ مِنْ لفظِ (الشَّيطانِ)، وأدلُّ على المراد في السّياق

لفظُ الطّاغوتِ يُطلقُ عَلى كُلِّ مَعْبودٍ من دونِ اللهِ، مِنْ حَجَرٍ أَوْ صورَةٍ أَوْ شَيطانٍ[2]، فيكونُ لفظُ الشَّيطانِ بِهَذا المعْنى داخِلًا في معْنى الطّاغوتِ؛ إذْ كُلُّ رَأسٍ في الضَّلالَةِ من شَيطانٍ أو غيرِه يُسَمّى طاغوتًا[3]، أمّا لَفظُ الشَّيْطانِ؛ فهوَ وصْفٌ يَقَعُ عَلى كُلِّ عاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الإنْسِ والجنِّ والدَّوابِّ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: 14]؛ أي: المُنافِقونَ والكُفّارُ مِنَ اليَهودِ[4]، واشْتِقاقُ الطّاغوتِ مِنَ الطُّغْيانِ ومُجاوَزَةِ الحَدِّ[5]، واشتِقاقُ الشَّيْطانِ إمّا مِنَ الشَّطَنِ، وهوَ التَّباعُدُ عَنِ الخَيرِ، تَقولُ العَرَبُ: دارٌ شَطون، أيْ: بَعيدَةٌ[6]، وإمّا من الفِعْلِ (شاطَ) بِمَعْنى: احْتَرَقَ أوْ هَلَكَ، فالشَّيْطانُ هالِكٌ لِغَيِّهِ وشَرِّه[7]، فيَتَّضِحُ بِهَذا أنَّ لفظَي (الطّاغوت) و(الشَّيْطانِ)، يَشْتَرِكانِ في العُتوِّ وتَجاوُزِ الحَدِّ، وإنْ كانَ لَفْظُ (الطّاغوتِ) أعَمَّ وأشْمَلَ، ويَخْتَلِفانِ في الاشْتِقاقِ اللُّغَويِّ.

(حَقَّتْ) و(حُقَّتْ):

تَغيُّرُ الحَرَكات، وأثَرُه في تَنَوُّعِ الدَّلالات

وَرَدَ في قَولِه تَعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، لَفْظُ ﴿حَقَّتْ﴾ مَبْنِيًّا لِلمَعْلومِ، ومَعْنى ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ

(1) الصّابوني، روائع البيان: 1/ 562.
(2) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 128.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (طغو - طغي).
(4) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 141.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغي).
(6) الخليل، العين: (شطن).
(7) الراغب، المفردات: (شطن).

ﱡﭐالضَّلَٰلَةُۚﱠ، أيْ: وجبَتْ وثَبَتَتْ[1]، ووَرَدَ في قَولِه تَعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢﴾ [الانشقاق: 2]، لَفْظُ ﴿وَحُقَّتۡ ٢﴾ [الانشقاق: 2] مَبْنِيًّا لما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ، يُقالُ: حُقَّ فُلانٌ بكَذا، أيْ: تَوَجَّهَ عَلَيْهِ حَقٌّ، ولَمّا كانَ فاعلُ تَوجيهِ الحقِّ غَيْرَ واضِحِ تَعيينُهُ غالِبًا؛ كانَ مَبنِيًّا لِلمَفْعولِ في الاسْتِعمالِ، ومَرْفوعُهُ بِمَعْنى اسم المفعولِ، فيُقالُ: حَقيقٌ عليه كَذا، وهوَ محقوقٌ بِكَذا، كقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [الأعراف: 105][2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 09/ 207.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 219.

﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ [النّحل: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

علاقة النَّظر في عاقبة المكذِّبين بكونهم لا يهتدون، ولا يجدون من أحد نصرًا

لـمّا ذكرَ سبحانه بطلانَ حُجَّةِ الكُفّارِ، وكان المحقَّقُ أنَّهُ ليسَ بعدَ الإيصالِ في الاستدلال إلى الأمر المحسوسِ إلّا العِنادُ؛ أعرضَ عنهم مُلتفِتًا إلى الرَّؤوفِ بهم الشَّفيقِ عليهم، فقال مُسلّيًا له صلّى اللّٰه عليه وعلى آله وسلَّم: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿تَحۡرِصۡ﴾: حَرَصَ يحرِصُ حِرْصًا، والحاءُ والرّاءُ والصّادُ أصلان: أحَدُهُما الشَّقُّ، والآخَرُ الجشَعُ، فالأوَّلُ: الحِرْصُ الشَّقُّ، يُقالُ: حَرَصَ القَصّارُ الثَّوبَ؛ إذا شَقَّهُ[2]، والمعْنى المقْصودُ بِالحِرْصِ عَلى الشَّيءِ: هوَ التَّمَسُّكُ بوجودِهِ أوْ تَحْصيلِه، والمحافَظَةُ عَلَيْه، والثاني: الضَّنُّ بِهِ وعَدَمُ إفْلاتِه، وهَذا هوَ التَّعْبيرُ المناسِبُ - لا الشَّرَهُ ولا الجشَعُ - لتفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ [التّوبة: 128][3]، ونظيرُه قوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، فيَكون المعْنى المرادُ لِلحِرْصِ فيها هوَ فرْطُ إرادَتِه ﷺ في هِدايَتِهم[4].

2) ﴿هُدَىٰهُمۡ﴾: تَرْجِعُ هَذِهِ المادَّةُ (الهاء والدّال والحرْفُ المعتلُّ)

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 154.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرص).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حرص).
(4) الراغب، المفردات: (حرص).

إلى أصلَيْنِ، أحدُهما: التَّقدُّمُ للإرْشادِ، والثّاني: بِعْثَةُ لُطْفٍ، والمقْصودُ هُنا الأصْلُ الأوَّلُ، فمِنْه قوْلهم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً، أيْ: تَقَدَّمتُهُ لأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتقَدِّمٍ لِذَلِكَ هادٍ، ويُقال: أقْبَلَتْ هَوادي الخَيْلِ، أيْ: أعناقُها، ويُقالُ: هاديها: أوَّلُ رَعيلٍ مِنْها؛ لأنَّهُ المتَقَدِّمُ، والهادِيَةُ: العَصا؛ لأنَّها تَتَقَدَّمُ مُمسِكَها كأنَّها تُرْشِدُهُ، ومِنهُ الهُدى: خِلافُ الضَّلالَةِ، تَقولُ: هَدَيْتُهُ هُدًى[1]، الهُدى هوَ الرَّشادُ والدَّلالَةُ[2]، وهوَ كَذَلِكَ البَيانُ، تَقولُ: هَدى يَهْدي هُدًى وهِدايَةً، والهُدى: إخْراجُ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ، والهُدى أيْضًا: الطّاعَةُ والوَرَعُ، والهُدى: الهادي في قوله جَلَّ وعَزَّ: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠﴾ [طه: 10]، أيْ: هادِيًا، والطَّريقُ يُسَمّى هُدًى[3]، قال العبّاس بن مرداس:

يا خاتمَ النُّبّآءِ إنَّكَ مُرْسَلٌ *** بالحَقِّ كُلُّ هُدَى السَّبيلِ هُداكا[4]

فَيَكونُ الهدى المرادُ في هَذِهِ الآيَة، هو إرْشادُ العبادِ، وإنْقاذُهم مِنَ الضَّلالِ.

3) ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: جَمعُ ناصِرٍ، وهوَ اسْم فاعِلٍ مِنَ الفِعْلِ نَصَرَ يَنْصُرُ نَصْرًا، والنّونُ والصّادُ والرّاءُ أصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِهِ، ونَصَرَ اللّه المسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِم، يَنْصُرُهُم نَصْرًا، وانْتَصَرَ: انْتَقَمَ، وهوَ مِنْهُ[5]، وفي الحَديث: "انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مَظْلومًا"[6]، وتَفْسيره: أن يَمنَعهُ مِنَ الظُّلم إنْ وجَدَه ظالِمًا، وإن كانَ مَظْلومًا أعانَهُ عَلى ظالمِه[7]، ويَدورُ مَعْنى النَّصْرِ حَوْلَ الإمدادِ بما فيه زِيادةٌ مُناسِبةٌ وقوَّةٌ، ومِنْ مَلْحَظِ الإمدادِ بالزّيادَةِ والقوَّة جاءتِ النُّصْرة، وهي حُسْنُ المعونَةِ للمَظْلوم، وهَذا المعنى الأخير هوَ أشْيَعُ مَعاني النَّصْرِ[8]، وهوَ المعْنى المرادُ في الآيَةِ؛ إذْ نَفَتْ وُجودَ أيِّ أحَدٍ يَنْصُرُ مَنْ أضلَّهُ اللّه، أوْ يُجيرُهُ مِنْ عَذابه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (هدي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هدي).
(4) الخطابيّ، غريب الحديث: (هدي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(6) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (2444).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هدي).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصر).

المَعنى الإجْماليُّ:

الهدايةُ بِيَدِ اللهِ وحدَه، لا بِيَدِ النَّبيِّ ﷺ وحرصه

يُخاطب الله نبيَّه الكريم: إن تَبذُلْ - أيُّها الرَّسولُ - أقْصى جُهدِكَ لهدايَةِ هؤلاءِ المشركينَ؛ فاعْلَم أنَّ الله لا يَهدي مَن يُضِلُّ، وليسَ لهُم مِنْ دونِ الله أحدٌ يَنصُرُهم، ويمنَعُ عنهم عَذابَه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاسْتِئْنافِ في جملة: ﴿إِن تَحۡرِصۡ﴾:

حِرْصُ النَّبيِّ ﷺ عَلى نَجاةِ أمَّتِه؛ من أبرز شمائله

في قَوْلِه تَعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ، وتَوْضيحُهُ أنَّ تَقْسيمَ كُلِّ أُمَّةٍ ضالَّةٍ، إلَى مُهْتَدٍ مِنْها وباقٍ عَلى الضَّلالِ، يُثيرُ سُؤالًا في نَفْسِ النَّبيِّ ﷺ عَنْ حالِ هَذِهِ الأُمَّةِ: أهوَ جارٍ عَلى حالِ الأُمَمِ الَّتي قَبْلَها، أوْ أنَّ الله يَهْديهم جَميعًا، وذَلِك مِنْ حِرْصِه عَلى خَيْرِهم ورَأْفَتِه بِهِم، فأعْلَمَهُ الله أنَّهُ مَعَ حِرْصِه عَلى هُداهُم، فإنَّهُم سَيَبْقى مِنْهُم فَريقٌ عَلى ضَلالَةٍ[2].

دَلالَةُ ﴿إِن﴾ على الشَّرْطِ في ﴿إِن تَحۡرِصۡ﴾:

تَكَرُّرُ الدَّعوَةِ النَّبويَّةِ، واسْتِمرارُها لسَنواتٍ طِوال

وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾، اسْتِعْمالُ حَرْفِ ﴿إِن﴾، وهوَ وإنْ كانَ يَرِدُ عُمومًا في المعاني المحْتَمَلَةِ الوُقوع، والمشْكوكِ في حُصولها، والموهومَةِ والنّادِرَةِ والمسْتَحيلَةِ، وسائِرِ الافتراضاتِ الأخْرى[3]؛ إلّا أنَّ دُخولَهَ عَلى فِعْلِ الشَّرْطِ المضارِعِ ﴿تَحۡرِصۡ﴾، يُفيدُ افتِراضَ تَكَرُّرِ الحدَثِ ودَوامِه واسْتِمرارِه، وهوَ موافِقٌ لِسياقِ الآيَةِ، فرَسولُ الله ﷺ دائِمُ الحِرْصِ عَلى هِدايَةِ قَوْمِه، وما فتِئَ يُكَرِّرُ دَعْوَتَهُم إلى صِراطِ الله المسْتَقيم.

بَلاغَةُ أُسلوبِ الشَّرْطِ في الآيَة:

مَنْ أضَلَّهُ الله؛ فلا يَسْتَطيعُ أحدٌ هِدايَتَهُ

وَرَدَ أُسْلوبُ الشَّرْطِ في قَوْلِه تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 271.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 151.
(3) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 69.

﴿ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، والغرَضُ البَلاغي مِنْهُ: إنَّما هوَ لِتَعْليقِ العِلْمِ بِمَضْمونِ الجوابِ عَلى دَوامِ حُصولِ مَضْمونِ الشَّرْطِ، والمَعْنى: إنْ كُنْتَ حَريصًا عَلى هُداهُم حِرْصًا مُسْتَمِرًّا؛ فاعْلَم أنَّ مَنْ أضَلَّهُ اللّه؛ لا تَسْتَطيعُ هَدْيَهُ، ولا تَجِدُ لِهَدْيِهِ وسيلَةً، ولا يَهْديهِ أحَدٌ، فالمضارِعُ مُسْتَعْمَلٌ في مَعْنى التَّجَدُّدِ، ولَيْسَ الشَّرْطُ هُنا لِتَعْليقِ حُصولِ مَضْمونِ الجوابِ عَلى حُصولِ مَضْمونِ الشَّرْطِ؛ لأنَّ مَضْمونَ الشَّرْطِ مَعْلومُ الحصولِ؛ لِأنَّ عَلاماتِهِ ظاهِرَةٌ بِحَيْثُ يَعْلَمُهُ النّاسُ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ [التَّوْبَة: 128][1].

دَلالةُ التَّعْريضِ في سياقِ الشَّرط:

رَأفَةُ النَّبيِّ ﷺ وسُموُّ نَفْسِهِ؛ كَمالٌ ظاهِرٌ وباطِنٌ

قَوْلُه تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾، جاءَ فيه التَّعْريضُ بالثَّناءِ عَلى النَّبيِّ ﷺ في حِرْصِهِ عَلى خَيْرِهِم، مَعَ ما لَقِيَهُ مِنْهُم مِنَ الأذى الَّذي شَأْنُهُ أنْ يُثيرَ الحنَقَ في نَفْسِ مَنْ يَلحَقُهُ الأذى، ولَكِنَّ نَفْسَ مُحَمَّدٍ ﷺ مُطَهَّرَةٌ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ يَنْشَأُ عَنِ الأَخْلاقِ الحَيوانيَّةِ[2].

دَلالَةُ الفِعْلِ المضارِعِ ﴿تَحۡرِصۡ﴾:

صيغَةُ المُضارِعِ تُفيدُ تَكَرُّرَ الحَدَثِ واسْتِطالَتَهُ

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾، اسْتِعْمالُ الفِعْلِ المضارِعِ ﴿تَحۡرِصۡ﴾، دونَ غَيْرِهِ مِنَ الأفْعالِ، لِنُكْتَةِ أنَّ الحِرْصَ فَرْطُ الإرادَةِ المُلِحَّةِ في تَحْصيلِ المرادِ بِالسَّعْيِ في أسْبابِهِ[3]، وكَذَلِكَ فإنَّ وُرودَهُ، وهوَ فِعْلُ الشَّرْطِ بِصيغَةِ المُضارِعِ، يُفيدُ افتراضَ تَكَرُّرِ الحَدَثِ، أَوْ يُفيدُ تَطاوُلَ الحدَثِ[4]، فما انْفَكَّ رَسولُ اللّه ﷺ يُكَرِّرُ دَعْوَتَهُ لِقَوْمِهِ، وقدِ امتَدَّتْ دَعْوَتُهُ لِسَنَواتٍ طَويلَةٍ شَفَقَةً عَلى قَوْمِهِ، ورَغْبَةً في نَجاتِهِم، وهو الَّذي جُبِلَ على الإشفاقِ، وانطوى قلبُهُ الواسِعُ على معاني الرَّحمةِ واللُّطفِ، وخفض الجناح للمؤمنين،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 151.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 151.
(4) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 78.

وكان حرصه المنوَّه به في الآيات لونًا من ذلك الكمال الأسمى الَّذي وصفه به ربُّه بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التّوبة: 128].

مَعْنى (الفاء) الواقعة في جواب الشَّرط ﴿فَإِنَّ﴾:

عَدَمُ تَوْفيقِ الله العَبْدَ لِلهِدايَةِ عِلَّةٌ لوُقوعِه في الضَّلالِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾، وقَعَ جَوابُ الشَّرْطِ لـ (إنَّ) الشَّرطِيَّة جُملَةً اسْمِيَّةً، فوَجَبَ اقترانُها بالفاءِ[1]، والفاءُ في جَوابِ الشَّرْطِ، وإنْ لم تَكُنْ عاطِفةً، فإنَّ ذَلِكَ لا يُخْرِجُها مِنْ أن تكونَ بِمَنْزِلَةِ العاطِفةِ في أنَّها جاءَتْ لتَرْبطَ جُملَةً لَيْس مِنْ شَأْنها أنْ تَرْتَبِطَ بِنَفْسِها[2]، وهِيَ تُفيدُ التَّعْليلَ بمعْنى: أنَّ ما بَعْدَها عِلَّةٌ لما قَبْلَها، فعَدَمُ تَوْفيقِ اللّه العَبْدَ لِلهِدايَةِ عِلَّةٌ وُقوعِه في الضَّلالِ وعَدَمِ اهْتِدائِه، فمَهْما حَرَصْتَ عَلى هِدايَتِهِ؛ فلَنْ يَهْتَدِيَ.

دَلالَةُ جَوابِ الشَّرْطِ في الآيةِ الكريمة:

ارْتِباطُ الهُدى والضَّلالِ بتَقْديرِ الله في الأَزَلِ

دَلَّ جَوابُ الشَّرطِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ عَلى أنَّ اللّه قَدْ كَتَبَ الهُدى والضَّلالَ أزَلًا في كِتابِ المقاديرِ، فإضْلالُ اللّه تعالى يَكونُ عَلى سُنَنٍ خاصَّةٍ لا تَقْبَلُ التَّبْديلَ ولا التَّغْيير لِقوَّة سُلطانِهِ وسَعَةِ علمِه، فمَنْ أصَرَّ عَلى الضَّلالِ، وجادَلَ عَنْهُ، وحارَبَ مِنْ أجْلِهِ، باخْتِيارِهِ وحُرِّيَّتِهِ؛ حَرَمَهُ اللّه ذَلِكَ التَّوْفيقَ، فضَلَّ ضَلالًا لا أمَلَ في هِدايَتِهِ[3]، وفي الجوابِ أيْضًا بيانٌ صَريحٌ في أنَّ هَذا الهُدى لَيْسَ لَهُ ﷺ، ولَوْ حَرَصَ عَلَيْهِ، ولا إلى أحَدٍ غَيْرِ اللّه، وأنَّ اللّه سُبْحانَهُ إذا أضَلَّ عَبْدًا؛ لم يَكُنْ لأحَدٍ سَبيلٌ إلى هِدايَتِه، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ [الأعراف: 186][4].

---

(1) ابن مالك، شرح الكافية: 3/ 1596.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 214.
(3) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 117.
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 117.

نُكتَةُ وُرودِ المؤكِّداتِ في الآية الكريمة:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾، جاءَ الكلامُ مُؤَكَّدًا بِمُؤَكِّدَيْن هُما: (إنَّ) واسميَّةُ الجملَة، تَنْزيلًا للمُخاطَبِ غَيْرِ المنْكِرِ مَنْزِلَةَ المنْكِرِ؛ إذا اقْتَضى السِّياقُ التَّأْكيدَ، فيُؤَكَّدُ لَهُ الكلامُ تأكيدَهُ للمُنْكِرِ، وغيرُ المنْكِرِ يَشْمُلُ خاليَ الذِّهْنِ مِنَ الحكْمِ، والمتَرَدِّدَ، والعالمَ بِهِ مِنْ غَيْرِ إنْكارٍ ولَكِنَّهُ لا يَعْمَلُ بِهِ[1]، والمقْصودُ في هَذِهِ الآيَةِ التَّأْكيدُ الجازِمُ عَلى عَدَمِ اهْتِداءِ مَنْ أَضَلَّهُ اللّه، ولَوْ حَرَصْتَ - يا مُحمَّدُ - عَلى هِدايةِ المُشْرِكينَ لاتِّباعِ الحقِّ، فإنَّ اللّه لا يَهْدي إليهِ مَن قدَّرَ بحِكْمَتِه وعَدْلِه دوامَ ضَلالِه، فلا تُجهِدْ نَفسَكَ في أمرِه، وبلِّغْه ما أُرسِلْتَ به لِتقومَ عَلَيهِ الحُجَّةُ[2]، والأصل أنَّ اللّه قد ضمن للإنسان حريَّة الاختيار في مجال الإيمان والكفران، وقد خاطب رسوله الأكرم بما مَعْناه: "فلا تهلك نفسُك حزنًا إذا لم يتحقَّق ما تريد، فقد تحكَّمت فيهم الشَّهوات، واللّه لا يجبر على الهداية من اختاروا الضَّلال وتمسَّكوا به؛ لأنَّه يتركهم لما اختاروا لأنفسهم، وسيلقون جزاءهم عذابًا عظيمًا"[3].

مَـنْ قــدَّرَ اللهُ دَوامَ ضَـلالِـه بحِكْمَتِه، فلن يَـهْـدِيَـهُ أحَـدٌ بحيلته

أثَرُ تَعدُّدِ القِراءَةِ القرآنيَّة:

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾، قراءتان مَشْهورَتانِ:

مَـنْ أضَـلَّـهُ اللهُ فلـن يَـهْـتَـدِيَ، ولـن يـكـون لـه هادٍ ولا مرشد

أوَّلُهما: قراءة الكوفيِّينَ: عاصِم وحَمزَة والكِسائيّ وخَلَف، ﴿لَا يَهۡدِي﴾، بفتحِ الياءِ وكسرِ الدّالِ، بالبِناءِ لِلفاعِلِ، وضَميرُ اسْمِ الجَلالَةِ هوَ الفاعِلُ، و﴿مَن﴾ مَفْعولُ يَهْدي.

والثانيَةُ: قَرَأَ غيرُ الكوفيِّين، وهُم نافِعٌ وابْنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو وابْنُ

(1) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 47.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 218.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 390.

عامرٍ وأبو جَعْفرٍ ويَعْقوبُ: ﴿لَا يُهْدَىٰ﴾، بِضَمِّ الياءِ وفَتْحِ الدّالِ، مَبْنِيًّا لِلنّائِبِ، واتَّفَقوا جميعًا عَلَى ضَمِّ الياءِ وكَسْرِ الضّادِ مِنْ ﴿يُضِلُّ﴾[1].

والمَعْنى عَلى القِراءَةِ الأولى: ﴿لَا يَهْدِى﴾: أنَّ اللّه لا يَهْدِي مَن قَدَّرَ دَوامَ ضَلالِه[2]، وقَدْ قالَ الكِسائيُّ: في هَذِهِ القِراءَةِ وجْهانِ: أنَّ اللّه إذا كَتَبَ عَبْدًا شَقيًّا فإنَّهُ لا يَهْديه، كَقَوْلِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة: 258]، وكانَ مُجاهِدٌ رَحِمَه اللّه يَقول: أَرْبَعَةُ أشْياءَ لا تُغَيَّرُ: الشَّقاءُ والسَّعادةُ والحياةُ والمَوْتُ، والوَجْهُ الآخَرُ: أنَّ اللّهَ جَلَّ وعزَّ مَنْ يُضِلُّ لا يَهْدي، أيْ: لا يَهْتَدي، والعَرَبُ تَقول: هَداهُ اللّه، فهَدى واهْتَدى لُغَتانِ بِمَعْنًى واحِدٍ.

ويَكونُ المَعْنى عَلى القِراءَةِ الثّانِيةِ: ﴿لَا يُهْدَىٰ﴾ عَلى ما لم يُسَمَّ فاعِلَهُ، أيْ: مَنْ أَضَلَّهُ اللّهُ لا يَهْديهِ أحَدٌ، فعَنْ عِكْرِمَةَ عَن ابن عَباسٍ قالَ: قيل لَهُ: فإنَّ اللّهَ لا يهدي مَنْ يَضِلُّ؟ قالَ: مَنْ أضَلَّهُ اللّه لا يُهدَى، وحجَّتُهم قِراءَةُ أُبَيٍّ: (لا هادِيَ لِمَنْ أضَلَّهُ اللّه)، مِثْلُ: لا يُهانُ مَنْ أكْرَمَهُ اللّه[3]، ويُمكِنُ الجمعُ بَيْنَ مَعْنى القِراءَتَيْنِ: أنَّ مَنْ أضَلَّهُ اللّه لا يَهْتَدي، ولا هادِيَ لَهُ.

بَلاغَةُ الطِّباقِ وأثره في السّياق:

تَوضيحُ المعْنى بِجَمعِ اللَّفْظِ وضِدِّهِ معًا

في قولِهِ تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ طِباقٌ بَديعٌ بَيْنَ لَفْظَيْ ﴿يَهْدِى﴾ و﴿يُضِلُّ﴾، وهوَ مُحَسِّنٌ بديعي مَعْنَوِيٌّ، فبَيْنَ تَقابُلِ الهِدايَةِ والضَّلالِ وتَخالُفِهِما تَضادٌّ يُثيرُ الذِّهْنَ، ويَجْذِبُ الانْتِباهَ[4]، ويَزيدُ الكلامَ حُسْنًا وطَرافَةً[5]، ويُقَوّي المَعْنى ويوضِّحُه؛ إذْ بِضِدِّها تَتمايَزُ الأَشْياءُ.

---

(1) ابن الجزري، النّشر: 02/ 304.
(2) ابن خالويه، الحجة، ص: 211.
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 388.
(4) السّبكيّ، عروس الأفراح، ص: 303.
(5) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 303.

بَلاغَةُ الجِناسِ في ﴿هُدَىٰهُمۡ﴾ و﴿لَا يَهۡدِي﴾:

اشْتِقاقُ الألْفاظِ المتجانِسَةِ مِن أصْلٍ واحِدٍ؛ من فصيح الدَّلالة

في قَوْلِه تَعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾، مُحَسِّنٌ بَديعيٌّ لَفْظِيٌّ بَيْنَ لَفْظَتَيْ ﴿هُدَىٰهُمۡ﴾ ﴿لَا يَهۡدِي﴾، يُسَمّى جِناسَ الاشْتِقاقِ، وهوَ أنْ يَكونَ اللَّفْظانِ المتَجانِسانِ يَجْمَعُهُما أصْلٌ واحِدٌ في الاشْتِقاقِ[1]، وهوَ في هَذِهِ الآيةِ الهُدى.

مَعْنى عَدَمِ الهِدايَةِ في ﴿لَا يَهۡدِي﴾:

الاخْتِيارُ مدارُ الإيمانِ والكُفْرِ، لا الإلْجاءُ والاضطرار

يُشيرُ قَوْلُه تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ إلى أنَّ اللّه تَعالى لا يَخْلُقُ الهِدايَةَ جَبْرًا وقَسْرًا، فيمَن يَخْلُقُ فيهِ الضَّلالَةَ بِسوءِ اخْتِيارِه[2]، فمَنِ اخْتارَ الضَّلالَةَ، ووَجَّهَ هِمَّتَهُ إلى تَحْصيلِ أسْبابِها، فاللّه سُبْحانَهُ لا يَخْلُقُ فيهِ الهِدايةَ قَسْرًا وإلْجاءً؛ لأنَّ مَدارَ الإيمانِ والكُفْرِ الاخْتِيارُ لا الإلْجاءُ والاضطِرارُ، ولَوْ شاءَ اللّه لَخَلَقَ الإيمانَ في قُلوبِ عِبادِهِ خَلقًا، بِحَيْثُ لا يَكونُ لَهُم فيهِ عَمَلٌ ولا اخْتِيارٌ، وحينَئِذٍ لا يَكونونَ مُحْتاجينَ إلى الرُّسُلِ، كَما أنَّهُ لَوْ شاءَ جَعَلَ الآياتِ مُغَيِّرةً لِطَبائِعِ البَشَرِ، ومُلزِمَةً لهم أنْ يُؤْمِنوا، فيَكونُ الإيمانُ إلجاءً وقَسْرًا لا اختِيارًا، ولَكِنَّهُ لم يَشَأْ ذَلِكَ بِدَليلِ قَولِهِ تَعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256][3].

بَلاغَةُ الاسْمِ المَوْصولِ في قولِه: ﴿مَن يُضِلُّۖ﴾:

عِلَّةُ عَدَمِ اهتِداءِ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ

وُضِعَ المَوْصولُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾، مَوْضِعَ الضَّميرِ لِلتَّنْصيصِ عَلى أنَّهم مِمَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ، ولِلإِشْعارِ بِعِلَّةِ الحكمِ؛ لأنَّ الصِّلَةَ أقْوى دَلالَةً عَلى التَّعْليلِ من دَلالَةِ المشْتَقِّ عَلى عِلِّيَّةِ الاشْتِقاقِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المذْكورُ عِلَّةً لِلجَزاءِ المحْذوفِ، أيْ: إنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهم، فلَسْتَ بِقادِرٍ عَلى ذَلِكَ؛

(1) عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص: 230.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 113.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/ 5.

لِأنَّ اللّه لا يَهْدِي مَن يُضِلُّه، وهَؤُلاءِ مِن جُملَتِهِم[1]، وقد بيَّن السّياق أنَّ "سنَّة اللّه في إضلال من اختار الضَّلال سنَّةٌ ماضيةٌ حاضرةٌ مستمرَّةٌ: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: 75]"[2]، وقد "قضى عليهم بالكفر؛ لأنَّهم هم من اختار الضَّلال، ورفض الهدى ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصّف: 5]، فهم مَن زاغ ورفض الحقَّ، فكان عاقبة زيغانهم أن أزاغ اللّه قلوبهم عقابًا لهم"[3].

دَلالَةُ (ما) النّافِيةِ في قَوْلِه: ﴿وَمَا لَهُم﴾:

المُبالَغةُ في تَوْكيدِ النَّفي بـ (ما) النّافِيَة مفيد في السّياق

جاءَ النَّفْيُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، بِحَرْفِ (ما) النّافية، للتَّأْكيدِ عَلى أنَّ مَن أضَلَّهُم اللّهُ لَيْسَ لهُم مِنْ دونِ اللّه أحَدٌ يَنْصُرُهُم، ويَمنَعُ عَنْهُم عَذابَهُ، وكلَّما كانَ السّياقُ القرآنيُّ يَحْتاجُ إلى مُبالَغَةٍ في تَوْكيدِ النَّفي؛ جيءَ بِه مَنْفِيًّا بـ (ما) النّافِيَة لما تَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ سائِرِ حُروفِ النَّفْي مِنْ خَصائِصَ: كَنَفْيِ الحال، ونَفي الجِنْسِ، مُتَّصِلَةً بِمَنْفِيّها أوْ مُنْفَصِلَةً عَنْهُ، واقْتِرانِ اسْمِها بـ ﴿مِّن﴾ الزائِدَةِ الدّالَّةِ عَلى الاسْتِغْراقِ والتَّوْكيدِ[4].

دَلالَةُ اسْتِخْدامِ حَرْفِ الجرِّ الزّائِدِ:

بيان اسْتِغْراق نَفْي وُجودِ ناصِرٍ للكافِرينَ مِنْ دونِ اللّه ربِّ العالمين

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، اسْتِخْدام حَرْف الجرِّ الزّائِدِ ﴿مِّن﴾ الداخِلِ عَلى اسْم (ما)؛ مُبالَغَةً في تَوكيدِ النَّفي؛ لأنَّ (مِنْ) مِنْ مَعانيها الاسْتِغْراقُ، فتَدْخُلُ لابْتِداء الجِنْسِ إلى انْتِهائِه، واكْتَفى بِذِكْرِ ﴿مِّن﴾ عَنْ ذِكْر (إلى)؛ لِدِلالَة إحْدى الغايَتَيْنِ عَلى الأُخْرى[5]، والمعْنى عَلى هَذا: اسْتِغْراقُ نَفي وُجودِ جِنْسِ ناصِرٍ يَنْصُرُهُم مِنْ دونِ اللّه، فلا أحَدَ يَنْصُرُ مَنْ أضَلَّهُم اللّه، أوْ يَمنَعُهُم مِنْ عَذابِه.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 113.
(2) سامي القدّومي، التّفسير البيانيّ، ص: 75.
(3) المرجع السّابق، ص: 75.
(4) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 253.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/ 444.

بَلاغَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ: ﴿لَهُم﴾:

اخْتِصاصُ مَنْ أَضَلَّهُ الله بِعَدَمِ وُجودِ ناصِرينَ مِنْ دونِهِ

وَرَدَ تقديمُ الجارِّ والمجْرورِ ﴿لَهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ﴾، لِنُكْتَةٍ بَلاغيَّةٍ، وهي الاخْتِصاصُ، ويُقْصَدُ بالاخْتِصاص قَصْرُ المسْنَدِ إلَيْه عَلى المسْنَد، بمعنى اخْتِصاص مَنْ أضَلَّهُ اللّه بِعَدَمِ وُجودِ ناصرٍ يَنْصُرُهُ مِنْ دونِ اللّه، ويَمنَعُهُ مِنْ بأسِه، ويَجْعَلُ أئِمَّةُ علمِ المعاني التَّخْصيصَ لازِمًا للتَّقْديم[1]، ونَظيرُهُ مَثَلًا قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: 25 - 26]، فالمعْنى: هوَ اخْتِصاص اللّه بالرُّجوعِ إلَيْهِ وبالحساب[2]، وعليه فالمسألة ليست مسألة ضلال محضٍ وينتهي الموضوع، ولا تبقى له ذيولٌ، بل هناك عذاب عظيم، مترتِّب على هذا الضَّلال المَقيت، والفساد المميت، والأكيد أن لا أحد يستطيع في هذا الوجود - إلّا أن يشاء اللّه - أن يمنع الهلاك، أو يرفع العذاب عن الَّذين يريد اللّه أن يعذِّبهم؛ إذ جرت بذلك حكمته، ومضت بذلك إرادته.

نُكْتَةُ صيغَةِ الجَمعِ في الآية:

مُقابَلَةُ الجمعِ بِالجمعِ، يَقْتَضِي انْقِسامَ الآحادِ إلى الآحادِ

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ﴾، لَفْظُ ناصِرينَ مجْموعًا، وذَلِكَ بِاعْتِبارِ الجَمعيَّةِ في الضَّميرِ ﴿لَهُم﴾، فإنَّ مُقابَلَةَ الجمعِ بِالجمعِ، يَقْتَضِي انْقِسامَ الآحادِ إلى الآحادِ، لا لِأَنَّ المُرادَ نَفْيُ طائِفَةٍ مِنَ النّاصِرينَ مِن كُلٍّ مِنهُم[3].

مَعْنى جملة: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ﴾:

تأكيدُ غِيابِ مَنْ يَدْفَعُ عَنِ الكافِرينَ سوءَ العواقِبِ ويُنْقِذُهم مِنَ المعاطِبِ

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ﴾، مَعْناهُ: ما لَهم ناصِرٌ يَدْفَعُ عَنْهُم عَواقِبَ الضَّلالِ، ويُنْقِذُهم مِمّا لَحِقَهم مِنَ الوبالِ؛ وفي هَذا تَبْكيتٌ لَهُم وتَقْريعٌ وحَثٌّ وتَهْييجٌ عَلى أنْ يَقوموا بِأَنْفُسِهم؛ ويَسْتَعينوا بِمَن شاؤوا عَلى نَصْبِ دَليلِ ما يَدَّعونَهُ مِن أنَّهم أَتْبَعُ النّاسِ لِلحَقِّ،

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 233.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 745.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 113.

إمّا بأنْ يُبَرْهِنوا عَلى صِحَّةِ مُعْتَقَدِهِم، أَوْ يُعِينوهم عَلى الرُّجوعِ عَنْهُ عِنْدَ العَجْزِ عَنْ ذَلِكَ؛ أَوْ يَكُفّوا عَنْهُمُ العَذابَ؛ إذا حاقَ بِهِم[1]، ويشير محمّد أبو زهرة إلى أنَّ فيه دلالة على أنَّهم ما داموا قد رتعوا في الغيِّ، فلا يمكن أن يكون لهم هادٍ مرشد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56]، وذهب إلى أنَّ هذا الجحود، سببه أمران: أوَّلهما: الاستكبار، وقد تكلَّمت الآيات القرآنيَّة في آثاره، والثّاني: جحود اليوم الآخر، وقولهم: إن هي إلّا حياتنا الدُّنيا، نلهو ونلعب[2]، وهذا التَّعليل في غاية البلاغة والوضوح.

دَلالَةُ التَّشابُه اللَّفْظِيّ في الآية:

أَثَــرُ الـسِّـيـاقِ وتَنَوُّعِ القِراءاتِ الـقُـرْآنِـيَّـةِ في ثَـراءِ الـدَّلالاتِ المعنَوِيَّةِ

قالَ اللّه ﷻ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، وقال سُبْحانَهُ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩﴾ [الروم: 29]، ووَجْهُ المغايَرَةِ بَيْنَهُما مِنْ جِهَةِ السّياقِ: أنَّ آيةَ النَّحل جاءَ في مَطْلَعِها الفِعْلُ ﴿تَحْرِصْ﴾ بصيغَةِ المضارِعِ إشْعارًا بِدَوامِ حِرْصِ النَّبيِّ ﷺ واسْتِمرارِه في دَعْوَةِ قَوْمِهِ إلى الهُدى، فناسَبَه مَجيء الفِعْلُ ﴿يُضِلُّ﴾ بصيغَةِ المضارِعِ، أمّا آيَةُ الروم فقَدْ جاءَ في مَطْلَعِها الفِعْل ﴿ٱتَّبَعَ﴾ [الروم: 29] بصيغَةِ الماضي، فناسَبَهُ مَجيء الفِعْل ﴿أَضَلَّ﴾ [الروم: 29] بصيغَةِ الماضي[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(هَدى) و(اهْتدى):

كُـلُّ مَـنْ هَـداهُ الـلـه فـقَـدِ اهْتَدَى، والأولى أصـلٌ والثّانيَةُ فرعٌ مُطاوِعٌ له

يَشْتَرِكُ لَفْظا (هَدى) و(اهتَدى) في أَصْلِ الاشْتِقاقِ، وهو الهُدى، ومَعْناها التَّوْجيهُ إلى سَبيلِ الرُّشْدِ[4]، ولَقَدْ بَلَغَ القرْآنُ الكَريمُ الغايَةَ في الاهْتِمامِ بالهُدى، ولِذَلِكَ تعدَّدَتِ اشْتِقاقاتُ هَذا اللَّفْظِ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 160.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4177.

(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 169.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هدي).

القُرْآنِ، وجاءَ بِصيغٍ مُتَعَدِّدَةٍ ومُتَنَوِّعَةٍ، تَتَمَيَّزُ كُلُّ صيغَةٍ عن الأُخْرى بِمَعْناها الصَّرْفيِّ، وبِفَضْلِ مَعاني الأَبْنِيَةِ يمكن التَّفْريقُ بينَ لفظَي: (هَدى) و(اهْتَدى)، فتَجِدُ أنَّ لَفْظَ (هَدى) عَلى وزْنِ (فَعَلَ)، ولَفْظَ (اهْتَدى) عَلى وزْنِ (افْتَعَلَ)، فيَكونُ (اهتدى) مُطاوِعًا لـ (هَدى)، والفِعْلُ يَسْتَدْعِي حُصولَ مُطاوِعِهِ لقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ [الأعراف: 178]، والمُطاوعَةُ قَبولُ أَثَرِ الفِعْلِ، فأَخْبَرَ عَنْ كُلِّ مَنْ هَداهُ بِأَنَّهُ اهْتَدَى[1]، وبِهذا يَظْهَرُ الفرْقُ بَيْنَهُما في كَونِ (هَدى) أَصْلًا، وكَونِ (اهْتَدى) فرْعًا مُطاوِعًا لَهُ.

تَغايُرُ المَبْنى دَليلٌ على تَغايُرِ المَعْنى في مختلف السّياقات الواردة في القرآن

النّاصِر والنَّصير:

يَشْتَرِكُ لَفْظا (ناصِر) و(نَصير) في أَصْلِ الاشْتِقاقِ، وهوَ النَّصْرُ، ويَتَغايَرانِ في الصِّيغَةِ الصَّرْفِيَّةِ، فَلَفْظُ (ناصِر) عَلى صيغَةِ اسْمِ الفاعِلِ الَّتي تَأْتي باطِّرادٍ مِنْ (فَعَلَ) بِفَتْحِ العَيْنِ، فتَقولُ: نَصَرَ يَنْصُرُ، فهوَ ناصِرٌ، وأَمّا لَفْظُ (نَصير)؛ فهوَ عَلى صيغَةٍ مِنْ صِيَغِ المبالَغَةِ، لاسْمِ الفاعِلِ (ناصِر)، للدَّلالَةِ عَلى تَكْثيرِ صُدورِ الفِعْلِ مِنْهُ، ويأْتي فعيلٌ مَعْدولًا كَثيرًا عَنْ فاعِلٍ، نحو: رحيمٍ، وعليمٍ، وسميعٍ، وشهيدٍ، بِمَعْنى: راحِمٍ، وعالِمٍ، وسامِعٍ، وشاهِدٍ[2].

وَقَدْ ورَدَ وصْفُ اللّه ﷻ بِكِلَيْهِما في القُرْآنِ الكريم، فوَرَدَ وصْفُهُ سُبْحانَهُ بِلَفْظِ (ناصِر) مَجْموعًا في قولِه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران: 150]، ووَرَدَ وصْفُهُ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُ نَصيرٌ، في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥﴾ [النّساء: 45]، فالنّاصِرُ: هوَ المُيَسِّرُ للغَلَبَةِ، وأمّا النَّصيرُ: فهوَ المَوْثوقُ مِنْهُ، بِأَنْ لا يُسْلِمَ وليَّهُ، ولا يَخْذُلَهُ[3]، وبِهَذا يَظْهَرُ الفَرْقُ بَيْنَهُما.

---

(1) الزّركشيّ، البحر المحيط: 2/ 309.
(2) الغلاييني، جامع الدّروس العربية: 1/ 188.
(3) الحَليمي، المنهاج: 1/ 205.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [النّحل: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين كون الله لا يهدي من يضلُّ، وبين تمادي الكُفّارِ في الضَّلالِ بإنكار البَعثِ

لمّا ذَكرَ تَعالى أنَّهُ كان من حَقِّ الكُفّارِ - بعدَ قيامِ الأدلَّةِ عَلى كَمالِ قُدرَتِه، وشُمولِ عِلمِهِ، وبُلوغِ حِكْمَتِه، في إبْداعِ جميعِ المخلوقاتِ - تَصديقُ الهداةِ في إعلامِهِم بأنَّهُ سُبحانَهُ يُعيدُهم لِلْبَعْثِ، وأنَّهم لم يفعَلوا ولا طَرَقوا لذلكَ احتمالًا، بَلْ حَلفوا عَلى نَفْيِهِ مِنْ غيرِ شُبْهَةٍ عَرضَتْ لهم، ولا إخْبارٍ عَن عِلمٍ وصلَ إليهم؛ أتبعَ ذلكَ سُبحانَهُ تَعجيبًا آخرَ من حالِهم، فقال عاطفًا على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾: مِنَ الفِعْلِ أقْسَمَ يُقْسِمُ إقْسامًا وقَسَمًا، والقافُ والسّينُ والميمُ أصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما عَلى جَمالٍ وحُسْنٍ، والآخَرُ عَلَى تَجْزِئَةِ شَيْءٍ، فالأوَّلُ القَسامُ، وهوَ الحسْنُ والجمالُ، وفُلانٌ مُقَسَّمُ الوجْهِ، أيْ: ذو جَمالٍ، والقَسِمَةُ: الوجْهُ، وهوَ أحْسَنُ ما في الإنْسانِ، والأصْلُ الآخَرُ القَسْمُ: مَصْدَرُ قَسَمتُ الشَّيْءَ قَسْمًا، والنَّصيبُ قِسْمٌ بِكَسْرِ القافِ، وأمّا اليمينُ؛ فالقَسَمُ، قالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: أَصْلُ ذَلِكَ مِنَ القَسامَةِ، وهِيَ الأيْمانُ تُقْسَمُ عَلى أَوْلِياءِ المَقْتولِ؛ إذا ادَّعَوا دَمَ مَقْتولِهِم عَلى ناسٍ اتَّهَموهُم بِهِ[2]، ومِنْهُ أقْسَمَ باللّه: حَلَفَ، كَأنَّهُ جَعَلَهُ مِنْ قِسْمِهِ ومِنْ نَصيبِهِ، أيْ: مَعَهُ، أيْ: أشْهَدَهُ عَلى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 161.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسم).

ما يَقولُ، كَما في قوله: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ [البقرة: 204]، وكَما يُقالُ: (عَلِمَ اللّه) بِمَعْنى القسَم أيْضًا[1]، فيَكونُ المَعْنى المرادُ للقَسَمِ في هَذِهِ الآيَةِ هو اليمين؛ لأنَّهُم أشْهَدوا اللّه على مَقولَتِهم.

2) ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: الجَهْدُ: المشقَّةُ، يُقالُ: جَهَدَ دابَّتَهُ وأجْهَدَها؛ إذا حَمَلَ عَلَيها في السَّيرِ فوقَ طاقَتِها، وجَهَدَ الرَّجُلُ في كَذا، أيْ: جَدَّ فيه وبالَغَ، وجَهَدتُ اللَّبَنَ، فهوَ مَجْهودٌ، أيْ: أخْرَجْتُ زُبْدَهُ كُلَّهُ، وجَهَدْتُ الطَّعامَ: اشْتَهَيْتُهُ، والجَهادُ بِالفتْحِ: الأَرْضُ الصُّلْبَةُ، والاجتِهادُ والتَجاهُدُ: بَذْلُ الوُسْعِ والمَجْهود[2]، فالجيمُ والهاء والدّالُ أصْلُهُ المشَقَّةُ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ ما يُقارِبُهُ[3]، ويُمكِنُ جَمعُ هَذِهِ المعاني في إفْراغِ قوَّةِ الشَّيْءِ وقِوامِهِ الَّذي في باطِنِه[4]، ومعنى ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، أي: بالغوا في اليَمين، واجتهدوا، والجُهد بالضَّمِّ: الوُسْع والطّاقة، وهوَ مِقْدار ما تحمله طاقته دون تكلُّف ومشقَّة"[5]، واليَمينُ: أصْلُهُ الجارِحَةُ، ثمَّ استُعْملت في الحَلِفِ (بالكَسْرِ كَكَتِفٍ: القَسم)، واليَمينُ في الحَلِفِ مُسْتَعارٌ مِنَ اليدِ اعتبارًا بما يَفْعَلُهُ المعاهِدُ والمحالِفُ وغَيْرُه، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، وقَوْلُهم: يَمينُ اللّه، فإضافَتُهُ إلَيْهِ ﷻ هوَ إذا كانَ الحَلِفُ بِهِ؛ فيَكونُ مَعْنى ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ في الآيَةِ مَحْمولًا عَلى اسْتِفْراغِ الوُسْعِ في اليمينِ، بِمَعْنى: حَلَفوا، واجْتَهَدوا في الحَلِفِ أنْ يَأْتوا بِهِ عَلى أبْلَغِ ما في وُسْعِهِم[6].

3) ﴿يَبْعَثُ﴾: مِنَ الفِعْلِ بَعَثَ يَبْعَثُ بَعْثًا، والباءُ والعَيْنُ والثّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهوَ الإثارَةُ[7]، ومِنْهُ: بَعَثَهُ مِنْ نَوْمِه، فانْبَعَثَ: أيْقظَهُ وأهَبَّهُ، وانْبَعَثَ في السَّيْرِ: أسرَعَ، فالمعْنى العامُّ هو: إثارَةُ (الحيِّ) مِنْ مَكانٍ يَلْزَمُهُ بِقوَّةٍ فيَنْدَفِعُ ناهِضًا أوْ مُبتعِدًا، كَبَعْث النّائم والبعير، ومِنْ ذَلكَ بَعْثُ المَوْتى مِنَ القُبورِ، وهوَ في كُلِّ القرْآنِ بِهَذا المعْنى، مِثْلُ قَوله: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]، وقَدْ يخرُجُ عنهُ لمعانٍ أُخْرى فرْعِيةٍ مِنْها: الإثارَةُ والدَّفْعُ، نَحْوَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قسم).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جهد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جهد).
(5) محمّد بن فتوح الميورقيّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين البخاري ومسلم، ص: 261.
(6) الراغب، المفردات: (جهد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).

عَمَلِ شَيْءٍ ما، وكَذَلكَ إنْهاضُ رَسولٍ أَوْ نبيٍّ، أو مَلِكٍ، أَوْ حَكَمٍ، أَوْ نَقيبٍ[1]، ويَرِدُ البَعْثُ عُمومًا في القُرْآن عَلى سِتَّةِ أَوْجُهٍ هِيَ: الإلهامُ، والإحياءُ، والإيقاظُ، والتَّسْليطُ، والإرْسالُ، والنَّصْبُ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَكذيبُ الكُفّارِ بِقُدْرةِ اللهِ على البَعْثِ بعد المَوتِ ضلالٌ وسَفاهٌ

حَلَفَ هَؤُلاءِ المشْرِكونَ باللهِ أيمانًا مُغلَّظَة أنَّ اللهَ لا يَبْعَثُ مَن يَموتُ بعدما بَلِيَ وتَفرَّقَ، بلى سَيَبْعَثُهم اللهُ حَتْمًا، وعدًا عليه حَقًّا، ولكنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمونَ قُدرَةَ اللهِ عَلى البَعْثِ، فيُنْكِرونَه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ (الواوِ) في جملة: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾:

بيانُ حِكايَةِ مَقالاتِ الكُفّارِ الشَّنيعَةِ في تَكْذيبِهم الرُّسُلَ

يُمكِنُ حَملُ الواوِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾، عَلى العطْفِ أوِ الاسْتِئْنافِ، فمَنْ جَعلَها للاسْتِئْنافِ فحُجَّتُه أنَّ في الآيةِ الكريمَةِ انْتِقالًا لِحكايَةِ مَقالَةٍ أُخرى منْ شَنيعِ مَقالاتِهم في كُفْرِهم، واسْتِدْلالًا منْ أدِلَّةِ تَكْذيبِهم الرَّسولَ ﷺ فيما يُخْبِرُ بِهِ إظْهارًا لِدَعْوَتِه في مَظْهَرِ المحالِ، وذَلِكَ إنْكارُهُمُ الحَياةَ الثّانِيَةَ والبَعْثَ بَعْدَ المَوْتِ، وذَلِك لَم يَتَقَدَّمْ لَهُ ذِكْرٌ في هَذِهِ السّورَةِ سِوى الاسْتِطْرادِ بِقَوْلِه: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النّحل: 22][4].

ومَنْ جَعلَها لِلعَطْفِ فحُجَّتُه أنَّهُ لما كانَ مِنْ حَقِّهم - بَعْدَ قِيامِ الأدِلَّةِ عَلى كَمالِ قُدْرَةِ اللهِ ﷻ وشُمولِ عِلْمِه وبُلوغِ حِكْمَتِه - تَصْديقُ الهداةِ في إعْلامِهم بِأنَّهُ سُبْحانَهُ يُعيدُهُم لِلبَعْثِ؛ حَلَفوا عَلى نَفْيِه مِنْ غَيْرِ شُبْهَةٍ عَرَضَتْ لَهُم ولا إخْبارٍ عَنْ عِلمٍ وصَلَ إلَيْهِم، فأتْبَعَ ذَلِكَ سُبْحانَهُ تَعْجيبًا آخَرَ مِنْ حالِهِم، فعطف على مقولتهم الأولى

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بعث).
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر: 204 - 205.
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 271.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 153.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ مَقولَةً أُخرى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ وذَلِكَ لِأنَّ كُلًّا مِنَ الجُملَتَيۡنِ لِبَيانِ تكذيبِهِم الرُّسُلَ والتَّعۡجيبِ مِنۡهُم في ذَلِكَ؛ دالًّا عَلى أنَّ اعۡتِقادَهُم مَضمونَ هَذِهِ الجملَةِ، هوَ الَّذي جَرَّأهُم عَلى قَوۡلِ الأولى وما تَفَرَّعَ مِنۡها[1].

دَلالَةُ الفِعۡلِ ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ في الآيَةِ الكَريمةِ:

لَجاجَةُ الكُفّارِ في الضَّلالِ بإنْكارِ البَعْثِ في المآلِ

اسۡتَعۡمَلَ الكُفّارُ فِعۡلَ القسَمِ في نَفۡيِ البَعۡثِ، وغَرَضُهُم بِذَلِكَ الدَّلالَةُ عَلى يَقينِهِم بِانۡتِفائِهِ، وإنَّما أيۡقَنوا بِذَلِكَ، وأقۡسَموا عَلَيۡهِ؛ لِأنَّهُم تَوَهَّموا أنَّ سَلامَةَ الأجۡسامِ وعَدَمَ انۡخِرامِها شَرۡطٌ لِقَبولِها الحَياةَ، وقَدۡ رَأوا أجۡسادَ المَوۡتى مُعَرَّضَةً لِلاضۡمِحۡلالِ، فكَيۡفَ تُعادُ كَما كانَتۡ[2]، وسِياقُ الآيَةِ التَّعۡجيبُ مِنۡ صُنۡعِهِم ولَجاجَتِهِم في الضَّلالِ؛ إذۡ أقۡسَموا بِاللّهِ، وبالَغوا في تَغۡليظِ اليَمينِ، بِأنَّ اللّهَ لا يَبۡعَثُ مَنۡ يَموتُ، ووَجۡهُ التَّعۡجيبِ أنَّهُم يُظۡهِرونَ تَعۡظيمَ اللّهِ، فَيُقۡسِمونَ بِهِ، ثُمَّ يُعَجِّزونَهُ عَنۡ بَعۡثِ الأمواتِ، وسَبَبُ هَذا القَسَمِ ما قالَه أبو العالِيَةِ: إنَّ رَجُلًا مِنَ المُسۡلِمينَ جاوَرَ رَجُلًا مِنَ المُشۡرِكينَ، فقالَ في حَديثِهِ: لا والَّذي أرۡجوهُ بَعۡدَ المَوۡتِ، فقالَ لَهُ الكافِرُ: أوَ بَعۡثٌ بَعۡدَ المَوۡتِ؟ قالَ: نَعَم، فأقۡسَمَ الكافِرُ مُجۡتَهِدًا في يَمينِهِ أنَّ اللّهَ لا يَبۡعَثُ أحَدًا بَعۡدَ المَوۡتِ، فنَزَلَتِ الآيَةُ بِسَبَبِ ذَلِكَ[3].

دَلالَةُ الجمعِ بَيۡنَ ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ و﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾:

مُبالغَةُ الكُفّارِ في نَفْيِ البَعْثِ بِتَغْليظِ اليَمينِ؛ مِنَ السَّفَهِ المشينِ

وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ الجمعُ بَيۡنَ عِبارَتَيۡ ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ و﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ للإبانة عَنۡ تَغۡليظِ الأيۡمانِ وقوَّتِها، فقَدۡ جُعِلَتِ الأيۡمانُ جاهِدَةً لِكَثۡرَةِ ما بالَغوا فيها[4]، كَما أنَّ مَعۡنَى جَهۡدِ الأيۡمانِ - بِفَتۡحِ الجيمِ - أقۡواها وأغۡلَظُها،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 161.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 153.
(3) القرطبي، الجامع: 10/ 103.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 161.

وحَقيقَةُ الجهْدِ التَّعَبُ والمشَقَّةُ، ومُنْتَهى الطّاقَةِ، ثُمَّ أُطلِقَ عَلى أشَدِّ الفعْلِ ونهايَةِ قوَّتِهِ؛ لما بَيْنَ الشِّدَّةِ والمشَقَّةِ مِنَ المُلازَمَةِ، وشاعَ ذَلِكَ في كَلامِهِم، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في الآيَةِ في مَعْنى أوْكَدِ الأيْمانِ وأغْلَظِها، أيْ: أقْسَموا أقْوى قَسَمٍ، وذَلِكَ بِالتَّوْكِيدِ والتَّكْرِيرِ ونَحْوِ ذَلِكَ مِما يُغَلَّظُ بِهِ اليمينُ عُرْفًا، ولَم يَسْبِقْ إطْلاقُ الجهْدِ عَلى هَذا المعْنَى فيما قَبْلَ القُرْآنِ[1].

بَلاغَةُ القَسَمِ باللهِ تَعالى دونَ سِواهُ:

القَسَمُ تَعْظيم، ولا يُقْسَمُ إلّا بِعَظيم

أقسَمَ المشْرِكونَ باللهِ في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ تَعْظيمًا لله أكْثَرَ مِنْ سِواهُ؛ لأنَّهُ لا يُقْسَمُ إلّا بِعَظيمٍ، والحَلِفُ بِالشَّيءِ تَعظيمٌ لَهُ، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتَصَّةٌ باللّهِ تعالَى، فلا يُساوى بِهِ غَيرُه، فيُذْكَرُ اسْمُ الجلالَةِ لإحضارِ المعْنَى الجامِعِ لِصِفاتِ الكمالِ[2]، وهَذا وجْهُ التَّعْجيبِ مِنْ صُنْعِهِم؛ إذْ يُظْهِرونَ تَعْظيمَ اللهِ، فيُقْسِمونَ بِهِ، ثُمَّ يُعَجِّزونَهُ عَنْ بَعْثِ الأمواتِ[3]، "وإذا حلف الرَّجل بالله فقد حلف جَهْد يمينه، فإنَّ الكفّار كانوا يحلفون بآبائهم وآلهتهم، فإذا كان الأمر عظيمًا؛ حلفوا بالله، فإنَّهم يجدون في عقولهم أنَّ الشَّيء إذا صار عدمًا محضًا، لا يعود بعينه، بل العائد يكون شيئًا آخر"[4].

دَلالَةُ جُملَةِ ﴿لَا يَبۡعَثُ﴾ في سياقِ الآيةِ:

تَقْوِيَةُ القَسَمِ عَلى الأُمورِ الغائِبَةِ والخَفِيَّةِ بِعَطْفِ البَيانِ

ورَدَتْ جُملَةُ ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾، عَطْفَ بَيانٍ لِجُملَةِ ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، وهِيَ ما أقْسَموا عَلَيْهِ، والمُقْسَمُ عَلَيْهِ، يُرادُ بِالقَسَمِ تَوكيدُهُ وتحقيقُهُ، فلا بُدَّ أنْ يَكونَ ممّا يَحْسُنُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.
(3) القرطبيّ، الجامع: 10/ 103.
(4) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 3/ 593.

فيهِ ذلكَ، كالأُمورِ الغائِبَةِ والخَفيَّةِ؛ إذا أُقْسِمَ عَلى ثُبوتِها[1]، وعَطْفُ البيانِ يجْري مجْرَى النَّعْتِ، يُؤْتَى بِهِ لإيضاحِ ما يَجْري عَلَيْه، وإزالَةِ الاشْتراكِ الكائِنِ فيه، فهوَ مِنْ تَمامِه، كَما أنَّ النَّعْتَ مِنْ تَمامِ المنْعوتِ[2].

دَلالَةُ حَرْفِ ﴿بَلَىٰ﴾ في الآية الكريمة:

نَفْيُ النَّفْيِ إثْباتٌ يدُلُّ عَلى إيجابِ البَعْثِ، وأنَّه واقع لا ريب فيه

وَرَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، الجوابُ عَلى قَسَمِهم بِحَرْفِ ﴿بَلَىٰ﴾ للتَّأْكيدِ بأنَّ اللهِ يَبْعَثُ مَنْ يَموتُ، فحَرْفُ (بَلى) لِنَفْيِ النَّفْيِ، فيَتَقَدَّمُ قَبْلَها نَفْيٌ، فيُؤْتى بـ (بلى) لِتَنْفيَ ذَلكَ النَّفْيَ فيَصيرُ ما بَعْدَها إِثْباتًا؛ لِأنَّ نَفْيَ النَّفْيِ إثْباتٌ[3]، والمعْنى: بَل يَبْعَثُهُمُ اللهُ، والبَصْريّونَ يَقولونَ: إنَّ (بَلى) حَرْفٌ بَسيطٌ، وزَعَمَ الكوفيّونَ أنَّ أصْلَها بَل الَّتي لِلإضْرابِ، زيدَتْ عَلَيْها الياءُ لِيَحْسُنَ الوقْفُ عَلَيْها، وضُمِّنَتِ الياءُ مَعْنى الإيجابِ، قيلَ: (بَل) تَدُلُّ عَلى رَدِّ النَّفْيِ، و(الياءُ) تَدُلُّ عَلى الإيجابِ[4].

دَلالَةُ التعبير بـ ﴿مَن يَمُوتُۚ﴾:

الصِّلَةُ أقْوَى دَلالَةً عَلى التَّعْليلِ مِنْ دَلالَةِ المشْتَقِّ

وَرَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾، العُدولُ عَنِ لَفْظِ (الموْتَى)، إلَى لَفْظِ ﴿مَن يَمُوتُۚ﴾؛ لِقَصْدِ إيذانِ الصِّلَةِ بِتَعْليلِ نَفْيِ البَعْثِ، فإنَّ الصِّلَةَ أقْوَى دَلالَةً عَلى التَّعْليلِ مِنْ دَلالَةِ المشْتَقِّ عَلى عِلِّيَّةِ الاشْتِقاقِ، فهُم جَعَلوا الاضْمِحْلالَ مُنافِيًا لِإعادَةِ الحياةِ، كَما حُكِيَ عَنْهُم قَوْلُهُم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ٦٧﴾ [النَّمل: 67][5].

(1) ابن القيّم، التبيان في أيمان القرآن: 5.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/ 271.
(3) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 4/ 314.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 1/ 456.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 154.

موقع ﴿وَعۡدًا﴾ ودلالته في الآية الكريمة:

زِيادَةُ تأكيدِ البَعْثِ لِلْمُبالَغَةِ في نَفْيِه

انْتَصَبَ لَفْظُ ﴿وَعۡدًا﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ عَلَى المَفْعوليَّةِ المطْلَقَةِ؛ لِأنَّهُ بِمَعْنَى وعَدَ، والتَّقْديرُ: قَدْ وعَدَ بِهِ ﴿وَعۡدًا﴾، وبَيَّنَ أنَّهُ لا بُدَّ مِنْهُ بِقَوْلِه: ﴿عَلَيۡهِ﴾ وزادَهُ تَأْكيدًا في مُقابَلَةِ اجْتِهادِهِم في أيْمانِهِم بِقَوْلِهِ: ﴿حَقّٗا﴾[1]، وجاءَ هَذا المَفْعولُ المطْلَقُ مُؤَكِّدًا لِما دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ الإبْطالِ مِنْ حُصولِ البَعْثِ بَعْدَ الموْتِ، ويُسَمّى هَذا النَّوْعُ مِنَ المَفْعولِ المطْلَقِ مُؤَكِّدًا لِنَفْسِهِ، أيْ: مُؤَكِّدًا لِمَعْنى فِعْلٍ هو عَيْنُ مَعْنى المَفْعولِ المطْلَقِ[2].

الغرض من الاستعارة في قوله: ﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ﴾:

البعثُ حقٌّ لا يتخلَّف

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ صورَةٌ بَيانيَّةٌ بَديعَةٌ، نَوْعُها اسْتِعارَةٌ مَكْنِيَّةٌ، حيثُ شُبِّهَ الوَعْدُ الَّذي وعَدَهُ اللهُ بِمَحْضِ إرادَتِهِ واخْتِيارِهِ، بِالحقِّ الواجِبِ عَلَيْهِ، ورَمَزَ إلَيْهِ بِحَرْفِ الاسْتِعْلاءِ، والتَّقْديرُ: وعْدًا كالواجِبِ عَلَيْهِ في أنَّهُ لا يَقْبَلُ الخُلْفَ[3]، فحَذَفَ المشَبَّهَ بِهِ، ورَمَزَ إلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنْ لَوازِمِه عَلى سَبيلِ الاستِعارَةِ المَكْنِيَّةِ، والفضيلَةُ الجامِعَةُ للاسْتِعارَةِ أنَّها تُبْرِزُ هَذا البيانَ، في صورةٍ مُسْتَجَدَّةٍ تَزيدُ قَدْرَه نُبْلًا، وتوجِبُ لَهُ بَعْدَ الفضْلِ فضْلًا، وإنَّكَ لتَجِدُ اللَّفْظَةَ الواحِدَةَ، قدِ اكْتَسَبَتْ بِها فوائِدَ، حَتى تَراها مُكَرَّرَةً في مَواضِعَ، ولَها في كُلِّ واحِدٍ مِنْ تِلْكِ المواضِعِ شَأْنٌ مُفْرَدٌ، وشَرَفٌ مُنْفَرِدٌ، وفَضيلَةٌ مَرْموقَةٌ، وخِلابَةٌ مَوْموقَةٌ[4].

دَلالَةُ حَرْفِ (لَكِنَّ) في الآيَةِ الكريمة:

يَحْسُنُ الاستِدراك حيثُ يُتَوَهَّمُ الاشْتِراك

وَرَدَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تَصْديرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 161.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 154.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 154.
(4) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 42.

الجملَةِ بحَرْفِ الاسْتِدْراكِ (لَكِنَّ)؛ لِأَنَّ هَذا الاسْتِدْراكَ ناشِئٌ عَنْ جَعْلِهِ وعْدًا عَلى اللهِ حَقًّا؛ إِذْ يَتَوَهَّمُ السّامِعُ أَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ لا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ، فجاءَ الِاسْتِدْراكُ لِرَفْعِ هَذا التَّوَهُّمِ، ولِأَنَّ جُملَةَ ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ تَقْتَضِي إمكانَ وُقوعِهِ، والنّاسُ يَسْتَبْعِدونَ ذَلِكَ(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أقْسَموا) و(حَلَفوا):

القسَمُ لليَمينِ الصّادِقَةِ، والحَلِفُ لليَمينِ الكاذِبَةِ

يَتَّضِحُ الفرْقُ بَيْنَ لَفْظَيْ (أقْسَموا) و(حَلَفوا)، من الاشْتِقاقِ اللُّغَوِيِّ لكلٍّ مِنْهُما، فنَجِدُ أنَّ القسَمَ أبلغُ من الحلِفِ؛ لِأنَّ مَعْنى قَوْلِنا: أقْسَمَ باللهِ، أنَّهُ صارَ ذا قَسَمٍ باللهِ، والقسَمُ: النَّصيبُ، والمرادُ أنَّ الَّذي أقْسَمَ عَلَيْهِ مِنَ المالِ وغَيْرِهِ، قَدْ أحْرَزَهُ، ودَفَعَ عَنهُ الخَصْمَ باللهِ، والحَلِفُ مِنْ قَوْلِكَ: سَيْفٌ حَليفٌ، أيْ: قاطِعٌ ماضٍ، فإذا قُلْتَ: حَلَفَ باللهِ؛ فكَأنَّكَ قُلْتَ: قَطَعَ المخاصَمَةَ باللهِ، فالأوَّلُ أبْلَغُ؛ لِأنَّهُ يَتَضَمَّنُ مَعْنًى آخَرَ، مَعَ دَفْعِ الخصْمِ، ففيهِ مَعْنَيانِ، وقَوْلُنا: حَلَفَ يُفيدُ مَعْنًى واحِدًا، وهوَ قَطْعُ المخاصَمَةِ فقَط؛ وذَلِكَ أنَّ مَنْ أحْرَزَ الشَّيْءَ باسْتِحْقاقٍ في الظّاهِرِ فلا خُصومَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أحَدٍ فيهِ، ولَيْسَ كُلُّ مَنْ دَفَعَ الخصومَةَ في الشَّيْءِ؛ فقَدْ أحْرَزَهُ(2).

وَكَذَلِكَ يَلفِتُ صَنيعُ القرْآنِ إلى فرْقٍ دَقيقٍ بَيْنَ (القسَمِ) و(الحلِفِ)، فإنْ لم نَقُل: إنَّ القسَمَ لليَمينِ الصّادِقَةِ حَقيقَةً أوْ وهْمًا، والحَلِفَ لليَمينِ الكاذِبَةِ عَلى إطْلاقِها؛ فلا أقَلَّ مِنْ أنْ يَكونَ بَيْنَ دَلالَتِهِما الفرْقُ بَيْنَ العامِّ والخاصِّ: فيَكونُ القسَمُ لمطْلَقِ اليمينِ بعامَّةٍ، ويَخْتَصُّ الحَلِفُ بِالحِنْثِ في اليمينِ، عَلى ما اطَّرَدَ اسْتِعْمالُهُ في البيانِ القرآنيِ(3).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 154.

(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 56.

(3) بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانيّ للقرآن، ص: 224.

البعْث والنُّشور:

يَتَّضِحُ الفرْقُ بَيْنَ لفظَيِ (البَعْثِ) و(النُّشورِ) أنَّ بَعْثَ الخلقِ اسْمٌ لإخْراجِهِم مِنْ قُبورِهِم إلى الموْقِفِ، ومِنْه قَوْلُه تَعالَى حِكايةً عَن الموْتى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]، والنُّشورُ: اسْمٌ لظُهورِ المبْعوثِينَ، وظُهورِ أعْمالِهِم لِلخَلائِقِ، ومِنْه قَوْلُكَ: نَشَرْتُ اسْمَكَ، ونَشَرْتُ فضِيلَةَ فُلانٍ؛ إلّا أنَّهُ قيلَ: أنْشَرَ اللّه الموْتى، بِالألِفِ، ونشَرْتُ الفضيلَةَ والثَّوْبَ؛ للفَرْقِ بَيْنَ المعْنَيَيْنِ[1]، فالبعْثُ إحْياءُ الموْتى، والنُّشورُ تَفْريقُهم، يخرُجونَ مِنَ الأجْداثِ، ويَنْتَشِرونَ في الأرْضِ يَتَفَرَّقونَ فيها.

البـعْـثُ إحْـيـاءُ الموْتى، والنُّشورُ إخـراجُـهُـم من قُـبـورِهِـم إلى موْقِفِ الحساب

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 289.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النّحل: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين ضَرورَةِ البَعْثِ، وبيان الحِكمَةِ مِنْهُ، ليتحقَّق الكفرة بكذبهم

لـمّا بَيَّنَ سُبْحانهُ أنَّهُ لا بُدَّ مِنَ البَعْثِ لِسَبْقِ الوعْدِ بِهِ مِنَ القادرِ؛ بَيَّنَ حِكمَتَهُ بِأمرٍ مُبينٍ أنَّهُ لا يسوغُ تَركُه بوجهٍ، فهوَ يَبْعثُهم لِيُبَيِّنَ لهم اختِلافَهُم من البعثِ وغيرِه، ويجزيَ كُلًّا بما عمِلَ، فقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾: بَيَّنَ يُبَيِّنُ تَبْيينًا؛ إذا كَشَفَ الخَفاءَ، والباءُ والياءُ والنّونُ أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ، فالبَيْنُ: الفِراقُ، يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً[2]، ومِنَ الفَصْلِ والتَّمييزِ جاءَ مَعْنى الوضوحِ والظُّهورِ؛ لأنَّ المَفْصولَ المتَمَيِّزَ عَنْ غَيْرِهِ يَلفِتُ النَّظَرَ، وهوَ المعْنى الَّذي جاءَتْ بِهِ كُلُّ مُفْرَداتِ التَّرْكيبِ القرآنِيَّةِ، عَدا الظَّرْفِ (بَيْنَ)، كقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ [آل عمران: 118][3]، والبيانُ: الفصاحة واللَّسن، وفي الحديث: "إنَّ من البَيانِ لَسِحْرًا"[4]، وفلان أَبْيَنُ من فلان، أي: أفصحُ منه، وأوضحُ كلامًا، والبيان: ما يتبيَّن به الشَّيء من الدَّلالة وغيرها، وبان الشَّيء بيانًا: اتَّضح فهو بيِّنٌ، والجمع: أَبْيناء، مثل هيِّن وأهيناء، وكذلك أبان الشَّيءُ، فهو مبين[5]، فيَكون مَعْنى ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ في الآيةِ إيضاحَ الحقِّ مِنَ الباطِلِ في الأُمورِ المُخْتَلَفِ فيها بَيْنَ المُسْلِمينَ والكفّارِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 163.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بين).
(4) الحديث إسناده صحيح، على شرط الشّيخين، أخرجه مالك، الموطأ، الحديث رقم: (2074)، والبخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (5767).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (بين).

2) ﴿يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾: اخْتَلَفَ يَخْتَلِفُ اخْتِلافًا مِنَ المُضادَّةِ، وتَخالَف الأمرانِ واخْتَلَفا، إذا لم يَتَّفِقا، وكُلُّ ما لم يَتَساوَ؛ فقَدْ تَخالَف واخْتَلَفَ، قال تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾ [النّحل: 13][1]، وأصلُ مادَةِ (خَلَفَ) لا يَخْرُجُ عَنْ أُصولٍ ثلاثَةٍ: أَحَدُها أنْ يَجيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ، والثّاني خِلافُ قُدّام، والثّالِثُ التَّغَيُّرُ، وقَوْلُهُمْ: اخْتَلَفَ النّاسُ في كَذا، والنّاسُ خِلفَةٌ، أيْ: مُخْتَلِفونَ، مِنَ الأصل الأوَّلِ؛ لِأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُم يُنَحّي قَوْلَ صاحِبِه، ويُقيمُ نَفْسَهُ مُقامَ الَّذي نَحّاهُ[2]، والاخْتِلافُ ضِدُّ الاتِّفاقِ، وهوَ أعَمُّ مِنَ الضدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّينِ مختلفانِ، ولَيْسَ كُلُّ مُخْتَلِفَيْنِ ضِدَّيْنِ[3]، فيَكونُ معْنى ﴿يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ في الآيَةِ هوَ ما يَتَضادُّ في الإيمانِ بِهِ المُسلِمونَ والكُفّارُ مِنْ أُمورِ البعْثِ والآخِرَةِ وسائِرِ الأمورِ الغَيْبِيَّةِ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بَيانُ وجوبِ البعثِ وكَذِبِ الكُفّارِ، فيما بدر منهم من إنكار

يَبعَثُ اللّه جَميعَ العبادِ لِيُبَيِّنَ لهُم حَقيقةَ البَعثِ الَّذي اخْتَلَفوا فيهِ، ويَعْلَمَ الكُفّارُ المُنكِرونَ لَه أنَّهُم على باطِلٍ، وأنَّهم كاذبونَ حينَ حَلَفوا أنْ لا بَعَثَ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ حَرْفِ (اللّامِ) في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾:

جَرَيانُ مُرادِ الله وأفْعالِهِ عَلى حِكْمَةِ تَدْبيرِهِ لِلكونِ

وَرَدَ الفعْلُ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ مُقْتَرِنًا بِاللّامِ الدّالَّةِ عَلى التَّعْليلِ، وهِيَ الَّتي يَكونُ ما بَعْدَها سَبَبًا فيما قَبْلَها؛ إذْ تُفيدُ أنَّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(3) الراغب، المفردات: (خلف).
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 271.

ما قَبْلَها يَترَتَّبُ على ما بَعْدَها[1]، ووَجْهُ التَّعْليلِ في هَذِهِ الآيَةِ مُرْتَبِطٌ بقَوْلِه تَعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾؛ لِقَصْدِ بَيانِ حِكْمَةِ جَعْلِه وعْدًا لازِمًا لا يَتَخَلَّفُ؛ لِأنَّهُ مَنوطٌ بِحِكْمَةٍ، واللهُ تَعالى حَكِيمٌ لا تَجْري أفْعالُهُ عَلى خِلافِ الحِكْمَةِ التّامَّةِ، أيْ: جَعَلَ البعْثَ لِيُبَيِّنَ لِلنّاسِ الشَّيْءَ الَّذي يَخْتَلِفونَ فيه مِنَ الحقِّ والباطِلِ، فيَظْهَرُ حَقُّ المُحِقِّ، ويَظْهَرُ باطِلُ المُبْطِلِ في العقائِدِ ونَحْوِها مِن أُصولِ الدّينِ وما أُلحِقَ بها[2].

مَعْنى ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ في الآية الكريمة:

تَوْضيحُ الأمورِ المختَلَفِ فيها بَيْنَ المسْلِمينَ والكُفّارِ

مَعْنى التَّبْيينِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾، هوَ تَوْضيحُ الحَقِّ لِلنّاسِ في الَّذي يَخْتَلِفونَ فيهِ مِنَ الحقِّ والباطِلِ، والَّذي اخْتَلَفَ فيهِ المشْرِكونَ والمسْلِمونَ أُمورٌ: مِنْها البعْثُ، ومِنْها عِبادَةُ الأصْنامِ، ومِنْها إقْرارُ قَوْمٍ بأنَّ مُحَمَّدًا حَقٌّ، ولَكِنْ مَنَعَهُم من اتِّباعِهِ التَّقْليدُ[3].

غرض التعبير بـ﴿ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ﴾:

بَيانُ الخِلافِ في الحَقِّ الَّذي جاءَتْ بِهِ الرُّسُل

وَرَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾، التَّعْبيرُ عَنِ الحَقِّ بالاسْمِ الموْصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ وصِلَتِه لِلدَّلالَةِ عَلى فخامَتِه، ولِلإِشْعارِ بِعِلِّيَّةِ ما ذُكِرَ في حَيِّزِ الصِّلَةِ لِلتَّبْيينِ وما عُطِفَ عَلَيْهِ[4]، وقَدْ جاءَ الاسمُ الموصولُ في هَذِهِ الآيةِ في مَحَلِّ نَصْبٍ عَلى أنَّهُ مَفْعولُ لِيُبَيِّنَ، بمعنى تبيين الأمرِ الَّذي وقَعَ الخلافُ بَيْنَهم فيه، وبَيانُهُ إذْ ذاكَ يَكونُ بِما جاءَتْهم بِهِ الرُّسُلُ، ونَزَلَتْ عَلَيْهِم فيه كُتُبُ اللهِ[5].

الغرض من تَقديم ﴿لَهُمُ﴾:

اخْتِصاصُ الموْتى بِالعِلمِ اليَقينيِّ دونَ الأحْياءِ

وَرَدَ تَقْديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمُ﴾ في قَوْلِه تَعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي

(1) محمد عيد، النّحو المُصفى، ص: 364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 155.
(3) القرطبي، الجامع: 10/ 106.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 114.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 195.

﴿يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾، لِنُكْتَةٍ بَلاغيَّةٍ وهيَ الاختِصاصُ، ويَجْعَلُ أئِمَّةُ عِلم المعاني التَّخْصيصَ لازِمًا للتَّقْديمِ[1]، فالضَّميرُ في ﴿لَهُمُ﴾ راجِعٌ إلى الناس المختلفين، وسبب تقديمه الاهتمام بالذين سيق الخطاب إليهم أنّه سينكشف لهم بعد البعث ما كانوا فيه يختلفون بينهم في الدنيا، وأمر آخر هو تجنُّب توالي الظروف لو قيل: (ليبيِّن الذي يختلفون فيه لهم).

عَلاقَةُ البعْثِ بِتَبْيين الحقائِق:

ضَرورَة وُجودِ عالَمٍ آخَرَ يَلقى فيه كُلُّ عامِلٍ جَزاءَ عَمَلِه

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ تأكيدُ حِكْمَةِ البَعْثِ وأسْبابِهِ، ومِنْ أعْظَمِها تبيُّنُ الحقائِقِ، والجزاءُ عَلى الأعْمالِ المقْتَرَفَةِ في الحَياةِ الدُّنْيا؛ إذْ لَوْ أُرْسِلَ النّاسُ عَلى أعْمالِهِم بِغَيْرِ جَزاءٍ عَلى الحسَنِ والقبيحِ لاسْتَوى المحْسِنُ والمسيءُ، ورُبَّما كانَ بَعْضُ المسيئينَ في هَذِهِ الدُّنْيا أحْسَنَ فيها حالًا مِنَ المحْسنينَ، فكانَ مِنَ الحكْمَةِ وُجودُ عالَمٍ آخَرَ يَلقى فيه كُلُّ عامِلٍ جَزاءَ عَمَلِه، ويَكونُ مُتَمَحِّضًا لِلعَدْلِ، ولا مَكانَ فيه لِتَصَرُّفاتٍ وتَسَبُّباتٍ تُخالِفُ الحقَّ والاِسْتِحْقاقَ[2].

دَلالَةُ الضَّميرِ في ﴿لَهُمُ﴾:

الانتِقالُ مِنْ مَرتَبةِ عِلمِ اليَقينِ إلى مرتبة عَيْنِ اليقينِ

جاءَ التَّعْميمُ في البَيانِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾؛ لأنَّ انْكِشافَ السَّتْرِ عَنِ الأمورِ الغَيْبيَّةِ ومُعايَنَتَها حاصِلٌ لِلجميعِ مِنْ مُؤْمِنٍ وكافِرٍ، غَيْرَ أنَّ عِلمَ المؤمِنينَ بالغَيْبِ حاصِلٌ قَبْلَ ذَلِكَ، فتَحْصُلُ لَهُم بِالبعْثِ مَرْتَبَةٌ أعْلى مِنَ مَراتِبِ العِلمِ، فيَنْتَقِلونَ مِنْ عِلمِ اليَقينِ، إلى مَرْتَبَةِ عينِ اليَقينِ، وأمّا الكَفَرَةُ فالمقْصودُ مِنْ عِلمِهِم بِأنَّهُم كانوا كاذِبينَ: تَعْذيبُهُم عَلى كَذِبِهِم، فكَأنَّهُ قيلَ: لِيَظْهَرَ لِلمؤمِنينَ والكافِرينَ الحقُّ، ولِيُعَذَّبَ الكافِرونَ عَلى كَذِبِهِم فيما كانوا يَقولونَهُ مِنْ أنَّهُ تَعالى لا يَبْعَثُ مَنْ يَموتُ ونَحْوِهِ[3].

---

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 233.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 91.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 381.

دَلالَةُ العطْفِ في ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾:

غايَةُ البَعْثِ اقْترانُ البَيانِ بِالعلمِ اليَقينيّ

وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ العطْفُ بَيْنَ فِعْلَيْ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ و﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾؛ للدَّلالَةِ عَلى اقْترانِ البَيانِ بالعلم، ولِكَوْنِ العِلْمِ بما ذُكِرَ مِنْ رَوادِفِ ذَلِكَ التَّبْيين[1]، فإنَّ الكفَرَةَ إذا عَلِموا أنَّ تَحْقيقَ البعْثِ كانَ لِتَبْيينِ أنَّهُ حَقٌّ، ولِيَعْلَموا أنَّهم كاذِبونَ في إنْكارِهِ؛ كانَ ذَلكَ أزْجَرَ لَهم عَنْ إنْكارِهِ، وأدْعى إلى الاعترافِ بِهِ[2].

نُكْتَةُ إخراجِ عِلْمِ الكُفّارِ مِنْ عُمومِ التَّبْيين:

عِلمُ الكافرين بِكَذِبِهِم يَوْمَ البَعْثِ مَثارٌ لِلنَّدامَةِ والتَّحَسُّرِ

لَم يَنْدرِج عِلمُ الكفّارِ بِكَذِبهِم تَحْتَ التَّبْيين، بأنْ يُقالَ: وإنَّ الّذين كَفَروا كانوا كاذِبينَ، بَل جيءَ بِصيغَةِ العِلم؛ لأنَّ ذَلكَ لَيْسَ مِمّا تَعَلَّقَ بِهِ التَّبْيينُ الَّذي هو عِبارَةٌ عَنْ إظْهارِ ما كانَ مُبْهَمًا قَبْلَ ذَلكَ بأنْ يُخْبَرَ بِهِ فَيُخْتَلَفَ فيهِ، كالبعْثِ الَّذي نَطَقَ بِهِ القرآنُ فاخْتَلَفَ فيهِ المخْتَلفونَ، وأمّا كَذِبُ الكافرينَ فلَيْسَ مِن هَذا القبيلِ، فما يَتَعَلَّقُ بِهِ عِلمٌ ضَروريٌّ حاصِلٌ لَهم مِن قِبَلِ أنْفُسِهم، وإنَّما خُصَّ الإسْنادُ بِهم، حَيْثُ لَم يَقُل: (ولِيَعْلَموا أنَّ الكافِرينَ)؛ لأنَّ عِلمَ المُؤمنينَ بِذَلكَ حاصِلٌ قَبْلَ ذَلكَ[3]، وفي حُصولِ عِلمِهِم بِذَلكَ يَوْمَ البَعْثِ مَثارٌ لِلنَّدامَةِ والتَّحَسُّرِ عَلى ما فرَطَ مِنْهُم مِن إنْكارِهِ[4].

دَلالَةُ التعبيرِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

سَبَبُ كَذِبِ الكُفّارِ هوَ كُفْرُهُم بالواحِدِ القهّارِ

وَرَدَ الاسْمُ الموْصولُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ لِلتَّنْصيصِ عَلى سَبَبِ كَذِبِهِم، وهوَ كُفْرُهُم، فوَضْعُ المَوْصولِ مَوضِعَ الاسْمِ يَسمَحُ بِوَصْفِهِ بِجُملةِ الصِّلةِ، والغرَضُ منه الإشْعارُ بِعِلَّةِ الحكْمِ[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 381.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 114.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 114.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 155.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 113.

دَلالةُ التَّوْكيدِ في الآية الكريمة:

الكَينونَةُ أقْوى تَأكيدًا مِنَ الفِعْلِ واسمِ الفاعِلِ

وَرَدَتْ عِبارة ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾، لِزَيادَةِ تأْكيدِ إمعانِهِم في الكذبِ في إنْكارِهِم للمَعادِ، فقَوْلُهُ: ﴿كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾، أقْوى في الوصْفِ بالكَذِبِ مِن (كَذَّبوا) أوْ (كاذِبونَ)؛ لِما تَدُلُّ عَلَيْهِ (كانَ) مِنَ الوجودِ، زيادَةً عَلى ما يَقْتَضيهِ اسْمُ الفاعِلِ مِنَ الاتِّصافِ، فكَأَنَّهُ قيلَ: وُجِدَ كَذِبُهم، ووُصِفوا بِهِ، وكَذِبُهم يَسْتَلزِمُ أَنَّهم مُعَذَّبونَ عُقوبَةً عَلى كَذِبِهِم، ففيهِ شَتْمٌ صَريحٌ وتَعْريضٌ بِالعِقابِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(لِيُبَيِّنَ) و(يُبَلِّغُ):

التَّبيينُ كَشْفٌ عَنِ المَعْنى المَقْصودِ وإظهارُهُ بِالأدِلَّةِ، والتَّبْليغُ إيصالُه إلى غايَةٍ لَهُ

يَتَّضِحُ الفَرْقُ بَيْنَ لَفْظَيْ (لِيُبَيِّنَ) و(يُبَلِّغُ) مِنَ المعنَى اللُّغوي لكلٍّ مِنْهُما، فنَجِدُ أنَّ التَّبْليغَ مَعْناهُ عُمومًا: إيصالُ الشَّيْءِ إلى غايَةٍ لَهُ مَكانٍ أوْ شَيْءٍ أوْ مَدًى مَقْصودٍ، وبالأخَصِّ إيصالُ دينِ اللّٰه ﷻ إلى البشَرِ عَلى يَدِ رُسُلِهِ، وقَدْ ورَدَ بهذا المَعْنى كَثيرًا في القرآنِ الكريم[2]، وأمّا التَّبيينُ فمَعْناهُ الإيضاحُ والكَشْفُ عنِ المَعْنى المَقْصودِ وإظهارُهُ بالأدِلَّةِ الواضِحَةِ[3]، فيَظْهَرُ الفَرْقُ بَيْنَهما في كَوْنِ التبيين كَشْفًا والتَّبْليغِ إيصالًا، ويَشْتَرِكُ التَّبيينُ والتَّبْليغُ في كَوْنِهما مِن وظيفَةِ الرُّسُلِ عليهم السلام، فيوصِلونَ دينَ اللّٰه إلى العبادِ، ويوَضِّحونَ لهُم أحْكامَهُ مِنَ العباداتِ والحلالِ والحرام وغَيْرِها، قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67]، وقالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٤﴾ [النّحل: 64].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 155.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلغ).
(3) الراغب، المفردات: (بين).

(الاختلافُ أوْسعُ دلالةً، وأكثرُ اشتقاقًا مِنَ (التّخاصُمِ)

الاختِلاف والتَّخاصُم:

يَتَّفِقُ لَفْظا (الاخْتِلاف) و(التّخاصُم) في مَعْنى الصّيغَةِ الصَّرْفِيَة، فالاخْتِلاف عَلى صيغَةِ الافْتِعالِ، والتَّخاصُمُ عَلى صيغَةِ التَّفاعُلِ، وكلتا الصّيغَتَيْن تدلّانِ عَلى الاشْتراكِ في أمرٍ[1]، كَما يَتَّفِقانِ أيْضًا في أنَّ كُلًّا منْهُما قَدْ يوصِلُ إلى التَّنازُع.

وَيَتَمَيَّزُ (الاختِلافُ) عَنِ (التَّخاصُم) في كَوْنِهِ أوْسَعَ دَلالَةً، وأكْثَرَ اشتِقاقًا، فمادَّةُ (خَلَفَ) أكْثَرُ استِعْمالًا في القرْآنِ الكريم مِنْ مادَةِ (خَصَمَ)، كَما أنَّ للاخْتِلافِ مَعْنًى أوْسَعَ مِنَ التَّخاصُم، فقَدْ يَرِدُ الاخْتِلافُ في سياقٍ غَيْرِ مَذْموم، كالاخْتِلافِ في الألوانِ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾ [النّحل: 13]، والاخْتِلافِ في الظّواهِرِ الكوْنِيَّة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: 190]، وغيرِ ذَلِكَ مِنْ مَوارِد الاختلاف الدّالِّ على التَّنوُّع وليس التَّنازع، في حين أنَّ التَّخاصُمَ لا يكون إلّا مَذْمومًا، ولم يَرِدْ في القرْآنِ الكريم سِوى للدَّلالَة على الاختلاف المفضي إلى التَّنازُع فقط، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النّساء: 105]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾ [البقرة: 204].

وَمِنَ الفُروقِ أيْضًا بَيْنَ لَفْظَي (الاخْتِلافِ) و(التّخاصُم): أنَّهُ لم يَرِدِ الاخْتِلافُ بِمَعْنى التَّنازُعِ باشْتِقاقاتِه المتَنَوِّعَة في القرْآنِ الكريم إلّا في سِياقِ الحياةِ الدُّنْيا، بَيْنَما تَنَوَّعَ اسْتِخْدامُ التَّخاصُمِ باشْتِقاقاتِهِ في سِياقِ الحياةِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأخْرَوِيَّةِ[2].

(1) الحملاويّ، شذا العرف: 30 - 33.

(2) رياض حمود، مادّتا: (خلف) و(خصم) في القرآن الكريم، دراسة دلاليّة، مجلّة كلية التربية الأساسّية للعلوم التّربويّة والإنسانيّة، جامعة بابل، العدد، ص: 18، كانون أول، 2014م، ص: 586.

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾

[النّحل: 40]

العلاقة بين بيان الله لما اختلف فيه العباد وتجلّي قُدرته، بكُن فيكون

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

لَـمّا بيَّن سُبحانَهُ تَحَتُّمَ البَعْثِ وحِكْمَتَهُ؛ بَيَّنَ إمكانَهُ ويُسْرَهُ عَلَيهِ وخِفَّتَهُ لَديهِ بما يَقْتَضي عَظَمَتَهُ سُبْحانَه، فقالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَدۡنَٰهُ﴾ من الإرادَة: وهي المشيئَةُ، وأصْلُها الواوُ، لِقَوْلِكَ: راوَدَهُ، ومَعْنى أرادَ الشَّيْءَ: أحَبَّهُ، وعُنِيَ بِهِ، ويَدورُ مَعْنى الإرادَة حَوْلَ ذَهابِ النَّفْسِ إلى الشَّيْءِ، طَلَبًا ورَغْبَةً قَوِيَّةً في تَحْصيلِهِ، وكُلُّ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ التَّرْكيبِ فهوَ مِنَ الإرادَةِ بِهَذا المَعْنى عَدا (المراوَدَةِ)، و(رُوَيْدًا)، قال تعالى: ﴿لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233][2]، وأمّا صِفَةُ الإرادَةِ في حَقِّ اللّه ﷻ؛ فالمحَقِّقونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّة يَقولونَ: الإرادَةُ في كِتابِ اللّه نَوْعانِ: إرادَةٌ قَدَرِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ خَلقِيَّةٌ، وإرادَةٌ دينِيَّةٌ أمرِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ، فالإرادَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ المتَضَمِّنَةُ لِلمَحَبَّة والرِّضا، والكَوْنِيَّةُ هِيَ المَشيئَةُ الشّامِلَةُ، لِجَميعِ الحوادث[3]، فالإرادَةُ المذْكورَةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، هِيَ الإرادَةُ الكَوْنِيَّةُ الخلقِيَّةُ للّه ﷻ[4].

2) ﴿كُن﴾: أمرٌ من كانَ يَكونُ كَوْنًا وكَيْنونَةً، والكافُ والواوُ والنّونُ أصْلٌ يَدُلُّ عَلى الإخْبارِ عَنْ حُدوثِ شَيْءٍ، إمّا في زَمانٍ ماضٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 163.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ريد).
(3) الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص: 69.
(4) الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص: 452.

أَوْ زَمانٍ راهِنٍ، يَقولونَ: كانَ الشَّيْءُ يَكونُ كَوْنًا، إذا وقَعَ وحَضَرَ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: 280]، أَيْ: حَضَرَ وجاءَ، ويَقولونَ: قَدْ كانَ الشِّتاءُ، أَيْ: جاءَ وحَضَرَ[1]، والكَوْنُ يستعملُهُ بَعْضُ النّاسِ في اسْتِحالَةِ جَوْهَرٍ إلى ما هوَ دونَهُ، وكَثيرٌ مِنَ المتَكَلِّمينَ يَسْتَعْمِلونَهُ في مَعْنى الإبْداعِ[2]، ويُقالُ: كَوَّنَهُ اللّهُ فتَكَوَّنَ: أَحْدَثَهُ وأَوْجَدَهُ، واللّه مُكَوِّنُ الأَشْياءِ يُخرِجُها إلى الوجودِ، وهوَ تَحَقُّقٌ ماديٌّ عَنْ عَدَمٍ وغَيْبٍ[3]، فيَكونُ مَعْنى ﴿كُن﴾ في الآيةِ بِمَعْنى إيجادِ الشَّيْءِ المقَدَّرِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ العظمةِ الإلهيّةِ في إيجادِ المخلوقاتِ بِقول كن فيكون

أمرُ البعثِ يَسيرٌ على اللّه لَيْسَ بِصَعْبٍ ولا شَديدٍ، فإنَّهُ إذا أَرادَ شَيْئًا؛ قالَ لَهُ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، مِنْ غَيْرِ مُنازَعَةٍ ولا امتِناعٍ، بَلْ يَكونُ على طِبْقِ ما أَرادَهُ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ الفصْلِ في الآية الكريمة:

إنْكارُ البَعْثِ جَهْلٌ بِمَدى قُدْرَةِ الله تعالى وتَصرُّفِه في مخلوقاته

وردتِ الجملَةُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، مَفْصولَةً عنِ الجملَةِ الَّتي قَبْلَها، لِوُقوعِها بَيانًا لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فبَيْنَ الجملَتَيْنِ كَمالُ اتِّصالٍ بِحَيْثُ تُنَزَّلُ الثّانِيَةُ مِنَ الأولى مَنْزِلَةَ نَفْسِها، ودلالَةُ هَذا الفصْلِ بَيانُ أنَّ جَهْلَهُم بِمَدى قُدْرَةِ اللّه تَعالى، هوَ الَّذي جَرَّأَهُم عَلى إنْكارِ البعْثِ، واسْتِحالَتِهِ عِنْدَهُم[5].

دَلالَةُ الاعْتِراضِ في الآية الكريمة:

بَعْثُ الأمواتِ مِنْ تَكْوينِ الموجودّاتِ

وَرَدَتْ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كون).
(2) الرّاغب، المفردات: (كان).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كون).
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 440، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 271.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 156.

﴿كُن فَيَكُونُ﴾، جُملَةُ ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾؛ بيانًا لجُملَةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وجاءَتْ جُملَةُ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾، اعْتراضًا بَيْنَ البَيانِ والمبَيَّنِ؛ للدَّلالَةِ عَلى أَنَّهُ لا يَتوَقَّفُ تَكْوينُ شَيْءٍ إذا أرادَهُ الله إلّا عَلى أَنْ تَتَعَلَّقَ قُدْرَتُهُ بتَكْوينِه، فلَيْسَ إحْياءُ الأمواتِ إلّا مِنْ جُملَةِ الأشْياءِ، وما البَعْثُ إلّا تَكْوينٌ، فما بَعْثُ الأمواتِ إلّا مِنْ جُملَةِ تَكْوينِ الموجوداتِ، فلا يَخْرُجُ عَنْ قُدْرَتِه[1].

دَلالَةُ تَوْكيدِ البعْثِ للمرتاب:

مُوافَقَةُ المأموراتِ لإرادَةِ العَظيمِ سُبْحانَهُ

جاءَ قَوْلُه تَعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، تَوْكيدًا للبَعْثِ الَّذي كَذَّبَ بِهِ المشْرِكونَ بِقَوْلِهِم: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾، فلَمّا بَيَّنَ الله ﷻ تَحَتُّمَهُ وحِكْمَتَهُ؛ بَيَّنَ إمكانَهُ ويُسْرَهُ عَلَيْه، وخِفَّتَهُ لَدَيْه، فجاءَ الاسْتِئْنافُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ لِبَيانِ كَيْفيةِ التَّكْوينِ عَلى الإطْلاقِ إبداءً وإعادةً، بَعْدَ التَّنْبيهِ عَلى آنِيَّةِ البعْثِ[2]. ثُمَّ زادَ السّياقَ تَوْكيدًا بِقَوْلِه: ﴿قَوۡلُنَا﴾، أيْ: بما لَنا مِنَ العظَمَةِ إذا أَرَدْنا كَوْنَ شَيْءٍ أَنْ نَقولَ لَهُ: كُنْ فيَكونُ، فدَلَّ عَلى موافَقَةِ الأشْياءِ المرادَةِ، موافَقَةَ المأمورِ لِلآمِرِ المطاعِ[3].

دَلالَةُ ﴿إِنَّمَا﴾ عَلى العلمِ بقدرة الله:

قُدْرَةُ الله ﷻ في إيجادِ المخْلوقاتِ بِمُجَرَّدِ الإرادَةِ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ القرْآنيُّ في قَوْلِه تَعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ الأداة ﴿إِنَّمَا﴾ دونَ غَيْرِها مِنْ أدَواتِ القَصْرِ؛ لِأَنَّ الأَصْلَ فيها أَنْ تَجيءَ لِخَبرٍ لا يَجهَلُهُ المخاطَبُ، ولا يَدْفَعُ صِحَّتَه، أَوْ لا يُنَزَّلُ هَذهِ المنْزِلَةَ، فلَوْ قُلْت لرجلٍ مثلًا: (إنَّما هوَ أخوكَ)، فإنَّكَ لا تَقولُهُ لِمَنْ يَجْهلُ ذَلِكَ، ويَدفَعُ صِحَّتَه، ولكِنْ لِمَنْ يَعْلَمُه، ويُقِرُّ بِه، إلّا أَنَّكَ تُريدُ أَنْ تُنَبِّهَهُ للَّذي يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 156.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 114.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 163.

الأخ[1]. فاسْتِعْمالُ ﴿إِنَّمَا﴾ في الآيَةِ الكَريمَة، دَلَّ عَلى أنَّ المشْركين لا يَجْهَلونَ قُدْرَةَ اللّه عَلى الخَلقِ، والدَّليلُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، ولكِن لَم يَقوموا بِموجِبِ رُبوبِيَّتِه من اسْتِحْقاقِ العِبادَةِ والطّاعَة.

وكذلكَ مِنْ بَلاغَةِ التَّعْبيرِ بـ (إنَّما) دونَ غَيْرِها أنَّها تُفيدُ في الكلامِ بَعْدَها إيجابَ الفِعْلِ لِشَيْءٍ، ونَفْيَه عَنْ غَيْرِه، وتَجْعَلُ الأمرَ ظاهِرًا[2]. فاسْتِعمالُ ﴿إِنَّمَا﴾ في الآيَةِ الكريمَةِ دَلَّ عَلى إثْباتِ قُدْرَةِ اللّه ﷻ وحْدَهُ في إيجادِ المخْلوقاتِ بِمُجَرَّدِ الإرادَةِ، ونَفْيِها عَنْ غَيْرِه سُبْحانَهُ، وهَذا أمرٌ ظاهِرٌ.

إبْطالُ اعْتِقادِ المشْرِكينَ في استحالَةِ البَعْثِ يوم الدِّين

غرض أُسْلوبِ القصْرِ في الآيةِ الكريمة:

وَرَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أُسْلوبُ القصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾، وفائِدَتُهُ قَصْرُ وُقوعِ التَّكْوينِ عَلى صُدورِ الأمرِ بِه، وهوَ قَصْرُ قَلْبٍ لإبْطالِ اعْتِقادِ المشْرِكين تَعَذُّرَ إحْياءِ الموْتى ظَنًّا مِنْهُم أنَّهُ لا يَحْصُلُ إلّا إذا سَلِمَتِ الأجْسادُ مِنَ الفسادِ، ولِذَلِكَ كانَ هَذا قَصْرَ قَلْبٍ لإبْطالِ اعْتِقادِ المشْرِكينَ[3].

بلوغُ أمرِ الله تعالى لكلِّ شيء

دَلالَةُ اللّامِ في لفظ ﴿لِشَيْءٍ﴾:

تَدُلُّ اللّامُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ عَلى التَّبْليغِ[4]، فهِيَ مِثْلُ قَوْلِك: (قُلْتُ لَهُ: قُم، فقامَ)، وجَعَلَها الزَّجّاجُ سَبَبِيّةً، أيْ: لأجْلِ شَيْءٍ، بِمَعْنى: إذا أرَدْنا الشَّيْءَ؛ نَقولُ مِنْ أجْلِه: (كُنْ أيُّها المرادُ)، فيكونُ عَلى قَدْرِ إرادَةِ اللّه؛ لأنَّ المشْرِكينَ أنْكَروا البَعْثَ، قال تَعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[5]، والقَوْلُ الأوَّلُ أظْهَرُ.

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 330.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 335.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 156.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 114.
(5) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 199.

دَلالَةُ التنكير في قَوْلِهِ: ﴿لِشَىۡءٍ﴾:

عمومُ قدرةِ الله تعالى على ما عزَّ وهان من الأشياء

وَرَدَ في قَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَىۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، لَفْظُ ﴿لِشَىۡءٍ﴾ مُنَوَّنًا، وتَنْوينُهُ للتَّنْكيرِ بِمَعنى لأيِّ شَيءٍ كانَ ممّا عَزَّ وهانَ[1]، والنُّكْتَةُ في مجيئِهِ نَكِرَةً هوَ الدَّلالَةُ عَلى عُمومِ قُدْرَتِهِ ﷻ في إيجادِ أيِّ شَيْءٍ مِنَ الأَشْياءِ، والنَّكِرَةُ في سِياقِ النَّفْيِ تَعُمُّ، وقَدْ ورَدَتْ هُنا بَعْدَ أداةِ الحصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ الَّتي تُفيدُ إيجابَ الفعْلِ لِشَيءٍ، ونَفْيَهُ عَنْ غَيْرِهِ[2]، فدَلَّ بذلك تَنْكيرُ ﴿لِشَىۡءٍ﴾ عَلى العموم.

نُكْتَةُ تَسْمِيَةِ المعْدومِ (شَيْئًا):

تَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بما يَؤولُ إلَيْهِ، مِنَ البَلاغَةِ الصَّميمة

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَىۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تَسْمِيَةُ المَعْدوم شَيْئًا قَبْلَ حُدوثِه، وذَلِكَ إمّا باعْتِبارِ إرادَةِ وُجودِه، فهوَ مِنْ إطْلاقِ اسْمِ ما يَؤولُ إلَيْهِ، وإمّا أن يَكونَ المُرادُ بالشَّيْءِ مُطْلَقَ الحقيقَةِ المَعْلومَةِ وإنْ كانَتْ مَعْدومَةً، وإطْلاقُ الشَّيْءِ عَلَى المَعْدوم مُسْتَعْمَلٌ[3].

غرض الاسْتِعارَةِ في قَوْلِهِ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾:

سُهولَةُ تَأتّي المقْدوراتِ بِمُجَرَّدِ تَعَلُّقِها بالمَشيئَةِ

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَىۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ اسْتِعارَةٌ تمثيليَّةٌ، فقَدْ شُبِّهَ الشَّيْءُ المكنُ حُصولُهُ بِشَخْصٍ مَأْمورٍ، وشُبِّهَ انْفعالُ المكنِ لأمرِ التَّكْوينِ بامتِثالِ المأمورِ لأمرِ الآمِرِ، وتَتَجلّى بَلاغَةُ هَذهِ الاسْتِعارَةِ في تَمثيلِ سُهولَةِ تَأتّي المَقْدوراتِ، وتَصْويرِ سُرْعَةِ حُدوثِها، عِنْدَ تَعَلُّقِ مَشيئَتِهِ تَعالى بإيجادِها، في أسْرَعِ ما يَكونُ[4]، وكُلُّ ذَلِكَ تَقْريبٌ لِلنّاسِ بما يَعْقِلونَ، ولَيْسَ هوَ خِطابًا لِلمَعْدومِ، ولا أنَّ لِلمَعْدومِ سَمعًا يَعْقِلُ بِهِ الكَلامَ، فيَمتَثِلُ لِلآمِرِ[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 382.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 335.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 156.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 382.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 156.

صُدورُ عِظامِ الأُمورِ مِنْ دَلائِلِ كَمالِ القُدْرَةِ

دَلالَةُ الإضافَةِ في ﴿قَوۡلُنَا﴾:

جاءَ التَّعْبيرُ القرآنيُّ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، بِلَفْظِ ﴿قَوۡلُنَا﴾ مُضافًا إلى ضَميرِ المعَظِّم نَفْسَهُ سُبْحانَهُ؛ للدَّلالَةِ عَلى أنَّ ما أُسْنِدَ إلَيْه أمرٌ عَظيمٌ، وصُدورُ عِظامِ الأُمورِ يَدُلُّ عَلى كَمالِ القُدرَةِ والحكْمَةِ، وأنَّ حُكْمَهُ مُطاعٌ لا يَتَخَلَّف شَيءٌ عَنْ إرادَتِه، فإنَّ مِثْلَ هَذا التَّعْبيرِ يُعَبِّرُ به الملوكُ والعظَماءُ النّافذُ أمرُهم ونَهْيُهم[1]، وفي الآيَةِ الكريمَةِ مِنَ الفخامَةِ والجزالَةِ ما تحارُ فيهِ العقولُ[2].

قَضاءُ اللهِ سُبْحانَهُ نافِذٌ عَلى الفَوْرِيَّةِ لا رادَّ لحكمه ولا معقّب لكلماته

دَلالَةُ (الفاء) في قَوْلِهِ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ القُرْآنيُّ في قَوْلِهِ تَعالى، ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بحرفِ (الفاء) الَّذي يَدُلُّ في اللُّغَةِ عَلى مَعْنى التَّرْتيبِ والتَّعْقيب، ومَدْلولُهُ أنَّ التَّكوينَ ﴿فَيَكُونُ﴾، يَعْتَقِبُ الأمرَ ﴿كُن﴾، فذَهَبَ بَعْضُ العُلَماءِ إلى ظاهِرِه، فقالوا إنَّ الشَّيْءَ الَّذي يَقولُ لَهُ اللهُ ﷻ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ مَوْجودٌ في عِلمِ اللهِ وتقديرِه، وإنَّما يَقولُ لَهُ ﴿كُن﴾ لِيُخْرِجَهُ إلى العَيانِ لَنا[3] وقالَ آخرونَ بأنَّ التَّعْقيبَ هُنا غَيْرُ مُرادٍ؛ لأنَّ الصَّحيحَ أن لا يَتَقَدَّمَ وُجودُ الَّذي أرادَ إيجادَهُ وتَكْوينَهُ إرادَتَهُ إيّاهُ، ولا أمرَهُ بالكَوْنِ والوجودِ، ولا يَتَأَخَّرَ عَنْهُ، فكَذلِكَ لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ اللهُ آمِرًا شَيْئًا بالوجودِ إلّا وهوَ مَوْجودٌ، ولا مَوْجودًا إلّا وهوَ آمِرُهُ بالوجودِ[4].

القِراءَةُ مَعَ القِراءَةِ، بِمَنْزِلَةِ الآيَةِ من الآيَةِ

تَعَدُّدُ القراءاتِ في قَوْلِهِ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾:

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قِراءَتانِ: **أولاهما**: قَرَأَ ابْنُ عامِرٍ (كُنْ فيكَونَ) بِنَصْبِ النّونِ، ووافَقَهُ الكِسائِيُّ، **وثانيتهما**: قَرَأَ الباقونَ بِالرَّفْعِ

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 115.
(3) ابن جزيّ، التّسهيل: 1/ 95.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/ 482.

﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1]، والنُّكْتَةُ في قِراءَةِ النَّصْبِ أنَّهُ أمرٌ جَوابُهُ بِالفاءِ، ودَليلُهُ حُسْنُ الماضي في مَوْضِعِه، إذا قُلتَ: كُنْ؛ فكانَ[2]، ويُمكِنُ أنْ يَكونَ عَطْفًا عَلى ﴿أَن نَّقُولَ﴾[3]، والنُّكْتَةُ في قِراءَةِ الرَّفْعِ عَلى تَقْديرِ (فهو)، بِمَعْنى: ما أرادَ اللّه؛ فهوَ يَكونُ[4]، أوْ هو رَفْعٌ عَلى الاسْتِئْنافِ، كَأَنَّهُ قالَ: إنَّما أمْرُنا ذاك، فيَكونُ[5].

دَلالَةُ التَّذْكيرِ بِالإرادَةِ الإلَهيَّةِ ﴿أَرَدْنَٰهُ﴾:

إيجادُ الشَّيْءِ مُرتَبِطٌ بِتَعَلُّقِ الإرادَةِ به، وإرادة اللّه حكمة ورحمة

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، تقدَّم التَّذْكيرُ بالإرادَةِ الإلهيَّةِ بِقَوْلِه: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ قَبْلَ إعْجازِ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ لِلدَّلالَةِ عَلى أنَّ إيجادَ الشَّيْءِ عِنْدَ تَعَلُّقِ الإرادَةِ بِهِ أسْرَعُ ما يكونُ، إضافَةً إلى أنَّ إسْنادَ الإرادَةِ إلى ضَميرِ العظَمَةِ يَدُلُّ عَلى كَمالِ القدرَةِ والحِكْمَة، وأنَّ حُكْمَه مُطاعٌ لا يَتَخَلَّفُ شَيْءٌ عَنْ إرادَتِه[6].

إشْكالُ خطابِ المَعْدومِ في قوله: ﴿كُن﴾:

ما قُدِّرَ وُجودُهُ فهوَ كائِنٌ لا مَحالةَ بأمرِ الله تعالى

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾، إشْكالٌ مَفادُهُ: إنْ كانَ قَوْلُهُ لشيءٍ: ﴿كُن﴾ خِطابًا مَعَ المعدوم؛ فهوَ مُحالٌ، وإنْ كانَ خِطابًا مَعَ الموجودِ كانَ هَذا أمرًا بِتَحْصيلِ الحاصِلِ، وهوَ مُحالٌ، وقَدِ اخْتَلَفَ العُلَماءُ في تخريجِه، فقالَ الأصوليونَ: هَذِهِ عِبارَةٌ عَنْ قُدْرَةِ اللّه، ولَيْسَ بقولٍ حَقيقيٍّ؛ لِأَنَّهُ إذا كانَ قَوْلُ: ﴿كُن﴾ خِطابًا لِلشَّيْءِ في حالِ عَدَمِه؛ لم يَصِحَّ، لِأَنَّ المَعْدومَ لم يُخاطَبْ، وإنْ كانَ خِطابًا في حالِ وُجودِه؛ لِأَنَّهُ قَدْ كانَ، وتَحْصيلُ الحاصِلِ غَيْرُ مَطْلوبٍ، وحَمَلَهُ

(1) ابن الجزري، النّشر: 2/ 220.
(2) ابن خالويه، الحجّة: 2/ 220.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 100.
(4) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 198.
(5) سيبويه، الكتاب: 3/ 39.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 115.

المفَسِّرونَ عَلى حَقيقَتِهِ، وأجابوا عَنْ ذَلِكَ بِأَرْبَعَةِ أَجْوِبَةٍ: **أَحَدُها**: أَنَّ الشَّيْءَ الَّذي يَقولُ لَهُ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ مَوْجودٌ في عِلمِ اللّه، وإنّما يَقولُ لَهُ: ﴿كُن﴾ لِيُخْرِجَهُ إلى العيانِ لَنا، **والثّاني**: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿كُن﴾ لا يَتَقَدَّمُ عَلى وُجودِ الشَّيْءِ ولا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، قالَهُ الطَّبَريُّ، **والثّالِثُ**: أَنَّ ذَلِكَ كان خِطابًا لِمَنْ كانَ مَوْجودًا عَلى حالِهِ فَيَأْمُرُهُ بِأَنْ يَكونَ عَلى حالَةٍ أُخْرى، كإحْياءِ المَوْتى، ومَسْخِ الكُفّارِ، وهذا ضَعيفٌ؛ لأَنَّهُ تَخْصيصٌ مِنْ غَيْرِ مُخَصِّصٍ، **والرابِعُ**: أَنَّ مَعْنى يَقولُ لَهُ: يَقولُ مِنْ أَجْلِهِ، فلا يَلزَمُ خِطابُهُ(1).

وَتَلخيصُ الكلامِ في هذا الإشكالِ: أَنَّ مَعْناهُ إنَّما يَقولُ لَهُ، أيْ: لأَجْلِ تَكْوينِهِ، فعَلى هَذا ذَهَبَ مَعْنى الخطابِ، وقيلَ: هوَ وإنْ كانَ مَعْدومًا، ولَكِنَّهُ لمّا قُدِّرَ وُجودُهُ، وهوَ كائِنٌ لا مَحالَةَ؛ كانَ كالمَوْجودِ، فصَحَّ الخطابُ(2).

دَلالَةُ القُدْرَةِ المطلَقَةِ في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾:

ما أرادَهُ اللّه تَعالى فهوَ كائِنٌ في لَمحِ البَصَر

ذَهَبَ بَعْضُ العلَماءِ إلى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، تمثيلٌ لِنَفْيِ الكَلامِ والمعاياةِ، وخِطابٌ مَعَ الخلقِ بما يَعْقِلونَ، ولَيْسَ خِطابًا للمعْدومِ؛ لأَنَّ ما أرادَهُ اللّه تَعالى، فهوَ كائِنٌ عَلى كُلِّ حالٍ وعَلى ما أرادَهُ مِنَ الإسْراعِ، ولَوْ أرادَ خَلقَ الدُّنْيا والآخِرَةِ بما فيهما مِنَ السّماواتِ والأَرْضِ في قَدْرِ لمحِ البصَرِ؛ لَقَدَرَ عَلى ذَلِكَ، ولَكِنَّ العبادَ خوطِبوا بِذَلِكَ عَلى قَدْرِ عُقولِهِم(3).

دَلالَةُ الآيةِ على قُدْرَةِ الله عَلى البعْثِ والنُّشورِ:

الحشْرُ والنَّشْرُ والبعْثُ والقيامَةُ حَقٌّ وصِدْقٌ لا مراء فيه

دَلَّ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، عَلى قُدْرَتِهِ سُبْحانَهُ عَلى البعْثِ والنُّشورِ، فكَوْنُهُ تَعالى موجِدًا للأَشْياءِ ومُكَوِّنًا لها، لا يَتَوَقَّفُ عَلى سَبْقِ مادَّةٍ ولا مُدَّةٍ ولا آلَةٍ،

(1) ابن جزيّ، التّسهيل: 1/ 95.
(2) البغويّ، معالم التنزيل: 1/ 160.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 207.

وهوَ تَعالى إنَّما يكوِّنُها بِمَحْضِ قُدْرَتِهِ ومَشيئَتِه، ولَيْسَ لِقُدْرَتِه دافِعٌ، ولا لمشيئَتِه مانِعٌ، فعَبَّرَ تَعالى عَنْ هَذا النَّفاذِ الخالي عَنِ المُعارِضِ، بقَوْلِه: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وإذا كانَ كَذَلِكَ؛ فكَما أنَّهُ تَعالى قَدَرَ عَلى الإيجادِ في الابْتِداءِ، وجَبَ أَنْ يَكونَ قادِرًا عَلَيْهِ في الإعادَةِ، فثَبَتَ بِهَذَيْنِ الدَّليلَيْنِ القاطِعَيْنِ أَنَّ القَوْلَ بِالحشْرِ والنَّشْرِ والبعْثِ والقيامَةِ، حَقٌّ وصِدْقٌ[1].

دلالة التَّشابُهِ اللَّفْظِيِّ في الآية:

البَيانُ أَكْثَرُ تَعَلُّقًا بِالقَوْلِ، والخلقُ أَكْثَرُ تَعَلُّقًا بالأمرِ

قالَ اللَّه تَعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وقالَ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]، ووَجْهُ المغايَرَةِ بَيْنَهُما أَنَّ آيَةَ النَّحْلِ يَسْبِقُها قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾، فلَمّا كانَ البَيانُ والإعْلامُ أَكْثَرَ تَعَلُّقًا بِالقَوْلِ، وكانَتِ العَظَمَةُ أَنْسَبَ لِلتَّهْديدِ والوعيدِ؛ ناسَبَهُ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، أمّا آيةُ يَس فيَسْبِقُها قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١﴾ [يس: 81]، فلَمّا كانَ الخلقُ أَكْثَرَ تَعَلُّقًا بالأمرِ، وكانَ التَّفرُّدُ بالخلقِ أدَلَّ عَلى القدْرَةِ؛ ناسَبَهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(أرادَ) و(شاءَ):

الإرادَةُ أَعَمُّ مِنَ المشيئَةِ، لكونها لما يَتَراخى وقْتُهُ، ولما لم يَتَراخ، والمشيئَةُ للثّاني فحسب

يَتَّضِحُ الفرْقُ بَيْنَ (أرادَ) و(شاءَ) في أنَّ الإرادَةَ تكونُ لما يَتَراخى وقْتُهُ، ولما لا يَتَراخى، والمشيئَةُ لما لَم يَتَراخَ وقْتُهُ، والفَرْقُ بَيْنَهُما كَذلِكَ: أنَّ الإرادَةَ هِيَ العزْمُ على الفِعْلِ أوِ التَّرْكِ بَعْدَ تَصوُّرِ الغايَةِ المترَتِّبَةِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 207.

عَلَيْه مِنْ خَيْرٍ أوْ نَفْعٍ أوْ لَذَّةٍ ونَحْوِ ذَلِك، وهِيَ أخَصُّ مِنَ المشيئَةِ؛ لأَنَّ المشيئَةَ ابتداءُ العزْمِ عَلى الفعْلِ، فنِسْبَتُها إلى الإرادَةِ نِسْبَةُ الضَّعْفِ إلى القوَّةِ، والظَّنِ إلى الجزْمِ، فإنَّك رُبَّما شِئْتَ شَيْئًا ولا تُريدُهُ لمانعٍ عَقْليٍّ أوْ شَرْعيٍّ، وأمّا الإرادَةُ فمَتى حَصَلَتْ؛ صَدَرَ الفِعْلُ لا محالةَ[1].

كَما أنَّ الإرادَةَ والمشيئَةَ في أَصْلِ اللُّغَةِ مختَلِفَتانِ، فإنَّ المشيئَةَ لُغَةً: الإيجادُ، والإرادَةَ: طَلَبُ الشَّيْءِ[2]، ويَظْهَرُ الفرْقُ بَيْنَهُما في حَقِّ اللّه ﷻ: أنَّ الإرادَةَ أعَمُّ مِنَ المشيئَةِ، فإنَّ الإرادَةَ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: إرادَةٌ كَوْنِيَّةٌ وهِيَ المشيئَةُ، وهِيَ لازمَةُ الوقوعِ، فما شاءَ اللّه كانَ، وما لم يشَأْ لم يَكُنْ[3]، وإرادَةٌ دينِيَّةٌ لا يَلزَمُ منْها وُقوعُ المرادِ، وهِيَ الَّتي بمعنى المحبَّةِ، فالمشيئَةُ لم تَرِدْ مُسْتَعْمَلَةً في الدِّينيَّةِ، إنَّما جاءَتْ مُسْتَعْمَلةً في الكوْنِيَّةِ، فلا تَنْقَسِمُ، بِخِلافِ الإرادَةِ[4].

القوْل والقيل:

القَوْلُ مَصْدَرٌ دالٌّ عَلى الحَدَثِ، والقيلُ اسْمٌ دالٌّ عَلى المقولِ

يَتَّضِحُ الفرْقُ بَيْنَ لفظي (القول) و(القيل): في كَوْنِ القوْلِ مَصْدَرًا، والقيلِ اسْمًا، كالفرْقِ تَمامًا بَيْنَ الذَّبْحِ (بِفَتْحِ الذّالِ) الدّالِّ عَلى حَدَثِ الذَّبْحِ نَفْسِه، وبَيْنَ الذِّبْحِ (بكَسْرِ الذّالِ) الدّالِّ عَلى ما يُذْبَحُ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾ [الصافات: 107]، وكَذَلك الحالُ هُنا بين القَوْلِ والقيلِ، فالأولى مَصْدَرٌ دالٌّ عَلى حَدَثِ القَوْلِ، والثّانِيَةُ اسْمٌ دالٌّ عَلى المقولِ ومَضْمونِ القَوْلِ.

هَذا مِنَ النّاحِيَةِ الصَّرْفيَّةِ، وأمّا مِنْ حَيْثُ المعْنى فقَدْ فرَّقَ بَعْضُهُم بَيْنَهُما بأنَّ القَولَ في الخَيْرِ والشَّرِّ، والقالُ والقيلُ والقالَةُ في الشَّرِّ خاصَّةً. يُقالُ: كَثُرَتْ قالَةُ النّاسِ فيه، وقَدْ رَدَّ هَذِهِ التّفْرِقَةَ أقْوامٌ، وضَعَّفوها بوُرودِ كُلٍّ مِنَ القالِ والقيلِ في الخَيْرِ، وناهيكَ

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 35.
(2) الكفويّ، الكلّيات، ص: 75.
(3) ابن أبي العزّ الحنفيّ، شرح العقيدة الطّحاوية، ص: 79.
(4) محمّد بن إبراهيم، الفتاوى والرّسائل، ص: 208.

بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨﴾ [الزخرف: 88][1]، ومِمّا يُؤَكِّدُ بُطْلانَ هَذا التَّفْريقِ المَعْنَوِيِّ بَيْنَهُما حَديثُهُ ﷺ: "إِنَّ اللَّه كَرِهَ لَكُم ثَلاثًا: قيلَ وقال، وإِضاعَةَ المال، وكَثْرَةَ السُّؤال"[2]، فجَعَلَ القالَ مَصْدَرًا، ألا تَراهُ يَقولُ عَنْ قيلَ وقال، كَأَنَّهُ قال: عَنْ قيلٍ وقَوْلٍ، فيُقالُ عَلى هَذا: قُلْتُ قَوْلًا وقيلًا وقالًا[3]، فيَبْقى الفَرْقُ المعتَبَرُ بَيْنَهُما هوَ المَعْنى الصَّرْفِيُّ فحسب.

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (قول).

(2) متّفق عليه، البخاريّ، الحديث رقم: (1477)، ومسلم، الحديث رقم: (593).

(3) أبو عبيد القاسم بن سلّام، غريب الحديث: 3/ 415.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾ [النّحل: 41 - 42]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الرَّبط بين إرادة الله فيما يريد، وجزاء المهاجرين بالتمكين في الدُّنيا وأجر الآخرة

لَمّا كانَ التَّقْديرُ تَفْصيلًا لفريقي المبَيَّنِ لهم، وتَرْغيبًا في الهِجْرَةِ؛ لأنَّها بَعدَ الإيمانِ أوثقُ عُرى الإسلام، فالَّذينَ كَفَروا واغْتَرّوا بِما شاهَدوه مِنَ العَرَضِ الفاني، لَنُخْزِيَنَّهُم في الدُّنْيا والآخِرَةِ، ولَنُجازِيَنَّهم بجميعِ ما كانوا يَعْمَلونَ؛ عُطِفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾؛ لِبيانِ ثَوابِ الَّذينَ هاجَروا في سبيلِ اللهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَاجَرُواْ﴾: هاجَرَ يُهاجِرُ مُهاجَرَةً وهِجْرَةً، مِنَ التَّرْكِ، والهاءُ والجيمُ والرّاءُ أَصْلانِ يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلى قَطيعَةٍ وقَطْعٍ، والآخَرُ عَلى شَدِّ شَيْءٍ ورَبْطِه، والمقْصودُ هُنا الأوَّلُ، فالهَجْرُ: ضِدُّ الوصْلِ، وكَذَلِكَ الهِجْرانُ، وهاجَرَ القَوْمُ مِنْ دارٍ إِلى دارٍ: تَرَكوا الأولى لِلثّانِيَةِ، كَما فعَلَ المهاجِرونَ حينَ هاجَروا مِنْ مَكَّةَ إِلى المدينَةِ[2]، ويُطْلَقُ هَذا اللَّفْظُ في القرْآنِ بِمَعْنى الخروجِ مِنْ دارِ الكفْرِ إِلى دارِ الإيمانِ كَمَنْ هاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إِلى المدينَةِ[3]، وهوَ المعْنى المرادُ في الآيَةِ.

2) ﴿ظُلِمُواْ﴾: ظَلَمَ يَظْلِمُ ظُلْمًا، مِنَ الجَوْرِ والنَّقْصِ، والظّاءُ واللّامُ والميمُ أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما خِلافُ الضّياءِ والنّورِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هجر).

والآخَرُ وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ تَعدِّيًا، فالأوَّلُ الظُّلْمَةُ، والجمعُ ظُلُماتٌ، والظَّلامُ: اسْمُ الظُّلْمَةِ، والأَصْلُ الآخَرُ: ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا، وهو وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، ويُقالُ: ظَلَّمتُ فُلانًا: نَسَبْتُهُ إلى الظُّلْمِ، وظَلَمتُ فُلانًا، فاظَّلَمَ وانْظَلَمَ، إذا احْتَمَلَ الظُّلْمَ، والأَرْضُ المظْلومَةُ: الَّتي لَم تُحْفَرْ قَطُّ، ثُمَّ حُفِرَتْ، وذَلِكَ التُّرابُ ظَليمٌ[1]، ويَدورُ مَعْنى مادَّةِ (ظَلَمَ) حَوْلَ حَجْبِ ما يَنْبَغي أَوْ ما يُسْتَحَقُّ، أَيْ: مَنْعِه أو انتقاصه، والظُّلم في القرآنِ الكريم فُسِّرَ بـ (الجوْرِ ومجاوزةِ الحدِّ)، وهوَ لا يَخْرُجُ عَنِ انْتِقاصِ المسْتَحقِّ؛ والظَّلَمَةُ: المانِعونَ أَهْلَ الحقوقِ حُقوقَهُم[2]، فيَكونُ مَعْنى الظُّلْمِ في الآيَةِ أَنَّ المؤمِنينَ قَدْ مُنِعوا حُقوقَهُم، وتَجاوَزَ الكفّارُ الحدَّ في أَذِيَّتِهِم وتَعْذيبِهِم.

3) ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾: بَوَّأَ يُبَوِّئُ تَبْويئًا، مِنَ الإسْكانِ، والباءُ والواوُ والهمزَةُ أَصْلانِ: أَحَدُهُما الرُّجوعُ إلى الشَّيْءِ، والآخَرُ تَساوي الشَّيْئَيْنِ، فالأوَّلُ الباءَةُ والمَباءَةُ، وهِيَ مَنْزِلَةُ القَوْمِ، والمباءَةُ أَيْضًا: مَنْزِلُ الإبِلِ حَيْثُ تُناخُ في الموارِدِ، يُقالُ: قَدْ أَباءَها الرّاعي إلى مَبائِها فتَبَوَّأَتْهُ، وبَوَّأَها إيّاهُ تَبْويئًا، ويُقالُ: فُلانٌ حَسَنُ البيئَةِ عَلى فِعْلَةٍ، مِنْ قَوْلِكَ: تَبَوَّأْتُ مَنْزِلًا[3]، وقَدْ جاءَ في القُرْآنِ الكَريمِ من اسْتِعْمالاتِ هَذا الجِذْرِ صيغَتانِ: (باءَ بـ)، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 162]، بِمَعْنى الرُّجوعِ، والصِّيغَةُ القُرْآنِيَّةُ الأُخْرى مِنْ هذا التَّرْكيبِ، هِيَ: (بَوَّأَ)، وكُلُّها بِمَعْنى الإقْرارِ في مَكانٍ مُهَيَّأٍ مُناسِبٍ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾ [الأعراف: 74][4]، وهَذا هوَ المَعْنى المرادُ في الآيَةِ، فقَدْ وعَدَ اللهُ سُبْحانَهُ المهاجِرينَ في سَبيلِهِ بِأَنْ يُنْزِلَهُم في دارٍ حَسَنَةٍ في الدُّنْيا، وهِيَ المدينَةُ، وأَنْ يُسْكِنَهُم في الآخِرَةِ الجنَّةَ.

4) ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: أَصْلُها مِنْ جِذْرِ (أخر)، والهمزَةُ والخاءُ والرّاءُ أَصْلٌ واحِدٌ، إِلَيْهِ تَرْجِعُ فُروعُهُ، وهوَ خِلافُ التَّقَدُّمِ[5]، والآخِرُ نَقيضُ المتَقَدِّمِ، والآخِرُ يُقابَلُ بِهِ الأَوَّلُ، وكُلُّ ما في القُرْآنِ مِنْ (آخَر) ومُثَنّاه وجَمْعِهِ، و(أُخْرى) وجَمْعِها (أُخَر)؛ فهوَ مِنْ هَذا المَعْنى[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ظلم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بوأ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بوأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أخر).

وَيُعَبَّرُ بالدّارِ الآخرةِ عَنِ النَّشْأةِ الثّانيَةِ، كَما يُعَبَّرُ بِالدّارِ الدُّنْيا عَنِ النَّشْأةِ الأولى، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: 64]، ورُبَّما تُرِكَ ذِكْرُ الدّارِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: 16][1]، فيَكونُ مَعْنى أجْرِ الآخِرَةِ في الآيَةِ هوَ الأجْرُ الَّذي سَيَنالُهُ المهاجِرونَ في سَبيلِ اللهِ يَومَ القيامَةِ عِنْدَ النَّشْأةِ الثّانيَةِ.

5) ﴿صَبَرُواْ﴾: صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْرًا، وهوَ الإمساكُ في ضيقٍ، يُقالُ: صَبَرْتُ الدّابَّةَ: حَبَسْتُها بِلا عَلَفٍ، وصَبَرْتُ فُلانًا: حَلَّفْتُهُ حَلْفَةً لا خُروجَ لَهُ مِنْها، والصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ[2]، والصَّبْرُ شَرْعًا نَقيضُ الجزَعِ، وحَقيقَتُهُ: الثَّباتُ لِلمُصيبَةِ أوِ المشَقَّةِ، والتَّماسُكُ والاسْتِمرارُ فيما هوَ فيه، وعَدَمُ الانقطاعِ أوِ الزَّوالِ عَنْهُ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [البقرة: 45]، أيْ: بالثَّباتِ عَلى ما أنْتُم عَلَيْهِ مِنَ الإيمانِ، وكُلُّ ما في القرآنِ مِنْ هَذا التَّرْكيبِ فهوَ بِمَعْنى الثَّباتِ عِنْدَ الشِّدَّةِ، أوِ المجاهَدَةِ[3]، ومِنْهُ الصَّبْرُ في هَذِهِ الآيَةِ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، أي: الَّذينَ ثَبَتوا عِنْدَ الشَّدائِدِ، وحَبَسوا أنْفُسَهُم عَلى دينِ اللهِ، بامتِثالِ أوامِرِهِ ونَواهيهِ.

6) ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: تَوَكَّلَ يَتَوَكَّلُ تَوَكُّلًا، مِنَ الاعْتِمادِ، والواوُ والكافُ واللّامُ: أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى اعْتمادِ غَيْرِكَ في أمرِكَ، مِنْ ذَلِكَ الوُكَلَةُ والوُكَلُ: الرَّجُلُ الضَّعيفُ، يَقولونَ: وُكَلَةٌ تُكَلَةٌ، والتَّوَكُّلُ مِنْهُ، وهوَ إظْهارُ العجْزِ في الأمرِ، والاعْتِمادُ عَلى غَيْرِكَ، وواكَلَ فُلانٌ، إذا ضَيَّعَ أمرَهُ مُتَّكِلًا عَلى غَيْرِهِ[4]، والوكيلُ فعيلٌ بِمَعْنى المفْعولِ، قالَ تَعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النّساء: 81] أي: اكْتَفِ بِهِ أنْ يَتَوَلّى أمرَكَ، ويَتَوَكَّلَ لَكَ، وعلى هَذا قَوْلُنا: (حَسْبُنا اللّهُ ونِعْمَ الوكيلُ)[5]، ويَدورُ مَعْنى هذِهِ المادَّةِ حولَ تَفْويضِ القِيامِ بأمرٍ إلى مَنْ فيه الكِفايَةُ لِلْقِيامِ بِهِ[6]، فيَكونُ مَعْنى ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في الآيَةِ: تفويض المؤمنينَ أمرَهُم مِنَ الهِجْرَةِ وغَيْرِها إلى اللهِ، مُعْتَمِدينَ عليهِ في جَميعِ مَساعيهِم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يَعِدُ اللّهُ تَعالى الَّذينَ تَرَكوا دِيارَهُم مِنْ أجْلِهِ فهاجَروا بَعْدَما وقَعَ عليهِمُ الظُّلْمُ؛ بأنْ

---
(1) الرّاغب، المفردات: (أخر).
(2) الرّاغب، المفردات: (صبر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(5) الرّاغب، المفردات: (وكل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وكل).

يُسْكِنَهم في الدُّنيا دارًا حَسَنة، ولَأَجْرُ الآخرَةِ أَكْبَرُ؛ لأَنَّ ثَوابَهم فيها الجَنَّةُ، ولَوْ كانَ المتَخَلِّفونَ عَنِ الهِجْرَةِ يَعْلمونَ علمَ يقينٍ ما عِنْدَ اللّه مِنَ الأَجْرِ والثَّوابِ للمُهاجِرينَ في سَبيلِهِ؛ ما تَخلَّفَ مِنْهُم أحدٌ عَنْ ذَلِكَ، فهَؤُلاءِ المهاجِرونَ في سبيلِ اللّه همُ الَّذينَ صَبَروا عَلى أوامِرِ اللّه وعَنْ نَواهيهِ وعَلى أَقْدارِهِ المؤْلِمَة، وعَلى رَبِّهم وحدَهُ يَعْتَمِدونَ، فاسْتَحَقّوا هَذِهِ المنْزِلَةَ العَظيمَةَ(1).

وَعْدُ اللهِ المهاجِرينَ بالثَّوابِ الأوفى في الدّارين

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ (الواوِ) في مطلع الآية الكريمة:

مُقابَلَةُ مَصيرِ الكافِرينَ الكاذِبينَ، بِمَصيرِ المؤمِنينَ الصّادِقينَ

وَرَدَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ مَعْطوفًا بالواوِ عَلى جُملَةِ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾؛ لِلمُقابَلَةِ في البيانِ بَيْنَ مَصيرِ الكافِرينَ ومَصيرِ المؤمنينَ، فلمّا تَبَيَّنَ أنَّ الّذينَ كَفَروا كانوا كاذبينَ؛ عُلِمَ مِنْهُ أنَّ الَّذينَ آمَنوا كانوا صادِقينَ بِدَلالَةِ المضادَّةِ، وأَنَّهُم مُثابونَ ومُكَرَّمونَ، وأُدْمِجَ مَعَ ذَلِكَ وعْدُهُم بِحُسْنِ العاقِبَةِ في الدُّنيا، مُقابَلَةً بِوَعيدِ الكافِرينَ بِسوءِ العاقِبَةِ فيها(2).

دَلالَةُ حَرْفِ الجرِّ من شبه الجملة ﴿فِي ٱللَّهِ﴾:

تَمَكُّنُ الهِجْرَةِ في قُلوبِ المؤمِنينَ تَمَكُّنَ الظَّرْفِ في مَظْروفِهِ

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾، اسْتِعْمالُ حَرْفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ أصالَةً عَلى الظَّرْفِيَّة، بِمَعْنى أنَّهُم هاجروا في ذاتِ الملِكِ الأَعْلى الَّذي لَهُ صِفاتُ الكمالِ(3)، فتَكونُ ﴿فِي﴾ عَلى ظاهِرِها مِنَ الظّرْفِيَّةِ، إشارَةً إلى أنَّها هِجْرَةٌ مُتَمَكِّنَةٌ تَمَكُّنَ الظَّرْفِ في مَظْروفِه، وهِيَ ظَرْفِيَّةٌ مَجازِيَّةٌ(4)، ويُحتَمَلُ أَيْضًا أنْ تكونَ ﴿فِي﴾ مُسْتَعْمَلَةً في التَّعْليلِ، أيْ: لِأَجلِ اللّه، والكَلامُ عَلَى تَقْديرِ مُضافٍ

(1) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 271.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 157.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 164.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 384.

يَظْهَرُ مِنَ السّياقِ، تَقْديرُهُ: هاجَروا لِأَجْلِ مَرْضاةِ اللّه[1]، ونَظيرُهُ قَوْلُهُ ﷺ: "إنَّ امرأَةً دَخلَتِ النّارَ في هِرَّةٍ"[2].

نُكْتَةُ إيثارِ الاسْمِ المَوْصولِ (الَّذينَ) وصِلَتِهِ:

الهِجْرَةُ في سَبيلِ اللهِ سَبَبُ الفَوْزِ بِحَسَنَةِ الدُّنْيا والآخِرةِ

جاءَ التَّعْبيرُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾، بِالاسْمِ المَوْصولِ وجُمْلَةِ صِلَتِه؛ لِلتَّنْصيصِ عَلى سَبَبِ فَوْزِهِم بِثَوابِ الدُّنْيا والآخِرَة، وهوَ هِجْرَتُهُم في سَبيلِ مَرْضاةِ اللّه، فتَرَكوا دِيارَهُم مِنْ أَجْلِ اللّه، بَعْدَما وقَعَ عَلَيْهِمُ الظُّلْمُ، فوَعَدَهُم اللّهُ بِدارٍ حَسَنَةٍ في الدُّنْيا، وثَوابٍ أَكْبَرَ في الآخِرَة، وهوَ الجنَّةُ، فوَضْعُ المَوْصولِ مَوضِعَ الاسْمِ يَسْمَحُ بِوَصْفِهِ بجملة الصِّلَة، والغَرَضُ مِنْهُ الإشعارُ بِعِلَّةِ الحكْمِ[3].

دلالة التعبير بالماضي: ﴿هَاجَرُواْ﴾:

الوعْدُ بالأجْرِ العظيمِ، لِكُلِّ مهاجِرٍ كريم

وَرَدَ الفِعْلُ ﴿هَاجَرُواْ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾، بِصيغَةِ الماضي؛ لأَنَّ الإخْبارَ عَنِ الشَّيْءِ بِصيغَةِ الماضي يَقْتَضي كَوْنَ المخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا عَلى ذَلِكَ الإخْبارِ[4]، فقَدْ ذُكِرَ في سَبَبِ نُزولِ الآيَةِ: أَنَّ المَقْصودَ بِها مَنْ هاجَرَ إِلى أَرْضِ الحبَشَةِ مِنَ المُسْلِمينَ، أَوِ الَّذينَ هاجَروا إلى المدينَةِ الهِجْرَةَ الأُولى قَبْلَ هِجْرَةِ النَّبيِّ ﷺ وبَقِيَّةِ أَصْحابِه ﭫ، مِثْلِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ وأَصْحابِه، إِنْ كانَتْ هَذِهِ الآيَةُ نازِلَةً بَعْدَ الهِجْرَةِ الأُولَى، وكِلا الاحتِمالَيْنِ لا يُنافي كَوْنَ السّورَةِ مَكِّيَّةً[5]، ولا يَقْتَضي تَخْصيص أولَئِكَ بِهَذا الوعْدِ؛ لأَنَّ الإخبارَ كَذَلِكَ بِصيغَةِ الماضي مُضَمَّنُهُ الدَّوامُ والاستِمرارُ[6]، فكُلُّ مَنْ يُهاجِرُ في سَبيلِ اللّهِ يَنالُ الموعودَ مِنْ ثَوابِ الدُّنْيا والآخِرَة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 157.
(2) متّفق عليه: البخاريّ، الحديث رقم: (3318)، ومسلم، الحديث رقم: (2619).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 113.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 158.
(6) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 5/ 377.

دَلالَةُ تَحْديدِ الفِعْلِ ﴿هَاجَرُواْ﴾ دونَ الوِجْهَةِ:

العِبْرَةُ بالهِجْرَةِ في سبيلِ الله، على العُمومِ دونَ الوِجْهَةِ

لم يَرِدْ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾، ذِكْرُ وِجْهَةِ الهِجْرَةِ للفِعْلِ ﴿هَاجَرُواْ﴾؛ لأنَّ سِياقَ الآيَةِ التَّرْكيزُ عَلى الفِعْلِ في ذاتِه (وَهوَ الهِجْرَةُ في سَبيلِ الله) دونَ تَقْييدٍ بِوِجْهَةٍ لإرادَةِ التَّعْميم، والامتِناعِ عَنْ أنْ يَقْصِرَهُ السّامِعُ عَلى ما يُذْكَرُ مَعَهُ دونَ غَيْرِه، فالغَرَضُ مِنْ ذِكْرِ الفِعْلِ مُجَرَّدًا الاقْتِصارُ عَلى إثْباتِ مَعْنى الفِعْلِ، لإفادَةِ الوُجودِ المجَرَّدِ في الشَّيْءِ دونَ التَّعَرُّضِ للمعْمولِ[1]، فيُجْعَلُ المتَعَدّي كَغَيْرِ المتَعَدّي في أنَّكَ لا تَرى لَهُ مَفْعولًا، لا لَفْظًا ولا تَقْديرًا، وإذا كانَ الكَلامُ مُنْصَبًّا إلى غَرَضٍ مِنَ الأغْراضِ، جُعِلَ سِياقُهُ لَهُ وتَوَجُّهُهُ إلَيْه، كَأنَّ ما سِواهُ مَرْفوضٌ مَطَّرَحٌ[2].

دَلالَةُ الفِعْلِ (هاجَرَ) دونَ (هَجَرَ):

اضْطِهادُ المشْرِكينَ سَبَبُ هِجْرَةِ المؤمنينَ

وَرَدَ في قَولِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾، استِعْمالُ الفِعْلِ (هاجَرَ) عَلى وَزْنِ (فاعَلَ)، ولَيْسَ (هَجَرَ) عَلى وزْنِ (فَعَلَ)، والنُّكْتَةُ البَلاغيَّةُ في ذَلِكَ: أنَّ الفِعْلَ (هَجَرَ) يُسْتَعْمَلُ عِنْدَما يَكْرَهُ الإنْسانُ الإقامَةَ في مَكانٍ، فيَتْرُكُهُ إلى مَكانٍ آخَرَ يَرى أنَّه خَيْرٌ مِنْهُ، وإنَّما المكانُ نَفْسُهُ لم يُكْرِهْهُ عَلى الهِجْرَةِ فيَتْرُك المكانَ مُخْتارًا، وأمّا الفِعْلُ (هاجَرَ)، عَلى وزْنِ (فاعَلَ)، فيَدُلُّ عَلى وُجودِ مُفاعلةٍ مِنَ جانِبَيْنِ، فالفاعِلُ هُنا لَيْسَ كارِهًا للمَكانِ، ولَكِنَّ المفاعَلَةَ الَّتي حَدَثَتْ مِنْ قَوْمِهِ هِيَ الَّتي اضْطَرَّتْهُ للهِجْرَةِ، وهَذا ما حَدَثَ في هِجْرَةِ المؤْمنينَ مِنْ مَكَّةَ؛ لأنَّهُم لَم يَتْرُكوها إلى غَيْرِها إلّا بَعْدَ أنْ تَعَرَّضوا للاضْطِهادِ والظُّلْم، فكَأنَّ المشْرِكينَ بِذَلِكَ شارَكوا في الفِعْلِ، فلَوْ لَم يَتَعَرَّضوا لَهُم، ويَظْلِموهُم؛ لما هاجَروا، فلا يُعْقَلُ أنْ يَكْرَهَ الصَّحابَةُ مَكَّةَ وفيها البَيْتُ الحرامُ الَّذي يَتَمَنّى كُلُّ مُسْلِمٍ الإقامَةَ في جِوارِه[3].

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 7939.

سرُّ الإسْنادِ في الفعْلِ ﴿ظُلِمُواْ﴾:

تَحْقيرُ المشْرِكينَ وإهانَتُهُم بِعَدَمِ ذِكْرِهِم

وَرَدَ في قَوله تَعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا ظُلِمُواْ﴾، إسْنادُ الفعْلِ ظُلِموا إلى المجْهولِ لِنُكْتةٍ بَلاغيَّةٍ، وهِيَ تَرْكُ التَّصْريحِ بالفاعِلِ للدَّلالَةِ عَلى العِلْمِ بِهِ مِنَ السِّياقِ، وهوَ المشرِكونَ[1]، وحَذْفُ ما يُعلَمُ جائِزٌ؛ إذا دَلَّ عَلَيْهِ المقامُ، ويُمكِنُ أنْ يكونَ الغرَضُ أيْضًا مِنْ عَدَمِ التَّصْريحِ بالمشْرِكينَ، هو تحقيرهم، فليسوا أهْلًا للذِّكْرِ.

دَلالَةُ أُسلوبِ القَسَمِ في الآيَة:

تَحْقيقُ وعْدِ الله ﷻ للمُؤْمنينَ بِثَوابِ الدُّنْيا والآخِرَةِ

وَرَدَ في قَوله تَعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ الفعل ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾، مُؤَكَّدًا بِاللّامِ الموَطِّئَةِ للقسَم، ونونِ التَّوْكيدِ الثَّقيلَةِ، فالقَسَمُ يُهَيِّئُ نَفْسَ السّامِعِ لِتَوَقُّعِ خَبَرٍ مُهِمٍّ، فجاءَ بِاللّامِ الَّتي لَوْلاها لم يُعْلَم أنَّ في الكلامِ قَسَمًا مُقَدَّرًا، فقَدْ مَهَّدَتْ لَهُ الجوابَ، ولِذا تُسَمّى مُمَهِّدةً ومُؤْذِنَةً[2]، وزادَ التَّأْكيدُ بنونِ التَّوْكيدِ الشَّديدَةِ، لإفادَةِ تَحْقيقِ الثّوابِ؛ إذْ نونُ التَّوْكيدِ الشَّديدَةُ أقْوى في الدَّلالَةِ عَلى التَّوْكيدِ مِنَ الخفيفَةِ[3]، والغَرَضُ مِنَ المبالَغَةِ في تَأْكيدِ هَذا الخبَرِ، هوَ تَحْقيقُ وعْدِ اللهِ ﷻ للمُؤْمنينَ بِثَوابِ الدُّنْيا والآخِرَةِ.

بَلاغَةُ الالتِفاتِ في الآيَة:

إسْنادُ الفِعْلِ إلى المتَكَلِّمِ العظيمِ أبْلَغُ مِنْ إسْنادِهِ إلى الغائِبِ

وَرَدَ في قَوله تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِمَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾، التِفاتٌ مِنَ الغيْبَةِ في قَوْلِه سُبْحانَهُ: ﴿هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ إلى التَّكَلُّمِ في قَوْلِه سُبْحانَهُ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾، فأسْنَدَ الفِعْلَ إلى ضَميرِ الجماعَةِ الَّذي يَدُلُّ عَلى التَّعْظيم، وعُلوِّ القَدْرِ، وتَنْزيلِه مَنْزِلَةَ الجمعِ، لِتَعَدُّدِ صِفاتِه الحميدَةِ ومَواهِبِه الجزيلَةِ، وحِكْمَةُ هَذا الالتِفاتِ وكَوْنِه بِضَميرِ العظَمَةِ، أنَّهُ هوَ سُبْحانَهُ مَنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 157.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 2/ 173.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 189.

أَقْسَمَ عَلى إثابَةِ المؤْمِنينَ ثَوابًا حَسَنًا في الدُّنْيا والآخِرَة، فناسَبَ أنْ يَكونَ السّياقُ في غايَةٍ مِنَ التَّعْظيم؛ لِأنَّهُ مَتى كانَ كَذلِكَ؛ كانَ أدْعى لِتَصْديقِ الموعودِ، فإسْنادُهُ إلى المتكلِّمِ العظيم، أَبْلَغُ مِنْ إسْنادِهِ إلى ضَميرِ الغائِبِ، ولِأنَّ الكلامَ إذا نُقِلَ مِنْ أُسْلوبٍ إلى أُسْلوبٍ؛ كانَ ذَلِكَ أَحْسَنَ تَطْرِيَةً لِنَشاطِ السّامِعِ، وإيقاظًا للإِصْغاءِ إلَيْه، مِنْ إجْرائِهِ عَلى أُسْلوبٍ واحدٍ[1].

دَلالةُ ذِكْرِ الصِّفَةِ وحَذْفِ الموصوفِ:

ذهابُ النفس في تقدير المحذوف الحسن كل مذهب

لفظ ﴿حَسَنَةٗۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾، صِفَةٌ لموصوفٍ محْذوفٍ، والحذْفُ يَجْعَلُ النَّفْسَ تَذْهَبُ في تَقْديرِ المَحْذوفِ كُلَّ مَذْهَبٍ ممّا يُعْطي السّياقَ ثَراءً وبَلاغَةً، وممّا قيلَ في تَعْيينِه في هَذِهِ الآيَةِ ثَلاثَةُ أوْجُه:

الأوَّلُ: أنَّ قَوْلَهُ: ﴿حَسَنَةٗۖ﴾ صِفَةٌ للمصْدَرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، والتَّقْديرُ: لَنُبَوِّئَنَّهُم تَبْوِئَةً حَسَنَةً، وفي قِراءَةِ عَلِيٍّ رضي الله عنه: (لَنُبَوِّئَنَّهُم إبْواءَةً حَسَنَةً).

الثّاني: (لَنُنْزِلَنَّهُم في الدُّنْيا مَنْزِلَةً حَسَنَةً)، وهِيَ الغلَبَةُ عَلى أهْلِ مَكَّةَ الَّذينَ ظَلَموهُم، وعَلى العرَبِ قاطِبَةً، وعَلى أهْلِ المشْرِقِ والمغْرِبِ.

الثّالِثُ: (لَنُبَوِّئَنَّهُم مَباءَةً حَسَنَةً)، وهِيَ المدينَةُ، حَيْثُ آواهُم أهْلُها ونَصَروهُم، وهَذا قَوْلُ الحسَنِ والشَّعْبِيِّ وقَتادَةَ، والتَّقْديرُ: (لَنُبَوِّئَنَّهُم في الدُّنْيا دارًا حَسَنَةً أوْ بَلْدَةً حَسَنَةً)، يَعْني المدينَةَ[2]، وسِياقُ الآيةِ يحتمِلُها جَميعًا، وهَذِهِ مِنْ فوائِدِ الحذْفِ لِقَصْدِ العُموم.

بَديعُ الطِّباقِ في الآيَة:

مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لله عَوَّضَهُ الله خَيْرًا مِنْهُ

وَرَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾، الجمعُ بَيْنَ لَفْظَي ﴿هَاجَرُواْ﴾ و﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾، وهوَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 14، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 245.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 209.

طِباقٌ يُثيرُ الذِّهنَ، ويَجذِبُ الانْتِباهَ، ويُقوّي مَعْنى كَوْنِ الجزاءِ مِنْ جِنْسِ العملِ، وذَلكَ باعتِبارِ الهِجْرَةِ تَرْكًا للمَوْطِنِ، فجاءَ الجزاءُ بالتَّبْوِئَةِ؛ لأنَّهُ جَزاءٌ عَلى تَرْكِ المباءَةِ[1]، فمَنْ تَرَكَ شَيْئًا للهِ عَوَّضَهُ اللّهُ خَيْرًا مِنْهُ.

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾:

الاهتِمامُ بِتَعْجيلِ البشْرى بِثَوابِ الدُّنْيا قَبْلَ ثَوابِ الآخرة

وَرَدَ تَقْديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ عَلى الموْصوفِ المحْذوفِ وصِفَتِهِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ لِنُكْتَةٍ بَلاغيَّةٍ، وهِيَ الاهتِمامُ بِتَعْجيلِ البشْرى بِثَوابِ الدُّنْيا قَبْلَ ثَوابِ الآخِرَةِ، فالحسَنَةُ المعَجَّلَةُ تَشْتَمِلُ عَلى تَعْويضِهِم دِيارًا خَيْرًا مِنْ دِيارِهِم، ووَطَنًا خَيْرًا مِنْ وطَنِهِم، وهوَ المدينَةُ، وأموالًا خَيْرًا مِنْ أموالِهِم، وهِيَ ما نالوهُ مِنَ المغانِمِ ومِنَ الخراجِ، وغَلَبَةً لِأعْدائِهِم في الفُتوحِ، وأهَمُّها فَتْحُ مَكَّةَ، وأمنًا في حَياتِهِم بما نالوهُ مِنَ السُّلطانِ[2].

دَلالَةُ التَّوْكيدِ بالمبتدأ مع لام الابتداء ﴿وَلَأَجۡرُ﴾:

يجمَعُ اللهُ لأوْليائِهِ ثَوابَ الدّارَيْنِ، وثَوابُ الآخِرَةِ أعْظَمُ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، ورَدَ المبْتَدَأُ ﴿وَلَأَجۡرُ﴾ مُقْتَرِنًا بِلامِ الابتِداءِ، وهِيَ تُفيدُ تَأكيدَ مَضْمونِ الجملَةِ الواقِعَةِ بَعْدَها، فلامُ الابتِداءِ تُفيدُ مَفادَ (إنَّ) مِنَ التَّأكيدِ، ويَكْثُرُ دُخولُها في صَدْرِ الكلامِ، فلِذَلِكَ قيلَ لَها: لامُ الابْتِداءِ[3]، وقَدْ ورَدَتْ هُنا في سِياقِ تَأكيدِ فضْلِ ثَوابِ الآخِرَةِ، وأنَّ اللّهَ يجمَعُ لِأوْليائِهِ ثَوابَ الدّارَيْنِ، وإحْسانُهُ إلَيْهِم في الآخِرَةِ أعْظَمُ[4]، وقَدْ روِيَ أنَّ عُمَرَ بْنَ الخطّابِ ﵁ كانَ إذا أعْطى الرَّجُلَ مِنَ المهاجِرينَ عَطاءً قالَ: خُذْ، بارَكَ اللّهُ لَكَ فيهِ، هَذا ما وعَدَكَ اللّهُ في الدُّنْيا، وما ادَّخَرَ لَكَ في الآخِرَةِ أكْثَرُ وأفْضَلُ، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 158.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 158.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 646.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 165.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 165.

دَلالَةُ لَفْظِ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ في الآية:

تفضيلُ ثوابِ الآخِرَةِ على ثوابِ الدُّنيا، منهجٌ رشيد في القرآن المجيد

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾، وصْفُ الآخِرَةِ بِلَفْظِ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ عَلى صيغَةِ أفعَلِ التَّفْضيلِ، فيَحْتَمِلُ أنَّهُ يُفيدُ المفاضَلَةَ عَلى بابِها، بمعنى: أنَّ ثَوابَ الآخِرَةِ أعْظَمُ وأنْفَعُ مِنْ ثوابِ الدُّنيا، ولم يَذْكُرْ في الآيَةِ المفَضَّلِ عَلَيْه، لِدَلالَةِ السّياقِ عَلَيْه؛ حَيْثُ سَبَقَ ذِكْرُ ثوابِ الدُّنْيا، وعَطَفَ عَلَيْهِ ثوابَ الآخِرَةِ مُفَضِّلًا لَهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِه: أَكْبَرُ، أيْ: إنَّه أهَمُّ وأنْفَعُ[1]، ويَحْتَمِلُ أنَّهُ بمعنى اسم الفاعل مسلوب المفاضلة، أُتِيَ بِهِ لِتَعْظيمِ ثَوابِ الآخِرَةِ، فيكونُ (أَكْبَرُ) بمعنى كبير، وذَلِكَ مِمّا يُسْتَعْمَلُ فيهِ صيغَةُ أفعَل، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: 45].

بلاغة الجملَةِ الاعْتِراضِيَّة ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾:

العِلْمُ الحسِّيُّ أقْوى تأْثيرًا في المزاجِ الإنْسانِيِّ مِنَ العِلْمِ العَقْلِيِّ

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِمَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، جُملَةُ ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ مُعْتَرِضَةٌ، وهِيَ اسْتِئْنافٌ بيانِيٌّ ناشِئٌ عَنْ جُملَةِ الوعْدِ كُلِّها؛ لِأنَّ ذَلِكَ الوعْدَ العظيمَ بِخَيْرِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، يُثيرُ في نُفوسِ السّامِعينَ أنْ يَسْألوا كَيْفَ لَم يَقْتَدِ بِهِم مَنْ بَقوا عَلى الكُفْرِ، فتَقَعُ جُملَةُ ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ بيانًا لِما اسْتُبْهِمَ عَلى السّائِلِ، والتَّقْديرُ: لَوْ كانوا يَعْلَمونَ ذَلِكَ؛ لاقْتَدَوا بِهِم، ولَكِنَّهُم لا يَعْلَمونَ، فضَميرُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ عائِدٌ إلى الَّذينَ كَفَروا، ويَجوزُ أنْ يَكونَ السُّؤالُ المثارُ هوَ: كَيْفَ يَحْزَنُ المهاجِرونَ عَلى ما تَرَكوهُ مِنْ دِيارِهِم وأموالِهِم وأهْليهِم؟ فيَكونُ المعْنى: لَوْ كانَ المهاجِرونَ يَعْلَمونَ ما أُعِدَّ لَهُم عِلْمَ مُشاهَدَةٍ؛ لَما حَزِنوا عَلى مُفارَقَةِ دِيارِهِم، ولَكانَتْ هِجْرَتُهُم عَنْ شَوْقٍ إلى ما يُلاقونَهُ بَعْدَ هِجْرَتِهِم؛ لِأنَّ تَأْثيرَ العِلْمِ الحِسِّيِّ في المزاجِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 158.

الإنْسانيِّ أقْوى مِنَ العِلْمِ العقْلِيِّ، لِعَدَمِ احْتِياجِ العِلْمِ الحسِّيِّ إلى اسْتِعْمالِ نَظَرٍ واسْتِدْلالٍ، ولِعَدَمِ اشْتِمالِ العِلْمِ العقْلِيِّ عَلى تَفاصيلِ الكَيْفيّاتِ الَّتي تُحِبُّها النُّفوسُ، وتَرْتَمي إلَيْها الشَّهَواتُ[1].

موقع قوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ ودلالته:

استحقاقُ المهاجِرين مَدْحَ رَبِّ العالمِين لتضحياتهم الجسام

وَرَدَ في قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ عبارَةُ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ مُرْتَبِطَةً بالآيةِ قَبْلَها ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، وفي تَخْريجِ إعْرابِها وُجوهٌ: الأوَّلُ: أنَّهُ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، والثّاني: أنْ يَكونَ التَّقْديرُ: (هُمُ الّذينَ صَبَروا)، والثّالِثُ: أنْ يَكونَ التَّقْديرُ: أعْني الَّذينَ صَبَروا، وكِلا الوجْهَيْنِ الثّاني والثّالِثِ مَدْحٌ.

والمعْنى: أنَّهُم صَبَروا عَلى العذابِ، وعَلى مُفارَقِةِ الوطَنِ الَّذي هوَ حَرَمُ اللّه، وعَلى المجاهَدَةِ وبَذْلِ الأموالِ والأنْفُسِ في سَبيلِ اللّه، فاسْتَحَقّوا مَدْحَ رَبِّ العالمِينَ[2].

دَلالَةُ ترابط الأفعال في سياق الآية:

صَبرُ المهاجِرين على الظُّلْمِ، وتَوَكُّلُهُم في الهِجْرَةِ؛ سموٌّ وسموق

يُلاحَظُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، تقابُلُ المعاني بِتَقابُلِ الألْفاظِ: ﴿صَبَرُواْ﴾ ﴿ظُلِمُواْ﴾، و﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿هَاجَرُواْ﴾؛ وذلِكَ للتَّلازُمِ الوطيدِ بَيْنَها، فالصَّحابَةُ عِنْدَما ﴿ظُلِمُواْ﴾، واضْطُهِدوا بِسَبَبِ إيمانِهِم؛ أُمِروا بالصَّبْرِ، فكانَ أنْ ﴿صَبَرُواْ﴾ عَلى أذى المشْرِكينَ، ثُمَّ أُذِنَ لَهُم بالهِجْرَةِ بَعْدَ أنْ بَلَغَ الأذى مَداهُ، فـ﴿هَاجَرُواْ﴾ الهِجْرَةَ الأولى إلى الحبَشَةِ، والثّانِيَةَ إلى المدينَةِ، وهُم في كُلِّ ذلِكَ عَلى رَبِّهِم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أنْ يُنَجّيَهُم مِنْ كَيْدِ الكُفّارِ، وأنْ يَنْصُرَهُم عَلى أعْدائِهِم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 158.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 210.

الغرض من التعبير بأُسْلوبِ القصْر:

التَّـوَكُّـلُ مِـنَ صلب العِبادَةِ، والـعـبـادَةُ لا تَكونُ إلّا لله

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، تَقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ لإفادَةِ القصْرِ، أيْ: لا يَتَوَكَّلونَ إلّا عَلى رَبِّهِم دونَ التَّوَكُّلِ عَلى سادَةِ المُشْرِكينَ[1]، ونُكْتَةُ القصْرِ: أنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ العِبادَةِ، والعِبادَةُ لا تَكونُ إلّا للّه، وقَدْ جَمَعَ بَيْنَهُما في قَوْلِه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود: 123]، وقَدْ جَعَلَهُ اللّهُ شَرْطًا للإيمانِ بِقَوْلِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]، وجَعَلَهُ شَرْطًا للإسْلامِ بِقَوْلِه في آيةٍ أُخْرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس: 84]، وقيلَ: تَقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ لِرِعايَةِ الفواصِلِ، وهوَ غَيْرُ مُتَعَيِّنٍ[2].

دَلالَةُ الجمعِ بَيْنَ الصَّبْرِ والتَّوَكُّلِ:

اليـقـين بـعَـجْـز الأسْـبـاب دونَ الـتَّـوكُّـل عَـلـى العزيز الوهّاب

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، جَمَعَ النَّظْمُ القرْآنيُّ بَيْنَ الصَّبْرِ وضَرورَةِ التَّوَكُّلِ، تَنْبيهًا عَلى أنَّ التَّوَكُّلَ أمرٌ غَيْرُ الصَّبْرِ عَلى تَعاطي أسْبابِ الأشْياءِ، فتَعاطي الأسْبابِ فيما هِيَ مِنْ مَقْدورِ النّاسِ، والتَّوَكُّلُ فيما يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ، وأكْثَرُ النّاسِ لا يَعْلَمونَ ضرورةَ تَطَلُّبِ الأمرَيْنِ، فيُهْمِلونَ أحَدَهُما، فمِنْهُم مَنْ يُهْمِلُ مَعْرِفَةَ أنَّ الأسْبابَ الظّاهِرِيَّةَ لا تَدْفَعُ أمرًا قَدَّرَهُ اللّهُ، وعَلِمَ أنَّهُ واقِعٌ، ومِنْهُم مَنْ يُهْمِلُ الأسْبابَ، وهوَ لا يَعْلَمُ أنَّ اللّهَ أرادَ في بَعْضِ الأحْوالِ عَدَمَ تَأْثيرِها[3]، فيَجِبُ عَلى المُسْلِمِ أنْ يَتَّخِذَ الأسْبابَ، ثُمَّ يَتَوَكَّلَ عَلى الكَريمِ الوَهّابِ، وأمّا تَرْكُ الأسْبابِ بِحُجَّةِ التَوَكُّلِ؛ فهوَ دَليلٌ عَلى نَقْصِ العقْلِ، والتَّعْويلُ عَلى الأسْبابِ خَدْشٌ في التَّوْحيدِ، وبُعْدٌ عَنِ الصَّوابِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 160.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 385.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 25.

دَلالَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ الرُّبوبِيَّةِ ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

واجِبُ العبيدِ في التَّوكُّلِ عَلى مُرَبِّيهِم بِالنِّعَمِ

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، التَّعْبيرُ بِوَصْفِ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ دونَ سِواهُ مِنَ أَسْماءِ اللّٰهِ وصِفاتِهِ؛ لِما في وصْفِ الرُّبوبِيَّةِ مِنَ الدِّلالَةِ عَلى الشَّفَقَةِ بِالمَرْبوبِ، ومَحَبَّةِ الخيْرِ لَهُ، ولِلتَّنْبيهِ عَلى أَنَّ واجِبَ العبيدِ التَّوَكُّلُ عَلى مُرَبّيهِم بِالنِّعَم، ولِتَتَأتّى الإضافَةُ المفيدَةُ لِلتَّشْريفِ والقُرْبِ، فهوَ رَبُّهُم[1]، فالمتَوَكِّلُ عَلى رَبِّهِ مُحِبٌّ لَهُ، مُعْتَمِدٌ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ، مُلْتَجِئٌ إلَيْهِ، واللّٰهُ يُحِبُّهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران: 159].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ في ﴿صَبَرُواْ﴾ و﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في اخْتِيارِ أَزْمِنَةِ الأَفْعالِ

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، التَّعْبيرُ في جانِبِ الصَّبْرِ بِالمضِيِّ، وفي جانِبِ التَّوَكُّلِ بِالمضارِعِ؛ إيماءً إلى أَنَّ صَبْرَهُم قَدْ آذَنَ بِالانْقِضاءِ، لانْقِضاءِ أَسْبابِهِ، وأَنَّ اللّٰهَ قَدْ جَعَلَ لَهُم فرَجًا بِالهِجْرَةِ، فهَذا بِشارَةٌ لَهُم، وأَنَّ التَّوَكُّلَ دَيْدَنُهُم؛ لِأَنَّهُم يَسْتَقْبِلونَ أَعْمالًا جَليلَةً تَتِمُّ لَهُم بِالتَّوَكُّلِ عَلى اللّٰهِ في أُمورِهِم، فهُم يُكَرِّرونَهُ، وفي هَذا أَيْضًا بِشارَةٌ بِضَمانِ النَّجاحِ[2]، ووُرودُ التَّوَكُّلِ أَيْضًا بِصيغَةِ المضارِعِ يَحْتَمِلُ الدَّلالَةَ عَلى الاسْتِمرارِ، أَوْ لاسْتِحْضارِ تِلْكَ الصّورَةِ البَديعَةِ مِنْ حَياةِ الصَّحابَةِ[3].

دَلالَةُ تَقْديمِ لفظ ﴿صَبَرُواْ﴾ عَلى ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾:

الاهْتِمامُ بِالصَّبْرِ لِتَقَدُّمِهِ على التَّوَكُّلِ

وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، تَقْديمُ الصَّبْرِ عَلى التَّوَكُّلِ لِغَرَضِ الاهْتِمامِ؛ وذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ شُروطِ التَّوَكُّلِ أَنْ يَتَقَدَّمَها تَحْصيلُ أَسْبابٍ، فيَجِبُ عَلى المسْلِمِ الصَّبْرُ في تَحْصيلِها لامْتِثالِ أَمرِ اللّٰهِ في الجمعِ بَيْنَ إعْدادِ ما اسْتَطاعَ مِنْ أَسْبابٍ، ثُمَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 159.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 385.

التَّوَكُّلُ عَلى مُسَبِّبِ الأَسْبابِ سُبْحانَهُ، وهَذا هوَ مَعْنى التَّوَكُّلِ الَّذِي يَضِلُّ في فهْمِهِ كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ اقْتِصارًا وإنْكارًا[1]، فأَكْثَرُهُم لا يَصْبِرونَ عَلى تَطَلُّبِ الأمرَيْنِ، فيُهْمِلونَ أحدَهُما، فيَقَعُ الخلَلُ.

التّشابُهُ اللّفْظِيُّ في الآيَة:

الصَّبْرُ والتَّوَكُّلُ طَريقا الفَوزِ بِثَوابِ الدُّنْيا والآخِرَة

قالَ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾ [العنكبوت: 58 - 59]، ووَجْهُ المغايَرَةِ بَيْنَهُما مِنْ جِهَةِ السِّياقِ: أنَّ آيةَ النَّحْلِ في ذِكْرِ ثَوابِ المهاجِرينَ في سَبيلِ اللّهِ، فبَيَّنَ سُبْحانَهُ سَبَبَ فوْزِهِم بثَوابِ الجنَّة، وهوَ هِجْرَتُهُم في سَبيلِ مَرْضاةِ اللّهِ، فتَرَكوا دِيارَهُم مِنْ أجْلِ اللّه، بَعْدَما وقَعَ عَلَيْهِمُ الظُّلْمُ، فوَعَدَهُمُ اللّهُ بدارٍ حَسَنَةٍ في الدُّنْيا، وثَوابٍ أكْبَرَ في الآخِرَة، وهوَ الجنَّةُ، وأمّا آيَةُ العنْكَبوتِ فمَعْطوفَةٌ عَلى جُمْلَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [العنكبوت: 52]، فجاءَ في هَذِهِ الآيَةِ التَّنْبيهُ عَلى سَبَبِ إسْكانِهِم غُرَفًا في الجنَّة، وهوَ مِنْ أجْلِ إيمانِهِم وعَمَلِهِم الصّالِحِ[2]، فتَكونُ آيَةُ العَنْكَبوتِ أعَمَّ، وآيَةُ النَّحْلِ أخَصَّ مِنْ هَذا الجانِبِ؛ إذِ الهِجْرَةُ لا تَكونُ إلّا بدافِعِ الإيمانِ باللّه، ويَظْهَرُ الفرْقُ بَيْنَهُما مِنْ جانِبٍ آخَرَ، وهوَ اشْتِمالُ آيَةِ النَّحْلِ عَلى ثَوابِ الدُّنْيا، بِقَوْلِهِ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾، والوعْدِ بثَوابِ الآخِرَة، في حينِ لم تَشْتَمِلْ آيَةُ العنْكَبوتِ إلّا عَلى ثَوابِ الآخِرَة، وممّا يُلاحَظُ أيْضًا أنَّهُ مَعَ تَشابُهِ الآيَتَيْنِ، إلّا أنَّ آيَةَ النَّحْلِ أجْمَلَتْ ثَوابَ الآخِرَةِ ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾، في حينِ أنَّ آيَةَ العنْكَبوتِ فصَّلَتْهُ تَفْصيلًا، فقالَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 23.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 23.

سُبْحانَهُ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [العنكبوت: 58]، وخُتِمَتْ كِلْتا الآيَتَيْنِ بِذِكْرِ الصَّبْرِ والتَّوَكُّلِ؛ تَنْبيهًا عَلى أنَّهُما طَريقا الحصولِ عَلى ثَوابِ الدُّنْيا والآخِرَةِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(هاجَروا) و(هَجَروا):

زِيادةُ المبْنى تَسْتَلْزِمُ زِيادَةَ المعْنى غالِبًا

يَتَّضِحُ الفَرْقُ بَيْنَ لَفْظَيْ (هاجَروا) و(هَجَروا)، بِالنَّظَرِ إلى الصّيغَةِ الصَّرْفِيَّةِ لكلٍّ مِنْهُما، فالفعْلُ (هاجَرَ) عَلى وزْنِ (فاعَلَ)، والفعْلُ (هَجَرَ) عَلى وزْنِ (فَعَلَ)، ولا شَكَّ أنَّ زِيادَةَ المبْنى تَسْتَلْزِمُ زِيادَةَ المعْنى غالِبًا، فزِيادَةُ الفعْلِ (هاجَرَ) بِحَرْفِ الألِفِ وكَوْنُه عَلى وزْنِ (فاعَلَ)؛ يَدُلُّ عَلى وُجودِ مُفاعَلَةٍ ومُشارَكَةٍ مِنَ جانِبَيْنِ، فالمهاجِرُ لا رَغْبَةَ لَهُ في تَرْكِ مَوْطِنِه، ولَكِنَّ المفاعَلَةَ الَّتي حَدَثَتْ مِنْ قَوْمِه هِيَ الَّتي اضْطَرَّتْه للهِجْرَةِ، ويَشْهَدُ لِهَذا ما حَدَثَ لِلنَّبيِّ ﷺ والمؤْمِنينَ الَّذينَ أُجْبِروا عَلى الخروجِ مِنْ مَكَّةَ؛ فكَأنَّ المشرِكينَ بِذَلِك شارَكوا في الفِعْلِ، فلَوْ لم يَتَعَرَّضوا لَهُم، ويَظْلِموهُم؛ لما هاجَروا، والدَّليلُ عَلى صِحَّتِهِ ما رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَدِيٍّ بنِ الحمراءِ رضي الله عنه أنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقولُ وهوَ واقِفٌ بِالحَزْوَرَةِ في سوقِ مَكَّةَ: "واللّهِ إنَّكِ لَخَيْرُ أرْضِ اللّهِ، وأحَبُّ أرْضِ اللّهِ إلَى اللّهِ، ولَوْلا أنّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ما خَرَجْتُ"[1]، وما رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ قالَ: قالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ لِمَكَّةَ: "ما أطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وأحَبَّكِ إلَيَّ، ولَوْلا أنَّ قَوْمي أخْرَجوني مِنْكِ ما سَكَنْتُ غَيْرَكِ"[2]، وأمّا (هَجَرَ) فيُسْتَعْمَلُ عِنْدَما يَكْرَهُ الإنْسانُ الإقامَةَ في مَكانٍ، فيَتْرُكُهُ إلى مَكانٍ آخَرَ يَرى أنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ، وإنَّما المكانُ نَفْسُهُ لم يُكْرِهْهُ عَلى الهِجْرَةِ، فيَتْرُكُ المكانَ مُخْتارًا[3].

(1) رواه التِّرْمِذِيُّ في الجامع وصحّحه، الحديث رقم: (7089).
(2) رواه التِّرْمِذِيُّ في الجامع وصحّحه، الحديث رقم: (3629).
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 7939.

الظُّلم والبَغْي:

البَغْيُ طَلَبُ تجاوُزِ قدرِ الاستِحْقاقِ، والظُّلْمُ نُقْصانُ الحقِّ

يَتَّضِحُ الفرقُ بَيْنَ لفظَي (الظُّلْم) و(البغْي) في المعْنى الدَّلاليِّ لكلٍّ مِنْهُما، فبينهما عُمومٌ وخُصوصٌ، فالبَغْيُ أعَمُّ مِنَ الظُّلْم؛ لِأنَّ البَغْيَ مِنْهُ ما هوَ مَحمودٌ مَطْلوبٌ، ومِنْهُ ما هوَ مَذْمومٌ، وهَذا الَّذي شاعَ في طَلَبِ ما لِلْغَيْرِ بدونِ حَقٍّ، فصارَ بِمَعْنى الظُّلْمِ مَعْنًى ثانيًا[1].

وَيُؤَكِّدُ هَذا الفرْقَ الأصْلُ اللُّغَويُّ لِكَلِمَةِ (البغْي)، فالباءُ والغيْنُ والياءُ أصْلانِ: أحَدُهُما طَلَبُ الشَّيْءِ، والثّاني جِنْسٌ مِنَ الفسادِ، فمِنَ الأوَّلِ: بَغَيْتُ الشَّيْءَ أبْغيه؛ إذا طَلَبْتُهُ، ويُقالُ: بَغَيْتُك الشَّيْءَ: إذا طلبته لك، وأبْغَيْتُكَ الشَّيْءَ: إذا أعنتك على طَلَبِه، والأصْلُ الثّاني: قَوْلُهُم: بَغى الجرْحُ؛ إذا ترامى إلى فسادٍ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْ هَذا ما بَعْدَهُ، فالبَغِيُّ: الفاجِرَةُ، ومِنْهُ أنْ يَبْغِيَ الإنْسانُ عَلى آخَرَ، وهوَ الظُّلْمُ[2]؛ لِأنَّ فيهِ فسادًا، ومِنَ الفروقِ أيضًا أنَّ البَغْيَ طَلَبُ تجاوُزِ قدرِ الاستِحْقاقِ؛ تَجاوَزَهُ أوْ لَم يَتَجاوَزْهُ، ويُسْتَعْمَلُ في المتكبِّرِ؛ لِأنَّهُ طالبُ مَنْزِلَةٍ لَيْسَ لَها بِأهْلٍ[3]، أمّا الظُّلْمُ فأصْلُهُ نُقْصانُ الحقِّ[4]، وتَتَفاوَتُ دَرَجاتُهُ مِنْ صَغائِرِ الذُّنوبِ إلى كَبائِرِها إلى الشِّرْكِ باللّه ﷻ.

الآخِرَة والأوْلى:

الآخِـرَةُ باقِيَةٌ خالِصَةٌ من الشَّوائِبِ، والأولى فانِيَةٌ مَشوبَةٌ بالمضارِّ والمتاعب

يَتَّضِحُ الفرْقُ بَيْنَ لفظَي ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ و﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ في المعْنى الدَّلاليِّ لكلٍّ مِنْهُما، ويَظْهَرُ أنَّ بَيْنَهُما عَلاقَةَ تَضادٍّ، فالأولى مُؤَنَّثُ أوَّلٍ، وتَرْجِعُ مادَّتُهُ (الهمزَةُ والواوُ واللّامُ) إلى أصْلَيْنِ هُما: ابْتِداءُ الأمرِ وانْتِهاؤُهُ، أمّا الأوَّلُ فهو مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، والمؤَنَّثَةُ الأولى، مِثْلُ أفْعَلَ وفُعْلى[5]، وأمّا الآخِرَةُ فهِيَ مُؤَنَّثُ الآخِرِ، وتَرْجِعُ مادَّتُهُ (الهمزَةُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 159.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).

(3) الكفويّ، الكلّيات، ص: 584.

(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 231.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أول).

والخاءُ والرّاءُ) إلى أصْلٍ واحِدٍ، وهوَ خِلافُ التَّقدُّم، فالآخِرُ نَقيضُ المتَقدِّم، وجِئْتُ في أُخْرَياتِهِم، وأُخْرى القوْمِ[1]، ويَظْهَرُ التَّضادُّ أيْضًا بَيْنَ لفظَي ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ و﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ في اصْطِلاحِ القرْآنِ، فقدْ غَلَبَ لَفْظُ الآخِرَةِ فيه عَلى الحياةِ الآخِرَةِ، وعَلى الدّارِ الآخِرَةِ، كَما غَلَبَ لَفْظُ الأولى عَلى حَياةِ النّاسِ الّتي قَبْلَ انْخِرامِ هَذا العالَمِ، فالآخِرَةُ هِيَ الحياةُ الآخِرَةُ، وتَأْنيثُ وصْفِ الآخِرَةِ، مَنْظورٌ فيه إلى أنَّ المرادَ إجْراؤُهُ عَلى مَوْصوفٍ مُؤَنَّثِ اللَّفْظِ، حُذِفَ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمالِهِ وصَيْرورَتِهِ مَعْلومًا، وهوَ يُقَدَّرُ بِالحَياةِ الآخِرَةِ مُراعاةً لِضِدِّهِ، وهوَ الحياةُ الدُّنْيا، أي: القريبَةُ بِمَعْنى الحاضرة، ولِذَلِكَ يُقالُ لَها: العاجِلَةُ[2]؛ ولِهَذا قالَ تَعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾ [الضحى: 4]، فإنَّها باقِيَةٌ خالِصَةٌ عَنِ الشَّوائِبِ، وهَذِهِ فانِيَةٌ مَشوبَةٌ بِالمضارِّ[3]، وأعْظِم بِهذا فرْقًا بَيْنَهُما!

(صَبَروا) و(صابَروا):

يَشْتَرِكُ كُلٌّ مِنَ لَفْظَيْ (صَبَروا) و(صابَروا) في الأصْلِ اللُّغَويِّ، وهوَ (صَبَرَ)، ومَعْناهُ في اللُّغَةِ: الحبْسُ[4] والإمساكُ في ضَيْقٍ، ومِنْهُ: دابَّةٌ مَصْبورَةٌ، والصُّبْرَةُ مِنَ الطَّعامِ للجَمْعَةِ مِنْهُ[5]، وأمّا الصَّبْرُ في اصْطِلاحِ الشَّرْعِ فهوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَلى كُلِّ ما يَشُقُّ عَلَيْها، ويُخالِفُ هَواها، مِنْ فِعْلِ المأموراتِ، وتَرْكِ المنْهياتِ، وعَدَمِ الجزَعِ عِنْدَ المصائِبِ.

الصَّبْرُ يكون في الأنْفُس، والمصابرةُ تكون على الأعْداء

وَيَظْهَرُ الفرْقُ بَيْنَ لَفْظَيْ (صَبَروا) و(صابَروا) في مَعْنى الصّيغَةِ الصَّرْفيَّةِ، فلَفْظُ (صَبَر) عَلى وزْنِ (فَعَلَ)، بِمَعْنى: حَبَسَ الإنْسانُ نَفْسَهُ فحسب عَلى جَميعِ مَعاني طاعَةِ اللّهِ، فيما أمَرَ ونَهى، صَعْبِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 159.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 319.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبر).
(5) الرّاغب، المفردات: (صبر).

وشَديدِها، وسَهْلِها وخَفيفِها، وأمّا لَفْظُ (صابَرَ)؛ فهوَ عَلى وزْنِ (فاعَلَ)، ولا شَكَّ أنَّ زِيادَةَ المبْنى تَسْتَلْزِمُ زِيادَةَ المعْنى غالِبًا، فزِيادَةُ الفعْلِ (صابَرَ) بِحَرْفِ الألِفِ وكَوْنه عَلى وزْنِ (فاعَلَ)، يَدُلُّ عَلى وُجودِ مُفاعَلَةٍ ومُشارَكَةٍ مِنْ فريقَيْنِ، أوِ اثْنَيْنِ فصاعِدًا، ولا تَكونُ مِنْ واحِدٍ إلّا قَليلًا في أحْرُفٍ مَعْدودَةٍ، فيَكونُ (صابَرَ) بمَعْنى: غالَبَهُ بالصَّبْرِ، وهَذا يَكونُ في مُلاقاةِ الأعْداءِ، فالعَدوُّ يُصابِرُكَ وأنْتَ تُصابِرُهُ؛ ولِهذا أُمِرَ المؤْمِنونَ أنْ يُصابِروا غَيْرَهُم مِنْ أعْدائِهِم حَتّى يُظَفِّرَهُمُ اللهُ بِهِم، ويُعْلِيَ كَلِمَتَهُ، ويُخْزِيَ أعْداءَهُم، وأنْ لا يَكونَ عَدوُّهُم أصْبَرَ مِنْهُم[1]، وقدِ اجْتَمَعَ أمرُ اللّه للمؤْمنينَ بكلٍّ مِنَ (الصّبْرِ) في أنفسِهم، و(المصابَرَةِ) عَلى عَدوِّهِم؛ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: 200].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/ 335.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النّحل: 43]

الإقبال بالخطاب على سيِّد الصّابرين، بعد الثّناء على مَن صبر مِنَ المؤمنين المهاجرين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا أخبر تعالى أنّه بَعَثَ الرُّسل، وكان عاقبةَ مَن كذّبهم الهلاكُ، بدلالة آثارهم، وكانوا قد قدحوا في الرِّسالة بكون الرَّسولِ بشرًا، ثُمَّ بكونه ليس معه مَلَكٌ يُؤيِّدُه، رَدَّ ذلك بقوله - مُخاطِبًا لأشرف خَلْقه ﷺ -: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ الآية؛ لكونه أفهمَهم عنه مع أنّه أَجَلُّ مَن تَوَكَّل وصَبَرَ، وما أحسنَ تعقيبَ ذلك للصّابرين، لأنَّ الرُّسلَ أصبرُ النّاسِ[1]، فعاد السِّياقُ إلى بيان وظيفة الرُّسل الّتي أشار إليها، عند الرَّدّ على مقولة المُشركين عن إرادة اللّه الشِّركَ لهم ولآبائهم، فتضمن ذلك أيضًا بيان وظيفة الرَّسول الخاتم صلواتُ اللّه وسلامُه عليه، وما معَه مِنَ الذِّكر الأخير.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِجَالٗا﴾: الرَّجُلُ: خِلافُ المَرْأةِ، وهو الذَّكَرُ مِن نَوْعِ الإنسانِ، وقِيل: إنَّما يكون رَجُلًا إذا احْتَلَمَ وبَلَغَ، ويُطْلَق الرَّجُلُ أيضًا بمعنى الرّاجِلِ، أي: الماشِي على رِجْلَيْه، وجَمعُ رَجُلٍ: رِجالٌ[2]، والرّاجل: خلافُ الفارس، والجمع: رَجْلٌ ورِجالَةٌ ورِجالٌ ورِجالاتٌ وأراجِلُ[3]، والمقصود بالرِّجالِ في الآية: جَمعُ رَجُلٍ، وهو الذَّكَرُ البالِغُ مِنَ الآدَمِيِّينَ خاصَّةً.

2) ﴿نُّوحِيٓ﴾: (وَحَى): يَدُلُّ على إلقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِه إلى

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 166.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (رجل).

(3) الجوهريّ: الصّحاح: (رجل).

غَيرِكَ، والوَحْيُ: الإشارةُ السَّريعة، ولتضمُّن السُّرعة قيل: أمرٌ وحْيٌ؛ وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة[1]، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ حتَّى عَلِمَهُ فهو وحْيٌ كيفَ كانَ[2]، والوَحْيُ أيضًا: الإعلامُ مِنَ اللّه بواسِطَةِ المَلَك، وأوْحى إليه: بَعَثَه، وأوْحى إليه: أَلْهَمَه[3]، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النّحل: 68][4]، واستوْحَى الشَّيْءَ: حرَّكه ودعاهُ ليرسله[5]، وأوحيَ إليه: أي أُرسِل، وأوحى إليه: أي أشار، قال اللّه تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ﴾ [مريم: 11]، وأوحى إليه الكلامَ: إذا كلَّمَه بكلامٍ يُخْفِيه.

3) ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾: (سأل) كلمة واحدة، معناها: الاسْتِدْعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ سَألَ يَسْألُ سُؤالًا ومَسْألَةً، ورَجُلٌ سُؤَلَةٌ: كَثِيرُ السُّؤالِ[6]، ويُقالُ: سَألْتُهُ عَنْ عِلْمٍ سُؤالًا ومَسْألَةً، أي: طَلَبْتُ مَعْرِفَتَهُ، وسَألْتُهُ الصَّدَقَةَ، أي: طَلَبْتُ منهُ أنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيَّ، والسُّؤالُ: طَلَبُ أحدٍ مِنْ آخَرَ بَذْلَ شَيْءٍ أو إخْبارًا بِخَبَرٍ، فإذا كانَ طَلَبَ بَذْلٍ، عُدِّيَ فِعْلُ السُّؤالِ بِنَفْسِه، وإذا كانَ طَلَبَ إخْبارٍ عُدِّيَ الفِعْلُ بحرف (عن) أو ما يَنوبُ مَنابَهُ[7]، ومِن مَعانِيه: الاسْتِفْهامُ، والاسْتِخْبارُ، والاسْتِعْلامُ، والاسْتِفْسارُ، وقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصّافات: 24]، قال الزّجّاج: سؤالُهُم سؤالُ توبيخٍ وتقريرٍ؛ لإيجاب الحُجّة عليهم، أي: لا يُسأل ليُعْلَم ذلك منه، لأنّ اللّه تعالى قد عَلِمَ أعمالَهم[8]، وحقيقةُ السُّؤالِ في آية النّحل هاته، هو طَلَبُ إخبار، والمراد منه: الاحتجاجُ بِأهْلِ الأديانِ السّابِقِينَ؛ أهْلِ الكُتُبِ اليَهودِ، والنَّصارى، والصّابئة[9].

4) ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾: أصلُ الذِّكْرِ: الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيانِ[10]، وهو أيضًا: جَرْيُ الشَّيْءِ على لِسانِكَ[11]، والذِّكْرُ: الصِّيتُ والثَّناءُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (وحى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وحى).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (وحى).
(4) الحميريّ، شمس العلوم: (الإيحاء).
(5) ابن سيده، المحكم: (وحى).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، ولسان العرب: (سأل).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 194.
(8) ابن سيده، المحكم: (سأل).
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 161.
(10) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والمحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذكر).
(11) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (ذكر).

﴿ذِى ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: 1]، أي: ذي الشَّرَف[1]، والذِّكْر: الكتابُ الَّذي فيهِ تَفْصيل الدِّين، وكلُّ كتابٍ مِن كُتبِ الأنبياء عليهم السلام ذِكْرٌ[2]، فالذِّكْرُ: الكَلامُ الموحَى بِهِ لِيُتْلَى ويُكَرَّر، فهو للتِّلاوَةِ لأنَّهُ يُذْكَرُ ويُعادُ، إمّا لأنَّ فيه التَّذْكيرَ باللّه واليَوم الآخِرِ، وإمّا بمعْنَى أنَّ به ذِكْرَهُم في الآخَرِينَ[3]، والذِّكْرُ: الصَّلاةُ، وقِراءَةُ القُرْآن، والتَّسبيحُ، والدُّعاء، والشُّكْرُ، والطّاعَة[4]، وذِكْرُ الحَقِّ: الصَّكُّ، وجَمعُه ذُكورٌ[5]، والمقصود بالذِّكر في الآية: كِتابُ الشَّريعَة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأنبياءُ رسلُ الله إلى البشر، وورثتُهم مِنَ العلماء أولى الناسِ بأن يَسْألوا عن ذلك

يقول الحَقُّ سبحانَه: وما أرسَلْنا الأنبياءَ مِن قَبلِك يا مُحمَّدُ ﷺ إلّا رِجالًا بَشَرًا مِن بني آدمَ لا ملائِكةً، نوحي إليهم الشَّرائِعَ والأحكامَ، فاسألوا - أيُّها المُشرِكونَ - أهلَ الكِتابِ الّذين قَرَؤوا الكُتُبَ مِن قَبلِكم؛ كالتَّوراةِ والإنجيلِ، إنْ كُنتُم لا تَعلَمونَ أنَّ رُسُلَ اللّهِ كانوا رِجالًا مِنَ البشَرِ لا مَلائِكةً، فاسألوهم: هل كان الأنبياءُ والرُّسُلُ بشرًا أو ملائكةً[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف بالواو: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾:

تَناسقُ الإجابةِ عن شُبه مُنكري بشريّةِ النَّبيِّ؛ تمهيدًا لإنذارهم وتهديدهم

كانتِ الآياتُ السّابقة جاريةً على حكاية تكذيب المشركين نبوءةَ مُحمَّد ﷺ، وإنكارِهم أنَّه مُرسلٌ من عند اللّه، وأنَّ القرآن وحيُ اللّه إليه، ابتداء مِن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (ذكر).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 16.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (ذكر).
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (ذكر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 226، 227، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 574، والسَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 441، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 2/ 379.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النَّحل: 24]، وردِّ مزاعمِهم الباطلة، بالأدلَّة القارعة لهم، مُتَخَلِّلًا بما أدمج في أثنائه مِن معانٍ أُخرى تتعلَّق بذلك، فعاد هُنا إلى إبطال شُبهتِهم في إنكار نبوءَته مِن أنَّه بَشَرٌ لا يليق بأن يكون سفيرًا بينَ الله والنّاس، بقياس التَّمثيل بالرُّسل الأسبقين الّذين لا تُنكر قريشٌ رسالتَهم، مثلِ نـوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام[1]، فالواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ عاطفةٌ؛ ليتناسقَ الكلامُ، فيورِدَ ناحيةً أُخرى مِن نَواحي تَعَنُّتهم وإصرارهم، على القول: (إنَّ الله أعظمُ مِن أن يكون رَسولُه بشرًا، فهَلّا بعثَ إلينا مَلَكًا)[2].

بلاغة القصر بالنَّفي والاستثناء:

قَلْبُ اعتقادِ المُشركين، بإنكار بشريَّة الأنبياء

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾، صيغةُ القَصْر هُنا لِقَلْبِ اعتقاد المُشركين، وقد قالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: 94]، فقَصَرَ الإرسالَ على التَّعلق برجالٍ موصوفين بأنَّهم يوحى إليهم[3]، وطريقُ القصرِ هنا هو النَّفيُ والاستثناء ليتمكَّنَ في النَّفس، فبعد أن نفى الخبرَ كاملًا، أثبت ما أراد إثباتَه؛ ليتمكَّن في النَّفس أيَّما تَمكُّنٍ، وهو هُنا قَصْرُ قَلْبٍ سِيقَ ليَقلِبَ على المخاطب اعتقادَه، حيثُ ردَّ اللّهُ تعالى اعتقادَ المشركين عدمَ إرسالِ الرُّسُل مِنَ البشر، بصورة القَصْر الَّتي حصرتِ الرِّسالةَ في البشر، بعد أن نَفَتْها عمّا عَداهُم، وحصرُ الرُّسل في الرِّجال لا يُنافي أنَّ مِنَ الملائكة رُسُلًا؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحجّ: 75]، وقال: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1]؛ لأنَّ الملائكةَ يُرسَلون إلى الرُّسل، والرُّسل تُرسَل إلى النّاس، والّذي أنكره الكُفّار: هو إرسال الرُّسلِ إلى النّاس، وهو الّذي حَصَر الله فيه الرُّسلَ في الرِّجال مِنَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 160.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 5/ 307.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 161.

النّاس؛ فلا يُنافي إرسالَ الملائكةِ للرُّسل بالوحي، ولقبض الأرواح، وتسْخير الرِّياح والسَّحاب، وكَتْبِ أعمالِ بني آدمَ وغيرِ ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ [النّازعات: 5][1]، وفي هذه الآية أيضًا: دليلٌ على أنَّه تعالى لَم يُرسِلِ امرأةً ولا صبيًّا للدَّعوة العامَّة[2]، ووجهُ الدَّلالة الحصْر النّافي إرسالَ غيرِ الرِّجال؛ فما قيل: إنَّ حواءَ، ومريمَ، وآسيَةَ، وسارَةَ، وهاجرَ، ويوخابذَ أمّ موسى، أوحيَ إليهنَّ بالنُّبوَّة، فقولٌ مردودٌ مخالفٌ للنَّص[3].

بلاغة الالتفات مِنَ الغَيبة إلى الخطاب:

تأنيس النَّبي المعصوم بالإقبال عليه، بالتّنويه بمنزلتِه السّامِيَة، ومَقامِه المعلوم

تغيَّر أسلوبُ نَظْمِ الكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾، بتوجيه الخطاب إلى النَّبيّ ﷺ، بعد أن كان جاريًا على أسلوب الغَيبة ابتداءً مِن قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ [النَّحل: 22]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ [النَّحل: 35] الآية؛ تأنيسًا للنَّبيّ ﷺ، لأنَّ فيما مضى مِنَ الكلام آنفًا حكايةَ تكذيبِهم إيّاه، تصريحًا وتعريضًا، فأقبلَ اللّهُ على الرَّسول ﷺ بالخطاب؛ لِما في هذا الكلام مِن تنويهٍ بمنزلته، بأنَّه في منزلة الرُّسل الأوَّلين عليهم الصَّلاة والسَّلام، وفي هذا الخطاب تعريضٌ بالمُشركين، ولذلك التفتَ إلى خطابهم بقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾[4]، ومَن سأل أهل الذّكر عن الجواب؛ وجد عندهم الصّواب، وقد قال النّبيّ ﷺ: "إنَّما شِفاءُ العَيِّ السُّؤالُ"[5]، قال الخطّابيّ: "فإنّ العِيَّ ها هنا الجَهَلُ. يُقالُ: عَيَّ الرَّجُلُ بأمرِه يَعْيا عِيًّا، إذا لم يَهْتَدِ لَهُ"[6].

(1) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 379.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 227.

(3) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 278.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 160.

(5) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (336، 337) عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهم، والحاكم في المستدرك، برقم: (630)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال: على شرطهما.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 160.

دلالة إضافة الإرسالِ إلى نون العَظَمة:

الإرسالُ يستمِدُّ عَظَمته مِن منبع الوحي الرَّبانيّ

قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: بما لنا مِنَ العَظَمة[1]، وذلك لعلوِّ شأن إرسال الرُّسُل، ففي هذه الإضافة مِن تعظيم أمرِ الإرسال وتفخيمه ما لا يَخْفى.

دلالة الفعل الماضي المنفي:

بيانُ عادة الله في إرسال الكُمَّلِ مِنَ الرِّجال، وكونِها سُنَّةً قديمة جارية في كلّ حال

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعل الماضي المنفي: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾، والمعنى: أنَّ عادة اللّه ﷻ جاريةٌ مِن أوَّل الخَلْق، أنَّه لم يبعث إلّا رسولًا مِنَ البَشَر، فهذه عادَةٌ مُستمِرَّة، وسُنَّةٌ جاريَةٌ قديمة[2]، فلستَ بِبِدَعٍ مِنَ الرُّسل، ولم نُرسل قبلَكَ ملائكةً، بل رجالًا كاملين[3]، والحال أنَّه في تاريخ البشريّة برمّته، لم يرسل إلى النّاس إلّا مَن يُعرفون ويُألفون، وهم رجال جمعوا بينَ البشريّة المصطفاة، والنّبوّة المنتقاة، فكانوا نماذجَ أصيلةً للإبلاغ عن اللّه فيما به أمر، وما عنه نهى وزجر، وذلك ردّ بليغ مقنع على تساؤلاتهم.

دلالة حرف الجرِّ ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾:

استيعاب كل الأزمنة بإرسال الرسل

(مِنْ) لابتداء الغاية، وقيل: اسمٌ للزَّمان الّذي تقدَّم زمانك، فإذا قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾، فكأنَّه قال: وما أرسلنا مِن ابتداء الزَّمان الّذي تقدَّم زمانَك، فيَخُصُّ الزَّمانَ الّذي يقع عليه قبلَ حدوثه، ويستوعبُ بذكر طرفيه ابتداءَه وانتهاءَه، وإذا قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ [الأنبياء: 7] فمعناه: ما فعلنا في الزَّمان الّذي تقدَّم زمانَك، فهو في الاستيعاب كالأوَّل، إلّا أنَّ الأوَّل أوْكَدُ للحصر بين الحدَّين، وضبطِه بذِكر الطَّرفين، والزَّمانُ قد يقع على بعض ما تقدَّم، فيُستعمل فيه اتِّساعًا[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 166.

(2) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 78.

(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 512.

(4) الإسكافيّ، دُرّة التَّنزيل: 2/ 799.

فائدة الإضافة إلى ضميره ﷺ:

الإشارة إلى اختصاصه ﷺ بالرّسالة

في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ إضافة إلى الضّمير؛ لاختصاصه ﷺ بالرِّسالة دونَ قومه، لأنَّهم أنكروا هذا الاختصاص، فجاء الجواب: بأنّا قد أرسلنا قبلَه رُسُلًا رجالًا إلى أُممهم السّالفة، وقد سلَّمتُم ذلك، فإن لَزِمَ المُحال - عندكم - مِن إرسال محمَّد إليكم، فيَلۡزَم مِن إرسال الرِّجال إلى مَن قبلكم؛ وهذا وافٍ في إبطال شُبهتهم[1].

نُكْتَةُ تخصيص ﴿رِجَالٗا﴾ بالذِّكر:

التّنبيه على سِرِّ الخصوصيَّة في الرِّجال مِنَ البشر، اعتبارًا للقُدوة

جعل اللّهُ الرَّسولَ المرسل إلى البَشَرِ بشرًا لا مَلَكًا؛ حتّى يكونَ الرَّسولُ قدوةً لأتباعه، فلو كان نَبيُّنا ﷺ مَلَكًا؛ لقال النّاس: لا نستطيع أن نفعل مثلَه؛ لأنَّه مَلَكٌ ونحن بشر، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: 94 - 95][2].

ولم يبعث اللّه في الدّعوة العامَّة - وهي دعوة الرِّسالة - إلّا رجالًا مِنَ البَشَرِ، تنبيهًا على سِرِّ الخصوصيَّة في الرِّجال مِنَ البَشر، فهُمُ الّذين يُربّون النّاسَ التَّربيةَ النَّبويّة، فلا يَصْلُحُ لهذه التَّربية النِّساءُ؛ لِضَعفِهِنّ، ونقص عقلهِنَّ، ولأنَّ الأحوال الّتي يُكابدها الرَّسول؛ مِنَ الدَّعوة والهِجرة، وخطابِ النّاس، وتَحَمُّلِ الأذى، لا تَتَناسب وحالَ النِّساء[3]، ففي قوله: ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ رُسُلَ اللّه جميعًا، كانوا مِنَ الرِّجال، ولم يكن أحدٌ منهم مِنَ النِّساء، وأنَّهم أوحيَ إليهم وهم رجالٌ قد بلغوا الرُّشد، وجاوزوا مرحلةَ الصّبا والشّباب، وأنّه لم يكن أحدٌ مِن رسل اللّه مِن عالَمٍ غيرِ عالَمِ البَشر[4].

(1) الطّوفيّ، الإشارات الإلهيّة، ص: 377.
(2) القَدّوميّ، التَّفسير البيانيّ لما في سورة النَّحل من دقائق المعاني، ص: 87.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 26.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني: 7/ 300.

مُـنـاسـبـة كُـلِّ مـوضـع منـهـا لسياقه، وقوّتُه في الـدّلالـة على معنى القَسَم

توجيهُ المتُشابه اللّفظيّ:

قال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: 109]، وقال في سورة النّحل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وفي سورة الأنبياء قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: 7]، وفي سورة الفرقان قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: 20].

ولسائل أن يسأل فيقول: هل بين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ [الأنبياء: 7] فرق؟ ولأيّ معنًى خَصَّ موضعًا بحرف الجرّ (مِنْ)، وآخر بحذفها؟

والجواب أن يُقال: إنَّ (مِنْ) لابتداء الغاية واستيعاب طرفي الزمان كما سبق ذكره في دلالة حرف (من) في الآية.

فالتّعبير بقوله: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ استيفاءٌ لكلّ الرّسالات السّابقة بلا استثناء، وفي ذلك مسحٌ تاريخيٌّ مستوعِبٌ للأحقاب والعصور قاطبة؛ لكي يسدّ البابَ عن الاستثناء، ولو لحالة واحدة خرجت عن هذا القانون، فيتّخذها المكذّبون حجّة لإبطال ما جاء به هذا السّياق مِن حجّة واضحة ودامغة.

كما أنَّ آية يوسف قد تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: 106]، وقولُه: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: 108]، وقوَّةُ السِّياق في هذه الآي يدلُّ على معنى القسم، فناسبَ ذلك زيادةُ (مِن) المُقتضيةِ الاستغراقَ، وكذلك قولُه في سورة النّحل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ [النّحل: 41]، يُؤَكِّد ذلك المعنى، فناسبه زيادةُ (من)؛ لاستغراق ما تقدَّم مِنَ الزَّمان، أمّا قوله تعالى في سورة

الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [الأنبياء: 7]، فتقدَّم قبلَها إنكارُ الكفّار كونَ الرَّسلِ مِنَ البَشر، في قوله: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ [الأنبياء: 3]، واقتراحُهمُ الآياتِ في قوله: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥﴾ [الأنبياء: 5]، فلمّا انطوى هذا الكلام على قضيَّتين: مِن اقتراحهمُ الآيات، وإنكارهم كونَ الرُّسلِ مِنَ البشر، وقد بَيَّن لهم حالَ المُقترحين، في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾ [الأنبياء: 6]، فلمّا تقدَّم هذا أُتبع ببيان الطَّرف (الآخر)، وهو التَّعريفُ بأنَّ مَن تقدَّم مِنَ الرُّسل إنَّما كانوا رجالًا مِنَ البشر، مُختصِّين بتخصيصه سبحانَه، ولم يكونوا ملائكةً، فقيل لنبيّنا محمَّد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [الأنبياء: 7]، فقيل هُنا: ﴿قَبۡلَكَ﴾ [الأنبياء: 7]، كما قيل في نظيرتها: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم﴾ [الأنبياء: 6]، فلم تَدْخُل هُنا (مِن)، كما لم تدخل في النَّظير (الآخر) لإحراز التَّناسب، والتِئام الجملةِ المنطوية على طرفي مقصدِهم مِنَ الاقتراح، وإنكارِ كون الرُّسلِ مِنَ البَشر، وكذلك الواردُ في سورة الفرقان، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: 20]، إنَّما ورد جوابًا لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: 7]، ولا داعيَ في هذا للقَسَم، إذ هو جواب لقولهم، فلا داعيَ لورود (مِن)، فوَرَدَ هذا كُلُّه على أبدع نظام، وأعلى تناسبٍ، وإذا اعتبر النّاظرُ استوضحَ أنَّ كُلًّا من هذه الآي، لا يُمكنُ إتيانه في موضوع غَيْرِه(1).

توجيهُ القراءاتِ المتواترة الواردة في ﴿نُّوحِيٓ﴾:

بيان تعظيم أمر الوحي وتفخيمِ شأنه، تلطُّفًا مِنَ الله تعالى للبشر

قرأ الجمهور (يوحَى) بالياء وفتح الحاء، بالبناء للمفعول، وقرأ حفص بِالنّون وكَسْرِ الحاء ﴿نُّوحِيٓ﴾، وهي مِن إخبار الله

(1) ابن الزُّبير الغرناطيُّ، ملاك التأويل: 2/ 268.

تعالى عن نفسه بنون العظمة والكبرياء للمُتَكَلِّم، وهو اللّه تعالى، وأيُّ مُتكلِّمٍ أكبرُ وأعظم مِن رَبِّ البريَّة، وفي ذلك مِن تعظيم أمر الوحي ما لا يخفى[1].

أمّا قراءة الجمهور بالبناء لما لم يُسمّ فاعله؛ فللعلم بالفاعل وهو اللّه ﷻ، وقد سبق الإسناد إليه في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ومعلوم أنَّ المرسل هو الموحي ﷻ.

دلالةُ الفاء:

الإفصاح عن شرط مُقدَّر قبلَها، أو الجوابُ على الشَّرط الواقع بعدَها

لمّا رَدَّ اللّهُ شبهتَهم، نبَّههم سبحانَه إلى أنَّ عليهم أن يتعرَّفوا الأمرَ مِن أهل المعرفة، فقد كانوا أُمِّيين مُنقطعين عنِ الرِّسالة، فأراد سُبحانَه أن يوجهَهم إلى سؤال أهل المعرفة، فقال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فالفاء تُفْصِح عن شرطٍ مُقدّر، أي: إن شككتُم فيما ذُكِر فاسألوا[2]، أو واقعةٌ في جواب الشَّرط الّذي بعدَها[3]، والواقع أنّه حُذِفَ جوابُه لدِلالة ما قبلَه عليه، وفيه دَلالةٌ عَلى أنَّه لم يُرسِلْ للدّعوة العامّة ملَكًا، وقولُه تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1]، معناه: رسلًا إلى الملائكة أو إلى الرّسل[4].

بلاغة الاعتراض في جملة سؤالِ أهلِ الذِّكر:

المبادرة إلى توبيخ المشركين، وإبطالِ شبهاتِهم

ورد في أحد تخريجات جملة: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أنها مُعترضة بينَ جملة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾، وبين قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾، والجُملةُ المعترضة تقترن بالفاء، إذا كان معنى الجملة مُفَرَّعًا على ما قبلَه[5]، وفائدة هذا الاعتراضِ المبادرةُ إلى توبيخ المشركين وإبطالِ شُبهتِهم؛ لأنَّه قدِ احتَجّ عليهم بمَن كانوا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 386، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4183.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 5/ 307.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4183.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 116.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 161.

يذهبون إليهم لسؤالهم عنِ الرَّسول ﷺ(1)، فكأنَّ المقامَ لا يَحْتَمِل التَّأخيرَ حتَّى ينتهيَ الكلامُ، فجاءت هذه الجُملةُ لتوبيخهم.

الغرضُ مِنَ الجملة الأمريَّة ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ﴾ مع شِركهم:

الإخبار بعدم الإتيان بشيءٍ، لا يمنع أمرَه بالإتيان به

أمرَ الله تعالى مشركي مكّة بأن يسألوا أهلَ الذِّكر، أي: أهلَ الكتاب، عمَّن مضى مِنَ الرّسل، هل كانوا بشرًا أم ملائكة؟ فإن قيل: كيف أمرَهم بذلك، مع أنَّهم قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ [سبأ: 31]؟ فالجواب: أنَّه لا مانعَ مِن ذلك، إذِ الإخبارُ بعدم الإتيان بشيءٍ، لا يمنع أمرَه بالإتيان به، ولو سُلِّم، فهُم وإن لم يؤمنوا بكتاب أهل الكتاب، لكنِ النَّقلُ المتواترُ مِن أهل الكتابِ في أمرٍ يُفيد العِلْمَ لِمَن يُؤمن بكتابهم، ولِمَن لا يؤمنُ به(2)، "والمرادُ مَن لم يُسَلِّم يُسلِم مِن أهل الكتاب؛ لأنّهم الّذين لا يُتَّهمون عند أهل مكّة في إخبارهم بأنّ الرّسل عليهم السلام كانوا رجالًا، فإخبارُهم بذلك حُجَّة عليهم، والمراد: كسر حُجَّتِهم وإلزامُهم، وإلّا فالحَقّ واضحٌ في نفسه، لا يُحتاج فيه إلى أخبار هؤلاء"(3).

سِرُّ الأمر بسؤال أهل الذّكر:

وجوبُ رجوعِ العامّة إلى العلماء، للاستفتاء عمّا ليس لهم به عِلْمٌ

وفي هذه الجملة الأمريَّة أيضًا دليلٌ على وجوب رجوع الجُهّال إلى العلماء الثِّقات فيما لا يعلمون(4)، فإنَّ مِن واجب مَن لا يعلم أمرًا أن يَسأل عنه أهلَ العلم الأثبات، قبل أن يتعامل به، ويُجادلَ فيه(5)، "وفي الآية دليلٌ على وجوب الرّجوع إلى العلماء فيما لا يُعلَم، واستدلَّ بها بعضُهم على جواز التّقليد في الفروع للعاميّ"(6).

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 156.
(2) زكريا الأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/ 373.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 386.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/ 342.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 300.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 375، وقال: "وفي ذلك بحث طويل في (إيقاظ الهمم) للفلّانيّ وغيره".

نُكْتَةُ صَرْفِ الخطاب للمُشركين بعد النَّبيِّ الأمين:

الاحتجاج على المشركين بأهل الأديان السّابقة؛ توبيخًا لهم وتبكيتًا

الخطاب هُنا لأهل مكَّة، والمعنى: إن كنتم يا هؤلاء لا تعلمون ذلك بِالبَيِّناتِ والزُّبُرِ فاسألوا[1]، لأنَّه لمّا كان المقصود مِنَ الخطاب الأوَّل لرسول اللّه ﷺ تنبيهَ الكفّار على مضمونه، صَرَفَ الخطاب هُنا إليهم، فقال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: أهل الكتاب مِنَ اليهود والنَّصارى[2]، ولمّا كان كفّار مكَّة مُقرّين بأنَّ اليهود والنَّصارى هم أهل العِلّم بما أنزل اللّه في التَّوراة والإنجيل، صَرَفَ الخطاب إليهم وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب[3]؛ لأنَّ إقامةَ الحُجَّة على الكفّار مَقصدٌ مِن مقاصد الآية، فأشهد على المشركين بشواهد الأُمم الماضية، وأقبل عليهم بالخطاب توبيخًا لهم؛ لأنَّ التَّوبيخ يُناسبه الخطاب؛ لكونه أوقعَ في نفس الموبَّخ، فهذا الخطاب هو احتجاجٌ بأهل الأديان السّابقين، أهلِ الكتب، اليهود والنّصارى والصّابئة[4].

بلاغة الكناية:

بيانُ شمولِ هذا الوصف لكلِّ صاحب علم في الأساس، تذكَّرَ وذكَّرَ النّاسَ

قوله: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾، أي: فاسألوا أهلَ الكُتبِ الّذين يعرفون معاني كُتبِ اللّه تعالى، فإنّهم يعرفون أنّ الأنبياء كلَّهُم بَشَرٌ، وقد وجّه الكفّارَ إلى سؤالهم؛ لأنَّهم أهلُ عِلّم بأحوال الرِّسالات، وهم على عِلّم بأنَّ الرُّسل كانوا بشرًا يأكلونَ الطَّعام، ويمشون في الأسواق، ويَحْتَمِل أنّ المقصود بأهل الذَّكر، أهلُ العِلّم بأخبار الماضين، إذِ العالمُ بالشّيء يكون ذاكرًا له، ويحتمل أنّ المعنى: أهلُ القرآنِ والعِلّم، والأظهرُ شمولُ كلّ هؤلاء، فيكون المعنى: سلوا كلَّ مَن يُذْكَرُ بعِلّم وتحقيق[5]؛ لأنَّ العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، ولهذا فإنَّ العلماء يستدلّون بهذه الآية على أنَّ أهلَ الذِّكر لفظٌ عامٌّ،

(1) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 78.
(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 3/ 189، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 385.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 4/ 31.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 161.
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 561، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 211.

يَشْمَلُ كُلَّ مَن يُعْزَى إليه عِلْمٌ، فأهلُ الذِّكر هم أهلُ الاختصاصِ في كلِّ فنّ، وعليه فإنّ "في الآية إشارةً إلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم، وقد سُئِل الإمامُ الغزّاليّ رحمه الله: مِن أين حصل لك الإحاطة بالعلوم، أصولها وفروعها؟ فتلا هذه الآية، أي: أفاد أنّ ذلك العلمَ الكليَّ إنّما حصل باستعلام المجهول مِنَ العلماء"(1)، ولذا خُرِّجَت هذه الجملة مخرجَ المثلِ السَّيّار عند اختلاف النّاس في فنٍّ مِنَ الفنون، وعلمٍ مِنَ العلوم.

بلاغة المجاز المرسل:

الإشـــارة إلى مكانة الذِّكر في كـونـه سـبـبًا في العِلْم

استُعمل ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ هُنا بمعنى العِلْم(2)، وسُمِّيَ ذِكْرًا لأنَّ الذِّكْرَ - الّذي هو ضِدُّ السَّهْوِ - بمنزلة السَّبب المُؤَدِّي إليه فأطلق عليه، كأنَّ الجاهل ساهٍ، وإن لم يكن ساهيًا، وكذا الذِّكْرُ - الّذي هو الكلام المذكور - سببٌ للعِلْم(3)، فيكون مجازًا مُرسلًا بعلاقة المُسَبَّبِيَّة، وعمومُ هذه الآيةِ فيها مَدْحُ أهلِ العِلْم، وأنّ أعلى أنواعِه العِلْمُ بكتاب الله المُنَزَّل، فإنَّ الله أمرَ مَن لا يعلم بالرُّجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديلٌ لأهل العِلْم وتزكيةٌ لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأنَّ بذلك يخرجُ الجاهِلُ مِنَ التَّبِعَة(4)، وعليه: "إذا غابت عنكم هذه القضيّةُ، قضيّةُ إرسالِ الرّسلِ مِنَ البشر، ولا أظنّها تغيب، لأنّها عامّةٌ في الرّسالات كلّها، وما كانت لتخفَى عليكم، خصوصًا وعندكم أهلُ العِلْم بالأديان السّابقة، مثلُ ورقةَ بن نَوفَل، وغيره، وعندكم أهلُ السِّيَرِ والتّاريخ، وعندكم اليهودُ والنّصارى، فاسألوا هؤلاء جميعًا عن بشريّة الرّسل"(5).

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 37.
(2) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 78.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 167.
(4) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 512.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: (الخواطر): 13/ 7951.

دلالة الجملة الشَّرطيّة وسِرُّ افتتاحها بـ ﴿إن﴾:

تبكيتُهم والإيماءُ إلى أنَّهم يعلمون ذلك، ولكنَّهم قصدوا المُكابرةَ والتَّمويه

تقرَّر في اللُّغة أنَّ المقصودَ مِنَ الجملة الشَّرطيّة، هو النِّسبةُ الَّتي يَدُلُّ عليها الجزاءُ، سواء أكانت خبريَّةً أو إنشائيَّةً، والشَّرطُ قيدٌ لها وسببٌ فيها، وأنَّ (إنْ) تُستَعْمَل عند عدم جَزْمِ المُتكلِّم بحصول الشَّرط في المستقبل، أمّا (إذا) فتُستعمل في كلِّ ما يَجْزِمُ المُتكلِّم بوقوعه في الزَّمن المُقْبِل[1]، وقد يَخْرجُ الشَّرْطُ عن مَقصودِه في كتاب اللّهِ تعالى لنُكتة بلاغيَّة، كما إذا استعملت (إنْ) في موقع (إذا) - كما وقع هُنا في هذه الآية - وذلك إظهارًا لبلاغة القرآن الكريم السّامية، لأنَّ شأن الشَّرطِ الّذي تَعَلَّق به الحُكمُ بكلمة (إنْ) أن يكون مُحتملَ الوقوعِ، وقد استُعمِلَت هُنا في أمر معلوم مقطوع به، لأنَّ الكلام مع قريش، ولا شَكَّ أنَّ قُريشًا لم يكونوا من عِلْم البيّناتِ والزُّبر في شيء، فالمقصودُ مِن تعليق السُّؤال بهذا الشَّرط التَّبكيتُ والإلزام، أي: لا ارتياب في أنَّكم غيرُ عالِمين بالبيّنات والزُّبر، واحتمالُ عدم علمِكُم يستلزم السُّؤالَ، فكيف إذا كنتم غيرَ عالمين بها البَتَّة، ولستُم أيضًا ممّن يسألونهم؛ لأنّكم تعلمون أنّهم لا يجيبونكم إلّا بما ذكرنا، مِن أنّا ما أرسلَنا مِن قبلِ إرسال هذا الرّسولِ إلّا رجالًا يوحَى إليهم، فلم يبقَ لهم طريقٌ سِوى التَّسليم والإذعانِ، وعليه قولُ الأجير: إنْ كُنْتُ عملتُ لكَ فأعطني حَقِّي[2]، وقد تكون (إن) على أصل عملِها وفائدتِها، ويكون في هذا الشَّرط إيماءٌ إلى أنَّهم يعلمون ذلك، ولكنَّهم قَصَدوا المُكابرةَ والتَّمويهَ لتضليلِ الدَّهماء، فلذلك جِيءَ في الشَّرط بحرف (إن) التي تَرِدُ في الشَّرط المَظنون عَدَمَ وجودِه[3].

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 158.
(2) محيي الدّين زاده، حاشيّة زاده على البيضاويّ: 5/ 276.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 161.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأهلُ والآل:

الآل خاصَّةُ الرَّجل وقرابتُه، والأهل أعمُّ منها وأشمل

الآلُ: خاصّةُ الرَّجل، مِن جِهَةِ القرابة أو الصُّحْبة، فيقال: آلُ الرَّجل، لأهلِه وأصحابِه، أمّا الأهل: فيكون مِن جهة النَّسبِ كأهل الرَّجل لقرابته الأدْنَين، ويكون للاختصاص، كأهل البصرة، وأهلِ العلم، ولا يقال: آل البصرة، وآل العلم[1]، ثمَّ إنّ لفظ (الآل) مختصٌّ بأولي الخَطَرِ؛ كالأنبياء والملوكِ ونحوهم، فيُقال: آلُ الرَّجُلِ له نفسُه، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠﴾ [الصّافات: 130]، وآلُه لأهله وأقاربه، كقول القائل: "اللهمَّ صَلِّ على محمّد وعلى آل محمّد"، وآلُهُ لِمَن تَبِعَهُ كقوله تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]، وأمّا إن ذُكِرَ الرّجلُ ثمّ ذُكِرَ آله؛ لم يدخل فيهم[2]، ولا يضافُ (آل) إلى الأرذال، ولا المكان والزَّمان، ولا إلى الحَقِّ ﷻ، فلا يُقال: آل الحائِك، وآل مِصْرَ، وآل زَمانِ، وآل اللّٰه تعالى؛ بخلاف الأهل في جميع ما ذُكِرَ[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 281.

(2) ابن قَيِّم الجوزيّة، جلاء الأفهام، ص: 226.

(3) التّهانويّ، كشّاف الاصطلاحات: 1/ 72.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النّحل: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان دلائل الإرسال، بعد ذكر الرُّسل، رموز القدوة والكمال

لمّا بَيَّن ﷻ لهم أنَّه ما أرسل رسولًا إلى قوم إلّا وهو رجل، إذِ الملائكةُ لا تُرسَل كأنبياء إلى البشر، ولمّا كانت رُسُل الملوكِ تقترن بما يُعرف به صدقُهم؛ قال ﷻ جوابًا لمَن كأنَّه قال: بأيّ دلالةٍ أُرسلوا؟ فقال: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾، ولمّا كان القرآن الكريم أعظمَ الأدلّة، أشار إليه ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾[1]، "لتبيّن للنّاس ما اشتمل عليه مِنَ العقائد والأحكام، وتدعوهم إلى التّدبّر فيه، ولعلّهم يتفكّرون في آيات اللّه، ويتدبّرون القرآن، ويدركون أسرارَه وأهدافَه، ويعلمون أنّه أُنزل لخيرهم ومصلحتهم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أصلُ الكلمةِ مِنَ البَيْنِ، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ، والبَيْنُ الفِراقُ؛ يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبَيونُ: البِئْرُ البَعِيدَةُ القَعْرِ[3]، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أي: أنا على أمرٍ واضحٍ ظاهرٍ، والبَيِّنة أيضًا: الحُجَّة، ومنه: "البَيِّنةُ على المدَّعي"[4]؛ لأنَّ بها ينكشف الحقُّ ويتَّضح، والبَيِّنةُ كذلك: الدّلالةُ الواضحة، عقليَّةً كانت أو حسيَّة[5]، والبيانُ: التَّوضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ: إذا اتَّضَحَ وانكشَفَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 167.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 11/ 167.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(4) أخرجه الترمذيّ في سننه، برقم: (1341) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، والبيهقيّ في السّنن الصّغرى، برقم: (3386)، وقد حسّن إسناده النّووي في أربعينه، وابن حجر في الفتح.
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بين).

وفُلانٌ أبْيَنُ مِنْ فُلانٍ؛ أي: أوضَحُ كَلامًا مِنْهُ(1)، والمقصود بالبَيِّناتِ في الآية جَمعُ بَيِّنَةٍ، وهيَ الحُجَّةُ والدَّليلُ، والمراد به: دَلائِل الصِّدقِ مِن مُعجزاتٍ أو أدِلَّةٍ عقليَّةٍ(2)، وقال أميّة بن أبي الصّلت(3):

إنَّ آياتِ رَبِّنا بَيِّناتٌ *** ما يُمارِي فِيهِنَّ إلّا الكَفورُ

حَبَسَ الفِيلَ بالمُغَمَّسِ حَتَّى *** ظَلَّ يَحْبو كَأنَّهُ مَعْقورُ

2) ﴿وَٱلزُّبُرِۗ﴾: أصلُ (زَبَر) يَدُلُّ على قِراءةٍ وكِتابةٍ، وما أشبهَ ذلكَ، يُقالُ: زَبَرْتُ الكِتابَ، إذا كَتَبْتَهُ، ومنهُ الزَّبورُ(4)، وزَبَرْتُ الكتابَ: كتبتُه كتابةً غليظة، وكلُّ كتابٍ غليظ الكتابة يقال له: زَبورٌ، وخُصَّ الزَّبورُ بالكتاب المنزّل على داوود ﷺ، والزُّبُرُ: الكُتُبُ الَّتِي كُتِبَ فِيها ما أُوحِيَ إلى الرُّسُلِ؛ مِثلُ صُحُفِ إبراهيمَ والتَّوراةِ، وما كَتَبَهُ الحوارِيّونَ مِنَ الوحيِ إلى عيسَى ﷺ، وإنْ لَم يكتُبْهُ عيسَى(5)، ورُبَّما قالوا: زَبَرْتَهُ، إذا قرأتَهُ، وقيل: بل الزَّبورُ كلّ كتابٍ يَصْعُبُ الوقوفُ عليه مِنَ الكُتب الإلهيَّة، قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشّعراء: 196](6)، والمقصود بالزُّبُرِ في الآية: جمعُ زَبورٍ، وهو فعَوْلٌ بمعنى مفعولٍ، أي: مَزْبورٍ، بمعنَى مَخطوطٍ، والمرادُ بها: كُتُبُ الأنبياءِ والرُّسُلِ، مِمّا يَتَضَمَّنُ مواعِظَ وتَذْكِيرًا، مثلَ كتابِ داوودَ والإنجيلِ(7).

3) ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾: أصلُ الذِّكرِ: الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيانِ(8)، وهو أيضًا: جَرْيُ الشَّيْءِ على لِسانِكَ(9)، والذِّكْرُ: الصِّيتُ والثَّناءُ، ومنه قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: 1]، أي: ذِي الشَّرَفِ(10)، والذِّكر: الكتابُ الَّذي فِيهِ تَفْصِيل الدِّين، وكلُّ كتابٍ مِن كُتبِ الأنبياء ﷺ ذِكْرٌ(11)، والذِّكْرُ: الصَّلاةُ، وقِراءَة القُرآن، والتَّسبيحُ، والدُّعاء،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 162.
(3) الدّينوريّ، المجالسة وجواهر العلم: 4/ 86.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زبر).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 162.
(6) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ: (زبر).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/ 186.
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والمحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ذكر).
(10) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(11) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ذكر).

والشُّكْرُ، والطّاعَة[1]، والمقصود بالذِّكر في الآية: الكَلامُ الموحَى بِهِ لِيُتْلَى ويُكَرَّرَ، والمُرادُ بِهِ في الآية القُرآنُ الكريم[2].

4) ﴿لِتُبَيِّنَ﴾: أصلُ الكلمةِ مِن البَيْنِ، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ[3]، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، والتَّبْيِينُ: الإيضاح، والوُضوحُ[4]، والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ[5]، والمقصود بالتَّبيين في الآية: إيضاح المعنى، والمُرادُ به: تَبْيِينُ ما في القُرْآنِ مِنَ المَعاني[6].

5) ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: مِن (فَكَرَ): وهو تَرَدُّدُ القَلْبِ في الشَّيءِ. يُقالُ: تَفَكّرَ، إذا رَدَّدَ قَلْبَهُ مُعْتَبِرًا، ورَجُلٌ فِكِّيرٌ: كَثِيرُ الفِكْرِ[7]، والفِكْرَةُ: قوّة مطرقة للعِلْم إلى المعلوم، والتَّفَكُّرُ: جولانُ تلك القوّةِ بحسب نظرِ العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلّا فيما يمكن أن يحصُلَ له صورةٌ في القلب[8]، وأخرج ابن حبّان عن عليّ رضي الله عنه قال: "لا عبادةَ كالتّفكُّر"، أي: لأنّه المخصوص بالقلب، والمقصود مِنَ الخَلْق[9]، والمقصود بالتَّفكُّر في الآية: تَكلُّفُ الفِكرةِ، وهو معالجَةُ الفِكْرِ، ومُعاودةُ التَّدَبُّرِ في دلالَةِ الأدِلَّةِ، على الحَقائقِ[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

نزل القرآنُ تبيانًا، بمحكم الآيات، على غرار الكتب المؤيَّدة بالبيّنات

هذه الآية تكملة للآية السّابقة؛ فإنَّ اللّه سبحانه وتعالى أرسل رسلَه بالحُجَج والكُتُبِ، وأنزَلَ إليك يا مُحمَّدُ صلى الله عليه وسلم القُرآنَ؛ لتوضِّحَ للنّاسِ ما نَزَّلَ

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 16.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 164.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (فكر).
(8) الرّاغب، المفردات: (فكر).
(9) ابن علّان، دليل الفالحين: 2/ 295.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 26.

اللّهُ إليهم فيه - لفظًا: بتلاوتِه، ومَعنًى: بتفسيرِه، وبيانِ ما أشكَلَ عليهم منه - ، وتُفصِّلَ لهم بسُنَّتِك القَوليَّةِ والفِعليَّةِ ما أُجمِلَ مِن أحكامِه، وأنزَلْنا إليك القُرآنَ؛ كي يتفكَّرَ النّاسُ في آياتِه، ويَعتَبِروا بها ويتَّعِظوا، فيَهتدوا بالعمَلِ بها[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف:

إفادةُ التَّلَبُّس بما بعد المحذوف، وبيانُ ارتباط الآية بما قبلَها، وصلتِها بسابقتِها

قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾، العامل فيه قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، والتّقدير: وما أرسلنا بالبيّنات والزّبر، أي: بالبراهين والكُتب، إلّا رجالًا نوحِي إليهم، وقيل: إنّ في الآية إضمارًا وحذفًا، والتّقدير: أرسلناهم بالبيّنات[2]، فالنَّظم يومِئ بأنَّ هُناك محذوفًا في الكلام، حتَّى يستقيمَ المعنى، وهذا المحذوف يدلُّ عليه المذكور قبلَه، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾، ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ يعني: إرسالهم بالبيّنات والزُّبر، وقد أفاد هذا الحذف، التَّلبُّسَ بما بعد المحذوفِ، أي: جاء هؤلاء الأنبياءُ بالمعجزات الباهرات، وبالكُتب المُنَزّلة للهداية، فيكون المعنى: رجالًا مُتَلَبِّسين بالبيّنات[3].

دلالة الباء ومرجع تَعَلُّقها:

الدّلالة على المُصاحبة وقوّةِ التَّلبُّس بالرُّسُل، وما يوحَى إليهم

الباءُ للمُصاحبة، أي: مصحوبين بالبيّنات والزُّبُر، فالبيِّناتُ دلائلُ الصِّدق، مِن معجزاتٍ أو أدلّةٍ عقليَّة، وقد اجتمع ذلك في القرآن، وافترق بينَ الرُّسُل الأوَّلين، كما تفرَّق منه كثيرٌ لرسولنا ﷺ[4]، ويُحتَمل أن تتعلّق الباءُ في قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾، بِقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾، داخِلًا تَحْتَ حُكْمِ الاسْتِثْناءِ مَعَ ﴿رِجَالٗا﴾، أي: (وَما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 232، والخازن، لباب التّأويل: 3/ 79، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 574.
(2) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 3/ 420.
(3) القدوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 89.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 162.

أَرْسَلْنا إلّا رِجالًا بِالبَيِّناتِ)، كَقَوْلِكَ: (ما ضَرَبْتُ إلّا زَيْدًا بِالسَّوْطِ)، لِأَنَّ أَصْلَهُ: (ضَرَبْتُ زَيْدًا بِالسَّوْطِ)، وقد تَتَعَلَّقُ بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ مُضْمَرًا، دَلَّ عليه ما قَبْلَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: بِمَ أُرْسِلوا؟ قيل: بِالبَيِّناتِ، أو تَتَعَلَّقُ بـ ﴿نُّوحِىٓ﴾، أي: (نوحِي إِلَيهِم بِالبَيِّناتِ)(1).

بلاغة التَّقديم والتَّأخير:

العناية والاهتمام بالمُقدَّم، وإفادة التَّشويق للمُؤَخَّر

كان السِّياق يقتضي: (وما أرسلنا من قبلك بالبيِّنات والزُّبر إلّا رجالًا نوحي إليهم، فاسألوا أهلَ الذِّكرِ إن كنتُم لا تعلمون)، ولكنَّ بلاغةَ التَّقديم والتَّأخير في القرآن، اقتضت أن تكون الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾؛ وذلك لنُكْتَة بلاغيَّةٍ جليلة، وهي التَّقديم للعناية والاهتمام بالمقدَّم، ولا سِيما أنَّ المقام في الرَّدِّ على مشركي مكَّة الّذين أنكروا بعثةَ الرُّسلِ مِنَ البَشَر، فاقتضى الحالُ أن يُقَدَّم لهم في الكلام، جملةُ: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾؛ لأنَّه بها أعنى، وهو ببيانها أهمُّ، وهي لهم محطّ القَصْدِ مِنَ الحديث، لأنَّ الغرض مُتعلِّق ببيانها، فبادَرَ إلى ذِكرها؛ للإشعار بأنَّ هذه هي المطلوب الأهمّ(2)؛ وفي تأخير ذِكْرِ البيّنات والزُّبر، تشويقٌ لهذا المُؤَخَّر المُبَيِّن للوحي المُنَـزَّل.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيّ:

قصدُ الاختصار في اللَّفظ مَوْضِعَ الحذف، وتوفيةُ اللَّفظ حَقَّهُ في موضع الزِّيادة

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝١٨٤﴾ [184]، وقال هُنا ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ وفي سورة فاطر: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥﴾ [25]، ولسائل أن يسأل عن اختلاف الآيتين، في إدخال الباء في مَوْضِعٍ، وحذفِها منه في موضع.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 607، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 2/ 380.

(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 108، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/ 561، وهود بن محكّم، تفسير كتاب الله العزيز: 2/ 367.

والجواب أن يُقال: إنَّ الزُّبر والكِتاب في سورة آل عمران، وقعا في كلام بُنِيَ على الاختصار والاكتفاء بالقليل عن الكثير، مع وضوح المعنى، وكان أوّل ذلك قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ [آل عمران: 184]، والتَّقدير: (فإن يكذّبوك)، فوَضَعَ الماضي الّذي هو أخفُّ موضعَ المستقبلِ الّذي هو أثقل، بدلالة (إنْ) الّتي للشّرط، وحصولِ الخِفّة في اللّفظ. ثُمَّ إنَّ الفعل الّذي جاء في جواب الشَّرط بُنِيَ للمفعول، ولم يُسَمَّ فاعلُه، فكان الاختيار أن يُجعَل آخرُ الكلام كأوَّله، بالاكتفاء بما قلَّ عمّا كَثُرَ منه، مع وضوحِ المعنى، فالكلام في هذه السّورة وقع مبنيًّا على الاختصار.

وأمّا في موضع النَّحل وفاطر؛ فلم يحذف منه ما حُذف مِنَ الأوَّل، فلمّا قُصِدَ توفيةُ اللَّفظِ حَقَّهُ، أتبعَ آخِرَ الكلامِ أوَّلَه في توفية كُلِّ معمولٍ في عامله، وهي حروف الجَرِّ الّتي استوفتها المَجرورات، فلذلك اختلفت[1].

فائدة العطف:

الإشــارةُ إلى القرآن الكريم، كـونـه أعـظـمَ الأدلَّـة، بـعـد ذِكْـرِ شواهده التّاريخية

لمّا كان القرآن أعظمَ الأدلَّة، أشار إلى ذلك بذكره مدلولًا على غيره مِنَ المعجزات بواو العطف، فقال عاطفًا على ما تَقْديره: وكذلكَ أرسلناكَ بالمعجزاتِ الباهراتِ ﴿وَأَنزَلْنَآ﴾[2]، فلمّا اتّضحت الحُجَّة بشواهد التّاريخ الّذي لا يُنْكَرُ، ذُكِرَت النَّتيجةُ المقصودةُ، وهو أنَّ ما أُنزِل على محمَّد ﷺ، إنَّما هو ذِكْرٌ، وليس أساطيرَ الأوَّلين[3].

دلالة إضافة الإنزال إلى نون العظمة:

تعظيمُ أمرِ الإنزال، وتفخيمُ شأنِه، بما يتناسبُ مع عَظَمَة القرآن، وجليل قَدْرِه

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ﴾ أي: بما لنا مِنَ العَظَمة[4]، وفي هذه الإضافة بيانٌ لعظيم شأن الإنزال، والقُرآنِ المُنَزلِ مِنَ الرَّبِّ العظيم، المُنَزلِ له على قلب الرَّسولِ الكريم، عليه أفضلُ الصّلواتِ وأتمُّ التَّسليم.

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/ 402، والكرمانيّ، البرهان، ص: 94.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 168.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 162.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 168.

دلالة الالتفات بالخطاب إلى المفرد:

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡكَ﴾، أي: وأنتَ أشرفُ الخَلْقِ[1]، وهو التفاتٌ إلى النَّبي الكريم، بهذا الخطابِ الكريم مِن ربِّ العالمين[2]، فالقرآنُ وإن كان فيه أحكام الخَلْق، فالخطابُ معكَ، وأنتَ صاحبُ البيان لهم بما أُنزلَ عليك، فإنَّهم في مقاماتِ الوَحْشَة، وأنتَ في مَحَلِّ الحُضور، ومَحَلِّ الأمان، فبيانُ الكتابِ ما تُبَيِّنُه أنتَ، وآدابُ الشَّريعة ما تَرْسُمُهُ؛ لأنَّكَ أنتَ الأمين في جميع الأحوال، ولا يُؤتَمَنُ على أسرار الحَقِّ إلّا الأُمَناء[3].

تشريف النَّبي ﷺ، بالإقبال عليه بالخطاب

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعول به:

جاء التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾، ولم يأت بـ (وأنزلنا الذِّكر إليك)؛ حيثُ قُدِّمَ المُتعلَّق - وهو الجارُّ والمجرور - على المفعول؛ للاهتمام بضمير المخاطَب[4]، واعتناءً بالنَّبي ﷺ، وإظهارًا لشرفه، وتأنيسًا له[5].

الاعتناءُ بالنَّبي ﷺ، وإظهارُ شَرفه، وتأنيسُه، تميّزٌ ورفعةٌ عند الله

دلالةُ (ألْ) وفائدتُها في لفظ ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾:

الذِّكرُ: الكلامُ الّذي شأنُه أن يُذَكِّرَ، أي: يُتلى ويُكَرَّر، فأُنْزِلَ ليقرأَهُ النّاسُ، ويتلوهُ تكرارًا؛ ليتذكَّروا ما اشتملَ عليه[6]، والذِّكْرُ هُنا هو القرآنُ الكريم، وسُمِّي القرآنُ ذِكْرًا؛ لأنَّه موعظةٌ وتنبيهٌ للغافلين، بما فيه مِن آيات الله، ما يُذَكِّرُ النّاسَ بالله ﷻ، ويَلْفِتُ قلوبَهم وعقولَهم إليه؛ ولأنَّهُ مُذَكِّرٌ بالأنبياء السّابقين ورسائلهم، ما نُسِخَ منها وما بقي، ولأنَّه الذِّكْرُ الدّائم إلى يوم القيامة[7].

إفادةُ عموم التَّذكير بالمواعظ وقَصَصِ السّابقين

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 168.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 301.
(3) السُّلميّ، حقائق التّفسير، ص: 115.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 163.
(5) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 89.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 163.
(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 228، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4184، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 301.

فهو مِن التَّذكير، إمّا بمعنى الوَعظ، أو بمعنى الإيقاظ مِن سِنَةِ الغَفْلة، وإطلاقُه على القرآن؛ إمّا لاشتماله على ما ذُكِرَ، أو لأنَّه سَبَبٌ له[1]، فهو الكتابُ الموجِبُ للذّكر، المُعَلّي للقَدْر، الموصِلُ إلى منازل الشّرف[2].

سِرُّ ذِكْرِ (القرآن)، بعد ذكر (البيِّنات) و(الزُّبر):

الإيماءُ إلى أنَّ القرآن الكريم هو بَيِّنَةٌ وزبورٌ معًا

في الاقتصار على إنزال الذِّكر، عَقِبَ قولِه: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾؛ إيماءٌ إلى أنَّ الكِتاب المُنَزَّلَ على مُحمَّد ﷺ، هو بَيِّنَةٌ وزبورٌ معًا، أي: هو معجزةٌ وكتابُ شَرْعٍ، وذلك مِن مزايا القرآن الّتي لم يُشارِكْهُ فيها كتابٌ آخَرُ، ولا معجزةٌ أُخْرَى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [العنكبوت: 50 - 51][3].

فائدة لام العِلَّة، في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾:

ذِكْرُ العِلَّةِ الأصليَّة في إنزال القرآن الكريم، إبرازٌ لهَدي القرآنِ وجلالِه

اللّام في ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ من قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ للتَّعليل، أي: أنزل اللهُ القرآنَ على سيِّدنا محمَّد ﷺ حتَّى يُبَيِّنَهُ للنّاس، واللّام على هذا الوجه لِذِكْرِ العِلَّةِ الأصليَّة في إنزال القرآن[4]، والمعنى: أنزلنا إليكَ أيُّها الرَّسولُ الكريمُ القرآنَ، لِتُعَرِّفَ النّاسَ بحقائق وأسرارِ ما أُنزِلَ لهدايتهم في هذا القرآن، من تشريعاتٍ وآدابٍ وأحكامٍ ومواعظَ، لعلّهم بهذا التَّعريف والتَّبيين يتفكّرون فيما أرشدتَهم إليه، ويعملون بهديكَ، ويقتدونَ بك في أقوالِكَ وأفعالِكَ، وبذلك يَفوزون ويَسْعَدون[5].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 389.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 168.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 163.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 163.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 158.

دلالة الفعل المضارع:

جيء بالفعل المضارع (تُبَيِّنَ) في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾؛ لإفادة تَجَدُّد البيانِ واستمرارِه مِنَ النَّبي ﷺ، بِحَسَبِ تَنَزُّلِ الآيات طيلة زمنِ النُّبوَّة، فإنَّ اللّه ﷻ أنزل القرآنَ الكريمَ، مُنَجَّمًا في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً، بحسب الوقائعِ والأحداث[1].

إفادة التَّجدُّد والاستمرار في البيان بِحَسَبِ تَنَزُّلِ الآيات

دلالة إسناد مُهمَّة التَّبيين للرّسول ﷺ:

إسنادُ التَّبيين إلى النَّبي ﷺ، باعتبار أنَّه المُبَلِّغُ للنّاس هذا البيانَ[2]، وقد كلّفه اللّهُ بالتّبيان للنّاس، وأنزل عليه القرآنَ المُبين، والذِّكرَ الحكيم، "أي: القرآنَ الّذي فيه ذِكْرُ ما يَحتاجُ إليه العِبادُ، مِن أمور دينِهم ودنياهم، الظّاهرةِ والباطنة، وهذا شاملٌ لتبيين ألفاظِه، وتبيينِ معانيه"[3]، والرّسولُ المُبلِّغُ مؤتَمَنٌ بأمر اللّه؛ لتحقيق مُهمّتِه الإبلاغيّة المُناطةِ به، مِن أجل دعوة النّاسِ إلى الحَقّ، وهدايتِهم إلى الرَّشاد، بأمانةٍ ومِصداقيّة ونَزاهة.

اعتبارُ كونِه المُبَلِّغَ للنّاس هذا البيانَ العظيمَ

دلالة (أل) في لفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾:

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافَّةً بما أعطاكَ اللّهُ مِنَ الفهم الّذي فُقْتَ فيه جميعَ الخَلْق، واللِّسانِ الّذي هو أعظمُ الألسنةِ وأفصحُها، وقد أوصلكَ اللّهُ فيه إلى رُتبةٍ لم يصل إليها أحدٌ[4]، فرسالةُ الإسلامِ عالَمِيَّةٌ، مُخاطَبٌ بها أهلُ مكَّةَ ابتداءً، ومُخاطَبٌ بها كُلُّ البَشَرِ على مَرِّ العصور، ولذا جاء التَّعبيرُ ﴿لِلنَّاسِ﴾، فالتَّعْرِيفُ لِلْعُموم[5].

إفادةُ العمومِ، وبيانُ عالَمِيَّةِ هذا الدِّين

سِرُّ المُغايرة بين ﴿وَأَنزَلۡنَآ﴾، و﴿نُزِّلَ﴾:

في مُخاطبة النَّبيِّ بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ومُخاطبةِ

لا يُنَزَّلُ الوحيُ إلّا على النّبيّ المصطفى؛ لتلقّي البلاغِ وإيصالِه

(1) الهَرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 15/ 241.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 163.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 441.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 168.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 163، والقدوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 89.

النّاس بقوله سبحانَه: ﴿نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾، تفرقةٌ مِن وجهين؛ **الأوّل**: أنَّ النَّبيَّ الكريم خوطِبَ خطابًا مُباشرًا مِنَ الحقِّ ﷺ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، على حين أنَّ النّاس خوطِبوا بفعل لم يُذْكَر فاعِلُه، هكذا: ﴿نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ لأنَّ التَّنزيلَ لم يكن مُباشَرًا لهم، بل كان بوساطة النَّبيِّ ﷺ، الّذي تلقّاه بدوره عن طريق المَلَك، **والثّاني**: أنَّ الفعل (أنزل) يُفيد الجَمعَ، على حين أنَّ الفعل (نَزَّل) يُفيد التّفرّق، وهذا هو ما يُشير إليه الحالُ مِن أمر القرآن بينَ النَّبيِّ وبينَ الّذين تلقَّوهُ منه، فالنَّبيُّ بالنِّسبة لهم هو المَصدرُ الأوّلُ الّذي تجيئُهم منه آياتُ اللّه وكلماتُه، وهم يتلقَّونها منه آيةً آيةً، أو آياتٍ آياتٍ، فناسَبَ أن يُخاطَبَ النَّبيُّ ﷺ في مواجهتهم بقوله تعالى في السّياق الآنِف[1].

دلالة ﴿مَا﴾ الموصولة:

شمولُ بيانِ الشَّرائعِ وتفصيلِها مِن قِبَلِ النَّبيِّ ﷺ

قد يكون المُرادُ بـ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ الشَّرائعَ الّتي أرسلَ اللّهُ بها مُحمَّدًا ﷺ، لاقتضاء أنَّ ما صَدَق عليه الموصولُ غيرُ الذِّكرِ المُتَقَدِّم، إذ لو كان المقصودُ ما أشار إليه بالموصول، لكان مقتضى الظّاهر أن يقال: (لتبيِّنه للنّاس)، فجُعِلَ القرآنُ جامعًا لها، ومُبيِّنًا لها ببليغ نظمِه، ووفرةِ معانيه، فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النّحل: 89][2]، ويُحتَمل أن يُريد: (لتُبَيِّن القرآنَ بسَرْدِك نصَّهُ وتعليمه للنّاس)، أو (لتبيّنَ معانيَهُ بتفسير مُشْكِلِه)، فيدخلُ في هذا ما بيَّنَتْهُ السُّنَّة مِنَ الشَّريعة[3]، والمعنى حينَها: (فتُعرِّفَهُم ما أُنزل إليهم مِنَ الأحكام والشَّرائع، وأحوالِ القُرونِ المُهْلَكَةِ بأفانين العذاب، جزاءَ عنادِهم معَ أنبيائهم، وتُبَيِّنَ لهم ما أشكلَ عليهم مِنَ الأحكام، وتُفَصِّلَ لهم ما أُجمِلَ مِن أحكام الصّلاةِ والزَّكاة)، وغيرِ ذلك ممّا

---

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 301.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 163.

(3) ابن جزي، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/ 427.

لم يُفَصِّلْهُ بحسب مراتبِهم في الاستعداد والفهم لأسرار التَّشريع[1]، فبيانُ الكتابِ يُطلَبُ مِنَ السُّنّةِ، والمُبَيِّنُ لذلك المُجْمَلِ هو رسولُ الله ﷺ[2]، قال الشّعراويّ: "جاء القرآنُ كتابَ معجزةٍ، وجاء كتابَ منهجٍ، إلّا أنّه ذَكَر أصولَ هذا المنهجِ فقط، ولم يذكرِ التّعريفاتِ المَنهجيَّةَ والشّروحَ اللّازمةَ لتَوضيحِ هذا المَنهجِ، وإلّا لَطالَتِ المَسألةُ، وتضخَّم القرآنُ، وربما بَعُد عن مُراده، فجاءَ القرآنُ بالأصول الثّابتة، وترك للرّسول ﷺ مهمّةَ أنْ يُبيِّنَه للنّاس، ويشرحَهُ ويوضِّحَ ما فيه"[3].

نُكْتَةُ اختيارِ صيغةِ التَّفعيل ﴿نُزِّلَ﴾:

التَّفصيلُ والإيضاحُ لما نُزِّل مِنَ القرآن مِن عقائدَ وأحكام

قوله تعالى: ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أيّ: إنَّ في ذلك الذِّكرِ مِنَ الأحكام والشَّرائع على وجه التَّفصيل بيانًا شافيًا، وهذا ما تُنبئُ عنه صيغةُ التَّفعيل[4]، وهي تعني: أنّ الوحيَ قد واكبَ الحياةَ في أزَماتِها وتقلّباتِها، وسايرَ الأحداثَ في تموّجاتها وتحوّلاتها، فقال: "وأنزلنا إليكَ أيّها النّبيُّ القرآنَ لتبيّن للنّاس ما اشتملَ عليه مِنَ العقائد والأحكام، وتدعوَهُم إلى التّدبُّر فيه"[5]، والنّاسُ يجدون في ذلك التنزّل، ما يحتاجون إليه في صلاح عاجلهم وآجلهم.

سِرُّ تعديَةِ الفعل ﴿نُزِّلَ﴾ بـ (إلى):

بيانُ الواجبِ على النّاس في اقتفاء أثرِ آخِرِ مُرسَلٍ إلى النّاس

فيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الكتاب الّذي أُنزلَ إلى النَّبيِّ ﷺ، هو كذلك نُزِّلَ إلى النّاس، فهم شُركاء للنَّبيِّ في هذا الكتاب، ومطلوبٌ مِن كلِّ إنسان أن يَحْسبَ أنَّ هذا الكتابَ هو كتابُه المُنَزَّل عليه، يفقهُهُ ويعملُ به، ويدعو النّاسَ إلى العمل به، مُقتفيًا في هذا أثرَ النَّبيِّ، ومشاركًا في حَملِ الرِّسالة معه، في حال حياته أو مِن بعد وفاته[6].

(1) المراغي، تفسير المراغيّ: 14/ 89.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 108، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 158.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 7958.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 37.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/ 317.
(6) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 7/ 301.

دلالة الإظْهار، فِي مَقامِ الإضْمار:

إفادةُ أنَّ إنزالَ الذِّكر إلى النَّبيّ المبلِّغ، هو إنزالُه إلى النّاس للعمل به

وقع في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾، ما يُسمَّى بوضع المُظْهَرِ موضعِ المُضْمَر، وهو نوع مِن خروج الكلام على غير مُقتضى الظّاهر، وقد كان الظّاهرُ مِنَ الكلام يقتضي: (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَه لِلنّاسِ)، إذ الذِّكر عينُ المُنَزَّل، وإنَّما جاء الكلام كما في الآية لنُكْتَة بلاغيَّة؛ لإفادة أنَّ إنزال الذِّكر إلى النَّبي ﷺ، هو إنزالُه إلى النّاس، كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ [الأنبياء: 10][1]، وهذا على القول بأن ﴿مَا﴾ راجعةٌ إلى الذكر كما سبق ذكره في دلالتها.

فائدة زيادة شِبْهِ الجملة ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

الدَّلالة على عناية الله بالنّاس، وإنعامه عليهم بالعطاء القرآني، والعطاء النّبويّ

يتَّضِحُ لقارئ قول اللّه تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾، أنّ ذِكْرَ الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ في الآية؛ للدّلالة على عناية اللّه بالنّاس، وإنعامه عليهم[2].

فائدة الواو في ﴿وَلَعَلَّهُمۡ﴾:

الدَّلالة على أنَّ هذه الجملة غايةٌ وثمرةٌ للنُّزول والتَّبيين

جاء حرف العطف (و) في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ تَفَكُّرَ النّاسِ بدين اللّه ﷻ مَقْصِدٌ مُستقلٌّ، فالنَّبيُّ ﷺ مُكَلَّفٌ بتبيين دينِ اللّه للنّاس، وهذا هو المَقصِد الأوَّل لإنزال الذِّكر -كما في الآية-، والمَقْصِد الثّاني لإنزال الذِّكْر: هو تَفَكُّر النّاس بهذا المُنَزَل[3]، فكان العطفُ بالواو للدّلالة على أنَّ هذه غايةٌ وثمرةٌ للنُّزول، كتبيين النَّبيِّ ﷺ، فلمّا كان التَّقدير: لعلَّهم بحُسْن بيانك يعملون، عطفَ عليه بيانًا لشرف العِلْم قولَه تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]، وفي العَطف حكمةٌ أُخرى، مِن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 163.
(2) القدوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 89.
(3) القدوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 89.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 169.

حِكَم إنزال القرآن، وهي تهيئةُ تَفَكُّر النّاسِ فيه، وتأمُّلِهم فيما يُقرِّبُهم إلى رضا الله تعالى[1].

غرض استعمال أداة الرَّجاء (لَعَلَّ):

(لعلّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ للرّجاء، والرَّجاءُ ليس مِنَ الله، ولكنّ الرَّجاء مِنَ الخَلْق، وهو على كلّ شيء قدير، والمعنى: مِن أجل أن يتأمَّلوا وينظروا في حقائق الكون، وأسرارِ الحياة، وعبر التّاريخ، فيهتدون ويفوزون، ودلَّ هذا على أنَّ مِمّا ينبغي أن يَحْرِص عليه قارئُ القرآنِ التَّفكُّرَ؛ لأنَّه بذلك يكون قد حقَّق حِكْمةً مِن حِكَم إنزالِ هذا القرآن.

التَّرجية في معرفة دلائل الإيمان، للوصول إلى درجات المهتدين الفائزين

فائدةُ حذفِ متعلَّق الفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عجائبه وأسرارِه، فيخوضون بسُفن أفكارِهم في بَحْر معانيه وأنواره، فينتبهون للحقائق والشَّرائع[2]، فإذا نظروا أساليبَه الفائقةَ، ومعانيَه العاليةَ الرّائقةَ، وصلوا بسبب ما فُتِحَ لهم مِن أبواب البيان[3] إلى حقيقة الإيمان، وسكينة اليقين، حتّى يرتقوا في درجات العبوديّة[4]، أي: إرادة أن يتأمّلوا فيتنبّهوا للحقائق، وما فيه مِنَ العِبر، ويحترزوا عمّا يؤدّي إلى مثل ما أصاب الأوّلين مِنَ العذاب.

التَّفكُّر في عجائب وأسرار القرآنِ يوصل العبدَ إلى اليقين، ويؤول به إلى الإيمان

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنزالُ والتَّنزيلُ:

الإنزالُ يُطلَق على ما يكون دفعةً واحدة[5]، وأمّا التَّنزيلُ فيُطلق

الإنزال دَفْعِيٌّ، ويكون دفعةً واحدةً، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ، ويكون مُفرَّقًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 164.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 131.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 169.
(4) القدوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 89.
(5) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (نزل)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 79، والجُرجانيّ، التَّعريفات، ص: 68، والشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 1/ 3.

على ما يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًّا، فالإنزال دَفْعِيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ، قال اللّه تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣﴾ [آل عمران: 3]؛ وهذا لأنّ حُكْمَ القرآن الكريم مؤبَّدٌ، وهو مناسبٌ لـ (نزَّل)؛ فإنَّه بناءٌ لِلمبالغة، ولِما في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريج، فبينَ الإنزالِ والتَّنزيل عمومٌ وخصوصٌ، والإنزالُ أعَمُّ مِنْهُ؛ لأنّه قد يَدُلُّ على معنى التَّدْريج، وقد لا يدلُّ[1].

ولا يُشكِلُ على هذا الفرْقِ، وقوع التَّعبيرِ عَنِ نزول القُرآن الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ وذلك لأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريم نُزولَيْنِ، دَفْعِيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنيا، وتدريجِيٌّ منجّم بحسَب الوقائع والأحداث[2].

يتفكّرون ويتذكّرون:

التَّذكُّر مقصودُ التَّفكرِ وثمرتُه، فإذا فكَّرَ القلبُ تَـبَـصَّـر، وإذا تبصّر تذكَّر

التَّفكُّرُ: تَصَرُّفُ القلبِ بالنَّظر في الدَّلائل ومعاني الأشياء ليُدْرِكَ المطلوبَ[3]، وهو سراج القلب، يرى به خيرَه وشَرَّه، ومنافعَهُ ومضارَّهُ، وكلُّ قلبٍ لا تَفَكُّر فيه فهو في ظُلماتٍ يتخبَّط[4].

وفي القرآن الكريم يأتي طلبُ التَّفكُّرِ إمّا بضرب مَثَلٍ، حتّى يتأمَّل الإنسانُ هذا المَثَلَ، وإمّا يكون جوابًا عن سؤال حتّى يتفكَّر في الإجابة عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس: 24]، وقال: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: 21].

(1) الرّاغب، المُفرداتُ: (نزل).
(2) أبو شامة، المُرشِد الوَجيزُ، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 146.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 121، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 63.
(4) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 63.

أمّا التَّذَكُّرُ: فهوَ محاولةُ النَّفسِ استرجاعَ ما زالَ مِنَ المعلومات[1]، ويكون التَّذَكُّرُ للاتّعاظ وأخذِ العِبْرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾ [القصص: 51]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ [الدُّخان: 58].

والتَّفكُّر والتَّذكُّر أصلُ الهُدى والفلاح، وهُما قُطْبا السَّعادةِ، إذِ التَّفكُّر طلبُ القلبِ ما ليس حاصلًا مِنَ العلم، والتَّذكُّر استرجاعُ ما زالَ عنِ القلب، والمُتَفَكّر ينتقل مِنَ المُقدِّمات والمبادئ الّتي عندَه إلى المطلوب الّذي يريده، فإذا ظَفِر به تحصّل له تَذَكُّرٌ به، وأبصر مواقعَ الفعلِ والتَّرك، وما ينبغي اجتنابُه، فحينَها يكون التَّذكّر؛ فالتَّذكُّر هو مقصودُ التَّفكّرِ وثَمَرتُه، فإذا فكَّرَ القلبُ تَبَصَّر، وإذا تَبصّر تذكَّر[2].

(1) الكَفويّ، الكليّات، ص: 67.

(2) ابن القيّم، مفتاح دار السَّعادة: 1/ 214.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥﴾ [النَّحل: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تهديد المشركين بعذاب الله في الدّنيا، بعدَ الرّدّ عليهم، وتنبيهُهم على التّفكّر

لمّا نَبَّه اللّه سبحانه على التَّفَكُّر، وكان هذا التّفكّر داعيًا للعاقل إلى البُعد مِنَ الخطر، سبَّب عنه إنكارَ الأمنِ من ذلك، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾[1]، و"هذه الآية تهديدٌ لأهل مكّة، وهم المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قول الأكثر، وقال مجاهد: المراد نمروذ بن كنعان، والأوّل أظهر"[2].

فالآيتان السّابقتان رَدَّتا ما زَعمَه الكُفّارُ من أنّ الرَّسول ﷺ لا يكون مِنَ البَشَر، وتُهدِّدُ هذه الآية المشركينَ بعذاب اللّهِ في الدُّنيا، لِما هم فيه مِن كُفْرٍ وتكذيبٍ لنُبوَّة نَبيِّنا مُحمَّد ﷺ، وتُنَبِّهُ مِن سوءِ عاقبة ما هم فيه مِن كُفْر وعِصيان، وعِنادٍ وجُحود.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَأَمِنَ﴾: أصلُ الأمن: طمأنينةُ النَّفسِ وزَوالُ الخَوفِ[3]، وله معنيان مُتدانيان؛ أحَدُهُما: الأمانَةُ الّتِي هي ضِدُّ الخيانَةِ، ومعناها سُكونُ القَلْبِ، والآخَرُ: التَّصْدِيقُ[4]، يُقال: رَجلٌ أمَنَة، بالفَتْح، للَّذي يُصدِّق بكُلِّ ما يَسمَع، ولا يكذِّب بِشَيء[5]، ورَجُلٌ أَمَنَةٌ أيْضًا: إذا كانَ يَطمئن إلى كُلِّ أحدٍ، والأمنُ: حالَةُ اطمِئنانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّر: 11/ 169.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 396.
(3) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أمن)، والمناويّ، التَّوقيف على مُهمّات التَّعاريف، ص: 63.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أمن).

النَّفْسِ، وراحَةِ البالِ، وانتفاءِ الخَوفِ مِن كُلِّ ما يُخافُ منه، وهو يجمعُ جميعَ الأحوالِ الصّالحةِ للإنسانِ، مِنَ الصِّحَّةِ والرِّزقِ ونحوِ ذلكَ، يُقالُ: آمَنَ به قومٌ، وكذَّب بِهِ قومٌ، فأمّا آمَنْتُهُ الـمُتَعَدِّي، فهوَ ضِدُّ أَخَفْتُه[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: 3] قال الأخفش: يريد الآمن، وهو مِنَ الأمن، قال: وقد يقال الأمين المأمون[2]، والمقصود بالأمن في الآية: النَّجاةُ مِنَ الخَوفِ.

2) ﴿مَكَرُواْ﴾: أصلُ المكر: الاحْتِيالُ والخِداعُ[3]، وقد مَكَرَ به يَمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومَكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[4]، قال الجُرجانيُّ: المَكْرُ: إيصالُ المَكْروهِ إلى الإنسانِ مِن حيثُ لا يَشعُرُ[5]، وأمّا السُّيوطي فقال: ما يَقصِدُ فاعِلُه في باطِنِه خِلافَ ما يقتضيه ظاهِرُه[6]، وهو على ضربين؛ مَكْرٌ محمودٌ، وذلك أن يتحرَّى بذلك فِعلَ جميلٍ، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: 54]، ومذمومٌ، وهو أن يتحرَّى به فِعلَ قبيح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر: 43][7]، وأمكَر: جازَى على المكر، وسُمّي الجزاء مكرًا، كما سُمّي جزاءُ السّيِّئَةِ سيّئةً مجازًا، على سبيل مقابلةِ اللّفظِ باللّفظ[8]، والمقصود بالمكر في الآية: إلحاقُ الضُّرِّ بالغَيْرِ، في صورةِ تَمويهِهِ بالنُّصحِ والنَّفْعِ.

3) ﴿يَخۡسِفَ﴾: (خسف): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على غُموضٍ وغُؤورٍ، وإليهِ يَرجِعُ فُروعُ البابِ، فالخَسْفُ والخَسَفُ، غُموضُ ظاهِرِ الأَرْضِ، قالَ اللّه تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: 81][9]، والخَسْفُ: زِلْزالٌ شَديدٌ تَنْشَقُّ بِهِ الأَرْضُ، فتَحْدُثُ بِانْشِقاقِها هوَّةٌ عَظِيمَةٌ تَسْقُطُ فِيها الدِّيارُ والنّاسُ، ثُمَّ تَنْغَلِقُ الأَرْضُ على ما دَخَلَ فِيها[10]، قال بعضُ أهلِ اللّغة: لا يقال انكسف القمر، إنّما يقال: خَسَفَ القمرُ، وكَسَفت الشّمس[11]، وقال اللّيثُ:

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (مكر).
(5) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 227.
(6) السُّيوطيّ، معجم مقاليد العلوم، ص: 207.
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (مكر).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (مكر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خسف).
(10) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 165.
(11) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خسف).

الخَسْفُ: سؤوخ الأرض بما عليها، تقول: انخسف به الأرض، وخَسَفَ اللّهُ به الأرض[1]، والخَسْفُ في الآية: انقلابُ ظاهرِ الأرضِ في باطنها مِنَ الزِّلزالِ.

4) ﴿ٱلْعَذَابُ﴾: أصلُ الكلِمَةِ مِنَ العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنّه يَمنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الرُّجوعِ لِلْجَرِيمَةِ[2]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذَبَةِ السَّوْطِ، أيْ: طَرَفِها[3]، والعَذابُ أيضًا: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديدُ، وقد قِيل: إنَّ أصلَهُ الإعْذابُ، مَصْدَرُ أعْذَبَ، إذا أزالَ العُذوبَةَ؛ لأنَّ العَذابَ يُزيلُ حَلاوَةَ العَيْشِ، فصِيغَ مِنْهُ اسمُ مَصْدَرٍ بِحَذْفِ الهَمزَةِ[4]، والمُرادُ بالعذاب في الآية: كُلُّ ما فيهِ تأليمٌ يَستَمِرُّ زَمنًا.

5) ﴿يَشْعُرُونَ﴾: أصلُ (شَعَر) يَدُلُّ على عِلْمٍ وعَلَمٍ، فالإشعارُ: الإعلامُ، والشِّعارُ: العَلامَةُ[5]، والأصْلُ قَوْلُهُم: شَعُرتُ، أي: أصَبْتُ الشَّعْرَ، ومنه استُعير: شَعَرْتُ كذا، أي عَلِمتُ عِلمًا في الدِّقَّة كإصابة الشَّعر، والمَشاعِرُ: الحواسُّ، ومنه قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: 2]، أي: لا تدركونه بالحواسّ[6]، والشُّعورُ: يُطلَقُ على العِلْمِ بالأشياءِ الخَفيَّة، ومنهُ سُمِّيَ الشّاعِرُ شاعرًا؛ لِعِلْمِهِ بالمعاني الَّتي لا يَهتدِي إليها كُلُّ أحَدٍ[7]، والمقصود بالشُّعورِ في الآية: العِلْمُ بِحُصولِ الشَّيءِ الحاصِلِ، والمرادُ بقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أنَّ العذاب يأتيهم بَغْتَةً، بلا عِلْمٍ، لا يَستَطِيعونَ دَفْعَهُ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى: أفأمِنَ الذين كَفَروا باللّهِ وعَصَوه - ومِن ذلك سَعيُهم في إبطالِ الإسلامِ، وكَيدُهم بالمُسلِمينَ لإيذائِهم - أن تبتَلِعَهم الأرضُ فيَغيبوا في بَطنِها، أو يأتيَهم عذابُ اللّهِ غِرَّةً من حيثُ لا يَشعُرونَ بمَجيئِه إليهم، ولا يَدرونَ من أين يأتيهم[9]، "فكيف

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خسف).
(2) النَّوويّ، تهذيب الأسماء واللُّغات: 4/ 10.
(3) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(4) الخليل، العين: (عذب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 258.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شعر).
(6) الرّاغب، المفردات: (شعر).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 278.
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 166.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 232، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 575، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 441.

العقابُ الإلهيّ في الدُّنيا حقٌّ وعدلٌ، ولا يجيء إلّا بعد العصيان والإنذار

يَصِحّ بعد كلّ هذا، أن يتمادى المشركون في عنادهم، ويُدَبّروا المكائدَ للرّسول ﷺ؟ هل أغراهم حِلْمُ اللّهِ بهم فاعتقدوا أنّهم في مأمن مِن عذاب اللّه، فلا يَخْسِف بهمُ الأرضَ كما فعل بقارون؟ أو يأتيهمُ العذابُ فجأةً بصاعقة، كما فُعِلَ بثمود، وهم لا يدرون أين نزل"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الهمزةِ الاستفهاميّة:

بيان الإنكار على الكفّار، والاستخفافِ بهم وبعقولهم الصّغار

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ استفهام تَعجُّبيٌّ؛ لأجل الإنكار على الكفّار، والاستخفافِ بهم وبعقولهم، إذ كيف يأمنون عقابَ اللّهِ وعذابَه، وقد علموا ما فعل بالّذين مِن قبلهم، ممَّن يمرّون على مساكنهم المُهَدَّمة مِنَ العذاب، كأهل الحِجْرِ، وهم قوم صالح عليه السلام، وقُرى قوم لوطٍ وغيرهم[2].

وتهديدهم الصَّريح بعذاب الدُّنيا، بطريق استفهام التَّعجيب مِن استرسالهم في المُعاندة، غيرَ مُقدِّرين أن يقع ما يهدِّدُهم بِهِ اللّهُ على لسان رسوله ﷺ، فلا يُقلِعون عن تدبير المَكر بالنَّبيّ ﷺ، فكانت حالُهم في استرسالهم، كحال مَن هم آمنون بأسَ اللّهِ، فالاستفهام مُستعمَلٌ في التَّعجيب المَشوب بالتَّوبيخ[3]، فيجب ألّا يأمَنوا عقوبةً تلحقهم، كما لحقتِ المُكذبين[4].

دلالة الفاء:

الدّلالة على أنَّ مَكْرَهُم هو مَكْرُ عنادٍ وجُحودٍ وكِبْرِياء

الفاء في ﴿أَفَأَمِنَ﴾ عاطفة على محذوف يُرشد إليه النَّظمُ، أي: أنزلنا إليك الذّكر لتُبيِّن لهم مضمونه، ولم يتفكَّروا في ذلك، فكأنَّه قيل: ألم يتفكروا، فأمِنَ الّذين مكروا السَّيِّئات[5]، وهذا يَدُلُّ على أنّ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 392.
(2) القدّوميّ، التَّفسير البيانيُّ، ص: 91.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 164.
(4) القرطبيّ، تفسير القرطبيّ: 10/ 109.
(5) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 5/ 308.

مكرهم بدين اللّٰه رغم ما علموا من عذابه للأمم السّابقة، هو مَكْرُ عناد وجحود وكِبْرٍ[1].

مرجع العطف في ﴿أَفَأَمِنَ﴾، وأثره البلاغيّ:

الإيجازُ في اللّفظ لتنوع المعنى، مع إفادة التّرتيبِ والتّعقيب

1. كُلُّ ما جاء في القرآن مِن همزة استفهام بعدَها واو العطف أو فاؤه؛ كهذا الموضع، وكقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزّخرف: 5]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [سبأ: 9]، فيه وجهان معروفان عند علماء العربيَّة؛ أحدُهما: أنَّ الفاء والواو كِلْتاهُما عاطفة ما بعدَها على محذوف دَلَّ المقام عليه؛ فالتَّقديرُ هُنا: أجَهِلَ الّذين مَكروا السِّيئات وعيدَ اللّٰهِ لهم بالعقاب، فأمنوا مَكْرَه، وفي آية الزُّخرف: أنُهملكم فنضربُ عنكم الذِّكرَ صَفْحًا؟! وفي سبأ: أعَموا فلم يَرَوا إلى ما بين أيديهم؟! وهكذا...، فعلى هذا الوجه، يكون في الآية إيجازٌ بالحَذْف، حيثُ حُذِفَ المعطوفُ عليه، وجملة الاستفهام للإيجاز، الوجه الثّاني: أنَّ الفاء والواو، كِلْتاهما عاطفةٌ للجُملة المُصَدَّرة بهمزة الاستفهام على ما قبلَها؛ إلّا أنَّ همزة الاستفهام تزحْلَقت عن محلّها، فتقدّمت على الفاء والواو، وهي متأخّرة عنهما في المعنى، وإنَّما تقدَّمت لفظًا عن محلِّها لا معنًى؛ لأنَّ الاستفهام له صَدرُ الكلام[2]، فَيكون المَعْنَى: (فَأَأمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ)؛ فالفاءُ عاطِفَةٌ للجملة المصدّرة بالاستِفْهامِ[3].

سِرُّ التَّعبير بالاسم الموصول دونَ الصَّريح:

شمولُ الوعيدِ لكلِّ كافرٍ ماكِرٍ، وكلِّ متآمرٍ غادِرٍ

المقصود مِن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، هم أهلُ قريش ابتداءً، ثُمَّ مَن سار على دربهم، واقتدى بنهجهم؛ وعليه فإنّ "هذه آيةُ تهديدٍ لأهل مكّة في قول الأكثرين، ومعناها: أفأمن الكفّارُ العُصاةُ الّذين

(1) القدّومي، التَّفسير البيانيّ، ص: 91.

(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 281 - 382، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 160.

(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 382.

يعملون السّيّئات، ويمكرون بالنّاس في دعائهم إلى الضّلال، ويُسِيئون إلى الرّسول ﷺ، ويحاولون صَدّ النّاسِ عن الإيمان بدعوته"عقابَنا، وتوهَّموا أنَّهم لن يصيبَهم شيءٌ مِن عذابنا، الّذي مِن مظاهره خَسْفُ الأرض بهم، كما خَسَفْناها بقارون مِن قبلهم، إنّ جهلهم هذا لدليلٌ على انطماس بصيرتهم، واستحواذِ الشّيطان عليهم[1].

بلاغة التّضمين:

دلالةُ السَّيِّئات على الكُفر والمعاصي، للآخِذ بالمقاليد والنّواصي

يجوز أن يُضَمّن ﴿مَكَرُواْ﴾ معنى (اقترفوا)، فانتصب السَّيِّئاتِ على المفعوليَّة به[2]، وعلى تضمين ﴿مَكَرُواْ﴾ معنى (اقترفوا وعملوا)، فإنَّ السّيّئات على هذا معاصي الكفرِ وغيرِه[3]، والسّيّئاتُ المقصودة، منها: "محاولةُ قتلِ النّبيّ ﷺ، والشّركُ، والتّكذيبُ بالنّبوّة والبعث، وظُلْمُ المؤمنين، وتعذيبُ بعضِهم"[4]، وكلُّ ذلك مُعرَّض به في الآية، ومُستَنكَر مِن طرف اللّه، الّذي لا يبغي لعباده ضَررًا، ولا سوءَ عاقبةٍ.

بلاغةُ الكناية:

احتمالُ المكر الخاصِّ والعامِّ في كُلِّ سَيِّئَة، مِنَ الخواصّ والعوامّ

في قوله تعالى: ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، المَكرُ: هو إعمالُ الرَّأي والحِيلةِ في الأمور، ومنه ما هو حَسَنٌ، ومنه ما هو سيّئ، وهؤلاء إنَّما مَكرُهم مِنَ النَّوع السَّيِّئ الّذي يُبْعِدهم عنِ الخير، ويُعرِّضُهم للهلاك، والبَوار[5]، و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تحتمل وجهين؛ أحدهما: يُريد به الأعمالَ السَّيّئاتِ؛ أي: المعاصي، فيكونُ الفعل ﴿مَكَرُواْ﴾ يتضمَّن معنى (عملوا)، والآخر: أن يريد بالمَكرات السَّيّئات، مَكْرَهم بالنَّبي ﷺ؛ فيكون المَكْر على بابه[6]، وفي هذه الكناية تهديدٌ للماكرين

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 160، والتّفسير البيانيّ، ص: 91.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 164.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 534.
(4) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 123.
(5) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 302.
(6) ابن جزي، التَّسهيل: 1/ 427، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 396.

مِن مشركي مكّة لرسول اللّه ﷺ، فيكون المُرادُ: المُجتمعين في دار النَّدوة، على المَكْر به ﷺ، بحبسه أو قَتْلِه أو إخراجه، وعلى أصحابه بالصَّدِّ عن دين اللّه ﷻ، أو الماكرين عمومًا[1].

السِّرُّ وراءَ حَذفِ المصدر (المكرات):

بيانُ أنّ مكرَهم ليس مُجَرَّدَ مكرٍ سيّئ، بل مَكَروا السّوءَ ذاتَه

قوله تعالى: ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وفيه ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صفةٌ لمصدرِ ﴿مَكَرُواْ﴾ محذوفًا، يُقَدَّر مُناسِبًا لتأنيث صفته، إذِ التَّقدير: مَكَروا المَكَراتِ السَّيِّئات، كما وُصِفَ المَكْرُ بالسَّيِّئ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، والتَّأنيث في مثل هذا يُقصَد منه الدّلالة على معنى الخَصْلَة أو الفَعْلَة، كالغَدْرَة للغَدْر[2]، وإنَّما حُذِفَ المصدر (المكرات)، ليَدُلَّ حَذْفُه على أنَّهم ما مَكَروا مُجَرَّدَ مَكْرٍ سَيّءٍ سيّئ، بل مَكَروا السّوءَ ذاتَه[3]، ولأبي زهرة رأيٌ آخر، يرى فيه عدمَ الحذف، فيقول: "ونحن نرى أنّه لا حاجة إلى تقدير موصوفٍ محذوف؛ لأنّ المَكْر - وهو التّدبير - متّجهٌ إلى إنشاء السّيّئات، فهم دَبّروا السّيّئات في إيذاء المستضعَفين، ودَبّروا السّيِّئات في الأقوال والأفعال، طوالَ إقامةِ النّبيّ ﷺ بينَهم في مكّة، لم يتركوا نوعًا مِنَ السّيّئات إلّا دَبّروها، وهم يعلمون قوّةَ اللّه القاهرة، وأنّه الذي يُلْجَأ إليه في المُلِمّات، فلم يكونوا جاهلين لها، وإن عبدوا معَ اللّه الأحجارَ والأوهامَ، فإذا نبهَهمُ اللّه تعالى بأنّه قادرٌ على خَسْف الأرض مِن تحتهم، فهم لا يجهلون ذلك"[4].

سرّ التَّنصيص على (الخسف):

الخَسْفُ مِن أشدّ أنواع العذاب، وأقسى ألوانِ الهلاك

قوله تعالى: ﴿أَن يَخۡسِفَ﴾، فيهِ التَّنصيصُ على نوع مِن أنواع العذاب - وهو الخَسْفُ - ، وذِكرُه في البداية يدلّ على شِدّته[5]،

(1) أطفيّش، تيسير التَّفسير: 7/ 456.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 228، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 165.
(3) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 91.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4186.
(5) القدوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 91.

والخَسْفُ هنا عقوبةٌ تقابلُ المَكْرَ الّذي فعلوه، قال الكلبيُّ: المراد بهذا المكر: اشتغالهم بعبادة غير اللّه تعالى، والأقربُ أنّ المراد: سعيُهم في إيذاءِ الرّسولِ وأصحابِه على سبيل الخفيةِ، ويكون الجزاءُ على ذلك الخسفَ، والمعنى في السّياق الآنف: أن يخسف اللّهُ بهم الأرض؛ كما خسف بالقرون الماضية[1]، وكما كان المَكرُ خفية غيرَ متوقّع، وضررُه شديد، فكذلك الخسفُ، يكون غيرَ متوقع، وضررُه أشدّ وأنكى، إذْ ما يكون مِنَ اللّه أعتى ممّا يكون مِنَ العبد.

دلالةُ تعديَةِ الخسفِ بالباء:

بيانُ العقابِ المهول بالخسف، بأن تُجعَل الأرضُ خاسفَةً به وبداره

خَسَفَ مِن باب ضَرَبَ، ويُستعمل قاصرًا ومُتعدِّيًا، يُقال: خَسَفَتِ الأرضُ، ويُقال: خَسَفَ اللّه الأرضَ، قال تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: 81]، ولا يتعدَّى إلى ما زاد على المفعول إلّا بحرف التَّعدية، والأكثرُ أن يُعدَّى بالباء كما هو هُنا، وقوله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: 81]، أي: جعلناها خاسفةً به، فالباء للتَّعدية، أي: يُدخلهم ويُذهبهم، كما يُقال: ذُهب به، ويحتمل أن تكون للمُلابسة، والمعنى: يقلبُها مُتلبسةً بكم، فيغيِّبكُم فيها؛ والأوَّل أشهر[2].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور على المفعول:

الزِّيادةُ في التَّهديد والوعيد، لمِن اجترح السَّيِّئات

قولُه تعالى: ﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: خاصَّة[3]، وذِكْرُ الجارِّ والمَجرور ﴿بِهِمُ﴾ قبلَ المفعول به ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ زيادةٌ في تهديد الكفّار؛ لأنَّ القَصْد مِنَ الخَسْف هم لا الأرضُ[4].

بلاغة العطف في قوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾:

عطفُ العامِّ المُستمرِّ، على الخاصِّ الآنيّ، مِن فصيح البيان

العذابُ يَعُمُّ كُلَّ ما فيه تأليم يستمرُّ زمنًا، فلذلك عُطِفَ على الخَسْف، مِن باب عطفِ العامّ على الخاصِّ[5]، وقد: "أنكر اللّهُ ﷻ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 64.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 389، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 14/ 165.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 169.
(4) القدوميّ، التَّفسير البياني، ص: 91.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 14/ 165.

على الّذين يعملون السّيّئاتِ مِنَ الكُفر والمعاصي، ومع ذلك يأمنون عذابَ الله، ولا يخافون أخْذَه الأليم، وبَطْشَه الشّديد، وهو قادر على أن يخسف بهم الأرضَ، ويهلكهم بأنواع العذاب"[1].

سِرُّ العُدول في نسبة التَّعذيب إلى الله تعالى:

إتيانُ العذاب مِنَ الله كونُه أبلغَ في التَّخويف، وأدلَّ على استحقاق العذاب

قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، وفيه أنّه كان الظّاهرُ في الآية أن يُقال: (أو يُعَذِّبَهم مِن حيثُ لا يشعرون)؛ ليُناسبَ ما قبلَه وما بعدَه، بناءً على أنَّ إسناد الفعلِ فيهما إليه تعالى، وما قبله فقط، بناءً على أنَّ إسناد الفعل فيما بَعْدُ إلى العذاب، مع كونه أخصرَ ممّا في النَّظم الجليل، لكنَّه عَدَلَ عنه إلى ذلك، لكونه أبلغَ في التَّخويف، وأدلَّ على استحقاق العذاب، مِن حيثُ إنَّ فيه إشعارًا، بأنَّ هُناك عذابًا موجودًا مُهَيَّئًا، لا يحتاج إلّا إلى الإتيان دونَ الإحداث، وليس في (يعذّبهم) إشعارٌ كذلك[2].

بلاغة المجاز العقليّ:

الإشعارُ بأنَّ العذاب سيُفاجِئُهم بحصوله ووقوعِه بهم

إتيانُ العذابِ: حلولُه وحصولُه، وهو مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ حقيقة الإتيان المَجيء، وهو الانتقال مِن موضع بعيد إلى الموضع الذي استقرّ فيه مفعول الإتيان، فيُطلَق مَجازًا على حصول شيءٍ لم يكن حاصلًا، كما أنَّ الإتيان مُشْعِرٌ بأنَّه يُفاجِئُهم كما يأتي الطّارق[3].

بلاغة الكناية:

مِن فصيح البيان، الدّلالةُ على الجِهَةِ، والمُفاجأةُ بالعذاب

قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: مِن مكان لا يَترقَّبون أن يأتيَهم منه ضُرٌّ، أو مِن حيثُ لا يشعرون أنَّه يأتيهم بغتةً، لا يستطيعون دفعَهُ؛ لأنّهم لبَأْسِهم ومَنَعَتِهم لا يبغتُهم ما يحذرونه، إذ قد أعدّوا له عُدَّته، فكان الآتي ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ عذابًا غيرَ

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 380.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 165.

معهود، فوقع قولُه: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، كنايةً عن عذاب لا يُطيقون دَفْعَه بحسب اللُّزوم العُرْفيّ"[1].

دلالةُ حَذفِ مفعول ﴿يَشۡعُرُونَ﴾:

الإشارة إلى أنّ هذا العذابَ الواقعَ، يأتيهم بغتةً، وما له مِن دافع

قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، التَّقدير: مِنۡ حَيۡثُ لا يَشۡعُرونَ أنَّهُ يَأۡتِيهِم بَغۡتَةً، فيَجۡهَلونَ من أين يأتيهم، وكيف يأتيهم، وقد يأتيهم مِن مأمنهم، وأفزعُ العذابِ والضّرِّ ما يأتي مِن حيث لا يحتسبُ الإنسانُ، أمّا إذا كان من حيثُ يحتسب فإنّه يُهَيّئ نفسَه لاستقبال العذابِ، ألا ترى أنَّ النّاسَ يستقبلون أنباءَ القتلِ في الحروب استقبالًا لو كان في السّلم لكان أعظمَ[2]، وفي هذه الجملة الكريمة إشارةٌ إلى أنَّ هذا العذاب الّذي يأتيهم مِن حيث لا يشعرون، عذابٌ لا يمكنُ دَفْعُه أو الهُروبُ منه؛ لأنَّه أتاهم بغتةً، ومِن جِهَةٍ لا يترقَّبون الشَّرَّ منها، وشبيهٌ بهذا قولُه سبحانه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ [الحشر: 2][3].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّة:

الإتيانُ والمجيءُ:

المجيءُ هو تمامُ الإتيان واكتمالُه، وكلُّ مجيءٍ إتيانٌ، وليس كلُّ إتيانٍ مجيئًا

الإتيان: مَجيءٌ بسُهولَةٍ[4]، فإذا اكتمل وبلغ مقصِدَه مِن مكان أو زمان أو شخص أصبح مجيئًا، فالمَجيء: هو إتيان محّققٌ، بعيدٌ عن عوامل النّقص، والإتيان هو الأعمُّ والأشمل، وهو البداية، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، ومجيءُ الرُّسلِ حَدَثٌ وتفاعلٌ وتعايشُ وقتٍ ما، معَ الدَّعوة بالأدلَّة والبراهين.

فالإتيان بدايةُ المَجيء زمانيًّا أو مكانيًّا، وقد لا يتمُّ فلا يكون

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 166.
(2) القدومي، التَّفسير البياني، ص: 91.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 160.
(4) الرّاغبُ، المُفْرداتُ: (أتى).

مجيئًا، أمّا المَجيءُ: فهو إتيانٌ محّققٌ، قريبٌ زمانيًّا ومكانيًّا[1]، وفيه معنى المَشَقَّةِ والصُّعوبة[2].

الكيدُ والمكرُ:

المكرُ ما يكون بعدَ نظرٍ وتَفَكُّرٍ، والكيد آكَد منه وأشَدُّ

ظاهر كلامِ أهلِ اللّغة، أنَّ الكيد والمَكْر مُترادفان، وقد فرّقَ بينَهما بعضُ فقهاء اللّغة، فقال: الكَيدُ المَضرّةُ، والمَكْر: إخفاءُ الكيدِ وإيصالُ المَضّرة، وقيل: الكيد: الأخذ على خفاء، وهو ضربٌ مِنَ الاحتيال، وقد يكون مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعمل في المَذموم أكثر[3]، ولا يُعتَبر فيه إظهارُ خِلاف ما أبطنَه، ويُعتَبر ذلك في المَكْر[4].

والكَيدُ - في حقِّ المخلوقِ - لا يكونُ إلّا بعدَ تدبُّر وفِكْرٍ ونظَرٍ، وأمّا المَكْر فهو مِثْلُ الكَيْدِ في كَوْنِه - في حقِّ المَخْلوق - لا يكون إلّا بَعْدَ فِكْرٍ ونَظَرٍ، إلّا أنَّ الكَيْدَ أقوَى مِنَ المَكْرِ[5].

والكَيْدُ يتعدَّى بنفسه، والمَكْر يتعدَّى بحرف، فيقال: كادَه يَكيدُه، ومَكَرَ به، ولا يُقال: مَكَرَه، والّذي يتعدَّى بنفسه أقوى، والمَكْر أيضًا تقدير ضَرَرِ الغير مِن أن يُفْعَل به، ألا ترى أنَّه لو قال له: أقْدِرُ أن أفعلَ بكَ كذا، لم يكن ذلك مَكْرًا، وإنَّما يكون مَكْرًا إذا لم يُعْلِمهُ به، والكَيْد اسمٌ لإيقاع المَكْروه بالغير قَهْرًا، سواء عَلِمَ أو لم يعلم[6].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جيأ).
(2) فاضل السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 97.
(3) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كيد).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص213، 508، والكَفويّ، الكليّات، ص: 771.
(6) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 259.

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦﴾ [النَّحل: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

البيانُ لنوع ثالث مِن أنواع التَّهديدات الّتي هدَّدَهمُ الله تعالى بها سَلَفًا

بعد أن توالتِ الآياتُ الكريمةُ، في الرَّدِّ على شُبُهات المُشركين، وأتْبَعتْ ذلك بذِكْر ألوانِ العذاب الّتي أعدَّها اللّهُ تعالى لهم، إن هم لم يرتدعوا، وأشارت إلى التَّعجيب مِن شأنهم، إذ هم لم يتّعظوا بحال مَن خَسَفَ به قبلَهم، ذَكَرَت هنا لونًا آخَرَ مِن ألوان عذابهم، فقال تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، ففي هذه الآية بيانٌ لنوع ثالث مِن أنواع التَّهديدات، الّتي هدَّدهمُ اللّه تعالى بها[1]، وذلك بـ"أن يأخذهم اللّهُ تعالى، أثناءَ تقلّبِهم في معايشهم، واشتغالِهم بها في أسفارهم، ونحوِها مِنَ الأشغال المُلْهيَة، فهم لا يُعْجِزون اللّهَ على أيّ حال كانوا"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡخُذَهُمۡ﴾: أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُه وجَمعُه، قال الخَليلُ: هوَ خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[3]، والإِخْذُ بالكسر، الاسمُ، والأمر منه: خُذْ، وأصلُه أُوْخُذْ، إلّا أنَّهم استثقلوا الهمزتين فحذفوهما تخفيفًا[4]، والأَخْذُ: تَناوُلُ الشَّيءِ باليَدِ، واستُعمِلَ مجازًا مَشهورًا في الاستِيلاءِ، قال تعالى: ﴿وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ [التَّوْبَة: 5]، وفي القَهْر نحو: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ [الأنعام: 42]، وفي التَّلقِّي نحو: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81]، وفي الاحتواءِ والإحاطَة، يُقالُ: أخَذَتْه الحُمَّى وأخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، وفي الإهلاكِ نحو: ﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠﴾ [الحاقّة: 10][5]، وهو المرادُ هنا في الآية.

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 181.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1948.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أخذ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 271.

2) ﴿تَقَلُّبِهِمْ﴾: أصلُ (قَلَبَ): يَدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، تقول: قَلَبْتُ الثَّوبَ قَلْبًا، والقَلَبُ: انقلابُ الشَّفَةِ، وهيَ قَلْباءُ، وصاحِبُها أقْلَبُ، وقَلَبْتُ الشّيْءَ: كَبَبْتُهُ، وقَلَّبْتُهُ بيدي تَقْليبًا[1]، والقَلْبُ أيضًا: صَرْفُكَ إنسانًا، تَقلِبُه عن وجهه الّذي يُريده، وقَلَّبَ الأُمورَ: بَحَثَها، ونَظَر في عَواقبها[2]، والتَّقَلُّبُ: التَّصرُّف، قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [الشُّعراء: 219]، ورَجُلٌ قُلَّبٌ حوَّلٌ: كثير التَّقلُّب والحِيلَة[3]، والانقلابُ: مُطاوِعُ قَلَبَ، والأكثرُ أنْ يَكونَ تَغييرًا مِنَ الحالِ المُعتادَةِ إلى حالٍ غَريبَةٍ[4]، وقلَّب الجَمرَ: حرَّكه وأجّجَ لهيبَه، وقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: 42] كنايَةٌ عنِ النَّدم، وقلَّب اللّهُ اللَّيلَ والنَّهارَ: بدَّل بينهما، وغيَّر من حال إلى حال، قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [النور: 44][5]، والمقصود بالتَّقَلُّبِ في الآية: الحركةُ إقبالًا وإدبارًا، والمرادُ: السَّعْي والتَّصرُّف في شؤون الحَياةِ المختلفة.

3) ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾: أصلُ العَجْز: الضَّعْفُ، يُقال: عَجَزَ يَعْجِزُ، عَجْزًا ومَعْجَزَةً، أي: ضَعُفَ ولم يَقْدِرْ، فهو عاجِزٌ، والقولُ: "إنَّ العَجْزَ نَقيضُ الحَزْم" فمِنْ هَذا؛ لِأنَّهُ يَضْعُفُ رَأْيُهُ[6]، وهو أيضًا: التَّأخُّرُ عنِ الشَّيْءِ، وحصولُه عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مُؤَخَّره، وصار في التَّعارف اسمًا للقصور عن فِعل الشَّيء، وضِدُّهُ: القُدْرَةُ[7]، وفي التّنزيل: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [العنكبوت: 22] قال الفرّاء: كيف وصفهم بأنّهم لا يعجزون في الأرض ولا في السّماء، فالمعنى: ما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا مَن في السّماءِ بمُعْجِز[8]، والمقصود بالعَجْز في الآية: هو الَّذي يَجعلُ طالبَ شَيءٍ عاجزًا عن نَواله، والمُرادُ: لا يَمنَعُهُم مِنْ أخذِهِ إيّاهُم تَقَلُّبُهُم شَيءٌ، إذْ لا يُعْجِزُهُ اجتماعُهُم وتَعاوُنُهُم[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قلب).
(3) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ 51.
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عجز).
(7) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عجز).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عجز).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 166.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

يقول اللّه تعالى: أو يُهلِكَ اللّهُ الكافرينَ بالعذابِ في حالِ سَفَرِهم وتصَرُّفِهم في مَعايشِهم وأشغالِهم، فلَيسوا بفائِتينَ اللّهَ، ولا مُمتَنِعينَ عليه؛ فهُم في قَبضتِه، يُهلِكُهم متى شاء، ولا مَهرَبَ لهم[1]، ومفاده: "استقيموا على الطّريقة، وإلّا آخذكم أخذَ عزيزٍ مُقتَدِر"[2].

التّلويحُ بتنوّع الأحوالِ الّتي يقع فيها عذابُ اللّه، بأهلِ السّوء والشِّقاق

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ استعارة الأخذ:

الأَخْذُ في الأصل: حَوْزُ الشَّيءِ وتحصيلُه، والمُراد به هنا: القَهْرُ والإهلاكُ والتَّدمير، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً ١٠﴾ [الحاقّة: 10]، وقولُه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ٤٢﴾ [القمر: 42][3]، فالأَخْذُ مُستعارٌ للإهلاك[4]، وفي الآية الكريمة استعارةٌ رشيقةٌ على جهة الاستعارة المَكنيَّة التَّبعيَّة، فقد صُرِّح فيها بلفظ المُشبّه، وكان لفظًا مُشتقًّا، وهو الفعل (أخذ)، حيث شبَّه اللّهُ تعالى العذابَ الشَّديدَ الّذي يقع على هؤلاء الكفّار بالخاطِف الّذي يأخذ، ثُمَّ حَذَفَ المُشَبَّه به، ورمزَ إليه بشيءٍ من لوازمه، وهو الأخذ، وهو تصوير عجيب، يُبرِزُ المعنى في صورة حيَّة مُتحرِّكة ملموسة مُشاهَدَةٍ مُؤَثّرة، رادعةٍ لأهل الفساد والعِناد، وفي استعمال كلمة (الأخذ) دقّة عجيبة، توحي بالقوَّة، وهي ما يتلاءم مع المقام، إذِ المقامُ مقامَ تكذيب، فما تُحْدِثُه هذه الكلمةُ يُثير في النَّفس أقصى درجاتِ الإحساس والشُّعور بالتَّعذيب، وقد حَسُنَتِ الاستعارة هُنا؛ لأنَّها وقعت موقِعَها، ونزلت موضِعَها، وهذا هو النَّظمُ القرآنيُّ يُصَوِّرُ فيُبْدِعُ، ويُعَبِّرُ فيُعْجِزُ.

إبرازُ المعنى في صورة حيَّة مُتحرِّكة، مُؤثِّرةٍ رادعةٍ لأهل الفساد

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 233، والواحديّ، البسيط: 13/ 69، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 109.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4187.

(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 161.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 166.

دلالةُ حَذفِ فاعل ﴿يَأۡخُذَهُمۡ﴾:

تنويع المعنى بحسب السِّياق، أو المشهورِ مِنَ الاستعمال القرآنيّ

قولُه تعالى: ﴿يَأۡخُذَهُمۡ﴾، أي: العذابُ أو اللّه تعالى، رُجِّح الأوَّلُ بالقُرب في الذِّكر، فإنَّه ذَكَرَ العذابَ قبلَه، في قوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، والثّاني بِكَثْرَةِ إسناد الأخذ إليه تعالى في القرآن العظيم، مع أنَّه جَلَّ شأنه هو الفاعلُ الحقيقيّ له[1]، وقد كَثُرت في القرآن نسبةُ الأخذ إليه.

فائدة حرف الجَرِّ:

الظَّرفيَّة المجازيّة، تكون بيانًا لحاصل المعنى

﴿فِي﴾ من قوله تعالى: ﴿فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾، للظَّرفيَّة المَجازيَّة، أي: المُلابسة، وهي حالٌ مِنَ الضَّمير المنصوب في ﴿يَأۡخُذَهُمۡ﴾[2]، وفيها بيانُ حاصلِ المعنى، إذِ الظَّرفُ مُتعلّقٌ بـ (يأخذ)، وحاصلُه ما ذُكِرَ[3]، والمعنى: "﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ أي: سعيهم في المعايش، واشتغالهم بها، ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي: لا يعجزون ربَّهم على أي حال كانوا"[4]، وذِكْرُ الظّرفِ تذكيرٌ بقُدْرة اللّهِ عليه، فهو المحيط بخلقه وأحوالهم، ولا يُعْجِزُه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

سِرُّ استعمال المصدر الصَّريح ﴿تَقَلُّبِهِمۡ﴾:

إفادةُ شمولِ وعمومِ الأحوال وتصاريفِها

التَّقلُّب: السَّعيُ في شؤون الحياة، مِن مُتاجرة ومعاملة، وسفر ومحادثة، والمَصْدر متعلِّقٌ بـ ﴿يَأۡخُذَهُمۡ﴾ أي: في وقت تقلّبهم، أو بمحذوفِ حال، أي: ثابتين في تقلّبهم، والمعنى: يأخذَهم مُتقلِّبين، والمراد تقلُّبهم في أشغالهم حضرًا أو سفرًا، ليلًا أو نهارًا، ذهابًا أو رجوعًا، فإن كانوا في أسفارهم، فإنَّه تعالى قادرٌ على إهلاكهم في السَّفر، كما أنَّه قادرٌ على إهلاكهم في الحَضر، وهم لا يُعجِزون اللّه بسبب ضربِهم في البلاد البعيدة، بل يدركُهُمُ اللّه حيثُ كانوا، قال

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 389.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 166.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 283.
(4) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 283.

تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾ [آل عمران: 196]، أو وقت انقلابهم إلى أهلهم للمبيت، أو تقلُّبهم في فُرُشهم، وهما وقتُ أمان[1]، وشبيه بهذه الآية، قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨﴾ [الأعراف: 97 - 98]، ويَحتمِل المعنى أيضًا: يأخذهم في حال ما ينقلبون في قضايا أفكارهم، فيحول اللّه بينَهم وبين إتمام تلك الحِيل قَسْرًا، كما قال: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦﴾ [يس: 66]، وحَملُ لفظ التَّقلُّبِ على هذا المعنى مأخوذٌ من قوله: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ [التّوبة: 48]، فجميعُ ما يتقلَّبون فيه، فما هم بسابقين اللّه ولا فائتيه[2].

دلالة الفاء:

تعليلُ الأخذ بكونهم غيرَ معجزين الله، لونٌ مِنَ التّدليل على شِدَّتِه وفظاعته

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، قيل: لتعليل الأخذ، أو لترتيب عدم الإعجاز عليه، دلالةً على شِدّته وفظاعته، حسبما قال ﷺ: "إنّ اللّه تعالى ليُملِي للظّالم، حتّى إذا أخذَه لم يُفلِتْه"[3].

سرّ دخول حرف النَّفي (ما) على الجملة الاسميَّة:

نفيُ السَّببِ المُترتِّب على تَقلُّبهم

قوله تعالى: ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، وفيه أنَّه لمّا كان أخذه لهم حالةَ التّقلبِ والتَّحرّكِ مَظِنَّةً لفرارهم وهُروبهم؛ دخل حرفُ النَّفي، فنفى ذلك السَّببَ المترتّبَ على تَقَلُّبهم، أي: فما يكون تقلبُّهم سَببًا في تعجيزهم[4].

بلاغةُ التَّذييل بالجملة الاسميَّة:

بيانُ الدَّلالةِ على دوام النَّفي، لا على نَفي الدَّوام

قال تعالى: ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: بمُمتنعين أو فائتين بالهَرب والفِرار، على ما يوهِمُه حالُ التَّقلُّبِ والسَّيْرِ، تذييلًا على أخذ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 396، والسَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 275.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 212، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 535.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 389، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (4409)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2583)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 21.

المشركين والمعاندين في تقلّبهم، وإيرادُ الجملةِ الاسميَّة؛ للدَّلالة على دوام النَّفي، لا على نَفي الدَّوام[1]، فممّا اشتملت عليه هذه الجملةُ الكريمةُ مِن بديع البلاغة، أنَّها عبَّرت على المعنى المُراد، باستعمال الجملة الاسميَّة الدّالّة على الدَّوام والثُّبوت والاستقرار.

دلالةُ اسمِ الفاعل المجموع:

إبـــرازُ وعـيـدِ الـظّالـمِ مهما بـلـغـت قـوّتـه وتسليةُ المظلومِ مهما بلغ ضَعْفُه

المُعْجِز: هو الّذي لا يمكِّنك مِن أنْ تغلبَه، وعبّر النّظمُ الكريمُ باسم الفاعل المجموع؛ للدّلالة على أنّهم مهما بلغوا مِنَ البطش والمُغالبة ما بلغوا، بمجموعهم وجُموعهم، فلن يُعجِزوا اللّهَ تعالى، ولن يستطيعوا الإفلاتَ مِن عذابه؛ لأنّهم مهما بَيَّتوا، فتبييتُهم وكَيْدُهم عند اللّه[2]، وفي هذا تسليةٌ للمَظلوم، ووعيدٌ للظّالم، لِئلّا يَغتَرَ بإمهاله[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأخذُ والإهلاكُ:

الأخـــذ أعــمُّ متعـلّـقًا وآلـةً مِـنَ الإهـلاك، واسـتـخـدامُـه في القرآن بليغٌ ودالٌّ على مُراده

الأخذُ مَصدرُ أخَذْتُ بيدَيَّ، ويُستعار فيقال: أخذَه بلسانه، إذا تَكلَّمَ فيه بمكروه، وجاء بمعنى العَذابِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ۝٧٣﴾ [الحجر: 73]، وأصلُه في العربيَّة: حَوْزُ الشَّيء وجَبْيُه وجَمعُه[4]، وقال بعضُهم: الأخذ: حوز الشّيء، وقال آخرون: هو في الأصل بمعنى القَهْر والغَلَبة، واشتُهر في الإهلاك والاستئصال، ومِنَ المجاز: الأخذ: الإيقاع بالشّخص، أو بمعنى العقوبة[5].

أمّا الإهلاك: فهو أخصّ مِنَ الأخذ؛ لأنَّه يكون بنَقْضِ البِنْيَة، وإبطال الحاسَّة، وما يجوز أن يَصِلَ مَعَهُ اللَّذَّةُ والمَنْفَعَةُ[6].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 117.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 13/ 7967.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 39.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أخذ).
(6) العَسْكَرِيُّ، الفروقُ اللُّغَويّة، ص: 58، والمصطفويُّ، التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 1/ 271.

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧﴾ [النَّحل: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ الأخذِ حالَ الخوفِ، بعدَ ذِكْرِهِ حالَ الأمنِ

بعد أن توالتِ الآياتُ في تهديد المشركين ووعيدِهم، إنْ هُم لم يرتدعوا بالخَسْف أوّلًا، أو بأذيّتِهم بالعذاب مِن حيثُ لا يشعرون ثانيًا، أو بالأخذ مِنَ اللّه تعالى في حال تَقَلُّبِهم في معايشهم ثالثًا، أُتْبِعَ ذلك بذِكْر لونٍ آخَر مِن ألوان هذا التَّهديد، بأن يأخذَهمُ اللّهُ على تَخَوُّف، ثُمَّ بتذييل كلِّ ذلك بذِكْر رحمتِه ورأفتِه ﷻ بهم، إذ لم يُعاجِلْهُم بالعقوبة، فقال تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾، فلمّا ذَكَر الأخذَ المُتَقَدِّمَ حالةَ الأمن، انعطفت حالةُ الخوفِ عليها[1]، فذكر أنّه "يهلكُهم بنقصِ أموالهم، أو بنقص أنفسِهم رويدًا، وهم في كلّ لحظة في عذاب مِنَ الخوف منه، والتَّرقب لوقوعه، فلا تتمادَوا أيُّها المشركون، وتغترّوا بتأخير عقوبتكم"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَخَوُّفٖ﴾: أصلُ الخوف: الذُّعر والفَزَع، وخافَه يَخافُه خَوْفًا وخِيْفةً، كأنَّ الَّذي يخاف منخوبُ الفُؤادِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43][3]، والتَّخْويفُ والإخافَةُ: الإفْزاعُ والإرْهابُ[4]، وضِدُّه: الأمنُ، وأصلُه: النَّقصُ، يُقال: تَخَوَّفْناهُم، أي: تَنَقَّصْناهُم، وناقَةٌ خَوْفاءُ، أي: ناقِصَةٌ بها داءٌ[5]، والمقصود بالتَّخوُّف في الآية مَعْنَيانِ: إمّا أنْ يَكونَ المعنى: يأْخُذُهُم وهم في حالةِ تَوقُّعِ نُزولِ

(1) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 2/ 186.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/ 317.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خوف - خيف).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(5) الكَفويّ، الكلّيّات، ص: 428.

العذابِ؛ بأنْ يُريَهُم مُقدَّماته، كالرَّعْدِ قَبْلَ الصَّواعِقِ، وإمّا أنْ يَكونَ المعنى: يأخُذُهُم وهُم في حالةِ تَنَقُّصٍ مِن قَبْلِ أنْ يَتَنَقَّصَهُم قَبْلَ الأخْذِ، بأنْ يُكْثِرَ فِيهِمُ المَوَتانَ والفَقْرَ والقَحْطَ[1].

2) ﴿لَرَءُوفٌ﴾: أصلُ (رَأفَ): يَدُلُّ على الرِّقة والرَّحمة، والرَّأفَةُ: شِدَّة الرَّحمة وعِظَمُها، يقال: رأفَ به، إذا رَحِمَه رحمةً كبيرة، فهو رائف، وتراءفوا، أي: تراحموا، والرَّؤوف: شديدُ الرَّحمةِ بالغير، وقيل: الرَّأفةُ: دَفْعُ السّوءِ عن الشَّخص، والرَّحمةُ: دَفْعُ السّوءِ وجَلْبُ الخيرِ، ومِن معانيها أيضًا: العطفُ[2]، والمقصود هُنا في الآية: المُبالَغَةُ في الاتّصاف بالرَّأْفَةِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

هدّدَهمُ اللّه تعالى بنوع جديد مِنَ العذاب، فقد يُهلِكَهم بنَقصٍ مِن أطرافِهم ونَواحيهم، شيئًا بعد شَيءٍ، حتّى يُهلِكَهم جميعَهم، فإنَّ ربَّكم لا يُعاجِلُ الكافرينَ والعاصِينَ بالعُقوبةِ؛ لأنَّه رؤوفٌ رَحيمٌ بعبادِه، يَرزُقُهم ويُعافيهم، ويُمهِلُهم ليتوبوا[3]، ويكون مَفادُ السّياق: "أوَأمِنوا أن يأخذَهم اللّهُ بعدَ أن يُثير في نفوسهم الخوفَ والرّعبَ، بأنّه تعالى سيأخذُهم بالعذاب، فإنّ مثلَ هذا الأخذِ يكون أبلغَ وأشدّ؛ لأنّ أثر ما يحصل للإنسان، وهو خائفٌ منه ومتوقّعٌ له، أشدُّ وأبلغ، ولكنّ اللّه رؤوفٌ رحيمٌ بهم، إذ لم يعاجلهم بالعقوبة"[4].

تكملةٌ بعضِ الأحوالِ الَّتي يقع فيها عذابُ اللـه، بالأخذ على تخوّف، معَ رحمتِه بالإمهال

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ تكرار الحرف ﴿أَوْ﴾:

عرضُ أنواعٍ مِن عذاب أهلِ السّوء، بيانٌ لكمال القُدرة الإلهيّة في كلّ حال

في تكرار ﴿أَوْ﴾ في الآيات بيانٌ لبعض الأحوال الَّتي يقع فيها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 14/ 167.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رأف).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 238، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 575، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 441.
(4) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1949.

عذابُ اللّه بأهل السّوء والشِّقاق، فهم إمّا أن يُؤْخَذوا على حين غَفْلةٍ، وإمّا أن يلقاهم العذابُ وهم في يقظة، حيثُ يتقلّبون في وجوه الأرض، أو يَحِلَّ بهم البلاءُ وهم على تخوُّف، أي: على تَوَقُّعٍ للبلاء، بين يدَي إرهاصاتٍ تُهدِّد به وتُنذر بوقوعه، فعذابُ اللّه يقع حيثُ يشاءُ اللّه، ومتى يشاء، وما هو مِنَ الظّالمين ببعيد[1].

ففي قُدرة اللّه أن ينتقم مِنَ الظّالم على أيّ حال؛ سواء أكان نائمًا هادئًا، أو متحرِّكًا مُسافرًا مُتَقلِّبًا، وسواء أكان خائفًا مِنَ العذاب مُتَرقِّبًا له، أو آمنًا وادِعًا، لا يتوقَّع العذابَ ولا ينتظره[2]، فالعبدُ في جميع أحواله عُرضةٌ لسهام التَّقدير، فينبغي أن يستشعر الخوفَ في كُلِّ نَفَس مِنَ الإصابة بها، وألّا يأمنَ مَكْرَ اللّه في أيّ وقتٍ[3].

بديع المقابلة بين المعطوفات، مِن أنواع العذاب الأربعة:

تصويرُ إحاطةِ أنـواع الـعذاب بمستحقّيها في سائر أحوالهم

اعتُبِر التّقابلُ في الأنواع الأربعة مِنَ العذاب، على أنَّ المُراد بخسف الأرض بهم إهلاكُهم مِن تحتهم، وبإتيان العذابِ مِن حيثُ لا يشعرون بإهلاكهم مِن فوقهم، وحيثُ قوبِلا بإهلاكهم في تقلُّبهم وأسفارهم، كان المعتبر فيهما سكونَهم في مساكنهم وأوطانهم، والمقابلة بين أخذهم على تخوّف والأخذِ بغتة المُشعِرِ به ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ظاهرة، فلمّا ذَكر الأخذَ المُتَقدِّم حالةَ الأمن، انعطفت حالةُ الخوفِ عليها[4].

واعتُبِر عدمُ الشّعورِ في الأخذ في التّقلّب والخسف، لقرينة الأخذ على تخوّف، على ذلك المعنى، وحُمِلَ سائرُها على عذاب الاستئصال دون الأخذ على تخوّف، على المعنى الثّاني.

ومُجمَل القولِ في ذلك: أنَّه اعتُبِر في كلِّ اثنين مِنَ الأربعة مَنْعُ

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 303.
(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 14/ 2663.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 300.
(4) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 2/ 186.

الجمع، لكن بعد أن يُراد بالعامّ منهما المُقابلة ما عدا الخاصّ، سواء كان بينَ الاثنين عمومٌ مِن وجه، أو مُطْلَقًا[1].

بديعُ ائتلافِ اللّفظِ والمعنى:

بيان أنّ اتّساقَ التّراكيبِ مع المعاني مِن روائع النّسجِ القرآنيّ

اشتملت هاتان الآيتان الكريمتان: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ على لون بديعيٍّ جليل، يُسمَّى في علم البديع بائتلاف اللّفظ مع المعنى، وهو سائد في كلِّ القرآن الكريم، وهو مَجيء الألفاظِ موافقةً للمعاني، وفي هاتين الآيتين، ترى مِن ذلك عجبًا، فلمّا كان التَّقلّبُ والتّخوّفُ مَظِنَّةَ الهَربِ، عبَّر النَّظم الكريم فيهما بالأَخْذ المُؤْذِن بالعذاب الشَّديد، ولمّا كان العذاب واقعًا في حالة سكون، لأنَّهم لا يشعرون من أين يأتيهم، عبَّر فيه بالإتيان[2].

دلالة حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

الدّلالة على تَمَكُّنِ عذابِ اللهِ مِنَ الكُفّار، بحيث لا يتاحُ منه فرار

التّعبيرُ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾، يدلّ على تمكّن عذابِ اللّهِ مِنَ الكفّار، فإذا وقع بهم، فإنّهم لن يفلتوا منه، بل هو محيط بهم، أيّما إحاطة، ومحلُّ المجرورِ حالٌ مِن ضمير النَّصب في ﴿يَأۡخُذَهُمۡ﴾، وهو كقولهم: (أخذه على غرّة)[3].

دلالةُ حروف الجرّ:

مُناسبة (في) للتقلّب والظّرفيّة، ومناسبة (على) لمُصاحبة العذاب لهم

جيء بـ﴿فِي﴾ مع التَّقلّب، وبـ ﴿عَلَىٰ﴾ مع التَّخوّف؛ لأنَّ في التَّقلُّب حركتين، فكان الشَّخصُ المُتَقَلِّبُ بينهما، ولا كذلك التَّخوف، ولمّا كان التّقلّبُ شاغلًا الإنسانَ بسائر جوارحه، حتَّى كأنَّه محيطٌ به وهو مظروفٌ فيه، جيء بـ﴿فِي﴾ معه، والتَّخوّف - أي: المخافة - إنَّما يقوم بعضو مِن أعضائه فقط، وهو القلبُ المحيط به بَدَنُ الإنسان، فلذا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 390.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 117، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 167.

جيء بـ﴿عَلَىٰ﴾ معه، كما أنَّ (على) بمعنى (مع)، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177]، أي: يأخذهم مُصاحبين لذلك، ولمّا كان التَّخوّف نفسُه نوعًا مِنَ العذاب، لما فيه مِن تألُّم القلبِ، ومشغوليَّةِ الذّهن، وكان الأخذُ مُشيرًا إلى نوعٍ آخر مِنَ العذاب أيضًا، جيءَ بـ﴿عَلَىٰ﴾ الّتي بمعنى (مع)؛ ليكونَ المعنى: يعذّبهم مع عذابهم، ولم يُعتَبر ذلك مع التَّقلُّب مُرادًا به الإقبالُ والإدبارُ، في الأسفار والمتاجر، وهذا مِن أسرار كتاب الله تعالى الّتي لا تُحصى[1].

بلاغة التَّعبير بالمصدر ﴿تَخَوُّفٖ﴾:

بيانُ شدَّة الأخذِ وتفاوتِ وقعِه إيلامًا ووحشةً

التَّخوّفُ له معنيان؛ **المعنى الأوّل**: مِنَ الخوف، أي: يُصيب الكفّارَ الرّعبُ قبلَ إيقاع العذاب بهم، عن طريق إهلاك قومٍ قبلَهم، أو عن طريق مشاهدتِهم للصّواعق والزّلازل قبلَ وقوع العذاب، وهذا التّخوّفُ فيه عذابٌ وزيادة؛ لأنّ فيه زيادةَ رُعْبٍ وخَوفٍ، فيأخذهم الله تعالى في حال خوفهم، مِن أَخْذه لهم، فإنّه يكون أبلغَ وأشدّ حالاتِ الأخذ، فإنَّ حُصول ما يُتَوقَّع معَ الخوفِ شديدٌ[2].

والمعنى الثّاني: وهو التَّنقُّص، أي: يُنقِصُ مِن أطرافهم ونواحيهم، شيئًا بعد شيء، حتّى يهلكَ جميعُهم، يقال: تخوّفَه الدّهرُ وتخوّنه: إذا نَقَصَه وأخذَ مالَه وحَشَمَه[3]، فيأخذهم العذابُ بشكل تدريجيّ، بأن يصيبهم المرضُ المُهلِك، فيموتوا بشكل تدريجيّ، أو يصيبَهم القَحْطُ فيَهْلِكوا بشكل تدريجيّ[4].

وهذا التّنقُّصُ يتّجه به الوعيد على معنيين؛ أحدهما: أن يهلكَهم ويُخْرِجَ أرواحَهم على تَخَوُّف، أي: أفذاذًا، يتنقّصُهم بذلك الشّيء بعد الشّيء، ويُصَيِّرُهم إلى ما أعدّ لهم مِنَ العذاب، وفي هذه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 575.

(3) البغويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 80، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 212.

(4) ابن جُزيّ، التَّسهيل: 1/ 427، والقدوميّ، التَّفسير البياني، ص: 95.

الرُّتبة الثّالثة مِنَ الوعيد رأفةٌ ورحمةٌ وإمهالٌ؛ ليتوبَ التّائبُ، ويرجعَ الرّاجعُ، والثّاني: أن يأخذَ بالعذاب طائفةً أو قريةً، ويتركَ أخرى، ثمّ كذلك حتّى يهلكَ الكلُّ[1]، ويكون هذا أشدُّ عليهم إيلامًا ووحشة[2].

فائدة الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ﴾:

تفريع الجملة على الجمل الماضيَّة، تفريعُ العِلَّةِ على المعلَّل

لّما كان التّقدير: (لم يأمنوا ذلك في نفس الأمر)، ولكنّ جَهْلَهم باللّه - لطول أناته وحِلمِهِ - غَرَّهم، فسبَّب عنه قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ﴾، فتسبَّب عن إمهاله لهم في كُفرهم وطغيانهم - مع القدرة عليهم - العِلْمُ بأنّ تَرْكَه لمُعاجَلتهم ما هو إلّا لِرَأفته ورَحمته[3]، فتفريع: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ على الجمل الماضيَّة، تفريعُ العِلَّةِ على المُعلَّل[4]، فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾، يكون تعليلًا للأخْذ على تخوّفٍ، بناءً على أنّ المُراد به أَخْذُهم على حُدوث حالاتٍ يُخاف منها؛ كالرّياح الشّديدة، والصّواعق والزّلازل، لا بغتة، فإنّ في ذلك امتدادَ وقتٍ ومُهْلة، يمكن فيها التّلافي، فكأنّه قيل: أو يأخذَهم على تَخَوّفٍ ولا يفاجئَهم، لأنّه سبحانَه رؤوفٌ رحيم، وذلك أنسبُ برأفته ورحمته ﷻ، وجوِّز أن يكون تعليلًا لذلك على المعنى الأخير، فإنّ في تنقُّصِهم شيئًا بعد شيء دونَ أخذِهم دُفعةً إمهالًا في الجُملة، وهو مُطلقًا مِن آثار الرّحمة، وقيل: هو تعليل لما يُفهم مِنَ الآية، مِن أنّه سبحانَه قادرٌ على إهلاكهم بأيّ وجهٍ كان، لكنّه تعالى لم يفعل[5].

دلالةُ حرفِ التَّأكيد (إنَّ):

تعليلُ وتأكيدُ ما أفادته الفاءُ، في موقعها مِنَ الجملة

حرف (إنَّ) هُنا مفيدٌ للتَّعليل، ومؤكِّدٌ لما أفادته الفاءُ، والتَّعليل هُنا لما فُهِمَ مِن مجموع المذكورات في الآية، مِن أنَّه تعالى قادرٌ

(1) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/ 425.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 90.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 171.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 167.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.

على تعجيل هلاكهم، وأنّه أمهلَهم، حتَّى نَسوا بأسَ اللّهِ، فصاروا كالآمنين منه، بحيثُ يستفهم عنهم: أهُم آمنون مِن ذلك أم لا؟[1]، فهو تعليلٌ للأمن المُستَفهَم عنه.

دلالةُ كافِ الخطاب في ﴿رَبَّكُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، إشارةٌ إلى ما مَنَّ اللّهُ به مِن فضلٍ على هذه الأمَّة، إذ عافاها ممّا ابتلى به الأممَ السّابقة، حين عجّل لها العذابَ، أمّا هذه الأمّةُ فقد أفسحَ اللّه ﷻ للفجّار مِن أهلها في الأجل، حتَّى تكون لهم إلى اللّه رجعةٌ حين يطول وقوفُهم مع رسوله الكريم، وبين يدَي ما معه من كلمات ربّه، وفي هذا مَزيدُ فضلٍ من اللّه سبحانه على نبيِّه، إذ لم يفجَعْه في قومه، ولم يُهلكْهُم بسبب خِلافهم عليه، ومَكْرِهمُ السَّيِّئِ به[2].

فـضـلُ الـلـه سبحانه على هـذه الأمَّـة، إذ عافاها ممّا ابتلى به الأممَ السّابقة

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيّة في هذا المقام:

جاء التَّعبير بـ ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾، بدلَ (فإنَّ اللّه) أو ما في معناه؛ لأنَّ مِن معاني الرَّبِّ المدبِّرَ لأمر عباده، والرّاعيَ لشؤونهم، وفي إمهال الكُفّار وتأخيرِ إيقاعِ العذابِ بهم منتهى التَّدبيرِ لمصلحتهم، فالتَّعبيرُ بعنوان الرُّبوبيَّة مِن آثار رحمتِه جَلَّ شأنُه[3]، "وكأنّ في الآية لَوْنًا مِن ألوان رحمتِه سبحانَه بخَلْقه، وحِرْصه على نجاتهم؛ لأنّه يُنبِّههم إلى ما يمكن أن يَحْدُث لَهم، إذا أصرّوا على كفرهم، ويُبصِّرهم بعاقبة كفرهم، والتّبصِرةُ عِظَةٌ، والعِظَةُ رأفةٌ بهم ورحمة، حتّى لا ينالَهم هذا التّهديدُ، وهذا الوعيد"[4].

بيانُ آثارِ رحمته ﷻ، وتقدَّست بالعَظَمة والكمالِ أسماؤُه

سرُّ التَّوكيد بـ (إنَّ) واللّام:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ تأكيدٌ بـ (إنَّ) وباللّام

تأكيد الدّلالة على عظيم نعمةِ الله ذي الجلال، ومنَّته على عباده بالإمهال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 167.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391، وعبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 303.
(3) القدوميّ، التّفسير البياني، ص: 95.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: (الخواطر): 19/ 7969.

﴿لَرَءُوفٌ﴾، وفي هذا دلالةٌ على عظيم هذه النِّعمة، بالإمهال مع استحقاق العذاب، وتركِ تعجيل العقوبة، فقد وقع في هذه الآية الكريمة أسلوبُ التَّأكيدِ الّذي يُمَكِّنُ الخبرَ في النّفس ويُقوّيه، ويُزيل عنه الشُّكوكَ والشُّبهاتِ، وذلك باستعمال (إنَّ) ولامِ التَّوكيد، الّتي هي في صدر الجُملة، واستعمالِ الجملةِ الاسميَّة صيغَ المُبالغةِ في الصِّفتين الواقعتين في تذييل الآية الكريمة، وفي هذا التَّوكيد، وهذه المُبالغة، ما يبعثُ النَّفسَ على الإيمان والتَّصديق، والإذعانِ للّه ﷻ[1].

دلالةُ ذِكرِ الرَّأفة والرَّحمة، بعد ذكر أنواع العذاب:

الرَّأفةُ والرَّحمة مـنـاسـبـةٌ لـلإمـهـال، ومـلائـمـةٌ لعدم المُعاجلةِ بالعقوبة

قولُه تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، حيثُ لا يُعاجلُكم بالعقوبة، ويحلُمُ عنكم مع استحقاقِكم لها، ولمّا كان تعالى قادرًا على هذه الأمور، ولم يُعاجلهم بها، ناسبَ وصْفُه بالرَّأفة والرَّحمة، بعد ذِكر العذاب[2].

نُكْتَةُ تقديمِ صفة (الرَّأفة) على (الرّحمة):

تقديمُ الأخصّ والأبلغِ مِنَ الوصفين، مِن فصيح البيان في آي القرآن

الرَّأفة: شِدَّة الرَّحمةِ، وقَدَّمَ هنا الرَّأفةَ على الرَّحمة؛ لأنَّها أخصُّ وأشدُّ مبالغةً، فالمعنى: أنَّه يرحمُهم أعلى الرَّحمة، بإسباغ جلائلِ النِّعم، ودَفعِ جلائلِ النِّقم، ويَرحمُهم أيضًا، بإسباغ دقائقِ النِّعم، ودَفعِ دقائقِ النِّقم، ولأنَّ الرَّأفةَ تكون في دَفعِ المَكروه، والرَّحمةَ تكون في إيصال الخير، فالمعنى: أنَّه إذا لم يأخذكم مع ما فيه، فإنَّما رأفَتُه تَقيكُم، ورَحْمَتُه تحميكُم[3]، فقُدِّمَتِ الرّأفةُ على الرّحمة؛ لأنّ السَّلامةَ تكونُ أوّلًا، ثمّ تكون الغنيمة[4].

الدَّلالةُ البلاغيّة في ترتيب أنواع العذاب:

ذِكـرُ الـعـذابِ الـتَّـدريـجـيّ؛ لـيـهـتـديَ الـمـخـاطـبـون الـمـقـصـودون بالتَّهديد

العذابُ التَّدريجيّ في هذه الحالات، يكون لاحتمال أن تهتديَ

(1) السِّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 2/ 312.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 535.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 39.
(4) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 95.

هذه المجموعةُ، واللّه ﷻ لا يريد أن يعاملَ هؤلاء كالباقين: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾، ومِنَ المُلْفِتِ للنَّظر في الآيات موردِ البحثِ: ذِكْرُها لأربعة أنواعٍ مِنَ العذاب الإلهيّ؛ الأوَّل: الخَسْف، الثّاني: العِقاب المُفاجئ الّذي يأتي الإنسانَ على حين غرّة مِن أمره، الثّالث: العذابُ الّذي يأتي الإنسانَ وهو غارقٌ في جمع الأموال وتَقَلُّبه في ذلك، الرّابع: العذابُ والعقاب التَّدريجيُّ، والمُسَلَّم به أنَّ نوع العذاب يتناسب ونوعَ الذَّنبِ المُقْتَرفِ، وإنْ وردت جميعُها بخصوص ﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، لعِلْمنا أنّ أفعالَ اللّه لا تكون إلّا بحِكْمة وعَدْلٍ.

وقد اختصَّ النَّوعُ الأوَّلُ مِنَ العقاب بأولئك المُتآمِرين، الّذين هم في صَفِّ الجَبّارين والمُستكبرين، كقارونَ الّذي خَسفَ اللّه تعالى به الأرضَ، وجَعلَه عبرةً للنّاس، مع ما كان يتمتَّع به مِن قُدرة وثَروة.

أمّا النَّوع الثّاني: فيَخُصُّ المتآمِرين الغارقين بمَلَذّات معاشِهم وأهوائِهم، فيأتيهمُ العذابُ الإلهيُّ بغتةً وهم لا يشعرون.

والنَّوع الثّالث: يَخُصّ عبَدَةَ الدُّنيا، المَشغولين في دُنياهم ليلَ نهار، ليضيفوا ثروةً إلى ثروتهم، مهما كانت الوسيلة، حتّى وإنْ كانت بارتكاب الجرائم والجنايات، وصولًا إلى ما يطمحون إليه! فيعذّبُهمُ اللّه تعالى وهم على تلك الحالة.

وأمّا النوع الرّابع مِنَ العذاب: فيَخُصُّ الذين لم يَصِلوا في طُغيانهم ومَكرهم وذنوبِهم إلى حيثُ اللّارجعةُ، فيعذبُهم اللّه بالتَّخويف، أيْ: يُحَذّرُهم بإنزال العذابِ الأليم في أطرافهم، فإنِ استيقظوا فهو المَطلوب، وإلّا فسينزلُ العذابُ عليهم ويهلِكُهم؛ وعلى هذا، فإنَّ ذِكْرَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ الإلَهيَّة، يرتبط بالنَّوع الرّابع مِنَ الّذين مَكَروا السَّيئات، الّذين لم يقطعوا كُلَّ علائقِهم معَ اللّه، ولم يُخرِّبوا جميعَ جُسورِ العَودة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّأفةُ والرَّحمة:

الرّحمةُ والرّأفةُ كلمتان متقاربتان في المعنى، إلّا أنَّ بينَهما فروقًا لطيفة، فالرّأفةُ: رِقَّةٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 212، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 390، والشِّربينيّ، السراج المنير: 2/ 262.

الرّأفة رِقَّةٌ تنشأ عند حدوث ضُرٍّ بالمرؤوف به، والرّحمةُ رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ لمَن يُرحَم

تنشأ عند حدوث ضُرٍّ بالمَرؤوف به، يُقال: ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: 128]، والرّحمةُ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ للمَرْحوم[1].

ويُفَرَّقُ بينَ الرَّأفة والرَّحمة أيضًا، بأنَّ الرَّأفة مُبالغةٌ في رحمة خاصَّة، وهي دَفْعُ المكروهِ، وإزالةُ الضَّرَرِ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النّور: 2]، أي: لا تَرأفوا بهما، فترفعوا الجَلْدَ عنهما، وأمّا الرّحمةُ فإنَّها اسمٌ جامِعٌ، يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخلُ فيه الإنعام[2].

والرّأفة أيضًا: هي أن يَدْفَعَ عنكَ المَضارَّ، والرَّحمةُ أن يوصِلَ إليك المَسارَّ.

فالرَّأفة مِن باب التَّخْلية، والرَّحمة مِن باب التَّزكية، والرَّأفةُ مبالغةٌ في رحمةٍ مخصوصة، فهي أشدُّ الرّحمةِ، وهي رفع المكروه، وإزالة الضُّر، فذِكْرُ الرَّحمةِ بعدَها في القرآن مُطَّردًا؛ لتكون أعمَّ وأشملَ[3].

فبينَهما عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَق، فالرّأفةُ خاصّةٌ في دَفْعِ المكروهِ عنِ المرحوم، بينما الرَّحمةُ تشمل هذا المعنى وغيرَه.

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 239.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/ 93.
(3) الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 471.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨﴾ [النّحل: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ طواعيَةِ ما خلق الله مِنَ المخلوقات السّاجدة الخاضعة، بعد ذِكْرِ مَن تكبّر واستنكف

لمّا ذَكَرَ ﷻ قدرتَه على تعذيب الماكرين، وإهلاكِهم بأنواعٍ مِنَ الأخذ، ذَكر طواعيَةَ ما خَلَقَ مِن غيرِهم، وخضوعَه ضِدَّ حالِ الماكرين؛ ليُنَبِّهَهُم على أنَّه يجب عليهم أن يكونوا طائعين مُنقادين لأمره سبحانَه، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ الآية[1]، فبعدَ أن أنذرهم، انتقل إلى دلالة مِن حال الأجسام الّتي على الأرض، مشعرةً بخضوعها للّه تعالى، خضوعًا مُقارِنًا لوجودها وتَقَلُّبِها آنًا فآنًا، عَلِمَ بذلك مَن علمه، وجهله من جهله[2]، وفي ذلك ترغيبٌ لهم أن يوافقوا الأشياءَ، فلا يشذّوا عنها، وأن يُشاركوا الملأ الأعلى بكمالاته.

وكذلك لمّا خوّف ﷻ المُشركين، بالأنواع الأربعة المذكورة مِنَ العذاب، أردفه بذِكْرِ ما يَدُلُّ على كمال قُدرته، في تدبير أحوال العالم العلويّ والسُّفليّ، وتدبير أحوالِ الأرواح والأجسام، ليَظهرَ لهم أنَّه مع كمال هذه القُدْرة الباهرة، والقوّة غيرِ المتناهية، لا يَعْجَزُ عن إيصال العذاب إليهم، على أحد تلك الوجوه والأحوال[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرَوۡاْ﴾: أصلُ (رأى): يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَيْنٍ أو بَصِيرَةٍ، فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأمرِ، وجَمعُهُ الآراءُ[4]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئِيِّ، وذلك أضربٌ بحسب قِوَى النَّفس؛ الأوَّلُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 535.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 168.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 213، والقنّوجيّ، فتح البيان: 7/ 251.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رأى).

بالحاسَّة وما يجري مجراها، نحو: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التّكاثر: 6 - 7]، والثّاني: بالوَهْمِ والتَّخيُّل، نحو قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 50]، والثّالث: بالتّفكُّر، نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال: 48]، والرّابع: بالعَقل، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النّجم: 11]، والرَّأْيُ: اعتقادُ النَّفس أحدَ النَّقيضين عن غلبة الظَّنِّ، وعلى هذا قولُه: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرَى في المنام[1]، والرُّؤْيَةُ بِالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ، والمقصود بالإراءَة في الآية: إراءَةٌ بصريَّة، والـمُرادُ: رُؤيةُ ما خلَق اللّٰهُ تعالى مِنَ الأشياء ذواتِ الظِّلال[2].

2) ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾: أصلُ الفَيْءِ: الرُّجوعُ، يُقال: فاءَ يَفِيءُ فيْئًا، أي: رَجَعَ، ومِنْهُ: قِيل لِلظِّلِّ الذي يكون بعد الزَّوالِ فيْئًا؛ لأنَّهُ يَرْجِعُ مِن جانِبِ الغَرْبِ إلى الشَّرْقِ، ويُقال له أيضًا: التَّبَعُ؛ لأنَّه يَتْبَعُ الشَّمسَ، ومنه سُمِّيَ المالُ الذي رَدَّهُ اللّٰهُ على أهلِ دِينِه مِن أموالٍ فيْئًا؛ لأنَّهُ رَجَعَ إلَيْهِم بلا قِتالٍ[3]، والجَمعُ: أفياءٌ وفُيوءٌ[4]، وتفيّأ بالشّجرة: استظلّ بها[5]، والتّفيّؤ تفعّلٌ مِنَ الفيء، وهو الظّل بالعشيّ، وتفيّؤ الظّلال: رجوعُها بعدَ انتصاف النّهار، والتّفيّؤ لا يكون إلّا بالعشيّ، والظّلّ بالغداة، وهو ما لم تنله الشّمس[6]، وتَفَيُّؤُ الظِّلالِ في الآية مقصود به: تَنَقُّلُه مِنْ جِهاتٍ، بعْدَ شُروقِ الشَّمسِ، وبَعْدَ زَوالها[7].

3) ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾: أصلُ (ظلّ): يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغَيرِه، تَقولُ: أظَلَّتْنِي الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَلِيلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[8]، ومِنَ البابِ قَولُهُم: ظَلَّ يَفْعَلُ كذا، وذلك إذا فعَلَهُ نَهارًا، وإنَّما قُلنا إنَّهُ مِنَ البابِ، لأنَّ ذلكَ شَيءٌ يُخَصُّ بِهِ النَّهارُ، وذلك أنَّ الشَّيءَ

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/ 496.
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (فيأ).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فيأ).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فيأ).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فيأ).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 169.
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).

يكونُ له ظِلٌّ نهارًا، ولا يُقالُ: ظَلَّ يَفْعَلُ كذا ليلًا؛ لأنَّ اللَّيلَ نَفْسَهُ ظِلٌّ[1]، والمقصود بـ (الظلّ) في الآية: صُورَةُ الجِسْمِ المُنْعَكِسِ إِلَيْهِ نُور[2].

4) ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾: أصلُ (شَمَلَ): يَدُلُّ على الجانبِ الَّذي يُخالِفُ اليَمِينَ. مِن ذلكَ: اليَدُ الشِّمالُ[3]، ومِنْهُ: الرِّيحُ الشَّمال: ريحٌ تَهُبّ مِن قِبَلِ الشّام، عَن يسار القِبلة، والشَّمألُ لغةٌ فِيها، وقد شَمَلَتْ تَشْمُلُ شُمولًا، وأَشْمَلَ يومُنا، إذا هَبَّتْ فِيهِ الشّمال، وغَدِيرٌ مَشْمول: شَمَلَتْه ريحُ الشّمال، أي: ضَرَبَتْهُ فبَرَدَ ماؤُه[4]، والمقصود بـ ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ في الآية: جَمعُ شِمالٍ، وهيَ الجِهَةُ الَّتي تَكونُ شِمالًا لِمُسْتَقْبَلِ مَشْرِقِ الشَّمسِ، وهو جَمعٌ على غَيْرِ قِياسٍ، والمرادُ بِهِ: إيضاحُ الحالَةِ العَجِيبَةِ للظِّلّ، إذْ يكونُ عَنْ يمينِ الشَّخْصِ مَرَّةً، وعن شِمالِهِ أُخْرى، أي: إذا اسْتَقْبَلَ جِهةً ما، ثمَّ اسْتَدبَرها، وليس المُرادُ خُصوصَ اليمِينِ والشِّمالِ، بَلْ كذلكَ الأمامُ والخَلْفُ، فاخْتُصِرَ الكلامُ[5].

5) سُجَّدًا: (سجد): أصلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ. يُقالُ: سَجَدَ، إذا تَطامَنَ، وكُلُّ ما ذَلَّ فقَدْ سَجَدَ، وأَسْجَدَ الرّجلُ: إذا طَأْطَأَ رأسَهُ وانحَنى، وسَجَدَ إذا وضَعَ جَبهتَهَ بِالأرْضِ[6]، وجعل ذلك عبارةً عنِ التّذلّل للّه وعبادته، وهو عامّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان: سجود باختيار، وليس ذلك إلّا للإنسان، وبه يستحقّ الثّوابَ، نحو قوله: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ۩ ٦٢﴾ [النّجم: 62]، وسجود تسخير، وهو للإنسان، والحيوانات، والنّبات، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأٓصَالِ۩ ١٥﴾ [الرّعد: 15][7]، والمقصود بالسّجود في الآية: سجود تسخير، وهو الدّلالة الصّامتةُ النّاطِقةُ المُنبِّهةُ على كونها مخلوقةً، وأنَّها خَلْقُ فاعلٍ حكيم[8].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 111.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شمل).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شمل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 169.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سجد).
(8) الرّاغب، المفردات: (سجد).

6) ﴿دَاخِرُونَ﴾: أي: صاغرون أذلّاء[1]، وأصل (دَخَرَ): يَدُلُّ على الذُّلِّ، وتَغَلْغُلِ الضَّعفِ والرَّخاوةِ في الشَّخص، فلا يكون فيه شدَّةٌ ولا عِزّة، ويدلّ الدُّخور على الانقياد والطّاعة، وعدم الاستعصاء[2]، ودَخَر الرَّجلُ وهو داخِرٌ: إذا ذَلَّ، وأَدْخَرْتُه: أذلَلْتُه[3]، والمعنى هُنا: خاضعون لعظمة اللّه تعالى، بما فيهم مِنَ التَّسخير، ودلائل التَّيسير[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إخبار الله عن عظمته، وبسطِ قُدرته على مخلوقاته الخاضعةِ له طوعًا أو كرهًا

في الآية الكريمة وعيدٌ للمشركين، واتّهام لعقولهم الضّالَّةِ المُظلِمة، الَّتي أخرجتْهُم عن نظامِ الوجودِ كلِّه، فكانوا نغمًا نشازًّا، لا يتناغم مع لَحْن الموجودات، المُسَبِّحة بحمد اللّهِ ربّ العالمين، أولَم يَنظُرْ هؤلاء - الذين مَكَروا السَّيِّئاتِ - إلى مخلوقاتِ اللّهِ القائمةِ التي لها ظِلٌّ، كالأشجارِ والجِبالِ وغَيرِها، تَرجِعُ ظِلالُها مِن مَوضِعٍ إلى آخَرَ، فتَميلُ ذاتَ اليَمينِ أوَّلَ النَّهارِ، وذاتَ الشِّمالِ في آخِرِه، مُنقادَةً لأمرِه، خاضِعةً لِعَظَمتِه، بمَيَلانِها ودَوَرانِها مِن جانبٍ إلى جانبٍ آخَرَ، وهم صاغِرونَ تحتَ تَسخيرِه وتَدبيرِه وقَهْرِه سُبْحانَه[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ﴾:

الإنكار على المشركين في عدم تَفَكُّرِهم، اتِّهامًا لعقولهم الضّالَّةِ المُظلِمَة

يَخْرُجُ الاستفهام عن إرادة طلب الإفهام والإعلام، إلى معانٍ أخرى؛ إذ حقيقةُ الاستفهام مُستحيلةٌ على اللّه تعالى.

وفي هذه الآية الكريمة، خرج الاستفهام عن حقيقته إلى الإنكار، فجاء الاستفهام إنكاريًّا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ﴾، والمعنى: قد رأوا

(1) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 243.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دخر).
(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (دخر).
(4) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 2/ 484، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 239، 442، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 199، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 442.

أمثالَ هذه الصَّنائعِ، فما بالُهم لم يتفكَّروا فيها؟ ليظهرَ لهم كمالُ قُدْرتِه وقَهْرِه، فيَخافوا منه[1].

فالاستفهام إنكارُ عَدَمِ تَفَكُّرِهم، بمعنى: أنَّه لا ينبغي أن يقع، وظاهره إنكارُ عدمِ رؤيتِهم، لكنَّ المُرادَ إنكارُ لازِمِه، وهو التَّفكُّر[2].

ولمّا كان الاستفهامُ الإنكاريّ راجعًا إلى تنبيه السّامعِ حتّى يرجعَ إلى نفسه، فيخْجَلَ ويَرتَدِعَ[3]، جاء هُنا مَشوبًا بالتَّوبيخ؛ لينكرَ على هؤلاء عدمَ اعتبارِهم بالرُّؤية الّتي رأوْها رأيَ البَصرِ، مِن سجود الظِّلالِ للّه تعالى، ومع هذا لم يَعْتَبِروا.

فالاستفهامُ هُنا معناه التَّوبيخُ، ويجوز أن يكون معناه التَّعجُّبَ، والتَّقديرُ: تعجَّبوا مِن اتّخاذهم معَ اللّه شريكًا، وقد رأوا هذه المَصنوعاتِ الّتي أظهرت عجائبَ قُدرتِه، وغرائبَ صُنْعِه، مع علمهم بأنَّ آلهتَهم الّتي اتّخذوها شركاءَ لا تَقْدِرُ على شيءِ البتَّة[4].

بلاغةُ العطفِ على الجُملة المحذوفة المقدّرة:

بيانُ غفلتِهم وعنادِهم، مع ما يَرونَهُ مِن دلائل القُدرَة القاهرة

الواو في ﴿أَوَلَمۡ﴾ عاطفةٌ على محذوف مُقَدَّر يقتضيه السِّياق، تقديره: (يفعلون ما يفعلون، معاندينَ مُجاهِرين بالعصيان، ولم يروا ما خَلَق اللّه مِن شيء)[5]، فقد رأوا أمثالَ هذه الصَّنائعِ، فما بالُهم لم يتفكّروا فيها، ليظهر لهم كمالُ قدرتِه، وقَهْرِه، فيخافوا منه[6]، فذَكر تعالى طواعيَةَ ما خَلَقَ مِن غيرهم وخضوعَهم، إشارةً إلى ضِدَّ حالِ الماكرين، وليُنَبِّهَهُم على أنَّه ينبغي، بل يجب عليهم، أن يكونوا طائعين مُنقادين لأمره[7].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 228، والمظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/ 343.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 285.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 151.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 536.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4189.
(6) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 592.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 535.

دلالةُ (الرُّؤية) مادَّةً وصيغةً:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ المقصودُ بالرُّؤية: البَصريَّة، أي: إنَّ الكُفّار رَأوا هذه القُدْرَةَ الإلهيَّةَ بعيون رؤوسهم، وعَقَلوا حقيقةَ ما رَأوا، ولكنَّهم لم يتَّعِظوا، ومِن هُنا يأتي الإنكارُ عليهم، فهم رَأوا، ولكن كأنَّهم لم يروا[1]، ولمّا كانت هذه الرُّؤية بمعنى النَّظر، وُصِلَتْ بـ ﴿إِلَىٰ﴾؛ لأنَّ المُرادَ منها الاعتبارُ، وذلك الاعتبارُ لا يتأتَّى إلّا بنفس الرُّؤية الّتي يكون معها النَّظر إلى الشَّيءِ؛ لتَدبُّره والتَّبصُّرِ فيه، والتَّأمُّلِ بمَغابِّه وعواقبه[2].

الإشارة إلى الرُّؤية البصريَّة، المفضيةِ إلى الرّؤية القلبيَّة

بلاغة توجيه القراءة المتواترة:

قرأ جمهور القُرّاء: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ بالياء، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَف: (أوَلَم تَرَوْا) بالتّاء على الخطاب، على طريقة الالتفات[3]، فلمّا كان حَقُّهم المبادرةَ بالتَّوبة، فلم يفعلوا، أَعْرَضَ عنهم في قراءة الجماعة تخويفًا، فقال تعالى: ﴿يَرَوۡاْ﴾ بالياء، أمّا في قراءة حمزة والكسائيّ وخَلَف بالخطاب، فهي إمّا على العموم للخَلْقِ، استُؤنف به الإخبار، وإمّا على معنى: (قُل لهم) إذا كان خطابًا خاصًّا[4]، فتأنيث الفعل لأجل أنّ فاعله جماعةٌ، والجماعة مُؤَنَّثةٌ، وتذكيرُه من أجل أنَّهُ مُتقدّم، وفاعلُه غيرُ حقيقيّ التَّأنيثِ؛ لكونه جمعًا، وتأنيثُ الجمعِ غيرُ حقيقيٍّ[5].

الإعراضُ عنِ المشركين تخويفٌ وزَجرٌ؛ وتعميمُ الخطابِ تنبيهٌ لعموم الخَلْق

دلالةُ عَوْدِ واوِ الجماعة في ﴿يَرَوۡاْ﴾:

يَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿يَرَوۡاْ﴾، لقوم قد تقرَّر عندَهم وثبت أنَّ كُلَّ شيءٍ يَسْجُدُ لله ويَخْضَع له، فقال ذلك لهم على العِتاب: إنَّكم قد علمتم أنَّ كُلَّ شيءٍ لم يُرَكَّب فيه العقلُ، ولم يُجْعَل

الدَّعوة إلى التَّفكُّر في المخلوقات؛ عتابٌ وتوبيخٌ لمن عَبَدَها مِن دون الله

---

(1) القدوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 97.

(2) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 5/ 311، ملا حويش، بيان المعاني: 4/ 227.

(3) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 304، والمظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/ 343.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 172، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 535.

(5) خواجَه أنصاريّ، كشف الأسرار: 5/ 390.

فيه الفهمُ والسَّمعُ، يخضعُ للّه ويُسَبّح له، فأنتُم لا تخضعون له، مع ما رُكّبَ فيكم مِنَ العقول، وما جُعِلَ فيكم مِنَ الأفهام وغيرها.

ويَحْتَمِل أنَّه على الأمر؛ أي: اعلموا أنَّ كُلَّ شيءٍ مِن خَلْقِ اللّهِ يَسجُد له ويَخْضَع، وقد أقام عليهم الحُجَّةَ على ذلك، ما لو تأمَّلوا وتفكَّروا لعلموا أنّ كلّ ذلك يخضع ويُسَبِّح، وإلّا فظاهر قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾، أنْ يقولوا: (لم نَرَ)، إن كان الخطابُ لأهل مكّة، على ما ذكرَهُ أهلُ التَّأويل[1]، لكن يُخَرَّج على هذين الوجهين، ويُشبه أن يكون ذِكْرُ قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ الآية، لمّا استوحش أهلُ الإسلامِ مِمّا عَبَدَ أولئكَ الكَفَرةُ مِنَ الأصنام، ومِن عظيمِ ما قالوا في اللّه سبحانه، فقال لذلك: (أَوَلَمْ يَرَوْا إلَى كذا)[2]، وقد أراهمُ اللّهُ سبحانَه في هذه الآية الكريمة، صورةً محسوسة لهذا الوجود، وقد سجد فيه كلّ موجودٍ، ولاءً للّه، وخشوعًا لجلاله وعظمتِه، فما خَلَقَ اللّهُ مِن شيءٍ يرونه في عالم الجماد، أوِ النّبات، أوِ الحيوان، إلّا كان له ظِلٌّ، يتبعُه، ساجدًا على الأرض، سجودَ العابدين الخاشعين، في ذلّة وانكسار للّه الواحد القهّار[3].

دلالةُ تَعَدّي الفعلِ ﴿يَرَوۡاْ﴾ بحرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾:

الإشـارة إلى بُعْدِهم عنِ المعارف الإلهيّة، ومواضعِ التَّدبُّرِ فيها

لمّا كانتِ الرُّؤيةُ ها هُنا بمعنى النَّظر، وُصِلَتْ بـ ﴿إِلَىٰ﴾؛ لأنَّ المُراد بِهِ الاعتبار، والاعتبارُ لا يكون بنفس الرُّؤية، حتَّى يكونَ معها نظرٌ إلى الشَّيء، وتأمُّلٌ لأحواله[4]، ولكن لَمّا غَفَلوا عنِ الاعتبار، بَيَّنَ بُعدَهم عنِ المعارف الإلَهيَّة، بحرف الغاية ﴿إِلَىٰ﴾، فقال تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾[5].

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 40، والهرريّ، حدائق الرَّوح: 15/ 244.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/ 511.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 304.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 213.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 172.

فائدة الاسم الموصول ﴿مَا﴾:

أهميّة الأشياءِ المحسوسة الّتي تُنبِئ عن عَظَمة خالقِها

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾، إشارةٌ إلى تلك الأشياء المَحسوسةِ، الّتي يُحَدِّثُ جِسْمُها عنها، ويُنبئُ عن وجودها، فهي ليست مِن عالم المعقولات، ولهذا كان لها ظلٌّ، لِما فيها مِن كثافة[1].

فائدة حرف الجَرِّ ﴿مِن﴾:

بيانُ ماجرى عليه الوصفُ، وتأكيدُ خضوعِ كُلِّ المخلوقات لخالقها

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾، بيانٌ للإبهام الّذي في ﴿مَا﴾ الموصولة، وإنَّما كان بيانًا باعتبار ما جرى عليه مِنَ الوصف، بجملة ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ الآية[2]، فـ ﴿مِن﴾ بيانيَّةٌ، وقد تُفيد الاستغراقَ، وهي مِن حروف التَّوكيد، تأكيدًا على أنَّ كلّ شيءٍ خاضعٌ للّه ﷻ[3].

دلالةُ تنكيرِ ﴿شَيۡءٖ﴾:

إفادةُ العمومِ في كُلِّ شَخْصٍ وجِرْمٍ له ظِلٌّ مِن جمادٍ أو نبات

قوله تعالى: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ المعنى: أيّ شيءٍ كان، ولو صغيرًا، فـ ﴿شَيۡءٖ﴾ لفظ عامٌّ في كُلِّ شَخْصٍ وجِرْمٍ له ظِلٌّ، كالجبال والشَّجر وغيرِ ذلك[4]مِنَ الأشياء الكثيفة، مِنَ الجبال والأشجار، سواءٌ كان جمادًا أو نباتًا[5].

كما أبهمَ النَّظمُ الكريمُ بـ﴿شَيۡءٖ﴾ بعدَ الإبهام بـ﴿مَا﴾، ليَصِفَهُ بقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾، فهو تمهيدٌ لما بَعْدَهُ، كأنَّه قيل: أولم يَرَوا إلى المَخلوق الثّابت الأصل، الّذي له ظِلٌّ، كَشَجرٍ وجَبَلٍ وجِدار[6].

بلاغةُ توجيهِ القراءة المتواترة:

الإشارةُ إلى أنّ الظِّل شيءٌ واحد، ولكنَّه في الفعل والحركة جمعٌ

قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾، قرأ أبو عمرو البصريّ ويعقوب بالتّاء على التَّأنيث، وقرأ الباقون بالياء على التَّذكير[7]، وجاء في

---

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 304.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 168.
(3) القدوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 97.
(4) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/ 426.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.
(6) أطفيّش، تيسير التّفسير: 7/ 429.
(7) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 304.

اللّغة: (يتفيّأ ظلّه)، و(تتفيَّأ ظلاله)، بمعنى أنَّه إذا أُفْرِد الفاعل جاء الفعلُ مُذكَّرا، وإذا جُمِعَ الفاعل، جاء الفعل مُؤَنَّثًا، ولكنَّه في النَّظم القرآنيّ، جمع بين الأمرين، فجاء بالفعل مُذَكَّرًا، وبالفاعل جمعًا، وهذا مِن إعجاز القرآن الكريم، إذ دَلَّ بهذا على أنَّ الفاعل، وهو (الظِّلُّ)، مُفرد في أصله، وهو شيء واحد، ولكنَّه في أفعاله وحركاته بين القبض والبسط، والتَّحرُّك مِن يمينٍ إلى شمال، يكون ظِلالًا، لا ظِلًّا واحدًا، فهو جمع في واحد، وواحد في جمع!! وهذا بيان لا يكون إلّا في كلمات اللّه، وفي كتابه المُبين[1].

دلالة الصِّيغة (فيء)، والتَّعبير عنها بالمضارع:

تضمينُ الفعلِ معنى المُجاوزة، وتَجَدُّدُ تفيُّؤِ الظِّلال، واستمرارُ تَنَقُّلها مِن جهات

التَّفيّؤ: تَفَعُّل، مِن فاء الظِّلُ فيئًا، أي: عاد بعد أن أزالَه ضوءُ الشَّمس، وأصلُه: مِن فاء، إذا رجع بعد مغادرة المكان، وتَفَيّؤُ الظِّلال: تَنَقُّلها مِن جهات بعد شروق الشَّمس وبعد زوالها، فهي ترجع شيئًا فشيئًا مِن جانب إلى جانب، وتدور مِن موضع إلى موضع، حسبما تقتضيه إرادةُ الخالق، فإنَّ التَّفيُّؤَ مُطاوِعُ الإفاءة[2]، فالتَّعبيرُ بـ (فيء) ليُضَمِّنَها معنى المجاوزة، أي: إن تُجاوز إلى اليمين، أو تُجاوز إلى الشَّمائل، فتكونُ أفياء[3]، وصيغة المضارع، تدلُّ على تَجدُّدِ هذا الدَّوران واستمرارُه.

تخصيصُ الظِّلال بالذِّكر دونَ غيرِها، مِن مظاهر الحركة:

الإشارةُ إلى مُلازمة الظِّلِّ للذَّوات، والإنباءُ عن سُرعة تَغيُّرِها، الدّالِ على قُدرة مُغيِّرِها

خُصَّ الظِّلُّ بالذِّكر لسُرعة تغيُّره، والتَّغيُّرُ دالٌّ على المُغَيِّر[4]، وأنبأ عنه لسانُ الحالِ بالنِّسبة لما لا عِلَم له، وهو ما خلق اللّهُ عليه النِّظامَ الأرضيَّ، خَلْقًا يَنطِق لسانُ حاله بالعُبوديَّة للّه تعالى، وذلك في أشَدِّ الأعراضِ ملازمةً للذَّوات، ومُطابقةً لأشكالها، وهو الظِّلُّ[5].

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 304.
(2) البغويّ، معالِم التَّنزيل: 3/ 81، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 40.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4189.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 173.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 168.

دلالةُ الجمعِ في لفظ ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾:

الإشـارةُ إلى تَعَدُّدِ الظِّلال، بتعدُّد شُخوصها

جَمَعَ النَّظمُ الكريمُ الظِّلالَ؛ لأنَّ ذلك صفةٌ لما عَرَض، والعِبرة في جميع الأشخاص الَّتي لها ظلٌّ[1]؛ لأنَّ الظِّلال مُتعدِّدة بتعدُّد المخلوقات، فـ ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ جَمعٌ مِن جهة المعنى، وإضافةُ الظّلال إلى ضمير المُفرَد، لأنَّ مرجعُه وإن كان مُفردًا في اللَّفظ، لكنَّه كثير في المعنى[2].

إفراد هاء الضّمير، في لفظ ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ ودلالته:

مُراعاةُ اللَّفظِ السّابق، وإنْ كان في المعنى مُتعَدِّدًا

أفرد النَّظم الكريم الضَّمير المضاف إليه (ظلال)؛ مُراعاةً للّفظ ﴿شَيۡءٖ﴾، وإن كان في المعنى مُتَعدِّدًا، وباعتبار المعنى أُضيف إليه الجمع[3]، فجاء المعنى: أنّ ما خَلَقَ اللّٰه مِنْ جسم قائم، فإنّ له ظِلًّا يَتَفَيَّأ عَنِ اليَمينِ والشَّمائِلِ، في انقيادٍ تامٍّ للّٰه، حسبَ مشيئَتِهِ في الامتداد والتّقلّص وغيرِهما مِنَ الظّواهر الطّبيعيّة المأنوسة، في كون اللّٰه المعجز البديع[4].

فائدة حرف الجرّ ﴿عَنِ﴾، ودلالته البلاغيّة:

تَضَمُّنها معنى الظَّرفيَّة، مع معنى المجاوزة الأصليّ

يصحّ أن تكون ﴿عَنِ﴾ اسمًا بمعنى جانبٍ، فعلى هذا تنتصب على الظَّرف؛ لأنَّ الظّلّ يكون أوّلَ ما تُشرق الشَّمسُ مُستقيمًا إلى تلك الجهة على استواء، وكلَّما ارتفعت تَحَوّلَ ذلك الظِّلُ راجعًا إلى جهة ما وراءَ الشّاخِص، ولا يزال كذلك إلى أن ينتصب عند الغروب إلى جهة يساره قصدًا، على ضِدِّ ما كان انتصب إليه عند الشُّروق، فلمّا كان بعد انتصابه إلى جهة اليمين، طالبًا في تفيّئه جهةَ اليسار، سُمّيت تلك الجهات الّتي تفيّأ فيها باسم ما هو طالبه، تنبيهًا على

(1) ابن عطيّة الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز: 3/ 397.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 169.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 376.

ذلك[1]، ويصحُّ أن تتعلَّق (عن) بـ ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾، ومعناه المُجاوزة، أي: تتجاوزُ الظِّلال عنِ اليمين إلى الشَّمال[2].

نُكْتَةُ تقديمِ ذِكْرِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ على ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾:

بيانُ الواقعِ والحالِ، والتَّنبيهُ على شَرَفِ اليَمين

يُحتمَل أنَّ التَّقديم لـ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ إنَّما هو لشرفه، ويُحْتمَل أنّ الابتداء بحسب الحال والواقع، فإنَّ الظِّلَ يَبْتَدِئ مِنَ اليمين، ثُمَّ ينقبض حالًا فحالًا عنِ الشَّمائل[3].

وإنَّما عبَّر عنِ المَشْرِق باليمين، لأنَّ أقوى جانبي الإنسانِ يمينُه، ومنه تظهر الحركةُ القَوِيَّة، وكذا جانب الشَّرقِ أقوى جوانبِ الفَلَك، ومنه تظهر الحركةُ اليوميَّةُ الّتي هي أسرع الحركاتِ وأقواها، ويمكن أن يُقال: إنَّ الإنسان إذا توجَّه إلى الشَّرق الّذي هو أولى الجوانب بالاعتبار لشرفه، كان الجنوبُ يمينَه والشَّمالُ شمالَه، ولا ريبَ أنَّ وصولَ الشَّمسِ إلى فلَكِ نصفِ النَّهار يختلف بحسب البلاد[4].

سِرُّ التَّفنُّن بإفراد ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾، وجمع ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾:

بيانُ تبعيَّةِ كلٍّ منهما للجنس والغاية، في كلٍّ منهما

أمّا عنِ التَّفنُّن في العبارة، فهو بإفراد اليمين، وجمع الشَّمائل، وقد أفرد اليمين لأنَّ المُراد به جنس الجهة، كما يُقال المَشرق، وجمعَ الشَّمائل مُرادًا به تَعدُّدُ جنسِ جِهة الشَّمال، بتعدُّد أصحابها، فإذا وحَّد اللَّفظَ ذهب إلى واحد من ذوات الظِّلال، وإذا جمع ذهب إلى كُلِّها[5]؛ لأنَّ قوله: ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾، لفظه واحد، ومعناه الجمع، فعَبَّر عن أحدهما بلفظ الواحد، كقوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]، فالمُخالفة بالإفراد والجمع تَفَنُّنٌ[6]، وكذلك من شأن العرب في اجتماع العلامتين الاكتفاءُ بواحدة، كقوله تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 173.
(2) العكبريّ، التِّبيان في إعراب القرآن، ص: 230، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 5/ 311.
(3) النَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 2/ 483.
(4) نظام الدّين النّيسابوريّ، تفسير غرائب القرآن: 4/ 266.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 102.
(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 397، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 169.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 7]، وقيل: اليمين يرجع إلى قوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾، ولفظ (ما) واحد، والشَّمائل: يُرجع إلى المعنى[1]، فصَدَق على كُلِّ حال لفظ الشَّمائلِ، فتَعَدَّد بتعدُّد الحالات، وأيضًا أُفرد اليمين وجُمِع الشَّمائل بالنَّظر إلى الغايتين؛ لأنَّ ظِلَّ الغَداة يَضْمَحلّ حتَّى لا يبقى منه إلّا اليسيرُ، فكأنَّه في جهة واحدة، وهو بالعَشِيّ على العكس، لاستيلائه على جميع الجهات، فلُحِظَت الغايتان في الآية[2].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف، في التَّعبير عنِ الجهات:

إيضاحُ الحالةِ العجيبة للظِّلِّ، في تحوُّلِه وانتقالِه في كلِّ الجهات

وقع الإيجازُ بالحَذف، حيثُ كان الظّاهر أن يُقال: (عن جهات اليمين وجهات الشَّمائل)، وهذا الإيجازُ مقصودٌ به إيضاحُ الحالةِ العجيبةِ للظِّل، إذ يكون عن يمين الشَّخص مرَّة، وعن شماله أُخرى، وليس المرادُ خصوصَ اليمينِ والشِّمال، بل كذلك الأمامُ والخَلْفُ، فاخْتُصِر الكلامُ، فقولُه: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ المُراد جهتُهُما، وليس المُرادُ التَّقييدَ بذلك، إذ أنَّ الظِّلَّ أحيانًا يكون أمام الإنسان، وأحيانًا يكون خلفَه، وإنَّما ذُكِرَ اليمينُ والشَّمائل، اختصارًا للكلام[3].

بديع الطِّباق في ﴿ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، ودلالته:

الإيجازُ في الدّلالة على الجهات المُتقابلة، من فصيح البيان

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عنِ الجانبين المُقابِلَيْن باليمين والشِّمال، فقوله: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، أي: عنِ الجانب اليمين مِن ناحية الشَّرق، وعنِ الشَّمائل مِن جهة الغَرب، وذلك بالنِّسبة للكعبة، فما يكون على شرقيِّها يكون يمينًا، وما يكون عن غربيِّها يكون شمالًا[4]؛ فإذا طلعت الشَّمس وأنت متوجِّه إلى القبلة، كان الظِّلُّ قدّامك، فإذا ارتفعت كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك كان خلفَكَ، وإذا دنت

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 22.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 376، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 5/ 311.

(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 163.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4189.

للغروب كان على يسارك[1]، فحصل في الآية الكريمة، مُطابقةٌ في اللَّفظ معَ الإيجاز، وتلك الغايةُ في الإعجاز[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبير بـ﴿ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾:

تقريبُ صورة الظِّلال في حركتها وانتقالها، إلى ذهن السّامع

هذا النَّصّ المعجزُ الفريد، الجامعُ لفنون الفصاحة والبلاغة، اشتمل - فوقَ ما سبق - على الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، حيثُ شَبَّه فيها الظِلَّ حالةَ استدارته شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، بالإنسان، ثُمَّ حُذِفَ المُشَبّه به، ثُمَّ تنوسِيَ التَّشبيهُ، ثُمَّ أُثبتَ أنَّ المُشَبَّه داخلٌ في جنس المُشَبَّه به، وواحدٌ مِن أفراده، ثُمَّ استُعِيرَ له لفظٌ مِن لوازمه، وهي كلمة ﴿ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ الّتي لا تكون إلّا للإنسان، على جهة الاستعارة التَّصريحيّة الأصليَّة، ووجهُ الشَّبهِ كَوْنُ كلِّ واحد منها جانبًا[3]، وقد يكون وجهُ الاستعارة هُنا أنَّ اليمين والشَّمال يكونان في ذوي الشّعورِ لا في الجمادات، فاسْتِعْمالُها هاهُنا في الجمادات، إنّما هو على الاسْتعارَةِ المَبنيّة على تشبيهها بالإنْسان[4]، فالمُراد بـ ﴿ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ يمينُ الأجرام الّتي لها ظِلّ وشمائلُها، على الاستعارة التَّصريحيّة، أو على التَّخييل للمَكنيَّة؛ لأنَّ اليمين والشَّمال حقيقةٌ للإنسان والملائكة والجنّ والحيوان[5].

السِّرُ في ذِكْرِ سُجود الظّلالِ، مع ظهورِ دلائلِ خُضوعها:

التَّعريضُ بالكُفّار الّذين لا يسجدون لله، ولا ينقادون لشَرْعِه وهُداه

في معنى هذا السُّجود قولان؛ أحدهما: أنَّ المراد به الاستسلامُ والانقيادُ والخضوع، يُقال: سَجَدَ البعيرُ، إذا طَأْطَأَ رأسَه لِيُركَبَ، وسجدتِ النَّخلةُ، إذا مالت لكثرة الحمل، والمعنى: أنَّ جميعَ الأشياءِ الّتي لها ظِلال فهي مُنقادة لله تعالى، مُستسلِمَةٌ لأمره، غيرُ مُمتنعةٍ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 562.
(2) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 5/ 311.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 286.
(4) ابن التَّمجيد، حاشية ابن التَّمجيد على البيضاويّ: 11/ 286.
(5) اطفيّش، تيسير التَّفسير: 7/ 459.

عليه فيما سخَّرَها له مِنَ التَّفيُّؤ وغيرِه، والقول الثّاني في معنى هذا السُّجود: أنَّ الظِّلال واقعةٌ على الأرض، مُلتصقةٌ بها كالسّاجد على الأرض، فلمّا كانتِ الظِّلال يُشبِهُ شَكْلُها السّاجدينَ، أطْلَقَ اللّه عليها هذا اللَّفظ، وقيل: ظِلُّ كلِّ شيء ساجدٌ للّه، سواء كان ذلك الشَّيءُ يسجُد للّه أو لا، ويقال: إنَّ ظِلَّ الكافرِ ساجدٌ للّه، وهو غيرُ ساجدٍ للّه[1].

والفائدة في ذِكْرِ سُجود الظِّلال: التَّعريضُ بالكُفّار الّذين لا يسجدون للّه، والإخبارُ بأنَّ هذه الظِّلال خيرٌ منهم، فهي تعبُد اللّهَ سبحانَه، وهم لا يَعْبُدون[2]، فلمّا كانت كَثْرَةُ الخاضعين أدلَّ على القَهْر وأَهْيَب، جمع بالنّظر إلى معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿سُجَّدًا﴾ أي: حالَ كونِهم خُضَّعًا[3].

بلاغة استعارةِ لفظِ السُّجود، لمعنى الانقياد والخضوع:

الظِّلالُ الممتدّة، تعبيرٌ عن سُجود كلِّ موجودٍ، لخالق الوجود

قوله تعالى: ﴿سُجَّدًا﴾، أي: مُنقادَةً له تعالى، جاريةً على ما أراد مِنَ الامتداد والتَّقلُّص وغيرِهما، غيرَ ممتنعةٍ عليه سبحانَه فيما سَخّرها له، وهو المُراد بسجودها[4]، فنُشاهِدُ أنَّ الشَّمس إذا طلعت وقعت للأجسام الكثيفة ظلالٌ ممتدّة في الجانب الغربيّ مِنَ الأرض، ثُمَّ كُلَّما ازدادتِ الشَّمسُ طُلوعًا وارتفاعًا، ازدادت تلك الظِّلالُ تقلُّصًا وانتقاصًا إلى الجانب الشَّرقيّ، إلى أن تصل الشَّمسُ إلى وسطِ الفَلَك، فإذا انحدرت إلى الجانب الغربيِّ ابتدأتِ الظِّلال بالوقوع في الجانب الشَّرقيّ، وكُلَّما ازدادت الشَّمسُ انحدارًا، ازدادت الظِّلالُ تمدُّدًا وتزايدًا في الجانب الشَّرقيِّ، وكما أنّا نُشاهدُ هذه الحالةَ في اليوم الواحد، فكذلك نُشاهد أحوالَ الظِّلال مختلفة في التَّيامن والتَّياسر، في طول السَّنة، بسبب اختلاف أحوالِ الشَّمس

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 79.
(2) القدّوميّ، التَّفسير البياني، ص: 97.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 173.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.

في الحركة مِنَ الجنوب إلى الشَّمال، وبالعكس، فلمّا شاهَدْنا أحوالَ هذه الظِّلالِ مُختلفةً بسبب الاختلافات اليوميَّة الواقعة في شرق الأرض وغربِها، وبحسب الاختلافات الواقعة في طولِ السَّنَة، في يمين الفَلَك ويساره، ورأينا أنَّها واقعةٌ على وجهٍ مخصوص، وترتيبٍ مُعَيَّن، علمنا أنَّها مُنقادةٌ لقُدرة اللّه، خاضِعَةٌ لتقديره وتدبيره، فكانتِ السَّجدةُ عبارةً عن هذه الحالة، فثَبَتَ أنَّ المُراد بهذا السُّجود: الانقيادُ والتَّواضعُ، ونظيرُه قولُه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ [الرَّحمن: 6]، وقولُه: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ۝١٥﴾ [الرَّعد: 15][1]، فاستِعارةُ السُّجودِ للظِّلال بهذا المعنى استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّة، شُبِّهَ انقيادُ هذه المخلوقات بهيئة السّاجِد، والسُّجودُ يُستَعار في موضع الاستسلامِ والطّاعة والذُّل[2]، وقد أراهُمُ اللّه سُبحانه في هذه الآيةِ الكريمة، صورةً محسوسةً لهذا الوجود، وقد سَجَدَ فيه كلُّ موجودٍ، ولاءً اللّه للّه، وخُشوعًا لجلاله وعَظَمَتِه، فما خَلَقَ اللّه مِن شَيء يَرونَه في عالم الجَماد، أو النَّبات، أو الحيوان، إلّا كان له ظِلٌّ يتبعه، ساجدًا على الأرض، سجودَ العابدين الخاشِعين، في ذِلَّة وانكسار للّه الواحد القهّار[3].

دلالةُ صِيغَةِ الجَمعِ العاقل ﴿دَٰخِرُونَ﴾، بينَ الحقيقةِ والمجاز:

تسويغُ وصفِها بصفات العُقَلاء؛ لمُشابهتِها العقلاءَ في الطّاعة والانقياد

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾، أي: خاضعون، والدّاخِرُ: الصّاغِر الّذي يفعل ما تأمُرُه به شاء أم أبى، وذلك أنَّ جميعَ الأشياءِ مُنقادةٌ لأمر اللّه تعالى.

فإن قيل: الظِّلالُ ليست مِنَ العقلاء، فكيف عَبَّر عنها بلفظ مَن يعقل، وجمعَها بالواو والنّون؟

(1) البغويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 81، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 215.
(2) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 6/ 4006.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 304.

قيل: لمّا وصفَها اللّه ﷻ بالطّاعة والانقياد لأمره، وتلك صفةُ مَن يعقل، عَبَّر عنها بلفظ مَن يعقل[1]، واستُعير لفظُ الدُّخورِ لها بجامع الانقياد، ثمّ جمع بالواو والنّون ترشيحًا للاستعارة[2]، فالكلامُ على هذا المعنى مُخَرَّج على الاستعارة التَّصريحيّة الأصليَّة[3]، في تشبيهها بالعقلاء طاعةً وانقيادًا، أو لأنَّ العقلاءَ داخلون ضِمنَ المعنى، وهم الجِنس المقصودُ في الخطاب، فغُلِّبوا لأجل ذلك[4].

دلالةُ اختيارِ الجملةِ الاسميّة، والتَّعبيرِ بالدُّخور:

المبالغةُ في الوَصف مع الدّلالة على الدَّوام والاستمرار

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالدُّخور بقوله: ﴿دَٰخِرُونَ﴾، الّذي هو أبلغُ في الوَصف؛ لأنَّه انقيادٌ قَهْريٌّ مع صفة المُنقاد، واختيارُ الجملة الاسميَّة لدلالتها على الدَّوام[5]، والجملة الاسميّة: ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾، فيها ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: أنّها حالٌ مِنَ الهاءِ في ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾، على قول مَن يُجيز مجيئَها مِنَ المضاف إليه، والثّاني: أنّها حالٌ مِنَ الضّميرِ المُستَتر في ﴿سُجَّدٗا﴾، فهي حالٌ مُتداخِلةٌ، والثّالثُ: أنّها حالٌ مِنْ ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾، فينتصبُ عنه حالان[6]، ويفيد لفظ الدّخور في الجملة الحاليّة الخضوعَ والصَّغارَ، ولمّا وصفَها بالطّاعة والانقياد لأمره، وهي صفةُ مَن يعقل، عبّر عنها بلفظ مَن يعقل[7]، فكان التّعبير بالجملة الاسميّة، مناسبًا لدلالة السّياقِ وغَرضِه.

سِرُّ خَتْمِ الآية بالجملة الخبريّة، بعد افتتاحها بالاستفهاميَّة:

التَّفريقُ بينَ الأمر المحسوسِ المُعايَن، وبينَ الأمر المُغيَّب

قال تعالى في أوّل الآية: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾، مُفتتحًا بتلك الجملةِ استفهامًا على معنى التّقرير، وأتى في نهايتها

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 79.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 288.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 393.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 169.
(5) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 287.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 7/ 232.
(7) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 7/ 253.

بقوله: ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾، وكلاهما بمعنى التَّخويف والزَّجر، فهلّا قال هُناك: (وكلُّ ما خلق الله مِن شيء يتفيّأ ظلالُه)، فيأتي بتلك خبريَّةً؟

والجواب: إنّ الظّلال أمر محسوس مشاهد فناسب التقرير عليهم والتوبيخ، ولا يوبَّخ الإنسان إلا بما هو عالم به موافق عليه، فيقال له: ألم يكرمك؟ ألم يُحسن إليك؟ وأمّا سجود ما في السماوات له وكذلك الملائكة، فأمر مغيب عنهم لا يعلمه إلا من حقّه الخبر بخلاف تفيُّؤ الظِّلال، وليس الخبر كالعيان[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

النَّظر، والبَصَر، والرُّؤية:

الإبصارُ يتمَيَّزُ بالوضوح، والرُّؤيةُ بالعِلْم، والنَّظرُ بالتَّأمُّلُ

النَّظَر: هو عبارة عن تقليب العينِ نحوَ المَرئيّ؛ التماسًا لرؤيته، فهو طلب ظُهورِ الشَّيء، ويكون النّاظِرُ الطّالبُ لظهور الشَّيء بإدراكه مِن جهة حاسَّة بَصَرِه أو غيرِها مِن حَواسِّه، والنَّظَرُ بالقلب مِن جهة التَّفَكُّر، والنَّظَرُ أيضًا هو الفِكْرُ والتَّأمُّلُ لأحوال الأشياء[2].

والرُّؤية: هي إدراكُ المَرئيِّ، ولذلك قد يَنْظُر ولا يَراه، ولمّا كانت الرُّؤيةُ مِن توابع النَّظرِ ولوازمِه غالبًا، أُجْرِيَ لفظُ النَّظرِ على الرُّؤية، على سبيل إطلاقِ اسمِ السَّببِ على المُسَبَّب[3]، كما ورد في حكايةً عن طَلَبِ موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]، فكان الرّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يَطْلُب جماعةٌ الهلالَ، فيَراهُ جماعةٌ منهم، ولا يستطيع الآخرون رؤيتَه، مع أنَّهم جميعًا ناظرون[4]؛ فالفرق بينَهما أنَّ الرُّؤية هي: إدراك المَرْئيِّ، والنَّظَرُ: الإقبال بالبَصَر نحو المَرئيِّ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 24.
(2) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/ 457.
(4) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.

أمّا البَصَرُ فهو إدراكُ العينِ، ويُطلق على القوَّة الباصِرة الّتي مِن شأنِها إدراكُ أشباحِ الصّور[1]، والعين هي أداة الإبصار، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلق البصر ليَدُلَّ على العِلْم القويِّ المُضاهِي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بَصُرَ بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عيان، فهو بصيرٌ به[2]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينَها يكون الفرقُ بينَ النَّظرِ والبَصَر، كالفَرْق بينَ النَّظر والرُّؤية؛ قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

وخلاصة القول في الفرق بينهم: أنَّ الإبصارَ يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميّز بالعِلْم، والنَّظرُ يُميِّزه التَّأمُّلُ، وهذا واضحٌ في استعمالات القرآن لهذه الألفاظ.

(1) الكفويُّ، الكليّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 938.

(2) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 1/ 544.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩﴾ [النّحل: 49]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بينَ ذِكْر خضوعِ بعض المخلوقات، وبين سجود جميع الكائنات، تعميمًا بعد تخصيص

بعد أن بيّنتِ الآية السّابقة خضوعَ المخلوقاتِ الّتي تطلُع عليها الشّمس على هذه الأرض، وسجودَ ظِلالِها للّه ﷻ، تُبيِّن هذه الآيةُ أنّ المخلوقات الّتي تسجد للّه، ليست هذه المخلوقاتُ الأرضيّة المذكورة فقط، بل كلّ ما في السّماوات والأرض، بما في ذلك الدَّوابُّ والملائكة[1]، فهو استكمالٌ لما قرَّرَتْهُ الآيةُ السّابقة، من سجود ظِلال الأشياء للّه، وأنَّها ليست وحدَها هي الّتي تسجد للّه سُبحانه، بل كلُّ ما في السَّماوات وما في الأرض[2].

وكذلك لمّا ذَكَرَ في الآية السّابقة السُّجودَ القسريّ، ذكرَ بعدَه هُنا سجودًا آخر، بعضُه اختيارٌ، وفي بعضه شِبهُ اختيارٍ[3].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآبَّةٖ﴾: أَصْلُ (دَبَّ): حَرَكَةٌ على الأَرْضِ، أَخَفُّ مِنَ المَشْيِ. تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكلُّ شيءٍ ممّا خَلَقَ اللّهُ يُسَمَّى دابّة، والاسمُ العامُّ: الدّابَّةُ لما يُرْكَبُ، وتصغيرها دوَيبة[4]، ويُقالُ: ناقَةٌ دَبوبٌ، إذا كانَتْ لا تَمشِي مِنْ كَثْرَةِ اللَّحمِ إلّا دَبيبًا[5]، ودَبَّ النَّمل يَدُبُّ دَبيبًا، أي: مَشَى على هِينته، ودبَّ القَوْمُ إلى العَدوّ دبيبًا، أي: مَشَوْا على هِينتهم لم يسرعوا[6]، والدَّبيبُ: الزَّحف على الوَجْه[7]، وكلّ ماشٍ على الأرض

(1) القدوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 99.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 305.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبَّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دبَّ).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دب).
(7) الجوهريّ، تهذيب اللُّغة: (دب).

دابّة ودَبيب، وقولهم: (أكذب مَن دَبّ ودَرَج)، أي: أكذب الأحياء والأموات، ودَبّ الشّيخُ، أي: مشى مشيًا رويدًا[1]، والمقصود بـ (دابّةٍ) في الآية: بَيانٌ لِما في الأرْضِ، إذِ الدّابَّةُ ما يَدِبُّ على الأرْضِ[2].

2) ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: أصْلُ الكِبْرِ: الامتِناعُ وعَدَمُ الانْقيادِ، يُقال: تَكَبَّرَ البَعيرُ: إذا امتَنَعَ ولم يَنْقَدْ[3]، والكِبْرُ: التَّعاظُمُ، يُقال: كَبُرَ، يَكْبُرُ، كِبَرًا، أي: عَظُمَ، ويُقال له أيضًا: التَّكَبُّرُ والاسْتِكْبارُ، وضِدُّهُ: التَّواضُعُ والتَّصاغُرُ، والمُتَكَبِّرُ: المُتَعالي والمُتَعاظِمُ، والكِبْرُ أيضًا: مُعْظَمُ الشَّيْءِ، ويأتي الكِبْرُ بمعنى: التَّعالي والتَّرَفُّع، فيُقال: كَبُرَ وتَكَبَّرَ عنِ الشَّيْءِ: إذا تَرَفَّعَ وتَنَزَّهَ عنه[4]، واستكبرَ الرَّجلُ: تكبَّر، وعاند، وتجبَّر، وتعاظم، وامتنع عن قبول الحَقّ وتمرَّد، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34][5]، والمقصود بالكِبْرِ في الآية: إظهارُ المَرْءِ التَّعاظُمَ على غَيرِهِ؛ لأنَّهُ يَعُدُّ نَفْسَهُ عَظيمًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الخضوعُ الكونيُّ لله تعالى مُطلَقٌ في الوجود، والتَّسبيح بحمده لا يَنِدّ عنه موجود

الآيةُ الكريمة استكمالٌ لما قرَّرَتْه الآيةُ السّابقة، مِن سجود ظِلال الأشياء لله، وأنَّها ليست وحدَها هي الّتي تسجد لله سبحانه، بل كلُّ ما في السَّماوات وما في الأرض، فيقول الحَقُّ تعالى: ولله وحدَه يسجُدُ جميعُ ما في السَّماواتِ، وجميعُ ما في الأرضِ، مِن كلِّ ما يَدِبُّ ويتحَرَّكُ، سجودَ ذُلٍّ وخُضوعٍ، فكُلُّ أحدٍ خاضِعٌ لربوبيَّته، ذَليلٌ لعزَّته، مقهورٌ تحتَ سلطانه، وكذلك ملائكتُه الَّذين في السَّماء، وهم لا يستكبرون عنِ التَّذلُّل والخُضوع له، وفي هذا قطعٌ لكلِّ حُجَّة للإنسان، ألّا يكون في السّاجدين لله، فإذا عَدَّ نفسَه مِن عالم

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (دبب).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبر).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (كبر).

الأرض، فهذه دَوابُّ اللّه كلُّها تسجد للّه، فلْيَسجُد معها، وإذا كان يرى أنَّه فوقَ هذه الدَّواب، فهذه مخلوقات السَّماء، وهذه الملائكة أشرفُ مخلوقاتِها وأكرمها عند اللّه، قد سجدت للّه في ولاء وخشوع، فلْيَسجُدْ للّه كما سجدتِ الملائكةُ، أو كما سجدتِ الدَّوابّ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة وصل جملة ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ بسابقتها:

جمعُ الحشدِ الكونيّ في مشهد مهيب، يُظهِر خضوعَ الكائناتِ للرّبّ القريب

لمّا بَيَّن النَّظمُ الكريم ما بَيَّنَ مِن سجود الظِّلال وذَويها مِنَ الأجرام السُّفليَّة الثّابتة في أحيازها ودُخورِها له سبحانَه، أتبَعَهُ ببيان سُجودِ المخلوقات المتحرِّكة بالإرادة، سواء كانت لها ظلال أم لا، فأردفه بما يُفيدُه تأكيدًا مع زيادة سجود ما لا ظِلَّ له[2]، وبهذا الوصل يُضيف إلى الحَشْد الكَونيِّ الملائكةَ، فإذا مَشْهَدٌ عجيبٌ مِنَ الأشياء والظِّلال والدَّواب، ومعهم الملائكةُ في مقامِ خشوعٍ وخضوعٍ وعبادةٍ وسجود.

بلاغة القصر، بتقديم الجارّ والمجرور:

إثباتُ حَصْرِ خُضوعِ الكائناتِ للّه وحدَه، استقلالًا أوِ اشتراكًا

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: سجد للّه لا لغيره ما في السّماوات وما في الأرض[3]، وبنظرة فاحصة متأنِّية إلى هذه الآية الكريمة، نجد أنَّها اشتملت على أسلوب مِنَ البلاغة راقٍ، ولونٍ مِنَ الفصاحة عالٍ، وهو أسلوب القصر المُستفاد مِن تقديم الجارِّ والمجرور حيثُ قَصَرَتِ الآيةُ الكريمةُ السُّجودَ للّه تعالى، لا إلى غيره، فله تعالى وحدَه يخضع وينقاد لا لشيءٍ غيرِه، استقلالًا أو اشتراكًا، والقَصْر ينتظمُ القلبَ والإفراد، إلّا أنّ الأنسب بحال المخاطبين قصرُ الإفراد؛ لأنَّ المُخاطَب يشارك الغيرَ في الحُكم المقصور عليه، كما يُؤذِن به

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 245، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 200، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 90، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 305.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 395.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.

قولُه تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النّحل: 51][1]، وفي حصر السُّجود على اللّه وحْدَه تعريضٌ بالمشركين الّذين يُشركون مع اللّه ﷻ، إذ يسجدون للأصنام[2]، وأنّ المخلوقات السّاجدة للّه في السّماوات والأرض، هي خيرٌ مِنَ المشركين، فهم دون كُلِّ هذه الأشياء[3].

دلالة الفعل المضارع:

الدَّلالة على أنَّه حاصل منهما، على سبيل التَّجدُّد والاستِمرار

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾، السُّجود على نوعين: سجودٌ هو عبادة، كسجود المسلمين للّه تعالى، وسُجودٌ هو عبارة عنِ الانقياد للّه تعالى والخضوعِ له، ففي حَقِّ الدّابة: يكون بمعنى التَّواضعِ والخُضوع، وفي حَقِّ الملائكة: يكون بمعنى سجودِ العبادة للّه تعالى[4]، وقد عبَّر النَّظمُ الكريم على هذا الفعل بصيغة المضارع؛ للدّلالة على أنَّه حاصل منهما على سبيل التَّجدّد والاستِمرار، كيف لا؟ وهي مخلوقات طائعةٌ غيرُ عاصية، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: 20]، فهم دائبون في العمل ليلًا ونهارًا، مُطيعون قصدًا وعَمَلًا، قادرون عليه[5].

دلالة التَّعبير بالسُّجود، بين الحقيقة والمجاز:

بيانُ أنَّ السُّجودَين يجمعُهما معنى الانقيادِ والخضوع لله ربِّ العالمين

أصل السُّجودِ الانحناءُ والتَّذلُّل، وهو للإنسان والحيوان والنَّبات والجمادات، وهو نوعان: سُجود تسخير، وسجود اختيار.

فسجودُ التَّسخيرِ: هو سجودُ كلِّ ما خلقه اللّهُ، وهذا نحو قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾ [الرَّحمن: 6]، وسجود اختيار: نحو سجودِ المُسلمين للّه ﷻ، باختيارهم وإرادتهم.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 395.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(3) القدّوميّ، التَّفسير البياني، ص: 99.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 216.
(5) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 5/ 336.

والمقصودُ بالسُّجود في هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، هو سجود اختيارٍ وسجودُ تسخيرٍ؛ لأنَّ البشر يدخلون ضمن معنى: ﴿دَآبَّةٍ﴾، ولذا فمنهم مَن يسجد للّه اختيارًا، لكون الآيةِ آيةَ سَجدةٍ، لا بُدَّ من دلالتها على السُّجود المُتعارَف ولو ضِمنًا[1].

فاشتملت هذه الآية الكريمة على أحد المَعنيين مجازًا في لفظ السُّجود، على معنى الانقياد والخضوع، بعلاقة اللُّزوم، إذ كان المُراد مِنَ السُّجود لازمَه، وهو الانقياد، ويكون التَّعبير مِن قبيل المَجاز المُرسل، حيثُ أطلقَ السُّجودَ وأراد لازمَه، وفي هذا التَّجوُّزِ ما يُضْفي على اللَّفظ كثرةَ المعاني، فإنَّ معنى سجودِ الدَّوابِ للّه، أنَّ اللّه جعل في تفكيرها الإلهاميّ التذاذَها بوجودها، وبما هي فيه مِنَ المَرح والأكل والشُّرب، وتَطَلُّبِ الدَّفعِ عن نفسها مِنَ المُتَغَلِّب ومِنَ العوارض، بالمُدافعة أو بالتَّوقِّي، ونحوِ ذلك مِنَ الملائمات، فحالُها بذلك كحالِ نَفْسِ شاكر، تتيّسرُ تلك الملائماتُ لها، وإنَّما تيسيرُها لها ممَّن فطَرَها، وقد تصحب أحوالَ تَنَعُّمِها حركاتٌ تُشبه إيماءَ الشّاكرِ المُقارب للسُّجود، ولعلَّ مِن حركاتها ما لا يَشْعُر بِهِ النّاسُ؛ لخفائه وجَهْلِهم بأوقاته، فإطلاقُ السَّجود على هذا مجازٌ[2].

وقد يُراد بالسُّجود حقيقتَه، كما يُقال في تسبيح ما لا يعقل، ويكون منشأ ذلك معنًى يخلقه اللّه فيه، كما أفهمَ السماوات والأرض والجبال خطابَهُ، حيث عَرَضَ عليها الأمانة فأبَتْ[3]، وكخطابِهِ إليهما وطاعتهما واستجابتهما له في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصّلت: 11].

السِّرُّ وراءَ استعمالِ الاسمِ الموصول ﴿مَا﴾ الّتي لغير العاقل:

جاء التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ الّتي تُستَخدم لغير العاقل، في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّها تُستَخدم للعاقل أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: 3]، وكما في قوله تعالى: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 53]، وتكون (ما) للعاقل، إذا اشتركَ العاقلُ وغيرُ العاقلِ في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 395، والقدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 99.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(3) الرَّسعني، رموز الكنوز: 4/ 37.

إذا اشترك العاقلُ وغيرُ العاقلِ في حُكمٍ واحد، استُعمِلت (ما) للعاقل

حُكم واحد، كما في هذه الآيةِ مَحلّ الدِّراسةِ، فقد اشترك العاقلُ وغيرُ العاقلِ، في حُكم السُّجودِ لله[1]، فجِيء بما هو صالحٌ للعُقلاء وغيرِهم، إرادةَ العموم[2].

وقد يكون إيثارُ ﴿مَا﴾ الموصولة دونَ (مَنْ)، تغليبًا لكثرة غيرِ العُقلاء[3]، فلو جِيءَ بـ (مَن) لم يكن فيه دليلٌ على التَّغليب، فكان مُتناولًا للعُقلاء خاصَّة، فجِيءَ بما هو صالحٌ للعُقلاء وغيرِهم، إرادةَ العمومِ[4].

تقديمُ ذِكْرِ السّماواتِ على الأرض:

بيانُ مكانةِ السَّماواتِ وأهميّتِها وعَظَمَتِها

تقدَّم ذِكْرُ السَّماواتِ على الأرضِ جَريًا على عادة القرآن الكريم؛ فإنَّ القرآن قَدَّم ذِكْرَ السَّماواتِ على الأرض بما يَزيد عن مِئَةِ آية، ولم يتأخَّر ذِكْرُها إلّا في آيتين لموجِبٍ دلاليّ، وهما في سورة [إبراهيم: 48] و[طه: 4]، وقُدّمت أيضًا مِن باب تقديم الأعظم والأعلى، فالشّأن أن يتقدّم ذِكر الأعظم والأعلى مكانًا على غيره، وما في السّماوات أكثرُ ممّا في الأرض، فقُدِّم ذِكْر السّماواتِ وما فيهنّ، مِن باب التّدرُّج مِنَ الأعلى للأدنى[5]، والتّقديمُ أيضًا للأهميّة والقَداسَة، فالسَّماءُ فيها العَرشُ والكُرسيّ، والأرواحُ تَصْعَدُ إليها، وفيها الجنّةُ والمَلأ الأعلى، وسِوى ذلك مِنَ الغَيبيّات.

دلالةُ تكرار الاسم الموصول (ما):

المبالغةُ في إثبات الحُكم على الطّائع والعاصي

لما كان المقامُ للمبالغة في إثبات الحُكم على الطّائع والعاصي، أعاد الموصولَ، فقال تعالى: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[6]؛ ليكونَ (ما في الأرض) معطوفًا على (ما في السّماء) في الحُكم الّذي ذَكَره السّياق، وهو السّجودُ لربّ الوجود، والمعنى: ولله يسجد ما في السّماوات، وما

(1) القدّوميّ، التّفسير البياني، ص: 99.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 609.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 609.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 513، والقدّومي، التَّفسير البياني، ص: 99.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 174.

في الأرض مِنَ المخلوقات، بحيثُ أنّها تخضعُ وتستسلم لأمر اللّه، ولا يَنِدّ منها عنِ الخضوع طوعًا أو كَرهًا أحدٌ، مِنَ الطّائعين الخاضعين، ولا مِنَ العُصاة المُنكرين.

دلالةُ حرفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾ قبلَ لفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾:

بيانُ استغراقِ الحرفِ لِكُلِّ ما يَـدِبُّ على وجه الأرض

قولُه تعالى: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: كلِّ دابَّة في الأرض، فإنّها تسجُد للّه، و﴿مِن﴾ هذه هي الاستغراقيَّةُ، وهي مِن أحرف التَّوكيد[1]، أو تكون ﴿مِن﴾ بيانًا لـ ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، إذِ الدّابةُ ما يَدِبُّ على الأرض[2]، ويجوز أن تكون ﴿مِن﴾ بيانًا لما في السَّماوات وما في الأرض جميعًا، على أنّ في السَّماوات خَلْقًا للّه يَدِبّون فيها كما يَدِبُّ الأناسِيُّ في الأرض[3].

دلالة تنكير وإفراد ﴿دَآبَّةٍ﴾:

الـدّلالـةُ على أنَّ كُلَّ فرْدٍ مِنَ الـدَّواب مقصودٌ بالحُكم

جاء التَّعبيرُ بالمُفْرد ﴿دَآبَّةٍ﴾، مع أنَّ المُراد الجمعُ؛ ليكونَ أدلَّ على أنَّ كُلَّ فرْدٍ مِنَ الدَّواب مقصودٌ بالحُكم[4]، فاجْتُزئ بذِكْر الواحدِ مِنَ الدَّواب عن ذِكْر الجميع، فمَعْنَى الكلامِ: وللّه يسجد ما في السَّماوات وما في الأرض، مِنَ الدَّواب والملائكة، كما يُقال: ما أتاني مِن رَجُل، بمعنى: ما أتاني مِنَ الرِّجال[5].

السِّرُّ وراءَ تقديمِ ذِكْرِ (الدَّواب) على (الملائكة):

جمـالُ تناسقِ النّص القرآنيِّ في ذِكْر كُلِّ لَفْظٍ مع ما يُناسِبُه

قَدَّم ذِكْرَ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ على ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ حتّى لا يقع الفَصْلُ بين ذِكْر (الأرض)، وذِكْر (الدّابة)، لاتّصالهما في المعنى، أي: ليكونَ السِّياقُ: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٍ﴾، وأيضًا لأنَّ ذِكْرَ (الملائكة) بعد ذِكْرِ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ مناسبٌ للسِّياق؛ لأنَّ الكلامَ الذي بعد ذِكْرِ الملائكة جاء مُتَّصِلًا بموضوع الملائكة: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٍ

(1) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 99.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 609.
(4) القدّوميّ، التَّفسير البياني، ص: 99.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 80.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩﴾، فجاء ذِكْر ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ مُتّصلًا بما قبلَه، وذِكْر ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مُتّصلًا بما بعدَه، ولو عكسنا الأمرَ في غير السِّياق القرآنيّ، بأن ذكرنا ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أوّلًا، و﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ ثانيًا، لانقطعَ السِّياقُ وذهبَ جمالُ النَّص[1].

فائدةُ عطفِ لفظةِ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في سياق السُّجود:

تعظيمُ شأنِ الملائكة المكرّمين، والتّنويهُ بفضلِهم خصوصًا بعد عُموم

خَصَّ الملائكةَ بالذِّكْر مع كونهم مِن جملة ما في السَّماوات والأرض؛ تشريفًا ورفعًا لشأنهم، وقيل: لخروجهم مِنَ الموصوفين بالدَّبيب، إذ لهم أجنحَةٌ يَطيرون بها[2]، فالملائكةُ عطفٌ على ﴿مَا﴾، وخصَّهم بالذِّكر بعد العموم تنويهًا بفضلهم[3]، فهو مِن قبيل عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إفادةً لِعِظَم شأنِ الملائكةِ عليهم السلام؛ ولأنَّهم أطوعُ الخَلْقِ، وأعبدُهم لله[4].

دلالةُ تخصيص (الدّواب)، و(الملائكة) بالذِّكر:

التّعريضُ بالمشركين في تأبّيهم عنِ السُّجود لخالقهم

خُصّت الدَّوابُّ بالذِّكر؛ لأنَّها مِن مخلوقات الأرض، ذاتِ الحِسِّ والحركة، وهي دونَ الإنسان منزلةً، وخُصَّت الملائكةُ بالذِّكر كذلك؛ لأنَّها مِن عالَم السَّماوات، وهي أشرفُ مخلوقاتها، وفي هذا قطعٌ لكلِّ حُجَّةٍ للإنسان ألّا يكون في السّاجدين لله؛ فإذا عَدَّ نفسَه مِن عالَم الأرض، فهذه دوابُّ الله كلُّها تسجد لله، فلْيَسْجُد معها، وإذا كان يرى أنَّه فوقَ هذه الدَّوابِّ، فهذه مخلوقاتُ السَّماء، وهذه الملائكةُ أشرفُ مخلوقاتِها وأكرمُها عند الله قد سجدت لله في ولاءٍ وخُشوع[5]، ففي ذِكْر أشرف المخلوقات وأقلِّها تعريضٌ بِذَمِّ مَن نزل

(1) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 99.
(2) البغويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 81.
(3) الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 4/ 37، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 5/ 312.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 609.
(5) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 305.

مِنَ البشر عن مَرتبة الدَّوابّ في كُفران الخالق، وبمَدْح مَن شابه مِنَ البَشر حال الملائكة[1].

دلالة النَّفي بـ ﴿لَا﴾ للفعل المُضارع ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

استمرارُ نفي الكِبْرِ عن مخلوقات الله الطّائعة، استمرارٌ لخُضوعها وانقيادها

نفيُ الاستكبار يُشير إلى كمال الخُضوع والخُشوع الّذي ينبغي أن يتحلَّى به المخلوقُ معَ خالقِه ومولاه، ولمّا كانت صيغة المُضارع للاستمرار التَّجدُّدي، فالمُرادُ استمرارُ النَّفي[2].

الدّلالة البلاغيّة للتَّذييل:

التَّأكيدُ على التَّعريض بذَمِّ المشركين في تَكَبُّرهم عن عبادة ربّ العالمين

في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، خَصَّ ذِكْرَ عدمِ الاستكبار بالملائكة؛ تعريضًا بالكُّفار، لأنَّ الملائكة العُلويين النّورانيّين، أصحابَ القُدراتِ الخارقةِ بالنِّسبة لكم أيُّها المشركون، لا يستكبرون عن عبادة اللّه، وأنتُم البشرُ الضُّعفاءُ تستكبرون[3].

فإذا كان أعلى الخلائقِ وأعلمُهم - وهم الملائكة - يسجدون للّه، ويَسجُد له أشَدُّ الخَلْق وأصلبه، وهو الجبال والسَّماوات والأرض، ويسجد له ويخضع أسْفَهُ الخَلْقِ وأجهله، وهو الدَّوابّ وغيرُها، وأنتُم أيّها المشركون أبيتُم السُّجودَ له والخضوع، واستكبرتم عن عبادته، فهؤلاء الّذين ذكرَهم يسجدون، وفي ذلك إخبار عن سَفَهٍ أولئك في إبائهم السّجودَ له والخضوعَ[4].

دلالةُ حذفِ مُتَعَلَّقِ الفعل ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

دورانُ الأمرِ على الانقياد والطّاعةِ لرَبّ العباد

يَحْتَمِل مُتَعَلَّقُ الفعلِ وجهين؛ أحدهما: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عنِ السُّجود للّه تعالى، والثّاني: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عنِ الخضوع لقُدرة اللّه وعِزَّته[5]، وعلى كِلا الاحتمالين، فمَدارُ الأمر على الخضوع

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 171.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 396.

(3) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 99.

(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 6/ 513.

(5) الماورديّ، النُّكت والعيون: 3/ 191.

والانقياد والطّاعةِ لِرَبِّ العباد، الّذي يَدور عليه فلَكُ المخلوقات، والّذي ينبغي أن يتحلَّى به العبد.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستِكبار والتَّكَبُّر:

الاستكبارُ الاستعلاءُ في الأرضِ وإنكارُ الحقِّ، والتَّكبُّرُ التَّعظُّمُ والتَّطاول غرورًا وزُهوًّا

التَّكَبُّر والاستِكبار مِن أصلٍ واحدٍ ومَعدنٍ واحدٍ، وبينهما فروقٌ يسيرة؛ لأنَّ الاختلافَ في المَبْنَى يدلُّ على اخْتِلافِ المَعْنَى غالبًا.

أمّا الاستكبارُ: فهو الاستعلاءُ في الأرض، وإنكارُ الحَقِّ والامتناعُ عن قَبوله مُعاندةً وتَكَبُّرًا، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: 60]، فالمُستَكبِرُ يَعتَقِدُ أنَّ نَفْسَهُ كبيرَةٌ تَكَلُّفًا واسْتِشْعارًا في النَّفْس، ولا يَبْلُغُ حَقيقتَه، وهو في الوقتِ نَفْسِه يَطلبُ الكِبَرَ، وهو ليسَ لهُ حَقٌّ به؛ ولهذا لم يَرِدِ الاسْتِكبارُ في جَميعِ القُرْآنِ إلّا على الذَّمِّ؛ نحو: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧﴾ [نوح: 7].

أمّا التَّكبُّرُ: فهو التَّعظُّم؛ قال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 146] أي: أنهم يَرَوْنَ أنهم أفضلُ الخَلْق، وأنَّ لهم مِنَ الحقِّ ما ليس لغيرهم، وهو على هذا المعنى مذمومٌ، ويكون ممدوحًا إذا وردَ وصفًا للّه تعالى؛ نحو: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر: 23]؛ فهو مَحْمودٌ لأنه بمعنى التَّعظُّم عمّا لا يليق به من صفات الحَدَث والذَّمّ[1]، فهو الّذي أعلى نَفْسَه وعَظَّمَها، وهذا ممدوحٌ في صِفاتِ اللّهِ، مذمومٌ في صِفاتِ الخَلْق؛ لأنَّ الخَلْقَ لا يَخْلون عن نقيصةٍ، فلا يليقُ بهم إعظامُهم أنفُسَهم، وإعلاؤُهم إيّاهم، واللّهُ تعالى لا يجوزُ عليه نقصٌ، فيَصِحُّ مَدْحُه لنَفْسِه وإعظامُه[2].

(1) الطَّحاويّ، شرح مشكل الآثار: 14/ 189، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 482.
(2) السَّمعانيّ، تفسير السَّمعانيّ: 5/ 410.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠﴾ [النَّحل: 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعليلُ خضوعِ المخلوقاتِ وانقيادِها، بعدَ ذِكْرِ سجودِها وخضوعِها

بعد أن ذكر ﷻ جملةَ السّاجدين له ممّا في السّماوات وما في الأرض، ﴿مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ وبيّن أنَّ الملائكة مُنقادون له ﷻ؛ لا يستكبرون عن عبادته؛ أتْبَعَ ذلك بتعليل خضوعِهم بقوله، دلالةً على أنَّهم كغيرهم في الوقوف بينَ الخوف والرَّجاء، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾[1]؛ فلمّا مَدَحَهم بكثرة الطّاعة والخضوع لله، مَدَحَهم بالخوف مِنَ الله الّذي هو فوقَهم بالقهر والغلبة والسّلطان، وكمال الأوصاف، فهذه الآية تكملة لمعنى الآية السّابقة.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخَافُونَ﴾: أصلُ الخَوف: الذُّعر والفَزَع، وخافَه يَخافُه خَوْفًا وخِيفةً، كأنَّ الَّذي يخاف منخوبُ الفُؤاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43][2]، "والإخافة: التّخويف، يقال: وجعٌ مُخيفٌ، أي: يُخيف مَن رآه، وطريق مَخُوفٌ؛ لأنّه لا يخيف، وإنّما يُخيف فيه قاطعُ الطّريق، وتخوّفتُ عليه الشّيء، أي: خِفت"[3]، والتَّخْويفُ: الإفْزاعُ والإرْهابُ[4]، وضِدُّه: الأمنُ، وأصْلُه: النَّقْصُ، يُقال: تَخَوَّفْناهُم، أي: تَنَقَّصْناهُم، وناقَةٌ خَوْفاءُ، أي: ناقِصَةٌ بِها داءٌ[5]، والمقصود بالخوف في الآية: انتظارُ ما هو مَكروهٌ للنَّفْسِ.

2) ﴿فَوۡقِهِمۡ﴾: أصلُ (فوق): يَدُلُّ على عُلوٍّ[6]، الفَوْقُ: نَقِيضُ تَحْتٍ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 174.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خوف - خيف).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (خوف).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 428.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فوق).

يَكونُ اسْمًا وظَرْفًا، مَبْنِيٌّ، فإذا أُضيف أُعرب[1]، ويُستعمل في المكان، والزَّمان، والجسم، والعدَد، والمنزلة، وذلك أضرب، الأوَّل: باعتبار العُلوّ، نحو: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63]، الثّاني: باعتبار الصّعود والحدور، نحو قوله: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ [الأحزاب: 10]، الثّالث: يُقال في العدد، نحو قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [النّساء: 11]، الرّابع: في الكبر والصّغر، نحو: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: 26]، الخامس: باعتبار الفضيلة الدُّنيويّة، نحو: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرف: 32]، السّادس: باعتبار القهر والغلبة، نحو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 18][2]، وهذا المعنى هو المراد هُنا.

3) ﴿وَيَفۡعَلُونَ﴾: فعل: اسم مِن فِعل الشّيء، وفَعَلَ يَفْعَلُ فعْلًا وفِعْلًا، فالفَعْلُ: المصدر، والفِعْل: الاسم، والفَعالُ: اسمٌ للفعل الحَسَن، مثل: الجود والكرم ونحوه[3]، والفِعل: هوَ إحداثُ كلِّ شيءٍ من عمَلٍ أو غيره، فهوَ أخَصُّ مِنَ العمَل، أو كِنايةٌ عَن كلِّ عمَلٍ، مُتَعَدٍّ أو غيرِ مُتَعَدٍّ، وهو يدلُّ على الزَّمان بصيغته، وعلى المكان بمعناه، وقد يكون الفِعل أعمّ على رأي، فيَشْمَل التَّركَ، والفِعلُ عِنْد النُّحاة: ما دَلَّ على معنى في نفسه مُقتَرِنٍ بأحدِ الأزمنةِ الثّلاثة[4]، والجمع: فِعال، والمراد بقوله: ﴿وَيَفۡعَلُونَ﴾ في الآية: كناية عنِ الطّاعة، أي: يُطِيعونَ ولا تَصْدُرُ منهم مُخالفةٌ.

4) ﴿يُؤۡمَرُونَ﴾: أصْلُ (أمر): ضِدُّ النَّهي، ومنه قولُكَ: افْعَلْ كذا، يُقالُ: لي عليكَ أمرَةٌ مُطاعةٌ، أي: لي عليكَ أنْ آمُرَكَ مَرَّةً واحِدَةً فتُطِيعَني، قالَ الكِسائيُّ: إنَّهُ لأمورٌ بالمعروفِ، ونَهِيٌّ عَنِ المُنكَر، مِنْ قَوْمِ أُمُرٍ، والأمر: المُجازاةُ والعِقابُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النَّحل: 1]، ومِنْ هذا البابِ الإمرَةُ والإمارَةُ، وصاحِبُها أميرٌ ومُؤَمَّرٌ[5]، والمقصود بالأمر في الآية: ضِدُّ النّهي، والمراد بقوله: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾: يُطِيعُونَ وَلا تَصْدُرُ مِنْهُمْ مُخالَفَةٌ[6].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فوق).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (فوق).
(3) الخليل، العين: (فعل).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فعل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 171.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

المخلوقاتُ المسخّرة بأسرها تدين لعَظَمة الله تعالى وقُدرته، ولا تعصي له أمرًا

يقول الحقُّ ﷻ: يخافُ الملائِكةُ والدّوابّ الّتي في الأرض ربّهم الّذي هو فوقَهم، بقَهرِه وغلبته وكَمالِ صِفاتِه، أن يعذّبهم إن عصَوه، ويفعلون ما أمرهم اللّهُ بفِعلِه، ولا يَعصونَه، فيؤدّون حقوقَه ويجتنبون سخطه[1]، فهم يخافونه أن يرسل اللّه عليهم عذابًا من فوقهم، أو يخافونه وهو فوقَهم بالقهر، ويُمثّل له بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 18][2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة فصل الآية الكريمة عن سابقتها:

بيانُ نفيِ استكبارهم عن عبادة ربِّهم، وتقريرُ هذا النَّفي في نفوس السّامعين

قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ جملة مُستأنفة، جاءت بيانًا لنفي استكبارهم وتقريرًا له؛ لأنَّ مَن خاف اللّه تعالى لم يستكبر عن عبادته[3]، ولم تُعطَف هذه الآية على الآية السّابقة، رَغمَ الارتباطِ الوثيق بينهما، وذلك لأنَّ بينهما شِبْهَ كمالِ اتّصال، حيثُ إنَّ هذه الآيةَ بيانٌ لما كان في الآية السّابقة، فهي مُفسّرةٌ لعدم استكبارهم، كأنَّه قيل ما لهم لا يستكبرون؟ فأُجيبَ بذلك[4]؛ لأنَّ الخوف أثرُه عدمُ الاستكبار[5].

سِرُّ مدحِ الملائكة بالخَوْفِ، مع أنّهم لا يعصون اللهَ ما أمرَهم:

بيانُ أنّ خوفَ الملائكةِ مَردُّه إلى إجلال الله ﷻ وتعظيمِه

الخوف أنواع؛ فهناك نوع مِنَ الخوف منشؤه فعلُ الخطأ، وهناك نوع مِنَ الخوف منشؤه توقّعُ عملِ الخطأ، وهناك نوع مِنَ الخوف منشؤه الإجلالُ والتّعظيم، وخوفُ الملائكةِ إنّما هو خوفُ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 246، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 576، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 442، والمراغي، تفسير المراغيّ: 14/ 91.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 229.
(3) القنوجي، فتح البيان: 4/ 38، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 396.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/ 333.
(5) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 267.

إجلالٍ وتعظيم للّه ﷻ، والخوفُ مِنَ اللّه ﷻ نعمةٌ عظيمة، قال اللّه تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: 23]، أي: أنعمَ اللّهُ عليهما بالخوف منه ﷻ[1]، ولذا قيل: خيرُ شيءٍ للعبد في الدُّنيا والآخرة الخوفُ؛ إذ يمنعُه مِنَ الزَّلة، ويحملُه على الطّاعة[2]، والخوفُ في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ وصفٌ للملائكة الّذين دأبُهم العبادةُ، وشأنُهم السُّجودُ للّه، فهم مع منزلتهم عند اللّه يخافون ربَّهم الّذي علا بسلطانه على كُلِّ سُلطان[3].

دلالة مرجع الضَّمير في ﴿يَخَافُونَ﴾:

حَمْلُ المعنى على الملائكة، لكمال طاعتِهم وانقيادِهم

الظّاهر أنَّ الضّمير في قوله: ﴿يَخَافُونَ﴾، عائدٌ على المَنسوب إليهم السُّجودُ، في ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾، والمعنى عندئذٍ: يخاف هؤلاءِ الملائكةُ والدَّوابُّ الأرضيَّةُ المخلوقةُ ربَّهم المهيمنَ عليهم، ويُحتمَل أن يكون ﴿يَخَافُونَ﴾ مِن صفة الملائكة خاصّة، فيعود الضَّميرُ عليهم[4]، وحَملُ هذه الجملِ على الملائكة أولى مِن حَملِها على جميع مَن تقدَّم ذِكْرُه؛ لأنَّ في مخلوقات اللّه مَن يستكبر عن عبادته ولا يخافه، ولا يفعل ما يؤمر به، كالكفّار والعُصاة الّذين لا يتَّصفون بهذه الصِّفات، كإبليس وجنوده[5].

فائدة الإخبار بالرُّبوبيَّة دون الأُلوهيَّة:

إيثارُ لفظِ الرّبوبيّةِ تربيةٌ للمَهابة، وإشعارٌ بعِلّة الحُكم الرّبّانيّ

جاء التَّعبير بـ ﴿رَبَّهُم﴾ مع أنَّ السِّياق للإخبار عن خَوف الملائكة مِنَ اللّه سُبحانَه؛ وذلك لأنَّ مِنْ معاني الرَّبّ: الموجِدُ لهم، والمُدَبّرُ لأُمورهم، والمُحسِنُ إليهم[6]، ولذا فهم يخافون ربَّهم الذي خلقهم،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 218، والقدّومي، التَّفسير البياني، ص: 101.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 300.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 305.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 540.
(5) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/ 38، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 15/ 247.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 174.

وأنعم عليهم ورَعاهم[1]، وربّاهم بتشريف جواهرهم، وتعظيم قوّتهم، لكونه قاهرًا[2]، وفي اختيار عنوان الرُّبوبيَّة تربيةٌ للمهابة، وإشعارٌ بعِلَّة الحُكْم[3].

فائدة التّعبير بشبه الجملة ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾:

الثّناءُ على الله والتّعظيمُ لشأنه، مِن أساليب البيان القرآنيّ

في التّعبير بشبه الجملة: ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ ثناءٌ على اللّه تعالى، وتعظيمٌ لشأنه، أي: يخافون ربّهم عاليًا رفيعًا عظيمًا، أو يخافونه مُعَظِّمين له، عالِمِينَ بعظيم سُلطانه[4].

دلالةُ الوصل بالواو:

التّأكيدُ على خضوع الملائكة، والتّعريضُ بإبليس الّذي غوى

أكّد ربُّنا ﷻ نَفيَ استكبارِ الملائكةِ، وخضوعَهم، وخوفَهم مِن ربّهم الّذي خلقَهم، بقوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾، وفي هذا العطفِ إشارةٌ إلى إبليسَ الّذي استكبر، ولم يفعل ما أمرَه به ربُّه[5].

فائدة ﴿مَا﴾ الموصولة، في هذا المقام:

الدّلالة على عموم الاستجابة للأوامر، وترك المناهي والزّواجر

قوله تعالى: ﴿مَا يُؤۡمَرُونَ۩﴾ أي: ويفعلُ الملائكةُ كُلَّ ما يؤمَرون به، فهم مُثابِرون على طاعته تعالى، وامتثالِ أوامره، وتركِ زواجره، وكذلك المؤمنون، يأتمرونَ بأوامر اللّه بحسب الشّرعِ وواجبِ الطّاعة، وأمّا غيرُهم، كالحيوان مثلًا، فيأتمرون بالتّسخير والقَدَرِ الّذي يسوقهم إلى أمر اللّه.

دلالةُ المضارع ﴿وَيَفۡعَلُونَ﴾ و﴿يُؤۡمَرُونَ۩﴾:

إفادةُ الاستمرارِ على الأفعال، والامتثالِ في سائر الأزمان والأحوال

اختِيرَ المضارعُ للاستمرار التّجدّديّ في الفعلين؛ ليَدُلَّ على أنَّه مهما أمرهم اللّه تعالى، امتثلوا لأمره طوعًا واختيارًا، مثابرين على

(1) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 101.
(2) المهائميّ، تبصير الرَّحمن وتيسير المنّان: 1/ 409.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 396.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 564.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 419.

طاعته تعالى، وامتثالِ أوامره، وتركِ زواجره، مِن غير تثاقُلٍ عنه، وتوانٍ فيه[1].

بلاغة الاحتباك بين الفعل والأمر:

ذِكْرُ الخوفِ الدّالِّ على الرَّجاء، وذِكْرُ الفعلِ الدّالِّ على الانتهاء

قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ﴾ علمٌ منهم بما عليهم لربِّهم مِنَ الحقِّ، مع عدم مُنازعٍ مِن حظٍّ أو شهوة أو غير ذلك، ودلّ على أنّهم مكلّفون بقوله تعالى: ﴿مَا يُؤۡمَرُونَ﴾، فهم لرحمته يرجون؛ فالآية مِنَ الاحتباك: ذِكْرُ الخوفِ أوّلًا، دالٌّ على الرّجاء ثانيًا، وذِكْرُ الفعلِ ثانيًا دالٌّ على الانتهاء أوّلًا[2]، فهم بينَ الخوف والرّجاء مُدارون، كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: 28][3]، فدلالة الآية على التّكليف لمكان الأمر، وأمّا على الخوف، فهو أظهرُ مِن أن يَخفى، وأمّا على الرَّجاء، فلاستلزامِ الخوفِ على ما قيل، وقيل: إنَّ اتّصافهم بالرَّجاء لأنَّ مَن خَدَم أكرمَ الأكرمين، كان مِنَ الرَّجاء بمكان مَكين[4].

فائدة بناء الفعل ﴿يُؤۡمَرُونَ۩﴾ لما لم يُسَمّ فاعلُه:

إجراءُ البناءِ على سُننِ الجلالة، وعدمُ الحاجة إلى التَّصريح بالفاعل لظُهوره

عدمُ التَّصريحِ بالفاعل في قوله تعالى: ﴿يُؤۡمَرُونَ۩﴾، أسلوبٌ راقٍ مِن أساليب البلاغة الشّائقة؛ وهو أسلوبٌ جارٍ على الأفعال الّتي لا يُطلب لها فاعل؛ لأنَّ العلمَ به لا يُنكر؛ لظهوره وجَلائِه، فجَرى البناءُ للمفعول على سُنَن الجلالة، وإيذانٌ بعدم الحاجة إلى التَّصريح بالفاعل؛ لاستحالة استناده إلى غيره سبحانه[5].

بلاغةُ الإيجازِ في التَّذييل:

بيانُ أنَّ الملائكة مُكلَّفون، مُدارون على الأمر والنَّهي

قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾، أي: ما يؤمرونَ به مِنَ الطّاعات

---

(1) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 291، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 494.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 175.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 540.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 396.
(5) أبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 119.

والتَّدبيرات، ويجتنبون ما يُنهَون عنه[1]، فبَواطنُهم وظواهِرُهم مُبرَّأةٌ مِنَ الأخلاق الفاسدة، والأفعالِ الباطلة، وفيه أنَّ الملائكة مُكلَّفون مُدارون على الأمر والنَّهي، والوعدِ والوعيد، وبينَ الخوف والرّجاء[2].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

دلالةُ خوفِ الملائكة على عصمتهم مِنَ المعصية

قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾، أي: ما يأمرهمُ اللّهُ به، ولم يأت النَّص كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التَّحريم: 6]؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾، مقابلٌ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التحريم: 6]؛ لأنَّ خوف الملائكة مِنَ اللّه خوفُ عِصمة، فهم لا يخطئون، وكذلك فإنَّه يَلزم مِن فعلهم ما يؤمرون به، أنَّهم لا يعصون اللّهَ، فهو تأكيد له[3]، والأظهر في بيان الطّاعة هو: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾؛ لأنَّ العبد قد يُؤمر بعمل مُعَيَّن فلا يفعله، ولا يكون عاصيًا؛ لأنّ تَركَه للفعل قد يكون بعذر، ولكنَّ الملائكة يفعلون كلَّ ما يأمرُهمُ اللّه به، ولا يقعون في العَجْز، وهذا أبلغ في الطّاعة[4].

الحكمةُ من السَّجدة القرآنيّة عند هذا الموضع:

إظهارُ كونِ المؤمنِ مِنَ الفريق الممدوح، لكونه مُشابهًا للملائكة

هنا موضعُ سجودٍ للقارئ بالاتّفاق، وحكمتُه: إظهارُ المؤمن أنّه مِنَ الفريق الممدوح، بأنّه مشابهٌ للملائكة في السُّجود للّه تعالى[5]؛ ليكون في زمرة السّاجدين للّه وحْدَه، المُمتَثلينَ أمرَه[6].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الخوف والخشية:

الخشية خوفٌ خاصٌّ، يَشوبُه تعظيمٌ، وهي أثرٌ مِن آثار الخوف

الخَوفُ: توقُّع حلولِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ[7]، والخشيةُ: تألُّم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 119، والقونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 291.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 15/ 247.
(3) زكريا الأنصاريّ، فتح الرَّحمن: 1/ 573.
(4) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 101.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 171.
(6) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 101.
(7) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 101.

القلبِ، لتوقُّع المكروه مُستقبلًا[1]، فهما متقاربان في اللُّغة؛ أمّا ما كان منهما مِنَ العبد في حقِّ ربِّه، فإنَّ الخوف تألُّم النَّفسِ مِنَ العقاب المُتَوقَّع، بسبب ارتكاب المَنهيّات، والتَّقصير في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخَلْق، وإن كانت مراتبُه متفاوتةً جِدًّا، والمرتبةُ العُليا منه لا تحصُل إلّا للقليل[2].

والخشيةُ: حالةٌ تحصُل عند الشُّعور بمعرفة جلال اللّه وهيبته[3]، وخوفِ الحَجْب عنه، وهذه حالة لا تحصُل إلّا لمن عَلِمَ وذاق لذَّة القُرب، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، فالخوف مِن شرط الإيمان، والخشية مِن شرط العلم[4]، فالخشية: خوفٌ خاصٌّ يَشوبُه تعظيمٌ[5]، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى واصفًا المؤمنين: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرّعد: 21]، حيثُ ذَكَر الخشيةَ في جانبه سبحانه، والخوفَ في جانب الحساب.

يصنعون، ويعملون، ويفعلون:

الصُّنْعُ أخصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ وأرْسَخُها، والعَمَلُ أوْسَطُها، والفِعْلُ أعَمُّها

الفِعْلُ لفظٌ عامٌّ، يدلُّ على إحداث شيءٍ مِن عمل وغيره[6]، فهو مطلقُ التَّأثير من جهة مُؤثِّر[7]، سواء كان عن سبب أو لا، ويُقال لِما كان بإجادة وبدونها، ولِما كان بِعِلْمٍ أو غَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غَيْرِ قَصْدٍ[8].

وأمّا العملُ: فهو عبارة عن إيجاد الأثر في الشَّيءِ، مع امتداد زمان، ولا يُقالُ إلّا لما كان بقصد وعِلْمٍ، دونَ ما لم يكن عن قَصْد

(1) المناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 218.
(3) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 98، والمناوي، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.
(4) البعلي، المُطْلِعُ على ألفاظ المقنع، ص: 239.
(5) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (خشي).
(6) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَةِ: (فعل).
(7) الرّاغِبُ، المُفْرَداتُ: (فعل).
(8) المَناويُّ، التَّوقيفُ على مُهِمّاتِ التَّعاريفِ، ص: 262.

وعلم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، فعَبَّر عن ذلك بالعمل؛ لأنَّه لا يكون إلّا بقَصْدٍ وامتداد زمان.

وأمّا الصُّنْعُ فهوَ: تَرْتيبُ العَمَلِ وإحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ من عِلْمٌ به، وبما يوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل لِلْعِلْم المُتَعَلِّقِ بكيفيَّةِ العملِ صِناعَة[1]، ويَدُلُّ على رسوخ العَمَلِ وإجادَتِه، فيُقالُ للنَّجار صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجار قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَلَهُ، وعَلِمَ بالأسبابِ الّتي توصِلُ لِلْمُرادِ من ذلك الصُّنْعُ.

فالصُّنْعُ أخَصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ، والفعل أعَمُّها، والعَمَلُ أوْسَطُها، فكلُّ صُنْعٍ عَمَلٌ، ولَيْسَ كُلُّ عَمَلٍ صُنْعًا، وكلُّ عملٍ فِعْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ فِعْلٍ عَمَلًا[2].

(1) الجُرْجانيُّ، التَّعْريفاتُ، ص: 134، والتَّهانويُّ، كشّافُ اصطلاحات الفنون: 7/ 109.
(2) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 134.

﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾ [النّحل: 51]

النَّهيُ عنِ الشِّرك، والتّحذيرُ منه، بعد إظهار دلائلِ التَّوحيد، وشواهدِ عَظَمةِ اللهِ المجيد

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد ما أخبر اللّه ﷻ في الآية المتقدّمة، أنّ كلّ ما في السَّماوات والأرض، خاضعون للّه، منقادون لأمره، عابدون له، وأنَّهم في مُلْكِه وتحت قُدْرته، وبيَّن سبحانَه أنَّ مخلوقاتِه السَّماويّة والأرضيَّة مُنقادةٌ له، خاضعةٌ لجلاله، أتبَعَ ذلك بالنَّهي عن الشِّرك، وبيانِ أنَّ كُلَّ ما سواه واقع في مُلْكِه، وتحتَ تصرُّفه، وأنَّه غنيٌّ عن الكُلِّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَّخِذُوٓاْ﴾: أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُه وجَمعُه، قال الخَليلُ: هوَ خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[2]، والإخذُ بالكسر، الاسمُ، والأمر منه خُذْ، وأصلُه أُؤْخُذْ، إلّا أنَّهمُ استثقلوا الهمزتين فحذفوهما تخفيفًا[3]، وهو من الأضداد: يقال: أخذَ الشَّيْءَ عَنْوَة، إذا أخذه غَصْبًا وغلَبَة، وأخذه عَنْوَة، إذا أخذه بمحبَّة ورضًا مِنَ المأخوذ منه[4]، والاتِّخاذُ: جَعْلُ الشَّخْصِ الشَّيْءَ لِنَفْسِه، فجُعِلَ الاتِّخاذُ هُنا الاعتِقاد والعِبادة، وهو المقصود به في الآية، والمراد: التَّأكيدُ عَلى أنَّ عَقيدَتَهُم في تلكَ الآلِهَةِ شَيْءٌ مُصْطَلَحٌ عليهِ مُخْتَلَقٌ منهيٌّ عنه مِنَ اللّه تعالى[5].

2) ﴿فَإِيَّٰيَ﴾: (إيّا) اسمٌ مُبهَمٌ، جُعِلَ لِيَعْتَمِدَ عليه الضَّميرُ عندَ

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 81، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/ 38، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 166.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (أخذ).
(4) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 79.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 163.

انْفِصالِهِ؛ ولذلكَ لَزِمَتها الضَّمائِرُ، نَحْوُ: (إيّايَ تَعْنِي)، و(إيّاكَ أعْنِي)، و(إيّاهم أرْجو)، ومِن هُنالِكَ التُزِمَ في التَّحْذِيرِ؛ لِأَنَّ الضَّميرَ انْفَصَلَ عندَ التِزامِ حَذْفِ العامِلِ، ومِنَ النُّحاةِ مَن جَعَلَ (إيّا) ضَميرًا مُنْفَصِلًا مُلازِمًا حالَةً واحِدَةً، وجَعَلَ الضَّمائِرَ الَّتِي مَعَهُ، أُضِيفَتْ إليهِ لِلتَّأْكِيدِ، ومِنهم مَن جَعَلَ (إيّا) هو الضَّميرُ، وجَعَلَ ما بَعْدَهُ حُروفًا لِبَيانِ الضَّميرِ، ومِنهم مَن جَعَلَ (إيّا)، اعتِمادًا لِلضَّميرِ، كما كانَتْ (أيُّ) اعْتِمادًا لِلْمُنادى الَّذِي فِيهِ (ال)، ومِنهم مَن جَعَلَ (إيّا) اسْمًا ظاهِرًا، مُضافًا لِلمُضْمَراتِ[1]، والمرادُ بقوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ في الآية: حَصْرٌ ادِّعائِيٌّ للمُبالَغَةِ، لِعَدَمِ الاعْتِدادِ بالرَّهبَةِ المُتعارَفَةِ بينَ النّاسِ بَعْضِهِم بِبَعْضٍ في شؤونهم.

3) ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾: أصلُ (رهب): يَدُلُّ عَلَى خَوْفٍ[2]، ورَهِبَ بالكَسْرِ، يَرْهَبُ رَهْبَةً ورُهْبًا بالضَّمِّ، ورَهَبًا بالتَّحْرِيكِ، أي:خافَ ورَهِبَ الشّيءَ رَهْبًا ورَهَبًا ورَهْبَةً: خافَه مع تَحَرُّزٍ واضطرابٍ[3]، والتَّرَهُّبُ: التَّعبُّد، وهو استعمال الرَّهبة، والرَّهْبانِيّةُ: غُلُوٌّ في تَحَمُّلِ التَّعبُّد، مِن فَرْطِ الرَّهْبَةِ[4]، والإرْهابُ: فزَعُ الإبل، وإنَّما هو مِن: أرْهَبْتُ[5]، والمقصود بالرّهبة في الآية: الخَوْفُ والفَزَعُ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

قال اللّهُ لِعبادِه: لا تَعبُدوا مَعبودَينِ اثنَينِ، فتَجعَلوا لي شَريكًا في العبادةِ، إنَّما المعبودُ المُستَحقُّ للعبادةِ واحِدٌ، وهو اللّهُ وحدَه؛ فلا تَعبُدوا غيرَه، فخافوني وحْدي، وامتَثِلوا أمري، واجتَنِبوا نَهيي، ولا

ليس لله ﷻ نظيرٌ يُناظِرُه، أو شبيهٌ يُقابِلُه، فهو المتفرّد بجلاله وجَماله

(1) الرّاغب، المفردات: (أوى)، وابن منظور، لسان العرب: (أيا)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 180.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهب).
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رهب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رهب).
(5) الرّاغب، المفردات: (رهب).

تُشرِكوا بي شَيئًا[1]، فإنّه مالكُ كلّ شيء وخالِقُه وربُّه، وهو وحدَه الّذي يستحِقّ أن يخشاه النّاس ويرهبوه، فمَن عَبَد مع الله غيرَه فقد أشرك به، إنّما هو الله إله واحد، ومعبود واحد، فاتّقوني وخافوا عقابي، جرّاءَ الإشراكِ وعبادةِ سواي.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ افتتاحِ الآية بالعطف:

تَتابُعُ رَدِّ عقائدِ الكفّار الباطلة، وتقريرُ قواعدِ التَّوحيدِ الخالص الصّافي

لَمّا كان التَّوحيد أعظمَ المأمورات، وكان العصيانُ فيه أعظمَ العصيان، وكان سبحانَه قد أكثر التَّخويفَ من عصيانه، وأبلغَ الأمرَ إلى نهايته بالإخبار، بأنّ الملائكةَ تخافُه، وكان الملائكةُ مِن أعظم الموحِّدين، كما كانوا مِن أعظم السّاجدين مِن أهل السَّماوات والأرض، وكانت هذه الآيات مِن أعظم أدِلَّة التَّوحيد، أَتبَعَها عطفًا على كُلِّ هذا قولَه: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ الآية[2]، فهذه الجملةُ السّاميَةُ مُتَّصلةٌ بما قبلَها بالواو العاطفة، والواوُ العاطفةُ على: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: اللّه الّذي يخضع الوجودُ كُلُّه له، لا فرقَ بين حيٍّ وجماد، ولا عاقلٍ ولا غيرِ عاقل، يقول لكم: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾[3]، ففي هذا العطفِ إعلامٌ بنهيه الصَّريح عنِ الإشراك، وبأمرِه بعبادته وحْدَه[4]، وهذه الآيةُ تُتابِعُ رَدَّ عقائدِ الكفّارِ الباطلة، وتقرير قواعدِ التَّوحيدِ الخالص الصّافي.

دلالةُ ذِكرِ القولِ دون المقول له:

إفادةُ عمومِ الخطاب لجميع المُكلَّفين

ذَكَر النَّظمُ الكريمُ فِعْلَ القولِ، ولم يَذكرِ المَقولَ لهم للعموم؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 246، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 113، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 442.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 175.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4192.

(4) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/ 377.

أي: قال تعالى لجميع المُكَلَّفين بواسطة الرُّسلِ عليهم السلام: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾[1].

السِّرُّ وراءَ التَّصريحِ بالاسم الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾:

تعظيمُ المقامِ بالاسمِ الأعظمِ، تأكيدٌ على عظيمِ خَطَرِ الشِّركِ

ذِكْرُ اسمِ الجلالةِ لأجل تعظيم المَقام بالاسم الأعظم الخاصّ الّذي بُنِيَت عليه السّورة[2]، وأيضًا جاء النَّصُّ الشَّريف: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، ولم يأتِ النَّهي وحدَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ دون جملة: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ جملة ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ تأكيدٌ على عظيم خَطَر الشِّرك، وأنَّ اللّه ﷻ هو صاحبُ الشَّأن، وصاحبُ الحقِّ في التَّوحيد، فانظروا عظيمَ العقاب، عند مُخالفته ﷻ[3]؛ فإظهار الفاعل، وتخصيص لفظ الجلالة بالذِّكر، للإيذان بأنَّه تعالى مُتَعَيِّنُ الألوهيَّة[4].

دلالةُ النَّهي في الآية الكريمة:

الإشارةُ إلى ترك المنهيِّ عنه، والإتيانِ بما يُقابلُه

القولُ مِنَ اللّه ﷻ أمرٌ، وهو هُنا أمرٌ باجتناب مُنْكَرٍ، فالأمرُ واقع على نهي، وهو قولُه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، فهو توكيدٌ للنَّهي بتَرْك المَنهيِّ عنه، والإتيانِ بما يُقابلُه، وهو المأمورُ به، ويكون المعنى: لا تتخذوا إلَهين اثنين، واعبدوا إلهًا واحدًا[5].

معنى الاتخاذِ المنهيِّ عنه:

الدّلالةُ على أنَّ المنهيَّ عنه في الآية الكريمة هو الإشراكُ به

الاتّخاذُ المَنهيُّ عنه في الآية الكريمة هو الإشراكُ به، لا أنَّ المَنهيّ عنه هو مُطلقُ اتّخاذ إلَهَين، بحيثُ يتحقَّقُ الانتهاءُ عنه بِرَفْضِ أيِّهما كان[6].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 401.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 175.
(3) القدّوميّ، التَّفسير البياني، ص: 103.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 166.
(5) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 306.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 401.

الدّلالةُ البلاغيَّةُ لصيغة التَّثنية في ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾:

انتفاءُ الشّركة في الألوهيَّة والعُبوديَّة

لا تتَّخذوا لي شريكًا، ولا تعبدوا سِواي، فإنّكم إذا عبدتُم معي غيري جعلتُموه لي شريكًا، ولا شريكَ لي، إنَّما هو إلهٌ واحد، ومعبودٌ واحد، وأنا ذاك[1]، فالأُلوهيَّةُ مُنحَصِرةٌ في الذّات الأقدس ﷻ[2].

الفائدة مِنَ التَّأكيد بالوصف:

توصيفُ إلَهين باثنين، يُشعِرُ بأنَّ عِلّة النّهي هي الاثنينيَّةُ الّتي تُنافي الألوهيّة

أُكِّدت صيغةُ التَّثنيةِ ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾، بلفظ ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾؛ لأنّ النَّهي ليس لتَعدّد الآلهةِ فقط، وإنَّما هو نهيٌ يُقصَد به صورةٌ معيّنة مِنَ الشِّرْك، وهو شركُ التَّثنيةِ الّذي اعتنقه المجوسُ، وانتقل إلى بعض العرب[3]، وهذا التَّأكيد جِيءَ به للدّلالة على أنَّ الاثنينيَّة مقصودةٌ بالنَّهي، وكونها مُنافيةً للإلَهيّة، إبطالًا لشرك مخصوص مِن إشراك المشركين، لا لتعليق الحُكم بعددٍ محصور، وهذا يَدُلُّ عليه ما بعدَه، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[4]، فذِكْرُ العددِ مع أنَّ المعدود يدُلُّ عليه، دلالةٌ على أنَّ مساق النَّهي إليه، ووجهُ المنافاة: أنّا لو فرضنا وجودَ الاثنين، فإنَّه لو حاول أحدُهما تحريكَ جسمٍ مثلًا، والآخرُ تسكينَه، فإمّا أن يَحصُل مُرادُ كُلٍّ واحدٍ منهما، وهو مُحالٌ؛ لاستلزامه اجتماعَ الضِّدين في موضع واحد، أو لا يحصُلَ مُرادُ كُلِّ واحدٍ منهما، فيَلْزَمُ عجْزُهما، والعاجِزُ لا يكون إلهًا، أو يحصلَ مُرادُ أحدِهما، فيَلْزَمُ عجْزُ أحدِهما دونَ الآخر، فلا يكون الآخَرُ إلهًا، فثَبَتَ أنَّ الاثنينيّةَ تُنافي الإلَهيّة[5]، إذ ليس للّه ﷻ نظيرٌ يناظِرُه، أو شبيهٌ يقابلُه، إذ هكذا يكون الإلهُ الّذي يُعْبَد إلهًا مُتفرِّدًا بالكمال والجلال، لا يُشاركُه أحدٌ في كماله وجَلاله، وإلّا كان ناقصًا

(1) المراغي، تفسير المراغي: 14/ 92.
(2) الحجازي، التَّفسير الواضح: 2/ 316.
(3) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 103.
(4) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 2/ 187، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 172 - 173.
(5) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/ 229، والقونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 293.

لا يستحِقّ أن يأخذ مكانَ التَّفرُّدِ، وعلى العقل أن يبحث عنِ الإله الّذي لا مثيلَ له، ولا نظير، وإنَّ البحثَ سينتهي به إلى اللّه الواحدِ الأحدِ، الفرد الصّمد[1].

بديعُ الاحتراسِ في الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتَّثنيَة:

إثباتُ الأحديّةِ فـي الألـوهـيّة، ونـفـيُ الشّـركـةِ فيها، هو صميم التّوحيدِ الفِطْريّ الخالص

وَرَدَ الاحتراسُ في قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، والمعروفُ أنَّه لا يُجمَع بينَ العدد والمعدود إلّا فيما وراءَ الواحد والاثنين، فيقولون: عندي رجالٌ ثلاثةٌ، ونساءٌ ثلاثٌ؛ لأنَّ المعدودَ عارٍ عنِ الدّلالة على العَدَدِ الخاصّ، فلو لم تُشْفِعْهُ بصفته، لما فهمتَ العددَ المُراد، وأمّا رجل وامرأة ورجلان وامرأتان فمعدودان، فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يُقال: رجل واحد، وامرأة واحدة، ورجلان اثنان، وامرأتان اثنتان، أمّا في الآية، فالاسم الحامل لمعنى الإفراد والتَّثنية، وهو إلهٌ وإلهانِ، دالٌّ على شيئَين، على الجنسيَّة والعدد المَخصوص، فإذا أُريدَ الدّلالة على أنّ المُراد الّذي يُساق إليه الحديثُ، هو العدد، كان لا بُدّ مِن أن يُشفَّع بما يُؤكِّده، ألا ترى أنّك لو قلتَ: إله، ولم تؤكّدْه بواحد، لم يَحْسُن، وخُيِّل إليك أنَّك تُثبت الإلَهيَّة، لا الوحدانيّةَ، فكان لا بدّ مِنَ الاحتراس، وهذا مِن روائع البلاغة، الّتي تتقطَّعُ دونَها الأعناقُ[2].

دلالةُ الاقتضاء، وبلاغته في لفظة ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾:

المبـالـغـةُ في التّنفير مِن اتّخاذ الشُّركاءِ لله ربِّ العالمين

لما كان ربَّما قال المُتَعنِّتُ: إنَّ المَنهيَّ عنه تكثيرُ الأسماء، قال مُؤكِّدًا ومُحَقِّقًا: ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾؛ لأجل المبالغةِ في التَّنفير مِن اتّخاذ الشَّريك[3]؛ لأنَّهم إذا نُهوا عنِ اتّخاذ إلَهَين فقد دلَّ بدلالة الاقتضاء على إبطال اتّخاذ آلهةٍ كثيرة مع كون معبوداتهم كانت كثيرة، وفي

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 306.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 316.

(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 268.

هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما يُسمَّى آلهة - وإن زاد عددها - يرجع بالحقيقة إلى اثنين: خالقٍ ومَخْلوقٍ، ومِنَ المعلوم لكلِّ ذي لُبٍّ، أنَّ المَخلوق غيرُ صالحٍ للأُلوهيَّة، فانحصر الأمرُ في الخالق، وإن لم يكن فيه الخالق كان مُنقسمًا لا محالةَ، وأقلّ ما ينقسم إلى اثنين[1]؛ فذِكْر النَّهي عن اثنين، لأنَّه يتضمَّن النَّهيَ عن ثلاثة وأكثر بالطَّريق الأَوْلى؛ لأنَّه إذا كان الأقلُّ مَنهيًّا عنه، فالأكثرُ أولى بالنَّهي؛ ولأنَّ اتِّخاذَ إلَهَين دلَّتِ الآيةُ الأُخرى على أنَّه يُؤدِّي إلى الفساد في السَّماوات والأرض، إذ إنّ تَعَدُّد الآلهةِ يُلغي معنى الأُلوهيَّة، ويُفسد السَّماواتِ والأرض، الّتي دلَّتِ الآياتُ المَتلوَّة، والآيات الكونيَّة، على أنّهما مُنَظَّمانِ أبلغَ ما يكون النِّظامُ، قال اللّه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: 22][2].

دلالةُ الفَصل في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

بيانُ ما قبلَه بإفادة المنطوقِ ما أُفيدَ قبلُ بدلالة الاقتضاء

جملةُ: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ يجوز أن تكون بيانًا لجملة: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، فالجملةُ مقولَةٌ لفعل: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ عطف البيانِ تابعٌ للمُبَيَّن، فلذلك فُصِلَتْ، وبذلك أُفيدَ بالمنطوق ما أُفيدَ قبلُ بدلالة الاقتضاء[3].

دلالةُ القَصرِ ونوعُه في ﴿إِنَّمَا﴾:

إبطالُ دعوى المشركين تثنيّةَ الإلهِ؛ وحَصْرُ صفةِ الوحدانيَّةِ في عَلَمِ الجلالة

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا ثاني له، وهذا الإلهُ الواحدُ هو اللّهُ ﷻ، لا شريكَ له، وجاء الإخبارُ عن توحيد اللّه، بطريق قَصْر الموصوف على الصِّفة، والموصوف: هو اللّهُ ﷻ، والصّفة: هي توحّد الإلَهيّة، أي: اللّهُ مُختصٌّ بصفة تَوَحُّدِ الإلَهيَّة، ولو جاء القصر في غير التَّنزيل: (إنَّما الإلهُ الواحدُ هو اللّه)، لكان ردًّا على مَن ظَنَّ أنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 176، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 173.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4192.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 173.

الإله الواحد هو غيرُ اللّهِ، أي: (إنَّما الإلهُ الواحد هو اللّه) لا غيره، ولكن جاء النَّص: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: الإلهُ المفهومُ مِن لفظ ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾، لأنَّه رَدٌّ على مَن ظَنَّ أنَّه اثنان، أي: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا اثنان[1].

فاللّه تعالى وحْدَه مُختَصٌّ بصفة تَوَحُّد الإلَهيَّة، وهو قَصْرُ قَلْبٍ، لإبطال دعوى تثنيّة الإله، وحَصْرِ صفة الوحدانيَّة في علم الجلالة، بالنَّظر إلى أنَّ مُسَمّى ذلك العِلْم، مُساوٍ لِمُسَمّى إله، إذِ الإلهُ مُنحَصِر في مُسَمّى ذلك العَلَمِ الجليل[2].

فائدةُ الضَّميرِ المنفصل ﴿هُوَ﴾:

الإشـارةُ إلى القـول الأوّل، وتـأكيـدُه بما يُجلّي معناه

والضّميرُ مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ عائدٌ إلى اسم الجَلالة، في قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾، أي: (قال اللّه إنَّما اللّه إله واحد)، وهذا جَرِيٌ على أحد وجْهَين في حكاية القول وما في معناه بالمعنى، كما هُنا[3]، قال البقاعيّ: "ثمّ علّل ذلك النّهيَ بما اقتضاه السّياقُ مِنَ الوحدانيّة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ﴾ أي: الإلهُ المفهومُ مِن لفظ ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ الّذي لا يَستَحِقُّ غيرُه أن يُطْلَق عليه هذا الضّمير إلّا مَجازًا، لأنّه لا يُطلَق إطلاقًا حقيقيًّا إلّا على ما وجَده من ذاته ﴿إِلَٰهٌ﴾، أي: يستَحِقّ هذا الوصفَ على الإطلاق"[4].

الدّلالةُ البلاغيّةُ للإفراد في ﴿إِلَٰهٌ﴾:

إثباتُ الأُلوهيَّةِ والعُبوديَّةِ لله المعبودِ بالحَقِّ، هو جَوهَر عقيدةِ التّوحيد

لَمّا دَلّتِ الدَّلائلُ السّابقةُ، على أنَّه لا بُدَّ للعالَم مِن إلهٍ، وقد ثبت أنّ وجود الإلَهين مُحالٌ؛ ثبتَ أنَّه لا إلهَ إلّا الواحدُ الأحَد[5] الّذي يُعْبَد بالحَقِّ، ويُرْجَعُ نحوه في مُطلق الوقائع والخطوب، وتُفَوَّضُ إليه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 176، والقدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 103.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 173.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 173.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 173.
(5) الجاويّ، مراح لبيد: 1/ 595.

الأُمورُ كُلُّها، وما هو إلّا اللّهُ، المُتَّصِفُ بعموم أوصاف الكمالِ، ونُعوتِ الجَلال والجَمال(1).

فائدةُ التّأكيدِ بالوصف: ﴿وَٰحِدٞ﴾:

الوحدانيّةُ تقتضي غناه المطْلَقَ عن كُلِّ شيء، واحتياجَ كُلِّ شيء إليه

وُصِفَ الإلهُ بالوَحْدة في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾: للدّلالة على أنَّ المقصود إثباتُ الوحدانيَّة، وأنَّها مِن لوازم الأُلوهيَّة، أمّا الأُلوهيَّة فغير مُنكَرَة ولا مُتنازع فيها(2)، فهي أمرٌ مُسَلَّمٌ الثُّبوتِ له سُبحانَه، وإليه أُشيرَ حيثُ أُسنِدَ إليه القول(3)، وجِيءَ بالعدد والمَعدود للإيضاح والتَّفسير، لا للتَّأكيد وإن حصل(4)، فلمّا كان السِّياقُ مُفهِمًا للوحدانيَّة مِنَ النَّهي عنِ التَّثنيَة، وكان ربّما تَعَنَّتَ مُتَعَنِّتٌ بأنَّ المُراد إثباتُ الإلهِ الدّالّ على الجِنس، قال رافعًا لِكُلِّ شُبهة: ﴿وَٰحِدٞ﴾ أي: لا يمكن أن يُثَنّى بوجهٍ، ولا أن يُجَزّأ؛ لغناه المُطْلَقِ عن كُلِّ شيء، واحتياجِ كُلِّ شيء إليه، فكونوا ممَّن يَسْجُد له طَوعًا، ولا تكونوا ممَّن لا يَسْجُد له إلّا كَرهًا(5)، فزيادةُ ﴿وَٰحِدٞ﴾ كانت دفعًا لِتوهُّم أنَّ المُراد إثباتُ الألوهيَّةِ دونَ الوَحدةِ، وخِلافُ المُشركين مُنصبٌّ على الوَحْدةِ في الإله(6).

دلالةُ الاعتراضِ بالجملة الخبريّة: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

تعليلُ جُملةِ النَّهي عنِ اتِّخاذ أكثرِ مِن إله

يجوز أن تكون جملةُ: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ مُعترِضةً، واقعةً تعليلًا لجملة: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، أي: نهى اللّهُ عنِ اتّخاذ إلَهين؛ لأنَّ اللّهَ واحد، واللّهُ هو مُسَمَّى ﴿إِلَٰهٞ﴾، فاتّخاذُ إلَهين اثنين، قَلْبٌ لحقيقة الإلَهيَّة(7)، لذلك شَهِد لنفسه بنفسه، فقال: ﴿إِنَّمَا

(1) الشّيخ علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/ 428.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 92.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 119.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 401.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 177، والشِّربينيّ، السراج المنير: 2/ 265.
(6) الحجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/ 316.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 173.

﴿هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وفي هذا المِضمار، "لو قال معترضٌ: كيف يشهد لذاته؟ نقول: نعم، يشهد لذاته سبحانَه؛ لأنّه لا أحدَ غيرُه، ولا أحدَ معه، فشَهادةُ الذّاتِ للذّات هنا شيءٌ طبيعيٌّ، وكأنّه سبحانَه يقول: لا أحدَ غيري، وإنْ كان هناك إلهٌ غيري، فلْيُرني نفسَه، وليُفصِحْ عن وُجودِه"[1].

نوع الفاء في ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ﴾، هي فاء العطف، وتحمل معنى السَّببيّة، أي: ارهبوا اللّهَ؛ لأنَّكم علمتُم أنّ اللّه هو الإلهُ الواحدُ، فانتقل النَّظمُ الكريمُ بالإفصاح بها، مِن مقام التَّنبيه والتَّعليل، بِذِكْرِ أدلَّة الوحدانيَّة في خلق السَّماوات والأرض، والتَّوجيه والبرهان، إلى التَّخويف والتَّرهيب[2].

بلاغةُ حَذْفِ جملةِ فعلِ الشّرط:

فاءُ السَّببيَّةِ الدّالَّة على تَضمُّنِ الكلام معنى الشَّرط، واقعةٌ في جواب شرط مُقَدّر، و﴿فَإِيَّٰيَ﴾ مفعول به لفعل محذوف، يُقَدَّر مُؤَخَّرًا، يَدُلُّ عليه قوله: ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾[3]، أي: إن كنتُم راهبينَ شيئًا فارهبونِ فيما تأتونَهُ وتَذَرونَه، وخصوصًا في اتّخاذ إلَهين اثنين دون غيري، فأنا الإلهُ الواحدُ، القادر على كُلِّ شيء مِنَ الثَّواب والعقاب[4]، فجِيءَ بالفاء إيجازًا واختصارًا للكلام.

بلاغةُ الالتفات:

قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ أي: ذلك الواحدُ أنا وحْدِي لا شريكَ لي، فمَن لم يوحّدْني أوقعتُ به بقوَّتي ما لا يُطيقُه لَعَجْزِه[5]، وفي الآية

الإفصاحُ بالانتقال مِن مقام التَّنبيه والتَّعليل، إلى مقام التَّخويف والتَّرهيب

دلالةُ فاءِ السَّببيّة على المحذوف، مِن بلاغة الإيجاز

الدّلالة على تقرير العقيدة الأصليَّة، وتخويفُ المخاطَبِ وعظًا له وزَجْرًا

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: (الخواطر): 13/ 7992.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4192.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 166.
(4) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 292.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 177.

التفات مِنَ الغيبة في قوله: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، إلى المُتَكلِّم: ﴿فَإِيَّٰيَ﴾، ولم يأتِ النَّصُ: (فإيّاه فارهبوا)؛ لأنَّ الالتفات يَدُلُّ على كمال الاعتناء بالأمر، كيف لا، والأمر هو أمرُ توحيدِ اللّه؟! وكأنَّ اللّهَ يقول لهم: أنا ذلك الإلهُ الواحدُ فارهبوني[1].

وجاء هذا الالتفات أيضًا لِمُناسبة انتقالِ الكلامِ مِن تقرير دليل وحدانيَّة اللّه على وجه كُلِّيٍّ، إلى تعيين هذا الواحد أنَّه اللّه، مُنزلُ القرآنِ تحقيقًا؛ لتقرير العقيدة الأصليَّة، وفي هذا الالتفات اهتمامٌ بالرَّهبة، لما في الالتفات مِن هَزِّ فهْمِ المخاطبين[2]، ففي هذا الالتفات مُبالغةٌ في التَّخويف، إذ تخويفُ الحاضرِ أبلغُ مِن تخويف الغائب، لا سيما بعد أن وصفَ سبحانَه ذاتَه بما وصف مِن صفات القَهْر والغَلَبة والكِبرياء[3]، فهذا الخِطاب يورث اتّعاظًا، ويزيد إصغاءَ السّامعِ، فيزدادُ تأثيرًا[4].

بلاغةُ الحصرِ في تقديم ضمير المفعوليّة ﴿فَإِيَّٰيَ﴾:

قَصرُ الرَّهبةِ التّامّةِ منه عليه، فلا اعتدادَ بقُدْرة غيرِه على ضُرِّ أحد

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ المفعولَ ﴿فَإِيَّٰيَ﴾؛ لإفادةِ الحصر، فقد حَصَرَ اللّهُ ﷻ الرَّهبةَ منه على نفسه، فقال: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، أي: ارهبوني وحْدِي، ولا ترهبوا معي أحدًا، فعلى المسلم ألّا يخشى إلّا اللّه؛ لأنَّ الضُّرَّ والنَّفعَ بيد اللّه وحْدَه، لا بيدِ أحدٍ غيرِه[5]، وهذا القَصْر، قَصْرُ قلبٍ إضافيٌّ، حيثُ قَصَرَ الرَّهبةَ التَّامَّةَ منه عليه، فلا اعتدادَ بقُدرة غيرِه على ضُرِّ أحد، ولا يَرهَبُ الخَلْقُ إلّا منه، ولا يرغبوا إلّا في فضله وإحسانه، وذلك لأنَّ الموجود إمّا قديمٌ وإمّا مُحْدَث، أمّا القديمُ الّذي هو الإله فهو واحد، وأمّا ما سِواه

(1) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 103.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 174.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 166.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 229، والقونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 292.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 166، والقدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 103.

فمُحْدَثٌ، وإنَّما حَدَثَ بتخليق ذلك القديم وبإيجاده، وإذا كان كذلك فلا رغبةَ إلّا إليه، ولا رهبةَ إلّا مِنْهُ[1]، وهذ القصرُ آكَدُ في إفادة التَّخصيص، مِنَ القَصْر في: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، لما فيه مع التَّقديم مِن تكرير المفعول، والفعلُ مُكَرَّرٌ أيضًا، لكن لعدم مَدْخَليّته في التَّخصيص لم يَذْكُره[2].

دلالة الفاء في ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾:

عَطْفُ المُفَسَّر على المُفَسَّر، لإفادة معنى التَّأكيد

اقترن حرف الفاء بالفعل في قوله: ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾؛ لأنَّ المفعول به، وهو الضَّمير المنفصل (إيّاي)، معمولٌ لفعل مُقَدَّرٍ بعدَه، أي: إيّاي ارهبوا، أي ارهبوني وحْدِي، وعلى هذا يكون التَّقدير: إيّاي ارهبوا فارهبوني، أي: أمرتُكم أن ترهبوني وحدي فارهبوني كما أمرتُكم[3]، فهو عَطْفُ المُفَسَّر على المُفَسَّر بالفاء، لأنّ المُراد رهبةٌ بعد رهبةٍ، فالفاء في ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ عاطفة[4]، واقترانُ فعلِ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ بها؛ ليكون تفريعًا على تفريع، فيفيدُ مفاد التَّأكيد[5].

بلاغةُ فعلِ الأمر ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾:

الرَّهبةُ بمواطن الخوف، يَتَمايزُ فيها الموحِّدُ مِنَ المُشرِك

لّما كانتِ الوحدانيَّة ممّا لا يخفى على عاقل، وكانت مَركوزةً في كلّ فِطرةٍ، بدليل الاضطراب عند المِحَنِ والشَّدائدِ والفِتن، وكانتِ الرَّهبةُ خاصَّةً بالخوف، ممّا خالفَ العاصِي فيه العِلْمَ، عبَّر بها فقال تعالى: ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾، أي مُختَصًّا بذلك، فلا تخافوا شيئًا غيْري، من صنم ولا غيرِه، فإنَّه ليس لشيء مِن ذلك قدرةٌ، وإن أودعتُهُ فإنَّه لا يتمكّن مِن إنفاذها، فالأمر كُلُّه إليَّ وحْدِي[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 219.
(2) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 293.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 103.
(4) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 293.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 174.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 177.

دلالة الاقتصار على ذِكْرِ (الرَّهبة) دونَ (الرَّغبة):

قَصْرُ الرَّهبةِ على الله وحْدَه، اعتقادٌ بقَصْرِ القُدرةِ التّامَّة عليه، دونَ سِواه

الاقتصار على الأمر بالرَّهبة، وقصرُها على كونها مِنَ اللّه تعالى، يُفْهَم منه الأمرُ بقَصْر الرَّغبةِ عليه، لِدَلالة قَصْر الرَّهبةِ على اعتقاد قَصْر القُدْرةِ التّامَّة عليه، فيُفيدُ الرَّدَّ على الّذين يطمعون في إلهِ الخَيْرِ بطريق الأولى، وإنَّما اقتصر على الرَّهبة؛ لأنَّ شأنَ كثيرٍ مِنَ المشركين كالمَزْدَكيَّة أن تكون عبادتُهم عن خوفِ إلهِ الشَّرِّ، لأنَّ إلهَ الخيرِ هم في أمنٍ منه، فإنَّه مطبوع على الخير(1).

بلاغة توالي المؤكِّدات:

قَرْعُ الأسماعِ والقلوبِ بقوارعِ الحقِّ، تنفيرًا مِنَ الشِّرك، وترغيبًا في التّوحيد

اشتملتِ الآيةُ الكريمة، على ألوانٍ مِنَ المُؤكِّدات، للنَّهي عنِ الشِّرك، والأمر بإخلاص العبادة للّه تعالى وحْدَه، تارةً عن طريق التَّقرير والتّصريح بلفظ الجلالة: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾، وتارةً عن طريق النَّهي الصَّريح، وبـ (إنَّما) الّتي تُفيد التَّأكيد؛ وتارةً عن طريق القَصْر، وتارةً عن طريق التَّخصيص؛ لأنَّ المشركين مُنكرينَ لتوحيد اللّه، فأكَّد لهم التَّوحيدَ بكلّ هذه التَّأكيدات؛ ليَقْرعَ آذانَهم، لعلَّهُ يقرعُ قلوبَهم، وذلك لكي يُقلعَ النّاسُ عن رذيلة الشِّرك النَّكراء، ويؤمنوا باللّه الواحد القهّار(2).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأخذُ والاتّخاذ:

الأخذُ حَوْزُ الشَّيءِ وجمعُه، والاتّخاذ جَعْلُ الشَّيءِ مُكَرَّسًا لأمرٍ، والاستمرار عليه

الأخذ مَصْدر أخَذْتُ بيديَّ، ويُستعار فيقال أخذَه بلسانه، إذا تَكلَّمَ فيه بمكروه، وجاء بمعنى العَذابِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ۝٧٣﴾ [الحجر: 73]، وأصله في العربيَّة: حَوْزُ الشَّيءِ وجَبْيُه وجمعُه(3).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 174.

(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/ 377، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 168، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 14/ 2666.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).

والاتّخاذ: أَخْذُ الشَّيءِ لأمرٍ يَسْتَمِرُّ فيه، فيُستعمَلُ بمعنى جَعَلَ[1]، مثلُ الدّارِ يتَّخذُها مَسكنًا، ويكون الاتخاذُ في التَّسمية والحُكْم، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]، أي: سَمَّوها بذلك وحَكَموا لها به[2]، كما أنَّ الاتِّخاذَ على صيغة الافتعال، وهي دالَّة على التَّكلُّف للمُبالغة في تحصيل الفعل، وهذا المناسبُ لاستعمال القرآن في فعلهم مع آلهتِهم الباطلةِ.

الرّهبةُ والخوفُ والخشيَةُ:

الرّهبَةُ مخافةٌ مـعَ تَـحـرُّزٍ واضـطـراب، والخشيَةُ خوفٌ يَشوبُه تعظيمٌ

الرَّهبةُ في اللُّغة: طولُ الخَوْفِ وشِدَّتُه واستمرارُه، وتَصْحَبُه مهابَةٌ، ومِن ثَمَّ قيل للرّاهب: راهِب، لأنَّهُ يُديمُ الخوفَ[3]، والرَّهْبُ: هي مخافةٌ معَ تَحرُّزٍ واضطراب[4]، والرَّهْبَةُ في الاصطلاح: إمعانٌ في الهَرب مِنَ المكروه، وهي ضِدُّ الرَّغبةِ، الّتي هي سَفَرُ القلب في طلب المَرغوب فيه[5]، فهي وصف عمل القلب، عند حصول الخوف، وفيها معنى الهَيبة والإجلال، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90].

أمّا الخوفُ: فهو تَوَقُّعُ حلولِ مكروهٍ، أو فواتِ مَحبوبٍ[6].

والخشيَةُ: تألُّمُ القلبِ لتوقُّعِ المَكروه مُستقبلًا[7]، وهما متقاربان في اللُّغة؛ أمّا ما كان منهما مِنَ العبد في حقِّ ربِّه، فإنَّ الخوفَ تألُّمُ النَّفسِ مِنَ العقاب المُتوقَّع، بسبب ارتكاب المَنهيّات، والتَّقصيرِ في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخَلْق، وإن كانت مراتبُه متفاوتةً جِدًّا، والمرتبة العُليا منه لا تحصُل إلّا للقليل[8].

---

(1) الفيوميُّ، المصباح المنير: 1/ 7، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط، ص: 331.
(2) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 29.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهب)، والفيّوميّ، المصباح المنير: 1/ 241.
(4) المناويّ، التَّوقيف، ص: 182.
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 241، وابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/ 508.
(6) الجرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 101.
(7) المناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.
(8) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 218.

والخشيَةُ: حالةٌ تحصُل عند الشُّعور بمعرفة جلالِ اللّه وهَيبتِه[1]، وخَوفِ الحَجْبِ عنه، وهذه حالةٌ لا تحصُل إلّا لمَن عَلِمَ وذاقَ لَذَّةَ القُربِ، ولِذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ۗ﴾ [فاطر: 28]، فالخوفُ مِن شرط الإيمان، والخشيَةُ مِن شَرط العِلْم[2]، فالخشيَةُ: خوفٌ خاصٌّ يَشوبُه تعظيمٌ[3]، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى واصفًا المؤمنين: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21]، حيثُ ذكَر الخشيَةَ في جانبه سبحانَه، والخوفَ في جانب الحساب.

(1) الجرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 98، والمناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.

(2) البعليّ، المُطْلِعُ على ألفاظ المقنع، ص: 239.

(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (خشي).

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢﴾ [النَّحل: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأمورُ الموجبة لتوحيد اللهِ بالعبادة والتّكليف، بعدَ توحيدِه بالرَّهبة والتّخويف

مُناسبةُ موقعِ هذه الآية بعد جملة: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، أنَّ الذين جعلوا إلَهين، جعلوهما النّورَ والظُّلمةَ، وإذا كان النّورُ والظُّلمةُ مَظْهَرَيْنِ مِن مظاهر السَّماء والأرض، كان المعنى: أنَّ ما تزعمونه إلهًا للخير، وإلهًا للشَّرِّ، هُما مِن مخلوقاته[1]، وكذلك لَمّا قَرَّر سبحانَه وحْدانيّتَه، وأنّه الّذي يجب أن يُخَصّ بالرّهبة منه، والرَّغبةِ إليه، ذكر أنّ الكلّ في مُلكه وتحتَ تَصرّفِه، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2]، فبيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ أنّ اللّه واحدٌ، وأنَّ الواجب على الخلق أن يخافوا اللّهَ ﷻ وحْدَه، ولا يشركوا به شيئًا، وتُبَيِّن هذه الآيةُ الأمورَ الموجبةَ لتوحيد اللّه بالعبادة، وتوحيده بالرّهبَة، وذلك لأنّ اللّه سبحانَه يَملِكُ السّماواتِ والأرضَ وما فيهِنّ، وأنّ الطّاعة والانقياد والجزاء على الدّوام له وحْدَه، ولذا فعلى الخَلْق أن يوَحّدوا اللّهَ، ولا يُشْرِكوا به شيئًا[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدِّينُ﴾: أصْلٌ واحِدٌ، إليهِ يَرجِعُ فُروعُهُ كُلُّها، وهو جِنْسٌ مِنَ الِانْقِيادِ والذُّلِّ، فالدِّينُ: الطّاعَةُ، يُقالُ: دانَ له يَدِينُ دِينًا، إذا أصْحَبَ وانقادَ وطاعَ، وقَوْمٌ دِينٌ، أيْ: مُطِيعونَ مُنْقادونَ[4]، ودانَ نَفْسَه، أي:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 175.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 4/ 38.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 220، والقدومي، التَّفسير البياني، ص: 105.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دين).

أذَلَّها واستعبَدَها، يُقال: دِنْتُ القَوْمَ أدِينُهم، إذا فعلتُ ذَلِك بهم[1]، والدِّينُ يُقالُ للطّاعة والجزاء، واستُعير للشَّريعة، والدِّينُ كالملَّة، لكنَّه يُقال اعتبارًا بالطّاعة والانقياد للشَّريعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19][2]، والدِّين أيضًا: الجَزاءُ والمُكافأة، ودِنْتُه بفعلِه دَيْنًا: جَزَيته[3]، والمرادُ بالدِّين في الآية: الطّاعَةُ، فهوَ مِنْ مُتَمِّماتِ جُملَةِ: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ويَجوزُ أنْ يَكونَ بمَعْنَى الدِّيانَة، فيَكونُ تَذْييلًا لِجُملَة: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ لِأَنَّ إبطالَ دِينِ الشِّرْكِ يُناسِبُهُ أنْ لا يَدِينَ النّاسُ إلّا بِما يُشَرِّعُهُ اللّه لَهُم، ويَجوزُ أنْ يَكونَ الدِّينُ بِمَعْنَى الجَزاءِ، فيَكونُ إدْماجًا لإثباتِ البَعْثِ الَّذي يُنْكِرُهُ أولَئِكَ أيْضًا[4].

2) ﴿وَاصِبًا﴾: أصلُ (وَصَبَ): كلمةٌ تَدُلُّ على دوامِ شَيءٍ، ووَصَبَ الشَّيءُ وُصوبًا: دامَ، ووَصَبَ الدِّينُ: وجَبَ، ومَفازَةٌ واصِبَةٌ: بَعيدَةٌ لا غايَةَ لَها، وفي كتابِ اللّه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصّافات: 9]، أي: دائِمٌ، والوَصَبُ: المَرَضُ المُلازِمُ الدّائِمُ، ورَجُلٌ وصِبٌ ومَوَصَّبٌ: دائِمُ الأَوْصابِ[5]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ قال الفرّاء: دائمًا، وأوصب القومُ على الشّيء، إذا ثابروا عليه[6]، والمقصودُ بالواصِبِ في الآية: الثّابِتُ الدّائِمُ[7].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

جميعُ المخلوقاتِ عَبيدٌ لله تعالى، وفي مِلْكِه وتَصَرُّفِه، وتحتَ قَهرِه وسطوتِه

يقول الحَقّ تعالى: ولِلّه وحْدَه مُلْكُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ مِن خَلقِه، وكُلُّهم عبيدُه، وله تعالى وحْدَه الطّاعةُ والإخلاصُ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (دين).
(2) الرّاغب، المفردات: (دين).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دين).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 176.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (وصب).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (وصب).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 176.

والخُضوعُ والذُّلُّ دائِمًا في جميعِ الأوقاتِ؛ فطاعتُه واجبةٌ وثابتةٌ على عبادِه أبدًا، لا تنقطِعُ ولا تزولُ، بخلافِ طاعةِ غيرِه سُبحانَه، أفغيرَ اللهِ - أيُّها النّاسُ - تخافونَ وتُطيعونَ، وهو المَعبودُ الحقُّ، المُتفَرِّدُ بالخَلقِ، والمُلْكِ والتَّدبيرِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ عطفِ هذه الآيةِ على سابقتِها:

إشارةٌ إلى برهان التَّوحيد السّابق إثباتُه، وأنّ صِفةَ المالكيَّة تقتضي إفرادَه بالعبوديَّة

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، معطوفٌ على جملة: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، لأنَّ عَظَمة الإلَهيَّة اقتضتِ الرَّهبة منه، فناسبَ أن يُشار إلى أنَّ صفة المالكيَّة، تقتضي إفرادَه بالعبادة[2]، ففي هذا العطفِ إشارةٌ إلى بُرهان التَّوحيد السّابق إثباتُه، وتقريرُه: فكُلُّ ما يُدْعَى إلهًا معَ اللّه ﷻ، هو في الحقيقة مملوكٌ له، وكلُّ مملوكٍ له ليس بإلهٍ مع مالكه[3].

بلاغةُ الالتفاتِ بينَ هذه الآيةِ وسابقتِها:

التّدليلُ على أنَّه ﷻ مُتفرّدٌ بالألُوهيَّة والوحدانيَّة

التَفَتَ مِنَ التَّكلّم في قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾، إلى ضمير الغيبة بقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فأخبر تعالى: أنّ له ما في السّماوات والأرض، لأنّه لمّا كان هو الإلهُ الواحد، كان ما سِواهُ موجودًا بإيجاده وخَلْقِه، وأخبر أنّ له الدِّينَ واصبًا[4]، وهذا دليلٌ على أنَّه المُنفرد بالأُلوهيَّة والوحدانيَّة، إذ غيرُه لا يخلو، إمّا أن يكون في السَّماوات أو الأرض، وكُلٌّ بما فيها مملوكٌ للّه، فلا يَصِحّ ولا يَليقُ اتّخاذُ غيرِه إلهًا[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 246، والقرطبيُّ: الجامع لأحكام القرآن: 10/ 114، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 202، والسَّعدي، ص: 442، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 2/ 383.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 175.
(3) الطّوفيّ، الإشارات الإلهيّة، ص: 380.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 544.
(5) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 2/ 271.

سِرُّ العلاقة بين ذِكْرِ المُلك، والنَّهي عنِ الشِّرك:

بيانُ مُنافاةِ المملوكيَّة للألوهيَّة

العلاقة هي أنَّ اللّه سُبحانه يملك الوجودَ، ولذا فلَهُ الحَقُّ بتوحيده بالعبادة والرَّهبة، وأنّ الّذين يُشركون باللّه، إنَّما يشركون معه مَن لا يملك حتَّى ذاتَه؛ لأنَّه ضِمنَ مُلْكِ اللّهِ سُبحانَه، فهل يُعقَل أنْ يُشرَك مع اللّه مَن يملكه[1].

فائدةُ لام الملك في ﴿وَلَهُۥ﴾:

انقيادُ ما في السَّماوات والأرض لعَظَمتِه، وتخصيصٌ للرَّهبَة به تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: للّه تعالى وحْدَه ما في السَّماوات وما في الأرض، مُلكًا وخَلْقًا، وعبيدًا وتصريفًا، لا شريكَ له في ذلك، ولا مُنازِعَ له في أمره أو نَهْيه[2]، وفيه تقريرٌ لعِلَّة انقيادِ ما فيهما له سُبحانَه خاصّةً، وتحقيقٌ لتخصيص الرَّهبة به تعالى[3].

بلاغةُ أسلوبِ القصر:

اختصاصُ مُلْكِ الكونِ به تعالى، ونفيُ أن يُنازِعَه في مُلكِها مُنازِعٌ

تَقَدَّم ذِكْرُ الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُۥ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ ليَدُلَّ على اختصاص مُلْكِ السَّماواتِ والأرض به ﷻ، وأنَّه لا يُنازِعُه في مُلكِها مُنازِع[4]، فهو يُفيد الحَصْرَ، فدخل جميعُ ما في السَّماء والأرض في مَفاد لام المِلْك، وهذا الحَصْر أفاد أن ليس لغيره شيءٌ مِنَ المخلوقات، خيرِها وشَرِّها، وانتفى أن يكون معه إلهٌ آخر[5].

السِّرُّ وراءَ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ دون (مَن):

إفادةُ عموم مُلْكِ اللّه تعالى لجميع المخلوقات

جاء التَّعبير بـ ﴿مَا﴾؛ لأنَّها تُستخدم للعُقلاء وغيرِ العقلاء، في حُكم أنَّهم كلّهم مُلكٌ للّه وحْدَه[6] فاللّهُ له السَّماواتُ والأرض، وما فيهما مِن أحياء وأجرام، وعقلاء وغير عقلاء[7].

---

(1) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 105.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 229، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 168.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 119.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 119، والقدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 105.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 175.
(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 400.
(7) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4193.

نُكْتَةُ جَمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وعطفِها:

بيانُ كونِ السماواتِ أجناسًا مختلفةً، والأرضِ جنسًا واحدًا

جُمعتِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّها أجناسٌ مُختلفةٌ، كلُّ سماءٍ مِن جنسٍ غيرِ الأُخرى، ووحَّد ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّها كُلّها تُرابٌ[1]، ولأنَّ الأرض عالَمٌ واحد، ولا ريب أنّ عطف الأرض على السّماوات، هو تأكيدٌ على أنّ التّوصيف للأولى، هو توصيف للثّانية، وأنّ الخالق للأولى مع الفخامة والاتّساع، لا تُعْجِزُه الإحاطةُ بالثّانية، وهي لا تُمَثّل إلّا جزءًا يسيرًا منْ كواكب المَجَرّة القريبة، ناهيكَ عنِ المَجرّات البعيدة، الّتي تضبطها مسافاتٌ مهولة، يعجز العقلُ عن تَصَوّرها، ناهيكَ عنِ الوصول إليها.

سِرُّ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

مَكانةُ السّماواتِ العظيمة، وكونُها مصدرَ تنزّلِ الآياتِ الكريمة

قُدِّمَ ذِكْرُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾، جريًا على عادةِ القرآنِ الكريمِ؛ فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذِكْرَ السَّماواتِ على الأرضِ بما يزيدُ عن مِئَةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذِكْرُها إلّا في آيتينِ لِموجبٍ دلاليّ، وقُدِّمت أيضًا من باب تقديم الأعظمِ والأعلَى، فالشّأنُ أن يتقدَّمَ ذكرُ الأعظمِ والأعلَى مكانًا، على غيره، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يوجِبُ خِلافَه، والتَّقديمُ للأهميّةِ والقداسَةِ، فالسَّماء فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنّةُ والملأ الأعلى، وسِوى ذلكَ مِنَ الغيبياتِ.

السِّرُّ وراءَ عدمِ تكرارِ الموصول (ما) قبل لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

ظهورُ المُرادِ غايةَ الظُّهورِ مِن قبلُ، وتأكُّدُه يُغني عن ذِكْرِه كَرّةً أُخرى

السِّرُّ وراءَ عدمِ تكرارِ الموصول (ما) قبل ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، مقارنة بما سبق في الآية التّاسعة والأربعون، حيثُ قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وذلك لمّا كان الأمرُ قد تأكّد وتأطّد، وظهر المُرادُ منه غاية الظُّهورِ، لم يُحتَجْ إلى تأكيده بإعادة (ما)، فقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2].

(1) النَّيسابوريُّ، التّفسير البسيط: 3/ 453، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 1/ 195.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 178.

فائدةُ القَصْر بتقديم شِبه الجملة في ﴿وَلَهُۥ﴾:

حَصْرُ العبادةِ والطّاعةِ، واختصاصُها بالله وحْدَه

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَلَهُۥ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾؛ ليَدُلَّ التَّقديمُ على اختصاص الطّاعةِ والجَزاءِ بالله، وأنَّ الطّاعة والجزاء، محصوران مقصوران، لا يكونان إلّا لله وحْدَه(1).

سِرّ تكرارِ شبه الجملة ﴿وَلَهُۥ﴾:

بيانُ اختصاصِه بملك الجزاءِ، بعد ذِكْر اختصاصِه بملك الخَلْق

سيق هذا الكلامُ الحكيم في سياقٍ بيانيّ، قد يُؤخذ منه شَكلٌ منطقيّ، فقد قدَّم ﷻ كلامه السّامي، بقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: له السّماوات والأرض وما فيهما مِن أحياء وأجرام، وعقلاء وغيرِ عقلاء، وإذا كان مالكًا للوجود كُلِّه، وهو وحْدَه المُتَصَرِّف بمقتضى الاختصاص الثّابت بالملكيَّة، فله العبادةُ وحْدَه، وله الطّاعةُ وحدَه، وهو الّذي يملك الجزاءَ وحدَه؛ ولذلك قال بعد ذلك ما هو كالنّتيجة لهاتين المُقدّمتين: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾(2)، أي: الاستقرارُ المفهوم مِنَ الجارِّ والمجرور، والمعنى: استقرَّ الدِّينُ له حالَ كونِه دائمًا(3).

بلاغة التَّفنُّن في ذكر صيغة ﴿ٱلدِّينُ﴾ ومعانيها:

كونُ الكلامِ مِن مُتَمِّماتِ جملةِ المُلكِ، في إفادتها للاختصاص

في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾، الدِّين يحتمل أن يكون المُراد به الطّاعةُ، كقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النِّساء: 125]، أي: ومَن أحسن طاعةً، ومِن قولهم: (دانت القبيلةُ للمَلِك)، أي: أطاعته، فهو مِن مُتَمِّماتِ جملة: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، لأنَّه لمّا قَصَرَ الموجوداتِ على الكون في مُلكه، كان حقيقًا بقَصْر الطّاعة عليه، ولذلك قَدَّم المجرورَ في هذه الجملة على فعله، كما وقع في

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 105.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4193.
(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 2/ 271.

الّتي قبلَها[1]، ويجوز أن يكون الدِّين بمعنى الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: 4]، فيكون إدماجًا لإثبات البعث الّذي ينكره أولئك أيضًا، والمعنى: له ما في السَّماوات والأرض، وإليه يَرْجِع مَن في السَّماوات والأرض، لا يَرجعون إلى غيره، ولا ينفعهم يومئذٍ أحدٌ[2].

دلالة التَّذييل، وأثره في السّياق:

اللهُ وحْدَه هو الّذي يَشْرَعُ الدِّينَ للعباد، لا أئمّةُ الضَّلالِ والفساد

يجوز أن يكون الدِّينُ بمعنى الدِّيانةِ، فيكونَ تذييلًا لجملة: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾؛ لأنَّ إبطال دِين الشِّرْك، يُناسبه أن لا يَدين النّاسُ إلّا بما يَشْرَعُه اللّهُ لهم، أي: هو الّذي يَشْرَعُ لكم الدِّينَ لا غيرُه مِن أئمّة الضَّلال، مثل: عمروِ بنِ لُحَي، وزَرادَشت، ومَزْدَك، وماني، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشّورى: 21][3].

بلاغةُ الكناية في كلمة ﴿وَاصِبًاۚ﴾:

جَمعُ المعاني الكثيرة، في هذه الكلمة الفريدة

قوله تعالى: ﴿وَاصِبًاۚ﴾، أي: دائمًا ثابتًا، لا كالمُلوك الّذين تنقطع ممالكُهم مع خصوصها، والمعبوداتِ الّتي تنقطع عبادتُها في وقت مِنَ الأوقات[4]، فليس مِن أحد يُدانُ له ويُطاع، إلّا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك، غيرَ اللّه ﷻ، فإنَّ الطّاعة تدوم له ولا تنقطع[5]، لأنَّه لا يَضْعُف سُلطانُه، ولا يُعزَل عن سلطانه، ولا يموت ولا يُغْلَب، ولا يَتغيَّر له حالٌ، بخلاف ملوكِ الدُّنيا؛ فإنَّ الواحد منهم يكون مُطاعًا، له السَّلْطَنَةُ والحُكم، والنّاسُ يخافونَه ويطمعونَ فيما عنده بُرهَةً مِنَ الزَّمن، ثُمَّ يُعْزَلُ أو يموت، أو يَذِلُّ بعد عزٍّ، ويتَّضِعُ بعدَ رِفْعَة؛ فيبقى

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 175 - 176، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4193.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 175 - 176، والقدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 105.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 175 - 176.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 178.
(5) البغويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 82.

لا طاعةَ له، ولا يَعبأُ به أحدٌ، فسُبحانَ مَن لم يتَّخذ ولدًا، ولم يكن له شريكٌ في المُلك، ولم يكن له وليٌّ مِنَ الذُّل[1].

ويحتمل أن يكون الواصبُ: الخالصَ المُصَفَّى مِن كُلِّ شائبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصّافات: 9] أي: خالص، لا يختلط به شيءٌ غريبٌ عنه، يُخّفِفُ مِن آثاره وأفعاله في أهله، الواقعةِ بهم، فلله ﷻ مُلكُ السَّماواتِ والأرض، لا شريكَ له، وله سبحانه الدّينُ الخالص، غيرُ المَشوبِ بشِرْكٍ أو إلحاد، فهو سبحانَه طيّبٌ لا يقبل إلّا طيّبا[2].

ومِن معاني الواصب: الواجبُ الثّابتُ المَفروض[3]، وقد يُراد ما فيه مشقّةٌ محتمَلَةٌ، وهذه المعاني تُراد جميعُها مِن هذه الآية الكاملة، فجَمَعَ معاني عدّةً في هذه الكلمة: له الدِّينُ خالصًا لازمًا، ولا زوال له واجبٌ ودائمٌ، كُلُّها تجمعها، لأنَّ الّذي اختصّ بالله وحدَه دائمٌ، ومفروضٌ، ومنه تكليفٌ للنَّفس، بما يوجب الصَّبرَ، والمُجاهَدة[4].

نوع الهمزة وفائدتها في ﴿أَفَغَيْرَ﴾:

الإنكارُ على المشركين وتوبيخُهم، والتَّعجيبُ مِن حالهم

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ للاستفهام، وهذا الاستفهامُ إنكاريٌّ[5]؛ وذلك لأنَّ الطّاعة لا تكون إلّا لله وحدَه، وأنّ الجزاء لا يكون إلّا لله وحدَه، وأنَّ السّماوات والأرض وما فيهنّ لله وحدَه، فكيف يُعبَد ويُتَّقى أحدٌ مع الله ﷻ؟![6]، فهذا الاستفهامُ للإنكار عليهم، وتوبيخِهم، والتَّعجيبِ مِن حالهم[7]، يوبّخُهمُ اللهُ به على خوف سِواه، وهو الّذي يجب أن يُرهَبَ ويُخافَ؛ لأنَّه المَلِكُ الحقُّ،

(1) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 210.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 307.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 119.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4193.
(5) البغويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 82.
(6) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 105.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 544، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 168.

القادر على إعطاء النِّعم وسَلْبها، فكيف يُتَّقى مَن لا يملك ضَرًّا ولا نفعًا، ويُعْصَى مَن بيده كلُّ شيء، وإليه مَردُّ كُلِّ شيء؟!(1).

نوع الفاء وفائدتها في ﴿أَفَغَيْرَ﴾:

الدَّلالةُ على ترتيب ما بعدَها على ما قبلَها

الفاء للتَّعقيب، وهي معطوفة على محذوف، والتَّقدير: أَبَعْدَ العِلْم بما ذُكر مِنَ التَّوحيد واختصاصِ الكُلِّ به خَلْقًا ومُلْكًا، غيرَ اللّه تُطيعون فتتقون؟!(2)، فهي للدّلالة على ترتيب ما بعدَها على ما قبلَها(3).

فتفرَّعَ على الجملتين السّابقتين الدّالّتين على الوحدانيَّة التَّوبيخُ على تقواهم غيرَه، وذلك أنَّهم كانوا يتَّقون إلَهَ الشَّرِّ ويتقرَّبون إليه؛ ليأمنوا شَرَّه(4).

بلاغةُ الإيجازِ في الجملة بين حرفي الاستفهام والعطف:

الإشارةُ إلى ضلال المشركين بأوجز عبارة وأبين إشارة

في الجملة الاستفهاميَّة: ﴿أَفَغَيْرَ﴾ محذوفٌ، والتَّقدير: أفَبَعْدَ أن علمتُم أنَّ اللّه تعالى له ما في السَّماوات والأرض، وله الطّاعةُ الدّائمة، تتَّقون غيرَه، أو ترهبون سواه؟ إنَّ مَن يفعل ذلك لا يكون مِن جملة العقلاء، وإنّما يكون مِنَ الضّالِّين الجاهلين(5).

دلالة تقديم المفعول به ﴿أَفَغَيْرَ﴾:

الدّلالةُ على تخصيص التَّقوى، وأنَّه لا يُتَّقَى سِواه سبحانَه

تقديمُ المفعولِ ﴿أَفَغَيْرَ﴾ على الفعل ﴿تَتَّقُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّه لا يُتَّقى سواه، والتَّقوى: امتلاءُ القلب بخشية اللّه تعالى وجلاله وخوفِ عقابه، فلا يُتَقَى سواه؛ لأنَّ له الجزاءَ وحدَه(6)، فقدّم المفعول لتخصيص التّقوى به تعالى، والمنكرُ تقوى غيرِ اللّه تعالى، لا مُطْلَقُ التَّقوى، ولذا قُدِّم الغير(7).

---

(1) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 125.
(2) إسماعيل حقّي، تفسير روح البيان: 5/ 42.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4193.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 176.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 168.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4193.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 403.

السِّرُّ وراءَ التَّصريح بالأُلوهيّة:

تعظيمُ مقامِ التَّقوى، وتخصيصُهُ بالاسم الأعظم، الّذي بُنِيَت عليه السّورةُ

في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾، ذُكِر اسمُ الجلالة؛ لأجل تعظيم المقام بالاسم الأعظم الخاصّ، الّذي بُنِيَت عليه السّورةُ، تأكيدًا على عظيم أمر التَّقوى، وأنَّ الله ﷻ هو صاحب الشَّأن، الّذي لا ينبغي أن تُصرف التَّقوى إلّا إليه، فلا يَلِيق منكم أن تتّقوا غيرَه، ولا أن تطيعوا غيره، ففي الحقيقة التَّقوى للّه العظيم وحدَه[1].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الدِّين والمِلَّة:

المِلّةُ السُّنّةُ والطَّرِيقَةُ، وما شَرعَهَ اللهُ على لسانِ رُسُلِه، والدِّينُ هو أعمُّ

المِلَّةُ: السُّنَّةُ والطَّرِيقَةُ، وأصبَحَتْ اسمًا لِما شَرَعَ اللّهُ تعالى لعبادِهِ على لسان الأنبياء، مِنْ حيثُ إنَّ الأنبياءَ يَعلمونها ويَسْلكونها، ويُسَلِّكونَ مَنْ أُمِروا بإرشادِهم بالنّظرِ إلى الأصْل[2]، فالمِلَّة: عبارةٌ عن أصل الدِّين والتَّوحيد والتَّقديس، الذي تَتَّفِقُ فيه جميعُ الشَّرائعُ[3]، وبِهَذا الاِعْتِبار لا تُضاف إلّا إلى النَّبِيِّ الّذي تَسْتَنِدُ إليه، مِن ذلك: مِلَّةُ إبراهيمَ، ولا تكادُ توجدُ مُضافةً إلى اللّه تعالى، ولا إلى آحادِ أُمَّة النَّبِيِّ، ولا تُسْتَعْمَلُ إلّا في جُملَة الشَّرائِع دونَ آحادِها، فلا يُقالُ: مِلَّةُ اللّه، ولا مِلَّتي، ولا مِلَّةُ زيد، كَما يُقال: دِينُ اللّه، ودِيني، ودِينُ زيد[4]؛ لأنَّها تُقالُ اعتبارًا بِمَنْ يُؤَدِّي الشَّرعَ عنِ اللّه تعالى.

أمّا الدِّين، في اللُّغَة: فهو العادةُ مُطلقًا، وهو أَوْسَعُ مَجالًا، ويُطْلَقُ على الحَقِّ والباطِل أيضًا، والدِّينُ: ما يَذهَبُ إليه الإِنْسانُ، ويعتقِدُ أنَّه يُقَرِّبُه إلى اللّه، وإن لَم يكُنْ فِيه شَرائِعُ، مثلُ: دِين أهْلِ الشِّرْك، وكلُّ مِلَّة دِينٌ، وليس كُلُّ دِينٍ مِلَّةً، واليَهوديَّةُ مِلَّةٌ؛ لأنَّ فيها شَرائِعَ، وليس الشِّرْكُ مِلَّةً، وإذا أُطْلِقَ الدِّينُ فهوَ الطّاعَة العامَّة، التي يُجازَى عليها بالثَّواب[5].

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/ 271.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ملل)، وابن الأثير، النِّهاية: 4/ 360.
(3) الغزاليّ، المستصفى: 1/ 256.
(4) الكَفويُّ، الكُلّيّات، ص: 524.
(5) العَسْكريُّ، الفُروق اللُّغَويّة، ص: 177.

فالدِّينُ والمِلَّةُ: مُتَّحِدان بالذّات، ومُخْتَلفانِ بالاعْتِبار؛ فإنَّ الشَّريعَة مِن حَيْثُ إنَّها تُطاعُ تُسَمّى: دِينًا، ومِن حَيْثُ إنَّها تُجمَعُ، تُسَمّى: مِلَّةً، والدِّينُ مَنْسوبٌ إلى اللّه تَعالى، والمِلَّةُ مَنْسوبةٌ إلى الرَّسولِ[1].

فالفرقُ بينَ المّلة والدِّين: أنَّ المِلَّة ما شرعَهُ اللّهُ على لسان رُسلِه، والدِّينُ ما اعتقدَهُ النّاسُ تَقَرُّبًا إلى اللّه، فصار كُلُّ دين مِلَّةً، وليس كُلُّ مِلَّةٍ دينًا[2].

الوَصَبُ والنَّصب:

النَّصَبُ تَعَبٌ ومَشَقَّةٌ، والوَصَبُ المرضُ الدّائم

الوَصَبُ: هو الألم الّذي يَلْزَم البدنَ لُزومًا دائمًا، ومنه يُقال: مفازةٌ واصبة، إذا كانت بعيدةً كأنَّها من شِدَّة بُعدها لا غايةَ لها، فالوَصَبُ: دَوامُ الوَجَعِ ولُزومُه[3]، وقيلَ: الوَصَبُ: المَرَضُ، والنَّصَبُ: التَّعَبُ والمَشقَّة[4]، فالتّعب قد لا يكون مرضًا، كأن يمشي الإنسانُ مسافةً ويتعبُ، ويحملُ أمتعةً ويتعب، أو يبني جِدارًا ويتعب، وهو ليس مريضًا، أمّا الوَصب، فإنَّه المرض، وعلى هذا المعنى قولُ النَّبيّ ﷺ: "ما يصيبُ المسلمَ مِن نَصَبٍ، ولا وصَبٍ، ولا هَمّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذًى، ولا غَمٍّ، حتَّى الشَّوكة يُشاكها إلّا كفَّرَ اللّه بها من خطاياه"[5]، فالفرقُ بينَ النَّصَب والوَصَب: هو أنَّ النَّصبَ هو التَّعب والمَشقَّة، والوَصَبُ: هو الوَجَعُ الدّائمُ أو المَرَضُ.

(1) الجِرْجانيُّ، التَّعريفات، ص: 105 - 106.
(2) الماورديُّ، النّكت والعيون: 2/ 239.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 239.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (وصب).
(5) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (5318).

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾ [النَّحل: 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إتــبـــاعُ بـما يوجب تعظيمَ الإنكارِ عليهم، وتـذكـيرَهـم بأنْعُم اللهِ بعدَ توبيخهم

تتابعُ الآيةُ بيانَ الأمورِ الموجبة لتوحيد اللّه ﷻ؛ والمعنى مربوط بسياق الآية السّابقة، التّي خُتمت بقوله: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي: كيف تتَّقون غيرَ اللّه وكُلُّ نعمةٍ بكم هي مِنَ اللّه، ورَفْعُ البلاءِ بيد اللّه، فكيف تعبدون معه غيرَه[1]، فأتبع ذلك ما يوجب تعظيمَ الإنكارِ عليهم، مُبَيّنًا أنَّه لا ينبغي أن يَتَعلَّق خوفٌ ولا رجاءٌ إلّا به[2].

وأيضًا لمّا أبطل في الآية السّابقة وجودَ إلَهَين اثنين، أعقبه هُنا بأنّ النّفع والضُّرَّ من تصرُّفات اللّه تعالى، وهو يعطي النِّعمة، وهو كاشف الضُّرِّ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّكُمُ﴾: أصلُ (مسّ): يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[4]، يُقالُ: مَسِستُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا: لَمَسْتُه بيَدِي، وهوَ مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، فمِنهُ مَسُّ الشَّيْطانِ، أي: حُلولُ ضُرِّ الجِنَّةِ بالعَقْلِ، ومَسُّ سَقَرٍ: ما يُصيبُ مِنْ نارِها، ومَسَّهُ الفَقْرُ والضُّرُّ: إذا حَلَّ به، وأكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا﴾ [الزُّمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: 12][5]، والمَسوسُ مِنَ

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 107.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 179.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 177.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسس).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 316.

المياه: ما نالتْهُ الأيدي[1]، وحاجةٌ ماسَّة: أي مُهِمَّة، وقَدْ مَسَّتْ إليه الحاجةُ[2]، ومَسُّ الضُّرِّ في الآية حُلولُهُ.

2) ﴿ٱلضُّرُّ﴾: أصلُ الضَّرَر: النُّقْصانُ يَدْخُلُ في الشَّيءِ، يُقالُ: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله[3]، وضِدُّهُ: النَّفْعُ والسَّعَةُ، والضَّرَرُ: المَكروهُ والأذَى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا، إذا ألحَقَ به مَكروهًا أو أذًى[4]، وكلّ ما كانَ من سوء حالٍ وفَقْرٍ في بدنٍ، فهو ضُرٌّ، وما كانَ ضِدًّا للنّفع فهو ضَرٌّ[5]، والضُّرُّ المقصود في الآية هو: ما يَتَضَرَّرُ بِهِ المَرْءُ في جَسَدِهِ، مِنْ مرض أو هزال، أو في مالِهِ مِنْ نَقْصٍ ونَحْوِهِ[6].

3) ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾: أصلُ (جأر): يدلُّ على رفع الصَّوت، جَأَرَ يَجْأَرُ جَأْرًا وجُؤارًا: رَفَعَ صَوْتَهُ مَعَ تَضَرُّعٍ واسْتِغاثَةٍ[7]، والمَصْدَرُ: الجُؤارُ، بِصِيغَةِ أسماءِ الأصواتِ، وجَأرَ القومُ إلى اللّه جؤارًا: وهو أن يرفعوا أصواتَهم إلى اللّه مُتضرِّعين[8]، والجُؤارُ مِثْلُ الخوار، وجأر الثَّوْرُ والبَقَرَةُ يَجْأَرُ جُؤارًا: صاحا، وخارَ يَخور بِمَعْنًى واحِدٍ: رَفَعا صَوْتَهُما، وغَيْثٌ جُؤَرٌ مِثْلُ نُغَرٍ، أي: مُصَوِّتٌ، أو غَزيرٌ كَثيرُ المَطَرِ[9]، والمقصود بـ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ في الآية: تَصْرُخونَ بِالتَّضَرُّعِ[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى: كلُّ ما لديكم - أيُّها النّاسُ - من نِعَم ظاهرةٍ وباطنةٍ، فهو مِنَ اللّه وحْدَه لا مِن غَيرِه، ثمَّ إذا أصابَكم مَرَضٌ أو فقرٌ أو شِدَّةٌ

كلُّ ما عند العباد مِن نِعَمٍ هو مِن عند الله سبحانه

(1) الخليل، العين: (مسس).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(3) الخليل، العين، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ضر)، وابن سيده، المخصص: 4/ 103.
(4) مجموعة من الباحثين، المعجم الوسيط: 1/ 537.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضر).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 126.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (جأر).
(8) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (جأر).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (جأر).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 178.

وبلاءٌ، فإلى اللّهِ تَصرُخونَ بالدُّعاءِ، وبه تَستَغيثونَ؛ ليَكشِفَ عنكم ما أصابَكم مِن شِدَّةٍ؛ لعِلْمِكم أنَّه وحْدَه القادِرُ على إغاثَتِكم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة الواو في ﴿وَمَا﴾ وموقعها:

الانتقال مِنَ الاستدلال بالمصنوعات، إلى الاستدلال بالنِّعم المغدقات

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم﴾، يحتمل أن تكون الواو للحال، أي: فكيف تتَّقون غير اللّهِ وحالُكم أنَّه ما بكم مِن نعمة إلّا مِنَ اللّه وحْدَه، أو للعطف على ﴿إِلَٰهٌ﴾[2]، وهو عطفُ خَبَرٍ على خَبَرٍ، ويكون انتقالًا مِنَ الاستدلال بمصنوعات اللّه الكائنة في ذات الإنسان، وفيما يُحيط به مِنَ الموجودات، إلى الاستدلال بما ساق اللّهُ مِنَ النِّعم، فمِنِ النّاس معرضون عنِ التَّدَبُّر فيها، وعن شُكرِها، وهم الكافرون[3].

فالكلام موصول لبيان نِعَمِ اللّه تعالى، وقد ذكر أوَّلًا نِعَمَ اللّه تعالى على الوجود الكونيّ كُلِّه، بخَلْق السَّماواتِ والأرض ومَن فيهنّ مِن أجرام وأحياء، وعقلاءٍ وغيرِ عقلاء، ثُمَّ يَذْكُر في هذه نِعَمَه على الإنسان خاصَّة، فيقول مُخاطِبًا النّاس: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[4].

بلاغةُ الإدماجِ بين هذه الآية وسابقتها:

الامتنان بالنِّعم، مع الاعتبار بالخَلْقِ

كان في الأدلّة الماضية القصدُ إلى الاستدلال ابتداءً متبوعًا بالامتنان، وتغيّر الأسلوبُ هنا فصار المقصودُ الأوّلُ هو الامتنان بالنِّعم مُدمَجًا فيه الاعتبار بالخلق، فالخطاب موَجَّهٌ إلى الأمَّة كُلِّها، ولذلك جاء عقبَهُ قولُه تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 251، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 115، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 577، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 442.

(2) اطفيش، تيسير التَّفسير: 8/ 7، والقدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 107.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 176 - 177.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4194.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 177.

نوع (ما) في قوله: ﴿وَمَا بِكُم﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم﴾ شرطيَّة، وفعلُ الشَّرطِ محذوفٌ، ويكون التَّقدير: (وما يكن بكم)، ويُحتمَل أن تكون (ما) اسمًا موصولًا، والعموم في صورة كونها موصولةً ظاهرٌ؛ لأنَّه مِنَ الألفاظ العامَّة، والشَّرطُ أقربُ؛ لأنَّه يُفيد الجزمَ[1]، فأيُّ نعمةٍ كانت على اختلاف أنواعها، كالغنى وصحَّة الجسم والخِصْب ونحوها، ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: فهي مِن قِبَلِ اللّه تعالى، فـ(ما) شرطيَّة أو موصولة مُتضمِّنة لمعنى الشَّرط، باعتبار الإخبار دون الحصول، لأنَّ استقرار النِّعمة بهم يكون سببًا للإخبار بأنَّها مِنَ اللّه، لا لحصولها منه[2]، وهذا المعنى منتظم لهما جميعًا[3].

الشّرطُ أوفى بأداء المعنى المراد، في إبراز النّعمة المُمتَنِّ بها

نوع الباء في ﴿بِكُم﴾ ودلالتُها:

والباء في ﴿بِكُم﴾ للمُلابسة، أي: كُلُّ ما لابسكم واستقرَّ عندكم، أيُّها النّاس عامَّة، مُؤمنكم وكافرُكم، ويُصاحبُكُم مِنَ النِّعم[4]، ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، فمُلابسة النِّعمة بهم سببٌ للإخبار بأنَّها منه تعالى[5].

بيانُ أنَّ مُلابسةَ النِّعمةِ بهم، سببٌ للإخبار بأنَّها منه تعالى

فائدة الضَّمير في شبه الجملة ﴿بِكُم﴾:

والخطابُ موجَّه إلى المشركين ابتداءً تذكيرًا لهم بأنَّ اللّه هو ربُّهم لا غيرُه، لأنَّه هو المُنعم[6].

توجيه الخطاب إلى المشركين، تذكيرًا لهم بالإنعام

نوع ﴿مِّن﴾، ودلالتها:

قوله تعالى: ﴿مِّن نِّعۡمَةٍ﴾ أي: أيًّا كان لونُها وجنسُها، في أبدانكم مِن عافية وصِحَّةٍ وسلامة، وفي أموالكم مِن نماء وزيادة، فاللّه هو

بيانُ إبهامِ (ما) الموصولة

(1) القدّومي، التَّفسير البيانيّ، ص: 107.
(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/ 229، والمظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/ 346، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 15/ 250.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 598، وابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 31.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 179، والقدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 107.
(5) إسماعيل حقِّيّ، روح البيان: 5/ 42.
(6) السِّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 2/ 313، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 177.

المُنْعِمُ بها عليكم، والمُتفضِّل بها لا سواه[1]؛ فـ ﴿مِّن﴾ هنا لبيان إبهام ما الموصولة[2].

دلالةُ تنكير ﴿نِّعۡمَةٖ﴾:

إفادةُ الشُّمولِ والعموم، لجميع النِّعم الظّاهرة والباطنة

قوله تعالى: ﴿نِّعۡمَةٖ﴾ أي: جليلةٍ أو حقيرة[3]، دُنيويَّةٍ كانت أو دينيَّةٍ نفسانيَّة، أو بدنيَّة باطنيَّة أو خارجيَّة، أو غيرِها، وكلّ واحدة من هذه جنسٌ تحتَه أنواعٌ لا حَصْرَ لها، والكلُّ مِنَ اللّه سبحانه[4].

فإذا قلنا: إنَّ (ما) شرطيّة فإنَّ ﴿نِّعۡمَةٖ﴾ تَدُلُّ على العموم؛ لأنَّ النَّكرة في سياق الشَّرط عمومٌ، وإذا قلنا: إنَّ (ما) اسمٌ موصول، فإنّ الاسم الموصول يدلُّ على العموم أيضًا، و﴿مِّن نِّعۡمَةٖ﴾ لبيان إبهام الاسم الموصول (ما)[5].

بلاغةُ الاكتفاءِ بذِكْر (النِّعمة) دونَ (النِّقمة):

اقتصر على لفظ (النّعمة) بما يدلّ عليه، مِن سبق رحمتِه وعُمومِها

كان الظّاهر أن يقول: (وما يُصيبُكُم سوءٌ إلّا منهُ)، فكيفَ يُتَّقى غيرُه؟! فأشار إلى أنَّه ذَكَر النَّفعَ؛ لأنَّه الضّارُّ النّافع، وأنَّه اقتصر عليه اكتفاءً بسبق رحمتِه وعُمومِها[6].

نوعُ الفاءِ في ﴿فَمِنَ﴾، وفائدتها:

التّذكير بأنَّ الإنسان في الجليل والدّقيق، هو في نِعَم الله وأفضالِه

الفاء في قوله: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ رابطةٌ لجواب الشَّرط، دخلت بِسبب الإبهام الذي في (ما)، الّتي هي بمعنى (الذي)، فأشبه الكلامُ الشَّرط، وفائدتُها: التَّذكيرُ بأنَّ الإنسان في جليل أمره ودقيقه، إنَّما هو في نعمة اللّه وأفضالِه، إيجادُه داخلٌ في ذلك فما بعدَه[7].

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 93.

(2) الصّاويّ، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/ 271، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 177.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 179.

(4) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 15/ 250.

(5) القدّوميّ، التَّفسير البيانيُّ، ص: 107.

(6) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 598.

(7) ابن عطيَّة الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز: 3/ 400، والدَّعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/ 162.

نوع (مِنْ) ودلالتُها:

(مِن) في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: واصلةٌ إليكم مِنَ اللّه، ومِن عطائه[1].

إفادةُ كونِ النِّعم مِن عطاء الله وتفضُّلِه بها ابتداءً

بلاغة التَّصريح باسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

لمّا كان المقامُ مقامَ تقريرٍ للتَّوحيد، وتعظيمٍ للمُنعم المُتفضِّل بشتى أنواع النِّعم والعطايا، جاء التَّعبيرُ بالاسمِ الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾، الدّالِّ على العبوديَّة والتَّعظيم، بما يحملُه هذا الاسم الجليلُ مِن معاني المهابة والإجلال.

بيانُ أنّ تربيةَ المهابةِ في النُّفوس، يكون بذِكْرِ الاسمِ الجليل

فائدةُ حرفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ للتَّراخي الرُّتَبيّ، كما هو شأنُها الغالبُ في عطفها الجُمَلَ، لأنَّ اللَّجأ إلى اللّه عند حصولِ الضُّرّ أعجبُ إخبارًا مِنَ الإخبار بأنَّ النِّعم كُلَّها مِنَ اللّه، ومضمونُ الجملة المعطوفة أبعدُ في النَّظر من مضمون المعطوف عليه، فالحالُ الأولى، هي حالُ إنزالِ النِّعم، والحالُ الثّانيةُ هي حالُ مَسِّ الضُّرِّ، وما بينهما مِنَ البُعد واضح[2].

بيانُ أنّ العبادَ لا يَلتَجِئون إلّا إلى الله إذا أصابَهم ضرٌّ

فلمّا كان إخلاصُهم له - مع ادّعائهم أُلوهيَّة غيرِه - أمرًا مُستبعدًا، عبَّر بأداة التَّراخي والبُعد، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ﴾[3]، والمقصودُ: تقريرُ أنّ اللّه تعالى هو مُدبِّرُ أسبابِ ما بهم مِن خير وشَرٍّ، وأنَّه لا إلهَ يخلق إلّا هو، وأنّهم لا يَلتَجِئون إلّا إليه إذا أصابهم ضُرّ، وهو ضِدّ النِّعمة[4].

نوع ﴿إِذَا﴾، ودلالتُها البلاغيّة:

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ﴾ ظرفٌ للزَّمن المستقبَل،

أكثرُ النّاسِ يَلْجَؤون إلى الله في الضَّراء، وينسونَهُ في السَّرّاء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 177.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 107.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 179.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 177.

مُتضمِّنٌ معنى الشَّرط، أي: إذا أصابكم في أبدانكم سَقَمٌ ومرضٌ، أو حاجةٌ عارضة، أو شِدَّة وجُهْدٌ في العيش ووسائلِ الحياة، فإليه تَصْرخون بالدُّعاء، وتستغيثون به، ليكشف ذلك عنكم[1]، وهذه الجملة الشَّرطيَّة تُصوِّر طبيعةَ البشرِ، فهم يرون آثارَ نِعَم اللّٰه عليهم في الشِّدَّة والرَّخاء، لكنّهم لا يَلْجَؤون إلى اللّٰه تعالى، إلّا إذا أصابهم المكروه، أو نزلت بهم نازلةٌ يعجزون عن حلِّها أو احتمالِها، فتراهم في الشَّدائد يجأرون بالدُّعاء، ويرفعون أكفَّ الضَّراعةِ والنِّداء، راجينَ أن يرفع اللّٰه عنهم ما نزل بهم، فإذا كشف اللّٰه عنهم الكربَ، وأزالَ الضُّرَّ، استرخى دعاؤُهم، وعادوا إلى دُنياهم، وقليلٌ منهم مَن يَذْكُر اللّٰه في النَّعماء كما يذكرُه في الضَرّاء، وقد تكرَّر هذا المعنى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصّلت: 51]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: 12].

بلاغة الاستعارة في لفظ (المسّ):

تـصـويـرُ ضيق صـبرِ الإنـسـان، بـحـصـول أدنى شيء مِنَ الضُّرِّ

المَسُّ حقيقتُه وضعُ اليد على شيء، وقد يكون مُباشرةً وقد يكون بآلة، ويُستعمَل مجازًا في إيصال شيء إلى شيء، فيُستعارُ إلى معنى الحصول والإصابة، ومَسُّ الضُّرِّ هُنا حُلولُه، واستُعير المَسّ للحصول الخفيف، للإشارة إلى ضيق صبر الإنسان، بحيثُ إنَّه يجْأرُ إلى اللّٰه بحصول أدنى شيءٍ مِنَ الضُّرِّ له[2]، فاستُعير هنا إلى الإصابة اليسيرة بطريق الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، والقصدُ منها: أنَّ الإنسان لا يتحمَّل - رَغْمَ كُلِّ هذه النِّعمِ - أن يُصيبَه الضُّرُّ، ولو شيئًا يسيرًا[3].

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 14/ 93.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 178.
(3) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 107.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلضُّرُّ﴾، وفائدتها:

بيانُ الشُّمولِ والاستغراقِ لكلِّ ما يَتَضرَّر به

﴿ٱلضُّرُّ﴾ هو الأسقام والأوجاع والقَحْطُ والزّلازل والحاجةُ والفقر، مِن مرض، أو حبسٍ، أو نَهْبِ مالٍ، وغيرِ ذلك مِنَ الأمور، الّتي يعلمُ نظيرَها القاصي والدّاني[1]، فالضُّرُّ يشمل كلَّ ما يُتَضَرَّرُ به[2].

نوع الفاء في ﴿فَإِلَيۡهِ﴾:

وقوعُ الحرف في جواب الشَّرط السّابق، موفٍ بالمعنى المراد

قوله تعالى: ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾، الفاءُ واقعة في جواب ﴿إِذَا﴾[3]، يعني: إليه تستغيثون وتصيحون وتَضُجّون بالدُّعاء؛ ليَكْشفَ عنكم ما نزلَ بكم مِنَ الضَّرر والشِّدة، وأصلُ الجُؤار: هو رفعُ الصّوت الشّديد[4].

بلاغة تقديم الجارِّ والمجرور:

الدَّلالةُ على الاختصاص، مع رعاية الفاصلة

قدَّم الجارَّ والمجرور ﴿فَإِلَيۡهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ أي: وحده[5]؛ للدّلالة على اختصاص التّوجُّهِ بالاستغاثة إلى الله وحدَه دونَ شركائهم، فالحصرُ مستفادٌ مِن تقديم الجارِّ والمجرور، ولا يُنافيه كونه للفاصلة[6].

السِّرُّ وراءَ الإيجاز بالإضمار في ﴿فَإِلَيۡهِ﴾:

دلالةُ الطَّبعِ والسِّياق على مرجع الضَّمير، يُجيز الإيجازَ

التَّوجُّه إلى الله عند الشَّدائد فطرةٌ في النَّفس الإنسانيّة، الّتي خلقها الله ﷻ؛ لأنّنا نعلم في قَرارة أنفسنا أنّنا ضعفاء، وأنّ الله هو القويّ، ولأجل هذا فإنّنا نلتجئ إلى الله في الشّدائد[7]، والإضمارُ هنا إيجازٌ يدُلُّ عليه الطّبعُ في شعورهم الفطريِّ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 93، والقدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 107.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 545.
(3) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 5/ 205.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 81.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 180.
(6) القونويّ، حاشية القونويّ، على البيضاويّ: 11/ 296.
(7) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 107.

بحاجتهم لربِّهم، ولأنَّ الاسم الجليلَ قد صُرِّح به قبل هذا في قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾، فالمعنى: فما تتضرَّعون إلى موجود مِنَ الموجودات إلّا إليه، وفيه دلالةٌ على ما أشرنا إليه مِن أنَّهم عَلِموه، ولم يعملوا بمقتضاه، فنُزِّل علمُهُم منزلةَ الجَهْلِ، فأُخبروا بأنَّ النعّم الّتي اتّصلت واستقرّت بكم، فمِن اللّه، فاشتغلوا بعبادته، وداوِموا على شُكْره[1].

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿تَجۡـَٔرُونَ﴾:

تجدُّدُ الاستغاثة بالجأر بسبب الضّرر الواقِع والمتوقَّع

يخبرهم تعالى بالواقع وأنَّهم إذا مَسَّهم الضُّرُّ مِن فقر أو مَرض أو تغيّر حال، كخوفِ غَرقٍ في البحر، فإنَّهم يرفعون أصواتَهم إلى أعلاها، مُستغيثين سائلينه أن يكشف ضُرّهم، أو ينجيَهم مِن هَلَكَتِهم المتوقَّعَة لهم[2]؛ فكلّما تجدَّد عليهم ضُرٌّ، جَدَّدوا له استغاثةً ورجاءً لرفعه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّعْمَة والمنفعة:

النِّعمة ما قُصِدَ به الإحسانُ، ولا تكون إلا حَسَنَةً، والمنفعة أعمُّ

النِّعمةُ: هي المنفعة المَفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، فخرج بالمنفعة المَضَرَّةُ، كمَن أحسَنَ إلى جارية ليربحَ فيها، أو أراد استدراجَ غيرِه بمحبوبٍ إلى ألم، أو أطعم غيره، نحو: سكّر أو سمّ ليَهلك، فليس بنعمة[3]، فالمنفعة تكون حسنةً، وهي ما يُستعان به في الوصول إلى الخير، وتكون قبيحةً، أمّا النِّعمة: فهي ما قُصِدَ به الإحسانُ، ولا تكون إلّا حسنةً[4].

(1) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 296.
(2) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 126.
(3) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ: (نعم)، والرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 1/ 220، والمَناويُّ، التَّوقيفُ على مُهِمّاتِ التَّعاريفِ، ص: 327.
(4) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويَةُ، ص: 196، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (نفع).

المَسُّ والإصابة:

المَسّ: اتّصالُ أحدِ شيئين بآخَرَ على وجهِ الإحساس، أمّا الإصابة: فهي التقاءٌ وزيادة؛ فالمَسُّ أقلُّ تمكُّنًا مِنَ الإصابة، وكأنّه أقلُّ درجاتِها[1]؛ لأنَّ الشّيء المُصيبَ لشيء هو مُتَمكِّنٌ منه أو فيه[2]، فالإصابةُ أبلغُ مِنَ المَسّ؛ لأنَّ تأثيرها أقوى وأشدُّ.

الإصابة التقاءٌ وزيادةُ تمكّنٍ وتأثير، والمَسّ أقلّ درجاتها

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/ 407، والنَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/ 245.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/ 498.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النَّحل: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ حالِ المشركين بشركهم في الرَّخاء، بعد ذِكْر حالِهم في الشَّدائد

بيّنتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ المُضطرّين لا يتّجهون بالدُّعاء إلّا إلى اللّه ﷻ، وهم مِن شِدّة تعلُّقهم باللّه يجأرون بالدُّعاء إليه، أي: يرفعون أصواتَهم، ولكنّ العجيبَ في الأمر أنَّه بعد أن يكشف اللّهُ عنهم الضُّرَّ، يشرك فريقٌ منهم باللّه[1].

وبناءً على ما سبق: فقد أقام اللّهُ الحُجَّةَ على التَّوحيد، أوَّلًا: بالوحي، ثُمّ بخضوع كلِّ شيءٍ له، إذ ما مِن شيء يَشِذُّ عنِ النِّظام الّذي خَلقَه، ثُمَّ بكون النِّعم كُلِّها منه، فهو الّذي أوجدها وسخَّرها، وأنعم بها، ثُمَّ بالالتجاء إليه وحدَه عند الشِّدَّة، لما رُكِّبت عليه الفطرةُ البشريَّة، وهكذا رَدَّت هذه المجموعةُ الشِّرك، وقَطَّعت عروقَه وجُذورَه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَشَفَ﴾: أَصْلُ الكَشْفِ: إزالَةُ شَيءٍ عن شَيءٍ، وتَعْرِيَتُه مِنْهُ، كالثَّوْبِ يُسْرَى عن البَدَنِ، ويُقال: كَشَفْتُ البَدَنَ أَكْشِفُهُ: إذا أَزَلْتُ الثَّوْبَ عنه[2]، والكَشْفُ: رَفْعُ الغِطاءِ والحِجابِ، يُقال: كَشَفَ الشَّيءَ، يَكْشِفُهُ، كَشْفًا، وكَشَّفَهُ فانْكَشَفَ وتَكَشَّفَ: إذا رَفَعَ عنه غِطاءَهُ وحِجابَهُ[3]، والمقصود بالكَشْفِ في الآية: إزالَةُ ما هو ساتِرٌ لِشَيءٍ، وهو هُنا مَجازٌ في الرَّفْعِ، والمُرادُ: إظهارُ رأْفَةِ اللّه بِالخَلْقِ[4].

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 109.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كشف).
(3) الرّاغب، المفردات: (كشف).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 178.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يقول الحَقُّ سبحانه: ثمَّ إذا أزال اللهُ عنكم الشِّدَّةَ، ورفَع البلاءَ، إذا جماعةٌ منكم - أيُّها النّاسُ - يَجعَلونَ لرَبِّهم شَريكًا في عبادته، لِيَكْفُرَ المُشرِكونَ بما آتيناهم مِن نِعمةِ كَشْفِ الضُّرِّ عنهم، فتَمَتَّعوا في حياتِكم الدُّنيا قليلًا - أيُّها المُشرِكونَ - فسوف تَعلَمونَ عاقِبةَ كُفرِكم[1].

جُحودُ الإنسانِ وكُفرانُه بفضل الله عليه، ومَكرُه بنعمه

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في هذا الموضع:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ﴾ للتَّرتيب الرُّتبَيّ، كما هو شأنها في عطف الجُمَلِ، وهي ليست للدّلالة على تمادِي زمانِ مَساسِ الضُّرِّ، ووقوعِ الكشفِ بعدَ بُرهة مديدة، بل للدّلالة على تراخي رُتبةِ ما يترتَّب عليه مِن مُفاجأة الإشراك المَدلولِ عليها بقوله سبحانه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[2]، فجيءَ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ لأنّ مضمون الجملةِ المعطوفة أبعدُ في النَّظر مِن مضمون المعطوف عليها، فإنَّ الإعراض عنِ المُنعِم بكَشْفِ الضُّرِّ، وإشراكَ غيرِه به في العبادة، أعجبُ حالًا، وأبعدُ حصولًا مِنَ اللَّجأ إليه عند الشِّدَّة[3]، فالفرقُ شاسِعٌ بين حالتهمُ الأولى، وحالتِهمُ الثّانية[4].

الإعراضُ عنِ المُنعِم بكشف الضُّرِّ، أعجبُ مِنَ اللَّجأ إليه عند الشِّدَّة

دلالةُ الماضي ﴿كَشَفَ﴾:

المقصودُ بالفعل الماضي ﴿كَشَفَ﴾، إظهارُ رأفةِ اللهِ بالخَلْق، بكَشْفِ الضُّرِّ عنهم عند التجائهم إليه، مع عِلمِه بأنَّ مِن أولئك مَن يُشرك به، ويَستمرُّ على شركه بعد كَشفِ الضُّرِّ عنه[5].

رأفةُ اللهِ بالخَلْق بكشف الضُّرّ عنهم، مع عِلْمِه بشركهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 163.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 120.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 178.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 169.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 178.

نوع (أل) في لفظ ﴿ٱلضُّرَّ﴾:

بيان الشمول والاستغراق لكل ما يتضرَّر به مِن فقر، ومرض، وشِدَّة[1] وغيرِها، فالضُّرُّ يشملُ كلَّ ما يُتَضَرَّرُ به.

دلالةُ حرف الجرّ في شبه الجملة ﴿عَنكُمْ﴾:

بيانُ أنَّ كَشْفَ الضُّرِّ كان لأجلكم، لا لأحدٍ غيركم

ذَكَرَ الجارَّ والمجرور ﴿عَنكُمْ﴾، مع العِلْم بأنّ السِّياق يَدُلُّ عليه ولو لم يُذْكر؛ وذلك زيادةً في بيان أنَّ كَشْفَ الضُّرِّ كان لأجلكم أنتُم، ولم يكن كَشْفًا عن أحدٍ غيرِكم[2].

دلالةُ ﴿إِذَا﴾ الفجائيّة، وفائدتُها:

بيانُ مدى مُسارعةِ الإنسان، في سَوانح الكُفران

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ فجائيّةٌ؛ للدّلالة على عجيب رَدّ فعلِ المُنعَم عليهم، حيثُ قابلوا الإنعام بالجُحود[3]، والإتيانُ بحرف المُفاجأة، للدّلالة على إسراع هذا الفريق بالرّجوع إلى الشّرك، وأنّه لا يتريّث إلى أن يَبْعُدَ العهدُ بنعمةِ كَشْفِ الضُّرّ عنه، بحيث يَفْجَؤون بالكفر دُفعَة، دون أن يترقّبَه منهم مترقّبٌ، فكأنّ الفريقَ المعنيّ في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾، فريقُ المشركين[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (الفريق):

بيانُ أنَّهم عند كَشْفِ الضُّر عنهم، يفترقون فريقين

(الفريق) هُنا: يُراد به المشركون الّذين يرون أنَّ للأصنام أفعالًا، مِن شفاء المَرضى، وجَلْب النَّفعِ، ودَفْعِ الضُّرِّ، فهم إذا شفاهمُ اللّه، عظَّموا أصنامَهم، وأضافوا ذلك الشِّفاءَ لهم[5]، فبيَّن تعالى أنّه عند كَشفِ الضُّرِّ وسلامةِ الأحوال يفترقون، ففريقٌ منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضُّرِّ، في ألّا يفزعَ إلّا إلى اللّه تعالى، وفريقٌ منهم

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 513.
(2) القدّومي، التَّفسير البيانيّ، ص: 109.
(3) القدّوميّ، التَّفسير البياني، ص: 109.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 180، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 178.
(5) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/ 427.

عند ذلك يتغيَّرون، فيُشركون باللّه غيرَه[1]، فالتّعبيرُ بـ ﴿فَرِيقٌ﴾ يدُلُّ على أنّ مِنَ الدّاعين للّه مَن يشكر اللّه على نِعَمِه[2].

دلالةُ (مِنْ) بين التّبعيض والبيان:

بيانُ أنّ المعنى يختلف باختلاف كـون (مِـن) للعموم أو للخُصوص

كلمةُ (مِنْ) للتّبعيض إن كان الخطابُ عامًّا، وإن كان خاصًّا بالكفّار فـ (مِن) للبيان، كأنَّه قال: فإذا فريق وهم أنتم، ويجوز أن يكون (مِن) على هذا أيضًا للتَّبعيض، على أنَّ بعضَهم يعتبرون، قال اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ [لقمان: 32][3].

بديعُ التَّجريد على حَمل الخطابِ للمُشركين:

المبالغة في بيان حال المشركين في الحالين

إن كان الخطابُ خاصًّا بالمُشركين، فـ (مِن) للبيان على سبيل التَّجريد، والمعنى: إذا فريقٌ - هم أنتُم - يشركون، لأنَّ مِن المشركين مَن يرجع عن شِرْكِه إذا شاهد ضُرًّا شديدًا، كما يدلّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ [لقمان: 32]، على تقدير أنْ يُفَسَّر الاقتصادُ بالتَّوحيد[4]، فحينَئِذٍ تكون (مِن) بيانيَّةً، على سبيل التَّجريد للمبالغة[5].

فائدةُ ذِكْر الجارّ والمجرور ﴿مِّنكُم﴾:

الـزِّيـادةُ في بـيـان بـشـاعـةِ فِـعْـلـتِـهـم، أن أشركوا بَدَلَ أن يشكروا

ذَكَر الجارَّ والمجرور ﴿مِّنكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم﴾، رغمَ دلالةِ السِّياق عليه؛ زيادةً في بيان بشاعة فِعْلتِهم، أن أشركوا بالمُنعم عليهم، بَدَلَ أن يشكُروه[6].

بلاغة تقديم ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، قَدَّم الجارَّ والمجرور ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على الفعل ﴿يُشۡرِكُونَ﴾؛ لإبراز بشاعةِ الشِّرك، وأنَّه ليس أيّ شركٍ،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 222.
(2) القدّوميّ، التَّفسير البياني، ص: 109.
(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/ 347، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 230.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 405.
(5) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 296.
(6) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 109.

التَّعجيبُ مِنَ الإشراك، بعدَ النَّجاة مِنَ الهلاك، مع مُراعاة الفاصلة

بل هو شركٌ مع اللّه ﷻ[1]، فمعنى الكلام: التَّعجيب مِنَ الإشراك بعدَ النَّجاة مِنَ الهلاك، وهذا المعنى مكرَّرٌ في القرآن[2]، والتَّقديم أيضًا لمُراعاة رؤوس الآي[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالرّبوبيّة دون الأُلوهيّة:

أبشعُ الكُنودِ الشّركُ بالرَّبّ، المعطي بلا حدود

التَّعَرضُ لوصف الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾؛ للإيذان بكمال قُبحِ ما ارتكبوه مِنَ الإشراك الّذي هو غايةٌ في الكُفران[4]، فلم يأت بلفظ الجلالة (اللّه)، أو غيرِ ذلك مِن أسماء اللّه ﷻ؛ لأنَّ مِن معاني الرَّبِّ المُربّي لعباده بنِعمه لعباده، فما أشَدَّ بشاعةَ مَن يُشرك بمَن خلقه ورعاه ورزقه[5].

إضافةُ الضّمير (هم) إلى (الرّبّ):

بيانُ أنَّ الرِّعاية مِنَ الله تعالى مُختصّةٌ بهم، والتّخصيصَ تكريم

أُضيف الضّميرُ (هم) إلى لفظ (الرَّبِّ)؛ زيادةً في بيان أنَّ هذه الرِّعاية مِنَ اللّه مُختصةٌ بهم؛ لأنَّه ربُّهم هُم، فهو راعيهم هم، وخالقُهم هم، ومحييهم هم، ورَغمَ ذلك هم بذاتهم يشركون بمَن نِعَمُه عليهم، فسبحانَ اللّهِ ما أحلمَهُ وأعظمَه[6]!.

دلالةُ المضارع ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

بيانُ تجدُّدِ شِركِ المُشركين واستمراره، وشُكرِ المؤمنين واستقراره

قولُه تعالى: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ أي: يتجدَّد إشراكُهم به تعالى، بعبادة غيرِه سبحانَه[7]، وفيه تسجيلُ الشّركِ على هذا الفريقِ، ولإنصافِ غيرِه مِنَ المؤمنين الصّادقين، الّذين يشكرون اللّه تعالى في جميع الأحوال، ويواظبون على أداء ما كلَّفَهم به في السَّراء والضَّراء[8].

---

(1) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 109.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 115.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 405.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 120.
(5) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 109.
(6) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 109.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 405.
(8) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 169.

بلاغةُ حَذْفِ مُتعلَّق الفعل ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

تــــوهـــــينُ الـشِّـرْكِ وأهلِه ومُـتـعـلَّـقـاتـه، مِـــنَ الآلـهـة والمـعــبــوداتِ الباطلة

قولُه تعالى: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ أي: بنسبة النِّعمةِ إلى غيره، ورؤيتِها منه، وكذا بنسبة الضُّرِّ إلى الغير، وإحالةِ الذّنب في ذلك عليه، والاستعانةِ في رَفعِه به[1]، أو بإضافة كَشْفِ الضُّرِّ إلى العوائد والأسباب، ولا يُضيفونَهُ إلى اللّه ﷻ، فهذا مِن جُملَة شِرْكِهم الّذي كانوا عليه[2].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 379.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 81.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ [النّحل: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خَيرُ اللهِ للخَلق نـازِلٌ، وشَرُّهُـم إليه صاعِدٌ

لَمّا بيّنَتِ الآياتُ السّابقةُ أنّ الكُفّارَ يُشركون باللّه بعد إنعامِه عليهم، وكَشفِ الضُّرِّ الّذي أصابهم؛ جاءَت هذه الآيةُ لتُهدّدَهم على هذا السّلوكِ المُخالِفِ للفطرةِ والعقلِ في شِركهم باللّه؛ فقال لهم: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾.

ومِنَ المناسبة أيضًا أنّه لمّا بيّنَ في الآيةِ السّابقةِ سَبْقَ خَيرِهِ إليهم في كَشف الضُّرِّ عنهم، وصُعودَ شَرِّهم إليه سبحانه بشِركِهم بَدلَ شُكرِهم؛ بيَّنَ هنا في هذه الآيةِ أنّ شِركَهُم في مَوضِعٍ يَستوجِبُ شُكرَهُم، يَلزَمُ عنه الكُفر بالحَقّ والنِّعمة، فقد كفروا بالحَقّ لمّا أشركوا، وكفروا بالنِّعمة لمّا لم يَشكروا، فهذا مِن ذاك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾: أصلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمتعُ مَتْعًا؛ أي: بَلَغَ غايَةَ ارتِفاعِه، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَودَةِ[1]، والتَّمَتُّعُ: الانتِفاعُ بالـمَتاعِ، والـمَتاعُ في الأصل: كلُّ شَيءٍ يُنتَفَعُ بِهِ ويُتبلَّغُ بِهِ ويُتَزوَّدُ؛ والفناءُ يأتي عليهِ في الدُّنيا[2]، والتَّمتيعُ: الإمهالُ، وكلُّ مَوضِعٍ ذُكِرَ فيه تمتَّعوا في الدُّنيا فعلى طريق التّهديدِ[3]، ويُطلَقُ على التَّعميرُ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥﴾ [الشعراء: 205]؛ أي: أطَلْنا أعمارَهُم[4]، والمقصودُ بـالمتاع في الآية: الانتِفاعُ القصيرُ زَمَنُه.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (متع).

(3) الرّاغب، المفردات: (متع).

(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (متع).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

التّهديدُ والوعيدُ لمَن يكفرُ ويَجحدُ ويُشركُ

بيّنَت هذه الآيةُ أنَّ فريقًا مِنَ المُشركين يُشرِكون باللّهِ في العبادة مع توالي نِعَمِهِ عليهم، ودَفعِ نِقمِه عنهم؛ لتكونَ عاقبةُ شِركِهم وأثَرُه أن يكفروا بما آتاهم مِنَ النِّعَم، ويُنكِروا كونَها منه دونَ غيرِه، ثمّ أنذرَهُمُ اللّهُ وهدَّدَهُم بسوءِ المَصير، فقال: فتَمَتَّعوا في حياتِكم الدُّنيا قليلًا - أيُّها المُشرِكونَ - فسوف تَعلَمونَ عاقِبةَ كُفرِكم(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

تحذيرٌ ووعيدٌ، وتخلُّصٌ إلى نوعٍ آخرَ مِن قبائحِ المُشركين

فَصَلَ قولَه تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنّه جملةٌ طلبيّةٌ - هذا على القول بأن اللام للأمر كما سيأتي - واردةٌ كالطّبع على جملة الكلامِ، وكالتّخلُّص إلى نوعٍ آخَر مِن قبائحِ المُشركين(2).

دلالةُ اللّامِ في قوله ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾:

الإشـراكُ بالله أصـلُ كـلِّ شـرٍّ ومُنكَرٍ

تعدَّدَت آراءُ العلماء في المُراد باللّامِ في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾؛ فمنهُم مَن قال: إنّها (لام) العاقِبةِ والصّيرورة، وعلى هذا تكونُ اللّامُ مُتعلِّقةً بقوله: ﴿يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النحل: 54]؛ أي: يُشرِكون ليكفروا، فالكُفرُ غايةٌ للإشراكِ وعاقبةٌ له، وغرضُ الإشراكِ هو الكفرُ بما آتيناهُم مِنَ الحقِّ والنِّعَم، ومنها: كشفُ الضُّرِّ في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النحل: 54]، وعلى هذا المعنى: فاللّامُ في ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ لامُ العاقبةِ والصّيرورة، وهو المُسَمَّى بالتّعليل المَجازيِّ؛ أي: جُعِلَ كُفرُهم بما آتيناهُم كأنّه عِلّةٌ غائيّةٌ لإشراكهم.

ومنهم مَن قال: إنّها بمعنى (كي)، وتكون اللّامُ في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ [النحل: 54 - 55] على معنى التّعليل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 252، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 442، ومجموعة من العلماء، التّفسير الوسيط: 5/ 632.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 139.

الحقيقيِّ، مبالغةً في تقبيح كُفرِهم لِلأنعُم الظّاهرة الّتي لا يرتابُ في دلالتها على فاعلِها مَنْ بَقِيَت له أَثَرَةٌ من عقلٍ وعِلم، فالمعنى: يشركون كي يكفروا بما آتيناهم عمدًا وقصدًا، فيتوسَّلون بالشِّرك لِكُفر ما آتيناهم؛ إغراقًا منهم في الغَيّ ورُكوبِ الهوى والجناية[1].

ومنهم مَن ذَهَبَ إلى أنّ اللّامَ في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ لامُ الأمرِ الجازِمَة، وعلى هذا: فالابتداءُ بها أصالةً صحيحٌ، مِن غير تعليقِها بما قبلَها لفظًا، ومعنى الأمر: التّهديدُ والإيعادُ، على نحو قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصّلت: 40]، كأنّه قِيلَ هنا: لِيكفروا كما شاؤوا فإنّهم مَجزيّون على هذا الكفر أشَدَّ الجزاء، ويوافِقُه الجملة الإنشائيّة بعدَه ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ بعطفِ إنشاءٍ على إنشاءٍ، والفاءُ للجواب، ومَجازيّةُ لام الأمرِ هنا في التّهديد والوعيد مِن باب المَجاز المُرسَلِ الّذي علاقتُه الإطلاقُ والتّقييدُ[2].

ومنهم مَن ذَهَبَ إلى أنّ اللّامَ في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ على معنى السّببيّة؛ أي: كفرُهُم بالنِّعمة والحَقّ سببٌ في إشراكهم؛ أي: يشركون بسببِ أنّهم يَكفرون بما آتيناهُم[3].

والفرقُ بين اعتبار اللّام للسّببيّة، واعتبارِها للتّعليل؛ أنّ قولَه: ﴿يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النحل: 54] نتيجةٌ مُسَبَّبَةٌ على الاعتبار الأوّلِ، وقولَه: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ هو النّتيجةُ على الاعتبار الثّاني.

نُكتةُ التّعليلِ بقوله ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾:

إجـراءُ وصفَي الشّرك والكُفرِ عليهم

نُكتةُ تعيينِ كُفر النّعمةِ في الذِّكر دونَ غيرِه في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ ولم يجعل في حيّز التعليل تركيبًا آخر، لوجوهٍ معتبَرٍ تقريرُها، وهي كالآتي:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 502.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 207، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 8/ 443، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 230.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 88.

الأوّلُ: قَصدُ الجمعِ بينَ الشّركِ وكفرِ النِّعمةِ؛ لاشتراكِهما في نسبةِ ما هو حقٌّ للّهِ لغيره، فالشّركُ نِسبةُ حَقِّ الأُلوهيّةِ لغيرِ اللّه، وكُفرُ النِّعمةِ يكونُ بنسبة الفضلِ فيها لغيرِه سبحانَه، أوِ اعتقاد استحقاقِها مِن غيرِ أن يكونَ الإلهُ مُتفضِّلًا بها.

الثّاني: التّنبيهُ على مقامين مُتلازمَين لا ينفكُّ الإنسانُ عنهما؛ حالُه مع المُنعِم، وحالُه مع النِّعمة، فأخبرَ أنّ حالَهم مع المُنعِم الشّركُ، وحالَهم مع النّعمة الكفْرُ.

الثّالثُ: خَصَّ الكفْرَ بما آتاهمُ اللّهُ مِنَ النِّعم؛ لأنّ قَوام العبدِ لا يتمُّ إلّا بالنِّعم، فكأنّه قِيلَ: أشركوا باللّه، وحتّى النِّعَمُ الّتي لا تُخطِئُها حواسُّهم، ولا يَبقَون إلّا بها، لم تُغنِ عنهم شيئًا في قضية الإيمانِ، فلم ينظروا فيها دليلًا على وحدانيّة اللّه؛ لِيعودوا إلى رُشدِهم بعدَ شِركهم، بل كَفَروها، ونسبوها إلى غير باريها، فأخبَرَ أنّ الشِّركَ باللّه حالَ بينهم وبينَ الاستفادة من أدلّ الظّواهر والبيّنات الّتي بين أيديهم على وحدانيّة اللّهِ، وهي النِّعمُ الّتي لا يَنفكّون عنِ الانتفاع بها، ولا وجودَ لهم بدونها.

سرُّ التّعبير بالكُفر دون غيرِه:

الـكُـفـرُ إنـكـارٌ لحَقِّ اللهِ تعالى فـي الـعـبـوديّـة الخالصةِ، وذلك بـإشـراك غـيرِه معه

عَبَّرَ بالكُفر في قولِه: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ للدّلالة على أنّهم في إطباقٍ مِن إنكار الحَقِّ[1]، إنكارِ حَقِّ اللّه في العبوديّة الخالصةِ له بإشراك غيرِه معه، فيكفرون هذا الحَقَّ ويسترونَه، ويُنكرونَ حَقَّ النِّعمة بعدم شُكرِها ونسبتِها إلى غير المُنعِم بها، أو ينسبونَها إليه مِن غير رؤيتِهم لفضلِه فيها، فيكفرون هذا الحَقَّ ويسترونَه، فلمّا كان معنى الكُفرِ حاضرًا في هاتين النِّسبتَين، كان التّعبيرُ بلفظ الكفر أنسبَ في حيّزه، وأمكَنَ في مَوقعِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر).

تكاثُرُ النِّعمِ مِن دواعي الإيمان الّتي تُؤذِنُ به

سرُّ تعلُّقِ ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ بقوله ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾:

جملةُ ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ هي مُتعلَّقُ الجارِّ والمجرور مِنَ الموصول وصِلَتِه ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾[1]، وسِرُّ هذا التَّعلُّقِ الدّلالةُ على أنّهم كافرون بأظهر الدّلائلِ على بُطلان الشّركِ، وهي النِّعمُ الّتي لا يَقْدِرُ على إيصالها وإيتائِها لهم إلّا اللّه، فعَلَّقَ الفعلَ في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ بالفعل في قوله ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾، وقيّدَه به للإشارة إلى حجْبِهم عنِ الاستفادةِ بأظهر برهانٍ، فبَدَلَ أن يستفيدوا منه بالنّظر والاعتبار والاستدلال به على وحدانيّة الخالِقِ لا شريكَ له؛ عطّلوه بنسبَتِه إلى غير مصدرِهِ وجهتِهِ الحقيقيّةِ، فازدادوا عمًى فوقَ العمى، وتمَّ انقطاعُهم عن أسباب الهُدى، ووسائلِ التّبصُّر، واستدراكِ النَّكَسات.

استحضارُ الفعلِ القبيح مع قُبحِ صورة فاعِلِه

دلالةُ التّعبير بالمضارع:

عَبَّرَ بالمضارع في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ للدّلالة على تَكرار ذلك منهُم، فهُم كافرون وما زالوا يَكفرون، ففيه دلالةٌ على عدم الانفكاكِ عنِ الحدث باستمرارِهم وتصميمِهم عليه، ولا يخفى ما في ذلك مِن إحضار صورتِهم أمامَ السّامع، وهم يُزاوِلون الكُفْرَ، ويتلبَّسونَ بخِصالِه، كأنّهم مُشاهَدون في الحال، وهم يَتعمَّدون الكفْرَ، ويأتونَ به، ففي التّعبير بالمُضارعة استدعاءٌ وتحضيرٌ للحال المُشاهدَةِ، وهي تصدرُ عنهُم، وهذا مِنَ التّشديد في الاستهجان منهم، والمبالغةِ في إظهار خصالِهمُ الرّديئةِ، وهي تنشأُ وتحصُلُ؛ لأنّ استحضارَ القبيحِ، وهو يحصُلُ، إيذانٌ بتصوير قُبحِ فاعِلِه.

يَلقَى الكافرُ عاقبةَ كفرِه، وقد كان مُتغافِلًا عنها

بلاغةُ الاستعارة:

على اعتبار كون اللّامِ في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ للعاقبة والصّيرورة، وهي الدّالّةُ على أنّ مدخولَها هو مآلُ الفعل السّابقِ عليه، وأحدُ نواتجِه، مِن غير أن يكونَ ذلك النّاتجُ غرضًا مقصودًا مِنَ الفاعل،

(1) صافي، الجدول: 14/ 335.

وعلى هذا يكونُ في معنى اللّام هنا استعارةٌ تَبعيَّةٌ[1]، حيث شَبّهَ العِلّةَ المقصودةَ مِنَ الفِعلِ بالعاقبة الحَتميّةِ للشّيء الّذي لا تَعمُّدَ ولا غرضَ للفاعل بإحرازه، بجامع النّاتِجيَّة في كلٍّ.

سرُّ التّعبير بالضّمير في ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ بَدلًا مِنَ الظّاهر:

في الإعراض إهمالٌ وإقصاءٌ، والجزاءُ من جنس العمل

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بالضّمير في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ بدلًا مِنَ الظّاهر؛ فلم يقُلْ: (ليكفرَ فريقٌ منهم بما آتيناهم)، كما قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، اعتمادًا على الظّاهر السّابقِ، فأتى بضمير السّابق دون لفظِه؛ لوضوحه وعدمِ خفائِه، وعدمِ الالتباس في تعيينِه، ولعدمِ التَّكرارِ اللّفظيِّ الّذي لا لُزومَ له ولا مُقتضَى، فأغنى الضّميرُ عنِ الإعادة المَكروهةِ للّفظ، وفي الإضمار إعراضٌ عن ذواتِهم، وإهمالٌ وإقصاءٌ، فلمّا كان فِعلُهم فِعلَ كُفرانٍ وجُحودٍ، والكفرانُ تغطيَةٌ للحَقّ وإقصاءٌ لقضيّتِه، بحيثُ توارَى فلا تُرَى، كان الإضمارُ أولى بهم، وأحقَّ تغطيةً لهم، وإقصاءً في الذِّكر والمعنى، كأنّه إشارةٌ إلى أنّ الجزاءَ مِن جنس العمل، فعومِلوا في التّعبير عنهُم بما عَمِلوه.

دلالةُ التّعبير بالموصول (ما):

نِعَمُ اللهِ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى

في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ عَبَّرَ بـ (ما)، وهي مَوصولٌ مُشتَركٌ مُبهَمٌ يُفيدُ العمومَ[2]، لدلالته على مُتعدِّدٍ مُتنوِّعٍ، وهي النِّعمُ الوافرةُ والدّلائلُ الظّاهرةُ مِنَ العِلم والحَقِّ، وهذا دليلٌ على أنّ نِعَمَ اللّه عَصِيّةٌ على الحصرِ والعَدِّ.

سرُّ التّعبير بالإيتاء:

مَن أوتيَ شيئًا فقد تيسَّرَ له

في قوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ عَبَّرَ بالإيتاء دونَ غيرِه، مِنَ الإعطاء والمِنحَة وغيرِهما، فلم يقُلْ: (أعطيناهُم) أو (منحناهُم)،

---
(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 406.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 131.

للدّلالة على ثلاثة أمورٍ تتعلَّقُ بالمُؤتي؛ وهو اللّهُ ﷻ، والمُؤْتَى إليه؛ وهو الإنسانُ، والمُؤْتَى؛ وهي النّعَمُ.

فبالنّسبة للمُؤْتِي (وهو اللّه العظيم)، يدلُّ لفظُ الإيتاء على أنّ المُؤْتِيَ يفعلُ ذلك عن رِضًا وسِعَةٍ، وكمالِ قُدرةٍ وإرادةٍ، والحاصل في ذلك أنّ الإيتاء هو إحضار الشّيء، وإيصاله للمعطي، وجعْلُه يأتي إليه، ولا يُسنَدُ إلّا إلى عظيمٍ، ولا يُقالُ إلّا في كثيرٍ، ولا يجري إلّا في مَقام الاختيارِ والتّيسيرِ.

وأمّا المُؤْتى إليه (وهو الإنسان) فلفظُ الإيتاءِ يدلُّ على إيصالها إلى حيّزِ الإنسانِ بيُسرٍ وسُهولةٍ، مِن غير أنْ يتوقَّفَ ذلك على قبولِه مِن عدمِه، ومعنى ذلك: أنّهم مُنَعَّمون مَرزوقونَ، ولو لم يَلتَمسوا النّعيمَ والرّزقَ ويَسعَوا إليه.

وأمّا المُؤتَى (وهي النِّعَم) فلفظُ الإيتاءِ يدلُّ على كَثرتها في النّوع والعدد، وعلى جودتها في المَنفعةِ والقِيمَةِ.

دلالةُ التّعبير بالماضي:

تحقُّقُ الإيتاءِ وتمامُه

التّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾؛ للدّلالة على تحقُّقِ الإيتاءِ وتمامِهِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى مكتوبِ القَدَرِ الّذي فُرِغَ منه أزَلًا؛ لأنّ اللّه كَتَبَ عندَه حَظَّ كلِّ مخلوقٍ مِنَ الرّزق والإنعام، فهذا أمرٌ مُحقَّقٌ مَفروغٌ منه، ولذا عَبَّرَ عنه بالماضي؛ للدّلالة على أنّ ما قَدّرَه اللّهُ للنّاس أمرٌ أزليٌّ.

دلالةُ التّعبيرِ بنون العَظَمة:

عظمةُ الرّازِقِ دلالةٌ على عظمة الرّزقِ

نونُ المُتكلِّم الجمعيّ في قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾؛ لتعظيم المُتكلِّم وإجلالِه، وهذا التّعظيمُ للفاعل الجليل سبحانَه لائقٌ ومُتَّسِقٌ مع عظمةِ الفِعلِ وعظمةِ المفعول، ففِعلُ الإيتاءِ عظيمٌ لاقتضائه قُدرةً واختيارًا، والمفعولُ مادّةُ الإنعامِ والرّزقِ عظيمةٌ لكثرتها ووفرتِها،

وتنوُّعِها وجودةِ آثارِها، وعدمِ تناهي مَنافعِها، فحَسُنَ لأجل هذه القرائنِ معنى التّعظيم الّذي تضمَّنَته النّونُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفاء في ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾:

لا خيرَ في متاعٍ يَؤولُ إلى النّار

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالفاء في جملة: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾؛ لتَعَدُّدِ المُرادِ بها؛ فيَصِحّ أن تكونَ سببيّةً لتفريع الأمرِ بالتَّمتُّع على كفرهم[1]، فإنّ كُفرَهم سببٌ للتَّمتُّع، بحيث يترتَّبُ عليه الوعيدُ الشّديدُ؛ أي: فتَسَبَّبَ عن كفرِهم بهذا الإيتاء العظيمِ للنِّعَم أنْ يُؤمَروا بالتَّمتُّع بما أوتوه على سبيل التّهكُّم والإلحاح إلى تهديدِهم[2]، ويَصِحُّ أن تكونَ الفاءُ فصيحةً، عاطفةً مدخولَها على شرطٍ مُقَدَّرٍ مفهوم مِنَ السّياق، تقديرُه: إنْ كفرْتُم فتمتَّعوا، أو مُفصِحَةً عن قولٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: قُلْ لهُم: فتمتَّعوا، وتقديرُ القول مَردودٌ إلى تقدير الشّرطِ؛ لأنّ معنى القول مع الفاء لا بدّ أن يكونَ على معنى: قُلْ لهُم إنْ كفرْتُم فتمتَّعوا[3].

دلالةُ الأمرِ في قوله ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾:

التّهديدُ والوعيدُ

صيغةُ الأمر في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ للتّهديد وإفساحِ الأمَلِ بما يَستوجِبُ المُؤاخذَةَ وعدمَ الإعذار، فالأمرُ مَجازٌ مُرسَلٌ لعلاقة الإطلاقِ والتّقييدِ، وليس على حقيقتِه الأصليّة، مِن طلبِ الفعلِ على جهة الإلزامِ والاستعلاءِ[4].

سرُّ إطلاقِ لفظ (المتاع) على مَنافِعِ الدُّنيا:

مَتاعُ الدّنيا سريعُ الزّوالِ

أُطلِقَ لفظُ المَتاعِ في قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ على مَنافع الدُّنيا؛ للدّلالة على سرعةِ انقضائِها في الوقت، وسرعةِ زوالِها في الإحساس والشّعور؛ لأنّها مادامَتْ مَتاعًا فهي مُؤقَّتَةٌ، والمُؤقَّتُ محدودٌ وإنْ طال، فثبتَ أنّ المتاعَ سريعُ الفوات، غيرُ ثابتٍ ولا مَضمونٍ، وما كان كذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 181.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 298.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 8/ 443.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 406.

فجديرٌ بالعاقل ألّا يَرْكَنَ إليه، وألّا يَغفُلَ به عنِ اللهِ الجليل الّذي جادَ به، وعَبَّرَ عن مَنافِعِ الدُّنيا بالمَتاع تسميةً للشّيء بما يؤولُ إليه ويُبتغَى منه، على سبيل المَجاز المُرسَلِ لاعتبار ما يكونُ، وهي علاقةُ الأيلولَة، إذِ المَنفعةُ تَؤولُ للمُتعة، فالمَنافعُ تُحَصَّلُ للاستمتاع بها غالبًا، وتُحَصَّلُ لغرضِ استدامتِها مُدّةً طويلةً، لِضمانِ الاستقرارِ في خَيرِها، إذِ الالتِذاذُ والتّمتُّعُ لا يَتمُّ إلّا ببقاء المَنفعةِ زمنًا، فسَمَّى المَنافِعَ باسم مَقاصِدِ أصحابِها منها[1].

دلالةُ حذف مُتعلّق ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾:

إرادةُ التّعميم للإغلاظ في التّهديد والوعيد

لم يُذكَرْ مفعولُ التَّمتُّع في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾، فلم يقُلْ: تمتَّعوا بكذا أو كذا؛ لإرادة التّعميم؛ أي: تمتَّعوا بكلّ ما أمكنَكم التَّمتُّع به ممّا آتيناكموه، والغرضُ مِنَ التّعميم الإغلاظُ في التّهديد والوعيدِ، فإنّه في معنى: تمتَّعوا ما شئتُم مِنَ المَتاع، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصّلت: 40]، فإنّ إفساحَ الأملِ في مَقام الإنذارِ دالٌّ على عقوبةٍ مُؤجَّلةٍ.

بلاغةُ الالتفات:

الخطابُ أنسبُ بالموعظة، وأعرقُ في إقامة الحُجّةِ

الالتفاتُ مِنَ الغَيبة إلى الخطاب من قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾[2]؛ لأنّ الأليقَ بالأمر أن يكونَ خطابًا، وهو أبلغُ من (فليَتمتّعوا)؛ ليتناولَ كلَّ حاضرٍ، وليأخذَه كلُّ سامعٍ وكلُّ حاضرٍ مِنَ المُشركين على نفسِه، فالخطابُ أنسبُ بالمَوعظةِ المُباشِرةِ، وأعرقُ في إقامةِ الحُجّةِ.

مَوقِعُ جملة ﴿فَسَوۡفَ﴾ ممّا قبلَها:

إغلاظُ الوعيد بعدَ الوعيد، دليلٌ على جمعِهم بين صفتَي الشّرك والكُفر

جملة: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ استئنافيّةٌ تعليليّةٌ؛ لترتيبِ مَدخولِها مِنَ العِلمِ المُستقبليِّ على تمتُّعِهم، فعِلمُهُم بجزاءِ كفرِهم وعاقبتِه، وظهور ذلك لهم، مُرَتَّبٌ على مَتاعِهم، ويصحُّ أن تكونَ الفاءُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/ 316، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 179، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 298.

فصيحةً، وهي الفاءُ العاطِفةُ مَدخولَها على شرطٍ مُقدَّرٍ؛ أي: إذا كفرتُم وتمتَّعتُم فستعلمون ما يحصلُ لكُم مِنَ الجزاء، وفائدةُ التّعقيبِ بها بعد قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ إغلاظُ الوعيدِ بعدَ الوعيد؛ لأنّ في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ تهديدٌ، وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تحقيقٌ لِما هدَّدَ به؛ لأنّه إخبارٌ في معنى الإنشاء؛ أي: اعلموا ما سيحلُّ بكم، وارتقبوا مَوعِدَه[1].

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ دون السّين:

لا عذرَ لأحدٍ في كُفْرِه، بعدَ بلاغ الرُّسلِ

عَبَّرَ بـ (سوف) في قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ دون السّين؛ لأنّ السّينَ تدلُّ على الوقوع القريبِ وعلى الإمهال فقط؛ بخلاف (سوف) فإنّها تدلُّ على الوقوع البعيدِ وعلى الإبطاء والتّأخيرِ الزّمنيِّ، وفي هذا دلالةٌ على إرخاء الإمهالِ، وفائدةُ التّعبير بـ (سوف) هنا: الإيذانُ بأنّ التّمتيعَ المَذكورَ حاصِلٌ على أتمِّ وجوهِهِ، وأطولِ مُدَدِهِ، وهذا أبلغُ في نفي العُذرِ وإقامة الحُجّةِ.

دلالةُ التّعبير بقوله ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

إفادةُ الجزم بالوعيد، واليقينِ في التّهديد

التّعبيرُ بـ﴿تَعْلَمُونَ﴾ لإفادة الجزم بالوعيد واليقين في التّهديد، فعِلمُهم بما ينتظِرُهُم كائنٌ لا مَحالةَ، ومُلاقاتُهم له حقٌّ معلومٌ لا يُخالطُه شكٌّ، ولا تعتريه شبهةٌ.

سِرُّ حذفِ مُتعلّقِ الفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

ذهابُ النّفس في تَعيّنِهِ كلَّ مَذهَبٍ

حَذفُ مُتعلّقِ ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ للإشعار بأنّ الوعيدَ لا يوصَفُ، وهذا أبلغُ وأهولُ في تصوير العذابِ، ولصيانة الفاصلةِ ألّا تنخرِمَ، ولدلالة السّياقِ على المَحذوف، فقوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ دالٌّ على مُتعلّقِ ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: تعلمون جزاءَ الكُفرِ وعاقبتَه[2]، ولم يعيِّنْ هذا

(1) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 7/ 199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 180.

الجزاءَ وأبهمَه بالحذف لتهويلِه، كأنّه لا يوصَفُ[1]، فليس له نظيرٌ يُقاسُ عليه في مِقدار هَولِه.

مُتشابِهُ النّظم:

تشابهَت هذه الآيةُ مع سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [العنكبوت: 66]، ومع سورة الرّوم في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الرّوم: 34].

والملاحظُ وجودُ اللّام في مَوضِع العنكبوت دون مَوضِع النّحل والرّوم، وسببُ ذلك اختلافُ السّياق في كلٍّ منهم؛ فمَوضِعُ النّحل جاء بعدَ قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النّحل: 54]؛ فهو خطابٌ يَعُمُّ ولا يخصُّ، أمّا مَوضِعُ العنكبوت فقد سبقَه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ الآية [العنكبوت: 65]؛ فالأمرُ فيه مَبنيٌّ على الخصوص؛ لأنّ الخطابَ لا يتناولُ إلّا الّذين ركبوا في الفُلك[2].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإعطاءُ والإيتاءُ:

يُسنَدُ العطاءُ إلى الكثير والقليل، أمّا الإيتاءُ فيُسنَدُ إلى الكثيرِ والعظيمِ

العطاءُ: هو مُناولَةُ الشّيءِ للغير، فهو أصلٌ في الأخذِ والتّناولِ.

والإيتاءُ: هو إحضارُ الشّيءِ وإيصالُه للمُعطَى، وجعلُه يأتي إليه، فهو أصلٌ في المَجيءِ والحضورِ، واستعمالُ الإيتاء في الإعطاءِ؛ لكونِ العطاءِ يقتضي مُناوَلَةَ الشّيءِ بعد إحضارِه، فالإيتاءُ أوّلًا ثمّ العطاءُ، ويختلفُ الإيتاءُ عن الإعطاء من ثلاثةِ وجوهٍ:

الأوّلُ: أنّ الإيتاءَ يكونُ عن طِيبِ نفسٍ لا عن إكراهٍ، والعطاءُ قد

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 406.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 299.

يَحتَمِلُ معنى الإكراه، كما قال في الجِزيَة: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29]، فجُعِلَ الإعطاءُ فيما كان عن غلبةٍ وقهرٍ.

الثّاني: أنّ الإيتاءَ يكونُ في الشّيء عزيزِ القِيمة، كثيرِ المَنفعة، عظيم القَدرِ، والعطاءَ قد يكونُ في البخسِ والقليل، كما يكونُ في العظيم الكثيرِ، فقد أسندَ العطاءَ إلى القليل في قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النّجم: 34]، ولذا كان الإعطاءُ فيما يُنتَقَلُ عنه إلى ما هو أعلى منه، ولذا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ لانتقاله مِنَ الكوثر إلى ما هو أعلى منه، وهو الجنّة ومزايا النّعيم الأحسن، وأمّا الإيتاءُ فلم يُسنَدْ إلّا للعظيم والكثير كقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [ص: 20]، وقولِه: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه: 99]، وقولِه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ [النّساء: 54].

الثّالث: الإيتاءُ لا يتوقَّفُ على قبولِ الآخِذِ وموافقتِه، فهو حقيقٌ بالإيتاء من غير اعتبارِ مَوقِفِه، ولذا كان فعلُ الإيتاءِ أقوى مِنَ الإعطاء، ولذا ففعلُ الإيتاءِ لا مُطاوعَ له مِن لفظِه، كما في الإعطاء، يُقالُ: آتاني فأخذتُه، وفي الإعطاء يُقالُ: أعطاني فعَطَوْت؛ وما له مطاوعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولِه ممّا لا مُطاوِعَ له، ولذا لم يَقُلْ في الزّكاة: (ويُعطون الزّكاةَ)؛ لئلّا يَحتَمِلَ توقّفها على القبول، كما قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التّوبة: 29]، فإنّ عطاءَهم الجزية مُتوقِّفٌ على قبولِ المسلمين منهم ذلك[1]، ولذا فقد عَبَّرَ بالإيتاء هنا في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾؛ ليدلَّ على أنّهم كفروا بنِعمٍ عظيمةٍ ظاهرةٍ، فالكفْرُ بها جريمةٌ عظيمةٌ، وكفروا بالحقّ المُبين الواضح، وأولَى بمثلِ هذا الإيتاءِ أن يُشْكَرَ ويُحتَرمَ ويُصانَ حقُّه.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (عطا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عطو، أتي)، والراغب، المفردات: (عطا، أتى)، وابن منظور، لسان العرب: (عطا، أتي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو، أتى، عطو)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦﴾ [النّحل: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الشّـرك بالله يَجترُّ كلَّ خطيئة

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ بعضَ قبائحِ أعمالِ الكفّارِ ومخازيهم، وكان منها دعاؤُهم ربّهم في الشّدّة، والإشراكُ في الرّخاء، بَيَّنَ في هذه الآية نوعًا آخَر مِن هذه القبائح، وهو تقديمُ نِعَمِ اللّه تعالى للأصنام الّتي لا تنفعُ ولا تَضُرُّ بقوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾.

ومِنَ المُناسبة أيضًا أنّه لمّا ذَكَرَ في الآية السّابقةِ توعُّدَه وتهديدَه لهُم بسببِ إشراكهم المُستلزم لعدم شُكرِهم، وكفرِهم النّعمةَ، ذَكَرَ هنا في تلك الآية مِثالًا عمليًّا على ذلك، في إساءة تصرُّفِهم في أرزاق اللّهِ عليهم، فتوسَّلوا بأرزاق اللّهِ إلى الكفر باللّه سبحانه!.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصِيبٗا﴾: (نصب) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إقامَةِ شَيءٍ، وإهدافٍ في استِواءٍ. يُقالُ: نَصَبْتُ الرُّمحَ وغيرَهُ، أنصِبُهُ نَصبًا، والنَّصيبُ: الحَوضُ يُنصَبُ مِنَ الحِجارَةِ، والنَّصيبُ: الحَظُّ مِنَ الشَّيءِ، أو الحَظُّ المَنصوبُ؛ أي: المُعَيَّنُ، يُقالُ: هذا نَصيبي؛ أي: حَظّي، كأنَّهُ الشَّيءُ الَّذي رُفِعَ لَكَ وأَهْدَفَ[1]، ويُقالُ: لي نَصيبٌ فيه؛ أي: جُزءٌ مُعَيَّنٌ مِنَ الشَّيءِ المَقسوم، وتَناصَبَ القَومُ الشَّيءَ: تَقاسَموهُ، والجَمعُ: أنصِباءُ، وأنصِبَةٌ، ونُصُبٌ[2]، والمقصودُ بالنَّصيب في الآية: الحظُّ والقِسمُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سِيده، المُحكم، والزبيدي، تاج العروس: (نصب).

2) ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾: (سأل) أصلُ معناه: الاستِدعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ: سَألَ يَسألُ سُؤالًا ومَسألَةً، ورَجُلٌ سُؤَلَةٌ: كَثيرُ السُّؤالِ[1]، ويُقالُ: سَألْتُهُ عَن عِلمٍ سُؤالًا ومَسألَةً؛ أي: طَلَبْتُ مَعرِفَتَه، وسَألْتُهُ الصَّدَقَةَ؛ أي: طَلَبتُ منهُ أن يَتَصَدَّقَ عَلَيَّ، فالسُّؤالُ حَقيقَتُهُ الطَّلَبُ، فإذا عُدِّيَ بـ (عَن) فهو طَلَبُ معرِفَةِ المَجرورِ بـ (عَن)، وإذا عُدِّيَ بنَفسِهِ فهو طَلَبُ إعطاءِ الشَّيءِ[2]، ومِن مَعانيهِ: الاستفهامُ، والاستِخبارُ، والاستِعلامُ، والاستِفسارُ، والمقصودُ بالسُّؤال في الآية: كِنايةٌ عمّا يَتَرتَّبُ عليهِ مِنَ العِقابِ، والسُّؤالُ في الآية مُستَعمَلٌ في لازِمِ معناهُ، وهو عِقابُ المَسؤولِ[3].

3) ﴿تَفۡتَرُونَ﴾: أصلُ الفَري: القَطعُ والشَّقُّ، والإفراءُ للإفساد، والافتراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[4]، والفِرْيَةُ الكَذِبُ، فرَى كَذِبًا فرْيًا، وافتَراهُ: اختَلَقَه، وفي التَّنزيلِ العَزيزِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: 38]؛ أي: اختَلَقَهُ[5]، قال السِّجستانيّ: "الافتراءُ: العَظيمُ مِنَ الكَذِبِ. يُقالُ لِمَن عَمِلَ عملًا فبالَغَ فيهِ: إنَّه ليَفري الفَريَ؛ يعني: ليقطع الأمرَ العجيبَ"[6]، وأمّا الافتراءُ في الآية فهو نوعٌ مِنَ الكذبِ، وهو ابتكارُ الأخبارِ الكاذبةِ، ويُرادِفُ الاختلاقَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّقرُّبُ بالنّعم للأصنام والأوثان عدوانٌ على الله

يخبرُ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنَّ المشركينَ يجعَلون للأصنام الّتي اتَّخذوها آلِهةً - وهي لا تعلَمُ شيئًا ولا تنفَعُ ولا تضُرُّ - حظًّا مِن أموالِهم الّتي رزَقَهم اللّهُ إيّاها - كالحَرْثِ والأنعامِ - ؛ تقَرُّبًا

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 248.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 87.
(4) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(5) ابن سِيده، المُحكم: (فري)، وابن منظور، لسان العرب: (فرا).
(6) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103.

إليها! ثمّ يتوعَّدُهمُ اللّهُ مُقسِمًا بذاتِه قائلًا: تاللّهِ - أيُّها المُشرِكونَ - ليَسألنَّكم اللّهُ يومَ القيامةِ عَمّا كُنتُم تَختلِقونَه في الدُّنيا مِنَ الكَذِب عليه، بادِّعائكم أنّه أمَرَكم بعبادةِ غَيرِه، وسيُعاقِبُكم على ذلك[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو:

الشّركُ وكفرُ النّعمة مُتلازمان

تعدّدتِ الأقوالُ في دلالة الواو في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ﴾، فمنهُم مَن قالَ: إنّها للعطف، فيكون مِن باب عطف القِصّة على القِصّة، والحالِ على الحال، وفائدةُ هذا العطف تعديدُ قَصَصِهم وأحوالِهم في الجنايات، فكأنّه قِيلَ: يَفعلون ما يَفعَلون، ممّا قَصَّ عليك: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا﴾[2].

ومنهُم مَن قال: إنّ الواوَ في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ﴾ يصحُّ أن تكونَ استئنافًا نحويًّا، للشّروع في حكايةِ حالٍ أصيلةٍ مِن أحوال شِركهم وكُفرانِهم للنِّعم، فكأنّه بعد أنْ أخبَر بشركهم في قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النحل: 54]، ثمّ أخبرَ بكفرانِهِمُ النِّعمَ في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾، مَثَّلَ لذلك بذِكرِ حالٍ مِن أحوالهم، اجتمعَ فيها الشّركُ وكُفْرُ النِّعمة معًا، وهو قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾؛ ليتأكّدَ بهذا المثالِ أنّ الشّركَ وكُفرَ النّعمةِ مُتلازمان، فيتبيّنَ به صِحّةُ التّعليل بين شِركِهم وكُفرانِهم في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ [النحل: 54 - 55][3].

سِرُّ التّعبير بالجَعل:

أعظمُ جنايات المُشركين تشريعُ ما لم يَحكُم به اللهُ

التّعبيرُ بالجَعل في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ﴾ للدّلالة على معنى التّصييرِ بالفعل، المتضمِّنِ لمعنى التّشريع والحُكم والاعتقاد، ولذا نَفَى ثبوتَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 254، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 116، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 577.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 406.
(3) صافي، الجدول: 14/ 337.

هذه المعاني بقوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ ليَدُلَّ على أنّه تشريعٌ بغير علمٍ وبيّنةٍ، والتّصيير: بمعنى صرفِها مِن جهة اللّهِ إلى جهة أصنامِهم، ويَصحُّ أنْ يكونَ الجَعْلُ بمعنى: أوجدَ وأحدث، لأنّه حكْمٌ بما لا أصلَ له، وهو إحداثٌ لشرعٍ لا برهانَ عليه(1).

دلالةُ التّعبير بالمضارع:

تجدُّدُ كُفرِ الكافرين على مَرِّ العصور والأزمان في تشريع ما لم يَأذنْ به اللهُ

التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ﴾ يدلُّ على تجدُّدِ صورِ الشّركِ على مَرِّ العصور وإلى يومنا، فيُقدِّمون القَرابين لآلهتِهم، ومِن هؤلاء البوذيّون ومَن على شاكلتهم، وفي هذا تصويرٌ لتَجَدُّدِ ذلك ونَشرِه، ومُزوالتِه المُتجدِّدةِ في الحال والاستقبال(2)، فالمضارعةُ تبيّنُ كيف أنّ هذا الابتداعَ الباطلَ صار سُنَّةً مُتَّبَعَةً لهم، يتوارثونَها ويَدْعون إليها، فكأنّ في كلِّ مرّةٍ مِن هذه المَرّات جَعلًا جديدًا، وهو إلماحٌ إلى أنّهم لم يتوقّفوا عن هذا الأمر، ولم يكنْ شيئًا طَرَأ في الماضي ثمّ كَفّوا عنه.

دلالةُ اللّام في ﴿لِمَا﴾:

اختصاصُ الأصنام بما لا يجوزُ شرعًا وعقلًا

اللّامُ في قوله: ﴿لِمَا﴾ للتّعليل؛ أي: يجعلون نصيبًا لأجل ما لا يَعلمون، والمقصودُ بـ (ما) أصنامُهم(3)، ومعنى الاختصاصِ المُلازمِ لِلّام بديعٌ في حضوره هاهنا؛ لأنّ هذا الجَعْلَ المذكورَ هو جَعْلُ عبادةٍ اختَصُّوا بها آلهتَهم مِن دون ربّ العالمين سبحانَه الغنيّ.

سِرُّ التّعبير بـ (ما):

إبهامُ النّظم القرآنيّ لأصنام المُشركين دليلٌ على هوانها

التّعبيرُ بـ (ما) في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لمُطابقتِها معنى السّياق؛ لأنّ (ما) تختصُّ بذواتِ ما لا يَعقِلُ، ولِصفاتِ العقلاء، وهي عائدةٌ هنا على أصنامِهم، وهي ذواتٌ غيرُ عاقلةٍ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (جعل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 180.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 401.

اعتقدوا فيها صفاتِ مَنْ يَعقِل[1]، ولذا عبدوها، واعتقدوا فيها ما للذّواتِ العاقِلة مِنَ العِلم والإرادة، ذلك، مع ما في (ما) مِن الدّلالة على الإبهام والعُموم، فهو أرادَ عمومَ أصنامِهم فأبهَمَها، ولم يُعيِّنْ شيئًا منها[2]، وفي هذا تسخيفٌ لعقول الكُفّارِ؛ لأنّهم يَعبدون مَن ليس له حَقُّ العبادة؛ بل يفترونَ هذا المَسلَكَ مِن عند أنفسِهم.

دلالةُ حذفِ مفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

مفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ لقصد العُموم؛ حيث يُفهَمُ تقديرُه مِنَ السّياق؛ يدلُّ عليه اسمُ الموصول (ما)، وتقديرُ الكلام: لِما لا يعلمونَه مِن أحوال الأصنام، وأنّها لا تَضُرُّ ولا تنفعُ، وفي هذا تشنيعٌ على المشركين، وتسفيهٌ لأحلامِهم، إذ عدلوا عنِ التَّعامُل مع ربّ العالمين الّذي يَعلمُ كلَّ شيءٍ، إلى التَّعامُل مع ما لا يَعلمُ شيئًا[3].

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿نَصِيبٗا﴾ دون (حظًّا):

التّعبيرُ باللّفظ الأعمِّ يشمَلُ المعنى الأخصّ

عَبَّرَ بالنّصيب في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا﴾؛ لعموم النّصيبِ في دلالته على الحظِّ مِن كلِّ شيءٍ، سواءٌ في المدح أو في الذّمِّ، أوِ الخيرِ والشّرِّ، وأمّا الحَظُّ إذا أُطلِقَ مِن غير تقييدٍ فلا يُقالُ إلّا في الكرامة والمدح، ولذا كان الأنسبُ في هذا التّركيب أن يُعبَّرَ بالنّصيب؛ ليَدُلَّ على أنّه نصيبٌ باطِلٌ مَذمومٌ، وهو سببٌ في ذمِّهِم والنّعي عليهم[4].

دلالةُ التّنكير:

الدّلالةُ على تَوارُدِ أكثر مِن معنًى على المَحلِّ الواحد

التّنكيرُ في قوله: ﴿نَصِيبٗا﴾ للإبهام وعدم التّعيين[5]، والغرضُ مِنَ الإبهام: تجاهُلُ المِقدارِ والكَمِّ؛ لأنّ المُرادَ التّنبيهُ على مُجَرَّدِ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 401.

(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 130.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 167، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/ 309.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (حظ - نصب)، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حظظ - نصب).

(5) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 40.

النّصيب، قليلًا كان أم كثيرًا؛ لأنّ تشريعَ النّصيبِ في أصلِه ومبدَئِه - أيًّا كان مقداره - ، وصَرفه إلى غير اللّه، هو إجرامٌ وافتراءٌ عظيمٌ يَستلزمُ العقوبةَ عليه.

دلالةُ وصفِ النّصيبِ بقوله ﴿مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾:

صَرفُ رزقِ اللهِ إلى الأصنام شِركٌ

وَصفُ النّصيب بقوله: ﴿مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ نعيٌ على عقولهم، واستِسفاهٌ لها، وازدراءٌ لَمسلَكِهم، وتعريضٌ بهم، إذْ كان ينبغي أن يجعلوا القِسمَ والنّصيبَ مُتَّجهًا لَمن أولاهُ وتفضَّلَ به، فكيف يَصرِفون مواهِبَ اللّهِ الّتي لم يتفضَّلْ بها أحَدٌ سِواه إلى غيره، فضلًا عن أن يكونَ لأصنامٍ لا تنفعُ ولا تضُرُّ، فضلًا عن أن ترزقَهم شيئًا[1].

دلالةُ التّعبيرِ بـ (مِنْ):

الأرزاقُ كلُّها مِنَ اللهِ، ولا تُصرَفُ إلّا بما شَرَعَ

(من) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ بيانيّةٌ أو للتّبعيض؛ أي: (نصيبًا هو مِن جنسِ ما رزقناهُم به)، أو (نصيبًا هو بعضٌ وجُزءٌ مِن عُموم رزقِهم)، ويَسوغُ أن تكونَ ابتدائيّةً على معنى: (نصيبًا مَنشَؤُه ممّا رزقناهُم).

سِرُّ التّعبيرِ بالرّزق:

الأرزاقُ لا تنفكُّ عنِ المَنفعة

التّعبيرُ بالرّزقِ في قوله: ﴿مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾؛ للدّلالة على معنى المَوهِبةِ والمَنفعةِ فيه[2]، فإنّ أصلَ الأرزاق حاصلٌ بمحضِ مَوهبةِ اللّهِ لعبيده، ولأجلِ نفعِهم وتنميةِ مَصالحِهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي:

الأرزاقُ كالآجالِ مضمونةٌ لا تتخلّفُ ولا تَفوتُ

التّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ يدلُّ على أنّ ما رزقَهم اللّهُ به كان قدَرًا مَقدورًا في الأزَل، فهُم وإن كانوا ما زالوا يُرزَقون، إلّا أنّ مَسألَةَ رزقِهم في حُكم المُتَحقِّقِ المَفروغِ منه، أو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 180.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رزق).

التّعبير بالماضي؛ لكونِهم لا يجعلون نصيبًا لآلهتهم إلّا ممّا تحقَّقَ وجودُه عندَهم مِنَ الأرزاق بالفعل، فمادَّتُه حاصلةٌ جاهِزةٌ للبذْلِ والجَعْلِ والصّرفِ لأصنامهم.

تعظيمُ شأنِ الرّزق لعَظَمة الرّازقِ

دلالةُ إسناد الفعلِ إلى نون العظمة:

أُسنِدَ فِعلُ الرّزقِ إلى نون العظمةِ في قوله: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾؛ لتعظيم شأنِ الرّزق، وأنّ أمرَه جسيمٌ، لا يَستَأهِلُ القيامَ بإمداده وإجرائه إلّا عظيمٌ في قُدرته وحِكمتِه وعِلمه، وهو اللّه سبحانَه، ولكنّهم لم يَعرفوا حَقَّه؛ لسفاهة عقولِهم، وقُبحِ أخلاقِهم.

المواجهةُ أشدُّ تأثيرًا في الوعيد

بلاغةُ الالتفات:

في قولِه تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ وُجِّهَ الخطابُ إليهم على طريق الالتفاتِ مِنَ الغَيبةِ للخطاب[1]؛ انتِقالًا مِنَ الإخبار عنهُم إلى تهديدِهم ووعيدِهم، إذِ الخطابُ بالعقوبة أبلغُ في الزّجر والإيعاد[2]، ولاسيّما الجملةُ المُجَرَّدةُ عن فاء التّفريعِ وعنِ العاطِف، فالالتفاتُ أنسبُ.

غرابةُ القَسَم لغرابة الجُرْمِ

نُكتةُ القَسَمِ بـ ﴿تَٱللَّهِ﴾:

جاءَ القسمُ في قولِه: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ مَقرونًا بالتّاء؛ للدّلالة على أنّ المُقسَمَ عليه أمرٌ مُتَعجَّبٌ ومُستَغرَبٌ منه، إشارةً إلى أنّهم يُسألون سؤالًا عجيبًا بمقدار غَرابةِ جُرمِهم المَسؤولِ عنه[3]، ذلك أنّ التّاءَ في القَسَم تكونُ فيما يُتَعَجَّبُ منه غالبًا، لأنّها لمّا كانت نادرةً في أدوات القَسَم جُعِلَتْ للنّادرِ مِنَ المعاني، والنّادرُ مِنَ المعاني يُتعجَّبُ منه، وهي بدَلٌ مِنَ الواو عند جمهور النّحويّين، وقِيلَ: أصلٌ بنفسِها، وهو وجهٌ مُختارٌ عند غير واحدٍ مِن أئمّة اللّغة، ويَقِلُّ استعمالُها في غير اسم اللّهِ تعالى[4].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 299.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 299.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 181.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 366، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 304، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/ 170.

دلالةُ القَسَم:

تعظيمُ التّهديد، وتشديدُ الوعيد

تصديرُ جملة الالتفاتِ بالقَسَم في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾؛ لتحقيق الوعيدِ المُقسَم عليه بلفظ السّؤالِ، وعِلّةُ القسَم: أنّ السّؤالَ المُقسَمَ عليه غيبٌ سيحصلُ يومَ البعثِ، وهم يُنكرونَهُ، فناسبَه التّأكيدُ بالقَسَم[1].

سِرُّ التّعبير بلفظِ السّؤال:

التّقريرُ وإلزامُ الحُجّة

التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ بلفظ السّؤالِ؛ للتّقريرِ وإلزام الحُجّة، وليس لإنشاء معرفة، أوِ استدعاءِ فهم، أو تحصيلِ مَعلومةٍ خَفِيَتْ على السّائل، فالغَرَضُ مِنَ السُّؤال تهديدُ المَسؤولِ، بأنّه غيرُ مَتروكٍ، وهو كنايةٌ عنِ الحسابِ الشّديدِ مِن غير تفويتٍ ولا إفْلاتٍ، وكنايةٌ عمّا يترتَّبُ عليه مِنَ العقاب، وعلى ذلك يكونُ استعمالُ السّؤال على غير معناه الحقيقيّ، وهذا مِن باب المجاز.

دلالةُ التّعبير بالتّأكيد باللّام والنّون:

إنّما يُقسَمُ على ما هو مَظِنَّةُ الارتيابِ

جملةُ: ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ جوابُ القَسَم في قوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾، أُكِّدَتْ باللّام ونونِ التّوكيد؛ لأنّ القَسَمَ إذا لم يكنْ معه علامةُ الإثباتِ دَلَّ على النّفي، وعلامةُ الإثباتِ هي اللّامُ ونونُ التّأكيد، وهما يَلزَمانِ جوابَ القَسَم المُثبَت، فإذا لم يُذكَرا دَلَّ على أنّه منفيٌّ، لأنّ المنفيَّ لا يُقارِنُهما[2] - أي: اللّام ونون التّوكيد - ، فلمّا كان المقصودُ هاهنا الإثباتَ قال: ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾.

سِرُّ التّعبير بالفعليّة ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ دون الاسميّة:

سؤالُ الله لخَلقِه مِن كمال أفعالِه

عَبَّرَ بالفعليّة في قوله: ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ للدّلالة على الحدوث المُستَقبَلِيِّ للسّؤال، فأخبرَ أنّ السّؤالَ والحسابَ واقعان لا محالةَ، وفي التّعبير بالفعليّة احتِرازٌ لوعيِ السّامع أنْ يَشْهَدَ جريانَ السّؤالِ، وهو يحدثُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 181.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/ 201.

ويجري في زمانِه؛ لِيدفعَ بذلك إنكارَ كُلِّ مُنكِرٍ لوقوعِ الحسابِ، وهو أبلغُ هاهنا مِنَ التّعبير بالاسميّة، بأن يُقالَ: (تاللّه إنّي لَسائِلكم)، أو (تاللّه إنّكم لَمسؤولون)؛ لدلالة الاسميّةِ على أكثر مِنَ الحدوث، وهي الذّاتُ المُتَّصِفةُ بالحَدَث، فاعلًا كانت أم مفعولًا، وهو أرادَ القسَمَ على الفعل لا على هذه القرائن الأخرى؛ لأنّهم يُنكِرون الوقوعَ والفعلَ، مع ما في تركيب الفعليّةِ مِنَ الوجازةِ والإسراعِ في الكلام مِنَ الاسميّة، مع ما في الفعليّة من نُكتةٍ أُخرى عزيزة: وهي الضّميرُ المُستَكِنُّ في الفِعل؛ أي: لَتُسألُنّ أنتم، ففيه تجريدُ الفِعلِ لإجرائِه عليهم، وإيقاعِه على ذواتِهم في الزّمن المُختصِّ به، فهو شهودٌ لساعةِ حصولِ ذلك، وكذلك الفعليّة تدلُّ على أنّ السّؤالَ مُقترنٌ بزمانٍ خاصٍّ ينتهي بانتهاء زمانِه، فلن يدومَ أو يستمرَّ، ولو عَبَّرَ بالاسميّة لتوُهِّم أنّ صفةَ السّؤالِ لازِمةٌ للّه أو دائمةٌ لِمَن يأمرُهُم به مِنَ الملائكة، فللّه سبحانَه شؤونٌ أُخرى، فليس سؤالُهم بوصفٍ ثابتٍ له، ولذا عَبَّرَ بالفعليّة ليدلَّ على أنّه صفةُ فِعل.

دلالةُ التّعبير عن أعمالِهم بالافتراء وإسناد السّؤالِ إليه:

أهلُ الإفسادِ فِعلُهمُ الافتراءُ، وفِعلُ اللهِ معهمُ السّؤالُ والحسابُ

التّعبيرُ عن أعمالهم بقوله: ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾، وإسناد السّؤالِ إليه في قوله: ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾؛ للدّلالة على أنّ عمَلَهم كان الافتراءَ والكذبَ على اللّه، ولذا فهُم مُستَحِقّون لِما يترتَّبَ على سؤالهم مِنَ العقوبة، فالتّركيبُ كنايةٌ عن تَحَقُّقِهم بالعمَل، وعنِ استحقاقِهم لِلازمِه مِنَ العقاب[1].

دلالةُ التّعبير بـ ﴿كُنتُمۡ﴾:

الافتراءُ على اللهِ مِن طبائعِ المُشركين

التّعبيرُ بفعل الكونِ في قوله: ﴿كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ يدلُّ على تحقيق افترائِهم، وأنّه كان مِن شؤونِهم المُستمرّة، بل كان عن تَحَرٍّ منهم وتعمُّد، ولم يكُنْ شأنًا عرضيًّا في حياتِهم؛ بل ثَبَتَ افتراؤهم، وتَحَقَّقَ في واقعهم المُعاش.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 182.

سِرُّ التّعبيرِ بالافتراء دون غيره:

يُعبّرُ بالافتراء عنِ الكذب المُجَمَّل والمُنَمَّق

أوثِرَ التّعبيرُ بالافتراء في قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾؛ لأنّ الافتراءَ يُستعمَلُ في التّعبير عنِ الكذب المُجَمَّلِ والمُنَمَّق، أخذًا مِن لُبْس الفراء، قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [النساء: 50]؛ فالمُلاحَظُ أنّهم جَمَّلوا كذبَهم، وهذا ما فعَلَهُ المشركون بِجَعْل نصيبٍ ممّا رزقَهمُ اللّهُ للأصنام، ساءَ ما يفعلون.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿تَفۡتَرُونَ﴾:

استحضارُ صورة الافتراء

التّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿تَفۡتَرُونَ﴾ دون الماضي (افترَيتُم)[1]؛ لمُراعاةِ الفاصلة ألّا تنخرِمَ، وللدّلالة على تجدُّدِ ذلك وتكرارِه منهم، وهو تصويرٌ لهم وإحضارٌ لذواتِهم وهي تُزاوِل الافتراءَ وتعملُ به.

دلالةُ حَذفِ مُتعلَّق ﴿تَفۡتَرُونَ﴾:

إيجازًا لوضوحه ودلالة السّياق عليه

حُذِف مُتعلِّقُ الافتراءِ للإيجاز؛ لوضوحه مِنَ السّياق قبلَه، وهو تشريعُهم نصيبًا في أموالهم من غير بُرهانٍ وسُلطانٍ مِنَ اللّه، وحِفظًا للفاصلةِ في مَوقعِها، إذ لو ذُكِرَ المفعولُ لأخلَّ بها.

سِرُّ التّعبيرِ عن يوم البعثِ بقوله: ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾:

بيانًا لعِلّة العقابِ، وكنايةً عنِ استحقاقِهم له

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن مُجازاةِ هؤلاء في يوم البعثِ بقوله: ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾؛ لبيان عِلّةِ العقابِ، وهو الافتراءُ على اللّه؛ لذلك كان التّعبيرُ بقوله: ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ كنايةً عنِ استحقاقِهم العقابَ بهذه الجريمةِ البشعةِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراءُ والكذبُ:

الافتراء: مِن (فَرَيَ)، وهو أصلٌ يدلُّ على قطعٍ وشَقٍّ في الشّيء؛ لإصلاحِه أو إفسادِه، والافتراءُ: افتِعالٌ مِنَ الفَرْيِ أو الإفراء، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 182.

الإفسادُ، وأقبحُ الكذبِ، أو الكذبُ معَ التَّعَمُّدِ، عند مَن يرى أنَّ الكذِبَ مُخالَفَةٌ في الواقع مُطلَقًا، وكلُّ ما جاء في القرآن مِن مادّة الافتراءِ، فهو اختلاقٌ ما لا حقيقةَ له[1].

والكذبُ: مِن (كَذَبَ) وهو أصلٌ يدلُّ على خِلاف الصِّدق، وهو عدمُ مُطابقةِ الخَبرِ للمُخْبَرِ عنه في الواقع، سواء وافقَ اعتقادَ المُخْبِرِ أو خالفَهُ عند مَن لا يشترطُ هذا الشّرطَ[2].

والفرقُ الدّقيقُ بينَ الافتراء والكذب مِن خمسة وجوهٍ:

الأوّل: الافتراءُ يكون في حَقّ الغير، أمّا الكذبُ فقد ينطقُ به المُتكلِّمُ على نفسه، كمَن يَكذِبُ في شأنِ نفسِه.

الثّاني: الافتراءُ يكونُ للإفساد[3]، أمّا الكذبُ فقد يكونُ للإصلاح كما يكون للإفساد، كالكذب للإصلاح بينَ الأزواج، بل قد يكونُ لغوًا لا صلاحَ فيه ولا فساد.

الثّالث: الافتراءُ لا أصلَ له في الواقع مِن جميع الوجوه، فهو اختِلاقٌ مُتكامِلُ الأركان، أمّا الكذبُ فقد يكتنِفُه أصلٌ صحيحٌ يُبْنَى عليه.

الرّابع: الافتراءُ لا يكونُ إلّا طاعِنًا وقادِحًا في حقّ الغير، ولذا فهو يَضُرُّ ويُؤذي أبدًا، وأمّا الكذبُ فقد يكونُ في حَقّ الغير، ولا يكون قادحًا أو طاعنًا فيه.

الخامس: الافتراءُ عند مَن يَفتريه لا يلتبِسُ عِلمُه به أنّه باطلٌ مَحضٌ، لكنّ الكذبَ عند مَن يُنشِئُه قد يتوهَّمُ فيه الحَقّ، فلا يكونُ على يقينٍ ببطلانه. فالكذبُ يقبلُ اللَّبْسَ في عِلْم المُستحدِثِ له، والافتراءُ لا يقبلُ اللّبْسَ في عِلم المُفترِي به.

ولذا عَبَّرَ هنا بالافتراء دونَ الكذب؛ لأنّ جعلَهُم نصيبًا مِن أرزاقِهم، يَصرفونها لأصنامِهم، زِيفٌ خالصٌ لا أصلَ له ألبتّة.

الرّزقُ والكسبُ:

الرّزق: العطاءُ الّذي يُصيبُ الإنسانَ فينتفِعُ به؛ لذا يُقالُ للعطاءِ الجاري، وللنّصيب والحظِّ، ولِما يَصِلُ إلى الجوف، ويُتَغَذّى به (الغِذاء)، ويكونُ في المالِ والجاهِ والعِلمِ، وغلَبَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرى)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (فري).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صدق).
(3) ابن سِيده، المُحكم: (فري)، وابن منظور، لسان العرب: (فرا).

الرّزقُ مِنَ الله، والكسبُ مِنَ العبد

فيما يُصيبُ الإنسانَ نفعُه، وقد يُطلَقُ على غيرِ ما يُنتَفَعُ به لعارضٍ يَعرِضُ فيه؛ مِن سوءِ تصرُّفٍ أو سَفَهٍ يَصيرُ به الرّزقُ غيرَ نافِعٍ لِمالِكِه، كقول الشّاعر:

رُزِقتَ مالًا ولَم تُرزَقْ مَنافِعَهُ *** إنَّ الشَّقِيَّ هوَ المَحرومُ ما رُزِقا[1]

وهذا لا ينفي عنه نَفعه في ذاتِه كما لا يَخفى.

والكَسْبُ: يُقالُ فيما أخذَهُ لنفسِه ولغيرِه، ولهذا قد يتعدَّى إلى مَفعولين، فيُقالُ: كَسَبتُ فلانًا كذا، وهو يدلُّ على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابةٍ، ولذا فهو جَمعُ الشّيءِ وتحصيلُه (شيئًا بعد شيء) بجُهْدٍ ما، كما يُجمَعُ المالُ مِن مظانِّه (شيئًا بعد شيء)، ومنه: الكَسْبُ: طَلَبُ الرّزق، كقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: 267]؛ أي: ما حصّلتُموهُ مِن أرزاقٍ، ويُقالُ في كلِّ تحصيلٍ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، كقوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد: 2]، ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: 38][2].

وعليه: يختلفُ الرّزقُ عنِ الكسبِ من وجهين:

الأوّل: أنّ الكسبَ يكونُ مُشتمِلًا على معنى الجُهد والسَّعي، وصيغةُ الافتعال (اكْتَسَب) تُقوّي هذا المعنى، والرّزقُ قد يتأتّى بجُهدٍ أو مِن غيرِ جُهدٍ، ولذا قد يَحصُلُ الرّزقُ من غيرِ تحصيلٍ؛ أي: من غير تَدخُّلٍ بالفعل والقَصد، وأمّا الكسبُ فمُشتَمِلٌ بدلالةِ مَبناهُ على فِعلِ الكاسِبِ وقَصدِه وتأثيره في الشّيءِ المَكسوب، ولذا صَحَّ بهذا الاعتبار أن يكونَ الرّزقُ أعمَّ مِنَ الكسب؛ لأنّ الرّزقَ قد يَشتمِلُ على معنى الكسب، وقد لا يَشتمِلُ إذا خلا من معنى الجُهدِ وقصدِ التّحصيل، فالرّزقُ قد يكونُ مَوهوبًا بلا مَجهودٍ، وقد يكونُ مَكسوبًا مِن غير مَجهودٍ، فهو أعمُّ.

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رزق).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).

الثّاني: الرّزقُ مُستعمَلٌ فيما ينفعُ ولا يَضُرُّ بذاتِه، وأمّا الكسبُ فحاصِلٌ فيما يَضرُّ وينفعُ؛ لأنّ في الضَّررِ والنّفعِ كليهما ما هو مِن مَكاسِبِ الجوارحِ والأفعال، فيُقالُ: كَسَبَ فلانٌ خيرًا، إذا ارتكبَ أسبابَه، وكَسَبَ شرًّا كذلك، ولذا فالمَرَضُ لا يُقالُ عنه رِزْق، وقد يُقالُ عنه: كَسْب؛ إذا كَسَبَه الإنسانُ بارتكابِ أسبابه، وعلى هذا الاعتبار يكونُ الكَسبُ أعمَّ.

وبحسبِ الوجهين السّابقين، فالعلاقةُ بينَ الرّزقِ والكَسبِ عُمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ؛ يعني: كلاهما أعمُّ وأخصُّ باعتبارِ وجهٍ دون وجه.

النّصيبُ والحَظُّ:

يختلفُ النّصيبُ عنِ الحظّ، وإن كانَ بينَهما تقاربٌ في المعنى؛ إلّا أنّ النّصيبَ أعمُّ مِنَ الحظّ؛ حيث يأتي عامًّا في الحَظّ مِن كُلِّ شيء، أو للقِسْمَة بينَ الجماعة، يُؤَكِّدُ ذلك استعمالُ القرآنِ له في آيات المَواريثِ الّتي تنصُّ على القِسمَة بينَ الجماعةِ الوارثةِ، وتعيينِ حَظِّهم مِنَ الميراث، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النّساء: 7]، ومِن عُموم النّصيب أنّه يأتي في الجزاء بالأجر والثّواب، كقوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النّساء: 85]، ويأتي في الجزاء بالعذاب كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47]، وبناءً على هذا فالنّصيبُ يكونُ في المَحبوب والمَكروه، وفي الخير والشَّرِّ.

أمّا الحَظُّ فيَفترِقُ عنِ النّصيب مِن حيثُ كونُه مَخصوصًا بقَدرٍ مَعلوم، وبالخير دونَ الشَّرِّ؛ يُؤَكِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11]، فهو في بيان القدرِ المَعلوم، ومِن استعمالِه في الخير قولُه تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصّلت: 35]، وعلى هذا فالنَّصيبُ أعمُّ مِنَ الحَظّ(1).

---

(1) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 146.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧﴾ [النّحل: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الكفر يستر الحَقَّ، ويُعطِّلُ العقلَ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ بعضًا مِن جرائم الكفّار ومخازيهم؛ جاءت هذه الآيةُ لتَعرِضَ صورةً أُخرَى مِن هذه الجرائم، وهي زعمُهُم أنّ للّه بناتٍ، تعالى اللّهُ عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

ومِنَ المناسبة أيضًا: أنّه تعالى لمّا ذَكَرَ في الآية السّابقةِ تصرُّفَهم في أرزاق اللّه بالسَّفَه والكُفر، وذلك بصرفِها إلى ما لا ينفعُ ولا يَضُرُّ، ولا يعلمُ بأموالِهم ولا أرزاقِهم شيئًا، ذَكَر مَوقِفَهم مِنَ الرّازِق ذاتِه بالكفْر به، والافتراءِ بنسبة النّقصِ وما يكرهون إليه، فنسبوا لأصنامِهم الميتةِ أحَبّ ما يملكون مِنَ الرّزق، ونسبوا إلى اللّه الّذي رزقَهُم - أصلًا - أسوأ ما يكرهون في الرّزق أيضًا، وهو الرّزقُ بالبنات.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَنَٰتِ﴾: (بنو): أصلٌ يدلُّ على الشَّيءِ يَتَوَلَّدُ عَنِ الشَّيءِ، كابنِ الإنسانِ وغيرِه، وأصلُ بنائهِ بَنَوَ، والنِّسبةُ إليه بَنَوِيٌّ، وكذلكَ النِّسبةُ إلى بِنتٍ[1]، والبِنتُ: مُؤَنَّثُ الابنِ، وهو الوَلَدُ الذَّكَرُ، سُمِّيَ به لكَونِهِ بناءً للأبِ ومُتَوَلِّدًا عنه، والأُنثى مِنَ الأولادِ تُسَمَّى ابنَةً وبنتًا، وعندَ الإطلاقِ يَنصَرِفُ إلى البنتِ مِنَ النَّسَبِ، والجَمعُ: بَناتٌ[2]، والمرادُ بالبنات في الآية: الملائكةُ، فقد زَعَمَ بعضُ قبائل العربِ أنَّها بَناتُ اللّه تعالى مِن سَرَواتِ الجِنِّ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بنو).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بنا)، وابن منظور، لسان العرب: (بني).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 182.

2) ﴿يَشۡتَهُونَ﴾: أصلُ الشَّهوَةِ: نزوعُ النّفسِ إلى ما تُريدُه، وذلك في الدّنيا ضربان: صادِقةٌ وكاذِبةٌ؛ فالصّادقةُ ما يَختَلُّ البَدَنُ من دونِه كشَهوةِ الطّعامِ عندَ الجوعِ، والكاذِبةُ ما لا يَختَلُّ من دونِه[1]، وتُطلَقُ على الرَّغبَةِ الشَّديدَةِ، يُقالُ: شَهِيَ الشَّيءَ وشَهاهُ، يَشهاهُ، شَهوَةً، واشتَهاهُ، وتَشَهّاهُ: إذا أَحَبَّه ورَغِبَ فيهِ[2]، والشَّهوَةُ أيضًا: اشتِياقُ النَّفسِ، والشَّهوانُ: الشَّديدُ الرَّغبَةِ في الشَّيءِ، والمرأةُ: شَهوَى، وشيءٌ شَهِيٌّ؛ أي: لَذيذٌ مَحبوبٌ، والتَّشَهّي: شَهوَةٌ بَعدَ شَهوةٍ، وتَشَهَّتِ المَرأةُ فأشهاها زَوجُها؛ أي: أطلَبَها ما تَشَهَّت، والجَمعُ: شَهَواتٌ[3]، والمقصودُ بقوله: ﴿مَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ أي: ما يَختارون ويُحبّون؛ والمُرادُ: يَجعلون لله سبحانَه ما يَكرهون؛ أي: البنات.

المَعنى الإجماليُّ:

جاءتِ الآيةُ الكريمةُ لتُبيِّنَ وجهًا آخر من وجوه الضَّلال الّتي يَلۡبَسُها المشركون حالًا بعد حالٍ، إذ يجعلونَ البناتِ لله تعالى، تلك المواليد الّتي كَرِهَها مجتمعُهم، وزَهِدَ فيها، واستقبلَها في تأفُّفٍ وضيقٍ، وفي هذا ما يكشفُ عن مَدى جهلِهم بما لله من كمالٍ، وما ينبغي أن يكونَ له من توقيرٍ، فيزعمون أنَّ الملائكةَ بناتُ الله - سبحانَه وتنزيهًا له عن هذا الزَّعم الفاسد - والحال أنَّهم يجعلون لأنفسهم ما يحبّون مِنَ البَنين، فهُم بذلك يختارون لأنفسهم في التَّبنّي، أفضلَ ممّا يختارون لِربِّهم، تعالى الله عنِ التَّبنّي بجانبيه عُلوًّا كبيرًا[4].

كلُّ نقصٍ يُنَزَّهُ عنه المَخلوقُ، فالخالِقُ أولى أنْ يُنَزَّهَ عنه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ عطفِ هذه الجملة على ما قبلَها:

جملة: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَيَجۡعَلُونَ

السَّفيهُ مَنْ أنقصَ حقَّ الخالِقِ ليزيدَ في حَقِّ المَخلوق

(1) الرّاغب، المفردات: (شها).
(2) ابن سِيده، المُحكم: (شهو).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن سِيده، المُحكم: (شهو).
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 310، ومجموعة من العلماء، التّفسير الوسيط: 5/ 634.

لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا﴾[1]؛ للجَمعِ بينَ حالَين مُتقابلِين لهم مِن أحوال الافتراء والشّرك، فالحالُ الأولى حالُهم معَ أصنامهم بالزُّلفى والإنفاق، والحالُ الثّانية حالُهم معَ اللّه بالإبعاد والإملاق.

علاقةُ الافتراء في آخر الآية السّابقةِ بهذه الآية:

الكُفرُ ظُلْمَةٌ لا يَرَى فيها الكافرُ قُبحَه

التَّعَلُّقُ بينَ قولِه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا﴾، وقولِه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ ظاهرٌ؛ لأنَّ كلتا الجُملتين المُتعاطِفتين تجتمعان في حال الافتراء، الّذي خُتِمَتْ به جملةُ المعطوف عليه بقوله: ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾، فهذه الآيةُ ونظيرتُها قبلَها مِنَ الافتراء الصّريحِ الّذي سيُسألون عنه.

سِرُّ التّعبير بالجَعل دون القول:

التَّحوُّلُ عنِ الأصل الصّحيح إلى الباطل أمرٌ مذمومٌ

عَبَّرَ بالجَعل دون القولِ في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾؛ لتضمينِه معنى التّشريع والاعتقاد، والحُكم على الشّيء بالباطل والهوى، فهو أبلغُ مِنَ القول، فليس كلُّ قولٍ يقتضي تشريعًا واعتقادًا، وليسَ كلُّ قولٍ يقتضي إحداثًا واختلاقًا وانتقالًا مِنَ الحَقّ إلى الباطل، فلمّا عَبَّرَ بالجَعْل دلّ أيضًا على أنّه تحوُّلٌ عنِ الأصل الصّحيح، وابتداعٌ لإفْكٍ لا وجودَ له، فدلَّ بذلك على معنى الإيجاد والتّصيير الّذي ينطوي عليه افتراؤهم، وأيضًا: للدّلالة على أنّه أكثرُ مِن مُجرَّد قولٍ، بل هو قولٌ مُنتِجٌ لأفعال الكُفْر والعدوان، فيجتمع فيه القولُ والفِعلُ معًا؛ لانضوائه تحت معنى التَّحوُّل والإحداث الّذي دلَّ عليه لفظُ (الجَعل).

سِرُّ اقتصارِ الكُفّار على نسبة البناتِ لله دون البنين:

تَعَمُّدُ الإساءةِ إلى الله تعالى بنسبة ما يَكرهون إليه

اقتصارُ الكُفّارِ على نسبة البناتِ للّه دون البنين؛ تعمُّدًا منهم في الإساءة إلى اللّه ﷻ بنسبةِ ما يَكرهونه ويَستَدنونَه إليه سبحانَه، وقد

(1) صافي، الجدول: 14/ 338.

كانوا يكرهون البناتِ، فجعلوا للّه ما يَكرهون، وجعلوا لأصنامِهم أعلى نصيبٍ في الرّزق، وجعلوا للّه أدنى نصيبٍ عندَهم في الرّزق، وهو البنت.

دلالةُ تقديم الجارّ والمجرور على المفعول:

المشركون سبّاقون في نسبةِ القدح إلى الله سبحانَه

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعول في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾؛ للدّلالة على أنّهم سبّاقون في نسبةِ القَدْحِ إلى اللّه سبحانَه، فتقديمُ المُتعلِّق على المفعول يفيدُ الاختصاصَ، ومعنى الاختصاص هنا: أنّهم خَصّوا اللّهَ سبحانَه بقصدهم وتعمُّدهم بجعل البناتِ منسوبةً إليه، ولم يقصدوا تخصيصَ هذا الجَعْل لشيءٍ من مَعبوداتهم الباطلة، ولم يتقصّدوا نسبةَ البناتِ لغيره على جهة الذّمِّ إلّا له، ولذا يصحُّ الحصرُ أيضًا على هذا المعنى.

سِرُّ التّعبيرِ بالبنات دون الإناث:

الإناثُ أعمُّ مِنَ البنات

عَبَّرَ بالبنات دون الإناثِ في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾؛ لإفادة معنى التّجسيم والتّشبيهِ في التّناسُل بالموالدةِ والحركة، كما يكونُ في الذّوات الحَيّةِ المُتحرّكةِ، كبني آدمَ، ولذا فالإناثُ أعمُّ مِنَ البنات؛ لأنّ الإناثَ نوعٌ حاصلٌ في أجناسٍ شتّى، فتكون في الجمادات والنّباتات، وفي غير المُتحرِّك الحيّ[1].

بلاغةُ الاعتراضِ بقوله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

الكلماتُ الطّيّباتُ لله

جملةُ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ اعتراضٌ بالتّنزيه بعد حكايةِ افترائِهم بما لا يليقُ في حقِّ اللّه، وهو تنزيهٌ عن أمرين؛ **الأوّل**: عن أصل التّناسُل والموالدة، فإنّه لا يليقُ بالذّات الكاملةِ الجليلة، **والثّاني**: أنّه تنزيهٌ عن أنْ يُنسَبَ لِجانِبِ اللّهِ ما هو خسيسٌ رديءٌ عند غيرِه، فيُلْحَقُ به - وهو الكامل - ما ليس بكاملٍ عندَ النّاقص[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 183.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 401.

وبلاغتُهُ: في أنّه مَسوقٌ لثلاثةِ معانٍ؛ الأوّل: حقيقيٌّ وهو التّنزيه، ومعنيان مَجازيّان: وهما التّعجيبُ والتّوبيخ[1].

بلاغةُ التّعبير بلفظ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ دون غيرِه:

لا يحقُّ تنزيهُ غيرِ اللهِ بلفظ (سبحانه)

إنّما عَبَّرَ بـ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ دون غيرِه، كـ (معاذَ اللّهِ) و(حاشَ للّه)؛ لأنّ لفظَ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ نصٌّ في تنزيه الكاملِ عن كلِّ ما لا يليقُ، ولذا لا يُقالُ في غير اللّهِ؛ لأنّه لا كاملَ إلّا هو، وأمّا (معاذَ اللّهِ) و(حاشَ للّه) فهي ليست نصًّا في التّنزيه، بل هي نصٌّ في الدّعاء بما يقتضي التّنزيه، ولذا أُسنِدتْ إلى لفظ الجلالةِ؛ لأنّها دعاءٌ إليه بالعوَذِ والتّحصُّنِ، ومنهما يحصُلُ التّنزيهُ، وكونهما دعاءً؛ يعني: أنّهما واردانِ مِنَ المَخلوق إلى الخالِق، ولذا كان التّنزيهُ المُستفادُ منهما تنزيهًا مَطلوبًا ومَرجوًّا، يحتملُ الحصولَ وعدمَ الحصولِ، وأمّا ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ فهو تنزيهٌ حاصِلٌ مُتحقِّقٌ لا مَحالةَ، إذ هو للّهِ الجليل، ولذا لا يَحِقُّ تنزيهُ غيرِ اللّه بهذا اللّفظ.

سِرُّ تقديمِ قوله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

اللهُ مُنزَّهٌ عن أصول النّقائص وفروعها

قَدَّمَ جوابَ التّنزيه ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ على قوله ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ ليكونَ نَصًّا في أنّ التّنزيهَ إنّما هو لأصل الجَعْل لِذاته، وهو نسبةُ البُنُوَّةِ للّه، فمُجَرَّدُ التّناسُلِ المُؤَدّي للتّوالُد، أيًّا كان ناتِجُهُ مِنَ الذّكَر أوِ الأنثى، فاللّهُ مُنَزَّهٌ عنه، لا عن جعلهم له خصوصَ البناتِ دونَ الذّكور، الّذي هو أشدُّ فظاعةً، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ لأنّ ذلك زيادةٌ في التّفظيع، فقولُه: ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ جملةٌ في مَوضِعِ الحالِ، وتَقديمُ الخبرِ في الجملة؛ للاهتمامِ بهِم في ذلك على طريقة التّهكُّم[2].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 406.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 183.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾:

قِسمةٌ ضِيزى أنْ يجعلوا لله ما يكرهون، ويستأثروا بما يَشتهون

الواو في جملة: ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ حاليّةٌ أو عاطِفةٌ(1)، والختْمُ بها بعد حكايةِ حالِهم مِنَ الافتراء زيادةٌ في التّفظيع؛ لأنّه يَصِفُ معنى القِسْمةِ الضِّيزى في تعامِلهم مع اللّه، إذْ ينسبون له ما يكرهون، ويستأثرون بما يشتهون، واللّهُ سبحانَه مُنزَّهٌ عن كليهما؛ لأنّه مُنزَّهٌ عن قابليّة التّناسُلِ أصلًا.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُم﴾:

كُلُّ نفسٍ بما كسبَت رهينةٌ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في: ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ للاهتمام بهم على طريقة التَّهكُّم بذواتهم وازدرائها؛ لأنّ هذه الذّوات هي الّتي اشتَهتْ وافترتْ، فحَقَّ تقديمُها على كَسْبِها(2)، ولغرضٍ آخَر لفظيّ: هو مراعاةُ الفاصلة ألّا تنخرِمَ، فلو أخَّرَ الخبرَ، فقال: (وما يشتهون لهم) لكان قَلِقًا في معناه، غيرَ مكينٍ في مَوقِعِه، وعسيرًا في جَرْسِه وإيقاعِه، لفظًا وصوتًا ومعنًى.

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ عنِ الذّكور:

مَن فضَّلَ نفسَه على الله كَفَرَ

قوله: ﴿مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ المرادُ بِهِ الذّكورُ، وهو في مُقابلةٍ مَعَ البناتِ في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾، وفائدةُ المُقابلة إظهارُ قبائحِهم(3)، منها: افتراؤُهم بتجويز البُنُوَّةِ في حَقّ اللّه، أيًّا كان ناتجُ الموالدة، وافتراؤُهم أنّ للّه بناتٍ دونَ الذّكور، وإجرامُهُم في تفضيل أنفسِهم على اللّه بنسبة أدنى النّوعين عندَهم إليه.

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿يَشۡتَهُونَ﴾ دون (يُحِبّون):

الحُبُّ أضعفُ مِنَ الشّهوة في النّزوع والتّلَهُّف

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (ولهم ما يحبّون)، إنّما قالَ: ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ لأنّ التّشهّي أبلغُ مِن مُجَرَّدِ الحُبِّ، ويستدعي تَحَرِّيًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 503، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 183.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 183.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 183، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 183.

ولهفةً في تحصيل المَحبوبِ، وأمّا مُجَرّدُ الحُبِّ فلا يستلزمُ شَوْقًا ولا ابتغاءً للشّيء.

وأيضًا: التّشَهّي مُؤذِنٌ بحصول اليأسِ عند عدم حصولِ الشّيء، فالتّعبيرُ به إشارةٌ إلى يأسِهم وامتعاضِهم مِن نقيضه إذا حَصَلَ لهم، وهو البنت.

سِرُّ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يَشۡتَهُونَ﴾:

مَنِ اشتهى شيئًا انفعلَ له

التّعبيرُ بصيغة المُضارعة في قوله: ﴿يَشۡتَهُونَ﴾، يُصوِّرُ انفعالَهم بالتّشَهّي وهو يَعتَلِجُ في صدورهم، ويَئِزُّ باللهفةِ والشّوق في نفوسهم، وصيغةُ المضارعِ في انفعالات الباطنِ تقعُ مَوقِعًا بديعًا لتوصيف حركةِ الانفعالِ بالمعنى، وهو يتجدَّدُ ويتكرَّرُ ويستمرُّ.

سِرُّ الاقتصار على ﴿مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ دون التَّعرُّضِ لكراهيَّتِهم للبنات:

التَّدرُّجُ في تفنيد جرائمِ الجاني مِن حكمة القاضي

اقتصرَ هنا على لفظ البناتِ الدّالِّ على الذّوات في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾، واقتصرَ على أنّهم يَشتهون الأبناء، ولم يتعرَّضْ إلى كراهتِهم البنات؛ لأنّه سيَخُصُّ هذا بالإبطال في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾، وإن كانَ ذَلك مَأخوذًا بالمَفهومِ؛ لأنّ ذلك دَرجةٌ أُخرى مِن كُفرِهِم، ستُخَصُّ بالذِّكرِ[1].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّة:

(يشتهون) و(يحبّون) و(يرغبون):

الحُبُّ صفةُ كمالٍ، والرّغبةُ والشّهوةُ صِفَتا نقصٍ

يوجدُ فرقٌ بينَ الحُبِّ وغيره مِنَ الشّهوة والرّغبة، يتبيّنُ مِن خلال الوجوه الآتية:

الأوّل: الحُبُّ انفعالٌ باطنيٌّ بالمَحبّة، وليس شرطًا فيه أنْ يَصحبَه نزوعٌ وطلبٌ للشّيء المحبوب، وأمّا الشّهوةُ والرّغبةُ ففيهما انفعالٌ باطنيٌّ، ونزوعٌ وطلبٌ ظاهريٌّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 183.

الثّاني: الشّهوةُ والرّغبةُ يُلحَظُ فيهما معنى الإلحاحِ والقوّةِ والشّدّةِ في الانفعال بهما، على تفاوتٍ وتباينٍ في مقدارِ ذلك كلّه، ولكن لا بُدّ أنْ يصحبَهما قَدَرٌ مِنَ الإلحاح والقوّة، بخلاف الحُبِّ فقد يخلو من ذلك كلِّه.

الثّالث: الشّهوةُ والرّغبةُ - كلاهما - يشتملانِ على معنى الحُبّ ساعةَ التّلبُّسِ بهما، بخلاف الحُبّ الّذي قد يخلو عنهما.

الرّابع: الحُبُّ أكملُ، ولذا فهو صِفةُ كمالٍ؛ لِصلاحِه في أن يخلوَ مِنَ الحاجة للمحبوب، فقد يقعُ الحُبُّ لغير حاجةٍ، ويقعُ عن عُلوٍّ واستغناءٍ عنِ المحبوب، ولذا اتّصفَ اللّهُ بِفِعلِه، فالحُبُّ صِفةُ فعلٍ للّه سبحانَه، كحُبِّ اللّه للمُتّقين، وأمّا الشّهوةُ والرّغبةُ - كلاهما - صفتا نقصٍ؛ لأنّ الحاجةَ مُلازِمةٌ لهما، فلا يَرغبُ الرّاغبُ، ولا يشتهي شيئًا إلّا وهو مُحتاجٌ إليه.

الخامس: الحُبُّ أَثْبَتُ مِنَ الشّهوة والرّغبة؛ لِتَعلُّقِه بمعاني النّفس والعقل، وأمّا الشّهوةُ والرّغبةُ فأساسُ تعلُّقِهما بمعنى الغريزةِ والحِسِّ، فالطُّروءُ والعرضيّةُ أقربُ إليهما وألصقُ بهما، ولذا يزولُ الانفعالُ بهما بقضائِهما أو بالانشغال عنهما، وأمّا الحُبُّ فلا يزولُ بذلك.

ولذا عَبَّرَ في الآية عن حُبِّهم للبنين دونَ البنات بالاشتهاء في قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ شِدّةَ رغبتِهم في ذلك مَبنيّةٌ على وازع الغريزةِ والنّقص، لا وازعِ الحكمة والعقل، وأنّ شهوتَهُم في ذلك تعلّقَتْ بما لا يَستأهِلُ تفضيلًا أو يستحِقُّ تقديمًا في ذاته؛ لأنّ الأنثى كالذّكر في إتمام النّوعِ ووجودِه، فلا يحصلُ النّسلُ إلّا بهما معًا، وكلاهما هبةُ اللّه، فلا يَفضُلُ أحدُهما على الآخر بمُجرَّدِ تأنيثِه أو تذكيرِه.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨﴾

[النّحل: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الذّرّيّةُ رِزقٌ مِنَ اللهِ يستوجبُ الشُّكرَ لا الكفرَ

لمّا ذكَرتِ الآيةُ السّابقةُ أنّهم جعلوا للّه البناتِ مع كراهتِهم لهُنّ ذَكَرَ في هذه الآية حالَهم إذا بُشِّرَ أحدُهم بما جعلوه للّه ربِّ العالمين مِن سواد وجوهِهم.

ومِنَ المناسبة أيضًا: أنّه لمّا ذَكَرَ في الآيات السّابقة تَصرُّفَهم في أرزاق اللّه في أموالهم بالكُفرِ والشِّرك، ذَكَرَ هنا في تلك الآية مِثالًا آخرَ في حالِهم مع رِزقٍ آخَر، وهو رِزقُ الذُّرّيّة، فيكفرونَها أيضًا ولا يَشكرونها، بالتّشاؤُم منها ووَأدِها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشِّرَ﴾: أصلُ البِشْرِ بالكسر: الطَّلاقَةُ والبشاشةُ وبَسطُ الوجه، ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصّافّات: 101][1]، واستبشرَ الرَّجُل: إذا وجَدَ ما يُبشِّرُه مِنَ الفرَحِ، ويُقالُ للخَبَر السّارِّ: البِشارَة والبُشرَى، والجمعُ: بُشَر[2]، والبَشير: المُبَشِّر، وأصلُ البَشَرة بالفتح: انتشارٌ واسعٌ على ظاهر الشَّيءِ، كانتشار جِلد البَدنِ على ظاهرِه، وانتشارِ الشَّعرِ على الجِلْد[3]، والمقصودُ بالبُشرى في الآية: الخبرُ السّارُّ الّذي تنبسطُ به بَشرةُ الوجه، فتتهَلَّلُ وتبرقُ أساريرُه[4]، أمّا المُرادُ بها فتُفيدُ تَعريضًا بالتَّهَكُّم بهِم، إذ يَعُدّونَ البِشارَةَ مُصيبَةً؛ وذلك مِن تَحريفِهِمُ الحَقائقَ[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/ 129.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 184.

2) ﴿ظَلَّ﴾: أصلُ (ظلل) يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغيرِه، تَقولُ: أظَلَّتْنِي الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[1]، ومِنَ البابِ قَولُهُم: ظَلَّ يَفْعَلُ كذا، وذلكَ إذا فعَلَهُ نَهارًا، وإنَّما قُلنا: إنَّهُ مِنَ البابِ؛ لأنَّ ذلكَ شَيءٌ يُخَصُّ به النَّهارُ، وذلكَ أنَّ الشَّيءَ يكونُ له ظِلٌّ نهارًا، ولا يُقالُ: ظَلَّ يَفعَلُ كذا ليلًا؛ لأنَّ اللَّيلَ نَفسَهُ ظِلٌّ[2]، وفِعلُ (ظَلَّ) مِن أفعالِ الكَونِ، أخَواتِ كانَ الَّتي تدُلُّ على اتِّصافِ فاعِلِها بحالَةٍ لازِمةٍ، ويُستعمَلُ بمَعنى (صارَ)، وهو المُرادُ هنا في الآية.

3) ﴿كَظِيمٌ﴾: (كظم): أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحِدٍ، وهو الإمساكُ والجمعُ للشَّيءِ. مِن ذلكَ الكَظمُ: وهو اجتِراعُ الغَيظِ والإمساكُ عن إبدائِه، وكأنَّهُ يَجمَعُهُ الكاظِمُ في جَوفِه، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: 134][3]، والكَظمُ أيضًا: مَخرَجُ النَّفَسِ، يُقالُ: أخَذَ بِكَظَمِه، والكُظومُ: احتِباسُ النَّفسِ، ويُعبَّرُ بِه عنِ السُّكوت، كقولِهم: فلانٌ لا يتنفَّسُ: إذا وُصِفَ بالمبالغة في السُّكوت، وكُظِمَ فلانٌ: حُبِسَ نفَسُه، قال تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨﴾ [القلم: 48]، وكَظمُ الغَيظِ: حبسُهُ[4]، والمقصودُ بالكَظيم في الآيةِ: الغَضبانُ المَملوءُ حَنَقًا، والمُراد: أصبحَ حَنِقًا على امرأتِه[5].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

رغبةُ المُشركين عنِ الإناث تدفعُهم إلى سَوادِ وجوهِهم عند ولادتِهنّ

يُصوِّرُ الحَقُّ سبحانَه حالةَ المُشركين في هذه الآية عندما يُبشَّرونَ بولادة الأنثى، وما كان من عاداتهم الجاهليّة المُنكَرةِ، فيقول: وإذا أُخبِرَ أحدُ المُشركينَ - الَّذين يَجعَلونَ للّه البَناتِ -

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل)، والأزهري، تهذيب اللّغة: (ظلل).
(2) الخليل، العين: (ظل)، والأزهري، تهذيب اللّغة: (ظلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كظم).
(4) الرّاغب، المفردات: (كظم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 184.

بولادةِ بنتٍ له، صار وجهُهُ قاتمَ اللَّونِ، كأنَّما علاه السَّوادُ؛ غيظًا مِن شِدَّة الغَمِّ والحياءِ مِنَ النَّاس، كأنَّما ارتكبَ ما يُخجِلُه، وقد امتلأ غمًّا وغَضَبًا وغيظًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾:

متى كان الشّيءُ مَحلًّا للبُشرى به، كان حقيقًا بأن يُشتَهَى

تَعَدَّدَ المُرادُ بالواو في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾؛ فيجوز أن تكونَ عاطفةً، وتكونَ جملةُ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ معطوفةً على ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ للجمع بين حالِهم إذا حَصَلَ لهم ما يَشتهون مِن ولادة الذّكور، وحالِهم إذا حَصَلَ ما لا يُحبّون من ولادةِ الأنثى، ويجوزُ أن تكونَ للحال، وتكونَ الجملةُ حاليّةً بعد ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾، فيكون تعديدًا لأحوالِهم المُتباينة، إذا تباينَ نوعُ الوليدِ الّذي يُبَشّرون به، ويصحُّ أن تكونَ الواو استئنافيّةً، انتقالًا إلى فصلٍ آخرَ عجيبٍ في مجالِ كُفرهم بنعمةِ اللّه، وهو اعتراضُهم على ولادة الأنثى، ورفضُهم لموهبةِ اللّهِ بها[2].

سرُّ التّعبير بـ ﴿وَإِذَا﴾ دون (إن):

كمالُ البُشرى يكون بتَحقُّقها

صُدِّرَتْ جملةُ الشّرط بـ﴿وَإِذَا﴾ دونَ (إنْ) في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾؛ للدّلالة على تحقيق ما في حَيّزه مِن جواب، وللدّلالة على كَثرةِ وقوعِ الشّرط[3]، فكلّما حَصَلَ لهم إعلامٌ بولادة أنثى حَصَلَ منهم اشمئزازٌ وتشاؤمٌ بها.

دلالةُ التّعبير بالبِشارة:

الألفاظُ تعبيرٌ عنِ الانفعالات النّفسيّة

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالبِشارة في قوله: ﴿بُشِّرَ﴾، مع أنّ المَقامَ مَقامُ إعلانٍ؛ لأنّ التّعبيرَ بالبِشارة جَرى مَجرَى الحقيقة، فالبِشارةُ:

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 255، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 116، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 578، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 443، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 97.

(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 7/ 203.

(3) ابن يعيش، شرح المفصّل: 113/ 5، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/ 173.

هي الإخبارُ بما تنفعِلُ له بَشَرةُ الإنسانِ بالتّغيُّر، سواء كان هذا التّغيُّرُ انقباضًا مِن حُزْن، أو انبساطًا مِن فرَح[1]؛ لذلك كان التّعبيرُ بالبِشارة للدّلالة على ظهور انفعالِهم بالحُزنِ مِنَ الخبر على ظاهر بَشَرتهم ووجوهِهم، فتتغيُّر ظواهرُهم له، وإنِ اعتُبِرَ أنّ البِشارة حقيقةٌ غالبةٌ في الإخبار بما يَسُرُّ، فيكون التّعبيرُ بها هنا إشارةً إلى نفسِ الوِلادة، بقطع النّظرِ عنِ النّوع النّاتج، أو إشارةً إلى كونِ ولادةِ الأنثى في واقعها بُشْرَى سارّةً في ذاتها، بقطع النّظرِ عنهم[2]؛ لأنّ في ولادةِ الأُنثى تمامٌ للجنس، وتحقيقٌ للنّسل الّذي به زيادة النّوع، فضلًا عن كونها موهبةَ اللهِ الّتي هي رِزقٌ منه ونِعمَةٌ، كما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ [الشّورى: 49]، فولادتُها هِبَةٌ في ذاتها، والهِبةُ ممّا يُفرِحُ ويَسُرُّ.

بلاغةُ الكنايةِ في التّعبير بالبُشرى:

الجَهلُ بمِقدار النِّعمةِ كُفرٌ بها

التّعبيرُ بالبُشرى في سياق ما يَسؤوهُم ويتشاءمون به في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ كنايةٌ عنِ التّعريضِ بهم على سبيل التّهكُّم والاستخفاف بعقولِهم، إذ يَعتبرون ما هو بُشْرى مُصيبةً[3]، وما هو نزولٌ بالنِّعمَة نازِلَةً بالنِّقمَة، فعَبَّرَ بالبُشرى إيماءً بتلك الكناية مِن باب: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21].

دلالةُ بناء الفعل ﴿بُشِّرَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

أُبهِمَ الفاعلُ لعدمِ تعلُّقِ الغرضِ في إظهاره

مجيءُ الفعلِ ﴿بُشِّرَ﴾ على صيغة ما لم يُسَمَّ فاعِلُه لإبهام المُبَشِّر (الفاعل)؛ لعدم تعلُّقِ الغرضِ في إظهاره، بل المُهمُّ بيانُ رَدِّ فعلِ المُبَشَّرِ بولادة الأنثى، ولأنّ البِشارةَ تتعدَّدُ بحسبِ تعدُّدِ المُبشِّرين، فجاء على هذه الصّيغة إيجازًا بتقصير الكلام، وإسراعًا في الدّخول على الغرض، وهو المُبَشَّرُ في قوله: ﴿أَحَدُهُم﴾.

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بشر).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 407.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 301.

دلالةُ التّعبير بقوله ﴿أَحَدُهُم﴾ دون (واحدٌ منهم):

الإيجازُ الكافي خيرٌ مِنَ الإطناب الوافي

لفظُ (أحد) فضلًا عن إفادتِه لعموم الجنسِ، فله خصوصيّةٌ في دلالتِه على الجمعيّة كدلالتِه على الفرديّة، فيتناولُ في معناه مَنْ يصلحُ للخطابِ واحِدًا كان أو مُثَنًّى أو مَجموعًا[1]، فإنّ المُبَشَّرَ (المولودَ له) قد يكونُ جماعةً مِنَ النّاس، فأوردَهُ ليتناولَ حالَ الاجتماعِ والافتراقِ والوَحدةِ في المَولود لهم، وأمّا (واحد) فهو دالٌّ على الذّات الواحدة دونَ المَجموع، فإنْ قِيلَ: (وإذا بُشِّر واحدٌ منهم بالأنثى) أوهَمَ الخصوصَ دونَ العُموم، فيُرادُ واحدٌ منهم دونَ الآخرين، وأيضًا: في تركيب ﴿أَحَدُهُم﴾ وجازةٌ وتقصيرٌ في الكلام، عن تركيب (واحد منهم)، وللدّلالة على أنّ حالَ الكفّارِ واحدةٌ عند البِشارة بالأنثى، فكان التّعبيرُ بـ﴿أَحَدُهُم﴾ لبيان أنّ الكفّارَ لم تتخلَّفْ هذه الحالة في أحدٍ منهم، بل صارت عنوانًا عليهم.

سِرُّ التّعبير بالضّمير بدلًا مِنَ الظّاهر:

التّشاؤمُ من ولادة الأنثى كان عادةً جاهليّةً فاشيةً

لو قِيلَ: (وإذا بُشِّرَ أحدٌ مِنَ الرّجال) بالظّاهر بدلًا مِنَ الضّمير ﴿أَحَدُهُم﴾، لكان تركيبًا مُستَهجَنًا لفظًا ومعنًى، فمن جهة اللّفظ إطنابٌ لا حاجةَ له، إذِ التّقييدُ بالظّاهر ظاهرٌ لا يَخفى، فلا حاجة له، وأمّا من جهة المعنى فالإظهارُ تخصيصٌ غيرُ مُرادٍ، وعمومُ الإضمار مَقصودٌ؛ لأنّ التّشاؤمَ مِن ولادة الأُنثى كان عادةً فاشيةً لا تختصُّ بالرّجال فقط، فلو قال: (وإذا بُشِّرَ أحدٌ مِنَ الرّجال) لكان تخصيصًا لا مَساغَ له.

دلالةُ الباء في قوله ﴿بِٱلۡأُنثَىٰ﴾:

وَصفُ القرآنُ ولادةَ الأُنثى بأنّها بُشرى وموهِبة

الباءُ في قوله: ﴿بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ للتّعدِية، والتّركيبُ في قوله: ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ على حَذف مُضافٍ[2]، والتّقدير: (بُشِّر بولادةِ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/ 157.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 184.

الأنثى)، وحَذفُ المُضافِ مِن مجاز الإسنادِ، بإسناد ما هو للمُضاف إلى المُضاف إليه.

سِرُّ التّعبير بالإفراد في ﴿بِٱلۡأُنثَىٰ﴾:

كراهيّةُ المُشركين لـولادة الأُنثـى مُطلَقًا

عَبَّرَ بلفظ المُفردِ في قوله: ﴿بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ دون (الإناث)؛ لأنّ المُرادَ حقيقةُ الجنس، فيَدُلّ على المَفرد وعلى الجمع، وإنّما استبعدَ لفظَ الجمع في التّعبير؛ لأنّ الأصلَ الغالبَ في المولود أن يكونَ واحدًا لا جمعًا، ولأنّ الجمعَ يوهِمُ أنّهم يَكرهونَ ولادةَ الأُنثى إذا كانت أكثرَ مِن واحدةٍ، ولا يكرهونَها إذا كانت واحدةً.

سِرُّ اختيارِ التّعبير بالفعل ﴿ظَلَّ﴾:

الكآبةُ والتّشاؤمُ يظهران للنّاس في وقت النّهار

﴿ظَلَّ﴾ مِن أخوات (كان)، فتدلُّ على الكونِ أو الحالِ اللّازمة[1]، وأصلُ معناها فيمَن أقامَ نهارًا على صفة الظِّلّ، وهي الاستِظلالُ فهو مُستَظِلٌّ، فهي تدلُّ على المُداومة على الفعل في النّهار، وسِرُّ التّعبير بـ﴿ظَلَّ﴾ دونَ أخواتها: لَمحُ الحالِ الغالبة، وهو أنّ أغلبَ الوِلادات تقعُ باللّيل، ويتأخَّرُ إخبارُ المولودِ له إلى النّهار، خصوصًا بالأنثى، فيستغرقُ ظُلولُهُ على حال الكآبة والتّشاؤم طولَ النّهارِ حتّى يزولَ ظِلُّه بغياب الشّمسِ ودخولِ اللّيل، والأحسنُ أن يُقالَ: لأنّ الكآبةَ والتّشاؤمَ يَظهرانِ للنّاس في وقت النّهار، ولذا خُصَّ ذِكرُ اغتمامِه بوقت النّهار المُعَبَّرِ عنه بـ﴿ظَلَّ﴾، وهذا أغلَبِيٌّ، والمُرادُ عُمومُ الأوقاتِ؛ لأنّ الحُزنَ الّذي ظَهَرَ في النّهار لا يزولُ بدخول اللّيل.

وأمّا مسألةُ تعليلِ وقوعِ أغلبِ الولاداتِ في أثناءِ اللّيل، وتأخُّرِ البُشرَى إلى النّهار، ففيه نظرٌ؛ لأنّه لا ينبني على استقراءٍ تامٍّ، والاستقراءُ النّاقصُ غيرُ مُفيدٍ، فمِن أين يُعلَمُ أنّ أغلبَ الولادات تقعُ باللّيل، ويتأخَّرُ الإخبارُ بها إلى وقت النّهار، فهذا أشبهُ بالتّخريص ورَجمِ الغيب[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 184.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 301.

وممّا يُؤكِّدُ ذلك أنّ التّعبيرَ بـ ﴿ظَلَّ﴾ يدلُّ على أنّ المُرادَ العُمومُ في النّهار وغيرِه؛ دلالةً على شُهرة هذا الوصف شُهرةَ ما يُشاهَدُ نهارًا[1].

سِرُّ التّعبير بالماضي ﴿ظَلَّ﴾ دون المضارع:

التّشاؤمُ مِنَ الأنثى لا يتحقَّقُ به إلّا جاهلٌ

إنّما عَبَّرَ بـ﴿ظَلَّ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على تحقُّقِه بحال الكآبةِ والحُزنِ مِن ولادة الأُنثى، ومعنى التّحقُّقِ المَذكور: تصويرُ أنّ هذا الانفعالَ السّلبيَّ ضِدّ الأنثى لاعتيادهم عليه، وإلْفِهم له، وجَريانِه عندَهم مَجرَى العُرفِ المُستقِرِّ، صار مَبتوتًا فيه بالنّسبة لكلّ أحدٍ بُشِّرَ، ولا يخفى ما في صيغة الماضي في ﴿ظَلَّ﴾ مِن ائتلافٍ واطّرادٍ مع صيغة الماضي قبلَها في قوله: ﴿بُشِّرَ﴾.

دلالةُ التّعبير بالوجه في ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ﴾:

الوَجهُ مِرآةٌ للانفعالات النّفسيّة والقلبيّة

اصطفاءُ الوَجهِ مِن بين سائر الأعضاء؛ لأنّه مَحَلُّ انعكاسِ التّأثُّرِ والانفعال في البدن، فهو مَوضِعُ ظُهورِ أثرِ الشُّعورِ، فإنْ كان أثَرُ الشّعورِ مَحمودًا استضاءَ الوجهُ واستنارَ، فيَبيَضُّ ويَتَفتَّحُ، وإنْ كان الشّعورُ مَقبوحًا بَهَتَ الوجهُ واستظلَمَ، فيسوَدُّ ويستغلِقُ.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله ﴿مُسۡوَدّٗا﴾:

سوءُ الأحوالِ يُسَوِّدُ الوجوهَ بالخَزايا

التّعبيرُ بقوله: ﴿مُسۡوَدّٗا﴾ كنايةٌ عنِ الغَمّ والكآبة، واستبدادِ التّشاؤم به[2]؛ لأنّه إذا اغتمَّ لَزِمَ عنه اسودادُ وجهه، ويَصِحُّ أن يكونَ مَجازًا مُرسَلًا، حيث أطلَقَ اللّازمَ (الاسوِداد)، وأرادَ المَلزومَ (الكآبة والأسى)، أو أطلقَ المُسبَّبَ (الاسوِداد)، وأرادَ السّببَ (الغمّ والكَبْت)، ويَصِحُّ أن يكونَ ﴿مُسۡوَدّٗا﴾ استعارةً تصريحيّةً، حيثُ شَبَّه قلبَ الحَزينِ في انقباضِه واغتمامِه بوجهٍ أسود اللّون، بجامع غيابِ التّجلّي عن كلٍّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 280.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 230.

سِرُّ التّعبير باسم المفعول ﴿مُسۡوَدّٗا﴾ دون المَصدر:

كراهةُ ولادةِ الأُنثى عند الجاهليّين

عَبَّرَ باسم المفعول ﴿مُسۡوَدّٗا﴾ ليدُلَّ على طُروء الصّفة بفعلِ الفاعل الّذي أنتجَها، وهو التّبشيرُ بولادة الأُنثى، فكأنّما الإخبارُ بها سَوَّدَ وجهَهُ، ولولاه لم يكنْ أسودَ، ولذا لم يُعَبّرْ بالمصدر؛ لعدم ثُبوتِ الصّفة له إلّا بثبوت قيدِها، وقيْدُها غيرُ ثابتٍ (وهو ولادة الأنثى)؛ لأنّه مُرتفِعٌ بتواريه هو مِنَ القوم، أو بتوريتِه الأنثى في التّراب.

دلالةُ التّعبير بالاسميّة دون الفعليّة:

الصّفةُ أثبتُ وأشدُّ لموصوفها مِنَ الفعليّة

قال تعالى: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾، ولم يقُلْ: (ظَلَّ وجهُه يسودُّ)؛ للدّلالة على شِدّة اتّصافِه بالوصف، فإنّ الاسميّةَ (اسم المفعول) يدلُّ على أنّ الصّفةَ أثبتُ وأشَدُّ لموصوفها مِنَ الفعليّة، كذلك فإنّ ماصَدقَ الاسميّة هنا أكثرُ مِنَ الفعليّة، فإنّ ﴿مُسۡوَدّٗا﴾ يدلُّ على الحَدث والحُدوث والذّات، وأمّا (يسودّ) فيدلُّ على الحدوث الزّمنيِّ للوصف فقط.

وممّا يُذكَرُ في سِرّ التّعبير بالاسميّة: أنّ الحالةَ الحاصلةَ عند المُبَشَّرِ بالأنثى ليست حالةَ حُزنٍ عاديّة في نظرهم؛ بل هي قاصمة للظّهر في مَنطِقِهم، وفي مثل هذه الحالة ترى الوجوهَ مِن شِدّة احتقان الدّمِ فيها سوداءَ، وهذا دليلٌ على أنّهم بلغوا أعلى درجات الحُزنِ عند بشارتهم بولادة الأنثى.

سرُّ اختيار وصفِ الوجه بالسّواد دونَ الغَبَرَة:

السّوادُ أثرُ ظُلمةِ النّفس، والغَبَرةُ أثــرُ الأهــوالِ والمُكدّرات

إنّما وُصِفَ الوجهُ بالسّواد دون الغَبَرَة؛ لأنّ الغبرةَ وصفٌ يحصُلُ للوجهِ مِن خارج، وأمّا السّوادُ فهو وصفٌ يحصُلُ للوجه مِن داخل؛ أي: بسببٍ داخليٍّ في النّفسِ كالغمّ والحُزن[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غبر).

مَوقِعُ جملة: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممّا قبلَها:

إحاطةُ الغَمّ بهم مِنَ الدّاخل والخارج

جملة: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ حالٌ مِنَ الضّمير في ﴿ظَلَّ﴾، أو من ﴿وَجۡهُهُۥ﴾، أو مِنَ الضّمير في ﴿مُسۡوَدّٗا﴾[1]، وتصديرُ الجملة بضمير الرّفع المُنفصِلِ زيادةٌ في التّعيين والتّأكيد، والختمُ بهذه الفاصلة للتّنبيه على إحاطة الغَمِّ به، داخلًا بالكَظم، وخارجًا باسوِداد الوجهِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿كَظِيمٌ﴾ مادّةً وصِيغةً:

يتفاوتُ عزمُ النّاسِ بحسب طاقتِهم في احتمال ما يَكرهون

التّعبيرُ بالكظم يدلُّ على معنى الإمساكِ والجَمعِ، فكأنّ الحزينَ الأسيفَ لولادة الأُنثى يتجرَّعُ الغيظَ والحُزنَ، فيُمسِكُ عن إبدائه، وكأنّ الكاظمَ يجمعُ ذلك في جوفه فيمتلِئُ به، فالمادّةُ تدورُ حول جمع الشّيءِ وحبسِه، والمنعِ مِن إظهاره، و﴿كَظِيمٌ﴾ صفةٌ مُشَبّهةٌ على وزن (فَعِيل)، إمّا بمعنى (فاعل) كـ(كاظِم)، كنحو قوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: 134]، فهو كاظِمُ الحزنِ لا يُظهِرُه بين النّاس، وإمّا بمعنى (اسم المفعول) (مكظوم)، كنحو قوله: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨﴾ [القلم: 48]؛ أي: كَظَمَه البشيرُ بالغَمِّ حين بشّرَهُ، أو كَظَمَتْهُ امرأتُه بالكَمَدِ حين ولَدَتْ له، ووزانُ (فعيل) أبلغُ مِن (فاعل) و(مفعول)، ولذا لم يقُلْ: (كاظم) أو (مكظوم)؛ لدلالة (فعيل) على المعنيين، وإجراءُ اللّفظِ على المعنيين (الفاعل والمفعول) أبلغُ مِن إيراده بأحدِهما فقط، فدلالةُ (فعيل) أوسعُ، ولكون الوصف في (فعيل) أشدَّ منه في فاعل ومفعول، فمعنى الحدَثِ فيه أمكَن، فيدلُّ على أنّ الوصفَ صار كالشّيءِ الثّابت، أو كالطّبيعة والسّجيّة المُلازمة لصاحبها، (ففعيل) في الصّفة المُشبّهة تدلُّ على صفات النّفوس المُلازِمةِ لها، سواء كان خِلْقَةً غريزيّةً، أم مُكتسَبةً صارت تُقارِبُ لِلُزومها الخِلْقَةَ والسّجيّةَ، ويدلُّ أيضًا على أنّه مُتّصِفٌ به بالفعل،

---

(1) صافي، الجدول: 14/ 338.

بخلاف ما لو قال: كاظم أو مكظوم، فيحتمل أنّ اتّصافَه بذلك واقعٌ في الحال، أو سيقع في الاستقبال، وأنّه لم يكنْ مُتحقِّقًا به من قبلُ، فكانت صيغةُ (فعيل) أبلغَ لموافقة حالِه بالدّلالةِ على مُلازمتِه للحزْنِ أمَدًا طويلًا، ويصحُّ أن تكونَ ﴿كَظِيمٌ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، لإرادة معنى الكثرة؛ أي: كثيرُ الكَظْم، وتكونَ الصّفةُ المُشَبّهةُ أدلَّ على الدّيمومة؛ أي: دائم الكَظم[1].

نُكتةُ تنكير ﴿كَظِيمٌ﴾:

(الكَظيم) لفظٌ يدُلُّ على احتباسٍ لِلهَمّ

تنكيرُ ﴿كَظِيمٌ﴾ لإبهام الوصفِ تهويلًا له، كأنّه قال: كظيمٌ مُنْطَوٍ على ما لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا يُحصَى عددُه من ألوان الكظم؛ لانكتامِه وعدمِ إظهارِه، فهو كظيمٌ لا يُحيطُ بمِقدار ألَمِه مَنْ هم حولَه.

بلاغةُ الاستعارة:

عدمُ الرّضا بأقدار الله يؤدّي إلى الغُموم والهُموم

أصل: ﴿كَظِيمٌ﴾ من كظم القِربَةِ أو السِّقاء المَليءِ بالماء، بِشَدِّ حبلٍ على فم السِّقاء، ليُربَطَ فلا يخرج منه الماءُ، أو من كَظم البعيرِ جِرَّتَه، والجِرَّة: ما يُخْرِجُه البعيرُ من بطنه ليَمضغَهُ ثمّ يبتلعَهُ فيردَّه إلى جوفِه، فيكظِمَه ولا يَلْفِظَه، وعليه: ففي الكلام استعارةٌ تصريحيّةٌ، حَذَفَ فيها المُشَبّهَ وصرّحَ بالمُشَبّه به، فشَبّهَ امتلاءَ قلبِ المولود له بالحُزن على حالِه، بامتلاءِ القُربة بالماء، وشبَّهَهُ في كَتمِه لذلك - خشيةَ الفضيحةِ - برابطٍ رُبِطَ على فم السِّقاء المَلِيء بالماء، حتَّى لا يخرجَ منها شيءٌ، وهذا هو معنى الكظم[2].

المتشابهُ اللّفظيُّ:

تشابهَت هذه الآية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾، مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ [الزّخرف: 17].

---

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 55 - 84.

(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (كظم)، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 39، وصافي، الجدول: 13/ 49.

والنّاظرُ في الآيتين يجدُ اختصاصَ كلِّ آيةٍ بما فيها مِنَ المُبَشَّرِ به؛ فآيةُ النّحل كان المُبَشَّرُ به الأُنثى؛ وذلك لأنّ هذه الآية يسبقُها قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ فلمّا كان ظاهرُ السّياق أن يُقالَ: (وإذا بشر أحدهم بالبنت) مراعاةً لما سَبَقَ، لكنّه عَدَلَ إلى التّعبير عنها بالأُنثى؛ للإمعان في إبراز صفةِ الأنوثةِ، لذلك كان التّعبيرُ فيها: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾، أمّا آيةُ الزّخرف فسبقَها قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾ [الزّخرف: 15]؛ فلمّا كان هؤلاء قد جعلوا الملائكةَ جزءًا منه يُشبهُه على زعمِهم، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، ناسبَ أن يكون التّعبيرُ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا﴾ [الزخرف: 17].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُشْرى والنّبأ والخبر:

البُشْرى: أصلُها مأخوذٌ مِنَ البَشَرة، وهو ظاهرُ الجِلْد؛ لأنّ البُشرى أو البِشارةَ: الخَبَرُ السّارُّ الّذي تنبسِطُ له بَشَرَةُ الوجْهِ، ذلك أنّ النّفْسَ إذا سُرَّتْ انتشرَ الدَّمُ فيها انتشارَ الماءِ في الشّجَر، وقِيلَ: هو أوّلُ خبرٍ سارٍّ، فإذا توالتِ الأخبارُ بعدَه بنفس الشّيءِ، فهو خَبَرٌ وإعلامٌ، وليس بُشرى، وقِيلَ: البِشارةُ هي الخَبرُ الّذي تَتَغيَّرُ له البَشَرَةُ، وذلك يكون في الشّرِّ، كما يكون في الخير.

النّبأ: أصل (نبأ) الانتقالُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، وسُمّيتِ الأخبارُ المَحكيّةُ بالأنباء، لكونها تنتقلُ مِن جهةٍ إلى جهةٍ، والنّبأُ يُقالُ في الخبَرِ الّذي لا يعلمُه المُخْبَرُ، ولذا يَقتَصِرُ على الأخبارِ ذي الفائدة العظيمة؛ لأنّ الإخبارَ بما لا يعلمُه المُخاطَبُ، يُحدِثُ عندَه علمًا لم يكُنْ عندَه فيستفيد، ولكون (نبأ) يُقالُ في الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ، فلا يُتكلَّفُ الانتقالُ غالبًا إلّا في شأنٍ مُهمٍّ وعظيم.

وأمّا الخَبَرُ فهو العِلمُ بحقيقةِ الشّيء، وهو عامٌّ في جميع المعلوماتِ المَعلومةِ بالخَبَر، وهو أعمُّ مِنَ النّبأ في نفسِه، وفي جِهتِه (المُخبَر)، فقد يكونُ حقًّا وباطلًا، وقد يكونُ ذا فائدةٍ أو خاليًا منها، وقد يكونُ المُخبَرُ عالمًا بما يُخبَرُ به أو غيرَ عالمٍ[1].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر - خبر - نبأ).

والبُشرَى على وجوهها الثّلاثة هي أخصُّ مِنَ الخَبَر ومِنَ النّبأ؛ لأنّها تختصُّ بما يَتَغيّرُ له وجهُ الإنسانِ وبَشَرَتُه، سواء كانت في الخير أو الشّرِّ، أو أكانت في المَسَرَّةِ خاصّة، ولذا عَبَّرَ هنا في الآية بـ ﴿بُشِّرَ﴾ دون (أُخْبِرَ) أو (نُبِّئَ)؛ للدّلالة على انفعالِه السّلبيِّ للخبَر، فيتغيّرُ له وجهُه وجِلدُه مِنَ التّشاؤم والانقباض.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩﴾ [النّحل: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تستمرّ أغلوطة الجاهليّين في تعنيف خزيهم، وتزيين خبثهم

لمّا تكلّمتِ الآيةُ السّابقةُ عن مَشهدِ المُشركِ الّذي بُشِّرَ بالأُنثى واسودَّ وجهُهُ كراهيَةً لولادتها؛ جاءَت هذه الآيةُ لِتستكملَ مَشهدَه الخارجيَّ مع قومِه، بأنّه يتوارى منهم لِما أصابَه مِن خِزيٍ بولادتها.

ومِنَ المناسبةِ أيضًا: أنّه لمّا وصَفَ في الآيةِ السّابقةِ هيئةَ الرَّجلِ عندما يُبَشَّرُ بولادة الأُنثى، ذَكَرَ هنا في هذه الآية ردّةَ فِعله، وكيفيّةَ انفعاله لذلك بالتّصرُّفِ والعمل، بعد أنْ بيّنَ كيفيّةَ انفعالِه في الهيئةِ والمَنظَر.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَارَىٰ﴾: أصلُ التَّواري: الاختِفاءُ، ووَرَّيتُ الخَبر: جَعَلتُهُ ورائِي وسَتَرتُه، ويُقالُ: وارَيتُه ووَرَّيتُه بمَعنًى واحِدٍ، ووَرَّيتُ الخَبَرَ أُوَرِّيه تَورِيةً إذا سَتَرتَهُ وأظهرتَ غَيرَهُ، كأنّه مأخوذٌ مِن وراء الإنسانِ، لأنّه إذا قالَ: ورَّيته فكأنّه يَجعَلُه وراءَهُ حيثُ لا يَظهَرُ[1]، والوَرِيُّ: الضَّيفُ، وفُلانٌ ورِيُّ فُلانٍ؛ أي: جارُه الَّذي تواريه بيوته وتَستُرُه، ووَرَّيتُ عنهُ: أرَدتُه وأظهرت غَيرَهُ[2]، والتَّوريةُ: إخفاءُ الخبرِ وعدمُ إظهار السِّرّ، تقولُ: ورَّيتُه تَوريةً[3]، والمقصودُ بالتَّواري في الآية الاختفاءُ.

2) ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾: (مسك): أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدُلُّ على حَبسِ الشَّيءِ أو تَحَبُّسِه، وضِدُّهُ: الإطلاقُ والإرسالُ، والإمساكُ: البُخلُ؛ وكذا المَساكُ والمِساكُ، والمَسِيكُ: البَخيلُ، ورَجُلٌ مُسَكَةٌ: إذ كانَ

(1) ابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (وري).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ورى)، وابن منظور، لسان العرب: (وري).

(3) الخليل، العين، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وري)، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (ورى).

لا يَعلَقُ بِشَيءٍ فيَتَخَلَّصُ منهُ[1]، والإمساكُ أيضًا: القَبضُ، يُقالُ: أمسَكتُ الشَّيءَ بيَدي إمساكًا؛ أي: قَبَضتُهُ، ومِن مَعاني الإمساكِ: الكَفُّ والامتِناعُ، يُقالُ: أمسَكَ عنِ الطَّعامِ؛ أي: كَفَّ عَنهُ وامتَنَعَ[2]، والمقصودُ بالإمساك في الآية: أخذُ الشَّيءِ باليدِ مع الشَّدِّ عليهِ بها لِئَلّا يسقُطَ أو يَنفلِتَ، أو هو هنا مَجازٌ عنِ الحبسِ والمَنعِ.

3) ﴿هُونٍ﴾: (هون): أصلٌ يَدُلُّ على سُكونٍ أو سكينَةٍ أو ذُلٍّ، والهَونُ: السَّكينَةُ والوَقارُ والرِّفقُ والتَّثَبُّتُ[3]، قالَ اللّه سُبحانَهُ: ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63]، والهونُ، بالضَّمِّ: الهَوانُ والذُّلُّ والخِزيُ، وهو نَقيضُ العِزِّ، يقال: هانَ يَهونُ هَوانًا، وهوَ هَيِّنٌ وأهوَنُ، وأهانَه وهَوَّنَه واستَهانَ بِهِ وتَهاوَنَ به: استخفَّ بِهِ، والاسمُ الهَوانُ والمَهانة، ورَجُلٌ فِيهِ مَهانةٌ؛ أي: ذُلٌّ وضَعفٌ[4]، والمقصودُ بالهوْن في الآية: الذُّلُّ.

4) ﴿يَدُسُّهُۥ﴾: (دسس): أصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على دُخولِ الشَّيءِ تَحتَ خَفاءٍ وسِرٍّ، والدَّسُّ: إدخالُ الشَّيءِ في الشَّيء بضَربٍ مِنَ الإكراه[5]، يُقالُ: دَسَستُ شيئًا في التُّراب، أو تحتَ شيءٍ؛ أي: أخفَيتُ[6]، والدَّسيسُ: مَن تَدُسُّه ليأتِيَكَ بالأخبار[7]، والمقصودُ بالدَّسِّ في الآية: إخفاءُ الشَّيءِ بينَ أجزاءِ شَيءٍ آخَرَ كالدَّفنِ، والمُرادُ: الدَّفنُ في الأرضِ وهو الوَأدُ[8].

5) ﴿سَآءَ﴾: أصلُ السّوءِ: القُبحُ، وضِدُّه: الحُسنُ[9]، والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا؛ أي: شَرًّا وفَسادًا[10]، والسَّوءُ: الضُّرُّ، مِنْ ساءَهُ سَوءًا، فالمَصدَرُ بفَتحِ السِّينِ، وأمّا السّوءُ - بضمِّ السِّينِ - فاسمٌ للمصدر، والسّوءُ أيضًا: الحُزنُ والغَمُّ، ويأتي بمعنى الضَّرَرِ والأذَى، كقولِهم: بَلَغَهُ السّوءُ؛ أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكرَهُ فهو سوءٌ[11]، والإساءَةُ: فِعلُ الشَّرِّ وما يُكرَهُ[12]، وهو المراد هنا في الآية.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (مسك).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب، والفيّوميّ، المصباح المنير: (مسك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (هون).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (هون).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (دس).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دس)، والأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح: (دسس).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دسس).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 185.
(9) الخليل، العين: (سوء)، والأزهري، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (ساء).
(11) الخليل، العين، (سوء)، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (سوأ).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (سوأ)، والزبيدي، تاج العروس: (ساء).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تصويرُ حال المُشركين عند تبشيرِهم بولادة الأُنثى

جاءتِ الآيةُ لبيان تلك الحال مِنَ الانزعاج، والكربِ، والبلاءِ، الّتي تستولي على هؤلاء المشركين مِنَ العرب، حين يُبَشَّرُ أحدُهم بأنَّه قد وُلِدَت له أُنثى، فإذا ظَهَرَ في النّاس جعل يتوارى منهم ذِلّةً وانكسارًا، فيَختَفي عن أنظارِ قَومِه؛ مِن كَراهِيَتِه للبنتِ، ومِمّا يَلحَقُه مِنَ الحُزنِ والعارِ والحَياءِ، مُتحيّرًا ومُتردِّدًا بين أمرين: هل يُمسكُها على هَوانٍ وذِلَّة؟ أم يُخفِيها في التُّرابِ بدَفنِها حَيَّةً؟ ألا بِئسَ الحُكمُ ما يَحكُمُ به هؤلاء المُشرِكونَ، في نِسبتِهم البناتِ - اللّاتي لا يَرضَونَهُنَّ لأنفُسِهم ويَكرَهونَهنَّ - إلى اللّهِ سبحانه، ونِسبتِهم البَنينَ الّذينَ يُحِبّونَهم إلى أنفُسِهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصلِ هذه الجملة عمّا قبلَها:

السّترُ نعمةٌ عُظمى مِنَ الله

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾؛ عن الآية قبلها: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ لافتتاحها بمضارعٍ مُثبَتٍ، واشتمالها على ضمير صاحبها، وعلى الوجهين يكون بين الجملتين كمالُ اتّصالٍ، أو استئنافٌ بيانيٌّ[2]، في معنى جوابٍ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: فماذا يفعلُ إذا اسودَّ وجهُه وصار كظيمًا؟! وحينَئِذٍ يكونُ بين هذه الجملة وما قبلها شِبهُ كمالِ اتّصالٍ، والغرضُ مِن مَجيء هذه الجملة بعد قوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الإخبارُ بهيئتِه الفعليّةِ السّلوكيّةِ، بعد بيان هيئتِه النّفسيّةِ؛ لأنّ الإخبارَ باسوِداد وجهِه وكَظامَةِ نفسِه، قد لا يصلُ إلى مرحلة الخِزي، أو لا يصحبُه فِعلٌ أو سلوكٌ، فأخبرَ بتلك الجملة: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ بأنّه نازعٌ إلى إزالة ما أصابَ نفسه مِن تشاؤمٍ، بدفعِ سببه والقضاءِ عليه؛ إمّا باستخفائه هو، وإمّا بإخفاء المولودةِ بوأدِها.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 256، 257، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 83، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 117.
(2) صافي، الجدول: 14/ 339.

سِرُّ التّعبير بالمواراة دونَ الاختفاء:

حيلةُ المُفتَضِحِ الاختفاءُ

التّعبيرُ بلفظ ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ لبيان حالة الاستِخزاءِ والاستِفضاح الّتي تستحوذُ عليه، ولذا فهو يريدُ أن يتخلَّفَ في محلِّ الوراءِ، بحيثُ لا يُرَى ولا يُلحَظ؛ لأنّ الّذي يكونُ في مَوضِع الوراء لا ينظُرُه أحدٌ؛ لأنّ الأنظارَ تُبصِرُ قُدّامَها لا وراءَها، فهو أبلغُ مِنَ الاختفاء؛ لأنّ الاختفاءَ قد يَحصُلُ بمُجَرَّدِ التّكتيم على الشّيء وعدم الإفصاح عنه، أو بمُجَرَّد قِلّةِ الظّهورِ وتجنيب نفسِه مُخالطةَ غيرِه، لكنّ التّواريَ هو أن يجعلَ نفسَه بمَوضِعٍ لا يتأتّى معَه أن يُرَى وأن يُرصَدَ، كأنّه يصيرُ وراءَ النّاسِ فلا يَرِدُ مَوارِدَهم، ولا يكونُ بحيث يمكنُ أن يَطّلعوا عليه حينَ يتخفّى، فيلزمُ عنِ التّواري ما لا يَلزمُ عنِ التّخفّي، بكون التّواري تَكلُّفًا للتّخفّي، وإغراقًا فيه[1].

سِرُّ التّعبير بالمضارع ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾:

لاستحضار صورةِ الرّجلِ المُتواري الّذي يُبَشَّرُ بولادة الأُنثى

أوثِرَ التّعبيرُ بالمضارع ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ دون الماضي (توارى)؛ لاستحضار صورة الرَّجلِ الّذي يَتوارى عندما يُبَشَّرُ بولادة الأُنثى، كأنّها صورةٌ حاضِرةٌ أمامَ عينيكَ، وأنتَ تَراهُ يختبِئُ عن أعين البشر.

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾:

عاداتُ النّاس في الجاهليّة سيفٌ على رقابهم

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾: ابتدائيّةٌ[2]؛ لبيان جهةِ تواريه؛ أي: تواريه مِن جهة القوم وبادئٌ منهم، ويُلحَظُ فيها معنى السّببيّة كذلك؛ أي: يتوارى بسبب القوم؛ على معنى: أنّه حُمِلَ على التّواري بسبب مُراعاةِ عادتِهم وعُرْفِهم في بُغضِ الأُنثى.

سِرُّ التّعبير بالقوم دونَ الأهلِ أو العَشيرة:

عَبَّرَ بالقوم في قولِه: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾؛ للدّلالةِ على مَعشَرِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورى)، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وري).

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 408.

الرّجالِ دونَ النّساء، لأنّ لفظَ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ يدلُّ على صفتي التّقوُّمِ والقَوامَةِ، اللّتين يتعزَّزُ بهما المَرءُ ويتقوَّى، ولذا غلبَ على الرّجال دونَ النّساء؛ لأنّ تقوّمَ النّساءِ يكونُ بالرّجال؛ لقوامتِهم عليهنَّ، فكذا هنا، هو يَتوارَى ممَّن قَوامةُ الأفكارِ والأعرافِ بهم؛ لأنّ القومَ هُم مَن أقاموا هذه الحَميّةَ الجاهليّةَ ضِدَّ الأُنثى، فقيامُه بذلك التّواري - في حقيقة الأمر - هو خضوعٌ لنفوذِهم وقَوامَتِهم، بإجماعِهم على هذا العُرفِ الكَريهِ[1]، وهذا يُؤكِّدُ سَطوَةَ العُرفِ المُجتمعيِّ الجاهليِّ على أهله، بأن يَمشوا وفق خطواته، حتّى ولو كان الأمرُ على غير رضاه.

سَطوَةُ عاداتِ الجاهليّةِ على المجتمع، والخضوعُ لنُفوذِهم وقَوامتِهم

دلالةُ ﴿مِن﴾ في ﴿مِن سُوٓءِ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ للسّببيّة؛ أي: بسببِ ما بُشِّرَ به مِن ولادة الأُنثى[2].

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿سُوٓءِ﴾ دونَ غيره:

عَبَّرَ بلفظ السّوءِ في قوله: ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾؛ للدّلالةِ على تمحُّضِ ولادةِ الأُنثى في القُبحِ بالنّسبةِ له؛ لأنّ السّوءَ هو ما تمحَّضَ قُبحُه، فأساءَ لصاحبه.

السّوءُ هو ما تَمحّضَ قُبحُه، فأساءَ لصاحبه

دلالةُ التّنكيرِ في قوله ﴿سُوٓءِ﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿سُوٓءِ﴾ في قوله: ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ توسُّلًا بالتّنكير إلى إضافته لما بعدَه، وغَرضُ الإضافة: تعيينُ السّوء وتعريفُه، فهو سوءٌ معنويٌّ لا أصلَ له في المُشاهَدةِ والحِسِّ، وسوءٌ ادّعائيٌّ زائفٌ، لا يشعرُ بقُبحِه إلّا مُتحيّزٌ في سِجنِ فِكرتِه الباطلةِ، واعتقادِهِ الفاسد.

شَرُّ شَكوى الإنسانِ ما تَوهّمَه على غير حقيقة

دلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾:

عَبَّرَ بالموصول المُشترَك ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، ولم

العقلُ الجاهليُّ كُتلةٌ مِنَ الوَهمِ وسوءِ الظّنِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 408.

يُعبِّرَ بالموصول الخاصّ (الّذي)؛ لإضافةِ السّوءِ الّذي يرتَئِيه إلى مُبهَم لا يتعيّنُ لمعنى السّوء الّذي يشعرُ به، وكأنّ الإتيانَ بـ ﴿مَا﴾ ذمٌّ له بإضافةِ (سوء) إلى الموصول العامِّ، كأنّه قِيلَ: يستاءُ مِن بُشرَى! فأيُّ وجهٍ للسّوء فيها؟! ولا يخفى أنّ التّعبيرَ بـ﴿مَا﴾ لكونِه عائدًا على صفة البُشرى لا على الذّات المُبشَّرِ بها، وأيضًا: التّعبيرُ بالموصول إيماءٌ إلى أنّ المدلولَ عليه بما في حيّز الصِّلة - وهو (الأنثى) - غيرُ مُعتدٍّ به بالنّسبة له، فهو نازلٌ عندَه مَنزلةَ الذّواتِ غيرِ العاقلة والمُحترمَة[1]، ففي الموصول تسجيلٌ على هذا العقل الجاهليِّ بالسّفَهِ والقُبحِ في اعتدائِه، بتصوُّرِ الأمورِ على غير ما هي عليه مِنَ الحقيقة والواقع.

سِرُّ إعادةِ الفعل ﴿بُشِّرَ﴾:

إعـادةُ الـشّيءِ مُـؤذِنٌ بالتّأكيد على نفي ضِدِّه

إعادةُ الفعل ﴿بُشِّرَ﴾ مع سبق ذِكرِه في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ إمعانٌ في التّوبيخ، حيثُ جَعَلَ التّبشيرَ - بالنّسبة لهم - باعثًا على الحُزن[2]، وعلى التّواري، ويجمعُهُما الاستياءُ في كُلٍّ.

دلالةُ التّعبيرِ بالضّمير ﴿بِهِۦٓ﴾ بدلًا مِنَ الظّاهر:

مراعاةً للإيجاز وإيـثـارًا للإيقاع الصّوتيّ

قال تعالى: ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، ولم يقُلْ: (من سوء ما بُشِّر بالمولود)؛ استغناءً بالظّاهر السّابق في قوله: ﴿بِٱلۡأُنثَىٰ﴾، فأغنى ذلك عن إعادتِه، واكتُفِيَ بالضّمير، دفعًا للتّكرار اللّفظيِّ من غير مقتضٍ، وطلبًا للإيجاز، وإيثارًا للإيقاع الصّوتيِّ الأتمِّ، والجرسِ التّركيبيِّ الأوفى، فضلًا على أنّ في الإضمار عوْدًا على معنى البُشرى المفهوم، وليس عوْدًا على ذات المولود الّذي هو الأنثى، فلو قالَ بالإظهار: (مِن سوء ما بُشِّرَ بالمولود أو بالأنثى) لكان فيه إطنابٌ كثيرٌ؛ لأنّه سيكون معناه: من سوء ما بُشِّرَ بولادة الأنثى أو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 408.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 301.

بخبر المولود، على تقديرٍ مَحذوفٍ، فكان في الإضمار تقصيرٌ عن كلِّ ذلك، وسلامةٌ مِن إيضاح الواضحات.

دلالةُ فصلِ ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ عمّا قبلَه:

إمساكُ ما تَكرهُ يجلِبُ الهوانَ عليك

فُصِلَت جملةُ: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ عن جملة: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ﴾؛ لِما بينهما مِن كمال اتّصالٍ، فقولُه: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾، ولذلك لم توصَلْ بالعاطف، بل وُصِلَتْ بذاتِها مِن تلقاء نفسِها، من غير حرف الوصلِ، وهذا أقوى أنواع الاتّصال، ومعنى البَدليّة: أنّه يتوارى ويتردَّدُ بينَ أمرَين: الإمساكُ على هونٍ، أو الدّسُّ في التّراب، فمعنى تردُّدِه مِن معنى تواريه.

ويصِحُّ أن تكونَ جملةُ ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ استئنافًا بيانيًّا، على معنى وقوعها جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّر: فإذا توارى، فما تدبيرُه وتقريرُه؟! فيُجابُ: يتساءَلُ مُتردِّدًا: أيمسِكُه أم يدسُّه؟ وجملةُ الاستئناف البيانيِّ تُفْصَلُ ولا توصَلُ بحرفٍ، ويكون بينَ الجملتين شِبهُ كمالِ اتّصالٍ.

ويصِحُّ أن تكونَ جملةُ ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ مَقولَ قولٍ محذوفٍ، هو حالٌ مِن فاعل ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾؛ أي: يتوارى قائلًا أو مُدَبِّرًا أو مُفكِّرًا أو مُتسائلًا: أيمسكُه على هون، وعليه: فجملةُ: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ بما تضمّنَتْهُ مِنَ القول المحذوفِ الّذي هو مَقولُه، تصلُحُ تفسيرًا مُبيِّنًا لجملة التّواري في قوله: ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾، ويكون بينَ الجُملتين حينَئِذٍ كمالُ اتّصالٍ بديعٍ[1].

دلالةُ الاستفهام في قوله ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾:

بيانُ حديثِ النّفس عند تبشيرِه بالأُنثى

المُرادُ بالاستفهام في قوله: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾ التَّردُّدُ في جواب الاستفهام[2]، وعليه: فالاستفهامُ مجازٌ

---

(1) صافي، الجدول: 14/ 339، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 185.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 185.

مُرسَلٌ، علاقتُه: الإطلاقُ والتّقييدُ، حيثُ إنّ استفهامَه للتّردُّد، ليس معناه أنّه يَطلبُ ما غابَ جوابُه عنه، بل معناه: دورانُ هذَين الأمرَين بخَلَدِه، وتواردُهُما في بالِه، فأنزلَهُما مَنزِلةَ المُستفهَم عنه، بجامع إرادةِ مَطلوبٍ واحدٍ منهما في الحالَين، وعليه: يَصِحُّ أن يكون في التّركيب استعارةٌ تمثيليّةٌ، بتشبيه حالٍ بحالٍ، أو استعارةٌ تصريحيّةٌ بالنّظر إلى تشبيه التّوارُدِ الذّهنيِّ الحاصلِ عندَه، بالاستفهامِ الحاصِلِ في: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ و﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ﴾.

سِرُّ اختيارِ التّعبيرِ بالإمساك:

تصويرُ شعورِ المُشرِكِ الجاهليّ بالفضيحة والعارِ عند ولادة الأُنثى

التّعبيرُ بالإمساك في قوله: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾، ولم يقُلْ: (أيَستبقيه) أو (يحفظُه)، وغير ذلك؛ للدّلالة على المَنع والحَبسِ الشّديدِ في حيّزٍ[1]، فهو يَستبقيه استبقاءَ الحابسِ له، بحيث يكون مَمنوعًا مَحجوزًا عنِ اطّلاع غيرِه عليه، فالتّعبيرُ بالإمساك يُصَوّرُ معنى الشّعورِ بالفضيحة الّتي تَحملُ صاحبَها على مواراة الشّيءِ بإمساكِه وتغييبِه، بحيثُ لا يُلحَظُ مَوضِعُه، ولذا فالتّعبيرُ بالإمساك شديدُ المناسبةِ معَ لفظِ ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾، ومُشتمِلٌ عليه.

دلالةُ التّعبيرِ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

تصويرُ الانفعالاتِ النّفسيّةِ لحالةِ المُبَشَّرِ بالأنثى

إيثارُ التّعبيرِ بحرف الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعلاء المَجازيِّ في قوله: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾، ولم يقُلْ: (بِهونٍ) أو (مع هون) أو (هونًا)؛ لتصويرٍ دقيقٍ لهيئَتِه النّفسيّةِ والسّلوكيّةِ إذا أمسَكَها واستبقاها، وتصويرٍ بديعٍ لِمقدارِ الإمساكِ الّذي يُمارسُه وحَجْمِه، فحرفُ الاستعلاءِ المَجازيِّ يُصَوّرُ هيئَتَه، وهو يمارسُ الإمساكَ، ويُصوّرُ مِقدارَ هذا الإمساكِ، فهو يُمسِكُ وليدَتَه إمساكًا يَدفِنُ الهونَ والذُّلَّ الّذي يتملّكُه، فيَصيرُ إمساكُه بمثابة الغِطاءِ المُحكَمِ الّذي يعلوهُ الهوْنُ، ويسترُه سَترًا تامًّا باستعلائه عليه، فهو

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مسك).

يَدفِنُ الشّعورَ بالهونِ بالإمساكِ الشّرسِ والمُتشدِّدِ لوليدتِه البريئةِ، الّتي لا ذنبَ لها إلّا سفاهةُ أبيها وضلالُه.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿هُونٍ﴾:

الهونُ يكونُ بِهَوانٍ في القلب، والذُّلُّ يكونُ بقِيادٍ مِن خارج

في قوله تعالى: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أوثرَ التّعبيرُ بـ (الهون) دونَ (الذّل)؛ للدّلالة على معنى الضّعفِ والصَّغارِ الّذي يَجعلُ الشّيءَ بمَوضِعٍ لا يُلتَفَتُ إليه فيه، ولا يُعبَأُ به، ولذا فالجارُّ والمَجرورُ: ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾، إمّا يعودُ إليه (حال مِنَ الفاعل)؛ أي: أيُمسِكُه حالَ كونه هيّنًا حقيرًا بإمساكه له، فيَبِينُ هَوانُه، وتتجلّى حَقارَتُه باستبقاء وليدتِه، أو يعود إلى المولود (حال مِنَ المفعول)[1]؛ أي: أيمسِكُ الأُنثى إمساكًا يجعلُها بحالٍ خسيسةٍ هَيِّنةٍ، لا يُعبَأُ لها ولا يُلتَفَتُ إليها فلا تُلحَظُ، والهونُ ينطوي على هَوانٍ في القلب، والذُّلُّ ينطوي على قِيادٍ مِن خارج، ولا يَستَلزِمُ ضعفًا في القلب؛ لأنّ المَرءَ قد يُستَذَلُّ على قَهرٍ منه ولا يَهونُ أبدًا، ولذا عَبَّرَ بالهون ليدُلَّ على أنّ هوانَه مِن نفسِه، وأنّ السّببَ الخارجيَّ - وهو وِلادةُ الأُنثى - ليس سببًا في ذلك، وإن توهَّمَه كذلك[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالنّكرة في ﴿هُونٍ﴾:

كُلُّ هَوانٍ عظيمٌ، وإنْ دَقَّ

التّنكيرُ في قوله: ﴿هُونٍ﴾ أفادَ الإبهامَ، وغَرضُ الإبهام تفخيمُ المِقْدارِ؛ أي: هوْنٍ مُستعظَمٍ لا يُقادَرُ قَدرُهُ؛ لأنّه كلّما كان عظيمًا، كان مَرجوًّا ومَطموعًا فيه، وهذا على اعتبار كون الجارِّ والمَجرور حالًا مِنَ المفعول، وأمّا باعتباره حالًا مِنَ الفاعل، فالمُرادُ مِنَ الإبهام الدّلالةُ على أصل الجنس والحقيقة؛ أي: حقيقة الهوْنِ الّذي يُصيبُه، أيًّا كان مِقدارُه.

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/ 246.

(2) الرّاغب، المفردات: (هان - ذل)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هون - ذل)، وابن منظور، لسان العرب: (هون - ذلل).

جَمَعَ الجاهليُّ بينَ الهَوانِ والتَّردُّدِ وكآبةِ المَنظَرِ

دلالةُ التّعبير بـ ﴿أَمۡ﴾:

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾ هي المُتّصِلَةُ المُعادِلَةُ لهمزة الاستفهام، في طَلَبِ تعيينِ أحدِ الأمرين، كأنّه قِيلَ: أيُمسِكُه على هونٍ؟ أو أيَدُسُّهُ في التّراب؟ فجِيءَ بـ ﴿أَمۡ﴾ متّصِلةً بما قبلَها في طلب تعيينِ أحدِ الأمرَين (ما قبلَها وما بعدَها)، وتظهَرُ بلاغةُ ﴿أَمۡ﴾ في إيجازِها باجتماع أمرَين فيها، فهي عاطفةٌ ونائبةٌ عن همزة الاستفهام، ولذا كان في مَجيئِها إيجازٌ بديعٌ، عن أن يُقالَ بالإطناب: أو أيَدُسُّهُ في التُّراب؟! فكانت ﴿أَمۡ﴾ في نفسها استفهامًا وعَطفًا[1].

إبرازُ الاعتداءِ على حياةِ المَوْلودَةِ

سِرُّ التّعبيرِ بالدّسّ دونَ الدّفن:

التّعبيرُ بـ (الدّسّ) في قوله: ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ﴾، ولم يقُلْ: (يدفنُه)؛ للدّلالة على أنّه مُجرَّدُ تغييبٍ على غير هيئةِ الدّفنِ؛ لأنّ الدّفنَ أتمُّ مِنَ الدّسّ، والدّافِنُ مُتَأنٍّ مُقبِلٌ، والدّاسُّ مُعرِضٌ مُتَعَجِّلٌ، ولأنّ الدّفنَ يكونُ للأموات، وهذه المَولودَةُ ذاتُ حياةٍ، فيومِئُ التّعبيرُ بدَسِّها بالاعتداء على حياتها[2].

وممّا يُذكَرُ في سرّ التّعبيرِ بالدّسِّ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾، أنّ الدّسَّ يُلحَظُ فيه معنى الإخفاءِ اللّطيفِ للشّيء، وأمّا الدَّفنُ فيُلحَظُ فيه معنى الإخفاءِ العميقِ للشّيء، فالإخفاءُ في الدّفن أتمُّ وأغمضُ، والإخفاءُ في الدّسِّ أخفُّ وأيسرُ، ولذا ناسبَ هنا التّعبير في قوله: ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾؛ لأنّ دسَّها في التّراب أعجلُ له من دفنِها؛ لأنّه يريدُ ألّا يُسَمِّعَ بنفسِه، بل إنّه يتوارى - أصلًا - ويريدُ إخفاءَها في التّراب خِلْسَةً، وعلى حين غفْلة، فلا يُناسِبُ أنْ يَدفِنَها؛ لأنّ الدّفنَ يَستلزمُ المَهَل والتّأنّي، وفيه تعميقٌ للحُفرة، فلا يُؤمَنُ معه لَفتُ الأنظارِ إليه، فكان الدَّسُّ في كيفيّتِهِ أعجلَ، والدّفنُ في وقتِه

---

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 246.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 185، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4200.

أطولَ، ومن بديع هذه الآية: أنّ التّعبيرَ بالدّسِّ في التّراب، يتناسبُ مع الخيارِ الأوّلِ له، وهو قوله: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾، ومعنى ذلك: أنّه يقبلُ أنْ يستبقيَه حيًّا عندَه مع إخفائِه عنِ الأنظار؛ لهَوانِه على نفسِه، والّذي يقبلُ بذلك بحياةِ مولودتِه، ولو على سبيل الذُّلِّ، فإنّه إذا انتقلَ إلى الخيار الثّاني، وهو إخفاؤها في التّراب، فإنّه لا يعاملُها معاملةَ مَن يُدْفَنُ في تعميق الحُفرةِ له، وإهالةِ التّراب عليه، وإحكام الأرضِ فوقَه بعد دفنِه، بل يُخفيه في التّراب إخفاءً لطيفًا سريعًا، وكأنّه وهو يفعلُ ذلك يَهونُ فوقَ هَوانِه الّذي كان سيكون لو كان قد أمسَكَه حيًّا، وهذا الهَوانُ المُلازِمُ له، وكأنّه يَكِلُّ من عَزْمِه أنْ تكونَ مواراتُه لوليدَته دفنًا، ولذا فهو يَدُسُّها ولا يَدفِنُها، وأيضًا: الّذي كان سيُمسِكُ حياةَ مولودتِه على هونٍ، فإنّه ما يَزالُ يملِكُ نوعًا مِنَ الإشفاق عليها، فإذا ذَهَبَ لمواراتِها في التّراب، فما يزالُ وهو يريدُ أن يفعلَ ذلك يستصحبُ شيئًا من هذا الإشفاق وهذا القدرِ الضّئيلِ مِنَ الإشفاق، وكأنّه يمنعُهُ أن يُنهِيَ حياةَ مولودتِه بالدّفن، فيُنهيها بأهوَنِ ما تَتِمُّ المواراةُ به، وهو الدَّسُّ في التّراب؛ لأنَّ الانفعالاتِ حين تتصاعَدُ، تتصاعَدُ بدرجاتٍ مُتقاربةٍ، يُناسِبُ بعضُها بعضًا في إيقاعها وتسلسُلها، فسبحانَ الّذي هذا كلامُه.

سِرُّ التّعبير بالضّمير المُذكَّر مع أنّ الكلامَ على الأنثى:

لا فرقَ بينَ الذّكرِ والأنثى في الاحترام وصيانةِ الحُقوق

التّعبيرُ بالضّمير المُذكَّرِ في قوله: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾، ﴿يَدُسُّهُۥ﴾؛ مُراعاة للفظ ﴿مَا﴾[1]، ومعناه في قوله: ﴿مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، فإنّه عائدٌ على المولود، وتذكيرُ الضّمير في ﴿يَدُسُّهُۥ﴾ و﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ أبلغُ من تأنيثِه؛ لأنّ في التّذكير إيماءً إلى التّسوية بينَ الذّكر والأنثى باعتبار كلٍّ منهما مولودًا، وذلك في الاعتدادِ والاعتبارِ والاحترام، وأنّه حين يَقْتُلُ بالدَّسّ أو يُهينُ بالإمساك، فإنّه يُجرِمُ في حقّ الوليدِ، باعتباره وليدًا كاملًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4200.

يُصانُ أيًّا كان، وفي التّذكير تعريضٌ إلى أنّه حين يفعلُ ذلك بالأُنثى، فكأنّما فعلَه بالذّكَر تمامًا، لا فرقَ بينَهما في الاحترام والصّيانة.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يَدُسُّهُۥ﴾:

الجَهلُ صفة مُزاوَلة، كلّما تكرّرَت زادَت

عَبَّرَ بالمضارع في قوله: ﴿يَدُسُّهُۥ﴾؛ لاستحضار صورةِ الفعلِ وهو قَيدُ المُزاولة، وهذا للتّشنيع على الفاعلِ، ولاستبشاعِ هيئةِ الفعلِ وهو يَحدُثُ، وفيه إشارةٌ إلى أنّ وأدَ النّفسِ الواحدةِ بغيرِ ذَنبٍ - كما هو الحال مع أهل الجاهليّة - يساوي وأدَ النّاسِ جميعًا؛ كأنّه كَرَّرَ فِعلَ الدّسّ مَرّاتٍ ومَرّات.

سِرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّة:

التّغييبُ الكاملُ للمَوءودةِ في التّراب

التّعبيرُ بحرف الوعاءِ الظّرفيِّ ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾ دالٌّ على إحكامِ الدّسِّ المَذكور، وأنّه بحيثُ يكونُ التّرابُ فيه مَشمولًا على ذاتِ المَولودَة، ومُحيطًا بها إحاطةَ الظّرفِ بالمَظروف، وهو مُؤذِنٌ بالمواراة التّامّة، والتّغييب الكاملِ في التّراب.

سِرُّ التّعبيرِ بالتّراب دونَ الأرض:

التّرابُ هو مَوضِعُ الدّسّ والدّفنِ مِنَ الأرض

التّعبيرُ بالتّراب في قوله: ﴿يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾ دونَ قولِه: (في الأرض)؛ لأنّ التّرابَ أخصُّ، والأرض أعمُّ، فليس الأرضُ كلُّها ترابًا، وليس شيءٌ فيها يقبلُ الدّسَّ والدّفنَ مِثلَ التّراب، فلمّا كان التّرابُ هو مَوضِعَ الدّفنِ في الأرض، خَصَّه بالذّكر، وعَبَّرَ به.

دلالةُ استعمالِ ﴿أَلَا﴾:

لفتُ الانتباهِ للاهتمامِ بمضمون الجُملة

تصديرُ جملةِ الفاصلة بـ ﴿أَلَا﴾ التّنبيهيّةِ في قوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾؛ للاهتمام بمضمون الجُملة وتأكيدِه وتحقيقِه، بغَرضِ التّحذيرِ من سببِه، بعدم اقترافه أو الإقلاع عنه بعدَ التّورُّط فيه، "فأدخَل همزةَ الإنكارِ على حرفِ النّفي؛ فصارَ إثباتًا على أبلغِ وجهٍ"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 138.

سِرُّ التّعبيرِ بالفعل ﴿سَآءَ﴾:

(ساء) أوسعُ في مدلول الذَّمِّ من (بئس)

التّعبيرُ بالفعل ﴿سَآءَ﴾ دونَ (بئس) في قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾؛ لأنّ ﴿سَآءَ﴾ أوسعُ في مدلوله مِن (بئس)، فهو يُفيدُ إنشاءَ الذَّمِّ الخاصّ، وإنشاءَ التَّعجُّب، والإخبارَ المَحض عن سوءِ حُكمهم، وأمّا (بئس) فهي لإنشاء الذّمِّ العامّ[1]، فمَدلولُها أضيقُ، ولذا استعملَ ﴿سَآءَ﴾ الأوسع مدلولًا؛ لاتّساع جريمتِهم في وأدِ البنت في بشاعتِها وقُبحِها، واتّساعِها في آثارها وأضرارِها على النّوعِ الإنسانيّ كلِّه؛ لأنّه قضاءٌ على الإناث اللّواتي لا يَحصُلُ التّناسُلُ وبقاءُ النّوعِ إلّا بِهنّ، ولا يخفى ما في هذا الاستعمالِ مِنَ المُبالغة في التّشهير بجريمتِهم، والتّنديدِ بفظاعتِها، والتّهويلِ مِن نُكرِها.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

سـوءُ فعلهم شنيعٌ من كل جوانبه

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ إمّا اسميّةٌ موصولةٌ؛ أي: ساءَ الّذي يحكمونَه، وإمّا حَرفيّةٌ مَصدريّةٌ؛ أي: ساءَ حُكمُهم، وإمّا نَكرةٌ موصوفةٌ؛ أي: ساءَ شيءٌ يحكمونَ به[2]، وعلى كلّ هذه التّقديراتِ في معنى ﴿مَا﴾؛ فهي تُشير إلى تقبيح حُكمِهم، وسوءِ صنيعِهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالحُكم على فعلتهم القَبيحَةِ:

فسادُ السّلوكِ الجَمعيّ خَطَرٌ يُهَدِّدُ كيانَ المُجتمعِ

التّعبيرُ بالحُكم في قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ مقصودٌ به هذه الجريمة القبيحة مِنَ العُدوان على البنات بغير حَقٍّ، وعُبِّرَ عن ذلك بالحُكم؛ للدّلالة على أنّهم كانوا يرتكبونَ الجريمةَ والقباحةَ تحتَ مُسمًّى يُبَرِّرُها ويُجيزُها كما تُجازُ الأحكامُ؛ لأنّ العربَ في الجاهليّة كانوا يجعلون ذلك حَقًّا للأبِ فلا يُنكِرُه المجتمعُ، ولا يعيبُ فِعْلَه؛ وللدّلالة على أنّ ذلك كان عُرفًا شائِعًا مَقبولًا، غيرَ مرفوضٍ ولا مُستَهجَنٍ، وللدّلالة على أنّهم كانوا مُتمالِئينَ على هذا الأمرِ، حتّى

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 298، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4200.

(2) صافي، الجدول: 14/ 339.

جرى بينَهم مَجرَى الحُكمِ المُستَقِرّ، والشّرعِ المُستمِرّ، ففي التّعبيرِ بالحُكم إشارةٌ إلى الفجور الجَمعيِّ الّذي حَلَّ بهم، حتّى صاروا يتّفقونَ على أنكَرِ المُنكَرات، ويَحكُمون به[1].

دلالةُ التّعبيرِ بواو الجماعة:

المـوافـقـةُ الـجـمـاعـيّةُ عـلى المُـنـكَـر مُـؤذِنـةٌ بخَرابِ المجتمعات

التّعبيرُ بواو الجماعة في قوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُونَ﴾، مع أنّ نَسَقَ الكلامِ سابقٌ للمُفرد؛ للدّلالة على أنّ الّذي كان يَرتكِبُ هذا المنكَرَ البَشِعَ في دَفنِ الأُنثى حَيَّةً، كان يفعلُه بإجازة الجماعةِ وإقرارِهم، فهو لا يَستَتِرُ في فِعلِه هذا، ولا يخشى له أثرًا، بل يفعلُه وهو آمِنٌ مِنَ المَلام والعقوبة، مَحميٌّ في جنايته عنِ المُؤاخذة، بقوّة المجتمعِ الّذي يُبارِكُ فِعلَه، ويَحكُمُ بصلاحيَّتِه[2].

بلاغةُ تعريف الصّلةِ بـ ﴿مَا﴾:

التّعبيرُ بـ ﴿مَا﴾ دون (الّذي) في قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾؛ لإفادة العُموم والإبهام.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَحۡكُمُونَ﴾:

استمرارُ الكفّار عـلى سلوكهم المرفوضِ فطرةً وعقلًا وشرعًا

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالمضارع: ﴿يَحۡكُمُونَ﴾ دون الماضي؛ للدّلالة على استمرارِهم في ذلك السّلوك المُشِينِ المرفوضِ فطرةً وعقلًا وشرعًا، والّذي بِهِ استَحَقّوا الدّعاءَ عليهم، ولو قال: (ساءَ حُكمُهم) لَما أدّى هذا الغرضَ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يدسُّه ويدفنُه:

أصلُ الدّسِّ: يدُلُّ على دخول الشّيء تحتَ خَفاءٍ وسِرٍّ[3]، وإدخالُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 185.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 185.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دس).

الدّسُّ مُشتمِلٌ على نوع إكراهٍ، بما يُشيرُ إلى حياة الوليدِ الّذي يَدُسُّه

الشّيء في الشّيء بضربٍ مِنَ الإكراه[1]، ويُقالُ: في سريانِ الشّيء في الشّيء في خَفاءٍ ولُطفٍ[2].

وأمّا الدّفنُ فهو السَّترُ والمواراةُ[3]، والاستِخفاءُ والغُموضُ[4]، ومنه: داءٌ دَفينٌ[5]؛ أي: غامِضٌ لا يُعلَمُ، مَستورٌ عنِ المُلاحظة.

والّذي يظهرُ في الفرق بينَ الدّسِّ والدَّفنِ: أنّ الدّسَّ يُلحَظُ فيه معنى الإخفاءِ اللّطيفِ للشّيء، وأمّا الدّفنُ فيُلحَظُ فيه معنى الإخفاءِ العميقِ للشّيء، فالإخفاءُ في الدّفن أتمُّ وأغمضُ، والإخفاءُ في الدّسِّ أخفُّ وأيسرُ.

(1) الرّاغب، المفردات: (دس).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دسس).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دفن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دفن).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (دفن).

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠﴾ [النّحل: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

تعقيبُ الجناياتِ بالأحكام والأقضية فيها

بعد أن ذَكَرَ في الآيات السّابقة طرَفًا مِن جناياتهم وجرائمهم في السّفه والكُفر والافتراء على الخالِق، بأن نَسَبوا له البناتِ، جاءَت هذه الآيةُ لتحقير الكفّار وتهديدِهم على ما افترَوه على ربِّهم، ولتنزيهِ تعالى عنِ النّقائص، وذلك بما حَكَمَ به فيهم، وقضى به عليهم في هذه المآثم المُنكَرة، وهو مِن باب تعقيبِ الجناية ببَتِّ الحُكم فيها، والقضاءِ على أصحابها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثَلُ﴾: أصلُ (مثل) يدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ، وهذا مِثلُ هذا؛ أي: نَظِيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعنًى واحدٍ[1]، والمَثَلُ: عبارةٌ عن قَولٍ في شيءٍ يُشبِهُ قولًا في شيءٍ آخر بينهما مُشابهة، ليُبيِّنَ أحدُهما الآخَرَ ويُصوِّرَه، نحو قولِهم: "الصَّيفَ ضَيَّعتِ اللَّبَنَ"[2]، فإنَّ هذا القول يُشبِهُ قولَكَ: "أهمَلْتَ وقتَ الإمكانِ أمرَكَ"[3]، وعلى هذا الوجه ما ضَرَبَ اللّهُ تعالى مِنَ الأمثال، فقال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: 21]، والمَثَل يقال على وجهين: أحدهما: بمعنى المِثْل، نحو شِبْه وشَبَه، قالَ بَعضُهُم: وقَد يُعَبَّرُ بِهِما عن وصفِ الشَّيءِ، نحو قوله تعالى: ﴿۞مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ [الرّعد: 35]، والثّاني: عِبارَةٌ عَنِ المُشابَهَةِ لِغَيرِهِ في مَعنًى مِنَ المَعاني، أيِّ مَعنًى كانَ، وهو أعَمُّ الألفاظِ المَوضوعَةِ لِلمُشابَهَةِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(2) ابن سلّام، الأمثال، ص: 247، والعسكريّ، جمهرة الأمثال: 1/ 324.
(3) اليوسيّ، زهر الأكم في الأمثال والحكم: 1/ 21.

وذلكَ أنَّ النِّدَّ يُقالُ فيما يُشارِكُ في الجَوهَرِ فقط، والشَّبَهَ يُقالُ فيما يُشارِكُ في الكيفِيَّةِ فقَط، والمُساوِيَ يُقالُ فيما يُشارِكُ في الكمِّيَّةِ فقَط، والشَّكلَ يُقالُ فيما يُشارِكُ في القَدرِ والمِساحَةِ فقَط، والمِثْلَ عامٌّ في جَميعِ ذلكَ؛ ولِهَذا لَمّا أرادَ اللّه تعالى نَفيَ التَّشبيهِ مِن كُلِّ وجهٍ، خَصَّهُ بالذِّكرِ فقالَ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: 11]، والمُثول: الانتصابُ، والتَّمثالُ بالفتح: التَّمثيلُ، والتِّمثالُ بالكسر: الصّورةُ، ومثَّله له: صوَّرَهُ، وتمثَّلَ: تصوَّرَ، قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم: 17]، وتَمثَّلَ بالشَّيء: ضربَه مَثَلًا[1]، والمقصودُ بالمَثَلِ في الآية الحالُ العَجيبَةُ في الحُسنِ والقُبحِ، وإضافَتُهُ إلى السَّوءِ للبَيانِ[2].

2) ﴿ٱلسَّوۡءِۖ﴾: السّوء: القُبحُ، وضِدُّه: الحُسنُ[3]، المَصدَرُ بفَتحِ السِّينِ، وأمّا السّوءُ بضمِّ السِّينِ فاسمٌ لِلمَصدَرِ، وهو كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمور الدّنيويّة والأُخرويّة، ومِنَ الأحوال النّفسيّةِ، والبَدنيّةِ، والخارجةِ مِن فوات مالٍ، وجاهٍ، وفَقْدِ حميم[4]، ومنه: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا؛ أي: شَرًّا وفَسادًا[5]، وأيضًا: الحُزنُ والغَمُّ[6]، والإساءَةُ: فِعلُ الشَّرِّ وما يُكرَهُ، والمرادُ بالسَّوءِ في الآية كلُّ ما يَقبُحُ.

3) ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾: (علو): أصلٌ يدُلُّ على السُّموِّ والارتِفاعِ، لا يَشِذُّ عَنهُ شَيءٌ[7]، رأى الخليلُ أنّ أصلَ هذا البِناءِ العُلوُّ، فأمّا العلاءُ فالرِّفعَةُ، وأمّا العُلوُّ فالعَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ، يَقولونَ: عَلا المَلِكُ في الأرضِ عُلوًّا كبيرًا، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4]، ويَقولونَ: رَجُلٌ عالي الكَعبِ؛ أي: شَريفٌ[8]، والعُلوُّ ضِدّ السُّفلِ، والعُلويّ والسُّفليُّ المنسوبُ إليهما، والأعلى: الأشرفُ والأفضلُ، والاستعلاءُ: قد يكون طلبَ العُلوِّ المَذموم، وقد يكون طلبَ العَلاء؛ أي: الرِّفعَة[9]، والمقصود بـ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ في الآية تَفضِيلٌ؛ أي: أعلَى مِن كُلِّ مَثَلٍ في العُلوِّ، بقرينةِ المَقامِ[10].

(1) الرّاغب، المفردات: (مثل)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (مثل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 186.
(3) الخليل، العين: (سوء)، والأزهري، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(4) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (ساء).
(6) الخليل، العين: (سوء)، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (سوأ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(8) الخليل، العين: (علو).
(9) الرّاغب، المفردات: (علا).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 187.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

صِفاتُ اللهِ تعالى صِفاتُ كَمالٍ وجمالٍ وجَلالٍ

يُخبِرُ الحَقُّ سبحانَه في هذه الآية أنّ لهؤلاءِ المُشركينَ - الّذين لا يُصَدِّقونَ بالبَعثِ والثَّوابِ والعِقابِ - المَثَلَ القَبيحَ؛ لأنّهم يُسيئون إلى خالقِهم ورازقِهم، وهو الّذي له الوَصفُ الأفضَلُ والأطيَبُ والأحسَنُ؛ مِن تَوحيدِه وتنَزُّهِه عنِ الولَدِ، وله جميعُ صِفاتِ الكَمالِ المُطلَقِ مِن جَميعِ الوُجوه؛ لأنّه ذو العِزَّةِ، القاهِرُ لكُلِّ شيءٍ، الحَكيمُ الّذي يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها اللّائقةِ بها، بلا خَلَلٍ ولا خَطأٍ في تدبيرِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقِعُ جملة ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ممّا قبلَها:

الكُفرُ بلقاء اللهِ مَجلَبةٌ لكلّ سوءٍ

جملة: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ مستأنَفَةٌ ممّا قبلَها[2] على سبيل الاستخلاص والتّقعيدِ الباتِّ، بعد تفصيل أحوالِهم في كُفرهم نعمةَ اللّهِ، وافترائِهم عليه سبحانَه، فانتقلَ بعدَ تفصيل الجنايةِ إلى تقريرِ الحُكم واستخلاصِ البُرهان القاطِع في القضيّة، بنسبةِ التُّهمَةِ والسّوءِ إليهم بما اجترحوه، ونسبةِ الكمالِ والبَراءةِ إلى اللّه الجليل ممّا افتَرَوه.

دلالةُ تقديم الخبر على المبتدأ:

مَن لا يُؤمِنُ بالآخرة فقدِ استجمعَ صفاتِ السّوء

تقدُّمُ الخبرِ (الجارّ والمجرور) في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ على المبتدأ ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾؛ لإفادة الاختصاصِ والحَصرِ، إذ مَثَلُ السَّوءِ ليس إلّا للّذين لا يؤمنون بالآخرة؛ والمعنى: فلا أحدَ أسوءُ منهم؛ لأنّ مَثَلَ السَّوءِ هو للّذين كفروا فقط، وفيه دلالةٌ على توبيخهم؛ لتقديم ذواتِهم على اللّه تعالى.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 258، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 119، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 578، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 443.

(2) صافي، الجدول: 14/ 341.

سِرُّ التّعبير باسم الموصول (الذين):

الّذين لا يؤمنون بالآخِرَة ظاهرون، لا تَلتَبِسُ معرفتُهم على أحدٍ

التّعبيرُ بالموصول الخاصِّ (الّذين) في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ دون (المشركين) أو غيره مِنَ الأوصاف، فيه أربعُ نِكاتٍ:

الأولى: بيانُ وجهِ بناء المُسنَدِ إليه، فالتّعريفُ بالصّلة في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كان كالعِلّة والدّليلِ على قوله: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾، فالموصوليّةُ وما تضمّنتُه هو إشارةُ استحقاقِهم مَثَلَ السَّوء.

الثّانية: إجراءُ وصفِ عدمِ الإيمانِ بالآخِرَة على ذواتِهم، فمَجيءُ الموصولِ مَكَّنَ مِن إجراء وصفِ الكُفرِ عليهم في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ولو أتى بلفظ (المشركين) أو غيره لم يتمَّ إجراءُ هذا الوصف عليهم بهذا التّركيب الواردِ في النّظم.

الثّالثة: تمييزُ المُخبَرِ عنه أكملَ تمييزٍ بما في حيّز الصّلة؛ لكونه مَعلومًا بها عند المُخاطَب، فالإتيانُ بالموصول أفادَ أنّه معلومٌ ومُتعيَّنٌ عند السّامعِ بصفتِه الّتي تضمّنتها صِلَتُه، فالموصوليّةُ دلَّتْ على هذا التَّميُّز، ورَفعتِ الإبهامَ، فكأنّه يُشيرُ إلى الّذين لا يؤمنون بالآخِرَة بأعيانهم وأشخاصهم، بحيثُ لا تَلتبسُ مَعرفتُهم على أحدٍ.

الرّابعة: تقريرُ الغرضِ المَسوقِ له الكلامُ، فالغرضُ المَسوقُ له الكلامُ: هو ذَمُّ المُشركين وشتمُهم، فحين يُشيرُ إليهم فيُعَرّفُهم بما في حيّز الموصول مِنَ الصِّلة، بأنّهم لا يؤمنونَ بالآخرة، فهذه مَجلَبَةُ ذمِّهم، وإيماءَةُ التّشهيرِ بهم، والنّعي عليهم[1].

فائدةُ التَّعبير بالنَّفي دون الإثبات:

نفيُ الإيمانِ أوسعُ مِن إثبات الكفر

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾، ولم يقُلْ: (فالّذين يكفرون بالآخرة)؛ للدّلالة على أنّ الإيمانَ لم يكُنْ مِن

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 196.

طِباعِهم، فهُم لم يتأتَّ منهم إيمانٌ، ولا يَصدر عنهم ما يقتضي النّظر والتّأمُّل فيما يستدعي الإيمان مِنَ الدّلائل، ولأنّ نفيَ الإيمانِ يُفيدُ تمامَ الإعراض، وهو يُشعرُ بالتّعريض بهم بأنّهم ليسوا مِنَ الإيمان في شيءٍ، لا بالنّظر في الأدلّة ومراجعتها، ولا بالاعتقاد والتّسليم، إذًا فهم ليسوا أهلًا له أصلًا، ولو قال: (يكفرون) بالإثبات لأشعَرَ بأنّهم نظروا في الدّلائل وعقَلوها؛ لأنّ الكافرَ يسترُ ما قد أبصرَهُ أوَّلًا، ثمّ يغطّيه بالجُحود والإنكار، فلمّا قال: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ عرفنا أنّهم لم يكترثوا أصلًا بالدّلائل والبراهين، ولم تكُنْ مَحلَّ نظرٍ وعنايةٍ لهم قبلَ كفرِهم.

دلالةُ إيثارِ المضارع:

استمرارُ الحُججِ واستمرار عنادهم

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ولم يقُلْ: (للّذين لم يؤمنوا بالآخرة)؛ للإشارة إلى أمرين؛ **الأوّل**: أنّ الدّلائلَ والبراهينَ المُستلزِمَةَ للإيمان ما تزال قائمةً تواجهُهم في كلِّ وقتٍ ما بقيَتْ لهم حياةٌ، **الثّاني**: أنّه مع استمرار حصولِ تلك الدّلائل يستمرُّ إعراضُهم وعنادُهم، فهُم يزدادون كُفرًا يومًا بعدَ يومٍ؛ لتجَدُّدِ الكُفرِ منهم، وإصرارِهم عليه.

معنى الباءِ في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

التصاقُ الإيمانِ بالقلوب

الباءُ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للتّعديَة؛ وذلك للدّلالة على أنّ الإيمانَ هو بمعناه الشّرعيّ مِنَ الاعتقاد والتّصديق بالشّيء، ليس مقصورًا على الدّنيا فقط، بل يتعدّى إلى الآخرة أيضًا، أو الباءُ للإلصاق المَجازيِّ؛ لأنّ المؤمِنَ يلتصقُ قلبُه بما يَعتقدُه ويؤمِنُ به، بحيث لا يفارقُه طَرفةَ عيْن.

سِرُّ إيثارِ لفظِ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دونَ اليوم الآخر ومُرادفاته:

الإشعارُ بالمُنتهى والعاقبة

لفظُ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ باقٍ على الوصفيّة، فهو اسمُ جنسٍ مَقرون بـ (ال) المُعرِّفة، وإنْ جُعِل عَلَمًا على الأوقات أو على المرحلة الباقية

بعد فناء الدّنيا، فـ (ال) فيه لِلَمح الأصل، ولذا ففي التّعبير به إغناءٌ عنِ التّعبير باليوم الآخر؛ لعدم التباسِ أنّ المقصودَ بالآخرة هو ذلك اليومُ المعهودُ، ولم يُعَبّرْ بمُرادفات ذلك اليوم كـ(القيامة) وغيرها؛ لإظهار معنى ضِدِّها، وهو (الأولَى)، وللإشعار بالمُنتهى والعاقبة، وأنّ لهم آخِريّةً يؤولون إليها بعد نفاد الحياةِ الأوّليّةِ، وهي الدّنيا.

واختيارُ التّعبيرِ بالآخرة دونَ القيامةِ لارتباط يوم القيامةِ في القرآن الكريم بالحساب الفعليِّ، والحُكم والقضاءِ، ووصفِ مقاديرِ الجزاءِ الواقعِ بعدَ محاسبة النّاسِ، وأمّا الآخرة فتقترِنُ بسياق الاعتقادِ والإيمان، أو تقترنُ بسياق المُقابلةِ بينَها وبينَ الدّنيا؛ للمُفاضلة والمَوعظةِ بمُراعاتها، ولأنّ التّعبيرَ بالآخرة يتعلَّقُ بعمل المُكلَّفِ واعتقادِهِ فيها بالإيمان أو بالكفر، وما يستتبعُ ذلك من ترجيتِه في خيرها، وترهيبِه مِن شَرِّها، وأمّا يومُ القيامة فيتعلَّقُ بتَحَقُّقِ ذلك، مِن وُقوع المُجازاةِ بالفعل على ما قدَّمَه الإنسانُ.

وفي إيثار لفظ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون غيرِهِ إشهادٌ عليهم بإعراضهم عمّا يقتضي الإيمان به، وإقبالِهم على ما يقتضي عدم الاستمساك به؛ لأنّ الشّيءَ إذا كان آخِرًا كان هو الباقي بعد ما تقدَّمَ عليه، فالنّظرُ إليه أولَى، والاكتراثُ به أجدرُ لضمانتِه، وإذا كان الشّيءُ أوّلًا، ثمّ يَعقُبُه ما يزيلُه، كما تزيلُ الآخِرَةُ الدّنيا، كان التّمسُّكُ بالآخِرِ المُزيلِ أحقَّ مِنَ التّمسُّك بالأوّلِ المُنصَرِمِ المُزالِ.

سِرُّ تخصيصهم بنفي الإيمان بالآخرة:

مَنِ انتفى إيمانُه بالبعث نُفِيَ عنه أصلُ الإيمان

في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ خصّصَ الصِّلةَ بنفي الإيمان بالآخرة، دون غير ذلك مِنَ الأوصاف والخصال؛ لأنّهم اشتَهروا بهذه الصّلة بينَ المُسلمين، كقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢﴾ [النّحل: 22]، وقولِه:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨﴾ [سبأ: 8][1]؛ وذلك لأنّ مَن لا يؤمنُ بالآخِرة تعلَّقَ قلبُه بالدّنيا ورضيَ بها؛ فرَفضَ الحَقَّ واتّبَع الباطِلَ.

سِرُّ التّعبير بالمثَل:

المَثَلُ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ هو الحالُ أو الصِّفَةُ العجيبةُ في القُبح أو الحُسْن، وأصلُه: صورةُ الشّيء المُتشخِّصةُ بصفاتِه ونعوتِه، ولذا أُطلِق على الصِّفة العجيبة؛ لأنّها أظهرُ ما في الصّورة، وأشخَصُ ما فيها، فإنْ قِيلَ: إنّ أصلَ (المَثَل) التّناظُرُ والتَّماثُلُ والتَّشابُهُ بينَ شيءٍ وشيءٍ، فأين هذا المعنى في تفسير (المَثَل) بالصِّفة العجيبة؟ فالجوابُ: أنّ الصِّفةَ تُناظِرُ الذّاتَ المُتَشَخِّصَةَ للشّيء؛ لأنّها تُعبِّرُ عنها، فهي مَثيلتُها، كما أنّ الصّورةَ الشّاخصة يُقالُ لها: تِمثالٌ؛ لأنّها مِثالُ الفكرة والتّصوّر، وتجسيدٌ لهما، فهي حكايةٌ لِما في خيال المُبدِع أو عِلمه، أو لأنّ لها ظِلًّا يماثِلُها[2].

الـصّـفـةُ هي مَثيلة الـذّاتِ في محاكاة طبْعِها وصورتِها

وممّا يُذكَرُ في سِرِّ التّعبير بالمَثَل: أنّ سوءَ الكفّار وفظاعتَه وبشاعتَه أصبح رمزًا للسّوء؛ فصار جاريًا مَجرَى المَثَل.

دلالةُ إضافةِ ﴿مَثَلُ﴾ إلى السّوء:

إضافةُ ﴿مَثَلُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّوۡءِۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾؛ لبيان المَثَلِ وتعريفِه[3]، ففي الإضافة تعيينٌ وتخصيصٌ لعُموم المَثَل.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمصدر دون الاسم:

جرى التّعبيرُ في الآية بالمصدر دونَ الاسم، فلفظُ ﴿ٱلسَّوۡءِۖ﴾ - بفتح السّين - مصدر، و(السّوء) - بضمّ السّين - اسم مصدر،

الـسَّـوءُ جنسٌ جـامـعٌ لألـوان القُبح، والسُّوءُ نوعٌ مِن أنواعه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 186.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 303.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 186.

ونُكتَةُ التّعبير بالمصدر هنا: الدّلالةُ على ثُبوت جنسِ السَّوء لهم، وهو المعنى المُجَرّدُ الجامعُ لأنواع القبائحِ والمَساءات، ولذا فالسَّوء - بالفتح - يُسنَدُ إلى "ما يُرادُ ذَمُّهُ مِن كلّ شيء"[1]، وهذا يتّسِقُ جدًّا مع مضمون الآية، لأنّ المُرادَ في الآية إثباتُ عمومِ الذَّمِّ لهم، في جميع أحوالِهم، ولذا صَحَّ أن تُسمّى صِفاتُهم مَثَلًا، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾؛ أي: فسدَتْ طِباعُهم للدّرجة الّتي صاروا بها مَثَلًا يُضرَبُ في السَّوء، وأمّا (السّوء) - بالضّمّ - الّذي هو اسم مصدرٍ، فهو يَدُلُّ على النّوعيّة؛ أي: لونٌ مُعيَّنٌ في السّوء، مُحدَّدُ المَجال، ولذا يقترنُ (السّوء) بأفرادٍ مِنَ القُبْح مُعيّنةٍ، ومجالٍ في الشّرِّ مُحدَّدٍ، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النّحل: 27]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ [يوسف: 24]، فاسمُ المَصدَر (السّوء) يدلُّ على اسم الشّيء أو الخَصلَة الّتي يرتكبُها الفاعلُ، وأمّا المصدرُ ﴿ٱلسَّوۡءِۖ﴾ فيدلُّ على معنى الشّيءِ قبلَ ارتكابه وتخصيصِه بمُباشرة الفاعلِ له، ولذا فإنّه لمّا أرادَ هنا أن يُنَبِّهَ على الوصف المَعنويِّ الثّابتِ لهم عَبَّرَ بالمَصدر، وحين يُريدُ - في مَواطِنَ أُخرَى - أن يُنَبِّهَ على مباشرةٍ وارتكاب شيءٍ منه يُعبِّر باسم المَصدر؛ هذا لأنّ اسمَ المصدر يدلُّ على الاسم المفهوم مِنَ الحَدَث، والمصدر يدلُّ على الحَدَث، فاسمُ المصدر هو أثرُ المَصدر، ويدلُّ بموجبه على اسم الشّيء، وعلى الذّاتِ الّتي تعلَّقَ بها أو باشَرَتْه.

دلالةُ عطفِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ على ما قبلَها:

لله كلُّ المَحامدِ والكمالات

جملةُ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾[2]؛ لأنّ بها تكملَةَ إفسادِ قولِهم، وذَمِّ رأيهم إذ نَسَبوا للّه الولدَ، وهو مِن لوازم الاحتياجِ والعَجزِ، ولمّا نَسَبوا إليه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 434.
(2) صافي، الجدول: 14/ 342.

ذلك خَصّوه بأخَسِّ الصِّنفَين عندَهُم، كما قال تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾، وإنْ لم يكُنْ كذلك في الواقع، ولكنْ هذا جرى على اعتقادِهم، ومُؤاخذةً لهُم برأيهم[1]، ولإتمام المُقابلةِ بين كمالِ اللّه صِفةً وذاتًا، ونقصِ أولئك المُجرمين صِفةً وذاتًا.

والمقابلةُ هنا ليست على بابِها في مُجرَّدِ إثباتِ الكمالِ للّه وسلْبِه عنهم، فإنّ هذا معلومٌ واضحٌ، وهو حاصلٌ ليس معهم فقط، بل مع اللّه سبحانَه وجميعِ مَن سِواه مِن خلقِه، بل المرادُ هنا المُقابلةُ الدّاحضةُ لأفاعيلهم وجناياتهم الّتي نسبوها للّه، وجميعُها نقائصُ.

دلالةُ تقديم الخَبر:

تقديمُ الخبرِ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾؛ لإفادة الحَصرِ التّامِّ، والقَصرُ الحقيقيُّ للّه سبحانه في استحقاقه المَثَل الأعلى، في أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه وذاتِه.

دلالةُ التّعبير بـ (أفعل التّفضيل):

عُلوُّ اللّه ليس له مثيلٌ ولا نظيرٌ ولا شبيهٌ

التَّعبيرُ بـ (أفعل) التّفضيل في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾؛ لإثبات العُلوّ المُطْلَقِ للّه سبحانَه في ذاتِه وصفاتِه، فهو سبحانَه الأعلى في ذات الأمر، مِن قبل أن يوجد مفضولٌ تحتَه، وهو الأعلى بعدَ وجودِ المفضول وخَلْقِ الموجودات، فلا عُلوَّ لأحدٍ سِواه إلّا وعُلوُّ اللّهِ أعلى منه[2]، فصِيغةُ التّفضيل تُثْبِتُ مفهومَها؛ وهو ثُبوتُ صِفةِ العُلوّ على جهة المفضوليّةِ لبعض الموجودات والكائنات.

سِرُّ اختيار الأعلى دونَ الأعظم:

صِفةُ العُلوّ تدُلُّ بنفسها على المُقارنة والمُفاضلة

اختيارُ (الأعلى) في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ دونَ الأعظمِ أو الأكبر أو غير ذلك من الصّفات الكماليّةِ؛ لنُكتَتَين:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 186.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 186.

الأولى: أنّ صفةَ العُلوّ هي الأنسبُ للسّياق، إذِ السّياقُ في افترائهم على الله، بإدناء رُتبتِه ومَقامِه، وجَعلِه بإزاء أصنامِهم في صَرفِ رزقِه لهم، وجَعلِه بإزاء أنفسِهم في نسبة الولادة إليه، بلِ النّزول في ذلك بنسبة البناتِ إليه والبنينَ إليهم، فكان الأنسبُ أن يأتيَ بصفة العُلوّ الدّالّةِ على مُطلَق الارتفاع والفوقيّة؛ لدَحْضِ هذه الدّنايا عنه سبحانَه، ولتَنزيهِه بالفَوقيّة والاستعلاء عن هذه المَنازلِ الباطلةِ جميعًا.

الثّانية: أنّ وصفَ ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ في أصل اشتقاقِه (عَلَو) يدُلُّ على المُفاضلةِ بين مَحلٍّ مُرتفعٍ ومَحلٍّ آخر تحتَه ودونَه[1]، فالصّفةُ في ذاتها تدُلُّ على الرّتَبيّة، بخلاف صفة العِظَم والكِبَر، فلا تدلُّ على الرّتَبيّة بذاتها إلّا بصيغة التّفضيل، فكان بذلك لفظُ (الأعلى) هو أبلغَ لفظٍ في هذا المقام؛ لأنّه يدلُّ على الرّتبيّة في أصله، فإذا جاء على أفعل التّفضيل دلَّ على كمال الرّتبةِ والمُبالغةِ فيها ومُطلَقِ معناها، وهذا أليقُ بالتّناظر اللّفظيِّ بينَ التّركيبين في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ و﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾، وسبحانَ مَن أجرى الكمالَ اللّفظيَّ في ﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ بتعريف ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾ و﴿ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾، كما تضمَّنَ الكمالَ المعنويَّ، وأتى بمَثَل الكافرين نَكِرةً في ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾؛ إنقاصًا في اللّفظ، وتناسبًا مع النّقص المعنويّ الّذي تضمّنه التّركيبُ.

سِرُّ تقديمِ تحقيرِ المشركين على تنزيه الله تعالى:

تركيزُ سياق الآيات السّابقة واللّاحقة على ذِكر مخازي الكفّار ومَعايبهم

قُدِّمَ في الآية ذِكرُ تحقيرِ المشركين بقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ على ذكر تنزيهِ الله تعالى بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾؛ لأنّ سياقَ الآيات السّابقةِ واللّاحقةِ يُركّزُ على ذِكر مخازي الكفّار؛ فناسبَ ذلك التّركيز على تحقيرهم بسبب ذِكر مخازيهم؛ فمِنَ الآيات الّتي سبقت قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علو، على).

وما بعدها، ومِن الآيات اللّاحقةِ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ الآية وما بعدَها؛ فسياقُ الآيات السّابقةِ واللّاحقةِ يُؤكِّدُ على ذِكر مخازي الكفّار ومَعايبهم.

بلاغةُ التّذييل:

التّذييلُ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كنايةٌ عن تهديدِهم ووعيدِهم، ومُؤاخذتِهم بمقتضى عِزّته وحِكمته على مَثَل السَّوءِ الّذي اجترحوه، وفيه إشارةٌ إلى أنّ حالَ السَّوء الّذي كانوا عليه، كان باختيارٍ منهم وعِلمٍ، ولذا فهُم يُحاسبون عليه.

مَن عَزّ حَكَم، ومَن حَكَمَ جازَى وحاسَبَ

بلاغةُ التّعبيرِ بالضّمير بدلًا مِنَ الظّاهر:

تعريفُ المُسنَدِ إليه بالضّمير ﴿وَهُوَ﴾ بدلًا مِنَ الظّاهر (اللّه) في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لسَبق ذِكرِه لفظًا في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، فأغنى عن إعادتِه بلفظِه، كذا في التّعبير بالضّميرِ دونَ الظّاهر إشعارٌ بأنّ المُضمَرَ حاضِرٌ في القلوب، لا يخفى تعيينُه على أحدٍ[1]، فلا يحتاجُ إلى إظهارٍ، فهو مع إضمارِهِ تتحرَّكُ له الضّمائرُ بالتّهيُّب والخشية.

للهِ وحدَهُ تتحرّكُ القلوبُ بالمَهابة والخَشية

سِرُّ اختيارِ وصفي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

اختيار وصفَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ دونَ غيرهما مِنَ الصّفات؛ للإيماء إلى معنى المُؤاخَذة اللّازم عنهما؛ لأنّ العقوبةَ لا تكونُ إلّا عن غَلَبَةٍ وقوّةٍ وقهرٍ واستغناءٍ مِنَ المُعاقِبِ للمُعاقَب، ولا تنضبطُ إلّا بحِكمةٍ وحُكمٍ وإحكامٍ، ولذا اصطفى لتقرير هذا المعنى صِفتي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

العِزّةُ مَنَعَةٌ مِنَ الغَلَبة، والحِكمَةُ مَنَعَةٌ مِنَ الظُّلم

سِرُّ تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾:

قَدَّمَ ذِكرَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ مُراعاةً للتّرتيب في إيقاع

مُراعاةٌ للتّرتيب في إيقاع العقوبة؛ لأنّ مَن عزَّ حَكَم

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 247.

العقوبة؛ لأنّ مَن عزَّ حَكَمَ بما له مِن صفات القُدرَة والجَبَروت؛ فالحُكمُ ناشئ مِن امتلاك أسبابِه الظّاهرة في القُدرة والهَيمَنة.

سِرُّ الاقتران بينَ صفتي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

كمالُ القُدرة اقترانُها بالحِكمة

اقترنَت صِفةُ العِزّة بالحِكمة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ للدّلالة على أنّ للّه كمالَ القُدرة، ولكنّها قُدرةٌ حَكيمةٌ، وفي هذا إشارةٌ إلى تعليم البشر؛ فبعضُهم يمتلِكُ القُدرةَ ولا يمتلِكُ الحِكمَةَ، فتظهرُ آثارُ قُدرتِه خاليةً عن الحِكمة، أو تذهبُ قُدرتُه دونَ أن يُحَقِّقَ بها شيئًا.

الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

السّوءُ والقُبحُ:

كلُّ سوءٍ قُبحٌ، وليسَ كلُّ قبحٍ سوءًا

السّوءُ: يدُلُّ على عيبٍ أو نقصٍ يخالِطُ ظاهرَ الشّيءِ أو باطنَه[1]، ويصدقُ على كُلِّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمور الدّنيويّة والأُخرويّة، ومِنَ الأحوال النّفسيّةِ والبَدنيّةِ والخارجِة[2]، وسُمِّي كذلك لأنّه يُسيءُ إلى صاحبِه، وهذا معنى أنّه يَغُمُّ الإنسان؛ أي: يَجلِبُ له الغَمَّ والإساءَةَ.

وأمّا القُبحَ فيدُلُّ على ما يَنبو عنه البَصرُ مِنَ الأعيان، وما تَنبو عنه النّفسُ مِنَ الأعمال والأحوال[3]، فهو خُروجٌ للأشياء عن حَدِّ الاستواء والاعتدال في مَنظرِها ومعناها.

فيَتَّفِقُ القبحُ مع السّوء: في أنّ السّوءَ بابٌ من أبواب القُبح؛ فكلُّ سوءٍ هو قُبحٌ، ويختلفان: في أنّه ليس كلُّ قُبحٍ يُسيءُ إلى صاحبه، ويغتمُّ ويتألَّمُ له، ولذا فالسّوءُ هو قُبحٌ خاصٌّ، وهو القُبحُ الّذي يُسيءُ ويَغُمُّ، وأمّا القُبحُ فعامٌّ، فمنه ما يُسيءُ، كقُبح الفضيحة، ومنه ما ليس كذلك كقُبح مرضٍ لا يَعيبُ، ومنه ما قد يُتَلَذَّذُ به؛ كقُبح الزّنا، وقُبح الإسكار، وقُبح المالِ الحرام، وقُبح الوقوع في الأعراض.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (قبح).

وعَبَّرَ هنا بـ (السّوء) دون (القُبح) في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾؛ للتّسجيل عليهم بأنّهم مُتَّصفون في أعمالِهم وأحوالِهم بما هو أصلٌ في الإساءة، وما هو داعٍ - في حقيقتِه وعاقبتِه - إلى الاغتمام والاكتِراب، ومع ذلك فهم ماضون في هذا السّوء مِن غير نظرٍ وانتباهٍ إلى ما يَستوجِبُ النّظرَ، ويُحرِّكُ الشّعورَ إلى الاستياء منه والتّخلُّصِ مِن قُبحِه، ولكنْ لِفساد قلوبهم وطِباعهم لا يَشعُرون.

المتُشابِهُ اللّفظيّ:

تشابهَ قولُه تعالى في هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ مع قوله في سورة الرّوم: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الرّوم: 27]، والملاحظُ أنّ مَوضِعَ سورة الرّوم زِيدَ فيه: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الروم: 27]، وسببُ ذلك مراعاةُ السّياق والمقصود في كلٍّ منهما؛ فآيةُ النّحل تَقَدَّمَها قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾؛ فقوبل بحسب التّفصيل ومُقتَضى التّقابل بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾، فتطابقَ الكلامُ وتناسبَ، ولأنّه لم يقعْ قبلَها ذِكرُ السّماوات والأرض؛ فكان مِنَ المناسب عدمُ ذِكرها.

أمّا موضعُ سورةِ الرّوم فتقدَّمَها قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الرّوم: 26]؛ لذلك كان مِنَ المناسب ذِكرُها في سورة الرّوم، وذلك واضحٌ في ظهور التّناسُب بذِكر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الرّوم: 26][1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 299.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ [النّحل: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـحُـكـمُ على الجاني يستلزمُ مؤاخذتَهُ وعقابَه

لَمّا بيّنتِ الآيةُ السّابقةُ أنّ الصّفةَ السّوآى إنّما هي للكفّار الّذين لا يؤمنون بالآخِرة، وأنّ الصّفةَ العُليا للّه تعالى وحدَه، وهدَّدَتْ بالعقاب الأليمِ للكافرين، جاءَت هذه الآيةُ لتُبيّنَ حِكمةَ اللّهِ تعالى في تأخير العقاب للكفّارِ على شركهم، ولو أرادَ لفعَلَ، ولكنْ أخَّرَهم لأجَلٍ مَعلومٍ.

ومِنَ المناسبة: لمّا ذَكَرَ في الآية السّابقة الحُكمَ عليهم بمَثَلِ السَّوء، وكانَ هذا الحُكم يستلزمُ عقوبةً ومُؤاخذةً، فأخبرَ هنا أنّ مؤاخذتَهم بالعقاب غيرُ ناجِزَة، حتّى يبلغوا أجلَهم المُسمّى، فلا يَفلِتون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤَاخِذُ﴾: أصلُ الأخذ: حَوزُ الشَّيءِ وجَبيُه وجَمعُهُ، قال الخَليلُ: هوَ خِلافُ العَطاءِ، وهو التّناوُلُ[1]، والإِخْذُ - بالكسر - الاسمُ، والأمرُ منه: خُذْ، وأصلُه أُؤْخُذْ، إلّا أنّهم استثقلوا الهمزتين فحذفوهما تخفيفًا[2]، والأَخْذُ: تناوُلُ الشَّيءِ باليَد، واستُعمِلَ مَجازًا مَشهورًا في الاستيلاءِ، قالَ تعالى: ﴿وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ [التّوبة: 5]، وفي القَهر نحو: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ [الأنعام: 42]، وفي التَّلقّي نحو: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81]، وفي الاحتِواءِ والإحاطَة، يُقالُ: أخَذَتْه الحُمَّى وأخذَتهُمُ الصَّيحَةُ، وفي الإهلاكِ نحو:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أخذ).

﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً ١٠﴾ [الحاقّة: 10][1]، والمُؤاخَذَةُ: مُفاعَلَةٌ بمعنى العَدِّ والمُحاسَبَةِ، يُقالُ: أخَذَهُ بكذا؛ أي: عَدَّهُ عليه، والمقصود بالمُؤاخذة في الآية: الأخذُ المقصودُ منهُ الجَزاءُ، فهو أخذٌ شَديدٌ مُناسِبٌ لِلمُجازاةِ؛ لأنَّ شأنَ الجَزاءِ في العُرفِ أن لا يَتأخَّرَ عن وقتِ حُصولِ الذَّنبِ[2].

2) ﴿تَرَكَ﴾: أصلُ التَّركِ: الكَفُّ والإعراضُ، يُقالُ: تركتُ الشَّيءَ: إذا كَفَفتُ وأعرَضتُ عنه، ويأتي بمعنى التَّخلِّي عنِ الشَّيءِ[3]، ويُطلَقُ على الإسقاطِ، يُقالُ: تَرَكَ حَقَّهُ؛ أي: أسقَطَهُ، وهو أيضًا: الجَعلُ، يُقالُ: تَرَكَهُ يَفعَلُ كذا؛ أي: جَعَلَهُ يَفعلُهُ[4]، ومن معانيه: المفارَقةُ، والهَجرُ، والإهمالُ، والرَّفضُ، والمقصودُ بالتَّرك في الآية: عَدَمُ الأخذِ للشَّيءِ مع إمكانه.

3) ﴿دَآبَّةٍ﴾: أصلُ (دَبَّ): حَرَكَةٌ على الأرضِ أخَفُّ مِنَ المَشيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكلُّ شيءٍ ممّا خَلَقَ اللهُ يُسَمَّى دابَّةً، والاسمُ العامُّ: الدّابَّةُ لِما يُركَبُ، وتصغيرُها دُوَيبَّة[5]، ويُقالُ: ناقَةٌ دَبوبٌ، إذا كانَت لا تَمشِي من كَثرَةِ اللَّحم إلّا دَبيبًا[6]، ودَبَّ النَّملُ يَدُبُّ دَبيبًا؛ أي: مَشَى على هِينته، ودبَّ القَوْم إلى العَدوّ دبيبًا؛ أي: مَشَوا على هِينتِهم لم يُسرعوا[7]، والدَّبيبُ: الزَّحفُ على الوَجه[8]، والمقصودُ بـ ﴿دَآبَّةٍ﴾ في الآية: ما دَبَّ على وجهِ الأرضِ؛ أي: مَشَى، وغُلِّبَ هنا الإنسانُ فأُتي بالنَّوعِ المَقصودِ مِن بَينِ عُموم الدَّوابِّ[9].

4) ﴿يُؤَخِّرُهُمۡ﴾: أصلُ التَّأخيرِ: فِعلُ الشَّيءِ آخِرًا بَعدَ أجَلِه، والآخِرُ ضِدُّ الأوَّلِ، والتَّأخيرُ: التَّأجيلُ، يُقالُ: أخَّرَ الشَّيءَ يُؤَخِّرُهُ؛ أي: أجَّلَهُ، وضِدُّ التَّأخيرِ: التَّقديمُ والتَّعجيلُ[10]، ويُطلَقُ التَّأخيرُ أيضًا بمَعنى: تَفويتِ الشَّيءِ وتَضييعِه، يُقالُ: أخَّرَ سَفَرَهُ؛ أي: فوَّتَهُ ولَم يَأتِ بِهِ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 271.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 190.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترك).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ترك).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دب)، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (دبب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دب).
(7) الخليل، العين: (دب)، والأزهري، تهذيب اللّغة: (دبب).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دبب).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 266.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سِيده، المُحكم: (أخر).

وقتِهِ، والتَّأخُّرُ: التَّخَلُّفُ سواء كان في المَكانِ أوِ الزَّمانِ، يُقالُ: تَأخَّرَ عن عَمَلِهِ؛ أي: تَخَلَّفَ عنه، وتَأخَّرَ عن مُنافِسِهِ، إذا جاءَ بَعدَهُ في المَكانِ أو الزَّمانِ.

والمُرادُ بالتَّأخيرِ في الآية: ضِدُّ التَّعجيلِ، وقد أُطلِقَ التَّأخيرُ على التَّمديد في أجلِ الشَّيءِ[1].

5) ﴿أَجَلٍ﴾: أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقتِ في مَحَلِّ الدَّينِ وغيرِه، وقَد صَرَّفَهُ الخَليلُ فقال: أجِلَ هذا الشَّيءُ وهو يأجَلُ، والاسمُ الآجِلُ نقيضُ العاجِلِ، والأجيلُ المُرجَأُ؛ أي: المُؤَخَّرُ إلى وقتٍ، والآجِلَةُ: الآخِرَةُ[2]. يُقالُ: دَينُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أجَّلْتُهُ: جعلتُ له أجَلًا، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسانِ: أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دُنُوِّ الموت[3]، وقَولُهُم: (أجَل) في الجَواب، هو من هذا الباب، كأنَّهُ يُريدُ انتهَى وبَلَغَ الغايَةَ[4]، والمقصودُ بالأجل في الآية المُدَّةُ المُعَيَّنَةُ لِفعلٍ ما[5].

6) ﴿مُّسَمًّى﴾: المُسَمَّى: مَأخوذٌ مِنَ الاسم، وهو: ما يُعرَفُ به ذاتُ الشَّيءِ، وأصلُهُ مِنَ السُّموِّ، وهو: العُلُوُّ والارتِفاعُ، يُقال: سَما، يَسمو، سُمُوًّا: إذا ارتَفَعَ، وسَما به وأسماهُ: أعلاهُ، وإنَّما جُعِلَ الاسمُ تَنويهًا على الدّلالَةِ على المعنى؛ لأنَّ المَعنى تَحتَ الاسمِ[6]، والمقصود بالمُسَمَّى: المُعَيَّنُ؛ لأنَّ التَّسمِيَةَ تَعيينُ الشَّيءِ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإمـهـالُ دونَ الإهمال

يُخبِرُ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنَّه لو عاجَلَ النّاسَ بالعُقوبةِ بِسَبَبِ شِركِهم وكُفرِهم، وافترائِهم على اللّهِ، وعِصيانِهم له؛ لأهلَكَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 15.
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أجل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 191.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزبيدي، تاج العروس: (سمو)، وابن منظور، لسان العرب: (سما).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 191.

بسببِ شُؤمِ ذلك جميعَ النّاسِ وغيرهم مِن الدَّوابِّ، ولكِنْ يُمهلُهم إلى وقتٍ مُحَدَّدٍ وقَّتَهُ لهم، فإذا جاءَ الوَقتُ الْمُقَدَّرُ لهَلاكِ الظّالمِينَ، لا يُؤَخَّرونَ عنِ الهَلاكِ ساعةً فيُمهَلونَ، ولا يتقدَّمونَ عنه فيُهلَكونَ قَبلَه، فليَحذَروا ما داموا في وقتِ الإمهالِ، قبلَ أن يَحِينَ الوَقتُ الّذي لا يُمهَلونَ فيه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقِعُ جملة: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ ممّا قبلَها:

تأجيلُ المُؤاخذةِ إعـذارٌ للجاني وإفـسـاحٌ له ليستدرِكَ

جملةُ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ معطوفةٌ على الجملة المُستأنَفَةِ قبلَها: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾(2)، والجملتان وعيدٌ بالعقوبة في أثناء تعديد أفعالِهم بالكُفر، فهما بمنزلة الإيذان بالجزاء على ذلك.

دلالةُ التّعبيرِ بـ (لو):

إخبـارُ الجـاني بـآثـار العقوبةِ المُؤجَّلـةِ، إعانةٌ لـه عـلى تـوقّـي أسبابِها

حرفُ (لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ﴾ حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ؛ أي: حرفُ شرطٍ يدُلُّ على امتناعِ وُقوعِ جوابِه؛ لأجل امتناعِ وُقوعِ شرطِه، وشرطُ (لو) مُلازِمٌ للزّمنِ الماضي، فإذا وقَعَ بعدَ (لو) مضارعٌ انصرفَ إلى الماضي غالبًا، فالمعنى: لو كان اللّهُ مُؤاخِذًا الخَلقَ على شِركِهم لأفناهم مِنَ الأرض، وأفنى الدّوابَّ معَهُم؛ أي: ولكنّه لم يُؤاخِذْهم(3).

دلالةُ التّعبيرِ بالمُؤاخَذة:

لا يُـؤاخِـذُ اللهُ ظـالـمًا حـتّـى يستوفيَ أعذارَه

اصطفاءُ التّعبيرِ بالمُؤاخَذة في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ دون غيرِه مِنَ العذاب أو المُعاقَبة؛ لكون المُؤاخذةِ مُقدِّمةَ العقوبة، فهو سبحانَه يُؤاخِذُهُم أوّلًا، فيتناولُهم بالحسابِ والتّقرير على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 259، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 390.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 187، وصافي، الجدول: 14/ 342.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 188.

جرائمِهم، ثمّ يعاقبُهم بإحلال العذابِ بهم، فالمُؤاخذةُ تتضمَّنُ تسجيلَ الحُجّةِ والحساب عليهم.

سِرُّ مجيء المُؤاخَذةِ على صيغة المُفاعَلة:

للدّلالة على أنّ اللهَ لا يُؤاخِذُ النّاسَ إلّا بما أجراه عليهم

جاءتِ المُؤاخذةُ بصيغة المُفاعلةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾، ولم يقُلْ: (ولو يأخذ اللّهُ النّاسَ)؛ للدّلالة على أنّه لا يُؤاخِذُهُم إلّا بما أجراه عليهم، فعَلِموه، وأُخبِروا به، ونوقِشوا فيه، فصِيغةُ المُفاعلة تومِئُ إلى استحقاقِهم ذلك، وأنّهم غيرُ مَعذورين، وفيه تنبيهٌ على المُجازاة والمُقابلة؛ فهُم قد أخذوا نِعَمَ اللّه، ولم يُؤدّوا شُكرَها؛ لذلك كانتِ المُؤاخَذةُ بالعذاب الأليم.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع:

نفيُ المُؤاخَذة في المُستقبل، كما لم يُؤاخَذْ في الماضي

عَبَّرَ القرآنُ الكريم بالمضارع في قوله: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾؛ للدّلالة على نفي المُؤاخذةِ في المُستقبل، كما لم يُؤاخذ في الماضي؛ لأنّ اللّهَ عَدْلٌ لا يأخذُ المُطيعَ بجريمة العاصي، ولا يأخذُ العجماءَ بجريمة الإنسان(1).

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ الجلالة:

الاسمُ الجليلُ (الله) جامِعٌ لمعاني الرّغبة والرّهبة

إسنادُ المؤاخذةِ إلى اسم الذّاتِ الجليلِ الجامعِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ دون غيره؛ لجامعيّة هذا الاسم في الدّلالة على صفات القوّةِ والقُدرة والعِزّةِ والغَلَبةِ والحِكمَةِ والعَفو، بما يُؤذِنُ بيُسْر إنفاذِ الوعيدِ بالمُؤاخَذة، وعِلّة تأخيره وعدم استعجاله، فهي مُؤاخَذةٌ مَقدورٌ عليها، مع ما فيه مِن تربية المَهابةِ، وإخشاعِ القلوب لمعانيه الجليلة.

سِرُّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دونَ المُشركين أو الظّالمين:

عُمومُ الخطابِ الإلهيِّ لجميع بني آدمَ

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾، ولم يقُلْ: (ولو يؤاخِذُ اللّه المُشركين أو الظّالِمين)؛ لإرادة العُموم(2)؛ أي: عُموم النّاسِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4203.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 186.

منذ أن كان الظّالمون في الأرض، إلى أنْ يقومَ النّاسُ لربِّ العالَمين، ويدخلُ المشركون الّذين تَسرُدُ الآيةُ أفاعيلَهم في هذا العُموم دخولًا أوّليًّا، لحضورهم وقتَ الخطابِ.

سِرُّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دون الخَلق:

لفظُ (النّاس) أخصُّ مِن لفظ (الخلْق)

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾، ولم يقُلْ: (ولو يُؤاخِذُ اللّهُ الخَلْقَ)؛ لأنّ النّاسَ أخصُّ مِنَ الخَلْق، وهمُ المَعنيّونَ بالتّكليف والمُؤاخَذة، وأمّا الخَلْقُ فيَدخلُ فيهم كلُّ المخلوقاتِ في الوجود، مِنَ الإنسان وغيرِ الإنسان، وهؤلاءِ ليسوا مَقصودين في الخطاب، والمقصودُ بـ (ال) في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الكفّارُ؛ فهو لفظٌ عامٌّ يُرادُ به الخصوصُ، ويُؤكِّدُ ذلك أنّ سياقَ الآياتِ قبلَها في (الكفّار)، وأنّ لفظَ ﴿بِظُلۡمِهِم﴾ يُفَسَّرُ بالشّرك.

دلالةُ الباء في قوله ﴿بِظُلۡمِهِم﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ سببيّةٌ؛ أي: بسببِ ظُلمِهم[1].

سِرُّ اختيارِ الظّلمِ دونَ غيرِه:

الظّلمُ سببُ خرابِ العالَم وهلاكِه

اختيارُ الظّلم دونَ غيرِه مِنَ الجرائم في قوله: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾؛ للدّلالة على أنّ كُلَّ جريمةٍ أو معصيةٍ أو مُخالفةٍ تحصُل بظُلمٍ، ومعنى ذلك: أنّ في اقتراف الكبائرِ والشّرك الأكبر إخلالًا بنظام الوجود، الّذي سَنَّه اللّهُ وضبَطَ به حركةَ الكَونِ، وهذا الإخلالُ يتأتّى مِنَ الظّلم بوَضعِ الأشياء في غير مَواضِعِها[2]، ولأنّ الظُّلمَ في سياق التّهديدِ بالاستئصال الشّاملِ، لا يكونُ لأجل الظّلم الّذي هو دونَ الشّرك.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 409.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).

دلالةُ عدمِ تَعَدّي الظُّلمِ إلى المفعول:

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (يُؤاخِذُ النّاسَ بظلمِهم في أيِّ شيءٍ)، فلم يُحَدِّدْ مجالَ الظّلم، ولم يَذكُرْ مفعولَه؛ لإرادة العُموم، فيدخُلُ فيه كلُّ ظُلم، صغيرًا كان أو كبيرًا، وتكونُ المُؤاخَذةُ على قَدرِ الظّلم المُقتَرنِ بها، أو لإرادة الخصوصِ؛ أي: بظُلمِهمُ العظيم، وهو الكُفرُ البَواحُ، وما يَقتَرنُ به مِنَ الكبائرِ الجَسيمَةِ، ذلك أنّ حَذفَ المفعولِ قد يكونُ بغَرَضِ أنّه مُعيَّنٌ مخصوصٌ، فلا يَلْتَبِسُ حينَ حَذفِه، ولذا يَنصَرِفُ إلى المُهمّاتِ المَشهورةِ، والعزائمِ الواضحةِ دونَ غيرِها.

إرادةُ العُمومِ لِيَعُمَّ كلَّ ظُلمٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا

دلالةُ التّعبير بالمَصدر:

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (ولو يُؤاخِذُ اللّهُ النّاسَ بما ظَلَموا)، بل عَبَّرَ بالمَصدر دونَ الفعل: ﴿بِظُلۡمِهِم﴾؛ للدّلالة على أنّ المُرادَ بالظُّلم ما استَقَرّ أثَرُه، وتَعَدَّى شَرُّه، ودامَ قُبحُه، ولذا جاء بالمَصدَرِ الدّالِّ على الحَدَث، ولم يأتِ بالفعل لعدم قَصدِ الحُدوث؛ للدّلالة على أنّه ليس الظّلمَ الطّارِئَ الّذي قد يَزولُ بالانقطاع عنه، أو بالتّوبة منه، بل هو الظُّلم الدّائِم الّذي يُصاحِبُه الإصرارُ، فليس عن سَهوٍ أو نِسيانٍ.

استقرارُ صفةِ الظُّلمِ فيهم، وتَعَدّي أثره إلى الغير

دلالةُ التّعبيرِ بالتّرك دونَ الإبقاء:

عَبَّرَ القرآنُ الكريم بالتّرك في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾ دونَ الإبقاء، فلم يقُلْ: (ما أبقى عليها)؛ لأنّ الإبقاءَ لا يدُلُّ على مُطلَقِ الإهلاكِ، بخلافِ التّرك، لأنّ التّرك فهو تَخلِيةُ الشّيءِ بالكلّيّة بقطعِه عنِ الأسباب المُتعلِّقةِ به، فالتّركُ هنا: تَخليتُهم عن أسباب الوجودِ، بقَطعِهمُ التّامِّ عن أسباب الحياة، وتحويلِهم عنها بالإفناء والإهلاك، وأمّا التّعبيرُ بنفي الإبقاء فلا يَلزَمُ عنه التّخليَةُ الكُلّيّةُ؛ لأنّ البقاءَ هو الثّباتُ على الحالة الأصليّةِ الأولَى، فقد يعتريهم تغيُّرُ هذه الحالة من غير إهلاكٍ؛ أي: ما أبقى عليها مِن دابّةٍ سليمةٍ أو صالحةٍ، ولو مِن غير إزالةٍ واستئصالٍ،

نفيُ التّركِ يدُلُّ على الاجتثاث التّامِّ والاستئصالِ المُبِير

ولذا كان نفيُ التّركِ أبلغَ في الدّلالة على الاجتثاثِ التّامِّ، والاستئصالِ المُبير[1].

دلالةُ الضّميرِ في قوله ﴿عَلَيۡهَا﴾:

الأرضُ مَحلُّ ظُلمِ الظّالمين وعليها يَدبّون

الضّميرُ في ﴿عَلَيۡهَا﴾ عائدٌ على الأرض، ولم يسبِقْ ذِكرٌ لمُفَسِّر الضّمير؛ لوُضوحِه ولتَوافُر القرينةِ عليه، بقوله: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾؛ لأنّ الدّبيبَ لا يكونُ إلّا على الأرض[2].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿عَلَيۡهَا﴾ دون (فيها):

الدّلالةُ على أنّ الخِطابَ للأحياء دونَ الأموات

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (ما ترك فيها)، بل قال: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾؛ لكون الدَّبِّ الّذي هو حركةُ الخَلْقِ وكلِّ دابَّةٍ يكون على الأرض لا فيها، فهم مُستَعلون عليها يَدبّون ويَتحرّكون بالحياة، وليسوا مَظروفينَ فيها، فدَلَّ ذلك على أنّه يَقصِدُ الأحياءَ دونَ الأمواتِ؛ لأنّ الخطابَ للأحياء الّذين هُم عليها، لا للأمواتِ الّذين هُم فيها، وأيضًا لأنّ ﴿عَلَيۡهَا﴾ تدُلُّ على ما هو ظاهِرٌ مِنَ الأرض، فيكون إهلاكُهُ ظاهِرًا، والعِبرةُ منه بائِنةً وظاهرةً، وأمّا ما يتحرَّكُ ويحيا مِنَ المخلوقاتِ في الأرض وداخلَها فلا ظُهورَ له، ولا مَعرفةَ به، فإهلاكُه غيرُ مُؤَثِّرٍ في العِبرة والتَّهديد، ولذا لم يقُلْ: (فيها).

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾:

استغراقُ جميعِ أفرادِ الجنس

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ صلةٌ، زِيدَت للتّأكيد واستغراقِ أفرادِ الجنس؛ أي: ما تَركَ عليها مِن كُلِّ دابّةٍ، فيدخُلُ فيه الظّالمون وغيرُ الظّالمين، حتّى الدّوابُّ الّتي لا حسابَ عليها، "أمّا الظّالمُ فبظُلمِه، وأمّا غيرُه فبشُؤم ذلك"[3]، فالظّالمُ أخذَهُ عقوبةً، وغيرُ الظّالم أخذَه لانتهاء أجَلِه، وأمّا وجهُ دخولِه في الإهلاك ولو لم يكُنْ عذابًا له،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بقي - ترك)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بقو، بقى - ترك).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 550.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 409.

لاختلاطه بالظّالم في أرضِه الّتي حَلَّ بها العذابُ، فلا تتأتّى تنجيتُه، وهو مُخالِطٌ غيرُ مُنفصِلٍ، ذلك "أنّ إهلاكَ الظّالمين لا يَحصُلُ إلّا بحوادثَ عظيمةٍ لا تَتحدَّدُ بمساحة ديارِهم؛ لأنّ أسبابَ الإهلاكِ لا تَتَحَدَّدُ في عادةِ نِظامِ هذا العالَم، فلذلك يَتناوَلُ الإهلاكُ النّاسَ غيرَ الظّالمين، ويَتناوَلُ دَوابَّهم"[1]، ويصِحُّ أن تكونَ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ لاستغراق أفرادِ النّوعِ، بقرينة ﴿بِظُلۡمِهِم﴾؛ أي: النّوع الظّالم فقط دونَ غيرِه، ويكونُ المعنى: مِنْ كلِّ دابّةٍ ظالِمَةٍ[2].

سِرُّ التّعبير بـ ﴿دَآبَّةٍ﴾ دونَ غيرها:

عـذابُ اللهِ لا يُبقي ولا يَذر

التّعبيرُ بلفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾ دونَ غيرها في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ ليشملَ كُلَّ مُتحرِّكٍ يدُبُّ، لتناسُبِ ذلك مع الإهلاك العامِّ المفهوم مِنَ الآية؛ أي: لا يترك عليها شيئًا يتحرَّكُ ويدُبُّ، فهو إشارةٌ إلى الهُمود والخُمود الّذي يحصُلُ مِنَ العقوبة، الّتي تُزيلُ الحركةَ والسّيرَ بالكلّيّة.

سِرُّ التّعبير بالإفراد ﴿دَآبَّةٍ﴾ دونَ الجمع:

الإفرادُ مع إرادة الجمع للدّلالة على أنّ كلَّ فردٍ مَقصودٌ في الحُكم

جاء التّعبيرُ بالمُفرد في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، مع أنّ المُرادَ (الجمع)؛ للدّلالة على أنّ كُلَّ فردٍ مِنَ الدّوابِّ مَقصودٌ بالحُكم.

دلالةُ انتفاءِ شرط (لو) وجوابها:

شَرطُ (لو) وهو قولُه: ﴿يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ غيرُ حاصلٍ، بدليل انتفاءِ الجواب، وهو قولُه: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾، ودليلُ انتفاءِ جوابها الوقوعُ الحسّيُّ بالمُشاهَدة، فإنّ النّاسَ ما زالوا مَوجودين مَتروكين[3].

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿يُؤَخِّرُهُمۡ﴾ دونَ (يمهلهم):

الإمهالُ يكونُ مِن إشفاقٍ أو إعراضٍ

التّعبيرُ بالتّأخير دونَ الإمهال في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 189.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 305.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 188.

﴿أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾؛ لأنّه ليس كلُّ إمهالٍ تأخيرًا، وليس لازمًا اشتمالُ التّأخير على إمهالٍ؛ لأنّ الإمهالَ تُؤَدَةٌ وتريُّثٌ، وقد تتأنّى مِن غير قَصد التّأخير، وقد تُؤخِّرُ وأنتَ لا تنوي حِلْمًا ولا تُؤَدَةً، فلمّا كان السّياقُ سياقَ تهديدٍ ووعيدٍ، لم يناسبِ التّعبيرُ بالإمهال المُتضَمّنِ لمعنى الإشفاقِ والتُّؤَدَةِ، ولمّا كان الغرضُ الإخبارَ بأنّ الظّالمَ لا يُفلَتُ مِنَ المُؤاخذة، بل هو تأخيرٌ موقوتٌ بحضور الأجل[1]؛ عَبَّرَ بالتّأخير في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾ دون اللّام:

الإفساحُ في المُهْلة حتّى نهايةِ غايتِها

التّعبيرُ بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ أفادَ معنى الإفساحِ في المُهلة حتّى نهايةِ غايتها وتمامِ توقيتِها، بحصول الأجل المُسمَّى لكُلِّ حَيٍّ، و﴿إِلَىٰٓ﴾ نصَّ على انتهاء الغاية للمُدركين لها والمُدرِكَةِ لهم بحضور زمنها، ولم يقُلْ: (لأجلٍ مُسمًّى) لمناسبة لفظ (التّأخير) الّذي يقتضي غايةً هم بالِغوها، ولمناسبة لفظِ (التّرك) في: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾؛ لأنّه لا يتركُهُم وهم ظالمون من غير أن يَردَّهُم إلى غايةٍ لا ترْكَ بعدَ بلوغِها، فاقتضى النّصَّ على الغاية، فعَبَّرَ بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾ دون (اللّام).

نُكتَةُ تنكيرِ الأجل:

الأجَلُ عند الله مَعلومٌ، وعند البشر مجهولٌ

تنكيرُ لفظِ الأجلِ في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ على بابه مِن إفادة معنى الإبهامِ؛ أي: أجلٍ مَنكُرٍ غيرِ معلوم، ووَصفُهُ بـ ﴿مُّسَمّٗىۖ﴾ لم يرفعْ إبهامَه عند السّامع، بل أفادَ أنّه غيرُ مُبهَمٍ في نفسه، فإبهامُه حاصِلٌ من جهة السّامع، مُعلومٌ وظاهرٌ في جهتِه العليا عند اللّه، وهو يفيدُ أنّ إبهامَه مَقصودٌ مُرادٌ لِحكمَةٍ، إذ هو من صَفَحاتِ الغيبِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أخر - مهل).

دلالةُ التّعبيرِ بالأجل دون غيره:

إذا حضرتِ الآجالُ أُغلِقتْ صفحةُ الأعمال

التّعبيرُ بالأجل دونَ المُدّة أو الوقت، في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾؛ للدّلالةِ على آخِرِ الوقت، فالأجلُ هو غايةُ الوقتِ ونقطةُ النّهايةِ الّتي ينقضي عندَها، والمُدّةُ هي مَدٌّ ما بين النُّقطتين أوّلِ الزّمن وآخِرِه، والوقتُ هو جميعُ ذلك، لأنّه نفسُ الزّمن، والمرادُ تحديدُ ذلك فيه[1].

دلالةُ وصفِ الأجلِ بقوله: ﴿مُّسَمّٗىۖ﴾ دون (معلوم):

قد يكونُ الشّيءُ مَعلومًا من غير تسميَةٍ

في السّياق الكريم وصَفَ الأجلَ بأنّه ﴿مُّسَمّٗىۖ﴾، ولم يصفْه بأنّه (معلوم)؛ لأنّ ﴿مُّسَمّٗىۖ﴾ أفادَت معنًى زائدًا على (معلوم)، وهو التّعيينُ والتّحديدُ[2]، فهو معلومٌ على جهة تحديدِه وتقييدِه بصاحبه الخاصِّ به، فكأنّ صاحبَ الأجلِ سُمِّيَ بأجلِه الخاصِّ به، فلِكُلٍّ عمُرُه، ولِكلٍّ مِقدارُه مِنَ الجزاء الّذي ينالُه؛ أي: حُدِّدَ له أجلُه، كما حُدِّدَ له اسمُه.

دلالةُ الفاءِ في قوله ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾:

تأخيرُ الظّالمين إلى ساعة أجلِهم

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ فصيحةٌ، أفصحَت عن معنى سببيّة مُقدَّرٍ؛ أي: فسبب ذلك مِن تأخير مُؤاخذتِهم إلى ساعةِ أجلِهم، إذا جاء أجلُهُم لا يَستأخرونَ ساعةً ولا يَستقدمون.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَإِذَا﴾:

أجلُ اللهِ آتٍ لا محالةَ

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ ﴿فَإِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق مَجيءِ الأجلِ، وأنّه أمرٌ قَدَّرَه اللّهُ في اللّوح المَحفوظ، ولا دخلَ للعبد في تحديدِه؛ بل المطلوب منه العملُ فيه.

سِرُّ التّعبيرِ بالمَجيء دونَ الإتيان:

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالمَجيء في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ دون

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مدد).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 191.

الإتيان؛ لأنّ المَجيءَ يُصوّرُ حالةَ الظّالم عند مَجيءِ أجلِه، وما يكتنفُ ذلك مِن شِدّةٍ في انقضاء أجلِه، بسبب ظُلمِه معَ اللّه، وظُلمِه مع النّاس.

دلالةُ السّين والتّاء في الفعل:

إذا جاءَ الأجلُ فلن يُؤخَّرَ الظّالِمُ ولو طلب

أوثِرَ التّعبيرُ بقوله: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ دون (لا يتأخّرون)؛ لأنّ السّينَ والتّاءَ تدلُّ على الطّلب، وهم لن يُؤَخَّروا ولو طلبوا ذلك التّأخير، ومثلُ ذلك يصدقُ على قوله: ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

دلالةُ النّفي في قوله: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾:

إثباتُ المؤكَّد إذا نُفِيَ دَلَّ على قوّة النّفي

دلَّ النّفيُ بـ ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ و﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ على التّأكيد للوقتِ المُحدَّدِ لهم؛ لأنّ إثباتَ المُؤكّدِ إذا نُفِيَ دلَّ على قوّة النّفي.

سِرُّ تقديمِ نفي التّأخُّر على نفي التّقدُّم:

الكفّارُ يطمعون بطول الآجال ويكرهون الموت

قَدَّمَ نفيَ التّأخُّرِ: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ على نفي التّقدُّم: ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾؛ لتوبيخ الكفّارِ؛ لأنّهم يطمعون أن تطولَ آجالُهم فيُعَمّروا في الدّنيا، ولا يَطمعون في تقدُّمِ الأجلِ؛ لأنّهم يكرهون الموتَ، وفيه دلالةٌ على أنّ التّعبيرَ في قوله: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ تهديدٌ للكفّار، بخلاف قوله: ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾، فإنّها جاءَت في مَوضِعها للدّلالة على أنّ الآجالَ كلَّها بيده سبحانَه.

دلالةُ الجمعِ بين قوله: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ و﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾:

الأجلُ إذا جاء لا يُؤخَّرُ ولا يُقَدَّمُ

دلَّ الجمعُ بينهما على أنّ أمرَ الأجلِ في التَّقدُّم والتَّأخُّرِ على حَدٍّ سواء، فكما أنّ التَّقدُّمَ مُستحيلٌ، فكذلك التّأخير.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الظُّلمُ والعُدوانُ:

الظّلمُ أعمُّ والاعتداءُ أخَصُّ

يُفَرَّقُ بينَ الظُّلم والعُدوان مِن ناحية اللّغةِ ومِنَ ناحية السّياقِ؛ فمن ناحية اللّغةِ:

أصلُ الظّلم: وضعُ الشّيءِ في غير مَوضِعِه المُختَصّ به، إمّا بنقصانٍ، وإمّا بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقتِه أو مكانِه.

وأصلُ الاعتداء: يدُلُّ على تجاوزٍ في الشّيءِ، وتَقَدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتَصَرَ عليه.

ومِنَ الفُروق بينهما: أنّ الظّلمَ ما كان بغير حَقٍّ بالكلّيّة، كأخْذ مالٍ بغير استحقاقٍ لشيءٍ منه، وقتلِ نفسٍ لا يَحِلُّ قتلُها، وأمّا العُدوان فهو مجاوزةُ الحدودِ وتعدّيها فيما أصلُه مباحٌ، مِثْلُ أن يكونَ له على أحدٍ حَقٌّ من مالٍ أو دَمٍ أو عِرضٍ، فيستوفي أكثرَ مِمّا له، فهذا هو العُدوان، وهو تجاوزُ ما يجوزُ أخذُه.

والقرآنُ صريحٌ في أنّ الاعتداءَ هو تجاوزُ الحدِّ فيما له أصلٌ صحيحٌ، ولذلك قال هاهنا: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾؛ ولم يقُلْ: (باعتدائهم)؛ لأنّ ظُلمَهم بالشّرك، وبكبائرِ المعاصي، وبإفسادِهم في الأرض، لا أصلَ له صحيحٌ ألبتّة، ولا مُسوّغَ له في شَرعٍ ولا دِينٍ ولا عَقلٍ صحيح.

والخلاصةُ: أنّ الظُّلمَ أعمُّ والاعتداءَ أخَصُّ، والأوّل محظورٌ ليس فيه حَقٌّ، والثّاني: يعني تخطّي الحَقّ إلى ما ليس حقًّا[1].

المتّشابِهُ اللّفظيُّ:

تشابهَت هذه الآيةُ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ مع قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ [فاطر: 45]؛ فالملاحظُ أنّ آيةَ سورةِ النّحل - مَحَلّ البحثِ - جاء فيها قولُه: ﴿بِظُلۡمِهِم﴾، و﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾، وفي سورة فاطر: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ [فاطر: 45]، ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ [فاطر: 45]، ووجهُ ذلك الاختلافِ أنّ آيةَ النّحل تَقَدَّمَها قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾؛ فهي حديثٌ عن وأْدِهم للبنات، وهو ظُلمٌ شنيعٌ؛ لأنّ المَوْءودةَ قُتِلَت بغير جريمةٍ ولا شُبهةٍ يتعلّقُ بها قاتلُها؛ لذلك ناسبَ ذِكرُ الظُّلم في مَوضِعِ النّحل؛ بخلاف مَوضِعِ فاطر، فلم يتقدَّم فيه إفصاحٌ بذِكر الظُّلم؛ بل تقدَّمَه قولُه تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]؛

---

(1) ابن رجب، تفسير ابن رجب: 1/ 323، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ظلم)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عدو).

فأشار في هذه الآية إلى سيّئِ اكتسابِهم ومَكرِهم؛ فناسبَ ذلك قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ [فاطر: 45]، وقِيلَ: لأنّ ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ [فاطر: 45] يَعُمُّ الظُّلمَ وغيرَه.

وقِيلَ: إنّ آيةَ النّحلِ جاءَت بعد حديثِ القُرآن عن أوصاف الكفّارِ في اتّخاذِهم إلَهَين اثنين، وكفرِهم وشركهم في عبادة اللّه سبحانَه، وجعلِهم للأصنام نصيبًا مِن مالهم، ووأدِ البناتِ، وكلُّ ذلك ظُلمٌ منهم؛ فناسبَ قولُه: ﴿بِظُلۡمِهِم﴾، ولم يتقدَّم مثلُ ذلك في سورة فاطر، وأمّا اختلافُ التّعبيرِ في قوله: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾ في النّحل، وفي فاطر: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ [فاطر: 45]، فهو مِن باب التّفنُّنِ في الأسلوب[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 300.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢﴾ [النّحل: 62]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِن حقوق المتّهمِ بيانُ الحَيثيّةِ الّتي انبنى عليها الحُكمُ عليه

لمّا ذَكَرتِ الآياتُ السّابقةُ بعضَ مخازي الكفّار وقبائح أعمالِهم، مِنَ الكُفر والشّرك ووَأْدِ البنات؛ جاءَت هذه الآيةُ لتُكمِلَ بعضَ مخازي الكفّار وجرائِمِهم بحَقّ اللّهِ ﷻ، مِن جَعْلِهم ما يكرهون مِنَ البناتِ للّه ﷻ، ويفترون بألسنتهم الكذبَ بأنّ لهم في الآخرة العاقبةَ الحُسنى.

ومنها: لمّا ذُكِرَ في الآيتين السّابقتين الحُكمُ العامُّ عليهم بأنّ لهم مَثَلَ السَّوء، وأنّ المُؤاخذةَ على ذلك غيرُ ناجزَة على الفور، فصَّلَ هنا في هذه الآية الحيثيّاتِ الّتي انبنى عليها هذا الحُكمُ، وأخبرَ بمآلِهم في المُؤاخَذة والعقاب إذا بلغوا أجلَهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡرَهُونَۚ﴾: (كره): كلمةٌ تدُلُّ على خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّة، يُقالُ: كَرِهتُ الشَّيءَ أكرَهُهُ كرهًا، والكُرهُ الاسمُ، والكرَهُ: أنْ تُكَلَّفَ الشَّيءَ فتَعمَلَهُ كارهًا[1]، والكَراهَةُ مِنَ الكُرْهِ أوِ الكَرْهِ، وهو المَشَقَّةُ والشِّدَّةُ، يُقالُ: قُمتُ على كُرهٍ؛ أي: على مَشقَّةٍ[2]، ومنه سُمِّيَت الحَربُ كَرِيهَةً[3]، والمَكارِهُ: الشَّدائِدُ، والمَكروهُ: ما يَكرَهُهُ الإنسانُ ويَشُقُّ عليه[4]، ومنه سُمِّيَ ما نَفَّرَ عنه الشَّرعُ والطَّبعُ مَكروهًا؛ لأنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كره).
(4) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (كره).

الطَّبعَ والشَّرعَ لا يُنَفِّرانِ إلّا عَن شِدَّةٍ ومَشَقَّةٍ تَلحَقُ بالمُكَلَّفِ[1]، والمقصودُ بالكَراهة في الآية: الكَراهِيَةُ ونُفرَةُ الطَّبعِ مِنَ الشَّيءِ، والمُرادُ: نِسبَةُ أخَسِّ أصنافِ الأبناءِ في نَظَرِهِم إلى اللّه تعالى[2].

2) ﴿وَتَصِفُ﴾: (وصف): أصلٌ يدلُّ على تَحليَةِ الشَّيءِ، ووَصَفتُهُ أصِفُهُ وصفًا؛ أي: حَلَّيتُهُ، والصِّفةُ: الحِليَةُ، والصِّفَةُ: الأمارَةُ اللّازِمَةُ للشَّيءِ، كما يُقالُ وَزَنتُهُ وزنًا، والزِّنَةُ: قَدرُ الشَّيءِ. يُقالُ: اتَّصَفَ الشَّيءُ في عَينِ النّاظِرِ، احتَمَلَ أن يوصَفَ[3]، والوَصفُ أيضًا: النَّعتُ، يُقالُ: وصَفَ الشَّيءَ يَصِفُهُ وصفًا وصِفَةً، إذا نعَتَهُ بما فيه، والجمعُ: أوصافٌ، ويأتي الوَصفُ بمعنى: الحالَةِ والهيئةِ الَّتي يكونُ عليها الشَّيءُ، كالجمال واللَّون، مِن قَولِهِم: وصَفَ الثَّوبُ الجِسمَ؛ أي: أظهَرَ هيئتَه وبيَّنَهُ[4]، والمقصودُ بـ ﴿وَتَصِفُ﴾ في الآية: تَذكُرُ بشَرحٍ وبيانٍ وتَفصيلٍ، حتَّى كأنَّها تَذكُرُ أوصافَ الشَّيءِ[5].

3) ﴿لَا جَرَمَ﴾: (جرم): مِنَ الجَرم، وهو: القَطعُ[6]، وقيل أصلُه: الكَسبُ، وفُلانٌ جَريمَةُ أهلِهِ؛ أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمِّيَ الذَّنبُ جُرمًا؛ لأنَّه كَسبٌ لِصاحِبِهِ[7]، والإجرامُ: ارتِكابُ الجُرمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ[8]، يُقالُ: أجرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارتَكَبَ ذَنبًا أو جَنَى جِنايَةً[9]، والجارِمُ: الجاني، والمُجرِمُ: المُذنِبُ[10]، وأمّا قَولهم: ﴿لَا جَرَمَ﴾، فإنَّ الفَرّاءَ زَعَمَ أنَّها كلمةٌ كانت في الأصل بمَنزِلَة (لا بُدَّ) و(لا مَحالَةَ)، فكَثُرَ استِعمالُها حتَّى صارَت بمَنزِلَة حَقًّا، ألا تَرى العربَ تقولُ: "لا جَرَمَ لآتِيَنَّكَ"، "لا جَرَمَ لقد أحسَنتَ"، فتراها بمنزلَةِ اليَمين، وكذلكَ فسَّرَها المُفَسِّرونَ: حَقًّا إنَّهُم في الآخِرَة هُمُ الأخسرون[11]، وعليه يكون (جَرَمَ)

(1) عبد الكريم النّملة، المُهذَّب في علم أصول الفقه المقارن: 1/ 283.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 191.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، والزبيدي، تاج العروس: (وصف).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 192.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 210.
(9) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (جرم).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).

اسمًا بمعنى: مَحالَةَ؛ أي: لا مَحالَةَ، أو بمعنى: لا بُدَّ؛ أي: لا شكّ؛ أي: حَقًّا[1]، وهو المُراد هنا في الآية.

4) ﴿مُّفْرَطُونَ﴾: (فرط): أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إزالَةِ شيءٍ من مَكانِهِ وتَنحِيَتِه عنهُ، يُقالُ: فرَّطتُ عنه ما كرِهَهُ؛ أي: نَحَّيتُهُ، والفَرَطُ والفارِطُ: الـمُتَقَدِّمُ في طَلَبِ الماءِ[2]، وتَكلَّمَ فُلانٌ فِراطًا، إذا سَبَقَتْ منهُ بَوادِرُ الكلامِ، ومِن هذا الكَلِمِ: أفرَطَ في الأمرِ: عَجَّلَ، وأفرَطَتِ السَّحابَةُ بالوَسمِيِّ: عَجَّلَت بِهِ، وأفرَطتُ القَومَ، إذا تَقَدَّمتَهُم وتَرَكتَهُم وراءَكَ[3]، ومُفرِطونَ - بكسرِ الرّاءِ الـمُخَفَّفَةِ - في قِراءَةِ نافِعٍ: اسمُ فاعِلٍ مِن أفرَطَ، إذا بَلَغَ غايَةَ شيءٍ ما؛ أي: مُفرِطونَ في الأخذِ مِن عذابِ النّارِ، وقِراءَةُ أبو جَعفَرٍ - بكَسرِ الرّاءِ مُشَدَّدَةً - من (فَرَّطَ) الـمُضاعَفِ، وقِراءَةُ البَقِيَّةِ - بفَتحِ الرّاءِ مُخَفَّفَةً - على زِنَةِ اسمِ الـمَفعولِ؛ أي: مَجعولونَ فرَطًا - بفَتحَتَينِ - وهو الـمُقَدَّمُ إلى الماءِ لِيَسقِيَ[4]، والـمُرادُ: "أنَّهُم سابِقونَ إلى النّارِ مُعَجّلونَ إليها؛ لأنَّهم أشَدُّ أهلِ النّارِ استِحقاقًا لَها"[5].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الإخبارُ عن بعضِ قبائحِ المُشركين

يخبرُ اللهُ سبحانَه في هذه الآيةِ عن إحدَى رذائلِ المشركينَ، وهي أنَّهم يَنسبون لله البَناتِ اللّاتي يَكرَهونَهُنَّ لأنفُسِهم، ويَعُدّونَ نِسبَتَهنَّ إلى أحَدِهم نقصًا وعيبًا، ويَجعَلونَ له شُرَكاءَ مِن عَبيدِه في عبادتِه، وهم يَكرهونَ أن يكونَ عبيدُهم شُرَكاءَ لهم في أموالِهم، ويَكذِبُ المُشرِكونَ بألسِنَتِهم فيَزعُمونَ أنَّ لهم الجَزاءَ الحسَنَ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ، ويُكَذِّبُهمُ اللهُ تعالى على زعمِهم هذا، مُتوعِّدًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 36، و14/ 193.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (فرط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرط).
(4) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 81، وابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 212.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 193.

لهم بقولِه: حقًّا أنَّ لهم النّارَ، وأنَّهم مُعجَّلون إليها، مَتروكونَ، مَنسيّونَ فيها[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾:

بئسَ للظّالمين بدلًا أن يجعلوا لله ما يَكرهون، ولأنفسِهم ما يشتهون

جملةُ: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ استئنافيّةٌ[2]؛ انتقالًا لبيان العُموم الّذي في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾، فمَثَّلَ لحالِهم العجيبةِ في السّوء بأنّهم يجعلونَ للّه ما يكرهون، وهو تمثيلٌ للوصف العامِّ: ﴿ٱلسَّوۡءِۖ﴾ بالفعل العامِّ: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾، ويصِحُّ أن يكونَ معطوفًا على: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا﴾، وقولِه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ استتمامًا لخصال جَعلِهمُ المذمومةَ، وهو من باب عطف العامِّ على الخاصِّ، لأنّ قولَه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ عامٌّ، وقولَه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وقولَه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ خاصٌّ، والتّعقيبُ بالجَعْل العامِّ فيه اتّصالٌ بالمقابلة معَ الجَعلَين السّابقين.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرور على مُتعلَّقِه:

اللهُ أولى وأحقُّ بجميع الكمالات

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (ويجعلون ما يكرهون للّه)، بل جاء النَّظمُ القرآنيُّ بتقديم الجارِّ والمجرورِ: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾؛ مُبالغةً في إنكارِ ما يزعمونه مِنَ الجَعل، فتقديمُ الجارِّ والمَجرورِ يدلُّ على أنّ الإنكارَ مُتَّجِهٌ لأصل الجَعْلِ قبلَ فروعِه مِن أنواع الافتراءِ المُتباينة؛ ليتّجِهَ الإنكارُ إلى مُجرَّدِ نسبةِ الذّرّيَّة إلى اللّه أيًّا كان نوعُها، مِنَ البنين أو البنات؛ لأنّ بشاعةَ نسبةِ الذّرّيّة للّه تَكمُنُ في مُجرَّدِ النّسبة، ولا تكمنُ في كونِها بناتٍ؛ فلو قيلَ في غير

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 263، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 121، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 580، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 395.

(2) صافي، الجدول: 14/ 343.

القرآن: (ويَجعلون ما يَكرهون للّه)، لاتّجهَ الإنكارُ إلى كون المنسوبِ إلى اللّه هو البنات المكروهات مِن جِهتهم.

دلالةُ التّعريف بجملة الصّلة:

إساءَةُ المُشركين إلى الله سبحانه كـانَت علنيّةً مُشتَهِرةً

تعريفُ مفعولِ الجَعل بجملة الصِّلة في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ المفعولَ المذكورَ مِنَ الموصول وصِلتِه، وهي الأمورُ المكروهةُ الّتي جعلوها للّه، مُشتهِرةٌ معلومةٌ في أوساط المُخاطَبين والسّامعين.

دلالةُ الموصولِ في ﴿مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾:

إرادةُ العمومِ

دلَّ الموصولُ المُشترَكُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ على العُموم، ومعنى العُموم: جميعُ الأحوالِ والخصالِ الّتي يكرهون أن تَحصُلَ لهم، فنسبوها - مِن فجورِهم - إلى اللّه، كالبناتِ والشّركاءِ في الرّياسة، والاستخفافِ بالرُّسُلِ وأراذلِ الأموالِ[1].

سِرُّ التّعبير بالكراهةِ دونَ البغض في قوله ﴿مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾:

تَمرُّدُ أهلِ الكفر على الله بأدنى مُلابسةٍ وبكلّ سبيلٍ

وإنّما عَبَّرَ هنا بالكراهة دونَ البُغض في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾؛ لأنّهم ينسبونَ إلى اللّه النّقصَ - والعياذ باللّه - أيًّا كان، حتّى ولو لم يصلْ إلى درجةِ البُغضِ عندَهم، فينسبون له ما دونَ ذلك ممّا يَكرهونه، ولو لم يكونوا نافرين منه، وهذا فيه إشارةٌ إلى تمرُّدِهم على اللّه بأدنى مُلابسةٍ وبكلِّ سبيلٍ.

دلالةُ الواو في قوله ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ﴾:

لا تُخطِئُ الجوارحُ حتّى يُخطِئَ اللّسانُ

جملة: ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾، وهو مِن باب عَطفِ قصّةٍ على قِصّة، وحالٍ على حالٍ، في أطوار كفرِهم وصورِه[2].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 231.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 192.

بلاغةُ الكناية في التّعبير بالوصف دونَ القول:

الكـذبُ شعبةٌ مِنَ الكُفْر

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (وتقول ألسنتُهم الكذبَ)، بل عَبَّرَ بمادّة الوصف: ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾؛ لتصوير عراقتِهم في احتراف الكذبِ، وضلوعِهم في نَسجِه وبنائِه، فهُم لا يقولون الكذبَ، بل يَفعلون فيه فِعلَ الواصِف للشّيء، المُدَقِّق في مَقاديره، المُتتبِّع لوجوهِه.

فالتّعبيرُ بالوصف كنايةٌ عن إتقانِهم للكَذب، وإيقاعِهم له مُرتَّبًا مُحكَمًا، وهو إشارةٌ إلى انطلاء كَذِبِهم على النّاس، بحيثُ يستغفلونَهم فلا يُراجَعون فيما كَذِبوا، أو يُنْكَرُ عليهم، وفيه إشارةٌ إلى إضلالِهمُ النّاسَ بهذا التّفَنُّنِ في الكذب، الّذي يقعُ منهُم مَوقِعَ الواصفِ له، لا القائلِ به.

بلاغةُ إسنادِ الكَذبِ إلى ألسنتِهم:

اللّسانُ في الإنسان أمارةُ الصّحّةِ والاقتدارِ على القول والبيان

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (ويصفون الكذب) بل أسندَ الوصفَ إلى ألسنتِهم؛ مُبالغةً في تحقيرِهم وتوبيخِهم، واستهجانِ مَزاعمِهم، ذلك أنّ إسنادَ الكذبِ إلى ألسنتِهم يُصَوِّرُ للسّامع هيئَتهم حالَ نُطقِهم بالباطل، حتّى كأنّه يرى ألسنتَهم، وهي تَلوك البُهتانَ، وتَمُجُّ البُطلان.

ولا يخفى ما في ذلك مِنَ التّسجيل الدّقيقِ عليهم، المُؤذِن بحسابهم، وإحصاء ذلك عليهم، بإحصاءِ حركاتِ ألسنتِهم وهي تتفوَّهُ بالكَذِب، ففي ذِكر الألسنةِ إيماءٌ إلى الوعيد الشّديدِ الّذي ينتظرُهُم، وأيضًا في ذِكر الألسنةِ تسجيلٌ لفجورِهم العجيبِ وطغيانِهم الغريبِ، ذلك أنّ اللّسانَ في الإنسان أمارةُ الصّحّةِ والكمالِ، والاقتدارِ على القول والبيان.

بلاغةُ الاستعارة:

مِـن إتقانِهم للكذب وصفوه وتَفنَّنوا فيه

في قوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ استعارةٌ مكنيّةٌ، حُذِفَ منها المُشَبَّهُ به، حيثُ شَبَّهَ ألسنَتَهُم في اعتيادها الكذبَ بشخصٍ عالِمٍ بحقيقة الكذبِ ودقائقِه، فهو يَصِفُه أبيَنَ وصفٍ،

ويُعَرِّفُه أبلغَ تعريفٍ، كما يُقالُ: (وجهُهُ يَصِفُ الجمالَ، وعينُهُ تَصِفُ السّحرَ)، وهو مِن فصيح الكلامِ وبليغه[1].

بلاغةُ المَجازِ العقليِّ:

اللّسانُ مُتَرجِمٌ عن إرادة العقلِ والقلبِ

في إسناد وصفِ الكذبِ إلى ألسنتِهم في قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ مَجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ ذواتَهم هي الّتي تكذِبُ وتَصِفُ الكذبَ، وليس الكذبُ يجري على الألسنة مِن تِلقاءِ نفسِها، بل بتطويعِهم لها، فما الألسنُ إلّا آلاتٌ تنفعِلُ لإرادةِ أنفسِهم.

دلالةُ (ال) في قوله ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾:

استـغـراقُ كلِّ أنواعِ الكذب

(ال) في قوله: ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ لاستغراق أفرادِ النّوعِ، وهو كلُّ كَذبٍ يتعلَّقُ بأمور الاعتقادِ والتّشريعِ والغيبِ، أو (ال) في ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ للعهد، باعتبار جملةِ تفسيرِ الكذبِ بعدَه في قولهم: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾، والحمل على العُموم أولى؛ لأنّ جملةَ ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ تُعَبِّرُ عن كَذِبهم في الغيب والاعتقاد بالجملة، وهي بابٌ مِن أبواب كَذِبهم، وليس كلَّ كَذِبِهم.

المَوقِعُ النّحويُّ لجملة ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾:

مِن أقبح الكذبِ الرَّجْمُ بالغيبِ فيما لا يَملِكُ تعيينَه إلّا الله

جملةُ: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ مُفَسِّرةٌ لمضمونه، وهي بدلُ كلٍّ من كلٍّ، ويَصِحُّ أن تكونَ في مَحلّ نصبٍ أو جَرٍّ على نزع الخافض؛ أي: (بأنّ لهم الحسنى)[2]، أو ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ جملةٌ تفسيريّةٌ مسبوقةٌ بما يشتملُ على معنى القولِ دونَ حروفه، وهو قولُه: ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ فهذا في معنى القول؛ أي: تقولُ كذبًا: كذا وكذا.

دلالةُ تقديم ﴿لَهُمُ﴾:

المُـشـركـون فـاجـرونَ في قول الكَذبِ، لا يحتشمون فيه

قَدَّمَ الجارَّ والمَجرورَ في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾، ولم يقُلْ: (أنّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 641، وصافي، الجدول: 14/ 408.
(2) مكّيّ، مُشكلُ إعراب القرآن: 2/ 17، والعكبَريّ، التّبيان في إعراب القرآن، ص: 799.

الحُسنى لهم)؛ لبيان أنّهم مِن إفكِهم وفُجورِهم يَزعمون أنّ العاقبةَ الحُسنى مُختصَّةٌ بهم، خالصةٌ لهم مِن دون النّاس، فلإفادة معنى الاختصاصِ قَدَّمَ الجارَّ والمَجرور، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤﴾ [البقرة: 94]، فكأنّ المعنى هنا: أنّ لهم الحُسنَى خالصةً لهم.

نُكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓۚ﴾ على (الحسنة):

الكفّارُ غارقون في الغُرور والوَهم

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (أنّ لهم الحَسَنة)، بل قال: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰٓۚ﴾؛ للدّلالة على أنّهم غارقون في الغُرور والوَهم والغَطرسة؛ لأنّ (الحسنة) مُؤنَّثُ (الحسَن)، وأمّا ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓۚ﴾ فهي مُؤنَّثُ (الأحسن)، فهم لا يَدَّعون لأنفسِهم الحالَ والمآلَ الحسَنَ فقط، بل يدّعون الحالَ والمآلَ الأحسنَ، وهذا مِن تمام بُهتانِهم ورجمِهم بالغيب[1].

بلاغةُ أسلوبِ التّوكيد:

يَتَغطرسُ الكافرُ حين يَكذِبُ، فيَجزِمُ بكَذِبِه كما يَجزِمُ بالعِلم واليقين

جاءتِ الجملةُ المُتضمِّنةُ كذبَهُم مُصَدَّرةً بأسلوب التّوكيد: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰٓۚ﴾، وفي توكيد كذبِهم إشارةٌ إلى غطرسة الكافرِ حينَ يتحرَّى الكَذِبَ، فإنّه يسوقُهُ مَساقَ العِلم المُؤكَّد، وكأنّه حقيقةٌ وواقعٌ! ولا يخفى ما في التّوكيد هنا مِنَ التّناسب البديع، معَ التّعبير بوَصفِ الكذبِ في جملة: ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾؛ لأنّ وصفَ الكَذبِ كنايةٌ عن إتقانِهم له وتفنُّنِهم فيه، وإذا أتقنَ أحدٌ شيئًا وتَفَنَّنَ فيه، أكَّدَهُ إذا عَرَضَه أو تَحَدَّثَ عنه، وهذه نُكتةُ تَوكيدِ الجملةِ المُبَيِّنةِ لكذبِهم، في دعواهم الحُسنى لأنفسِهم.

بلاغةُ المُقابلةِ المَعنويّة:

الكافرُ جاهِلٌ بقَدرِ نفسِه، وجاهلٌ بقدرِ رَبِّه

بين قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ وقولِه: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰٓۚ﴾ مقابلةٌ مَعنويّةٌ بينَ حالَتين مَزعومَتين من أحوال كَذِبِهم، فقد جعلوا

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 178.

للّه ما يَكرهون مِن دُنيا المَنازلِ والأقاويلِ الباطلةِ، وجعلوا لأنفسِهم ما يُحبّون مِن أعلى المَنازل وأحسنِ العواقبِ، وهي الحُسنَى، وفيه مُقابلةٌ بديعةٌ.

مَوقِعُ جملةِ ﴿لَا جَرَمَ﴾ ممّا قبلَها:

النارُ جزاؤهم المحقَّقُ على كذبهم وافترائهم

جملة: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، بينَها وبين جملة: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ شِبهُ كمالِ اتّصال، ولذا فُصِلَتْ ولم توصَلْ بحرف وصل، كأنّها وقعَت جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ بعد قولِه: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، تقديره: فماذا كائنٌ لهم بعدَ دعواهم الحُسنى لأنفسِهم؟ فأُجيبَ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، أو جملة: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ استئنافيّة[1]، سِيقَتْ مَساقَ التّهديدِ والوعيدِ على مَضمون قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فهي مِن باب إتباعِ العملِ بالجزاء عليه.

بلاغةُ التّعبير بـ ﴿لَا جَرَمَ﴾:

ما بعدَها لا يقبلُ الاستئنافَ والنّقضَ في الأحكام

استُعمِلَ تركيبُ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ لتقرير مدخولها: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ على أتمّ وجهٍ، وأنّ ذلك أمرٌ مقطوعٌ به، مَحسومٌ لا مِريَةَ فيه، حتّى لا يتشكّكَ أحدٌ في عقوبتِهم على ادّعائهم الحُسنى، ذلكَ أنّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ معناه: لا انفصالَ ولا فكاكَ، فهو أسلوبٌ عربيٌّ ينفي المُفارقةَ والانقطاعَ، فأصلُ ﴿جَرَمَ﴾: القَطْعُ، فإذا قِيلَ: (لا جَرَم) فهو نفيُ القطعِ والانقطاعِ، وإثباتُ الشّيءِ بتمامِه وكلِّيَّته، ولذا فُسِّرَ تركيبُ ﴿لَا جَرَمَ﴾ بـ (لا مَحالةَ، ولا بُدَّ، ولا مَفرَّ)، وغيرِها مِنَ التّفسيرات الّتي تُفيدُ الثّبوتَ واللّزومَ، ومَن قال أنّ معنى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حَقًّا، فهو مِن تفسير الشّيءِ المَنفيّ بنظير معناه الموجب، فإنَّ نَفيَ الانقطاع والمُفارقة عنِ الشّيء يقتضي وقوعَه حقًّا ثابتًا، فـ (لا مَحالة من وقوع كذا)، يساوي (ثبوتَ وقوعِه وتحقيقِه)، وهذا معنى (حقًّا)؛

(1) صافي، الجدول: 14/ 343.

أي: حَقَّ أو ثَبتَ حقًّا، على أنّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ حينَئِذٍ مفعولٌ مُطلَقٌ لفعلٍ مَحذوفٍ، والمصدرُ المُؤوّلُ مِن جملة: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ فاعلٌ للمصدر المفهومِ مِن معنى: (لا جَرَم)؛ أي: (حقًّا)، وعلى معنى (لا محالةَ) فـ ﴿لَا﴾ نافية للجنس، و﴿جَرَمَ﴾ اسمُها، والمصدرُ المُؤوّلُ ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ خبرُها؛ أي: لا مَحالةَ كونُ النّارِ لهم[1].

دلالةُ تقديم ﴿لَهُمُ﴾ على النّار:

اختصاصُ النّار بالكافرين

تقديمُ الجارِّ والمَجرورِ في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ دالٌّ على اختصاص النّارِ بهم، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الجزاءَ مِن جنس العمل، حتّى في تركيب النّظمِ وظاهرِ لفظِه.

بلاغةُ تمامِ المُطابقةِ بينَ التّركيبين:

الجنّةُ مقامٌ حَسَنٌ، ووَعدٌ حَسَنٌ، واسمٌ حَسَنٌ

مِن بديع الطّباق بين: ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ و﴿ٱلنَّارَ﴾ استِتمامُ التّركيبين مَحَلّ المُطابقةِ البَديعةِ، بالتّطابقِ اللّفظيِّ في الحروف والأدوات، والتّقديم والتّأخير، فكأنّ كلَّ تركيبٍ منهما آخِذٌ بزمام صاحبه، فجملةُ: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ بدأت بالتّوكيد، وتوسَّطَت بتقديم الجارِّ والمَجرورِ لإفادةِ الاختصاص، وانتهَت بلفظَة الطّباق: ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، وكذلك جملة: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ بدأت بالتّوكيد، وتَوَسَّطَتْ بتقديم الجارِّ والمَجرورِ لإفادة الاختصاص، وانتهَت بلفظة الطّباقِ ﴿ٱلنَّارَ﴾، وهذا من بديع تحصيلِ الجَزاءِ على قَدرِ الجنايةِ لفظًا ومعنًى!

بلاغةُ تصديرِ جملةِ الفاصلة بحرف التّوكيد:

أكّدَ اللهُ جزاءَ المُشركين بالنّار لئلّا يرتابَ فيه ذو زيغٍ

جاء قولُه: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مُصدَّرًا بحرف التّوكيد؛ لأنّه من تمام الجزاءِ قبلَه، فيؤكَّدُ بمثل ما أُكِّدَ به في قوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، فأكَّدَ جزاءَهم لئلّا يُرتابَ فيه، وأيضًا: مبالغة في وعيدهم، وزيادة في تهديدهم.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 411، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جرم)، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 6/ 38.

بلاغةُ الختْمِ بقوله: ﴿مُّفۡرَطُونَ﴾:

لمّا ادّعَوا لأنفسِهم تقديمًا ليس لهم، عوقِبوا بتقديمهم إلى النّار

جملة: ﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾[1]؛ للتّنبيه على استتمامِ جزائِهم، فأخبرَ أوّلًا عن أنّه يُجازيهم بالنّار، ثمّ أخبرَ عن رُتبتِهم وترتيبِهم في مُلاقاة هذا الجزاءِ، بأنّهم مِنَ الأوّلين المُتقدِّمين على غيرهم في ملابستِه ومعاينته؛ لأنّ ﴿مُّفۡرَطُونَ﴾ معناه: مُقَدَّمون إلى النّار.

أثرُ تعدُّدِ القراءاتِ في قوله: ﴿مُّفۡرَطُونَ﴾:

الكافرون سابقون إلى النّار، مُتَقدِّمون إليها تَقدُّمَ الملهوفِ إلى غرضه

قرأ نافع: ﴿مُّفۡرِطُونَ﴾ بكسر الرّاءِ المَخفَّفةِ على زِنِةِ اسمِ الفاعل، ويَحتَمِلُ معنَيين؛ **الأوّل**: سابقون إلى النّار ومُتقدِّمون إليها، ويكون فيه استعارةٌ تَهَكّميّةٌ، حيثُ شبَّههم في دخولهم النّارَ بشخصٍ يتقدَّمُ إلى النّار مُختارًا، ويستعجلُ ورودَها، كمَن يسبقُ في تحصيل المَنافع، ويتعجَّلُ في ورودِ مَواقعِ الأمانِ، على سبيل التَّهكُّم والاستخفاف، **الثّاني**: أنّ ﴿مُّفۡرِطُونَ﴾ مِنَ التّفريط؛ أي: مُقصّرون في حَقّ أنفسِهم بظُلمِها، وفي حَقّ ربِّهم بتجاوز حدودِه، على معنى: أنّ المُذنِبَ المُسيءَ يتقدَّمُ ويَسبِقُ بالتّجاوز والمُخالفة؛ مُراعاةً لأصل المعنى الدّالِّ على التَّقدُّم.

وقرأ أبو جعفر ﴿مُّفَرِّطُونَ﴾ بتضعيف اسمِ الفاعل، وذلك بتشديد الرّاء مع كسرِها، وهو أبلغُ وأدلُّ على رسوخِهم في التّفريط.

وقرأ الباقون بفتح الرّاء تخفيفًا على صيغة اسم المفعول: ﴿مُّفۡرَطُونَ﴾؛ أي: يُؤخَذون قَهرًا إلى النّار، فيُقدَّمون إليها[2].

دلالةُ التّعبير بالاسميّة دون الفعليّة:

الكفّارُ مُلازِمون للتّفريط، دائمون عليه

إيثارُ صيغةِ الاسميّة في لفظ: ﴿مُّفۡرَطُونَ﴾، على تنوّعِ القراءات فيها بين اسمِ الفاعل واسمِ المفعول؛ للدّلالة على أنّهم كانوا مُلازِمين

(1) صافي، الجدول: 14/ 343.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 304.

للتّفريط في الدّنيا، دائمينَ عليه، عاكفينَ على العِصيان والمُخالَفة، فكذلك هم يومَ القيامةِ، يُلزَمون بالسَّوق والتّقديم إلى جهنّمَ، حتّى يُلابِسوها وينغمسوا فيها، فحالُ سوقِهم إلى النّار بتقديمِهم ودفعِهم إليها، كأنّما تلازِمُهم ولا تنفَكُّ عنهم، حتّى يذوقوا العذابَ والعِياذُ باللّه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكُرهُ والبُغضُ:

الكَراهيَـةُ لا يَلزَمُ عنها دَفعٌ للمكروه أو تجنيبه

الكُرهُ: هيئةٌ نفسيّةٌ تُخرِجُ الإنسانَ عن حَدّ الرِّضا والاختيار، فالكَراهيَةُ خِلافُ الرّضا والاختيار، ومنه قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾؛ أي: ينسبون له ما لا يَرضون بنَسَبِه إليهم، ولا يختارونه لو خُيِّروا فيه.

وأمّا البُغضُ فهو النّفورُ مِنَ الشّيء، وشِدّةُ كَراهيتِه، وهو ضِدُّ الحُبّ والأُنسِ والانجذاب[1].

والفرقُ الدّقيقُ بينَ الكَراهيَة والبُغض؛ أنّ الكَراهيَةَ لا يَلۡزَمُ عنها دَفعٌ للمَكروه أو تجنيبُه، وأمّا البُغضُ فيَلۡزَمُ عنه دَفعُ المكروه، بإبعاده أو إبعاد نفسِه عنه، ولذا اقترنَتْ بالعَداوَة في القرآن، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة: 91]، ولذا فالبُغضُ يصحبُه أثرٌ ظاهرٌ يدلُّ عليه، كانفعالٍ بالانزعاج أو سلوكٍ بالنّفار، وأمّا الكرهُ فلا يَلزمُ عنه ذلك.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغض - كره).

﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ [النّحل: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خطابُ النّبيِّ ﷺ بما يستوجبُ إيناسَه وإيلافَه

لمّا عدَّدَ الله تعالى في الآيات السّابقة جناياتِ المُشركين، في الكُفرِ والكَذبِ وسوءِ المَثَلِ وسوءِ المآلِ، وكان هذا ممّا يأسَفُ له النّبيُّ ﷺ، جاءَت هذه الآيةُ لتتوعَّدَ الكفّارَ بالعذاب الأليم يومَ القيامة، مع تسليَةِ النّبيّ بما يُؤنِسُه ويُثبِّتُ قلبَه، ويعصِمُه مِن قومِه، ويُعينُه عليهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَزَيَّنَ﴾: (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[1]، والزَّينُ نَقيضُ الشَّينِ، وزانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنًى، وهو تصييرُ الشَّيءِ زَيْنًا؛ أي: حَسَنًا[2]، والتَّزْيينُ: تَصييرُ الشَّيءِ زَيْنًا، فهو تَحسِينُ الشَّيءِ المُحتاجِ إلى التَّحسِينِ، وإزالَةُ ما يَعتَريهِ مِنَ القُبحِ أوِ التَّشويهِ؛ ولِذَلِك سُمِّيَ الحَلّاقُ مُزَيِّنًا[3]، والزّينةُ: جامعٌ لكُلِّ ما يَتزيّنُ به النّاسُ، وما يَحسُنُ في أنظارِهِم مِن طَرائِفِ الدُّنيا، كالحُلِيِّ والجَواهِرِ[4]، والمقصودُ بالتَّزيين في الآية: تَحسِينُ ما لَيسَ بِحَسَنٍ بَعْضِه أو كلِّه، والمُرادُ: زَيَّنَ لَهم الشَّيطانُ أعمالَهم الشَّنيعةَ، فأوهَمَهم بوَسوَستِه أنَّها حَسَنَةٌ.

2) ﴿وَلِيُّهُمُ﴾: الوَليّ: مَصدَرُه الوَليُ، وهو القُرب، وأصلُه المَطَرُ الَّذي يأتي بعدَ المَطَر، يُقالُ: وُلِيتِ الأرضُ وليًا، والاسمُ: الوَليُّ، يُقالُ: تباعد بعدَ ولْيٍ؛ أي: قُربٍ، وجلس ممّا يليني؛ أي: يقاربني[5]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (زين).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 179.
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، (زين).
(5) الخليل، العين: (ولي).

وتقولُ: على الولاء؛ أي: الشَّيء بَعدَ الشَّيء، فمعنى الوَليِّ: الشَّيءُ القريبُ التّالي دونَ فاصلٍ ماديٍّ أو زمانيٍّ، فهو ليس التِصاقًا، وجميعُ الاستعمالات تدورُ حولَ هذا المعنى، يُقال: أولى؛ أي: أحَقُّ، وذلك لقُربه[1]، سواء أكان القربُ مَعنويًّا أم ماديًّا، والوَليُّ والمَوْلَى يُستعملان في تولِّي الأمرِ، ولا يتولَّى الأمرَ إلّا مَنْ كان قريبًا، مِن حيثُ الدِّينُ، أوِ النَّسَبُ، أوِ الصَّداقةُ، أو غيرُها، والوليُّ على وزنِ فعيلٍ بمعنى فاعل، والمقصودُ بالوَليّ في الآية: هو الشَّيطانُ الرَّجيمُ، وليُّ الـمُشرِكينَ اليومَ، يُزيِّنُ لهُم أعمالَهم، كما كانَ وليَّ مَن قَبلَهُم[2].

3) ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: اليومُ هو الواحِدُ مِنَ الأيّام، ثُمَّ استعاروه في الأمرِ العَظيم، فيَقولونَ: نِعمَ فُلانٌ في اليَوم إذا نَزَلَ[3]، واليَومُ أيضًا: مقدارٌ مِنَ الزَّمانِ، أوَّلُهُ طُلوعُ الشَّمسِ إلى غُروبِها[4]، أو مِن طُلوعِ الفَجرِ الصّادِقِ إلى غُروبِ الشَّمسِ[5]، وتُطلَقُ الأيّامُ على ما يَقَعُ فيها مِنَ الأحداثِ العَظيمَة، ومِن مَعاني اليوم: الوَقتُ، والزَّمَنُ، والحِينُ، سَواء كان نَهارًا أو لَيلًا، تقولُ: خَبَّأتُ المالَ لِهذا اليَوم؛ أي: لِهذا الوَقتِ، والجَمعُ: أيّامٌ، واليَومُ في الآية: مُستَعمَلٌ في زَمانٍ مَعهودٍ بعَهدِ الحُضورِ؛ أي: فهو وليُّهُمُ الآنَ، وهو كنايَةٌ عنِ استِمرارِ ولايَتِه لهُم إلى زَمَنِ الـمُتَكَلِّم مُطلَقًا بدونِ قَصدٍ[6].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

بيَّنَ الحقُّ سبحانَه في الآية أنَّ هذا الصَّنيعَ الَّذي صَدَرَ مِن قريش قد حَدَثَ مثلُه مِنَ الأُممِ السّالفةِ في حَقِّ أنبيائهم، فقال مُسَلِّيًا رسولَه على ما كان ينالُه مِنَ الغَمِّ بسبب جهالاتِهم: واللهِ يا مُحمَّدُ

مَن كانَ الشَّيطانُ وليَّهُ فهو خالدٌ في العذاب مثلُه

(1) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 46.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 195.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يوم).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، والراغب، المفردات: (يوم).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (يوم).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 195.

ﷺ لقد أرسَلْنا رُسُلًا إلى أُمَمٍ ماضيةٍ مِن قَبلِك بمِثلِ ما أرسَلناكَ به؛ مِنَ الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللّهِ، وإخلاصِ العبادةِ له وطاعتِه، فحَسَّنَ الشَّيطانُ لهم ما كانوا يَعمَلونَه؛ مِن كُفرٍ وشِركٍ باللّهِ، وتكذيبٍ للرُّسُلِ؛ فالشّيطانُ في يوم القيامةِ هو وليُّ المُشركينَ الّذين كذَّبوا الرُّسلَ، وزيَّنَ لهم سوءَ أعمالِهم، وهو ناصرُهم، ليس لهم ناصرٌ غيره، ولا قدرةَ له على نصرِهم، ولا يملِكُ خلاصَهم ولا نفعَهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقِعُ جملة القَسَم ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ﴾ ممّا قبلَها:

تسليَةُ الرّسول ﷺ وتثبيتُه

قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ استئنافٌ مُتضمِّنٌ لأصل العِلّةِ الّتي جعلَتهم يكفرون ويَفترون، وهو إنكارُهم للرّسالة، ولذا جاء إثباتُه بالقَسَم؛ أي: هُم أنكروا الرّسالةَ والوحيَ، ولكنْ - واللّهِ - لستَ بدعًا في ذلك، فما زِلنا نُرسلُ الرّسلَ لإقامة الحُجَجِ، وإعذارِ النّاسِ من أنفسِهم.

ولذلك فُصِلَتْ هذه الجملةُ عمّا قبلَها؛ لكونها في معنى التّعليل لما قبلَها؛ أي: القَسَمُ على إرسال الرّسُلِ عِلَّتُه أفعالُهم الإجراميّةُ الّتي مَرَّتْ، لأنّه لولا كفرُهم بهذا الأصل ما أجرموا[2].

ويصِحُّ أن يكونَ الاستئنافُ ابتدائيًّا، على معنى الشُّرّوعِ في تسليَةِ النّبيّ ﷺ وتعزيتِه وتثبيتِه، كأنّه بعدَ الاستطراد السّابقِ في تعديد قبائِحِهم وألوانِ كفرِهم، تفرَّغَ النّظمُ وآلَ لِمخاطبة النّبيِّ ﷺ بأنّه على عهدِ وعادةِ الرُّسلِ قبلَه، فلا يَحزَنْ لِما مَرَّ، ولا ينقبِضْ لتلك الأحوالِ العسيرةِ، والطّبائعِ الشّاذّةِ[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 268، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 580، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 231، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 443.
(2) صافي، الجدول: 14/ 344.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 193.

إيرادُ المؤكّداتِ في جواب القَسَم فيه تعظيمٌ لمضمون الجوابِ

بلاغةُ حَشدِ المؤكِّداتِ في جواب القَسَم:

جوابُ القَسَم في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، اقترنَ بعِدَّة مؤكّدات: (اللّام، وقد التّحقيقيَّة، وصيغة الماضي المُحقَّقَة في الإرسال، وإسناد الإرسال إلى نون التّعظيم والإجلال)؛ لتثبيتِه وعدمِ التّشكيكِ فيه.

تعظيمُ شأنِ الرُّسُلِ والرِّسالات

بلاغةُ القَسَم بالتّاء:

أوثِرَ القَسَمُ بالتّاء دونَ الباء لوجود فرقٍ بينهما، فالباءُ تدخلُ على الاسم الظّاهر والضّمير، وكذلك الواو، أمّا التّاءُ فلا تدخلُ إلّا على لفظ الجلالة، كما في قوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾، ولأنّ التّاءَ يكونُ القَسَمُ بها في الأحوال المُستَغربةِ، والأُمورِ العجيبة، والسّياقاتِ الّتي يُنكرُها بعضُ السّامعين، أو يُرتابُ فيها، أو تحتاجُ إلى تثبيتٍ للمُتلقّي المُصَدِّق لئِلّا يرتابَ؛ ذلك أنّ التّاءَ في القَسَم تكونُ فيما يُتعَجَّبُ منه غالبًا؛ لأنّها لمّا كانَت نادرةً في أدوات القَسَم، جُعِلَت للنّادرِ مِنَ المعاني، والنّادرُ مِنَ المعاني يُتعجَّبُ منه، والسّياقُ هنا لتقريرٍ منكورٍ عند المُخاطَبين؛ وهو الرّسالة، فهو لأمرٍ مُستغرَبٍ منهم مُستبعَد، والقرآنُ الكريم يَتَعَجَّبُ مِن حالهم في إنكار ذلك، وهو أمرٌ مُمكِنٌ وواقعٌ، ولأجل هذا التّعجُّبِ مِنَ الطّرفين على تبايُنِه فيهما، جاءَ القَسَمُ بالتّاء.

وأيضًا: القَسَمُ بالتّاء يدُلُّ على أنّ المُقسَمَ عليه، وهو إرسالُ الرّسلِ، أمرٌ عجيبٌ في ذاته، لا لعدم إمكانِه أو استبعادِه، بل لِعِظَمِه وبُعدِ شأنِه، وجلالِه في الوقوع والأثر، فجميعُ هذه المعاني يُصحِّحُها ويُرجّحُها القَسَمُ بالتّاء دونَ غيرِها، بل هو كذلك نُكتةُ إجراءِ الكلام - أصلًا - على طريقة القسَم.

ولا يخفى ما في أسلوب القَسَم، وإيقاعِه بحرف التّاء مِنَ الإشارة إلى غضبِ اللّه عليهم؛ توبيخًا لهم، وتعجيبًا واستهجانًا لإنكارِهم، لأنّه لولا عنَتُهم وعنادُهم لَما احتاجوا للقَسَم.

دلالةُ إسناد الإرسالِ إلى نون العَظَمة:

تعظيمٌ للوحي وتنويهٌ بخَطَرِه

أُسنِدَ الإرسالُ إلى نون التّعظيم والإجلال، تناسُقًا وتناغُمًا مع القَسَم بالتّاء الّذي يكونُ في الأمور العجيبةِ، وتناسبًا مع المُؤكِّدات الّتي في جوابه، كأنّه بإسناد الإرسالِ إلى نون العَظَمة والاقتدار، يُخفِّفُ مِن حِدَّةِ الاستغرابِ والاستعجابِ مِن هذا الأمر العظيم، وكأنّه يقولُ: إذا كان هذا الأمرُ - وهو إرسالُ الرّسل - أمرًا عجيبًا في ذاته - وهو كذلك - ، فليس مُستبعَدًا أو نادرًا، فضلًا عن أن يكونَ مستحيلًا؛ لأنّ الإرسالَ قد حصل بعَظَمة وقُدرةِ الإله الجليل الأعلى، فلا عجيبَ عندَه ولا غريب.

بلاغةُ الالتفات:

عُلوُّ شأنِ إرسالِ الرُّسلِ، والاعتناءِ بشأن البشر

في الآية التفاتٌ مِنَ الغَيبة ﴿تَٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّم في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾، وذلك للدّلالة على عُلوّ شأنِ إرسالِ الرّسلِ، والاعتناءِ بشأن البشر.

بلاغةُ سياقِ الكلامِ على أسلوب الخطابِ:

نزولُ القرآن جبرٌ لخاطر النّبيّ ﷺ

جاء الأسلوبُ على طريقة الخِطابِ للنّبيّ ﷺ في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ تفرُّغًا لتسليته، والتّودُّدِ إليه، والتّلَطُّف معه؛ لئلّا يحزنَ أو ييأسَ، وتوطينًا لنفسِه الشّريفة ألّا تَجزَع أو تتألَّمَ أو تستغرِبَ، إذا صادَفَتْ إنكارًا، أو لاقَتْ إجرامًا، كأنّه ﷻ يقولُ له: إذا كان إرسالُكَ إليهم ليس بِدَعًا مِنَ الرّسل، فإنّ تكذيبَهم لكَ ليس بِدَعًا مِن أقوام الرّسلِ قبلَكَ، فإنّهم كذلك كذّبوا وافترَوا، فلا تَكترِثْ[1].

دلالةُ حرفِ الانتهاء:

تحديدُ مآلِ الإرسالِ والجهةِ المُستهدفَة

التّعبيرُ بحرف الانتهاء ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ﴾؛ للدّلالة على مآلِ هذا الإرسالِ، وتعيينِ الجهةِ المُستهدَفةِ منه، وهي الأممُ والجماعاتُ العظيمةُ الكاثِرةُ مِن قبلُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 194.

دلالةُ تنكير ﴿أُمَمٖ﴾:

إفادةُ العُموم والإبهام

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (أرسلنا إلى الأمم) بل نكَّرَ، فقال: ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٖ﴾؛ لإفادة العُموم والإبهام، لعدم تعلُّقِ الغَرَضِ بتعيينِها والكشفِ عنها.

دلالةُ جمعِ ﴿أُمَمٖ﴾:

اختلافُ الأُمَمِ وتَعَدُّدُ تنوّعِها

جَمْعُ لفظِ ﴿أُمَمٖ﴾ من قوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ﴾؛ يدلُّ على اختلاف هذه الأُمَم وتَعدُّدِها في ألوانِها وجنسِها وأزمانِها وطبائعِها ومَذاهبِها، إلى آخرِ ألوان التّعدُّدِ والكَثْرة.

دلالةُ مَجيء ﴿مِّن﴾ قبلَ الظّرفِ:

إرسالُ الرّسلِ أمرٌ شائعٌ في الأمم، لا يحتاجُ إلى دليلٍ

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (أرسلنا إلى أمم قبلك)، بل قال: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ للتّنبيه على إرادة القبليّةِ القريبةِ السّابقةِ على زمنِه ﷺ؛ لأنّه حديثُ عَهدٍ بها، ويَسمَعُ قومُه عن أخبارها، فيَسْهُلُ عليهم تحرّي أخبارِ الرُّسل والأنبياء فيها؛ ليستوثقوا منها، فيكون ذريعةً لزَوال إنكارِهم، وحصولِ إيمانِهم، ولو قِيلَ في هذا السّياق: (أرسلنا إلى أمم قبلَك) دونَ (مِنْ)؛ لاستغرقَ الزّمانَ القَبليَّ كُلَّه، دونَ تحديدٍ لبدايته الّتي يُبتَغَى البحثُ مِن عندها، و﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾: ابتدائيّةٌ[1].

مَوقِعُ جملة: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ ممّا قبلَها:

الرُّسلُ سفراءُ اللهِ إلى خَلقِه بكلّ خيرٍ

جملةُ: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ معطوفةٌ على جملة جوابِ القسم[2]: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾، والفاءُ في معنى السّببيّة؛ لترتيب التّزيينِ على الإرسال، وهو تسبيبٌ مَجازيٌّ؛ لأنّ التّزيينَ حاصِلٌ مِن قبل الإرسال، فليس مُترتِّبًا عنه، وأيضًا: ليس الإرسالُ سببًا في التّزيين، ولكن لمّا كان إرسالُ الرُّسلِ سببًا في إظهار التّزيين وكَشفِه، والدّلالةِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 189.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 194.

عليه وتسميةِ أعمالِهم به؛ كان كأنّه بمَنزِلةِ السّببِ الّذي أنتَجه، ولذا رتَّبَه عليه.

دلالةُ إسنادِ التّزيين إلى حرف الاختصاص:

النّاسُ فرائسُ الشّيطانِ، يصطادُهم بحِيَلِه

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (فزيّن الشّيطانُ أعمالَهم)، ولم يقُلْ: (فزيّن الشّيطانُ أعمالَهم لهم)، بل أسندَ إلى حرف الاختصاصِ المُشتمِل على ضميرِهم، وقَدَّمَ الجارَّ والمُجرورَ؛ لإظهار الغرضِ الأصيلِ، وهو الحديثُ عنِ الأمم الّتي اتّبعَت تزيينَ الشّيطان لها مِن أعمال الضّلال؛ ولئِلّا يُتَوَهَّمَ أنّ المُرادَ بتزيين الشّيطان هو عمومُ عمله بالتّزيين، بل خصوصُ تزيينه الكائنِ لهم، وللتّنبيه بلفظ: ﴿لَهُمُ﴾ على أنّهم اتّبعوهُ في تزيينِه، ولو قيلَ: (زيّنَ أعمالَهم) لما أفاد ذلك المعنى، وللتّنبيه على أنّ الشّيطانَ حين يُزيِّنُ للنّاس شيئًا، فإنّما يقصدُهُم بذواتِهم ويتسلَّطُ على أبدانِهم وخواطرِهم، ولا يكتفي بتزيين الباطلِ فحسب، بل يَؤُزُّ أنفسَ النّاسِ إليه أزًّا، وهذه فائدةُ ﴿لَهُمُ﴾.

بلاغةُ إظهارِ الفاعل:

لفظُ الشّيطانِ يومِئُ إلى الاستيحاش منه، وتخوينه في تزيينه

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (فزُيِّن لهم أعمالَهم) بإضمار الفاعلِ، بل أظهرَ الفاعلَ، وعَبَّرَ عنه باسم (الشّيطان)، فقال: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وفي ذلك نُكتَتان:

الأولى: الإشارةُ إلى المُقابلة بينَه وبين فاعل الإرسالِ، الكائنِ ضميرُه في لفظ ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾، وهو اللّهُ ﷻ، أو المقابلةُ بينَ الشّيطان ومفعولِ الإرسال، وهمُ الرّسلُ؛ أي: أرسلنا الرُّسلَ، كأنّه يقولُ: الإرسالُ مِنَ اللّه والتّزيينُ مِنَ الشّيطان، فإرسالُ الرُّسلِ حقيقةٌ وحَقٌّ، وتزيينُ الشّيطانِ تلبيسٌ وباطلٌ، وبهذا التّقدير يتمُّ معنى المُقابلةِ المَقصودة.

الثّانية: أنّ اصطفاءَ لفظِ الشّيطانِ يومِئُ إلى ضَرورة الاستيحاش منه، والنّفورِ مِن تزيينه؛ لأنّه شيطانٌ، فاللّفظُ نفسُه مَنبوذٌ ومُشتمِلٌ

على معنى الغَرابةِ والنّفورِ، فاسمُ الشّيطانِ المَذكورِ يستلزمُ التّحذيرَ مِن تزيينِه؛ لأنّ الشّيطانَ قبيحٌ في اسمِه ومُسمّاه، فحَلاوةُ التّزيينِ الّذي تَصْدُرُ عنه، هي حلاوةٌ ظاهرةٌ فقط، وهي قُبحٌ وسوءٌ في حقيقتها، طُلِيَت بالتّلبيس والزَّيف.

دلالةُ التّعبيرِ بالأعمالِ دونَ الأفعالِ:

الأعمالُ مَقصودةٌ، والأفعالُ قد تجري على غير قَصْدٍ

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (فزيّن لهم الشيطان أفعالهم)، بل عَبَّرَ بالأعمال، فقال: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ لأنّ العملَ أخصُّ مِنَ الفعلِ، فالفعلُ عامٌّ في الأحداثِ بقصدٍ أو مِن غير قَصدٍ، والعمَلُ هو فِعلٌ مَقصودٌ[1]، فدَلَّ التّعبيرُ بالأعمال، على أنّهم فعلوها عن قَصدٍ واختيارٍ تامّين، ولا يَخفى ما فيه مِن إقامة الحُجّةِ عليهم بأقصرِ بيان.

مَوقِعُ جملة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ ممّا قبلَه:

مَن يتولَّ الشّيطانَ يَخْسَرْ

جملةُ: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ﴾، والفاءُ لتَفريعِ الولاية عنِ التّزيين[2]، والغَرضُ مِنَ التّفريع: الإخبارُ عن أنّهم اتّبعوه في تزيينِه وصَدَّقوه، حتّى دخلوا في وِلايته، وفي التّعبير بقوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ دلالةٌ على الاستهزاء بالكفّار الّذين رَضوا بولاية الشّيطانِ واطمأنّوا إليها؛ لأنّه لا يملِكُ نُصرتَهم يومَ القيامة؛ بل يَتبرّأُ منهم.

عوْدُ الضّمير ومرجِعُه في ﴿وَلِيُّهُمُ﴾:

ما جرى على السّابقين يجري على اللّاحقين، فسُنّةُ اللهِ لا تتبدَّلُ

الضّميرُ الجَمعيُّ في قوله: ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ يعودُ إلى الأُمم، أو أمثالِهم مِنَ المُخاطَبين بالتّنزيل، ويكون الكلامُ على حَذف مضافٍ؛ أي: وليُّ أمثالِهم، وأمثالُهم هم مشركو قريش[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (عمل - صنع).

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 308.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 412.

دلالةُ الظّرفِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

الـدّنـيـا كـلُّـها حاضرٌ بالنّسبة للآخِرة

المَقصودُ بالظّرف في قوله: ﴿وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ زمنُ الدّنيا؛ لأنّ الدّنيا كلَّها حاضرٌ بالنّسبة للآخرة؛ أي: فهو وليُّهم ما دامتِ الدُّنيا، ويومَ القيامةِ يَتَبرَّأُ منهم.

أو المرادُ بعضُ زمنِ الدّنيا، وهو على وجهين؛ **الأوّل:** أن يُرادَ البَعضُ الّذي مضى، وهو الّذي وقَعَ فيه التّزيينُ للأُمم الماضية مِنَ الشّيطان، والتّعبيرُ عنه باليوم الّذي هو الوقتُ الحاضرُ، حكايةٌ للحال الماضية، **الثّاني**: أن يُرادَ البعضُ الحاضرُ، وهو وقتُ نزولِ الآية، أو المرادُ: (وليُّهم يومَ القيامة)، والتّعبيرُ عمّا هو مُستقبلٌ بالظّرف الحاضر؛ لكونِه مُتَحَقِّقَ الوقوعِ، وثابتًا في عِلم اللّه، فشابَه الوقتَ الحاضرَ[1].

بلاغةُ المَجاز:

الشّيطانُ يتخلّى عن أتباعِه

على اعتبار تفسير ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ بزمن التّزيينِ الماضي، أو زمنِ القيامة المُستقبلِ، فهو مجازٌ مُرسَلٌ استُعير فيه الحضورُ الخارجيُّ للحُضور الذّهنيّ[2]، علاقتُه: اعتبارُ ما كان، أو اعتبارُ ما سيكون، أو استعارةٌ تصريحيّةٌ، بتشبيه صورةِ الماضي في حال تحقُّقها، بالزّمن الحاضر في جريانِه وحُدوثِه، وتشبيهِ صورةِ المُستقبلِ في ضمانة وقوعِه، بالوقت الحاضرِ في مُلابَستِه ومُعاينته.

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

لـلـعَـهـدِ الـحـضـوريِّ، أو العهدِ الذّهنيِّ

(ال) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ على اعتبار أنّه مُدّةُ الدُّنيا، أو زَمنُ التّزيين - وهو الأظهر - للعَهدِ الحُضوريِّ[3]؛ أي: فهو وليُّهم الآن، وهو كنايةٌ عنِ استمرار ولايتِه لهُم إلى زمن المُتكلِّمِ مُطلَقًا بدون قَصدٍ، لما يَدُلُّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 412.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 412.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 404.

عليه لفظُه مِنَ الوقت الّذي مِن طلوع الفجر إلى غروب الشّمس، وهو مَنصوبٌ على الظّرفيَّةِ للزّمان الحاضرِ، وأصلُه: اليومُ الحاضِرُ، وهو اليومُ الّذي أنتَ فيه[1]، وعلى تقدير أنّه يومُ القيامة، فاللّام للعَهد الذّهنيِّ[2].

دلالةُ إسناد الوِلايةِ إلى الظّرف في تقرير الوعيدِ:

ولايةُ الشّيطانِ مُنقطِعةٌ زائلةٌ، وولايةُ اللهِ دائمةٌ باقيَةٌ

إسنادُ الوِلايةِ إلى الظّرف الحاضر: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ تمثيلٌ للمُخاطَبين بمُدّةِ حياتِهم المَحدودة، وهو كنايةٌ عن لازمِه مِنَ الوعيد الشّديد، كأنّه يقولُ لهم: فهو وليُّهُمُ اليومَ فقط مُدّةَ حياتِهم، فإذا قَضَوا فلا وليَّ لهُم ولا ناصِرَ، فاختاروا لأنفسِكُم ولايَةَ الشّيطانِ المُنقطعةَ الزّائلةَ، أو ولايَةَ اللّهِ الدّائمةَ الباقيةَ[3].

بلاغةُ نفيِ الشّيءِ بإيجابه:

تحقيرُ المُجرم بتقرير ما يُضادُّ استحقاقه في الجَزاء

على احتمال أنّ المُرادَ بـ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ يومُ القيامة، في قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فيكون التّعبيرُ بالوِلاية حينَئِذٍ مِن باب التّهكُّم بهم؛ لأنّ الشّيطانَ ليس ولِيًّا لأحدٍ يومَ القيامة، ولا قَرِينًا له، بل هو في قَعر جهنّمَ، يتبرّأُ مِن كُلِّ ضحاياه وجنودِه الّذين أغواهم، ويكون المرادُ مِن إثبات الوِلاية له نفيَها، كأنّه قِيلَ: فهو وليُّهُمُ اليومَ إنْ كانَ لهم أولياءُ - أصلًا - ولا وليَّ لهم ولا نصيرَ ولا قرينَ، وهو مِن باب نفي الشّيء بإيجابِه وإثباتِه، وهو فنٌّ في البلاغة بديعٌ[4]، وغرضُه هنا: التّشَفّي والشّماتَةُ بهم، والتّندُّرُ عليهم.

مَوقِعُ جملة: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ﴾ ممّا قبلَها:

الجزاءُ مهما تأخَّرَ فهو مَحتومٌ

جملةُ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عطفٌ بالجزاء والعقوبة على مضمون ما قبلَها[5] مِن اتّباع التّزيينِ ودخولِهم في ولاية الشّيطانِ، فهو إردافٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 195.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 404.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 404.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 123.
(5) صافي، الجدول: 14/ 345.

بعاقبة أفعالِهم، وخَتمٌ بنهاية العظائمِ الّتي اقترفوها، وخَلَّفوا آثارَها بعدَهم، وهي مُلاقاةُ العذابِ الأليمِ، والاقتحامُ فيه خلودٌ أبديٌّ لا خَلاصَ منه.

نُكتةُ تقديمِ الخبر على المبتدأ:

لكلّ أمّةٍ قِسطٌ مِنَ العذاب مَعلومٌ

قَدَّمَ الجارَّ والمَجرورَ الخَبريَّ على المبتدأ في قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولم يقُلْ: (عذابٌ أليم لهم)، وذلك لنُكتَتَين؛ الأولى: حفاظًا على الفاصلة ألّا تنخرمَ، فيختلَّ إيقاعُها وجَرسُها الصّوتيُّ، وكمالُها اللّفظيُّ، الثّانية: لإفادة الاختصاص، زيادةً في التّهويل والوعيد؛ أي: هذا العذاب أُعِدَّ خصوصًا لهم، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: 24].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ العذاب:

أهوالُ يوم القيامة لا يعلمُها إلّا الله

نُكِّرَ لفظُ ﴿عَذَابٌ﴾ في قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لتهويلِه وتعظيمِ أمرِه، حيثُ يمحو كلَّ ذكرياتِ النّعيمِ والتّرفِ الّتي عاشَها الكفّارُ في الدّنيا.

بلاغةُ إجراءِ الفاصِلة بطريق الوَصفيّة:

على قدرِ ما كانوا يُؤمّلون بغير حَقٍّ، فهُم يتألّمون ويُعذَّبون بِحَقٍّ

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (ولهم عذاب) بدون وصف، بل أجرى الفاصلةَ على طريقة الوصفِ، فقال: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ زيادةً في تعيين العذابِ وتخصيصِ نوعِه، وتحديدِ ماهيَّتِه، وأيضًا: زيادةً في ذَمِّه بالوصف؛ لأنّ العقوبةَ كلَّما كانت أذَمَّ كانت أبلغَ وأوجعَ، كأنّه قِيلَ: عقوبةٌ يَسوءُ المُجرمين عذابُها.

نُكتةُ اختيارِ وصفِ ﴿أَلِيمٌ﴾ للعذاب دونَ غيره:

لم يلتزموا التّكاليفَ، فعوقِبوا بألم النّارِ وعذابِها

وَصفُ ﴿أَلِيمٌ﴾ للعذاب هو أصلُ الأوصاف وأتمُّها، ولذا فسياقُه هنا أتمُّ مِن (عظيم)، و(مُهين)، و(شديد)، ونحو ذلك؛ لأنّ العذابَ هنا عقوبةٌ على أصل الاعتقادِ في الإلهيّات بما نسبوه إلى اللّه، وفي النّبوّات بما قرَّره لهم في: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾، وفي السّمعيّات برجمهم بالغيب

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فاستحقّوا أن يُخاطَبوا بأصل أوصافِ العذابِ، وهو لفظُ: ﴿أَلِيمٌ﴾؛ لأنّ الشّيءَ إذا كان مُؤلِمًا كان مُهينًا، ولاسيّما إذا استمرَّ، وإذا كان مُؤلِمًا كان عظيمًا على صاحبه أن يستمرَّ فيه، وإذا كان مُؤلِمًا كان شديدًا لا رِقّة ولا بَحْبوحَة معه، فالوصفُ بالإيلام جامعٌ لتلك الأوصاف جميعًا، وهو أصلُها ومنشأُ حصولِها.

بلاغةُ جناس إيهامِ الاشتقاق:

خيرُ الكلامِ ما تآلفَت تراكيبُه، ووفَّت معانيه المقاصِدَ

بينَ ألفاظ: ﴿وَلِيُّهُمُ﴾، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، ﴿أَلِيمٌ﴾ جناسُ إطلاقٍ، وجناسُ الإطلاقِ: أن يكونَ بينَ الكلمتين مشابهةٌ لفظيّةٌ، وهي ما يُشبِهُ الاشتقاقَ وليس كذلك، فلا يرجعانِ إلى أصلٍ واحدٍ، مع حصول المغايرةِ بينَ رُكني التّجنيس في الحروفِ والحركاتِ، ولذا يُسَمّى جناسَ إيهام الاشتقاقِ، أو جناسَ المُقاربة أو المُشابهةِ أو المُغايرةِ، وهو من مُحسّناتِ الفصاحةِ اللّفظيّةِ؛ لكونه واردًا على غير تَكلُّفٍ وتَعَسُّفٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(زيّنَ) و(سَوّلَ) و(طَوّعَ):

التّزيينُ يدُلُّ على إظهار زينةٍ منَ الذّات أو إضفاءِ زينةٍ على الذّات

زيّن: أصل (زين) يدُلُّ على حُسنِ الشّيءِ أو تَحسِينِهِ، ومنه: تزيينُ الشّيءِ؛ أي: إضفاءُ الزّينةِ عليه بتحليتِه وتحسينِه، ويقعُ على وجهين؛ تحليَةُ الشّيءِ بإظهار حَلاوَتِه وحُسنِه؛ أي: الكَشفُ عن زينةٍ غيرِ ظاهرةٍ فيه، لكنّها قائمةٌ به، والثّاني: تحليَةُ الشّيء وتحسينُه بما ليسَ فيه، كتحسينِ القبيح، وتحبيبِ الأذى، وتزكيةِ الشَّين، كتزيين الشّيطان للشَّرِّ والشّهَواتِ[2].

سوَّل: يدُلُّ على استرخاءٍ في شيءٍ، ومنه: تسويلُ النّفسِ لصاحبِها أمرًا، والتّسويلُ: التّزيينُ والتّحبيبُ والتّحسينُ، فكأنّ المَرءَ

(1) إنعام فوّال، المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص: 480.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زين).

يسترخي لَمطالِبِ نفسِه؛ بتزيينِها وتحسينِها، فيُجيبُها إلى ما سألَتْهُ إيّاها، فالتّسويلُ: هو تزيينٌ وتحسينٌ لِما سَألَتْهُ النّفسُ ورَغِبَتْهُ، فيصِحّ على ذلك أن يكونَ أصلُ السّولِ مهموزًا مِنَ السُّؤْلِ والسُّؤالِ، ثمّ خُفِّفَتْ همزتُه في لفظ التّسويل، وكأنّ إبقاءَ الهمزةِ في السُّؤْلِ - وهو الحاجةُ الّتي تَحرِصُ عليها النّفسُ فتسألُ تحقيقَها - دالٌّ على ثِقَلِ الرّغبةِ قبلَ سؤالِها، وانضغاطِ النّفس بها، فإذا أُرخِيَ لها بتحسينِ المطلوبِ وتزيينِه، وإعطائِها سؤلَها، استَرخَتِ النّفسُ وخَفَّ حِملُها مِن ضغطِ رغبتِها بتحقيقِها واقترافِها، فأُزيلَتْ الهمزةُ تخفيفًا للّفظِ؛ ليُطابِقَ خِفَّةَ المعنى الّذي اشتمَلَ عليه[1].

طوَّع: (طوع) أصلٌ يدلُّ على لِيونَةٍ وانقيادٍ، وهو ضِدُّ الكَره، ومِنهُ الطّواعيَة والطّاعَة: الانقيادُ للأمر، وهي ضِدّ العصيان، ومنه قوله: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة: 30]؛ أي: انقادَتْ له، ولانَتْ فيما أرادَه مِن قتلِ أخيه، فقتَلَ ونفسُه مُختارةٌ غيرُ كارِهةٍ ولا مُتَرَدِّدةٍ[2].

والفرقُ الدّقيقُ بينَ التّسويلِ والطّواعيةِ والتّزيين: أنّ التّسويلَ فيه معنى التّزيين والتّحبيبِ، فيقعُ فيما تَلتَذُّ به النّفسُ وتُحِبُّه أو تُلحُّ فيه، وأمّا الطَّوعُ فلا يَلزَمُ أن يكونَ في المَرغوب المَحبوب، ولا عن إلحاحٍ، والطّوعُ دالٌّ على معنى الاختيارِ وعدم الكراهيَةِ، وليس هذا المعنى مُضمَّنًا في التّسويل، وأمّا التّزيينُ فيَخلو عن معنى الحِرص بسؤال الشّيءِ وتدبيرِه الّذي في التّسويل، وتخلو مادّتُه عن معنى الطّوعِ والاختيارِ الّذي في الطّواعيةِ، ويخلُصُ لمعنى استحسانِ الشّيءِ، لزينةٍ ظاهرةٍ تعلَّقَتْ به، سواء كانت خارجيّةً كزينة القبيح، أو ذاتيّةً كزينة الحَسَن، ولذا يرتبطُ التّزيينُ بإظهار زينةِ الشّيءِ أو إظهارِ زينةٍ له.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سول).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوع).

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٤﴾ [النحل: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ واقعِ الأُمّةِ بعدَ دلالتِها على تاريخ الأمم قبلَها

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ ضلالَ الكفّار وجرائمَهُم البَشعةَ، جاءَت هذه الآيةُ لبيان فضلِ اللّه تعالى، بإنزال القرآنِ على النّبيّ ﷺ؛ ليبيّنَ للنّاس الحَقَّ مِنَ الباطل، والهُدَى مِنَ الضّلال.

ومِنَ المناسبة أيضًا: أنّه لمّا ضربَ في الآية السّابقةِ مَثَلًا بمَن تَقَدَّمَ مِنَ الرّسُل والأمم، وما تَضَمَّنَ ذلك مِنَ الإشارة إلى عاقبة الرُّسلِ مِنَ النّجاةِ والعِصمَة، وعاقبةِ الأُمم المُكَذِّبةِ مِنَ العذاب الأليم، استكملَ هنا خطابَ نبيّهِ ببيان الغايةِ مِن وراء إرساله، وإنزالِ الكتابِ عليه؛ ليُؤذِنَ له بمثلِ عاقبة الرُّسلِ وأتباعِهم، ويُؤذِنَ لقومِه ممّن لم يُؤمِنْ بمثل عاقبةِ الأُمم في الآية السّابقة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتُبَيِّنَ﴾: أصلُ الكلمةِ مِنَ البَيْن، وهو بُعدُ الشَّيءِ وانكِشافُهُ، فالبَيْنُ: الفِراقُ؛ يُقالُ بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً[1]، والبَيِّنةُ: الأمرُ الواضِح، ومنه قولُه: ﴿إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [الأنعام: 57]، والبَيِّنةُ أيضًا: الحُجَّةُ والدّلالةُ الواضحةُ؛ عقليَّةً كانت أو حِسّيَّةً[2]، والتَّبيينُ: الإيضاح والوُضوحُ[3]، والبيانُ: التَّوضيحُ والكَشفُ[4]، والمقصودُ بالتَّبيين في الآية: تجليَةُ المعاني الخَفيَّةِ، لِغُموضٍ أو سوءِ تَأويلٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بين).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بين).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).

2) ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾: وأصلُ كلمةِ الاختلافِ مِنَ الخِلافَةِ، وهي مَجيءُ شيءٍ بعدَ شيءٍ، فيَقومُ مَقامَهُ، يُقالُ: خَلَفَ فُلانٌ فُلانًا؛ أي: قامَ بالأمرِ بعدَهُ[1]، والخَليفَةُ: مَنْ يَخلُفُ غَيرَهُ ويَقومُ مَقامَهُ، وسُمِّيَ التَّنازُعُ ونحوُهُ اختِلافًا؛ لأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المُختَلِفينَ يُنَحِّي قَولَ صاحِبِه، ويُقيمُ نَفسَهُ مَقامَ الَّذي نَحّاهُ[2]، والاختلافُ والمُخالَفةُ: أن يأخُذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريقِ الآخَرِ في حالِه أو قولِه، والخِلافُ أعمُّ مِنَ الضِّدّ؛ لأنّ كلَّ ضدَّين مُختلِفان، وليسَ كلُّ مُختلفَين ضِدَّين، ولمّا كان الاختلافُ بينَ النّاس في القول قد يقتضي التّنازعَ، استُعير ذلك للمُنازَعة والمُجادَلة[3]، وضِدُّ الاختِلافِ: الاتِّفاقُ والتَّساوِي، واختَلَفَ الأمرانِ: لَم يَتَّفِقا، ويُطلَقُ الاختِلافُ على التَّنَوُّعِ[4]، والمقصودُ بالاختلافِ في الآية: التَّنازُعُ في الدِّين وأحكامِه، بأن يأخذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريقِ الآخر.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآنُ الكريمُ هو الفاصلُ بينَ النّاس فيما يتنازعون فيه

يقولُ الحقُّ ﷻ: وما أنزَلْنا عليك القُرآنَ يا مُحمَّدُ ﷺ إلّا من أجلِ أن تُبَيِّنَ للنّاسِ - بواسطةِ بياناتِ هذا القُرآنِ - ما اختَلَفوا فيه مِنَ الدِّين، فتُرشِدَهم إلى الحَقِّ والصَّواب، وأنزَلْنا القُرآنَ هاديًا للقُلوبِ من كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ لِقَومٍ يُصَدِّقونَ بما فيه، ويُقِرّونَ بما تضَمَّنَه، ويَعمَلونَ به[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (خلف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خلف).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 268، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 404، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 230، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 122، وقال الشّوكانيّ: "الَّذِي اخْتَلَفوا فِيهِ مِنَ التَّوحيدِ، وأحوالِ البعثِ، وسائرِ الأحكامِ الشّرعيَّة". يُنظر: الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 208.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطف:

القرآنُ خاتمٌ لِما قبلَه، والخاتم تامٌّ في نفسه مُتمِّمٌ لغيره

جملةُ: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾[1]، فهي استكمالٌ لخطابه ﷺ، انتُقِلَ فيه مِنَ الإخبار عن تكليف الأنبياءِ قبلَه، بإرسالِهم بالوحي والبَلاغ، إلى الإخبار عن تكليفِه هو ﷺ ببيان التّنزيلِ وتبليغه، ويدلُّ هذا العَطفُ على معنى التّتميم بينَ المُتعاطِفَين؛ لأنّ القرآنَ نَزَلَ مُتمِّمًا لتلك الرّسالات الّتي بقيَت آثارُها في جزيرة العربِ، فأخبَرَ عنِ الأصلِ الأوّليِّ، وهو إرسالُ الرُّسلِ، وأتبعَهُ بالأصل التّامِّ الخاتمِ وهو نزولُ الكتابِ على الرّسول ﷺ.

دلالةُ التّعبير بالإنزال:

إنــزالُ الكتابِ مُؤذِنٌ بوثوقيّته، وعصمةِ مَصدرِه

عَبَّرَ في النّظم الكريم بالإنزال فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، ولم يُعبِّر بالإرسال، كما في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾؛ لأنّه لمّا كان الرّسولُ ﷺ هو الغايةَ الّتي انتهى إليها إرسالُ الرُّسلِ قبلَه، فخُتِموا به، ناسبَ هنا أن يُعَبِّرَ بالغاية مِن إرساله هو ﷺ، وهو إنزالُ الكتاب عليه؛ بيانًا للنّاس، فعَبَّرَ بالإنزال دونَ الإرسال.

دلالةُ نون العَظَمة:

تعظيمُ المُنْزِل والمُنْزَلِ والمُنزَلِ عليه

دلّتِ النّونُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ على التّعظيم للمُنْزِل؛ وهو اللّه، والمُنْزَلِ عليه؛ وهو الرّسولُ ﷺ، والمُنْزَلِ؛ وهو القرآن.

دلالةُ تَعَدّي الفعل (أنزل) بـ(على) دون (إلى):

تثبيتُ النّبيّ ﷺ وتسليتُه

التّعبيرُ بـ (على) في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ دونَ (إليك)؛ لأنّ الغرضَ ليس التّنبيهَ على وصول الكتابِ إلى النّبيِّ ﷺ، أو الإخبارَ

---

(1) صافي، الجدول: 14/ 345.

عن جِهتِه الّتي ينتهي إليها في الأرض، بلِ المُرادُ تثبيتُ شَخصِ النّبيِّ ﷺ، وتسليتُه وتقويتُه وتنشيطُه للبَلاغ، وهذا يُناسِبُه التّعبيرُ بحرف الاستعلاء الدّالِّ على قوّة التّنزيلِ في استحواذه على قَلبِ النّبيّ وضميرِه وشَخصِيّته، بحيثُ يتهيّأ به لأداءِ ما كُلِّفَ به مِنَ البيان في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، فكأنّ حَرفَ الاستعلاءِ يُفيدُ أنّ النّبيَّ ﷺ لا يتحرّكُ في أداء ذلك بِعَزمِ نفسِه، بل بَعَزمِ القُرآنِ الّذي أُلْقِي عليه، فهو يتحرّكُ تحتَ ظِلِّه، وينضوي تحتَ عُلوِّه.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمَجرور:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ في قوله: ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ لدلالة تكريم اللّهِ لرسوله، وإعلاءِ قَدرِه؛ لأنّهُ المَعنِيُّ بتبليغ ما أنزلَه اللّهُ تعالى لأُمّتِه.

تكريمُ اللهِ لرسولِه، وإعلاءُ قَدرِه

سِرُّ التّعبير بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دونَ (القرآن) أو (التّنزيل):

التّعبيرُ بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دونَ (القرآن) أو (التّنزيل) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لمناسبة المَقام قبلَه، فقد أخبرَ في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أنّ النّبيَّ ﷺ ليس بِدعًا في إرساله، فقد جَرَتْ عادَةُ اللّهِ أن يُرسِلَ الرُّسلَ قبلَه، فناسَبَ هنا أن يَصطفيَ لفظَ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دونَ (القرآن)؛ ليُشيرَ أنّ القرآنَ ليس بِدعًا في نزوله، فهو على غِرار تلك الكُتبِ الّتي أُرسِلَ بها الرّسلُ قبلَ النّبيّ ﷺ، كما كان الرّسولُ على غِرارهم في إرساله، ولم يُعَبِّرْ بالتّنزيل لتفادي التَّكرار؛ لأنّ وصفَ التّنزيلِ مفهومٌ مِنَ الفعل في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾، فلو عَبَّرَ بالتّنزيل لكان تَكرارًا مَمجوجًا، وإطنابًا مُستَهجَنًا، وتحصيلَ حاصِلٍ.

كونُ القرآنِ كتابًا، إشارة إلى دوام بقائِه؛ لأنّ المَكتوبَ لا يَبْلَى

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مُعَرَّفًا بـ (ال) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدّلالة على كماله، وبُلوغِه الغايةَ العليا في الهِداية، فهو الجديرُ بما يحملُه منها، بأن يُسَمّى كتابًا وحدَه.

كمالُ الكتابِ المُنزَلِ، وبلوغُه الغايَةَ في الهِداية

بلاغةُ أسلوبِ القَصر:

لبيان الغاية الجامعةِ مِنَ التّنزيل

قصَدَ النّظمُ الكريمُ إلى تعيين الغايةِ الجامعةِ مِنَ التّنزيل، فعَبَّرَ عن ذلك بصيغة النّفي والاستثناءِ المُفَرَّغ مِن أعمِّ العِلل؛ أي: ما أنزلْنا عليكَ لِعِلّةٍ مِنَ العِلَلِ إلّا لِتُبَيِّنَ؛ لإفادة معنى القَصرِ على أتَمِّ الوجوهِ وأوفاها[1]، والقَصرُ ادّعائيٌّ[2]؛ لأنّ بيانَ الاختلافِ هو الفائدةُ العُظمى مِنَ الكتاب، وليس كلَّ فوائدِه، ولكن لمّا كانت تلك الفائدةُ تستتبِعُ جميعَ الفوائدِ دونَها، ولا يستتبِعُها سواها، صارت كأنّها بمثابة كلِّ غاياتِه وفوائدِه، ولذا صَحَّ القَصرُ وحَسُنَ.

بلاغةُ التّعريضِ في جملة الاستثناء:

لا يُسيءُ الظّنَّ بالقُرآن أحدٌ إلّا أذَلّه الله وأضَلّه

في تركيب قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، وما أفادَهُ هذا التّركيبُ من معنى القَصر، تعريضٌ[3] بأولئك الّذين يتوهَّمون ويزعمون أنّ القرآنَ كتابُ وعظٍ وقَصَصٍ، أو لا يَعدو كونَه كتابَ أدبٍ عالٍ، وبلاغةٍ رفيعةٍ، فيزعمون أنّه ليس كتابَ حُكمٍ وقضاءٍ على ما سِواه مِنَ الكُتُب، وليس فُرقانًا حاسِمًا بين تبايناتِ الأفكار، وأشتاتِ العقائد، وحِزَمِ الاختلافاتِ والتّناقضاتِ، فعَرّضَ بتلك الفِئة في سوءِ ظَنِّها بالقُرآن، وإنزالِها له دونَ مَنزلَتِه، وبَيَّنَ أنّ القرآنَ ليس إلّا كذلك، وليس نازلًا إلّا لذلك ممّا رفضوه وجَرَّدوه منه، ولو جاء الأسلوبُ بغير هذا التّركيب ما أفاد كلَّ هذه المعاني.

دلالةُ اللّامِ في قوله ﴿لِتُبَيِّنَ﴾:

تعليلُ التّنزيلِ بغاية التّبيين

اللّام في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾؛ لتعليل التّنزيلِ بغاية التّبيين[4]، وفي هذا دلالةٌ على أنّ التّنزيلَ مُعلَّلٌ بغاية البيان فيما اختلفوا وسألوا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 196.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 196.

البيانُ هو أصلُ الكَشفِ والانجلاءِ

سِرُّ اختيارِ التّبيين دون غيرِه:

اختيارُ التّبيين دونَ غيره في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾؛ لأنّ البيانَ هو أصلُ الكَشفِ والانجلاءِ، وعُمدةُ الشّرح وإزالة الخفاء[1]، فعَبَّرَ بهذا اللّفظِ لأنّه الأصلُ في استجلاء شُبَهِ الاختلافِ والنّزاعِ، وحَسمِ مادّتِه، وهو المَذكور في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، وفي اصطفاء لفظ التّبيين هنا تَزكيَةٌ للرّسول ﷺ في حُجّتِه وبَراهينِ نُبوَّتِه، إذ هو يَحسِمُ الاختلافَ العتيقَ بينَهم، المُتَجَذِّرَ في أعماق نفوسِهم، بأيسرِ سبيلٍ وأقصَرِ طريقٍ، وهو طريقُ البيانِ، فكلمةُ (البيان) كلمةٌ سهلةٌ ليس فيها تعقيدٌ، فالكَشفُ الّذي يَحصُلُ بها لا يَعسُرُ فهمُه، فلا يَضيقُ عن أحدٍ فيهم أن يتلقّاه بتكلُّفٍ أو استثقالٍ؛ لأنّه بيانٌ يفهمُهُ القَريبُ والبَعيدُ، والمُتَفوِّقُ والعاديُّ مِنَ النّاس.

البيانُ هو جانبُ التّكليفِ المَنوطِ بالنّبيّ ﷺ

نُكتةُ إيثارِ الفعلِ على المَصدر:

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (إلّا لتبيينِ الذي اختلفوا فيه) فلم يُعَبِّرْ بالاسميّة، كما عَبَّرَ بها في المعطوفات الدّاخلةِ في حيِّز التّعليلِ في قوله: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾؛ للدّلالة على جانب التّكليفِ المَنوطِ بالنّبيِّ ﷺ أنْ يفعلَه ويقومَ به، وهو البيان، وللإشارة إلى أنّ القرآنَ لا يَتَبيّنُ بالحُكم والقضاء في مجالاتِ اختلافِهم مِن تلقاء نفسِه، بل لا بُدَّ مِن مُبيِّنٍ له، وقائمٍ به، ينفعلُ به في حَركته وسُلوكِه والأداءِ عنه، وللإيذان إلى أنّه مِن حيثُ كونُه: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ في ذاته، لا بدَّ أنْ يُبيَّنَ حتّى تنجليَ وتنكشِفَ خصائِصُه الذّاتيّةُ الثّابتةُ مِنَ الهُدى والرّحمة، فالهُدَى والرَّحمةُ فيه يتجلّيان بفعل التَّبيين.

الاهتمام والإشفاق

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرور:

تقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿لَهُمُ﴾ في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بين).

فِيهِ﴾، ولم يقُلْ: (لتبيّنَ الّذي اختلفوا فيه لَهُم)؛ لأنّ ذواتَهم هي المقصودةُ بالبيان، فقدَّمَها عنايةً بها، وحِرصًا عليها في تسريع البيانِ لها، وسَبقِه إليها، فالتّقديمُ للاهتمام والإشفاق، ولإفادة أنّ المقصودَ هو إيصالُ التّبيينِ لهم بغضّ النّظرِ عن مجالِه، سواء كان فيما اختلفوا فيه أو لم يَختلفوا فيه، ممّا احتاجوه.

دلالةُ عوْدِ الضّميرِ في ﴿لَهُمُ﴾:

بيانُ النّبيِّ ﷺ عامٌّ لكلّ الخَلْق

الضّميرُ في: ﴿لَهُمُ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ يفيدُ العمومَ بقرينة حال النّبيِّ عليه السلام، وهو إرسالُه بالبيان إلى النّاس كافَّةً، ويدخلُ فيه المُختلِفون بالكُفر والضّلال دخولًا أوّليًّا، ولا يُقالُ: إنّ الضّميرَ يعودُ على المُشركين وحدَهم، بقرينة تخصيص الهُدَى والرّحمة لقوم يُؤمنون، فيكون تبيينًا لاختلاف الكافرين، وهدايةً ورحمةً للمُؤمنين؛ الجواب من ثلاثةِ وجوهٍ:

الأوّل: على فرض تخصيصِ الاختلافِ بالكافرين وحدَهم، وهو الاختلافُ في أصل الدّينِ والعقيدةِ، فهذا لا ينفي عمومَ الضّمير في ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾؛ لأنّه يبيّنُ الاختلافَ ويكشِفُه للكافرين والمؤمنين، فهو للمؤمنين تثبيتٌ وعِصمةٌ، وللكافرين تصحيحٌ وإرشادٌ واحتجاجٌ.

الثّاني: أنّه لا إشكالَ في أن يكونَ المرادُ مِن ضمير الجمع في ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾ العُمومَ أيضًا، بحَملِه على عُموم الاختلاف في أمور الدّنيا والدّين، وهذا مُشتَرِكٌ بين الكافرين والمؤمنين، والرّسولُ عليه السلام حاكِمٌ ومُبيِّنٌ لذلك جميعًا.

الثّالث: أنّ المؤمنين لم يكونوا مُؤمنين ساعةَ ابتداء تنزيلِ الكتاب، ولذا فالكتابُ نازِلٌ ليُبَيِّنَ الرّسولُ لجميع النّاس أوّلًا ما اختلفوا فيه، حتّى يتأتّى إيمانُهم أصلًا، ويتمَّ لهم، ولذا فالضّميرُ للعُموم، بناءً على هذا الأصل.

سِرُّ التّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الغايةُ الأصيلةُ مِنَ التّنزيل حَسمُ الاختلافِ في الدّين

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (لتبيّنَ لهُم ما اختلفوا فيه)، بل عَرَّفَ الصِّلةَ بالموصول الخاصِّ (الذي)، فقالَ: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾؛ إمّا لتعيين مجالِ الاختلافِ وتمييزِه، وهو الاختلافُ في العقائد والمِلل، والاختلافُ على الأنبياء، وهو اختلافُ الدّين؛ لأنّه الغايةُ الأصيلةُ مِن إرسال الرُّسلِ وإنزالِ الكُتبِ، فيكون المُرادُ بالموصول الخصوصَ، وإمّا أن يُرادَ بالموصول العمومُ.

وأوثِرَ ﴿ٱلَّذِى﴾ دون (ما) للنّصِّ على أنّ مجالاتِ هذا الاختلافِ مَحصورةٌ ومَعلومةٌ لديهم، وهي مُهمّاتُ الاختلافِ في أشتات الشّؤونِ الّتي تتحدَّدُ بها المَصالحُ، وتندفعُ المَفاسِدُ، ولا يمكنُ ذلك إلّا بحسمِها وبيانِها، ولو قِيلَ: (ما اختلفوا فيه) لأوهَمَ الإبهامَ.

نُكتةُ التّعريف بالصِّلة:

الاختلافُ بريدُ الضّلال

مجيءُ مفعول التّبيين مِنَ الموصول وصِلتِه: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، أفاد تعليلَ الفِعل بالصّلة، فسببُ البيان هو اختلافُهم؛ لأنّ اختلافَهم هو سببُ ضلالهم.

مَوقِعُ جملة: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ ممّا قبلَها:

تمامُ البيان مُؤذِنٌ بنزول الهدى والرَّحمة

جملةُ: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ معطوفةٌ على محلّ جملة الاستثناء: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾؛ أي: للتّبيين والهِداية والرّحمة، وهما في محلّ نَصبِ مفعولٍ لأجله، مِنَ الفعل والفاعل: ﴿أَنزَلۡنَا﴾، وانتصبا لاتّحادِ الفاعلِ في الفِعل وفيهما؛ لأنّ المُنَزِّلَ هو اللّهُ، وهو الهادي والرّاحِمُ، ودخلَتِ اللّامُ في: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ لاختلاف الفاعلِ؛ لأنّ المُنَزِّلَ هو اللّهُ، والتَّبيينُ مُسنَدٌ للمُخاطَب، وهو الرّسولُ ﷺ[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 552.

سِرُّ الجمعِ بينَ الهِداية والرّحمة:

الهِدايةُ والرّحمةُ أثران من آثار اتّباعِ بيانِ الرّسولِ ﷺ

جُمِعَ بينَ الهِداية والرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ لأنّهما أثرُ اتّباعِ تبيينِ الرّسول ﷺ، فالبيانُ كاشِفٌ يهدي، والهدايةُ بريدُ الرّحمةِ والسّلامَةِ، ولذا قَدَّمَ البيانَ أوّلًا؛ فبِهِ تتجلَّى مَواطِنُ الهدايةِ، ثُمَّ قَدَّمَ الهِدايةَ؛ لأنّها مَحلُّ الأمنِ والسّلامةِ، والدّخولِ في حَيّزِ الرّحمةِ.

سِرُّ تقديمِ الهُدى على الرّحمة:

الهِدايةُ سببٌ في نزولِ الرّحمةِ

قَدَّمَ القرآنُ الكريمُ ذِكرَ الهُدى على الرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ لأنّ الهُدى سببٌ في نزول الرّحمة، وللدّلالة على أنّ الرّحمةَ المَذكورةَ في الآية بعدَ الهُدى هي الرّحمةُ الخاصّةُ بالمؤمنين، وليستِ الرّحمةَ العامّةَ.

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾:

الاجتماعُ وعدمُ الاختلافِ يورِثُ الهُدى والرّحمةَ

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (ورحمةً للمؤمنين) أو (ورحمةً للّذين آمنوا)، بل قال: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[1]؛ للدّلالة على أنّ المؤمنين أمّةٌ مُجتمِعةٌ اجتماعَ القوم على الإيمان، ففيه إلماحٌ إلى أنّهم مُتعزِّزون بولايةِ بعضِهم بعضًا، وتَقَوُّم بعضِهم ببعض.

وهذا الختامُ بتلك القوميّة بديعٌ؛ لأنّه يُشيرُ إلى أنّ المؤمنين لا يصيرون قَومًا مُجتمعين حتّى يَتَحَقّقوا بالبيان الّذي يَحسِمُ مادّةَ الاختلاف، ويَجتثُّ عوارضَ النّزاعِ بينَهم، وحتّى يتحقّقوا بوصف الكتابِ مِنَ الهدى والرّحمة، فيهدي بعضُهم بعضًا، ويرحمُ بعضُهم بعضًا، فإذا استَوفَوا في أنفسهم حقيقةَ البيانِ، وحقيقةَ الهُدى والرّحمة، تحقَّقَتْ لهم قوميّتُهم المَصونةُ والمَعصومةُ، بقوّة هذا الكتاب العظيمِ، الّذي أُنزِلَ لأجلهم حتّى يصيروا به قومًا مُؤمنين، فكأنّه لمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 197.

ذَكَرَ أنّ الاختلافَ زائِلٌ بالبيان في قوله: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، أشارَ بذِكر الهدى والرّحمة بعدَه إلى أنّ الاتّفاقَ وعدمَ الاختلافِ يورِثُ الهدى والرّحمةَ، ويُفسِحُ لحضورهما، فإذا زالَ الاختلافُ وحضرَ الهدى والرّحمة، استأهَلَ المؤمنون أن يكونوا قومًا مَوصوفين بذلك.

دلالةُ التّعبير بالمضارع:

تَجدُّدُ إيمانِ المؤمنين في كلّ وقتٍ وحِين

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالفعل المضارع: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للإشارة إلى تَجَدُّدِ إيمانِ هؤلاء المُؤمنين فى كلِّ وقتٍ وفي كلِّ حين، فكلُّ عملِ خيرٍ هو تجديدٌ للإيمان.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البيانُ والتّفصيلُ:

التّفصيلُ أعمُّ مِنَ البيان، وهو غايته

التّفصيلُ: هو التّمييزُ بينَ شيئين، بحيث تُقيمُ فاصلًا بينهما، فلا يتداخلان أو يتمازجان، والبيانُ: هو كشفُ الشّيء وتجليَتُه وإيضاحُه باستقلالٍ، من غير اشتراطِ وقوعِه مُقارَنًا بغيره، أو استصحابِ غيرِه معه.

ولذلك فالتّفصيلُ بيانٌ زوجيٌّ أو جَمعيٌّ لمُتعدِّدٍ، والتّبيينُ بيانٌ فرديٌّ لا يَلزَم فيه استحضار معنى الثُّنائيّة أو التّعدّديّة.

والتّفصيلُ هو الانتقالُ بينَ الفُصول والمُقابَلات، والتّبيينُ: هو مُطلَقُ الإيضاح[1]، وعليه: فالتّفصيلُ أعمُّ مِنَ البيان، فهو بيانٌ مَزيدٌ بتحريرٍ وإقالةِ المُبَيَّناتِ بعضِها عن بعض، بحيث لا يُحتَمَلُ معها تداخُلٌ أو التباسٌ، ولا يقعُ عليها إيرادٌ أو إشكالٌ، ولا تفتقرُ لاستيفاءٍ واستتمام، والتّفصيلُ هو غايةُ التَّبيين، فلا يمكنُ التّفصيلُ مِن غير بيانٍ، ولكن يمكنُ التَّبيينُ من غير تفصيلٍ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بين - فصل)، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 212، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 230.

المتُشابِهُ اللّفظيُّ:

تشابَهَت هذه الآيةُ مع قوله تعالى في نفس السّورة: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النّحل: 89]، والنّاظرُ فيهما يجدُ أنّ كلَّ آيةٍ منهما اختُصَّت بصيغةٍ مِن صِيغ الإنزال، وبما فيها بعدَ قوله: ﴿عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [النحل: 64، 89].

ووجهُ ذلك: أنّ الآيةَ الأولى يسبقُها قولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ الآيات، والمناسبُ لسياقها أن يُعَبَّرَ بالفعل (نَزَّلَ) لتأكيد نزولِ الكِتاب؛ لكن لمّا كان التّعبيرُ بأسلوب القصر (النّفي والاستثناء) فيه كفايةٌ للتّأكيد، ناسبَهُ التّعبيرُ بالفعل (أَنزَلَ)، ولمّا كان المُشركون هُم مَن اختلفوا في أمر توحيد الله تعالى، وكان السّياقُ مُتعلِّقًا بالحاضر والمُستقبل، ناسبَهُ التّعبيرُ عنِ البيان بالفعل المضارع، وتخصيصُه بما اختلفَ فيه المُشركون بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، ولمّا كان هؤلاء غيرَ مُؤمنين - كما بيّنتِ الآياتُ - ناسبَه بيانُ أنّه لا ينتفعُ بالهُدى والرّحمة إلّا مَن قاموا بالإيمان حَقَّ قيامِه بقوله: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

أمّا الآيةُ الأُخرى فقد بدأت بقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النّحل: 89]، ولمّا كان الخِطابُ للرّسول ﷺ، وكان السّياقُ مُتعلّقًا بالمُسلمين، وكان ظاهرُ السّياقِ أن يُعَبَّرَ بالفعل (أنزل)، لكن لمّا أُريدَ تأكيدُ النّزولِ مَحبّةً مِنَ الله لرسوله وللمسلمين ناسبَهُ التّعبيرُ بالفعل (نَزّل).

ولمّا كان المُرادُ بيانَ عُموم رسالته ﷺ للعالَمين كافّةً، ناسبَهُ أن يكونَ الكتابُ شديدَ البيانِ لكلِّ شيءٍ، وكَون الكتابِ بُشرَى لعامَّةِ المسلمين، فيه مناسبةٌ لعموم الرّسالة.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥﴾ [النحل: 65]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

إنزال المطر مَقْنَعٌ للمتفكِّرين، وتنبيهٌ للغافلين

لمّا انقضى الدَّليل على أنَّ قلوبَهم مُنْكِرَةٌ استكبارًا، وجحودًا وإنكارًا؛ شرع سبحانه في تقرير دلائل وحدانيَّته، ومظاهر قدرته، والتَّذكير بسابغ نعمته؛ فبدأ بنعمة المطر التي هي أبين العبر، وهي ملاك الحياة، وهي في غاية الظُّهور لا يُخالف فيها مَن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمع وهو شهيد(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡمَعُونَ﴾: السَّمع: الأُذُن، وكذلك: قوَّةٌ في الأُذُن بها تدرك المسموعات، وكذلك: ما وقَر في الأُذُن مِن شيءٍ تسمعه، ويُطلَق السَّمع أيضًا على مصدر سَمِعَ يَسمَعُ، فهو سامِعٌ(2)، والسَّميع: هو الموصوف بأيِّ معنًى من هذه المعاني(3)، والسَّميع من أسماء اللّه ﷻ: وهو الَّذي وسِع سمعه كلَّ شيءٍ بغير جارحة، فلا يعزُب عنه شيءٌ من المسموعات وإن خفي(4)، ومعناه المحوريُّ: إيناس الشَّيء بالأُذُن(5).

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ أحيا الأرض المَوات، وأخرج منها النَّبات لا يُعجزه إحياءُ الأموات

واللّه سبحانه أنزل بقُدرته الخارقة ورحمته الواسعة مِنَ السَّحاب مطرًا فأنبت به الأرض بعد يبوستها؛ إذ كانت ميتةً لا زرع

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 404، والرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 231، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 553، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 191، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 413.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).

فيها ولا عشب، إنَّ في ذلك لدليلًا على قُدرة اللّه على البعث وعلى الوحدانيَّة لقوم يسمعون هذا الكلام سماع تدبُّرٍ وإنصاف؛ فيطيعون اللّه ويتَّقونه بما دلَّهم عليه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطف الآية على سابقتها:

في إنزال الكتاب إحياءُ القلوب، وفي إنزال المطر إحياءُ الأرض الجدوبِ

أوثِر وصْل هذه الآية بسابقتها لِما بينهما من شديد الصِّلة من حيث المعنى الَّذي تؤدِّيه كلٌّ منهما؛ إذ إنَّه لمّا كان ما تحيا به النُّفوس من إرسال الرُّسُل مبشِّرين ومنذرين رحمةً من اللّه بخلقه، وفي إنزاله الكتابَ حاكمًا بين النّاس رحمةً من اللّه، أتى ذِكر ذلك في الآيات السّابقة؛ لِما فيها مِن ذِكر ما به إحياء النُّفوس، فذَكَر بعد ذلك ما به إحياء الأرض - وهو المَطَر - بجامع الإحياء والرَّحمة في كلٍّ، ففي إرسال الرُّسُل وإنزال الكتاب إحياء النُّفوس والقلوب رحمةً بها، وفي إنزال المطر إحياءٌ للأرض رحمةً مِنَ اللّه بخلقه، فبهذا الجامع حَسُنَ الوصل بين الآيتين، "ولولا هذا لكان قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ كالأجنبيِّ عمّا قبله وبعده"[2]، "ويكفي في ربط الآية بما قبلها تشارك الكتاب والمطر في الإحياء لكن في ذاك إحياء القلوب، وفي هذا إحياء الأرض الجدوب، فتأمَّل"[3].

فائدة تكرار التَّذكير بنِعمة إنزال الماء في السّورة:

في تكرار التَّذكير بـالمِـنَن توجيهٌ لأنظار القلوب إلى النِّعم المنّان

ذِكر إنزال الماء فيما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾ [النحل: 10] كان على سبيل الاستدلال به على وحدانيَّة اللّه، أمّا هنا فعلى سبيل الامتنان بهذه النِّعمة من اللّه على خَلْقه، الَّتي هي إحياء الأرض

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 269، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 27، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 498، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 231.

(2) الشهاب الخفاجي، حاشية على البيضاوي: 5/ 344، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 414.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 414.

بعد موتها بالماء النّازل من السَّماء، وفي هذا الإحياء من النِّعم ما لا يخفى، فبِهِ قِوامُ عَيْشِ الإنسان، والبهائم التي ينتفع الإنسان بها، وبهذا اختلف التَّوجيه بين الآيتين؛ لاختلاف الاعتبار والغرض الأوَّليِّ الَّذي ذُكرت لأجله كلتا الآيتين، فالأولى نِعمةٌ مسوقةٌ مساقَ الاستدلال، والثّانية مسوقةٌ مساق الامتنان[(1)].

وإنَّما بدأ بنعمة المطَر في سياق الامتنان عند قصِّ العِبَر المُؤدِّية إلى بيان أمر الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ المطَر أبْيَنُ العِبَر، وهو مِلاك الحياة، وهو في غاية الظُّهور، ولا يختلف فيه عاقل[(2)].

غرضُ تقديم المُسنَد إليه في جملة ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾:

ليس لمَن يُعبَد من دون الله مثقال ذرَّة، ولا يقدرون على إنزال قطرة

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ قدَّم المُسنَد إليه، وهو لفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ على المُسنَد الفعلي ﴿أَنزَلَ﴾ للاختصاص، أي أنَّ اللّه الَّذي له الأمر كلُّه، وليس لغيره من الأمر شيءٌ، هو - وحده لا غيره - أنزل من السَّماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها، فدلَّ ذلك على انفراده سبحانه بهذه النِّعمة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [التوبة: 101]؛ أي: لا يعلمهم غيرنا لإبطانهم الكفر[(3)].

دلالة إظهار لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

ناسب التَّعبيرُ بالظّاهر السّاطع الإشارةَ إلى البرهان القاطع

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾ إظهار اسم الجلالة دون الضَّمير، فلم يَقُل مثلًا: وهو الَّذي أنزَل؛ لأنَّ العَلَم أظهر وأوضح في الدَّلالة على تحقيق الانفراد بالخَلْق والإنعام دون غيره من شركائهم، كما هو مقتضى الظّاهر، فناسب هذا دلالةَ الآية على انفراد اللّه بالخَلْق والإنعام، فكان الأليق استعمال العَلَم الظّاهر، دون الإضمار، ولأنَّ المشركين كانوا مُقرِّين بأنَّ اللّه وحده هو فاعل

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 197.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 404، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 553.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 191، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 197، 198، والصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 113.

هذه الأشياء، فكان في الإظهار تنبيهٌ لهم على الانفراد والوحدانيَّة المقصود بالآية[1].

دلالة (مِن) في قوله ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

في لفت الأنظار إلى السَّماء ترغيبٌ في ثوب ترهيب، وتحذيرٌ في ثوب تذكير

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الابتداءُ، كما نقول: خرجت مِنَ الكوفة إلى بغداد، أي ابتداء الخروج مِنَ الكوفة، وانتهاؤه في بغداد، يكون معنى الآية على ذلك: أنزل ماءً ابتداءُ نزوله من السَّماء[2]، وفي هذا ما فيه من لفت الأنظار إلى مكان نزول الماء الَّذي به قِوام الحياة، وتوجيه الأبصار إلى السَّماء وما فيها من آياتٍ باهرةٍ لم تَخلق معبوداتُهم الباطلة شيئًا منها وما ينبغي لهم وما يستطيعون!، وفيه أيضًا تذكير لهم بأنَّ قِوام حياتهم ليس مخزونًا في الأرض يخرجونه وقت ما يشاؤون، بل هو مُنَزَلٌ مِنَ السَّماء، ومُنَزِله قادرٌ على منعه، فهذا ترهيبٌ في ثوب ترغيب، وتحذيرٌ في ثوب تذكير.

نوع (اللّام) ودلالتها في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

السَّماء معلومة، وآياتها مشاهَدَةٌ للعالمين، وما زال الكفّار للصّانع منكرين

السَّماءُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بمعنى السَّحاب، فتكون (اللّام) في السَّماء للعهد الخارجيِّ، فتكون السَّماء بمعنى السَّحاب، فتدلُّ على أنَّ المقصود هو السَّماء المعيَّنة المعلومة لدَيْنا[3]، وفي هذا نوع تعريضٍ بالمشركين الذين يرَون السَّماء وهم عن آياتها معرضون، فالسَّماء لهم معروفة، وآياتها مشاهَدَة، فاللّٰه سبحانه يمتُّن عليهم بما يعرفون ويلمسون، لا بما يجهلون، ومع ذلك يستكبرون، ويولّون معرضين!

غَرَضُ تنكير ﴿مَآءً﴾:

التَّنكيرُ للتَّكثير، وفي ذلك تبصيرٌ بالنِّعَم وتذكير

جاءت كلمة ﴿مَآءً﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 198.
(2) الرماني، منازل الحروف، ص: 49، والمرادي، الجنى الداني، ص: 308.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 122، والصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 90.

لأجل التَّكثير؛ أي: أنزل ماءً كثيرًا، سواء كثرة كمِّيَّة، أو كثرة أنواع، فمن هذا الماء: مطَرٌ، وثلجٌ، وبَرَدٌ، أو كلاهما معًا، بأنْ يكون الماء من هذه الأنواع الكثيرة، وبكمِّيَّةٍ كثيرة[1]، وفي هذا التَّكثير تعديدٌ للنِّعَم، بل لمُتعلِّقات النِّعمة الواحدة؛ للفت الأنظار إليها، وإلى مَن أنعم بها.

دلالة الفاء في قوله ﴿فَأَحۡيَا﴾:

لم يترك الله عِباده بلا رِزقٍ، ولم يفرغ دثارهم من النِّعم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ فاء التَّعقيب، وتعقيب كلِّ شيءٍ بحَسْبِهِ، فلا يتعارض ذلك مع المُهْلَةِ الَّتي بين إنزال الماء مِنَ السَّماء، وإحياء الأرض بعد موتها، مثال ذلك قولنا: تزوَّج، فوُلِدَ له الوَلَدُ[2].

وقد أفاد هذا التَّعقيب أمريْن:

أحدهما: ترتيب إنبات النَّبات على إنزال الماء من السَّماء للفت أنظار المُعرضين إليها، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذّاريات: 22].

والآخر: أنَّ المُهلة الزَّمنيَّة بين إنزال المطَر وإنبات النَّبات ليست طويلة، فاللّٰه سبحانه لم يدَع عِباده بدون رِزْقٍ، بل أغدق عليهم رِزقه، وأسبغ عليهم نِعَمه.

دلالة حرف الجرِّ في ﴿بِهِۦ﴾:

جعَل الله لكلِّ موجودٍ سببًا، ومَن تتبَّع الأسباب هُدِيَ إلى مُسبِّبها الأعلى

الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ باء السَّببيَّة، أي أنَّ اللّٰه تعالى هو الذي يُحيي الأرض بعد موتها بسبب الماء، وبواسطة الماء[3]، وفيه تنبيهٌ على أن لكلِّ شيءٍ سببًا، ولكلِّ سببٍ مسبِّبًا إلى مسبِّبٍ لا مسبِّب له، بل هو واجب الوجود لذاته، وليس ذلك إلّا للّٰه ﷻ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 19، والمراغي، علوم البلاغة، ص: 127.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 124، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 413.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 231، والمرادي، الجنى الداني، ص: 39، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 413.

غرضُ تقديم شبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

تقدَّم شبه الجملة ﴿بِهِ﴾ على مُتعلّق الفعل ﴿فَأَحۡيَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ لغرض الاهتمام بشأن المُقدَّم أو الإشعار بالاهتمام به[1]، وعلَّة ذلك التَّنبيه على أنَّ إحياء الأرض بالنَّبات إنَّما يحصل بواسطة الماء الذي أنزله اللّه مِنَ السَّماء، فليس لمعبوداتهم الباطلة شيءٌ من ذلك ألبتَّة، ولا يَقدر على ذلك إلّا اللّه سبحانه، فإذا كان اللّه تعالى هو الذي أطعَمهم وسقاهم، فكيف يعبدون غيره؟

اللّه سبحانه يُطعِم ولا يُطعَم، فكيف يُعبَد غيرُه ممَّن يُطعَم ولا يُطعِم؟

نوع (اللّام) ودلالتها في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

معنى (اللّام) في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [فاطر: 9] هو بيان الجنس، فلم يَقُل مثلًا: فأحييناه؛ أي: البلد الميت به تعليقًا للإحياء بالجنس المعلوم عند كلِّ أحدٍ، وهو الأرض[2]، فهي الأرض التي وطِئتها أقدامُهم، وهي الأرض التي افترشوها، وهي الأرض التي حرثوها، لكنَّ الذي أحياها هو اللّه واهب الحياة.

الذي أحيا الأرض بالمياه هو اللّه واهب الحياة

سرُّ تقييد الإحياء بالظَّرف: ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ ظرفٌ مُتعلِّق بمحذوف حال[3]، وهذا القيد فيه إظهارٌ للمنَّة، وإسباغٌ للنِّعمة، فتلك الأرض التي كانت مواتًا لا يقدر أحدٌ على إحيائها بالنَّبات إلّا اللّه ﷻ ومَن قَدرَ على إحياء الأرض فهو على إحياء البَشَرِ أقدرُ.

مَن قَدَر على إحياء الأرض بأنواع الثَّمَر فهو على إحياء البشر أقدر

غرضُ الاستعارة في إحياء الأرض وإماتتها:

المُراد بإحياء الأرض في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ إنباتُ الزَّرع والشَّجر والنَّوْر والثَّمر بعد أنْ كان لا يُثمر، وينفع بعد أنْ كان لا ينفع[4]، فالإحياء والموت استعارةٌ للإنبات

اللّه سبحانه واهب الحياة، ولا يقدر على ذلك أحَدٌ سواه

(1) المراغي، علوم البلاغة، ص: 107.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 345.

(3) درويش، إعراب القرآن: 5/ 330.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 231.

واليابس، وليس المُراد إعادة اليابس بل إنبات مثله[1]، وسمَّى اللّه تعالى الأرض من غير نَباتٍ بالميتة تشبيهًا للأرض القفر الجرداء بالميتة؛ لأنَّه ليس على ظهرها حياةٌ، وجعل الماء سببًا لإحيائها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30][2]، وأشار سبحانه بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122] فكما تصير الأرضُ خَضِرَةً بالنَّبات نَضِرَةً بعد همودها، كذلك القلْب يحيا بالقرآن بعد أن كان مَيْتًا بالجهل[3].

سِرُّ إسناد الموت إلى الأرض لا إلى الله:

اللّه جليل، ولا يُنسب له إلّا كلُّ جميلٍ

للأرض حالان: حالُ الجدب واليبوسة، وهي التي وصَفَتها الآية الكريمة بالموت، وحالة الاخضرار والاهتزاز بالنَّبات، وهي التي وصفتها الآية الكريمة بالحياة، ولا شكَّ أنَّ حالة الإنبات أحبُّ إلى المخاطَبين وأنفع، ولمّا كانت الآية مسوقةً مساقَ الامتنان ناسب أن يُسند فِعل الإحياء للّه تعالى، وأن يُسند الموتُ إلى الأرض، وكذا كلُّ فِعلٍ طيِّبٍ يُنسب إلى اللّه تعالى ما لم يكن كذلك فلا يُنسب له تأدُّبًا، وذلك نحو قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10].

بلاغةُ المُقابلة في الآية الكريمة:

مَن ملَك الأرض والسَّماء، والإماتة والإحياء، هو وحده المستحقُّ للعبادة

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ مُقابلة بين السَّماء والأرض، والإحياء والإماتة، وهذه المُقابلة إنَّما اكتسبت بلاغتها وجمالها مِنَ المجيء بها في سياق إظهار القُدرة، والامتنان بالنِّعمة، فللّه سبحانه ما في السَّماوات وما في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 413.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 209.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 553.

الأرض، وهو مالكهما، ولله سبحانه الإحياء والإماتة، فمَن ملَك هؤلاء هو المُستحقّ للعِبادة.

موقع قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾:

تنفع الآيات مَن أصغى إليها سمع قلبه، وتدبَّرها بلُبِّه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفة استئنافًا بيانيًّا لتنزيلها منزلة سؤالٍ مقدَّر، فكأنَّه قيل: هل فيما سبق ذكرُه آية؟ أو: في ذلك آيةٌ لمَن؟! فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، وهذا مِمّا يحسِّن الإتيان بمؤكِّدات[1].

دلالة توالي المؤكِّدات في فاصلة الآية:

قوارعُ السَّمع مطارقُ القَلْب، توقظُه من سُباته، وتزيل عنه غِشاواته

في هذه الجملة الكريمة مجموعةٌ من المؤكِّدات هي:

الحرف النّاسخ ﴿إِنَّ﴾، وتقديم شبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، واللّام في قوله: ﴿لَآيَةً﴾، ووقوع الجملة موقع الاستئناف البيانيِّ، وهذه المؤكِّدات كأنَّها قوارع توقظ القلوب من غفلتها، وتضع الأيدي على الحقيقة الدّامغة أنَّ في هذه الأمور المُتقدِّم ذِكرها آيةً دامغةً وبراهينَ ساطعةً لمَن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمع وهو شهيد، وقد حسُن توالي هذه المؤكِّدات لمّا كان الكلام موجَّهًا إلى منكرِين، لإقامة الحُجَّة عليهم.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

في إحياء الأرض بماء الأمطار عِظةٌ للَّذين يسمعون سمع اعتبار

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ قُدِّم المسند، وهو شبه الجملة، على المسند إليه، وهو قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ لغرض التَّنبيه على أنَّ المقدَّم هو مناط الاستعظام ولفت النَّظر إليه وفيها كذلك تخصيصٌ للمتقدِّم، فكأنَّه قيل: إنَّ الآية التي يتَّعظ بها الذين يسمعون سمع اعتبارٍ إنَّما هي في إحياء الأرض بمياه الأمطار، فكأنَّه نزَّل هذه الآية المفردة منزلة جميع الآيات، ليكون مَن كفر بها أو أعرض عنها

(1) الصعيدي، بغية الإيضاح: 2/ 295.

كمَن كفر بجميع الآيات، وإنَّما خُصِّصت هذه الآية بهذا لوضوحها وجلائها فلا يكاد يُنكِرها أحدٌ.

غرضُ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أوثر التَّعبير باسم الإشارة دون الضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ليكون محلُّ الآية جميع المذكورات مِن إنزال المطر وإحياء الأرض به، وموتها من قبل الإحياء[1]، وللتَّعبير باسم الإشارة في سياق المدح دليلٌ على التَّعظيم، وأمّا عن نكتة مجيئه للبعيد، فلتعظيم المشار إليه، وأنَّه قد بلغ غايةً في العُلوِّ والتَّعظيم سامقة[2].

آيـات الله عظيمةٌ وآلاؤه جسيمة، ولا يُعرض عنها إلّا أصحاب النُّفوس الذَّميمة

معنى اللّام في قوله: ﴿لَآيَةً﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ هي اللّام المزحلَقَة المفيدة للتَّوكيد[3]، وإنَّما حَسُن هذا التَّوكيد لكون الكلام موجَّهًا لمخاطَبين منكرين، فأُقيمت عليهم الحجَّة به.

تكفي المؤمنين الإشارة، ويحتاج الكافرون إلى توكيد العبارة وتكرير النِّذارة

غرض التنكير في قوله: ﴿لَآيَةً﴾:

مِن أغراض التَّنكير: التَّعظيم[4]، وهو المقصود في هذا السِّياق، أي: إنَّ في إنزال الماء من السَّماء، وإحياء الأرض به من بعد موتها آيةً عظيمةً وجليلةً، وبغرس الإيمان في القلوب كفيلة، ودلالة واضحة تدلُّ على وحدانيتنا وقدرتنا وحكمتنا[5].

إحياء الأرض بالماء من بعد موتها آيةٌ جليلة، وبغرس الإيمان في القلوب كفيلة

دلالة اللّام في قوله: ﴿لِّقَوۡمٍ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ تفيد الاختصاص[6]، وقد وصفهم الله بالسَّماع الذي هو سماع اعتبارٍ واتِّعاظٍ، وهذا هو نوع السَّماع

في آيات الكون عِبرٌ للمؤمنين، وعِظاتٌ للمتدبِّرين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 198.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 413.
(3) محمود صافي، الجدول: 7/ 346.
(4) المراغي، علوم البلاغة، ص: 127.
(5) طنطاوي، الوسيط: 8/ 182.
(6) المرادي، الجنى الداني، ص: 96.

المُؤدِّي إلى المطلوب؛ فلذلك خُصِّص في الآية دون غيره، وإنَّما خصَّ كونها آيةً لهم؛ لأنَّ غيرهم لا ينتفعون بها، ويحتمل أن يكون المعنى: لقوم يسمعون من الغير، فكيف الذين يبصرونه؛ أي: ذلك آيةٌ للأعمى، فكيف البصير؟!)[1].

غرض التنكير في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

مَن كان سميع القلب، بصير العقل، مطبوعًا بذلك هُدِي إلى سواء السَّبيل

قال تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ وليس (للّذين يسمعون) أو (للسّامعين)؛ لأنَّ إجراء الوصف على لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ يومئ إلى أنَّ ذلك الوصف سجيَّةٌ فيهم، ومن مكمِّلات قوميَّتهم، فإنَّ للقبائل والأُمم خصائص تميِّزها وتشتهر بها، فالمعنى: أنَّ في ذلك آيات للذين سجيَّتهم السَّمع سمع الاعتبار والاتِّعاظ، وهو تعريضٌ بأنَّ الذين لم ينتفعوا بآيات ذلك ليست أسماعهم براسخةٍ ولا هي ملكات لهم[2] وجيء به نكرةً لإفادة العموم، فإنَّ أيَّ قوم اتَّصفوا بهذه الصِّفة سيصلون لهذه النَّتيجة، وهي الإقرار والاعتبار.

بلاغة الكناية في ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾:

مَن لم يسمع بقلبه فهو الأصمُّ، وما يغني سماع الأُذن عن رفع الذَّمِّ

في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ تعبيرٌ عن التَّدبُّر بالسَّمع لأنَّ السَّمع من أهمِّ وسائل التَّدبُّر، فمَن لم يسمع بقلبه فكأنَّه أصمُّ لم يسمع، والمُراد بالسَّمع: القبول كما في (سَمِعَ اللّه لِمَنْ حَمِدَهُ)؛ أي: لقومٍ يتأمَّلون فيها، ويعقلون وجه دلالتها، ويقبلون مدلولها[3].

فالسَّمع هنا مستعمَلٌ في لازم معناه على سبيل الكناية، وهو سماع التَّدبر والإنصاف لما تدبَّروا به، وهو تعريضٌ بالمشركين الذين لم يفهموا دلالة ذلك على الوحدانية، ولذلك اختير وصف السَّمع هنا، والمُراد منه الإنصاف والامتثال؛ لأنَّ دلالةَ المطر وحياة الأرض

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 59.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 89.
(3) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 59.

به معروفةٌ مشهورة، ودلالة ذلك على وحدانية اللّه تعالى ظاهرة لا يصدُّ عنها إلّا المكابرة(1).

دلالة التَّعبير بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

لا يحتاج الحقُّ دليلًا عليه لظهوره، بل يحتاج إلى إصغاء سمع القلب لتلقّي نوره

كان ظاهر السِّياق أن تكون هذه لقوم (يَنْظُرونَ)، ولكنَّه عدَل إلى السَّماع فقال اللّه تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ للإشارة إلى أنَّ النَّظر لا يبصر المعاني إذا لم يكن قد سمع الحقَّ وأذعن له، وكذلك العقل لا يفكِّر إذا لم تكن هدايةٌ من السَّماء له، فلا يعتبر بنِعَم اللّه تعالى إلّا من سَمع الحقَّ وآمن به وأذعن له، وإلّا فهي غاشيةٌ لا يبصر ولا يدرك، إن هو إلّا كالأنعام أو أضلُّ سبيلًا(2).

وعُبِّر بالمضارع ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ للدَّلالة على أنَّ العِظة إنَّما تحصل لَمن أدمن التَّدبُّر، وراض نفْسه لقبول كلِّ آيةٍ من آيات الحقِّ، فمهما رأى من عجيب صنع اللّه، أو سمع من آيات اللّه تعالى آمَن وقبِل بلا تردُّد، ومِن هنا تظهر بلاغة استخدام المضارع الدّال على الاستمرار والتَّجدُّد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 198.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 209.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مستخلص الأنعام الآيات الجسام، والأدلّة العظام

لمّا ذكر ﷻ إحياء الأرض بعد موتها بالنَّبات والزَّرع؛ ذَكَر الأنعام التي هي مألوف العَرَب؛ حيث لا حياة لها بغير المطر النّازل مِنَ السَّماء والنَّبات النّاشئ عنه، ثمَّ نبَّه سبحانه إلى ما في هذه الأنعام مِنْ دلائل قُدرته، وبدائع صنعته؛ وهو اللَّبن المُخْرَج من بين الفَرْثِ والدَّم دون أن يبغي عليه أيٌّ منهما؛ حيث لا يَسَعُ الإنسانَ إلّا أن يقف منبهرًا تهتف كلُّ ذرَّةٍ فيه بتسبيح الخالِق البديع جلَّ في عُلاه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعِبۡرَةٗۖ﴾: "أصلُ العَبْر: تجاوزٌ من حالٍ إلى حال"، والعِبرة: الحالةُ التي يُتوصَّل بها مِن معرفة المشاهَد إلى ما ليس بمشاهَد[2]، والعِبَرُ جمع العِبْرة، وقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ يعني: لَعِظةً، ودلالةً على قُدرة الله ووحدانيَّته وعظمته، يُعبَر بها من الجهل إلى العِلم[3].

2) ﴿بُطُونِهِۦ﴾: البَطْنُ: خلافُ الظَّهر في كلِّ شيء، ويُعَبَّر به عن داخل الشَّيء كما يُعَبَّر بالظّاهر عن خارجه، وجمعه: أبطُن وبُطون وبُطنان، والبَطنُ من كلِّ شيء: جَوفُه، ويُقال لكلِّ غامض: بطنٌ، وبَطَنَ الشَّيءُ: خَفيَ كأنَّه في بَطْنٍ[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 231، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 553، وابن عادل، اللباب: 12/ 98، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 192، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 414.
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (عبر).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 8/ 329، والقرطبي، أحكام القرآن: 10/ 123، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 231.
(4) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بطن).

3) ﴿فَرْثٍ﴾: الفَرْثُ: ما في الكَرِش[1]، وجمعه: فُروث[2]، وأصلُه يدلُّ على التفتُّت والتَّسيُّب[3]؛ يُقالُ: فرَثَ كَبِدَه؛ أي: فتَّتها، وأفرثتُ الكرش، أي: شققتُها ونثرتُ ما فيها، وفرثتُ الجُلَّة، أي: مزَّقتُها ونثرتُ جميع ما فيها[4].

4) ﴿وَدَمٍ﴾: الدَّمُ من الأخلاط معروفٌ[5]، ومعناه المحوريُّ: "مائعٌ أحمر تمتلئ به أثناء بدن الحيّ، فيتجسَّم الحيّ ويتماسك"[6]، وأصله دَمَيٌ[7]، ويقال: دَمِيَ الشيء يَدْمَى دَمًى، وجمعه: دِماء[8].

5) ﴿لَّبَنًا﴾: لبن: خَلاصُ الجسد، ومستخلَصُه من بين الفَرْث والدَّم[9]، وهو كالعرق يجري في العروق[10]، ومعناه المحوريُّ: "احتواء الباطن على لطيفٍ من شأنه أن يَخرج ثم يتمسَّك ويتخثَّر أو يظهر، كاحتواء الحيوانات على لبنها"[11] وألبنت الناقة إذا نزل لبنُها في الضَّرع[12].

6) ﴿خَالِصًا﴾: خَلَص الشيء يخلُص خُلوصًا وخَلاصًا إذا كان قد نشِب ثم نجا وسلم[13]، وأصل معنى هذا الجذر: "تنقية الشَّيء وتهذيبه"[14].

7) ﴿سَآئِغًا﴾: ساغ الشَّراب يَسوغ سَوغا وسَواغًا: سَهُل مدخلُه وانحداره في الحلق[15]، ومنه قوله تعالى: ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، وأصل هذا الجذر يدلُّ على "سُهولة الشَّيء واستمراره في الحلْق خاصَّةً"[16]، والسّائغ من الشَّراب: العَذْب[17].

---

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (فرث).

(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (فرث).

(3) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (فرث).

(4) ابن منظور، اللسان: (فرث).

(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دمي).

(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دمي).

(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دمي).

(8) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دمي).

(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (لبن).

(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبن).

(11) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لبن).

(12) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (لبن).

(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلص).

(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).

(15) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سوغ).

(16) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوغ).

(17) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سوغ).

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه الواحد

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

وإنَّ لكم - أيُّها النّاس - في الإبل والبقر والغنم لَعِظَةً وعلامةً تدلُّ على بديع صنعنا وباهر قدرتنا وواسع فضلنا وعظيم رحمتنا؛ إذ نسقيكم ممّا في بطونها من بين فضلات الطَّعام والدَّم النَّجس السّاري في الشَّرايين والعروق لبنًا نقيًّا صافيًا من الشَّوائب والأكدار لذيذًا طعمه للشّاربين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف في الآية:

تعداد النِّعم دليل على رحمة مَن أنشاها، والتَّذكير بها دليلٌ على كثرة مَن ينساها

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ معطوفٌ على جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾؛ أي: كما كان القوم يسمعون عِبْرَةً في إنزال الماء من السماء لكم في الأنعام عِبْرَةٌ أيضًا، إذ قد كان المخاطبون - وهم المؤمنون - القومَ الذين يسمعون[2]، وقد حَسُن الوصل هنا دون الفصل لما بين الجملتين الكريمتين من الاتِّصال، وتمام المناسبة، وعدم وجود ما يدعو إلى الفصل بينهما.

دلالة توالي المؤكّدات في صدر الآية:

تتوالى المؤكِّدات لدفع الإنكار، ولدعوة المؤمنين لمزيد تدبُّرٍ واعتبار

في هذه الجملة الكريمة مجموعةٌ من المؤكِّدات هي: الحرف النّاسخ (إنَّ)، واسميَّة الجملة، واللّام في قوله: ﴿لَعِبۡرَةٗۖ﴾، ووقوع الجملة معطوفة على سابقتها المشحونة بالمؤكِّدات.

فتوكيد هذه الجملة الكريمة بـ (إنَّ)، و(لام الابتداء) كتأكيد الجملة قبلها[3].

وتوالي هذه المؤكِّدات في صدر الآية إنَّما جاء مراعاةً لمقتضى

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 270، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 27، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 498، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 231.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 199.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 199.

الظّاهر، فإنَّ الكلام موجَّهٌ إلى منكِرين؛ فلذلك حسُنَ فيه أن يؤكَّد بأكثر من مؤكِّد، وإذا وُجِّه الكلام إلى المؤمنين فلإنزال غير المنكِر منزلة المنكِر، ويكون الغرضُ ساعتئذٍ هو لفت الأنظار إلى مزيد التَّدبُّر والاعتبار.

دلالة اللّام في ﴿لَكُمۡ﴾:

في التَّخصيص بالنِّعمة تعظيمٌ لشأن المنَّة

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ﴾ هي لام الاختصاص؛ أي: لكم خاصَّةً أيُّها النّاس عِبرة وعِظة[1] وهذا الاختصاص مُشعِرٌ بعظيم فضل اللّٰه الذي خلَق هذه الأنعام وسخَّرها للإنسان، يأكل من لحومها، ويشرب من ألبانها، ويتَّخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين.

غرضُ تقديم شبه الجملة ﴿لَكُمۡ﴾:

كيف للمُدَّثّر بالنِّعم أن يكفر بمَن أسبغها عليه وخصَّه بها

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ قُدِّم شبه الجملة - وهو المسند - ﴿لَكُمۡ﴾ على المسند إليه ﴿لَعِبۡرَةٗۖ﴾ لغرض التَّخصيص: تخصيص المسند إليه بالمسند وقَصره عليه، فكأنَّ العِبرة التي في الأنعام إنَّما هي مقصورةٌ على المخاطَبين بهذه الآية، وهم كلُّ مَن يصلح أن يسمع هذا الخطاب، وفي هذا بيانٌ بإسباغ النِّعمة، وإيصال المِنَّة، فكيف بعد هذا يكفر الكافرون؟

نكتة الالتفات مِنَ الغَيْبة إلى الخطاب:

يخاطَب المقصودون بالنِّعمة؛ تذكيرًا للمؤمنين، وتحذيرًا للمعرضين

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ﴾ إلى آخر الآية التفاتٌ من ضمير الغَيْبة في ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ في الآية السّابقة إلى ضمير الخطاب هاهنا[2]، وتتجلَّى بلاغة الالتفات هاهنا في كون توجيه الكلام إلى المخاطَبين أنجعَ في تذكيرهم بالنِّعمة؛ إذ إنَّهم يملكونها، وينتفعون بها أيَّما انتفاع.

(1) الهلال، الثري الجامع: 6/ 182.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 199.

غرضُ حرف الوعاء في قوله ﴿فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

الأنعام محلُّ الإنعام، وفي الألبان رحمةٌ وامتنان

في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ إيجازٌ، إذِ العِبرة التي ذَكَرها القرآن الكريم في خَلْق النَّعَم من نواحٍ كثيرة، فهي في خلقها وجمالها حين تريحون وحين تسرحون، وفي تذليلها للإنسان وإلفها له لتذلَّ له وتخضع وتستكين، وكلُّ ذلك بتسخير اللّه تعالى لِمَن أراد أن يعتبر ويؤمن بنعم اللّه تعالى ويشكرها كما أنعم[1]، وقد اقتصرت عبارة الآية الكريمة على قوله: ﴿فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ لتشمل كلَّ نِعمة في الأنعام، وفي حرف ﴿فِي﴾ معنى الظَّرفيَّة[2]، فكأنَّ الأنعام صارت ظرفًا للعِبرة، ففي كلِّ جزءٍ مِن أجزائها محلٌّ للعِبرة والعِظة للمتأمِّلين، وقد تكون ﴿فِي﴾ للسَّببيَّة، والمعنى: وإنَّ لكم بسبب الأنعام لعبرة؛ أي بسبب اللَّبن الذي يخرج من بطونها على الوجه المذكور[3].

نوع (اللّام) في ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

إلفُ النِّعمة يُنسِي المُنعِم، ويُبطِر المُنعَم عليه

يصحُّ في لام الأنعام أن تكون للعهد الذِّهني؛ إذ هي معلومةٌ لديهم، أو للعهد الذِّكري، ويكون معناه: "ممّا في بطون ما ذكرناه، فهو عائدٌ على المذكور"[4]، وبذلك تنتظم الآية في نسَق خطاب القوم بما عَهِدوا من نِعم اللّه التي أعرضوا عنها نفورًا واستكبارًا، فكما كان الخطاب بلفت الأنظار لِما في الأرض والسَّماء المعهودتين من جليل النِّعم، وعظيم المنن كان الخطاب هنا بلفت النَّظر إلى ما في الأنعام التي عهدوها من صور اللُّطف الإلهيِّ، والرَّحمة الرَّبّانيَّة، ويصحُّ كذلك أن يُراد بها الجنس؛ "فإنَّ اللَّبن لبعضها دون جميعها، أو لواحده، أو له على المعنى، فإنَّ المُراد به الجنس"[5].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4210.
(2) الهلال، الثري الجامع: 6/ 182.
(3) الصاوي، حاشية على الجلالين: 2/ 317، والجمل، حاشية على الجلالين: 4/ 240.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 123.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 232.

غرضُ تقديم ﴿فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾:

قُدِّم شبه الجملة ﴿فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ على المسند إليه ﴿لَعِبْرَةً﴾ لغرض التَّخصيص، ففي الأنعام عبرةٌ خاصَّةٌ[1]، إضافةً إلى أنَّ هذا التَّقديم أفاد لفت النَّظر إلى المقدَّم، فهو مناط العِبرة المقصود التَّنبيه عليها، ولفت الأنظار إليها، وأفاد كذلك تشويق السَّمع إلى المتأخِّر، فكأنَّ سؤالًا طرأ في الذِّهن، تقديره: أيُّ شيءٍ لنا في الأنعام اختصصنا به؟ فجاء الجواب مؤكَّدًا باللّام: ﴿لَعِبْرَةً﴾.

في المقدَّم مناط العبرة المقصود التَّنبيه عليها، ولفت الأنظار إليها

معنى اللّام في قوله ﴿لَعِبْرَةً﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَعِبْرَةً﴾ هي لام الابتداء - المزحلَقة - للتَّوكيد[2]، وممّا حسَّن التَّوكيد هنا مراعاة مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ القوم تولَّوا عن الآيات وأعرضوا، فسيق لهم الخطاب مُؤكَّدًا ليقيم عليهم الحجَّة بالبلاغ.

ما أقبح الإعراض مِن داءٍ يُعمِي عن إبصار الآيات والآلاء

غرضُ تنكير ﴿لَعِبْرَةً﴾:

جاءت كلمة ﴿لَعِبْرَةً﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ لغرض التَّعظيم والتَّفخيم[3]، إذ هي عِبرةٌ عظيمةٌ، وأيَّ عِبرةٍ تَحار في درْكها العقولُ، وتهيم في فهمها ألبابُ الفحول[4].

في الأنعام عِبرةٌ عظيمة تحار في دركها العقول، وتهيم في فهمها ألباب الفحول

بلاغة الإدماج في التَّذكير بالنِّعم مع ذِكر الأنعام:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ حجَّةٌ أخرى، ومِنَّةٌ من المِنن النّاشئة عن منافع خَلْق الأنعام، أدمج في منَّتها العِبرة بما في دلالتها على بديع صُنْع الله تبعًا لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: 5] إلى قوله: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل: 7]، واختصَّت هذه العِبرة بما تنبَّه إليه من بديع الصُّنع والحكمة في خَلْقِ الألبان

في آيـات الله دلائل وحدانيَّته، وبراهين ربوبيَّته

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 405.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 6/ 171.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 414.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 124.

بقوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا﴾، ثمَّ بالتَّذكير بما في ذلك مِنَ النِّعمة على النّاس إدماجًا للعِبرة بالمِنَّة[1].

موقع جملة ﴿نُّسۡقِيكُم﴾:

إخراج اللَّبن من بطون الأنعام حكمةٌ بالغةٌ، وحُجَّةٌ على الخَلْقِ دامغة

قوله تعالى: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤالٍ مُقدَّر، فكأنَّه قيل: كيف العِبرة؟ فقيل: نسقيكم من بين فرْثٍ ودَمٍ؛ أي: يخلق اللّه اللَّبن وسيطًا بين الفَرْثِ والدَّم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخٌ مِنْ قُدرة اللّه لا يبغي أحدهما عليه بلونٍ ولا طعمٍ ولا رائحةٍ، بل هو خالصٌ من ذلك كلِّه[2]، فالاستئناف هنا لبيان العِبرة[3].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿نُّسۡقِيكُم﴾:

وَعْدُ اللّه بالسُّقيا مُستمرٌّ لا يُخلَف، فما أُبيدت الزُّروع، وما جفَّت الضُّروع

دلَّ التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ على تجدُّد السُّقيا واستمرارها، وأنَّها نِعمةٌ مِنَ اللّه تعالى باقيةٌ لعباده، وهذا وعدٌ مِنَ الذي لا يخلِف الميعاد، فما أبيدت الزُّروع، ولا جفَّت الضُّروع.

بلاغةُ الإدماج في ﴿نُّسۡقِيكُم﴾:

في طيِّ كلِّ نِعمةٍ نِعمٌ وآلاء

في قوله تعالى: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ دون أن يقول: تَشربون أو نحوه إدماجٌ، حيث أدمج بيان العِبرة من الأنعام وهي إخراج اللَّبن الصّافي مِنْ بين الفَرْثِ والدَّم، في سياق الامتنان والتَّدليل على براهين الوحدانيَّة[4]؛ إذ لا يَقْدِرُ على ذلك إلّا اللّه تعالى، وفيه تعريضٌ بمعبوداتهم الباطلة التي لا تَقْدِرُ على خَلْقِ ذُباب ولو اجتمعت له.

دلالةُ حرف الجرِّ في قوله ﴿مِّمَّا﴾:

جوازُ كَون (مِنْ) تبعيضيّةً وابتدائيّةً

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ يجوز أن تكونَ للتَّبعيض،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 199 - 200.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 615، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 124، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 414، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 199.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 231.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 199 - 200.

وأن تكونَ لابتداءِ الغاية[1]، أمّا التَّبعيض، فلأنَّ اللَّبن بعضُ ما في بطونها[2]، كونه مخلوقًا من بعض أجزاءِ الدَّم المُتولِّدِ مِنَ الأجزاء اللَّطيفةِ التي في الفَرْثِ[3]، وأمّا الابتداء فلأنَّ اللَّبن يُفْرَزُ عن العَلَف الذي في البطون، وما صَدَقَ ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ هو العَلَفُ[4].

دلالة (ما) في ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ على السُّكون في محلِّ جرٍّ بـ (مِن)[5]؛ أي: نسقيكم مِنَ اللَّبن الخارج من بين الفَرْثِ والدَّم[6].

غرضُ التَّعبير بصلة (ما) ومجيء الظَّرفيّة:

في إخراج اللَّبن من بطون الأنعام قُدرةٌ عظيمةٌ على الخَلْق ورحمةٌ فاضلةٌ بالخَلْق

قوله تعالى: ﴿فِى بُطُونِهِۦ﴾ صلة الموصول (ما)، وعُبِّر بها لإرادة الوصف بما تضمَّنته هذه الصِّلة، وفائدته أمران:

الأوّل: الإخبار بأمرٍ غيبيٍّ لا يراه المخاطَبون؛ إذ إنَّهم ما رأوا إلّا اللَّبن الصّافي بعد خروجه من بطون الأنعام، ولكنَّهم ما رأوا كيف يُخلَق في هذه البطون، وكيف يُصَفَّى ممّا يحيط به في محلِّه، فأُخبروا بذلك.

الثّاني: التَّنبيه على كون المخاطَبين لا يقدرون على إخراج هذا المشروب الذي يتغذَّون به من بطون الأنعام إلّا بقُدرة اللّه تعالى.

نكتةُ إفراد الضَّمير في ﴿بُطُونِهِۦ﴾:

العِبرةُ إنَّما هي في الأنعام، رحمةً من الله بالأنام

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ الضَّمير عائدٌ إلى الأنعام، فكان الواجب أن يُقالَ: (ممّا في بطونها)، وذَكَر النَّحويّون فيه وجوهًا:

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 252.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 616.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 124.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 200.
(5) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 6/ 172.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 33.

الأوّل: أنَّ لفظ الأنعام لفظٌ مفردٌ وضع لإفادة جمع، كالرَّهط والقوم والبقر والنَّعم، فهو بحسب اللَّفظ مفردٌ، فيكون ضميره ضمير الواحد، وهو التَّذكير، وبحسب المعنى هو جمعٌ، فيكون ضميره ضمير الجمع، وهو التَّأنيث؛ فلهذا السَّبب قال هاهنا: ﴿فِي بُطُونِهِۦ﴾، وقال في سورة (المؤمنون): ﴿فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: 21].

الثّاني: قوله: ﴿فِي بُطُونِهِۦ﴾؛ أي: في بُطون ما ذَكرنا، وهذا شائعٌ في القرآن، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: 78]؛ يعني: هذا الشَّيء الطّالع، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ [المدثر: 54 - 55]؛ أي: ذِكر هذا الشَّيء، وهذا جائز فيما يكون تأنيثه غير حقيقيٍّ.

الثّالث: أنَّ فيه إضمارًا، والتَّقدير: نسقيكم ممّا في بطونه اللَّبن إذ ليس كلُّها ذات لبن[1]. فالضَّمير عائدٌ على البعض؛ إذ الذُّكورُ لا ألبان لها، فكأنَّ العِبرة إنَّما هي في الأنعام[2].

فجاء الضَّمير مفردًا ليشمل هذا كلَّه.

دلالةُ موقع قوله ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾:

اللَّبنُ بعضُ ما في بطون الأنعام، وهو جزءٌ من الإنعام

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّق بـ (نُسْقِي) أو بمفعول (نُسْقِي) الثّاني المحذوف؛ لأنَّ (مِن) التَّبعيضيَّة حلَّت محلَّه بتقدير: نسقيكم بعضًا؛ لأنَّ اللَّبن بعض ما في بطون الأنعام، و(ما): اسم موصول مبنيٌّ على السُّكون في محلِّ جرٍّ بـ (من)، والجارُّ والمجرور ﴿فِى بُطُونِهِۦ﴾ مُتعلّقٌ بحالٍ محذوفةٍ مِن الموصول (ما)، و(مِن) هنا بيانيَّة، والهاء ضمير متَّصل في محلِّ جرٍّ بالإضافة[3].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 232.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 405.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 6/ 172، ودرويش، إعراب القرآن: 5/ 330.

غرضُ تقديم ﴿فِي بُطُونِهِۦ﴾ على المفعول به:

النّفْسُ لمعرفة المُؤخّر أشوَق، وهي به أعلَق

في قوله تعالى: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ الآية قُدِّم شبه الجملة على المفعول به ﴿لَّبَنًا﴾، وغرض تقديمه على المفعول هو تشويق النَّفْس إلى المُؤخَّر، الموجب لفضل تمكينه عند وروده عليها، لا سيَّما إذا كان المُقدَّمُ متضمِّنًا لوصفٍ منافٍ لوصف المؤخَّر كالذي نحن فيه؛ فإنَّ بين وصفَي المقدَّمِ والمؤخَّر تنافيًا وتنائيًا بحيث لا يتراءى ناراهما، فإنَّ ذلك ممّا يزيد الشَّوقَ والاستشراف إلى المؤخَّر كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا﴾ [يس: 80][1].

توجيه المتشابه اللّفظيّ مع ﴿فِي بُطُونِهَا﴾:

النّعَم تفيض بالنِّعَم

قال اللّه تعالى هاهنا في سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾، وقال في سورة (المؤمنون): ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: 21]، فأعاد في أحد الموضعين ذِكر المذكَّر، وفي الآخر ذِكر المؤنَّث، واللَّفظان سواء، فما علَّة ذلك؟

والجواب أنَّه في سورة النَّحل - وإن أُطلق لفظ الأنعام جمعًا - فإنَّ المُراد به بعضُها ذلك أنَّ الدَّرّ لا يكون لجميعها، وأنَّ اللَّبن لبعض إناثها، فكأنَّه قال: وإنَّ لكم في بعض الأنعام لعِبرةً نسقيكم ممّا في بطونه، ولهذا ذهَب مَن ذهَب إلى أنَّه ردَّ على النَّعَم؛ لأنَّه يؤدّي ما يؤدِّيه الأنعام من المعنى.

أمّا في سورة (المؤمنون)، فالأمر ليس كذلك؛ لأنَّه عطَف عليه ما يعود على الكلِّ ولا يقتصر على البعض، وهو قوله تعالى: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون: 21 - 22] فأخبر عن النِّعَم التي في أصناف

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 124 - 125، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 417.

النَّعَم إناثها وذُكورها، فلم يحتمل أن يراد بها البعض كما كان في الأوَّل ذلك، ثمَّ يحتمل أن يكون المُراد البعض فأنَّث حملًا على الأنعام، وما قيل من أنَّ الأنعام ههنا بمعنى النَّعَم لأن الألف واللّام تلحق الآحاد بالجمع، وفي إلحاق الجمع بالآحاد حُسن، لكنَّ الكلام وقع في التَّخصيص؛ والوجه ما ذُكر[1].

دلالة حرف الجرِّ في ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ﴾:

﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ﴾ لابتداء الغاية؛ لأنَّ بين الفَرْثِ والدَّم مكان الإسقاء الذي منه يبتدأ، فهو صلةٌ لـ﴿نُّسۡقِيكُم﴾، كقولكَ: سقيتُه مِنَ الحَوضِ[2].

سرُّ الظَّرفيَّةِ المجازيَّة ﴿بَيۡنِ فَرۡثٍ وَدَمٍ﴾:

من بلاغة القرآن تقريب المعنى للنّاس بحسب فهمهم، ومبالغ علمهم

قال المفسِّرون: إنَّ المُراد من الآية هو أنَّ اللَّبن إنَّما يتولَّد من بعض أجزاء الدَّم، والدَّم إنَّما يتولَّد من الأجزاء اللَّطيفة التي في الفَرْثِ[3]؛ فمعنى كونِ اللَّبن من بين الفَرْثِ والدَّم أنَّه إفرازٌ حاصلٌ في حين إفراز الدَّم وإفراز الفرث.

وقال بعضُهم: إنَّ المُرادَ من الآية هو أنَّ اللَّبن يتميَّع من بين طبقتي فرثٍ ودمٍ، وذلك أنَّهم حملوا ﴿بَيۡنِ﴾ على حقيقتها من ظرف المكان، بخلافِ مَن حملَها على المكان المجازيِّ، فيُراد بها الوسط بين مَرتبتَيْن، فمن بلاغة القرآن هذا التَّعبير القريب للأفهام لكلِّ طبقةٍ مِن النّاس بحسب مبالغ عِلمهم، مع كونه موافقًا للحقيقة[4].

والحاصل أنَّ البينيَّة يحتمل أن تكون باعتبار المكانيَّة حقيقةً كما قاله المفسرون، ويحتمل أن تكون البينيَّة مجازيَّة، باعتبار تولُّده ممّا

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 852، والكرماني، أسرار التكرار، ص: 162.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 616، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 232، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 124، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 417، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 257.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 233.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 200 - 201.

حصل في الفرث أوَّلا، وتولُّده مِن الدَّم النّاشئ مِن لطيف ما كان في الفرث ثانيًا كما قرَّره بعضهم[1].

غرضُ الترتيب في ﴿فَرْثٖ وَدَمٖ﴾:

تقديم موضع العبرة أوقع في النَّفس، وأكثر إيقاظًا للحِسِّ

في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا﴾ قُدِّم قوله: ﴿فَرۡثٖ﴾ على ﴿لَّبَنًا﴾ وهو صفةٌ له في المعنى؛ لأنَّه موضع العِبرة، فهو معنًى به جديرٌ بالتَّقديم؛ لكونه حاصلًا من نَجس، وهو في مَعْرِض أن ينقلب إليه؛ لأنَّه إن لم يسبق يخرج من مخرج فضلات الهضم الرّابع، كما أنَّه لو تأخَّر فقيل: لبنًا من بين فرثٍ ودَم كان صفةً له، وإنَّما قُدِّم لأنَّه موضع العِبرة، فهو قَمِنٌ بالتَّقديم[2]؛ إذ المقصود: تخليص اللَّبن مِن غيره[3].

دلالة تنكير ﴿فَرْثٖ وَدَمٖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ جاءت الكلمتان نكرتين، وغرض التَّنكير هنا هو الإفراد؛ إذ المعنى أنَّ اللّه تعالى أخرج من كلِّ أُنثى من دوابِّ الأنعام لبنها من بين فرثها ودمها.

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾:

يُقدَّم موضع العِبرة إلى الأمام؛ لِما له من مزيد اهتمام

قوله تعالى: ﴿بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ في موقع الحال؛ لأنَّه كان في الأصل صفةً لقوله تعالى: ﴿لَّبَنًا﴾ وقدّم عليه، ويجوز أن يكون حالًا من (ما) التي قبله[4]، وقُدِّم شبه الجملة للاهتمام به، لأنَّها موضع العِبرة، فكان لها مزيد اهتمام[5].

غرضُ التَّقديم بين أشباه الجُمل في الآية:

تقديم موضع العِبرة أظهر للنِّعمة، وأوكَد للفكرة

في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ جُعل ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ تبيينًا

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 556.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 616.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 193.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 330.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 201.

لمصدره لا لمورده، فليس اللَّبن ممّا في البطون؛ ولذلك كان ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ مُتقدِّمًا في الذِّكر ليظهر أنَّه متعلِّق بفعل ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ وليس وصفًا للَّبن[1]، وأمّا قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ حال من ﴿لَّبَنًا﴾ فقد قُدِّم عليه لتنكيره، وللتَّنبيه على أنَّه موضع العِبرة[2].

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿لَّبَنًا﴾:

اللَّبن ليس منكَّهًا بريح الرَّفث، وليس فيه عَكَر ولا خبث

قوله تعالى: ﴿لَّبَنًا﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿نُّسۡقِيكُم﴾[3]، كونه يحصل في الضَّرع لا في البطن[4]، وإنَّما تأخَّر لغرض التَّشويق له، ولأنَّ العِبرة كانت في إخراجه صافيًا خالصًا من بين فرْثٍ ودَمٍ، فلا هو ملوَّثٌ بلون الدَّم، ولا هو منكَّهٌ بريح الرَّفث، ولا فيه عكَرٌ ولا خبث.

غرضُ تنكير ﴿لَّبَنًا﴾:

عَينُ العِبرة في خروج اللَّبن من بين القذَر والكدرة لم تُلَوَّث منه قطرة

جاءت كلمة ﴿لَّبَنًا﴾ نكرةً لغرض التَّعظيم، والتَّعظيم هنا مُنصبٌّ على النِّعمة؛ فإخراج اللَّبن من بطون الأنعام من بين الفَرْثِ والدَّم صافيًا خالصًا سائغًا للشّاربين هو نعمةٌ عظيمة.

معنى اللّام في ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ودلالتها:

لامُ الجرِّ في قوله تعالى: ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ هي للاختصاص، فكون اللَّبن سائغًا في الحَلْق هذا أمرٌ مُختصٌّ بمَن ذاقه وشربه.

نوع (اللّام) في ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾:

(اللّام) التعريفيَّةُ في قوله تعالى: ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ هي لمعنى الجنس، فيشمل كلَّ شاربٍ للَّبن، دون تخصيصٍ لبعضٍ دون بعض، حتَّى إنَّه قيل: لم يغصَّ أحدٌ باللَّبن قطُّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 201.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 232، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 150.
(3) السّمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 258، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 330.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 201.

سرُّ جمع الضَّمير في ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾:

الجمع في ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يفيد العُموم، فكلُّ طعام تقبله معِدات بعض الأشخاص، وتعافه الأخرى، إلّا اللَّبن، فإنَّه سائغٌ للجميع، والله وليُّ النِّعَم، والمُستحِقُّ وحده لشكرها[1].

كلُّ طعامٍ يدور بين الاستلذاذ والعَيْف، إلّا اللَّبن فيستسيغه كلُّ طَيف

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشُّرب والسَّقي والإسقاء:

الشُّربُ: تناول كلّ مائع؛ ماءً كان أو غيره[2]، والسَّقي: أن يعطيه ما يشرب، والإسقاء: أن يجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء، فالإسقاء أبلغ من السَّقي، لأنَّ الإسقاء هو أن تجعل له ما يسقى منه ويشرب، تقول: أسقيته نهرًا[3]؛ وتقول لما كان من يدك إلى فيه: سَقَيْتَه، فإذا جعلت له شِربًا أو عرضته لأنْ يشرب بفيه أو بزرعه، أو دللته على الماء، قلتَ: أسقيته[4]، فالفرق بين السَّقي والشُّرب أنَّ السَّقي بذلُ المشروب، والشُّرب: استعمال المشروب، فصار السّاقي باذلًا، والشّارب مُستعمِلًا[5].

السَّقي بذلُ المشروب، والشّرب استعمال المشروب

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4212.
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرب).
(3) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سقي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سقي).
(5) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 155، 156.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [النحل: 67]

سبحان من تجلّت قدرته فيما يخرج من الضَّرع، وما ينشأ عن الزَّرع

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيَّنَ ربُّ العِزَّة سبحانه بعض عجائب قُدرَته في إنزال المطر مِنَ السَّماء؛ ليحييَ الأرض الموات، وفي خَلْق الأنعام وما ينشأ عنها من لبنٍ يخرج من بين فرثٍ ودَمٍ خالصًا سائغًا للشّاربين؛ بيَّن سبحانه دلائل قُدرَته، وعظيم صنعته في إنبات الزَّرع، وما ينشأ عنه من ثمراتٍ مختلفة الأنواع، والأشكال، مُتعدِّدة الاستخدام؛ منه ما هو حسَنٌ، ومنه ما ليس حسَنًا؛ حيث يدرك المتأمِّلُ في هذه المخلوقات، المتفكِّرُ لما فيها من آياتٍ أنَّه سبحانه المُستحِقُّ وحده للعبوديَّة، والإقرار بالوحدانيَّة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّخِيلِ﴾: "النَّخْلَةُ: شَجَرَةُ التَّمر، والجماعة: نَخْلٌ ونَخِيل"[2]، والجذر يدلُّ على "انتقاء الشيء واختياره"[3]؛ وسُمِّي النَّخل بذلك لأنَّه أشرفُ كلِّ شجَرٍ ذي ساق[4].

2) ﴿وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾: العِنَبُ: ثمرٌ معروف، والواحدة منه: عِنَبة، وجمعه: أعناب[5]، والعِنَباء لغةٌ في العِنَب[6]، ورجلٌ عانِبٌ: ذو عنبٍ كثير، كما

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 405، والرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 235، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 557، وابن عادل، اللباب: 12/ 106، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 194، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 417.

(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (نخل).

(3) ابن فارس، المقاييس: (نخل).

(4) ابن فارس، المقاييس: (نخل).

(5) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح: (عنب).

(6) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح: (عنب).

يُقالُ: لابِن وتامِر، أي: كثير اللَّبن والتَّمر[1]، والمعنى المحوريّ للجذر: "صفاءُ المُمتلئ المُستدير مع امتداد"، وهذا المعنى واضحٌ في امتلاء العِنَب بالماء وصفائه مع كَون حَبّ أكثر العِنب فيه امتدادٌ يقلُّ أو يزيد[2].

3) ﴿سَكَرًا﴾: السَّكَرُ: اسمٌ لما يكون منه السُّكْر[3]؛ أي: ما يُسكِر كالخمر والنَّبيذ[4]، والسُّكْر: "نقيضُ الصَّحو"[5]، وحالةٌ تعرض بين المَرء وعقله[6]، والجذر "أصلٌ واحدٌ يدلُّ على حَيرةٍ. مِن ذلك السُّكْر من الشَّراب"[7]، ويُقالُ: رجلٌ سَكْران، وامرأةٌ سَكْرى، ورجلٌ سِكِّير، أي: كثيرُ السُّكر أو لا يزال سكرانَ، ويُقالُ: سكَرَت عينُه تَسكُرُ: إذا تحيَّرت، وسكنَت عنِ النَّظر[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في تعدُّد منافع الثِّمار دعوةٌ إلى النَّظر والتَّفكُّر فيما خلَق الكبير المتُعال

ومن بعض ثمرات النَّخيل والأعناب ثمرٌ تتَّخذونه فتصنعون منه خمرًا مُسكِرًا - وذلك قبل تحريمه - وطعامًا طيِّبًا كالتَّمر والزَّبيب والدِّبس والخَلِّ، إنَّ في ذلك الإسقاء والإطعام لعلامةً وعِظةً دالَّةً على قُدرَة اللّٰه تعالى لقومٍ يستعملون عقولهم بالنَّظر والتَّأمُّل في الآيات[9].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة عطف الآية على سابقتها:

ثمرات النَّخيل والأعناب فيها منافعُ للعباد ورزقٌ مُستطاب

لمّا ذَكَر اللّٰه اللَّبن، وأنَّه تعالى جعله شرابًا للنّاس سائغًا؛ ثنَّى

(1) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، المقاييس: (عنب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عنب).
(3) الراغب، المفردات: (سكر).
(4) الأزهري التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سكر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح: (سكر).
(6) الراغب، المفردات: (سكر).
(7) ابن فارس، المقاييس: (سكر).
(8) الأزهري، التهذيب: (سكر).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 274، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 28، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 498، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 232.

بذِكر ما يتَّخذه النّاس مِنَ الأشربة، مِنْ ثمرات النَّخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النَّبيذ المُسكِر قبل تحريمه؛ ولهذا امتنَّ به عليهم[1]؛ فعطَف على اللَّبن ما هو أنفَس منه عند عِباده، وأقرب له في المعنى[2].

معنى حرف الجرّ (مِنْ) ودلالته:

بعض منافع الثَّمرات أشربة وأرزاق

تفيد (مِنْ) في قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ التَّبعيض؛ وكُرِّرت (مِن) للتَّأكيد، وكان الضَّمير مُفردًا - في ﴿مِنۡهُ﴾ - راعيًا لمحذوف؛ أي: ومِنْ عصير ثمراتٍ، أو على معنى الثَّمرات وهو الثَّمر، أو بتقدير (مِنْ) المذكور[3].

سرُّ الإضافة في ﴿ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾:

في تنوُّع أشربة ثمرات النَّخيل والأعناب عِبرةٌ وعِظة

أُضيف ﴿ٱلنَّخِيلِ﴾ إلى الثَّمرات، وجاءت ﴿وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾: معطوفةً عليه مجرورةً مثله، بمعنى: مِنْ عصير ثمرات النَّخيل والأعناب، أو المعنى بتقدير مفعول به؛ أي: ونُسقيكم من ثمرات النَّخيل والأعناب عصيرًا، وتكون جملة ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ صفة لعصير المُقدَّر[4]، وفائدة صيغة ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ الإشارة إلى تعداد الأنواع[5].

نوع (اللّام) في ﴿ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾:

ثمرات النَّخيل والأعناب متنوِّعة

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ للجنس، وهي لبيان الحقيقة والماهيَّة، أي: أنَّ معنى الآية: تتَّخذون منافع ممّا هو نخيلٌ، وممّا هو أعنابٌ، وفيه إشارةٌ إلى تنوُّع ثمرات النَّخيل، وتنوُّع صور العنَب المُستفاد منه.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 581.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 194.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 557.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 6/ 173.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 417.

غرض الحذف في صدر الآية:

حذف المعروف بدالٍّ عليه مألوف

تجدر الإشارة إلى أنَّ (مِنْ) في صدر الكلام تدلُّ على تقدير فعلٍ[1] حُذِف لدلالة ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ قبله عليه[2]؛ فقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ متعلِّقٌ بالمحذوف[3]، والتَّقدير: ونُسقيكم من ثمرات النَّخيل والأعناب؛ أي: مِن عصيرها[4]، وقيل التَّقدير: وتتَّخذون من ثمرات النَّخيل سكَرًا[5]؛ أي: إنَّ هنا كلامًا محذوفًا تقديره: تتَّخذون ما تتَّخذون ممّا يُسخَّر لكم منها؛ فتأخذون ثمراتٍ طيِّباتٍ أُكلُها حُلوٌ دائمٌ، تتَّخذون منه سكَرًا، أي: شيئًا مُسكِرًا[6].

تعلُّق ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ ودلالته:

السَّقي من ثمرات النّخيل والأعناب مَنٌّ من الله علينا

يتعلَّق شبه الجملة ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ بـ﴿نُّسۡقِيكُم﴾، فيكون معطوفًا على ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾، أو بـ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ محذوفة دلَّت عليها ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ المُتقدِّمة، فيكون من عطف الجُمل[7]؛ أي: نسقيكم من عصير النَّخيل والأعناب[8]، وقيل: متعلِّقٌ بقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ﴾، وتكريرُ الظَّرفِ للتَّأكيد، وذلك كقولك: زيدٌ في الدّار فيها، أو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ صفتُه ﴿تَتَّخِذُونَ﴾؛ أي: ومِن ثمرات النَّخيل والأعناب ثمرٌ تتَّخذون مِنه[9]، أو أنَّهما معطوفان على قوله: ﴿فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، هذا؛ وعلَّقهما أبو البقاء بفعلٍ محذوف، تقديره: وخَلَقَ لَكُم، أو وجعَل[10].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 202.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 616، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 258، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 417، والرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 235.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 150.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 235.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 150.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4212.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 557.
(8) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 235، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 125، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 417، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 330.
(9) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 125، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 417.
(10) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 5/ 220.

بلاغة الإدماج في التَّذكير بالنِّعم من خلال السَّقي:

أدمج العِبرة في المِنَن النّاشئة عن منافع خَلْقِ الأنعام والنَّخيل والأعناب؛ لدلالتها على بديع صُنْعِ اللّه وتذكيرًا بما فيها من إنعام على النّاس[1]، فقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ عطفُ منَّة على منَّة؛ لأنَّ ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ وقعَ بيانًا لجملة: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ ومُفادُ فِعل ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ مُفادُ الامتنان؛ لأنَّ السَّقيَ مزيَّةٌ، وكلتا العِبرتَيْن في السَّقي[2].

نِعمُ اللّه متتابعة، والعِبرُ فيها مترابطةٌ توثّق الإيمان

غرضُ الترتيب ﴿ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾:

إنَّما قدَّم النَّخل؛ لأنَّ التَّمر يجري مجرى الغذاء بالنِّسبة إلى العرَب؛ وأتبعه بالعنب لأنَّه أشرف أنواع الفواكه[3].

التَّمر عند العرَب غذاء، وفي شجَر العنب لذَّةٌ ودواء

دلالة موقع ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ ودلالته:

قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ في موضع الحال[4]، وهو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مقدَّرٍ وهو (أيُّ شيءٍ في النَّخيل والأعناب تسقون؟) فقيل: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ للبيان والكشف عن كُنْه الإسقاء وكيفيَّته[5]، فحسُنَ الفصل بين الجملتين لِما بينهما من شبه كمال الاتِّصال، ولكون الوصل يوهِم خلاف المعنى المُراد.

بحسب استخدام النِّعمة يكون الحُكم

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تَتَّخِذُونَ﴾:

لمّا كان السُّكْرُ والرِّزق الحسَن يحتاج إلى معالجةٍ قال: تَتَّخِذونَ، فأخبر عنهم باتِّخاذهم منه السَّكَر والرِّزق[6] بالفعل المضارع الذي

النّاس يستمرّون في اتِّخاذ المنافع من ثمرات النَّخيل والأعناب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 199.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 202.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 86.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 203.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/ 232، والرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 235، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 125، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 417، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 258.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 557.

يدلُّ على تجدُّد الحدَث واستمراره؛ فهم يكرِّرون اتِّخاذ المنافع من ثمرات النَّخيل والأعناب، مستمرّون في انتفاعهم بهذه الثَّمرات.

دلالة حرف الجر في ﴿مِنۡهُ﴾:

ابتدأ الجاحدُ نعمةَ الله في الثمر بالسُّكر فألهته عن الشُّكر

في الموضعيْن (مِنْ) ابتدائية؛ فالأولى مُتعلِّقةٌ بفعل ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ المقدَّر، والثّانية متعلِّقةٌ بفعل ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، وليست (مِنْ) الثّانية تبعيضيَّة؛ لأنَّ السَّكَر ليس بعض الثَّمرات، فمعنى الابتداء ينتظم كلا الحرفين[1]، وكرِّرت (مِنْ) في الآية الكريمة للتَّوكيد[2]، أو تكون (مِنْهُ) خبرًا لمحذوف صفته تتَّخذونَ، أي: ومِن ثمرات النَّخيل والأعناب ثمرٌ تتَّخذون مِنه[3].

غرض تقديم شبه الجملة ﴿مِنۡهُ﴾:

السَّكَر يُذهِبُ العقول، وبينها وبين شكر نِعمة الله يَحول

في قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ قدَّم شبه الجملة ﴿مِنۡهُ﴾ على المفعول به ﴿سَكَرٗا﴾؛ للاهتمام بالمتقدِّم الذي يعود على ثمر النَّخيل والأعناب، فالسِّياق سياق تعديدٍ للنِّعم وتعريضٍ بالخمر، والمعنى: تتَّخذون منه سَكَرًا يُذهب العقول؛ فتذهل هذه العقول عن شكر نعمة الله في ثمرات النَّخيل والأعناب، وتكرار ﴿مِنۡهُ﴾ احتراسٌ لئلّا يُتوهَّم أنَّ السَّكَرَ يُتَّخذ ممّا يخرج من بطون الأنعام أيضًا.

غرض تنكير ﴿سَكَرٗا﴾ و﴿وَرِزۡقًا﴾:

مَن اتَّخذ سكرًا فقد وضَّع، ومَن اتَّخذ رِزقًا حسَنًا فقد انتفَع

السَّكَر: الخمر، وقد جاء نكرةً للتَّكثير إشارةً إلى كثرة اتِّخاذ هذا الخليط في صناعة الخمور، أمّا الرِّزق الحسَن فهو ما يُؤكل مِن الأعناب والتُّمور[4]، وجاء نكرةً للتَّعظيم، أي: أنَّ هذه المنافع رزقٌ عظيم أنعم اللّه به على عباده، ورشَّح جانب التَّعظيم فيه أنَّه وصِف

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 203.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 557، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 330.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/ 232.

(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 209.

بالحسَن، وفي وصف هذا الصِّنف دون الآخر بالحسَن تعريضٌ بالخمر، وإلماحٌ إلى أنَّها دون الصِّنف الآخر، وفي الكلام إدماجٌ؛ فهو مع ذِكر الإنعام بهذه المنافع أشار إلى وضاعة بعضها وحرمتها.

سرُّ تقييد ﴿وَرِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ دون السَّكَر:

في ترك الوصف بالحسَن تَكريةٌ وتَقبيح

قوله سبحانه: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ إن كان سابقَ النُّزول على تحريم الخمر؛ فإنَّه يدلُّ على كراهتها، وإلّا فإنَّه يجمع بين العتاب والمِنَّة[1]، ففي وصف الرِّزق بالحسَن دون السَّكر دلالةٌ على قبح تناول الخمر تعريضًا[2]، بل إنَّ اللّه ﷻ نبَّه على تحريمها[3]؛ لأنَّه ميَّز بينها وبين الرِّزق الحسَن في الذِّكر، فقد جاء السَّكَر في الآية مقابلًا بالرِّزق الحسَن، لذا وجب ألّا يكون السَّكَر رِزقًا حسَنًا[4]، والمعنى: السَّكَر رزقٌ غير حسَن، والآية من الاحتباك؛ فذِكر السَّكَر أوَّلًا دالٌّ على الفتح ثانيًا، وذِكر الحسَن ثانيًا دالٌّ على القبيح أوَّلًا، فالآية أدلُّ ما في القرآن على المعتزلة في أنَّ الرِّزق يُطلق على الحرام[5].

غرضُ تقديم السَّكَر على الرِّزق:

السَّكَر أهمُّ عند مَن ضلَّ وأراد الوَهم

في قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ قدَّم ﴿سَكَرًا﴾ على ﴿وَرِزْقًا حَسَنًاۚ﴾؛ للاهتمام بالمتقدِّم الذي هو الخمر؛ لأنَّها أنفس عندهم وأهمُّ لديهم من الرِّزق، وهذا يناسب سياق امتنان اللّه على عباده بما ينتفعون به.

دلالة موقع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾:

العِبَرُ في نِعم اللّه مترابطةٌ، وبعضُها من نوعٍ متقارب

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا لتنزيلها منزلة سؤالٍ مقدَّر، فكأنَّه قيل: هل فيما

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 125.
(2) الطيبي، فتح الغيب: 9/ 152.
(3) الخازن، لباب التأويل: 3/ 85.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/ 383.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 196.

سبق ذِكرُه آية؟ أو: في ذلك آيةٌ لمَن؟! فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وهذا ممّا يحسِّن الإتيان بمؤكِّدات[1].

دلالة تتابع المؤكِّدات في فاصلة الآية:

تتابُع المؤكِّدات يضع الأيدي على حقيقةٍ دامغة

في هذه الجملة الكريمة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ مجموعةٌ مِن المؤكِّدات هي: الحرف النّاسخ ﴿إِنَّ﴾[2]، والجملة الاسميَّة، ولام الابتداء في قوله: ﴿لَآيَةً﴾[3].

وهذه المؤكِّدات تضع الأيدي على حقيقةٍ دامغةٍ وهي أنَّ في هذه الأمور المتقدِّم ذكرها آيةً دامغةً وبراهينَ ساطعةً، لمَن كانت لهم قلوبٌ يعقلون بها، وقد حسُنَ توالي هذه المؤكِّدات لمّا كان الكلام موجَّهًا إلى مُنكرين، لإقامة الحُجَّة عليهم، ولبيان أنَّ مَن لم يهتدِ بهذه العِبر إلى الوحدانيَّة؛ لا عَقل له ولا تدبُّر.

دلالة حرف الوعاء في قوله ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

الأنعام والثّمرات ظرفٌ للآيات

كأنَّ منافع الأنعام والثَّمرات صارت ظرفًا للآيات؛ ففي كلِّ جزءٍ من أجزائها علامةٌ تدلُّ على وحدانيَّة اللّه ﷻ.

غرضُ تقديم شبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

في إنعام الله على عباده عِظةٌ للذين يُعملون عقولهم

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ قُدِّم المسند، وهو شبه الجملة، على المسند إليه، وهو قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ لغرض التَّنبيه على أنَّ المقدَّم هو مناط الاستعظام ولفت النَّظر إليه وفيها كذلك تخصيصٌ للمتقدِّم.

غرضُ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

آيات الله وآلاؤه عظيمةٌ، ولا يُعرض عنها إلّا أصحاب النُّفوس الذَّميمة

أوثر التَّعبير باسم الإشارة دون الضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ليكون محلُّ الآية جميع المذكورات مِن منافع الأنعام،

(1) الصعيدي، بغية الإيضاح: 2/ 295.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 204.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 204.

وثمرات النَّخيل والأعناب، وفيه إشارةٌ إلى كون العبرتين - في الآيتين - من نوعٍ متقارب[1]، والتَّعبير باسم الإشارة في سياق المدح دليلٌ على التَّعظيم، وأمّا عن نكتة مجيئه للبعيد، فلتَعظيم المشار إليه، وأنَّه قد بلغ غايةً في العُلوِّ والتَّعظيم سامقة[2].

معنى اللّام في ﴿لَأٓيَةٗ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَةٗ﴾ هي اللّام المُزحلقَة[3] المفيدة للتَّوكيد[4]، وإنَّما حَسُن هذا التَّوكيد لكون الكلام موجَّهًا لمخاطَبين مُنكرين، فأُقيمت عليهم الحُجَّة به.

الغرضُ مِن تنكير ﴿لَأٓيَةٗ﴾:

في منافع الأنعام والثَّمرات والنَّخيل والأعناب آيةٌ عظيمة وجليلة

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ باهرةً[5]. مِن أغراض التَّنكير: التَّعظيم[6]، وهو المقصود في هذا السِّياق، فإنَّ في منافع الأنعام والثَّمرات والنَّخيل والأعناب آيةً عظيمةً وجليلةً، وبغرس الإيمان في القلوب كفيلةً، ودلالةً واضحةً تدلُّ على وحدانيَّة اللّٰه وقدرته وحكمته[7].

معنى اللّام في قوله ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

لا نفع لتعداد النِّعم على أُناسٍ لا عقول لديهم فتفهم، ولا قلوب لهم لتعقل

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ تفيد الاختصاص[8]، وقد وصفهم اللّٰه بأنَّ لهم عقلًا يفكِّرون به في دلائل القدرة وبراهين الوحدانيَّة؛ فلذلك خُصِّص في الآية دون غيره، وإنَّما خصَّ كونها آيةً لهم؛ لأنَّ غيرهم لا ينتفعون بها، فلا نفع لتعداد النِّعم على أناسٍ لا عقولَ لديهم فتفهم، ولا قلوب لهم لتعقل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 203.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 413.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 331.
(4) محمود صافي، الجدول: 7/ 346.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 125، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 420.
(6) المراغي، علوم البلاغة، ص: 127.
(7) طنطاوي، الوسيط: 8/ 182.
(8) المرادي، الجنى الداني، ص: 96.

الغرض من تنكير ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

ذُكر لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ دون أن يُقال (للَّذين يعقلون) أو (للعاقلين) أو (المتدبِّرين)؛ لأنَّ إجراء الوصف على لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ يومئ إلى أنَّ ذلك الوصف سجيَّةٌ فيهم.

مَن كان له عقلٌ سليمٌ، وفكرٌ قويمٌ هُدِي إلى سواء السَّبيل

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ من حيث مادَّتها وصيغتها:

الفعل ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ مُنزَّل مَنزلة اللّازم[1]، وقد عبِّر عنه بالمضارع ليناسب استمرار النِّعم وتجدُّدها.

مَن عقل ذاق لذَّةَ التَّدبُّر الموصل إلى الإيمان

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّكَر والغول:

أصل السَّكْر يدلُّ على الحيرةِ ويدور معناه المحوريُّ حول السَّدِّ والحَبس[2]؛ فيقال: سكَرَت عينُه، أي: تحيَّرت، وسكنَت عن النَّظر[3]، والسَّكْر: حَبسُ الماء، والماءُ إذا سُكِر تَحيَّر، والسُّكْر من الشَّراب فيه معنى التَّحيُّر[4]، والسُّكْرُ: حالةٌ تعْرِض بين المرء وعقله، وأكثر ما يُستعمل ذلك في الشَّراب، وقد يعتري مِن الغضب والعِشق ونحوهما، والسَّكَر: اسمٌ لما يكون منه السُّكر[5].

السَّكَر فيه تحيُّرٌ وسدٌّ، والغول مِن الأخذ بإخفاء

أمّا الغَوْل فأصله: الأخذُ من حيث لا يُدرَى، ومنه أُخِذ معنى الإهلاك في خُفية؛ يُقال: غاله واغتاله: أهلكه وأخذه من حيث لم يدرِ، وقتله غِيلةً؛ أي: في اغتيالٍ وخفيةٍ[6]، وغالتِ الخمرُ فلانًا إذا شرِبها فذهبَت بعقله أو بصحَّة بدنه[7].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 204.

(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سكر).

(3) الأزهري، التهذيب: (سكر).

(4) ابن فارس، المقاييس: (سكر).

(5) الراغب، المفردات: (سكر).

(6) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غول).

(7) ابن منظور، لسان العرب: (غول).

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾ [النّحل: 68 - 69]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

ولهُ في كلِّ ما دقَّ ورقَّ دلائل قدرةٍ لها القلوب ترقُّ

لمّا ذَكر سبحانه إنزال الماء مِن السَّماء، وإخراج اللَّبن مِن بين فَرْثٍ ودَمٍ، واستخراج السَّكر والرِّزق الحسَن مِن ثمرات النَّخيل والأعناب؛ ذَكر العسَل الذي يخرج من بطون حشرةٍ ضعيفةٍ ألهمَها وألقى في روعها وعلَّمها بوجهٍ لا يعلمه إلّا هو سبحانه؛ حيث إنَّها جميعًا أشربةٌ تخرج من جسومٍ مختلفةٍ، وفي طرائق خروجها واستخلاصها جميعًا ما يدلُّ على عظَمَة الخالق البديع سبحانه وتقدَّست أسماؤه، ولمّا ذَكر الأنعام والأشجار والثِّمار؛ ذَكر النَّحل والعسَل؛ حيث إنَّها جميعًا من احتياجات البشر، وفي صميم ذواتهم، فهم أشدُّ حساسيَّة بها، وأعمق تأثُّرًا واستجابةً لها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَوۡحَىٰ﴾: الوحي: الإلهام، والكلام الخفيُّ، وكلُّ ما تُلقيه إلى غيرك[2]، وهو إلقاءٌ في الرّوع أو إلهامٌ، نحو: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، أو تسخيرٌ، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾، أو بالمنام، كقوله ﷺ: لم يبق مِنَ النُّبوة إلّا المُبشرات،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 405، والرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 236، والخازن، لباب التأويل: 3/ 86، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 196.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وحي).

الرُّؤيا الصّالحة(1)، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف: 15]، بمعنى الإلهام(2).

2) ﴿ٱلنَّحۡلِ﴾: النَّحْلُ: ذُبابُ العسَل(3)، واحده نحلَة، وتُطلَق على الذَّكر والأنثى، يقال: نَحلَةٌ ذَكَر، ونَحلَةٌ أنثى(4)، ومعناه المحوريُّ: "طَيِّبٌ يحوزه الباطن، يُفرَز أو يُبذل إلى حوزةٍ أخرى، كما يُخرِج النَّحلُ عسلَه فيُحاز"(5)، وسُمِّي النَّحلُ نحلًا لأنَّ اللّه نَحَل النّاسَ - أي: أعطاهم ومنحهم - العسَلَ الذي يخرج من بطون النَّحل(6).

3) ﴿يَعۡرِشُونَ﴾: العَرْش في كلام العرَب: سرير المَلِك، يدلُّ على ذلك سريرُ بلقيس ملكة سبأ، ومنه في كلام العرَب أيضًا: عرشُ البيت: سَقْفُه(7)، وأصل العرش: شيءٌ مُسَقَّف، وجمعه عروش(8)، تقول: عَرَش يعرُش ويعرِش عرشًا، أي: بنى بناءً من خشب(9)، وبهذا المعنى جاء قول اللّه تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾. "يعني: يبنون"(10).

4) ﴿فَٱسۡلُكِي﴾: السُّلوك: مصدر سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ المكانَ أسلُكُه سَلْكًا وسُلوكًا(11)، وهو: النَّفاذُ في الطَّريق(12)، والمَسْلَك: الطَّريق(13)، وجذره يدلُّ على أصلٍ واحدٍ يدلُّ على "نفوذ شيءٍ في شيءٍ"(14).

5) ﴿سُبُلَ﴾: السَّبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولةٌ وما وضُح منه، يُذَكَّر ويؤنَّث، وجمعُه:

(1) الراغب، المفردات والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وحي).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/ 142، والآلوسي، روح المعاني: 6/ 389.
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نحل).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، صحاح اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نحل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نحل).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نحل).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (عرش).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عرش).
(9) الجوهري، الصحاح: (عرش).
(10) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 86.
(11) ابن منظور، لسان العرب: (سلك).
(12) الراغب، المفردات: (سلك).
(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سلك).
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلك).

سُبُلٌ[1]، وأصله من "امتداد الشَّيء طولًا، فالسَّبيل الطَّريق، سُمِّي بذلك لامتداده[2]، ويُطلَق السَّبيل أيضًا على المذهب، والطَّريقة في الدِّين، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ [العنكبوت: 12]، أي: طريقتنا في ديننا[3]، ويأتي بمعنى الطَّريق الحقِّ، كما في قوله تعالى: ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزخرف: 37]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النَّحل: 9][4].

6) ﴿ذُلُلًاۚ﴾: الذُّلُّ ضدُّ العزِّ، وهو ما كان عن قَهر[5]. يُقالُ: ذلَّ يذِل ذُلًّا، فهو رَجُلٌ ذليلٌ بيِّن الذُّلِّ والذِّلَّة والمَذَلَّة، وجمعه أذلّاء وأذِلَّة[6] والذِّلُّ بالكسر: اللِّين والطَّواعية والانقياد، وهو ما كان بعد صعوبةٍ وشِماس[7]. يُقالُ: ذلَّ يذِلُّ ذِلًّا، فهو ذلول، ويكون وصفًا للإنسان والدّابَّة، والذَّكر والأنثى فيه سواء، وجمع الذَّلول ذُلُل[8]، وهذا الجذر (ذلل)، يدلُّ على أصلٍ واحدٍ، وهو: "الخضوع والاستكانة واللِّين"[9].

7) ﴿شَرَابٌ﴾: شَرِب الماءَ وغيره يَشْرَب شَرْبًا وشُرْبًا، وهو: تناولُ كلِّ مائع بالفَم من ماءٍ وغيره[10]، والشَّراب: اسمٌ لكلِّ ما يُشرَب، وهو: كلُّ شيءٍ لا يُمضَغ فإنَّه يُقالُ فيه يُشرَب[11]، وجمع الشَّراب: أشرِبَة[12].

8) ﴿شِفَآءٌ﴾: الشِّفاء: الدَّواء، وأصله البُرءُ مِنَ المَرض، ثمَّ وُضِع موضع العلاج والدَّواء، وجمعُه: أشفية، وجمع الجَمع: أشافٍ[13]، وشفاه اللّهُ مِن مرضه يشفيه شفاءً: أبرأه، واستشفى فلانٌ: طلَبَ الشِّفاء[14].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 330، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سبل).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ذل).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ذل).
(7) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ذل).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، (ذل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذل).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (شرب).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شرب).
(12) الراغب، المفردات: (شرب).
(13) ابن منظور، اللسان، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، والزبيدي، تاج العروس: (شفي).
(14) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان، والزبيدي، تاج العروس: (شفي).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

وألهَم ربُّك يا محمَّد -ﷺ- النَّحلَ إيحاءً إليها أنِ اتَّخذي مِنْ كهوف الجبال أوكارًا ومساكن تأوين إليها ومِن فجوات الشَّجر وممّا يبني النّاس من المنازل ويهيئون، ثمَّ كُلي مِنْ كلّ ثمرةٍ تشتهينها، وادخلي طُرُقَ ربِّك مهيَّأةً ومذلَّلَةً لك دون تعسُّرٍ أو نسيانٍ بحثًا عن الثَّمرات، يخرج من بطونها عسَلٌ مُختلفٌ ألوانه ما بين أبيض وأصفر وأسود وأحمر، فيه غذاءٌ ودواءٌ للنّاس، إنَّ في ذلك الصُّنع والإحكام العجيب لعلامةً واضحةً لقومٍ يتفكَّرون في بدائع صُنْعِ اللّه فيعتبرون(1).

مظاهر قدرة الله تتجلَّى في تعدُّد ألوان عسل النَّحل وخلاياه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة عطف الآيتيْن على ما تقدَّمهما:

قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ معطوف على قوله ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ الآية، عطْفَ عِبرةٍ على عِبرةٍ، ومِنَّةٍ على مِنَّة(2)؛ لتتساوَق الدَّلائل على عجائب صنعته تعالى وبدائع قُدرَته(3)، وهذا هو ما حسَّن الوصل هنا دون الفَصْل، فكأنَّها دررٌ ناصعةٌ، ولآلئُ مُتتابعةٌ، انتظمها خيطٌ متينٌ مِنَ التَّدليل على مظاهر القُدرة، وبراهين الوحدانيَّة.

آياتٌ بعد آياتٍ ودلائلُ واضحاتٌ، تُبرهن على أحديَّة ربِّ الأرض والسَّماوات

نكتة تغيير أسلوب التَّذكير بالنِّعم:

غيّر أسلوب الاعتبار في هذه الآية عن سابقاتها؛ لِما في هذه العِبرة مِن تنبيهٍ على عظيم حكمة اللّه تعالى إذ أودعَ في خِلقةِ الحشرة الضَّعيفة هذه الصَّنعة العظيمة وجعل فيها هذه المنفعة، كما أودع في الأنعام ألبانها، وأودع في ثمرات النَّخيل والأعناب

في العدول عن أسلوب الاعتبار كبير دليلٍ على عظَمَة صُنْعِ الواحد القهّار

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 286، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 29، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 499، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 233.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 204.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 331.

شرابًا، وكان ما في بطون النَّحل وسطًا بين ما في بطون الأنعام وما في قلب الثِّمار، فإنَّ النَّحل يمتصُّ ما في الثَّمرات والأنوار مِنَ الموادِّ السُّكَّريَّة العسَليَّة ثمَّ يخرجه عسلًا، كما يَخرج اللَّبن مِن خلاصة المرعى، وفيه عِبرةٌ أخرى، وهي أنْ أودع اللّه في ذبابة النَّحل إدراكًا لصُنعٍ محكَم مضبوطٍ مُنتِجٍ شرابًا نافعًا لا يحتاج إلى حَلْبِ الحالب؛ لذلك افتُتحت الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾[1].

دلالة الفعل ﴿وَأَوْحَىٰ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الإيحاء إلى الحشرة دليل حِكمةٍ وقُدرَة

إطلاق الوحي استعارةٌ تمثيليَّة[2]، فدِقَّتها في صنعتها، ولطفها في تدبير أمرها، وإصابتها فيما يُصلحها، دلائل بيِّنةٌ شاهدةٌ على أنَّ اللّه أودعها عِلْمًا بذلك وفطَّنها، كما أولَى أولي العقول عقولهم[3].

وافتُتِحت الجملة الكريمة بفعل ﴿وَأَوْحَىٰ﴾ دون أنْ تفتتح باسم الجلالة مثل جملة ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾؛ لما في ﴿وَأَوْحَىٰ﴾ من الإيماء إلى إلهام تلك الحشرة الضَّعيفة تدبيرًا عجيبًا وعملًا مُتقنًا وهندسةً في الجِبلَّة، فكان ذلك الإلهامُ في ذاته دليلًا على عظيم حكمة اللّه تعالى فضلًا على ما بعده من دلالةٍ على قُدرة اللّه تعالى ومِنَّةٍ منه سبحانه[4].

دلالةُ الإضافة في قوله ﴿رَبُّكَ﴾:

في العسل شفاءٌ لِمَن طَعِمه، وفي القرآن شفاءٌ لِمَن آمن به

أوثِر استعمالُ لفظِ الرُّبوبيَّة، وأُضيفَ الإيحاء إلى الرَّبِّ سبحانه لأنَّ ذلك الوحي فيه فائدةٌ ونِعمةٌ ورِزقٌ للإنسان، ووَصْفُ الرُّبوبيَّة أليق بالإنعام، وفي الإضافة تشريفٌ للمُخاطب.

سرُّ تعدية الإيحاء بـ ﴿إِلَى﴾:

وحي الله إلى النَّحل كان بطريق الإلهام

تَعدَّى الإيحاء بـ﴿إِلَى﴾ دون (اللّام) لأنَّ تعدية فِعل الإيحاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 204.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 204.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/ 618، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 154، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 559.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 204.

بـ﴿إِلَىٰ﴾ يفيد معنى الإلهام، وهو المناسب للإيحاء وما عُنِي به في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾[1].

نوع (اللّام) في ﴿ٱلنَّحۡلِ﴾ ودلالتها:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ هي الجنسيَّة التي تفيد استغراق جميع أفراد جنس النَّحل[2]، إذ كلُّها داخلة تحت مظلَّة هذا الوحي الإلهاميِّ، وفي هذا ما فيه من بديع الدِّلالة على قُدرة اللّه في خَلْق العوالم، وتسخيرها.

ائتمرت جميع أفـراد النَّحل بأمر الله ووحي إليها، فما بال الكافرين معرضين

دلالة (أن) في قوله ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾:

﴿أَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ هي التَّفسيريِّة؛ لأنَّ الوحي في معنى القول، وما بعدها تفسيرٌ لما قبلها، وهي ترشيحٌ للاستعارة التَّمثيليَّة التي في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ﴾؛ لأنَّ (أن) التَّفسيريَّة مِن روادف الأفعال الدّالَّة على معنى القول دون حروفه[3].

أمرُ الله المُلْهِم للنَّحل هو اتِّخاذها بيوتًا من الجبال وغيرها

غرضُ التَّعبير بالأمر ﴿ٱتَّخِذِى﴾:

الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخِذِى﴾ للتَّسخير وهو مجازٌ، علاقته المشابهة بينه وبين الأمر في مُطلَق الإلزام[4].

ليس للنَّحل إلّا الانقياد لأمر الله تعالى

بلاغة التَّأنيث في ضمير الخطاب:

تأنيث الضَّمير في قوله ﷻ: ﴿ٱتَّخِذِى﴾ لأنَّ النَّحل جمع نحلة[5]؛ فناسبه التَّأنيث.

النَّحل واحده نحلة

دلالة حرف الجرِّ في الآية الكريمة:

﴿مِنَ﴾ الدّاخلة على الجبال في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ وما عُطِف عليها من الشَّجَر وممّا يعرشون بمعنى (في)، وأصلها (مِن)

بيوت النَّحل تكون في جزءٍ من الجبال وغيرها

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (وحي).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 420.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 206، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4214.
(4) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 199، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 82.
(5) ابن كمال باشا، التفسير: 6/ 63.

الابتدائيَّة، فالتَّعبير بها دون (في) الظَّرفيَّة لأنَّ النَّحل تبتني لنفسها بيوتًا ابتداءً في بعض جحور الجبال وبعض أغصان الشَّجَر وبعض العريش، ولا تجعَل بيوتها جحور الجبال كلّها ولا أغصان الشَّجر كلِّها ولا أعواد العريش الحاضرة كلِّها كما هي دون ابتناءٍ منها؛ إذ لا يتهيَّأ لها ذلك في كلِّ جبَلٍ ولا شجَر(1).

نوع (اللّام) في ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾ هي الجنسيَّة، فتشمل جميع جنس الجبال، وفي هذا إشارة إلى رحمة اللّه تعالى إذ جعل كلَّ جبلٍ مظنّةَ أن يكون فيه بيتٌ للنَّحل، فينعم النّاس في أقطار الأرض بعسَله.

كـلُّ الـجـبال مظنَّةٌ لاتِّخاذ الـنَّـحـل فيها مساكن وبيوتًا وهذا مِن رحمة الله

غرضُ تقديم ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ على المفعول:

قُدِّم قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ على المفعول به ﴿بُيُوتٗا﴾ للاهتمام بالمقدَّم؛ ذلك أنَّ اللّه تعالى حدَّد لها أماكن البيوت وحجَرها عليها، فلم يوسِّع لها في اتِّخاذ البيوت كما وسَّع لها في الأكل.

للنَّحل أماكن محدَّدةٌ في السَّكن، أمّا في الأكل فلا

غرض تنكير ﴿بُيُوتٗا﴾ وجمعها:

جاءت كلمة ﴿بُيُوتٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ نكرةً لغرض النَّوْعيَّة؛ إذ إنَّ بيوت النَّحل لا تشبه بيوت المخلوقات الأُخرى، فإنَّها تبني بيوتًا بنظام دقيق، ثمَّ تقسِّم أجزاءها أقسامًا متساويةً بأشكالٍ مسدَّسةِ الأضلاع بحيث لا يتخلَّل بينها فراغٌ تنساب منه الحشرات، وجاءت كلمة (النَّحل) مجموعةً لغرض التَّكثير، وفي التَّكثير مظهرٌ من مظاهر رحمة اللّه بالخَلْق؛ إذ لم يجعل بيوت النَّحل قليلةً، ولا شرابه نادرًا، بل هو كثيرٌ مُتاحٌ للنّاس.

كـثرة مساكن النَّحل وشرابه دليلُ رحمةٍ وقُدرَةٍ مِنَ الله تعالى

دلالة العطف في ﴿وَمِنَ﴾، و﴿وَمِمَّا﴾:

حسُن الوصل هاهنا دون الفصل لقصد التَّشريك في الحُكم،

(1) السّمين الحلبي، الدرّ المصون: 7/ 262، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 559، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 206.

فقد أباح اللّه للنَّحل أن تبني بيوتها في الجبال والشَّجر وما يبنيه النّاس، ولِما بين أشباه الجُمل الثّلاثِ مِن تمام المناسبة التي لا يحسُن معها الفصل بينها.

تتعدَّد مساكن النَّحل فتكون في ثلاثة: الجبال والشَّجر والسُّقوف

نوع (اللّام) ودلالتها في ﴿ٱلشَّجَرِ﴾:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّجَرِ﴾ هي الجنسيَّة، فتشمل جميع جنس الشَّجر، فلم يحرِّم على النَّحل شجرٌ معيَّن، فكلُّ شجرةٍ مظنَّةٌ أن يكون فيها بيتٌ للنَّحل، فينعم النّاس في أقطار الأرض بعسله.

ليست هناك شجرةٌ معيَّنةٌ لاتِّخاذ النَّحل فيها سكنًا ومأوى

غرض التَّعبير باسم الموصول وصِلَتِهِ:

(ما) اسم موصول مبنيٌّ في محلِّ جرٍّ متعلِّق بالفعل الأخير ﴿ٱتَّخِذِى﴾ ومعطوف على الجارِّ الأوَّل ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾[1]، وهو أعمُّ الموصولات وأدخَلُها في الإبهام، وفي التَّعبير به تكثير للنِّعمة.

نِعم الله على عباده كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحصى

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡرِشُونَ﴾:

تدلُّ صيغة المضارع على التَّجدُّد والاستمرار، وفيها وعدٌ لطيفٌ يُطِلُّ من وراء سترٍ رقيق، فما دام النّاس يعرشون فالنَّحل معهم، وقريبٌ منهم، وشرابه بين أيديهم، مستمرًّا باستمرار تعريشهم.

ما دام النّاس يعرشون فالنَّحل معهم

سرُّ العدول في قوله ﴿وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ عُدِلَ عن نظم الجُمَل المعطوف عليها إلى التَّعبير بالاسم الموصول وصِلته التي جملتها فعليَّة؛ لإفادة التَّجدُّد؛ وذلك لتجدُّدِ بناء الإنسان للبيوت.

في بناءِ بيوت الإنسان تجدُّد، وفي الجبال والشَّجر ثباتٌ متقارِب

نكتة التَّرتيب في أماكن الاتِّخاذ الثّلاثة:

ليس للنَّحل بيتٌ في غير هذه الأمكنة: الجبال والشَّجر وبيوت النّاس، وأكثر بيوتها ما كان في الجبال، وهو المتقدِّم في الآية، ثمَّ في

لمّا كانت منافعها شريفةً كانت مساكنها رفيعة

---

(1) محمود صافي، الجدول: 7/ 349، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 6/ 174.

الشَّجر دون ذلك ثمَّ في الثّالث أقلُّ(1)، وفيه إشارة إلى ترتيب درجات هذا العسَل حسب البيت.

دلالة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ كُلِي﴾:

لأكل النَّحل مِن كلِّ الثَّمرات كبير فائدةٍ للإنسان في السَّلامة مِنَ الآفات

﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيب الرُّتبيِّ، وممّا يدلُّ على أنَّ أكل الثَّمرات وتكوُّن العسل في بطونه، وإخراجه منها أعلى رتبةً من اتِّخاذها البيوت أنَّ ذلك أعظمُ فائدةً للإنسان، وأنَّ منه قوتَها الذي به بقاؤها(2).

دلالة فعل الأمر ﴿كُلِي﴾:

النَّحل مخيَّرٌ بين الأكل مِنْ كلِّ الثَّمرات أو بعضها

الأمر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ للتَّخلية والإباحة، ولو أُبقِي الأمر على ظاهره لجاز؛ لأنَّه لا يلزم مِنَ الأمر بالأكل مِنْ جميع الثَّمراتِ الأكلُ منها(3).

دلالة حرف الجرِّ ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

للثمرات أجزاءٌ مأكولةٌ وأخرى متروكة

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للتَّبعيض؛ أي: كُلِي جُزءًا أو شيئًا من الثَّمرات أو بعض الثَّمرات، وذلك؛ لأنَّها لا تأكل جميع الثَّمرات، بل تأكل نوار الأشجار فقط(4).

نوع (اللّام) ودلالتها في ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

النَّحل مباحٌ لها أكل ما تشتهيه

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ هي التي لبيان الجنس؛ أي: مِنْ كلِّ ثمرةٍ تشتهيها وتتيسَّر لها مرِّها وحلوها، وليس معنى الكلِّ الاستغراق(5).

بلاغة إطلاق ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ على (الزُّهور):

كفل الله للنَّحل غذاها، وجعل الأزهار مرعاها

الثَّمرات: جمع ثمرة، وأصل الثَّمرة ما تخرجه الشَّجرة من غلَّة، مثل التَّمر والعنبِ، والنَّحلُ يمتصُّ مِنَ الأزهار قبل أن تصير ثمرات،

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/ 384.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/ 385، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4214، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 206.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/ 385.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 406، والخازن، لباب التأويل: 3/ 86.

(5) ثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 5/ 354.

فأطلق الثَّمرات في الآية على الأزهار على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الأوَّل[1].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَاسْلُكِي﴾:

النَّحلُ في عملٍ دؤوب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكِي﴾ للتَّعقيب والتَّفريع؛ فظاهرُ العطف بالفاء في ﴿فَاسْلُكِي﴾ أنَّه بعَقِيب الأكل، أي: فإذا أكلتِ فاسلكي سُبُلَ ربِّك، أي: طُرُقَ ربِّك إلى بيوتك راجعة، والسُّبُل هي مَسالِكُها في الطَّيَران، فتكون الفاءُ تفريعًا على ما سبق للإشارة إلى أنَّ الله أودَعَ في طبع النَّحل عند الرَّعي التَّنقُّلَ مِن زَهرةٍ إلى زَهرةٍ ومِن روضةٍ إلى روضةٍ.

دلالة التَّعبير بالأمر ﴿فَاسْلُكِي﴾:

النَّحلُ مُسَخَّرٌ ومجبولٌ على طاعة الله ﷻ

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكِي﴾ للتَّسخير والتَّكوين؛ إذ السَّلك في تلك المسالك ليس فيه لها اختيارٌ حتى تُؤمَر به، فلا بدَّ أن يكون الأمر تكوينيًّا[2].

نكتة التَّعبير بـ (السُّبل) جمعًا:

السُّبل تدلُّ على الكثرة، ولكنَّ النَّحلَ لا تحيد عن بيتها يَمنَةً ولا يَسْرَةً

صيغة الجمع في (السبل) مُشعِرةٌ بالكثرة والتَّنوُّع، فهي تسلك من هذا الجوِّ العظيم، والبراري الشّاسعة، والأودية والجبال الشّاهقة، ثمَّ تعود كلُّ واحدةٍ منها إلى بيتها لا تحيد عنه يَمنةً ولا يَسرة[3].

سرُّ إضافة السُّبل إلى قوله ﴿رَبِّكِ﴾:

الله خالقُ هذه السُّبل، ومسخِّر النّحل لسلوكها

إضافة السُّبل إلى (ربِّك) للإشارة إلى أنَّه هو خالقها وموجِدها[4]، وهو المهيِّئ لذلك، والميسِّر له، والقائم بمصالحها ومعايشه[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 207.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 422.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/ 385.
(4) طنطاوي، الوسيط: 8/ 189.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 422.

سرُّ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيّة ﴿رَبِّكِ﴾:

إحسان الله إلى النّحل عظيمٌ

لّما كان الرَّبُّ هو المتفضِّل بالرِّزق والتَّدبير والإنعام، وكان اللّه ﷻ هو المُربِّي للنَّحل بهذه النِّعم التي هي تدبير رزقِها وسكنِها، ناسب ذلك أن يُؤتَى بلفظ الرُّبوبيَّة في هذا المقام[1]، وأُضِيفَ لفظُ (الرَّبِّ) إلى ضمير المخاطبة العائد على النَّحل؛ لأنَّ هذا الإنعامَ بالرِّزق وتدبيرِ السَّكن إنَّما يعود على النَّحل ويتعلَّق به.

سرُّ تقييد الفعل بالحال ﴿ذُلُلٗاۚ﴾:

وفيما في النَّحل مِن تسخير عجيب صُنعٍ وعظيم تدبيرٍ

كلمة ﴿ذُلُلٗاۚ﴾ حالٌ من ضمير المخاطَبة في ﴿فَٱسۡلُكِي﴾ العائد على النَّحل، وفيه مزيد إظهارٍ للنِّعمة بتقييدها بكونها مُذلَّلة.

دلالة موقع ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ﴾:

في النَّحل آياتٌ عظيمةٌ كامنة

فُصِلَتْ جملة ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها مُستَأنَفة استئنافًا بيانيًّا؛ فكأنَّه قيل: ما الغاية مِن هذا التَّكوين المُعجِب وهذه الأوامر؟ فجاءت الآية كالجواب: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ﴾، وفيه تَنبيهٌ على العِبَر المذكورة، وإرشادٌ إلى الآيات العظيمة الكامنة في النَّحل، الذي هو مخلوقٌ ضعيف[2].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَخۡرُجُ﴾:

تجدُّد خروج العسل مِن النَّحل رحمة من الله بالنّاس

أوثِرَ مَجيء الفعل ﴿يَخۡرُجُ﴾ على صيغة المضارع للدَّلالةِ على تجدُّد خروجِ العسل من النَّحل، وفي خروجه مُتجدِّدًا متكرِّرًا لا ينقطع - نعمةٌ أُخرى، يستديم به الإنسانُ تمتُّعَه بهذه النِّعمة[3].

سرُّ إسناد ﴿يَخۡرُجُ﴾ إلى ﴿شَرَابٞ﴾:

المبالغة في بيان النِّعمة داعيةٌ إلى وفرة الشُّكر

فيه إيذانٌ بعظيم قدرته ﷻ بحيث إنَّ ما يُشعر بإرادة الشَّيء

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 198.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 125، والقاسمي، محاسن التأويل: 6/ 385، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 206.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 206.

كافٍ في حصوله[1]، وفيه مُبالغةٌ في إظهار النِّعمة كأنَّه يخرج بذاته.

سرُّ الالتفات في ﴿بُطُونِهَا﴾ من الخطاب إلى الغيبة:

التفاتٌ لجذب الانتباه

في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ التفاتٌ عُدِل فيه عن خطاب النَّحل إلى الكلام مع النّاس لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صُنع اللّه تعالى التي هي موضعُ عِبرتهم بعد ما أُمِرت بما أُمِرت[2]، ولو جاء الكلام على النَّسق الأوَّل لقيل: من بطونِكِ، وإنَّما صرف الكلام هاهنا مِن الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي لفت انتباههم إليه، ولو قال: مِن بطونكِ لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة، وليس ذلك بخافٍ عن نَقَدَةِ الكلام[3].

دلالة حرف الجرّ في ﴿مِنۢ بُطُونِهَا﴾:

ابتداء خروج العسل يكون من بطون النَّحل، وفي بطونها تشكُّلُه

معنى ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بُطُونِهَا﴾ هو ابتداء الغاية، وقد ذَكر سبحانه مبدأ الغاية الأولى وهي البطون، ولم يذكر سبحانه مبدأ الغاية الأخيرة، والجمهور على أنَّه يخرج من أفواهها[4]، فابتداء خروج العسل إنَّما يكون من البطن؛ "لأنَّ الاستحالة تقع في بطونها؛ ولأنَّه يخرج من بطونها إلى أفواهها، ثمَّ تسيل من أفواهها كهيئة الرِّيق"[5]، وكلمة ﴿بُطُونِهَا﴾ تشير إلى مكان تشكُّل العسل في النَّحلة؛ أي: في معدتها التي تقع في بطن النَّحلة[6].

سرُّ التَّعبير بالتَّأنيث في ﴿بُطُونِهَا﴾:

كلُّ نحلةٍ تؤدّي عملَها من دون فتورٍ ولا تمرُّد

عاد الضَّمير على النَّحل بلفظ المُفرد المؤنَّث: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ مع أنَّ (النَّحل) اسمُ جمعٍ مذكَّر، وذلك أنَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 422.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 126، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 422.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 332.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 422.
(5) السمعاني، التفسير: 3/ 186.
(6) الهلال، الثري الجامع: 6/ 187.

المُراد بالنَّحل هو (جماعة النَّحل) أو النَّحل في جماعته، من حيث كان النَّحل مِنَ الكائنات الحيَّة التي لا تعيش إلّا في نظام جماعيٍّ، تتألَّف منه وحدةٌ منتظمةٌ، أشبه بالوحدات الإنسانيَّة، في أرقى المجتمعات، حيث تتوزَّع أعمال الجماعة على أفرادها، وحيث يؤدِّي كلُّ فردٍ ما هو مطلوبٌ منه في غير فتورٍ أو تمَرُّد، ومِن حصيلة العمل الذي تعمله هذه الجماعة، ويشارك فيه ذكورها وإناثها، وجنودها وعمّالها، والملكة ورعيَّتها، ومن هذه الحصيلة يتكوَّن الشَّراب المُختلِف الألوان، الذي فيه شفاءٌ للنّاس[1].

غرضُ تقديم ﴿مِنۢ بُطُونِهَا﴾:

استحالة الرَّحيق في بطون النَّحل عسلًا لذيذًا مِن قُدرَة القدير ﷻ

قُدِّم شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ على الفاعل لغرض الاهتمام بالمُقدَّم ولفت الأنظار إليه، إذ المقصود التَّنبيه على أنَّ هذا الشَّراب العظيم النَّفع البالغ الفائدة المُختلِفة ألوانُه وطعومه المحتوي على شفاءٍ للنّاس إنَّما يخرج من بطون هذه الحشرة الصَّغيرة، فكيف استحال الرَّحيق في بطونها عسلًا لذيذًا؟! إنَّها قُدرة القدير ﷻ.

سرُّ التَّعبير عن العسَل بالشَّراب:

العسَل شفاء لكثيرٍ من الأدواء

عُبِّر عن العسَل باسم الشَّراب دون العسل في قوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ لما يومئ إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به، وهو محلُّ المِنَّة، وليرتَّب عليه جملة: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾، وسمِّي شرابًا لأنَّه مائعٌ يُشرَب شربًا ولا يمضغ[2].

غرض تنكير ﴿شَرَابٌ﴾:

تنكيرٌ للتكثير

جاءت كلمة ﴿شَرَابٌ﴾ نكرةً لإفادة التَّكثير، وهو المنصوص عليه في الآية نفسها، بقول الله تعالى: ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾، فهو - وإنْ سُمِّي

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 7/ 324.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 209.

جميعُه عسلًا - فإنَّ ألوانَه مختلفة، وطعومَه كذلك مختلفة، وهذا يدلُّ على عظيم قدرة اللّه ﷻ أن يخرج هذا الشَّراب العظيم مختلِف الألوان والطُّعوم من هذه الحشرة الضَّعيفة.

دلالة موقع قوله ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾:

خروج العسل من حشرةٍ ضعيفةٍ دليلٌ باهرٌ على قدرة الله

قوله تعالى: ﴿مُّخۡتَلِفٌ﴾ صفةٌ لـ﴿شَرَابٌ﴾، وهو اسم فاعل عامل عمل فعله المضارع؛ أي: (تختلف)، وقوله تعالى: ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ فاعلٌ لاسم الفاعل العامل ﴿مُّخۡتَلِفٌ﴾ مرفوع وعلامة رفعه الضمَّة الظاهرة[1]، وفي اختلاف ألوانه - الدّالة على اختلاف طعومه - مع خروجه من هذه الحشرة الضَّعيفة دليلٌ باهرٌ على قدرة اللّه تعالى وعظيم منَّته سبحانه على خلقه أن جعل غذاءهم - طعامًا وشرابًا - مختلف الألوان والطُّعوم.

دلالة موقع ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾:

تعديد نعم الشَّيء يقتضي التَّتابع لا العطف

فُصِل قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ عن سابقه لكونهِ واقعًا في محلِّ رفع صفةٍ ثانيةٍ لـ﴿شَرَابٌ﴾[2]، فهو بمنزلة تعديد نعم الشيء الواحد، فحسن الفصل بينهما لئلّا يوهم الوصل خلاف المراد، كأن يُتوهَّم أنَّ الخارج من بطون النَّحل على أصناف: منها ما هو مختلفٌ ألوانه، ومنها ما فيه شفاءٌ للنّاس.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾:

جعل في العسل شفاء الأسقام؛ ليتدّبر أولو الأفهام

في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ قُدِّم المسند، وهو شبه الجملة الواقع خبرًا على المسند إليه، وهو ﴿شِفَآءٞ﴾ لأنَّه الأصل لمجيء المسند إليه نكرةً، ولا مسوغ للابتداء بها إلّا تقدُّم شبه الجملة عليها مع الاهتمام بالمقدَّم لما فيه من تنبيهٍ على أهميَّة الأخذ بأسباب الشِّفاء، فقدم سبب الشِّفاء الذي أودعه في العسل على الشِّفاء نفسه لإرشاد النّاس إلى هذه النِّعمة الكامنة للاعتبار بها، والاستفادة بما فيها.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 332، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 6/ 175.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 6/ 175.

الظَّرف يكون أوسع من المظروف غالبًا

دلالة جعل الشِّفاء مظروفًا ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾:

جُعِل الشِّفاء مظروفًا في العسل على وجه الظَّرفيَّة المجازيَّة - وهي الملابسة - للدَّلالة على تمكُّن ملابسة الشِّفاء إيّاه، وإيماءً إلى أنَّه لا يقتضي أن يطَّرد الشِّفاء به في كلِّ حالةٍ من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل، فالظَّرفيَّة تصلح للدَّلالة على تخلُّف المظروف عن بعض أجزاء الظَّرف؛ لأنَّ الظرف يكون أوسع من المظروف غالبًا، فقد شبَّه تخلُّف المقارنة في بعض الأحوال بقلَّة كميَّة المظروف عن سعة الظَّرف في بعض أحوال الظُّروف ومظروفاتها، وبذلك يبقى تعريف ﴿لِّلنَّاسِۚ﴾ على عمومه، وإنَّما التَّخلُّف في بعض الأحوال العارضة، ولولا العارض لكانت الأمزجة كلُّها صالحةً للاستشفاء بالعسل[1].

تنكيرٌ جاء للتّعظيم

غرض تنكير ﴿شِفَآءٌ﴾:

جاءت كلمة ﴿شِفَآءٌ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ لغرض التَّعظيم، أيْ: فيه شفاءٌ عظيمٌ للنّاس، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نعمة الشَّفاء التي أودعها اللّه في العسل نعمةٌ عظيمةٌ لشديد حاجة النّاس إلى ما فيه شفاءٌ لهم من الأمراض التي تعرض للإنسان ولا يكاد يسلم منها أحد، فناسب شدَّة احتياج النّاس لما فيه شفاؤهم الإتيان بكلمة ﴿شِفَآءٌ﴾ نكرةً لتعظيم هذه النِّعمة[2]، وتنكير ﴿شِفَآءٌ﴾ في سياق الإثبات لا يقتضي العموم، فلا يقتضي أنه شفاءٌ من كلِّ داءٍ، لكنَّه شفاءٌ عظيم[3].

تنوُّعُ المصادر وتعدّد الطرائق منّةٌ من مِنَن الله العظيمة وآلائه الجسيمة

معنى حرف الجرِّ في ﴿لِّلنَّاسِۚ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِۚ﴾ تفيد الاختصاص[4]، إذ المعنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 209.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4214.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 206.
(4) المرادي، الجنى الداني، ص: 96.

أنَّ ما أودعه اللّه تعالى في العسل من الشِّفاء إنَّما جعله اللّه كذلك لأجل النّاس، فكما سخَّر لهم ما في السَّماوات وما في الأرض، وكما نوَّع لهم في مصادر الطَّعام كذلك نوَّع لهم في مصادر الشَّراب، وعدَّد لهم طرق الشِّفاء، وتلك من منن اللّه العظيمة وآلائه الجسيمة على عباده.

معنى لام التعريف في ﴿لِّلنَّاسِۚ﴾:

مجيء (اللّام) يفيد العموم البدليّ

معنى (اللّام) في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ للعموم، وعموم التَّعريف بأل في هذه الكلمة لا يقتضي العموم الشُّمولي، الذي يستغرق ويشمل كُلَّ فردٍ بل لفظ ﴿لِّلنَّاسِۚ﴾ عمومه بدليٌّ[1].

دلالة موقع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

استئنافٌ للبيان والتَّوضيح

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جملة مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا لتنزيلها منزلة سؤالٍ مقدَّر، فكأنَّه قيل: هل فيما سبق ذكرُه آية؟ أو: في ذلك آية لِمَن؟! فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذا مما يحسِّن الإتيان بمؤكِّدات[2].

دلالة توالي المؤكّدات في فاصلة الآية:

قوارعُ السَّمع مطارقُ القلب، توقظه من سباته، وتزيل عنه غشاواته

في هذه الجملة الكريمة مجموعة من المؤكِّدات هي: الحرف النّاسخ ﴿إِنَّ﴾، واسمية الجملة، واللّام في قوله: ﴿لَأٓيَةً﴾، ووقوع الجملة موقع الاستئناف البيانيِّ.

هذه المؤكِّدات كأنَّها قوارع توقظ القلوب من غفلتها، وتضعُ الأيدي على الحقيقة الدّامغة أنَّ في هذه الأمور المتقدِّم ذِكرها آيةً دامغةً وبراهينَ ساطعةً لِمَن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد، وقد حَسُن توالي هذه المؤكِّدات لمّا كان الكلام موجَّهًا إلى منكرِين، لإقامة الحُجَّة عليهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 206.

(2) الصعيدي، بغية الإيضاح: 2/ 295.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

في إخراج العسل من بطون النَّحل عِظَةٌ للذين يتفكَّرون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ قُدِّم المسند، وهو شبه الجملة، على المسند إليه، وهو قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ لغرض التَّنبيه على أنَّ المقدَّم هو مناط الاستعظام ولفت النَّظر إليه.

وفيها كذلك تخصيص للمتقدِّم، فكأنَّه قيل: إنَّ الآية التي يتَّعظ بها الذين يتفكَّرون إنَّما هي في تسخير النَّحل للإنسان، فكأنَّه نزَّل هذه الآية المفردة منزلة جميع الآيات، ليكون مَن كفر بها أو أعرض عنها كمَن كفر بجميع الآيات، وإنَّما خُصِّصت هذه الآية بهذا لوضوحها وجلائها فلا يكاد ينكرها أحد.

غرض التّعبير ﴿ذَٰلِكَ﴾ دون الضّمير:

آيات الله وآلاؤه عظيمةٌ لا يُعرض عنها إلّا أصحاب النُّفوس الذَّميمة

أوثر التَّعبير باسم الإشارة دون الضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ليكون محلُّ الآية جميع المذكورات مِن تسخير النَّحل، وإلهامه سبل الحياة والغذاء، وطرق التَّعشيش والبناء، وإخراج العسل من بطونه مختلفًا ألوانه، وجعله شفاءً للنّاس... إلخ، والتَّعبير باسم الإشارة في سياق المدح دليلٌ على التَّعظيم، وأمّا عن نكتة مجيئه للبعيد، فلتعظيم المشار إليه، وأنَّه قد بلغ غايةً في العلوِّ والتَّعظيم سامقة[1].

معنى اللّام في ﴿لَآيَةً﴾:

حكمةٌ بالغةٌ فما تغني النّذر

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ هي اللّام المُزحلَقَة المفيدة للتَّوكيد[2]، وإنَّما حَسُن هذا التَّوكيد لكون الكلام موجَّهًا إلى مخاطَبين منكرين، فأُقيمت عليهم الحُجَّة به.

غرضُ تنكير ﴿لَآيَةً﴾:

إخراج العسَل من بطون النَّحل من عجيب قُدرته، ومن دلائل رحمته

مِن أغراض التَّنكير: التَّعظيم[3]، وهو المقصود في هذا السِّياق،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 413.
(2) محمود صافي، الجدول: 7/ 346.
(3) المراغي، علوم البلاغة، ص: 127.

فإنَّ في إخراج العسَل المُختلِفة ألوانُه وطعومُه من بطون النَّحل آيةً عظيمةً وجليلةً، وبغرس الإيمان في القلوب كفيلة، ودلالة واضحة تدلُّ على وحدانيَّة اللّه سبحانه وقدرته وحكمته[1].

دلالة حرف الجرِّ في قوله ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

اللّام جاءت للاختصاص

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ تفيد الاختصاص[2]، وقد وصفهم اللّه بالتَّفكُّر الذي هو إعمال الفِكر في دلائل القُدرة وبراهين الوحدانيَّة المُؤدِّي إلى المطلوب؛ فلذلك خُصِّص في الآية دون غيره، وإنَّما خصَّ كونها آيةً لهم؛ لأنَّ غيرهم لا ينتفعون بها.

نكتة تنكير ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

مَن كان مطبوعًا على الاعتبار والاتِّعاظ، هُدِي إلى سواء السَّبيل

ذكر لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ دون أن يُقالَ: للذين يتفكَّرون أو للمتفكِّرين أو المتدبِّرين؛ لأنَّ إجراء الوصف على لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ يومئ إلى أنَّ ذلك الوصف سجيَّةٌ فيهم، ومِن مكمِّلات قوميَّتهم، فإنَّ للقبائل والأُمم خصائص تميِّزها وتشتهر بها، فالمعنى: إنَّ في ذلك آياتٍ للذين سجيَّتُهم الاعتبار والاتِّعاظ، وهو تعريضٌ بأنَّ الذين لم ينتفعوا بآيات ذلك ليس تفكيرهم بصفةٍ راسخةٍ ولا هو ملَكَةٌ لهم[3]، وجيء به نكرةً لإفادة العموم، فإنَّ أيَّ قومٍ اتَّصفوا بهذه الصِّفة سيصلون إلى هذه النَّتيجة، وهي الإقرار والاعتبار.

دلالة المضارع ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

استخراج العِبرة بالفكرة في الصَّنعة اللَّطيفة مع البنية الضَّعيفة

أوثِر اختيار وصفِ التَّفكُّر هنا بمعنى يعتبرون؛ لأنَّ الاعتبار بتفصيل ما أجمَلَته الآية في نظام النَّحل محتاجٌ إلى إعمال فِكرٍ دقيقٍ، ونظرٍ عميق، ومِنَ العِبرة في النَّحل إنصافُ النَّظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها، فيشهد اليقين بأنَّ مُلهِمَها الصَّنعةَ اللَّطيفة

(1) طنطاوي، الوسيط: 8/ 182.
(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 96.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 89.

مع البنية الضَّعيفة، وحِذقها باحتيالها في تفاوت أحوالها هو اللّه ﷻ[1]، ولمّا كانت نعمةُ إخراج العسل مِنَ النَّحل مُتجَدِّدة، ناسب ذلك أن يكون التَّفكُّر في هذه النِّعمة مُتَجدِّدًا ومتكرِّرًا بحسب تجدُّدِها وتَكرارها، فكلَّما جَدَّتْ نِعمة، لزمها تَفكُّرٌ وتَدبُّرٌ فيها، واعتبار بها.

تناسَبَ كلُّ ختامٍ مع ما سبَقَهُ من نظمِ أشرفِ الكلام

دلالة التَّغاير في ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

جاء ختام الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ توبيخًا لَمَن أنكر البعث واستبعد الحياة الثّانية، فكأنَّه قيل له: إنَّ ذلك قبل التَّدبُّر مقرَّرٌ في أوَّل العقل حتى إنَّ مَن يسمعه يعترف به، وهو أنَّ الأرض الميتة يحييها اللّه تعالى بماءِ السَّماء فتعود حيَّةً بنباتها، فكذلك لا يستنكر أن يُحيي الخليقة بعد موتها، كما أنَّ إنزال الماء مِن السَّماء وإحياء الأرض بسببه أمر مشاهَدٌ محسوس، فمنكر ذلك فاقد الحِسِّ، وإنَّما خصَّ بالذِّكر حسَّ السَّمع لأنَّ لفظ القرآن المنبِّه على هذه الآية مسموع.

وأمّا اختصاص الثّانية بقوله: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ فلأنَّه قال: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، وقد علمنا أنَّ الفرث والدَّم لا ينعصر منه ما يسوغ للشّارب، وأنَّ الدَّم أحمر فيحوَّل بقدرة اللّه تعالى لبنًا أبيض طيِّبًا بعدَ بُعده ممّا استحال عنه في اللَّون والطِّيب، ففيه عِبرةٌ لمن اعتبر، ولمّا قرن إليه ثمرات النَّخيل والأعناب وما يتحوَّل من عصيرهما إلى ما يستلذُّ ويجلب ما يسرُّ سوى طيب رطبها ويابسها احتاج ذلك إلى تدبُّرٍ يُعقَل به صنعُ صانعٍ لا يقدر غيره عليه، فلذلك قال في الثّانية: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾.

وأمّا اختصاص الثّالثة بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ فلأنَّ التَّفكُّر استعمالُ الفكر حالًا بعد حال، وفي النَّحل عجائب من صُنع اللّه

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 140، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 210.

تعالى تتبع كلُّ أعجوبةٍ أعجوبةً من طاعتها لرئيسها، ثمَّ أشكال ما تبني من بيوتها التي لو حاول الإنسان مثلها بأمثلةٍ يحتذيها وتقديراتٍ يقدِّمها لتعذَّر عليه، ثمَّ إنَّها تجني من أزاهير النَّبات والأشجار ما هداها إليه إلهام اللّٰه تعالى لها وأرشدها إليه، ثمَّ تَقْلِس ما يجتمع في جوفها عسلًا، فهذه أشياء تقتضي فكرًا بعد فكرٍ، ونظرًا بعد نظرٍ، فلذلك عُقِّبت بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

(1) الإسكافي، درَّة التنزيل: 1/ 850، والنيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 282.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ٧٠﴾ [النحل: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

كلُّ ما في الوجود مِن بالغ حكمته، وباهر قُدرَته

لمّا أيقظ ربُّ العزَّة سبحانه مِنَ الرَّقدة، ونبَّه إلى عظيم الغفلة؛ بالتَّنبيه على مظاهر القُدرَة، وعجائب الصَّنعة؛ نبَّه سبحانه على قُدرَته التّامة في إنشاء الإنسان من العدم والإماتة، وتنقُّله من حال الجهل إلى حالة العِلم؛ حيث إنَّها صورٌ قد تردُّ النَّفس إلى شيءٍ من التَّأمُّل، وتردُّ القَلبَ الصَّلْد إلى شيءٍ مِنَ اللِّين، وإلى شيءٍ مِنَ الحساسيَّة، وقد تغضُّ من كبرياء المَرء واعتزازه بقوَّته وعِلمه؛ إذ القُدرَة الكاملة والإحاطة الشّاملة بيد مَلِك الملوك وعلّام الغيوب ﷻ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾: الوفاة: المنيَّة والموت، ويُقالُ: توفِّي فلانٌ وتوفّاه اللّهُ إذا قبضَ نفسَه[2]، والجذر (وفي) يدلُّ على إكمالٍ وإتمام[3]؛ لذا فإنَّ توَفِّي الميِّت يعني: "استيفاء مُدَّته التي كُتِبَت من عدد أيامِه وشهورِه وأعوامِه في الدُّنيا"، وتوَفِّي النّائم يعني: "استيفاء وقت عَقله وتمييزه إلى أن نام"[4].

2) ﴿يُرَدُّ﴾: الرَّدُّ: صَرفُ الشَّيء ورَجعُه[5]. "وهو مصدرُ رددت الشَّيءَ"[6]. يُقالُ: ردَّه عن وجهه، أي: صَرفَه[7]، وردَّه عن الأمر، أي:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 239، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 562، وابن عادل، اللباب: 12/ 114، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 205.
(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (وفي).
(3) ابن فارس، المقاييس: (وفي).
(4) الأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان: (وفي).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ردد).
(6) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (ردد).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (ردد).

صَرفَه عنه برِفق[1]، والرِّدُّ: عِمادُ الشَّيء الذي يدفعه ويرُدُّه، أي: يُرَجِعُهُ عن السُّقوط والضَّعف[2]، والارتداد: الرُّجوع، والرِّدَّةُ الاسمُ منه. "واستردَّه الشَّيءَ: سأله أن يَرُدَّه عليه، واستردَّ الشيءَ وارتدَّه: طلَب رَدَّه عليه"[3]، ويُقالُ: "هذا أمرٌ لا رادَّة له، أي: لا فائدة له ولا رُجوع"[4]. "والمردودةُ مِن النِّساء: المُطلَّقة"[5].

3) ﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾: الرَّذْل والرُّذال: الدّونُ مِنْ كلِّ شيءٍ[6]، والمرغوبُ عنه لرداءته[7]، والرُّذال والرُّذالة: ما انتُقِي جيِّدُه وبقيَ رديئُه، والأرذل من كلِّ شيءٍ: الرَّديء مِنه"[8]، وجمعُه: الأرذلون والأراذِل[9]، وأرذل العُمر: أردؤه وأسوأه[10]، وهو الذي تذهبُ فيه الصِّحةُ والقوَّة، ولا يَبقى إلّا الثِّقلُ وضَعفُ الجِسم والعَقل[11].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الله مَـنْ خلقنا وقـــدَّر آجالـنـا لعلمه سبحانه بأحوالنا

واللّه خلقكم أيُّها النّاس وأوجدكم مِنَ العدم دون أنْ تكونوا شيئًا، ثمَّ يقبضكم سبحانه بآجال مُختلِفة صِبيانًا أوْ شُبّانًا أوْ كهولًا، فمنكم مَنْ يبقى محتفظًا بقوَّة جسده وعقله حتَّى يموت، ومنكم مَنْ يصير إلى أردأ العمر وأخسِّه وهو الهَرمُ والشَّيخوخَةُ؛ لئلّا يعقل بعد عقله الأوَّل شيئًا، إنَّ اللّه عليمٌ بأحوال خلقه قادرٌ على كلِّ شيءٍ[12].

(1) الأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان: (ردد).
(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، المقاييس: (ردد).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (ردد).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، وابن منظور، اللسان: (ردد).
(5) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (ردد).
(6) الخليل، العين، والأزهري التهذيب، وابن فارس، المقاييس: (رذل).
(7) الراغب، المفردات: (رذل).
(8) ابن منظور، اللسان: (رذل).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رذل).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 251، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 30، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 140.
(11) ابن منظور، اللسان، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رذل).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 291، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 30، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 233.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة فصل الآية عمّا سبقها:

الأدلَّة الدالَّة على وحدانيَّة الله ﷻ متنوِّعة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ استئنافيَّة، ولفظ الجلالة: مبتدأ مرفوع على التَّعظيم، والجملة بعده خبر المبتدأ، وهو وخبره استئناف[1].

وقد حسَّن الفصل دون الوصل هاهنا انتقالُ سياق الآيات من الاستدلال بدقائق صُنع اللّه تعالى على وحدانيَّته إلى الاستدلال بتصرُّفه في الخَلْق على جهة القهر والعُلوِّ[2].

نكتة العدول عن أسلوب الآيتيْن السّابقتيْن:

الابتداء باسم الجلالة أظهر وأوضح في الدَّلالة على تحقيق الانفراد بالرُّبوبيَّة

ابتدئ قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ باسم الجلالة لأجل أنَّ العَلَم أظهر وأوضح في الدَّلالة على تحقيق الانفراد بالخَلْق والإنعام دون غيره من شركائهم، كما هو مقتضى الظّاهر، فناسبَ هذا دلالةَ الآية على انفراد اللّه بالخَلْق والإنعام، فكان الأليقُ استعمالَ العَلَم الظّاهر دون الإضمار؛ لأنَّ مقام الاستدلال يقتضي تكرير اسم المُستدَلِّ - بفتح الدّال - على إثبات صفاته تصريحًا واضحًا[3]، ثمَّ إنَّه لمّا كان سياق الآية الانتقال إلى نوعٍ آخر من الأدلَّة الدّالَّة على وحدانيَّة اللّه وهو الاستدلال بتصرُّف اللّه تعالى في خلقه على نحو القهر والاستعلاء بما لا يدَ لهم في تغيير شيء منه، ناسب ذلك أن يُبتَدَأ فيه بلفظ الجلال، بحيث يكون لكلِّ نوعٍ من الأدلَّة استئنافٌ بالاسم الجليل.

غرضُ تقديم المُسند إليه:

لاخالق إلّا الله، ولا مُدبِّر للأمر سواه

جِيء بالمسند الفعليِّ لإفادة تخصيص المُسند إليه بالمُسند

(1) محمود صافي، الجدول: 7/ 352، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 6/ 176، والدعاس، إعراب القرآن: 2/ 166.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.

الفعليِّ في الإثبات، نحو: أنا سعيتُ في حاجتك، فيفيد أنَّ اللّه - وحده - لا غيره هو الذي يخلق النّاس، ثمَّ يتوفّاهم أو يردُّهم إلى أرذل العُمر[1]، وفي هذا دلالةٌ ظاهرةٌ على انفراده ﷻ بالرُّبوبيِّة، التي مِن خصائصها الخَلْق والتَّدبير.

سرُّ إظهار اسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾:

جاء المُسند إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ الآية اسمًا ظاهرًا؛ لإفادة التَّعظيم، وتربية المهابة، فالمقام مقام بيان دلائل انفراده ﷻ، فهو وحده القادر على الخَلْق والإماتة والرَّدِّ إلى أرذل العُمر.

إظهار اسم الجلالة تنبيهٌ للمشركين على انفراد الله بالرُّبوبيَّة، وعلى وحدانيَّته

دلالة (ثُمَّ) في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾ للتَّفاوت والتَّراخي بين الخَلْق والإماتة، فليس الموتُ معاقِبًا للخلق، بل متراخيًا عنه، والتَّراخي في كلِّ شيءٍ بحسَبه[2].

ليس الموت معاقِبًا للخَلْق، بل متراخيًا عنه

سرُّ العدول في قوله ﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾:

جاء الفعل ﴿خَلَقَكُمۡ﴾ ماضيًا؛ لأنَّه خطابٌ إلى موجودٍ مخلوقٍ بالفِعل، أمّا التَّوفِّي، فهو أمرٌ لم يكن بعد بالنِّسبة للمُخاطَبين؛ فلا يُناسب أن يُخاطَب مَن توفّاه اللّه؛ لأنَّ الخطابَ يكون لموجود، فلمّا كان ذلك كذلك عُدِل عن الفعل الماضي إلى التَّعبير بالفعل المضارع الدّالِّ على أنَّه أمرٌ يكون ولم يقع بعد[3]، وعُدِل عن الاسم الظّاهر إلى الضَّمير للعلم به؛ لأنَّه قد تقدَّم التَّصريح به في أوَّل الآية، وللإشارة إلى أنَّ الذي يخلق والذي يتوفَّى واحد، ففيه التَّنبيه على انفراد اللّه بالخَلْق والإماتة.

كلُّ شيءٍ في عِلمه مقدور، ومِن حكمته مراعاة المُخاطَب فيما هو مسطور

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4217.
(3) الشِّهاب، حاشية على البيضاوي: 5/ 349.

نكتة العطف في ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾:

الوفاة تكون معجَّلةً أو مؤجَّلة

استُعمِل العطف في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾؛ لتقدير معطوفٍ عليه، دلَّت عليه الجملة ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾؛ أي: فمنكم من تُعجَّلُ وفاتُه ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمر[1]، وفي ذلك بيانٌ وحصرٌ لأقسام النّاس وأحوالهم في الخَلْق والوفاة إمّا بتعجيلها أو تأجيلها.

دلالة حرف الجرّ في ﴿وَمِنكُم﴾:

ومن دلائل قُدرة ذي الكمال والجلال المفاوتة في الأعمار والآجال

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم﴾ للتَّبعيض، حيث قسَّمت الآية الخَلْق قسمَين، فمنهم مَن يموت في إبّان الوفاة قبل ردِّه إلى أرذل العُمُر، وهي السِّنُّ المعتادة الغالبة؛ لأنَّ الوصول إلى أرذل العُمُر أمرٌ نادرٌ، ومِنهم مَن يَحيى حتَّى يصير إلى أرذل العُمُرِ[2].

غرضُ تقديم شبه الجملة ﴿وَمِنكُم﴾:

الرَّدُّ إلى أرذل العُمُر غير مُنحصِر بمدَّة

قُدِّم شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ كون الرَّدِّ إلى أرذل العُمُر لا ينحصر إلى مدَّةٍ معيَّنةٍ، وإنَّما هو بِحَسَبِ إنسانٍ إنْسانٍ، والمعنى: ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل عُمُرِه، ورُبَّ مَن يكون ابنَ خمسين سنةً وهو في أرذل عُمُره، ورُبَّ ابنِ مئةٍ أو تسعين ليس في أرذل عُمُره[3].

نكتة إيراد اسم الموصول في ﴿مَّن يُرَدُّ﴾:

مَن رُدَّ إلى أرذل عمره نُسِيَ بين أهله

﴿مَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ هي الموصولة التي في معنى (الَّذي) غير أنَّها أعمُّ منه من حيث صدقها في التَّعبير عن الذَّكر والأُنثى دون تخصيصٍ للذُّكور، وفي عمومه لطيفة.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 425.

(2) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 33، وابن عاشور، التحرير والتنوير 14/ 211.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 407.

دلالة التّعبير بجملة الصِّلة:

صلة الموصول هي قوله تعالى: ﴿يُرَدُّ﴾، وجيء بها للتّنصيص على ما تضمّنته من معاني التّأكيد على قضيّة الموت، وقضيّة التّغيُّر والحدوث، وأنَّ ذلك مركوزٌ في البشَر، أمّا اللّه سبحانه فهو المُنزَّه عن ذلك كلِّه.

قضية الموت مؤكَّدة لا ريب فيها

دلالة التّعبير بالمبني للمفعول ﴿يُرَدُّ﴾:

جاء التّعبير بالفعل المضارع؛ لأنَّ هذا الرَّدَّ لا يحصل مرَّةً واحدةً ولا دفعةً واحدةً، بل يحصل بتدريج وتجدُّد، فناسب هذا المعنى أن يكون الفعل فيه مضارعًا، وأمّا عن بنائه لِما لم يُسمَّ فاعله فإنّه قد أُسنِد الخَلْق والتّوفية إلى اللّه، ولم يسند إليه فعل الرَّدِّ إلى أرذله مع أنَّ الكلَّ من فعله ﷻ، فذلك لأجل التّأدُّب معه وتكرمةً لذاته سبحانه في عدم التّبعيض على نسبه إليه، وإن كنّا نعتقد ذلك[1].

ضعفُ القوَّة والعقل ردٌّ إلى الوراء، والضّعف يزيد بالإصعاد في مدارجه

بلاغة المجاز العقليّ في قوله ﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾:

في إضافة أرذل إلى العُمُر في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الموصوف بالأرذل حقيقةً هو حال الإنسان في عمره لا العُمُر نفسه، فأرذل العُمُر هو حال هَرَم البدَن وضعف العقل، وهو حال الإنسان في مُدَّة العُمُر، وأمّا نفس مُدَّة العُمُر، فهي هي لا توصَف برذالةٍ ولا شرفٍ[2]؛ وذلك لأنَّ الإنسان قيمتُه بحَسْبِ عُمُره، ففيه التّنبيه على قيمة العُمُر، وتأثير فترة أرذل العُمُر على الإنسان.

مُدَّة العُمُر لا توصف برذالةٍ ولا شرفٍ، وإنَّما حالُ الإنسان فيها التي توصَف

سرُّ تقديم ﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾ على ﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ قدَّم ذِكر المُتوَفَّى على الرَّدِّ إلى أرذل العُمُر مع تأخُّره

الوصول إلى أرذل العُمُر نادرٌ

(1) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 33.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.

عنه في الوجود؛ لأنَّ الوصول إلى أرذل العُمُر نادرٌ، وغالب النّاس يموتون قبل ذلك، فقدَّم الغالب على النّادر(1).

بلاغة الاستعارة في ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾:

نسيان العِلْم وعدم تقبُّل التَّعلُّم يوجبان الإقصارَ مِنَ الرَّغبة في طول الحياة

لام التَّعليل مستعملَةٌ في معنى الصَّيرورة والعاقبة تشبيهًا للصَّيرورة بالعلَّة استعارةً تشير إلى أنَّه لا غاية ولا فائدة للمَرء في طول العُمُر تعريضًا بحال أكثر النّاس؛ إذ يرغبون في طول الحياة، فكأنَّ طول الحياة الذي عاقبته الغالبة إلى نسيان العِلْم، وعدمه بعد كونه كالعلَّة في ذلك الذي هو نسيان العِلْم وعدم قبوله التَّعلُّمَ بعدما كان عالمًا؛ وتنبيهًا على وجوب الإقصار من تلك الرَّغبة لمّا كانت تلك العاقبة المعلومة كالعلّة فيها، واستعارة حرف العلَّة إلى معنى العاقبة مستعملَةٌ في الكلام البليغ في مقام التَّوبيخ أو التَّخطئة أو نحو ذلك(2).

دلالة (كي) في قوله: ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ﴾:

كي حرفٌ مصدريٌّ جاء في معنى الصَّيرورة

(كي) حرف مصدريٌّ، وهو مُستَعملٌ في معنى الصَّيرورة، والعاقبة لدخول لام العاقبة عليه، فالمعنى حينئذٍ: مِنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمُر ليصير غير قابل لعِلْم ما لم يعلمه لأنَّه يُبْطِئ قبولَه للعِلْم، ولا يُفهَم من ذلك عدم عِلمه بشيءٍ أبدًا، وإنَّما أراد الأغلب؛ فإنَّه إذا رُدَّ إلى أرذل العُمُر لا يذهب جميعُ عِلمه، وإنّما يذهب أكثره فقط، وربَّما لم يتصوَّر ما يتلقّاه ثمَّ يُسرع إليه النِّسيان، والإنسان يكره حالة انحطاط عِلْمه؛ لأنَّه يصير شبيهًا بالعجماوات(3).

معنى ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمَ﴾:

يضعف العِلْم بضعف آلة تلقِّيه

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ هي النّافية(4)،

(1) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 33، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 212.
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 187، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 335.

وقد أفادت نفي قبول العِلْم لضعف آلات تلقِّيه عند بُلوغ الكِبَر، والرَّدِّ إلى أرذل العُمُر.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمَ﴾:

حالة عدم العلم طارئةٌ تتجدَّد للإنسان من بعد علمٍ سابق

لمّا كان عدمُ العِلْم طارئًا على الإنسان بعدما كان عالِمًا، جاء الفعل ﴿يَعۡلَمَ﴾ مضارعًا منفيًّا لِيدُلَّ على أنَّ حالة عدم العِلْم هذه طارئةٌ حادثةٌ تتجدَّد للإنسان من بعد عِلْمٍ سابقٍ، وهذا ممَّا تساعد عليه صيغة المضارع دون غيره.

سرُّ إضمار فاعل ﴿يَعۡلَمَ﴾:

حالة عدم العِلْم قد تصيب أيَّ أحدٍ مِنَ النّاس

أُضمِر الفاعل في قوله تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ﴾ لإفادة العموم بغير تعيين، فتكون هذه الصَّيرورة إلى هذه الحال من عدم العِلْم بشيءٍ بعدما كان عالِمًا حالًا قد تصيب أيَّ أحدٍ مِنَ النّاس إلّا ما شاء اللّه بعِلْمه وقُدرَته أن يعجِّل له أجلَه.

غرضُ تنكير ﴿عِلۡمٖ﴾ و﴿شَيۡـًٔا﴾:

في أرذل العُمُر يُنتقَص العِلْمُ ولا يذهب جميعه

وتنكير ﴿عِلۡمٖ﴾ للدَّلالة على الجنس، والمعنى: لِكيلا يعلَم شيئًا بعد أن كان له جنسُ عِلْمٍ؛ فيزول منه قَبول العِلْم[1] وتنكير ﴿شَيۡـًٔا﴾؛ لإفادة التَّكثير، أي: لِكيلا يَعلَم بعد عِلْمٍ شيئًا كثيرًا مِنَ العِلْم.

سرُّ تقييد الفِعل في ﴿بَعۡدَ عِلۡمٖ﴾:

في الرَّدِّ إلى الجهل بعد العِلْم دلالةٌ على قُدرته تعالى على الإحياء بعد الإماتة

جاء التَّقييد بشبه الجملة ﴿بَعۡدَ عِلۡمٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ للإمعان في بيان حال الرَّذالة وخِسَّتها، وفيه تنبيهٌ على قُدرَة اللّه ﷻ على إحياء الإنسان بعد إماتته، كما قَدَر على نقله مِنَ العِلْم إلى الجهل بعدما كان عالمًا[2]، ويُضاف إلى ذلك أنَّه كنايةٌ عن النِّسيان، والنّاسي يعلَم الشَّيء ثمَّ ينساه، فيكون جاهلًا بعد عِلمٍ، وليس كمن لم يعلَم شيئًا من أوَّل الأمر[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 88.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 159.

في بعض الآيات إجمالٌ لما فُصِّل في آيات

بلاغة المتشابه اللَّفظيّ مع ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾، وقال في سورة الحجِّ: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج: 5]، للسّائل أن يسأل فيقول: لِمَ اختصَّت الآية التي في سورة الحجِّ بـ ﴿مِنۢ﴾ [الحج: 5] وخلَت منها الآية في سورة النَّحل؟ والجواب أن يُقالَ: ذُكِر في سورة النَّحل الجملة التي فصِّلت في سورة الحجِّ، وكانت لفظة ﴿بَعۡدَ﴾ لجملة الزَّمان المتأخِّر عن الشَّيء، قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ فأجمل ما فصَّله في السّورة الأُخرى، وبعده: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ أي: يعزب عنه في حال الهرم ما كان يعلَمه قبل مِن الحُكم ويستدركه من الآراء المصيبة، ويرتكبه من المذاهب القويمة، فكان هذا موضع إجمالٍ لا تفصيل معها، ولا تحديد، ولم يكن كذلك الأمر في سورة الحجِّ؛ لأنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الحج: 5]؛ يعني: أصلكم، وهو آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [الحج: 5] أولاده ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ [الحج: 5]، فذكر تفصيل الأحوال ومبادئها فقال: مِن كذا وكذا لابتداء كلِّ حالٍ ينتقل منه إلى غيره، فبنى ذِكر الحال التي ينتقل فيها من العِلْم إلى فقده على الأحوال التي تقدَّم ذِكرها، فكما حدَّد أوائلها بـ﴿مِنۢ﴾ [الحج: 5] كذلك حدَّد الحال الأخيرة المتنقِّلة عمّا قبلها بـ﴿مِنۢ﴾ [الحج: 5] فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ﴾ [الحج: 5]؛ أي: فقَدَ العِلْم من بعد أن كان عالِمًا، فباين الموضعَ الأوَّلَ لذلك[1]، فمجمل القول أنَّه لمّا أتى ما قبل آية النَّحل مُجملًا جاء بعده كذلك مُجملًا، وفي الحجِّ أتى ما قبلها مفصَّلًا

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 854.

من ابتدائه بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ [الحج: 5] إلى آخره، فجاء بعده كذلك مُفصَّلًا من ابتدائه مناسبًا لِما تقدَّمه من التَّفصيل[1].

وقد تكرَّرت لفظة (مِن) هذه في هذه الآية في ستَّة مواضع، الخمسة منها قبل قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج: 5] والواحدة بعدها، وكلُّها محرزةٌ معناها الذي جيء بها من أجله إلّا التي في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ [الحج: 5]، فاستدعاها سياق آية الحجِّ للتَّشاكل والتَّناسب في النَّظم، ولم يكن في آية النَّحل ما يستدعيها إذ لم يَرد ما يقتضيها، فورد كلٌّ على ما يجب ويناسب، ولا يمكن العكس[2].

دلالة موقع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾:

للإحاطة الكاملة والقُدرَة الشّامِلة

وقع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ مَوقع العلَّة لِما قبله مِن ذِكر أحوال النّاس في بلوغهم آجالهم التي كتب اللّه لهم، وأنَّهم مقهورون عليها لا يقدرون على تغيير شيءٍ منها، فعلَّل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: الذي له الإحاطة الكاملة ﴿عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾؛ أي: بالغ العِلْم شامل القُدرَة، فمهما أراد كان، ومهما أراد غيره ولم يرده هو أحاط به علمه، فسبَّب له بقدرته ما يمنعه[3]، ووقوع هذه الجملة الكريمة مَوقع التَّعليل مِن سابقتها هو ما حسَّن الفصل بينهما دون الوصل.

سرُّ توكيد خاتمة الآية بـ﴿إِنَّ﴾:

ما لا يُنكَر لا يُكَثَّر فيه المؤكِّدات

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ توكيد بـ﴿إِنَّ﴾ التي تفيد تأكيد مضمون الجملة الذي ينوب منابَ تكريرها مرَّتَيْن[4]، مع وجازة اللَّفظ وتكثير المعنى، وقد حسن تأكيد الجملة الكريمة بمؤكِّدٍ واحدٍ

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 230.
(2) الكرماني، ملاك التأويل: 2/ 302.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 206.
(4) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.

لأنَّ ما سبقها ليس ممّا ينكره أحد؛ إذ لم ينازع أحدٌ مِن المخاطَبين في كون اللّه تعالى هو الخالِق، وفي كون الموت حقًّا تذوقه كلُّ نَفْسٍ، وفي كون بعض النّاس يبلغون أرذل العُمُر، فلمّا لم يكن هذا ممّا يُنكَر لم تُكثَّر فيه المؤكِّدات، غير أنَّ مَن نظر إلى النّاس في تعاملهم مع الموت رأى أنَّهم يتعاملون معهم تعامل الشّاكِّ فيه، المُتردِّد في أمره؛ لذلك أُكِّدت الجملة بمؤكِّد واحد.

نكتة التَّذييل بـ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾:

عِلمُ الله وقُدرَتُه لا يتبدَّلان ولا يفنيان

لمّا ذكر ما يعرض في الهَرَم من ضَعف القوَّة والقُدرَة وانتفاء العِلْم، ذكر علمه وقُدرَته اللَّذين لا يتبدَّلان ولا يفنيان، ولمّا ذكر أيضًا ما نبَّهنا به على ذلك في إنشائنا مِن العدَم وإماتتنا، وتنقُّلنا في حال الحياة مِن حالة الجهل إلى حالة العِلْم، وذلك كلُّه دليلٌ على القُدرَة التّامة والعِلْم الشّامل؛ ولذلك حسُن لذلك التَّذييل بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ للتَّنبيه على أنَّ المقصود من الجملة الدَّلالة على عظيم قُدرَة اللّه وعظيم عِلْمه.

نكتة التَّرتيب في قوله: ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾:

بمقدار سَعة العِلْم يكون عِظَم القُدرَة

قدَّم اسم (العَلِيم) على (القَدِير) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّ القُدرَةَ تتعلَّق على وفق العِلْم، وبمقدار سَعة العِلْم يكون عِظَم القُدرَة[1].

نكتة تنكير ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾:

أحاط الله بكلِّ شيءٍ عِلْمًا وقُدرَةً بما لا تبلغه الأفهام أو تدركه الأوهام أو يتصوَّره الأنام

التَّنكير في الاسمين الجليلين الكريمين: ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ للتَّعظيم والتَّعميم، أمّا التَّعظيم فلأنَّ اللّه تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ عِلْمًا وقُدرَة، على نحو لا تكاد تبلغه الأفهام أو تدركه الأوهام أو يتصوَّره الأنام، وأمّا التَّعميم فلأنَّ القرائن الفكريَّة دلَّت على التَّعميم، إذ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.

ورَدَتْ صفاتٍ للّه ﷻ الذي دلَّ العقل، ودلَّت نصوصُ الشَّرع على أنَّ صفاته ﷻ عمومٌ وشمولٌ تامٌّ فيما هي له.

فائدة صيغ المبالغة فيهما:

عِلمه سبحانه باهرٌ، وسلطانه قاهر

جاءت أسماء اللّه الحسنى بصيغة المبالغة لتدُلَّ على شمول عِلْمه سبحانه لكلِّ ممكن سواء كان أم لم يكن بعد، وكذلك لما هو محالٌ لا يكون أبدًا، وعلى عموم قُدرَته لكلِّ ممكن؛ ففيه تنبيهٌ على كمال قُدرَته وتصرُّفه، وعجزهم وقهرهم تحت سلطانه؛ ليدركوا افتقارهم في كلِّ حالٍ إليه، فهم مفتقرون إلى نِعمه.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الموت والوفاة:

الموت قبض الرّوح والنَّفْس، والوفاة استكمال الرِّزق واستيعابه

الفرق بين الموت والوفاة أنَّ الموت هو قبض الرّوح والنَّفْس، والوفاة استكمال الرِّزق واستيعابه؛ فالموت لا يكون إلّا بعد الوفاة، فمَن أكملَ وأتمَّ اللّهُ عُمُرَه ورزقَه حتى الهواء والنَّفَس (أي: وفَّى اللّهُ له ذلك كلَّه)، أماته اللّهُ، فهذا يعني أنَّ الوفاةَ تكون قبل الموت مباشرة، ولكنَّها ملازمة له ومتَّصلة به من دون أن يكون بينهم مهلةٌ زمنيَّة[1].

أرذل العُمُر والتَّنكيس في الخَلْق:

أرذل العُمُر هو الحال التي يصل إليها الإنسانُ بعد تنكيسه مدَّةً من الزَّمان

النَّكس: قلبُ الشَّيء على رأسه، أو قَلْبُ الأعلى أسفل أو ما يقرب من الأسفل[2]، ومعنى قول اللّه ﷻ: ﴿نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ [يس: 68] نقلِّبُه فيه فلا يزال يتزايد ضعفُه وانتقاصُ بنيته وقواه عكس ما كان عليه بدء أمره، حتَّى يرجع في حالٍ شبيهةٍ بحال الصِّبا في ضعف جسدِه وقلَّة عقله وخُلوِّه من الفهم، كما يُنَكَّس السَّهمُ فيُجعَل أعلاه أسفلَه[3].

(1) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 761.
(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (نكس)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 54.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 25، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 79، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 177.

وأرذل العُمُر: أردؤه، وآخره الذي تفسد فيه الحواسُّ، وتنقص فيه القوى، ويختلُّ النُّطق والفِكر؛ فيكون حال الشَّخص فيه كحاله في وقت الطُّفوليَّة مِن ضعف العقل والقوَّة، وخصَّ بالرَّذيلة لأنَّها حالة لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد، بخلاف حال الطُّفولة فإنَّها حالة تتقدَّم فيها إلى القوَّة وإدراك الأشياء[1].

دلَّ ما سبقَ على أنَّ التَّنكيس يكون بابتداء تناقص القوى الحِسيَّة والمعنويَّة؛ مثل أن يضعفَ بصر الإنسان، ثمَّ يضعف سمعُه، ثمَّ تضعف ذاكرته؛ فيزداد الضَّعف شيئًا فشيئًا، وينزل الإنسان في المدارج التي أصعده الله فيها إلى أن تضمحِلَّ قواه الحِسيَّة؛ فيكون كالطِّفل فلا يَقْدِرُ على شيءٍ، والمعنويَّة؛ فلا يعلم شيئًا[2]؛ فمتى وصل إلى هذه الحال فقد رُدَّ إلى أرذل العُمُر، وهو لا يكون في بداية التَّنكيس بل هو في الحال التي يصل إليها الإنسانُ بعد تنكيسه مدَّةً من الزَّمان.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 407، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 562.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 161.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٧١﴾ [النحل: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأرزاق قِسْمَةُ الخلّاق

لمّا ذَكر اللّه سبحانه أطوار العُمُر التي يمرُّ بها كلُّ إنسان، والمفاوتة في الأعمار الموجبة للمُسابقة إلى الاعتبار لأولي الأبصار؛ ذَكر سبحانه حال المفاوتة في الرِّزق الذي يظنُّ الإنسان أنَّ له قُدرَةً على تحصيله؛ لِما فيه من دلائل قُدرَة الإله العظيم؛ فلا يمكن لأحدٍ تبديل ما قُدِّر له من رِزق ولا تحويله بوجه من الوجوه؛ وقد يكون الإنسان مُفكِّرًا عالِمًا عاقلًا، ولكنَّه يفتقر إلى أنواعٍ أخرى من الرِّزق كالقوَّة والصِّحَّة، وقد يكون جاهلًا ساذجًا، وهو قويٌّ صحيح؛ وكذا تكون المفاوتة في أنواعٍ أخرى كثيرةٍ من الرِّزق؛ ابتلاءً، وامتحانًا، واستخراجًا لشكر الشّاكرين، وصبر الصّابرين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾: "المَلك والمُلك والمِلك: احتواءُ الشَّيء والقُدرةُ على الاستبداد به"[2]، وجذره يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء وصحَّة[3]، والمَلْك: ما ملَكَت اليدُ من عطيَّة اللّه، أي: مِن المال والنِّعم والعبيد والإماء وغيرهم. "والمَملوكُ: العَبْدُ"[4]، ويختصُّ في التَّعارف

(1) ابن عطية، التفسير المحرر: 13/ 499، والرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 242، وابن عادل، اللباب: 12/ 116، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 206 - 207.

(2) ابن سيده، المحكم: (ملك).

(3) ابن فارس، المقاييس: (ملك).

(4) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، وابن منظور، اللسان: (ملك).

بالرَّقيق من بين الأملاك[1]. "والمِلْكة تختصُّ بملك العَبيد"[2]، ويُقالُ: هذا مِلْك يميني، ومَلْك يميني (والفتح أفصَح)، أو هذا الشَّيء ملكَته يميني؛ أي: هو في ملكي وحوزتي وتصرُّفي، واشتُهر مِلْكُ اليمين في الرَّقيق من النِّساء والرِّجال[3]، واليمين: الجارحة، وهي اليد اليمنى، وضدُّ اليسار[4]، وخُصَّ ملكُ العبيد والإماء في القرآن باليمين[5]؛ لأنَّ يمينَ الرَّجل مظهرُ قوَّته، وبها يمسك السَّيف ويقاتل، وبها يكون إمضاء البيع وإنفاذه؛ فعُبِّر باليمين لإفادة السُّلطان[6].

2) ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: "الجُحودُ: الإنكار مع العِلْم"[7]، وهو نَفي ما في القَلْبِ إثباته، وإثباتُ ما في القَلْبِ نفيه[8]. يُقالُ: جحَده حقَّه وبحقِّه جَحْدًا وجحودًا[9]، والجذر أصلٌ يدلُّ على قلَّة الخير[10]؛ فيُقال: رجلٌ جَحِدٌ، أي: قليل الخير، وعامٌ جحِدٌ، أي: قليل المطر، والمعنى المحوريُّ للجذر: جفاف الباطن ويبسه على ما يتجمَّع فيه من قوًى فلا تنبسط إلى ما يُتوَقَّع منها، كالأرض الجَحْدة يُتوَقَّع أن تنبت ككلِّ أرض لكن باطنها يَبِسَ خيرُه وجمُد، ومن ذلك الجحود؛ فإنَّ الإنسان إذا جحد، أنكرَ مع عِلم قلبه حقِّيَّة ما ينكره، وهذا جفاف باطنه، فلا يتأثر ولا يستجيب لما يطرأ عليه من عِلمٍ أو خير، ومن ذلك جحود النِّعمة: كُفرانها[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

والله فضَّل بعضكم على بعضٍ أيُّها النّاس فيما رزقكم به في هذه الدُّنيا من الجاه والمال والأهل والولد، فما الَّذين فضِّلوا منكم بكثرة الرِّزق من الأغنياء والسّادة بجاعلي

(1) الزبيدي، التاج: (ملك).
(2) الراغب، المفردات: (ملك).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، اللسان، والزبيدي، التاج: (ملك)، وحسن عز الدين الجمل، معجم وتفسير لغوي: (يمن).
(4) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (يمن).
(5) الراغب، المفردات: (يمن).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 215، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/ 1644.
(7) الجوهري، الصحاح: (جحد).
(8) الراغب، المفردات: (جحد).
(9) الجوهري، الصحاح: (جحد).
(10) ابن فارس، المقاييس: (جحد).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جحد).

ما رزقناهم شركةً بينهم وبين مماليكهم من العبيد بحيث يساوونهم في التَّصرُّف فيها ويشاركونهم في تدبيرها، فكيف يرضون للّٰه سبحانه شركاء في ملكه وسلطانه، وهم لا يرضون لأنفسهم ذلك؟ أفبنعمة اللّٰه عليهم في خلقهم ورزقهم يكفرون؟[1].

لـلـتَّـفـاوت بين النّاس في الأرزاق حِكمةٌ لا يعلمها سوى الخلّاق

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة عطف الآية على سابقتها:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾، وقد حسَّن الوصل بين الجملتين الكريمتين ما بينهما من المناسبة من حيث الاستدلال على أنَّ التَّصرُّف القاهر للّٰه تعالى وهذه المناسبة هي التي حسَّنت عطف أخراهما على أولاهما، ذلك أنَّه أعقب الاستدلال بالإحياء والإماتة - وما بينهما من هرم - بالاستدلال بالرِّزق[2].

التَّصرُّف القاهر في رزق العباد للّٰه تعالى وحده

نكتة التّذكير بنعمة التّفاضل في الرّزق بعد الإحياء والإماتة:

لمّا كان الرِّزق حاصلًا لكلِّ موجود، بُنِي الاستدلال على التَّفاوت فيه، ولمّا ذَكر المفاوتة في الأعمار، المنادية بإبطال الطَّبائع الموجبة للمسابقة إلى الاعتبار لأولي الأبصار، للخوف كلَّ لحظة من مصيبة الموت، ثنَّى بالمفاوتة في الأرزاق فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي: الَّذي له الأمر كلُّه ﴿فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ﴾ أيُّها النّاس ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[3].

مفاوتة الـرِّزق دلائـل قُـدرَة، وعِظةٌ وعِبرة

ووجه الاستدلال به على التَّصرُّف القاهر أنَّ الرِّزق حاصلٌ لجميع الخَلْق، وأنَّ تفاضل النّاس فيه غير جارٍ على رغباتهم ولا على استحقاقهم؛ فقد تجد أكيَسَ النّاس وأجوَدَهم عقلًا وفهمًا مقتَّرًا

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 292، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 31، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 233.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 213.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 206.

عليه في الرِّزق، وبضدِّه ترى أجهل النّاس وأقلَّهم تدبيرًا موسَّعًا عليه في الرِّزق، وكلا الرَّجلين قد حصل له ما حصل قهرًا عليه، فالْمُقَتَّر عليه لا يدري أسباب التَّقتير، والموسَّع عليه لا يدري أسباب تيسير رزقه؛ ذلك لأنَّ الأسباب كثيرةٌ متوالدةٌ ومتسلسلةٌ ومتوغِّلةٌ في الخفاء حتَّى يُظَنَّ أنَّ أسبابَ الأمرين مفقودة وما هي بمفقودةٍ ولكنَّها غير محاطٍ بها[1].

غرضُ تقديم المسند إليه:

مفاوتة الرِّزق حكمةٌ من الحقِّ

أُسنِد التَّفضيل في الرِّزق إلى الله تعالى لأنَّ أسبابه خارجةٌ عن إحاطة عقول البشَر[2]، فتقديم اسم الله تعالى للتَّخصيص؛ أي: الله تعالى وحده فضَّل بعضكم على بعضٍ دون غيره بأنْ جعلكم متفاوتين في الرِّزق[3].

دلالة الظَّرفيَّة في قوله ﴿فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾:

في كلِّ تفضُّل وإمدادٍ، تفاضلٌ بين العباد

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ شبه جملة، جعل الرِّزق كأنَّه صار ظرفًا للتَّفضيل؛ ففي كلِّ نِعمةٍ من رِزق الله تفضيلٌ لبعض النّاس على بعضٍ.

وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الرَّزق محلُّ تفضيلٍ بين النّاس وأنَّهم في الرِّزق مُتفاوتون، وهذا التَّفضيل ليس مقصورًا على المال والرِّزق، بل يكون أيضًا في الخَلْق، والخُلُق، والعقل، والصِّحَّة، والسُّقم، والحُسن، والقبح، والعِلْم، والجهل، وغير ذلك، فهم متفاوتون في ذلك كلِّه، وهذا ممّا اقتضته الحِكمة الإلهيَّة، والقُدرَة[4].

نوع (اللّام) ودلالتها في ﴿ٱلرِّزۡقِۚ﴾:

الــرِّزق محلّ المفاضلة وموطن التَّنازع والمناضلة

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ هي التي للجنس، وهي لبيان الحقيقة والماهيَّة، فمعنى الآية:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 213.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 213.
(3) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 66.
(4) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 5/ 225.

تفضيل اللّه بعض النّاس على بعضٍ كائنٌ فيما هو رِزق، وفي ذلك إشارةٌ إلى تنوُّع صور الرِّزق الحاصل فيه التَّفضيل.

فائدة الجملة الخبريّة ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ﴾:

جملة ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ مقدِّمةٌ للدَّليل، ومِنَّةٌ من المِنَن؛ لأنَّ التَّفضيل في الرِّزق يقتضي الإنعام بأصل الرِّزق[1].

بلاغة الإدماج في قوله ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ إدماجٌ جاء على وجه التَّمثيل؛ لبيان ضلال أهل الشِّرك الَّذين جعلوا المخلوقات شركاء مع اللّه سبحانه في الخَلْق؛ لفساد تفكيرهم، وانطماس بصيرتهم؛ فمثَّل حال هذا الفساد العميق والضَّلال البعيد بحالة أهل النِّعمة المرزوقين، المفضَّل بعضهم على بعض؛ لأنَّهم لا يقبلون مشاركة عبيدهم معهم في فضل رِزقهم فكيف يسوّون اللّه بعبيده في صفته العظمى وهي الإلهيَّة[2]؟!

أنعم سبحانه بالإيجاد، وفاضَلَ في الرزق والإمداد

المفاوتة في الإنعام كاشفةٌ للزّيغ والأوهام

بلاغة التّشبيه الضِّمنيّ التَّمثيليّ في قوله ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾:

في قوله ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ تشبيهٌ ضمنيٌّ تمثيليٌّ؛ حيث شبَّه سبحانه حال من جعل معه شريكًا بحالة المُنعَم عليهم الَّذين لا يشركون عبيدهم معهم في فضل رِزقهم، والغرض من التَّمثيل تشنيع مقالتهم واستحالة صدقها بحسب العُرف، ثمَّ زيادة التَّشنيع بأنَّهم رضوا للّه ما لا يرضونه لأنفسهم، فبئس ما يفعلون[3]!

يرضى المشركون بالإشراك ولا يرضون بمشاركة ما وُهِبوا من الأملاك

دلالةُ (ما) في قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ﴾:

في قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ﴾ (ما) نافية[4] حجازيَّة[5] تنفي استطاعة

لا معطي إلّا الله، ولا مفاضل في الرِّزق سواه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 213.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 214.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 214.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 214.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 215.

أيٍّ من الموالي المُنعَم عليهم ردَّ أيٍّ ممّا رزقهم اللّه على مماليكهم الَّذي أجراه سبحانه على أيديهم بعزَّته وقُدرَته[1].

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

غفلوا عن شكر نعمته، واستحلّوا الخوض في جوالب نقمته

جيء باسم الموصول في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ لقصد الدَّلالة على معانٍ تتضمَّنها صلة الموصول، ومن هذه المعاني التي ينضح بها السِّياق: التَّبكيت؛ لأنَّ القوم الَّذين فضَّلهم اللّه تعالى بالرِّزق - وهم ساعتئذٍ أعيان مكَّة ووُجهاؤها - لا يقبلون على أنفسهم أن يشاركهم عبيدهم في أرزاقهم، فكيف يقبلون للّه تعالى ما لم يقبلوه لأنفسهم؟! ومن هذه المعاني تنبيه الكافرين على ضلالهم، ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير باسم الموصول هاهنا قد أريد به الجنس فلا تكون صلته معهودة، فليس المقصود بذلك أناسًا معلومين معيَّنين، بل المقصود: الجنس، فيكون هنا الاسم الموصول كـ(أل) الجنسيَّة، إلّا أنَّ (أل) تدخل على المُفردات، وهذا يدخل على الجُمَل[2].

سرُّ التعبير بقوله: ﴿فُضِّلُواْ﴾:

الإنعام منه معلوم ﷻ

بُنِي الفعل ﴿فُضِّلُواْ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ للعِلْم به؛ كونه معلومًا للمُخاطَب[3]، ليلفت نظر المُخاطَبين إلى أنَّ ما هم فيه من النِّعمة ليس لهم يدٌ فيه، بل هو محض تفضُّلٍ من اللّه تعالى عليهم، فكان الأولى بهم صرف عبادتهم إلى مَن أولاهم هذه النِّعم وفضَّلهم بها على غيرهم، لكنَّهم صرفوا شكرهم لأصنامٍ لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تغني ولا تشفع!

غرض حذف مُتعلِّق ﴿فُضِّلُواْ﴾:

اختصار تجنُّبًا للتَّكْرار

حُذف متعلِّق الفعل ﴿فُضِّلُواْ﴾ وهو (فِي الرِّزْقِ) لتقدُّمِ ذِكره في

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 112.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 122.
(3) السامرائي، معاني النحو: 2/ 71.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ ولعِلْم المُخاطَب به، ولاختصار اللَّفظ والبُعد عن الحشو والإطالة.

دلالة الباء في قوله ﴿بِرَآدِّي﴾:

الباء في قوله: ﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ﴾ للإلصاق، وهو معنى الباء الرَّئيس[1]، وهو إلصاقٌ منفيٌّ لإفادة تمام التَّمايز والبُعد، أي إنَّهم أبعد ما يكون عن مقارفة ذلك الَّذي رضوا مثله لله ربِّ العالمين! وهو هنا حرف جرٍّ زائد[2]. تُزاد في الخبر المنفيِّ بـ (ما) و(ليس)[3]، وغرض زيادتها هو التَّوكيد الَّذي يقطع شكَّ المتشكِّكين الَّذين قد يبادرون إلى إنكار هذه الحقيقة المذكورة في الآية عنادًا واستكبارًا؛ فجاء توكيد الخبر قاطعًا عليهم هذه السُّبل.

وما أبعدهم عن الَّذي رضوا مثله لله ربِّهم!

دلالة التَّعبير بـ ﴿بِرَآدِّي﴾ مادَّةً وصيغةً:

أصلُ الرَّدِّ: رجعُ الشَّيء وصرفه بذاته أو بحالةٍ من أحواله عمّا هو عليه[4]، واستخدام صيغة اسم الفاعل للدَّلالة على ثبوت الصِّفة ورسوخها في الموصوف، وهي هنا مسبوقة بنفي للدَّلالة على بُعد اتِّصاف الموصوف بها، فبَينه وبينها أمَدٌ بعيد، أمّا من حيث الصَّوت فإنَّ تشديد الدّال النّاتج عن إدغام الدّالَين وما نتج عنه من مدِّ الألف قبلها مدًّا لازمًا - جعل اللَّفظة ﴿بِرَآدِّي﴾ مصحوبة بنوع ثقلٍ في النُّطق، وهو ما يوافق ثقل الرَّدِّ (ردِّ الَّذين فُضِّلوا ما رُزِقوه على مملوكيهم).

امتلأت نفوسهم بالكِبْرِ والغُرور فواجهوا المساواة بالإعراض والنُّفور

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿رِزۡقِهِمۡ﴾:

أُضيف الرِّزق إلى ضمائر المعنيِّين بالكلام في قوله تعالى: ﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ﴾ للدَّلالة على المِلك.

ما أشدَّ جُحودهم، وما أقبح معاييرهم!

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 214.
(4) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ردد).

الأخصُّ في الثُّبوت، والأعمُّ في النَّفي

غرض الحذف في الآية الكريمة:

في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ﴾ إيجاز بالحذف، حيث حذف مُتعلِّق الفعل ﴿فُضِّلُواْ﴾ وتقديره: (في الرِّزق) لتقدُّمه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾، فلا حاجة لتكراره.

ثمَّ حذف المضاف المقدَّر قبل قوله تعالى: ﴿رِزۡقِهِمۡ﴾، والتَّقدير: (فَضْل رزقِهم)، لتكرار لفظ الفضل ثلاث مرّات، ولأنَّ فضل الرِّزق أخصُّ من الرِّزق، فاستعمل الأخصُّ في الثُّبوت، والأعمُّ في النَّفي؛ لأنَّ نفي الأعمَّ يستلزم نفيَ الأخصِّ[1]؛ ومن هنا تظهر فائدة الإيجاز في التَّعبير عن كثير المعاني بقليل المباني.

جاءت (عَلَى) لتفيد الاستعلاء

سرُّ التَّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ مُستخدَمة في معنى الاستعلاء المجازيِّ، وهو امتدادٌ لما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ فقد صوَّرت الَّذين فضَّلهم اللّٰه تعالى في الرِّزق وكأنَّهم على شَرَفٍ ينظرون منه إلى المملوكين الضُّعفاء الفقراء وهم أدنى منهم مكانًا ومكانة.

عموم (ما) يشمل العبيد والإماء على حدٍّ سواء

دلالة (ما) في ﴿مَا مَلَكَتۡ﴾ ودلالة الجملة بعدها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ هي الموصولة، وأُريدَ بها هنا مُطلَق ما ملكته اليمين من الأرزاق، وهذا الإطلاق مُستفاد من معنى العموم في (ما) التي تقع لذوات ما لا يعقل، ولصفات العقلاء، وهي أوسع استعمالًا من (مَنْ) وأكثر إبهامًا منها، ويشترك فيها المُذكَّر والمُؤنَّث والمُفرد والمُثنَّى والجمع[2]؛ وجملة الصِّلة ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ تدلُّ على أنَّ الموالي والمماليك اللّٰه رازقهم جميعًا فهُم في

(1) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 34.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 130.

رزقه سَواءٌ، فلا يُظَنُّ أنَّ الموالي يردّون رِزقهم على مماليكهم مِن عند أنفسهم، بل ذلك رزق اللّه أجراه على أيدي الموالي للمماليك، والمقصود منه بيان أنَّ الرَّزّاق هو اللّه ﷻ لجميع خَلْقِهِ، وأنَّ الموالي والمماليك في الرِّزق سواء، وأنَّ المالك لا يرزق المملوك، بل الرّازق للمماليك والمالك هو اللّه ﷻ[1].

دلالة التَّعبير بمِلك اليمين:

أُسنِد المِلْك إلى اليمين في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ الآية لإبراز معاني السُّلطان، فإنَّ يمين الرَّجل مَظهرُ قوَّته، وبها تكون المبايعة، فإسناد المِلْك إلى اليمين لأنَّها سببه.

هو وحده صاحب السُّلطان، وله يكون الخضوع والإذعان

بلاغة المجاز العقلي في ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾:

"إسناد المِلْك إلى اليمين مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ اليمين سببٌ وهميٌّ للمِلْكِ؛ لأنَّ سبب المِلْك إمّا أسْرٌ، وهو أثرٌ للقتال بالسَّيف الَّذي تمسكه اليد اليمنى، وإمّا شراءٌ؛ ودفع الثَّمن يكون باليد اليمنى عُرفًا، فهي سبب وهميٌّ ناشئٌ عن العادة"[2].

اليمين سببٌ وهميٌّ للملك

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ فاءُ الجواب؛ فكأنَّه قيل: فما الَّذين فُضِّلوا برادِّي رِزقهم على ما ملكت أيمانهم، فيستوون في الرِّزق، على أنَّه ردٌّ وإنكار على المشركين، فإنَّهم يشركون باللّه بعض مخلوقاته في الألوهيَّةِ، ولا يرضون أن يشاركهم عبيدهم، فيما أنعم اللّه عليهم، فيساووهم فيه[3].

تختلف الحالات، والرّزّاق ربُّ البريّات

نكتة التَّعبير بالظَّرفيّة ﴿فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾:

(فِي) في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ بما تفيده من معنى

الفضل لله في الابتداء والانتهاء؛ وإرادته نافذة في السَّلْبِ والعَطاء

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 88.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 215.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 234.

الظَّرفيَّة قد صوَّرت رزق اللّه تعالى بوعاءٍ كبير وسِع النّاس جميعًا: أغنياءهم وفقراءهم، سادتهم ومماليكهم، فمهما أعطى السّادة مملوكيهم شيئًا فإنَّما يعطونهم مِن رزق اللّه الَّذي آتاهم، فالفضل كلُّه للّه تعالى، وثمَّ ملمح آخر، وهو أنَّ التَّعبير بالظَّرفيَّة أفاد أنَّ الجميع متساوون في المخلوقيَّة والبشريَّة والعبوديَّة[1].

غرضُ تقديم شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾:

المفاضلة في أشياء كثيرة، والرِّزق هنا هو المخصوص

فَصَلَ شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ بين المبتدأ والخبر، فقُدِّم على الخبر لأجل التَّخصيص، إذ إنَّهم سواء في البشريَّة والمخلوقيَّة والعبوديَّة القهريَّة للّه تعالى، غير أنَّ بعضهم مفضَّل على بعض في الرِّزق؛ (فكيف تجعلون بعض الرِّزق الَّذي رزقكم اللّه سبحانه له، وبعضَه لأصنامكم، فتشركون بين اللّه وبين الأصنام، وأنتم لا تَرْضَوْن لأنفسكم فيمن هو مثلكم بالشَّركة)[2].

غرض تنكير ﴿سَوَآءٌۚ﴾:

تنكير للإطلاق منبئ عن مدى العماية والانغلاق

جاءت كلمة ﴿سَوَآءٌۚ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ لتفيد الإطلاق وعدم الحصر، ليصحَّ إطلاقها على أدنى ما يقال له ﴿سَوَآءٌۚ﴾؛ أي: أيَّ نوع من المساواة دون تحديدٍ أو تقييد.

دلالة الموقع النَّحويّ لقوله ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾:

لا يُشاطر السّادة مملوكيهم في ممتلكاتهم، ويرضون للجليل ما لم يرضوه لذاتهم

الفاء عاطفةٌ للدَّلالة على أنَّ التَّساوي مُترتِّب على التَّرادِّ، أي لا يردّون عليهم ردًّا مستتبعًا للتِّساوي وإنَّما يردّون عليهم شيئًا يسيرًا، وفيه تفريع، أي: لا يشاطرون عبيدهم رزقهم فيستووا فيه، أي لا يقع ذلك فيقع هذا[3].

دلالة موقع قوله: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

فُصل قوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ عن سابقه كونه

(1) مكي بن أبي طالب، الهداية: 6/ 4042.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 212.
(3) ابن عاشور، التحرير: 14/ 215.

استفهامًا قُصِدَ به التَّشنيع والإنكار عليهم، فهو إنشاء، أمّا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ فهو خبر، وهذا هو ما أوجب الفصل بين الجملتين الكريمتين لِما بينهما من كمال الانقطاع[1]؛ أي: التَّباين خبرًا وإنشاءً.

توبيخ وتشنيع؛ لشناعة الصَّنيع

معنى الهمزة والفاء في ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ﴾:

(الهمزة) في قوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾، للاستفهام الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ، حيث أشركوا مع الَّذي أنعم عليهم آلهةً لا حظَّ لها في الإنعام[2]، و(الفاء) عاطفةٌ على مُقدَّر؛ أي: أيشركون به فيجحدون نعمته[3]؟ وجحودٌ للنِّعمة يستحقُّ التَّوبيخ والاستنكار في مقابل إنكارهم، وجحدهم لهذه الحجج البالغة؛ فإنَّه لا نِعمة على العالِم أجلُّ من إقامة الحجج وإيضاح السُّبل بإرسال الرُّسل[4].

ارتكبوا عظيم الآثام؛ فاستحقّوا التوبيخ والإذمام

غرض حذف الجملة وتقديرها في ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ﴾:

الهمزة داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتَّقدير: أبعد عِلمهم بأنَّ الرّازق هو اللّٰه تعالى يشركون به، فيجحدون نعمته؟ فاللّٰه تعالى يدعو عباده بهذه الآية إلى التَّوحيد، ونفي الشِّرك، حتَّى يتخلَّصوا من الشِّرك والظُّلمات، ويتشرَّفوا بالتَّوحيد والأنوار العاليات[5].

يدعو الله عباده لترك الشِّرك والظُّلمات، والتَّشرُّف بالتَّوحيد والأنوار العاليات

دلالة الباء في قوله: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾:

جاءت الباء في قوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ بمعنى الإلصاق، وهو اللّازمُ لمعناها[6].

كفروا بشتَّى النِّعم؛ فاستوجبوا العقوبات والنِّقم

---

(1) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 164.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 214.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 336، ومحمود صافي، الجدول: 7/ 354.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/ 389، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 214، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 336.
(5) الهرري، الحدائق: 15/ 301.
(6) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474.

وقد أفادت أنَّ كفرهم وجحودهم ملاصق لكلِّ نعمةٍ أنعمَ اللّه تعالى بها عليهم، وفي هذا تصويرٌ لشناعة فعلهم.

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾:

الإنعام بيديه سبحانه، وكلُّ فضلٍ يُنسب إليه

في الإضافة تعظيمٌ للنِّعمة؛ لأنَّ المضاف اكتسب شرفه ومكانته من المضاف إليه، وكذلك ممّا يبشّع الجحود والكفران بها.

نكتة الإفراد ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾:

في كلِّ نِعمةٍ دليلٌ على قُدرَته، وجميل إفضاله ورحمته

في قوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ جاءت كلمة (نِعمة) نكرةً مع أنَّ نِعَم اللّه تعالى على المُخاطَبينَ كثيرة لا تُحصى، ولكن لمّا كان المُراد تنزيل نِعَم اللّه سبحانه منزلة النِّعمة الواحدة في أنَّ مَن كفر بواحدة منها فكأنَّما كفر بها جميعًا، عُبِّر عن النِّعم التي ليس لها حدٌّ، ولا يحصيها عدٌّ بلفظ المُفرد (نِعمة)، للدَّلالة على وجوب شكر نِعَم اللّه تعالى كلِّها، والحذر من كفر أيِّ واحدةٍ منها، ثمَّ ملمح آخر، وهو أنَّ الإفراد مُشعرٌ بأنَّهم خَصّوا كلَّ نِعمةٍ بنوعِ جحودٍ خاصٍّ بها، فكأنَّهم تفنَّنوا في هذا الجحود لمُرودهم عليه!

غرضُ تقديم ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾:

الجحود بالإنعام هو موطن الاتِّهام

قُدِّمت شبه الجملة ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ على الفعل ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ للاهتمام بالمُتقدِّم؛ لأنَّ محلَّ الإنكار ليس مجرَّد الجحود، بل الجحود بنعمة اللّه، فتسلَّط الاستفهام الإنكاريُّ والتَّوبيخ على شبه الجملة ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الجحود بمجرَّده ليس موجبًا للتَّوبيخ، ففي تقديم ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ تقريرٌ للتَّوبيخ، وإنكارٌ لفعلهم؛ أي: أبَعْد علمهم بأنَّ اللّه هو الرَّزّاق، ووضوح دلائل ذلك بنعمة اللّه خاصَّة يكفرون جاحدين لها[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَجۡحَدُونَ﴾:

يدلُّ التَّعبير بالفعل ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ على التَّجدُّد والاستمرار، وهو

---

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 67.

هنا دالٌّ على تجدُّد كفرهم وجحودهم، وفيه دليلٌ أيضًا على تجدُّد النِّعمة، فكلَّما جدَّت لهم نِعمةٌ ألصقوا بها كفرهم وجحودهم! فبلغوا في سوء الأدب الغاية، وبلغوا في الكفر النِّهاية.

بلغ الكافرون في سوء أدبهم مع ربِّهم الغاية، فجحدوا كلَّ نِعمةٍ وآية

بلاغة التَّضمين في ﴿يَجۡحَدُونَ﴾:

ضُمِّن الجحود في قوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ معنى الكفر؛ لأنَّ الجُحود لا يتعدَّى بالباء، فضُمِّن الجحود معنى الكفر لكونه بمعناه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ [النمل: 14]، وناسَب تضمين الجُحود معنى الكفر؛ لأنَّ النِّعمة إذا لم تُشكر، كان هذا كفرًا بها، فالمناسب عند عدم شكر النِّعمة استعمال (الكُفر)، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: 7] فسمَّى عدم شكر النِّعمة كفرًا[1]، فالتَّضمين أفاد إيجازًا بالتَّعبير عن توبيخ مَن كفَر بالنِّعمة، ومن جحدها بعبارةٍ واحدةٍ وجيزةٍ.

اشتدَّ النُّكران فبلَغ حدَّ الكفران

توجيه القراءات في ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ وأثرها:

اختلف القرّاء في قراءة قوله تعالى: ﴿يَجۡحَدُونَ﴾، فقرأ أبو بكر عن عاصم، ورَوَيس عن يعقوب بتاء الخِطاب: ﴿تَجۡحَدُونَ﴾ مراعاةً للخطاب في قوله تعالى: ﴿بَعۡضَكُمۡ﴾، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ مراعاةً لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾[2]، فمَن قرأ بالياء؛ فلأنَّه يُراد به غير المسلمين، والمسلمون لا يخاطَبون بجحدهم نِعمة الله تعالى، ومَن قرأ بالتّاء فتأويله: قل لهم: أفَبنعمَة الله بهذه الأشياء التي تقدَّم اقتصاصها تجحدون؟[3]

لا يُخاطَب المؤمنون بجحدهم النِّعم والآلاء، فلا يكونون والكافرين سواء

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 244، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 234، وأبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 127.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 304، والسمين الحلبي، الدرّ المصون: 7/ 264، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 407.
(3) أبو علي الفارسي، الحجة في القراءات: 3/ 378.

وعلى قراءة الجمهور بالياء التفاتٌ مِن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ﴾ إلى الغيبة في ﴿يَجۡحَدُونَ﴾، ونكتته أنَّهم لمّا كان المقصود من الاستدلال: المشركين، فكانوا موضع التَّوبيخ ناسب أن يُعرِض عن خطابهم وينالهم المقصود من التَّوبيخ بالتَّعريض، وعلى قراءة أبي بكر ورويس بالتّاء على مقتضى الظّاهر ويكون الاستفهام مُستعمَلًا في التَّحذير[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّفع والتَّفضيل:

الرَّفعُ خلافُ الخفض، والتَّفضيلُ من الزِّيادة

الرّاء والفاء والعين أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلاف الوضع؛ فالرَّفع: هو نقيض الخفض في كلِّ شيءٍ[2]، أمّا الفاء والضّاد واللّام فأصلٌ صحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ[3].

والفرق بين التَّفضيل والرَّفع أنَّ التَّفضيل لا يعني انحطاط ووضاعة المفضَّل عليه بالنِّسبة إلى المفضَّل، أمّا رفع شيءٍ عن آخر فيقتضي انحطاط وانخفاض الآخر عن هذا الشَّيء، والمفضَّل في الرِّزق قد يكون مُشرِكًا أو كافرًا، والمفضَّل عليه في الرِّزق قد يكون مؤمنًا موحِّدًا؛ فحينئذٍ يكون المفضَّل في أحطِّ الأماكن، ويكون المفضَّل عليه فيما أراده اللّهُ له من الرِّفعة والدَّرجات والمنزلة العالية؛ فدلَّ ما سبَق على سِرِّ إيثار لفظ التَّفضيل دون الرَّفع.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 216.

(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، المقاييس، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (رفع).

(3) ابن فارس، المقاييس: (فضل).

المحتويات

